

۱

مجله اسلامی

محمد متولی الشعراوی



ادارة الكتب والمكتبات

● ماکیت : اشرف حسین

محتويات الكتاب

صفحة	
٣	- تقديم الكتاب
٥	- الفصل الأول : ما هي المعجزة ؟
٢١	- الفصل الثاني : معجزة القرآن وكيف تختلف
٣٣	- الفصل الثالث : المعجزة اللغوية في القرآن الكريم
٤٥	- الفصل الرابع : البلاغة في القرآن الكريم
٦٣	- الفصل الخامس : التناقض في القرآن الكريم
٨٣	- الفصل السادس : القرآن وقوانين الكون
١٠١	- الفصل السابع : القرآن مزق حواجز الغيب
١٢٥	- الفصل الثامن : سبحان الله

رقم الإيداع : ٩٣ / ٣٣٢١

الترقيم الدولي / I. S. B. N.

977 - 08 - 0175 - 5

محتويات الكتاب

٣	بسم الله الرحمن الرحيم
٧	الله .. والكون
٢٣	الشك .. والوجود
٤٩	خواطر حول سورة الكهف
٦٧	علم الله .. وعلم الأرض
٩١	عتاب النبي في القرآن الكريم
١١٣	معجزة الاسراء والمعراج

محتويات الكتاب

٣	الفصل الأول : وحدة الكون وقدرة الله
٣٣	الفصل الثاني : القوى الخفية في العالم
٦٥	الفصل الثالث : طلاقة القدرة في الكون
٩٣	الفصل الرابع : خواطر سورة مريم
١٢٥	الفصل الخامس : معجزة الخلق

محتويات الكتاب

الصفحة

٥	الفصل الأول : عندما يتوقف الكون
٤٥	الفصل الثاني : قوانين الكون والانسان
٨٣	الفصل الثالث : الانسان .. والأمانة
١١١	الفصل الرابع : الله .. والزمن
١٤٥	الفصل الخامس : إلا .. ليعبدون

مَجْمُوعَةُ الْكُتُبِ

صفحة	
٥	الفصل الأول : القرآن .. والنفس البشرية
٢٩	الفصل الثاني : لماذا تركوا .. المنهج
٥١	الفصل الثالث : منهج السماء واحد
٧٣	الفصل الرابع : الله لا يتغير .. ولا يتبدل
٩٥	الفصل الخامس : حركة الحياة في الكون
١١٧	الفصل السادس : الله .. والعباد
١٣٩	الفصل السابع : البداية من باب الرحمة

رقم الايداع ٣٣٢٦ / ٩٣

I. S. B. N

977 - 08 - 0179 - 8

محتويات الكتاب

٣ الأمثال في القرآن الكريم
٢٣ مواكب الرسل
٤٥ مواكب الإيمان
٦٩ مَثَلُ الكافرين
٩٢ مَثَلُ التحدى
١١٥ مَثَلُ الحياة الدنيا

المحتويات

٣ الأمثال .. فى القرآن
٥ الفصل الأول .. مثل المعصية
٣١ الفصل الثانى .. مثل ابنى آدم
٥٣ الفصل الثالث .. مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة
٧٧ الفصل الرابع .. مثل عيسى كمثل آدم
١٠١ الفصل الخامس .. مثل الجنة والنار
١٢٥ الفصل السادس .. عليها تسعة عشر

محتويات الكتاب

صفحة

٥	لماذا اختل الميزان؟
٢٥	وخلق الله الانسان
٤٧	السجود لآدم
٦٧	إنى جاعل فى الأرض خليفة
٩١	معصية إبليس
١١٥	خطيئة آدم
١٣٥	ونزل آدم الى الأرض

المحتويات

صفحة	
٥	■ الفصل الأول : معنى القيامة
٣١	■ الفصل الثاني : نهاية الحياة
٥٩	■ الفصل الثالث : قانون ما بعد الحياة
٨٣	■ الفصل الرابع : الله .. والزمن
١٠٧	■ الفصل الخامس : علامات الساعة
١٢٩	■ الفصل السادس : إنقلاب في الموازين
١٥٥	■ الفصل السابع : وجاء يوم القيامة

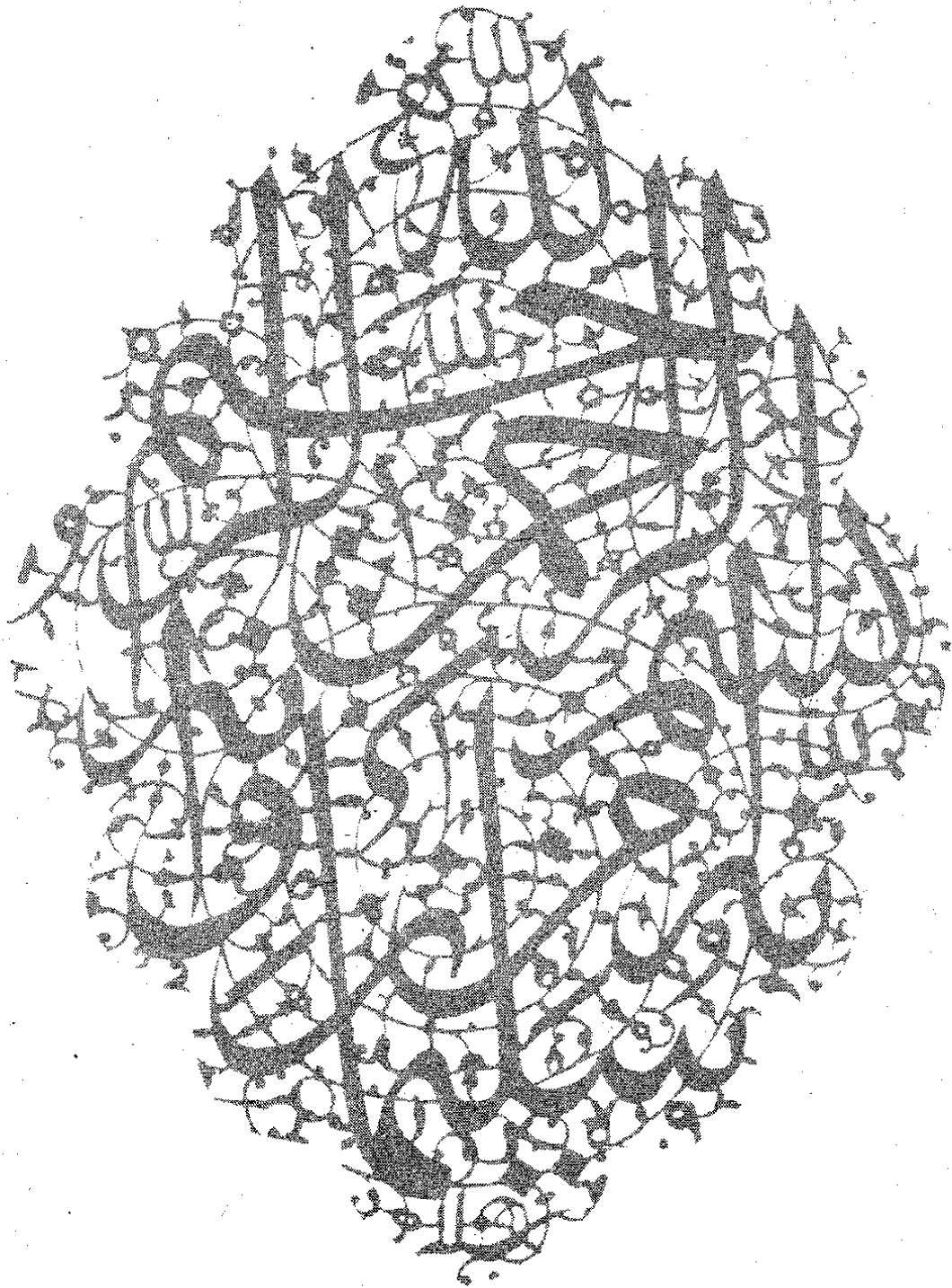
رقم الإيداع : ٩٣ / ٣٣٢٩

I. S. B. N. / الترقيم الدولي

977 - 08 - 0175 - 5

محتويات الكتاب

٧	حرية الانسان	: الفصل الأول
٣٣	معنى الحياة	: الفصل الثاني
٦١	نهاية الدنيا	: الفصل الثالث
٨٥	يوم البعث	: الفصل الرابع
١١١	الميزان	: الفصل الخامس
١٣٩	يوم الحشر	: الفصل السادس



الفصل الأول

ما هي المعجزات

ما هي المعجزة ؟

القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والمتعبد بتلاوته والمتحدى به الانس والجن والعالمين .. ولم يتحد الله به الملائكة .. لأن الملائكة ليس لهم اختيارات يعملون بها .. إنما هم يفعلون ما يؤمرون .. ومن هنا فإن القرآن يتحدى كل القوى المختارة .. أو التي لها اختيار .. أو التي ميزها الله بقدرة العقل والفكر والاختيار .

على أننا قبل أن نتحدث عن معجزة القرآن .. فإننا يجب أولاً أن نحدد ما هي المعجزة ؟ المعجزة هي خرق لنواميس الكون .. أو لقوانين الكون .. يعطيها الله سبحانه وتعالى لرسله ليدل على منهجه .. ويشتهم به .. ويؤكد للناس أنهم رسله تؤيدهم السماء وتنصرهم .. والسماء حين تؤيد وتنصر ، تقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئاً .

ولكننا حين يأتي إنسان ويقول إنه رسول من عند الله جاء ليبلغ منهجه .. أنصدقه ؟ أم أننا نطالبه بأثبات ما يقول ؟ إذن كان لابد أن تجيء مع كل رسول معجزة تثبت صدقه في رسالته وفي بلاغه عن الله ..

ومعجزات الله تتميز عن أية معجزات أخرى تمييزاً واضحاً قادراً .. فهي أولاً تأتي وتتحدى من أرسل فيهم الرسول فيما نبغوا فيه .. لماذا ؟ لأن التحدى فيما لا ينبغ فيه القوم لا يعتبر تحدياً .. فمثلاً إذا جئنا ببطل العالم في رفع الأثقال .. وتحدينا به رجلاً عادياً .. لا يكون هناك مجال للتحدى .. لماذا ؟ لأن المتحدى لم ينبغ في نفس جنس العمل الذي أريد أن يتم فيه التحدى .. ولكننا إذا جئنا ببطلين من أبطال العالم .. فإن التحدى يكون بينهما واضحاً .. ويكون له معنى فيمن يثبت إنه هو الأقوى ..

وإذا جئنا بإنسان قد نبغ في الطب مثلاً .. وأرسلناه إلى بلد ليس فيه طبيب .. فلا يعتبر هذا تحدياً .. لأنه لا يمكن أن يجد هذا الطبيب من ينافسه بحيث يكون هناك مجال للتحدى .. ولكننا إذا جئنا بهذا الطبيب وأرسلناه إلى أكبر عواصم الطب في العالم .. هنا يكون تحدياً لهذا الطبيب .. هو تحد بقوة العقل حيث أننا وضعناه في اختبار مع أكبر ما في عصره من قوة يمكن أن تواجهه ..

ما هي المعجزة ؟

نكون بذلك قد وصلنا إلى نقطتين .. النقطة الأولى .. أن المعجزة يجب أن تكون خرقا لقوانين البشر ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى الذى وضع هذه القوانين .. وثانيتهما أن المعجزة معجزة كل نبي يجب أن تكون مما نبغ فيه قومه حتى يكون التحدى نابغا وقويا .. واثباتا على قدرة الله سبحانه وتعالى .. فلا آتى بقوم نبغوا فى الطب مثلا وأرسل لهم معجزة فى البلاغة .. أو آتى بقوم قد نبغوا فى البلاغة وأرسل لهم معجزة فى الطب .. هنا الاحساس بالمعجزة لا يكون فيه التحدى القوى للإنسان .. فالتحدى يجب أن يكون فى أمر نبغ القوم فيه حتى لا يتحدى الله قوما بأمر لا يعرفونه .. ولا موهبة لهم فيه .. وحتى يكون للتحدى قيمة .. ومن هنا كانت معجزة كل رسول فيما نبغ فيه قومه .. على أن المعجزة لا تأتى فقط بخرق القوانين .. والتحدى .. إنما توفر أسباب هذا التحدى .. بمعنى أن القوم الذين يريد الله أن يتحداهم يمكنهم من الأسباب كلها .. ثم بعد ذلك يعطل الأسباب .. فلا يتم الفعل .. ولنعط أمثلة سريعة على ذلك .. مثلا معجزة نجاة إبراهيم عليه السلام .. ومعجزة نجاة موسى عليه السلام .. كلتاهما معجزة .. وضعت فيها الأسباب .. ثم عطلت .. معجزة إبراهيم جاءت تحديا لقوم يعبدون الأصنام .. ويسجدون لها ويقدمونها .. ولذلك عندما أرادوا احراق إبراهيم كانوا يريدون أن ينتقموا لألهتهم وهى الأصنام .. وكان الانتقام معدا بالشكل الذى يجد هذه الأصنام .. ويجعل إبراهيم عبرة لكل إنسان تسول له نفسه أن يهينها أو يكفر بها ..

وجد إبراهيم ولم يحترق

جاءوا بإبراهيم .. وأمام آلهتهم وفى حمايتها .. أوقدوا نارا هائلة ليحرقوه .. والحرق هنا أمام الآلهة وعلى مشهد منها ليكون الانتقام من إبراهيم انتقاما تباركه الآلهة وتجعله رهيبا .. وجاءوا بالحطب ووقفوا أمام آلهتهم مصدر قوتهم .. وأوقدوا النار الهائلة .. كل شىء هنا معد لتمجيد آلهة غير الله سبحانه وتعالى .. وأتوا بإبراهيم .. والسؤال هنا لماذا جعلهم الله يأتون بإبراهيم ليحرقوه فى النار أمام آلهتهم .. كان من الممكن أن يختفى إبراهيم فى أى مكان .. ولا يظهر .. وكانت هذه مسألة ممكنة تقى إبراهيم الحرق وتجعلهم

ما هي المعجزة ؟

لا يعثرون عليه .. ولكن لو حدث هذا لقالوا لو أننا قبضنا على إبراهيم لأحرقناه .. وكانت ستظل قوة الآلهة المزيفة التي يعبدونها مسيطرة عليهم في أن لها قدرة النفع والضرر .. وإنها تنفع من يعبدها .. وتضر من يؤذيها ، وإنه لولا هرب إبراهيم لأحرق في النار ودمرته آلهتهم وهي الأصنام تدميرا .. ولذلك كان لابد ألا يهرب إبراهيم بل يقع في أيديهم ليشهد القوم جميعا سفاهة معتقداتهم وعجزها أمام قدرة الله ..

وكان من الممكن أن تنطفىء النار لأي سبب من الأسباب .. كأن ينزل المطر من السماء فتتنطفىء النار .. ولكن هذا لم يحدث .. لماذا ؟ لنفس السبب ، لأنه لو انطفأت النار لقال الكفار أن آلهتنا كانت قادرة على أن تحرق إبراهيم .. ولكن السماء أمطرت .. ولو أن السماء لم تمطر لانتقمت آلهتنا منه بالحرق .. فإبراهيم لم يهرب .. بل وقع في أيديهم .. والنار لم تنطفىء .. بل ازدادت اشتعالا ثم ألقوا بإبراهيم في النار ، فإذا بالله سبحانه وتعالى يبطل خاصية الاحراق في النار .. وتكون بردا وسلاما على إبراهيم ..

إذن فمعجزة إبراهيم ليست أن ينجو من النار .. ولو أراد الله أن ينجيه من النار مامكنهم من القبض عليه .. أو لنزلت الأمطار لتطفىء النار .. ولكن الله شاء أن تظل النار متأججة محرقة قوية .. وأن يؤخذ إبراهيم عيانا أمام الناس ويرمى في النار .. ثم يعطل الله ناموس أو قانون إحراقها .
« قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم »

فتعطل إرادة الله خاصة إحراق النار .. وتقف آلهتهم تلك التي حطمها إبراهيم والنار متأججة .. وإبراهيم ملقى في النار .. تقف آلهتهم التي أرادوا الانتقام لها أمام الملائكة .. تقف عاجزة عن أن تجعل إبراهيم يحترق أو تناله بأي سوء ..

وموسى عليه السلام أوحى الله إلى أمه أن تلقيه في اليم لينجو .. وآخر شيء يمكن أن يقوم به أب أو أم حين يريد أن ينجى طفله هو أن يلقيه في الماء .. فالطفل عاجز صغير وليد .. والقاؤه في الماء يعرضه لطير جارح يقتله أو يهاجمه وهو لا يملك لنفسه دفاعا ولا بأسا فيقتله .. وقد تأتي موجة صغيرة من الماء فتطيح بالسلة التي فيها موسى فينقلب في الماء فيغرق في الحال .. فهو لا يعرف شيئا عن العوم ولا يستطيع أن يفعل شيئا إذا سقط في الماء .. وإذا لم يسقط في

ما هي المعجزة ؟

الماء فقد تأتي الأمطار لتملأ السلة التي هو بها . . فيختنق ويغرق . . وقد تأتي ريح تقلب هذه السلة في الماء فيموت . . إذن فكل الأخطار موجودة في القاء موسى في اليم ماعدا فرصة الحياة . . والمنطق والأسباب والعقل كلها تقول أنه إذا أرادت أم موسى أن تنجيه فلتفعل أى شئ في العالم إلا أن تلقيه في الماء . . كان يمكنها أن تأخذه إلى مكان بعيد يختفى فيه . . وكان يمكنها أن تهجر بابنها إلى خارج مصر . . وكان يمكنها أن تخفيه في منزلها في مكان حصين لا يصل إليه جنود فرعون . . ولكن الله أمرها بماذا . . بأن تلقيه في اليم . . حيث يواجه خطر الموت أكثر مما يواجه احتمال الحياة . . وجعل في هذا الخطر خطر موت موسى غرقا . . أو بطير جارح . . أو بريح قوية . . جعل هذه الأخطار كلها الطريق الوحيد المضمون لنجاة موسى . . لماذا ؟ لأن الله هو الفاعل . . وهنا تتعطل الأسباب . . ويصبح اللقاء نفسه هو النجاة والأمان والاطمئنان .

لماذا سجد السحرة ؟

نعود مرة أخرى إلى المعجزة . . لقد جاء كل نبي إلى قومه بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه . . قوم موسى نبغوا في السحر . . فجاء موسى عليه السلام بمعجزة السحر . . وتحدى قومه . . فكان أول من آمن به هم السحرة . . لماذا ؟ لأنهم هم الذين يرهبون عيون الناس ويسحرونها . . فلما رأوا معجزة موسى كانوا أقدر الناس على فهمها . . والسجود لها نظرا لما رأوه من الفرق الهائل بين قدرة الله . . وقدرة البشر . . ولما أحسوه برهبة وهو يقابل ما نبغوا فيه من السحر بما أعطاه الله له . .

﴿ فَالتى السَّحرةُ ساجِدِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾ قالوا آمنا بربِّ العالمين ﴿٤٧﴾ ربِّ موسى

وهارون ﴿٤٨﴾

(سورة الشعراء)

هكذا كان أول من آمن هم أولئك الذين نبغوا في المعجزة . . وهم أولئك الذين أراد الله سبحانه وتعالى أن يتحداهم فيما نبغوا فيه ، فلما رأوا عظمة التحدى خروا ساجدين . لماذا ؟ لأن لديهم جزءا من العلم الأرضى في

ما هي المعجزة ؟

السحر .. إنما يخشى الله من عباده العلماء .. فلما رأوا المعجزة أحسوا بروعتها .. أحسوا بجلالها .. أحسوا بأنها من عند الله سبحانه وتعالى .. فنسوا فرعون ووعوده ، ونسوا الذهب والفضة وجاه الدنيا الذى ينتظرهم .. بل نسوا أن فرعون سيسومهم سوء العذاب .. وأنه جبار فى الأرض .. تلاشى كل هذا عندما رأوا المعجزة .. وخرروا ساجدين لله .. وكانوا هم الذين أراد فرعون أن يتحدى بهم معجزة الله .. ودين الله .. فإذا بهم أول من يسجد لهذا الدين ..

تلك روعة المعجزة .. تستطيع أن تتبينها إذا عرفت أن السحرة كانوا موعودين بالجاء والسلطان والمال .. وكانوا هم أعوان فرعون الذين يروجون له .. وكان فى أيديهم حكم الدنيا إذا غلبوا .. أو إذا اتهموا موسى بأى اتهام باطل يروج له فرعون وجنوده .. ولكنهم بهتوا وذهلوا أمام معجزة فخرروا ساجدين .. وتركوا كل هذا مضافا إليه عذاب فرعون عندما رأوا آية من آيات الله ..

وعيسى جاء إلى قومه وقد نبغوا فى الطب فأبرأ الأكمه والأبرص .. وزاد على ذلك بأنه أحيا الموتى بإذن الله .. إذن عيسى تحدى قومه فى شئ نبغوا فيه .. فجاء لهم بما تجاوز علمهم .. وزاد عليه بإحياء الموتى بإذن الله .. فكان التحدى من جنس ما نبغ فيه قومه ..

ومحمد عليه الصلاة والسلام جاء والعرب قوم بلاغة وفصاحة .. فجاء لهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه ، وهى بلاغة القرآن التى تحدتهم وأعجزتهم .. فقالوا ساحر .. وقالوا مجنون .. على أننا سنتناول معجزة القرآن بالتفصيل فى الفصول القادمة .. حيث أن اعجاز القرآن ليس لغويا فقط .. ولكن له جوانب كثيرة من الاعجاز الذى يتحدى به الله سبحانه وتعالى الانس والجن إلى يوم القيامة .. والقرآن له عطاء يتجدد مع كل جيل من الأجيال ..

وإذا كانت المعجزة هى خرقا للعادة مقرونة بالتحدى .. ولا يستطيع أحد معارضتها .. فقد أتى المعجزة خرقا للعادة ، ولكنها ليست مقرونة بالتحدى .. أى أن الله سبحانه وتعالى لا يتحدى بها البشر ولا يطالبهم أن يأتوا بمثلها .. بل إن هذه المعجزة أتت لاثبات طلاقة قدرة الله فى كونه .. بحيث لا يخضع الإنسان كل الأشياء للأسباب والمسببات .. بل إن الإنسان المؤمن يجب أن يلجأ إلى الله

ما هي المعجزة ؟

سبحانه وتعالى فيما تعجز عنه الأسباب .. فالله قادر قاهر ليس لقدرته قيود ولا حدود ..

قدرة الله

والقرآن يعرض مسألة المعجزة لاثبات طلاقة القدرة الإلهية في سورة مريم .. يأتي ليثبت قضية من القضايا التي اعتاد فيها الناس الأسباب والمسببات .. وهي مسألة بقاء النوع .. وبقاء النوع مشروط بالتقاء رجولة وأنوثة لينشأ اخصاب وحمل .. ولا بد أن تكون الرجولة مكتملة .. والأنوثة غير ناقصة ليتم ذلك .. فيأتى الله سبحانه وتعالى ليثبت لنا طلاقة القدرة الإلهية بلا حدود ولا قيود .. حتى لا يفهم الإنسان أن الخلق مقرون بأسباب ومسببات لا بد من وجودها .. ومن هنا فإن الله في قضية الخلق يريد أن يدير المسألة من زواياها الأربع .. فليس بقاء النوع أو إيجاد النوع رهنا بوجود ذكر وأنثى .. بل هو رهن بمشيئة الخالق .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يخلق رجلا بلا ذكر ولا أنثى .. ويخلق من رجل بلا أنثى .. ويخلق من رجل وأنثى .. ويخلق من أنثى بلا رجل .. وبذلك تكون أركان الخلق الأربعة قد اكتملت ..

ولنشرح ذلك قليلا .. الله خلق آدم أول الخلق من غير ذكر ولا أنثى فآدم لم يكن له أب ولا أم وإنما خلقه الله سبحانه وتعالى .. ونفخ فيه من روحه .. هذه واحدة .. خلق من غير ذكر ولا أنثى .. وخلق الله حواء على الأرجح من الذكر دون الأنثى .. ثم خلق البشرية كلها من الذكر والأنثى بقى شيء في الخلق أن يخلق الله من الأنثى بلا ذكر .. فتأتى مسألة عيسى عليه السلام .. يأتي بقية الكون كله من البشر .. ويأتى عيسى عليه السلام من أنثى لم يمسه رجل .. ومن هنا تكون القسمة للخلق أربعة .. فأصل الخلق كما أراده الله أن يكون وجعل له الأسباب هو من ذكر وأنثى .. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون النشء من غير وجودهما معا ، فخلق آدم .. ومن وجود الرجل وحده ، فخلق حواء من آدم .. ومن وجودهما معا فخلق الكون كله .. وجعله يتناسل .. ومن وجود الأنثى دون الرجل .. فخلق عيسى .. وبذلك تكون أوجه الخلق كلها قد اكتملت ..

إلا أننا يجب أن ننتبه إلى شيء هام .. خلق الإنسان .. بدون ذكر أو

ما هي المعجزة ؟

أنثى .. معجزة تخضع لله سبحانه وتعالى .. خلق الأنثى من الرجل وحده
معجزة تخضع لإرادة الله سبحانه وتعالى .. خلق الرجل من الأنثى وحدها دون
أن يمسه رجل .. معجزة جعلها الله سبحانه وتعالى .. خلق الإنسان من ذكر
وأنثى .. معجزة جعلها الله تمضي في الدنيا بالأسباب والمسببات .. ولكنه لم
يطلقها لتتم بالأسباب والمسببات وحدها .. فأدخل فيها المشيئة .. وقال سبحانه
وتعالى :

« ويجعل من يشاء عقيماً »

إذن كل معجزة الخلق التي تمت إنما تخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى .. فليس
وجود النوعين موجبا لأن يوجد الخلق ..

﴿ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخْلِقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ
إِنثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً
وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

المسألة ليست وجود مسببات .. بل إن الله سبحانه وتعالى حين يريد
للأسباب أن تفعل .. تفعل .. وحين يريد أن تتعطل تتعطل .. وحين يريد
أن تأتي بالعلل دون الأسباب يأتي بها فلا قيود ولا حدود لقدرة الله سبحانه
وتعالى ..

وإذا تعطلت الأسباب

هذه قضية في أصل الكون .. وهي قضية طرحها الله سبحانه وتعالى وأعطاهها
للإنسان ليُدخل الإيمان إلى قلب المؤمن فيضع فيه السكينة .. فالله سبحانه وتعالى
يقول للمؤمن إذا ضاعت الأسباب فلا تيأس .. فأنا الذي خلقت الأسباب ..
وأنا القادر على إيجاد المسببات دون القانون .. فلا تيأس إن عزت الأسباب ..
ومن هنا يأوى المؤمن إلى ركن شديد .. ويحس بالطمأنينة تملأ قلبه .. ولا يمزقه

ما هي المعجزة ؟

الفرع خوفاً أو رعباً .. حينما يفقد أى شىء .. ذلك أنه يأخذ بالأسباب أولاً ..
فإذا عزت الأسباب أو تعذرت ووجد كل الطرق مغلقة في وجهه ، اتجه إلى الله
سبحانه وتعالى .. فالمؤمن لا ييأس من روح الله أبداً .. ولا تنهار نفسه ..
ويضيع أمنه عندما يرى انهيار الأسباب ..
وتعرض لنا هذه القصة في سورة مريم .. ميلاد مريم رضى الله عنها كان له
ضجة .. يحكى ذلك القرآن الكريم :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا
فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ
إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴿٢٦﴾

(سورة آل عمران)

كلمة انى وضعتها أنثى التى قالتها امرأة عمران .. تحسر على أنها لم تضع
ذكراً .. أى أن الوليد الذى جاء لا يؤدي الغرض الذى وهب من أجله .. لأن
امرأة عمران نذرت ما فى بطنها لله سبحانه وتعالى .. وكيف تستطيع مريم أن
تؤدي الخدمة فى المعبد وهى أنثى .. وامرأة عمران تقول ان الرجل أفضل من
الأنثى فى ذلك .. فيقول لها الله سبحانه وتعالى انك مازلت تحسبن أن الذكر
أحسن من الأنثى .. هذه العملية التى تفكرين بها هى منطق الدنيا الخائب ..
ويضيف الله سبحانه وتعالى :

« وليس الذكر كالأنثى »

أى أن الأنثى التى جاءت أفضل من الذكر الذى تمنيته .. وكأنما الأنثى لها
مكانة أكثر مما تظنين .. فلا تقولى أن الله قد أعطانى أنثى ولم يعطنى ذكراً .. لأن
الله سبحانه وتعالى هو الخالق .. ولأنه يعرف أن هذه الأنثى سيصبح لها شأن
آخر .. وبعد ذلك نعرف أن والد مريم متوفى .. حيث أنها حين ولدت أرادوا
أن يكفلوها .. وكلمة من يكفلها دليل على أن وليها الطبيعى وهو الوالد غير
موجود .

ما هي المعجزة ؟

ويكفلها زكريا . . ومعنى أن يكفلها زكريا - وفيه نبوة - أنه يأتي إليها بكل مقومات حياتها . . فعندما يدخل عليها المحراب يجد عندها ززقا . . ومعنى أن زكريا يجد عندها الرزق عند دخوله المحراب أو المكان الذي تصلى فيه مريم وتسجد . . معناه أنه لم يأت بهذا الرزق . . وإنما الذي أتى به هو الله سبحانه وتعالى . . بدليل أن زكريا يسألها :

« انى لك هذا ، قالت هو من عند الله »

وابتدأت الصغيرة المكفولة مريم بفطرتها تفهم أن الله سبحانه وتعالى ليس له قانون يحكمه . . وأنه يرزق من يشاء بغير حساب . .

هنا نتوقف قليلا لنعرف أن الله سبحانه وتعالى حينها أعد مريم للمهمة التي ستقوم بها جعلها أولا مندورة لله سبحانه وتعالى ولعبادته . . ثم جعل من يكفلها نبيا هو زكريا . . ثم بعد ذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يمهد لها فين لها أن لكل شيء في هذا الكون سببا . . إلا أن هناك أشياء تحدث بلا أسباب . . أو يعطل الله فيها الأسباب . . وبدأ بمسألة الرزق الذي يرزقها به . . فأكهة في غير أوانها . . ورزق ليس موجودا في الأرض . . تمهيدا لما هو قادم . . واعلانا لها بأن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء . . ثم بعد ذلك أتى الله سبحانه وتعالى بقضية أخرى هي دعاء زكريا بالولد . . عندما رأى الرزق بلا حساب عند مريم . . هنالك دعا زكريا ربه . . وطلب زكريا ولدا فاستجاب الله لدعائه . . ويشره بالغلام . . هنا تذكر زكريا عند هذه البشرى . . انهيار الأسباب عنده . . فقال يا ربني اننى رجل عجوز . . وامراتى غاقر . . أى أن الأسباب الكونية لإمكان الانجاب غير موجودة . . فكيف أستطيع أن أنجب طفلا . . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيٌّ هَيْنَ وَقَدْ خَلَقْتِكِ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ

شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾

(سورة مريم)

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق زكريا . . ولم يك شيئا يذكر فهو يستطيع أن يعطيه الغلام دون التقيد بالأسباب . . هنا تذكير مرة أخرى لمريم بأن الله

ما هي المعجزة ؟

سبحانه وتعالى إذا أراد فإنه يوجد الأشياء بدون الأسباب نفسها .. أولا .. أعطاه الرزق بلا أسباب للرزق .. ثم استجاب لدعوة زكريا التي دعاها في المحراب .. فقال الله سبحانه وتعالى :

« هنالك دعا زكريا ربه »

وكلمة هنالك أن الدعاء تم في المحراب عند مريم لتشهد مرة أخرى ما يثبت فؤادها فيها أعده الله لها .. فترى الخلق يتم بدون أسباب الخلق .. فزكريا عجوز .. وامرأته عاقر .. ومع ذلك فإن الله قادر على أن يرزقه بولد .. وكل هذا هدفه ألا تهتز مريم مما ستعرض له من ولادة دون ذكر .. ومع ذلك .. ومع كل هذه المقدمات اهتزت مريم حين رأت جبريل عليه السلام ..

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

(سورة مريم)

أى أنه بعد كل هذه المقدمات من رزق بلا أسباب .. ومن ولد لزكريا مع انتفاء الأسباب .. مع كل هذه المقدمات اهتزت مريم عندما رأت جبريل حتى أن الله سبحانه وتعالى ليثبتها قال لها :

« كذلك قال ربك هو على هين .. ولنجعله آية للناس »

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لمريم بعد كل هذه المقدمات من رزق بلا أسباب .. ومن خلق مع اختفاء الأسباب تتعجبين مما يحدث .. لقد قلت يا مريم :

« يرزق من يشاء بغير حساب »

شهدت يا مريم أن الله سبحانه وتعالى حين يريد تعطيل نواميس الكون .. وإيجاد المسببات بلا أسباب .. يستطيع أن يفعل ذلك . شهدته في زكريا .. ومع ذلك تتعجبين .

معجزة ولكن ليست للتحدى

على أن هذه المعجزة .. معجزة خلق عيسى عليه السلام .. لم يكن مقصودا بها التحدى .. فالله سبحانه وتعالى لم يتحد بها أحدا .. لكن المقصود بها هو

ما هي المعجزة ؟

طلاقة القدرة . . أى أن الله يفعل ما يشاء . . ومقصود بها استكمال الخلق بحيث يصبح الخلق بدون ذكر أو أنثى . . ومن ذكر بلا أنثى . . ثم من ذكر وأنثى لمن شاء الله . . ثم من أنثى بلا ذكر . . وبذلك تكتمل مراحل الخلق . . ومعجزة أخرى لم يتحد بها الله بشرا . . وهى معجزة شق موسى للبحر بعصاه . . فعندما طارد فرعون وجنوده موسى عليه السلام . . ووصل أتباع موسى الى البحر . . والبحر أمامهم . . وجنود فرعون وراءهم . . قال قومه إنا لمدركون . . وهذه مسألة طبيعية فى قوانين ومسببات البشر . . فجنود فرعون على بعد قريب . . والبحر أمام قوم موسى . . فهم لا يستطيعون مواصلة الفرار أو الهرب . . وحينئذ رفع موسى الأمر إلى الله سبحانه وتعالى . . لم يقل سنصعد الى جبل ليحمينا من فرعون وجنوده . . ولم يقل سنستقل سفينة ضخمة نهرب بها من فرعون وجنوده . . ولم يقل إننا سننجو بطريقة كذا وكذا . . وإنما حينما قال له قومه انا لمغرقون . . رد الأمر إلى الله سبحانه وتعالى . . وقال بملء فيه : « كلا ان معى ربي سيهدين »

ومن هنا فإنه نقل المسألة من قانون الإنسان . . أو البشر . . إلى قانون الله سبحانه وتعالى . . فكأنه قد نقل القدرة من القدرة البشرية المحدودة . . إلى قدرة الله سبحانه وتعالى التى ليس لها حدود ولا قيود . . والتى تتم بكلمة كن . . ومادام قد نقل القدرة منه هو إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فقد أصبحت هذه القدرة ينطبق عليها لفظ سبحان الله وليس كمثلته شىء . . أى أنه لا عجب فيها سيحدث ولو خالف كل قوانين البشر . . لأن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى . . فأصبحت النجاة نابعة من قدرة الله وليس من قدرة البشر . . فقال الله سبحانه وتعالى له :

« ان اضرب بعصاك البحر فانفلق »

والمعروف أن الماء لا ينفلق لأن قوانين الماء هى الاستطراق . . أى لا يكون عاليا فى مكان ومنخفضا فى مكان آخر . . لا بد أن يتساوى سطحه . . فإذا ضرب موسى بعصاه البحر فهو لا يستخدم قوانين الأرض . . ولا قوانين الماء . . ولا قدرات البشر . . لأنه رفع الأمر إلى الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا تكون القدرة والفعل لله فينشق البحر . . وينجو موسى وقومه . . هذا هو معنى المعجزة فى ايجاز بالغ . . فالمعجزة هى خرق لنواميس

ما هي المعجزة ؟

الكون .. تتحدى .. ولا يستطيع أحد معارضتها .. والمعجزات نوعان .. معجزات أعطها الله سبحانه وتعالى لرسله ليتحدوا بها قومهم .. ويثبتوا أنهم جاءوا بالهدى وبالرسالات من عند الله .. ويثبتوا الإيمان في قلوب الناس .. ويبينوا لهم الطريق المستقيم المؤدى إلى الحياة السليمة .. وهى قوانين الله فى الأرض .. وليعرف الجميع أن هؤلاء رسل جاءوا من عند الله بمنهج وضعه الله للإنسان .. وهناك معجزات أخرى فى الكون .. لم يرد الله بها التحدى .. ولكنه أراد اثبات طلاقته فى الكون فى أنه هو الخالق .. وأنه هو الموجد للأسباب والمسببات .. وأنه يقول كن فيكون بلا مسببات .. مادام الأمر قد رفع إلى الله سبحانه وتعالى بعيدا عن قدرات البشر وقوتهم ..

معجزة القرآن مستمرة

على أنه يلاحظ أن معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين . معجزات الرسل خرقت قوانين الكون .. وتحدث وأثبتت أن الذى جاءت على يديه رسول صادق من الله .. ولكنها معجزات كونية من رآها فقد آمن بها .. ومن لم يرها صارت عنده خبرا إن شاء صدقه .. وإن شاء لم يصدقه .. ولو لم ترد فى القرآن لكان من الممكن أن يقال إنها لم تحدث .. إذن فالمعجزة الكونية المحسنة .. أى التى يحس بها الإنسان ويراها تقع مرة واحدة .. من رآها فقد آمن بها .. ومن لم يرها تصبح خبرا بعد ذلك .. على أن هذه المعجزات لا تتكرر أبدا .. هناك رأى يقول أن معجزات الرسل مع تقدم العلم يمكن أن يصل إليها البشر .. وهذا الرأى غير صحيح على الإطلاق .. فالمعجزة تبقى معجزة إلى يوم القيامة .. قد يقول واحد إننا قد نصل إلى قانون أو اختراع يشق الماء .. وحتى إن حدث هذا فإن المعجزة تبقى خالدة .. لأنه لا يمكن أن يأتى إنسان يضرب البحر بعصاه فينشق الماء إلا موسى عليه السلام .. وقد يقول بعض الناس أن عيسى عليه السلام كان يبرىء الأكمه والأبرص .. وأن هناك دواء الآن لبعض الداءات .. أو لكل هذه الداءات .. ولكننا نقول له أن المعجزة ستبقى معجزة .. فلن يستطيع بشر أن يشفى إنسانا مريضا بمجرد لمسه .. أو الإشارة إليه إلا عيسى عليه السلام .. قد يقول بعض الناس إننا نستطيع أن نذهب من مكة إلى بيت المقدس ونعود عدة مرات كل

ما هي المعجزة ؟

يوم .. وهذا رد على معجزة الاسراء .. فنقول أبدا .. لن يستطيع إنسان أن يذهب بغير طائرة في الجو إلا محمد عليه السلام .. فضلا عن الصعود إلى السماء السابعة .. ذلك أن المعجزة تظل خالدة في نوعها وأدائها مهما طال الزمن .. وهي معجزة أساسها الاعجاز بالطريقة التي تمت بها .. ولا تصل إليها القوانين التي يكشف عنها الله سبحانه وتعالى من علمه للبشر .. بل تظل المعجزة معجزة ..

على أننا إذا نظرنا إلى المعجزات السابقة وجدنا هذه المعجزات فعلا من أفعال الله .. وفعل الله من الممكن أن ينتهي بعد أن يفعله الله سبحانه وتعالى .. البحر انشق لموسى .. ثم عاد إلى طبيعته .. النار لم تحرق إبراهيم .. ولكنها عادت إلى خاصيتها في الاحراق .. ولكن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم صفة من صفات الله .. وهي كلامه .. والفعل باق ببقاء الفاعل له .. والصفة باقية ببقاء الفاعل نفسه ..

على أن معجزات الله سبحانه وتعالى التي يؤيد بها رسله .. أو يريد بها آية من آياته .. تختلف عن معجزات البشر في أن الله سبحانه وتعالى يجعل من يقوم بالمعجزة يملك خاصية هذه المعجزة وقتها .. أى أن الله سبحانه وتعالى يجعل الضعيف قويا .. وغير القادر قادرا .. والذي لا يستطيع شيئا يستطيع أن يفعله .. فمعجزة عام الفيل مثلا التي أرسل فيها الله سبحانه وتعالى طيرا أبابيل .. أفنت جيش أبرهه عندما جاء ليحطم الكعبة .. جعل الله المعجزة في أن الطير الضعيف يستطيع أن يهزم فيلا جبارا قويا .. ويستطيع أن يفنى جيشا من أقوى جيوش العالم .. إن لم يكن أقواها في ذلك الوقت .. ولقد كانت المعجزة فيها قدرة هائلة حتى انها هزت نفوس بعض المؤمنين الذين لم يروها .. أو لم يشهدوها .. وجاءوا بعد عصر النبوة .. ولقد أثير حول هذه المعجزات حديث طويل في أنه كيف تستطيع الطير وهي تمسك بحجارة صغيرة جدا أن تفنى جيشا من الأفيال .. ولو هدمت فوقه عمارة لخرج سالما معافى .. ووجد بعض العلماء في هذا الكلام تجاوزا لحدود العقل .. فبدأوا يحاولون تخريجها عقليا بأن يقولوا أن هذه الطير كانت تحمل جراثيم فتكت بهذه الفيلة إلى آخر هذا الكلام الذي يحاولون به تبرير المعجزة .. والمعجزة لا تبرر أبدا لماذا ؟ لأنها لا تخضع لقوانين البشر .. فالفاعل هو الله سبحانه وتعالى .. ومعجزة الفيل

ما هي المعجزة ؟

حدثت كما رواها القرآن تماما من ناحية الطير . . . ومن ناحية الحجارة . . . ذلك أن هذه المعجزة وقعت في العام الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم . . . ورسول الله بعث في الأربعين من عمره . . . أى أنه عندما نزلت هذه الآية كان هناك من شهدوا عام الفيل . . . ممن أعمارهم قد بلغت الخامسة والخمسين . . . والستين . . . والخامسة والستين . . . والسبعين . . . وما فوق ذلك . . . فلو أن القرآن جاء برواية منافية أو مخالفة لما شهدوه لقالوا أن هذا لم يحدث . . . وأن طيرا لم تأت . . . وأن حجارة لم تستخدم . . . ولكن كون القرآن جاء بهذا . . . وهناك شهود . . . وشهود من الكفار الذين يهيمهم الطعن في الدين . . . ويهيمهم أن يشككوا فيه . . . ولم يستطيعوا أن يجادلوا في هذه الآية . . . إذن فالطير قد جاءت . . . والحجارة قد استخدمت . . . وهذه معجزة من معجزات الله تحمل سمة المعجزات وهي أن الله سبحانه وتعالى عندما يريد أن يحقق المعجزة يعطى القوة أو القدرة لمن يختاره لتحقيقها . . . فهنا أعطى القوة للطير لتغلب الفيل . . . عكس المنطق تماما . . . وأعطى القدرة لموسى فغلب السحرة وأعطاه قدرة شق البحر فضرب الأرض بعصاه فشق البحر . . . وأعطى لعيسى عليه السلام قدرة شفاء المرضى وإحياء الموتى . . . كل هذا بإذن الله . . . وهنا الاختلاف بين الإعجاز الإلهي . . . وأى إعجاز آخر . . . فأنت حين تريد أن تجعل رجلا ضعيفا يحمل حملا ثقيلًا لا تستطيع أن تنقل إليه قوتك ليحمل هذا الحمل ولكنك تستطيع أن تجعله يتحمله . . . وأى اختراع جديد يخدم الإنسان لا يستطيع أن يعطى الإنسان قدرة خارقة ولكنه يساعده باستخدام شيء خارجي . . . أما الله سبحانه وتعالى . . . فإنه هو وحده المستطيع أن يجعل الضعيف قويا . . . والعاجز قادرا . . . والقوى لا حول له ولا قوة . . . ومن هنا فإذا انتصر رجل ضعيف على رجل قوى . . . فإنك تعلم أن الضعيف قد نصره الله سبحانه وتعالى . . . الله أعطى لإبراهيم مثلا قدرة الخلق حينما طلب منه أن يأتي بالطير ويقطعها . . . ثم يضع على كل جبل جزءا ثم يدعوها فتأتى له سعيًا . . . أى أن إبراهيم هو الذى دعا . . . والله هو الذى أذن . . . وشاء . . .

على أن معجزة القرآن تختلف في أوجه كثيرة عن المعجزات الأخرى . . . وهذا ما سنبينه في الفصل القادم . . .

الفصل الثاني

مُعْجِزَةُ الْقُرْآنِ وَكَيْفَ تَحْتَلِفُ

معجزة القرآن وكيف تختلف

معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين في كثير من زوايا الاعجاز .. وفي القرآن اعجاز لا يتنبه إليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره .. حينئذ يتبين أن للقرآن وجوه اعجاز أخرى أو جديدة تزيد في معنى الاعجاز .. أو تعطى أبعادا جديدة لما يقال .. بل ان اعجاز القرآن موجود أحيانا في حرف .. حرف من القرآن يحمل اعجازا رهيبا .. وتلك حقيقة سنتناولها بالتفصيل في الفصول القادمة .. ولكن الذى يجب أن نعرفه الآن .. أن للقرآن عطاء لكل جيل مختلف عن عطائه للجيل السابق .. ذلك أن القرآن للعالمين .. أى الدنيا كلها .. لا يقتصر على أمة بعينها .. وإنما هو الدين الكامل لكل البشر .. ومن هنا فإنه يجب أن يكون له عطاء لكل جيل .. وإلا لو أفرغ القرآن عطاءه الاعجازى في قرن من الزمان مثلا لاستقبل القرون الأخرى بلا عطاء .. وبذلك يكون قد جمد .. والقرآن متجدد لا يجمد أبدا .. سخى يعطى دائما .. قادر على العطاء لكل جيل بما يختلف عن الجيل الذى قبله .. وينفس الآية .. أى أن هناك آيات من القرآن تعطينا الآن عمقا جديدا في معناها .. ذلك العمق لم يكن أحد يصل إليه بالفهم الدقيق في أول وقت نزول القرآن ..

ولكى تكون هذه النقطة واضحة يجب أن نفرق بين شيئين اثنين في القرآن الكريم .. الأحكام الخاصة بمنهج العبادة .. أو ما يحدده الله للبشر ليقوموا بعبادته بالطريقة التى حددها الله سبحانه وتعالى ليعبد فى الأرض .. كلمة افعل .. ولا تفعل .. هذا حلال .. وهذا حرام .. هذه الأحكام التكليفية لا تغيير فيها ولا تبديل .. وإنما كما فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أو كما فسرت فى عهد نزول القرآن .. الصلاة خمس مرات .. لا اجتهاد فى هذا .. شهادة أن لا إله إلا الله .. الزكاة .. ما حرم على الإنسان وما أحل له .. الزواج والطلاق .. كل ما شرعه الله من أحكام بينه الرسول صلى الله عليه وسلم وفسره .. ولا اجتهاد فيه .. لا يستطيع أحد أن يأتي ويقول لنا أن الصلوات أربع مرات فى اليوم .. ويفسر هذا بأى وجه من التفسير .. هذا غير مقبول .. وليس مجال المناقشة .. افعل ولا تفعل .. الأحكام التى إذا فعلتها نجوت .. وإذا لم تفعلها عوقبت .. هذه لا تبديل فيها ولا اجتهاد .. لأن الله

معجزة القرآن وكيف تختلف

سبحانه وتعالى هو الذى يحدد لنا كيف نعبده . . وهو الذى يختار لنا الطريق . .
نأتى بعد ذلك إلى الأشياء المتصلة بقوانين الكون والخلق . . تلك الأشياء التى
لم يكن للعقل البشرى الاستعداد العلمى وقت نزولها ليفهمها تماما . . مثلا
كروية الأرض . . احدى الحقائق التى تحدث عنها القرآن . . الغلاف الجوى
المحيط بالأرض احدى الحقائق التى تحدث عنها القرآن . . علم الأجنة تناوله
القرآن . . دوران الأرض حول نفسها . . الزمن . . ونسبية الزمن . . وعدد من
حقائق الكون الأساسية . . نجد أن الآيات التى تتناول هذه الأشياء مرّ الرسول
صلى الله عليه وسلم عليها مرورا وترك للعقل فى كل جيل أن يأخذ قدر
حجمه . . والمعجزة هنا فى القرآن انه يعطى لكل عقل قدر حجمه . . ويعطى
لكل عقل ما يعجبه ويرضيه . . فترى غير المتعلم يطرب للقرآن ويمجد فيه
ما يرضيه . . ونصف المتعلم يجد فى القرآن ما يرضيه . . والمتبحر فى العلم يجد
فى القرآن اعجازا يرضيه . .

هذه واحدة . . من اعجاز القرآن الكريم . . انه يقدم لكل نفس باستخدام
الآيات والألفاظ التى تؤدى إلى المعنى . . فإذا ما كشف الله للبشر عن سر من
أسرار كونه . . ورجعنا إلى الآية نجدها تؤدى نفس المعنى . .

رب المشارق والمغرب

ولنضرب مثلا يوضح ذلك . . يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز . .

« رب المشرق والمغرب »

« رب المشرقين ورب المغربين »

« رب المشارق والمغرب »

لو أخذنا كل آية من هذه الآيات وقت نزول القرآن الكريم على حجم تفكير
العقل البشرى فى ذلك الوقت . . نجد أن مفهوم المشرق هو جهة شروق
الشمس . . ومفهوم المغرب هو جهة غروب الشمس . . فعندما يقول الله
سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب . . فليس هناك تعارض بين العقل والآية فى
ذلك . . نأتى بعد ذلك للآية الكريمة « رب المشرقين ورب المغربين » نقول إذا
كان المشرق هو جهة الشرق . . فإن رب المشرقين معناها أنها تجمع بين عمومية
الجهة وهى الشرق . . وبين المكان المحدد لشروق الشمس . . بمعنى أنك تقول

معجزة القرآن وكيف تختلف

هذا هو الشرق .. وهذا هو الغرب .. وتشير بيدك إلى جهة المشرق أو المغرب .. فإذا أردت أن تحدد مكان شروق الشمس .. فإنك تقول أن الشمس تشرق من هنا .. وتحدد المكان بالضبط .. هذا هو التفسير في وقت نزول الآية .. ثم نأتى بعد ذلك إلى « رب المشارق والمغارب » .. التفسير وقت نزول الآية هو أن كل بلد له مشرق وله مغرب .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى هو رب المشارق كلها والمغارب كلها ..

فإذا جئنا إلى هذه الآيات اليوم لوجدنا تفسيرها يختلف .. رب المشرق والمغرب .. هذه قالوا عنها عمومية .. ولكن الله سبحانه وتعالى قرن كلمة المشرق بالمغرب لأنه لا يوجد مشرق بدون مغرب .. كروية الأرض تحتم هذا .. ففي الوقت الذي تغرب فيه الشمس على جهة .. في نفس الوقت .. وفي نفس اللحظة تشرق على جهة أخرى .. إذن قول الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب .. ولم يقل رب المشرق ورب المغرب .. أو الله المشرق ، أو الله المغرب .. حيث كان المعتقد وقت نزول القرآن أنها جهتان مختلفتان تماما .. متقابلتان بالنسبة للعين المجردة .. ولكن قول الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب .. معناها أن الشروق والغروب يتم في وقت واحد .. أى أن الشمس تغرب على بلد في نفس الوقت تشرق فيه على بلد آخر ..

نأتى بعد ذلك للآية الكريمة :

« رب المشرقين ورب المغربين »

لماذا قال المشرقين بالذات والمغربين .. إذا نظرنا إلى الكرة الأرضية نجد انها مقسمة إلى جزئين .. نصف مضيء .. ونصف معتم .. والنصف المضيء له مشرق ومغرب .. بينما النصف المعتم يسبح في ظلام دامس .. فإذا استدارت الكرة تماما يواجه النصف المظلم الشمس والنصف المضيء يصبح ظلاما .. أصبح نصف الكرة الذي كان مظلمًا له مشرق .. ونصف الكرة الذي كان مضيئًا يسبح في ظلام .. إذن فالكرة الأرضية في عموميتها لها مشرقان .. مشرق مضيء منه الشمس نصف الكرة ومغرب .. ثم تستدير الكرة كلها .. فيأتى نصف الكرة الآخر فيكون له مشرق ومغرب .. إذن فأية رب المشرقين ورب المغربين تعرض لنا بأن نصف الكرة يكون ظلاما ليس له مشرق ولا مغرب .. والنصف الآخر يكون مضيئًا له مشرق ومغرب .. وعندما ينعكس الوضع يصبح هذا

معجزة القرآن وكيف تختلف

النصف له مشرق ومغرب .. وهذا النصف لا مشرق له ولا مغرب .. وهكذا في عمومية الكرة الأرضية .. هناك مشرقان ومغربان .. فإذا انتقلنا إلى رب المشارق والمغرب .. نجد أنه بعد أن تقدم علم الفلك لا يوجد مشرق واحد .. ومغرب واحد لأي دولة في العالم .. وإنما هي مشارق ومغرب ..

إذن فزاوية الشروق تتغير . وزاوية الغروب تتغير .. ولكن الحس لا يدرك ذلك .. بل إنه إذا نظرنا إلى الكرة الأرضية نجد أنه في كل جزء من الثانية مشرق تشرق الشمس فيه على مدينة وتغيب عن مدينة أخرى .. أى أن هناك ملايين المشارق والمغرب لكل بقعة من الأرض .. المشرق والمغرب للبلدة الواحدة لا يتكرر طوال أيام السنة .. لا تشرق الشمس على بلدة من نفس مكانها الذى أشرقت منه فى الأمس .. أو تغرب على بلد من نفس مكانها الذى غربت منه بالأمس .. وإن كانت جهة الشرق واحدة .. إلا أن المشرق تختلف زاويته كل يوم .. وكذلك المغرب .. وتختلف فى فصول السنة .. وفى أيام الصيف عن الشتاء عن الخريف عن الربيع .. وهذا لا يمكن أن يحدث إلا من حركة دوران الأرض حول الشمس مرة كل عام .. فإن هذه الحركة هى التى تجعل لكل يوم مشرقا ومغربا بزاوية مختلفة .. بل بتوقيت مختلف عن اليوم الآخر .. وأبسط شئ لتدرك هذا بدلا من الدخول فى التعقيدات الفلكية هو صيام شهر رمضان .. ففى كل يوم تفتقر فى مغرب مختلف عن المغرب الآخر فى الوقت .. وكذلك تمتنع عن الطعام فى مشرق مختلف عن المشرق الآخر فى الوقت .. وأوقات الصلاة تختلف كل يوم من أيام العام .. تبعا لحركة الأرض حول الشمس ..

واختلاف المشارق والمغرب يبين - بخلاف أن الأرض تدور حول الشمس - إن الأرض كروية .. فلو كانت الأرض مسطحة .. كان لابد أن تطلع الشمس من مشرق واحد .. وتغيب من مغرب واحد .. حينئذ لا يكون هناك مشارق ومغرب .. ولكن كونها كروية .. وكونها تدور حول نفسها وحول الشمس هو الذى يجعل هناك مشارق ومغرب ..

والذى أريد أن أقوله أن عطاء القرآن فى الأولى ، رب المشرق والمغرب لم يبلغ عطاءه فى الثانية وهو رب المشرقين ورب المغربين .. وهو لا يبلغ عطاءه فى

معجزة القرآن وكيف تختلف

الثالثة وهو رب المشارق والمغارب ..

بل أن التقدم العلمي الذي غير كثيرا من مفاهيم الكون لم يستطع أن يغير معنى الآيات الكريمة .. بل انسجم معها .. ويحضرني قول قرأته في أحد المخطوطات القديمة يقول كاتبه « يا زمن وفيك كل الزمن » ومعنى هذا القول ان الزمن نسبي في الكون . فمثلا عندما أودى أنا الظهر هناك أناس في مكان آخر يصلون العصر .. وأناس في مكان ثالث يصلون المغرب .. وأناس في مكان رابع يصلون العشاء .. وأناس في مكان خامس يصلون الفجر .. أى أنه في الوقت الواحد يؤذن لله على ظهر الأرض الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر .. إذن فالله مذكور في كل زمن وبجميع أوقات الزمن .. هذه آية من آيات القرآن الكريم اتضح دقة معناها عندما تقدم العلم .. كان لها عطاء وقت نزول القرآن .. ولها عطاء مختلف الآن .. وربما يكون لها عطاء آخر في الأزمنة القادمة بعد أن يتقدم العلم .. والاعجاز هنا أن القرآن يعطى لكل جيل عطاءه .. ويعطى لكل عقل حاجته دون أن يتناقض مع الحقيقة العلمية أو يتصادم مع حقائق الكون .. فهو متجدد العطاء دائما .. وحقائق الكون لا يمكن أن تتصادم أبدا مع القرآن .. لأن الله هو الفاعل .. والله هو الخالق .. والله هو القائل .. هذه إحدى نواحي اختلاف القرآن الكريم في معجزاته عن الكتب السماوية الأخرى .. وهو ما سأحدث عنه بالتفصيل في الفصول القادمة ..

حفظ القرآن وتطبيق القرآن

على أن هناك ناحية ثانية وهي أن معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل اختلافا آخر .. فكل رسول كانت له معجزة وكتاب ومنهج .. معجزة موسى العصا .. ومنهجه التوراه .. معجزة عيسى الطيب .. ومنهجه الانجيل .. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزته هي عين منهجه .. ليظل المنهج محروسا بالمعجزة وتظل المعجزة محروسة بالمنهج .. وهنا فقد كانت الكتب السابقة للقرآن داخلة في نطاق التكليف .. بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يكلف عباده بالمحافظة على هذه الكتب ..

ماذا حدث عندما كلف الله عباده بالمحافظة على هذه الكتب ؟

معجزة القرآن وكيف تختلف

نسوا حظا مما ذكروا به .. أى أنهم نسوا ما ذكرهم الله سبحانه وتعالى به .. وما لم ينسوه حرفوه .. لووا ألسنتهم به .. وما لم يلووا ألسنتهم به زادوا عليه وجاءوا بأشياء من عندهم وقالوا إنها من عند الله ليشتروا بها ثمنا قليلا .. إذن فتكليف الله سبحانه وتعالى لعباده أن يحافظوا على الكتب السابقة ، أدخلوا فيها هوى النفس وأخضعوها للتحريف .. لكن عندما أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن قال :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

لماذا .. أولا لأن القرآن معجزة .. وكونه معجزة لا بد أن يبقى بهذا النص وإلا ضاع الإعجاز .. وثانيا لأن الله جرب عباده في الحفاظ على الكتب السابقة فلم يحفظوها وحرفوها ..

وهنا نلاحظ شيئا هاما يبين لنا أن معجزة القرآن محفوظة من الله سبحانه وتعالى .. لو أخذنا خطين .. خط تطبيق القرآن والعمل بتعاليمه .. وخط المحافظة على القرآن .. نرى أن تطبيق القرآن والعمل به كلما مر الزمن قل وضعف .. أما المحافظة على القرآن .. فكلما مر الزمن زاد بشكل عجيب .. حتى أنك ترى القرآن الآن في كل مكتب .. وفي السيارات .. وعلى صدور السيدات .. وفي المنازل .. وفي كل مكان .. وتجد تجميلا في القرآن من أناس لا يؤمنون به .. فترى رجلا ألمانيا .. مثلا يكتب القرآن كله في صفحة واحدة .. ويخرجه بشكل جميل وهو ربما لم يقرأ القرآن في حياته .. وتجد اليابان مثلا تتفنن في طبع المصاحف الجميلة ، فإذا سألت لماذا لا يفعلون ذلك في الكتب الأخرى ؟ نقول لك إنهم مسخرون لذلك ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظ القرآن .. وكل هذا الحفظ الذى تراه هو من عمل الله .. وليس من عمل الإنسان .. وأنت حين ترى القرآن في مكتب أو سيارة أو منزل وتساءل صاحب المنزل أو السيارة .. أو المكتب هل تعمل بهذا القرآن ؟ هل تؤدي الصلاة كما يجب ؟ يقول لك لا ؟ إذن لماذا تحتفظ بالقرآن في منزلك دون أن تعمل به ؟ فلا يستطيع أن يجيب أو يقول لك إنه بركة ..

ومن هنا فإن غفلتنا عن تعاليم القرآن كسلوك في الحياة لا تتمشى مع ازدياد الحفاظ على القرآن الكريم .. أحيانا تجد غير المسلم يحافظ على القرآن ويحمله .. وأحيانا تجد من لا يطبق القرآن يقتنى أكبر عدد من المصاحف ..

معجزة القرآن وكيف تختلف

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الذى يحفظ القرآن هو الله . . . وإنه كلما نقص خط العمل بالقرآن ازداد خط الحفاظ عليه ، لأن العباد هم المكلفون بالعمل . . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظه . . .
نتنقل بعد ذلك إلى نقطة ثانية وهى أن القرآن نزل رحمة للعالمين أو للعالم أجمع . . . وهذه إحدى معجزات القرآن . . . فقد كان الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل المختلفة إلى المجتمعات المختلفة لتعالج الداءات وتهدى الناس إلى سبيل الله . . . وكان لكل مجتمع داء يختص به دون سائر المجتمعات البشرية . . . لذلك اقتضى الأمر أن يأتى رسول ليعالج داءات هذا المجتمع . . . بل إن الله سبحانه وتعالى أرسل أكثر من رسول فى وقت واحد لمعالجة داءات مختلفة . . . فإبراهيم عليه السلام . . . ولوط أرسلوا فى وقت واحد . . . لماذا ؟ لأن المجتمعات فى ذلك الوقت كانت مجتمعات منعزلة لا يعرف بعضها عن بعض شيئاً ، وذلك بسبب سوء المواصلات وعدم وجود التقدم العلمى الذى يتيح سرعة الاتصال بين هذه المجتمعات . . . بل إن هذه المجتمعات كانت تعيش وتنفى دون أن يدرك مجتمع منها عن الآخر شيئاً . . . كما أن الداءات فى هذه المجتمعات كانت مختلفة . . . فمنهم من كان لا يوفى الكيل والميزان . . . ومنهم من كان يعبد الأصنام . . . ومنهم من كان يفسد فى الأرض ، ولكن بعد أن تقدم العلم أصبح العالم كله مجتمعاً واحداً . . . يحدث شىء فى أمريكا . . . وبعد دقائق تجده فى مصر . . . ويحدث شىء فى اليابان . . . وبعد ساعات تجده فى أوروبا . . . إذن الاتصالات أصبحت سهلة وميسرة . . . والعالم كله اقترب من أن يصبح وحدة واحدة . . . ومع تعدد الاتصالات وسهولتها توحدت الداءات . . . فأصبح ما يشكو منه بلد تشكو منه معظم البلاد الأخرى . . . فكان لا بد من وحدة العلاج . . . فمثلاً الدعاية للكفر والشيوعية داء استشرى فى كل أنحاء العالم . . . ولم يترك دولة دون أخرى . . . النظام المالى والربا تجده فى الدنيا كلها . . . أكل المال بالباطل والسرقة داء استشرى فى معظم دول العالم . . . إذن الداءات أصبحت واحدة . . . وهذا يقتضى وحدة العلاج . . . ومن هنا جاء الدين الإسلامى للعالمين . . . أى للدنيا كلها . . . لأن وحدة الداء تقتضى وحدة العلاج . . . وهذا من معجزات القرآن الكريم . . . فإن الله قد وضع وحدة العلاج قبل أن تتحقق وحدة الداء فسبق بذلك علم البشر . . .

معجزة القرآن وكيف تختلف

القرآن حدد مصدر العلم للبشر

فرق آخر بين معجزة القرآن والمعجزات الأخرى ، هو أنه حدد مصدر العلم البشرى . . وروى لنا كيف يتعلم الإنسان . . فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز . .

« وعلم آدم الأسماء كلها »

ومن هنا حدد مدخل العلم إلى البشر . . فأنت حين تريد أن تعلم طفلك . . تبدأ بتعليمه الأسماء . . فاللغة هي وسيلة للتفاهم بين البشر . . فهذا الإنسان الذى خلقه الله . . والذى عمر الأرض . . وأقام كل ما نشاهده من مدنية وحضارة . . كان يجب أن تكون هناك وسيلة للتفاهم بين البشر . . فبدون وجود وسيلة للتفاهم لا يمكن أن تقوم حضارة أو يتم تعايش حقيقى . . أو ينتقل العلم من جيل إلى جيل ليتقدم كل جيل ويأخذ حظه من المعرفة عن الجيل الذى سبقه . . ويضيف إليه . . وكانت هذه الوسيلة هي اللغة أو الكلمة التى تسمعها الأذن ويتكلم بها اللسان . . وإذا ولد الإنسان أصم لا يسمع فإنه لا ينطق . . وأمما الأمثلة فى العالم أجمع . . على أن أى إنسان لا يسمع لا يستطيع أن ينطق . .

إذن فليست اللغة هي فصيلة دم ولا بيئة . . ولا جنسا . . ولا وراثة . . ولا تعتمد على بشر معين . . وإنما ما نسمعه نتكلم به . . فلو إننى أتيت بإنسان فرنسى أو هولندى . . أو أفريقى . . أو من أى جنسية فى العالم . . أتيت به كطفل رضيع . . وتركته فى بيئة لا تتكلم إلا اللغة العربية . . فإنه سيتكلم لغة البيئة التى عاشها . . بصرف النظر عن جنسيته . . ولو إننى أتيت بإنسان عربى ووضعتة فى بيئة لا تتكلم العربية لصعب عليه بعد ذلك أن يتحدث باللغة العربية . .

إذن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . . فلا جدوى من النطق بألفاظ إلا إذا كانت معانيها قد شرحت أولا والأصل أن يوجد الشيء ثم يوضع له اسم . . فأنت مثلا لا تستطيع أن تطلق لقب كوب إلا إذا وجد الكوب أولا . . وإلا فالكلمة ليس لها معنى . .

نعود إلى معجزة القرآن . . والقرآن كلام الله . . والكلام هو أساس الحضارة . . وأساس العلم الذى نزل من الله إلى الإنسان . . فالله سبحانه

معجزة القرآن وكيف تختلف

وتعالى يقول في كتابه العزيز ..

« وعلم آدم الأسماء كلها »

ونحن الآن حين نريد أن نعلم طفلا أن يتكلم فلا بد أن نبدأ بأن نعلمه الأسماء أولا .. ولا نبدأ بأن نعلمه الأحداث .. بل نبدأ ونقول له هذا قلم .. وهذه كراسة .. وهذا أسد .. وهذا كوب .. وهذا طعام .. وهذا طريق .. وهذا نور .. وهذا ظلام ..

إذن نحن نعلمه الأسماء أولا .. فإذا ما تعلم الأسماء أصبح يستطيع بعد ذلك أن يتعلم وأن يتكلم ذلك أننا لا نعلم الطفل الأسماء في المدرسة فقط .. بل نحن نعلمه بالفطرة .. الطفل المتعلم والجاهل يتعلم الأسماء .. فالأم تعلم الطفل الذي لا يذهب إلى المدرسة .. والمدرسة تعلم الطفل الذي يذهب إلى المدرسة .. ولكن الاثنان لكي يستطيعا التفاهم في الحياة يجب أن يتعلما الأسماء أولا .. فنجد أن الطفل الجاهل والمتعلم يعلم معنى الأسماء .. فهو يعلم معنى كلمة طريق .. أو كوب .. أو أسد .. أو نعامة أو إلى آخره .. لا فرق بين جاهل ومتعلم .. لأن هذا هو مدخل التفاهم بين البشر .. وأساس هذا التفاهم كما وضعه الله سبحانه وتعالى حين « علم آدم الأسماء » .. فأصبحت هي الأساس في العالم أجمع .. والآن بعد أربعة عشر قرنا نجد أن أساس العلم في الدول المتقدمة .. والدول غير المتقدمة هو الأسماء .. بل ان الدول المتقدمة لسرعة تعليم الأسماء باعتبارها أساس التفاهم في الحياة .. تأتي بصور لتعلم الأطفال الأسماء دون أن تضيع الوقت بتعليم الحروف الأبجدية .. ويستطيع الطفل أن يتعلم أى شيء آخر .. بعد ذلك ..

القرآن منهج للحياة

معجزة القرآن تختلف أيضا عن معجزات الرسل الأخرى .. إنه لا توجد قضية تمس حياة البشر إلا ويوجد في منهج الله سبحانه وتعالى ما يعالج هذه القضية .. نحن نقول يعالج .. لأن التشريعات عندما تأتي تعالج واقعا موجودا في المجتمع وفسادا انتشر .. ومن هنا فإن القرآن قد تعرض لقضايا الكون جميعها وأوجد لها العلاج ، وأوجد لها الشفاء والذي يدعيه البعض أن منهج الله لا يعالج قضايا العصر .. دليل على أنهم لم يدرسوا هذا المنهج .. ولم يتعمقوا

معجزة القرآن وكيف تختلف

فيه .. فما من قضية أساسية في المجتمع إلا ويعالجها القرآن الكريم .. ولكن هنا يقع بعض اللبس .. فقد يقول بعض الناس : إن القرآن مثلا لا يعالج قضايا زيادة إنتاج الأرض أو الاختراعات الحديثة إلى آخر هذا الكلام .. والذي يجب أن يعرفه الناس جميعا أن القرآن هو منهج عبادة .. ولكنه حينما يأتي ليعالج ، لا يعالج الخصوصيات .. وإنما يضع المبدأ .. فهو حين يطلب منا أن نقب في الأرض ونبحث عن آيات الله .. وأن نتعلم في أمور الدنيا .. وأن نعمل ونتج .. ونعمر الأرض إنما هو يطلب منا لو اتبعناه لاستطعنا أن نصل إلى أكبر تقدم يمكن أن يحققه بشر .. إذن المبدأ موجود في ضرورة البحث في الكون .. ومواصلة البحث والدراسة .. ومن يبحث ويدرس في قلبه إيمان بالله .. وشعور بعظمة الله وقدرته يستطيع أن يحقق الكثير .. والكثير جدا .. المبدأ هو أن نزرع ونعمر ونكشف عن آيات الله فيها .. فإذا تقاعسنا عن هذا كله .. وإذا لم نفعل ذلك .. فلا يمكن أن نستغرب .. أو أن نتعجب لأن غيرنا من الأمم قد تقدم علينا .. فنحن تركنا منهج الله في العمل .. فلا بد أن يتركنا قانون الله في النتيجة .. وهذا هو الجمال في الحياة .. فلا يمكن أبدا أن يكون هناك جمال في الحياة .. إذا كان الطالب المجد .. والطالب الذي لا يقرأ كتابا في حياته كلاهما ينجح .. ولا يمكن أن يكون هناك جمال في الحياة إذا كان الإنسان الذي يحرث الأرض ويعتنى بها ويسقيها ويعالجها من الآفات .. والإنسان الذي يترك الأرض ولا يعمل فيها شيئا بل يهملها تماما .. كلاهما يجني نفس المحصول ، إذا حدث هذا فإن الجمال في الحياة يختفى ويصبح كل شيء قبيحا فلا تجد طالبا ينبغ .. ولا عالما يخترع .. ولا إنسانا يضيف إلى الحياة شيئا .. ولا مدينة تبنى مادام من يعمل ومن لا يعمل سيحصلان على نفس النتيجة .. ويحققان نفس الشيء .. ولكن الجمال في الحياة في تناسب النتيجة مع العمل .. وعن هذا يتحدث القرآن في الدنيا والآخرة ..

وبذلك نكون قد عددنا أوجه الخلاف في معجزة القرآن عن معجزات الرسل الأخرى .. فالقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق .. والقرآن للعالمين ، أى للدنيا كلها .. وليس لقوم محددين والقرآن يحوى الحقائق الأساسية في الكون كله .. ويأتى بها واضحة في ألفاظ تنسجم مع قدرة العقول التي عاشت وقت نزول القرآن .. وقدرة العقول في كل جيل بعد ذلك ..

معجزة القرآن وكيف تختلف

فالقرآن يعطى لكل عقل حجمه ..

ومعجزة القرآن تختلف أيضا في أن الله هو الذى يحفظ كتابه ، أما معجزات الرسل السابقة .. فقد كلف الله البشر بحفظها فحرفوها ونسوا ما ذكروا به .. وأضافوا إليها .. ولكن الله سبحانه وتعالى حفظ القرآن من أن يحدث فيه أى تغيير .. كما أن القرآن كلام الله الذى بدأه مع آدم .. والذى هو أساس العلم البشرى كله ..

ولكن القرآن جاء يتحدى العرب فى اللغة .. وفى البلاغة .. وذلك ما سنتحدث عنه فى الفصل القادم ..



الفصل الثالث

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

القرآن كلام الله سبحانه وتعالى .. ومادام كلام الله فيجب أن يكون معجزا .. لأن قائله هو الله سبحانه وتعالى ليس كمثلته شيء .. ولقد أذهلت بلاغة القرآن عند نزوله ، العرب ، وهم أساتذة البلاغة في ذلك الوقت .. وبهتوا لما فيه من اعجاز .. ومن بلاغة .. وقال بعض العرب في ذلك الوقت ان أساتذة البلاغة قادرين على أن يأتوا بمثل هذا الأسلوب .. ولكنهم صرفوا من الله على أن يأتوا به .. وهذا القول هو اثبات بأن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى .. فلو أنه ليس كلام الله لما صرف الله العرب عنه أن يأتوا بمثلته .. وأثبتوا أن اعجاز القرآن الكريم موجود .. ولكنهم جعلوا هذا الاعجاز بالقدرة .. أي أن قدرة الله سبحانه وتعالى قد صرفتهم عن أن يأتوا بمثلته .. وكان هدفهم أن ينفوا الاعجاز عن ذاتية القرآن .. في أن بشرا لا يستطيع أن يأتي بمثلته . وبهذا النفي الذي أرادوه أعطوا للقرآن معجزة أخرى ، وهي معجزة القدرة ..

على أن اعجاز القرآن يجب أن ننظر إليه من الدائرة الأولى التي استقبلته .. وهي رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فالمنطقي والطبيعي مادام القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، يكون أبلغ الكلام .. ويكون فيه معجزة .. وبلاغة القرآن لها عناصر لا بد أن تتوافر فيها .. فالبلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال .. ومقتضى حال المخاطب بالذات .. ولكن العجيب أن القرآن في هذه الناحية ، وهي مطابقة الكلام بمقتضى الحال .. فيه معجزة كبرى .. فأحوال الناس متعددة .. متغيرة .. وأنت حين تخاطب إنسانا إذا لم تعرف ما في نفسه .. فإنك لا تستطيع أن تصل إلى أعماقه .. ومخاطبتك لرئيس الدولة مثلا .. أو الأمير .. تختلف في أسلوبها وطريقتها عن مخاطبتك لخدمك أو من يعمل عندك .. تختلف في أسلوبها عن مخاطبتك لزوجتك وأولادك .. وكل ذلك يختلف عن مخاطبتك لرئيسك في العمل .. أو لمرؤوسيك .. إلى آخر النوعيات التي تخاطبها .. بل إن الأمر يمتد أكثر من ذلك إلى الحالة النفسية التي فيها المخاطب .. فإنسان غاضب في قمة غضبه لا يمكن أن تخاطبه بنفس الأسلوب .. وبنفس الطريقة التي تخاطب هذا الشخص ذاته بها عندما يكون في حالة نفسية سعيدة .. هذا له كلام .. وهذا له كلام آخر .. مخاطبة الإنسان

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

الغاضب لها طريقة .. ومخاطبة الإنسان الذي هو في حالة نفسية سعيدة لها طريقة أخرى .. ولكن اعجاز القرآن يأتي في أنه يحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعا .. الغنى منهم والفقير .. التعميس منهم والسعيد .. الخادم منهم والسيد .. إنه يخاطبهم جميعا .. ويخاطبهم في حالاتهم النفسية كلها .. فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه .. والإنسان السعيد إذا سمع القرآن اهتز في داخل نفسه .. وزادت سعادته .. والأمير .. والخادم .. والمتقف .. وغير المتعلم .. وهؤلاء جميعا الذين لا يمكن أن يجتمعوا على أى مستوى .. ولا أن تتوحد عقلياتهم .. بحيث يكلمهم متحدث واحد .. وفي نفس الموضوع فيفهمونه .. تراهم في الصلاة .. وقد اجتمعوا في المسجد .. وجلسوا معا .. ويتلى القرآن فيهز قلوبهم جميعا .. رغم اختلاف الثقافة والبيئة والحالة النفسية .. والحالة الاجتماعية وكل شئ اختلافنا .. ومن هنا كان الاعجاز الأول في بلاغة القرآن .. انه يحيط بعلم حالات أفراد متعددين .. من أجناس مختلفة .. وشعوب مختلفة .. وثقافات مختلفة .. ولغات مختلفة .. وبيئات مختلفة .. لم يخاطبهم بما يهز وجدانهم ومشاعرهم .. ويؤثر في عواطفهم .. فإذا سألت أحدهم ما الذى أعجبك في القرآن .. فإنه غالبا لا يستطيع أن يعطيك جوابا شافيا .. وإنما سيعطيك كل واحد منهم جوابا مختلفا .. وذلك يدل على أن الاعجاز واصل إلى قلبه .. متغلغل في نفسه .. بما لا يستطيع هو أن يصفه الوصف الكامل .. أى أن القرآن يخاطب في النفس البشرية أحاسيس وملكات لا يعلمها إلا خالقه .. وهذه الملكات لو عرفناها لعرفنا لماذا تتأثر بأسلوب القرآن .. ولكننا نظل نبحث ونحوم حول الآيات التي أعطت القرآن هذه البلاغة .. ثم بعد ذلك لا نجد جوابا شافيا .. إذ إن الله سبحانه وتعالى يخاطب في النفس البشرية ملكات هو خالقها .. وإن هذه الملكات تتأثر بكلام الله سبحانه وتعالى .. وتهتز له دون فارق من فوارق الدنيا .. أو من الفوارق التي وضعتها الحياة الدنيا بين الناس .. ولذلك كان أخشى ما يخشاه الكفار أن يستمع الناس إلى القرآن .. ولو كانوا غير مؤمنين .. فقد كان القرآن بمخاطبته لملكات كل نفس يهزها هذا عنيقا .. ويجعلها تتأثر به .. حتى أن الوليد بن المغيرة حين استمع إلى القرآن قال : إن له حللوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق . وإنه يعلو ولا يعلى

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

عليه .

وهكذا تأثر به دون إيمان .. وعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين دخل بيت صهره بعد أن علم باسلام أخته وزوجها كان ناويا الشر .. وما إن استمع إلى آيات من القرآن حتى هدأت نفسه وانشرح صدره للإسلام .. لماذا ؟ لأن كلام الله سبحانه وتعالى قد خاطب ملكة في نفسه .. وهو في غاية الضيق والحمق .. وينوى الشر .. وخاطب هذه النفس ، نفس عمر بن الخطاب ، وهى في هذه الحالة من الغضب الشديد بنفس الكلام الذى يخاطب به المؤمنين ، وهم في حالة انسجام وسعادة شديدة لقربهم إلى الله سبحانه وتعالى .. وإذا بالآيات ، نفس الآيات التى تدخل السعادة على نفس قريبة من الله .. قد أدخلت الهدوء والانسجام على نفس لم تكن قد آمنت .. وأصابت في نفس الوقت نفوسا سعيدة وهى نفوس المؤمنين .. فجعلتها تزداد سعادة .. وتنشرح للإسلام .. ونفسا غاضبة تنوى الشر لم تصل إلى الإيمان بعد .. فهدأتها وجعلتها سعيدة .. وانشرح الصدر للإيمان .. مع أن الكلام واحد .. وفرق كبير بين حالة المخاطب في الحالتين .. ومع ذلك ولأن القائل هو الله سبحانه وتعالى .. وهو العالم بالنفس البشرية التى خلقها .. فقد كان كلامه مناسبا لكل حالات المخاطب مهما اختلفت هذه الحالات .. مع أنه نفس الكلام .. إذن فهناك فى النفس ملكات خفية عن الإنسان .. لا يعرف سرها إلا الله سبحانه وتعالى .. ويقوم الله بمخاطبة البشر على اختلاف أحوالهم .. فتتهز هذه الملكات .. وتتأثر وينسجم الإنسان معها دون أن يعرف السر ..

قالوا ساحر .. وقالوا مفتر

إذا وصلنا إلى ذلك .. نكون قد تحدثنا عن أول شروط البلاغة .. وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال .. ونجد أن القرآن فى هذه الناحية قد تخطى كل شروط البلاغة فى أنه مطابق لكل أحوال البشر .. على اختلاف ظروفهم .. ولذلك تحير الكفار فى هذا الاعجاز فى مخاطبة البشر جميعا .. وفى هذا الاعجاز الذى تهتز له قلوب كل من يسمعه ويفهمه .. فقالوا ساحر .. سحر الناس بكلامه .. لأنه لا يمكن لبشر عادى أيا كان أن يأتى بكلام يطابق كل الأحوال .. ولو أخذنا أبلغ بلغاء العصر .. وقلت له انظم قصيدة .. أو أعد

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

كلاما لتلقيه أمام الناس .. فهو لا يستطيع أن يعد كلاما يقوله أمام مجموعة من المتبحرين في العلم .. وفي نفس الوقت يقوله أمام مجموعة من غير المتعلمين .. ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال .. ولا أن يعد قصيدة يمدح بها أميرا .. ثم يقول نفس القصيدة في خادام الأمير .. ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال .. ولكنهم وجدوا أن القرآن يخاطب المتعلم وغير المتعلم .. والعبد والسيد .. والرجل العادى والحاكم .. ومن هنا كانت المطابقة معجزة .. فقالوا ساحر .. فليأتوا بسحر مثله .. ثم هل للمسحور خيار أو ارادة مع الساحر .. اذا كان محمد عليه السلام قد سحر من آمن به .. فلماذا لم يسحركم أنتم .. ان بقاءكم على الكفر ومحاربة الدين ، دليل على أنه ليس ساحرا .. وإلا لو كان ساحرا لكان قد سحركم جميعا .. ولم يسلب بعض الناس ارادتهم .. ويترك البعض الآخر على ارادته ..

ثم انتقلوا إلى نقطة أخرى .. قالوا مفتر .. نقول لهم مادمتم قد فهمتم أنه مفتر .. فافتروا أنتم إن كنت تستطيعون .. بل إنكم أنتم أيها الكفار أقدر منه على الافتراء .. فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس له دراية بفن الكلام .. والخطب والشعر والأدب .. بل إنه لا يقرأ ولا يكتب .. ولا يقول الشعر .. أما أنتم فأساتذة الكلام والبلاغة ، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة .. ولم يقل شعرا أو أدبا .. قد قال هذا الكلام .. وأنتم تقولون انه مفتر .. فوسائل الافتراء تملكون أسبابها أكثر من محمد عليه الصلاة والسلام .. عندكم الشعراء والأدباء .. فافتروا مثله .. وأداة الافتراء موجودة تستطيعون أن تستغلوها .. ولقد أراد القرآن أن يرد على هذا الاعجاز .. فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا
﴿ مَّا تَدَّكُرُونَ ﴾ (٤٢)

(سورة الحاقة)

حتى الرد فيه اعجاز .. فالشعر مفهوم .. انه من كلام موزون مقفى يعرفه

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

الناس جميعا .. ومن هنا فكونكم تقولون ان هذا شعر .. فهذا دليل على أنكم تكفرون .. لماذا؟ .. لأنكم تعرفون الشعر معرفة جيدة .. وهذا ليس شعرا بأوزانه وقوافيه .. ولذلك عندما تقولون أيها الكفار انه قول شاعر .. وما تقولونه ليس عن جهل .. ولكن عن كفر بالله سبحانه وتعالى لأنكم تعرفون الشعر جيدا .. ثم قال الله سبحانه وتعالى .. وإنما تقولون إنه قول كاهن .. فهنا استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة تذكرون .. أي انكم في قولكم انه قول كاهن .. وقول الكاهن كلام فيه سجع .. ويمكن أن يختلط .. ولكن قول الكاهن لا يمكن أن يخاطب كل الملكات .. ولا يمكن أن يكون فيه كل هذا الاعجاز .. كما أن الكاهن يفضحه طول الوقت .. والزمن .. ومن هنا فإنه كبشر ينسى ويأتي بعكس ما قاله نتيجة لمرور الوقت والزمن .. ولذلك عندما رد الله سبحانه وتعالى على قولهم انه كاهن .. كان الرد بكلمة تذكرون .. لأنه من الواضح أن هذا ليس شعرا .. ومن هنا فإنه يمكن أن يختلط بكلام الكهان .. والفرق بين النثر والشعر في هذه الحالة هو أولا الاعجاز في مخاطبة ملكات النفس البشرية .. وثانيا طول الزمن الذي يجعل الكاهن ينسى ما قال .. ومن هنا قال الله سبحانه وتعالى « قليلا ما تذكرون » أن البشر معرض أن ننسى ما يقوله .. فاستخدم كلمة تذكرون .. ولم يستخدم كلمة تؤمنون .. أو الكفر .. التي استخدمها في الحالة الأولى عندما قالوا قول شاعر .. لأن الشعر له قواعد معروفة ..

نأتي بعد ذلك إلى اعجاز آخر في القرآن .. انه إذا قرأت أي كلام مشور .. ثم جاء الكاتب فاستشهد ببيت من الشعر .. تشعر ساعة ينتقل الكاتب أو المتكلم من النثر إلى الشعر .. انك انتقلت من طبيعة كلام إلى كلام آخر .. ثم تترك بيت الشعر وتعود إلى النثر فتعرف أيضا إنك انتقلت من كلام إلى كلام آخر .. نأتي إلى رسالة بن زيدون التي يقول فيها : « ومع اليوم غد .. ولكل أجل كتاب له الحمد على اهتباله .. ولا عتب عليه في اغفاله » .. فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا

فأفعاله اللاتى سررن ألوف
وهنا نلتفت فنجد اننا انتقلنا من النثر إلى الشعر في كلام في غاية الانسجام .. ولكي نعرف الفرق ..

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

نأتى إلى القرآن الكريم .. كلام الله .. اقرأ القرآن ..

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
 وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾
 لَا يُمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِيِّ عِبَادِي
 أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾
 وَنَبِّئِهِمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ
 إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُوتٌ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الحجر)

أنت قرأت هذا النص القرآني ولم تشعر أنك قد انتقلت من النثر إلى الشعر إلى النثر مرة أخرى دون أن تدري .. أى أنك انتقلت من شيء منشور إلى شيء منظوم .. ثم من شيء منظوم إلى شيء منشور .. وأتحدى أن يأتي بها إنسان عندما تنظر إلى الكلام الذى قيل « نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم .. وأن عذابى هو العذاب الأليم » ما جنى بارقات مستفعل فاعلات .. بيت من الشعر .. ومع ذلك ما أحست أذنى اننى انتقلت من النثر إلى الشعر .. واننى انتقلت بعده من كلام منظوم إلى كلام منشور ..
 ومثل ذلك تجده فى كثير من آيات القرآن الكريم .. امرأة العزيز عندما جمعت النسوة :

﴿ وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَا رَأْيَ لَهُ أَكْبَرَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ
 حَسْ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

الَّذِي لَمُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ بِعَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أَمْرِهِ لَلْيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٢٢﴾

(سورة يوسف)

قول الله سبحانه وتعالى « فذلكن الذي لمتني فيه » مستفعل فاعل .. مستفعل فاعل .. هل شعرت أنك انتقلت من كلام منشور .. وكذلك قول الله سبحانه وتعالى « فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر » .. مفاعيل .. مفاعيل .. « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .. في كل من هذه الآيات لم تشعر أنك انتقلت من شعر إلى نثر .. لأنه توجد هناك فجوة كلامية .. والقرآن نظم فريد .. لا تستطيع أن تقول إنه نثر ولا شعر ولا سجع .. وإنما هو كلام فريد يتناسب مع قول القائل سبحانه وتعالى .. إذن فبلاغة القرآن في مطابقته للحال .. حال جميع المخاطبين .. وبلاغته في الانتقال من الشعر إلى النثر .. ومن النثر إلى الشعر دون أن تحس .. وبلاغته في تحريك النفس البشرية .. كل نفس بشرية .. وبلاغته في أن الله تحدى أساطين البلاغة .. بل تحدى الأنس والجن في أن يأتوا بسورة من مثله .. فعجزوا وأمام هذا العجز لم يستطيعوا أن يصوبوا المواجهة التي يريدون أن يقوموا بها ضد الدين الجديد .. لم يستطيعوا أن يصوبوا هذه المواجهة إلى ذات المعجزة وهي القرآن الكريم .. لأن التحدى كان أقوى منهم جميعا .. فإذا بهم يصوبون ذلك إلى من جاءت على يديه المعجزة وهو محمد صلى الله عليه وسلم .. قالوا :

« لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »

- وهنا مربط الفرس .. الحقد والغيرة لم يستطيعا أن يواجهوا القرآن .. فقالوا لماذا اختار الله محمدا لينزل عليه القرآن .. كأنما آفة القرآن أنه نزل على محمد عليه السلام .. وليست آفته أنه صراع بين حق ينادى به القرآن .. وباطل هم مقيمون عليه ..

والذي يقيم على الباطل يريد للباطل أن يستمر .. لأن الباطل هو الذي يعطيه الأتوة والقدرة والسيادة .. وهو يريد لهذا الباطل أن يبقى لتبقى له

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

السيادة .. فيأتى الحق .. ويغلبه .. ويحس أن ملكه سيزول فيقول :
« اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء »
إذن فهو يريد العزة مع الباطل .. أما إذا كان زوال الملك سيأتي مع الحق فهو
لا يريده .. ويطلب الله .. أو يطلب من الله أن يطر عليه حجارة من
السماء .. إذن فهو يكره الحق لذاته .. لأنه سيسلبه سلطانه وقوته .. ويريد
للباطل أن يستمر .. ليبقى سيدا .. ولو بغير الحق .. ثم يقول الكفار بعد
ذلك : « ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » .. إذن المانع من الإيمان
ليس أنه غير الحق .. لكن المانع له أنه سيزيل عنكم السيادة التي أعطها لكم
الباطل .. وسيتجراً عليكم الناس وتتخطفون من أرضكم .. وكان هذا هو
العناد .. بعد أن فشلوا في تحدى معجزة القرآن اللغوية .. والرد عليها ..

معنى الحروف في القرآن

ولكنهم في تحديهم ووقوفهم موقف المعارضة .. أثبتوا أنهم داخل نفوسهم
يعتقدون أن القرآن هو الحق .. لأنهم لم يستطيعوا أن يتحدوا اعجازه ..
الاعجاز أولاً في النبي المختار للدعوة .. والاعجاز ثانياً في استخدام نفس
الحروف والألفاظ التي يستخدمها البشر .. ولتحدث عن هاتين النقطتين بشيء
من التفصيل .. الاعجاز الأول أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقرأ .. ولم
يكتب طوال حياته .. ولم يتعلم القراءة والكتابة .. ولم يدرس الأدب
ولا الشعر .. ولا النثر .. ولا علم الكلام .. إلى غير ذلك .. ومع هذا فقد
جاءوا بكلام غاية في الاعجاز .. كلام لا يستطيع أولئك الذين درسوا
البلاغة .. وبرعوا فيها أن يأتوا به .. أو يأتوا بسورة من مثله .. بل الاعجاز
يتجلى أكثر في أن الله سبحانه وتعالى أثبت في القرآن أن هذا الكلام ليس كلام
محمد عليه الصلاة والسلام .. بل هو كلام لا يمكن أن يأتي به أمي .. فالإنسان
الأمي قد ينطق الكلمات .. وقد ينظم الشعر والنثر والسجع .. ولكنه
لا يستطيع أبداً أن يأتي بالحروف التي تتكون منها الكلمات .. فإذا أنت ذهبت
إلى إنسان لم يعرف في حياته القراءة والكتابة .. وسألته ما هذا .. يقول لك هذا
كوب مثلاً .. فإذا قلت له ما هي الحروف التي تتكون منها كلمة كوب لم يعرف
لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة .. وإذا بالله سبحانه وتعالى يأتي بالحروف التي

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

لا يعرف مسمياته رجل أمى .. ويجعل النبي ينطق بها ويجعلها في القرآن فيقول : « ألف .. لام .. ميم .. كاف .. ها - يا - عين - صاد » امعانا في الاعجاز والتحدى .. محمد نبي أمى لا يمكن أن يعرف أسماء هذه الحروف أبدا .. ولكنه جاء بأسماء هذه الحروف .. لاثبات بأن هذا ليس كلام محمد عليه الصلاة والسلام .. لأنه لو كان كلام محمد وهو رجل لم يقرأ ولم يكتب في حياته .. لكان من المستحيل أن يعرف أسماء الحروف التي لا يعرفها ولا يستطيع أن ينطق بها إلا من تعلم القراءة والكتابة ..

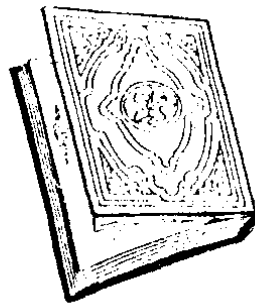
مهارة الصانع

تأتى بعد ذلك إلى النقطة الثانية وهي استخدام نفس الحروف والألفاظ التي يستخدمها البشر في أسلوب ومعان يعجز عنها البشر .. وهذا اعجاز وتحد .. لأنك تريد أن تدلل على مهارة الصانع في أى شيء .. فأنت لا تأتى بمادة مختلفة .. ثم تقارن بين صانع وآخر .. أنت إذا أردت مثلا أن تعرف من هو أمهر الناس في صناعة النسيج .. لا تأتى بخامة من حرير .. وخامة من قطن .. وخامة من خيش .. ثم تعطيهما لثلاثة صناعات .. وتقارن بين إنتاجهم .. لأنك في هذه الحالة لا تستطيع أبدا أن تقول ان هذه أحسن من هذه .. لأن نسيج الحرير لا بد أن يكون أحسن .. نظرا لأن الخامة التي صنع منها الثوب هي أفضل الخامات ..

ولكن المهارة تكون في استخدام مادة واحدة .. نعطي الكل قطنا أو حريرا أو صوفا .. ولذلك تكون العناصر المكونة للشيء واحدة .. أو متساوية .. فلا يكون لها دخل في الجودة .. وتكون الجودة أو المهارة للصانع نفسه .. فأراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت أولاً أن القرآن لم يتميز ببلاغة إلا لأن قائله هو الله سبحانه وتعالى .. مادته ليست من جنس أعلى من مادة البشر .. بل هي من جنس كلام البشر .. الحروف هي الحروف .. والكلمات هي التي تنطقون بها هي نفس الكلمات المستخدمة .. وجاء بكلمات الحروف كأسماء يستطيع أن ينطق بها الجاهل والمتعلم .. ومسميات يستطيع أن ينطق بها المتعلم وحده .. ثم بعد ذلك قدم المعجزة وتحدى .. الحروف نفس الحروف .. والكلمات نفس الكلمات .. ولكن الذى أفحهم هو الله سبحانه وتعالى .. فلم يستطيعوا أن

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

يأتوا بمثله .. وهذا دليل على أن الصانع هو المختلف .. ومن هنا كان التحدى عظيماً .. لأن الفارق هو بين قدرة الله سبحانه وتعالى .. وبين قدرة البشر .. وعندنا في البلاغة عندما نقول ان هذا الشيء بليغ .. ونقول ان العرب قد اشتهروا بالبلاغة والفصاحة .. يعنى أن البلاغة هي وضع الكلام مناسباً للمقام الذى يقال فيه .. ومستوفياً لأركان سلامته .. وأركان الكلام هي ألا يكون بين الحروف تنافر .. مثل أن تكون الكلمة هيع .. هيع .. وإنما تكون الكلمات منسجمة .. ولا تأتى مخالفة لقانون اللغة .. ولا تكون غريبة على الأذن .. عندما تستوفى الكلمة هذه الشروط .. توضع فى جملة يشترط أن تكون منسجمة مع الكلمة الأخرى .. خاضعة لقواعد اللغة .. وليس فيها تعقيد .. إذن عندما جاءوا ليعرفوا البلاغة قالوا هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته .. تراكيب منسجمة ومخاطبة للبشر .. مطابقة لمقتضى عقلهم .. ومن هنا فكانت بلاغة البشر على قدر علمهم بمقتضى حال المخاطب .. ومعنى ذلك أنه لا بد أن يكون هناك علم .. وعلمنا كبشر بأحوال المخاطبين محدود .. ولكن علم الله سبحانه وتعالى بلا حدود .. ومن هنا فإن بلاغة القرآن الكريم فى أنه معجز فى مخاطبته للبشر جميعاً .. معجز فى بلاغته .. ومطابقته بمقتضى مخاطبته للبشر جميعاً يخاطب ملكات فى النفس لا ندرى .. لا نعرف سرها .. مكون من نفس الحروف والكلمات التى يستخدمها العامى .. والمتلعم .. تحدى به الله البشر أن يأتوا بسورة مثله .. ثم تحدى الانس والجان .. وهم الذين لهم اختيار .. ووضع الله فيه أسماء الحروف كاعجاز لأن الموحى إليه وهو النبى صلى الله عليه وسلم أمى لم يقرأ .. ولا يكتب .. على أن الاعجاز فى القرآن لا ينتهى عند هذا الحد .. وإنما يمتد إلى دقة اللفظ والتعبير التى يعجز عنها البشر .. وهو موضوع الفصل القادم .



الفصل الرابع

البلاغَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

البلاغة في القرآن الكريم



إذا أردنا أن نتحدث عن معجزة القرآن .. وبلاغته .. فإننا لابد أن نتناول دقة اللفظ .. أو دقة التعبير في القرآن الكريم .. وكلام الله سبحانه وتعالى يجب أن يكون في غاية الدقة .. بحيث يعبر عن الشيء تعبيراً كاملاً .. فلا تجد حرفاً زائداً بلا معنى .. ولا كلمة مترادفة إلى آخر ما يقال عن القرآن الكريم .. والحقيقة أن المعجزة في القرآن تجدها في حرف .. فيقول الله سبحانه وتعالى :
« قل سيروا في الأرض »

وتقف أنت عند هذه الآية الكريمة وتساءل .. لماذا لم يقل الله : قل سيروا على الأرض .. هل أنا أسير في الأرض .. أو على الأرض .. حسب مفهوم الناس جميعاً .. فأنا أسير على الأرض .. ولكننا نجد أن الله قد استخدم كلمة في .. ولم يستخدم كلمة على .. يقول : سيروا في الأرض . (ففى) تقتضى الظرفية .. والمعنى يتسع لأن الأرض ظرف المشى .. ومن هنا فإن التعبير جائز .. ولكن ليس في القرآن كلمة جائز .. فالتعبير بقدر المعنى تماماً .. والحرف الواحد يغير المعنى وله هدف .. وقد تم تغييره لحكمة لكن ما هي حكمة استخدام حرف (في) بدلا من حرف (على) ؟ ..

عندما تقدم العلم وتفتح وكشف الله أسرار الأرض وأسرار الكون .. عرفنا أن الأرض ليس مدلولها المادى فقط .. أى أنها ليست الماء والأرض .. أو الكرة الأرضية وحدها .. ولكن الأرض هي بغلافها الجوى .. فالغلاف الجوى جزء من الأرض يدور معها ويلازمها .. ومكمل للحياة عليها .. وسكان الأرض يستخدمون الخواص التي وضعها الله في الغلاف الجوى في اكتشافاتهم العلمية .. والدليل على ذلك أنك إذا ركبت الطائرة فإنها ترتفع بك ٣٠ ألف قدم مثلا عن سطح الأرض .. ومع ذلك فإنك لا تقول إنك خرجت من الأرض .. ولكنك تقول أنت تطير في الأرض .. متى تخرج من الأرض علميا وحقيقة .. عندما تخرج من الغلاف الجوى للكرة الأرضية مادمت أنت في الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية .. فأنت في الأرض .. ولست خارج الأرض .. فإذا خرجت من الغلاف الجوى .. فأنت في هذه اللحظة التي تخرج فيها خارج الأرض .. الغلاف الجوى متمم للأرض .. وجزء منها .. ويدور معها .

البلاغة في القرآن الكريم

نعود إلى الآية الكريمة ونقول : لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى لفظ في .. ولم يستخدم لفظ على .. ؟ لأنك في الحقيقة تسير في الأرض .. وليس على الأرض .. هذه حقيقة علمية لم يكن يدركها العالم وقت نزول القرآن .. ولكن الله سبحانه وتعالى وهو القائل .. وهو الخالق يعرف أسرار كونه .. يعلم أن الإنسان يسير في الأرض .. أنه يسير على سطح الأرض .. ولكنه لا يسير على الأرض .. بل يسير فيها بين الغلاف الجوى والسطح .. ومن هنا فهو يسير في الأرض .. أى في وسطها بين غلافها الجوى الذى هو جزء منها .. وبين اليابسة التى هى جزء آخر .. وهكذا نجد دقة التعبير في القرآن في حرف .. ونجد معجزة القرآن في حرف ..

اختلاف الصبر

انتقل بعد ذلك إلى مثل آخر لنعرف مدى بلاغة القرآن في اختيار اللفظ الذى يناسب المعنى تماما .. وليس فيه تجاوز ولا مترادفات .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

(سورة لقمان)

.. ثم نجد في آية ثانية ..

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

(سورة الشورى)

.. زادت هنا اللام .. أى إنسان يقول إن زيادة اللام هنا للتأكيد .. كلمة مترادفة .. لا يتوقف عندها كثيرا .. ولكن المسلم حين يدقق في معانى القرآن الكريم .. يجد أن كل حرف في القرآن الكريم .. قد تم وضعه بحكمه بالغة .. وأنه لا شيء اسمه مترادفات .. وإنما لكل لفظ معنى يؤديه ، ولا يؤديه اللفظ الآخر .. رغم التشابه .. فإذا دققنا في المعنى نجد ما يلي : في الآية الأولى يقول الله سبحانه وتعالى « واصبر على ما أصابك » . والأمر هنا نوعان نوع

البلاغة في القرآن الكريم

للإنسان فيه غريم .. ونوع لا يوجد فيه غريم .. عندما أمرض ليس لي غريم .. وإذا أصابني مكروه بقضاء وقدر .. كأن أكون سائرا في الطريق فيسقط شيء فوقى ليس هناك غريم .. إنما عندما أسير في الشارع ويعتدى على إنسان بالضرب .. إذن هناك غريم ..

فهناك نوعان من الصبر .. صبر النفس وما ليس لي فيه غريم .. وهذا هين لأنه ليس هناك إنسان انفعل عليه .. ولا أملك أن أرد على شيء قد حدث لي .. ما حدث هو قضاء الله .. وأنا ليس أمامي إلا الصبر .. هذا نوع من الصبر لا يحتاج إلى طاقة كبيرة لممارسه الإنسان .. لأنه ليس هناك غريم أستطيع أن أرد له ما أصابني ..

والنوع الثاني من الصبر .. محتاج إلى جلد .. ومحتاج إلى قوة ارادة .. وهذا النوع هو الذي يوجد لي فيه غريم أستطيع أن أنتقم منه .. وأستطيع أن أصفح وأغفر .. إذن عندما يتحدث الله سبحانه وتعالى عن الصبر بنوعيه .. يعطى لكل نوع ما يستحقه من وصف للنفس البشرية .. فهو عندما يتحدث عن الصبر على شيء ليس له .. فيه غريم .. يقول :

« واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور »

وعندما يتحدث عن الصبر الذي لي فيه غريم بحيث أستطيع أن أنتقم .. وأكون منفعلا إذا لم أنتقم .. يقول سبحانه وتعالى :

« إن ذلك لمن عزم الأمور »

هنا اللام للتأكيد في نوع الصبر .. وما يحتاجه من جلد وضبط للنفس .. ففي الحالة الأولى حينما لا أستطيع أن تعاقب بمثل ما عوقبت به .. يكون الصبر من عزم الأمور .. ولكن في الحالة الثانية فإنك تستطيع أن تنتقم من غريمك .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« ولن صبر وغفر »

وهنا يظهر من كلمة غفر .. أن هناك غريما يمكن الانتقام منه .. وأن هذا الغريم قد غفر للإنسان له .. ومن هنا لا بد أن تأتي اللام للتأكيد .. لتؤكد المعنى .. وتؤكد الفرق بين عزم الأمور في الحالة الأولى .. وعزم الأمور في الحالة الثانية .. وهكذا نرى أن حرفا واحدا في القرآن الكريم يصنع معجزة ..

البلاغة في القرآن الكريم

مخاطبة النفس البشرية

على أن المعجزة لا تأتي في حرف فقط .. بل تأتي أيضا في مخاطبة القرآن للملكات البشرية المستورة .. الشيء الذي ينبىء عن علم تام بخفايا النفس البشرية .. وملكاتها التي نعرفها .. والتي نجهلها .. فمثلا عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين بأن يطوفوا بالبيت الحرام .. ساعة ما يلقي هذا الأمر ، ما الذي يهتز في نفس المسلم الذي يستمع .. أى الملكات تهتز .. ملكة الاقتصاد في النفس .. على أساس أن هؤلاء المشركين يأتون من كل الدول .. المدن .. القرى .. والبلاد المحيطة بمكة .. وهذه لم يصلها الإسلام بعد .. ومعنى منعهم من الحضور .. منع الخير الذي يأتي معهم .. فهم يأتون بالبضائع .. وينفقون .. ويحدثون رواجاً اقتصادياً .. هنا تهتز ملكة الاقتصاد في النفس .. والله سبحانه وتعالى وهو خالق للنفس البشرية .. يعلم هذا .. فعندما تنزل هذه الآية .. لا تقتصر على مخاطبة ناحية افعل ولا تفعل .. كأوامر ونواه .. وطريق ومنهج للحياة .. ولكن تتجلى فيها رحمة الله فتخاطب الآية الملكة النفسية التي تتأثر بالاقتصاد .. فعندما يقول الله سبحانه وتعالى : «إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» يخاطب في نفس الآية الملكة الاقتصادية .. ويخاطب الملكة الاقتصادية قبل أن يثار السؤال في أن ذلك سيؤدى إلى ضيق الرزق .. فيقول الله سبحانه وتعالى : «وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله»

نفس الآية .. والمعنى هنا أنه حذار أن تفتنكم الملكة الاقتصادية والخوف من ضيق الرزق عما أقول لكم في افعل ولا تفعل .. ولا تخافوا من الفقر .. فإن الله سبحانه وتعالى هو الغنى الحميد .. وسيغنيكم من فضله ..

إن هذا المعنى .. معنى الملكة الاقتصادية .. وتأثيرها داخل النفس يتكرر الآن في أشياء كثيرة تحدث في الدنيا .. والله سبحانه وتعالى حين يقول لك افعل كذا .. أو يقول لك لا تتعامل مع كذا .. يأتي بعد ذلك مباشرة السؤال إلى ذهنك .. والرزق الذى أحصل عليه من هذا التعامل .. من أين أتى به .. وهنا يقول الله سبحانه وتعالى اننى أرزقك من طريقى .. ومادام الرزق بيدى أنا فإننى سأيسر لك سبيلا آخر للرزق .. ولا تحش الفقر .. ولا تخف من أن رزقك سيناله غيرك .

البلاغة في القرآن الكريم

« هو .. يطعمني ويسقيني »

والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يخاطب دائما ملكات النفس البشرية .. ويرد عليها ببلاغة وبدقة متناهيتين .. بحيث تجد أنه عندما تتغير كلمة واحدة من الكلمات .. فإن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطي معنى جديدا .. أو يفهم شيئا جديدا .. وهذه الدقة الهائلة .. تجدها موجودة بكثرة في القرآن الكريم .. مثلا إبراهيم عليه السلام يقول :

« فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين »

.. هنا نتوقف لنسأل : لماذا لم يقل إبراهيم عليه السلام هو الذي خلقني فهو يهدين .. وقال : الذي خلقني فهو يهدين .. لأن الخلق ليس محتاجا إلى تأكيد .. فليس هناك إنسان مهما كبر وعظم وحكم الدنيا كلها .. يستطيع أن يدعى إنه يخلق إنسانا .. وإلا فسنتطلب منه أن يفعل ذلك وسيعجز .. إذن فالخلق لم يدعه أحد .. لذلك فإنه غير محتاج إلى تأكيد .. إنما الهداية هناك مئات الألوف ممن يدعون إنهم يهدون الناس .. بعضهم وضع مناهج مع الدين .. وبعضهم وضع مناهج ضد الدين .. والمهم إنهم جميعا يدعون إنهم يريدون هداية البشر .. وكل إنسان يضع نظاما يخضع لأمره وهواه .. ويدعى انه للهداية .. ومن هنا كان لا بد من التأكيد على أن الهدى من الله وحده .. إن الحق والطريق المستقيم من الله وحده .. وهكذا نرى أن الضمير هنا كان لا بد من وضعه .. وإن الضمير في الجزء الأول من الآية لم يكن هناك حاجة للتذكير به .. فالخلق صفة من صفات الله .. لا ينازعه فيها أحد .. فهو ليس محتاجا إلى تأكيد وإنما الهدى فيه ادعاءات من الناس .. وهنا تأتي كلمة (هو) ضرورة .. ثم تأتي بعد ذلك في :

« والذي هو يطعمني ويسقيني »

لأن الإنسان يكسب ثمن الطعام والشراب فهناك ادعاءات كثيرة في الرزق .. ومن هنا فإن هذه الادعاءات محتاجة إلى أن يقول الله سبحانه وتعالى كلمة :

« هو يطعمني ويسقيني »

ويقول أيضا :

« وإذا مرضت فهو يشفين »

البلاغة في القرآن الكريم

.. ذلك إننا بين الطبيب والدواء ننسى إرادة الله سبحانه وتعالى .. ثم بعد ذلك نأتى إلى عدم وجود كلمة هو في قوله تعالى :
«والذى يميتنى ثم يحيين»

ولم يقل : والذى (هو) يميتنى ثم (هو) يحيين .
لأنه لا أحد يستطيع أن ينازع الله في مسألة الموت والحياة .. ولا يدعيها لنفسه .. ومن هنا كان التأكيد غير لازم لمقتضى الحال .
وهكذا نرى في هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى يأتى بالضمير فيضعه مرة .. ويحذفه مرة .. لأن المقام يقتضى ذلك .. ولأن دقة التعبير في القرآن الكريم تجعل الكلمة الواحدة توضع في المكان المناسب لتعبر عن المعنى الدقيق البالغ الدقة .. سواء من ناحية الاضافة أو الحذف .. أو اختيار الكلمات .. ولو إن الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة هو في كل الآيات التى ذكرناها .. أو حذف كلمة هو من كل الآيات التى ذكرناها .. لما تنبه لذلك معظم الناس .. لمعنى الحديث على أساس أنه كلام بشر .. ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى ..

لماذا التغيير

ونرى أن الدقة البالغة في التعبير تقتضى التغيير في كل حرف يتم .. وفي كل كلمة تقال .. بل في نفس الكلمة مثلا .. مثل سقيناهم .. وأسقيناهم .. سقيناهم متعديا .. وأسقيناهم متعديا ..
«سقاهم ربهم شرابا طهورا»

هذا قول الله سبحانه وتعالى .. وفي آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى :
«وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم»

لماذا لم يقل لو استقاموا على الطريقة لسقيناهم .. مع أن سقى وأسقى بمعنى واحد .. واللفظان يتعديان لمفعولين .. ما هو الخلاف .. هل هى مجرد مترادفات .. أم ألفاظ تتغير حتى لا تتكرر نفس الألفاظ .. أبدا .. كل تغيير له حكمه .. كل تغيير يحدد معنى معين لا يحدده غيره .. ونحن حين نأتى ونتابع القرآن الكريم نجد أن سقى تستخدم في الأمر الذى ليس فيه كلفة ولا علاج .. وأسقيناهم في الأمر الذى فيه كلفة وعلاج .. هذا في أمور الدنيا
«أسقيناهم ماء غدقا»

البلاغة في القرآن الكريم

أمر فيه كلفة .. فيه جهد .. نحن أوجدنا لهم الماء وجعلناه متوافرا لديهم بلا تعب ولا نصب .. فهو موجود في البئر .. ولكن لكي تتم السقيا يجب أن يذهب الإنسان إلى البئر ليشرب .. أو أن يحضر له إنسان آخر الماء .. إذن هنا في أسقيناهم .. رغم أن الماء موجود بقدره الله سبحانه وتعالى .. ومتوافر بقدره الله سبحانه وتعالى .. إلا إن عملية السقا فيها عمل من الإنسان .. أو جزء من العمل .. فإذا أتينا إلى كلمة سقيناهم .. نجد الله سبحانه وتعالى يقول :
« وسقاهم ربهم شرابا طهورا »

هذا في الجنة .. بمجرد الخاطر ليس فيه كلفة .. إذا أحسست بالعطش وجدت الماء أمامك يصل إلى فمك .. هنا في الآخرة لا يوجد أى جهد ولا أى كلفة للإنسان في أى عمل يعمل .. فكل شيء في الجنة متى تمناه الإنسان وجده حاضرا أمامه .. إذن فقول الله سبحانه وتعالى ..
« وسقاهم ربهم شرابا طهورا »

معناه أن السقيا هنا في الجنة ليس فيها أى جهد .. ولا أى كلفة .. ولذلك فرق الله سبحانه وتعالى بين السقيين .. رغم إنه هو الذي أوجد الماء أو ما يتم شربه في الحاليتين .
« يعلمون .. ويعقلون »

إذا مضينا نقرأ في القرآن الكريم .. نجد الله سبحانه وتعالى قد استخدم لفظا معيناً .. وفي حالة مماثلة لم يأت بنفس اللفظ حتى أنك حين تسمع الآية تظن أنه سيأتي باللفظ الأول .. ولكنه لا يأتي به .. مثلا يقول الله سبحانه وتعالى :

« أو لو كان آباؤهم لا يعلمون »

ويقول الله سبحانه وتعالى :

« أو لو كان آباؤهم لا يعقلون »

لماذا الاختلاف في الكلمة .. مع أن العلم والعقل واحد .. أقول إن هناك فرقا كبيرا يحتم في مرة استخدام لفظ يعلمون .. وفي مرة استخدام لفظ يعقلون ..

نأتي إلى نص الآيتين الكريميتين في سورة البقرة يقول الله تعالى :

البلاغة في القرآن الكريم

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا
 أُولَئِكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 كَمِثْلِ الَّذِينَ يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صَمٌّ بِكُمْ عَمِي فَهُمْ
 لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والآية الثانية في سورة المائدة ..

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا
 مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا
 يَهْتَدُونَ ﴿١٧٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ
 إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴾

(سورة المائدة)

ولكن عندما يأتي المستشرقون يقولون إن اللفظين مترادفان .. فالعلم
 والعقل .. العقل والعلم شيء واحد .. والعاقل من علم أو من استطاع أن
 يعقل العلم ، ويقولون إن هذه مترادفات إلى آخر ما يقال في هذا الموضوع .
 نقول لهم إنكم حينما تقولون هذا الكلام .. إنما لا تعرفون شيئاً عن بلاغة
 القرآن الكريم .. فالله سبحانه وتعالى لا يستخدم لفظين لأداء نفس المعنى ولكن
 كل لفظ له معناه .. كل لفظ يعبر بدقة عن المعنى المراد منه .. فالله سبحانه
 وتعالى عندما يقول يعقلون .. معناها إنهم لا يفهمون شيئاً أى ليس لهم عقول
 تفكر .. لا يتدبرون في أمر هذا الكون .. إنهم لا يستخدمون عقولهم ..

البلاغة في القرآن الكريم

ولو استخدموها وفكروا وتأملوا قليلا لوصلوا إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الباريء .. وإن هذا الكون بدقته وبديعه لا يمكن إلا أن يكون من خلق الله سبحانه وتعالى .. هذه في كلمة يعقلون .. إذن هنا هو نفى عنهم التدبر والتعقل في أمور العبادة وفي أمور هذا الكون ..

ولكن عندما يقول الله سبحانه وتعالى لا يعلمون فهو قد نفى عنهم التعقل والعلم معا .. بمعنى أنني قد أكون أنا باحثا في هذا الكون .. قد أكون متأملا فيه عاقلا لما يدور .. فافكر بعقلي .. وأصل إلى أشياء .. هذا هو الإنسان الذي يعقل .. أما قوله تعالى :
« لا يعلمون »

فهو يريد أن يقول لنا .. إنهم بجانب عدم تدبرهم في هذا الكون .. وإنهم لا يعقلون الآيات الموجودة فيه .. هم أيضا لا يعقلون ما علمه غيرهم من العلم .. فالذي لا يعقل لا يتدبر ولا يفكر في آيات الكون .. أما الذي لا يعلم فهو لا يفكر بعقله .. ولا يعلم ما عقله غيره .. إنه ليس لديه علم .. ولا علم له من نتاج عقل غيره .. فالعلم أوسع من التعقل .. ذلك أن العلم قد يكون علم غيري دونه أو كتبه وسجله وأكون أنا في هذه الحالة قد أخذت هذا العلم .. وقرأته .. فكأنى علمت ما عقله غيري .. وهذا يحدث لنا كل يوم فنحن حين نقرأ كتابا جديدا نعقل ما علمه غيرنا .. وحين نذهب إلى الجامعة ندرس ما علمه الأساتذة وكبار المفكرين .. فأنا لم أعقل الجاذبية مثلا .. ولم أعقل قوانين الفضاء لأنني لم اشتغل بها لكي أصل إليها بعقلي .. ولكني علمتها عن طريق عالم في الفضاء .. أو في الجاذبية .. ووصل بعقله وفكره إليها ثم قرأت أنا ما علمه هو .. فأنا هنا علمت ما عقله غيري .. فالله سبحانه وتعالى حين يقول لا يعقلون في الآية الأولى .. أي إنهم لا يتدبرون في الكون مستخدمين عقولهم .. لأنهم يقولون ..

« بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا »

ومن هنا فإن الله رد عليهم .

« أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »

ولذلك يصفهم الله سبحانه وتعالى :

« صم بكم عمى فهم لا يعقلون »

البلاغة في القرآن الكريم

أى لا يسمعون ولا يرون ولا يتحدثون بآيات الله سبحانه وتعالى وهذا هو السبب فى أنهم لا يعقلونها .. ولكن حين يقول الله سبحانه وتعالى : « لا يعقلون » .. تأتى رداً على كافرين .. قالوا : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا »

هنا هم قد نطقوا .. قالوا : لا نريد شيئاً .. ولا نريد علماً .. يكفيننا ما وجدنا عليه آباءنا .. فرد الله سبحانه وتعالى : « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » أن أنهم لا يعلمون علماً بعقلهم .. ويرفضون العلم الذى وصل إليه غيرهم .. وهكذا نرى الفرق بين كلمة لا يعقلون .. وكلمة لا يعلمون ..

نرزقهم .. ونرزقكم

نتنقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى تشهد على بلاغة القرآن الكريم .. ودقة التعبير فيه .. والقرآن الكريم مليء بأعجاز لا ينتهى أبداً .. مثلاً بعض الآيات فى القرآن الكريم يقول العقل السطحى أن معناها واحد .. ويتساءل لماذا غير الله سبحانه وتعالى الألفاظ .. ولكن المتدبر فى القرآن الكريم لا يمكن أن يقول إنها توارد ألفاظاً .. فليس هناك شئ فى القرآن الكريم اسمه توارد ألفاظاً .. ولكن هناك دقة بالغة فى التعبير .. واختيار اللفظ .. فالنظر إلى المعنى الذى قد لا يفتن إليه كثير من الناس .. مثلاً فإن وأد البنات كان موجوداً فى الجاهلية .. ثم جاء الإسلام ليمنع هذا .. فقال الله سبحانه وتعالى :

« ولا تقتلوا أولادكم من أطلاق نحن نرزقكم وإياهم »

.. الكلام هنا عن الفقر وقتل الأولاد .. تأتى بعد ذلك إلى الآية الثانية ..

« ولا تقتلوا أولادكم خشية أطلاق نحن نرزقهم وإياكم »

والآية الأولى « نحن نرزقكم وإياهم » .. والآية الثانية « نحن نرزقهم وإياكم »

نسال ما هو الخلاف .. الآية الأولى تقول ولا تقتلوا أولادكم من أطلاق .. أى أن الفقر موجود فعلاً .. الأطلاق وهو الفقر موجود فعلاً .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى نحن نرزقكم وإياهم .. مادام الفقر موجوداً فعلاً .. يكون الإنسان مشغولاً برزقه أولاً .. يبحث عن طعامه هو أولاً ثم بعد ذلك يبحث

البلاغة في القرآن الكريم

عن طعام من سيأتى به من أولاد .. هم الإنسان هنا هو البحث عن طعامه وطعام زوجته .. ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى : « نحن نرزقكم وإياهم » .. أى انه يطمئنه أولا على رزقه الذى هو شغله الشاغل .. ثم بعد ذلك يطمئنه على رزق أولاده فيقول له : أنت فقير ومشغول برزقك .. وتخشى أن تأتيك الأولاد ... لأنك لا تملك ما تطعمهم به .. انى أرزقك .. وأرزقهم .. انك لك رزقك وهم لهم أرزاقهم لن يأخذوا من رزقك شيئا .. ولكن الآية الثانية تخاطب نوعا آخر من الناس .. الآية الثانية تقول : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم »

هنا الإنسان ليس مشغولا برزقه لا يخشى الفقر .. عنده ما يكفيه .. ولكنه يخاف أن رزق بطفل أن يصاب بالفقر .. أن يأخذ هذا الطفل جزءا من الرزق .. ويصبح الرزق لا يكفيه .. ويكفى طفله .. ومن هنا فإن هذا الإنسان يخاف انجاب الأطفال .. لماذا ؟ لأنه يخشى أن يأخذوا من رزقه شيئا .. فيصبح فقيرا .. فيقول الله سبحانه وتعالى : « نحن نرزقهم وإياكم » .. الآية الأولى كان الشغل الشاغل للإنسان هو رزقه .. فخاطبه الله سبحانه وتعالى أولا بقوله نحن نرزقكم .. ليطمئنه أولا على رزقه .. الآية الثانية رجل ميسر فى الرزق لكنه يخشى الفقر من الأولاد .. فالله طمأنه على أن الأولاد لن يأخذوا من رزقه شيئا بقوله سبحانه وتعالى « نحن نرزقكم وإياكم » .. إذن فالتغيير هنا لازم وضرورى .. كل يخاطب حاله على حده .. ولكن لماذا قال الله سبحانه وتعالى : « نحن نرزقهم وإياهم » وقال « نحن نرزقكم وإياكم » .. ولم يقل نحن نرزقكم جميعا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف إنه لكل إنسان فى هذه الدنيا رزق مستقل عن الآخر .. وهذا الرزق الذى قسمه الله سبحانه وتعالى لا يستطيع إنسان آخر أن يأخذ منه شيئا .. ومن هنا فالمولود لا يأخذ من رزق أبيه شيئا .. والوالد لا يأخذ من رزق ابنه شيئا .. ولأعلم اننى حينما أرزق بمولود أن الله سبحانه وتعالى لا يقسم رزقى بينى وبينه .. أو عندما أقتل المولود لن استأثر أنا برزق أكبر .. أبدا ..

أنت العزيز

نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة قول الله سبحانه وتعالى :

البلاغة في القرآن الكريم

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ
لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ثم يقول عيسى بن مريم :

﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغَفَّرْتُمْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

كون عيسى بن مريم يقول :

« إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ »

فهذا مفروغ منها .. فنحن جميعا عباد الله مقهورون لارادته .. خاضعون له سبحانه وتعالى ولقضائه .. ثم يقول عيسى بن مريم : (وَإِنْ تَغَفَّرْتُمْ لَهُمْ) هذا طبعا ما يرجوه كل إنسان من الله سبحانه وتعالى الرحمة والمغفرة .. ولكن هنا يتبع كلمة « وَإِنْ تَغَفَّرْتُمْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . لماذا لم يقل إنك أنت الغفور الرحيم ؟ هنا موقف غفران .. فلماذا العزة في موقف الغفران .. وليست المغفرة والرحمة ؟ يقول بعض الناس إن العبارة غير متمشية .. وإن سياق الكلام كان يقتضي أن يقول عيسى بن مريم « إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » ونحن نقول إن كل من يثير هذا الكلام لا يفهم اعجاز القرآن .. فقول ابن مريم « إِنْ تَغَفَّرْتُمْ لَهُمْ » .. يحمل نفس المعنى في إنك أنت الغفور وإلا أن لم تكن غفورا فكيف تغفر . ولكن قوله إنك أنت العزيز الحكيم ما سبب وضع « العزيز الحكيم »

البلاغة في القرآن الكريم

هنا .. هل الآية محتومة بما لا يتمشى مع العقل ؟
الآية محتومة بعبارة من أبلغ ما يمكن .. هنا في مطلب الغفران .. وهو يدعو
الله أن يغفر لعباده .. فيقول له : وإن تغفر لهم .. فإنك أنت العزيز .. أى
الذى لا يحاسبه أحد على ما يفعل .. فلا أحد سياتى ليقول لله لماذا غفرت لهؤلاء
الناس الذين عصوا ؟ لأنك أنت العزيز لا يحاسبه أحد .. وليس فوقه قوة ..
فأنت يا ربى إن أردت أن تغفر لهم فهي مشيئة رحمتك .. فإنك قادر .. لماذا ؟
لأنك أنت العزيز تستطيع أن تفعل ذلك دون أن يسألك أحد .. الحكيم الذى
يتم كل أمر منك بحكمة .

وهكذا نرى أن هذه الكلمة وضعت بحكمة زيادة في الاستغفار .. زيادة في
طلب المغفرة .. يا ربى اغفر لهم إنك أنت العزيز .. لا يحاسبك أحد ..
ولا يعقب عليك .. وبالتالي فنحن نلوذ بشيئين بأنك غفور رحيم .. وبأنك
عزيز حكيم .. غفور تغفر الذنوب للعاصين .. وعزيز تستطيع أن تغفر ما تشاء
لمن تشاء .. بلا قيود .. ولا يحاسبك أحد على ما تفعل .. ولا يعتب عليك ..
ولا يسألك .. انك تستطيع أن تغفر الذنوب مهما بلغت .. هل وضح الآن
معنى استخدام كلمة « العزيز » ؟!

ظالم النفس .. والسوء

نتقل بعد ذلك إلى نقطة ثانية .. فى الآية الكريمة ..

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم »

.. وقوله تعالى :

« ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه »

بعض الناس يتساءل : أليست الفاحشة والسوء هما ظلم النفس .. انهما
نفس الشيء .. فالذى يظلم نفسه يقودها إلى العذاب .. والذى يفعل فاحشة
يقود نفسه إلى العذاب .. نفس الشيء .. بل إن بعض الناس يقولون إن
العطف هنا غير واجب .

ولكننى أقول لهم أن دقة التعبير .. ودقة اللفظ من دقة القائل .. والله
سبحانه وتعالى يبين لنا اعجاز القرآن .. ويقول لنا إن هناك فارقا بين من يفعل
سوءا أو فاحشة .. ومن يظلم نفسه .. ما هو هذا الفارق ؟

البلاغة في القرآن الكريم

الذى يفعل سوءا أو فاحشة يفعلها ليحقق لذة عاجلة .. نفس ضعيفة يغلبها الهوى وتخضع لبريق الدنيا .. إنسان شرب الخمر .. حقق لنفسه لذة الخمر .. إنسان زنا .. حقق لنفسه شهوة عاجلة .. إنسان سرق مال غيره .. حقق لنفسه شهوة عاجلة بالتمتع بهذا المال .. هذا هو الإنسان الذى يفعل السوء أو الفاحشة .. أما الإنسان الذى يظلم نفسه فهو إنسان آخر .. إنه يرتكب إثما ولا يستفيد منه .. لا يعطى نفسه شيئا فى الدنيا ولا فى الآخرة .. حينئذ يكون قد ظلم نفسه .. بمعنى إنه لا أعطاها شيئا عاجلا .. ولا نجاها من عذاب الآخرة ..

ومن الناس من يبيع دينه بدنياه .. ومنهم من يبيع دينه بدنيا غيره .. الذى يبيع دينه بدنياه يطلب العاجلة .. أما من باع دينه بدنيا غيره .. خاب فى الأولى والآخرة .. هو الذى ظلم نفسه .. ولكن كيف يظلم الإنسان نفسه .. فالإنسان حين يشهد زورا ليؤذى غيره لم يستفد هو شيئا فقد ظلم نفسه .. ارتكب إثما .. شهادة الزور دون أن يحقق نفعا دنيويا .. إذا قبض ثمن شهادة الزور .. يكون قد حقق نفعا دنيويا .. ولكن الذى يظلم نفسه هو الذى يفعل ذلك ليرضى غيره .. ونجد كثيرين فى الدنيا مثل هؤلاء ..

إنسان يتهم إنسانا آخر بتهمة باطلة .. لا يستفيد هو شيئا .. ويرتكب الاثم ، إذن هو ظلم نفسه .. إنسان يكتب تقريرا كاذبا فى إنسان ليمنع ترقية .. أو يتطوع بحديث يخترقه عن شخص ليمنع الخير عنه أو يؤذيه .. أو يشى بشخص كذبا ليدخله السجن .. أو يضعه فى الاعتقال .. أو يتجسس على إنسان ليلفق له تهمة لمجرد الانتقام التافه .. كل هؤلاء يظلمون أنفسهم .. إنهم يرتكبون الاثم فى الدنيا .. ولا يجعلون له فائدة لا فى دنياهم .. ولا فى آخرتهم .. فكأن الذى ظلم نفسه هو الذى جعلها تدخل النار .. هو الذى جعلها ترتكب الاثم .. وفى نفس الوقت لم يعطها شيئا على وجه الاطلاق .. فهو ظالم لنفسه فى الدنيا .. ظالم لنفسه فى الآخرة .. وهنا فرق بين التعبيرين .. ومن هنا لا نقول أبدا هذا عطف .. ولا ألفاظ مترادفة بل دقة بالغة فى التعبير ..

البلاغة في القرآن الكريم

نور .. وظلمات

تعبير آخر في القرآن الكريم .. والقرآن الكريم مليء بالتعبيرات الدقيقة .. نجد أن الله سبحانه وتعالى حين يستخدم كلمة نور وظلام في القرآن الكريم يقول (نور) ويقول ظلمات وظلمة .. ولكنه لا يقول أنوار .. أبدا هناك نور وظلمة .. وهناك نور وظلمات .. ولكن الله سبحانه وتعالى لا يستخدم كلمة « أنوار » إنه يخرج الناس « من الظلمات إلى النور »

.. وليس إلى الأنوار .. لماذا؟ مع أن المنطقي أن يقال يخرج الناس من الظلمات إلى الأنوار .. نقول له .. إنك لم تع الحقيقة جيدا .. في الدنيا هناك ظلمات كثيرة .. ولكن ليس هناك أنوار .. هناك نور واحد هو نور الله سبحانه وتعالى نور الحق .. ولذلك لا يستخدم الله سبحانه وتعالى إلا كلمة نور .. لأن النور هو نور الحق .. ولا نور غيره ..

لكل نفس هوى .. والهوى هو ظلمة .. وظلمة هذا غير ظلمة ذاك .. الإنسان في كثير من الأحيان هو عبد لأهوائه .. والأهواء تختلف .. ومن هنا يأتي الصراع في الدنيا .. القتل .. السرقة .. الاعتداء على الغير .. إلى آخر ما نشهده من صراع الحياة في كل مكان ..

هذه ظلمات .. كل في ظلمة مختلفة تبع هوى صاحبها .. هذا يقول كلاما .. وهذا يقول كلاما آخر .. هذا يريد أن يحقق شيئا .. وذلك يريد أن يحقق شيئا آخر .. كل إنسان يريد أن يأخذ ما لا حق له فيه .. وكل إنسان يتحدث بما يعتقد أنه يحقق له هواه .. إنسان يقول الشيوعية .. وآخر يقول الرأسمالية وثالث يقول الاشتراكية .. هذه كلها كلمات .. وراءها هوى للنفس يعتقد الإنسان أنه يستطيع أن يحققه .. أن يعلو في الأرض .. أن يستبيح مال وحرمت غيره .. أن يذل الناس بما أعطاه الله له من مركز .. أو مال .. أو سلطان ..

إذن هي ظلمات كثيرة .. كل إنسان منا له هواه .. ولكن الله سبحانه وتعالى الحق .. وهو الذي وضع النور .. ليتمكن الإنسان من أن يعيش عيشة راضية مطمئنة .. هذا النهج للحياة رسمه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم .. أما كل ما نتخبط فيه بعيدا عن منهج الله فهو ظلمات .. ومن هنا فإن الله سبحانه

البلاغة في القرآن الكريم

وتعالى يخرجنا من ظلمات كثيرة إلى نور واحد .. هو نوره .. هو طريقه .. هو الحق ..

الله سبحانه وتعالى حين يستخدم كلمة « ظلمات » يتحدث عن أهواء الناس .. وهي مختلفة .. وحين .. يستخدم كلمة نور فهو يتحدث عن شيء واحد هو منهجه .. طريقه .. ذلك هو النور .. وإذا اتفقنا على خير لا يمكن أن نختلف .. لا يمكن أن نجد خلافا بين أناس في قلوبهم الخير .. ورغبتهم إلى الخير .. وعملهم الخير لا يمكن أن يختلفوا .. ولا يمكن أن يكون الصراع والشقاء إلا على تحقيق أهواء النفس في الدنيا .. هل عرفت الحكمة من استخدام الله سبحانه وتعالى .. كلمة ظلمات بالجمع .. وعدم استخدامه لكلمة أنوار .. لأن هناك نورا واحدا هو نور الله سبحانه وتعالى .

هذه هي بعض الأمثلة البسيطة جدا .. والقرآن مليء بالاعجاز .. الاعجاز والدقة في التعبير .. اللفظ في مكانه .. فإذا تغير عن مكانه فإنما يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى معنى آخر .. إلى شيء آخر ليس هناك مترادفات .. وليست هناك ألفاظ لا تتسم بالدقة .. وليس هناك كلمة في غير موضعها .. وإنما دقة متناهية في التعبير .. دقة متناهية في البلاغة .. ولكن بعض المستشرقين الذين يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله .. أو الذين يدرسون القرآن الكريم ليحاربوه يقولون أن في القرآن تناقضا ويزيدون على ذلك بأن هذا التناقض طبيعي لأن قائل القرآن .. كما يدعون .. هو محمد عليه السلام .. بشر فإنه أحيانا ينسى .. وأحيانا يمر عليه الزمن فيقول عكس ما قال .. إلى آخر ما في طبيعة البشر من عدم التذكر خصوصا في الفترة الطويلة .. ويتحدثون عن التناقض في القرآن الكريم .. وأنا سأحدثكم عن التناقض الذي يدعونه .. في الفصل القادم من الكتاب ..



الفصل الخامس

التناقض في القرآن الكريم

التناقض في القرآن الكريم

السؤال الذى شغل بال المستشرقين . . وكل من يريد أن يجارب هذا الدين . . هو الادعاء بأن هناك تناقضا في القرآن الكريم . . ولو بذل هؤلاء الناس لفهم القرآن الكريم نفس الجهد الذى بذلوه في محاولة إظهار ما أسموه بالتناقض في القرآن الكريم لاستطاعوا أن يصلوا إلى عظمة القرآن . . وإلى معجزة القرآن وإلى الدقة البالغة في كلام الله سبحانه وتعالى . .

ولكن المستشرقين يحاولون أن يأخذوا من المعجزة . . أهم ما فيها وهو إنها كلام الله سبحانه وتعالى . . وفي محاولاتهم هذه يلجأون إلى إظهار ما يسمونه « التناقضات » . . أو يطلقون عليه اسم « الأشياء المتناقضة » في القرآن الكريم . . وأساس هذا الاتجاه هو أن المعجزة وهى القرآن كلام الله سبحانه وتعالى . . وأن الله سبحانه وتعالى منزه عن الخطأ . . منزه عن النسيان . . منزه عن كل ما فى البشر من تناقض . . وبالتالي فإن وجود أى تناقض ولو كان ظاهريا فى القرآن الكريم يساعدهم على هدم المعجزة . . وعلى الادعاء أن هذا الكلام هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وليس منزلا من عند الله . . ولكن الاعجاز القرآنى . . الذى هو موجود فى كل حرف من القرآن . . إنما يظهر أمامهم بهذه الصورة ليجعلهم شهداء على المعجزة . . وليجعلهم وهم يحاولون أن يجاربوا هذا الدين . . وأن يشوهوا هذا الكتاب الكريم يبينون معجزاته . . ويظهرون ما خفى منها . . إذ أنهم يثيرون مما يزعمونه أشياء تجعل العقل البشرى ينشط فى محاولة للرد عليهم . . وبالتالي فإنه فى بحثه فى القرآن الكريم تتبين المعجزة . . ويتبين أن هذا الكلام هو كلام الله سبحانه وتعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . . ولنبدأ الحديث من أوله . . ماذا قال المستشرقون . . قالوا . . كلام بشر . . هل هو كلام بشر فعلا ؟ . . تعالوا نناقش ما أثاروه قضية قهية . . وإن كان هذا يحتاج إلى كتاب مستقل . .

خلق السماوات والأرض

جاءوا فى أول الأشياء بالخلق . . خلق السماوات والأرض . . شىء هو من صنع الله سبحانه وتعالى حينما يتحدث عنه فى القرآن الكريم . . فهو يتحدث

التناقض في القرآن الكريم

عن شيء لا يعلمه إلا الله . . وبالتالي فإن أى تناقض ظاهرى فى هذه العملية مسألة تخدم قضيتهم فى محاربة هذا الدين . . ماذا قال المستشرقون . . ؟ قالوا : إن القرآن الكريم قال فى عدة سور . . أن الأرض والسموات خلقتا فى ستة أيام . . وفى سورة فصلت : أن أيام الخلق ثمانية . . وقالوا أنها هفوة بشرية . . ونسيان . .

خرجوا من ذلك بأن قائل هذا الكلام هو محمد صلى الله عليه وسلم . . وهذا هو هدفهم . . تعالوا نناقش ماذا قال القرآن الكريم فى سورة الأعراف : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام » وقال فى سورة يونس : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام . وفى سورة الفرقان :

« الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام »

. . إذن أجمعت كل هذه الآيات على أن خلق السموات والأرض وما بينهما تم فى ستة أيام . . لا خلاف فى ذلك ولا جدال . . فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى سورة فصلت . . حيث فصل الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض يأتى فى الآية التى تقول :

﴿ قُلْ إِنِّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ

أنداداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا

وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٢﴾

ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا

أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٣﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ

فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴿١٤﴾

(سورة فصلت)

التناقض في القرآن الكريم

إذا أحصينا عدد الأيام في السورة الكريمة . . نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول أنه خلق الأرض في يومين وجعل فيها رواسي من فوقها . . وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام . . ثم استوى إلى السماء . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى : « ففصاهن سبع سموات في يومين . . وأوحى في كل سماء أمرها » إذا أحصينا أيام الخلق في سورة فصلت نجد أنها ثمانية يومان لخلق الأرض . . وأربعة أيام قدر فيها رزقها وبارك فيها . . أيام الخلق هذه ستة أيام . . يومان آخران للسموات إذن فهي ثمانية أيام . . يأتي هنا المستشرقون ليقولوا أن القرآن الكريم تناقض مع نفسه . . وأنه يقول في عدة آيات أن خلق السموات والأرض في ستة أيام . . ثم يأتي ليقول أن الخلق تم في ثمانية أيام . . ويضيفون أن هذه غفلة لأن قائله بشر . . ولو أننا دققنا في الآية الكريمة التي يجادلون فيها لوجدنا بدايتها تختلف عن الآيات السابقة فالله سبحانه وتعالى يقول :

« قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين »

ومن هنا بدأت الآية بمخاطبة الكافرين الذين يجعلون لله أندادا . . ويجادلون فيه أي أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخبرنا أن الذي يستخدم هذه الآية الكريمة في التشكيك في القرآن الكريم هم أولئك الكافرون الذين يريدون أن ينشروا ويذيعوا الكفر بين الناس . . ويريدون أن يجعلوا لله أندادا . . وهم في الحالتين غير مؤمنين يجاربون الله . . ويجاربون دينه . . إن بداية هذه الآية معجزة . . لأن الذين يجادلون فيها . . هم أولئك الذين يجاربون هذا الدين . . ويكفرون بالله ويحاولون التشكيك . . فكون الله سبحانه وتعالى قال في هذه الآية الكريمة : « وتجعلون له أندادا » . .

وقال :

« أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض » .

كأنما هو يخاطب هنا أولئك الذين سيأتون بعد قرون عديدة ليشككوا في القرآن الكريم مستخدمين هذه الآية بالذات في محاولة التشكيك . . ونحن نقول لهم أن من يقول هذا الكلام . . إما أن يكون متعمدا أو غافلا من مدلولات النص ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

التناقض في القرآن الكريم

« أننكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين .. وتجعلون له أندادا »

ثم يقول سبحانه وتعالى :

« وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .

إذن الله سبحانه وتعالى يتحدث هنا عن اتمام خلق الأرض .. هو يعطينا تفصيل الخلق .. فيقول خلق الأرض فى يومين .. ثم يتم بعد ذلك الحديث عن الخلق فيقول .. « وجعل فيها رواسى وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام » مادام الحديث تنمة لنفس الشئ الذى بدأ الكلام عنه .. وهو الأرض .. أى أن الله سبحانه وتعالى لم ينتقل إلى الحديث عن السموات .. وإنما هو يفصل كيفية خلق الأرض .. فهو يتم لنا زمن خلق الأرض .. فهو يقول : انى خلقت الأرض فى يومين .. ثم أتممت خلقها فى أربعة أيام .. إذن فمدة الخلق ، كلها بالنسبة للأرض هى أربعة أيام .. وليست ستة .

ولنضرب مثلا يقرب ما نقوله للأذهان .. إذا فرض أننى ذاهب إلى الاسكندرية .. وأن القطار سيتوقف فى مدينة طنطا .. فأنا أقول أن القطار سيتوقف فى مدينة طنطا بعد ساعة .. وفى الاسكندرية بعد ساعتين ونصف .. فهل معنى ذلك أن المسافة بين القاهرة والاسكندرية ثلاث ساعات ونصف أبدا .. المسافة بين القاهرة والاسكندرية هى التى ذكرتها مؤخرا .. أما الساعة التى سيستغرقها القطار من القاهرة إلى طنطا فهذه جزء يدخل ضمن الساعتين والنصف .. لماذا ؟ .. لأن طنطا جزء من الطريق بين القاهرة والاسكندرية .. والله سبحانه وتعالى يتحدث عن خلق الأرض .. فهو يقول سبحانه وتعالى .. انى خلقت الأرض فى يومين .. ثم أتممت عملية الخلق بأن جعلت فيها رواسى من فوقها .. وباركت فيها أقواتها فى أربعة أيام .. كأن الأيام الأربعة هى كل الفترة التى استغرقتها .. عملية خلق الأرض .. منها يومان لخلق الأرض .. ويومان لاتمام الخلق بأن جعل لها الله سبحانه وتعالى رواسى من فوقها .. وبارك فيها أقواتها .. المدة كلها هى أربعة أيام .. وليست ستة أيام .. الله سبحانه وتعالى أراد أن يفسر لنا أنه خلق الأرض فى يومين ثم أتم خلقها بكل ما فيها من أقوات ورواسى بما فى ذلك خلق الأرض نفسها أربعة أيام .. فكأن اليومين الأولين جزء من الأيام الأربعة التى استغرقتها خلق الأرض .. مثل بالضبط

التناقض في القرآن الكريم

عندما تقول أن القطار يستغرق من القاهرة إلى الاسكندرية ساعتين ونصفا . . وبين القاهرة وطنطا ساعة . . المسافة كلها ساعتان ونصف . . ولكنك أردت أن تفصل الجزء من الكل . . فذكرت بالتفسير جزءا من الكل . . وليس معنى هذا أن هذا الجزء اضافة الخلق . . هذا جزء من الكل نستخدمه جميعا في حياتنا اليومية كل يوم . . أقول وضعت أساس العمارة في ثلاثة أشهر . . وأتممت بناءها في عام . . هل معنى ذلك أن العمارة استغرقت عاما وثلاثة أشهر . . لا . . لقد أتممتها في عام . . ولكن جزء الأساس استغرق ثلاثة أشهر من عام البناء . . هنا تحدثت بالتفصيل . . والجزء من الكل . . ليس منفصلا . . ولا زائدا عنه . . تقول هذا المشروع تتم مرحلته الأولى في عام . . وينتهي في عامين . . هل معناه أنه يستغرق ثلاثة أعوام . . لا . . عامين . . لأن المرحلة الأولى هي جزء من الكل . .

تفصيل الخلق

والله سبحانه وتعالى لم يفصل لنا في الآيات السابقة مراحل الخلق ولكنه أتى به مجملا . . إنما في سورة « فصلت » . . تحدث أولا عن خلق الأرض . . خلق الأرض نفسها في يومين . . ثم أتم الخلق بأن جعل فيها وواسى . . وبارك فيها أقواتها في أربعة أيام . . هذه مرحلة خلق الأرض . . استغرقت أربعة أيام . . ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :
« ثم استوى إلى السماء وهي دخان » . .
هنا انتقل الله سبحانه وتعالى من عملية خلق الأرض إلى خلق السماء . . فقال تعالى :

« ثم استوى إلى السماء وهي دخان » . .

مرحلة جديدة بعد إتمام خلق الأرض . . إن إتمام خلق الأرض استغرق أربعة أيام . . وخلق السماوات يومين . . فأيام الخلق ستة . . وهما من أيام الله سبحانه وتعالى . .

« وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . .

وهكذا نجد أن التناقض وهمي . . وأن المستشرقين أرادوا أن يستغلوا عملية تفصيل الخلق التي أوردها الله في سورة فصلت ليشتكوا في القرآن . . وكان الله عليهما قبل أن يبدلوا . . تبدأ الآية الكريمة بقوله :

التناقض في القرآن الكريم

« أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين .. وتجعلون له أندادا »
بدأها بهذا الكلام ليقول لنا من هم الذين سيجادلون في هذه الآية وينشرونها
بالطريقة التي تهواها أنفسهم للأضلال عن سبيل الله .

الود .. والمعروف

نأتى بعد ذلك إلى شيء آخر .. قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾

(سورة المجادلة)

ثم يقول الله سبحانه وتعالى ..

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
وَصَاحِبَيْمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

يأتى المستشرقون .. وكل من يحاول التشكيك في هذا الدين يقولون ما هذا؟
في الآية الأول .. الله سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نود من حاد الله ورسوله ..
ولو كانوا آباءنا .. وفي الآية الثانية في سورة لقمان يقول :

« وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في
الدنيا معروفًا » ..

إذن في الآية الأولى يقول لا تودهم .. وفي الآية الثانية يقول وصاحبهما
معروفًا .. كيف يمكن أن يستقيم؟ أمران مختلفان في نفس الشيء ..
نقول أنه ليس هناك أى اختلاف .. ولكنك لا تفهم دقة تعبير القرآن
الكريم .. واللفظ في القرآن الكريم ..
ولنشرح ذلك بالتفصيل .. المعروف يفعله الرجل لمن يحبه بقلبه .. ومن

التناقض في القرآن الكريم

لا يجب .. ذلك أنك يمكن أن تسير في الطريق تجد إنسانا لا تعرفه ..
ولا تربطك به أى علاقة .. ولكنك تجده في مأزق فتسدى إليه معروفا لتنقذه ..
كأن يكون قد فقد حافظة نقوده مثلا فتعطيه مبلغا من المال ليصل إلى منزله أو
تقدم له معونة .. قد يكون جائعا فتطعنه ثمن الطعام .. أنت هنا تفعل معروفا
عسى الله أن يجزيك عنه .. لا يربطك بالإنسان الآخر أى صلة .. هذا هو
المعروف .. ولكن المودة مكانها القلب .. هى فى القلب .. أنت لا تود إلا من
تحب .. لا تريد أن تجلس أو تعيش إلا مع من تحب .. المعروف لا يمس
القلب .. ولكن المودة تمس القلب .. القلب فى المودة يكون مع الشخص ..
والقلب فى المعروف لا يكون معه .. وإذا كان القلب مع إنسان غير مؤمن فهو
قلب غير مؤمن .. والله لا يجعل لك قلبين فى صدرك .. مصداقا لقوله تعالى :

« ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه »

إنما امتداد المعروف هو رضاء الله سبحانه وتعالى ..
نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة .. الله سبحانه وتعالى يقول فى سورة
المجادلة :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ..
هنا استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة الود .. وكلمة الود هى التى تمس
القلب .. هنا لا تجد مثلا إنسانا مؤمنا يحب إنسانا يجارب الله ورسوله .. حتى
ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم .. الحب من داخل القلب .. من داخل
النفس .. ثم يأتى الله سبحانه وتعالى فى مسألة الوالدين .. وبينها إن حاولا أن
يمسا الإيمان فى قلوبنا أن نستخدم العنف ضدّهما .. أو نفعل أى شىء .. وهم
فى هذه الحالة يكونون فى سن كبيرة .. ضعفاء .. اقتربوا من نهاية العمر ..
هؤلاء الذين قدموا لنا المعروف بأنهم قاموا بتربيتنا .. وبالسهر علينا .. يأمرنا
الله سبحانه وتعالى أن نحفظ لهم بالود أن كانوا مؤمنين .. وبالحب الكبير ..
وإذا حاولوا أن يدخلوا الشرك إلى قلوبنا .. أو حاولوا أن يجعلونا شرك بالله
سبحانه وتعالى .. يطالبنا بالألا نطعمها .. ولكن نصاحبها فى الدنيا معروفا ..
أدب القرآن الكريم .. نفعل ذلك ارضاء لله سبحانه وتعالى .. ومكافأة
للجميل .. ولكن القلب لا يودهم .. المعروف لمن تحبه ومن لا تحبه .. أما
الود فلمن تحب فقط .. أنت حين تسدى لها معروفا .. أى تعاملها معاملة

التناقض في القرآن الكريم

حسنة .. ولكن ليس بقلبك .. لأنها يحاولان أن يدفعاك للشرك .. تفعل ذلك
ارضاء لله سبحانه وتعالى الذي يأبى ألا أن يكون رحيمًا حتى مع من يعصاه ..
والذي ينهانا عن أي تقابل الإحسان بالإساءة .. والمعروف شيء .. والود شيء
آخر تماما ..

أين هو التناقض الموجود .. هذه حالة .. وهذه حالة أخرى .. قلب مع
الله لا يدخل فيه كافر .. ولا من يحاول أن يشرك به .. أما المعروف الذي
أسديته إلى والدي فأمروني الله به .. رحمة بهما .. كما ربياني صغيرا .. إذ أن مناقشة
الإيمان بين الابن ووالديه .. لا تتم إلا إذا بلغ الابن مرتبة الرجولة .. وفي هذه
الحالة يكون الأم والأب قد بلغا مرحلة الكهولة .. وعلى أن أعاملهما بالمعروف
ردا للجميل .. وارضاء لله سبحانه وتعالى الذي لا يقبل الجحود .. لكن
المعروف ليس بقلبي .. وهذا مختلف تماما عن ذلك ..

لماذا .. الأم وحدها

نتقل بعد ذلك إلى نقطة ثالثة .. فالآيات التي ذكرت في القرآن الكريم ..
نجد أن الله سبحانه وتعالى يوصي بالوالدين .. ثم لا يذكر إلا الأم .. مثلا في
سورة الأحقاف :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ

كُرْهًا وَحَمَلَهُ وَفِصْلَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ

أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴿١٨٦﴾

(سورة الأحقاف)

وفي سورة لقمان :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ

أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾

(سورة لقمان)

نجد أن الله سبحانه وتعالى أوصى بالوالدين .. ثم ذكر الأم وحدها دون الأب .. يأتي هنا بعض المستشرقين ويسألون : كيف أن الله سبحانه وتعالى لم يوص إلا بالأم .. ثم ذكر في أول الآية الأم والأب .. وفي آخر الآية الأم والأب .. دون أن يوصى بالأب .. ثم الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يوصى من ؟ هل هو يوصى الطفل وهو رضيع في حالة الحمل والولادة .. وهل يفقه هذا الطفل شيئاً .. وهل يقرأ القرآن أو يعقل .. هل يذكر الطفل شيئاً عن هذه المرحلة .. إذن من يخاطب القرآن .. ؟ إذا كان يخاطب الطفل وهو رضيع .. فهو يخاطب إنساناً لا يعقل .. وإذا كان يخاطبه بعد أن كبر فهو يخاطب إنساناً عن فترة لا يتذكرها .. ولا يعرفها !!؟

نقول له انك لم تفهم هذه الآية .. فالله سبحانه وتعالى في توصيته بالأم قد اختصها لأنها تقوم بالجزء غير المنظور في حياة الابن أو غير المدرك عقلاً .. بمعنى أن الطفل وهو صغير في الرضاعة .. وفي الحمل والولادة .. وحتى يبلغ ويعقل .. الأم هي التي تقدم كل شيء .. هي التي تسهر ترضعه .. وهي التي تحمل .. وهي التي تلد .. فإذا كبر الطفل وعقل من الذي يجده أمامه ؟ أباه .. إذا أراد شيئاً فإن أباه هو الذي يحققه له .. إذا أراد أن يشتري شيئاً .. لعبة جديدة .. ملابس جديدة .. إذا أراد مالا .. كل هذا يقوم به الأب .. إذن فضل الأب ظاهر أمامه .. أما فضل الأم فهو مستتر .. ولذلك جاءت التوصية بالأم أكثر من الأب .. لماذا ؟ لأن الطفل حينما يحقق له أبوه كل رغباته .. يحس بفضل أبيه عليه .. ولكنه نادراً ما يقدر التعب الذي تعبته أمه .. وهو يزيد أضعاف أضعاف ما يقدمه له أبوه .. ومن هنا جاءت التوصية بالأم .. حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمك .. أمك .. أمك .. ثلاث مرات .. ثم قال أبوك .. ولكن ما هو الهدف من هذا التذكير إذا كان الإنسان لا يعقل هذه الفترة .. لا يتذكرها من حياته مطلقاً .. الهدف هو أن يرى ذلك على غيره .. ينظر إلى الأمهات ليرى كيف يتعبن .. وكيف يعانين .

التناقض في القرآن الكريم

ويقاسين .. وكيف يسهرون على أطفالهن .. وماذا يتحملن من مشقة ..
وعندما يراه على غيره يدرك أن هذا قد حدث له .. ويحس به .. ولذلك يرد
الجميل .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بتعب الأم .. ويريد أن يوصينا
بالاثنين معا .. الأب والأم .. ولكنه يوصينا بالأم .. ويخصها بالذكر أكثر ..
لأن تعبها غير واضح في عقل الابن .. بينما الأب ما يفعله واضح وظاهر أمام
الطفل .. هذا هو الهدف من الآية الكريمة ..

اقى فلا تستعجلوه

ومضى المستشرقون في الحديث عن القرآن الكريم فيقولون انه في سورة النحل
يقول القرآن :

« اقى أمر الله فلا تستعجلوه »

كيف يمكن أن يقول الله سبحانه وتعالى .. اقى ثم يقول لا تستعجلوه .. اقى
فعل ماض .. لأنه حدث .. ولا تستعجلوه مستقبل .. كيف يمضى هذا مع
ذلك .. نقول لهم أنت حين تتحدث عن الله سبحانه وتعالى .. فيجب أن تضع
في عقلك وذهنك وتفكيرك إن الله ليس كمثله شيء .. أنت لك قوة .. والله
قوة .. ولكن هل قوتك كقوة الله سبحانه وتعالى ! أنت لك قدرة والله قدرة ..
ولكن هل قدرتك كقدرة الله سبحانه وتعالى .. أنت تعيش في الزمن .. والله
سبحانه وتعالى لا زمن عنده .. انه منزه عن الزمن .. اقى هذه في علم الله
سبحانه وتعالى .. حدث .. ومتى .. قال الله سبحانه وتعالى اقى فقد حدث
وتم .. وانتهى في علم الله سبحانه وتعالى .. في علم اليقين .. ولكن الأشياء
تخرج من علم الله سبحانه وتعالى إلى علم البشر .. تخرج بكلمة كن .. الله
سبحانه وتعالى حين يريد أن ينقل شيئا من علم الله سبحانه وتعالى إلى علم
الإنسان .. فإن كلمة « كن » .. تكون الأمر الذى يحمل التنفيذ ..
الله سبحانه وتعالى عنده علم الساعة .. ومادام قد تقرر .. فليست هناك
قوة في هذه الدنيا تستطيع أن تمنع حدوثه .. إنه لا محالة .. فلا تطلبوه بكلمة
كن .. وأنتم في عجلة .. لماذا ؟ لأن المؤمن الحقيقى إذا كان يخشى شيئا فإنه
يخشى يوم الساعة .. ويوم الحساب .. وإذا كان يخشى شيئا .. يخشى عدل الله
سبحانه وتعالى .. الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها :

التناقض في القرآن الكريم

« ووجدوا ما عملوا حاضرا »

الصغيرة قبل الكبيرة .. وإذا كان لا يترك شيئا صغيرا فماذا يفعل في الكبائر .. والإنسان المؤمن يخاف يوم الحساب ويخشاه مهما كان إيمانه .. إنه يرتعد من هول ذلك اليوم .. أما الإنسان الكافر المتحدى فإنه هو الذي عن جهل .. وعن عدم ادراك .. لا يعرف معنى الآخرة .. ولا معنى الحساب .. ومن هنا فهو يستعجل .. يريد أن يصل إلى الآخرة .. ولو علم ما فيها .. وما ينتظره فيها .. لما ذكرها على لسانه .. فحينما يقول الله :

« اتي أمر الله »

أى أن الساعة تقرر .. وانتهى أمرها .. تم الأمر فلا تستعجلوه لا تتعجلوا يوم الحساب .. انكم تجهلون ما فيه من أهوال .. إذن فهي بالنسبة لله ثم وانتهى .. ولكنه بالنسبة لى أنا مستقبل .. فليس هناك أى تناقض بين استخدام الماضي والمستقبل .. لأن اتي أمر الله فى علم الله سبحانه وتعالى .. ولكنه فى علمى أنا .. وفى ادراكى أنا .. وحتى يصل إلى أنا لا يزال مستقبلا حينما يقول الله كلمة « كن » وينفخ فى الصور .. وهل يملك إنسان أن يمنع الله سبحانه وتعالى من تنفيذ أمر قدره .. لا قدرة فوق قدرة الله .. من الذى يمنع أمر الله يأتى مادام قد قال « اتي » أنت لا تملك مقومات الغد .. ولكن الذى يملك مقومات الغد هو الله سبحانه وتعالى اتي .. إذن فقد تم فعلا .. ولكنه محجوب عنى .. لذلك قال تعالى :

« فلا تستعجلوه »

هل رأى محمد؟

نتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى .. يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الفيل مخاطبا محمدا صلى الله عليه وسلم ..

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل »

بعض المستشرقين يقول هذا قصور فى التعبير .. « ألم تر » هل رأى محمد عليه السلام عام الفيل .. لقد ولد فى عام الفيل .. إنه لم ير .. لوقال الله سبحانه وتعالى ألم تعلم .. لقلنا علم عن غيره .. فالعلم قد تحصل عليه أنت .. وقد تحصل عليه عن طريق من علمه من غيرك من البشر .. ولكن الله

التناقض في القرآن الكريم

سبحانه وتعالى حين يقول ألم تر . . يقول المستشرقون في هذا . . إن التعبير قد خان محمدا عليه السلام . . فهو لم ير . . وقوله ألم تر مجافاة لحقيقة واقعة ثابتة . ولكن الذي فات هؤلاء إن هذه قضية من قضايا الإيمان . . ما يقوله الله سبحانه وتعالى للإنسان المؤمن . . هو رؤية صادقة . . والقرآن هو كلام متعبد بتلاوته لا يتغير ولا يتبدل . . فعندما يقول الله « ألم تر » . . معناها أن الرؤية مستمرة لكل مؤمن بالله . . ذلك لأن الرؤية هنا رؤيا معجزة كبرى . . والله يريدنا أن تثبت في عقولنا . . كما تثبت الرؤية تماما . . لماذا ؟ لأن قضية الإيمان الكبرى هنا هي إن الله سبحانه وتعالى في معجزة قد خلق من الضعف قوة . . وهذه لا يستطيع أن يفعلها إلا الله .

أنا أستطيع أن أعين شخصا ضعيفا . . على أن يحمل حملا ثقيلًا . . بأن أحمل عنه هذا الحمل . . ولكني لا أستطيع ولا أقدر أن أجعل هذا الرجل الضعيف قويا . . بحيث يقوم هو بنفسه بحمل هذا الحمل الثقيل . . ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يستطيع أن يخلق من هذا الضعيف الذي لا حول له ولا قوة قويا يهزم أقوى أقوياء العالم . . وأقوى ملوك الدنيا . . وهو إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة . . هذه هي إحدى معجزات الله . . ومن هنا فإن الذي حدث في عام الفيل . . أن طيرا أبابيل تمسك في مناقيرها حجارة صغيرة جاءت . . وهزمت جيشا من الأفيال . . أقوى جيش في العالم . . في ذلك الوقت . . ولو انني عقلا ومنطقا قلت لإنسان أن طيرا . . أو مجموعة من العصافير قد هزمت فيلا لسخر مني . . ذلك أن الفيل يستطيع أن يهلك مئات الطيور دون أن يصاب بأذى . . بل أن الطير يقف على ظهر الفيل . . فلا يحس الفيل به . . فكيف يكون هذا الطير يأتى وكونه يفنى هذا الجيش العظيم . . فقد استخدم الله أضعف مخلوقاته . . ليهزم خلقا من أقوى مخلوقاته . . وهذه معجزة لا يمكن أن تتم إلا على يد الله سبحانه وتعالى .

بل إن بعض العلماء قد أخذ يتشكك في هذه الناحية من كثرة ما تناووها المستشرقون . . فادعى أو قال بعضهم إن الذي فتك بجيش أبرهه . . هو الأمراض والجراثيم التي سلطها الله على هذا الجيش . . وأنا لا أتفق مع هذا المعنى . . فعام الفيل حدث عند مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ورسول الله بعث في الأربعين من عمره . . أي أنه في ذلك الوقت كان هناك من

التناقض في القرآن الكريم

هم في سن الخامسة والخمسين .. والستين .. والخامسة والستين ..
والسبعين .. ومن هم فوق ذلك .. ممن رأوا عام الفيل .. رأى العين .. ولو
انه لم تأت هذه الطير .. ولو انه لم تلق بحجارة من سجيل .. ولو انها لم تجعل
هذا الجيش عصفا مأكولا .. وهو ما يحتاج إلى أسابيع بالنسبة لأي جسم
حيواني .. أو بشري .. لكان هؤلاء الناس قد قاموا وقالوا ان ما يقوله محمد غير
صحيح .. لقد شهدنا عام الفيل .. ولم نر طيرا تأتي .. ولم نرها تفنى أعظم
جيش بأحجار صغيرة تحملها في مناقيرها .. ولم نر هذا الجيش يتحول إلى عصف
مأكول في لحظات .. فلأن أحدا لم يستطع أن يكذب هذه الواقعة .. وقت
نزولها ممن رأوها .. دليل على أنها حدثت كما رويت في القرآن الكريم ..
وليست محتاجة إلى تفسير لأن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء .. ومن هنا
فإنه في القضايا الإيمانية يكون كلام الله سبحانه وتعالى هو الرؤية الدائمة التي
تتمثل أمامنا .. والتي تتكرر باستمرار في الحياة .. فكم من ضعيف نصره الله
على أقوى الأقوياء .. وكم من قوى خذله الله وجعل نهايته على يد أضعف
الضعفاء .. كلام الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمؤمن .. هو يقيني بمثابة الرؤية
الدائمة .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى « ألم تر » .. ولم يقل رأيت .. أو
علمت .. « ألم تر » حاضر متجدد مستمر يحدث وسيحدث على مر السنين إلى
يوم الساعة .. إنه قضية الحق ينصر الله المظلوم على الظالم .. مهما كانت قوة
الظالم ، ومهما كان ضعف المظلوم .. تلك قضية إيمانية كبرى يجب أن تراها في
قلبك إذا كنت مؤمنا .. وتراها رؤية اليقين « ألم تر » .. هذا هو الإيمان ..
وهذه هي الحكمة في استخدام كلمة « ألم تر » .. تجعل المؤمن يحس بقوة الله
وقدرة الله في كل ما يحدث .. بالنسبة للحق والباطل .. وقضايا الحق ..
وقضايا الباطل .. حتى قيام الساعة ..

من هم الكاذبون ؟

ونحسب لنقابل ما يقوله المستشرقون عن القرآن الكريم .. التناقض الذي
يدعون إنه موجود فيه .. وهم في كل ما يثرونه اظهروا لاعجاز القرآن
الكريم .. قول الله سبحانه وتعالى في سورة المنافقون :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَسْهَدُ بِكَ أَنْكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

التناقض في القرآن الكريم

إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ ﴿١٠١﴾

(سورة المنافقون)

يقول المستشرقون إن المنافقين قد شهدوا أن محمدا رسول الله .. وأن الله يعلم أن محمدا رسوله .. ويعلم أيضا أن المنافقين كاذبون .. كيف يكون المنافقون كاذبين وهم شهدوا بما شهد به الله .. كيف تكون الشهادتان متفقتين .. في أن محمدا رسول الله ومع ذلك يكون المنافقون كاذبين .. مع اتفاق ما شهدوا به .. مع علم الله .. مع أن الكذب هو عدم مطابقة الكلام للواقع .. فهل كلام المنافقين بأن محمدا رسول الله ليس مطابقا للواقع ؟ هذا تناقض .. هكذا يقول المستشرقون ..

نأتى بعد ذلك إلى معنى الآية الكريمة .. هم أى المنافقين قالوا :

« نشهد إنك لرسول الله .. والله يعلم إنك لرسوله »

إذن فهي قضية صادقة .. فكيف يقول الله سبحانه وتعالى إن المنافقين كاذبون ؟ هل التكذيب هنا يقع على انك : لرسول الله لا .. محمد رسول الله هذا صدق .. التكذيب هنا يقع على كلمة « نشهد » لأنهم قالوا .. نشهدوا إنك رسول الله .. فالتكذيب وارد على كلمة نشهد لأن معنى الشهادة .. إننا نقول بألستنا ما فى قلوبنا .. والله يعلم إن ما فى قلوبهم يخالف ما يقولونه بألستهم .. إذن فقولهم « نشهد إنك » .. كلمة نشهد .. هم كاذبون فيها .. كاذبون فى أمر الشهادة .. لأنهم لا يشهدون .. ولا يؤمنون .. إن محمدا لرسول الله .. إنما جاءوا لينافقوا بهذا الكلام .. لا عن صدق .. ولكن عن نفاق .. محمد رسول الله لا تكذيب فيها .. ولكن التكذيب منصب على كلمة « نشهد » .. فى ذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« والله يعلم إنك لرسوله »

وهنا فرق بين الشاهد والمشهود به .. فرق بين تكذيب الشهادة .. وبين تكذيب المشهود به .. المشهود به إنك رسول الله صحيح مائة فى المائة .. ولكن شهادة المنافقين هى المكذبة .. ومن هنا ترى دقة التعبير فى القرآن الكريم .

التناقض في القرآن الكريم

السؤال ليس للعلم

نأتى بعد ذلك إلى اعجاز آخر من اعجاز القرآن الكريم .. إن الله يقول في سورة الرحمن :

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

.. ويقول في سورة الصافات :

« وقفوهم إنهم مسئولون »

في الآية الأولى هناك نفى للسؤال .. وفي الآية الثانية هناك اثبات للسؤال .. كيف يكون ذلك .. هنا يأتي المستشرقون ليقولوا هذا تناقض في القرآن الكريم .. كيف يقول الله سبحانه وتعالى :

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

ثم يقول سبحانه وتعالى :

« وقفوهم إنهم مسئولون »

هذا تناقض .. محمد نسي ..

نقول لهم انكم تقولون ذلك لأنكم جهلتم ماذا يكون السؤال .. والسؤال نوعان .. نوع تسأله لتعلم .. ونوع تسأله ليكون المسئول شاهدا على نفسه .. التلميذ حين يسأل أستاذه .. يسأله ليعلم .. ليعرف العلم .. ولكن حين يسأل الأستاذ تلميذه .. هل يسأله ليتعلم أو ليعلم .. لا .. فالأستاذ يعرف أضعاف أضعاف تلميذه .. ولكنه يسأله ليكون التلميذ شهيدا على نفسه .. لا يستطيع أن يجادل .. أو يقول : لقد ذاكرت وهو لم يقرأ حرفا .. الأسئلة في الامتحانات مثلا لا تقوم وزارة التعليم بوضعها .. لأنها تجهل ما يعرفه الطلبة .. فتريد أن تستزيد منهم علما .. ولكن ليكون الطالب شاهدا على نفسه فلا يستطيع أن يجادل .. ورقة الإجابة موجودة وهي شاهد على درجة الطالب .. إن كان ممتازا أو ضعيفا .. أو لا يعرف شيئا على الإطلاق .. فالآية الكريمة ..

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

تنفى السؤال للمعرفة .. والله أعلم بذنوبهم .. الله سبحانه وتعالى يعلم .. وبالتالي فهو غير محتاج .. لأن يسأل للعلم .. وغير محتاج لأن يعرف منهم .. لأنه أعلم منهم .. ومن هنا لا سؤال .. لأن السائل أعلم من المسئول ..

التناقض في القرآن الكريم

فلا يكون السؤال للعلم .. ولذلك يقول الله :

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

أما في الآية الثانية « وقفوهم انهم مسئولون » .. أى انكم ستسألون لتقرروا الحقيقة والواقع في الحساب .. لا لتقولوا شيئاً لا يعلمه الله .. لتكونوا شهداء على أنفسكم .. وهذا ما تفسره الآيات التي قبلها .. والتي بعدها .. فإذا أين هو التعارض .. وأى تناقض هذا الذى زعمه المستشرقون في القرآن .. فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن الكافرين والمكذبين .. لذلك تقول السورة :

« قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون .. احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم .. وقفوهم انهم مسئولون »

السؤال هنا ليس للعلم .. ولكن انهم مسئولون ليكونوا شهداء على أنفسهم .. هذا الذى كنتم به تكذبون .. هذا ما عبدتم من دون الله .. والآن جاء وقت الحساب .. لتكونوا شهداء على أنفسكم يوم القيامة .. أين ما كنتم تعبدون من دون الله .. يسألهم عما كانوا يعبدون من دون الله .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« ما لكم لا تناصرون »

لماذا لا ينصركم أحد .. لماذا لا تنصركم الهتكم .. السؤال هنا ليس للعلم .. ولكن ليكونوا شهداء على أنفسهم ..

يحملون أوزار غيرهم

نتقل بعد ذلك إلى آية أخرى .. يقول المستشرقون إن الله سبحانه وتعالى

قال في سورة الأنعام :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

وفي سورة فاطر :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

وفي سورة النجم :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

ثم يأتي الله سبحانه وتعالى في سورة العنكبوت ويقول :

التناقض في القرآن الكريم

« وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم »

كيف يمكن أن يحدث ذلك .. الله قضى بأنه لا تزر وازرة بأخرى ثم هنا يقول .. وليحملن أثقالا مع أثقالهم أى أوزارا مع أوزارهم أليس هذا تناقضا .. لقد نسي محمد .. هكذا هم يريدون أن يقولوا .. ولكنهم يجهلون اعجاز القرآن في التعبير .. نقول لهم انه :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

معناها أن كل إنسان يحمل ذنبه .. ولكن بعض الناس يوم القيامة يحملون ذنوبا مع ذنوبهم .. من هم .. المضلون الذين يأتون في الحياة الدنيا ليضلوا عن سبيل الله .. الوزر في الآية الأولى هو وزر الضلال .. فإذا كنت أنا ضالا .. وأنت ضال .. وفلان ضال .. كل منا يحمل وزره على نفسه .. فكل منا يحمل ضلاله ووزره .. فمن هنا فإنه لا يحمل ضال وزر ضال آخر .. ولكن هناك الضال .. وهناك المضل .. الضال هو من يضل الطريق .. يكفر بالله سبحانه وتعالى .. هذا هو الضال .. أما المضل فإنه لا يكتفى بأنه هو في الضلالة .. لكن يضل غيره .. أى يأتى إلى رجل مؤمن .. ويحاول أن يفسد إيمانه .. يأتى إلى إنسان يتطلع إلى الله .. يحاول أن يجعله يكفر .. وربما ينجح في ذلك .. هؤلاء الناس « المضلون » لا يحملون أوزارهم فقط .. ولكن لهم نصيب من كل وزر يرتكبه الذين أضلوهم .. مصداقا للآية الكريمة في سورة النحل :

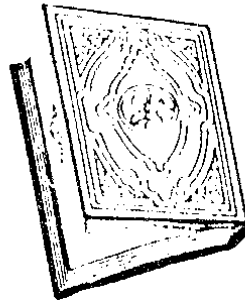
« ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة .. ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم »

إذن من يضل الناس .. ويعمل على نشر الكفر والالحاد .. والذين لا يكتفون أنهم هم في الضلالة .. وحدهم ولكنهم يريدون أن يضلوا غيرهم .. لهم نصيب من كل وزر يقوم به أولئك الذين أضلوهم .. فأنا مثلا حين أتى بإنسان لا يشرب الخمر .. وأظن أغريه حتى أجعله يشرب الخمر .. وأقدمها له .. وأغريه بها .. له وزر لأنه عصى الله وشرب الخمر .. ولى وزر لأننى أضلته وساعدته على المعصية .. وظللت أزينها له حتى وقع فيها .. ومن هنا فإن الآية الأولى التي تقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .. يقصد بها الضالين .. أما الآية الثانية التي تقول :

« وليحملن أثقالهم .. وأثقالا مع أثقالهم »

التناقض في القرآن الكريم

يقصد بها المضلين الذين يضلون عن سبيل الله . . فلهم نصيب من أوزارهم أولئك الذين أضلوهم . . والذين اتجهوا بهم إلى الكفر والاثم والعصيان . . هذه بعض التناقضات التي يحاول المستشرقون أن ينالوا بها من القرآن الكريم . . وأن يقولوا انه قول بشر . . ولقد أوضحنا هذه التناقضات بشكل يظهر اعجاز القرآن فيها . . فلا تناقض في القرآن أبدا وإنما بلاغة ودقة في التغيير . . تجعل اللفظ والمعنى منسجمين تماما . . لا يتعدان عن بعضهما البعض . . ولا يؤديان إلا نفس المعنى المقصود بالنسبة لمقتضيات الحال . . على أن المضلين . . أو عددا من المستشرقين لا يكتفون بذلك . . لا يكتفون بالقول بأن هناك تناقضا . . بل يقولون إن هناك تناقضا بين قوانين الكون وبين القرآن الكريم . . وفي هذا افتراء كبير . . وهذا هو موضوع الفصل القادم الذي ستحدث فيه عن « القرآن . . وقوانين الكون » .



الفصل السادس

القرآن وقوانين الكون

القرآن وقوانين الكون

هناك كثير من دواعي الاعجاز في القرآن الكريم لا يتنبه إليها العقل إلا بعد أن يبحث ويعيش وينشط .. هذا الاعجاز يظهر في دقة التعبير في القرآن الكريم .. ثم يظهر بطريقة أكثر وضوحاً فيما يحاول بعض المستشرقين أن يدعوه على القرآن من ادعاء بالتناقض ..

ولقد تحدثت في الفصول الماضية عن الاعجاز في بلاغة القرآن الكريم .. ثم تحدثت عن الاعجاز فيما يدعونه من تناقض القرآن الكريم .. والآن أنتقل إلى قضية يحاول البعض اثارتها ..

حين فشلت قضية التناقض جاءتوا بشيء اسمه تصادم القرآن الكريم .. وحقائق الكون .. وادعوا أن بعض آيات القرآن تتصادم مع الحقائق الكونية .. وهذا افتراء .. فلا يمكن أن يتصادم القرآن مع أية حقيقة كونية .. لماذا؟

لأن القائل هو الخالق .. ولا يمكن أن يكون هناك إنسان أعلم بقوانين الكون من خالقه .. ولكن الهدف من الطعن في القرآن الكريم - ويجب أن نفظن لذلك - هو محاولة الايهام بأن القائل بشر .. وسناقش في هذا الفصل بعض ما يقال عن تصادم القرآن الكريم وحقائق الكون ..

قبل أن نبدأ يجب أن نتنبه إلى أن القرآن الكريم له عطاء متجدد .. وهذا العطاء المتجدد هو استمرار لمعنى إعجاز القرآن .. ولو أفرغ القرآن عطاءه كله أو إعجازه كله في عدد من السنوات .. أو في قرن من الزمان .. لاستقبل القرون الأخرى دون إعجاز أو عطاء .. وبذلك يكون قد جمد .. والقرآن لا يجمد أبداً .. وإنما يعطى لكل جيل بقدر طاقته .. ولكل فرد بقدر فهمه .. ويعطى للجيل القادم شيئاً جديداً لم يعطه للجيل الذي سبقه .. وهكذا .. ولهذا ندرك كما ذكرت من قبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تنزل عليه القرآن لم يتعرض بالتفسير إلا لما تقتضيه أحكام هذا الدين في « افعل ولا تفعل » .. الأشياء التي إذا فعلتها نجوت .. وإذا لم أفعلها عوقبت .. أما ما هو متصل بقوانين هذا الكون مما سيكشفه الله من علم البشر في المستقبل .. وما سيظهر بعد ذلك للعالم .. فلم يتعرض له التفسير .. لماذا .. لأن العقل في ساعة نزول القرآن لم يكن عنده الاستعداد العلمى ليفهم حقائق الكون ..

القرآن وقوانين الكون

ولذلك أخذ منها قدر حجمه .. وأعطاه القرآن ما يعجبه ويرضيه .. ثم مرت السنوات أو القرون .. وظهرت حقائق علمية حديثة .. فتبين لنا أن عطاء القرآن فيها كان عطاء متجددا ..

القرآن .. والنظريات العلمية

ولكن قبل أن نغضى في التحدث عن حقائق الكون .. فإننا يجب أن نجيب على سؤالين هامين .. السؤال الأول :

هو محاولة ربط القرآن بالنظريات العلمية .. وهذا أخطر ما نواجهه ... ذلك أن بعض العلماء في اندفاعهم في التفسير وفي محاولاتهم ربط القرآن بالتقدم العلمي .. يندفعون في محاولة ربط كلام الله بنظريات علمية مكتشفة .. يثبت بعد ذلك أنها غير صحيحة .. وهم في اندفاعهم هذا يتخذون خطوات متسرعة .. ويحاولون اثبات القرآن بالعلم .. والقرآن ليس في حاجة إلى العلم ليثبت .. فالقرآن ليس كتاب علم .. ولكنه كتاب عبادة .. ومنهج .. ولكن الله سبحانه وتعالى في علمه علم أنه بعد عدة قرون من نزول هذا الكتاب الكريم .. سيأتي عدد من الناس .. ويقولون انتهى عصر الإيمان .. وبدأ عصر العلم .. ولذلك وضع في قرآنه ما يعجز هؤلاء الناس .. ويثبت أن عصر العلم الذي يتحدثون عنه قد بينه القرآن في صورة حقائق الكون .. بينه كحقائق كونية منذ أربعة عشر قرنا .. ولم يكتشف العقل البشرى معناها إلا في السنوات الماضية .. ولقد قلت أن عطاء القرآن الكريم متجدد مصداقا للآية الكريمة :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .. ويجب أن نتنبه هنا إلى حرف السين في كلمة « سنريهم » لأن معناها المستقبل .. والمستقبل هنا لا ينتهي .. بل أن عطاءه مستمر لهذا الجيل والجيل الذي بعده .. والجيل الذي بعده .. إلى يوم القيامة .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى قد أعلمنا أن هناك حقائق وآيات سيكشف عنها لكل جيل .. ولكن ليس معنى هذا أن نحمل معاني القرآن أكثر مما تحتمل .. وأن نتعامل معه على أساس أنه كتاب جاء ينبئنا بعلوم الدنيا .. فالقرآن لم يأت ليعطينا أسرار علم الهندسة .. أو علم الفلك .. أو علم الفضاء .. إلى آخر هذا .. ولكن

القرآن وقوانين الكون

القرآن يبدأ من أول سورة بعد الفاتحة .. وهى سورة البقرة ..
« ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » .

أى أنه كتاب هدى .. ولكن الله سبحانه وتعالى وضع فى كتابه الكريم ما يمكن أن نرد به على الذين يجاربون هذا الدين حتى يوم القيامة .. ومن هنا فإن آيات الكون الكبرى التى أنبأنا الله بها فى القرآن الكريم .. والتى نعرف بعضها .. وبعضها لا نعرفه معرفة اليقين حتى الآن .. أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نفحم بها أولئك الذين يقولون انتهى عصر الإيمان .. وبدأ عصر العلم .. وإن يقول لنا إن العلم الذى يحاول بعض المضلين أن يتخذهوها جديدا هو من علمى ومن خلقى .. فلا تعبدوا المخلوق .. وتركوا الخالق .. ولكن هذا يجعلنا نتخذ العلم دليلا على صحة القرآن .. بل أن القرآن هو الدليل الحقيقى على صحة .. أو عدم صحة العلم .. فالعلم الذى يتناقض مع القرآن الكريم كاذب وغير صحيح ..

والقرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .. لا تغيير فيه ولا تبديل .. ومن هنا فإن خطورة ربط القرآن الكريم بنظرية علمية كاذبة .. وما أكثرها .. تجعل موقف المفسر فى حرج عندما يثبت كذب هذه النظرية .. فهو لا يستطيع أن يغير أو يبدل فى كلام الله .. ومن هنا يجب أن نتروى وأن ندرس بامعان ومنتظر حتى نثبت الحقيقة العلمية ثبوت اليقين قبل أن نتحدث عن ربطها بالقرآن الكريم ولا نأخذ حديثا براقا يكون مجرد فرض .. وليس نظرية علمية .. ونسرع ونربطه بكلام الله .. وحينئذ نكون قد ارتكبنا خطأ كبيرا فى حق القرآن عندما يثبت كذب هذا الافتراض ..

لماذا .. تركها بلا تفسير

هذه واحدة .. أما الثانية فهى : لماذا لم يفسر القرآن الكريم الآيات العلمية لأولئك الذين عاصروا نزول القرآن .. وربما لأجيال بعدهم !؟
المعروف أن حقائق الكون التى أعلنها الله فى القرآن الكريم تمس قوانين كونية كبرى ينتفع بها الإنسان سواء علمها أو لم يعلمها .. فالشمس .. ودوران الأرض .. والجاذبية الأرضية .. والليل والنهار .. وكل ما يتعلق بهذا الكون .. وعلم الأجنة وما يدور فى الأرحام .. وكل ما يتعلق باستمرار النوع

القرآن وقوانين الكون

البشرى .. كل ذلك من قوانين الكون .. وقوانين الخلق ينتفع بها الناس سواء علموا بها أو لم يعلموا .. الملايين لا يعرفون شيئا عن النظام الكونى .. والتوازن الدقيق الموجود فيه .. ومع ذلك ينتفعون به .. والملايين لا يعرفون شيئا عن جاذبية الأرض .. ومع ذلك ينتفعون بكل قوانينها .. والملايين لا يعرفون شيئا عن حياة الطفل في رحم أمه .. ومع ذلك فإن عدم العلم لم يمنعهم من إنجاب الأطفال ..

ومن هنا لم يكن تفسير مثل هذه القضايا العلمية المتقدمة التى ذكرها القرآن ضرورة بالنسبة للذين عاصروا نزوله .. لأنهم ينتفعون بها .. سواء علموها أو جهلوا .. ولذلك أعطاهم الله على قدر عقولهم .. ثم فسر بعد ذلك للأجيال .. كل جيل على حسب عقله ..

نعود بعد ذلك إلى قول المستشرقين .. هم يقولون أن قوانين الكون تتصادم مع القرآن الكريم .. ونحن نؤكد لهم أن العلم الحديث قد أثبت أنه لا توجد حقيقة كونية واحدة تتصادم مع ما جاء فى القرآن .. إن القرآن الكريم لا يتصادم مع قوانين الكون .. أو مع خلق الكون .. ولكن هذا التصادم المزعوم يأتي أحيانا عن حقيقة قرآنية أسوأ تفسيرها .. لتبدو فى غير معناها الحقيقى .. أو حقيقة علمية كاذبة يحاول الناس استغلالها ضد القرآن .. وكما قلت أعود فأكرر .. اننا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم .. بل أن العلم هو الذى يجب أن يثبت .. ويلتمس الدليل من آيات القرآن الكريم .. ذلك أن القرآن أصدق من أى علم من علوم الدنيا .. ومن أى عالم فى هذا العالم .. لأن مكتشف هذا العلم أو مخرجه بشر .. وقائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى .. ومن هنا قلت فإننى لا أحاول أن أثبت القرآن بالعلم الأرضى .. ولكننى أرد على الذين يقولون أن هناك تناقضا بين حقائق الكون الأساسية .. وكلام الله سبحانه وتعالى ..

الأرض .. مددناها

نأتى بعد ذلك إلى حقائق القرآن .. واساءة تفسيرها بحيث تتصادم مع حقيقة علمية .. بعض العلماء يقولون أن الله سبحانه وتعالى قد قال فى كتابه العزيز .. « والأرض مددناها » ..

القرآن وقوانين الكون

ومعنى المد .. البسط .. أى بسطناها .. ونحن نرى الأرض مبسطة أمامنا .. فلا تناقض بين القرآن الكريم .. وبين الظاهر الموجود .. ولكن عندما اكتشفت كروية الأرض .. ثار علماء الدين واتهموا كل من يقول أن الأرض كروية بالكفر .. لأنه يخالف فى رأيهم القرآن الكريم .. نقول لهم لقد أسأتم تفسير حقيقة قرآنية .. الله سبحانه وتعالى قد أعطانا الدليل على أن الأرض كروية .. بل أعطانا أكثر من دليل على ذلك فى القرآن .. بل أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الأرض على هيئة كرة .. ولنناقش هذا كله ..

لقد قال الله سبحانه وتعالى :
« والأرض مددناها »

.. أى بسطناها .. ولكنه لم يقل سبحانه وتعالى أى أرض مبسطة .. ومعنى ذلك أنك أينما تنظر إلى الأرض تراها مبسطة .. إذا كنت فى خط الاستواء .. فالأرض أمامك مبسطة .. فإذا انتقلت إلى القطب الجنوبى فالأرض أمامك مبسطة .. وإذا كنت فى القطب الشمالى فالأرض أمامك مبسطة .. وإذا كنت فى أوربا .. أو أمريكا .. أو آسيا .. أو أى قارة من قارات الأرض .. فالأرض أمامك مبسطة .. الأرض مبسطة أمام البشر جميعا فى كل موقع موجودين فيه .. وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأرض كروية .. فلو أن الأرض مسطحة .. أو مربعة أو مثلثة .. أو مسدسة .. أو فى أى شكل من الأشكال لوصلنا فيها إلى حافة .. وحيث أنه لا يمكن أن تصل فى الأرض إلى حافة فالشكل الوحيد الذى تراه مبسوطا أمامك ولا يمكن أن تصل فيه إلى حافة هو أن تكون الأرض كروية ..

وهكذا أبلغنا القرآن فى كلمتين اثنتين « والأرض مددناها » .. أترى الإعجاز فى القرآن الكريم لقد أثبت الله كروية الأرض .. وفى نفس الوقت اختار العبارة التى لا تتصادم مع مفهوم العقل البشرى فى وقت نزول القرآن .. ولكن فى كلمتين اثنتين .. أعطانا الله السر فى الأرض .. إعجاز لا يمكن أن يكون قائله بشر .. ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا أيضا فى أربع كلمات .. أنه خلق الأرض على هيئة كرة .. أى أنها كانت كذلك ساعة الخلق ..

القرآن وقوانين الكون

الليل يسبق .. أم النهار

حينما نأتى إلى الآية الكريمة ..

« ولا الليل سابق النهار » ..

يقول الله تعالى في سورة يس :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾^٤

(سورة يس)

والحديث هنا عن قوانين الكون .. الشمس لا تدرك القمر .. لأنها كما قال العلماء يتحركان في خطين متوازيين لا يلتقيان أبدا .. هذه حقيقة علمية ظهرت في السنوات الأخيرة .. وذكرها القرآن منذ أربعة عشر قرنا .. ولكن ما معنى « ولا الليل سابق النهار » .. المعنى هنا نفى لشيء موجود غير صحيح .. يريد الله سبحانه وتعالى أن يصححه .. يريد أن يزيل هذا الواقع الخاطيء .. العرب كانوا يقولون أن الليل يسبق النهار .. واليوم عند العرب يبدأ بغروب الشمس .. بمعنى أن رمضان يثبت بعد غروب شمس آخر يوم شعبان .. والعيد يثبت بعد غروب شمس آخر يوم من رمضان .. إذا كان العرب يقولون ان الليل يسبق النهار .. ومعنى ذلك أن النهار لا يسبق الليل .. إذن وجدت عندنا حقيقتان .. الليل يسبق النهار .. والنهار لا يسبق الليل .. النهار لا يسبق الليل .. تركها الله .. ولم يتعرض لها .. لأنها حقيقة .. ولكنه جاء إلى كلمة أن الليل يسبق النهار .. ورد عليهم بقوله تعالى :

« ولا الليل سابق النهار » ..

إذن وجدت عندنا حقيقتان .. لا النهار يسبق الليل .. ولا الليل يسبق النهار .. لا النهار يسبق الليل حقيقة كانت موجودة .. ولم يتعرض لها القرآن لأنها حقيقة .. لا الليل يسبق النهار خطأ كان موجودا فصححه الله سبحانه وتعالى بقوله :

« ولا الليل سابق النهار » ..

إذن لا النهار يسبق الليل .. ولا الليل يسبق النهار .. معنى ذلك أن الليل

القرآن وقوانين الكون

والنهار يوجدان معا في وقت واحد على الأرض .. لأن النهار لا يسبق الليل ..
والليل لا يسبق النهار .. وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت الأرض كروية ..
لكن ليس هذا هو القصد النهائي من الآية .. الله سبحانه وتعالى أراد أن
يصحح هذه الحقيقة .. ويقرر أن الليل والنهار موجودان معا على الأرض لئيلغنا
عن حقيقة خلق الأرض .. لو أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض
مسطحة .. فإما أن تكون الشمس ساعة الخلق في مواجهة السطح .. وحينئذ
يكون النهار قد وجد أولا .. ثم يأتي بعد ذلك الليل .. وإما أن تكون الشمس
غير مواجهة للسطح ساعة الخلق .. ومن هنا يكون الليل قد أتى أولا .. ثم بعد
ذلك يأتي النهار .. ولكن كون الله سبحانه وتعالى يقول لنا أن النهار والليل خلقا
معا .. لم يسبق أحدهما الآخر دليل على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض
كروية .. لأنه حدد الشكل الوحيد الذي يوجد فيه الليل .. والنهار .. على
سطح الأرض معا ساعة الخلق .. وهكذا نرى القرآن قد مس حقيقة هامة في
آية أو جزء من الآية يريد الله أن يخبرنا فيه بأنه خلق الأرض على هيئة كرة ..
وأنه أوجد الليل والنهار معا عليها .. فيقول سبحانه :

« ولا الليل سابق النهار » ..

وعندما يتقدم الذهن البشرى ويبحث .. ويعرف معنى الآية نجد أن الله
سبحانه وتعالى أخبرنا بكل هذه الحقائق عن خلق الأرض على هيئة كرة ..
وخلق الليل والنهار معا .. في بضع كلمات ..

دوران الأرض .. والجبال

نتنقل بعد ذلك إلى قضية دوران الأرض حول نفسها .. لترى أن الله سبحانه
وتعالى يمسه في القرآن كحقيقة كونية .. فهو يتحدث حين يقول سبحانه في
سورة النمل :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُغَّعَ
اللَّهِ الَّذِي أَنْتَقْنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النمل)

القرآن وقوانين الكون

الجبال رواسى للأرض مفروض أن تثبتها وتمنعها من الحركة .. ومن أن يحدث بها أى خلخلة أو اهتزاز .. هذه الجبال هى الرواسى التى تجعل الأرض لا تميد بالإنسان .. هى مركز الثبات التى إذا نظرت إليها .. وإلى ضخامتها تعتقد أن الأرض ثابتة فى مكانها لا تتحرك خطوة واحدة .. ثابتة جامدة .. يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول :

« وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب »

لماذا قال الله سبحانه وتعالى تحسبها ؟ قالها رحمة بالعقل البشرى .. فالإنسان يظن أن الجبال جامدة .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن هذه الجبال التى نراها أمامنا ونحسبها جامدة .. تتحرك من مكان إلى آخر .. ولكنها « تمر مر السحاب » .. لماذا ؟ لأن السحاب لا يملك ذاتية الحركة .. لا يتحرك بنفسه .. إنما تحركه الرياح .. فالسحاب بدون الرياح يبقى فى مكانه .. ولكن الرياح هى التى تدفعه من مكان إلى آخر .. ومن هنا فإن استخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة « مر السحاب » .. يريد أن ينبئنا أن الجبال التى نحسبها جامدة تتحرك ولكنها لا تتحرك بنفسها .. بل هى تابعة لحركة أخرى تدفعها .. تماما كما تدفع الرياح السحاب .. وإذا كانت الجبال وهى أوتاد الأرض ولا تتحرك ذاتية من نفسها .. فما الذى يدفعها .. محرك آخر .. وما هو المحرك الآخر .. انه الأرض .. وكأن الجبال تتحرك بحركة الأرض .. فلا بد أن الأرض نفسها تتحرك وتدور .. وإلا فكيف تقوم بتحريك الجبال وهى ثابتة .. ان الجبال فى حركتها .. تابعة لشيء آخر يتحرك .. تماما كالسحاب الذى يتبع فى حركته الرياح والجبال ثابتة فوق الأرض فلا يوجد محرك آخر لها إلا الأرض .. وهكذا مس الله سبحانه وتعالى دوران الأرض بشكل بديع يبين لنا أن الأرض تتحرك وتدور حول نفسها .. وأن الجبال التى هى أوتاد الأرض تتحرك تابعة للأرض فى حركتها .. وأننا نحسب هذه الجبال جامدة .. ولكن قول الله سبحانه وتعالى « تحسبها جامدة » محتاج إلى وقفة .. ذلك أنه يقدم لنا حقيقة علمية أخرى ..

انك حين تكون فوق جسم متحركة حركة رتيبة لا اهتزاز فيها فإنك لا تحس بهذه الحركة إلا إذا قست هذا الجسم إلى جسم ثابت .. الطائرة حين تطير بنا .. إذا نظرت من النافذة .. فانى أحس بحركة الطائرة وطيرانها .. ولكن إذا

القرآن وقوانين الكون

أقفلنا النوافذ .. وكان الجو مستقرا ليس فيه أى اضطراب بحيث لم يصاحب هذا الطيران أى اهتزاز فإننى لا أشعر اطلاقا بحركة الطائرة .. لماذا ؟ لأن كل شىء داخل جسم الطائرة هو ثابت بالنسبة لى فالمقاعد ثابتة وموقع من يجلسون حولى ثابت .. ولا أحس فى هذا بأية حركة .. وكذلك بالنسبة للقطار والسيارة .. أنت حين تغلق النوافذ .. وتكون الحركة ذاتية متزنة هادئة لا اهتزاز فيها .. فإنك لا تحس بالحركة .. ولكن إذا فتحت النافذة وقست الحركة إلى شىء ثابت فإنك تحس بالحركة ..

إذن فالله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا أنتم لا يمكنكم أن تدركوا حركة الجبال هذه بحسكم .. لأن وضعها بالنسبة للأرض ثابت .. ووضعها بالنسبة لكم ثابت .. ووضعها بالنسبة لكل شىء حولها ثابت .. ومن هنا فإنك تحسبها جامدة .. ولا تظن إلى حركتها أبدا .. لأنه ليس هناك شىء أمامك .. تقيس الحركة به .. ولكنى أقول لك أن هذه الجبال تتحرك وهى فى حركتها ليست لها حركة ذاتية أى أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان فوق الأرض .. بل تتبع الأرض فى دورانها .. ثم تتعجب أنت لذلك فيقول لك الله سبحانه وتعالى لا تتعجب إنه « صنع الله الذى أتقن كل شىء » يكون هناك يقين ..

بعض الناس يقولون أن هذا الوصف ينطبق على يوم القيامة .. ولكننا نقول لهم أنه فى يوم القيامة لا يكون هناك حسابان ولكن يكون يقينا ..

« فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ..

ويقول الله سبحانه وتعالى عن الجبال يوم القيامة :

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا » ..

فكيف ينسفها الله ثم نحسبها جامدة ويقول الله سبحانه وتعالى :

« يوم تبدل الأرض غير الأرض .. والسموات »

فى يوم القيامة .. ينسف الله الجبال ويبددها .. وكل شىء أمامك يكون يقينا فأنت ترى الجنة .. وترى النار .. وترى الله رؤية اليقين .. فالحسبان فى الدنيا واليقين فى الآخرة ..

الحديث عن الجنين .. لماذا !؟

على أن القرآن مس أشياء كثيرة .. لو كان هذا كلاما من عند غير الله ما غامر

القرآن وقوانين الكون

من يقوله في أن يمس هذه الأشياء .. الحديث عن الأجنة في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة المؤمنون :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

(سورة المؤمنین)

ما الذى يجعل محمدا عليه السلام يقترح قضية غيبية .. ويقولها في القرآن الكريم وهى قضية يمكن أن تهدم الإيمان من أساسه .. فالقرآن كلام الله المتعبد بتلاوته ولا تغيير فيه ولا تبديل إلى يوم القيامة .. ماذا يمكن أن يحدث مع تقدم العلم .. لو ظهر أن هذا الكلام غير صحيح ؟ وكيف يمكن لقضية الإيمان أن تستمر ؟ ولماذا يخاطر محمد عليه السلام فى شىء غيبى كهذا ؟ لم يطلب أحد منه أن يتحدث عنه .. أو أن يتحدث فيه .. ولكن لأن الخالق هو الله .. والقائل هو الله .. جاء الحديث عن الأجنة فى القرآن قبل أن يصل إليه العلم .. ثم اكتشف العلم صحة كل كلمة فى القرآن .. إنه تحد .. وتحذ من الله سبحانه وتعالى ..

وفى أنفسكم

شىء آخر مسه القرآن مسا دقيقا وهو الجسم البشرى وعلم الأعضاء .. يأتى الله سبحانه وتعالى ويذكر الأذن دائما قبل العين .. ويقول الله «السمع والأبصار» .. ولا يقول البصر والسمع ..

يستوقفنا هذا لأن الإنسان حين يفقد بصره .. يفقد كل شىء .. يعيش فى ظلام دائم .. لا يرى شيئا على وجه الاطلاق .. يصيطمم بكل شىء .. ولكن حين يفقد سمعه فإنه يرى وحينئذ تكون المصيبة أهون .. ولكن الله سبحانه

القران وقوانين الكون

وتعالى حين يذكر السمع يقدمه دائما على البصر . .
إن هذا اعجاز في القرآن . . لقد فضل الله سبحانه وتعالى السمع على البصر
لأنه أول ما يؤدي وظيفته في الدنيا . . ولأنه أداة الاستدعاء في الآخرة . . لأن
الأذن لا تنام أبدا . .

إن السمع أول عضو يؤدي وظيفته في الدنيا فالطفل ساعة الولادة يسمع ولكن
العين لا تؤدي مهمتها لحظة مجيء الطفل في الدنيا . . فكأن الله سبحانه وتعالى
يريد أن يقول لنا أن السمع هو الذي يؤدي مهمته أولا . . فإذا جئت بجوار طفل
ولد منذ ساعات . . وأحدثت صوتا مزعجا فإنه ينزعج . . ويبكي ولكنك إذا
قربت يدك من عين الطفل بعد الميلاد مباشرة فإنه لا يتحرك ولا يحس بالخطر . .
هذه واحدة . . وإذا نام الإنسان فإن كل شيء يسكن فيه إلا سمعه . . انك إذا
أردت أن توقظ النائم ووضعت يدك قرب عينه فإنه لا يحس . . ولكنك إذا
أحدثت ضجيجا بجانب أذنه فإنه يقوم من نومه فزعا . . هذه الثانية . . أما
الثالثة فهي أن الأذن هي الصلة بين الإنسان والدنيا . . الله سبحانه وتعالى حين
أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون مئات السنين قال :
« فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا » . .

ومن هنا عندما تعطل السمع استطاعوا النوم مئات السنين دون أي ازعاج . .
ذلك أن ضجيج الحركة في النهار يمنع الإنسان من النوم العميق . . وسكونها
بالليل يجعله ينام نوما عميقا . . إذن الأذن هي التي تؤدي وظيفتها أولا . . وهي
لا تنام ولا تغفل أبدا . . وهي الصلة بين الإنسان والدنيا . . وأداة الاستدعاء في
الآخرة . . ولذلك فضلها الله سبحانه وتعالى :

على أن هناك شيئا آخر نلاحظه هو أن الله سبحانه وتعالى يأتي بكلمة السمع
مفردة دائما . . وكلمة الابصار مجموعة . . يقول الله سبحانه وتعالى في سورة
فصلت :

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ ﴾

(سورة فصلت)

لماذا تأتي كلمة السمع مفردة . . وكلمة البصر مجموعة . . مع أنه كان يجب
أن يقول الله سبحانه وتعالى أسماكم وأبصاركم . . وكان من المفروض أو

القرآن وقوانين الكون

المنطقي أن يكون هناك سمع وبصر . . أو أسماع وأبصار . . ولكن الله سبحانه وتعالى بهذا التعبير أراد أن يكشف لنا دقة القرآن الكريم . . فالبصر حاسة يتحكم فيها الإنسان بارادته . . فأنا أستطيع أن أبصر ولا أبصر . . وأستطيع أن أغمض عيني عما لا أريد أن أراه . . أو أدير وجهي أو أدير عيني بعيدا عن الشيء الذي أريد أن أتجاهله . . ولكن الأذن ليس لها اختيار في أن تسمع أو لا تسمع . . فأنت في حجرة يتكلم فيها عشرة أشخاص تصل أصواتهم جميعا إلى أذنك . . سواء أردت أو لم ترد . . أنت تستطيع أن تدير بصرك فترى منهم من تريد أن تراه ولا ترى من لا تريد رؤيته . . ولكنك لا تستطيع أن تسمع ما تريد أن تسمعه . . ولا تسمع ما لا تريده . . قد تتجاهله . . وتحاول أن تبدو وكأنك لم تسمعه . . ولكنه يصل إلى أذنك سواء أردت أو لم ترد . . إذن فالابصار تتعدد . . أنا أرى هذا . . وأنت ترى هذا . . وثالث يرى هذا . . إلى آخر تعدد الابصار . . وإنسان يغمض عينيه فلا يرى شيئا . . ولكن بالنسبة للسمع فنحن جميعا مادمنا جالسين في مكان واحد . . فكلنا نسمع نفس الشيء . . ومن هنا اختلف البصر . . ولكن توحد السمع . . كل واحد له بصر . . ينظر به إلى المكان الذي يريده . . ولكننا كلنا نتوحد في السمع فيما نريد . . وما لا نريد أن نسمع . . ومن هنا جاءت كلمة الابصار . . بينما توحدت كلمة السمع . . ولم تأت كلمة الاسماع . . على أن الأذن مفضلة عن العين لأنها لا تنام . . والشيء الذي لا ينام أرقى في الخلق من الشيء الذي ينام . . فالأذن لا تنام أبدا منذ ساعة الخلق انها تعمل منذ الدقيقة الأولى للحياة . . بينما باقى أعضاء الجسم . . بعضها ينتظر اياما . . وبعضها ينتظر سنوات . . والأذن لا تنام . . فأنت حين تكون نائما تنام كل أعضاء جسمك . . ولكن الأذن تبقى متيقظة . . فإذا أحدث أحد صوتا بجانبك . . وأنت نائم . . قمت من النوم على الفور . . ولكن إذا توقفت الأذن عن العمل . . فإن ضجيج النهار وأصوات الناس وكل ما يحدث في هذه الدنيا من ضجيج لا يوقظ النائم . . لأن آلة الاستدعاء وهي الأذن معطلة . . كما أن الأذن هي آلة الاستدعاء يوم القيامة حين ينفخ في الصور . .

والعين تحتاج إلى نور حتى ترى . . تنعكس الأشعة على الأشياء . . ثم تدخل إلى العين فترى . . فإذا كانت الدنيا ظلما فإن العين لا ترى . . ولكن الأذن

القرآن وقوانين الكون

تؤدي مهمتها في الليل والنهار .. في الضوء والظلام .. والإنسان متيقظ ..
والإنسان نائم .. فهي لا تنام أبدا .. ولا تتوقف أبدا .. أعرفت الآن لماذا
فضل الله سبحانه وتعالى السمع على البصر .. وقدمه في القرآن الكريم !؟

الاحساس .. والجلد

شيء آخر يستوقفنا هو ما كشف عنه الله سبحانه وتعالى عن الحس .. القرآن
يلمس هنا حقيقة كونية هامة .. لأنه يأتي ويعلمنى كيف أعرف منافذ الحس ..
أو مواضع الحس .. وهو يأتي ليمس هذا على أنه حقيقة كونية .. ولكنه
لا يشرحه ككتاب طبي .. بل يقول الحقيقة .. فعندما يتحدث عن الكفار
الذين يعذبون في النار .. يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النساء :

﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾

(سورة النساء)

أى أن الله قد حدد لى حكمة تبديل الجلد أو تغييره بأنه ليزيقهم العذاب ..
إذن فلاذاقة حسب القرآن محلها الجلد ..

نأتى الآن إلى الحقيقة العلمية التى تؤكد لنا أن كل أعصاب الاحساس
موجودة .. تحت الجلد مباشرة .. وإن هذه الأعصاب التى تشعر بالألم وتجعل
الإنسان يحس به وتنقله إلى المخ .. مكانها تحت الجلد مباشرة .. إذن قول الله
سبحانه وتعالى :

« بدلناهم جلودا غيرها ليزوقوا العذاب » ..

اعلان لحقيقة كونية يمسه الله فى القرآن .. وهى ان الاحساس يتم بأعصاب
موجودة تحت الجلد مباشرة .. وإن الله كلما أراد أن يذيق الكفار العذاب بدل
جلودهم التى احترقت وماتت فيها أعصاب الاحساس بجلود سليمة لم تحترق
ليذوقوا العذاب مرة أخرى .. فحينما يأتى الطب ليقول لنا أن أعصاب الجسم
تحت الجلد مباشرة .. نقول إن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة فى
القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا ..

على أن نواحي الاعجاز فى القرآن الكريم لا تقتصر على ما ذكرت لكن هذه
بعض أمثلة بسيطة .. ولقد تحدثت فى الفصول الماضية إن الله سبحانه وتعالى قد

القرآن وقوانين الكون

قال سيروا في الأرض .. ولم يقل سيروا على الأرض .. وبينت الاعجاز في ذلك بأننا نسير فعلا في الأرض .. بين الغلاف الجوى والسطح .. كما بينت معنى الآية الكريمة « رب المشارق والمغرب » .. وهذا كله يعتبر اعجازا هائلا للقرآن الكريم .. وهناك نواحي اعجاز أخرى سنين بعضها فيما بعد ..

طفل الأنابيب !

إننا قبل أن ننتهي من هذا النقاش .. يجب أن نتحدث عن حقيقة علمية .. وهي ليست حقيقة علمية .. يأتي بعضها الناس ليقولوا إن العلم قد استطاع أن يصل إلى نوع الجنين .. هل هو ذكر أم أنثى .. ويزيدون على ذلك أن العلم استطاع أن يخلق ما يطلقون عليه طفلا صناعيا .. وإن هذا يتناقض مع أحد المغيبات الخمسة .. وهي :

« ويعلم ما في الأرحام » ..

ونحن نقول لمن يدعى هذا الكلام .. من الذى قال لك أن كلمة « ما » معناها ذكر أم أنثى . إن كلمة « ما » معناها شقى أم سعيد .. طويل أم قصير .. أبيض أم أسود .. عمره .. رزقه .. أجله .. اسمه .. كل شئء عن المخلوق الذى سيأتى إلى الدنيا .. بل ان الله سبحانه وتعالى أخبر « زكريا » بابنه قبل أن يولد .. وأخبره باسم هذا الابن .. وهو اسم لم يكن البشر يتسمون به .. وقال له عن مستقبله عندما يكبر .. إنه سيكون سيدا .. وحصورا ونبيا من الصالحين .. كل ذلك قبل أن يوجد هذا الطفل في رحم « زوجة زكريا » .. بل قبل أن يتم الخلق تماما .. فهذا البلاغ كان في المحراب .. وزكريا يصلى يطلب ولدا ..

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ ﴾

إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٦٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ

أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَبِيٍّ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّن

الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ أُنثَىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي
عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٠﴾

(سورة آل عمران)

إذن البشارة جاءت هنا وكل شيء عن المولود الجديد قبل أن يتم خلقه في الرحم .. بل وأكثر من ذلك كان زكريا نفسه غير مصدق أن ذلك ممكن أن يحدث لأنه كبير في السن وامرأته عاقر .. في هذه اللحظة التي يستبعد فيها زكريا أن يرزق بطفل .. أخبره الله أنه سيرزق بولد .. ويكون اسمه « يحيى » وسيكون نبيا وحصورا ومن الصالحين .. وهذا هو بعض تفسير كلمة « ما » فكيف يفسر البعض كلمة « ما » أنها ذكر أو أنثى .. مع أن كلمة « ما » تتناول كل شيء عن المولود قبل أن يولد .. وفي أي أرض يموت .. ومستقبله .. ومن سيتزوج .. ورزقه .. وهل هو سعيد أم شقي .. طويل أم قصير .. وكل ما سيحدث له .. إن كلمة « ما » تتناول كل حرف في حياة الإنسان ، ما سيشره .. وكيف سيعيش ، وإلى أي البلاد سيهاجر .. إذن فعلم الله سبحانه وتعالى في كلمة « ما » علم غير محدود .. فكيف تأتي أنت وتحدهه بذكر أم أنثى .. مع أن الله سبحانه وتعالى لم يحده .. بل قال « ما » في الأرحام ؟ على أن حقيقة الذكر والأنثى ليست حقيقة علمية .. ذلك أن الزوجة إما أن تلد ذكرا أو أنثى .. وفي بعض الأحيان تقول أنا سأرزق بولد .. وترزق بولد .. وفي بعض الأحيان تقول أنا سأرزق ببنت وترزق ببنت .. وليس معنى ذلك أنك تعلم الغيب .. ولكن هناك ٥٠٪ من الحقيقة في كل افتراض .. هناك ٥٠٪ ولد .. و ٥٠٪ بنت .. وأنت ان جاء تخمينك صحيحا فلانك معك ٥٠٪ منه .. ولو كانت أجناس البشر متعددة غير ذكر وأنثى .. لو كانوا ٢٠ جنسا مثلا لكان الاستناد إلى العلم هنا فيه شيء من الدقة لأن التمييز بين عشرين جنسا والتنبؤ بما هو قادم منا يحتاج فعلا إلى طريقة علمية دقيقة .. ولكن التمييز بين ذكر أم أنثى يمارسه بعض الناس الذين لم يقرأوا في حياتهم كتابا .. يقولون لامرأة حامل يظهر عليك أنك سترزقين بولد .. ويأتى المولود ولدا فعلا .. فهل معنى ذلك أنهم يعلمون ما في الأرحام .. إنها مسألة يصدق فيها التخمين كثيرا

القرآن وقوانين الكون

ولكن بعض الناس يأتون ويهللون ويقولون أن أحد المغيبات الخمسة قد انتفى وهذا غير صحيح على الاطلاق . . إن ما « في الأرحام » يشمل أكثر كثيرا من علم البشر من الآن وحتى يوم الدين .

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الأخرى وهى الطفل الصناعى . . وهذه نقطة يثور حولها الجدل فى هذه الأيام حول طفل الأنابيب . . وما إلى ذلك . . وأنت إذا أردت أن تصنع بشرا . . فالمفروض أن تأتى بالمادة الحية تصنعها أولا ولكنك حينما تأخذ ما خلق الله وتيسر عملية الخلق بما كشف الله لك من علم لا يكون هذا أبدا فيه صناعة أو طفل صناعى . . أنت أخذت ما خلقه الله من الرجل وأوجدت له الطريقة ليتم ما أراه الله فيما خلقه الله للأنثى . . إذن أنت لم تفعل شيئا سوى أن كان هناك سبب يمنع الحمل . . واستطعت أن تتغلب عليه بطريقة ما . . ولكن المادة الحية والرحم الذى نما فيه الطفل هما من خلق الله سبحانه وتعالى . . فأين ما خلقت أنت من طفل صناعى . . أو طفل الأنابيب؟! إنك لم تخلق شيئا . . وإذا كان الله قد يسر لك سبيلا لتعالج عقما باستخدام ما خلقه الله . . لاستمرار حياة البشر فى الأرض . . فأنت لم تخلق شيئا . . ولو أردت فعلا أن ترىنا إنك تستطيع أن تخلق طفلا صناعيا . . فأبدا أولا بخلق المادة الحية والعلم كله عاجز عن أن يخلق خلية حية . . ولكن كل هذا محاولة للاضلال . . على أن معجزة القرآن لم تأت لتبين أو تكشف عن بعض أسرار الكون . . وتلمس الحقائق الكونية الكبرى . . وإنما جاءت لتتحدى . . القرآن مادام معجزة فلا بد أن فيه تحديا . . ولقد تحدى القرآن العرب بالبلاغة ولكن الإسلام هو دين البشرية كلها . . ولذلك كان للقرآن أن يتحدى الذين عاشوا وقت نزوله من غير العرب . . ثم يحمل تحديا لكل جيل بعد ذلك وإلا فالمعجزة لا تكون قائمة . .

ولقد استطاع القرآن أن يمزق حجب الغيب كلها . . مزق حجاب الماضى . . وحجاب الحاضر . . ومزق حجاب المستقبل . . ومزق حجاب النفس البشرية . . ومزق حجاب كل الأشياء التى لا يمكن أن يصل إليها علم إلى الآن . . ومازال القرآن يتحدى . . ولا أحد يستطيع أن يواجه هذا التحدى . . وهذا التحدى هو ما سنبينه فى الفصل القادم . .

الفصل السابع

القرآن منقحاً وحواجز الغيب

القرآن مزق حواجز الغيب

حينما جاء القرآن تحدى في أشياء كثيرة .. تحدثت عنها .. ولكنه في تحديه مزق حواجز الغيب .. مزق حواجز الزمان والمكان .. فحواجز الغيب ثلاثة .. أولها حاجز المكان .. أى أن أشياء تحدث في نفس اللحظة .. ولكن لا أعرف عنها شيئاً .. لأنها تحدث في مكان .. وأنا موجود في مكان آخر ..

ثم هناك حاجز الزمن الماضى .. وهو شىء حجبته عنى زمن مضى .. فأنا لم أشهده .. وحاجز المستقبل وهو ما سيحدث غدا .. لأن حاجز الزمان المستقبل قد حجب عنى فلم أشهده .. إذن فحواجز الغيب ثلاثة .. حاجز المكان .. وحاجز الزمن الماضى .. وحاجز الزمن المستقبل .. على أن هناك أيضاً حاجزا آخر .. هو حاجز النفس البشرية .. ما يخفيه الإنسان داخل نفسه ..

إذا قرأنا القرآن وجدنا أنه يمزق حاجز الزمن الماضى .. فيخبرنا بما حدث للأمم السابقة .. ويروى لنا قصص الرسل السابقين .. ويحكى لنا أشياء لم يكن أحد يعرفها .. وعلى لسان من .. على لسان نبي أمى لا يقرأ ولا يكتب .. ويحكى أسرار الماضى .. ويتحدى الذين يكذبون .. مزق الله حجاب وحاجز الزمن الماضى .. ويكفى أن تقرأ في القرآن .. « وما كنت وما كنت وما كنت » .. لتعرف كم أخبر الله رسوله بأنباء من غيب الماضى .. « وما كنت بجانب بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى » ..

« وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم » ..
أى إنك لم تكن هناك يا محمد .. ولكن الله هو الذى أخبرك ومزق لك حجاب الزمن الماضى ..

« وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا » ..

« وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك » ..

وهكذا نرى أن القرآن مزق حجاب الزمن الماضى في أكثر من مناسبة ليخبر محمداً عليه السلام بالأخبار الصحيحة عمّن سبقوه من الرسل والأنبياء .. ويصحح ما حرف من الكتب السماوية التى أنزلها الله وحرفها الرهبان والأخبار .. بل أن الاعجاز هنا جاء في تصحيح ما حدث من تحريف الكتب السماوية التى سبقت القرآن .. وكان محمد صلى الله عليه وسلم يتحدى بالقرآن أحبار اليهود ورهبان النصارى .. ويقول لهم هذا من عند الله .. فى التوراه أو الانجيل ..

القرآن مزق حواجز الغيب

وهذا حرفتموه في التوراة أو الانجيل .. ولم يكونوا يستطيعون أن يواجهوا هذا التحدى أو يردوا عليه .. ذلك أن التحدى للقرآن في تمزيق حجاب الزمن الماضى .. وصل إلى أدق أسرار الرسائل السماوية الماضية .. فصحيحها لهم .. وبين ما حرفوه منها وما أخفوه .. وتحداهم أن يكذبوا ما جاء في القرآن فلم يستطيعوا .. ومن ذلك قوله تعالى في سورة مريم :

« ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » ..

ثم جاء الأمر الثانى .. فمزق الله حجاب المكان لمحمد عليه الصلاة والسلام .. وجاء في أمر من أدق الأمور وهو حديث النفس ..

وهنا وقبل أن نبدأ .. أحب أن نضع في أذهاننا جيدا .. أن القرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته .. وانه يبقى بلا تعديل ولا تغيير لا يجرؤ أحد على أن يمسه أو يجرفه .. ومن هنا فإن هذا الكلام حجة على محمد صلى الله عليه وسلم مأخوذ عليه .. فإذا أخبر القرآن بشيء .. واتضح انه غير صحيح .. كان ذلك هدمًا للدين كله ..

يأتى القرآن بعد أن بينت خطورة ما يقول ..

« ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله » ..

ما معنى هذا الكلام .. معناه امعان فى التحدى .. فالقرآن هنا لا يقول لهم لقد هتكت حجاز الماضى .. وأخبرتكم بأنباء الأولين .. ولا يقول لهم سأهتك حجاز المكان .. وأخبركم بما يدور فى بقعة قريبة لا ترونها بل يقول : سأهتك حجاز النفس .. وأخبركم بما فى أنفسكم .. بما فى داخل صدوركم .. بما لم تهمس به شفاهكم .. وكان يكفى لكى يكذبوا محمداً أن يقولوا لم تحدثنا أنفسنا بهذا .. لو لم يقولوها بالفعل داخل أنفسهم لكان ذلك أكبر دليل لكى يكذبوا محمداً ويعلنوا أنه يقول كلاماً غير صحيح .. إذن فالقرآن فى هتكه لحجاب المكان .. دخل إلى داخل النفس البشرية .. وإلى داخل نفوس من .. إلى داخل نفوس غير المؤمنين الذين يهيمهم هدم الإسلام .. وقال فى كلام متعبد بتلاوته لن يتغير .. ولا يتبدل .. قال :

﴿الرَّ تَرَّ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّجُونَ

القرآن مزق حواجز الغيب

بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ
بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبِهِمْ
جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُهَا إِلَى الْمَصِيرِ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾

(سورة المجادلة)

قال ما يدور في أنفس غير المؤمنين .. فهل هناك أكثر من هذا تحديا لحجاب
المكان .. إنه تحد فوق قدرة كل الاختراعات البشرية التي وصل إليها العلم الآن
لاختراق حجب المكان ..

يخلفون .. وهم كاذبون

بل ان التحدى ظهر فيما يحرص غير المؤمنين على اخفائه .. فالإنسان حين
يحرص على اخفاء شيء .. ويكون غير مؤمن .. يأتى إليك فيحلف لك بأن هذا
صحيح .. وهو غير صحيح في نفسه فقط .. ولكن حرصه على أن يخفيه على
الناس يجعله يؤكد إنه صحيح بالحلف ..

ويأتى الله سبحانه وتعالى فيجعل القرآن يمزق نفوس هؤلاء الناس .. ويظهر
ما فيها امعانا في التحدى ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩﴾

(من الآية ٤٢ سورة التوبة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾

(سورة التوبة)

القرآن مزق حواجز الغيب

ويقول سبحانه وتعالى :

« ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » ..

ويقول الله سبحانه وتعالى امعانا في كشفه ما في نفوس أولئك الذين يكذبون

بهذا الدين ..

« ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم .. ولتعرفنهم في لحن القول » ..

وهكذا يأتي الله سبحانه وتعالى ليقول للنبي عن المنافقين .. إنك تعرفهم في

لحن القول . أى أنهم يلحنون ويلوون ألسنتهم بالقرآن وهذا أمر اختياري ..

أى أنهم يستطيعون أن يفعلوه ويستطيعون أن يمتنعوا عن فعله .. والله عندما

ينزل هذه الآية يكون الفعل لم يتم .. أى أنهم يفاجأون بالآية قبل أن يقوموا بما

ينوون القيام به .. ومن هنا يكون لهم حرية الاختيار ..

ومع وجود حرية الاختيار .. فإنهم يأتون ليقوموا بما قاله الله في القرآن

الكريم دون أن يستطيعوا أن يتراجعوا عن ذلك .. بل أن الله سبحانه وتعالى

يدخل إلى نفوسهم ليخرج من الأسرار ما يخفونه داخل صدورهم ولا يقولونه

لأحد .. فالسر نوعان :

- سر بيني وبينك أى لا يعلمه إلا أنا وأنت كصديقين أو حليفين .

- وسر آخر أخفيه في صدري ولا يعلمه أحد في هذه الدنيا .. ويأتى الله سبحانه

وتعالى إلى السر الذى أخفيه في صدري ولا يعلمه أحد فيفضحه أو يعلنه وأنا في

هذه الحالة أملك كل وسائل التكذيب .. لأنه لا أحد يعرف هذا السر

غيرى .. ومع ذلك أقف مبهوتا من أن القرآن الكريم قد أظهر ما في نفسى ..

وما أخفيته .. فلا أستطيع أن أكذب .. مع اننى جئت لأقول الكذب .. أى

أن المنافقين الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى جاءوا ليكذبوا .. ولكن عندما

فضح الله سرهم .. بهتوا فلم تستطع ألسنتهم أن تنطق بالكذب .. بل وأكثر

من ذلك قال الله سبحانه وتعالى أنهم سيقولون كذا .. وسيفعلون كذا ..

والسين هنا تدل على أن الفعل لم يتم .. ومع ذلك لم يستطع المنافقون أن يمتنعوا

أنفسهم من أن يقولوا ما أعلن الله سبحانه وتعالى أنهم سيقولونه .. مع أن فى

امتناعهم عن القول هدماً لقضية الدين والإيمان ..

إذن فالقرآن هنا جاء لأناس غير مؤمنين .. وهتك حاجز النفس بالنسبة لهم

فأخرج ما فى صدورهم وعراهم أمام الناس جميعا .. وفضح كذبهم .. ونشر

القرآن مزق حواجز الغيب

على الدنيا كلها ما في صدورهم من كذب ورياء ونفاق .. أى أنه اهانهم أمام المجتمع كله .. ولو كان هذا غير صحيح لقال هؤلاء القوم إننا لم نكذب .. إننا لصادقون .. والكلام الذى يدعى محمد أنه يأتي من عند الله كلام غير صحيح .. ولكن هؤلاء بهتوا من أن القرآن مزق حجاب نفوسهم فلم يستطيعوا ردا .. وبهتوا لأن الله أخرج ما في صدورهم وعراهم أمام الناس جميعا .. فلم يفعلوا شيئا أكثر من أنهم تواروا بعد أن افتضحت حقيقتهم .. ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لما استطاع أن يصل إلى داخل النفس البشرية .. وهى من أدق أسرار الدنيا التى لم يستطع علم أن يصل إليها حتى الآن .. فإذا بالقرآن يأتي متحديا بكلام متعبد به إلى يوم القيامة لا يستطيع أحد تبديل حرف فيه ليكشف ما في داخل النفس .. ويعرى ما تكتمه عن الناس جميعا .. وما هى حريصة على كتمانها .. حتى انها تحلف باسم الله كذبا ليصدقها الناس .. يأتي القرآن فيمزق هذا كله .. أتريد اعجازا أكثر من ذلك ..

ومزق حجاب المستقبل

ثم بعد ذلك مزق القرآن حجاب المستقبل .. كان لابد أن يكون الحديث عن المستقبل على عدة مراحل .. المرحلة المعاصرة لكى يعرف أصحاب الرسالة والمؤمنون وغير المؤمنين إنه الحق .. ومرحلة المستقبل البعيد لكى يعرف كل عصر من العصور التى ستأتى بعد نزول القرآن .. إن هذا هو كتاب الله الحق .. ومن هنا كان التحدى بالنسبة للمعاصرين لأحداث قريبة .. وبالنسبة للعالم عن حقائق الكون كله .. هنا أحب أن أنبه إلى شيء هام جدا هو استخدام حرف السين فى القرآن : فحرف السين كما نعرف فى اللغة العربية لا يستخدم إلا بالنسبة لأحداث مستقبله .. والقرآن محفوظ ومتعبد به وبتلاوته .. سيظل محفوظا حتى يوم الساعة .. ومعنى ذلك أنه لا يمكن تبديله أو تغييره أو انكاره من أحد من المتعبدين به .. بل إنه سيظل يتلى هكذا كما أنزل .. إذن فأنباء القرآن بأحداث مستقبله يسجل هذه الأحداث على قضية الإيمان نفسها ويطعن الدين فى صميمه .. خصوصا إذا تبين أن ما تنبأ به القرآن غير صحيح .. ومن هنا فلا بد أن يكون القرآن متأكدا من أن هذا سيحدث فى المستقبل .. من من البشر يستطيع أن يتأكد ماذا سيحدث له بعد ساعة

القرآن مزق حواجز الغيب

واحدة .. فما بالك بعد أيام وسنوات .. الجواب لا أحد .. ذلك أن قدرة البشر في صنع الأحداث محدودة .. فقد حجب عنهم الزمن .. وحجب عنهم المكان .. فلو قلت مثلا اننى سأبنى عمارة في هذه البقعة بعد عام .. أنا لا أضمن اننى سأعيش حتى الساعة القادمة .. وبذلك لا أستطيع أن أحكم إذا كنت سأكون موجودا هناك أم لا .. هذه واحدة .. ثانيا قد تأتى الحكومة مثلا وتبنى مستشفى في هذا المكان .. أو قد يقام في هذا المكان سوق أو شارع .. إذن فأنا لا أستطيع أن أجزم في شئ ماضى سيحدث بعد فترة زمنية محدودة .. ولكن الذى يستطيع أن يقول هذا يقينا هو الذى يملك القدرة .. ومن هنا فإنه يستطيع أن يقول يقينا أن هذا سيحدث بعد فترة من الزمن .. والذى يملك ذلك هو الله سبحانه وتعالى .. فإذا كان الحديث عما سيحدث بعد آلاف السنين .. فإن ذلك فوق طاقة البشر جميعا .. ولقد أنبأ القرآن بما سيحدث بعد أعوام قليلة .. وبما سيحدث بعد آلاف السنين .. فالذى قال هذا هو القادر العالم بأن ذلك سيحدث يقينا وهو الله سبحانه وتعالى .. انظر إلى قوله سبحانه وتعالى :

« سيهزم الجمع ويولون الدبر » ..

لقد نزلت سورة القمر هذه في مكة .. والمسلمون قلة .. وأذلة .. حتى أن عمر بن الخطاب قال : أى جمع هذا الذى سيهزم ونحن لا نستطيع أن نحمل أنفسنا .. وهكذا يتنبأ القرآن بأن الإسلام سينتصر .. في مكة .. وإن هؤلاء الجمع الذين تجمعوا لمحاربة الإسلام في مكة سيهزمون ويولون الأدبار .. ويتنبأ بها متى .. والمسلمون قلة .. وأذلة .. لا يستطيعون حماية أنفسهم .. ويطلقها قضية .. هو على يقين من أن الله الذى قالها سيحققها .. وبعد ذلك نجد عجبا .. الوليد بن المغيرة العدو الأول للإسلام .. والمشهور بكبريائه ومكابرتة وعناده .. يأتى القرآن ويقول : هذا الإنسان المكابر العنيد ..

« سنسمه على الخرطوم » .

أى إنه سيقتل بضربة على أنفه .. ويحدد موقع الضربة .. وبعد ذلك يأتى فى بدر فتراه قد وسم على خرطومه .. أى ضرب على أنفه .. من الذى يستطيع أن يحدد موقع الضربة ومكانها .. من الذى يستطيع أن يجزم .. ماذا سيحدث بعد ساعة واحدة ..

القرآن مزق حواجز الغيب

التحدى .. لأعداء الله

نأتى بعد ذلك إلى آية أخرى .. الرسول عليه الصلاة والسلام يأتى فيقرأ ..

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾

سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا

حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

(سورة المسد)

هذا قرآن .. وفى من .. فى عم الرسول .. وفى من .. فى عدو الإسلام .. ألم يكن أبو لهب يستطيع أن يحارب الإسلام بهذه الآية؟ ألم يكن يستطيع أن يستخدمها كسلاح ضد القرآن؟ ضد هذا الدين .. قالت له الآية يا أبا لهب أنت ستموت كافرا .. ستموت مشركا .. وستعذب فى النار .. وكان يكفى أن يذهب أبو لهب إلى أى جماعة من المسلمين .. ويقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .. يقولها نفاقا .. ويقولها رياء .. يقولها ليهدم بها الإسلام .. لا ليدخل فى الإسلام .. يقولها ثم يقف وسط القوم يقول : إن محمدا قد أنبأكم اننى سأموت كافرا .. وقال إن هذا كلام مبلغ له من الله .. وأنا أعلن إسلامى لأثبت لكم أن محمدا كاذب .. لو كان أبو لهب يملك ذرة واحدة من الذكاء لفعل هذا .. ولكن حتى هذا التفكير لم يجرؤ عقل أبى لهب على الوصول إليه .. بل بقى كافرا مشركا .. مات وهو كافر .. ولم يكن التنبؤ بأن أبا لهب سيموت كافرا .. أمرا ممكنا .. لأن كثيرا من المشركين اهدتوا إلى الإسلام كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب .. وغيرهم .. كانوا مشركين وأسلموا .. فكيف أمكن التنبؤ بأن أبا لهب بالذات لن يسلم ولو نفاقا .. وسيموت وهو كافر .. المعجزة هنا أن القرآن قد أخبر بما سيقع من عدو .. وتحدها فى أمر اختياري .. كان من الممكن أن يقوله .. ومع ذلك هناك يقين أن ذلك لن يحدث .. لماذا .. لأن الذى قال هذا القرآن .. يعلم إنه لن يأتى إلى عقل أبى لهب تفكير يكذب به القرآن .. هل هناك اعجاز أكثر من هذا؟

القرآن مزق حواجز الغيب

وتحد .. لغير العرب

انتقل بعد ذلك إلى النقطة الثانية .. وهى ماذا حمل القرآن لغير العرب فى عصره .. ولغير العرب والدنيا كلها بعد عصره .. ؟ أى ماذا حمل القرآن من أبناء نواميس الله فى الأرض وقوانينه .. التى كانت غيبا على البشرية كلها فى عصره وبعد عصره .. ؟ هنا الأمثلة كثيرة .. والمجال لا يتسع لها كلها .. ولكنى سأحاول أن أبين عددا منها فيما يختص بالاعجاز فى عصر القرآن لغير العرب .. فقد كانت هناك أمتان كبيرتان امبراطوريتان بجانب الجزيرة العربية .. هما الروم والفرس .. الروم أمة مؤمنة .. أهل كتاب .. ولو أنهم لا يصدقون برسالة محمد إلا أن هناك عندهم إيمانا بوجود الله .. والقيم السماوية .. والفرس كانوا أهل كفر وإلحاد فى ذلك الوقت .. لا يؤمنون بأى دين من الأديان .. إذن فأيهما أقرب إلى قلب المؤمنين .. الروم باعتبارهم أهل كتاب .. وأيهما أقرب إلى قلب الملحدين والكفار .. الفرس باعتبارهم مشركين وكفرة .. قامت الحرب بين الدولتين .. فهزم الروم وانتصر الفرس .. وهنا فرح المشركون لأن الكفر قد انتصر .. وحزن المؤمنون لأن نوعا من الإيمان قد انهزم .. هنا يتدخل الله سبحانه وتعالى ليزيل عن المؤمنين هذا الحزن .. فيقول فى كلام محفوظ متعبدا بتلاوته لن يجرؤ ولن يستطيع أحد أن يغير فيه .. يقول :

﴿ أَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ ۚ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ۚ

سَيَغْلِبُونَ ۚ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۚ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ

يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۚ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الرَّحِيمُ ۚ

(سورة الروم)

ثم يمضى القرآن ليمعن فى التحدى ..

القرآن مزق حواجز الغيب

.. ما هذا ..؟ أيستطيع محمد صلى الله عليه وسلم أن يتنبأ بنتيجة معركة ستحدث بين الروم والفرس بعد بضع سنين .. هل يستطيع قائد أن يتنبأ بمصير معركة عسكرية بعد ساعة واحدة من قيامها ..؟ فما بالك أن ذلك يأتي ويقول أنه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وبتنصر فيها الروم .. هل أمن محمد صلى الله عليه وسلم على نفسه على أن يعيش بضع سنين ليشهد على صحة ما جاء به القرآن .. إذن فقد أصبحت قضية إيمانية كبرى .. هذا هو القرآن .. كلام الله .. وأساس الايمان كله .. يأتي ويخبر بحقيقة أرضية قريبة ستحدث لغير العرب .. ويقول الكفار أن القرآن كاذب .. ويقول المؤمنون أن هذا صدق .. ويحدث رهان بين الاثنين ..

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه لم تحدث معركة بين الروم والفرس .. أو لو أنه حدثت معركة وهزم فيها الروم أكان بعد ذلك يصدق أى إنسان القرآن أو يؤمن بالدين الجديد .. ثم إذا كان القرآن من عند محمد فما الذى يجعله يدخل فى قضية غيبية كهذه .. لم يطلب منه أحد الدخول فيها .. أبيضع الدين من أجل مخاطرة لم يطلبها أحد .. ولم يتحده فيها إنسان .. ولكن القائل هو الله .. والفاعل هو الله .. ومن هنا كان هذا الأمر الذى نزل فى القرآن يقينا سيحدث .. لأن قائله ليس عنده حجاب الزمان وحجاب المكان .. ولا أى حجاب وهو الذى يقول ما يفعل .. ومن هنا حدثت الحرب .. وانتصر الروم على الفرس فعلا كما تنبأ القرآن ..

وهكذا تحدى القرآن الكفار وغير المسلمين فى وقت نزوله .. أى أنه لم يتحد العرب وحدهم .. بل تحدى الكفار والمؤمنين من غير العرب .. بأن أنبأهم بما سيحدث لهم قبل أن يحدث بسبع أو ثمانى سنوات .. تحداهم بهذا عليهم يؤمنون ..

إذا انتهينا إلى هذا نكون قد أثبتنا أن القرآن تحدى العرب وغير العرب فى وقت نزوله .. ولكننا قلنا أن القرآن ليس له زمان .. وليس له مكان .. وانه سيظل حتى قيام الساعة .. فكيف يمكن أن يتحدى الأجيال القادمة؟ .. لا بد أن يكون للقرآن معجزة دائمة .. أن يعطى لكل جيل لم يعطه للأجيال السابقة ..

وقد كان .. جاء فى القرآن أشياء لو أن أحدا أخبر بها وقت نزولها لأتهم

القرآن مزق حواجز الغيب

الذين قالوها بالجنون .. ولكنها جاءت للعصور القادمة .. جاءت لتتحدى عبر الأجيال إلى يومنا .. وإلى الأيام القادمة ..

القرآن حدثنا .. عن المضلين

ان ظهور قانون الصدفة .. ونظرية داروين .. وأن المادة خلقت قبل الروح .. وكل ما نسمعه اليوم من تشكيك في الايمان وفي وجود الله سبحانه وتعالى .. قد سجله القرآن .. وأنبأنا به .. وقال أن المضلين سيأتون ليقولوا لكم أكاذيب عن خلق السموات والأرض .. وعن قضية خلق الإنسان .. وإذا لم يكن الحديث عن الأجنة في القرآن .. عن يقين كامل .. لكان القرآن قد أعطى معه وسيلة هدمه .. ذلك أن هذا الكتاب سيستمر إلى يوم القيامة .. فإذا جاء العلم عبر ألوف السنين .. وأثبت عدم صحة ما ذكره القرآن .. ضاعت قضية الإيمان كله .. ولكن القائل هو الله والفاعل هو الله ..

إن إعجاز القرآن لم يتوقف .. ولن يتوقف .. وإذا كان القرآن قد تحدى الكفار في عصر نزوله بأن أنبأهم بما يدور داخل صدورهم .. وأنبأهم بمصائرهم .. فإنه يتحدى الكفار حتى في هذا الزمان .. في هذا الوقت الذي نعيش فيه .. بل ويستخدمهم .. في ماذا ..؟ في إثبات قضية الإيمان .. تماما كما استخدمهم وقت نزوله في اثبات قضية الايمان .. إن هدف الكفار والمضلين عن سبيل الله هو إنكار هذا الدين وإنكار وجود الله .. ولكن القرآن جاء .. وبعد أربعة عشر قرنا ليستخدم الكفار في إثبات أن دين الله حق .. وأن هذا الكتاب هو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .. وهذا هو موضوعنا .. عندما يقول الله سبحانه وتعالى :

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

ويقول :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » ..
يكون قد أعطاني أن الإنسان يعلم ظاهرا عن الحياة في هذه الدنيا ولكنه غافل عن أمر الآخرة .. أى أن مدى علم الإنسان .. هو الحياة الدنيا .. وأن العلم نوعان .. نوع مطروح لك لايجاد نشاطك فيه كما تريد .. وبلا قيود ..

القرآن مزق حواجز الغيب

ولا حدود .. ونوع ليس لك الحرية في البحث فيه لأنك لا تعلمه .. وهذا النوع افعل كذا .. ولا تفعل كذا .. تقرب إلى بكذا .. واترك كذا .. هذه ليست اجتهاداتك أنت .. لأن المعبود هو الذي يقترح على العابد ما يعظمه به .. والنقاش في شيء يجب أن يتم بين عقول متساوية أو متقاربة في القدرة .. ومن منا يملك عقلا يقترب من قدرة الله تعالى .. لا أحد إذن .. فنحن نأخذ افعل ولا تفعل عن الله .. وما شرحتة لنا السنة .. أما نشاطات الحياة الأخرى .. وآيات الله في الكون .. فالمطلوب أن أبحث فيها وأتأمل .. أصل إلى حقائق انتفع بها .. فإذا أردنا أن نحدد هذه الموضوعات .. نجدها في القرآن .. في قوله تعالى :

﴿ الْمَرَّةَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا
الْوَانِهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ
سُودٍ ﴾ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
كَذَلِكَ

(سورة فاطر)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى تكلم عن الجماد .. وتكلم عن النبات .. وتكلم عن الحيوان والإنسان .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :
« إنما يخشى الله من عباده العلماء » ..
العلماء في ماذا ؟ فيما يتعلق بخلق الله من الجماد والحيوان والنبات والإنسان ..
ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى المتناقضات الموجودة في النوع الواحد .. لو
أنه جنس واحد لما وجد فيه متناقضات .. إنما قوله تعالى :
« ثمرات مختلفا ألوانها » ..

كان يجب أن نلتفت إليها .. ولماذا اختلفت ألوانها .. وما هي العلاقة بين
الألوان والطبيعة .. مثلا حينما يتغذى النبات وجد من الدراسة إنه يتغذى

القرآن مزق حواجز الغيب

بوساطة خاصية الأنابيب الشعرية .. وهنا نقف قليلا .. هل هذه الأنابيب الشعرية تميز .. هل تستطيع التمييز .. إذا جئنا بحوض .. ووضعنا فيه سائلا مذابا فيه أصناف مختلفة .. ثم جئنا بالأنابيب الشعرية .. نجد أن الماء قد صعد في مستوى أعلى من مستوى الاناء .. ولكن هل كل أنبوبة ميزت عنصرا أخذته .. أم أن كل أنبوبة أخذت من جميع العناصر وهى مذابة .. لكن النبات ليس هكذا .. اننى أزرع الحنظل .. بجانب القصب .. فيخرج هذا حلوا .. وهذا مرا .. هذا يأخذ عناصره .. وهذا يأخذ عناصره من نفس التربة .. إذن هناك اختيار .. ومن هنا ظهر ما سمي بخاصية الانتخاب .. الانتخاب معناه الاختيار بين بديلات .. أى أنك تترك هذا وتأخذ هذا .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل »

لكن خاصية الأنابيب الشعرية تتعامل مع السائل كله .. بلا تمييز .. ومن هنا نعرف أن الخاصية شئ .. واختيار النبات للعناصر الغذائية التى يريدتها أو يحتاجها شئ آخر ..

نأتى بعد ذلك للجهد .. يقول الله سبحانه وتعالى :

« ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود » ..

هذا علم الجهد .. وهو علم تحويه الآن مجلدات .. ثم بعد ذلك الإنسان .. أجناس الوجود كلها .. ثم بعد ذلك قال الله :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء »

العلماء فى ماذا؟ بهذه كلها .. إذن كلمة العلماء أطلقت على من يتفكر فى خلق الله .. سواء كان جمادا أو حيوانا أو نباتا .. والذهن النشط يستطيع أن يصل إلى هذه العلوم الأرضية بالملاحظة والتجربة .. والدليل على ذلك إذا استعرضت تاريخ أى مخترع من المخترعات فى الكون التى أراحت الناس .. تجد إنها نتيجة لإنسان قد لاحظ بدقة .. ولم تمر عليه المسألة كباقى الناس .. والعلم مكانه المعمل والملاحظة والتجربة ..

حينما نتجاوز .. بلا دليل

ولكننا أحيانا نتجاوز موضوع العلم .. وموضوع التجربة والمعمل .. وذلك

القرآن مزق حواجز الغيب

عندما أقول مثلا الروح قبل المادة .. أو المادة قبل الروح .. فهذا بحث في عنصرى تكوين الإنسان الذى لم نشهد خلقه .. ولا نستطيع أن نجري عليه تجربة .. إن هذا فى علم الله .. فهو الذى خلق .. وهو الذى يستطيع أن يقول لنا كيف تم الخلق .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » ..

إذن فهذه مسألة لا يمكن أن يصل فيها العلم البشرى إلى نتيجة .. لماذا؟ لأننا لم نحضر التجربة .. ولم نرها بالعين .. ولا نستطيع أن نجربها أو نقوم بها .. ولكن بالأذن سمعنا عن الله .. وهذا أمر غيبى عنا .. ومادام الأمر غيبيا عنا .. فإن الله الذى خلقنى هو الذى يحدثنى .. كيف خلقت .. أما أنا فإننى لا أعرف كيف خلقت .. ومن هنا فإننى لا يمكن أن أتحدث علميا عن العنصرين اللذين يتكون منهما الإنسان .. وأيهما جاء أولا .. وإذا صمم أحد على أن يبحث فى هذا .. يكون قد شغل نفسه بعلم لا ينفعه عن جهل لا يضره .. لأنه لن يستطيع أن يدل على ما يقول علميا .. وبالتجربة أنا أستطيع أن أمسك المادة وأدخلها المعمل .. ولكنى لا أستطيع أن أمسك بالروح وأدخلها إلى المعمل ..

والعلم يجب أن يتم على مادة صماء .. يمكن أن تدخل المعمل الأصبم .. وتعطى حقائق صماء .. أليست هذه هى الحقيقة .. والدليل على ذلك أن المعسكرات المتصارعة لا تختلف فى مذاهب العلم .. ولكنها تختلف فى مذاهب الهوى والنظريات .. لا توجد هناك كهرباء أمريكية .. وكهرباء روسية .. ولا توجد كيمياء ألمانية ، ولا كيمياء انجليزية .. وكل علم الكيمياء .. فى أى دولة من دول العالم خاضع لما تعطيه التجربة الصماء التى لا هوى لها .. وبهذا تكون النتيجة واحدة .. سواء كان المعمل انجليزيا أو أمريكيا .. أو سوفيتيا .. أو أى معمل من معامل الدنيا .

ولكن الخلاف يحدث عندما تتدخل مذاهب الهوى والنظريات .. فإذا جئنا إلى مذاهب الهوى .. هوى النفس .. نجد أنها متناقضة .. ليست مختلفة .. ولكنها متناقضة .. هذا على النقيض من ذلك .. رأسالية وشيوعية .. إيمان والحاد .. وانكار للديانات لماذا؟ لأن هوى النفس دخل هنا فأفسد القضية العلمية وأضاع حقائقها ..

القرآن مزق حواجز الغيب

الكفار .. أثبتوا القرآن

فإذا أخذنا خلق الإنسان مثلا .. فإننا نأخذ هذا الخلق عن الله .. الذى خلق .. ماذا قال الله سبحانه وتعالى قال خلقتك من تراب .. وقال من طين .. وقال من حمأ مسنون .. وقال من صلصال كالفخار .. هذه ليست تناقضات فى الخلق .. أو تناقضات فى مادة الخلق نفسها .. وهى التراب .. بل أن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أطوار هذه المادة من التراب إلى الطين إلى الحمأ إلى الصلصال .. إنها المراحل التى مر بها خلق الجسد البشرى من تراب إلى ما قبل نفخ الروح فيه .

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾

﴿ وَمَا كُنْتَ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

(سورة الكهف)

ما معنى كلمة مضل .. كلمة مضل تعطى أن هناك قضية حق وأن هناك إنسانا يريد أن يضللى ويعطينى عكس القضية .. أى يعطينى غير الحقيقة وهو الضلال .. هذا هو معنى مضل .. إذن قول الله :
« وما كنت متخذ المضلين عضدا » ..

أى أننى فى ساعة الخلق لم أطلب العون أو المساعدة أو المشورة .. أو النصيحة .. من هؤلاء المضلين .. وإلا لو كان حدث ذلك .. ثم جاءوكم يخبرونكم كيف تم خلق السماوات والأرض .. وكيف خلقتكم أنتم .. لكان لكم العذر فى تصديقهم .. ولكن ماداموا لم يشهدوا الخلق .. ولم أطلب معونتهم .. فإن ما سيقولونه لكم غير واقع .. غير صحيح .. أنه اضلال .. وهذه معجزة من معجزات القرآن .. فقد قال لنا الله .. أنه سيكون هناك مضلون .. وان هؤلاء المضلين سيحاولون أن يقولوا لكم غير الحق فى قضية خلق السماوات والأرض .. وفى قضية خلق الإنسان .. فلا تصدقوهم لأننى لم أستعن بهم ساعة الخلق .. ولم يكونوا موجودين .. إذن لو لم يحدث أن جاء أناس يضلون عن سبيل الله .. لقلنا أن القرآن غير صحيح .. لأنه أين المضلون ؟ ولو وجد المضلون وتناولوا قضية أخرى غير خلق السماوات والأرض .. وخلق الإنسان لقلنا

القرآن مزق حواجز الغيب

إن القرآن غير صحيح .. لأنه لا يوجد من يضل عن سبيل الله ولكنه لا يتناول فيما يقوله قضية خلق السماوات والأرض .. ولا قضية خلق الإنسان .. ولكن كون المضلين جاءوا وكونهم تحدثوا عن قضية خلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم .. وهل المادة قبل الروح .. أم الروح قبل المادة .. وقانون الصدفة ونظرية داروين إلى آخر هذا الكلام .. كون هؤلاء جاءوا .. وكونهم تناولوا قضية خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان فهذا اثبات لما جاء في القرآن عنهم .. وكأن هؤلاء المضلين الذين جاءوا ليصدوا عن سبيل الله .. إنما قدموا خدمة كبيرة للدعوة الإسلامية وللقرآن .. بأنهم أثبتوا بكفرهم صحة القرآن وصحة آياته .. أترى اعجازا أكثر من ذلك .. يستخدم الله الكفار الذين يضلون عن سبيله .. ويحاولون تكذيب القرآن .. يستخدمهم الله سبحانه وتعالى ليقوموا وهم لا يدرون باثبات صحة الدين الذي يحاولون أن يهدموه وبإثبات وجود الله سبحانه وتعالى .. وهم يريدون أن ينكروه .. فيقول في قرآن نزل منذ أربعة عشر قرنا .. أن هناك من سيأتى ليضل عن سبيل الله .. ويتخذ من قضية خلق السماوات والأرض والإنسان مادة لهذا الاضلال وكل ما سيقولونه هو غير الواقع .. وأنا أنفى من الآن ما سيقولونه بعد مئات .. أو ألوف السنين .. وأقول لكم أنه غير صحيح .. إذن فكون هؤلاء المضلون جاءوا اثباتا للقرآن .. وكون أنهم قالوا غير الحق ولم يستطيعوا أن يدللوا عليه علميا .. وأخذوا يطلقون نظرياتهم .. كل نظرية تهدم الأخرى .. وهم يجتهدون في محاولة هدم منهج الله .. ونحن نقول لهم انكم تثبتونه .. لأن الله أخبرنا عنكم في القرآن منذ أربعة عشر قرنا .. وقال انكم ستأتون وستفعلون كذا وكذا في محاولة لتضليل الناس .. وهدم القرآن .. أترى الاعجاز في استخدام الكفار لتثبيت قضية الإيمان في الكون ..

خلق الإنسان

إذن فخالق الإنسان هو الله .. وخالق السماوات والأرض هو الله .. وهذا أمر غيبى نأخذه عن خلق .. إلا أن الحق سبحانه وتعالى حين يعرض قضية غيبية .. فإنه ينير طريق العقل دائما بقضية نحسها ونشهدا .. تقرب القضية الغيبية التي يتحدث عنها .. فالله خلقني من تراب .. من طين .. من حمأ

القرآن مزق حواجز الغيب

مسنون .. من صلصال كالفخار .. ثم نفخ من روحه ..
إذا أخذنا التراب .. ثم نضيف إليه الماء فيصبح طينا .. ثم يترك لتفاعل
عناصره فيصبح حمأ مسنونا .. كالذى يستخدمه البشر فى صناعاتهم .. ثم
يجفف فيصبح صلصالا .. هذه أطوار خلق الجسد البشرى .. والبشر ..
والخلق من الطين .. من الأرض ..
فإذا جئنا للواقع .. فلنسأل أنفسنا .. الإنسان مقومات حياته من أين ..
من الأرض .. من الطين .. هذه القشرة الأرضية الخصبة هى التى تعطى كل
مقومات الحياة التى أعيشها .. إذن فالذى ينمى المادة التى خلقت منها هو من
نفس نوع هذه المادة .. وهى الطين .. ولقد حلل العلماء جسد الإنسان
فوجدوه مكونا من ١٦ عنصرا .. أولها الأكسجين .. وآخرها المنجنيز ..
والقشرة الأرضية الخصبة مكونة من نفس العناصر .. إذن فعناصر الطين
الخصب هى نفس عناصر الجسم البشرى الذى خلق منه .. هذا أول
اعجاز .. وهذه تجربة معملية لم يكن هدفها اثبات صحة القرآن أو عدم
صحته .. ولكنها كانت بحثا من أجل العلم الأرضى ..
ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من الموت دليلا على قضية الخلق .. فالموت
نقض للحياة .. أى أن الحياة موجودة .. وأنا أنقضها بالموت .. ونقض كل
شئ يأتى على عكس بنائه .. فإذا أردنا أن نبني عمارة نبدأ بالدور الأول .. وإذا
أردنا أن نهدمها نبدأ بالدور الأخير .. إذا وصلت إلى مكان وأردت أن أعود ..
أبدأ من آخر نقطة وصلت إليها انها تمثل أول خطوة فى العودة .. ونحن لم نعلم
عن خلق الحياة شيئا .. لأننا لم نكن موجودين ساعة الخلق .. ولكننا نشهد
الموت كل يوم .. والموت نقض للحياة .. إذن هو يحدث على عكسها .. أول
شئ يحدث فى الإنسان عند الموت .. إن الروح تخرج .. وهى آخر ما دخل
فيه .. أول شئ يخرج الروح .. إذن آخر شئ دخل فى الجسم هو الروح ..
ثم تبدأ مراحل عكس عملية الخلق .. يتصلب الجسد .. هذا هو
الصلصال .. ثم يتعفن فيصبح رمة .. هذا هو الحمأ المسنون .. ثم يتبخر الماء
من الجسد ويصبح الطين ترابا .. ويعود إلى الأرض .. إذن مراحل الافناء التى
أراها وأشهدها كل يوم هى عكس مراحل الخلق .. فهناك الصدق فى مادة
الخلق .. والصدق فى كيفية الخلق .. كما هو واضح أمامى من قضية نقض

القرآن مزق حواجز الغيب

الحياة .. وهو الموت ..

شيء آخر يقول الله سبحانه وتعالى :

« ونفخت فيه من روحي » ..

ومعنى النفخ أى النفس .. أى أن هناك نفسا خرج من النافخ إلى المنفوخ فيه .. فبدأت الحياة .. وبماذا تنتهى الحياة بخروج هذا النفس .. فأنت إذا شككت فى أن أى إنسان قد فارق الحياة .. يكفى أن يقال لك انه لا يتنفس .. ليتأكد يقينا أنه مات .. إذن دخول الحياة إلى الجسد هو دخول هذا النفس .. مصداقا لقوله تعالى :

« ونفخت فيه من روحي »

وخروجها هو خروج هذا النفس ..

والإنسان .. فى بطن أمه

فالمسألة يقينا كما قال الله .. وإذا كنا نريد اعجازا أكثر .. فلننظر ماذا قال القرآن فى علم الأجنة .. علم تكوين الجنين فى بطن أمه وقد تناولت هذه المسألة فى فصل سابق .. ولكننى أعود فأقول .. هل تناول أحد هذه المسألة قبل القرآن أو عصر القرآن .. أو بعده بفترة .. أبدا .. أول من تحدث عنها هو القرآن .. وأعطانى ما هو غائب عني .. لأن خلقى هو غيب .. فكون الله سبحانه وتعالى يأتى فى قرآنه ويعطينى مراحل تكوين الجنين .. فهذه آية من آيات عظمته وقدرته وعلمه .. يقول الله فى أطوار الجنين :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً

نَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً نَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ

لَحْمًا ﴿١٤﴾

(سورة المؤمنون)

علم الأجنة ما عرفه الناس إلا حديثا .. والقرآن كما قلت كلام متعبد بتلاوته .. لا تبديل فيه ولا تغيير .. أى أن القضية التى يذكرها ستبقى كما هى

القرآن مزق حواجز الغيب

إلى آخر الدنيا . . . فعندما يأتي القرآن ويخبر بهذا فكأنه يتحدى العلم والعلماء . . . إلى يوم القيامة . . . يقول لهم هذا هو تكوين الجنين في بطن أمه . . . وأنا أذكره لكم وأذكر مراحلها بتفصيل لم يشهده أحد من البشر حتى ساعة نزول هذا القرآن . . . ولا حتى بعده نزوله بمئات السنين . . . ولكنني أسجله لتعلموا عندما أعطاكم من العلم ما تستطيعون به معرفة أطوار الجنين . . . لتعلموا أن القائل هو الخالق . . . لأنه لا يمكن لأحد أن يقول هذا الكلام . . . وأن يتحدى بصحته على مر العصور . . . وأن يخترق الحجب ليروي شيئاً لم تكن البشرية تعرفه أو تعلم به . . . إلا أن يكون ذلك هو الله . . . وإلا فكيف يأمن أي إنسان . . . أي بشر مهما بلغ من العلم . . . كيف يأمن أنه بعد عشرات السنين . . . أو مئات السنين . . . لن يأتي من يناقض هذا الحديث . . . وما يثبت عدم صحته . . .

فإذا لم يكن الحديث هنا عن الله . . . وإذا لم يكن عن يقين كامل . . . فكأن القرآن قد أعطى وسيلة هدمه . . . كان يكفي أن يقول إنسان أن القرآن يقول هذا عن أطوار الجنين . . . وقد أثبت التقدم العلمي أنه غير صحيح . . . كان يكفي أن يقال هذا ليهدم قضية الدين من أساسه . . . ويكون القرآن قد أعطى للكفار أقوى سلاح يهدمونه به . . . فالذي كشف علم الأجنة متأكد تماماً أن ما يقوله هو الحق . . . وأن تطور العلم مهما جاء فإنه لن يأتي ليناقض هذا الكلام . . . ولقد أثبتت أحدث البحوث عن الجنين . . . صحة ما ذكره القرآن منذ أربعة عشر قرناً . . . ولم تختلف عنه . . . في أي تفصيل من التفصيلات . . . رغم أن هذا كان أمراً غيبياً . . . وأمر لم يتحدث عنه أي إنسان قبل أن يأتي القرآن . . . ومع ذلك فقد ذكره القرآن بالتفصيل . . . وحدد أطواره وجاء العلم بعد ذلك ليثبت هذه الحقيقة . . . إذن فلا بد أن قائل القرآن هو الله . . . لأن الذي يعلم يقينا هو الله وحده . . .

والمعجزة . . . مستمرة

إذن فالقرآن عندما نزل كان له أكثر من معجزة . . . تحدى العرب في بلاغتهم . . . ثم مزق حواجز الغيب الثلاثة . . . مزق حجاب الزمن الماضي . . . وروى لنا بالتفصيل تاريخ الرسل وحوادث من سبقنا من الأمم . . . وتحدى فيها . . . ثم مزق حجاب المكان وروى لنا ما يدور داخل نفوس الكفار والذين

القرآن مزق حواجز الغيب

يجاربون الإسلام وما يبيتونه للمسلمين .. روى لنا ما يدور داخل نفوسهم .. ولم تنطق به شفاههم .. ولم يجرؤ واحد منهم أن يكذب القرآن ويقول لم تهمس نفسى بهذا .. ثم مزق حجاب المستقبل القريب .. وتنبأ بأحداث ستقع بعد شهور .. وبأحداث ستقع بعد سنوات .. وتحدى .. وحدث كل ما أنبأ به القرآن ..

ثم بعد ذلك مزق القرآن حجاب المستقبل البعيد .. ليعطى الأجيال القادمة من اعجازه ما يجعلهم يصدقون القرآن ويسجدون لقائله وهو الله .. ولكن القرآن نزل في زمن لو أن هذه المعجزات المستقبلية جاءت تفصيلية لكفر عدد من المؤمنين وانصرف آخرون .. ذلك أن الكلام كان فوق طاقة العقول في ذلك الوقت .. ومن هنا وحتى لا يخرج المؤمن عن إيمانه .. ويستمر الاعجاز .. جاء القرآن بنهايات النظريات .. بقمة نواميس الكون .. إذا تليت على المؤمنين في ذلك الوقت .. مرت عليهم .. ولم يتنبهوا إلى مدلولها الحقيقي العلمى .. وإذا تليت بعد ذلك على الأجيال القادمة عرفوا ما فيها من اعجاز .. وقالوا إن هذا كلام لا يمكن أن يقوله شخص عاش منذ آلاف السنين .. إذن فلا بد أن هذا القرآن حق من عند الله .. وأن قائله هو الله الخالق ..

بقيت نقطة .. هل يأتي هذا في الأحكام ؟ الجواب : لا .. أن أحكام الدين افعل ولا تفعل .. نزلت كاملة واضحة لا لبس فيها ولا اضافة عليها ولا تبديل ولا غموض .. منهج الله كامل .. فسرته الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية .. وشرح وفسر في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تفسيراً كاملاً .. بحيث أصبح واضحاً لكل إنسان يريد أن يعبد الله .. وأن يعيش في الأرض طبقاً لقوانين الله .. افعل ولا تفعل .. جاءت واضحة وكملت وفسرت في عهد الرسالة .. وأصبح الحلال بينا .. والحرام بينا .. والدين بينا ..

أما آيات الله في الكون .. فنلاحظ أنها لم تفسر تفسيراً كاملاً في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .. حتى لا تكون ملزمة للمسلمين .. لماذا ؟ لأن لهذا عطاء يتجدد في كل الأجيال .. وهذه الآيات هي التي تحدثنا عن بعضها .. لقد تحدى القرآن العرب بالاعجاز في اللغة .. طلب أن يأتوا بمثل القرآن ثم زاد في التحدى وقال بسورة من مثله .. ولكن التحدى للعالم لا يمكن أن يكون باللغة .. فاللغات مختلفة .. إذن بماذا تحداهم .. بالعلم .. وكان التحدى

القرآن مزق حواجز الغيب

مطلقا إلى يوم الدين .. قال أنتم جميعا لن تستطيعوا أن تخلقوا شيئا .. حتى نهاية العالم .. ثم تحداهم بخلق ماذا .. بخلق كون كالذى خلقه ؟ لا .. بخلق مجموعة شمسية من عشرات المجموعات الشمسية الموجودة في الكون ؟ لا .. بخلق شمس أو قمر أو نجم ؟ لا .. إذن تحداهم بخلق الكرة الأرضية مثلا ؟ أبدا .. لا بد أنه تحداهم بخلق الإنسان .. أبدا .. لقد تحداهم أن يخلقوا ذبابا ففي سورة الحج قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ وَإِنْ يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(سورة الحج)

وهكذا تحدى الله البشرية كلها إلى يوم القيامة بأن يخلقوا ذبابة .. وقال أن العلم الذى ستعبدونه من دون الله والذى ستؤمنون به .. هذا العلم وكل القائمين عليه لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا ..

« إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » ..

ثم قال الله سبحانه وتعالى :

« ضعف الطالب والمطلوب » ..

وأضاف :

« ما قدروا الله حق قدره » ..

والعجيب أن الإنسان قد وصل إلى القمر .. وقد يصل إلى المريخ .. وقد يستكشف أبعد من ذلك .. ولكنه عاجز عن أن يخلق جناح ذبابة حتى الآن ..

وهو طلب ضعيف جدا بالنسبة لقدرة الله سبحانه وتعالى في خلق ملايين الكائنات .. ولذلك قال الله :

« ضعف الطالب والمطلوب » ..

ثم أضاف سبحانه وتعالى :

« ضعف الطالب والمطلوب » ..

القرآن مزق حواجز الغيب

« ما قدروا الله حق قدره » ..

أى أن قدرة الله سبحانه وتعالى تفوق كل الحدود والتصورات التي قد ترد على
خواطركم .. وأنتم لا تعرفون قدرة الله .. ثم تحدى الله بعد ذلك في قرآنه ..
تحدى باستمرار الحياة .. الماء الذى خلق منه كل شيء حتى .. قال الله تعالى :
« أفأرأيتم الماء الذى تشربون .. أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن
المنزلون » ..

وقال تعالى :

« ينزل الغيث » ..

أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يرسل إليكم الأمطار والماء يأتي مدرارا
ليسقى الدنيا كلها .. البشر والطيور .. والوحوش ، والزرع وكل شيء
حتى .. هذا الماء الذى تعب منه البشرية كلها عبا .. تجد الإنسان عاجزا عن
أن يصنع نهرا مع أن عناصر تكوين الماء موجودة في الكون .. أمام العلماء ..
والمساحات الشاسعة من الصحارى في الأرض محتاجة إلى قطرة ماء .. ثم تحدى
الله سبحانه وتعالى بعد ذلك .. تحدانا بأن نهرب من الموت .. قال :
« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » ..

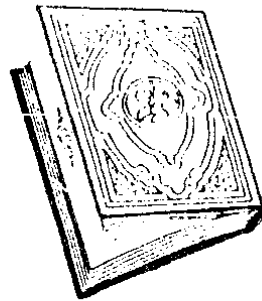
.. أى أن الله سبحانه وتعالى يتحدى فمهما وصلتم إلى العلم .. فلن
تستطيعوا أن تنجوا من الموت .. انكم تقولون في العلم الأرضي أن الموت يحدث
بسبب جراثيم كذا .. وأمراض كذا إلى آخره .. حسنا .. شيدوا برجاً وضعوا
فيه إنسانا .. وأبعدوه عن كل المخاطر التي في رأيكم وفي نظركم .. وفي
علمكم .. تسبب الموت .. فلا هو يجارب ولا يمشی في أى مكان ليصاب في
حادث .. فلا يستنشق هواء ملوثا بل يستنشق هواء نقياً .. ويأكل من طعام
مطهر على أحدث الوسائل الصحية .. ويشرب من ماء ليس فيه جرثومة
واحدة .. والجو الذى يعيش فيه منقى إلى آخر درجات العلم .. هنا نكون قد
أبعدنا عن هذا الإنسان كل مسببات الموت التي نعرفها .. ومع ذلك فهال يمكن
أن يكتب لإنسان مثل هذا الخلود رغم أننا منعنا عنه كل الأسباب الظاهرية
للموت .. الجواب طبعا مستحيل .. لأن الله هو الذى يحيى ويميت ..
والأسباب لا تفعل بنفسها ولكنها تفعل بإرادة الله ..
ثم تحدى الله العالم كله في القرآن بخمسة مغيبات ..

القرآن مزق حواجز الغيب

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ
تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

تحدى الله هذه المغيبات .. تحدى البشر جميعا .. فكأن القرآن كما تحدى العرب في اللغة عندما نزل .. حمل تحديات للعالم أجمع .. وقال لهم : إنكم لن تصلوا إلى كذا وكذا إلى آخره .. عشرات التحديات التي ساقها القرآن للبشرية جميعا .. قال لن تصلوا إلى كذا .. لن تفعلوا كذا .. لن تخلقوا كذا .. وكانت هذه التحديات لكل البشرية .. ولكل العصور .. ومازالت قائمة حتى الآن .. ومازالت البشرية كلها عاجزة أمام قدرة الله .. لماذا ؟ إن السر يكمن في كلمتين .. « سبحان الله » .. وليس كمثله شيء .. وهذا هو موضوع الفصل القادم ..



الفصل الثامن

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ

سبحان الله



الإنسان في علاقته بالله سبحانه وتعالى يدخل في حالات متعددة تتغير فيها طبيعة اتصاله بما هو غيب عنه بالنسبة للشخص الواحد . . فالإنسان مثلا حين يكون في يقظة . . وفي حياته اليومية يرى الأشياء بقدر ما تعطيه هذه اليقظة من وعى دنيوى . . أو بقدر ما يحجب عنه جسده المادى من أشياء قد لا يعرف عنها شيئا . . والإنسان وهو يقظ خاضع للعقل خضوعا كاملا . . فإذا نام مثلا تغير الحال . . وأصبح يرى في نومه أشياء لا يراها في اليقظة ولا تدخل في نطاق العقل البشرى . فيمكن أن يرى نفسه يطير في الهواء مثلا . . أو يرى نفسه في أماكن لم يرها في حياته الدنيوية . . أو يتحدث في الحلم مع أشخاص ماتوا إلى رحمة الله منذ مدة طويلة . . وفارقوا هذه الدنيا . . أو يرى أشياء عجيبة تحدث له لا تتفق مع العقل والمنطق . . ولا مع مهاراته . . فقد يرى مثلا أنه يركب حصانا وهو لا يعرف ركوب الخيل . . أو أنه يقوم بعمل لا يتقنه في الدنيا . . والعجيب أن الرؤيا تتم . . والعين مغلقة تماما . . أى أن الذى يرى ليس هو العين . . وإنما الروح . .

إذن فالروح لها رؤيا خاصة وهى يمكن أن تلتقى مع الذين فارقوا الدنيا وتحدث معهم . . والإنسان نائم . . يكون في عالم آخر غير عالم اليقظة . . وتلتقى روحه وهو نائم مع أمه أو أبيه الذين فارقوا الحياة منذ سنوات . . ويرى أشخاصا وأشياء لم يعرفها في حياته . . بل ولا تتفق مع منطق الحياة . . ولكن ما الذى يجعل الإنسان يرى وهو نائم ومغمض العينين ما لا يراه . . وهو مستيقظ . . وما الذى يجعله يرى أماكن لأشخاص لم يشاهدهم في حياته . . فإذا استيقظ ضاع كل هذا . . وبماذا نفسر هذه الظاهرة . . نقول أننا حين نصل إلى أشياء تقف فيها عقولنا لأنها تخالف ما نعتاد ونألف نضعها تحت عنوان « سبحان الله » وليس كمثله شئ . . ذلك لأننا لا نعرف قوانين الروح والجسد قائم . . ولا نعرف قوانينها بعد أن تفارق الجسد . . ذلك غيب عنا . . تعجز عنه عقولنا . . لذلك نضعه تحت عبارة . . « سبحان الله » وليس كمثله شئ . .

ونفسر هذه العبارة قليلا . . إذا قلت أن فلانا قد ضرب فلانا بكل قوته . . هل تعنى شيئا . . الجواب أبدا . . لا يكون للشئ معنى إلا إذا نسب لفاعله . .

سبحان الله

ووضعت فيه قدرات هذا الفاعل .. بمعنى أنني إذا قلت أن طفلا صغيرا عمره أشهر ضربني بكل قوته .. وقلت أن بطل العالم في الملاكمة ضربني بكل قوته .. فهناك فرق كبير بين المعنيتين .. الأول ضربه لا يؤثر في .. ولا أحس به .. والثاني ضربه قد يقتلني .. مع أن الاثنين قد استخدمنا كل قوتها التي وهبها الله لهما في عملية الضرب .. ولكن الفعل هنا يتناسب مع الفاعل .. فالطفل الصغير لا أكاد أحس بضربه .. وبطل العالم يستطيع أن يحطم ضلوعي بسهولة ..

لى قوة .. وله قوة

إذا أخذنا هذا المثل .. ووضعنا الله سبحانه وتعالى تحت عبارة سبحان الله .. وليس كمثله شيء .. استطعنا أن نقرب كثيرا من المعاني التي قد يستغلها البعض لاضلال البشر .. لله سبحانه وتعالى قوة .. ولى قوة .. ولكن هل قوتي مثل قوة الله سبحانه وتعالى .. لله سبحانه وتعالى علم ولى علم .. ولكن هل علمى مثل علم الله سبحانه وتعالى .. الله حى .. وأنت موصوف بالحياة .. فلا تقول إن حياتك مثل حياة الله سبحانه وتعالى .. وجود الله سبحانه وتعالى ليس كوجودك .. وعلمه ليس كعلمك .. وقدرته ليست كقدرتك .. ومن هنا يخرج وجه المقارنة .. حيث انه لا مقارنة .. فالله بقدرته وقوته يأتى تحت وصف « سبحان الله .. وليس كمثله شيء » .. ومن هنا فإننى لا يجب أن أنسب إلى نفسى بالمدلول البشرى ما يقول الله سبحانه وتعالى عن ذاته .. فعندما أتصور قوة الله لا أقارنها بقوتي .. ولكننى أقول « سبحان الله .. وليس كمثله شيء » .. وعندما أتصور انتقام الله لا أقارنه بانتقامى .. وإنما أضعه تحت عبارة « سبحان الله .. وليس كمثله شيء » .

ومن هنا تجد تحت هذه العبارة « سبحان الله وليس كمثله شيء » .. أننا نستطيع أن نصل إلى مدلول أشياء كثيرة .. فأنت مثلا لا تستطيع أن تتصور إلا ما تراه .. وعندما يخبرك الله سبحانه وتعالى عن أشياء لا تراها تضعها تحت عنوان « سبحان الله وليس كمثله شيء » .. لأنه شتان بين رؤياك ورؤيا الله سبحانه وتعالى .. مثلا سبحان الذى أسرى بعبده .. من الذى أسرى .. الله سبحانه وتعالى .. أسرى به إلى المسجد الأقصى .. لا تأتى لى فى هذه الحالة

سبحان الله

بقوانين الزمان .. وقوانين المكان التي تنطبق عليك أنت .. والتي تستطيع أن تراها وتتصورها .. ثم تحاول أن تطبقها على فعل من أفعال الله .. لماذا .. لأن الله ليس كمثله شيء .. ومن هنا فإن هذه القوانين التي تحكمك لا تحكمه .. والزمان والمكان اللذان تخضع لهما لا وجود لكليهما عند الله سبحانه وتعالى .. لأنه ليس كمثله شيء .. الذي أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .. ولذلك حين قال بعض الناس أيستطيع محمد أن يذهب إلى بيت المقدس .. ويصعد إلى السماء .. ويعود في ليلة واحدة . نقول أن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يدع ذلك .. وإنما أسرى به .. والذي أسرى به هو الله سبحانه وتعالى .. والله ليس كمثله شيء .. ومن هنا فإن قوانين الزمان والمكان .. وقوانين الدنيا كلها .. والقوة والقدرة إلى آخر كل ما يتصوره البشر لا ينطبق على الاسراء .. لأن الله هو الفاعل .. « والله ليس كمثله شيء » . وإذا كان كل شيء يأتي بالتشابه .. فإن الذي يأتي من الله سبحانه وتعالى « ليس كمثله شيء » .. ولذلك عندما نقول « سبحان الله وليس كمثله شيء » .. فإننا نعلو به سبحانه علواً كبيراً عن كل شيء يأتي بالتشابه .. إذن كل ما نطق به الله سبحانه وتعالى خذه على أنه له .. أما عن كلفيته فلا أحد يستطيع أن يصل إليه .. لماذا ؟ لأنه ليس كمثله شيء ..

القدرة .. والعلم

ومن هنا عندما يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن معجزة من المعجزات التي يؤيد بها أنبياءه .. أو عن عالم الملائكة والجن الذي لا نراه .. فنحن نعرف أن هذه حقائق .. لأن الله سبحانه وتعالى قادر .. وقدرته لا تقارن بالدنيا كلها .. عالم وعلمه لا يصل إلى ذرة من ذراته علم البشر .. ومن هنا فهو يخلق ما نرى .. ويخلق ما لا نرى .. ويخلق ما لا نراه الآن .. وقد نراه في المستقبل .. ولكن الله سبحانه وتعالى كما قلت لطيف بعباده .. ومن هنا فإنه يضع في الكون آيات تقرب إلى العقل البشري .. ذلك الذي يعجز عنه هذا العقل .. وتجعله قريباً من تصوره .. وهو بذلك يريد أن يدخل الاطمئنان إلى قلوبنا .. وأن يعطينا الإيمان واليقين بحيث نستطيع أن نجابه المضلين .. وأن نرد عليهم .. والإنسان المؤمن دائماً في قلبه سكينه .. وفي قلبه أمل .. ذلك أنه

سبحان الله

مؤمن بقدرة الله التي هي بلا حدود . . ويؤمن بأن الله الذي كتب على نفسه نصر المؤمنين . . وكتب على نفسه انجاء المؤمنين . . وكتب على نفسه أن يدافع عن الذين آمنوا . . تلك القدرة الهائلة . . قادرة على حمايته . . وعلى دفع الضرر عنه . . ولو كانت أسباب الدنيا كلها ضده . .

ولكن كما يجادل بعض الناس في الروح . . يأتي واحد منهم ويقول ما هذا عن عالم الجن والملائكة . . أنا لا أصدق إلا ما نراه . . ويجادل . . ويجادل . . إلى آخر هذا الكلام . . فإذا قلت له هل شهدت الخلق . . هل شهدت خلق الجن والملائكة . . يرد عليه أنه وأنت أيضا لم تشهده . . وهنا ترد عليه بأن الله سبحانه وتعالى وقد وضع لنا في هذا الكون الدليل على أن ما فوق قدرة العقل . . وما فوق قدرة البصر . . وما فوق قدرة السمع موجود في هذا العالم منذ خلق الأرض ومن عليها . . وإنما هو خرج من علم القادر . . وهو الله سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر وهو الإنسان . . ليدل على أن ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وما هو فوق قدرة البصر موجود . . وما هو فوق قدرة السمع موجود . . ولنتناقش هذه المسائل الثلاث . .

ما هو فوق قدرة العقل موجود منذ الأزل . . وإن كان قد أصبح في قدرة العقل خلال السنوات الأخيرة . . فإن يطير الإنسان في الهواء مثلا بطائرة . . كان فوق قدرة العقل في الماضي . . بحيث إنك إذا قلت منذ مائة سنة مثلا . . إنك ركبت طائرة . . وطرت في الهواء . . لاتهمك الناس بالجنون أو بالكفر . . ولقتلوك . . ولو قلت انك تحدثت في آخر الدنيا فسمعك ملايين البشر في وقت واحد . . لو قلت هذا منذ مائة سنة فقط لما صدقك أحد . . ذلك إن هذا فوق قدرة العقل البشري . . ولكنك الآن تذهب إلى أي مطار فتركب الطائرة . . وتطير في الهواء . . وتحدث في الإذاعة فتسمعك الدنيا من أقصاها إلى أقصاها . . كيف حدث ذلك . . هل اخترع الإنسان غلafa جويا جديدا للأرض يمكنه من الطيران . . هل دار حول الدنيا ليضع موجات الأثير . . لا هذا . . ولا ذاك طبعا . . إنما الغلاف الجوي كما هو منذ خلق الله الأرض ومن عليها . .

وموجات الأثير كما خلقها الله سبحانه وتعالى منذ بداية الكون . . ولكن الذي حدث أن الله أدخل الانتفاع بهذه الأشياء مما هو فوق قدرة العقل البشري إلى

سبحان الله

علم البشر .. أى أن هذه الأشياء خرجت من علم القادر إلى علم غير القادر بكلمة كن .. فاستطاع الإنسان أن يطير في الفضاء .. وأن يتحدث فتسمعه الدنيا كلها إلى آخر ما حققه وسيحققه العلم بقدره الله .. وهذا دليل قاطع على أن ما فوق قدرة العقل البشرى موجود .. وإن العقل البشرى ليس هو الحد الأعلى للعلم والمعرفة .. في هذه الأرض .. وأنه كلما تقدم الزمن أعطى الله سبحانه وتعالى علما كان فوق قدرة البشر .. أعطاه للقدرات البشرية .. حتى يستطيع الإنسان أن يصل إليه .. وحتى يؤمن الإنسان أن ما فوق قدرة العقل موجود .. وحقيقة واقعة .. وأنه يمكن أن يجهلها ..

فوق الأسماع .. والأبصار

هذا بالنسبة للعقل .. أما بالنسبة لما هو فوق قدرة الأذن فذلك شيء نعرفه كل يوم .. إذا جلست أنت في حجرة مغلقة ليس فيها أى صوت وسألت أنا .. هل يوجد صوت في هذه الحجرة .. تقول لى أنا لا أسمع شيئا .. وكون لا أسمع شيئا .. فإنه لا يوجد صوت في هذه الحجرة .. فإذا «فتحت الراديو» سمعت مئات الأصوات من جميع أنحاء الدنيا .. من أين جاءت هذه الأصوات .. هذه الأصوات تسبح في جو الحجرة .. ولكنك لا تستطيع أن تسمعها بالأذن المجردة لأنها فوق قدرة الأذن .. فإذا أتيت بآلة استطاعت أن تجعل هذه الأصوات في قدرة الأذن .. كان في امكانك أن تسمعها وتميزها .. إذن فهذه الأصوات موجودة .. ولكنك لا تستطيع أن تسمعها إلا إذا أتيت بآلة تجعل أذنك قادرة على أن تستمع إليها .. وربما في المستقبل تكون هناك اختراعات أخرى بما هو في علم الله .. ولم يصل إلى العلم البشرى .. تستطيع أن تجعلك تسمع أصواتا لا تسمعها الآن .. ولا ندرى عنها شيئا .. بل اننى أريد أن أزيد على هذه التجربة لمحة صغيرة .. إذا أتيت بالراديو الترانزستور .. ووضعت ساعة الأذن الصغيرة في أذنك .. وجلسنا نحن الاثنين معا بجوار بعضنا البعض .. وسألتنى هل أسمع شيئا .. سأقول لا .. هل يوجد صوت هنا .. سأقول : لا .. بينما أنت جالس إلى جوارى .. والساعة في أذنك تسمع الدنيا كلها .. كما تشاء .. وأنا بجانبك لا أسمع شيئا .. ما معنى هذا .. معناه أن الجهاز الذى تستخدمه قد جعل الأصوات التى تسبح في

سبحان الله

الحجرة .. التقطها وجعلها في مقدرة أذنك .. بينما أنا جالس إلى جوارك ..
وفي نفس المكان .. ولكن هذه الأصوات فوق قدرة سمعى .. هل معنى ذلك
أن الأصوات التي تسمعها أنت بسماعة الراديو غير موجودة .. لأننى
لا أسمعها .. مستحيل .. ولكن معناها أن هذه الأصوات التي تسمعها أنت
وحدك .. والتي هي فوق قدرة أذنى موجودة .. ولكنى غير قادر على سماعها لأنها
فوق قدرة أذنى ..
نكون بذلك قد وصلنا إلى أن ما هو فوق قدرة العقل موجود .. وما هو فوق
قدرة السمع موجود .

ثم نأتى إلى ما هو فوق قدرة البصر ..
أنت تقول أنا لا أرى العوالم الأخرى التي يتحدث عنها الله .. ومن هنا فهى
غير موجودة .. وأنا أتى لك بنقطة ماء من التربة .. وأقول لك هل ترى فى هذا
الماء شيئا .. ستقول لا .. وعندما أضع الماء تحت الميكروسكوب تظهر فيه مئات
الجراثيم الدقيقة الحية التي تتحرك بشكل عجيب .. أقول لك انظر فى
الميكروسكوب .. سترى هذه الجراثيم .. بينما أن الإنسان المريض حينما تأخذ
نقطة من دمه .. فإنك لا ترى فيها شيئا .. فإذا وضعتها تحت الميكروسكوب ..
أو وضعت عليها سائلا معيننا تكتشف جراثيم وأشياء عجيبة .. أين كانت هذه
الأشياء .. كانت فوق قدرة بصرك .. فعندما استعنت بألة مكبرة جاءت من
خارج قدرة البصر لتصبح من الممكن رؤيتها .. ولكن هل عدم رؤيتك لهذه
الجراثيم معناها أنها غير موجودة .. أو ان هذه الجراثيم لم تكن موجودة قبل
اختراع الميكروسكوب .. كانت موجودة قطعاً .. ولكنها كانت فوق قدرة
البصر .. وجاء اختراع الميكروسكوب ليدخلها من فوق قدرة البصر إلى القدرة
البشرية .. ولكنها كانت موجودة رغم أنك لا تراها ..
وإذا جلست فى حجرة فيها تليفزيون .. هذه الحجرة ليس فيها صورة ..
فإذا فتحت التليفزيون أصبحت الحجرة فيها صورة .. بل ورأيت وأنت جالس
أمامك إنسانا يمشى فوق القمر .. هل فى قدرة البصر أن يرى إنسانا يمشى فوق
القمر .. الجواب نعم .. إذا استخدم امكانيات الله فى الكون .. ولقد
استخدم العلم امكانيات الله فى الكون فى نقل الصورة من مكان إلى آخر ..
فالعلم لم يخترع طبقات الجو التي تنقل الصورة .. ولا يستطيع أن يخترعها ..

سبحان الله

بل اكتشفها .. والله هو القادر الذى كان فى علمه كل هذا .. وأخرجه إلى علم غير القادر .. وهو الإنسان .. لماذا؟ ليعلم الإنسان علم اليقين .. إن ما هو فوق قدرة عقله موجود .. وإن ما هو فوق قدرة سمعه موجود .. وإن ما هو فوق قدرة بصره موجود .. حتى إذا حدثه الله سبحانه وتعالى عن قضية غيبية هى فوق قدرة العقل .. أو السمع .. أو البصر .. عرف يقينا إنها موجودة .. وإن ما يقوله الله سبحانه وتعالى حق .. إذن ما هو فوق قدرة الإنسان موجود فعلا .. وموجود بفرق شاسع جدا .. هو الفرق بين قدرة المخلوق والخالق .. والله سبحانه وتعالى أراد ألا تكون هذه القضية الإيمانية .. وهى قضية الغيب ألا تكون مادة للمضلين ليضلوا بها الناس .. ويبعدوهم عن طريق الله .. فجعل العقل البشرى نفسه ينتقل بقدرة الله ومن جبل إلى جبل مما هو مستحيل عقليا إلى ما هو ممكن .. ليثبت إن ما فوق قدرة العقل موجود .. وجعل الأذن تستطيع بقدرة الله أن تنتقل مما هو فوق قدراتها العادية .. وجعل العين تستطيع أن ترى ما لم تكن تحلم بأنها ستراه .. وكان الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطى كل هذا العلم للعقل البشرى فى اللحظة الأولى التى خلقه فيها .. ولكنه لم يرد ذلك حتى يكون العطاء للإنسان عطاء فيه اثبات لقدرة الله .. وفيه اثبات لوجود الغيب .. وفيه اثبات لما هو فوق القدرات البشرية ..

علم البشر

على أن العلم البشرى يتحدد فى شيئين رئيسيين .. علم مادى يخضع للتجربة البحتة .. لا يدخل فيه هوى البشر .. ذلك العلم هو الذى يتناول المادة فقط .. وهو الذى يمكن أن يفحص فى المعمل .. وتجربى عليه التجارب .. وليس فيه هوى النفس البشرية .. وهذا العلم هو الذى أتاحه الله للعقل البشرى .. وطلب منه أن يجتهد فيه .. ووعد الله بأن يكشف آياته فى الكون لأولئك الذين يعملون .. ويبحثون .. ويجرون التجارب .. ويجتهدون .. وعلم آخر هو علم تدخل فيه الأهواء .. وذلك ما لا يدخل فى معمل .. ولا يمكن اجراء تجارب عليه .. وهذا العلم مثل النظريات الفلسفية .. والسياسية .. وكل شئ لا يخضع لتجربة المعمل .. هذا العلم تختلف فيه

سبحان الله

الأهواء وتتصارع .. وسيظل الصراع بينها إلى يوم القيامة .. لأن هذا العلم لا يستند على أسس مادية موضوعية بحتة .. وإنما تدخل فيه الأهواء الشخصية ..

النوع الأول من العلم صاحبه يظل يعاني حتى يصل إلى هدفه .. فإذا وصل إلى الهدف استفاد منه الناس كلهم .. فالعالم مثلا الذي يجرى تجارب في معمله .. على اختراع جديد .. أو شيء جديد .. يظل يسهر ليلالي طويلة حتى يصل إلى نتائج .. فإذا وصل إلى نتائج استفادت منها البشرية كلها .. وإذا أردنا أن نضرب مثلا لذلك .. فهناك مثلا اكتشاف الكهرباء .. واختراع الراديو والتليفزيون .. والتليفون .. إلى آخر هذه الأشياء التي اقتضت بحثا من أصحابها .. فإذا وصل البحث إلى نتيجة استفادت منها البشرية كلها . أما النوع الثاني من العلم .. فهو الذي يخضع للهوى .. فإن صاحبه هو الذي يستفيد .. وغيره يعاني ذلك .. إنه يضع العلم على هواه .. وعلى أساس ما يرضيه هو .. ومن هنا فإن صاحب النظرية الفلسفية أو السياسية .. لا يعاني شيئا بقدر ما يعاني أولئك الذين يخضعون لها .. أو ينفذونها ..

ماذا قدم العلم

ماذا قدم العلم للبشرية .. تعالوا ناقش ذلك من واقع التجربة العلمية .. أن أساس الحياة البشرية من خلق الله سبحانه وتعالى لم يتغير .. ولم يتبدل .. ولا يستطيع العلم أن يجد له بديلا .. وإنما العلم يقدم الرفاهية للبشر .. أى أنه يجعل الحياة أكثر سهولة .. وأكثر نعومة .. ولكنه لا يعطينا مقومات الحياة .. بل أن الله سبحانه وتعالى علما منه بظلم الإنسان للإنسان .. جعل مقومات الحياة في يده .. وما أعطاه منها ليد البشر .. أعطاه بشكل لا يجعل الإنسان قادرا على اهلاك الإنسان باستخدام أسباب الخلق .. ولنشرح هذه النقطة قليلا .. مقومات الحياة من كرة أرضية .. وشموس .. ونظام كوني لا دخل للإنسان فيه .. ولا يستطيع الإنسان بعلمه أن يتدخل ليخلق كرة أرضية جديدة .. أو شمسا جديدة .. أو نجوما جديدة .. أو سماوات جديدة .. إلى آخر هذا .. هذا خلق الله .. والعلم إذا استطاع أن يكتشف الآيات فيه .. يكون قد تقدم تقدما هائلا .. ولكنه لن يستطيع أن

سبحان الله

يخلق شيئاً فيه .. أو يبده .. أو يغيره .. وإذا كنا نتحدث الآن .. ونحن في عصر العلم .. فتلك حقيقة هامة .. لا يستطيع أحد الجدل فيها .. نأتى بعد ذلك إلى مقومات الحياة على الأرض .. الهواء .. والماء .. والطعام .. لوازم ثلاثة لحياة الإنسان على الأرض .. الإنسان بطبعه لا يستطيع العيش بدون الهواء أكثر من دقيقة أو دقائق .. ولذلك أخرج الله الهواء من قدرة البشر على التحكم في البشر .. فالله شاء أن يكون الهواء مباحاً للناس جميعاً .. لا يستطيع واحد أن يمنع عن مجموعة من الناس فتهلك .. بل إنه أخضع الهواء لعدله .. فكان متساوياً بين الناس جميعاً .. فقيرهم وغنيهم .. وعظيمهم وحقيرهم وذلك الذي لا يملك من أسباب الدنيا شيئاً ..

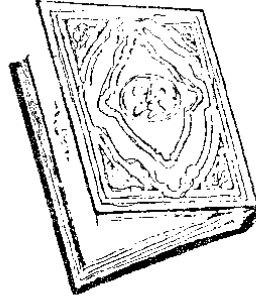
.. فهم جميعاً يتنفسون بنفس السهولة .. ونفس الطريقة دون أى عناء .. يصلهم الهواء إلى حيث هم .. وأينما كانوا .. فى حجرات مغلقة .. أو فى الطريق .. أو فى السيارة .. أو فى أى مكان فى العالم .. فإن الهواء يصلهم سهلاً .. مسرراً .. متاحاً للجميع .. وهذا عدل الله سبحانه وتعالى .. ولا دخل لبشر فيه .

نأتى بعد ذلك إلى الماء .. وهو ما يستطيع الإنسان أن يعيش بدونه يوماً .. أو عدة أيام .. نجد أن القدرة على اختزان الماء قليلة .. والقدرة على منع الماء عن البشر قليلة .. ومحدودة .. وإن كانت لها إمكانيات .. وهنا يتدخل ظلم الإنسان .. ولكن بقدر محدود جداً .. نظراً لأهمية الماء للحياة .. البشرية .. ثم نأتى بعد ذلك للطعام .. فنجد أن قدرة الإنسان على اختزانه ومنعه .. أكبر .. ولكن احتمال الإنسان لعدم تناول الطعام أكثر .. ومن ثم فإن الإنسان يستطيع أن يتحمل عدة أيام بدون طعام .. ولكنه فى نفس الوقت يستطيع الإنسان أن يحصل على ما يقيم أوده .. أو يبقى الحياة فى جسده بسهولة .. نظراً لأن الكمية التى يحتاج لها الجسم البشرى من الطعام قليلة نسبياً .. فهى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيبات يقمن أوده أو كمية محدودة من الطعام .. وكلما زاد اقبال الإنسان على الطعام فسد جسده واعتلت صحته ..

هذه هى مقومات الحياة الثلاثة .. شىء لا يستغنى عنه الإنسان ولا يستطيع الحياة بدونه أبداً .. وهو الهواء .. نافذ فيه عدل الله .. ليحصل كل إنسان

سبحان الله

على حاجته بلا عناء .. وشيء يستطيع الإنسان أن يستغنى عنه يوما وهو الماء ..
متوافر للناس .. وشيء ثالث وهو الطعام تحكم البشر فيه أكثر .. ولكن احتمال
الإنسان للعيش بدونه أكبر .. وهنا ترى عدالة السماء في توزيع مقومات
الحياة ..
ادعو الله أن يوفقنا إلى سواء السبيل .. ويهديننا إلى صراطه المستقيم ..



۲

معجزات الهی

محمد متولی الشعراوی

أخبار اليوم

ادارة الكتب والمكتبات

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم بدأ بالفاتحة وهي أم الكتاب .. والفاتحة بدأت « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين » .. وأسباب الحمد كثيرة لأننا نحمد الشيء لذاته .. لأن فيه خصالا تستحق الحمد .. ونحمد الشيء لصفاته .. فعندما نرى شيئا جميلا كلؤلؤة بديعة .. نمدح صفاءها .. أو زهرة جميلة .. نمدح جمالها .. والحمد يكون أيضا على النعم أو على وجه الدقة على ما نالك من النعم .. فإذا أحسن إليك إنسان فأنت تحمده على إحسانه .. وإذا أعطاك شيئا فأنت تحمده على عطائه .. الحمد أيضا يأتي لما أطمع في الحصول عليه .. فأنت تمدح إنسانا لأنك تعرف أنك ستنال منه خيرا .. ومن هنا فإنك تقدم المدح لتحصل على الخير ..

والحمد يأتي من الخوف من العقاب ومن وجودى تحت سيطرته .. فإذا ارتكبت خطأ ، وكان هناك من يستطيع أن يعاقبني على الفور ويبطش بي .. ولكنه قدم الرحمة على البطش والعقاب .. فأنا أحمده لأنه قدم رحمته على عدله وعقابه ..

هذه هي بعض العناصر التي يمكن أن تكون أساسا للحمد .. فإذا أتينا إلى الله سبحانه وتعالى .. وجدنا كل هذه العناصر وأكثر منها تستوجب الحمد لله .. فنعم الله سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى .. ويعطى .. ويفتح الأبواب المغلقة .. ويسر السبل في الدنيا .. ويعطى الصحة والمال .. ويوفق في العمل .. ويصيب بخيره من يشاء .. وهو في كل هذا معط لا يأخذ شيئا .. أى أنه سبحانه وتعالى غير محتاج لنا في شيء .. نحن جميعا لا نزيد ملك الله شيئا ولا ننقصه شيئا .. والله خزائنه لا تفرغ أبدا .. ولا يستطيع أحد أن يعد نعم الله أو يحصيها .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .. ومع تقدم احصاءات الدنيا كلها فإن أحدا لا يستطيع ولا يحاول أن يحصى نعم الله سبحانه وتعالى .. وهي نعم .. ظاهرة ونعم باطنة ..

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى الذى لا تعد نعمه ولا تحصى .. والذى لو أردنا أن نحمده ما وفيناه حقه .. ولو بقينا طول عمرنا نلهج بالشكر والثناء .. الله سبحانه وتعالى رحمة منه بالعالمين قد جعل الشكر له في كلمتين اثنتين

« الحمد لله » .. والعجيب في هذا .. أنك تأتى لتشكر بشرا على نعمة واحدة أسداها إليك وتظل ساعات وساعات تلهج بالشكر والثناء .. وربما لا يرضيه كل هذا .. ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته وعظمته إنما يكتفى بكلمتين اثنتين « الحمد لله » .. وذلك ليعلمنا مدى القدرة .. ومدى الشكر .. والله الذى لا تعد نعمه ولا تحصى فى الدنيا والآخرة .. هو الذى يعدنا حسن الجزاء فى الآخرة والحياة الطيبة فى الدنيا والذى يقدم لنا فوق ما يقدم البشر فى العالم .. وفوق قدرة هذا البشر جميعا إنما يكتفى منا بكلمتين اثنتين لشكره هما « الحمد لله » .

الله الذى يعطى بلا حساب وينعم على كل المخلوقات .. يكتفى بكلمتى الشكر هاتين .. ولذلك جاءت الحمد لله فاتحة الكتاب .. وجاءت أيضا خاتمة فى قوله تعالى « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .. فكان الحمد واقع فى الدنيا والآخرة .. واقع والمخلوق فى حياتهم .. وواقع بعد أن ترجع الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى .

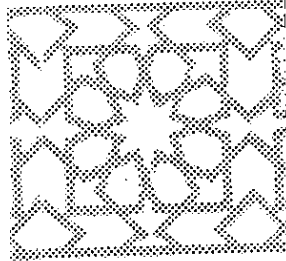
ولقد كان يصعب على العقل البشرى أن يجد الصيغة المناسبة ليحمد هذا الكمال الالهى .. ومهما أوتى البشر من بلاغة وقدرة فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى ما يفى الله حقه .. ولذلك علمنا الله سبحانه وتعالى فى أول الكتاب كيف نحمده .. وسوى بين عبده جميعا فى صيغة الحمد .. لأن المطلوب من كل عبد من عباد الله أن يحمده على نعمه .. وليس كل عباد الله بقادر على أن يضع صيغة مناسبة لحمد الله سبحانه وتعالى .

فحين يعلمنا الله أن نحمده بقولنا « الحمد لله » .. فهو يعطى الفرصة المتساوية المتكافئة لعبده بحيث يستوى فى ذلك المتعلم والامى .. إذن فتعليم الله لعبده صيغة الحمد نعمة أخرى يستحق الله سبحانه وتعالى الحمد عليها .. ولذلك فإن الإنسان إذا أراد أن يحمد الله على نعمه .. فإنه يجب أن يحمده أيضا على تعليمه نعمة الحمد . فيظل العبد دائما حامدا .. ويظل الله سبحانه وتعالى دائما محمودا .

على أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يضع على شفاهنا كلمة الحمد خلق لنا النعم التى تتعلق بالحمد .. وإذا نظرنا إلى ترتيب الأشياء لوجدنا أن نعمة الله على الإنسان تسبق وجود الإنسان .. فقد خلق الله سبحانه وتعالى السموات

والأرض وقدر فيها أقواتها ورزقها .. وعندما وجد الإنسان بكلمة « كن » .. كانت النعم موجودة .. بل أن آدم عليه السلام أبا الإنسانية عندما خلقه الله سبحانه وتعالى عاش في جنة لا يتعب فيها ولا يشقى .. كل شيء متوافر فيها حياته .. وآدم إنسان بلا ماض .. أى أنه جاء إلى الحياة دون أن يكون له ماض يسبقه .. ولكن نعم الله سبحانه وتعالى كانت تسبقه وتنتظره لتعطيه الحياة الطيبة التي لم يصنعها لنفسه .. ولكن صنعها الله سبحانه وتعالى له .

هذه مقدمة عن معنى « الحمد لله » .. وهي مقدمة يجب أن نقولها شكرا لله على كل نعمة أنعمها الله علينا .. وهي مقدمة يجب أن تسبق ما سنتحدث عنه في فصول هذا الكتاب عن (الله والكون) .. و(الشك والوجود) و(ظواهر الأشياء وحقيقتها) و(معجزة الاسراء والمعراج) .. ولنبدأ حديثنا عن الله والكون ..



الفصل الأول

الله.. والكون

الله .. والكون

حينما أتحدث عن الله سبحانه وتعالى .. وعن قضية الوجود ، نجد أن هناك كثيرين يحاولون التصدي لهذه القضية بالتشكيك أو بالانكار ويجهدون أنفسهم في محاولة للوصول إلى أدلة مضللة تثبت نظرياتهم التي تفتقر إلى الدليل الصحيح .

وأحب قبل أن نبدأ هذا الحديث أن أقول أن أمنية كل مسرف على نفسه .. أمنية كل من كانت مصيبته في دينه ، أمنية كل إنسان يعصى الله ، أن يحاول جاهدا الوصول إلى ما يشكك في الوجود الالهي .. وهذا نابغ من أن في داخل كل إنسان عاص شيئا يؤرقه وهو يحس أن هناك حسابا وأن هناك آخرة . وأنه سيلقى الله .. وهذا يجعله ينطلق في محاولاته للتشكيك في الدين .. عل نفسه تنخدع ولو كذبا بأنه لا حساب ولا عقاب .

ولقد أجهد الفلاسفة أنفسهم خلال سنوات طويلة في محاولاتهم للتشكيك في الأديان السماوية .. واستخدموا في ذلك عقولهم وخداع المنطق في هذه المحاولات .. بينما ذهب عدد آخر من الفلاسفة إلى أن الدين عبودية ، وأن التحرر من الدين هو الحرية .. وكلا الافتراضين خاطيء فيما يدعيه . والإيمان بالله قضية مثارة أجهد الناس أنفسهم فيها .. كل واحد يحاول أن يصل إلى وجهة نظره في هذا الموضوع .. ومعنى هذا الجدل كله الذي يمضي ولن ينتهى .. ومعنى البحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادى .. أو أدلة تنفى وجود هذه القوة .. معناه أننا نعرف الله بالفطرة .. وأنه يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد أن الله موجود .. وإلا لما أنهكت النفس البشرية قواها في هذا الجدل ولكان العقل البشرى يعيش سعيدا مطمئنا بالعلم المادى الذى خلقه الله له .

ولكننا إذا نظرنا إلى أولئك الذين يعبدون المادة ، نجد في داخلهم قلقا رهيبا يؤرقهم .. ويخيفهم رغم نجاحهم المادى .. ونجد أعلى نسبة للجنون والانتحار هى في أكثر دول العالم تقدما من الناحية المادية .. ذلك أن الإنسان قد يحقق من النجاح المادى ما يحسده عليه كثيرون من الذين ينظرون إلى الحياة الدنيوية وحدها .. ولكنه رغم هذا النجاح يعيش في قلق رهيب لأنه لم يحقق الانسجام بين نفسه وبين الكون .. فالانسجام بين النفس والكون لا يكون إلا بالإيمان بالله واتباع منهجه .

الله .. والكون

ولنقرأ الآية الكريمة التي يفزع إليها كل مؤمن وهي آية الكرسي يقول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » .. ومعنى الحي أنه دائم الحياة لا يدركه الموت .. لأنه هو الذى خلق الحياة والموت .. ومعنى القيوم أى القائم على ملكه . وهذه تحتاج إلى تفسير .. فبعض الناس يعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون ووضع له قوانينه .. ثم تركه يسير حسب القوانين التى وضعها الله سبحانه وتعالى .. وهى قوانين دقيقة لا تختل بالزمن ولا تتأثر بأى شىء .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه خلق الكون ووضع له قوانينه ولكنه قائم عليه .. أى أن الله سبحانه وتعالى قائم على ملكه لا يتركه لحظة واحدة .

ما معنى هذا الكلام .. معناه أن الله جل جلاله فى وجوده .. يعلمنا ألا نياس أبدا .. لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى وضع قوانين الكون وطلب منا أن نأخذ بالأسباب وأن نتبع هذه القوانين .. ولكن حينما نعجز أمام هذه القوانين ونأخذ بالأسباب فلا نصل إلى شىء ، فهناك دائما « القيوم » القائم على ملكه الذى يمكن أن يفتح الأبواب ويحقق ما نحسبه مستحيلا أو غير ممكن .. فحينما لا تستجيب الأسباب فإن المؤمن يفزع إلى ربه .. ويصيح قائلا « يارب » إيماننا منه بأن الله سبحانه وتعالى قائم على كونه .. ينصر الحق على الباطل .. والمظلوم على الظالم .. ومن هنا حين يفزع إلى الله سبحانه وتعالى .. إنما يعلم أن الله قادر متى عجزت الأسباب .. وأنه إذا كان قد أخذ بالأسباب ولم تستجب إليه فالله سبحانه وتعالى هو قائم على كونه فى كل لحظة وثانية .. يمكنه أن يبدل العسر يسرا .. والياس أملا وفرجا .

فهاجر رضى الله عنها تركت وليدها عند بئر زمزم وانطلقت تسعى من أجل الماء .. ولكن الأسباب لم تستجب لها .. وبعد سبعة أشواط تعبت وتسرب اليأس إلى قلبها .. فضرب وليدها الأرض بقدمه .. وهو الضعيف الذى لا يملك من أسباب الدنيا شيئا فانفجر الماء .

ومحمد عليه السلام أخذ بالأسباب فى الدعوة .. وعندما خرج من مكة إلى الطائف ولقى ما لقيه من الصبية والسفهاء .. جاءت الأسباب من الله لتحدث الاسراء والمعراج تثبيتا لرسول الله .. ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو أهل مكة والوفود التى تصل إليها فى الحج إلى الإسلام فيعرضون .. ثم جاء وفد من المدينة ليبايع رسول الله ، وكانت بداية الهجرة وانتصار الإسلام .

الله .. والكون

ولو نظر كل منا إلى حياته لوجد أنه قد مر فيها بأوقات توقفت فيها كل الأسباب ، وأحس باليأس القاتل .. وجلس يقلب المشكلة فلا يجد حلا .. ثم فجأة يأتي الحل من حيث لا يعلم ولا يدري . إذن فالله سبحانه وتعالى قائم على ملكه ، تفرغ إليه النفس المؤمنة في حالة اليأس فتحس بالاطمئنان والطمأنينة .. لأن الله سبحانه وتعالى يسمع ويرى وهو قائم على ملكه لا يتركه أبدا . ثم تمضى الآية الكريمة « لا تأخذه سنة ولا نوم » ولا تأخذه أى أنه لا ينام أبدا ولا يغفل .. وهنا يريد الله أن يزيد اطمئنان النفس التي يصيبها الفزع من هموم الدنيا ، يريد أن يعيد إليها الطمأنينة والأمان .. يقول سبحانه « لا تأخذه سنة » أى لا يغفل عن شيء أبدا ولا لحظة ، ومن هنا فإن هذه النفس المؤمنة تكون مطمئنة لأن الله سبحانه وتعالى ليس غافلا عما يعمل الظالمون .. « لا تأخذه سنة » وتكون هذه النفس في حياة طيبة تنام ليلها ملء جفونها .. لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا ينام .. ومن هنا فإنه يقول لصاحب النفس المؤمنة .. نم أنت ولا تخش شيئا فإننى لا أنام .. أنا أحرسك وأنت نائم وأنت مستيقظ .. فلا تدع القلق يدخل نفسك وتحسب انك إن نمت ليلك نال منك أعداؤك .. تذكر دائما وأنت تذهب إلى فراشك لتنام والقلق يملأ قلبك فاننى أنا الله لا أنام وأعرف وأشهد كل شيء فكن مطمئنا لى ، وكن مطمئنا لحمايتى .. وإذا كان الإنسان ينام مطمئنا إذا وضع على باب منزله حارسا أو خفيرا أو رجلا ساهرا لا ينام الليل ، فكيف بمن يحرسه الله وكيف يكون الأمن الذى يحس به وهو يعلم أن القوة التي خلقت هذا الكون كله وأوجدته هي التي تحرسه .. ومن هنا فإن المؤمن يحس دائما بالاطمئنان إلى الله وبالأمان في رعاية الله له في أحلك الأوقات وفي أشد اللحظات .

وتمضى الآية الكريمة لتزيد من انسجام النفس البشرية مع الكون الذى خلقه الله فيقول الحق « له ما فى السموات وما فى الأرض » هنا زيادة فى ادخال الاطمئنان على النفس البشرية ، فالله سبحانه وتعالى يقول لعبده مم تخاف من رزق لن تحصل عليه غدا ، أو من عمل لن تنجزه غدا ، أو من مال محتاج إليه لن يأتيك غدا .. تذكر أن كل ما فى السموات وما فى الأرض هو ملكى أعطى من أشياء وأمنع عن أشياء .. ففيم القلق وأنا الذى أملك وأعطى .. وفيم التفكير وأنا قادر على أن أعطيك ما تريد ، لأن كل الذى تراه أمامك وكثيرا مما لا تراه هو ملكى أعطى منه ما أشاء لمن أشاء .. إياك أن تفرغ من الغد وأن

الله .. والكون

تخاف وأن تحس أنك وحدك في هذه الدنيا .. بل انني معك وأنا حي
لا أموت .. دائم الوجود ولا أنام أبدا ولا أغفل .. كل شيء في السموات
والأرض هو ملكي .. ومادمت أنت عبدى وآمنت بي .. فاطمئن الى
قضائى .. فإن كنت أرزق من يكفر بي وأطلب منك أن تستر من عصائى ..
فكيف بمن أطاعنى وآمن بي !

وتمضى الآية الكريمة فتقول « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » .. وهنا يريد
الله سبحانه وتعالى أن يؤكد لنا انه لا يعطى الشفاعة إلا لمن أذن له .. أى أنه
سبحانه وتعالى يريد أن يقول لا تخف من أى إنسان فى الدنيا مهما كان ظالما ..
ولا تخش أحدا مهما كان جبارا .. فهؤلاء جميعا ليس لهم شفاعاة عندى حتى
أمكنهم منك .. ولكن الذى له الشفاعة عندى هو من أذن له .. ومن يأذن الله
له يجب أن يكون قريبا من الله .. وكل ظالم وجبار فى الأرض هو بعيد عن الله
سبحانه وتعالى .

ثم تمضى الآية الكريمة بعد ذلك فتقول « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم
ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » .. أى أن الله سبحانه وتعالى يريد
زيادة فى ادخال الإيمان والاطمئنان إلى قلب من يعبده فيقول له ولا تحسب انني
لا أعرف ما يحدث وما يدبر لك فاني أعلم ما بين أيديهم ، أى ما يظهره ،
وما خلفهم ، أى ما يسترونه أو يخفونه .. لأننى مطلع على الأعمال وعلى النوايا
وعلى ما تخفى الصدور .. ولذلك لا تخش أن يفوتنى شيء .. أو يخفى على أى
من خلقتى حتى ما يدور فى صدورهم .. ولا يبوحون به لأحد .. وقول الله
سبحانه وتعالى « يعلم السر وأخفى » معناه أن الله سبحانه وتعالى يعلم السر ..
ما هو السر .. شيء مشترك بين اثنين .. أى شيء اعتزمت أن أقوم به وأسرت
به لأحد من أصدقائى أو أقاربي .. ذلك أن السر ، أى ما يسر به لغيره .. أى
ما يقوله له فيما بينهما سرا .. وما أخفى أى ما يخفيه فى صدره ولا يبوح به
لأحد .. أى يبقى هذا الأمر فى صدره .. ولا يخرج إلى لسانه أبدا .. وبقاؤه فى
صدره دون أن يسر به لأحد لا يجعله خافيا على الله سبحانه وتعالى .. ولكن الله
مطلع عليه إذا كان هذا هو الحال .. فم تخاف .. وإذا كان الله يعلم كل شيء
فما الذى يفزعك .. وإذا كان الله لا ينام فلماذا تخشى أنت النوم أو يذهب النوم
عن عينيك ؟

الله .. والكون

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » ..
أى أن علم الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يحيط به أحد إلا ما يعطيه الله لمن
شاء .. وهناك علم يعطيه الله لمن شاء من عباده .. وهناك علم يعطيه الله
للبشرية كلها .. وهناك علم يختص الله به نفسه ولا يعطيه لأحد من عباده .
والعلم الذى يعطيه الله لمن يشاء من عباده هو ما يعطيه الله لرسله وأوليائه
الصالحين وهذا كشف بين الله وبين من شاء من عباده لا يمكن التحدث فيه لأنه
عطاء محدود بالعبد ذاته . ومختص به وليس موضوعا عاما للمناقشة .. أما العلم
الذى يعطيه الله للبشرية كلها فهو العلم المادى الذى يكشف الله عنه للبشر جيلا
بعد جيل .. وهذا العلم لكل جزء فيه ميلاد حدده الله سبحانه وتعالى فإذا
صادف مولد من العلم إنسانا أو أناسا يبحثون ويجتهدون للوصول إليه أعطاه الله
سبحانه وتعالى لهم .. وإذا لم يصادف هذا العلم أناسا يبحثون عنه أعطاه الله
للبشرية بما نسميه (الصدفة) .. كأن يكون هناك باحث يبحث عن شيء
فيكتشف شيئا آخر مخالفا له تماما .. هذا الكشف الذى لم يأت مطابقا للبحث
الذى يتم وإنما جاء بطريقة الصدفة يكون كشفا من الله لأن موعد ميلاد العلم
للبشرية قد أتى .. ولذلك فإننا نسمع كثيرا عن عالم يجرى بحثا للوصول إلى
نتائج معينة .. وفجأة وهو فى أبحاثه يفاجأ باكتشاف لم يكن يتوقعه ولا يعرف أنه
سيصل إليه .. كيف تم ذلك ؟ نحن نقول بطريق الصدفة .. ولكنه فى الحقيقة
هو موعد ميلاد العلم للبشرية .. ولذلك خرج إلى الوجود من علم الله إلى علم
البشر بكلمة « كن » .. لأن موعد ميلاده المحدد منذ الأزل قد حان .
هذا هو العلم البشرى .. أما علم الله سبحانه وتعالى الذى يختص به نفسه
فهذا لا يصل إليه بشر .. وهنا ونحن نأخذ المعنى الاجمالي للآية نجد أن الله
سبحانه وتعالى يقول ، ومهما كان علم أولئك الذين يتربصون بك .. ومهما
أعدوا .. فإن الله هو الذى يعلم .. ويعلم فوق علمهم .. ويعلم ما يفسد
هذا العلم ويجعله عاجزا .. كل هذا ليحس القلب المؤمن بالاطمئنان إلى قضاء
الله .. ويأمنه فى أمان وأمن مادام الله سبحانه وتعالى يرعاه ويحرسه .
على اننى قبل أن أمضى فى هذا الحديث أريد أن أشرح نقطة هامة تكمل
المعنى .. هى أن الله سبحانه وتعالى له عطاء ربوبية .. وعطاء ألوهية .. الله
سبحانه وتعالى كرب العالمين يعطى الجميع عطاء ربوبية .. ومن هنا قوله تعالى
« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست

الله .. والكون

بربكم قالوا بلى .. لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى ألسنت إلهكم .. ويشهدهم بالألوهية .. لأن العطاء هنا عطاء ربوبية .. الله رب العالمين .. ما هو عطاء الربوبية ؟

عطاء الربوبية هو عطاء متساو لخلق الله جميعا .. كل من خلقه الله أعطاه عطاء الربوبية .. فمثلا الله سبحانه وتعالى خلق الكون وسخره للإنسان .. والكون فيه قوى كثيرة أكبر وأضخم وأقوى من الإنسان ولكنها خاضعة له بحكم أن الله سبحانه وتعالى قد سخرها له .. فالشمس والأرض والرياح ، وكل القوى الهائلة في هذا الكون هي أكبر كثيرا من الإنسان .. الشمس تستطيع أن تحرق الأرض بمن فيها .. والأرض إذا اختل دورانها فنى البشر .. والرياح تستطيع أن تدمر .. والماء يستطيع أن يغرق والأمطار إذا توقفت تجف الأنهار وتنعدم الحياة .. كل هذه القوى وغيرها مما خلق الله من توازن في الكون هي قوى أقدر من الإنسان وأكبر منه .. ولكنها مسخرة لخدمة البشر .. فالشمس لا تستطيع أن تقول سأشرق اليوم وسأغيب غدا .. والماء لا يستطيع أن يغرق الأرض أو يجعلها كلها يابسة ويحتفى منها ويرحل .. والأرض لا تستطيع أن تتوقف عن الدوران بإرادتها .. لكنها كلها كقوى هائلة ، مسخرة لخدمة الإنسان بإرادة الله .. فهي لا إرادة لها .. ولا تستطيع أن تعصى الله أمرا ..

والله في عطائه لهذه القدرات عطاء ربوبية أى أنه لا يفرق بين مؤمن وكافر .. بل يعطى خلقه جميعا .. الشمس تشرق للمؤمن والكافر .. والأرض يزرعها من آمن ومن لم يؤمن .. والمطر ينزل على أمة مؤمنة وعلى أناس لا يعبدون الله .. قوانين الأرض هي عطاء ربوبية .. فالذى يفلح أرضه جيدا ويعتنى بها يحصل على ثمر وفير سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن .. والذى يهمل أرضه ولا يزرعها لا يحصل على شئ مهما كان إيمانه .. والذى يستفيد بعلم الله الذى كشفه الله للبشرية فى أن ينشئ صناعة حديثة .. أو أن يجرز التقدم فى الدنيا يجني ثمرة ما فعل .. وهكذا فالله فى عطاء ربوبيته لا يفرق بين إنسان وإنسان .. والقوانين التى وضعها الله فى الأرض والأسباب التى خلقها تتفاعل مع من يأخذ بها سواء كان مؤمنا أو كافرا .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى حين أشهد خلقه عليه « ألسنت بربكم » .

هناك بعد ذلك عطاء ألوهية .. وعطاء الألوهية هو العطاء لمن يؤمن بأن لا إله إلا الله .. الإيمان هنا هو عهد بين الإنسان وربه .. ولذلك نجد أن

الله .. والكون

القرآن الكريم يبدأ آياته في سورة البقرة بقول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَآخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾ ﴾

ونجد الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز يخاطب دائما المؤمنين بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » .. إذن الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو الأساس في عطاء الألوهية .. وهذا العطاء هو الذي يوجد في القرآن الكريم .. هو إيمان بالغيب .. إيمان بالبعث والحساب .. ثم طريق للحياة الآمنة المطمئنة الطيبة .. رسمها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز للذين آمنوا .. إذن عطاء الألوهية هو الحياة الطيبة في الدنيا وفي الآخرة لمن آمن بالله ولم يشرك به شيئا واتبع الطريق الذي رسمه الله للحياة في كتابه الكريم وبينه لنا .. وفي هذا الطريق اصلاح لكل مفاسد الحياة .. وخلق لمجتمع كامل تسوده الرفاهية .. ويسوده الأمن .. وتملؤه البركة .

ونحن في كثير من الأحيان نأخذ تشريعاتنا عن بشر .. ثم بعد ذلك نتعجب للشقاء الموجود في المجتمع والذي تخلقه هذه التشريعات .. ولو أخذنا ما وضعه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز .. لأخذنا أكمل ما يمكن للبشرية أن تنشئ به مجتمعا فاضلا .. ذلك لأنه شتان بين قدرة البشر وقدرة الله سبحانه وتعالى .. والله خالق النفس البشرية وخالق هذا الكون ، هو أعلم بما يسعده وبأصلح ما في الحياة له ..

ولذلك فإن القلب المؤمن الذي يتبع طريق الله يحس في داخله بعطاء الألوهية فيملؤه الاطمئنان .. وعندما نزلت الآية الكريمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله يعصمك من الناس » .. أمر رسول الله أصحابه الذين كانوا يحيطون به ليدافعوا عنه إذا حاول الكفار أو المنافقون ايداءه أمرهم أن يتركوه .. لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى وهو القوة الكبرى التي خلقت كل شيء .. يحرسه

الله .. والكون

فلا يحتاج لبشر .. ولا يستطيع بشر أن يقترب منه أو يؤذيه .. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينام تحت ظل شجرة ويلا حراسة .. لماذا ؟ لأن قلبه كان مليئا بالآية الكريمة « لا تأخذه سنة ولا نوم » .. ومن هنا كان ينام مطمئنا وحده تحت ظل الشجرة ، مؤمنا بأن الله سبحانه وتعالى الذى لا ينام هو أقوى وأقدر من يحرسه .. وهو أقوى وأقدر من كل حراسات الدنيا ولذلك نام تحت الشجرة فى حراسة الله سبحانه وتعالى .. ولم يستطع أحد أن يقترب منه . إذن ف قضية الإيمان .. أن تؤمن بالله أو لا تؤمن .. والإيمان بالله معناه أنك

قد آمنت وصدقت بأن هناك قوة كبرى .. تنتزه عن كل هوى وغرض .. هى التى خلقت هذا الكون وسخرته لك .. وأن هذه القوة أو القدرة ليس كمثلها شيء .. فى العلم .. والخلق .. والرحمة .. والانتقام .. إلى آخر صفات الله سبحانه وتعالى .. ومن هنا فإذا دخل الإيمان القلب فلا يجب أن نقيس علمنا بعلم الله سبحانه وتعالى .. ولا قدرتنا بقدرة الله سبحانه وتعالى .. فإذا قال الله افعل .. فأنا لست مؤهلا لأن أقول لماذا .. لأن النقاش لا يكون إلا بين عقليين متساويين .. وشتان بين قدرة الله و قدرة البشر .. وإذا قال لا تفعل فأنا لست مؤهلا لأن أقول لماذا .. لأن علم الله لا يمكن أن يقاس بعلمى .. ومع ذلك نجد بعض الناس يجادل بلا خجل ويدعى أنه مؤهل لمناقشة الله فى علمه ول مناقشة الله فى طريق الحياة الذى رسمه للبشر .

الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو تسليم لقدرات الله التى ليست فوقها قدرة .. ولعلم الله الذى ليس فوقه علم .. والله سبحانه وتعالى الذى ليس كمثله شيء .. وهذا هو مدخل الإيمان إلى النفس البشرية .. وهو مدخل لا يأتى إلا بعد تفكر وتدبر فى الكون وآياته .

على أن بعض الناس يسمى ذلك عبودية ، ويقول ان الدين عبودية .. ونحن نقول نعم الدين عبودية لله سبحانه وتعالى .. وفرق كبير بين العبودية لله والعبودية للبشر .. البشر عندما يستعبدك يريد أن يأخذ منك أو من قدراتك ليضمها إلى قدراته ويجردك من الخير الذى تستطيع أن تحققه ليضمه إلى الخير الذى يملكه فإذا استعبد إنسان مجموعة من البشر ، فإنه يجعلهم يعملون من أجله فيزرعون الأرض ويأخذ هو المحصول ويقيمون العمارات ويملكها هو .. أى أن عبودية البشر هى تجريد للعبد من كل خير يستطيع أن يحققه لصالحه .. وهذه العبودية يرفضها الإسلام .

الله .. والكون

أما عبودية الله سبحانه وتعالى فهي عبودية لتزيد من قدراتك وتمنحك الخير والبركة ، وتزيد من عطاء الله لك فهي عبودية لصالحك .. فالله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين .. غنى عن جهدك .. وعن مالك .. وعما تملك جوازا في الدنيا .. بل إن الله سبحانه وتعالى هو صاحب كل شيء .. فالمال مال الله .. ينتقل من يد إلى يد إلى يد .. ولا يأخذ منه كل إنسان إلا رزقه .. بل إن الله سبحانه وتعالى قد قال « وللرجال نصيب مما اكتسبوا » ليوضح الحكمة البالغة بأن الرزق الذى تحصل عليه أو الكسب الذى تصيبه ليس لك وحدك .. فلزوجتك نصيب .. ولأولادك نصيب .. ولعدد من خلق الله نصيب .. بل إننا نتعجب أحيانا من إنسان بخيل لا يمتنع نفسه بما رزقه الله .. وتتساءل في عجب لماذا يفعل ذلك .. وربما نلومه على ما يفعل .. والجواب على ذلك أن هذا المال الذى اكتسبه والذى يحرص عليه ليس رزقه ولكنه رزق خلق آخرين .. وهو مجرد حارس عليه حتى يوصله إليهم .. ومن هنا فإنه لا يستطيع أن ينفق منه ولا أن يتمتع به .. وليبقى هكذا الرزق دون أن يمس حتى يصل إلى صاحبه .

فالعبودية لله سبحانه وتعالى هي عبودية عطاء .. عطاء من الله لعباده .. والله له ملك السموات والأرض .. وهو لا يريد أن نعبده ليأخذ جهدا ، أو ليحصل على ناتج عملنا أو ليكون له رزقنا .. بل هو الذى يرزقنا ويعطينا .. ويمنحنا ويبارك لنا في جهدا .. وهو الذى ييسر لنا كل أمر عسير .. ويفتح أمامنا الأبواب المغلقة .. فالعبودية لله سبحانه وتعالى هي لصالح العبد .. هي زيادة للعبد في كل شيء .. وبركة له في ماله وصحته وأولاده وحفظ له من كل شر وسوء .

عبوديتنا لله تجعل الله عوننا لنا في كل أمورنا .. ومن منا لا يريد أن يكون خالق السموات والأرض عوننا له على ما يريد .. ومن هنا فإن عبوديتنا لله نحن نرجوها ونطلبها .. ليعيننا الله ويكون معنا .. بينما عبودية الإنسان للإنسان هي أخذ من جهد الإنسان وعرقه وعمله لإنسان آخر .. وشتان بين الاثنين . والله سبحانه وتعالى قد وعد عباده المؤمنين بالحياة الطيبة .. فهو عندما يقول افعل يريد لى بهذا الفعل السعادة في الدنيا والآخرة .. لأن فعلى لن يزيد فى ملك الله شيئا .. وعدم فعله لا ينقص من ملكه شيئا .. ومن منطلق الإيمان عندما أتبع طريق الله فأنى أختار الحياة الطيبة ليس حسب قدراتى أنا .. ولكن

الله .. والكون

حسب قدرات الله سبحانه وتعالى الذى ليس كمثله شيء .. ومن منطلق عدم الإيمان فأننى أناقش وأفلسف وأقرر حسب قدراتى .. والفرق بين الإيمان وعدم الإيمان هو اختيار بين حياة رسمها الله سبحانه وتعالى بقدراته التى لا تحدّها حدود ولا قيود .. وبعلمه الذى لا يصل إليه إنسان .. وبين حياة أرسمها أنا بعقلى المحدود .. والهوى الذى يملأ نفسى ..

والله سبحانه وتعالى فى كل رسالاته السماوية طلب منا أن نتدبر فى الكون .. وأن نبحث عن آيات الله .. لماذا يأمرنا الله بهذا .. لو أن فى هذا الكون دليلاً واحداً على عدم قدرة الله ووحدانيته .. ما أمرنا الله أن نتدبر فى الكون .. وأن نتدبر فى أنفسنا .. لماذا ؟ لأن الذى يعرض عليك شيئاً فيه أدنى شك .. لا يقول لك افحصه جيداً .. وإنما يحاول بشتى الطرق أن يجذب انتباهك عن هذا الشيء الذى تنظر إليه حتى لا تتبين فيه أى نقص أو عيوب .. أما الذى يقول لك تدبر وفكر وانظر .. فهو موقن من اتقان العمل .. ولذلك يريدك أن ترى الابداع والاتقان الموجود .. وأن تشهده لتعرف قيمة وروعة الخلق . ولأضرب مثلاً بسيطاً يقرب ذلك إلى الأذهان .. إذا دخلت لتشتري أى شيء فى هذه الدنيا .. وجاء إليك صاحب الشيء أو صانعه .. فهو إما أن يكون أحد أمرين : أن يكون الشيء متقناً اتقاناً بديعاً وحينئذ يقول لك صانعه افحصه جيداً .. فإذا فحصته مرة .. طلب منك أن تفحصه مرات ومرات .. لماذا ؟ لتتبين دقة الصنع وتعرف كمال الشيء .. فإذا انتهيت من فحصه قال لك افحصه مرة أخرى .. وهكذا يظل يطلب منك أن تفحص الشيء مرات ومرات .. وإما أن يكون الشيء فيه عيوب .. والصانع يحاول أن يغشك ويخدعك .. وحينئذ يفعل كل ما يستطيع من الحيل ليأخذ انتباهك عما فى يدك .. حتى لا تتبين عيوبه أو النقص الذى فيه ..

والله سبحانه وتعالى يطلب منا فى قرآنه الكريم أن نتدبر الخلق ونتدبر الكون .. ويقول ان فى هذا الكون آيات بينات .. وأن فى خلقكم وخلق السموات والأرض آيات بينات وفى أنفسكم ويقول سبحانه وتعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

إذا لم يكن قائل هذا الكلام هو خالق الكون وخالق البشر وعالم بأسرار كل شيء .. أفلا يخشى أن تكون هناك عيوب ونواقص وأشياء لا يعرفها قد يأتى التدبر فيها بنتيجة عكسية .. ولكن الله سبحانه وتعالى هو الخالق .. وهو

الله .. والكون

القائل .. وهو العالم .. وهو يعرف دقة ما خلق .. ولذلك يقول تدبروا في الكون .. انظروا فيه .. ستجدون آيات واعجاز خلقى وقدرتى .. انظروا في أنفسكم .. ويؤكد سبحانه وتعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .. أى آيات تلك التى يتحدث عنها الله سبحانه وتعالى .. ويتحدى بها .. إلا إذا كان قد خلقها بقدرة واعجاز؟

إذن هذا التحدى فى التدبر فى آيات الكون .. والتدبر فى الخلق والتدبر فى أنفسنا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان القائل هو الخالق .. هو الذى وضع آيات ومعجزات فى هذا الكون .. تدل على عظمته .. وعلى قدرته . ونحن حينها نتدبر فى الكون نرى عظمة الله سبحانه وتعالى .. وهذا هو الهدف الأول للعقل البشرى .. أن يتدبر فى الكون ويعرف ماذا خلق الله سبحانه وتعالى .. وأنه لن ينسجم مع هذا الكون إلا إذا خضع لخالقه . ولكن الإنسان الذى أخذ الأمانة فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ

أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا

جَهُولًا ﴿٧٦﴾

ماهى الأمانة .. الأمانة هنا معناها حرية الاختيار .. دون أى ضغط خارجى .. ووصف الله سبحانه وتعالى للإنسان بأنه جهول عندما قبل أن يحمل الأمانة .. معناه أنه لم يعلم .. ولم يقدر مسئولية هذه الأمانة وثقلها .. ولنضرب مثلا صغيرا يقرب هذا إلى الأذهان .. لنفرض أن إنسانا قد جاءنى وأعطانى مبلغا من المال .. وقال هذا أمانة عندك .. ثم أتى كل شهر .. أو كل فترة ليعطينى مبلغا آخر ويقول هذا أمانة عندك .. وأخذت أنا هذا المال وامتعت به نفسى وأسرفت عليها وبذرت .. ثم جاء وقت السداد .. وجاء صاحب المال يطلب ماله .. وأنا ليس عندى منه شىء .. هذا هو ما يحدث فى الدنيا .. الله سبحانه وتعالى أعطانا من النعم ما لا يعد ولا يحصى .. وقال تمتع بهذا كله . ولكن عليك أمانة تحملها .. هى ألا تفسد فى الأرض .. وألا تسرق ..

الله .. والكون

وَألا تستخدم نعمى فى معصيتى اوفى ظلم الناس .. وقبل الإنسان الأمانة .. ولكن الشيطان استطاع أن يتسلل إلى نفسه منتهزا الفرصة فى أن الإنسان قد حمل الأمانة أى حرية القرار .. والله قال له افعل .. وقال لا تفعل .. وفى هذه الحالة لم يضع على ارادته الحرة أى قيد أو ضغط .. ومادام الإنسان قد أعطى حرية الاختيار .. فكأن هناك الحساب .. الرسالات السماوية التى أرسلها الله سبحانه وتعالى بينت للإنسان الطريق .. ولكن الأمانة التى حملها .. والتى رفضت كل مخلوقات الله أن تحملها .. أعطته الحرية فى أن يفعل أو لا يفعل .. وفى أن يخالف وأن يعصى .. ومادام الله قد قال افعل فمعنى قوله تعالى أن فى مقدور الإنسان أن يفعل أو لا يفعل .. ومادام الله قد قال فى أشياء لا تفعل فإنه فى مقدور الإنسان أن يفعل أو لا يفعل .. والإنسان وحده هو القادر على ذلك .. فالجبال مثلا ليس لها اختيار .. وكذلك الشمس والقمر والنجوم .. فالشمس لا تستطيع أن تقول سأشرق اليوم أو لن أشرق والنجوم لا تستطيع أن تختار أن تسطع ليلة وتغيب ليلة أخرى .. بل ان الملائكة ليس لهم اختيار وإنما يفعلون ما يؤمرون .. ولكن الإنسان الذى حمل الأمانة .. أخذ حرية الاختيار فى الدنيا .. فماذا فعل ؟

صور له جهله أشياء كثيرة .. فعبد أشياء لا تنفع ولا تضر .. عبد الشمس والنار والأحجار والأصنام والحيوانات المفترسة .. انطلق يعبد كل شىء صور له جهله .. وأضله الشيطان عن الله سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون المدبر له .. انطلق الإنسان جاحدا نعمة الله .. وترك الرسالات التى أنزلها الله سبحانه وتعالى رحمة به ليعين له طريق الحياة الآمنة الطيبة .. وأخذ يشرع لنفسه تاركا شريعة الله .. وتغلبت عليه أهواؤه .. فأخذ يخضع الأشياء لهوى النفس وليس للحق .. فأصابه الشقاء فى الدنيا وحلت به الكوارث .

ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك .. لقد لخص الله سبحانه وتعالى فى بلاغة رائعة ووصف بليغ مدخل الشيطان إلى النفس البشرية حين أورد لنا فى القرآن الكريم كيف أغرى الشيطان آدم بمعصية الله .. ذلك أنه حين تم الاغراء .. تم بجملة واحدة أوردتها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى وهو يصف اغراء الشيطان للإنسان :

« هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »

الله .. والكون

إذن الإنسان يريد شيئين من الدنيا .. حياة خالدة لا تنتهى .. ومالا وفيرا لا يفنى .. يريد أن يبقى خالدا لا يموت .. وأن يكون له ملك يوفر له حياة الترف والعبث التى تهواها النفس .. وألا يتأثر ماله بكل ما ينفقه .. وألا يتأثر عمره بالسنوات .. يريد شبابا دائما .. وكنوزا لا تعد ولا تحصى .. ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية .. هذه الآلهة كلها التى اخترعها الإنسان وعبدها كانت إما وهما جالبة للرزق والجاه فى الدنيا .. أو وهما دافعة لأذى أو مرض يؤدي للموت وهى فى مجموعها لا تخرج عن ذلك أبدا .. بل إن عبادة الناس للبشر تأتى من خلال هذين المدخلين .. فهو إما أن يرجو رزقا يتمتع به .. أو يرجو شفاء وقدرة لطول الحياة بما يصوره له وهمه من قدرات يعتقدونها فى بشر .. والحقيقة إن هذه الآلهة لا تفعل هذا ولا ذاك ولا تملك النفع والضرر حتى لنفسها .. ولكن الخوف الذى يضعه الشيطان فى النفس غير المؤمنة هو الذى يجعلها تضعف إلى الدرجة التى تعتقد فيها أن هناك شيئا فى يد أحد غير الله سبحانه وتعالى .

ومن هنا فإن هذا النفع أو الضرر الوهمى هو خوف فى النفس البشرية .. يدخل بسبب عدم الإيمان .. وإلا فالنفس المؤمنة تعلم أن الله معها .. وأن هذه القدرة الخارقة القادرة هى التى تدافع عنها وتحميها وترعاها وتحرسها حتى عندما تنام كل الأعين لأن عين الله لا تنام .

والذى يؤمن إيمانا حقيقيا بذلك .. ليس محتاجا لأن يستعين بمن هم أقل قدرة من الله .. وشتان بين قدرة البشر وقدرة الله سبحانه وتعالى .. فكونى أترك القدرة المطلقة إلى ما لا ينفع ولا يضر بعدم إيمانى .. هو جهل منى يجعلنى التجيء إلى غير الله .. وهذا الجهل وضعه فى نفسى هوى أنا أريد أن أحققه . ولنوضح هذه النقطة قليلا .. أنا مثلا عندى مال .. ولكنى أريد أن أحصل على مال غيرى وبدون وجه حق .. الحياة السعيدة التى رسمها الله لى تقول لى لا .. لا تفعل ذلك .. وهى تقول هذا لتحمينى أولا .. فأنا فرد واحد فى مجتمع .. عندما أستبيح مال غيرى وأجعل هذا مبدأ .. فإن هناك ملايين من الأشخاص فى هذا المجتمع يكون لهم الحق فى أن يستبيحوا مالى .. ومن هنا حرم الله سبحانه وتعالى ذلك ليحمينى . ولو كنت أتدبر لعرفت أن عدم استباحة مال غيرى هو حماية لى ولمالى .. ولكنى أريد ملكا لا يبلى والشيطان يعمل على ذلك .. والله أخبرنى عن مدخل الشيطان إلى نفسى حتى أعرفه .. وأقى نفسى

الله .. والكون

الزلل والانزلاق .. ولكنى مع ذلك أنطلق لهوى فى نفسى .. وهو أن أملك .. وأملك بلا حدود ملكا لا يبلى فأخذ مال غيرى .. حينئذ تقفز إلى النفس البشرية التى هى فى أعماقى والتى رأت الله وتعرفه جيدا مصداقا لقول الله « أأست بربكم . قالوا بلى » هذه النفس تؤرقنى .. أحس فيها بما ينتظرنى جزاء هذه المعصية . ومن هنا فإننى أحاول بقدير طاقى - ولو وهما - أن أحتمى بأى شىء تاركا شريعة الله لهوى فى نفسى فاتى بحجر وأدعى انه هو الذى جلب لى الرزق .. أو آتى بحجر وأقنع نفسى زيفا بأنه سيحمينى من عذاب الله .. أحاول أن أطمئن نفسى وأزيل عنها القلق الذى يملأ النفس البشرية ويؤرقها ويحطمها عندما تغرق فى المعصية ..

ولنضرب لذلك مثلا لو أننا أتينا بشاب فى ريعان شبابه ثم جئنا له بأجمل فتيات الدنيا ، وقلنا له هى لك هذه الليلة .. ثم فتحنا له بابا مستورا فى الحجرة ليرى « النار » وقلنا له بعد هذه الليلة سيكون مصيرك هنا .. فهل تعتقد أنه سيرتكب المعصية .. الجواب .. أبدا .. ولكن لأن الجزاء مستور عنا فإن الشيطان يدخل إلى النفس البشرية محاولا إيهامها بأنه لا جزاء .. وهذا الوهم يصبح هوى فى النفس لأنه يطلق لها العنان لشهواتها .. ويحل لها أن تظلم غيرها ، وتأخذ حقه .. ومن هنا فإنها فى محاولة انكار وجود الله سبحانه وتعالى وتحاول أن تبذر الشك .. فإن أقصى ما تتمناه النفس العاصية هو أن يكون الله ليس موجودا .. ولكن الله موجود والشك فى وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لهذا الوجود .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

حديث قدسى

●● أوحى الله عز وجل إلى داود « وعزنى وجلالى ما من عبد يعتصم بى دون خلقى أعرف ذلك من نيته فتكيدته السموات بمن فيها ، والأرض بمن فيها ، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا ، وما من عبد يعتصم بمخلوق دونى ، أعرف ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السماء بين يديه ، وأرسخت الهواء من تحت قدميه ، وما من عبد يطيعنى إلا وأنا معطيه قبل أن يسألنى ، ومستجيب له قبل أن يدعونى ، وغافر له قبل أن يستغفرنى » .

الفصل الثاني

الشك .. والوجوه

الشك .. والوجود

الإسلام إما أن يكون عن عقيدة .. فهو دين .. وإما أن يكون عن غير عقيدة فهو نفاق .. ولكي نبدأ الحديث يجب أن نحدد .. ما هو معنى العقيدة أولا ؟ العقيدة هي قضية اختمرت في القلب اختمارا .. واقتنعت بها تماما .. بحيث أصبحت عندك يقينا لا يطفو إلى العقل لتناقش من جديد .. قضية قتلتها بحثا وتمحيصا ودراسة ومناقشة .. واقتنعت بها تماما .. بحيث أصبحت عندك يقينا لا يطفو إلى الذهن مرة أخرى .. فإذا طفت إلى العقل لتناقش من جديد .. فالإيمان هنا ناقص .. ولذلك حين قالت الأعراب آمنا .. ماذا قال الله لهم .

« قل لم تؤمنوا .. ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم »

إذن الإيمان هو عقيدة اقتنع بها القلب تماما .. بحيث لم تعد تطفو إلى العقل لتناقش من جديد .. وهو لا يأتي في منطقة الحس .. أو المنطقة التي تخضع للحواس عندنا .. بمعنى أنك لا يمكن أن تقول لإنسان أنا مؤمن .. انني أراك أمامي .. وأنت تراه أمامك فعلا .. ولا تستطيع أن تقول أيضا انني مؤمن .. إن هذا الكوب ممتلئ .. والكوب ممتلئ بالماء .. وأنت تراه أمامك .. تلك ليست منطقة الإيمان .. ولكن منطقة الإيمان هي الغيب .. شيء غيبي عنك لا تراه ولا تستطيع أن تصل إليه بحواسك .. ولذلك فإننا في كثير من الأحيان نحاول أن نشبه الإيمان بأنه يقين عندنا كالشيء الذي تراه .. فتقول أنا متأكد أن هذا سيحدث .. أو أنا مؤمن أن هذا سيحدث .. كما أراك أمامي تماما .. الذي سيحدث هو غيب عني .. قد يحدث وقد لا يحدث .. أنا لا أستطيع هنا أن أقطع بذلك .. ولكن تصديقا مني للإيمان .. فأنا أقول إن هذا سيحدث كما أراك أمامي .. يقينا بالغيب .

وإذا كان ذلك في أمور الدنيا الصغيرة .. فكيف في الإيمان بالله سبحانه وتعالى .. اليقين هنا يجب أن يكون على درجة عالية .. أن تعبد الله كأنك تراه .. فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. وحين تشبه العبادة هنا بالرؤية .. فالرؤية ليست قضية جدلية .. بمعنى أنك ترى الشيء أو لا تراه .. الإيمان أيضا إذا خرج إلى دائرة الجدل والمناقشة الذهنية .. خرج عن معناه ولم يصبح إيمانا .. مادام هناك جدل مايزال في العقل .. فالإيمان غير كامل ..

الشك .. والوجود

ولكن فيم يدور الجدل .. إنه يدور حول الدليل عن وجود الله .. أو محاولة انكار وجود الله .. نأتى أولا إلى الذى يجادل فى الدليل على وجود الله .. ونسأله : حينما أقبلت على وضع الدليل على وجود الله .. فما الذى حملك على ذلك .. ما الذى جعلك تتعب عقلك وفكرك لتضع الدليل على وجود الله .. الذى دفعك لذلك هو أن الله موجود فينا بالفطرة .. فينا جميعا .. أولئك الذين يؤمنون به فيطيعونه .. ويعملون بتعاليمه .. وأولئك الذين يسرفون على أنفسهم .. ويشعرون بعظم العقاب الذى ينتظرهم .. تحسه نفوسهم التى تعرف الله بفطرتها .. فيجهدون عقولهم فى محاولة النيل من دين الله .. وهم فى الحقيقة يحاولون الهرب ولو عقليا .. ولو بطريق التضليل من حساب هو واقع عليهم ..

إذن الذى يحاول أن يضع الأدلة على وجود الله .. فى الحقيقة قد أثبت هذا الوجود دون حاجة إلى دليل .. فالدليل على وجود الله .. هو طلب الدليل على وجود الله .. ذلك أن طلب هذا الدليل .. واجهاد العقل فيه .. معناه أن الله موجود فينا بالفطرة .. نحس به ونشعر بوجوده .. ونعرف أنه موجود .. إذن فوجود الله سابق لمحاولة الوصول إلى دليل .. وهذه المحاولة التى هى قائمة وستظل قائمة إلى أن تنتهى الحياة ، إنما هى اعلان بأن الله موجود .. ونحن نحاول أن نستخدم ما يلائم عقولنا من أدلة .. ولو بحثنا ودققنا فى الرسالات السماوية التى أرسلها الله لنا .. لوجدنا أكبر الأدلة وأقواها موضوعة بالطريقة التى تناسب العقل البشرى وقدراته الماضية والحالية والمستقبلية ومفصلة تفصيلا يملؤه الاعجاز ..

وإذا دققنا فى علم الله ووصوله إلى الإنسان .. فهو اتصال الكلمات بالعقل .. أو كما قال الله سبحانه وتعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » أى أنه سبحانه وتعالى .. علم آدم معانى الأشياء وأسماءها . ثم أتى الله سبحانه وتعالى بالملائكة ، وقال لهم أنبئوني بأسماء هؤلاء .. فلم يعرفوا .. وقالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا ..

إذن .. المعنى يجب أن يوجد أولا .. أو الشئ يجب أن يوجد أولا .. ويكون مفهوما لدى السامع .. وموجود أصلا فى ذهنه .. ثم تأتى الكلمة لتبرز هذا المعنى إلى العقل .. فإذا قلنا منزل مثلا ، فإن له معنى معين فى عقولنا .. هو مكان يقيم فيه الناس مكون من عدة حجرات .. إلى آخر ذلك .. ومن هنا

الشك .. والوجود

فإنه إذا ذكرت الكلمة .. قفز المعنى الموجود أصلا في العقل لتكون مقبولة .. أو إذا قلت كلمة بلا معنى لم يلحظها العقل ، ولم يعرف بوجودها جيدا .. كأن تأتي لرجل عاش في أرض سهلة لم ير جبلا في حياته ، ثم تقول له كلمة جبل .. إنه لا يستطيع أن يتصور ما معنى جبل ، ولا يفهم شيئا .. ذلك أنه لم يعقل هذا الشيء الذي تتحدث عنه أو تقوله له .. ومن هنا فهو لا يفهمه ولا يعرفه .. لأنه لم يدخل إلى عقله أولا .. إذا قلت لإنسان مثلا ، أن ذلك تم بالعقل الالكتروني ، فإنه لا يستطيع أن يفهم شيئا .. مادام لا يعرف ماذا يفعل العقل الالكتروني .. ولكنك إذا قلت كلمة الله ، فإن العقول كلها تفهمها ، على أنها تلك القوة القادرة ، القاهرة .. التي خلقت الدنيا كلها ، ولكننا لم نر الله ، فكيف نفهم هذه الكلمة .. لو أن الله غير موجود فينا بالفطرة ، وغير موجود في عقولنا ونفوسنا .. لما فهمناها أبدا ، ولما أخذت هذا المعنى العالمى الذى ينسجم مع النفس البشرية .. ان يقيننا بوجود الله هو الذى يجعلنا نفهم هذه الكلمة .. ووجود الله فينا بالفطرة هو الذى يجعلها تدخل إلى عقولنا لأن أى كلمة لا يمكن أن تكون مفهومة إلا إذا كان معناها ومدلولها موجودين في العقل البشرى أولا .. بل ان وجود هذا المعنى يجب أن يسبق الكلمة نفسها .. فأنت لا تستطيع أن تحدث أحدا بكلمة جبل . ويفهم ما تقول .. أو بكلمة « قوى » ويفهم ما تقول .. إلا إذا كان المعنى موجودا أولا في عقله .. قبل أن تنطق بالكلمة فالمعنى يوجد أولا .. ثم بعد ذلك توجد الكلمات الدالة عليه .. وإذا راجعنا قواميس اللغة في جميع أنحاء العالم .. نجد أن الكلمات الموجودة فيها هى لأشياء موجودة أصلا .. وأن هذه القواميس تراجع كل عام لاضافة أسماء لأشياء وجدت .. ولم تكن موجودة في العام الذى قبله .. وذلك بمعنى أن الشيء يوجد أولا ثم بعد ذلك يعطى تسمية .. بل ان هذا في حياتنا اليومية ملحوظ في كل شيء .. فهناك أسماء كثيرة في اللغة تضاف إلى القواميس كل عام .. وهناك علماء متخصصون يجتمعون في مجمع اللغة .. ليضعوا الأسماء لمعان أو لأشياء وجدت ولم تكن موجودة .. إذن فالأصل أن يوجد الشيء أولا .. ثم يضع الإنسان له الاسم .. ووجود اسم الله سبحانه وتعالى في جميع لغات الأرض معناه أنه موجود في جميع أديان البشر .. وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل أن توجد البشرية نفسها .. وقبل أن ينطق لسان بأى لغة .. ولفظ الله معناه واحد في كل العقول .. وفي كل اللغات .. بل ان تقبل

الشك .. والوجود

العقل البشرى لاسم الله سبحانه وتعالى معناه أن هذا العقل يعرف الله بالفطرة .. وان كان الله فوق قدرة العقول .. ومن هنا نعود مرة أخرى إلى الرسائل السماوية .. إلى الآية الكريمة :

﴿ أَوْ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ
أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا
عَن هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا
ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ ﴿١٧٧﴾

هذه الآية الكريمة التي أخبرنا بها الله تدلنا كيف أن الله يوجد فينا بالفطرة رغم أنه فوق قدرة العقل .. فقد عرفنا وجود الله يقينا .. وهذه المعرفة موجودة في داخلنا حتى وإن لم يدلنا عليها أحد .. ومن هنا فإذا ذكر اسم الله فإننا لا نحس أن إنسانا ينطق لفظا غريبا لا معنى له .. ولكننا نحس أنه ينطق لفظا نعرفه جيدا .. ونحس به في داخلنا .. ونحس بقدرته وقوته .. وبأن الحياة لا يمكن أن تنسجم إلا بوجوده .. وهناك أميون لا يقرأون ولا يكتبون .. وربما لم يقرأوا كلمة واحدة في حياتهم .. فإذا أخبرتهم عن أى شىء في هذه الدنيا .. سألوك : ما معنى هذا الذى تتكلم عنه .. نحن لا نفهمك .. إلا كلمة الله سبحانه وتعالى .. فإنك إذا قرأتها عرفها الجاهل والمتعلم .. والصبي والرجل .. والكهل .. وكل إنسان يجلس أمامك .. ولن تجد أحدا يقف ليسألك : ماذا تعنى بكلمة الله .. اننا لا نفهم هذه الكلمة .. لماذا ؟ لأن الله يوجد فينا بالفطرة ومن هنا فإن الطفل يعبه .. والإنسان البسيط الذى لم يقرأ كلمة في حياته يعبه .. والإنسان المتعلم يعبه .. والإنسان الذى تبحر في العلم ووصل إلى أعلى مراتبه يعبه .. وكل هذه العقول على اختلاف مستوياتها قد تعجز عن فهم مشترك لقضية من القضايا .. ولكنها جميعا لا يوجد بينها تصادم في عبادة الله ..

الشك .. والوجود

وأنت تدخل إلى المسجد .. تجد عباد الله جالسين معا .. عقول كلها مختلفة في السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعي والطباع والعادات وكل شيء .. ولكنها كلها منسجمة في عبادة الله تركع له معا .. وتسجد له معا .. وتقرأ له القرآن معا .. وتسبح له معا .. كل هذه العقول لا يمكن أن تجتمع وتنسجم هكذا إلا إذا كان الله موجودا فينا بالفطرة .. وإلا مصداقا للآية الكريمة :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾

(الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

على أن الذين يحاولون انكار وجود الله ، فمحاولة الانكار هذه وحدها اثبات .. لأنك لست محتاجا إلى أن تنكر ما ليس له وجود .. فالأرض مثلا بعض الناس يقول انها كروية .. وبعض الناس يقول انها مبسوطة .. ويحدث جدل .. لو لم ير الناس أمامهم الأرض مبسوطة ولو أن العلم لم يثبت لهم أنها كروية لما حدث هذا الجدل ، فالجدل هنا حدث لأن هناك واقعا علميا يخالف واقعا تراه العين .. إذن فقبل النفي والجدل .. هناك وجود .. وإذا أردنا أن ننفي نظرية علمية إذن فهذه النظرية يجب أن تكون أولا موجودة وإلا فكيف ننفيها .. الخلاف هنا على النفي والوجود يجب أن يكون على واقع .. وإلا انتهى الجدل نفسه ..

إذن محاولة انكار وجود الله .. قد سبقتها حقيقة أن الله موجود فعلا .. وإلا فلماذا يحاول أى كافر أن ينكره .. محاولة النفي والجدل لا يمكن أن تتم إلا لشيء موجود .. وإذا لم يكن هناك شيء أصلا .. ففيم أجادل .. ومن الذى أحاول أن أنفي وجوده ..

الشك في وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لهذا الوجود .. والذين يحاولون وضع الأدلة للتشكيك في وجود الله .. هم في الحقيقة أثبتوا هذا الوجود دون حاجة إلى دليل .. فالدليل على وجود الله هو طلب الدليل على هذا الوجود .. واجهاد العقل فيه .. معناه أن الله موجود فينا بالفطرة ..

الشك .. والوجود

إذا انتهينا من هذه الحقيقة ، وأن الله موجود فينا بالفطرة .. يحس به كل قلب بشرى .. وكل نفس .. حتى أولئك الذين يكفرون به يخشونه .. ويخافون يوم الحساب .. وهم في محاولتهم الانكار .. إنما يحاولون أن ينكروا العذاب الذى ينتظرهم ويقنعوا أنفسهم ، ولو كذبا ، بأن هذا العذاب لن يحدث .. ولن يتم .. ولن يكون .. ومن هنا تأتى محاولة الانكار خوفا من لقاء الله ورعبا مما توعدهم به .. ومحاولة أن يطمئنوا أنفسهم المرتعدة من الداخل والتي تحس بيوم الحساب .. محاولة طمأنتها خداعا .. بأنه ليس هناك حساب .. محاولة جمع الأدلة ولو باطلا على ذلك .. وتظل النفس الكافرة فى شقاء فى الدنيا حتى ينتهى أجلها .. فهى لا تعرف الطمأنينة أبدا .. وهى تخشى الغد دائما مهما أعطاهما اليوم من أمان واطمئنان .

على أننا يجب أن نتحدث عن منهج الله .. ولماذا يجيد عنه بعض الناس .. هل لأن منهج الله لا يحمل العدل والسعادة للناس .. كل الناس .. لماذا تحاول النفس البشرية أن تختار لها طريقا آخر .. مرة تسميه الفكر المعاصر .. ومرة النظريات الحديثة .. لماذا تهرب من طريق الله ؟

إن الله سبحانه وتعالى قد وضع قيودا على هوى النفس البشرية .. وهذه القيود لم يضعها لصالح فئة معينة .. وإنما وضعها لصالح البشرية جمعاء .. ولكن الطمع البشرى بلا حدود .. والإنسان يريد أن ينطلق بغرائزه .. رغم أنه يعرف أن ذلك يأتى بضرر بالغ على المجتمع .. غريزة حب الامتلاك مثلا .. الإنسان يريد أن يملك كل شىء .. القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .. وينظر إلى ما يملكه بعض الناس ويتساءل لماذا؟! هل يستطيعون انفاق كل هذا ولو عاشوا ضعف أعمارهم .. والجواب يكون فى كثير من الأحيان « مستحيل » ..

ويأتى السؤال الثانى : هل سيأخذون شيئا من هذا معهم بعد الموت .. بعد الأجل .. والجواب أيضا « مستحيل » .. إذا كان ذلك مستحيلا .. فلماذا كل هذه الحرب على الامتلاك ؟ والجواب أن النفس البشرية ، رغم يقينها أنها ستموت . تظن أن عمرها سيمتد سنوات وسنوات .. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم أر يقينا أشبه بالشك .. من يقين الموت) . ولكن الله سبحانه وتعالى حرص على أن يهذب غريزة التملك فمنع الاعتداء على ما يملكه الغير .. لماذا ؟ ليحمى كل فرد من المجتمع وليلتزم المجتمع كله

الشك .. والوجود

بأن يحترم حقوق بعضه .. نهى عن المال الحرام .. وعن أكل حقوق الضعيف ليحميه من بطش القوى .. وعن أكل أموال اليتامى الذين لا حول لهم ولا قوة .. وسرقة أموال الناس .. لماذا؟ ليحمى القوى إذا ضعف .. وليحمى القوى وهو قوى .

قد تبدو العبارة متناقضة ولكنها صحيحة .. إن الله الذى حرم على ما يملك غيرى حرم على غيرى وهو المجتمع كله من أن يأكل حقى .. وأعطى لكل ذى حق حقه .. حرم على أن يأخذ حقوق غيرى وأنا قوى وهو الضعيف ليحميه منى .. ولكنه فى نفس الوقت حماني من المجتمع الذى مهما كنت قويا كفرد .. فأنا ضعيف أمامه .. وإذا كان الله قد أباح لى أن أكل مال الضعيف فقد أباح للمجتمع كله أن يأخذ مالى .. بلا حق .. وبلا حساب ..

وهنا نرى عدل الله .. إنه يحمى الضعيف من القوى .. وفى نفس الوقت يحمى القوى من المجتمع .. أى أن التشريع هنا فى صالح المجتمع كله .. غنيه وفقيره .. ضعيفه وقويه .. ثم وضع الرحمة والتعاطف والتأخى بأن يعطى الغنى من ماله للفقير لينعم المجتمع بالسلام .. وليخرج الحقد والبغضاء والكراهة من النفوس .. وتحل مكانها الرحمة والتألف .. والتأخى .. هذا هو تشريع من تشريعات الله سبحانه وتعالى .. قد يقف ظاهرا ضد أطماع بعض النفوس البشرية التى تريد أن تملك بلا حدود وتطمع فى أن تأخذ حق غيرها بلا وازع .. وأن تستحوذ على كل شىء .. ولكنه وهو يضع القيد يحمى هؤلاء الناس من أنفسهم .. من أطماعها التى تؤدى بها الى الهلاك فى الدنيا والآخرة .. ويحمى المجتمع كله .. ليجعله مجتمعا سعيدا متأخيا .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الغريزة الجنسية .. فإننا نجد أن الله سبحانه وتعالى يحمى النفس البشرية مما يفسدها .. ويحميها من المجتمع أيضا .. ويحكى أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : انى أعاهدك على الإسلام .. ولكنى رجل أحب النساء .. ولا أستطيع أن أتخلى عن هذه العادة .. فهل تأذن لى .. ولم يقم رسول الله ليضربه .. أو يعنفه .. أو يدفع به ليرجمه .. لكنه وهو المعلم أراد أن يبين له الحكمة من التشريع هنا .. أراد أن يبين له .. كيف ذلك .. بطريقة يفهمها الرجل ويحسها .. فقال له صلى الله عليه وسلم بهدوء : أتحب أن يفعل ذلك بأمرى ؟ فظهر الغضب على وجه الرجل وقال لا .. قال رسول الله : أتحب أن يفعل ذلك بأمرى .. فزاد

الشك .. والوجود

غضب الرجل فقال : لا .. فقال رسول الله : أتحب أن يفعل ذلك بزوجتك .. فرد الرجل بسرعة : لا .. لا .. فقال رسول الله : وكلنا كذلك يا أبا العرب ..

وهكذا يبين له أن تشريع الله إنما وضع ليحمي أمه وأخته وزوجته مما لا يقبله أى إنسان .. ولو تذكر أى فرد هذا الحوار وهو يهيم بمعضية الزنا ، إذا تذكر أنه يكره أن يفعل ذلك بأمه أو أخته أو زوجته لامتنع فوراً عما ينوى أن يفعل .. إذن فالتشريع هنا حين يسمو بالغرائز ويضع القيود عليها إنما يضعها لحماية الفرد نفسه .. لحماية أمه وأخته وزوجته من أى اعتداء .. للدفاع عن عرضه هو .. والإنسان يسعد بذلك .. ولكنه فى نفس الوقت الذى يريد فيه تشريعاً يحمي أهله من أى اعتداء من المجتمع .. يقوم هو بالاعتداء على أهل غيره . وهنا تظهر غدالة السوء لتقول لا .. كلكم سواء أمام الله وإذا كان الله بتشريعه .. قد حمى أهلك وعرضك .. فإنه يحمي أهل وعرض الآخرين .. فإذا انتهكته عاقبك .. وإذا خالفته عذبك .. لماذا .. ؟ لأنك تريد الفساد فى الأرض .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد نهانا عن تناول سير الناس بالباطل والتجسس على أخبارهم .. فقد نهانا عن ذلك ليحفظ سيرنا وأسرارنا .. فأنا لى عورات لا أحب أن يطلع عليها أحد .. وأنت لك عورات لا تحب أن يطلع عليها أحد .. وكلنا يسيئه أن يطلع على عوراته أحد .. أو يتناوله أحد بالسوء وهو غير موجود .. لا يستطيع أن يدافع عن نفسه .

ولكن بعض الناس يريد وضعاً متميزاً .. يحل لنفسه أن يسرق هو .. ولا يحل لغيره أن يسرقه .. ويحل لنفسه أن يعتدى على أعراض الناس .. ولا يرضى ولا يقبل أن يعتدى أحد على عرضه .. ويريد أن يتجسس ويكشف عورات غيره ويتناوله بالسوء .. فإذا تجسس أحد على عوراته هو .. أو تحدث عنه بالسوء .. ثار وهاج وانفعل .. والله يقول لا .. كلكم أمامى سواء .. عبيدى .. أنا خلقتكم وأعاملكم بلا تمييز .. لا أحل لأحد ما أحرمه على الآخر مهما كان هذا ذا قوة وسلطان .. والثانى لا حول له ولا قوة .. ومن هنا فإننى عندما أحرم .. أحرم عليكم جميعاً .. وعندما أحل .. أحل لكم جميعاً .. قويكم وضعيفكم .. فقيركم وغنيكم .. وكل من يحسب أن ماله .. أو جاهه .. أو سلطانه سيجعله مميّزاً عندى فهو واهم ..

الشك .. والوجود

ذلك هو العدل الالهي .. وهذا هو منهج الله .. لا يفرق بين أحد .. ولا يجل لهذا .. ويحرم على ذلك .. فهو في تشريعه إنما يستهدف حماية المجتمع كله غنيه وفقيره .. قويه وضعيفه .

إذن فما الذي يضعه الله .. انه يضع المجتمع الصحيح .. يضع القواعد للمجتمع القوى ويهذب النفس البشرية ويبنيها من الداخل ويجعلها صلبة قوية عادلة .. تحافظ على حقوق غيرها .. كما تحافظ على حقوق نفسها .. إنه يلغى قانون الغابة السائد بين الحيوان .. ويرقى بالإنسان إلى درجة الإنسانية .. يسمو به ويميزه عن باقي مخلوقاته ..

الله سبحانه وتعالى يضع لنا في منهجه أساس بناء المجتمع الذي يسود الأرض .. لماذا؟ لأنه هو الوحيد القادر على ذلك .. وهو أعلى من البشر جميعا .. وأعلم منهم .. وهو الذي خلق هذا الكون .. وسخر كل شيء فيه لخدمة الانسان .. سخر قوى أكثر كثيرا من الإنسان فالشمس والقمر والأرض والنجوم سخرها كلها لخدمة الإنسان .. وجعلها خاضعة له .. تعطيه دون أن يكون لها اختيار .. ودون أن تملك الارادة في أن تمنح وتمنع ..

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق هذه القوى جميعا وسخرها لخدمة الإنسان .. وهي قوى يعجز الإنسان أن يخلق مثلها .. فلا الإنسان يستطيع أن يخلق أرضا .. أو سماء .. أو شمسا .. أو قمرا .. أو غلافا جويا أو جاذبية أرضية .. إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق كل هذه القوى الجبارة وسخرها لخدمة الإنسان .. فهو القادر وحده على أن يرسم لنا الطريق الصحيح للحياة السعيدة على هذه الأرض .. وليس للإنسان مهما بلغ أن يتناول ويقول أنا أقدر من الله سبحانه وتعالى في رسم الطريق الصحيح للحياة على الأرض .. لأن كلا منا مهما بلغ ، عاجز أمام قدرة الله .. ولأن كلا منا ، مهما حاول ، يريد أن يعدل له هوى في نفسه .. والله لا هوى له .. ولذلك فهو يحكم بالعدل ويضع الصراط المستقيم .. ومادام الله قد قال .. فهو أعلم منا جميعا .. ولذلك فإننا يجب أن نتبع منهج الله ودون أن نقارنه بمنهج بشرى مهما كان . على أننا حين نسأل بعض الناس من الذي خلق السموات والأرض .. يقولون الله .. ثم تسألهم إذا كانت هذه هي الحقيقة فلماذا لا تتبعون منهج الله ؟ نجد بعضهم لا يجيب والبعض الآخر يحاول أن يضع منهجا بشريا مقابل منهج الله ثم يناقشك فيه .. ونحن نقول لهؤلاء جميعا انكم تناقضون

الشك .. والوجود

أنفسكم .. إذا كان الله هو خالق الحياة وخالق الكون .. وإذا كان الله قد وضع منهجا للحياة التي خلقها كما وضع قوانين للكون .. أتترك هذا العطاء وتذهب إلى ما يقوله بشر عن هوى .. أو عن أى شيء آخر .. كيف أتترك من يعلم .. وأذهب إلى من لا يعلم .. وكيف أجادل فيما وضعه الخالق بما وضعه مخلوق .. بل إن الأساس في اتباع منهج الله هو الايمان .. ولذلك تجده الله سبحانه وتعالى حين يخاطب عباده في منهجه .. يقول دائما « يا أيها الذين آمنوا » ويكررها في آيات كثيرة من القرآن .. لماذا ؟ لأن الأساس في اتباع منهج الله هو الايمان بالله والرسول والملائكة والغيب . ذلك هو الأساس .. أما غير ذلك فهو باطل .. ولو أتيت بما طلبه الله منك ولكن بلا إيمان فعملك باطل .

ولنوضح هذه النقطة قليلا .. الله أمرنا بالتصدق على الفقراء .. من فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وإيمانا منه بالله ومنهجه فله الثواب .. ولكن هب أن إنسانا يتصدق على الناس ليقال عنه انه جواد أو كريم .. يأتي أمام القوم ويجمع الفقراء ويعطيهم المال ويتباهى بذلك ويتحدث عنه كثيرا ليقول الناس عنه انه رجل كريم .. حتى إذا جاءه فقير بينه وبين نفسه ، طرده ولم يتصدق عليه .. انه يريد السمعة والشهرة ولا يريد رضا الله .. هذا الإنسان لا يثاب رغم أنه أتى عملا من الأعمال التي حث عليها الله سبحانه وتعالى .. وطلب منا القيام بها .. ولكنه أتاها بلا إيمان .. أتاها وقلبه غير مؤمن بالله لا ينطبق عليه قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » .. كذلك رجل يصلى أمام الناس فإذا كان وحده لا يصلى .. هل يثاب على صلاته .. أبدا .. مع أنه يفعل ما أمره الله به ولكن بلا إيمان .

والله سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشركاء .. ولذلك إذا كان العمل لوجهه وإرضاء له سبحانه وتعالى فإنه يتقبله .. أما إذا كان لارضاء البشر فإنه غنى عنه ولا يتقبله .. حتى ولو كان فيه جزء لارضاء البشر أو لجاه الدنيا .. فإنه لا يتقبله فالله غنى عن العالمين .. والحديث الشريف (إنما الأعمال بالنيات .. وإنما لكل امرئ ما نوى) .. هو أكبر توضيح لذلك فالنية محلها القلب ، والله مطلع على القلوب .. يعرف ما تخفيه الأنفس .. ويعلم تماما .. ولكن بعض الناس في هذه الدنيا يعتقد أنه يستطيع أن يخدع الله .. وهذه هي كارثة الانسانية كلها .

الشك .. والوجود

ولقد أجهد الفلاسفة أنفسهم على مر السنين في الوصول إلى وجود الله .. محاولين استخدام العقل بدلا من الرسائل السماوية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى .. ومن هنا فإنهم أرادوا أن يستخدموا العقل فيما لم يخلق له .. ذلك أن العقل له وظيفة .. أو وظائف في الحياة .. ليس من بينها أن يصل إلى وجود الله بدليل فوق طاقته .. أو غير مستخدم الوسائل .. أو الرسائل التي أنزلها الله لعباده .. فهذه الرسائل قد وضع فيها الله سبحانه وتعالى الأدلة فيما هو في قدرة العقل البشرى .. منذ يوم خلقه .. إلى يوم القيامة .. ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا .. بأن يقدموا للعقل البشرى ما هو فوق طاقته .. وهذا مستحيل ..

ولقد قال لنا الله في رسالاته هذا هو الطريق إلى عبادتي .. وشرحه لنا .. وبين لنا الثواب والعقاب .. وهذا دليل قوى على وجود الخالق .. ذلك أن الذين يعبدون الشمس والأصنام .. أو أي شيء غير الله .. فإن هذه الأشياء لا ترسل لهم رسالات تقول لهم .. أو تبين لهم .. أو تعلمهم طرق العبادة .. ولذلك لم نسمع عن رسول أرسلته الشمس ليهدى الناس .. مع أن الناس عبدوا الشمس .. ولم نسمع عن رسول أرسله صنم ليهدى الناس .. مع أن الناس عبدت الأصنام .. والأحجار .. والحيوانات .. وكل شيء في هذه الدنيا عبد بطرق ابتدعها الناس أنفسهم حسب أهوائهم ..

وإذا حكمنا المنطق وحده .. والعقل وحده .. فإن الاثنين معا لا يقولان لنا أن ندخل في أشياء هي فوق قدرة الاثنين معا .. وبالرغم من ذلك .. فإن الإنسان رغم عجزه يحاول أن يخترق هذه الحجب .. بطريق الجهل .. وليس العدل .. ومن هنا فإننا لا نجد أي مدرسة فلسفية حاولت أن تخترق الحجب إلى ما وراء المادة .. أو إلى العالم غير المادي .. قد وصلت إلى نفس النتائج التي وصلت إليها مدرسة أخرى .. بل إن كل مدرسة تصل إلى نتيجة قد تكون مخالفة .. أو مناقضة للمدرسة الأخرى .. ولم تصل أي مدرسة من هذه المدارس إلى نتيجة تقبلها كل العقول ..

على أن الإنسان في صلته بالعالم الخارجي يتمتع بما نسميه بالحاسة .. أو الحواس .. فأنت ككائن بشري حين تتصل بالعالم الذي يحيط بك .. فإنك تتصل به عن طريق حواس حددت بخمس هي : أن يسمع الإنسان ويرى ويشم ويذوق .. هذه الحواس نفهم بواسطتها العالم الخارجي .. ويشير

الشك .. والوجود

بواسطتها هذا العالم .. بل ونعطيه الصفات التي نطلقها عليه .. فصفات الألوان مثلا نميزها بحاسة البصر .. ونوع الطعام مثلا نعطيه لفظ الحلو .. ولفظ المر .. ولفظ الجيد .. ولفظ الرديء .. بحاسة الذوق إلى آخر هذا الكلام .. إذن فنحن نتصل بالعالم الموجود خارجنا عن طريق هذه الحواس .. ولكن ماذا عن عالم ما هو داخل النفس البشرية .. وكيف يمكن أن يتم الاتصال بين الإنسان .. وما هو موجود في داخله .. هل يتم هذا الاتصال عن طريق الحواس .. أو عن طريق أشياء أخرى يطلق عليها بعض الناس البديهييات .. وبعض الناس لفظ الهام خاص .. وبعض الناس ألفاظا أخرى .. ولكن المؤكد أن هذا الاحساس الذي يتم بالنسبة لما في داخل النفس البشرية لا يتم عن طريق الحواس الخمس التي نتصل عن طريقها بالعالم الخارجى .. وإنما يتم عن طريق أشياء أخرى .. يطلق عليها كما قلت الهام أو بديهييات .. أو احساس داخلى إلى آخر هذا ..

ولنشرح الموضوع بشيء من التفصيل .. نبدأ أولا بالأشياء التي يصل إليها الإنسان عن طريق حواسه التي تصله بالعالم الخارجى . فهو يرى ألوانا مختلفة .. ويسمع أصواتا مختلفة .. ويلمس أشياء مختلفة .. ويتذوق أطعمة مختلفة .. ويشم روائح مختلفة .. هذا هو اتصال الإنسان بالعالم الخارجى .. أما اتصاله بما في داخله فيأتى مثلا عن طريق شعوره بالجوع .. إننا لا نرى الجوع .. ولا نلمسه .. ولا نشمه .. ولا نتذوقه .. ولكننا نشعر به .. وما ينطبق على الجوع .. ينطبق على الأشياء الأخرى .. مثل الحب والكره مثلا .. الإنسان يحب شخصا ما .. ويكره شخصا ما .. أو شيئا ما .. دون أن يكون لذلك سبب حسى معروف .

إذن فهناك أشياء في داخلنا .. تسمح لنا بأن نشعر شعورا معيناً .. هذا الشعور نحس به ونعرفه تماما .. ولكننا لا نرى بحواسنا .. إن الإنسان مهما قال في شرح أسباب الحب والكراهية لا يستطيع أن يصل إلى الحاسة التي تسبب الحب .. أو التي تسبب الكراهية .. فهذه الحاسة لا تدخل ضمن الحواس الخمس .. التي يتصل الإنسان عن طريقها بالعالم الخارجى .. أو التي تحدد علاقة الإنسان بالعالم المادى .. ومن هنا فإن العلماء حريصون .. حينما يتحدثون عن الحواس ، على أن يقولوا أن هذه الحواس هي التي توصل الإنسان إلى العالم الخارجى .. وأن الإنسان له ملكات وغرائز وشعور الهام .. وأشياء

الشك .. والوجود

أخرى في داخله توصله إلى داخل النفس البشرية .. وتؤثر في هذه النفس ..
والذى لا يخضع للمنطق ، نحاول أن ننكر أن في داخل الإنسان أشياء كثيرة
غير الحواس التى توصله إلى العالم الخارجى .. وأن الإنسان يستطيع أن يتصل
بالعالم .. بينما ما بداخله يطرق بلا اتصال أو احساس معين .. الحقيقة ان
الالهام أو الشعور والاحساس بما فى داخل النفس البشرية يوجد قبل احساس
هذه النفس بما حولها من العالم .. تلك سنة الخلق .. فالطفل الصغير مثلا يحس
بالجوع والعطش .. ويعبر عنها بالبكاء قبل أن يستطيع أن يستخدم حواسه فى
الاتصال بالعالم الخارجى .. وهو يحس بالحنان والدفع .. والحب والكره ..
والقسوة .. والرحمة .. كل هذه الأشياء توجد فى داخل نفسه مع دقائق الحياة
الأولى .. بينما الحواس تنتظر أسابيع أو شهورا قبل أن تستطيع أن تؤدى مهمتها
بشكل يمكن أن يعبر عنه الطفل ..

وإذا درسنا هذه الحواس الداخلية .. نجد أن أقواها هو احساس الإنسان
بوجود الله .. هذا الاحساس الذى قد يفتقر إلى شىء من الدقة بالنسبة لعظمة
الله وقدرته .. والكون .. ووجوده .. وكل شىء من هذا النوع .. ولكن هذا
الاحساس يؤكد وجود قوة داخل الإنسان تدفعه إلى أن يشعر ويحس بوجود
الخالق سبحانه وتعالى ..

.. فاسم الله مثلا لا تدركه الحواس الخمس .. لأنه أكبر من قدرتها ..
ولكن تدركه حاسة داخل الإنسان .. حاسة غير مرئية .. ومن هنا فإن كلمة
الله التى هى فوق قدرة الحواس الخمس .. نجد أن الأذن تفهمها عندما
تسمعها .. ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئا لا يوجد أصلا داخل النفس
البشرية .. بحيث يكون التصور هنا ليس غريبا تماما .. على هذه النفس ..
بل هو معروف لها بشكل ما .. قد لا نفهمه نحن .. ولا نستطيع أن نحلله ..
ولكنه معروف .. فعندما يذكر لنا أحد اسم الله .. فإن الذى يقفز إلى عقولنا
هو وجود قوة خارقة .. هى التى خلقت هذا العالم .. وأن هذه القوة خارج
نطاق العقل .. بل وخارج نطاق الحواس ..

إذن .. كيف ندرك وجود هذه القوة .. وكيف يكون اسمها مألوفا عندنا ..
وهى خارج نطاق الحواس .. وخارج نطاق العقل .. هنا يأتي ما فى داخل
النفس .. وهو الالهام .. أو الشعور .. ليقول لنا أن هذه القوة ، رغم أنها

الشك .. والوجود

فوق مستوى العقل والحواس .. موجودة داخل النفس .. والنفس تفهم وتحس بوجودها .

وفي العصر القديم بدأ الفلاسفة .. خصوصا فلاسفة اليونان يبحثون عما وراء المادة .. عما وراء هذا العالم المادى .. عن الخلق . وعن القوة التى أوجدت هذا العالم .. إلى آخر فلسفة اليونان القديمة عما وراء المادة .. من الذى قال لهم ان هناك شيئا وراء العالم المادى .. يجب أن يدرس .. كيف عرفوا أن هناك شيئا خلاف المادة .. مع أن الحواس الخمس لا تقول لنا شيئا إلا عن المادة .. ونحن هنا لا نناقش الفلسفة اليونانية .. وسواء نجحت هذه الفلسفة أو غيرها .. أو فشلت .. موضوع لا يهمنا .. وإنما الأمر الذى يهمنا أنهم كانوا مدفوعين لينظروا إلى ما وراء الطبيعة .. وأنه كانت لديهم أشياء داخل أنفسهم .. ليست أشياء حواسية .. أى لا تخضع للحواس ليفعلوا ذلك .. بل إن الإنسان منذ فجر التاريخ .. منذ بداية خلقه .. وهو يبحث عما وراء المادة .. يبحث عنه بطرقه المختلفة .. وهو أحيانا يتخذ سبيلا آخر لظهور خضوعه أو عبوديته لهذه القوة التى هى وراء المادة .. ولكن المهم فى هذا كله .. أن هناك شعورا داخليا فى النفس البشرية .. يقول لها ان هناك شيئا وراء الطبيعة .. ان هناك قوة ما وراء هذا العالم .. وأن هذه القوة .. هى قوة عظيمة وخارقة .. هناك شعور داخلى فى كل نفس بشرية بوجود الله .. تلك القوة التى هى وراء هذا الكون .. هناك شىء داخل النفس البشرية يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادى الذى يرونه لا يمكن ألا أن تكون وراءه قوة خارقة قادرة منظمة قوية .

ولكن العالم المادى نفسه الذى نعيش فيه .. لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور .. لا يمكن أن يقول لنا إذا استخدمنا حواسنا فقط أن هناك قوة قادرة قاهرة خلف كل هذا .. إذن لابد أن هناك قوة أخرى خلاف هذا العالم المادى هى التى وضعت فينا هذا التصور ..

وعلمتنا أن هناك شيئا خلاف المادة يجب أن يتم البحث عنه .. ومن هنا بدأ البحث والفكر والاتجاه نحو هذه القوة .. ولولم يكن هناك شعور فى داخلنا .. بل أساس قوى بوجود هذه القوة لنا بحثنا .. ولما دخل كل هذا البحث عبر التاريخ البشرية ..

الشك .. والوجود

على أن هناك ملاحظة أخرى أحب أن أسجلها .. هي أن الإنسان حين يصل إلى مرحلة التفكير في وجود الله .. أو المرحلة التي يعقل فيها أن هناك قوة خارقة وراء هذا الكون .. لا بد أن تكون قد مرت فترة من عمره .. فالإنسان عادة لا يبدأ في التفكير في مثل هذه الأمور .. أو التحدث عنها بعمق دون أن يكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين على الأقل .. ليكون لديه نضج العقل الكافي لمناقشة أمر عميق كهذا .. والسؤال الذي يجب أن يطرح هنا .. هو بأى منطق عبد هؤلاء الناس الله .. قبل الوصول إلى هذه السن .. وكيف تفهموا كل هذه الفلسفة التي تحتاج إلى عقل ناضج .. وإلى علم ودراسة وتأمل .. حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى أن هناك شيئاً وراء المادة .. ولكننا نجد العقول البسيطة التي لم تقرأ كتاباً واحداً .. ولم تدرس ما هي المادة .. تعرف أن الله موجود .. وتعبد به بفهم .. ونجد أولئك الذين لم يناقشوا هذا الموضوع على الإطلاق .. يتقبلون وجود الله .. ويقومون بعبادته .. دون أن يحسوا أن هناك تناقضا بين الكون الذي يعيشون فيه .. وبين وجود الخالق سبحانه وتعالى .. بل إن أكثرهم يحس بانسجام فطري غريب بأن الله سبحانه وتعالى .. ووجود الكون شيئان لا بد منهما .. ووجودهما حقيقة داخل النفس .. ولكن إذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود الله .. فما الذي أوجد هذا القلق في العالم .. وما الذي أوجد المذاهب المتضاربة .. ولماذا يحاول بعض الناس أن يثبت وجود الله .. وبعض الناس أن ينكر وجود الله .. ما سبب هذا التضارب العجيب الذي نراه .. مادامت النفس البشرية يوجد فيها بالفطرة ما يؤكد وجود الله ؟

الحقيقة أن الذي صنع هذا هو هوى النفس .. وكل من حاول أن يخوض في هذا الموضوع .. وضع الخيال مكان المنطق .. ووضع التصور مكان التفكير .. ومن هنا فإن العقل البشري في محاولته أن يخوض فيما هو أكبر من قدراته .. لم يستطع أن يقدم ما يريده .. فانطلق إلى الخيال ..

وأريد هنا أن أضرب مثلاً يوضح ذلك .. إذا أقفلنا باب هذه الحجرة التي نجلس فيها .. ثم طرق أحدهم الباب فكلنا يعرف أن هناك شخصاً ما هو الذي طرق الباب .. هذه قدراتنا .. وهذه نقطة لا خلاف عليها .. فإذا بدأنا نسأل أنفسنا .. من الذي طرق الباب .. هل هو رجل أم امرأة .. قصير أم طويل .. أبيض أم أسود .. عربي أم أعجمي .. هنا يبدأ الخلاف .. لماذا ؟

الشك .. والوجود

لأننا لا نحكم المنطق والعقل .. ولكن نحكم الخيال .. وهذا هو ما حدث بالنسبة لعدد من البشر .. لقد أرهقوا أنفسهم في تخيل الله .. مع أن هذا التخيل خارج عن نطاق العقل البشرى .. ومستحيل .. ذلك لأننا لكي نتخيل شيئا ما .. فإن هذا الشيء يجب أن يشبه شيئا في قدرات العقل .. فأنت حين تريد أن تشرح شكلا معيناً لإنسان .. ولا يستطيع أن يفهمك .. تقول له : إنه شيء يشبه الكرة .. وحينئذ تكون قد نقلت هذا التصور من خارج قدرة العقل البشرى إلى داخلها .. فاستطاع الإنسان أن يتصور ذلك الشيء .. ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء .. إذن كل ما سيقوله الفلاسفة هو من باب التخيل الذي لا يمكن أن يدركه العقل .. ولا يخضع لمنطق .. ومن هنا فإننا لو قطعنا المنطق لما اختلفنا .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بنفسه عما يريدنا أن نعرفه عنه وعن عبادته .. ولكننا نريد أن نتجاوز ذلك .. إلى أشياء ليست في قدرة العقول البشرية .. فنضيع .. ولو أننا تمسكنا بما قاله لنا الله .. لكان في ذلك المنطق السليم .. إذن فإن ما يؤكد وجود الله .. أنه موجود في قلوبنا بالفطرة .. وطريقة عبادة الله وطاعته .. وكل ما يريدنا أن نعرفه عنه موجود في رسالاته التي أرسلها بواسطة أنبيائه المختارين .. فالمنطق يقول أننا نتبع هذه الرسالات .. والخيال يقول أننا نبحث عما فوق قدرات العقل .. ونتوه مع أن رسالات الله سبحانه وتعالى للبشر .. هي في حقيقتها أكبر دليل على وجود الله ..

على أنني أريد أن أنبه إلى كلمة هامة قد وردت في الآية الكريمة :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى سنريهم آياتنا في الأرض واستخدم بدلا منها لفظ الآفاق .. ونحن نعلم أن القرآن ، وهو كلام الله سبحانه وتعالى ، غاية في الدقة وفي اختيار اللفظ الذي يطابق المعنى تماما .

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أنه سيكشف لنا في المستقبل آياته في الآفاق التي لا نعرفها حتى الآن .. أي أن الله سبحانه وتعالى سيكشف لنا أكثر من آية ليست في الأرض فقط .. بل في الآفاق المحيطة بالأرض .. ولعل وصول الإنسان للقمر .. ومحاولة وصوله للمريخ .. وكل ما يحدث من محاولة

الشك .. والوجود

الكشف عن أسرار الكون في الآفاق المحيطة بالأرض .. يأتى مصداقا لهذه الآية الكريمة .. ولكن بعض الناس يغتر بالعلم .. ناسيا أو متناسيا .. أن هذا العلم قد خرج إلى البشر بقدرة الله سبحانه وتعالى .

ولكن بعض الناس يحاول أن يفلسف العبادات بقدر طاقة العقل .. فيأتى المستشرقون مثلا يحاولون التشكيك في القرآن الكريم فيقولون ان الله سبحانه وتعالى قال : « والله المشرق والمغرب .. فأينما تولوا فثم وجه الله » ومع ذلك يأمرنا أن نتجه إلى القبلة في صلاتنا وهي بيت الله الحرام وتكون الصلاة باطلة إذا لم نتجه إلى القبلة .

إذا كان الله سبحانه وتعالى في كل مكان .. في المشرق والمغرب .. وأينما وليت وجهك فثم وجه الله .. ألا يتعارض ذلك مع وجود مكان محدد يجب أن نتوجه إليه في الصلاة إلى الله سبحانه وتعالى .

فالقضية هنا قضية إيمانية كبرى .. أساسها الاعتراف بالألوهية .. وبأن الله سبحانه وتعالى علمه فوق كل علم .. وأنه مادامت قد آمنت بالله .. وأسلمت بهذه القوى الكبرى .. فإن الله سبحانه وتعالى بحق الألوهية يختار لك الطريق الأحسن والأصوب .. وأنت تتبع هذا الطريق لأنه جاء من الله سبحانه وتعالى .. هذه هي قضية الإيمان والتسليم .. ذلك كما قلنا ، أن القدرة هنا ليست متساوية .. والعقل ليس متساويا .. وشتان بين قدرة الله سبحانه وتعالى وقدرة العقل البشرى .. والإيمان بالله أساسه التسليم بألوهيته .. ولهذا أتى الله سبحانه وتعالى بمسألة القبلة .

مكان القبلة لا يكلف المؤمن شيئا .. أى لا يضيف عليه أعباء جديدة أو مشقة .. فالتوجه إلى المشرق أو التوجه إلى المغرب .. أو التوجه إلى اليمين أو اليسار .. كل هذا لا يكلف المؤمن مشقة في صلاته .. فهو لا يتحمل مشقة إذا توجه إلى المغرب بدلا من المشرق .. ونفس الجهد الذى سيبدله في التوجه إلى أى جهة .. جهد متساو .

نأتى إلى الآية الكريمة التى ذكرها الله فى كتابه العزيز عن القبلة :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ ﴾

الشك .. والوجود

وأنا أريد هنا أن أنبه إلى شيء هام جدا وهو استخدام حرف (السين) ..
وحرف السين لا يستخدم إلا في شيء مستقبلي .. أى شيء سيحدث في المستقبل
ولا يمكن أن أقول سيفعل فلان كذا ويكون قد قام بالفعل .. بل لابد أن يكون
لم يقم به ولكن سيحدث في المستقبل .. أى أنه لم يتم .. ولكنه قادم ..
يأتى الله فى كتابه العزيز ويقول لنبىه الكريم « سيقول السفهاء » .. ومعنى
أنهم سيقولون أنهم لم يقولوا بعد .. ولكنهم بعد تغيير القبلة سيقولون ..
وهؤلاء الذين سيقولون هم أعداء الدين الذين يحاولون التشكيك فيه وإذاعة
الأباطيل عنه .. يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول « سيقول السفهاء » يعنى أن الله
سبحانه وتعالى يصف هؤلاء الناس قبل أن يقولوا بأنهم سفهاء .. ثم يخبر نبىه
والمؤمنين أن هؤلاء السفهاء سيقولون « ما ولاهم عن قبلتهم » ..
ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى قد تحدى هؤلاء الكفار فى أمر اختياري
مستقبلي لم يحدث .. وقال إنهم سيقولونه .. وأن هؤلاء الذين سيرددون هذا
القول هم سفهاء .. وهنا المعجزة .. فالأمر هنا اختياري يمكن للكفار أن
يفعلوه وألا يفعلوه .. ويزيد على ذلك أن الله سبحانه وتعالى وصفهم بلفظ منفر
وهو السفهاء .. والقرآن كلام الله المتعبد به إلى يوم القيامة لا تغيير فيه
ولا تبديل .. ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن هؤلاء الناس حينما سمعوا هذه
الآية لم يسألوا عن تغيير القبلة وتجنبوا كل هذا .. إذن لكانوا قد طعنوا القرآن
وطعنوا الدين فى قضية إيمانية كبرى ، ولكنهم جاءوا وقالوا أن محمدا عليه السلام
قال فى كلام يوحى إليه من الله أنه سيأتى أناس لقبهم السفهاء .. ويسألون
ما الذى ولى المسلمين عن قبلتهم .. ولكن أحدا لم يسأل ولم يثر هذا الموضوع
لتعلموا جميعا أن هذا الكلام غير موحى به .. وأن هذا الدين من عند محمد .
ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل .. وهو الفاعل .. يجعل على يد
خصوم القرآن وخصوم محمد عليه السلام ما يثبت صدق رسالته ويؤكد
حقيقتها .. فيقول سبحانه وتعالى أنه سيأتى سفهاء من الناس ويسألون عن
سبب تغيير القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام .. وأنا أنبئكم عنهم قبل أن
يأتوا .. وأقول لكم ما سيرددونه قبل أن ينطقوا به .. ثم أعلن أن هؤلاء الناس
هم سفهاء .. ويأتى فعلا هؤلاء الكفار ويقولون هذا الكلام ويرددون ما جاء به
القرآن .. مثبتين صدق كلام الله .. بينما هم يحاولون أن يضلوا عن دينه ..
وهكذا يأتى الله سبحانه وتعالى على يد خصوم القرآن بالدليل القاطع على صدق

الشك .. والوجود

هذا الكتاب الكريم ويجعل الذين يحاولون هدم هذا الدين .. مثبتين له بأمر الله وهم لا يملكون في ذلك اختيارا ..

إذن فتغيير القبلة فيه معجزة إيمانية كبرى .. على أن الله سبحانه وتعالى .. قد تحدى خصوم هذا الدين في أمر اختياري .. أما قوله تعالى « قل لله المشرق والمغرب » فهذا اعجاز آخر على أن الإسلام سينتشر في بقاع الدنيا كلها .. وأن المصلين في كل مكان سيتجهون اتجاهات مختلفة .. فهذا سيتجه شرقا إلى القبلة .. وهذا سيتجه غربا .. وذاك شمالا .. وذاك جنوبا .. ولو أنهم جميعا يتجهون إلى مكان واحد وهو بيت الله الحرام .. إلا إن بعضهم سيتجه شرقا وبعضهم غربا وبعضهم شمال شرق .. وفي كل الاتجاهات هم يتجهون إلى بيت الله كما أن الصلاة إذا تعذر على الإنسان معرفة القبلة ، يمكن أن تكون صحيحة باتجاهه إلى المكان الذي يعتقد انه الاتجاه إلى بيت الله .. كذلك تكون الصلاة في الطائرة .. أو الباخرة مع أن الطائرة أو الباخرة قد تغير اتجاهها أثناء الصلاة .. والمقصود هنا بالقبلة هو وحدة الهدف للمسلمين وهو التوجه إلى بيت الله الحرام .. والمقصود أكثر هو التسليم لله سبحانه وتعالى بالألوهية .. فأنت في الحج مثلا تقبل حجرا .. وترجم حجرا .. ولا تخضع ذلك إلى منطق العقل المحدود .. ولكن تخضعه إلى أمر الله سبحانه وتعالى .. وأن له حكمته في كل شيء قد أمر به .. فأنت في هذه الحالة أحد ثلاثة .. إنسان مؤمن بالله تتبع ما يقوله الله بحق الألوهية ، وبحق عبوديتك له .. ولذلك نجد الخطاب في الطاعات بالنسبة للمؤمنين في القرآن الكريم فيما يتعلق بالطاعات فلا يقول يا أيها الناس لا تفعلوا كذا وافعلوا كذا ولكنه سبحانه وتعالى يقول « يا أيها الذين آمنوا » .. والخطاب هنا للمؤمن الذي يدرك يقينا أن قدرات الله وعلمه أكبر وأقوى من قدراته .. وهو يتبع ما قاله الله كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليشفى من مرضه .. ولا يناقشه في هذا الدواء وذاك .. ولا في النظام الذي يتبعه في العلاج لأن المفروض أن علم الطبيب أكبر كثيرا من علم المريض .. وفرق ، ولا مقارنة بين علم الله وعلم البشر .

أما الكافر أو غير المؤمن فهذا يفعل ما يشاء فليس بعد الكفر ذنب .. تماما كما يمزق أوامر أكبر طبيب يعالجه ويتبع هواه .. فيشقى ولكن أحدا لا يلومه لأنه ليس بعد الكفر ذنب .. وإذا لم تؤمن فافعل ما شئت ..

الشك .. والوجود

أما الثالث فإنسان يعبد عقله وهو يريد أن يصل بعقله إلى منزلة متساوية مع علم الله سبحانه وتعالى .. وهذا يضل ويشقى ولا يصل إلى شيء لأن علم الله لا يحيط به أحد ..

هذه قضية إيمانية كبرى .. ولقد أراح الله العقول وجنبها كثيرا من الشقاء بأن أعطاها من علمه خلال رسالاته ما يبين لها طريق الحياة الطيبة على الأرض .. ولكن بعض هذه العقول يأبى أن تشمله رحمة الله .. فيتعب نفسه ويتعب عقله ولا يصل إلى شيء ..

ولقد جاء الله سبحانه وتعالى بقضية الإيمان الكبرى وهي التسليم لله في العبادة والتكاليف .. ولم يأت بها في أي مجال آخر .. أي أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون الإيمان امتحانا للنفس البشرية وتسليما لله سبحانه وتعالى .. فقال الله جل جلاله إذا أردت أن تعبدني وتؤمن بي وأنه لا إله إلا أنا فهذا هو الطريق .. افعل كذا ولا تفعل كذا .. وفي هذا اختبار لطاعتك وإيمانك .. ومبدى استقرار هذا الإيمان في القلب .. فإذا كنت آمنت بي ربا وخالقا فاعبدني كما رسمت لك الطريق .. وأنا حين أعبد الله .. أعبده كما يريد هو أن يعبد .. ولا أضع من تشريعي أنا وعقلي طريقا أعلم به الله سبحانه وتعالى كيف يعبد .. فهو الله وأنا العبد ..

ولعل تغيير القبلة امتحان للإيمان .. فالالتجاء إلى المشرق أو المغرب لن يكلف المؤمن جهدا .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤٣) قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ

(الآية ١٤٣ سورة البقرة)

ولكن الذين يناقشون قضية الإيمان لا يقدمون الدليل أو الحجة على ما يقولون .. ويتجنبون مناقشة جوهر الرسالة أو الطريق الذي رسمه الله لعباده .. يأتي الواحد منهم ليقول .. إن هذا القرآن ليس منزلا من عند الله ..

الشك .. والوجود

وهذه قضية لا يستطيع أن يثبتها .. ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخبره بهذا .. وهو لم يأت بعلمه الانكارى عن طريق يقينى .. بل أتى عن طريق هوى فى نفسه .. يريد أن يحققه بالهروب من شريعة الله إلى شريعة أخرى تعطيه فوق ماله من حقوق .. وتسلب الآخرين ما لهم من حقوق .. على أن الذين يجادلون ويحاولون أن يخدعوا الناس .. يأتون بأشياء كثيرة لا تمت للعلم بصلة .. نجد واحدا يقول أن أصل الإنسان قرد مثلا .. هذا شيء مبنى على الظن .. فالرجل الذى قال هذا الكلام لم يشهد قردا تحول إلى إنسان ولا يستطيع أن يحول قردا إلى إنسان .. ويجب حين نبدأ المناقشة معه .. نقول له تعال : هل شهدت قردا تحول إلى إنسان ؟ سيقول لا .. هل شهدت خلق الإنسان ؟ سيقول لا .. هل شهدت خلق القرد ؟ سيقول لا .. هل تستطيع أن تحول قردا إلى إنسان ؟ سيقول لا .. إذن على أى أساس بنيت نظريتك .. سيقول بالملاحظة والتخمين ..

حينئذ نناقشه بالملاحظة والتخمين .. نظرية الارتقاء التى يدعونها مبنية على التخمين والباطل .. وإلا فليقولوا لنا .. هل يستطيع إنسان أن يميز بين عصفور وعصفور آخر .. أو بين حصان وحصان آخر من نفس الجنس .. أو بين قرد وقرد .. الجواب طبعا لا .. ولكنك تستطيع أن تميز بين إنسان وملايين البشر رغم أننا مخلوقون بنفس الشكل .. فكل منا له عيان وأذنان وأنف وفم ويدان وقدمان إلى آخر ذلك .. أى أن الشكل واحد مثل الأمم الأخرى من الناحية الحيوانية .. ولكن كل إنسان له صورة تميزه عن ملايين البشر .. فأنت حين ترى إنسانا بين الملايين التى تسكن الكرة الأرضية تقول هذا على وهذا إسماعيل وهذه فاطمة .. وهذا أبى وهذه أختى إلى آخر ذلك .. من الذى ميز الإنسان عن أى إنسان آخر ؟ إذا كان الخلق قد تم بالارتقاء من الناحية الحيوانية .. من الذى وضع هذا التمييز .. الذى ميزه هو الله سبحانه وتعالى ليستقيم ذلك مع الحياة التى رسمها له .. وهو مميز فى الدنيا ليحاسب فى الآخرة .. فلو أن الإنسان غير مميز لكانت حياته على الأرض مستحيلة التنظيم .. وكان من غير الممكن أن يكون شهيدا على نفسه فى الآخرة .. ولقد وضع الله التمييز فى الإنسان باعجاز شديد حتى أن بصمة الأصبع لا تتشابه بين بلايين الخلق .. منذ بداية الدنيا إلى نهايتها .. والإنسان صورة لا تتكرر . ولعل أكبر دليل على ذلك صور وتمائيل الملوك التى تركوها فى الأرض وماتوا منذ مئات السنين .. فأنت

الشك .. والوجود

تستطيع أن تميز صورة رمسيس .. وكليوباترا ونابليون وغيرهم عن بقية الأحياء .. رغم أنهم ماتوا ورحلوا عن هذا العالم .. فالإنسان قائم بذاته لا يتكرر رغم تكرار الخلق .. ليكون الحساب في الآخرة حيث يعرف الناس بصورهم .. هذا التمييز الدقيق المعجز لا يمكن أن يأتي من خلق نشأ بالارتقاء أو بالصدفة .. ولكنه اعجاز الله وقدرته .. وآياته التي وضعها في الإنسان مصداقا لقوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

بل أن العقل البشرى الذى وضعه الله فى مساحة صغيرة جدا مكون من ألف مليون خلية عصبية .. هذه الألف مليون خلية تعمل وترجم وتهاجم وتدافع .. وتعطى الاشارات ..

هناك ثلاثة آلاف شعيرة تتذوق الطعام لتعطيك طعم الحلو والمر .. وكل الألوان المختلفة لتذوق الطعام .. وإذا اقترب شيء محرق من جسدك صرخت الثلاثون ألف خلية فى مخك : « احترس » .. وأشعرتك بالنار التى تقترب منها .. هذا الاعجاز لا يمكن أن يتم بالارتقاء أبدا .. والطفرة رهيبة بين الإنسان وغيره من المخلوقات .. لا يمكن أن تكون إلا من صنع قدرة الله .. وقدرة الله سبحانه وتعالى .. هى التى أخذت حفنة من تراب ثم قالت « كن » .. فكان هذا الإنسان الذى يعيش فى الأرض .. ويبنى ويعمر .. ويصعد إلى القمر .. أنظر إلى كل ما يستطيع أن يفعله البشر وما سيستطيعون أن يفعلوه فى المستقبل .. تعرف ماذا يحدث عندما تمس قدرة الله حفنة من تراب ..

على أن النفس البشرية فى أعماقها لغز حتى على صاحبها .. فيها ملكات لم يكشف عنها الله سبحانه وتعالى للإنسان حتى الآن .. فالإنسان فى كثير من الأحيان لا يفهم نفسه .. ولا يصل إلى أعماقها وأسرارها .. والسلوك البشرى لا يزال لغزا أمام معظم الباحثين .. وإذا كانت هناك قوانين تحكمنا ونعرفها .. فهناك قوانين كثيرة لا نعلم عنها شيئا تحكم معظم تصرفاتنا .. فالإنسان عندما يجب مثلا .. لا يعرف لماذا يجب فقد يكون الشخص الذى تحبه لا يستحق هذه العاطفة .. وقد يكون إنسانا بالغ السوء .. وفيه من الصفات ما تكرهه .. ومع

الشك .. والوجود

ذلك تحبه .. فالحب والكره عاطفتان لا يعرف العقل البشرى قوانين لهما .. بل أن فيها ما هو ضد المنطق والعقل في كثير من الأحيان .. فالنفس البشرية في عواطفها مزيج غريب من المنطق واللامنطق .. والعقل واللاعقل .. والتضحية والأناية .. وهى لغز وستظل لغزا ..

وإذا كانت النفس البشرية لغزا لا نستطيع أن نفهمه .. فإن فيها فطرة نحس بها جميعا .. تلك الفطرة هى صلة هذه النفس بالله .. فالله يوجد فينا بالفطرة .. يعرفه الطفل .. والشاب والكهل .. والمثقف والجاهل .. وهؤلاء جميعا قد لا يستطيعون أن يشتركوا في استيعاب شئ واحد .. ولكنهم جميعا يفهمون كلمة الله .. وتهتز نفوسهم عند سماع كلام الله رغم الفوارق بين العقول .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يخاطب ملكات في النفس البشرية لا نعرفها نحن .. ولكن الله سبحانه وتعالى عليم بها .. وأسعد النفوس هى النفس المطمئنة .. تلك التى أعطاه الله سعادة الدنيا والآخرة .. اطمأنت إلى قوله وعدله .. وقوته وقدرته .. وعلمه ووجوده .. اطمأنت إلى أن الله حق وأن الآخرة حق .. وأن الدنيا حق .. فعملت لكل عمله .. واطمأنت إلى أن الله ينصرها لأنها اختارت الطريق الصحيح .. واطمأنت إلى أن قضاء الله خير .. ما أعطى خير .. وما منع خير .. فالمنع رحمة لأنه بعد عن الشر أو حفظ منه ..

قضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير في المنع وخير في العطاء .. وهى تؤمن أن الله يدافع عن الذين آمنوا .. وأن الله يحب عباده المؤمنين .. وأنه رحيم في قضائه مع النفس المؤمنة .. وأنه لا يوجد ظالم أقوى من عدل الله .. ولا جبار يعلو على قدرة الله .. ولا مفسد يفلت من عقاب الله ..

ولكننا في كثير من الأحيان ننظر إلى الأشياء بمنظار آخر .. فنحن نرى فيما يحدث اجحافا وظلما .. ونحس بأن المظالم تملأ الدنيا .. ونسأل أين عدل الله .. ولكننا فى الحقيقة تضيق صدورنا لأن جزءا من الحكمة مخفى عنا . ولقد شاءت رحمة الله أن يفسر ذلك لنا .. لنرى الفرق فى كثير من الأحيان بين الظاهر والحقيقة .. وهذا موضوع فصلنا القادم عن خواطرى حول سورة الكهف .

الفصل الثالث

خِطَابٌ حَوْلَ سُورَةِ الْكَهْفِ

خواطر حول سورة الكهف

عندما نتحدث عن معاني القرآن الكريم .. فإننا في كثير من الأحيان يجب أن نتنبه إلى الحكمة من بعض الآيات التي نقرأها .. ذلك أننا نمر أحيانا على أشياء دون أن نتنبه إلى المعنى الذي وضعه الله سبحانه وتعالى فيها .. وأمرنا بأن نتدبر فيه ..

على أن ذلك لا يعني أن نحاول تحميل القرآن أكثر من معانيه .. وبعض العلماء اندفاعا مع العصر .. أو محاولة في اثبات اعجاز القرآن .. يقومون بربط بعض النظريات العلمية التي تزداع والتي تبهر الناس .. يحاولون ربط هذه النظريات ببعض آيات القرآن الكريم ..

والخطورة هنا أن النظرية العلمية تشمل الخطأ والصواب .. فهاذا يمكن أن يحدث إذا حملنا آيات القرآن ببعض النظريات .. ثم تبين بعد ذلك أن هذه النظريات غير صحيحة .. ماذا يكون الموقف .. إن الحماس لا يجب أن يأخذنا إلى الحد الذي نحاول فيه أن نجد في القرآن الكريم ما يتوافق مع نظريات العلم الحديث ..

والذي أحب أن أبينه .. أن القرآن الكريم .. كتاب دين وليس كتاب علم .. علم أرضي .. بمعنى أنه لا يشرح لنا نظريات الهندسة .. أو قوانين الطب أو غير ذلك .. بل إن الله سبحانه وتعالى في أول كتابه العزيز قد حدد الهدف .. وقال في أول سورة البقرة :

﴿الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ سُبُلَ الْبَقَرَةِ﴾

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

ومن هنا وفي أولى آيات سورة البقرة .. أولى سور القرآن .. حدد الله سبحانه وتعالى هدف هذا الكتاب وأنه للهداية لمن آمن .. كانت هذه مقدمة لا بد منها .. عن خواطر حول سورة الكهف .. فإن الذين يبحثون في القرآن الكريم .. يجب أن يتأملوا في كلام الله سبحانه وتعالى .. فالله سبحانه وتعالى قد وضع في آياته من الأسرار ما يحتاج منا إلى التأمل وعدم المرور عليها مروراً عابراً .. وإذا كنت سأحدث اليوم عن خواطري

خواطر حول سورة الكهف

عن سورة الكهف . . فذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع في هذه السورة أشياء كثيرة يجب أن يقف عندها العقل . . وقبل أن نبدأ الحديث عن بعض آيات سورة الكهف . . فإننا نتوقف كثيرا عند اسم السورة . . الاسم هو سورة الكهف . . ما هو الكهف . . الكهف كما نعرفه هو فجوة داخلية في الجبل . . ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يخلق في أماكن كثيرة كهوفا . . لنعرف ونحس ونرى ونشاهد الكهف . .

إذن فالكهف هو فجوة داخلية في الجبل . . هل تستطيع وأنت خارج هذه الفجوة أن تعرف ما بداخلها . . الجواب طبعا لا . . لا بد أن تبحث قليلا وتكتشف حتى تصل إلى ما هو داخل هذا الكهف وتعرفه معرفة حقيقية . . ومن هنا فإن اسم السورة لا يجب أن يمر علينا دون أن نفكر فيه . . ونعلم أن الله سبحانه وتعالى قد جاء فيها بكهوف معنوية . . يعنى أشياء تنبئنا بما يستتر هنا من حقائق في الكون . . وفي أحداثه . . فمثلا نجد أن قصة موسى عليه السلام مع الخضر . . أو مع الإنسان الذي آتاه الله العلم . . هي قصة المراد منها ألا نحكم على الأشياء بالظاهر . . فاغراق السفينة التي يملكها مساكين كان عملا إذا نظرنا إلى ظاهره شرا . . ولكن حقيقته كان خيرا لأنه انقذ سفينة المساكين من ملك ظالم . . كان سيغتصبها . . وقتل الطفل ظاهره شر . . ولكن باطنه هو حفظ للأم والأب الصالحين . . رزقهما بطفل تقى . . يحفظ لهما صلاحهما . . ولا يرهقهما طغيانا وكفرا . . وبناء السور لأهل قرية من اللثام الذين رفضوا أن يطعموا شخصين غريبين جائعين . . هو عمل لا يتفق مع منطق الخير . . ولكن الحقيقة أن هذا السور قد بنى ليحفظ كنزا لطفلين يتيمين كان أبوهما صالحا وتوفى . . ليحفظ هذين الطفلين كنزا تحت هذا الجدار . . حتى يبلغ الطفلان أشدهما ويستخرجا كنزهما . . ولو تهدم الجدار لأخذ أصحاب القرية من اللثام الكنز . . وحرم الطفلان منه . .

على أنني سأحدث عن هذا بالتفصيل . . فتلك الآيات لا يمكن تناولها في سطور بسيطة كهذه . . ولكنني أردت أن أشير إليها لسبب هام وهو معنى الكهف . . فالله يريد أن يخبرنا أيضا ألا نأخذ الأشياء بظاهر الأمور . . فالنتج يبدو لنا شرا وقد يكون في قضاء الله خيرا والعكس صحيح . .

خواطر حول سورة الكهف

معنى الكهف

والكهف الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة .. كان كهفا حسيا أيضا .. أى كهف حقيقى .. التجأ إليه فتيه مؤمنون .. وكان هذا الكهف سترًا لحق إيمانى .. خائف على نفسه من طغيان باطل كافر .. على أنى سأبدأ فى خواطرى بثلاثة أشياء تبين المعنى .. وهذه الأشياء الثلاثة .. كانت مستورة عن علم الإنسان وقت نزول القرآن .. ثم كشفها الله للعلم البشرى بعد نزول القرآن ..

فى قصة الاسكندر ذى القرنين .. ونحن لن ندخل هنا فى مناقشة حول من هو الاسكندر وتحديد شخصيته إلى آخر هذا .. فليس المقصود فى القرآن الكريم من تحديد أعلام القصص .. أن يحدد شخص بذاته لأن التشخيص قد يفسد القضية .. فإذا حاولنا أن نحدد من هم أهل الكهف مثلا .. ومن هو فرعون موسى .. ومن هو قارون .. إلى آخر الشخصيات التى ذكرت فى القرآن .. فإننا نتوه عن الحقيقة التى أراد الله سبحانه وتعالى أن نعرفها .. ذلك أن هذه الشخصيات تتكرر فى كل زمان ومكان .. وهى قصص مضرورية لكل عصر .. والعبرة هنا تأتى بالشيوع .. أى تأتى على من تنطبق عليهم القصة .. فى أى زمان كانوا وفى أى مكان وجدوا ..

فعندما يضرب الله مثلا بالذين كفروا .. امرأة نوح .. وامرأة لوط .. فهو لا يعنى بذلك هاتين المرأتين بالذات فقط .. وإنما يعنى كل امرأة يكون زوجها صالحا وتخونه .. وعندما يضرب المثل بامرأة فرعون .. فإنما يعنى كل امرأة مؤمنة وزوجها كافر .. وهذا يتكرر فى كل عصر .. والحادثة الوحيدة التى لن تتكرر هى قصة مريم .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « ومريم ابنة عمران » أى أنه نسبها لأبيها لأنها لا تتكرر ..

إذن فالتشخيص فى القرآن الكريم .. ليس معناه انتهاء الحدث بالشخص .. ومن هنا فإننا حينما نتحدث عن ذى القرنين .. نتحدث عن رجل مكن الله له من كل شىء .. وأتاه من كل شىء سببا .. ولا نتحدث عن الخلاف حول شخصية ذى القرنين .. ومن هو إلى آخر ما يراد به عن البعد عن الحكمة .. إلى فرعيات ليست مطلوبة ..

خواطر حول سورة الكهف

نأتى إلى آية هامة في قصة ذى القرنين .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجدهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾

وتتوقف القصة عند ذلك وتنتقل إلى شيء آخر . . هنا لم يذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية . . سوى أن ذا القرنين قد وصل إلى قوم لم يجعل الله بينهم وبين الشمس سترا . .

بعض الناس يمر على هذه الآية دون أن يتنبه إليها . . ولكن العقل يجب أن يقف هنا ليسأل . . ما هي الحكمة في هذه الآية . . فإذا فكرنا فيها . . نجد أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن هناك قوما لم يجعل لهم من دون الشمس سترا . .

ما معنى هذا الكلام . . ما هو المقصود من أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لهم من دون الشمس سترا . . هل المفروض أن هذه الأرض قاحلة . . ليس فيها شجر يستر الناس عن الشمس . . أم المقصود أنه ليس لديهم مساكن يجلسون فيها لتسترهم من الشمس . . أم المفروض أنهم عرايا مثلا . . ليس عندهم ملابس تقيهم الشمس .

كل هذا قد يخطر على العقل البشرى . . ولكن الحقيقة أن كل هذه الأشياء لا تستر الشمس فالشمس موجودة خارج المنزل . . ولو جلست فيه . . كما أنها موجودة خارج ظل الشجرة . . ولو جلست تحتها . . كما أنها موجودة حتى ولو ارتديت الملابس التي تقيك من الشمس . . إذن كل هذا قد يبعد الشمس عنك . . ولكنه لا يسترها . . أى لا يخفيها . .

ولكن ما هو الذى يستر الشمس . . الذى يجعلها تختفى . . تغيب . . تذهب . . ما الذى يستر الشمس فى أى وضع من الأوضاع . . بحيث لا تجدها . . إنه الظلام . . إنه الليل . . الليل هو الذى يستر الشمس . . فلا تجد أشعتها فى أى مكان . . ولا تنظرها أينما كنت . . وكيفما كنت . . ولو صعدت لأعلى مكان . . ولو خرجت إلى الشارع . . فإنك لا ترى الشمس لأنها مستورة عنك بالظلام . .

خواطر حول سورة الكهف

هنا يجب أن نتوقف قليلا .. الله سبحانه وتعالى في الآية الأولى وضع لنا القوانين التي يجب أن يسير عليها الممكن في الأرض .. وقال لنا إننا يجب أن نضيف إلى الأسباب التي يعطيها الله سبحانه وتعالى أو يمكننا منها .. ثم بعد ذلك عندما بلغ ذو القرنين بين السدين وجد يأجوج ومأجوج أنهم قوم مفسدون في الأرض .. ولكنه في الآية الكريمة :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجدهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ

دُونِهَا سِتْرًا ﴾

ثم يزد الله سبحانه وتعالى شيئا مما قام به ذو القرنين عندما بلغ هذه الأرض .. ولما كان القرآن الكريم كل حرف فيه بميزان دقيق .. فلا بد أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا شيئا في هذه الآية الكريمة وحدها .. إذن ما هي الحكمة المستورة في هذه الآية الكريمة ..؟
بعض الناس يمر على هذه الآية ولا يسأل نفسه هذا السؤال .. الله سبحانه وتعالى جعل لذي القرنين عملا حين بلغ مغرب الشمس .. وجعل له عملا حين بلغ السدين .. ولكن في هذه الآية الكريمة لم يجعل له عملا .. إذن لاشك أن المراد هنا هو ما ذكره الله سبحانه وتعالى :

« لم نجعل لهم من دونها سترا »

ومن هنا فإن معنى الآية الكريمة :

« لم نجعل لهم من دونها سترا » ..

أن الاسكندر قد وصل إلى مناطق في الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة .. أى أنه لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقي أجزاء الكرة الأرضية .. بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام .. وإذا بحثنا الآن نجد أن هناك مناطق في العالم تغيب عنها الشمس ٦ شهور في العام .. فالشمس لا تغيب عن القطب الشمالي مدة ٦ شهور .. وعن القطب الجنوبي مدة ٦

خواطر حول سورة الكهف

شهور .. فكأن الله تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن في الأرض لا تخضع لقواعد تعاقب الليل والنهار كالتى تخضع لها باقى أجزاء الأرض .. وإنما تشرق الشمس عليها دون أن يسترها الظلام لفترة طويلة ..

الأذن .. والحياة .. والبعث

على أن لنا عودة فى الحديث عن ذى القرنين والآيات التى ذكرت عنه فى القرآن الكريم .. ولكن فلنبداً الخواطر حول سورة الكهف من أولها .. كما قلت .. الكهف فجوة داخلية فى الجبل .. لا بد أن نبحث قليلاً ونكتشف ما هو داخل هذا الكهف ونعرفه .. والكهف الحسى الذى ذكره الله أولاً فى السورة هو الفتية الذين آمنوا برهم .. هؤلاء الفتية كانوا مؤمنين .. خافوا على أنفسهم من طغيان باطل كافر .. فانتقلوا إلى كهفٍ يختبئون فيه حتى لا يدفعهم هؤلاء الكفار إلى عدم الإيمان ويعودوا بهم إلى الكفر . والله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا .. إنه مهما ظهر الباطل وطغى .. فإن الإيمان موجود فى الدنيا .. قد يكون مستورا عنا .. ولكنه موجود لا ينتهى أبداً .

هذه هى الآيات الأولى من السورة .. ولكننا عندما نتأمل .. فإننا نجد فى هذه الآيات عدداً من المعجزات القرآنية .. التى يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بها .. وأن يوجه نظرنا إليها .. يقول الله تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (١١)

وهذه هى المعجزة الأولى فالله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الشيء الذى لا ينام فى الحواس هو الأذن .. أنت حين تغمض عينيك لا ترى .. ولكنك لا تستطيع أن تغمض أذنك أبداً .. الأذن تظل مفتوحة تؤدى وظيفتها سواء أردت أو لم ترد .. إذا كنت لا تريد أن ترى شخصاً .. فأنت تغمض عينيك فلا تراه أو تشيح عنه بوجهك .. ولكنك إذا لم ترد أن تسمع صوت نفس الشخص .. فأنت لا تستطيع أن تغمض أذنك ..

وإذا كان هناك إنسان نائم .. فقد تمر بيدك قرب عينيه فلا يستيقظ .. ولكنك متى أحدثت صوتاً بجانب أذنه فإنه يستيقظ على الفور .. فالله سبحانه

خواطر حول سورة الكهف

وتعالى يريد أن يخبرنا أولا أن الأذن لا تنام أبدا .. ثانيا إنها أداة الاستدعاء
ثالثا : إنك لو فصلت الأذن عن ضوضاء الدنيا .. فإن الإنسان يمكن أن ينام
فترة طويلة .. ولكنه من المستحيل أن ينام إذا تعرضت الأذن لضوضاء الدنيا ..
ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون سنين
طويلة .. دون أن يحسوا بما حولهم .. فإنه لم يأخذ أبصارهم .. ولم يجعل حركة
قلوبهم تهبط قليلا .. كحركة قلب النائم .. ولكنه ضرب على آذانهم وكان هذا
كافيا جدا .. ليفصل بينهم وبين الدنيا تماما طوال فترة نومهم .. والأذن هي
أداة الاستدعاء في الآخرة ..

ثم ننتقل إلى آية أخرى .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَحْسِبُهُمْ أَيْقَازًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۗ ﴾

العقل البشرى يجب أن يتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى :

« ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال »

لماذا قال الله سبحانه وتعالى هذا الكلام .. وما هو الداعي لأن توضع هذه
الألفاظ في الآية .. مع أنها لو حذفنا لا تغير من السياق كثيرا .. كما قلت
وأقول دائما .. إن لكل كلمة في القرآن الكريم معنى معجزا .. بعضه وصل
إليه العقل .. والبعض الآخر سيصل إليه العقل بعد سنوات طويلة .. إذا
تأملنا في الآية الكريمة .

« ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » .

نجد أن الله سبحانه وتعالى سيبحث هؤلاء الفتية كآية من آياته .. أى
سيعيدهم مرة أخرى إلى حياة البشر .. ومن هنا فإنه يضع قواعد الصحة للرقاد
الطويل .. فنجد أننا الآن إذا أصيب أحدنا بمرض يتطلب رقادا طويلا .. فإن
الأطباء يحذرون من أن المريض يجب أن يقلب يمينا ويسارا حتى لا يصاب جسمه

خواطر حول سورة الكهف

بالقروح .. أو تحدث له انسدادات في الدورة الدموية في القدمين .. أو في الجزء الأسفل من الجسم ..
ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن الرقاد الطويل يجب أن يتم معه تقليب للإنسان الرقاد .. بحيث لا يرقد على جزء واحد من جسده فترة طويلة .. فيصاب بأضرار بالغة يعرفها الطب جيدا هذه الأيام .. كشف عنها الله سبحانه وتعالى من علمه للناس فعرفها لهم .
ومن هنا فإنه سبحانه وتعالى .. وقبل أن يكتشف العالم البشري ذلك بسنوات طويلة وضع هذه الآية الكريمة ليخبرنا بأنه مادام هناك رقاد طويل فيجب أن يقلب الإنسان يمينا ويسارا .. وأن يكون هذا أساسا في المحافظة على صحته .. أو على الأقل في منع أضرار بالغة عنه ..

المشيئة لله

ونأتى للآية الكريمة في سورة الكهف :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۗ لَا إِلَآ أَن يَسْأَأَ اللَّهُ ۗ وَآذْكَرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۗ ﴾

هذه الآية يجب أن نتوقف عندها وقفة كبيرة .. لماذا : .. لأنني أنا أقول انني سأفعل كذا غدا .. وأنت تقول إنك ستفعل ذلك غدا .. والوحيد القادر على الفعل هو الله سبحانه وتعالى .. إن شاء فعل وإن شاء لا يفعل .. ونحن عاجزون تماما عن أن نفعل أو لا نفعل إلا بمشيئة الله .. ولأوضح ذلك قليلا .. الذي يريد أن يفعل شيئا .. يجب أن يملك أولا القدرة على الفعل .. ويجب أن يملك ثانيا الوقت الذي سيتم فيه الفعل .. ويجب أن يملك ثالثا المكان الذي سيتم فيه الفعل .. بمعنى أنني إذا قلت إنني سأذهب لمقابلة فلان غدا .. وهذا هو أبسط الأشياء فيها يقول الإنسان إنه سيفعله .. فإنني يجب أن أملك القدرة في أن أكون موجودا غدا على قيد الحياة .. حتى تتم هذه المقابلة .. وأنا لا أملك هذه القدرة .. فالإنسان لا يملك القدرة على أن يهب نفسه الحياة لحظة واحدة .. وليس يوما كاملا ..

خواطر حول سورة الكهف

إذن قولي إنني سأقابل فلانا غداً قول خاطيء .. لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون موجوداً غداً على قيد الحياة أم لا .. الحياة رهن بمشيئة الله سبحانه وتعالى .. إن شاء أبقاها .. وإن شاء أخذها .. فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى عالم القدرة .. فأنا قد أكون موجوداً غداً .. ولكنى لا أستطيع أن أذهب لمقابلة هذا الشخص .. قد أمرض فجأةً .. أو قد يأتيني شيء مفاجيء عاجل .. أو قد يهبط على ضيف غير متوقع مثلاً .. أو يحدث أى شيء آخر .. المهم أنى قد أكون على قيد الحياة .. ومع ذلك لا أستطيع أن أذهب لهذه المقابلة .. بسبب أشياء لا أملك القدرة على عدم حدوثها ..

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى النقطة التالية .. وكنت أنا على قيد الحياة .. وبصحة جيدة .. وانتفت جميع الظروف التى تمنعني من أن أتم هذه المقابلة .. فهناك الطرف الآخر .. وهو الشخص الذى سأقابلة .. وقد أذهب فلا أجده فى مكتبه لأى سبب .. يتعطل فى الطريق .. يمرض .. يأتية عمل مفاجيء .. يحدث له أى شيء مفاجيء يمنعه من حضور المقابلة .. كأن تتعطل سيارته .. أو يصطدم بسيارة أخرى فيضطر للذهاب إلى الشرطة .. أو تحدث له أى مشكلة فى الطريق .. أو فى المنزل ..

المهم فى هذا كله .. اننى لا أملك عنصراً واحداً من عناصر القدرة على العمل لأقول اننى سأفعل كذا .. ولكن من الذى يملك القدرة .. هو الله سبحانه وتعالى .. فهو الذى يقول كن فيكون .. حى لا يموت .. باق لا يفنى .. لا يستطيع أحد أن يشغله عن شيء .. أو أن يمنع فعله أو قضاءه .. فإنه متى قضى شيئاً فإنه يكون .. لماذا .. لأنه ليست هناك قوة تستطيع أن توقف .. أو تمنع .. أو تؤجل .. أو تؤخر .. أو تقدم ما يريد الله سبحانه وتعالى ..

ومن هنا فإن الفعال لما يريد هو الله سبحانه وحده .. أما نحن جميعاً كلنا .. كل البشر فعالون لما يشاء الله .. فهادام العمل يدخل فى المشيئة فهو سيتم .. لأن الله وحده هو الفعال .. وهادام العمل لا يدخل فى المشيئة فهو لن يتم .. لأن الله وحده هو الفعال ..

ومن هنا فإن قول الله سبحانه وتعالى :

وَلَا تَهْوِيْنِ لِمَنْ يَمْشِي بِكُلِّ خَلْعٍ إِنَّ خَلْقَ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ

خواطر حول سورة الكهف

يريد أن يلفتنا إلى حقيقة كونية هامة .. لأن الذى يتم هو مشيئة الله
وارادته .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَذْكُرَّ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾

حتى تتذكر دائما أن الله هو الفعال ..
والإنسان أصله من تراب .. ثم من نطفة .. وهو الخلق بعد آدم .. التراب
أو النطفة لا تستطيع أن تفعل شيئا من هذا التراب الذى ندوس عليه كل يوم هو
نفس الجسد الذى نمشى فوقه .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل
الإنسان يفيق من الغرور ويذكره بخلقه .. وإذا كنت أنت من تراب وأنا من
تراب .. فمن أين جاءتك القدرة الخارقة التى تجعلك تنسى الله وتعبد
نفسك ..

الله سبحانه وتعالى هو الذى وهبك هذه القدرة .. هو الذى خلق الكون
لك .. وسخره من أجلك .. ولكى تعرف هذه الحقيقة يجب أن تعلم جيدا أن
الله فعل هذا كله من حفنة من تراب .. فهؤلاء الذين تراهم أمامك يعبدون
أنفسهم هم حفنة من تراب مستها قدرة الله سبحانه وتعالى .. ولكى تسجد لهذه
القدرة تأمل قليلا فيما استطاعت أن تفعله فى حفنة من تراب .. وكيف حولتها
إلى إنسان يسود الكون كله ..

إن الله يريد إن يذكرنا بنعمه وأن نعلم دائما أن الفضل منه .. وأن الذى
أعطى يستطيع أن يأخذ .. وأن الذى منح يستطيع أن يمنع .. وهذه مسألة
هامة جدا فى سلوكيات الحياة .. لماذا؟ .. لأن الإنسان حينما يغتر بقدرته يبطش
ويظلم ويفتك بالضعفاء .. ويطغى فى الأرض .. أما إذا تذكر أن هذا كله من
قدرة الله وأن الله سبحانه وتعالى الذى منح يستطيع أن يأخذ .. والذى أعطى
يستطيع أن يوقف هذا العطاء .. فإن خشية الله تدخل فى قلبه فتجعله يراجع
نفسه فلا يبغي ولا يظلم ويخشى الله فى كل عمل يعمل .. وفى هذا صلاح
الكون كله ..

خواطر حول سورة الكهف

الفضل لله وحده

ثم بعد ذلك تأتي الآية الكريمة في استكمال الحوار .

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَأُقُوَّةً إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرِنَا أَقْلًا مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۗ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ ﴾

هذه الآية ترد الشيء إلى أصله .. فالرجل هنا يذكره بقدرته الله التي نسيها .. ويقول له أنت نسيت الذي وهب .. وظننت أن ذلك من فعلك أنت .. وأن الأسباب هي التي أعطتك كل هذا .. ولكن الله هو الواهب الحقيقي .. وهنا يجب أن نتنبه إلى الكهف المعنوي الذي تحدثنا عنه في أول الكلام فالعطاء هنا مستور داخل كهف الحقيقة .. المعطى هو الله سبحانه وتعالى .. ولكن هذه الحقيقة مسورة بالأسباب .. ومن هنا نجد بعض الناس يقول : إنما أوتيته على علم عندي .. والبعض الآخر يقول أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا .. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبينها إلى الحقيقة في كهف ظاهره الأسباب .. وباطنه قدرة الله سبحانه وتعالى ..
فإذا قال الله سبحانه وتعالى على لسان الرجل الأقل مالا وولدا .. قال :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ۗ أَوْ يُصْبِحُ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۗ ﴾

هنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يأتي بعاملين أساسيين في النعمة التي يتمتع بها ذلك العبد الذي اغتر بماله وبقدرته .. فقال :

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ۗ أَوْ يُصْبِحُ مَاؤُهَا

غَوْرًا ۗ

خواطر حول سورة الكهف

لماذا ذكر الله سبحانه وتعالى هذين العاملين .. ولم يذكر أية عوامل أخرى ..
كان يقول له مثلاً ربما الله يستطيع أن ينهى أجلك غدا .. أو يستطيع أن يصيبك
بمرض فلا تستطيع الحركة .. أو أى نوع آخر من أنواع النعم التي يستطيع الله
سبحانه وتعالى أن يسلبها من هذا الرجل الذي أصابه الغرور ونسى نعمة الله ..
السبب الأساسي في ذلك أن هاتين النعمتين بالذات .. هما سبب وجود هذه
الجنة .. أو الأرض الكثيرة الثمر .. الكثيرة الخير .. وهذان العاملان لا دخل
لهما في قدرة الرجل نفسه على العمل والعطاء .. حتى يمكن أن يقال إنه هو الذي
استطاع أن يهب لنفسه هذه الأرض الكثيرة الخير .. والله سبحانه وتعالى يريد
هنا أن يذكرنا بأسباب قد تكون خافية علينا .. ولكنها الأساس في الخير كله ..
فالماء الذي يسقى منه الرجل هذه الجنة الصغيرة .. هذا الماء لم يخلقه هو .. ولن
يستطيع أن يخلقه .. بل أن الله سبحانه وتعالى هو الذي ساقه إليه .. ذلك أن
العالم كله الآن وبعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن الكريم عاجز عن أن يوفر
كوب ماء لشخص واحد .. وأمامنا المثل الحي .. هذه المساحات الشاسعة من
الصحراء .. لو أن الإنسان يستطيع بعلمه أن يخلق الماء .. لخلق لها الماء الذي
يحوّلها من صحراء قاحلة إلى جنات وافرة الظلال والثمر ..
فالأساس هنا في هذه الجنة وفي الزرع والثمر الموجود فيها هو قدرة الله سبحانه
وتعالى الذي وفر لها الماء .. وهذه ليست قدرة أى بشر .. ولا يستطيع بشر أن
يدعيها حتى يومنا هذا .. فالعلم البشرى بكل قدراته عاجز عن أن يخلق نهراً
وسط صحراء .. ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى خلقت مئات الألوف من
الأنهار .. التي تسقى كل من يعيش على الأرض من إنسان وحيوان وزرع ..
وتسقيه بما يحتاج .. وأحياناً بأكثر من حاجته ..
إذن العامل الأساسي في وجود الخير كله هو الماء .. هو توافر الماء الذي خلقه
الله سبحانه وتعالى .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكر الإنسان
الذي أصابه الغرور في نفسه .. بأن الأساس في كل هذا هو الماء الذي وفرته لك
والذي لا تستطيع أنت أن توفره .. ويقول سبحانه وتعالى .

﴿ أَوْ يُصِغِرَ مَاؤُهُمَا عُرْوَةً فَلا تَسْتَطِيعُ نَهْرًا طَلَبًا ﴾

خواطر حول سورة الكهف

والله سبحانه وتعالى يحفظ هذا الزرع من كل ما يهلكه من أنواء وعواصف
وصواعق قد تقضى عليه .. وهذا ليس في قدرة البشر .. بل هو ارادة الله
سبحانه وتعالى .. يعطيها لمن يشاء ويمنعها عن من يشاء .. ومن هنا قوله تعالى :

﴿ وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾

الله .. هو الفعال

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى حقيقتين مستورتين عنا في هذه
النعمة .. وهاتان الحقيقتان هما الأساس .. الحقيقة الأولى أن الله سبحانه
وتعالى قد أعد هذه الجنة بالماء أساس الحياة والزرع فيها .. والحقيقة الثانية قد
حفظها وبارك فيها .. وكلا الأمرين ليس للبشر فيهما مشاركة .. بحيث يستطيع
أن يجادل ويقول أنا فعلت وفعلت .. فالإنسان مثلا حين يزرع .. يضع الحب
في الأرض ويرعاه .. ولكن قدرة الله سبحانه عالى هي التي تجعل هذا الحب في
الأرض ينمو ويندر .. ولكن هنا مشاركة بشرية ظاهرية قد تجعل البشر يقول أنا
الذى زرعت .. ولكن الله سبحانه وتعالى أتى بحقيقتين لا يستطيع أى إنسان
فيهما أن يقول أنا شاركت .. الحقيقة الأولى توفير الماء الذى يكفى لاعطاء الحياة
لهذه الأرض وجعلها صالحة للزرع .. وبدون هذا الماء لا يمكن أن توجد مثل
هذه الجنة .. والحقيقة الثانية أنه حفظها وبارك فيها .. وكلتا الحقيقتين كما قلت
لا يستطيع الإنسان أن يشارك فيهما أو يدعى أنه هو الذى أوجدهما ..
وهكذا .

﴿ وَأَحْيِطْ بِشْمَرِهِ ۖ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا ۖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

عُرْوَشِهَا ۖ

ولكن لماذا أحيط بشمره ؟ حتى يعرف أنه لا حول له ولا قوة .. وإن المال
والنفر اللذين اعتز بهما من دون الله لا يملكان له نفعاً ولا ضراً . ومن هنا فإنه
أصبح ليجد الجنة خاوية على عروشها .. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين له أن

خواطر حول سورة الكهف

من يعتز بهم من دون الله لن يستطيعوا أن يوقفوا قضاء الله . . وأن الله سبحانه وتعالى وهبه هذه الجنة بقدرته هو . . فلما كفر بالنعمة . . واغتر بالمال والولد . . زالت عنه وذهبت . . والتفت حوله فوجد الآية الكريمة :

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾

أى أنه بحث عن أولئك الذين كان يعتز بهم فلم يجد أحدا يستطيع أن ينصره أمام قدرة الله . . وما كان منتصرا أى أنه حتى لو حاول ذلك بما له من مال أو نفر فلن يكتب له النصر . . .
هنا تأتي لحظة الندم فيقول :

﴿ يَلْبِئْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٤٤)

فقد أحس عندما ذهبت النعمة أن الواهب هو الله وحده وهو الذى أخذها . . ولكنه كان قبل ذلك يقول . . ان المال والنفر الذين عنده هم الذين يحفظون هذه النعمة من الزوال ويرعونها . . وتمضى هذه الآية الكريمة . . بعد أن ضرب الله هذا المثل للرجل الذى أنعم عليه . . فأشرك غير الله فى هذه النعمة . . فأخذ الله منه ذلك . . إن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الشركاء عن الشرك . . فالعمل الذى يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى . . يتقبله الله ، والذى يقصد به ارضاء بشر ما . . ويفسره صاحبه على أنه تقرب إلى الله سبحانه وتعالى . . فالله غنى عنه . . وكذلك النعم . .

والله يضرب لنا هذا المثل . . حتى نتخذ الطريق السليم فى الحياة . . فلا أدفع مبلغا من المال مثلا لعمل خير ويكون القصد الحقيقى من ذلك هو ارضاء شخص ما . . أو قضاء مصلحة دنيوية . . أو الحصول على سمعة أو شهرة . . أو أى غرض دنيوى آخر . . فإذا أتيت إلى حفل ما . . وقمت أعلن تبرعى بمبلغ من المال حتى يقال عنى إننى رجل خير ورجل بر وإحسان فإنى لا أفعل ذلك لوجه الله . . وإنما أشرك فى ذلك ما أبتغيه من سمعة الدنيا . . والله سبحانه وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك . . وإذا قدمت مبلغا من المال وأنا

أبتغى مرضاة الله .. فالله أغنى الشركاء عن أن يشرك معه أحدا في عمل يقصد به وجهه ..
ومن هنا .. فإن الذى فعله صاحب الجنة فى أنه نسب الفضل إلى نفسه .. وأنكر نعمة الله أو الذى يفعله بعض الناس فى أنه يريد أن يحقق مصلحة دنيوية بعمل ظاهره الخير .. كل هذا يخبرنا الله سبحانه أنه لا يتقبله .. العمل الصالح لله وحده .. أما إذا كان عملا صالحا نقصد به مصلحة دنيوية وفى نفس الوقت يقال إنه لله .. فالله غنى عنه ..

حديث قدسى

●● قال الله عز وجل لآدم : يا آدم انى عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها ؟ قال : وما لى فيها يارب ؟ قال : إن حملتها أجرت وأن ضيعتها عذبت . قال : فقد حملتها بما فيها فلم يلبث فى الجنة إلا ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجته الشيطان منها .

حديث قدسى

●● ينزل الله تبارك وتعالى فى آخر ثلاث ساعات يقين من الليل ، فينظر الله فى الساعة الأولى منهن فى الكتاب الذى لا ينظر فيه غيره ، فيمحو ما يشاء وينظر ، ثم ينظر فى الساعة الثانية فى جنة عدن وهى مسكنه الذى لا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصديقون ، وفيها ما لم يره أحد ولا خطر على قلب بشر ، ثم يهبط فى آخر ساعة من الليل فيقول : ألا من مستغفر يستغفرنى ، فأغفر له ؟ ألا سائل يسألنى ، فأعطيه ؟ ألا داع يدعو ، فأستجيب له ؟ حتى يطلع الفجر ، وذلك قول الله : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) فيشاهده الله وملائكة الليل والنهار ..

الفصل الرابع

عَلَّمَ اللَّهُ.. وَعَلَّمَ الْأَرْضَ

علم الله .. وعلم الأرض

وقبل أن نترك الحوار حول سورة الكهف .. يجب أن نتعرض إلى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام وقصة ذى القرنين .
واسم هذا العبد الصالح مسألة لا يحدث عليها جدال .. إنما هو عبد علمه الله من لدنه علما .. والله سبحانه وتعالى حين يضرب الأمثال في القرآن الكريم يريد أن يعطينا الحكمة والموعظة .. ولا يريدنا أن ندخل في مجادلة حول من هذا الشخص أو من هذه المرأة .. ذلك أن الأسماء هنا لا قيمة لها .. وإنما القيمة الحقيقية في الموعظة والحكمة .. ولذلك لم يعرف الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم إلا اسمين هما مريم ابنة عمران .. وعيسى ابن مريم .. لأن ما حدث لهما لن يحدث لغيرهما .. ولذلك كان التعريف هنا واجبا .. أما فرعون مصر وذو القرنين .. وفرعون موسى .. وكل ذلك تركه الله سبحانه وتعالى بلا تعريف .. حتى لا ندخل في جدل حول الأسماء .. ونترك الحكمة .. وفرعون هو كل رجل يريد أن يعبد في الأرض .. وذو القرنين هو كل من أعطاه الله الأسباب للأشياء .. إلى آخر ذلك .

يقول الله سبحانه وتعالى « فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » وقول الله سبحانه وتعالى هذا كهف يستر حقيقة .. فموسى رسول الله .. والرسول هو المبلغ عن الله .. ومن هنا فالمفروض أن كل علم يأتي عن طريقه .. لأنه مكلف بإبلاغ الرسالة .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه ليس على مشيئته قيود أو حدود .. وهو يفعل ما يشاء ويختار .. ومن هنا فإنه قد يختار عبدا من عباده . يؤتیه علما لم يؤتیه لأحد من رسله .. وهذا فضل الله سبحانه وتعالى يؤتیه من يشاء .. مشيئة الله ليس عليها قيود .. وليس لها حدود ..

ثم نأتى بعد ذلك إلى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام .. وفيها عدة حقائق في كهوف .. ولكن الكهوف التي تستر الحقيقة تأتي أولا .. ثم بعد ذلك تأتي الحقائق .. ومن هنا فإن موسى عليه السلام عندما يرى الكهوف .. ولا يرى الحقائق التي تسترها .. لا يستطيع الصبر على ذلك .. ومن هنا يقول له العبد الصالح « إنك لن تستطيع معي صبرا » ثم يضيف « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » .

العبد الصالح حكم بعلمه الذي علمه الله له .. وموسى عليه السلام حكم بما يعلمه .. ومن هنا اصطدم الحكمان .. فالعبد الصالح كان يقوم بعمل

علم الله .. وعلم الأرض

خير ، حقيقته مستورة في كهف ظاهره الشر .. وموسى كان يرى في هذه الأعمال ما هو ظاهر فقط ويحكم به .. لأنه لا يعلم باطن الأمور .. وفرق كبير بين الظاهر والحقيقة .. فالظاهر يراه الناس جميعا .. أما الحقيقة فإن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلمها .. قد يؤدى الإنسان الصلاة ليقال عنه إنه رجل صالح .. بينما هو يعصى الله فى كل أمور الدنيا .. وقد يصلبها رجل يملاً قلبه بالإيمان .. كلاهما أمامنا يصلى .. ولكن الله يعلم الذى يصلى خشية له واتباعاً لدينه .. والذى يصلى ليقال عنه انه رجل صالح .. ثم يفعل كل ما نهى الله عنه ..

ومثل ذلك الاحسان .. قد يحسن الإنسان وسط جمع من الناس لينال هدفاً دنيوياً .. وقد يتبغى فضل الله بحيث لا تعرف شماله ماذا أعطت يمينه .. كلاهما أمامنا يحسن .. ولكن الجزاء هنا مختلف .. ومثل ذلك ينطبق على أشياء كثيرة فى الحياة .. الحياة كلها كهوف تخفى حقائق .. إنسان يقول إنه يريد لك الخير بينما هو يضمّر الشر .. وآخر يسعى لإيذائك ويقسم أنه يسعى لفائدتك إلى آخر ذلك ..

عندما يصطدم الحكمان

هنا عندما يصطدم الحكمان .. يقول موسى عليه السلام « ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً » .. ولكن الذى يستطيع أن يصبر هو المكلف بهذه الأعمال الذى يعرف حكمها .. والذى تلقى الأمر من الله سبحانه وتعالى .. أما من سترت عنه هذه الحكمة فإنه لا يستطيع أن يصبر .. ومن هنا يأخذ العبد الصالح عهداً على موسى فيقول له .. « فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً » .

وفى هذا حكمة أنه ما لم يعلم الله سبحانه وتعالى الإنسان الحقائق المستورة وراء الأفعال الظاهرية التى تحدث أمامه فإنه يضيق صدره ولا يستطيع الصبر .. وموسى عليه السلام رسول الله وكليمه ولكنه لم يستطع أن يصبر على أفعال أخفى الله سبحانه وتعالى عنه حكمها . فإذا كان هذا قد حدث لموسى عليه السلام .. فنحن كبشر فى كثير من الأحيان تضيق صدورنا بما هو ظاهر أمامنا .. فنرى رجلاً يعصى الله سبحانه وتعالى ومع ذلك يوسع الله له فى رزقه .. ورجلاً آخر يسعى فى الشر .. ومع ذلك يمكنه الله سبحانه وتعالى من أمر من الأمور ..

علم الله .. وعلم الأرض

ورجل ثالث يسعى في الأرض فسادا .. فلا يخسف الله به الأرض .. بل يبدو ظاهريا للناس أنه يستطيع أن يفعل ما يريد ..

الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا .. إن هذا الذي ترونه أمامكم هو الكهوف الظاهرية للحقائق التي أسترها .. والتي يصل إليها علمي وعلم من أعلمه ..

وبذلك لا تحكموا بالظاهر .. تحسبون أن الخير الظاهري هو خير حقيقي .. وأن الشر الظاهري هو شر حقيقي .. فقد يحدث لك شيء تعتقد أنه شر .. ثم تمضي الأيام ويظهر ما هو مستور عنك .. فتجد أنه كان فيه الخير العميم .. وإنك لعدم ادراكك وعلمك قد حسبته شرا وقت حدوثه .. وقد يحدث لك خير وتفرح به .. ثم بعد ذلك يظهر أنه شر كنت تتمنى عدم حدوثه .. والأمثلة في حياة كل منا كثيرة .. فكلنا ضاعت منه فرص اعتقد أنها خير .. وحزن على ضياعها .. ثم جاءت الأحداث التالية لتمنحه فرصا أحسن .. وكانت حكمة الله أن يمنع عنه شيئا ليعطيه ما هو خير منه .. كذلك ما نعتقده شرا في يوم من الأيام يصبح فجأة خيرا بعد أن تتكشف لنا الأحداث وتظهر الحكمة .. حامدين الله سبحانه وتعالى على أن ذلك حدث .. وكلنا لو استعرض شريط حياته لوجد عشرات الأحداث التي تبين له هذه الحكمة .. ولكننا مع ذلك لا نطبق صبورا .. حين تقع الأحداث رغم علمنا بهذه الحقيقة .. لأنه مادامت الحكمة خافية عنا فإن الصدور تضيق والصبر يصبح بلا طاقة .. ولكن المؤمن هو الذي يعلم أن الخير فيما اختاره الله .. والشر فيما منعه وأبعده ..

نعود بعد ذلك إلى قصة موسى والرجل الصالح .. حين دخلت التجربة في الحركة الفعلية في الأحداث التي نعيشها .. ماذا جرى .. الكلام النظري شيء .. وعندما تحدث الأفعال شيء آخر .. عندما تحدث الأفعال لا يملك الإنسان نفسه وينسى كل شيء .. وينفعل مع الأشياء بظاهريتها .. وذلك أمر يجب أن نتنبه إليه .. هناك فرق في التأثير داخل النفس البشرية .. بين كلام يقال .. من السهل أن يصبر عليه الإنسان .. وبين الوقائع التي تحدث .. فإن النفس تنفعل بالوقائع وفي لحظة الانفعال تنسى أشياء كثيرة ..

ركب موسى والعبد الصالح سفينة .. والسفينة مملوكة لمساكين .. وموسى كنى فيه الخير .. يعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوصى برعاية المساكين .. ومن

علم الله .. وعلم الأرض

هنا فإن من واجبه أن يعاونهم ويقدم لهم كل ما يحتاجونه ابتغاء مرضاة الله ..
يركب موسى والعبد الصالح السفينة .. فإذا بالعبد الصالح بدلا من أن يقدم
العون لهؤلاء المساكين أو يقدم لهم المساعدة .. أو حتى يمنع عنهم الأذى وهو أقل
ما يجب .. إذا بالعبد الصالح يخرق السفينة ليعييبها ولا يطيق موسى صبرا على
ذلك ..

كيف يقوم العبد الصالح بهذا العمل .. كيف يخرق السفينة ويعييبها حتى
لا يستطيع هؤلاء المساكين أن يحصلوا على رزقهم بواسطتها .. أو حتى يقطعوا
من قوتهم لاصلاحها .. وفرق بين سفينة سليمة .. وسفينة معيبة في طلب
الرزق وفي خدمة هؤلاء المساكين ..

ولا يطيق موسى صبرا .. فيحتج ويقول « أخرجتها لتفرق أهلها لقد جئت
شيئا إمرأ » .. وهنا يذكره العبد الصالح بعهده ويقول له « ألم أقل لك انك لن
تستطيع معي صبرا » .. فيتنبه موسى عليه السلام إلى ما فعل ويقول
« لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا » ..

لو أوق العلم

ولو أن موسى عليه السلام أوق علم العبد الصالح لفعل ما فعله العبد
الصالح في السفينة .. ولكنه هنا حجب عنه العلم .. فضاقت صدره بظاهر
الأحداث ..

وعمى العبد الصالح وموسى عليه السلام في رحلتها .. وينطلقان فيلقى
العبد الصالح غلاما فيقتله .. وهنا ينفذ صبر موسى مرة أخرى .. كيف يقتل
هذا العبد الصالح غلاما لم يؤذها .. ولم يفعل شيئا .. وهنا نلاحظ أن حادث
قتل الغلام أكبر من حادث خرق السفينة . ويقول موسى عليه السلام « أقتلت
نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا » ..

هنا يظهر الفرق بين من عنده الحقيقة .. وبين من حجبت عنه الحقيقة ..
ولكن قتل الغلام مسألة تحتاج إلى قدر أكبر من عدم الانفعال لا يقدر عليه
البشر .. فيذكره العبد الصالح بعهده .. ويقول له « ألم أقل لك انك لن
تستطيع معي صبرا » .. وهنا يتذكر موسى عليه السلام أنه نسي هذا مرتين
فبقول له « إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني
عذرا » .. أي أني أعذرك إذا رفضت مصاحبتي لأنني لا أطيق الصبر ..

علم الله .. وعلم الأرض

وينطلق الاثنان معا إلى قرية .. هما غريبان وجائعان .. ويطلبان من أهلها طعاما .. والمفروض أن الغريب إذا مر بقرية فإن أهلها يعرضون عليه الضيافة ولو لم يطلب .. والخلق الإنساني يقضى بأن يكرم أهل القرية الغريب الذي يدخل قريتهم ويطعموه حتى إذا لم يطلب الطعام .. فما بالك إذا كان جائعا .. وطلب منهم لقمة ليقيم بها أوده .. فإذا بهم يرفضون حتى ذلك .. شخصا غريبان جائعان .. موسى عليه السلام والعبد الصالح .. دخلا القرية .. وطلبا من أهلها لقمة صغيرة فرفضوا أن يعطوها أى شيء .. ماذا يكون سكان مثل هذه القرية .. يكونون من اللثام الذين لا يستحقون أى معروف ..

ولكن موسى عليه السلام يفاجأ .. العبد الصالح يجد جدارا متهدما في القرية فيعيد بناءه ويكمله ويجمله .. ويذهل موسى عليه السلام من هذا التصرف .. لقد طلبنا لقمة من أهل هذه القرية لنسكت بها صراخ الجوع فرفضوا .. وأنت تجمل لهم قريتهم .. وتبنى جدارا متهدما جزاء لهم على ذلك .. كان من الأولى أن تطلب أجرا نأكل به طعامنا بدلا من أن نقوم بذلك مجاناً .. فهؤلاء أناس لا يستحقون المعروف .. وهنا قال موسى عليه السلام « لو شئت لآخذت عليه أجرا » ..

ولأن هذا هو الفرق بين العبد الصالح وموسى عليه السلام .. فقد عاهدته أول مرة ونسى .. وعاهدته ثانی مرة ونسى .. واتفقا على أن المرة الثالثة تكون فراقا بينهما فلا يصاحبه .. فقال له العبد الصالح « هذا فراق بيني وبينك » .. ولكنه لم يقل له هذا الكلام ويمضى .. بل بين له الحكمة في كل ما حدث .. قال إنه حرق السفينة التي يملكها المساكين .. ولكنه خرقها لينجيهما من ملك ظالم كان يأخذ كل سفينة غصبا .. ومن هنا لكى تنجو هذه السفينة ولا تضيع .. وتبقى لهؤلاء المساكين .. كان لا بد أن يعيها حتى لا يأخذها الملك الظالم .. والسؤال أيها خير .. أن تبقى للمساكين سفينة فيها عيب يستطيعون اصلاحه أم لا تبقى لهم سفينة على وجه الاطلاق .. أيها خير للمساكين أتكون لديهم سفينة مخروقة .. أم يستولى الملك الظالم على السفينة .. ولا تبقى لهم سفينة أصلا .. لو خيروا لاختاروا ما حدث .. ووجدوا فيه الخير العميم لأن الذى حدث هو شيء بسيط أنقذ لهم السفينة وأبقاها .. ومن هنا فلو عرفوا الحكمة لاختاروا

علم الله .. وعلم الأرض

الواقع .. ولكن غياب الحكمة عن موسى عليه السلام جعله لا يطيق صبرا على الواقع ويعتبره شرا .

وجد غلاما فقتله

نأتى بعد ذلك إلى قصة الغلام الذى قتله العبد الصالح .. ماذا كانت الحكمة .. « فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا » .. أى إنسان ينظر إلى الابن كقرة عين .. وإمتداد له .. وذكرى حسنة يتركها فى الدنيا .. ولكن الإنسان إذا نظر الى ابنه فى أنه سيكون السبب فى شقائه وتعبه .. ويفتنه فى دينه .. هو رجل صالح .. فإنه فى هذه الحالة يتمنى من الله سبحانه وتعالى أن يبدله بابن غيره صالح مؤمن .. فالابن .. أو الابنة .. وهذا ما نراه كثيرا فى حياتنا كل يوم .. عندما لا يكون صالحا .. قد يفتن أبويه فى دينهما .. قد يجعلهما يسرقان من أجله .. أو يرتكبان ما يغضب الله ليرضياه .. ومن هنا فأنت أحيانا تسرق من أجل ابنك .. وأحيانا تطفى من أجل ابنك .. والأب دائما والأم ضعيفان أمام الابن فى مطالبه ..

والإنسان الصالح لا ينظر إلى هذه الحياة وحدها .. وإنما ينظر إلى الحياتين معا .. الدنيا والآخرة .. ومن هنا حين يمد يده إلى مال غيره يعرف أنه سيحاسب .. وأنه سيعذب من أجل ذلك .. فلا يكون سعيدا بهذا المال الحرام .. بل يكون شقيا به .. وهكذا كل ما يغضب الله مهما كان فيه من بهجة دنيوية .. فإنه بالنسبة لرجل غير صالح .. أو غير مؤمن قد يسعده ذلك الذى يبتغى لذة عاجلة .. أما الإنسان المؤمن فإنه مهما أعطته الدنيا بطريق يغضب الله لا يمكن أن يكون سعيدا بما حصل عليه لأنه يعلم يقينا أنه باغضابه الله .. وارتكابه ما نهى عنه لن يحصل على شيء إلا الشقاء فى الدنيا والآخرة مهما كان ذلك الظاهر السريع يحمل من أشياء تفتن الكافر أو غير المؤمن .. إذن .. إذا خير الوالدان الصالحان فى أن يهبهما الله ولدا فاسدا يضيع لهما دينهما ويخرجهما من الطاعة إلى الاثم .. أو لا يهبهما ولدا على الاطلاق .. اختارا الثانية .. ذلك أنها يعلمان يقينا أنه من الخير لهما ألا يكون لهما ولد .. على أن يكون لهما ولد أو ابنة يورثهما الشقاء .. ويجعلهما يخرجان عن طاعة الله ..

علم الله .. وعلم الأرض

الله سبحانه وتعالى لو خير الوالدين الصالحين وقال لهما هذا الابن سيؤدى بكما إلى النار .. وسيجعلكما تطغيان وتكفران .. لقالا ياربى لا نريده .. إذن الاختيار هنا هو اختيار الرجل الصالح لما فيه الخير .. لو خير هذا الرجل بين ابن فاسد .. أو ابنة فاسدة تؤدى به إلى الكفر والطغيان وبين ذهاب هذا الابن .. أو هذه الابنة ..

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى اختار لهذين الوالدين الخير .. بل انه اختار لهما رحمة منه هائلة .. فالابن الذى قضى أجله وهو غلام قد منع عنها الشرور التى كان سيرتكبها فى الدنيا .. وبذلك لحقه الله بوالديه فى الجنة رحمة بهما .. هذه واحدة .. والثانية الله سبحانه وتعالى يريد أن يبدل بهذا الابن غلاما آخر صالحا مصداقا لقوله تعالى .. « فأردنا أن يبدلها ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما » .. فالله سبحانه وتعالى قد اختار أن يبدل هذا الغلام الذى كان سينشأ فاسدا غير صالح .. وسيؤدى بأبويه إلى الكفر وإلى النار .. وأبواه صالحان مؤمنان قد اختار الله سبحانه وتعالى برحمته أن يبدلها خيرا منه .. أى ولدا صالحا .. يكون خير ذكرى لهما يتركها فى هذه الدنيا ..

ونحن حين نتابع الأحداث .. لا يجب أن نربط الحدث بزمن .. ذلك أن الزمن شيء نسبي موجود عندنا فقط .. أما الله سبحانه وتعالى فلا يحده زمن .. ومن هنا فإننا حينما نستحضر أى عمل يجب أن نستحضر العمل والجزاء عليه .. فنحن حين نرتكب معصية من المعاصى .. قد يفرح بها غير المؤمن .. يفرح بأنه حصل على مال حرام .. أو أنه أخذ ثمرة عمل غيره .. أو أنه ظلم إنسانا وطفى فى الأرض ليحصل على مكسب عاجل ..

ولكن الأمور لا تؤخذ هكذا بالنسبة للإنسان المؤمن .. والفرق هنا بين المؤمن والكافر .. أن الجزاء قد حجب عن الاثنين معا .. ولكن الإنسان المؤمن يرى الجزاء عن يقين .. وكأنه حاضر أمامه .. بينما الكافر لا يرى الجزاء لأنه مستور عنه .. وهو لا يؤمن به .. ولو كان الجزاء مكشوفاً عنا لتساوى المؤمن والكافر فى الطعام .. فإذا ملأنا حجرة بالذهب .. وقلنا لإنسان هذا مال حرام هولاك .. خذه وتمتع به أياما معدودة .. ثم فتحنا له باب الحجرة فرأى عذاب الله فى نار جهنم .. وقلنا له بعد أن تتمتع بهذا المال لأيام معدودة سنلقى بك فى هذه الحجرة لتلقى جزاءك من الله .. فى هذه الحالة لن تمتد يده إلى قطعة واحدة من هذا الذهب .. وكذلك كل معاصى الله لن يقربها .

علم الله .. وعلم الأرض

ولكن الذى يحدث .. أن الإنسان المؤمن يرى هذا فى عقله .. ولو أنه غيب عنه .. فهو حين يمد يده إلى مال حرام تظهر أمام عينيه صورة النار .. وعذاب الله .. فيبتعد مسرعا مستعيذا بالله من هذه المعصية .. أما الكافر .. أو غير المؤمن فإنه لا يستحضر هذا العذاب .. وينكره .. أو على الأقل يحاول أن ينكره .. وأن يقنع نفسه بأن كل هذا غير صحيح .. ومن هنا فإنه ينطلق إلى الحرام معتقدا موهما نفسه أنه لا عقاب بعده .. وأن الذى سيغنيه فى الدنيا هو مكسب له لن يحاسب عنه فى الآخرة .. بينما الحقيقة المستورة هى غير ذلك تماما ..

ومن هنا فإن الإنسان المؤمن يرى المعصية جزاء وعذابا من الله .. والإنسان غير المؤمن يرى المعصية مكسبا ومغنا .. وباختلاف النظرة يختلف العمل .. ولكن الحقيقة تبقى وإن كانت خافية مستورة عنا .. وهى أن كل عمل له حسابه ..

أى اختيار للأبوين

نعود بعد ذلك إلى قصة الغلام الذى قتله العبد الصالح .. لو أن هذا الغلام عاش ولم يأت أجله .. ونشأ فاسدا وأورد أبويه النار وجعلهما يسرقان ويطغيان ليرضياه .. أكان ذلك خيرا لهما .. أم أن يبده الله بغلام صالح يحفظ لهما دنياهما وآخرتهما ..؟

لو رأى الأبوان الصالحان الغيب لاختارا الواقع .. لأنها يعرفان يقينا أن هناك حسابا .. وأن هناك بعثا .. وهما يرعيان الله فى أمورهما فى الدنيا .. بهذا اليقين المستقر فى قلوبهما ..

إذن الذى حدث رغم أن ظاهره الشر ، حقيقته خير للأبوين .. الصالحين .. وللغلام .. ولكن الذى ستر عنه الغيب يحسب أنه شر . والغريب أننا فى حياتنا نفعل أشياء كثيرة من أجل أن نحصل على حياة أفضل فى المستقبل .. فالأب والأم مثلا يحرمان نفسيهما من كل مباح الحياة .. ليوفرا لأولادهما العلم الذى يجعلهم قادرين على حياة كريمة .. بل انهما يسعيان ليوفرا لأولادهما حياة أسعد من تلك التى عاشوها معها .. والإنسان المريض يحرم نفسه من طعام يحبه .. أو من شراب تشتهيه نفسه .. أو من أشياء كثيرة يهواها قلبه .. ويتحمل مرارة الدواء .. وربما الرقاد الطويل ليحصل على الصحة ..

علم الله .. وعلم الأرض

هذه سنن الحياة لا اختلاف عليها .. فإذا جئنا إلى الحياة الدنيا والآخرة وجدنا بعض الناس يسرعون إلى مغنم عاجل .. ناسين ذلك القادم وهو جزاء الله ..

وتعجب أنت من إنسان يحرم نفسه من بهجة الحياة فترة طويلة .. ويظل يذاكر ويكدح حتى يحصل على حياة طيبة .. ثم هذا الإنسان نفسه ينكر سنة الله سبحانه وتعالى التي اتبعها هو في الأمور الدنيوية .. فيقترب الآثام .. ويرتكب المعاصي .. ناسيا أو متناسيا أن ذلك مثل الذي يلعب في صباه .. ويفعل ما تهواه نفسه .. فإذا كبر لم يجد عملا يقات منه .. بل انه أكثر من ذلك بكثير .. فالحياة الدنيا أيام معدودة .. والحياة الآخرة خلود .. والحياة الدنيا أن يتمتع الإنسان بقدراته هو .. والحياة الآخرة أن يتمتع الإنسان بقدره الله سبحانه وتعالى .. التي لا تحدها حدود .. وفرق هائل بين قدرة المخلوق وقدرة الخالق .. والحياة الدنيا فيها مباح محدود .. إذا أسرف فيها الإنسان هلكت صحته .. ولم يستطع التمتع بها .. فالذي يفرط في الطعام علاجه الحرمان من الطعام .. والذي يفرط في أى لذة أخرى دنيوية حرمه الله منها .. ويجعله غير قادر عليها .. أما الحياة الآخرة .. ففيها ما لا عين رأت .. ولا أذن سمعت .. ولا خطر على قلب بشر ..

هنا في هذه الحكمة أساس إيماني .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى « وكان أبواه مؤمنين » .. فقد قدم الله سبحانه وتعالى حقيقة هامة قبل الحدث نفسه .. وهو أن الأبوين مؤمنان صالحان .. هذا الإيمان في الأبوين يجعلهما إذا خيرا بين ابن يضيع هذا الإيمان .. وبين لا ابن على الاطلاق .. أن يختارا الحقيقة الثانية .. ولكن الله سبحانه وتعالى بهذا العمل الذي إذا نظرنا إليه بالمقاييس الدنيوية تحسبه سرا .. بهذا العمل قد حفظ إيمان الأبوين وبدلها ابنا صالحا .. ثم أكرم الابن بأن قضى أجله وهو غلام .. ولم يتركه حتى يدخل محك التجربة ويصبح فاسدا يكتب عليه العذاب في الآخرة . وكما قلت لو خيرت أبوين مؤمنين بين قضاء الله .. وبين ما كان سيحدث لاختارا قضاء الله سبحانه وتعالى .. واعتبراه رحمة منه وفضلا .. ولكن الذي يجب ألا يغيب عنا في هذه الحقيقة هو إيمان الأبوين أولا .. فالإيمان هنا هو أساس هذا الاختيار ..

علم الله .. وعلم الأرض

العمل الصالح .. لا يذهب

وننتقل بعد ذلك إلى الحقيقة الثالثة .. وهى القرية التى استطعنا أهلها فأبوا أن يضيفوهما .. اثنان غريبان دخلا إلى قرية وهما فى حالة جوع شديد .. أبسط الأشياء أن القوم الكرام .. إذا دخل غريب القرية أطعموه ولو لم يكن جائعا .. أو على الأقل عرضوا عليه الطعام .. إذا كان جائعا وجب عليهم إطعامه .. ولكن أهل هذه القرية التى دخلها موسى والعبد الصالح قابلوها بلووم ونذالة .. ذلك أن موسى والعبد الصالح كانا جائعين وغريبين .. وطلبا الطعام من أهل القرية .. ولم يطلبوا طعاما فآخرا .. أو مائدة تحوى عشرات الأصناف .. ولكنها طلبا لقمة تقيم أودهما وتسكت جوعهما .. فماذا فعل أهل القرية .. أبوا .. رفضوا أن يعطوهما حتى هذه اللقمة الصغيرة .. وإذا بالعبد الصالح يجد جدارا متهدما فى القرية فينبه ويجمله ويجدده .. ولم يطق موسى صبرا .. هؤلاء الناس رفضوا اعطاءنا لقمة ونحن جائعان .. وأنت تقوم بهذا العمل لهم مجاناً .. تقدم لهم خدمة .. تبنى لهم جدارا متهدما .. جزاء على هذا اللؤم .. وهذه النذالة .. وتأتى الحقيقة المستورة لتبين لموسى عليه السلام الحكمة من بناء هذا الجدار .. فهذا الجدار لم يكن خيرا لأهل القرية الذين تحلوا عن كل مبادئ الشهامة .. بل كان خيرا لأولاد رجل صالح يخشى عليهم من أهل هذه القرية الذين لا يراعون عهدا ولا يطعمون جائعا .. ولأنهم يفعلون ذلك لا يطعمون الجائع .. ولا ينفقون شيئا فى سبيل الله .. فقد منع الله سبحانه وتعالى عنهم الخير .. وأبقاه لأولاد رجل كان صالحا وتوفاه الله .. ذلك أن العمل الصالح للأب يبقى لأولاده فى الدنيا وينفعهم .

وهنا يحدث الفراق بين موسى والرجل الصالح .. ولكن بعد أن يبين لنا الحكمة فيما حدث .. والحكمة هنا تختلف عن الحادثتين السابقتين ..

فكانت الحادثتان السابقتان فى ظاهرهما شر .. وفى حقيقتها خير .. حادث حرق السفينة أنقذها من الملك الظالم الذى كان سيغتصبها .. وقتل الغلام حفظ لأبويه صلاحهما .. وعوضهما الله سبحانه وتعالى عنه بولد صالح .. أما هنا فالظاهر لأهل القرية أن هذا الرجل الصالح قد قدم عملا خيرا طيبا لهم بأنه وجد جدارا قديما يكاد يتهدم فبناه .. ولكن الحقيقة غير ذلك تماما .. اتضح أنه حدث لمنع الخير عنهم .. فالجدار المتهدم كان تحته كنز .. وهذا الكنز كان لغلامين يتيمين فى المدينة .. وكان أبوهما صالحا .. إذن فصالح الأب ينعكس

علم الله .. وعلم الأرض

على الأبناء .. والأب الصالح يهتدي الله لأبنائه سبل الرزق في الحياة .. بالعمل الصالح ..

والسؤال هنا .. وهل كان الكنز سيبقى لهذين الغلامين ؟ .. أبدا .. ذلك أن أهل هذه القرية وأخلاقهم عدم اطعام الضيف الجائع .. كانوا سينقضون على الكنز ويأخذونه .. ولا يعطون الغلامين شيئا .. فالله سبحانه وتعالى بسبب أن هذه هي أخلاق أهل القرية .. منع عنهم هذا الخير .. أو الكنز .. وفي نفس الوقت بسبب صلاح أبي الغلامين .. حفظ للغلامين كنزهما .. هذه هي الحكمة المستورة .. ولكن ما هو الظاهر أمام أهل القرية .. ان غريبين دخلاها جائعين فرفضوا اطعامهما .. فإذا بهذين الغريبين أو أحدهما يجد جدارا متهدما .. فيبنيه ويجمله ويزينه ..

لو أنك كنت تعيش في هذه القرية .. ورأيت هذا الحادث .. لقلت سبحانه الله .. قوم لثام يرفضون اطعام الجائع الغريب .. ويرفضون العمل بما أمر به الله من إطعام مسكين .. ومن إكرام الغريب يرفضون أن يقدموا لقمة واحدة لرجلين جائعين .. ثم يأتي أحد الرجلين فيقيم جدارا جميلا في القرية .. ثم كنت تنظر إلى السماء .. وتقول يا ربى .. ما هذا .. هؤلاء الناس أشرار .. وقاموا بعمل شرير .. عمل لا ترضى عنه .. سبحانه وتعالى .. وهو اطعام الجائع الغريب .. ثم ترسل إليهم من يجمع لهم القرية .. ويقيم فيها جدارا متهدما .. ويعمر فيها .. كيف تجازى يا ربى هؤلاء اللثام بهذا الخير .. وكنت تتعجب كيف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لقوم هم أبعد ما يكونون عن طاعته من يزين لهم قريتهم ويجملها .. وهذا هو الذى جعل موسى لا يطيق صبرا .. ولكن عندما انكشفت الحقيقة عن المستور في علمه .. تبين أن ما حدث لأهل هذه القرية لم يكن خيرا .. بل كان منعا للخير .. رغم أن ظاهره أمام من لا يعلم خير .. ولكن حقيقته عكس ذلك تماما ..

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى قد ساق لنا هذه الأمثلة في سورة الكهف .. ليقول لنا لا تحكموا بالمقاييس الدنيوية .. فعندى أنا العلم .. ولا تحكموا بالظاهر أمامكم .. وأنا أعلم أن صدركم يضيق بما يحدث .. وأنكم لا تستطيعون الصبر .. وأنكم تتعجبون من أشياء كثيرة حين تجدون شرا .. يحدث لأناس طيبين صالحين .. وخيرا يحدث لأناس يعصون الله .. ذلك ليس المقياس .. لأن ما أمامكم هو الظاهر .. وما عندى هو الحقيقة .. والظاهر

علم الله .. وعلم الأرض

أمامكم قد يكون عكس الحقيقة تماما .. وما تحسبونه شرا .. قد يكون خيرا ..
وخيرا عمييا .. وما تحسبونه خيرا قد يكون شرا .. أو منعا للخير .

كهوف الحياة

ولقد ساق الله سبحانه وتعالى هذه الأمثلة ليبين أن هناك كهوفا في هذه الحياة .. توارى الحقائق عنا .. وأن على الإنسان ألا يغتر بظواهر الأشياء .. وأن يعلم أن هناك حقائق مخفية .. وليعلم كل إنسان أن كل قدر قد يقع عليه ليس له فيه اختيار .. فيه حكمة .. والحكمة ليست دائما ظاهرة .. ومن هنا فعلينا ألا نحكم نحن بعلمنا فيما يحدث لنا من أقدار .. وأن نتقبل الأشياء بلا انزعاج من شر نحسبه حدث .. ولا فرح شديد من خير نحسبه تم .. والله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم .. وقد نكره شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وقد نفرح لأشياء ثم بعد ذلك نتمنى لو لم تحدث .. هذه حكمة .. يريد أن يبينها الله لنا سبحانه وتعالى حتى نتحمل الحياة .. ونحن نؤمن أن قدر الله سبحانه وتعالى هو ما نرضى به وأن ما يقسمه الله سبحانه وتعالى هو الخير لنا .. وهذا كما قلت في القدر الذى يقع علينا .. ولا يكون لنا اختيار فيه ..

ونعود في ختام الحديث عن سورة الكهف إلى قصة ذى القرنين .. فيقول سبحانه وتعالى « ويسألونك عن ذى القرنين .. قل سأتلو عليكم منه ذكرا » وهنا يحاول بعض الناس أن يخرج بالصورة عن هدفها إلى فرع لا يفيدنا .. وليس مطلوبنا منا أن نبحث عنه .. فبدلا من أن يتأمل ما قاله الله سبحانه وتعالى عن ذى القرنين .. يدخل في جدل حول من هو ذو القرنين .. ومتى عاش .. وفى أى بلد كان .. إلى آخر هذا الكلام ..

والقصص في القرآن ليس مقصودا بها تحديد أو تشخيص أعلام القصة .. ليس مطلوبنا منا أن نترك الحكمة من الآية .. وندخل في جدل حول من هو ذو القرنين .. فذو القرنين موجود في كل عصر .. بأسماء مختلفة ..

القرآن .. والحقيقة

نعود مرة أخرى إلى قصة ذى القرنين .. ولا نريد ولن ندخل في تعريف من هو ذو القرنين .. وإنما نتحدث عن الحكمة فيما رواه الله سبحانه وتعالى .. ذو القرنين رجل مكن الله له في الأرض .. أى أعطاه الملك .. وأتاه الله

علم الله .. وعلم الأرض

سبحانه وتعالى من كل شيء سببا .. أى أعطاه الأسباب التى تمكنه من أن يفعل ما يريد ..

ماذا فعل ذو القرنين عندما أعطاه الله الأسباب من عنده .. لم يكتف بذلك .. بل اتبعها بأسباب من فعله .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا إنه إذا مكنتنا فى الأرض بأسباب من عنده .. لا بد أن نضيف إليها أسبابا أخرى .. ولا نكتفى بذلك .. وهذا ينفى قضية التواكل والتكاسل عن العمل .. فإذا مكنتى الله بأن أعطانى أرضا .. فيجب أن أضيف إليها بأن أزرع هذه الأرض لتنتج الثمار .. فإذا تركت الأرض بورا .. لا أضيف إليها عملا من عندى .. وإنما أخذت أسباب الله دون أن أضيف إليها سببا .. فأنا لا أعمل بشريعة الله فى الأرض ..

وإذا مكنتى الله سبحانه وتعالى من مال .. فيجب أن أستخذه فيما ينفع الناس ويفتح أبواب الرزق لهم .. ويعمر فى الأرض .. ولا أكتفى بأن أضعه فى خزائنى .. وأغلق عليه الباب .. وأنفق منه على حاجاتى .. أى أن الله سبحانه وتعالى إذا أعطانى أسباب المال .. فيجب أن أضيف إليها من عندى .. وهكذا فى كل أمور الدنيا .. إذا مكنتى الله سبحانه وتعالى من أى شيء .. فيجب أن أضيف له من عندى فيبارك فيه الله .. ويزيده .. وألا أكتفى بما مكنتى الله فيه .. فإذا مكنتى الله من علم مثلا .. فيجب أن أنشره لينتفع به الناس .. إلى آخر هذا .. ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا لَيْدَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

وهكذا خيره الله سبحانه وتعالى بعد أن مكن له فى أن يواجه هؤلاء الناس : المخطيء بالعذاب .. والمحسن بالحسنى .. كما روى الله لنا فى القرآن الكريم .. « أما من ظلم فسوف نعذبه » .. لماذا؟ لم يقل ياربى .. أما من ظلم فسوف أتركه ليعذب فى الآخرة .. لأن

علم الله .. وعلم الأرض

قوانين الحياة .. وهذه نقطة هامة جدا .. تقتضى الحساب أولا ليستقيم كل شيء .. وحياة دنيوية بلا حساب تنتهى إلى نوع من الفوضى .. فالدنيا فيها المؤمن والكافر .. وفيها المحسن والمسيء .. أساس الحياة الدنيا أن يكون الحساب قبل الثواب .. هناك قواعد وضعها الله للحياة الكريمة فى الأرض .. إنسان غير مؤمن سرق .. لا بد أن يحاسب فى الدنيا .. إنسان غير مؤمن خرج عن أى حد من حدود الله لا بد أن يحاسب .. ولكن ذلك لا يمضى على حدود الله وحدها .. فإذا أردنا أن تمضى الحياة بشكل مستقيم ضمن انتظام العمل .. وتحمل المسؤولية .. فيجب أن يكون هناك حساب أولا لمن يخطئ ..

وهنا يجب أن نتنبه إلى هذه الآية جيدا .. لماذا قدم الله سبحانه وتعالى قوله وهو يروى لنا قصة ذى القرنين .. « أما من ظلم فسوف نعذبه » .. ثم جاء بعد ذلك قوله « وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى » .. ذلك أن المحاسبة أو الحساب يجب أن تسبق أية مكافأة .. أو ما نسميه نحن بلغتنا حوافز أو مكافآت تشجيعية .. أو ما نطلق عليه نحن جزاء دنيويا .. أو ماديا .. فإذا أخذنا أى عمل من الأعمال فى الدنيا كلها .. وبدأنا لا نحاسب المهمل .. ونجزل العطاء لمن يحسن العمل .. فإن ذلك العمل لا يستقيم أبدا مهما كان العطاء الذى نعطيه .. بل ان الأساس أن تأتى المحاسبة أولا .. ثم بعد ذلك .. وبعد أن يمضى العمل على أساس سليم .. ويؤتى ثماره ويزيد .. يأتى التشجيع .. واجزال العطاء ..

الظالم .. لنفسه

على أننا يجب أن نتنبه هنا إلى نقطة هامة جدا .. هى أنه من يظلم فى الأرض له حسابان .. عقاب الدنيا .. وعقاب الآخرة .. والظلم هنا لكى نعرف دقة التعبير فى القرآن الكريم .. نوعان .. إنسان يظلم نفسه .. وإنسان يظلم غيره .. وكلاهما له حساب .. فالإنسان الذى يظلم نفسه هو الذى يوردها مورد الهلاك فى الآخرة .. بالأى يؤدى فروض الله .. وقد يكفر بالله ونعمه .. قد لا يحسن وهو يملك المال الكثير .. ولا يؤدى الصلاة .. ويقوم بالأيذاء حبا فى الأيذاء .. ودون أن ينال جزاء دنيويا .. ومن هؤلاء كثيرون .. كالذى يرسل خطابات مجهولة بتهم كاذبة .. ضد زملائه أو مرءوسيه أو جيرانه .. أو

علم الله .. وعلم الأرض

كالذى يشهد شهادة الزور ابتغاء الأذى .. ودون أن يكون له جزاء يحصل عليه .. هذا الإنسان يظلم نفسه بأنه يوردها مورد التهلكة .. وفي نفس الوقت لا يعطيها جزاء الدنيا العاجل الذى قد تستفيد منه النفس الظالمة .. والنوع الآخر من الناس هو الذى يظلم نفسه ويظلم غيره .. كالذى يسرق مال غيره .. أو يزور ليحصل على مال حرام .. أو لذة عاجلة .. ذلك الإنسان قد باع الدنيا بالآخرة .. أعطى نفسه ما هو زائل .. وسلبها مما هو دائم وخالد .. العذاب هنا يكون على شقين .. الشق الأول هو الشق الظاهر .. كأن يضبط إنسان إنسانا وهو يسرق المال .. أو يأخذ حقوق الإنسان بالظلم .. وهذا يجب أن ينال عقابه .. الشق الثانى .. إنسان يفعل فى الخفاء ما ينهى الله عنه .. ولا يعبد الله .. وهذا يرد إلى ربه .. فيعذبه عذابا نكرا .. إذن .. الله سبحانه وتعالى حدد لنا مهمة كل من يمكنه الله سبحانه وتعالى فى الأرض .. ومهمته أن يقف ومعه ميزان يزن به حركة الحياة .. حتى تستقيم هذه الحركة .. واستقامة حركة الحياة أساسها أن الظالم يعاقب .. ولا نقول إنه يترك الله ليعاقبه .. فلا بد أن تكون هناك عقوبة دنيوية ردعا لمن لا يؤمن بالله .. أو لمن نسى الله .. وهذا لا يعفيه من عقاب الله .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ

أَمْرًا يُسْرًا﴾

ولكننا نقف عند هذه الآية الكريمة ونقول : ولماذا لم تكمل بأن هذا الإنسان يرد إلى ربه فيدخله جنات النعيم .. وهنا حكمة بالغة .. هى أن الإيمان هو بين العبد وربّه .. والله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعرف من المؤمن حقيقة .. ومن الذى يتظاهر بالإيمان .. بينما يفعل فى الخفاء ما ينهى عنه الله .. ومن هنا فنحن مهما أوتينا من مقاييس الدنيا .. لا يمكن أن نفرق بين مدعى الإيمان .. والمؤمن حقيقة .. ولذلك فأمر هؤلاء متروك لله سبحانه وتعالى الذى يعرف ما تخفيه الأنفس وما تكتمه الصدور .. وهو يعلم الذى يعمل عملا يبتغى به مرضاة الله .. والذى يعمل عملا ظاهره الخير .. وباطنه طلب الجاه فى

علم الله .. وعلم الأرض

الدنيا .. ومن هنا فإن الأمر متروك لله سبحانه وتعالى .. ما كان مخفياً في الصدور .. فينال المؤمن الحقيقي الجزاء .. أما الذى آمن رياء أو نفاقا .. أو ابتغاء سمعة .. أو ابتغاء لجاه دنيوى .. فأمره إلى الله .. وهو الذى يحكم .. وتمضى الآية الكريمة لتقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ

لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿

وقد تحدثت عن ذلك فى أول هذا الفصل وبينت أن معنى الآية الكريمة « لم نجعل لهم من دونها سترا » .. ان الاسكندر قد وصل إلى مناطق فى الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة .. أى أنه لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقي أجزاء الكرة الأرضية .. بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام .. وإذا بحثنا الآن نجد أن هناك مناطق فى العالم لا تغيب عنها الشمس ٦ شهور فى العام .. فالشمس لا تغيب عن القطب الشمالى مدة ٦ شهور .. وعن القطب الجنوبى مدة ٦ شهور .. فكان الله تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن فى الأرض .. لا تخضع لقواعد تعاقب الليل والنهار كالتى تخضع لها باقى أجزاء الأرض .. وإنما تشرق الشمس عليها دون أن يسترها الظلام لفترة طويلة ..

المال .. وما أعطاه الله

ثم نتقل بعد ذلك إلى ذى القرنين عندما بلغ ما بين السدين .. فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

قَوْلًا ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا نَجُوجٌ وَمَجُوجٌ مُّفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴿

علم الله .. وعلم الأرض

وتمضى الآية الكريمة فيقول ذو القرنين وهم يعرضون عليه المال :

﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

وهنا نصل إلى قانونين من قوانين الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا بهما ..
القانون الأول .. قول ذى القرنين ما مكنى فيه ربي خير .. وهذا دليل قوى على
أن الرجل الصالح المؤمن المصلح في الأرض .. لا يتكالب على المال ..
ولا يعمل من أجل جمع المال وكنزه .. بل إنه يعلم يقينا أن الخير الذى
يعمله .. هو أبقى وأحسن من المال الذى يمكن أن يحصل عليه .. وأنه إذا أنفق
ماله فى الخير .. فإنه لا يضيعه ولكنه يضاعفه .. وهذا يدلنا دلالة واضحة على
أن ذا القرنين رجل صالح .. ولو أنه كان رجلا يدعى الصلاح .. ويعمل من
أجل الدنيا لفرح بالمال كشيء عاجل .. ولم يفضل عليه الخير الذى هو أبقى عند
الله .. والذى يضاعفه الله سبحانه وتعالى ..

أى أن الله يريد أن يقول لنا لا تفرحوا بالمال .. ولكن افرحوا بخير أسوقه
إليكم لتؤدوه .. فذلك أحسن من المال وأبقى .. وهو النافع فى الدنيا وفى
الآخرة .. ثم يمضى الله سبحانه وتعالى ليقول على لسان ذى القرنين « فأعينونى »
بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما .. ومعنى هذه الآية الكريمة أن الله يريد أن
يقول لنا أننا يجب أن نعمل لنندرا الظلم عن أنفسنا .. فإذا كان هناك أناس
ظالمون مفسدون فى الأرض .. فإننا يجب أن يكون بعضنا هونا لبعض فى درء
هذا الخطر أو هذا الظلم الذى يهددنا .. وأنا فى حياتنا الدنيوية يجب أن
نستخدم الامكانيات العقلية التى أعطاها الله لنا لنندرا عن أنفسنا كل ما هو
شر .. ونأق أو نعمل لما هو خير .. الله سبحانه وتعالى قد أعطانا نعمة
العقل .. لا لنضيعها فى الجدل عن غيبات لا نعلم عنها شيئا .. ولا لنفسدها
بالدخول فى أشياء لن نصل فيها إلى نتيجة .. ولا نستطيع أن نثبتها .. ولكن
لتعيننا فى حياتنا الدنيوية فنستخدم عقولنا لنكتشف ما فى الأرض من أسرار
وضعها الله سبحانه وتعالى .. ومن مواد خلقها الله سبحانه وتعالى .. ثم
نستخدم عقولنا لنصنع من هذه المواد .. وهذه القوانين التى خلقها الله ، ما يوفر
لنا درء الخطر عن أنفسنا .. وتوفير الحياة الكريمة لنا .. والله سبحانه وتعالى قد

علم الله .. وعلم الأرض

خلق لنا العقل .. وخلق لنا ما يشغله .. وميادين نشاطه في الأرض .. ولكن بعض الناس يحاولون استخدام العقل فيما لا ينفع الناس .. بل يضرهم .. وفي التشكيك في الغيبات .. وفي النهي عن سبيل الله .. وفي الافساد في الأرض .. تلك كلها أشياء لم يجعلها الله سبحانه وتعالى من وظيفة العقل .. فالعقل البشرى له حدود .. والله سبحانه وتعالى لا تحده حدود .. ولا قيود ..

ومن هنا فإن وظيفة العقل البشرى في أن يشتغل فيما خلق له .. وهو الأرض وما وضعه الله فيها .. والكون وما يريد الله سبحانه وتعالى أن يكشف فيه من أسرار للعقل البشرى ..

وهكذا يريدنا الله سبحانه وتعالى أن نستخدم عقولنا في حياتنا الدنيوية .. ولا نعطلها .. ولا نلغى تفكيرها .. وفي نفس الوقت ينهانا عن أن نهدر العقل البشرى فيما لم يخلق له .. وفيما لن يصل فيه إلى نتيجة ..

حماية .. أهل الضعف

كان أول ما فهمه ذو القرنين من هؤلاء الناس أنهم أهل ضعف .. يطلبون حمايتهم من أهل قوة وجبروت .. وهم يأجوج ومأجوج .. وأنهم مستعدون لدفع الأجر لذى القرنين مقابل أن يحميهم من هؤلاء الجبارين الذين يفسدون في الأرض .. فيقتلون أولادهم ويأخذون ما لهم .. إلى آخر ما كان يحدث .. وهؤلاء أناس ضعفاء لا حول لهم ولا قوة .. ولم تمكنهم عقولهم من أن يجدوا الطريقة ليحموا بها أنفسهم من هذا الجبروت ..

وهنا قال ذو القرنين .. أن ما مكنتني فيه ربى خير .. ما معنى هذا القول الكريم ؟ .. معناه أن ذا القرنين أوق من العلم .. بحيث عرف أن الخير في الدنيا أفضل من المال .. لأن المال يأتي ويذهب .. أما الخير فيبقى إلى الأبد .. العمل الذي يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى هو أحسن ما يمكن أن يكسبه الإنسان .. لماذا ؟ .. لأنه باق خالد .. يذهب السيئات .. ويقرب من الله .. ويبقى خالدا للإنسان في آخرته يزيد ولا ينقص .. والعمل الصالح

الذى يؤتیه الرجل المؤمن .. قاصدا به وجه الله سبحانه وتعالى .. يجعله ممن ينطبق قول الله تعالى عليهم ..

علم الله .. وعلم الأرض

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٤١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

ويجعله ممن ينطبق عليهم قول الله تعالى « ان الله يدافع عن الذين آمنوا » .. ويجعله ممن ينطبق عليهم قول الله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » .. ومن هنا فإننا نرى أن عمل الخير جزاؤه في الدنيا دعوة مجابة من الله سبحانه وتعالى بما تشتهييه نفس المؤمن .. وأن يكون الله سبحانه وتعالى هو المدافع عنه الذى يقف أمام أى إنسان يحاول أن يؤذيه .. فيحبط كيده .. ويضعف سلطانه .. ويجعل الأذى لا يصل إلى المؤمن أبدا .. لأن المدافع عنه هو الله سبحانه وتعالى .. ومن يستطيع أن يؤذى من كان الذى يدافع عنه هو الله ذو القوة المتين .. ثم أن هذا الخير الذى يقرب من الله .. يجعل الله سبحانه وتعالى يوجد له من كل ضيق فرجا .. ومن كل أزمة مخرجا .. من حيث لا يدري ولا يحتسب .. هذا بخلاف أنه إذا ضاقت به أسباب الرزق .. فإن الله يفتح له من هذه الأسباب أبوابا لم يكن يفكر فيها .. أو يصل إليها فكره أو علمه .. هذا في الدنيا .. بجانب جزاء الآخرة .. وهو الفوز العظيم .. وهو الجنة ..

إذا كان هذا هو جزاء الخير .. وإذا كان ذو القرنين على يقين من ربه الذى علمه الأسباب .. فهل يبيع هذا الجزاء كله .. ويتقاضى بدلا منه أجرا .. بلاشك أن قوله : « ما مكنتى فيه ربي خير » .. معناه أنه على علم يقينى بأن جزاء الله عن الخير لا يمكن أن يقابله أجر .. ولو كان مال الدنيا كلها .. وهكذا اختار ذو القرنين .. وهكذا يختار كل مؤمن إيمانا حقيقيا الخير على المال .. اختار أن يحمى هؤلاء الضعفاء ، الذين لا يكادون يفقهون قولا ، من الجبارين الذين يفسدون في الأرض .. ويأخذ بذلك أجرا من الله سبحانه وتعالى لحماية الضعيف .. ونصرته ، الذى لا حول له ولا قوة .

ولكن كيف اختار أن تتم هذه العملية .. هل قام هو ببناء السور .. أو قام هو بعمل أى نوع من الحماية لهم .. أى أدى لهم مهمة تنتهى بانتهائه .. وتغيب عنهم بغيا به .. لا .. بل اختار أن يعلمهم شيئا يعملونه هم بأنفسهم .. حتى

علم الله .. وعلم الأرض

إذا غاب عنهم أو رحل عنهم يستطيعون أن يقوموا بهذا العمل بذاتهم .. أى أنه أضاف إليهم ما أعطاهم قوة ذاتية يستطيعون أن يحموا بها أنفسهم .. فقال « فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما » .. أى أنه أشركهم في العمل .. وعلمهم كيف يستطيعون أن يبنوا بينهم وبين هؤلاء القوم الجبارين سدا يمنع الأذى عنهم .. أى أنه علمهم كيف يحمون أنفسهم من الظلم الذى يقع عليهم .. ونتيجة عملهم واجتهادهم استطاعوا إقامة السد بينهم وبين هؤلاء الجبارين .. وبذلك دفعوا الظلم عن أنفسهم .. وتعلموا شيئا جديدا يحميهم ..

وفى هذا حكمة .. هى أن الضعفاء مهما كان ضعفهم .. فإن الممكن فى الأرض يعلم .. ويستطيع أن يجعلهم أقوياء .. وأن يعينهم على أن ينهضوا بأنفسهم .. ويزيلوا أسباب تخلفهم وضعفهم .. بشرط أن يشتركوا جميعا فى العمل .. لتستمر الدفعة .. ويتم العمل نفسه .. فإذا اشتركوا تعلموا .. وإذا تعلموا تقدموا واستطاعوا أن يحموا أنفسهم .. وأن يضيفوا إلى ذاتيتهم أشياء لم تكن موجودة ..

وقبل أن أختتم خواطرى عن سورة الكهف .. أحب أن أبين أن هذه السورة ترينا من كهوف الحياة ما يجعلنا نفهم كثيرا .. فالفهم الأول أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى .. وأنه لا شئ يتم إلا بإرادة الله .. ومن هنا فإن الإنسان يجب أن يرجع كل شئ إلى الله سبحانه وتعالى فلا يقول سأفعل كذا .. إلا بعد أن يضيف إليها إن شاء الله .. لأن الذى يملك عناصر الفعل المستقبلى هو الله سبحانه وتعالى .. وثانى هذه الأشياء هو نظرة الإنسان إلى الأسباب .. فالإنسان إذا رزقه الله بجمال أو بآرض .. أو فضله على غيره فى الرزق .. فيجب أن يعرف يقينا أن الفضل فى ذلك هو لله سبحانه وتعالى .. وألا يغتر بنفسه ويقول إنما أوتيته على علم عندى .. ذلك أن الغرور هو بداية عبادة النفس .. وبداية عبادة النفس تبعد عن عبادة الله .. فالله الذى أعطى يستطيع دائما .. ودائما أبدا أن يأخذ .. والله الذى وفق يستطيع دائما ودائما أبدا أن يحجب هذا التوفيق .. ومن هنا فإن من المهلكات فى الدنيا أن يعتقد الإنسان أنه يستطيع أن يصنع قدره ، وأنه بذكائه يستطيع أن يفعل كذا وكذا .. ولكنه يستطيع فعلا

علم الله .. وعلم الأرض

أن يفعل .. وأن ينجز بتوفيق الله له .. ذلك التوفيق الذى هو أساسه نجاح العمل .. والذى لولاه لفشل كل شيء .. العمل نفسه مطلوب وواجب .. ولكن الغرور ليس واجبا .. بل أنا أعمل .. والله يوفق ويبارك .. ويرزق .. والحكمة الثالثة أن ظاهر الأشياء ليس هو حقيقتها .. الخير والشر لا يمكن أن يحكم عليهما إنسان من ظاهر الأمور .. ومن هنا فإننا لا يجب أن نضع من أنفسنا حكما على ما يحدث .. ونتقبل قضاء الله دون أن نبكى حزنا اعتقادا منا أنه شر .. أو نظير فرحا لأننا نحسب أنه خير .. فحقيقة الخير والشر لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .. يجب أن نتقبل قضاء الله دائما بالرضا .. وبأن هناك حكمة مستورة .. ومادنا مؤمنين .. فإن الله لا يضيع مؤمنا .. ولقد ساق الله لنا سبحانه وتعالى من خلال قصة موسى والعبد الصالح أمثلة عديدة على ذلك ..

رابعا .. أن هناك أمورا قدرية تقع على الإنسان بدون حركة منه .. ولا دخل له فيها .. وأن هذه الأمور لا تحدث عشوائيا .. ولا تتم هكذا .. بل هناك وراءها دائما مدبر هو الله سبحانه وتعالى .. وهى وان كانت فى بعض الأحيان تبدو بعيدة عن ادراك عقولنا .. فيجب أن نفهم أن كل قدر فى الكون له سبب يعلمه الله سبحانه .. وتعالى الذى يسبب الأسباب .. وأن القضاء الذى يجرى على الإنسان من الله سبحانه وتعالى هو قضاء مرسوم .. وإن بدا لنا فى كثير من الأحيان كأمر عادى .. كذلك الذى خرق السفينة وأقام الجدار لا أحد يستطيع أن يفهم سر هذا القدر إلا بعد أن بينه الله سبحانه وتعالى لنا ..

وأخيرا فإننا مهما كنا مستضعفين فى الأرض .. نستطيع أن نتعلم من أولئك الذين مكثهم الله بأسباب العلم .. أو أعطاهم لهم .. وأن نضيف إلى هذا العلم عملا يبارك لنا فيه الله ..

وأخيرا فإن علينا أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى حين يمكننا من الخير .. ومن عمل الخير .. إنما يمكننا من أحسن عمل يمكن أن نقوم به فى الجزاء وفى الثواب .. فى الدنيا والآخرة .. وأن الذى يرضى عنه الله سبحانه وتعالى ليس هو الذى يمكنه من المال أو الجاه أو من النفوذ .. ولكنه ذلك الذى يمكنه من عمل الخير .

الفصل الخامس

مَنَابُ النَّبِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

عقاب النبي في القرآن الكريم

بعض المستشرقين الذين لا يحلو لهم إلا الطعن في هذا الدين . . ومحاولة أخذ الأشياء وتأويل معناها بالتأويل غير السليم . . يحاولون التشكيك في هذا الدين فيما يحويه القرآن الكريم من عبارات يعاتب فيها الله سبحانه وتعالى نبيه . . ويتخذون من هذه المواقف ذريعة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن على صواب في أشياء قام بها . . وهم يستخدمون من القرآن الكريم الآيات مثل :

« واستغفر لذنبك » . .

﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾
(الآية ٧٤ سورة الإسراء)

وقول الله سبحانه وتعالى معاتبا النبي بعد أن أخذ أسرى في غزوة بدر ، وجعل فداءهم من الأسر تعليم المسلمين القراءة والكتابة .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُخَيَّرَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾

(الآية ٦٧ سورة الأنفال)

وما قيل عن بكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية . . إلى آخر الآيات التي يعاتب الله سبحانه وتعالى رسوله فيها . . والتي يستخدمها أولئك الذين يريدون الطعن في هذا الدين كوسيلة للتخطف و اظهار أن النبي لم يكن على صواب .

وقبل أن أبدأ الحديث عن كل هذه الآيات ومغزاها ومعناها . . فإن لنا وقفة مع الذين يستخدمون هذه الآيات . . هي أنهم يثبتون بما لا يدع مجالاً للشك أن القرآن الكريم منزل من عند الله سبحانه وتعالى . . وأنه لم يحدث فيه تبديل ولا تغيير حتى وصل إليهم . . فلو حدث فيه تبديل أو تغيير . . لحذفت منه

عتاب النبي في القرآن الكريم

الآيات التي تتضمن عتابا من الله لرسوله .. أو على الأقل حرفت .. ولكن كون القرآن قد جاءنا .. وفيه هذه الآيات مع ما يمكن استغلاله فيها .. وكونها لم تتغير .. ولم تتبدل .. فهي دليل على أن القرآن قد وصلنا كما أنزله الله سبحانه وتعالى .. تأكيدا للآية الكريمة :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

وكون هذه الآيات نزلت في القرآن الكريم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكان رسول الله يتلقى القرآن من الوحي ويبلغه للمؤمنين .. ومن هنا فإنه صلى الله عليه وسلم لو لم يكن أمينا في ابلاغ الرسالة .. لأخفى هذه الآيات .. وما كان أحد من البشر يستطيع أن يعرف إذا كانت قد أنزلت .. أم لا .. ولو أن هذا القرآن كلام بشر ما كان يحوى عتابا لرسول الله .. فالبشر من عادتهم لا يتقبلون النقد .. ويدعون الكمال .. وما من منهج بشري يلوم فيه صاحبه نفسه أو يعاتبها .. بل كل منهج وضعه بشر يحاول أن يوهم الناس بأن هذا هو الكمال المطلق ..

ومن هنا فكون هذه الآيات قد نزلت دليل على أن القرآن الكريم من عند الله سبحانه وتعالى .. وليس كلام بشر .. وكون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قام بإبلاغ هذه الآيات دليل على أنه أمين في ابلاغ الرسالة التي كلفه الله سبحانه وتعالى بها .. لم يخف منها حرفا واحدا .. وكونها موجودة في القرآن حتى الآن رغم مرور أكثر من ١٤٠٠ سنة على نزوله .. دليل على أن كلام الله قد وصلنا كما أنزل بلا تحريف .. ولا تبديل .. تلك حقيقة هامة يجب أن نذكرها قبل أن نبدأ الحديث في الموضوع .. ذلك أن الذين أرادوا أن يهدموا هذا الدين إنما قد ثبتوه وأثبتوا أن هذا القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى وأن نبيه كان أمينا في ابلاغ رسالته .. وأن القرآن الكريم قد وصل إلينا كما أنزله الله .. نأتى بعد ذلك إلى الحديث عن الآيات التي فيها عتاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله .. وقبل أن نبدأ أحب أن أجيب على سؤال حول هذا الموضوع .. وهو التشكيك في القرآن الكريم ذلك أن ما يقوله بعض المستشرقين من أن سورة

عتاب النبي في القرآن الكريم

التوبة هي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي لا تبدأ بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » . . . ويفسرون ذلك بأن محمدا عليه السلام قد نسي لأنه كلام بشر . . . ولكنني أقول لهم إن سورة التوبة هي السورة التي ذكر الله فيها سبحانه وتعالى أولئك المطرودين من رحمته ومن هنا فلا يمكن أن تبدأ بالرحمة . . . وبسم الله الرحمن الرحيم . . . لأن الله سبحانه وتعالى قد حجب الرحمة عن هؤلاء الذين تناولتهم هذه السورة الكريمة والتي يبدؤها الله سبحانه وتعالى بقوله :

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين »

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« أن الله برىء من المشركين ورسوله »

ثم يقول :

« وبشر الذين كفروا بعذاب أليم »

ثم يقول :

« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل

مرصد »

ثم يقول :

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله »

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وِلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ

عتاب النبي في القرآن الكريم

بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾
أَشْتَرُوا بِعَابِتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةً ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَكُنْتُمْ لِأُمَّةٍ كُفِّرُوا عَنْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ ﴿١٤﴾
أَلَا تَقْتُلُونَ
قَوْمًا نَكَحْتُمُوهُمُ إِيمَانُهُمْ وَهُمَوُا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُكُمْ وَأَوَّلَ مَرَّةٍ أَخَشَوْهُمْ
فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

(الآية ١٢ سورة التوبة)

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ
أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

وتمضي السورة الكريمة لتؤكد أن الله لا يهدي القوم الظالمين فيقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَ كُفْرٍ وَإِخْوَانَكُمْ أُولَٰئِكَ إِنْ أَشْتَحَبْتُمْ

الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ ۗ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ

(الآية ٣٢ سورة التوبة)

الْكُفْرُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾

عتاب النبي في القرآن الكريم

هؤلاء الذين ذكروهم الله في هذه السورة . . . ولقد حرصت على أن أورد جزءا كبيرا منها . . . هؤلاء مطرودون من رحمة الله فكيف تبدأ السورة الكريمة بالرحمة وهي تخبرنا بالمطرودين من رحمة الله الخالدين في عذابه . . . إذن محمد صلى الله عليه وسلم لم ينس . . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن تبدأ هذه الآية دون ذكر رحمته لأنها عن المطرودين من رحمة الله الذين لا نجا لهم من عذابه . نعود إلى موضوعنا الأساسي بعد هذا التفسير الذي كان لا بد منه للرد على المستشرقين. لتحدث عن عتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم . . .

الله عتاب رسوله في القرآن وقال :

« واستغفر لذنبك »

ثم قال الله سبحانه في سورة الفتح :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿٢﴾

كيف يكون الغفران لما تقدم وما تأخر وفي نفس الوقت يقول الله سبحانه وتعالى « واستغفر لذنبك » . . . وما الذنب الذي ارتكبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

إذا بدأنا الحديث عن معظم آيات العتاب . . . فهي عتاب على رسول الله في الاسراف في الدعوة وتحميل نفسه فوق ما يطيق وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في سورة طه :

« طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى »

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »

عتاب النبي في القرآن الكريم

ويقول الله سبحانه وتعالى لرسوله :

« لم تحرم ما أحل الله لك »

ويقول الله سبحانه وتعالى :

« قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون »

ويقول الحق لنبيه :

« فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك »

ويقول سبحانه وتعالى لرسوله :

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات »

ويقول الحق للنبي :

« عبس وتولى أن جاءه الأعمى »

ويقول « لولا كتاب من الله سبق » . . إلى آخر هذه الآيات التي تحمل عتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول الله « لست عليهم بمسيطر » وقوله « قل لست عليكم بوكيل »

كل هذه الآيات فيها عتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكن عتاب على ماذا؟ على أن رسول الله يحمل نفسه مالا تطيق . . ولماذا يحمل رسول الله نفسه مالا تطيق؟ حبا في الله وفي دينه . . ورغبة في أن يدخل الإيمان إلى كل نفس وفي كل قلب . . حب رسول الله سبحانه وتعالى واخلاصه في دعوته وتفانيه فيها جعله يحمل نفسه مالا تطيق . . ومن هنا أراد الله سبحانه وتعالى رحمة برسوله أن يقول له « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » . . أى انك يا محمد

عتاب النبي في القرآن الكريم

تحمل نفسك ما لا تطيق في هذه الرسالة .. ونحن لم ننزل عليك هذا القرآن لتشقى نفسك به .. ذلك أن القرآن هو بلاغ للناس .. « فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر » ..

ويقول الله سبحانه وتعالى لرسوله :

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

هنا حدد الله سبحانه وتعالى الدعوة إلى دينه بعدم الاكراه .. ولذلك حكمة بالغة هي حكمة الثواب والعقاب في افعال .. ولا تفعل . فالله سبحانه وتعالى قال افعل كذا ولا تفعل كذا .. وأبان للناس طريق الحق وطريق الباطل .. ومن هنا يقتضى عدل الله سبحانه وتعالى أن يتم الاختيار بالارادة الحرة وبلا إكراه .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي بعث رحمة للعالمين يرى ما ينتظر غير المؤمنين من عذاب عظيم .. يراه يقينا ويعرفه .. ومن هنا فهو مشفق على غير المؤمنين .. يحاول أن يبذل كل ما يستطيع .. وفوق ما يستطيع .. ليدخلهم إلى رحمة الله .. لأنه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين .. وفي هذا يحمل نفسه فوق ما تطيق ..

وقبل أن نبدأ في النقاش حول هذه الآيات هناك أمران أحب أن أتحدث عنهما .. الأمر الأول الذين يحاولون التشكيك في الإسلام باستخدام آيات العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. إنما يحكمون على أنفسهم بأنهم مغرضون .. ذلك إنك إذا أخذت القرآن .. فيجب ألا تستشهد بجزء منه ثم تستبعد جزءا آخر .. فالآيات التي نزلت ثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة .. فالله سبحانه وتعالى قال لرسوله « وإنك لعل خلق عظيم » .. وقال : « وإنك لتهدى إلى الحق » .. وقال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » .

وآيات كثيرة في القرآن الكريم أثني فيها الله سبحانه وتعالى على رسوله .. فهل من العدل أن نتجاهل هذه الآيات ثم نأتى بالآيات التي فيها عتاب .. ونحاول أن نأخذها وحدها لنحدد علاقة الله برسوله على طريقة « لا تقربوا

عتاب النبي في القرآن الكريم

« الصلاة » ان في هذا محاولة لطمس الحقيقة واخفائها .. و اظهار الشيء بغير حقيقته .. ولكنني لن أسترسل في هذه الناحية ..

والأمر الثاني أن مسألة العتاب على رسول الله .. كانت في ماذا .. هناك فرق بين العتب على .. والعتب لى .. والعتب هو لون من اللوم على ما حدث .. لأن القوانين التي بيني وبينك تمنع حدوثها وهذا اللوم معناه أولا وقبل كل شيء هو وجود الود بينك وبين الشخص الذي تلومه .. ذلك لأنك لا تلوم إنسانا بينك وبينه قطيعة .. فالكافر لا يلام على ذنب يرتكبه .. لأنه ليس هناك بعد الكفر ذنب .. ومن هنا فهو لا يعاتب .. والعدو لا يلام على ما يفعل لأنك تتوقع من عدوك أى شيء .. ومن هنا فمهما فعل فإنك لن توجه إليه اللوم .. يبقى بعد ذلك الذى بينك وبينه ود .. وعلى قدر الود يكون اللوم .. فإذا كان الود عظيما .. كان هناك مكان للوم ولو على شيء صغير .. وإذا كان الود بسيطا لا يكون اللوم إلا على الأشياء الكبيرة .. فأنت لا تلوم رجلا تعرفه على هفوة صغيرة ارتكبها .. ولكن ان حدث هذا من أخ عزيز عليك جدا فإنك تتأثر بقدر حبك له .. وودك إليه .. ومن هنا فأنت تعاتب أخاك على ما لا تعاتب عليه صديقا .. وتعاتب صديقك على ما لا تعاتب عليه غريبا .. ويقدر الود يكون اللوم على الأشياء الصغيرة .

إذن هنا .. وعكس ما يريد المشككون .. هناك ود عظيم بين الله ورسوله .. وهذا الود هو الذى جعل الله يوجه إلى رسوله هذا الكلام .. ولكن يوجهه له لماذا .. هل لشيء فعله ضد قوانين الله .. أم رحمة به وخوفا عليه .. فلنضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان .. عندى ولدان ولد مهممل فى دروسه لا يستذكر .. فأنا أوجه إليه اللوم لأنه أهمل واجبه .. وولد آخر لا يترك المذاكرة لحظة واحدة يمنع نفسه من الراحة والطعام والنوم ويظل يذاكر طوال النهار والليل فأنا أوجه إليه اللوم كذلك . أنا أعتب على الأول لأنه خالف القوانين التي يجب أن يتبعها لينجح . ولكن الثانى لم يخالف هذه القوانين فلماذا أعتب عليه .. لأنه أسرف فيها .. وحينئذ يكون العتب أو اللوم لصالحه دليلا على شدة الحب له والخوف عليه .. حينما أقول له اترك المذاكرة .. واسترح قليلا لترفه عن نفسك .. فأنا ألومه على شيء أنا أطلب منه أن يعمله .. أنا الذى طلبت منه أن يذاكر لينجح .. وكنت سألومه لو لم ينفذ كلامى .. ولكنني

عتاب النبي في القرآن الكريم

ألومه الآن لأنه أسرف في ذلك .. أى أن العتب له وليس عليه .. ورحمة به وليس عتابا على اهمال ارتكبه .

والآيات التي فيها عتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. تحمل معظمها هذا المعنى .. شئء حمل رسول الله نفسه عليه .. وهو غير محمول عليه بحكم التشريع .. شئء مباح ورسول الله قيد نفسه حتى في المباح .. خرج من السهل إلى الصعب .. « عيس وتولى ان جاءه الأعمى » .. أيهما أسهل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى الهدى رجلا أعمى جاء وفي قلبه إيمان .. أم أن يتعب نفسه مع صنابير قريش الذين ملأ الكفر قلوبهم .. الأسهل طبعا أن يجلس مع ذلك الذي جاء يطلب الإيمان فيهديه إلى طريق الله .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار الطريق الأصعب .. إنه يريد أن يعز الاسلام بصناديد قريش وزعمائها .. وهنا تتدخل الارادة الالهية .. الرسول يترك أمرا سهلا ميسرا .. وكلف نفسه بالجانب الشاق .. لماذا؟ .. لصالح الدعوة .. هنا يقول له الله لماذا تترك السهل وتدخل الصعب .. ان الله غنى عن هؤلاء جميعا .. فيا محمد لا تضيق على نفسك وتحملها المشقة لتهدى من يرفض قلبه الهداية .. انما أنا أريد منك أن تهدي كل قلب يتشوق للإيمان ويهفو إلى الله .. وألا تأخذ الطريق الصعب وتضيق على نفسك .. وهكذا معظم آيات العتاب .

الله سبحانه وتعالى قد أخبر رسوله أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. ولكنه يقوم الليل .. ولا ينام .. ويصلى حتى تتورم قدماه الشريفتان .. وتساءله عائشة في عجب .. يا رسول الله ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر .. فيقول رسول الله أفلا أكون عبدا شكورا .. إذن .. ومع المغفرة التي أعطاها الله له لا يريد إلا أن يعبد الله حق عبادته .. ويأبى رسول الله أن يكون مقصرا في مقام الشكر .. لماذا؟

إذا نظرنا إلى الإنسان بالنسبة لربه .. وقارنا نعم الله عليه .. وما كلفه به من الطاعات .. لوجدنا أن نعم الله لا تعد ولا تحصى .. وأن المطلوبات منا لله سبحانه وتعالى محدودة وبسيطة .. وهنا يحس القلب المؤمن بعطاء الله .. ويأن الله سبحانه وتعالى لو شاء أن يكلفنا بقدر ما أعطانا من نعم .. لما كانت عبادة الليل والنهار كلها تكفى .

عتاب النبي في القرآن الكريم

القلب المؤمن يحس أن نعم الله أكثر مما يؤدي عليها من شكر .. فيدخل في مقام الود والاحسان .. ويقوم الليل .. ويصلى والناس نيام .. صلاة لم يكلف بها في أصل التكليف .. يسرف في الطاعة .. وفي المناجاة .. وفي الشكر .. وفي قراءة القرآن .. وهو في كل هذا في نظر نفسه مقصر .. لأن نعم الله عليه أكبر من هذا كله .. هل يكون مثل هذا الإنسان مخالفا لما أمر به الله .. أبدا .. ولكن - وهنا اشفاق الله سبحانه وتعالى على رسوله .. فالرسول يحمل نفسه مسئولية أولئك الذين لم يؤمنوا .. ويحاول أن يهديهم بقدر طاقتة إلى الإيمان ويشقى ويحرم نفسه من متع الدنيا كلها .. 'يأتى الله سبحانه وتعالى .. فيقول لنبية يا محمد ليس عليك ذنب .. ان لم يؤمنوا فلا تحمل نفسك أشياء لم يكلفك الله بها .. وكفاك أنك بلغتهم الرسالة .. وأديت الأمانة .. وأبنت لهم الطريق .

هذا هو عتاب الله لرسوله .. فهل هذا عتاب عن ذنب .. أم عتاب عن ود .. وحب .. ورحمة من الله سبحانه وتعالى .. فيقول الله لرسوله « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .. ويقول « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » .. ويقول .. « لم تحرم ما أحل الله لك » .. كلها آيات تمثل حب الله لرسوله .. حبا عظيما .. ورحمة بلا حدود .. ويقول الحق تبارك وتعالى لرسوله « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » لقد أبلغتهم رسالة ربك فلا تجعل حبك لله وحبك لهدايتهم إلى طريقه يدخل الحسرة إلى نفسك . هذه هي آيات العتب التي يتجلى فيها حب الله لرسوله .

بقي أن نتحدث عن آيتين يكثر حديث المستشرقين عنهما .. الآية الأولى « واستغفر لذنبك » .. وفي نفس المقام تكمل المعنى آية أخرى « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » .. هنا في الآيتين يطلب الله من رسوله الاستغفار .. والاستغفار معناه طلب المغفرة .. فما هو الذنب .. وما هو طلب المغفرة .. الآية الكريمة في سورة غافر وهي تبدأ كما يلي :

« فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار »

عقاب النبي في القرآن الكريم

والاستغفار هنا إذا دققنا في هذه الآية مرتبط بالتسبيح أى أن الله سبحانه وتعالى يقول :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله .. واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات »

ومن هنا فإن سياق الآية يدل دلالة واضحة على أنها كلها تتعلق بالعبادات .. وان ليس فيها ذنب يجازى عليه بالعقاب بل هى توجيه من الله سبحانه وتعالى .. بأن الاستغفار للذنوب والتسبيح بالعشى والابكار .. هى من المكملات للعبادة والطاعة والقرب من الله سبحانه وتعالى .. هنا ليس مقام لوم .. وليس مقام مؤاخذة .. ولكنه مقام زيادة القرب بالاستغفار والتسبيح . والشهادة أنه لا إله إلا الله .. والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات .. فى مقام العبادة أيضا ..

كل ما يقال عن أن هذه الآية هى فى مقام اللوم غير صحيح .. ذلك أنها فى مقام العبادة وزيادة القرب من الله سبحانه وتعالى .. والرسول كان يستغفر للمؤمنين وفى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قيل ولا أنت يا رسول الله .. قال إلا أن يتغمدنى الله برحمته) . إذن طلب الرحمة والمغفرة من الله مطلوب من كل مؤمن مهما بلغت درجة ايمانه .. ومكمل للعمل الصالح مهما كان هذا العمل الصالح مقبولا عند الله .. أو ما يجب على أمته أن تقتدى به .. حتى ولو كان هذا العمل قد أعفاه الله منه .. والله سبحانه وتعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. ولكنه كان يقوم الليل ويصلى حتى تتورم قدماه الشريفتان ويستغفر الله فى اليوم مائة مرة .. لماذا .. لأنه هو القدوة الذى ستتبعه الأمة المسلمة كلها .

ومن هنا فإن هذه الآية الكريمة هى فى مقام العبادة والقرب من الله وليست فى مقام اللوم كما يدعى المستشرقون الذين أخذوا جزءا منها فقط ليشوهوا به هذا الدين .

على أننى رغم ما قلت سأناقش رأيهم لأريهم أنهم على ضلال .. وقبل أن نمضى يجب أن نحدد ما هو الاستغفار .. الاستغفار هو نوع من الايمان الذى يحس الانسان فيه بالذلة لله سبحانه وتعالى .. ومتعة المؤمن العزة

عتاب النبي في القرآن الكريم

أمام غير الله .. والذلة لله .. ولا تجد إنسانا ليس في قلبه إيمان يستغفر الله سبحانه وتعالى .. بل إنه قد يكون مستعدا لأن يذل نفسه لبشر .. وأن يرتكب في سبيل ذلك من المعاصي ما حرمه الله .. ولكن عندما يأتي الى الاستغفار تأخذه العزة بالاثم .. ولذلك لا يستغفر الله .. ويطلب منه مغفرة الذنوب إلا قلب مؤمن بالله سبحانه وتعالى .. ذلك الذي يجد لذة الخضوع والخنوع لله .. والاعتراف بعظمة الله وقدرته في الاستغفار وطلب المغفرة منه .
فلذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »

هذه الآية الكريمة توضح لنا معنى الاستغفار .. وكيف أنه لا يحدث إلا إذا كان الإنسان في قلبه إيمان ومعنى الآية الكريمة أنه ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم لأنني أرسلتك رحمة للعالمين .. وحيث إن رحمتي سبقت عذابي .. لذلك فأنا لا أعذبهم وأنت فيهم الرحمة المهداة .. ثم تمضي الآية الكريمة لتشرح ماذا سيحدث بعد انتقال رسول الله إلى جوار ربه .. وهنا يكمل الله الحديث فيقول « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » .. إذن بعد انتقالك يا محمد إلى جوار الله فإن الله سبحانه وتعالى لن يصيب بعذابه المستغفرين .. لماذا ..؟ لأن الاستغفار هو الخضوع والخنوع لله .. لا يوجد إلا في قلب مؤمن .. ومادام الإيمان موجودا في القلب فرحة الله تحيط بعبده .
وهكذا يبين الله سبحانه وتعالى لنا قيمة الاستغفار عنده .. وكيف أنه يمنع العذاب .. ويمحو الذنوب .. ويمضي الله سبحانه وتعالى في بيان فضل الاستغفار إليه فيقول :

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيبا »

إذن أولى مراحل المغفرة وأهمها هي الاستغفار .. والخضوع لله .. والخشوع لله .. من أقوى علاماته الاستغفار .. والقلب غير المؤمن ليس فيه رحمة ولا فيه

عقاب النبي في القرآن الكريم

مغفرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو أمته دائما للاستغفار وكان يقول : « استغفروا الله فإنى استغفره فى اليوم مائة مرة » . . فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر الله فى اليوم مائة مرة ، فكيف يكون حالنا نحن !؟

إذن الاستغفار مرتبة من مراتب الإيمان والخشوع لله سبحانه وتعالى . . لا تدخل إلا قلب مؤمن . . ولا ينطقها بصدق إلا إنسان يخشى الله . . ولا يهرع إليها إلا من يخاف ربه ويخشى يوم الحساب . . ومن هنا فإن الاستغفار يوجد فى قلب كل مؤمن . . ويكفى أن تذهب فى يوم من الأيام إلى الكعبة الشريفة وتنظر إلى وجوه حجاج بيت الله الحرام الذين جاءوا من أقصى الأرض ليؤدوا فريضة من فرائض الله . . وتسمعهم وهم يستغفرون الله سبحانه وتعالى بكل لغات الأرض . . فيفيض الله عليهم من رحمته . . تنزل الدموع من عيونهم . . ويجهش حتى أقوى الرجال بالبكاء عندما تمس قلبه رحمة الله . . حتى ذلك الذى يمكن أن يواجه أحداث الدنيا كلها . . يأتى إلى هذه البقعة الطاهرة نادما مستغفرا من ذنبه . . ويتجشم الصعاب والمشاق ليستغفر الله . . فى مكان فضله الله سبحانه وتعالى واختاره بيتا له . . عسى أن يقبل الدعاء . . ويغفر الذنب . . وتفيض الرحمة . .

إذن الاستغفار جزء هام من الإيمان . . ومن لا يستغفر بقلبه فهو محروم من نعمة كبرى من نعم الإيمان . . فالله سبحانه وتعالى حين يأمر رسوله بالاستغفار . . والرسول قدوة لكل المسلمين وهو قدوة حسنة . . عندما يأمره بذلك فإنه من خلاله يأمرنا جميعا أن نستغفر لذنوبنا . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بالاستغفار . . فهذا أمر لنا بالاكتثار من طلب المغفرة ، والغفران من الله . . لنمحو ذنوبنا ولنكون دائما خاشعين لله مدركين أنه إذا غرتنا قوتنا على ظلم الناس فلتتذكر قدرة الله علينا . . وحينئذ نهرع إلى الاستغفار . . ونرفع الظلم ونتوب إلى الله وتخضع قلوبنا .

إذن الاستغفار يحرص الله سبحانه وتعالى . . على أن يبقى بينه وبين المؤمن . . لأن فى هذا تذكيرا دائما بقدرة الله وقوته وضعف العبد وعجزه . . وفى هذا تذكير لنا بالله كلما نسينا . . وبالحساب كلما أخذتنا الدنيا بعيدا عما أمرنا الله

عقاب النبي في القرآن الكريم

به .. وخضوعا وخشوعا للقدرة الكبرى والقوة الكبرى التي نعبدها وهي الله سبحانه وتعالى .. قلب مستغفر لله يخلق بينه وبين الآثام حجابا .. قلب مستغفر لله لا يمكن أن يمضي في اثم ارتكبه أو ظلم قام به لأنه يتذكر الله .. فيستغفر .. ويعدل عن الظلم ويتوب عن الاثم .. قلب يستغفر الله لا يعذب صاحبه .. لأن الله سبحانه وتعالى قال :

« وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »

هذه هي نعمة الاستغفار وهي نعمة لا تحس إلا في القلب المؤمن .. ولا توجد إلا في النفس الخاشعة .. ومن هنا يقول الله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾

التسبيح والاستغفار هما خشوع لله .. وخضوع لله .. وذل لله .. يعشقه القلب المؤمن .. ولذلك ارتبطت هذه الآية بالفتح .. وفي نفس الوقت لم يرتبط بالذنب .. أي أن التسبيح والاستغفار كلاهما حمد لله .. كلاهما يقربنا من الله .. وكلاهما ينقى النفس من الدنيا .. ويقربها من الجنة .. ولكن الله سبحانه وتعالى قال لرسوله « واستغفر لذنبك » .. فما هو الذنب الذي اقترفه رسول الله حتى يستغفر له .. لكي نفهم هذا يجب أن نضع أمامنا الحقيقتين الآتيتين :

أولاهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين .. ومن هنا فإنه رحمة .. وأن الله سبحانه وتعالى هو القوى القادر العزيز الجبار .. الذي يهمل ولا يهمل .. فإذا أخذ كان أخذه أخذ عزيز مقتدر .. رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يحاول بقدر طاقته .. وفوق طاقته مع الكفار والمنافقين عسى الله أن يهديهم .. ويعذب نفسه من أجل ذلك ويشقى .. والله سبحانه وتعالى يقول له « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » .. يأتي المنافقون ويعتذرون لرسول الله عن

عقاب النبي في القرآن الكريم

الجهاد فيأذن لهم .. كل بعذره .. فيأتى الله سبحانه وتعالى ويقول له « عفا الله عنك لم أذنت لهم » هنا الله سبحانه وتعالى يلوم رسوله على الإفراط في الرحمة .. يموت الكفار الذين عذبوا رسول الله .. والذين حاربوا دين الله .. ولكن رسول الله الذى هو رحمة مهداة يأتى فيصلى عليهم عسى الله أن يرحمهم .. فيقول له الله سبحانه وتعالى « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا » .. هل صلاة رسول الله ذنب .. انها افراط في الرحمة .. واجهاد لرسول الله .. يتعب نفسه ويطلب الرحمة من الله حتى لأولئك الذين رفضوا الهداية .. بل ان رسول الله يطلب لهم المغفرة فيرد الله سبحانه وتعالى « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ..

هنا رحمة أهداها الله إلى الأرض .. تنظر إلى السماء وتقول يارب أنا رحمة أرسلتني إلى عبادك .. إلى خلقك .. فلترحم بي حتى أولئك الذين رفضوا الإيمان .. حتى أولئك الذين رفضوا الهداية .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد حرم من رحمته المشركين والظالمين والفاسقين .. ومن هنا فإن الله يرد على رسوله ويقول له يا محمد أنت رحمة للمؤمنين أنت رحمة لهذا العالم كله بأن تريحهم الطريق إلى الله طريق الهداية والنور .. أن تبين لهم طريق الحياة الآمنة المطمئنة الطيبة التي رسمتها لعبادى .. وكلفتك بابلاغها لهم .. من اتبعها فله الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة .. ومن لم يؤمن بي ورفض اتباعها فسيلقانى وسيلقى جزاءه .. فلا تسرف يا محمد في طلب الرحمة لأولئك الذين لم يؤمنوا .. ولا تستغفر لهم .. ولا تذهب نفسك عليهم حسرات فاننى أنا القوى القادر .. وسأجزئهم بما كانوا يفعلون ..

رسول الله هنا .. أتعب نفسه في الدعوة .. والرحمة والمغفرة أكثر مما كلفه الله .. والله سبحانه وتعالى يطلب إليه أن يستغفر من ذلك .. لأن التجاوز في هذا هو تجاوز في أمر من أمور الله .. ولو كان هذا بالزيادة فهل يعتبر هذا ذنبا ؟ وهل يعتبر تشريع الله لرسوله إلا جزءا من الرسالة ؟ هنا الرحمة المطلقة التي تحاول أن تصل حتى إلى قلب غير المؤمن .. لأنها تعرف العذاب الذى ينتظره ولكن الله سبحانه وتعالى يرد « ان أنت إلا نذير » .. « لست عليهم بمسيطر » .. « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا » .. إلى آخر ما جاء في القرآن الكريم .

عتاب النبي في القرآن الكريم

هنا يأتي بعض الناس فيقول أن تجاوز رسول الله في الدعوة وفي طلب الرحمة وفي اتعاب واجهاد نفسه للهداية لمن لا يريد الهداية يتعارض مع الآية الكريمة « وما ينطق عن الهوى » . . أي أنه - وأنا أذهب هنا مع مغالاة المستشرقين - حتى في اجتهاد رسول الله نفسه في الدعوة قد نطق عن هوى في نفسه وهو محاولة للوصول بالعاصين للإيمان رغم أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض عليه ذلك . . إذن فقد اتبع هوى في نفسه وهو الاسراف في الدعوة واجتهاد نفسه فيها . . واشقاء نفسه بها . . رغم أن الله لم يلزمه بذلك .

أقول لهؤلاء جميعا إن معنى « وما ينطق عن الهوى » . . انه مادام الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى رسوله الحق . . وبين له الطريق فإن رسول الله يتبع هذا الحق ولو كانت نفسه تهوى شيئا آخر . . ومتى قال الله سبحانه وتعالى « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا » فإنه بعد نزول هذه الآية وتحديد أمر الله لا يقوم رسول الله أبدا بالصلاة على أحد من الكفار قد مات ولو كانت نفسه تهوى ذلك . . وبعد نزول الآية الكريمة « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يترك رجلا جاء يطلب الهداية لينصرف إلى عظيم مهما كان شأنه . . أخذته العزة بالاثم ولو كانت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم تهوى أن يعز الله الإسلام بهذا الرجل العظيم فإنه لا يتبع هوى النفس أبدا ولكن يتبع ما أوحى إليه . . ومن هنا فإن الآية الكريمة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم متى أوحى إليه بأمر من الأمور ومهما كانت نفسه تهوى فإنه لا يمكن إلا أن يتبع هذا الأمر ولا يجعل النفس تميل مع هواها ضد ما أوحى إليه مهما كان . ومن هنا فإن الآية الكريمة « تبت يدا أبي لهب وتب » نزلت فيمن . . في عم رسول الله . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب له الهداية . . والوحي كما قلت كان بين الله ورسوله . . ولكن عندما نزلت الآية الكريمة تلاها رسول الله رغم أنها نزلت في عمه وأنها تتوعده بالنار والعذاب الأليم . . وهكذا في كل حكم من أحكام الدين لا يتبع رسول الله هوى النفس أبدا . . إنما يتبع الحق وما أنزل مهما اصطدم هذا الحق بقوة وعنف مع هوى النفس .

وننتقل بعد ذلك إلى الآية الثانية وهي قول الله تعالى :

« ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا »

عقاب النبي في القرآن الكريم

هذه الآية الكريمة يفسرها بعض المستشرقين . . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كاد يستجيب لدعوة الكفار . . الذين قالوا نعبد إلهك عاما وإلهنا عاما . . ولكن كل ما يقوله المستشرقون في هذا الموضوع غير صحيح . . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يركن إليهم ولم تمل نفسه إلى ما يقولون ولتأمل معنى الآية الكريمة : « ولولا أن ثبتناك » . . « لولا » هنا حرف امتناع أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثبت من الله . . ومن هنا فإن كل ما يأتي بعد ذلك في هذه الآية ممتنع بحرف لو . . إذن فالله سبحانه وتعالى يقول إنك مثبت منا يا محمد . . وهذا التثبيت يمنع عنك أى انحراف عن دين الله أو خروج عنه ثم تمضى الآية الكريمة « لقد كدت » وكدت معناها مقاربة الفعل دون اتيانه . . أى أنك لم تفعل ذلك . . وإذ اردنا المعنى اللغوى نقول قرب أن يفعل . . فالفعل منفي على الاطلاق . . بل أن القرب من الفعل منفي بكلمة لو . . ماذا كان يحدث لو لم نثبتك وتركتك لفطرتك يا محمد بدون مدد من السماء . . حتى لو لم نثبتك بفطرتك السليمة ما كنت تفعل هذا . . وإن كانت البشرية بدون امداد من السماء لأى إنسان تجعل فيه الميل إلى ذلك . . لكنك مثبت من السماء . . ومثبت بفطرتك السليمة . . إذن امتناعك عن أن تركن إليهم . . أى أن تقترب بخاطرك دون فعل مما يقولون ممتنع بتثبيتك من السماء وبفطرتك السليمة . . ثم تمضى الآية الكريمة « إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات » . . وهنا لنا وقفة . . من المقصود بضعف الحياة وضعف الممات هل المقصود هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . . الممتنع عن ذلك بمدد من السماء وبفطرتك السليمة مادام مدد السماء يمنعه ومادامت فطرتك السليمة تمنعه . . فالآية الكريمة لا تنطبق على رسول الله ولكنها تنطبق على من يفعل ذلك . . ولكن رسول الله لم يفعله ولم يقترب منه .

ولكن هناك حكمة كريمة لورود هذه الآية . . والحكمة هنا واضحة . . الله سبحانه وتعالى يختار من عباده من يشاء . . ويعطيه من المنزلة ما يشاء . . ثم يأتي بعد ذلك اغراء الدنيا وكيد الشيطان . . الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا في هذه الآية إنه على قدر القرب منه يكون الجزاء . . ولننظر ماذا قال الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة :

عقاب النبي في القرآن الكريم

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۗ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ۗ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنزِلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(الآيات من ١١٢ ، ١١٥ سورة المائدة)

الحواريون هم الذين آمنوا مع عيسى ابن مريم وهاجروا معه وجاهدوا في المسيحية . . أرادوا أن يروا آية من آيات الله . . فاستجاب الله لدعاء رسوله عيسى ولكنه قال « فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى أراهم آية بينة من آياته ولذلك يكون حسابهم غير حساب من لم يره الله آية من آياته .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . انه بقدر القرب من الله يكون الحساب . . وحساب الذي يرى آية من آيات الله يكون أدق من حساب العادى . . ولذلك يأتي الله سبحانه وتعالى ليقول لنساء الرسول « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء » لماذا ؟ لأن قريكن من رسول الله يجعل لكن حسابا آخر وميزانا آخر . . فامتنعن عن موطن الشبهة تماما . . فالذى يدخل في مقام الود من الله له مقاييس بقدر ما فتح الله عليه من آياته ومن فيضه .

إذن معنى الآية الكريمة التي جاءت بعد « ولولا أن ثبتناك » . . إنه يا محمد فلتعلم أمتك كلها . . وليعلم العالم أجمع أن من هو قريب منى . . وأكشف له عن آياتى . . ثم يعصى ويتعد له حساب أقسى كثيرا من ذلك الذى لم أكشف له عن هذه الآيات . . وحكمة الله سبحانه وتعالى جاءت في بداية الآية « ولولا أن

عتاب النبي في القرآن الكريم

ثبتناك .. ولولا حرف امتناع ومعنى ذلك أن كل ما بعدها ممتنع لوجود التثبیت من الله ..

إذن فمعنى الآية الكريمة : أنت يا محمد مثبت من السماء .. ومثبت بفطرتك السليمة .. ولكن الذى يقترب ذنبا من عامة الناس له مقياس فى الحساب .. والذى يقترب ذنبا ممن نريه آياتنا يضاعف له العذاب .. مقام الود من الله يدقق المقاييس .. وهذا واضح فى الآية الكريمة التى طلب فيها عيسى بن مريم من الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء لقد رأوا المائدة تنزل من السماء .. آية محسوسة ملموسة اختص المسيح والحواريون برؤيتها ولذلك قال تعالى .. « فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » .

إذن فالآية الكريمة ليس المقصود بها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وافق على ما طلبه الكفار من أن يعبد الههم عاما .. ويعبدوا الله عاما .. ولكن المعنى أنك يا محمد مثبت من لدنا فهذا ممتنع عنك تماما أن تميل إليهم ولكن القرب منى وكشف آياتى لمن أريد يجعل أولئك الذين فى مقام الود والكشف من الله سبحانه وتعالى .. لهم عذاب مضاعف لأنهم رأوا ثم كفروا بعد رؤيتهم لآيات الله .

الآية ليست لوما لرسول الله ولا أخذا عليه وإلا لما ابتدأت بحرف امتناع يمنع وقوع الفعل .. ولكنها شرح لكل بشرية مؤمنة .. بأنه على قدر الود يكون الحساب .. وأن من يكفر بعد أن رأى آيات الله وعرفها فإن حسابه ليس بميزان كحساب باقى الناس .. ولكنه بميزان أدق وحساب مضاعف .

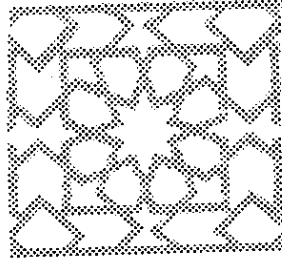
هذه هى بعض الخواطر التى أردت أن أشرحها حول عتاب الرسول فى القرآن الكريم .. فالعتاب كان على الاسراف فى الاجتهاد للدعوة .. والحزن على غير المؤمنين ومحاولة الاستغفار للكفار أو الصلاة عليهم بعد موتهم .. وفى ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رحمة للعالمين يجهد نفسه فى هذا .. ويحملها ما فوق طاقتها .. فنهاه الله عن هذا وقال له .. استغفر لهذا الاسراف الذى قمت به ولم يكن مطلوباً منك .

أما مسألة ميل رسول الله إلى الكفار وأخذ الآية الكريمة « ولولا أن ثبتناك » على أنها لوم للرسول فالرسول لم يميل للكفار قط . وإلا لما بدأت الآية بحرف الامتناع لولا .. ليؤكد الله سبحانه وتعالى امتناع حدوث هذا الشيء .. ثم

عقاب النبي في القرآن الكريم

ليخبرنا أنه بقدر الود إلى الله والقرب منه وكشف الله لآياته لعباده يكون الحساب للذي يضعه الله في منزلة أعلى ويريه آياته إذا كفر بعد ذلك . . يكون حسابه ضعف عامة الناس أو كما قال الله لعيسى والحواريين « فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحد من العالمين » .

على أن الله سبحانه وتعالى كان دائما يثبت رسوله كلما ذهب نفسه حسرات على عدم إيمان الناس . . وعدم استجابتهم للدعوة . . واشفاقه عليهم وما سيلقونه في الآخرة . . وفي هذا لا بد من الحديث عن معجزة الاسراء والمعراج . . وهو موضوع الفصل القادم . .



الفصل السادس

مِجْرَةَ الْأَسْرَاءِ وَالْمَعْرَجِ

معجزة الاسراء والمعراج

معجزة الاسراء والمعراج تختلف عن المعجزات التي سبقتها في المفاهيم والمعنى . . وفي جوانب كثيرة . . ولعل ما من معجزة حدثت لنبي أثارت جدلا مثل معجزة الاسراء والمعراج . . ذلك أن المعجزات السابقة كانت تخرق قوانين الكون . . وكما بينت في الجزء الأول من كتاب معجزة القرآن أن الله سبحانه وتعالى حين خلق الكون لم يتركه هكذا عشوائيا ، بل خلق كل شيء بقانون دقيق : الأرض لها قوانين . . والشمس لها قوانين . . والنجوم لها قوانين . . والماء له قوانين . . وكل خلق من خلق الله سبحانه وتعالى له قوانين .

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الكون ويتركه لهذه القوانين بل هو قائم على خلقه إلى يوم الدين . . ومن هنا فإن الله وهو القيوم مادام قد خلق هذه القوانين ، وأوجدها ، هو وحده القادر على أن يخرق هذه القوانين لمن يشاء من عباده . . وهذه هي المعجزة . . والمعجزة تتم لتثبيت المؤمنين في حالات إيمانية معينة ، يواجه فيها المؤمنون بالله بمحنة شديدة فتأق إرادة الله سبحانه وتعالى لتحدث معجزة تثبت الإيمان في القلوب . . فتنصر المؤمنين على الكافرين . . على أن هذه المعجزات كلها معجزات مشهدية . . أى أنه يشهد حدوثها مع رسول الله عدد من المؤمنين الذين يريد الله سبحانه وتعالى أن يثبتهم . . وهنا الاختلاف بين معجزات الرسل . . ومعجزة الاسراء والمعراج . . ذلك أن المعجزات السابقة حدثت أمام جمع من المؤمنين . . وهي معجزات كونية . . أى أنها خرق لقوانين الأرض . . أما معجزة الاسراء والمعراج فقد حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده . . وخرقت له فيها قوانين السماء . . وهنا الفارق الكبير . . ذلك أن رسول الله هو البشر الوحيد الذى أسرى به الله سبحانه وتعالى بالجسد من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى . . ثم عرج به إلى السماء . . وهو البشر الوحيد الذى فتحت له أبواب السماء حتى وصل إلى سدرة المنتهى بالجسد والروح معا . .

على أن بعض الناس يجادل في هذه النقطة . . وهي مسألة الاسراء والمعراج بالجسد أو بالروح . . وهم يقولون لماذا يصر بعض العلماء على أن معجزة الاسراء والمعراج تمت بالجسد والروح . . بينما الأقرب إلى العقل والمنطق أن تكون قد تمت بالروح وحدها . . وأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ما رأى وهو نائم . . كما يرى أى إنسان أشياء في الحلم . . وأنه لا يجب أن يتعب

معجزة الاسراء والمعراج

العلماء أنفسهم في نقطة الاسراء بالجسد مادامت تصطدم مع العقل والمنطق ..
والاسراء بالروح لا يقلل من قيمة المعجزة .. وإلى هؤلاء جميعا أحب أن أقول
أن مسألة الاسراء بالجسد مسألة أساسية .. لماذا؟ لأننا لا يمكن أن نطبق العقل
والمنطق على قدرة الله سبحانه وتعالى .. فإذا كان الله هو الفاعل فلا نقول أن
ذلك أقرب إلى العقل .. أو أبعد عن العقل .. بل هنا يتوقف حكمنا بالمنطق
والعقل لأن قدرة الله سبحانه وتعالى فوق كل العقول ..

ومن هنا فإننا إذا حاولنا أن نضع قيودا للمعجزة الاسراء والمعراج .. ونقول انها
أقرب إلى العقل أن تتم بالروح ، بدلا من أن تتم بالجسد إلى آخر ما نقول في
هذا الشأن .. فإننا بذلك نضع قيودا على قدرة الله سبحانه وتعالى في أن يفعل
ما يشاء .. وهنا الخطأ .. ذلك أننا حين ننقل الأمر من قدرة البشر إلى قدرة الله
سبحانه وتعالى فلا يجب أن نقيس هذه القدرة بقدرة العقل البشرى مهما
كانت .. فإذا قال لي أحدهم أنه أقرب إلى المنطق والعقل أن يتم الاسراء
والمعراج بالروح .. أقول له انك تحاول أن تضع على قدرة الله قيودا من صنع
عقلك .. والمخلوق لا يستطيع أن يقيد قدرة الخالق .. وفرق كبير بين قدرة الله
سبحانه وتعالى خالق هذا الكون وقوانينه .. وبين قدرة العقل البشرى الذى
أعطى امكانية اكتشاف هذه القوانين . وفهمها والانتفاع بها .. فالقانون
الأرضى يخرج من علم الله إلى علم البشر كما سبق أن أوضحت .. والله سبحانه
وتعالى أعطى العقل القدرة على الاستفادة بهذا القانون واستخدامه .. لماذا؟
لأنه سخر كل ما فى السموات والأرض لخدمة الإنسان ونفعه ..

ومرة أخرى أقول .. ان المعجزات الحسية التى تتم .. هى معجزات لتثبيت
الإيمان .. فى وقت يزلزل فيه المؤمنون .. فيأتيهم من السماء ما يشبههم .. وهى
معجزات تحدث فى وقتها .. وتنتهى ولا تتكرر .. من رآها صدقها .. ومن لم
يرها يمكن أن يصدقها .. ويمكن ألا يصدقها .. ولو أن هذه المعجزات لم ترد فى
القرآن الكريم .. ويخبرنا الله سبحانه وتعالى عنها .. لو أنها وردت فى كتب
التاريخ مثلا .. لكان من الممكن أن يصدقها إنسان .. ولا يصدقها إنسان
آخر .. كل حسب تفكيره وقدراته العقلية .. ولكن ورودها فى القرآن الكريم
جعلها صادقة ثابتة .. يقينية ..

ولكن معجزة الاسراء والمعراج .. تختلف عن هذه المعجزات كلها .. فهى
لم تقع على مشهد من المؤمنين .. تثبيتا لأيمانهم .. بل وقعت لرسول الله صلى الله عليه

معجزة الاسراء والمعراج

وسلم وحده .. ومن هنا لم يكن الهدف منها كالمعجزات الحسية الأخرى ، تثبيتا للإيمان .. بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أبلغ الناس بها .. لم يصدقه عدد منهم ..

إذن لماذا كانت معجزة الاسراء والمعراج .. مادامت تختلف عن معجزات الرسل الأخرى في تثبيت الإيمان .. كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم للتبليغ .. عن الله سبحانه وتعالى .. في أهم أركان الإسلام .. وهى الصلاة .. التى فرضت من الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة .. أى بلا وحى .. تعظيما لشأنها .. واجلالا لقدرها .. حيث أن الله سبحانه وتعالى قد جعلها الفرض الوحيد الذى لا يجوز لإنسان أن يتركه أبدا .. فصوم رمضان مثلا مباح تركه للمسافر والمريض .. على أن يصوم أياما آخر .. وغير القادر .. على أن يطعم مسكينا .. والزكاة مثلا ليست مفروضة إلا على من له مال .. أما من لا يملك مالا أو كان غير مستحق للصدقة مثلا .. فلا زكاة عليه .. والحج لمن استطاع إليه سبيلا .. إلا الصلاة .. فى الحرب والسلم .. وقت المعارك .. وفى ميادين القتال .. وقت المرض ووقت الصحة .. وقت القدرة على الحركة .. ووقت عدم القدرة على الحركة .. والإنسان يستطيع أن يصلى وهو نائم .. إذا كان المرض يقعه عن القيام .. وهو جالس إذا كان المرض يقعه عن السجود والركوع .. ولكن ترك الصلاة أمر لم يجعل له الله سبحانه وتعالى بديلا .. ولم يرفعه عن عباده .. ويجعل بدلا منه فداء .. وفرضه وقت السفر .. ووقت المرض .. وجعل فيه من التيسيرات ما يمكن كل إنسان من أداء الصلاة .. فى الحالة التى يكون عليها .. فأجاز الجمع بين الصلوات فى السفر .. إلى آخر ما نعرفه من أحكام الصلاة ..

إذن .. الصلاة التى هى صلة بين العبد وربيه .. لا يجب أن تنقطع أبدا .. وكل وقت له ميعاد .. وله أداء .. ولعظم شأن الصلاة .. ولكونها تنهى عن الفحشاء والمنكر .. ولكونها صلة العبد بالله .. ولكونها خشوع العبد لخالقه .. فقد فرضت مباشرة من الله سبحانه وتعالى للرسول .. وفرضت فى أكرم مكان عند سدرة المنتهى .. فرضت فى مكان من الرقى .. والقرب من الله سبحانه وتعالى بحيث لا يستطيع جبريل عليه السلام أقرب الملائكة لله أن يصل إلى هذه المكانة .. بل إن جبريل عليه السلام قال لرسول الله عندما وصل إلى سدرة

معجزة الاسراء والمعراج

المنتهى .. وطلب منه أن يتقدم .. قال جبريل لرسول الله إذا تقدمت احترقت .. وإذا تقدمت أنت احترقت .. ومعنى ذلك أن نور الله سبحانه وتعالى في هذا المكان بالذات لا يستطيع أن يتحملة حتى أعظم الملائكة .. المكان عظيم وجليل .. يتناسب مع جلالة ما فرضه الله سبحانه وتعالى على عبده .. ومن هنا نستطيع أن ندرك القيمة العظمى للصلاة كركن من أركان العبادة ..

على أننا قبل أن نستطرد في هذا الحديث .. وفيين مدى اختلاف المعجزة .. فانما يقفز إلى أذهاننا عدة تساؤلات .. السؤال الأول : لماذا كان الاسراء والمعراج .. ولم يكن معراجا فقط .. أى لماذا أسرى الله برسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. ثم بعد ذلك عرج به إلى السماء .. إن في ذلك حكمة تقتضيها المعجزة .. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كان عليه أن يبلغ ما كلفه به ربه .. والله سبحانه وتعالى كلف رسوله .. ليس أمام جمع من الناس .. على مرأى من أحد من أمته .. ولكنه كلفه بينه وبينه .. ومن هنا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في هذه الحالة أمينا في الاخبار عما أبلغه الله به .. أى أنه يكون وسيلة في أمر يريد الله أن يعرفه لخلقه .. ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى الاسراء مقدمة للإيمان بالمعراج ..

الاسراء آية أرضية من مكة إلى بيت المقدس .. والمسافة من مكة إلى بيت المقدس في ذلك الوقت لم تكن أمرا مستحيلا .. بل كانت القوافل تقطعها في أيام أو أسابيع .. المهم أنه كان يتم السفر من مكة إلى بيت المقدس .. مهما اختلفت الوسيلة .. إذن المعجزة هنا في الاسراء .. في الزمن وحده .. معجزة الزمن هنا هي المقصودة .. فالله سبحانه وتعالى لا يحده زمن ولا مكان .. رسول الله أسرى به .. ثم صعد إلى السماء ثم عاد في نفس الليلة .. معجزة الزمن هنا جعلت الناس لا يصدقون .. فأخبرهم رسول الله بالقوافل القادمة .. وبأشياء رآها على الأرض خلال الاسراء به من مكة إلى بيت المقدس .. والعودة .. ووصف لهم بيت المقدس .. أى أنه أعطاهم آيات أرضية حسية مشهودة على المعجزة .. وكان هذا مقصودا .. لأنه متى أعطاهم رسول الله هذه الآيات .. وهذه المعالم التي رآها في الطريق بين بيت المقدس ومكة .. ثم بعد ذلك تأكدوا من أنها صحيحة .. فلاشك أن هذا يصبح دليلا

معجزة الاسراء والمعراج

على أن الله سبحانه وتعالى قد خرق له القانون فصعد إلى السماء .. إذن يكون ما علموه من آيات أرضية .. أو دلائل أرضية .. دليلا على صدق ما علموه مما حدث لرسول الله حين صعد إلى السماء ..

فالاسراء معجزة ، المراد بها الدليل الأرضي .. على أن الله سبحانه وتعالى قد خرق قوانين الكون لرسوله .. وأسرى به من مكة إلى بيت المقدس في زمن وجيز .. أو في لا زمن .. ويكون في هذه الحالة قد تأكد لهم أن الله قد خرق قوانين الأرض لرسوله .. ومادام الله سبحانه وتعالى قد خرق له قوانين الأرض .. فهو قادر على أن يخرق له قوانين السماء .. فإذا أخبرهم رسول الله بعد ذلك بشيء حدث .. فلهم أن يصدقوا المعجزة .. ولا يشكوا فيها ..

إذن .. الاسراء كان مقدمة أرضية للتثبيت .. وللدلالة على صدق ما حدث طبقا لمقاييس العقل البشري .. ولكن بعض الناس يأتي الآن ويقول .. إن الإنسان يستطيع أن يسافر الآن من مكة إلى بيت المقدس في أقل من نصف ساعة مثلا .. وأنا أقول لهم إن هذا لا يمس المعجزة .. فمعجزة الله تبقى معجزة خالدة مهما تقدم العلم .. فعيسى عليه السلام مثلا كان يبرئ الأكمه والأبرص .. ولكنه كان يبرئه بلمسة من يده .. والطب تقدم الآن .. وأصبح الطبيب باستخدام الدواء ربما يستطيع أن يبرئ الأكمه والأبرص ولكن المعجزة بقيت معجزة وهي أنه لا يمكن أن يقوم أحد من البشر ببراء الأكمه والأبرص بمجرد لمسه .. كما كان يفعل عيسى .. كذلك المعجزة بالنسبة لمحمد عليه السلام قد يستطيع إنسان أن يتخذ وسيلة ما ليقطع المسافة بين مكة وبيت المقدس في زمن قياسي .. ولكنه لن يستطيع أبدا أن يقطعها بجسده مجردا .. فتلك معجزة من الله لن يصل إليها بشر .. لا يستطيع إنسان أن يطير هكذا وحده في الهواء .. ويقطع أى مسافة في لحظات .. كما حدث لمحمد عليه السلام ..

إذن المعجزة هنا خالدة .. باقية في طريقة حدوثها .. ولا يتأتى لأحد من البشر أن يصل إليها ..

يبقى بعد ذلك سؤال هام .. لقد كلم الله موسى عليه السلام .. وهو على الأرض .. فلماذا أسرى بمحمد عليه السلام إلى السماء ليفرض على عباده الصلاة .. ولماذا لم يكلم رسوله وهو على الأرض .. كما حدث لموسى ؟

معجزة الاسراء والمعراج

إن المعجزة الأولى وهى الاسراء .. تمت كآية أرضية .. وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وروى ما رآه بين مكة وبيت المقدس .. رواه كآية أرضية ليقترب إلى أذهان البشر الآية السماوية التى حدثت .. فإن كان قد صدق فيما رواه عن القوافل .. والمشاهد التى مر بها وهو يسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. فإن ذلك يدل على صدق روايته عن المعجزة الكبرى .. ويؤكد لمن يروى له أنها حدثت ..

وهكذا كان الله رحيمًا دائمًا بالعقل البشرى .. فالله سبحانه وتعالى حينما يذكر غيبًا هو فوق قدرة العقل البشرى .. وفوق طاقة البشر .. إنما يأتي بشيء قريب إلى فهمهم .. ليستطيعوا استيعاب هذا الشيء القريب ، أن يثبت إيمانهم .. ولا يسهل خديعتهم من غير المؤمنين الذين يحاولون التشكيك في هذا الدين .. فنجد الله سبحانه وتعالى مثلًا .. وقد كان في علمه أن الناس سيعبدون العلم .. مبهورين بما يحقق .. ناسين قدرة الله سبحانه وتعالى .. يقول لهم : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له » .. ثم قال الله سبحانه وتعالى « ضعف الطالب والمطلوب » .. وجاءت الآية الأرضية فوصل العلم بالإنسان إلى القمر .. ولكنه لم يستطع أن يخلق جناح ذبابة .. وهناك آيات أخرى كثيرة عن الموت والحياة .. والبعث تقرب إلى الأذهان .. كل هذا وتؤكد .. ليكون دليلًا دامغًا ضد الذين يجاربون هذا الدين .. وفي القرآن معجزات كثيرة تحدثنا عن بعضها .. وستحدث عن بعضها في المستقبل إن شاء الله .

نعود مرة أخرى إلى معجزة الاسراء والمعراج .. وقد توقفنا عند سؤال هام ..

لقد كلم الله موسى عليه السلام وهو على الأرض .. فلماذا أسرى بمحمد عليه الصلاة والسلام إلى السماء ؟ ولماذا لا يكلم رسوله وهو على الأرض .. وقبل أن نبدأ في الإجابة على هذا السؤال .. نعود للآية الكريمة التى تبدأ « سبحانه الذى أسرى » .. والذى أسرى هنا هو الله سبحانه وتعالى .. أما الذى أسرى به وعرج به إلى السماء .. وصعد به إلى السماء .. فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إذن فالفاعل هو الله .. ومادام الفعل من الله .. فيجب أن تنسب القدرة إلى الفاعل .. أى إلى الله سبحانه وتعالى .. والله لا تحدده حدوده .. ولا قيود .. ولا تنطبق عليه مقاييس البشر .. وليس عنده زمان

معجزة الاسراء والمعراج

ولا مكان .. ومن هنا فعندما نتحدث عن المعجزة .. يجب أن تكون في أذهاننا قدرة الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى ..

ونعود مرة أخرى إلى السؤال .. لماذا كلم الله موسى .. ورفع محمدا إلى السماء .. ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادرا أن يكلم رسوله وهو على الأرض ؟ وهل الله سبحانه وتعالى يحده مكان .. بحيث يرفع رسوله إليه .. أم أنه لا يحده مكان ولا زمان ؟

حينما نتحدث عن هذا كله .. لا يجب أن نضع أمامنا مقاييس البشر .. فالزمان والمكان هما خلق من خلق الله سبحانه وتعالى .. خلقهما للإنسان في حياته الأرضية .. ولكن الله لا يحده زمان ولا مكان .. ولا قدرة .. ومن هنا فإنني لا يجب أن أفهم المعجزة بمقاييسى أنا .. وقدراتى أنا .. كبشر .. ولكن يجب أن أفهمها بقدرة الله سبحانه وتعالى الذى لا يوجد عنده زمان ولا مكان .. فإذا نقصت المسافة .. وإذا قلت رفعه .. فمعنى الرفة هنا شيء مختلف تماما عن معنى الارتفاع فى الجو مثلا .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين صعد برسوله إلى السماء .. ليس معنى هذا الصعود الذى نفهمه .. ولكن معناه الصعود الذى هو من قدرة الله .. والعمل يتناسب دائما مع القدرة .. ومن هنا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. قد غير الله بقدرات الله من طبيعة الأشياء .. بحيث وصل إلى منزلة هى أكبر من منزلة أكبر الملائكة المقربين إلى الله سبحانه وتعالى .. وكما أن الأرض خلق الله لها قانونا .. فالسما قد خلق لها سبحانه وتعالى قوانين .. ومن هذه القوانين أنه لا أحد بصورته البشرية يستطيع أن يصل إلى السماوات .. أو يخرج من عالم الأرض .. وعالم الأرض هنا ليس معناه القمر .. ولا النجوم المحيطة بالأرض .. ولا الشمس .. فهذه كلها مجموعة شمسية .. هى مجموعة الأرض .. وكلها تتفاعل معا .. وتتأثر معا .. بقوانين قد وضعها الله لها ليكمل بعضها بعضا فى المهمة التى حددها الله لها .. فالشمس مثلا إذا غابت اختلت الحياة فى الأرض .. والقمر إذا اختفى .. ربما حدث خلل فى قوانين المجموعة الأرضية .. إذن فهذه المجموعة الأرضية التى تضيئها الشمس التى نراها كل صباح إنما هى مجموعة واحدة .. خلقها الله سبحانه وتعالى وسخرها لخدمة الإنسان .. فالشمس تخدم الإنسان .. فتعطيه الدفء .. وتمكن له سبل الحياة .. وتنبت له الزرع .. إلى آخر ما يحدث .. ولو غابت هذه الشمس لتحولت الأرض إلى كتلة من الجليد

معجزة الاسراء والمعراج

لا يعيش عليها البشر .. والرياح .. والسحاب .. ونظام الكون .. كل ذلك مسخر للإنسان .. إذن في داخل هذه المجموعة الشمسية حركة الإنسان .. وفي خارجها مئات من المجموعات الشمسية والكواكب .. مثل المجموعة الشمسية الموجودة فيها الأرض .. كلها من خلق الله .. وكلها لها قوانين تتبعها .. ولها مهام يعلمها الله سبحانه وتعالى ..

ولكن الله .. وهنا يجب ألا ننسى أن القدرة منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى .. قد خرق كل هذه القوانين لمحمد عليه السلام .. وجعله بإذن الله وبأمره يخرج من هذه المجموعة إلى الكون الأعلى ليرى من آيات الله ما لم يره بشر .. وليصل إلى سدرة المنتهى .. وليسمع صرير الأقلام .. وليس معنى هذا أن كل ذلك محدود بمسافة ومكان .. ولكن معنى الرؤية هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. أنه انتقل بقدرة الله من هذه المجموعة الأرضية .. إلى ما هو أرقى وأعلى منها .. وهذا الانتقال يقتضى تغيير طبيعة البشر من حال إلى حال ..

ولكى أقرب هذا إلى الأذهان .. أحب أن أقول ان الله سبحانه وتعالى مع كل آية سماوية يعطينا ما يقربها للأذهان .. في حياتنا الأرضية .. فالإنسان مثلا طبيعته وهو نائم تتغير عن طبيعته وهو مستيقظ .. فهو حين يكون مستيقظا يعيش الحياة الأرضية العادية .. فإذا نام فقد يرى أشياء لا تخضع لقوانين الكون .. كأن يرى مثلا أماكن لم يرها في حياته .. ولم يسمع بها .. وقد يلتقى مع أناس انتقلوا إلى رحمة الله منذ سنوات طويلة .. ويكلمهم ويكلمونه .. وقد تحدث له أشياء لا تتفق مع طبيعة العقل البشرى .. كأن يقفز من فوق جبل عال .. وينزل سالما على الأرض .. أو ينتقل من أقصى الأرض إلى أقصاها في لحظات .. أو يرى عالما لا يوجد في حياتنا الأرضية .. أو يذهب إلى مكان بعيد مئات الألوف من الأميال .. كل ذلك يحدث في لحظات .. والإنسان نائم .. فإذا استيقظ ذهب عنه كل هذا .. وبدأ حياته الأرضية العادية ..

ما معنى هذا الكلام كله .. معناه أن طبيعة الإنسان .. والقوانين التي تحكم الإنسان وهو نائم .. تختلف اختلافا كبيرا عن تلك القوانين التي تحكمه وهو مستيقظ .. فهو يرى وعيناه مغلقتان .. ويتكلم ولسانه لا يتحرك .. ويسمع بينما لا أصوات حوله على الاطلاق .. كل ذلك يحدث خلال النوم .. لماذا؟

معجزة الاسراء والمعراج

لأن طبيعة البشر هنا اختلفت .. ومع اختلاف الطبيعة اختلفت القوانين .. فأصبحت تلك القوانين التي تحكم الإنسان وهو مستيقظ بالمكان والزمان .. والرؤية بالعينين والكلام باللسان .. أصبحت كل هذه القوانين ملغاة .. وانتقل الإنسان إلى طبيعة أخرى .. تحكمها قوانين أخرى .. ألغت إلى وقت محدود .. كل القوانين الأرضية التي اعتدنا الحياة بها .. فإذا كان هذا يحدث للإنسان عندما ينام .. وهو جسد لا ينتقل من مكانه .. فكيف بقدرة الله سبحانه وتعالى التي لا تحدّها قيود ولا حدود .. وألا تستطيع هذه القدرة أن تخضع الجسد البشرى وهو مستيقظ لنفس القوانين التي يخضع لها وهو نائم ؟ بل هي تمكن له من معجزات أكثر بكثير من ذلك .. فإذا اقتربت الصورة من العقل البشرى إلى هذا الحد .. استطعنا أن نفهم أن المعجزات التي تمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. من خرق للقوانين البشرية .. والصعود إلى الملكوت الأعلى بالجسد .. هي معجزات أراد الله أن يقربها لنا بأن جعل البشر العادى يخرج من قوانين الأرض أثناء النوم .. فكيف بقدرة الله حين يريد أن يخرج رسوله من قوانين الأرض ..

إذن .. فالمعجزة تمت .. وتمت بقدرة الله .. ورأى رسول الله من آيات ربه الكبرى في السماء .. أى أن موسى عليه السلام رأى آيات ربه الأرضية .. أما محمد عليه الصلاة والسلام .. فقد رأى آيات ربه الكبرى في الملكوت الأعلى .. وهنا الاختلاف .. بين المعجزتين ..

أما حديث الله سبحانه وتعالى .. فقد تم في مكان المعجزة .. أو مكان الآيات .. التي أراد الله أن يكشف عنها لرسوله .. فكشف الله لموسى آياته الكبرى في الأرض .. وكلمه وهو على الأرض .. وكشف الله لمحمد عليه السلام آياته الكبرى في الملكوت الأعلى .. وكلمه عند سدرة المنتهى .. والله موجود في كلا المكانين .. وفي كل مكان وزمان .. ومن هنا فإن الحديث لم يكن مرتبطاً بتحديد مكان الله سبحانه وتعالى .. فهو موجود في الأرض .. وموجود في السماء .. ولكنه كان مرتبطاً بكشف الله سبحانه وتعالى لآياته الكبرى .. فعندما كشف الله آياته الكبرى لموسى في الأرض .. كان الحديث وموسى على الأرض .. ومحمد عليه السلام رأى آيات ربه الكبرى في الملكوت الأعلى .. فكان الحديث حيث المعجزة .. وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى موجود في كل مكان .. وليس كما يقول بعض المشككين بأن الله قد رفع إليه محمداً عليه

معجزة الاسراء والمعراج

السلام ليكلمه في الملكوت الأعلى .. وأن هذا تحديد لمكان يوجد فيه الله سبحانه وتعالى .. فالله بالآيتين كلام موسى على الأرض .. وكلام محمد في الملكوت الأعلى .. إنما أعطانا البرهان والدليل على أنه موجود في كل مكان .. وأنه يستطيع أن يخاطب من يشاء .. وكيف يشاء سواء تم ذلك على الأرض .. أو في الملكوت الأعلى .. أو في أى مكان في ملك الله .. فالآية هنا دليل على أن الله سبحانه وتعالى لا يحده مكان ولا زمان ..

إذن الاسراء والمعراج تما .. بالروح والجسد معا .. ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى أنبياءه معجزات .. وهذه المعجزات هي خرق لقوانين الأرض التي وضعها الله سبحانه وتعالى .. ومعجزة إبراهيم .. ومعجزات موسى وعيسى كلها جاءت لتبطل مفعول قوانين أرضية وضعها الله سبحانه وتعالى للحياة في الأرض .. فسلب الله النار خاصية الاحراق في معجزة إبراهيم .. وأبطل قوانين الماء ليعبر موسى البحر .. وأعطى عيسى عليه السلام القوانين التي يشفى بها المرضى .. ويحى بها الموت بإذن الله .. وفي معجزة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .. خرق الله له قوانين الأرض .. وقوانين السماء .. فجعله ينتقل من الكعبة المشرفة إلى بيت المقدس في لحظات .. وفي هذا خرق لقوانين الأرض .. كمعجزة أرضية أن ينتقل الإنسان بجسده وبدون استخدام أى وسيلة أرضية متاحة من مكان إلى آخر في وقت لا يستغرق أكثر من دقائق .. ولكن الله سبحانه وتعالى زاد على ذلك بأن خرق له قوانين السماء .. فقانون السماء الذي وضعه الله سبحانه وتعالى هو ألا يصعد إنسان بجسده إلى السماء .. ولكن هذا القانون أبطل الله مفعوله لرسوله .. وجعله يصعد بالجسد حتى سدره المنتهى .. ثم أراه الآيات الكبرى في السماء ..

على أن لنا حديثا بعد ذلك حول الآية الكريمة « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » .. أى نزل من مكانه إلى مكان أقرب .. وهنا تدخل المسافات .. ولكن المعنى مختلف تماما .. فنحن نقيس البعد والقرب بالمسافة .. ولكن الحقيقة هي غير ذلك .. فنحن نأخذ الزمان والمكان أساسا لنا .. والزمان والمكان مخلوقان لله سبحانه وتعالى .. ومادام كل منهما مخلوقا لله .. فلا زمان ولا مكان في حكم الله .. فلا يجب هنا أن نطبق قوانين البشر ..

معجزة الاسراء والمعراج

على أننا في هذه الحالة .. وكما قلت عدة مرات .. فإن الله سبحانه وتعالى
رحمة بعقول البشر .. يعطيهم في الحياة ما يقرب إليهم فهم ما هو فوق طاقة
العقل وقدرته .. فإذا أردنا أن نحلل هذه العبارة بالمقاييس البشرية .. عندما
أقول ان فلانا قريب من قلب فلان .. أو قريب من فلان .. هل أنا استخدم في
هذه الحالة المسافة .. أبدا .. ذلك أنه قد يكون جالسا إلى جوارى تماما ..
ولكن بين قلوبهما مسافة كبيرة خلقتها الأحداث من بغض وتنافر وتناحر .. ومن
هنا فإن إنسانا يجلس إلى جوار إنسان قد يكون أبعد الناس عنه أو عن فهمه ..
أو قد يكون أبغض الناس وأبعدهم عن قلبه .. بل إنه أحيانا يعيش اثنان في
بيت واحد .. وتحت سقف واحد .. وكلاهما في عالم مختلف تماما عن الآخر ..
وكلاهما بعيد عن الآخر في كل شيء .. في حبه وبغضه وعاداته .. وتقاليده ..
وكل ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع .. ومن هنا فإن قرب الإنسان في المسافة
لا يعنى قربه من الإنسان الذى يجلس إلى جواره .. وإنما القرب يمكن أن يكون
مع إنسان بعيد من ناحية المسافة .. فقد يكون أكثر الناس رؤية لك .. وقربا
من مكانك .. هو أبعدهم عنك .. وقد يكون أقل الناس مقابلة لك ..
وأبعدهم عن مكانك هو أقرب الناس .. إلى قلبك .. إذن فالقرب والبعد
لا يمكن أن يقاسا بالمسافة .. ولا يمكن أن تنطبق عليهما مقاييس المكان ..
ولكن تطبق عليهما مقاييس أخرى قد يكون أقلها شأنها هو المسافة .. ومن هنا
فإننا لا يجب أن نأخذ الآية الكريمة « فكان قاب قوسين أو أدنى » .. بأن معناها
دنو في المسافة .. ولكن معناها قرب من القلب .. وهذا يأتي بالكشف ..
وإذا أردنا أن نوضح هذه العبارة .. فإننا نقول مثلا أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم .. سبح الحصى في يده .. وأنا شخصا أحب أن أعدل هذه
العبارة .. بحيث أقول لأجعلها أقرب إلى الدقة .. إن رسول الله سمع تسبيح
الحصى في يده .. فالحصى يسبح في يد المؤمن .. وفي يد الكافر .. وكل شيء
في الكون يسبح لله .. ولكننا لا نفقهه ولا نسمع تسبيحهم .. وهذه الأشياء
لا تسبح بإرادة الإنسان .. ولا دخل له فيها .. ولكنها تسبح بإرادة الله سبحانه
وتعالى .. فرسول الله حين أمسك بالحصى .. سمع تسبيحها .. لأن الله
سبحانه وتعالى كشف له عن ذلك .. ولكن أى إنسان يمسك بالحصى لا يسمع
تسبيحها .. لأن الله لم يكشف له عن هذا التسبيح .. ومن هنا فإن الكشف
يكون دنوا من الله سبحانه وتعالى .. وقربا منه .. بحيث يرى من شاء ما يشاء

معجزة الاسراء والمعراج

من أسرار كونه .. والله سبحانه وتعالى يكشف ما يشاء لمن يريد .. فيقول الله سبحانه وتعالى عن داود عليه السلام :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾

(الآيتان ١٨ ، ١٩ سورة ص)

هل معنى ذلك أن الجبال توقفت عن التسبيح .. إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

ومعنى ذلك أن كل ما في الأرض يسبح لله .. ولكن الذي أعطى لغة تسبيح الجبال .. واستطاع أن يفهمها .. وسمعها .. هو داود عليه السلام .. والسؤال الذي يحاول بعض الناس أن يوجهوه .. هو بأى لغة يتم هذا ؟ وأنا أتعجب كثيرا من هذا السؤال .. فاللغة ليست محدودة بالألفاظ .. الاشارات اللاسلكية التي تنتقل عبر العالم .. هي لغة لا يستطيع أن يفهمها إلا من يقوم بالعمل في هذا المجال .. ويدرس هذه اللغات .. فإذا جئنا بإنسان لم يدرس هذه اللغة .. وجعلناه يستقبلها فلن يفهم شيئا .. والشفرة السرية المستخدمة بين الدول .. هي لغة أيضا لا يستطيع أن يفهمها إلا من يعطى مفاتيحها .. والاشارات البحرية مثلا لغة ثالثة يفهمها رجال البحار .. إذن هناك بجانب الألفاظ المنطوقة لغات متعددة يفهمها أهل الأرض .. ويصطلحون عليها .. ولا يستطيع أن يفهم هذه اللغات إلا من أعطى مفاتيحها .. فكذلك تسبيح الجبال .. وتسبيح كل شيء .. لا يفهمه إنسان ولا يسمعه إلا من أعطى مفاتيحه .. تماما كما أن هناك تخاطبا بعشرات اللغات يتم عبر العالم .. سواء بالشفرة .. أو باللاسلكي .. أو بغيره .. ونحن لا نحس بها .. ولا ندري .. حتى بمجرد وجودها .. ولا بما يتم فيها .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين كشف للنبي صلى الله عليه وسلم أسرار السماء .. وأراه الله آياته الكبرى .. كان ذلك فضلا من الله لنبيه .. ولا يمكن أن نضع نحن البشر بمقاييس الزمان والمكان .. ماهية هذا الكشف .. ذلك لأن

معجزة الاسراء والمعراج

الله سبحانه وتعالى منزّه عن الزمان والمكان .. لا أستطيع أن أقيس المسافة .. وأقول كم صعد رسول الله في السماء .. لأن الله ليس عنده مسافة .. ولا أستطيع أن أقول .. كم من الزمن استغرق ذلك .. لأن الله سبحانه وتعالى ليس عنده زمن .. ولكنني أستطيع أن أقول ان ذلك حدث .. لأن الله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض وكل شيء .. يستطيع أن يعطل القوانين لتم معجزة من المعجزات لأنبيائه .. والمعجزة كما قلت سابقا لا تتكرر أبدا .. وكما نقول في صعود محمد عليه السلام إلى السماء .. نقول في القرب منه .. فالقرب ليس بالمسافة كما أوضحت .. ولكن معناه التصاق بالقلب والروح .. لأن الوحي حين كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه كلام الله .. كان قريبا إلى قلبه .. وإلى روحه قريبا لم يحدث لبشر قبله .. ومن هنا كان النبي صلى الله عليه وسلم .. أثناء الوحي يغيب عن الوعي .. وبعد الوحي يبدو مرهقا من امتزاج الوحي بالطبيعة البشرية .. وهو امتزاج لا يحدث إلا بأمر الله .. ومن هنا أيضا عندما نزل القرآن على رسول الله وهو يصف نزول الوحي .. ان جبريل جاءه وقال له اقرأ قال ما أنا بقارىء .. قال أخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد .. ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء .. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد .. ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء .. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني وقال اقرأ .. فقلت ما أنا بقارىء قال :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ

وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴿

والغظة أو « الضمة » هنا هي تعبير من رسول الله عن القرب والامتزاج الذي يتم من خلال الوحي بالقرآن ..

ولقد رأى رسول الله في السماوات السبع ما رآه .. وجاء وقص ذلك على الناس .. فمنهم من صدق .. مثل أبي بكر تصديقا إيمانيا .. لأن أبا بكر عندما روى له ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسراء .. سأل سؤالا واحدا هو هل قال محمد هذا ؟ قالوا نعم .. قال : إذن فهو صادق ..

معجزة الاسراء والمعراج

وكان التصديق هنا أن رسول الله لا يكذب أبدا .. ولا ينطق عن الهوى ..
ولذلك لقب أبو بكر بالصديق .. ولكن بعض الناس أنكروا ما رأى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ..

وهنا أخبرهم رسول الله من أنباء القوافل التي بين بيت المقدس ومكة ..
فقالوا له صف لنا بيت المقدس .. فوصفه وصفا دقيقا .. وكانت هذه الآيات
الأرضية مقصودا بها .. أنه مادام رسول الله قد صدق في ذلك .. فهو صادق
فيما رواه عن المعراج .. وعن صعوده إلى السموات .. وعن اختراقه
الحجب ..

تلك هي معجزة الاسراء والمعراج .. وهي معجزة خرق الله فيها لرسوله
قوانين الأرض .. وقوانين السماء ليريه من آياته الكبرى .. ويثبته .. ويفرض
عليه أقدس العبادات .. وأقربها إلى الله سبحانه وتعالى وهي الصلاة ..
والمقصود بالمعجزة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فهي لم تحدث أمام
جمهرة من الناس .. أو على مشهد من الملأ .. بل حدثت بين الله ورسوله ..
وكشف له فيها أسرار السماوات .. وأسرار الكون ..

ماذا تعلمنا هذه المعجزة .. تعلمنا أولا قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يفعل
ما يشاء .. لعباده الذين يختارهم .. وتعلمنا أن خاتم الرسالات قد فتح الله
له .. ليس فقط ملك الله في الأرض .. ولكن ملك الله في السماوات .. تعلمنا
أن الله سبحانه وتعالى موجود في كل مكان .. يكلم نبيا وهو على الأرض ..
ويكلم نبيه وهو عند سدرة المنتهى .. ولو كان الله سبحانه وتعالى موجودا في
السماوات وحدها .. ما كلم نبيا له على الأرض .. ولو كان موجودا في الأرض
وحدها .. ما كلم نبيا عند سدرة المنتهى .. وأخيرا .. إن معجزات الرسل قد
تمت على مشهد من المؤمنين .. لتثبتهم .. أما رسول الله فكونه خاتم
المرسلين .. فقد اختص وحده بالصعود إلى السماء .. أما المعجزة الخالدة الباقية
فهي القرآن الذي يعطى عطاء لكل جيل .. يختلف عن عطاء الجيل الذي
سبقه ..

حديث قدسى

●● إذا كان ليلة القدر ينزل جبرائيل في كوكبة من الملائكة يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله ، فإذا كان يوم عيدهم باهى بهم ملائكته فقال : يا ملائكتى ما جزاء أجير وفى بعمله ؟ قالوا : ربنا جزاؤه أن يوفى أجره . قال : يا ملائكتى : عبيدى وإمائى قضوا فريضتى عليهم ثم خرجوا يعجون - يصيحون - إلى بالدعاء ، وعزى وجلالى وكرمى وعلوى وارتفاع مكانى لاجبينهم ، فيقول : ارجعوا فقد غفرت لكم وبدلت سيئاتكم حسنات فيرجعون مغفورا لهم .

●● أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : يا موسى ان من عبادى من لو سألتنى الجنة بحذافيرها لأعطيته ، ولو سألتنى علق سوط من الدنيا لم أعطه ، ليس ذلك من هوان له على ولكن أريد أن أدخر له فى الآخرة من كرامتى ، وأحميه من الدنيا كما يحمى الراعى غنمه من مراعى السوء . يا موسى ما ألجأت الفقراء إلى الأغنياء بأن خزائنى ضاقت ، وبأن رحمتى لم تسعهم ، ولكنى فرضت للفقراء فى أموال الأغنياء ما يسعهم ، أردت بأن أبلو الأغنياء كيف مسارعتهم فيما فرضت للفقراء فى أموالهم . يا موسى ان فعلوا ذلك أتممت عليهم نعمتى ، وضاعفت لهم فى الدنيا ، للواحدة عشر أمثالها . يا موسى كن للفقير كنزا ، وللضعيف حصنا ، وللمستجير غيثا ، أكن لك فى الشدة صاحبا ، وفى الوحدة أنيسا ، وأكلوك فى ليلك ونهارك .

●● يعذب اللسان بعذاب لا يعذب به شىء من الجوارح فيقول : يارب . عذبتنى بعذاب لم تعذب به شيئا من الجوارح ، فيقول : خرجت كلمة بلغت مشارق الأرض ومغاربها ، فسفك بها الدم الحرام ، وأخذ بها المال الحرام ، وانتهك بها الفرج الحرام ، فوعزى لأعذبتك بعذاب لا أعذب به شيئا من الجوارح .

رقم الايداع ٣٣٢٢ / ٩٣

I. S. B. N

977 - 08 - 0176 - 3

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم

۲

معجزات ابراهیم

محمد متولی الشعراوی



إدارة الكتب والمكتبات

الفصل الأول

وَحِكْمَةُ الْكُونِ.. وَقُدْرَةُ اللَّهِ

وحدة الكون وقدره الله

الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بوحدة الكون وقدره الخالق .. وحدة الكون في قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

سورة البقرة آية ١٩

وقدره الخلق في الإعجاز الذي نراه في كل خلق من مخلوقات الله .. سر الحياة المغلق .. مهما تقدم الإنسان في العلم .. وتطور عقله وأعطاه الله وكشف له عن أسرار الحياة المادية في الكون .

وبعض الناس يأتي إلى الآية الكريمة « خلق لكم ما في الأرض جميعا » ليجادل فيها .. فهناك أشياء في نظر بعض الناس قد قام البشر بالمساهمة فيها ، مثل الزرع .. مثلاً .. والاختراعات الجديدة التي دخلت في خدمة الإنسان كقدرته على الطيران مثلاً .. أو الاستخدامات الحديثة للتليفزيون والاذاعة إلى آخر ذلك .. بعض الناس يقول إن هذا من عمل البشر .. فهذا من اختراع أو صنع العالم الفلاني .. وذلك من إنتاج أبحاث أجريت إلى آخر ما يقال .

ولكى نبحث هذا الموضوع من أساسه نقول إن الأرض مرتبة هكذا .. جماد .. فنبات .. فحيوان .. ثم الإنسان .. الجماد .. فيأتي نمو فيكون نباتا .. ويأتي حس فيكون حيوانا .. فيأتي فكر فيختار بين البديلين فيكون إنسانا .. هذه هي كل الأجناس المرئية في الأرض أو التي يراها الإنسان أو يحس بها .. ولسنا بصدد الحديث عن الأجناس غير المرئية فذلك يخرج عن موضوعنا .. كل الأجناس المرئية من جماد ونبات وحيوان والإنسان في غير ما يفكر فيه ويختاره بإرادته الحرة بين البديلين .

كل هذه الأجناس بما فيها بما يدخل في الإنسان نفسه .. ويعمل بحركة لا ارادية لا دخل لإرادة البشر فيها .. كالتنفس مثلاً .. ونبضات القلب .. والدورة الدموية .. وعمل الجهاز الهضمي إلى آخر هذه الأشياء .. لا تدخل إرادة الإنسان في عملها .. فأنت لا تستطيع أن تقول لقلبك انبض فينبض .. أو توقف عن العمل فيتوقف .. وأنت بإرادتك لا تستطيع إذا توقف القلب عن

وحدة الكون وقدرة الله

العمل أن تعيده مرة أخرى أو إذا توقفت الرئتان عن التنفس بأن تجعلها تتنفسان .. أو إذا توقفت المعدة عن هضم الطعام .. أن تصدر إليها تعليماتك فتعود مرة أخرى إلى عملها .. كل ذلك خارج عن الإرادة البشرية .. أو عملية الاختيار التي اختص بها الله سبحانه وتعالى الإنسان .. في افعل ولا تفعل .. وأعطاه فيها حرية الاختيار بين البدائل المختلفة .

الجماد والنبات والحيوان .. والأجزاء التي تدخل ضمن جسد الإنسان ولا تخضع لإرادة ومنها خاصية النمو مثلا .. فهي غير خاضعة للإرادة البشرية .. كل هذه الأشياء منضبطة انضباطا قسريا قهريا لا دخل لأحد فيها .. فالجماد مضبوط ضبطا مقصورا على مهمته .. والنبات مضبوط بحيث يؤدي مهمته .. فأنت تزرع البذرة في الأرض فتفاعل وتثبت لها جذور وساق .. دون أن يكون لك أنت أي دخل فيها .. بل إنك تستطيع أن تشاهد هذه العملية من خلال أنبوية اختبار تأتي بها .. وتضع فيها البذرة فترى كيف تنمو بذاتيتها بما أودعه الله فيها من انسجام مع مهمتها في الكون .. فتجد أن البذرة رغم أنها توضع في أرض واحدة وتسقى من ماء واحد .. إلا أن كل نبات منها يمتص من الأرض ما يجعله صالحا لمهمته .. فتختلف الألوان .. ويختلف المذاق .. رغم أن الأرض واحدة .. والماء واحد .

هذا هو انسجام النبات مع مهمته في الحياة .. وقد وضع الله سبحانه وتعالى في هذا النبات خاصية الاختيار من مواد الأرض بما يلائمه ليتم انسجامه مع الكون ومع مهمته .. والحيوان أيضا منسجم مع مهمته في الكون .. سواء ذلك الذي أخضعه الله سبحانه وتعالى وسخره لخدمة البشر .. أو ذلك الذي لم يسخر ولم يخضع لإرادة البشر كالحیوانات المفترسة مثلا .. كل هؤلاء في انسجام مع مهمتهم في الكون .

● الإنسان .. والقدرة

يأتي بعد ذلك الإنسان .. الأجزاء غير الخاضعة لاختيار الإنسان منسجمة مع مهمتها في الكون .. فالتنفس مثلا يتم بطريقة تلقائية وبلا صعوبة .. وكل

وحدة الكون وقدره الله

إنسان يجد حاجته من الهواء دون تعب أو مجهود . . والقلب ينبض دون أن تحس به . . بل إن القلب والتنفس والجهاز الهضمي وكل الأجزاء غير الخاضعة لارادتك . . تعمل وأنت مستيقظ . . وتعمل وأنت نائم . . وتعمل دون أن تحس بها في انسجام كامل . . إلى أن تأتي أنت وتفسد مهمتها كأن ترهق المعدة بالطعام . . أو القلب بالمجهود أو تدخن مثلا بشراهة بما يفسد رئتيك . . هذا الفساد الذي جاء . . أنت الذي أدخلته بإرادتك . . وسوء استغلالك لنعم الله

التي أنعم بها عليك . . وهكذا الفساد في الأرض جميعا . . يأتي من تدخل هوى النفس ليحاول الإنسان أن يغير ما في الكون حتى يخضع لهواه . . هنا تبدأ عملية الإفساد . . فكل إنسان في الأرض مرجعه إلى هوى النفس البشرية وإذا أردنا أن نصلح عدنا إلى القوانين والقواعد التي وضعها من لا هوى له . . وهو الله سبحانه وتعالى . . إذا فعلنا ذلك يصلح كل شيء . .

ولكن الإنسان يريد أن يمضي كل شيء على هواه . . وأن يضع موازين الحق لا على أساس الحق نفسه . . ولكن على أساس ما يشتهي ويريد . . ومن هنا نشأت التعاسة وجاء الشقاء إلى الأرض . . فلو أخذ كل إنسان حاجته فقط ما وجد جائع ولا فقير . . ولكن بعض الناس يأخذ أكثر من حاجته لا ليومه فقط . . ولكن لحياته كلها . . محاولا بذلك أن يصل إلى ما يسميه الأمان . . بينما لو عرف الحقيقة لعلم أن الأمان بيد الله لأن الغد بيد الله . . وما تفرص عليه أنت اليوم . . قد يذهب الله إذا شاء غدا . . وما ليس معك اليوم . . قد ينعم الله به عليك بعد ساعات . . إذن الضمان البشري في حقيقته يجب أن يكون متصلا بالله سبحانه وتعالى . . وليس بماديات الحياة . . ذلك أن قدرة الله هي التي تعطى وتمنع . . وتنعم وتذهب النعم .
نعود بعد ذلك إلى الآية الكريمة :

﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

سورة البقرة آية ٢٩

وخلق الأرض والسماوات وكل ما فيها هو الله سبحانه وتعالى . . وهذه قضية

وحدة الكون وقدرة الله

لا جدال فيها .. فلم يأت أحد ويدعى أنه خلق الأرض .. أو خلق السموات .. أو خلق الشمس والقمر والنجوم .. أو خلق ما على الأرض من حياة .. ولو أن هذا الخلق لغير الله سبحانه وتعالى لوجدنا من يجيء ويقول أنا خلقت .. ولكن أحدا لم يدع ذلك حتى ولو مجرد ادعاء .. ومن هنا فإن قضية الخلق ثابتة لله سبحانه وتعالى بلا جدال .. وبلا مدعين .. على أن هناك خلقا بالقدرة .. وخلقنا بالقوة .. الخلق بالقدرة هو ما وضعه الله سبحانه وتعالى في الأرض منذ بداية الخلق .. وما وضعه من قوانين لاستمرار هذا الخلق .. فأنت حين تجيء وتدعى أنك أنت الذى زرعت هذه النخلة .. نقول لك من أين جئت بالبذرة أو النواة التى زرعتها؟ .. فتقول من نخلة كانت مزروعة .. ومن أين أتت بذرة أو نواة هذه النخلة التى كانت مزروعة؟ .. فتقول من النخلة التى سبقتها .. وهكذا حتى تصل إلى الخلق الأول .. فكأن هذه البذرة التى وضعتها فى الأرض هى ثمرة البذرة الأولى التى خلقها الله سبحانه وتعالى - فقدرة الله هى التى أوجدت هذا .. رغم أنك تكون قد حرثت الأرض لتضع البذرة .. مهمتك كلها فى الزرع هى الحرث فقط .. أما البذرة نفسها فهى من الخلق الأولى الذى تكرر حتى وصل إليك .

قد يقول بعض الناس إن هناك أصنافا جديدة .. تأتى من تطعيم بذرة ببذرة .. أو من أبحاث معينة على البذرة نفسها .. تطعيم بذرة ببذرة هو من خلق الله للبذرة الأولى والثانية .. وكل ما فعلته أنت .. هو أن الله هداك إلى هذه الطريقة .. ولكنك لم تخلق شيئا جديدا .. وتحسين البذرة بما تستخدمه من مواد فأنت أيضا تستخدم ما خلقه الله دون أن تخلق شيئا جديدا .

● والعلم الحديث

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الاختراعات الحديثة نجد أنها اكتشافات لقوانين الكون .. فالذى اخترع الطائرة لم يخلق الغلاف الجوى الذى تطير فيه .. ولا خلق المادة التى تصنع منها الطائرة .. وإنما خلق بقوة الله سبحانه وتعالى الذى أعطاك المادة وأعطاك القوانين التى تعمل بها .. ثم أعطاك القوة التى

وحدة الكون وقدرة الله

تجعلك تكتشف كل هذه الأشياء . . وما يقال عن الطائفة يقال عن باقى الاختراعات . . فلم يخلق إنسان مادة . . ولا خلق قوانين فى الكون . . وإنما هو كشف لخلق الله سبحانه وتعالى فى كونه بما يريد سبحانه وتعالى أن يكشفه لخلقه من أسرار الابداع فى الكون . . إذن فقول الله سبحانه « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » ينطبق على ما كان موجودا قبل نزول القرآن . . ووقت نزول القرآن . . وبعد نزول القرآن إلى أن تقوم الساعة . . وكل ادعاء بأن هناك إنسانا خلق شيئا هو ادعاء غير صحيح . . وفى سور كثيرة من القرآن الكريم ينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى أنه خلق مظاهر الكون الثابتة الرتيبة التى يحسب الإنسان أنها لا تتغير كالشمس والقمر والأرض والنجوم . . كل هذه الآيات إنما هى حياة الإنسان على الأرض . . فمتى ذهبت هذه الحياة . . وجاءت الساعة تغيرت الأرض والسماء والنجوم وكل ما حولها . . وانقلبت الحياة كلها من حياة تستخدم فيها الأسباب . . إلى حياة ينعم الله فيها على عباده دون أسباب . . فتتفعل الأشياء لك بمجرد أن تأتى إلى خاطرك . . فإذا تمنيت الشيء وجدته أمامك بقدرات الله وليس بقدراتك أنت .

ووحدة الكون . . تنبع من قدرة الخالق سبحانه وتعالى . . والله يريد أن يذكرنا دائما بقدرته . . ولذلك وضع فى الكون آيات تذكرنا بهذه القدرة . . وأبقى فيه مع الأسباب طلاقة القدرة حتى لا نعبد الأسباب . . وأرسل لنا الرسل لتذكر أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقنا . . واننا ملاقوه . . وان بدء الحياة من الله والحياة تعود لله سبحانه وتعالى . . وان الله ينصر الذين آمنوا فى الحياة الدنيا والآخرة .

وقبل أن نتحدث عن قدرة الله سبحانه وتعالى وكيف يذكرنا بها نريد أن نقف وقفة صغيرة هى موضوع جدل كبير بين المستشرقين . . ذلك هو تأييد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بالملائكة فى غزوة بدر . . بعض المستشرقين يثير هذا الموضوع على أساس أن النتيجة لا تتناسب مع حجم الحدث نفسه . . والمعروف أن الملك الواحد له قدرة وقوة من الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يدمر بها مدينة

وحدة الكون وقدرة الله

بأكملها .. فكيف يمد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بهذا العدد من الملائكة في معركة محدودة كمعركة بدر ، عدد القتلى من الكفار فيها يزيد قليلا على سبعين .. وهل يتناسب هذا العدد مع من قتله المسلمون ومن قتلهم الملائكة .. نقول لهم .. إنكم لم تفهموا الحكمة من تأييد الملائكة للمسلمين في هذه الغزوة .. فالذى لاشك فيه أن الملائكة ثبتوا المسلمين على القتال لأن قريشا كانت لها هبة كبيرة بين القبائل .. وكان هذا التثبيت عاملا حاسما في النصر .. ولكن الحدث نفسه من الله سبحانه وتعالى العليم بالغيب وبما هو قادم .. يتناسب مع النتيجة .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه من أصلاب بعض هؤلاء الذين جاءوا ليحاربوا المسلمين في بدر سيخرج من يدافع عن دين الله .. ويقاوم في سبيله .. ويكون نصيرا ونصرا للإسلام .. ولكن المقصود بالقضاء عليهم في غزوة بدر هم أئمة الكفر الذين ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون .. والذين نستطيع أن نشبههم الآن بمجرى الحرب .. أى الذين لا يكتفون بقتال المسلمين بل يحرضون غيرهم ويدفعونهم إلى محاربة دين الله .. هؤلاء علم الله سلفا أنهم أعداء دينه .. وإنهم سيحاربون الله ورسوله ما بقى فيهم نفس يتردد .. ولذلك كان القضاء على هؤلاء دون غيرهم من الذين جاءوا لمقاتلة

المسلمين في غزوة بدر إما مدفوعين أو بحمية الجاهلية .. فإذا قلنا إن الملائكة قد ثبتوا المؤمنين بأنهم معهم يكون ذلك صحيحا .. وإذا قلنا أن الملائكة شاركوا فعلا في المعركة يكون بأنهم قد قتلوا أئمة الكفر الذين لم تصل إليهم سيوف المسلمين .. وإذا كان الحدث هنا لا يتناسب مع القدرة .. فإنه يتناسب مع الحكمة والهدف .. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يهلك الكفار جميعا .. بل لو أراد أن يهلك من في الأرض جميعا لأهلكهم في لحظة بكلمة « كن » .. ولكن الهدف هنا لم يكن الكفار على اطلاقهم لأن الله يعلم أنهم سيهدون وسيكونون من الداعين لدينه .. المجاهدين في سبيله .

تبقى بعد ذلك عدة أسئلة .. إذا كان هذا صحيحا فلماذا لم يهلك الله سبحانه وتعالى أئمة الكفر بلا قتال .. وهو قادر على ذلك .. والجواب سهل

وحدة الكون وقدرة الله

ويسير . . فالله سبحانه وتعالى يريد أن ينصر دينه على أيدي المؤمنين من عباده ولا يريد أن ينصر دينه بطلاقة قدرته . . وإلا لكانت طلاقة القدرة هي الأساس . . ولما احتاج الله سبحانه وتعالى لأن يرسل رسولا أو نبيا . . فالله يزيد منا أن نأتيه طوعا واختيارا . . أي نأتيه بإرادتنا الحرة طائعين ونحن في نفس الوقت نملك الخيار في أن نفعل ذلك أو لا نفعله . . فإذا فعلنا وجئنا طائعين مؤمنين فإن الله قد كتب على نفسه أن ينصر الذين آمنوا ويؤيدهم ويدافع عنهم ويشبثهم . . وهو يريد هنا أن يثبت الذين آمنوا ويعطيهم ثقة في النفس وقدرة تعدهم للمهام القادمة من فتح مكة والجزيرة العربية وباقي أنحاء العالم . . ولذلك فهو يشبثهم بالملائكة . . ويخبرهم بذلك حتى إذا جاء قتال جديد . . دخل المؤمنون المعركة وكلهم ثقة في أن الله سبحانه وتعالى معهم . . وإنه سينصرهم مهما كان عدوهم . . فزالت الخشية من قلوبهم . . وملأتهم شجاعة الإيمان . . وصلابة الإيمان . . وبذلك يكونون قد أعدوا الأعداد الصحيحة والسليم لكل ما يكلفهم به الله سبحانه وتعالى من جهاد قادم . . ويأتي القرآن وهو كلام الله . . الذي لا يتبدل ولا يتغير إلى يوم القيامة - يأتي ليذكر هذه الواقعة حتى يعرف الذين لم يشهدوا معركة بدر ، ان الله مع المؤمنين دائما وإنه يمددهم بالملائكة ليشبثوهم وينصروهم . . وهكذا يحس المؤمنون حتى قيام الساعة بتأييد الله ونصرته لهم . . وتبقى هذه الروح الإيمانية . . وتحول أولئك المجاهدين إلى رجال أشداء لا تدخل قلوبهم الرهبة من أعداء دين الله ولا يخافون الهزيمة مهما كانت قسوة عدوهم .

● الملائكة وغزوة بدر

ولأن الله سبحانه وتعالى يشرع للبشر في الأرض . . فهو يأتي بالنظرية والتطبيق معا . . وكانت النظرية هي ما أورده الله سبحانه وتعالى في كتابه . . وتطبيقها هو ما حدث في بدر . . فالتشبيث بالملائكة له هدف إيماني باق حتى قيام الساعة . . أما الخسائر في المعركة فهي بالنسبة للكفار فهم أئمة الكفر الذين يحرضون الناس والقبائل على قتال المؤمنين . . وهكذا نجد أن الآية منسجمة

وحدة الكون وقدرة الله

تماما مع الهدف الإيماني وهو تأييد الله للمؤمنين .. والهدف الواقعي وهو التطبيق العملي لهذا التأييد بواقع حدث فعلا .. والهدف الغيبي وهو أن من بين هؤلاء الذين دفعوا لمحاربة المسلمين في بدر .. من سيدخل الإسلام .. ومن سيحارب في سبيل الله .. ومن سينصر دين الله .

هذه لمحة سريعة للرد على بعض الذين يحاولون النيل من دين الله بالتشكيك في القرآن .. نأتى بعد ذلك إلى تذكير الله سبحانه وتعالى لنا بقدرته دائما .. وهذا التذكير هو رحمة بخلق الله .. ذلك أنه يبعدهم عن العذاب .. ويعطيهم الحياة الكريمة في الأرض .. وفي هذا سأذكر بعض خواطري عن سورة « الطارق » التي هي تتناول - كباقي سور القرآن - التذكير بقدرة الله سبحانه وتعالى .. وبأنه لا شيء في هذا الكون يخرج عن هذه القدرة .. يقول الله سبحانه وتعالى في السورة الكريمة

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ ﴾

الطارق آية ١

والسماء معناها : كل ما علاك وأظلك ، وكل ما يعلو الإنسان يطلق عليه اسم السماء .. وقد تحدث العلماء في أول الأمر عن السماء على أساس أنها العلو المباشر فوقهم .. وكلما اهتدى كشفهم إلى ارتفاع جديد في هذا العلو أطلقوا عليه اسم السماء .. حتى تم اكتشاف سبعة كواكب تدور حول الشمس .. فقالوا إنها السموات السبع .. ثم كشفت كواكب أخرى .. فيظل هذا التفسير لأنها وصلت اليوم إلى عشرة .

والحقيقة إنه ما من تفسير أخذ يضيق المسافة كالتفسير العلمي للسماء والله سبحانه وتعالى قال عن بناء السماء .

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

سورة الذاريات آية ٤٧

وحدة الكون وقدرة الله

أى انه أعطى صفة السعة لبناء السماء . . . ولقد سبق أن تحدثنا عن قدرة الله سبحانه وتعالى وقدرة البشر . . . وقلنا إن الفارق بين القدرتين هائل . . . بحيث لا مقارنة . . . وان كل شيء تعتقد أنه وصف حقيقى لصفة من صفات الله فهو ليس كذلك . . . لأن الله ليس كمثله شيء . . . فإذا وصلت إلى شيء . . . وأردت أن تضع لله صفة مثله نقول إنك قد أخطأت . . . لأن الله ليس كمثله شيء . . . فإذا قال الله سبحانه وتعالى « وإنا لموسعون » . . . فمعنى ذلك أن البعد لا نهائى . . . لا يمكن أن يصل إليه عقلك المحدود . . . فكل قول بأن الكواكب والنجوم التى نراها هى السموات قول غير صحيح ذلك أن الله حين تكلم عن الكواكب قال :

﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾

سورة الصافات آية ١٦

فهذه الأجرام التى نرصدها فى السماء الدنيا . . . وبقيت بعد ذلك السموات سقفا محفوظا كما أرادها الله سبحانه وتعالى . . . وسعة لا نهائية لا تدخل تحت ادراك العقل البشرى . . . فحين يقسم الله بها يجب أن نعلم أنها شيء هائل فوق قدرة كل العقول . . . وإن بناءها وحفظها من معجزات الله سبحانه وتعالى .

● ما هو الطارق؟

ولكن الله سبحانه وتعالى يقول « والسماء والطارق » . . . ما معنى كلمة الطارق ولماذا يقسم الله بهذه الكلمة . . . ان الرد على ذلك يأتى فى الآية التى تأتى بعدها . . . « وما أدراك ما الطارق » . . . كأنه لا يمكن لعقولنا أن تعرف المعنى الذى يريده الله سبحانه وتعالى من كلمة « الطارق » . . . وانه سيعطينا هذا المعنى . . . ولنقف عند هذه النقطة قليلا . . . طارق اسم فاعل من طرق . . . وطرق معناها ضرب بشدة ليحدث صوتا ننتبه إليه . . . والطارق أيضا هو السائر بالليل . . . ذلك أن الليل سكون وصوت الأقدام يسمع فيه ولا يسمع بالنهار وسط الحركة والضجيج . . . وهناك ما يطرق الفكر ليمتلك الإنسان . . . كل هذه

وحدة الكون وقدرة الله

المعاني تلتقى في شيء واحد .. هو أن هناك شيئاً حسيًا .. أو مادياً .. أو نفسياً .. ينبهك بما يشبه الطرق .. فيجعلك تتنبه إلى ما لم تكن تفكر فيه أو مستعداً له .. وذلك يأتي من خارج نفسك وليس من داخلها ولكنه يؤثر في هذه النفس .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾

الطارق الآيتان ٢ - ٣

والنجم الثاقب هو الذي يرسل شعاعه بالليل لتتهدى به .. أي أنه يثقب الظلام ليريك الطريق .. ومادام الله قد أحل لنا السغي بالليل والنهار .. فقد جعل طرق الهداية في كل منهما فجعل الشمس والنور للنهار .. والنجوم والقمر لليل .. كل وقت له هداية .. فإذا استيقظت في الصباح وجدت الدنيا يملؤها النور .. وإذا سعت في الليل كان القمر والنجوم هادياً لك .. فالله لا يتركك وحدك بلا هداية .. وتمضي السورة الكريمة :

﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾

الطارق آية ٤

ما هي العلاقة بين السماء والطارق .. والنجم الثاقب .. والحفظة على النفس .. لو نظرنا نظرة سطحية لقلنا لا علاقة بين هذا كله .. ولكنه في الحقيقة مرتبط ببعضه ليذكرك بقدرة الله سبحانه وتعالى .. فالله يريد أن يلفتنا إلى قدرته .. فقسمه بالسماء هو قسم القادر الذي بنى السماء بهذه العظمة من الاتساع وحفظها .. فقدرة الله سبحانه وتعالى في خلق السماء يعرفها كل من يدرس علم الفلك .. وهو ينظر إلى هذا البعد اللانهائي من ملايين السنوات الضوئية دون أن يصل إلى السماء الأولى .

وحدة الكون وقدرة الله

● وبالليل أيضا

ولكن السموات السبع غيب عنا محفوظ من الله سبحانه وتعالى .. وإن كنا نستطيع أن ندرك عظمة القدرة الإلهية فيه .. فإنها ليست شيئا محسوسا في حياتنا .. ولكن قدرة الله في الأرض ومن حولنا يجب أن تطرق عقولنا في كل ثانية .. لأننا أينما ننظر إلى شجرة .. إلى زهرة .. إلى جبل .. إلى البحار .. إلى مخلوقات الله في كل مكان .. هناك في كل شيء آية تطرق عقولنا لتذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى .. هذه الآيات التي تنبه العقل إلى عظمة الله وقدرته هي أمامنا في حياتنا كلها .. وهي كالطرق الذي ينبهنا دائما إلى القدرة الإلهية ..

والله سبحانه وتعالى حين يذكر بعد ذلك « النجم الثاقب » .. أي الذي يثقب الليل بنوره فإنه يريد أن ينبهنا إلى أن القدرة معنا .. سواء كنا مع الناس أو كنا في مكان بعيد سحيق تستره الظلمة من كل مكان .. فالليل ستر للإنسان يعتقد فيه أن أحدا لا يراه .. لأن الظلام يخفي .. والسكون يضلل .. والناس في الليل ينامون فلا يوجد أحد إلا أقل القليل .. ولذلك فإننا يجب أن نعلم أنه رغم هذا كله فإن هناك نورا يأتي ليثقب أي ظلام ويعرف كل سر .. حتى إذا غاب الناس عن الوجود وكنت أنت وحدك المستيقظ .. تلك هي قدرة الله وعلمه .. أي أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بهذا القسم أنه لا شيء يسترنا عنه .. نهارا أو ليلا في أي مكان كنا فيه .. فإذا اعتقدنا أن النهار ونوره فيه رقابة من البشر .. وأن حركة الحياة قد تمنعنا من شر نريد أن نرتكبه .. فلنعلم أن الظلام لا يحمينا من الله .. ولنعلم أن هناك من يثقب الظلام .. ويعرف الخبايا التي تدور في الليل .. فالله سبحانه وتعالى قدرته بلا حدود .. قد يقربها إلى أذهاننا عظمة السماء وسعتها وسر بنيانها .. والله يرانا .. سواء أضاء لنا الكون أو أظلم .. كنا بمفردنا أو كنا مع الناس .. هذه القدرة لا بد أن تطرق أذهاننا باستمرار وتذكرنا كلما أردنا أن نقوم بمعصية أن الله يسمع ويرى .. وأنا لا نغيب عن قدرته أبدا .

وحدة الكون وقدرة الله

ثم يذكرنا الله سبحانه وتعالى بأن ما نفعه لا يعلمه الله فقط .. ولكنه يسجله علينا .. فكل نفس عليها حافظ .. وكل شيء محفوظ عنده .. وكل صغيرة وكبيرة تحسب على الإنسان بحيث يذهل الناس يوم القيامة من دقة الحساب .. ويقول الكفار :

﴿ مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٤٩)

الكهف آية ٤٩

القدرة موجودة بالليل والنهار .. قدرة على أن تثقب كل ستر .. وهناك من يكتب ما لك وما عليك .. ما لك عند الله .. وما عليك مما سيحاسبك عليه الله .. فالإنسان في كل كلمة يقولها .. وفي كل عمل يأتيه .. هو يتعامل مع الله سبحانه وتعالى .. فإن ظلم أحدا من عباده .. فالله يقتص للمظلوم ..

وإذا أحسن لأحد من عباده فالله يجزي المحسن .. وإذا أخذ أحد ما لا حراما فالله يحاسبه .. في كل عمل أنت تتعامل مع الله سبحانه وتعالى .. ولا تحسب أنك تستطيع أن تخدعه .. لأنك في هذه الحالة تخدع نفسك .. فإذا أنت تظاهرت بشيء وأخفيت قصدك الحقيقي .. فتذكر أن قدرة الله سبحانه وتعالى تصل إلى ما في داخلك وتحاسبك عليه .. وعدل الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون قوته مع الضعيف ضد القوى .. ومع المظلوم ضد الظالم حتى يكون هناك تكافؤ في الفرصة .. وتعادل في القوة .. يضع الميزان للحياة في الأرض .. فلو أن الله كان مع القوى ضد الضعيف .. ومع الظالم ضد المظلوم لفسدت الحياة .. ولا تستشري الظلم في الأرض .. ولأصبح الناس أسيدا وعبيدا .. ولزاد القوى قوة وزاد الظالم ظلما .. ولكن قدرة الله تأتي للقوى لتقول له إذا غرتك قوتك .. فتذكر أنني مع الضعيف ولا تغتر بنفسك ولا تمض بقوتك تفسد في الأرض .. فإن القوى الحقيقي الذي لا يغلب هو الله سبحانه وتعالى وهو مع

وحدة الكون وقدرة الله

الضعيف ضدك فاحذره .. وتذكر جيدا واجعل هذا يطرق فكرك كلما أقدمت على عمل يغضب الله .. فإذا طرقت قدرة الله عقلك فستردد .. وربما توقفت إذا دخل الإيمان إلى قلبك لأنك ترى مع ذلك المغلوب على أمره .. قدرة الله .. التي هي أقدر منك بملايين المرات ..

وفي الحياة أمثلة كثيرة لقدرة الله سبحانه وتعالى .. إنسان تراه في قمة السلطان والجاه والقوة .. وفي لحظة واحدة .. يتغير الموقف كله .. ويجد هذا الجبار نفسه في السجن لا حول له ولا قوة .. قد يستجدي حارسه كوب ماء .. وقد كان قبل ذلك بساعات يحيط به مئات الحراس يتمنون اشارة من يده .. تلك عبرة من عبر الحياة وضعها الله سبحانه وتعالى كما وضع اذلال الجبارين في الأرض .. ليدكرنا أن الله مع الضعيف وانه لا قدرة إلا قدرة الله ..

والله سبحانه وتعالى لا يجب أحدا إلا لعمله .. ولا يكره أحدا إلا لظلمه .. وبذلك يكون عدل الله سبحانه وتعالى تاما بين البشر .. وقدرة الله عندما تطرق العقل دائما .. تذكرنا بهذه الحقيقة .. تقينا من كل شر ننويه .. ولنعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى .. وأن كل قدرات البشر تتضاءل بل تكاد تنمحى أمام قدرة الله .. والله الذى يعطى الرزق لملايين البشر على الأرض .. قادر على أن يعطى المؤمن ما يريد ويشتهى .. والله الذى ينجى ملايين الناس كل يوم من كرب وأزمات .. ويأخذ بيدهم بعيدا عن كل سوء .. قادر على أن يفرج كرب المؤمن وينجيه من كل سوء .. والمهم أن يعرف الإنسان أن كل شيء مكتوب ومحفوظ فيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله في الآخرة .. وهذه وقاية للنفس البشرية من أن تظلم وتطغى ..

● والله يحفظ

على أنه بجانب أن الكرام الحافظين يسجلون على الإنسان أعماله فإنهم يحفظون المؤمنين من شرور قد لا تستطيع القوة البشرية أن تردّها .. فهناك أشياء في كثير من الأحيان تحدث لك .. فإذا سألت أى شخص من الذين وقعت لهم

وحدة الكون وقدره الله

هذه الأشياء وكيف نجوت يقول لك لا أعلم .. لولا فضل الله ما استطعت أن أنجو .. ذلك أن قوة البشر المادية وقدرته المحدودة عاجزة عن دفع هذا الضرر .. ولذلك فهو لا يستطيع أن ينسب الفضل إلى نفسه .. وإذا كان الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا .. فهو يحفظهم من أشياء وشرور قد تدبر لهم أحيانا دون أن يعلموا بها .. والحفظ هنا يكون بقدره الله وقوته .
ثم تستطرد الآية الكريمة :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يُجْرُجُ مِنْ بَيْنِ اصْطَبٍ ﴿٧﴾ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ ﴾

الطارق آية ٥ - ٧

وهنا يجب أن ندقق في المعنى .. الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى شيء هام حتى لا يأخذنا غرورنا فنحسب أننا نستطيع أن نغيب عن قدرة الله أو أن نخدعه .. فيقول للإنسان قبل أن تغرك قوتك .. وتبارزني بالمعاصي .. وتكفر بنعمتي .. تدبر قليلا لتعرف مقدار نفسك .. أنت تحسب نفسك سيدا في الكون .. ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى جعلك سيدا .. وأخضع لك كل قوى الكون اخضاعا جبريا .. لا دخل لارادتك فيه .. وكان هذا أولى أن تسجد لله شكرا على نعمه .. ولكن الغرور يأخذك .. وعبادة النفس .. وعبادة الفرد .. وظاهر الحياة الدنيا تجعلك تغتر بقدراتك .. فإذا حدث لك هذا .. فاجلس دقائق وتدبر مم خلقت .. من ماء دافق .. من خلية في غاية الدقة لا ترى بالعين المجردة .. هذه الخلية الدقيقة .. هى أصلك .. من بعد آدم وحواء .. تتشكل هذه الخلية التى هى في غاية الدقة .. ثم تبدأ في العمل بقدره الله .. فيسير كل شيء في مساره .. فتجد أن هذه الخلية غير القادرة على أن تفعل شيئا - إذا تركت وشأنها - عندما تمسها القدرة تتشكل وبعضها يخلق عظاما .. وبعضها يخلق عضلات .. وبعضها يخلق أعصابا .. وبعضها يخلق عقلا .. وبعضها يخلق رئة .. وبعضها يخلق قلبا .. وبعضها يخلق عينين ولسانا وشفيتين .. ويدين وقدمين .. وبعضها يبقى في الجسم ليخلق نموا بعد

وحدة الكون وقدرة الله

أن تأتي أنت إلى الدنيا .. وهكذا نجد أن هذه الخلية غاية في الدقة تخلق ملايين الأشياء التي يتكون منها جسم الإنسان ودمه وكل ما يحتاجه هذا الجسم من حياة .. بل إنه من الشيء الواحد نجد أشياء في الخلق .. فمن العظام .. نجد عظاما جوفاء .. وعظاما مسطحة وعظاما دقيقة .. ثم تتصل هذه الأجهزة بعضها ببعض لتبدأ العمل كوحدات متكاملة فينشأ جهاز عصبي متكامل .. وجهاز هضمي متكامل .. كل ذلك يدل على قدرة فائقة وهندسية الهية .. هي وحدها القادرة على اتمام هذه المعجزة ..

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا .. لا تغتر بما أنت فيه من ابداع خلق .. ولكن إذا أردت فارجع هذا إلى أصله .. لتعرف عظمة القدرة الالهية .. فقدرات الخلق لا تكمن في هذه الخلية .. ولكنها تكمن في قدرة الله .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾

الطارق آية هـ

حتى لا يغيره ما هو عليه الآن ..
على أن هناك بعض الناس يتساءلون .. إن آدم لم يخلق بهذه الطريقة .. فهل الخطاب في القرآن موجه إليه .. نقول لهم إن هناك فرقا بين مشهدية الخلق .. وغيبية الخلق .. والله سبحانه وتعالى حين خلق آدم كانت هناك مشهدية الخلق .. أي أن آدم عرف كيف خلق ورأى الله سبحانه وتعالى .. ومن هنا فهو غير محتاج لهذا التذكير .. ولكننا نحن وكل من خلق بعد آدم .. كانت هناك غيبية في خلقه .. أي أنه لم يعه ولم يشهده .. ولذلك فإنه في كثير من الأحيان يغيب عن عقله أن يتدبر فيه .. وياخذ الأشياء على أنها بديهيات .. أو مجرد تفاعلات تتم ، متناسيا قدرة الله سبحانه وتعالى .. الذي جعل من هذه الخلية الدقيقة كل الأجهزة المعقدة في الجنس البشري .. ثم بعد هذا أعطاها كل أطوار النمو حتى الموت .

وحدة الكون وقدرة الله

● لفظة من الخالق

إذا كان الإنسان تغره قوته ، وقدرته فالله يلفته إلى خلقه . . ويقول له تذكر
مم خلقت . . لتعرف قدرتي . . ولا تغتر بنفسك . . تذكر الخلية الدقيقة
الصغيرة التي بدأ خلقك بها . . وقبل ذلك كنت عدما . . والله الذي أتى بك إلى
الحياة . . وهنا نلاحظ دقة المعنى في السورة الكريمة . . فالله سبحانه وتعالى يريد
لقدرته أن تطرق عقولنا دائما لتكون حاجزا واقيا لنا من المعاصي . . فكلما أخذتنا
الدنيا . . وغرنا ما نحن فيه من جاه وسلطان ونفوذ طرقت قدرة الله عقولنا . .
لتذكرنا أن الله موجود . . وأن هناك من يسجل علينا أعمالنا . . وأن نتدبر في
خلقنا لنرى القدرة . . بعض الناس يتساءل ما هي العلاقة بين النجم الثاقب
والكرام الحافظين وخلق الإنسان ؟ كلها أشياء قد يخيل للناس انها غير
مترابطة . . ولكنها مترابطة تماما . . وإن كانت تنتقل من موضوع إلى آخر في
أشياء يبدو أنها لا علاقة لبعضها ببعض . . بعض الناس يتساءلون ما هي
العلاقة بين النجم الثاقب وخلق الإنسان مثلا ؟ ونحن نقول إنها تذكير بقدرة الله
سبحانه وتعالى . . فالنجم الثاقب يذكر بأنه لا شيء يغيب عن علم الله مهما
حاولت أن تذكره . . والخلق تذكير بعظمة الله وقدرته بالنسبة للإنسان . .
وكيف إن هذه القدرة تأخذ خلية دقيقة لا ترى بالعين المجردة لتصنع منها
الإنسان الذي يسود الكون .

ثم تمضي السورة الكريمة . . بعد أن ذكرتنا بالنجم الثاقب . . والكرام
الحافظين . . وعظمة خلق الإنسان . . يقول الله سبحانه وتعالى « إنه على روجه
لقادر » إذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا كله من عدم . . وأوجده
وركبه . . من خلية متناهية في الدقة . . أفلا يستطيع أن يعيده . . القدرة هنا
تقول نعم . .

ولنضرب مثلا على ذلك والله المثل الأعلى . . إذا أتيت بصانع صنع لك شيئا
وتحطم هذا الشيء . . أفلا يستطيع أن يصنع غيره . . في هذه الحالة يكون عليا
أهون . . لأن الصناعة الأولى أكسبته خبرة تجعل إعادة صناعة الشيء أسهل

وحدة الكون وقدره الله

وأيسر .. وإذا كان ذلك في القدرات البشرية المحدودة .. فما بالك بقدره الله سبحانه وتعالى التي هي بلا قيود ولا حدود .. وإذا كان الإنسان قد خلق من عدم .. أى إنه خلق من لا شيء ظاهر .. فإنه حين يموت ويتحلل لا يخرج عن قدرة الله .. لأن الله في هذه « الحالة » يستطيع أن يعيده .. وهو أسهل عليه .. فالخلق الأول من عدم .. والخلق الثانى من شيء كان موجودا .. ولاشك أن الخلق من عدم أصعب من الخلق من وجود .. ونحن نقول هذا لتقرب المعنى إلى العقل البشرى ، فليس هناك عند الله سبحانه وتعالى سهل وصعب .. بل كل شيء يخضع لكلمة « كن » ..

والله حين يذكرنا بأنه على رجعتنا لقادر .. ليس لأن الله محتاج إلى خلق من خلقه .. فالله غنى عنا جميعا .. لا يزيد من ملكه شيء إذا آمننا .. ولا ينقص من ملكه شيء إذا لم نؤمن .. ولكنه يذكرنا رحمة بنا لأن القرآن رحمة للناس جميعا .. وهو يريد أن تطرق عقولنا دائما عظمة الخالقة ، وضآلة المخلوق .. عل هذه التذكرة تعود بنا إلى طريق الله .. وتمنعنا من المعصية .. فقول الله سبحانه وتعالى « إنه على رجعه لقادر » .. أى لا تحسبوا إنكم تستطيعون أن تخرجوا على سلطان الله أحياء كنتم أو أمواتا .. أو تخرجون من قدرة الله أينما كنتم .. وكيفما كنتم .. وهذا الاعجاز في خلق الإنسان يزيد إيماننا بقدره الله سبحانه وتعالى ..

● وتبلى السرائر

ثم تمضى السورة الكريمة فيقول الله سبحانه وتعالى « يوم تبلى السرائر » .. وهي تمضى في نفس المعنى وهو أننا لا نستطيع أن نستتر شيئا عن الله سبحانه وتعالى .. والنية هي أساس الحساب عند الله .. ولذلك قال الله « يوم تبلى السرائر » .. النية محلها القلب .. وهى القصد الحقيقى الحر للإنسان .. فليس لأحد في هذه الدنيا أن يجبر قلبك على ما لا تريد .. قد يخضع جسدك ويجعلك تفعل ما يطلبه منك كرها واجبارا .. وقد يخضع لسانك ويجعلك تقول ما يريده خوفا أو رعبا .. وقد يخضع حركتك فيضعك في السجن أو في مكان

وحدة الكون وقدرة الله

لا تستطيع أن تغادره .. كل هذه القوالب المادية للجسد تخضع للقهر ..
إلا القلب .. فلا إنسان يستطيع أن يخضع قلبك على شيء أنت لا تريده ..
وأن يضع في القلب مشاعر لا ترضى أنت عنها .. بل إن ما في داخلك
لو اجتمعت الدنيا كلها على أن تضع فيه ما لا تريده أنت ما استطاعت .. ولقد
ترك الله هذه المنطقة في حرية تامة لأن الحساب يكون عليها .. ولكي يكون
الحساب عدلا يجب ألا تتدخل أى قوى بشرية بالاكراه بل يخضع لإرادتك الحرة
وحدها وهذه شهادة عليك لالك ..

ولذلك أسقط الله سبحانه وتعالى الحساب عن كل من يكره على شيء مادام
قلبه مستنكرا له .. ياباه ولا يزيد .. حتى الإيمان والكفر .. القمة في هذه
الحياة .. قال الله سبحانه وتعالى .. « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » ..
وحتى الاكراه على الفاحشة فإن الله لا يحاسب عليها .. فالحساب أساسه الإرادة
الحرة التى هي في قلبك .. مشاعرك الحقيقية التى لا يستطيع إنسان أن يكرهك
فيها على شيء .. ولكن الله يحذرنا في نفس الوقت من أن نعتقد أننا نستطيع أن
نخدع الله .. فنقول « أكرهنا » .. مع أننا لم نكره .. بل فعلنا طائعين
مختارين .. فهو يقول سبحانه وتعالى « يوم تبلى السرائر » .. أى يظهر الله
سبحانه وتعالى حقيقة ما في القلوب .. ونحن مهما بلغنا من الذكاء والفتنة
والعبقرية .. قد نستطيع أن نخدع بشرا مثلنا .. أو مجموعة من البشر ..
ولكننا لا نستطيع أن نخدع الله .. وفي الآخرة يظهر الله ما في أنفسنا واضحا
جليا بعد أن كان الإنسان يخفيه في الحياة الدنيا .. والله لا يعلم السر فقط ..
ولكنه يعلمه ويظهره يوم القيامة .. فإذا كنت قد حسبت أنك نجوت .. لأن
أحدا لا يعرف ما في نفسك .. أو حقيقة ما أخفيت .. فإن الله سيظهر هذا في
الآخرة .. فإذا أوجدت الفرصة لتعمل شيئا أنت متأكد أنك تستطيع أن تخفيه
عن الدنيا كلها ولا تحاسب عليه .. فاعلم أنك لن تفلت من حساب الله ..
فالسر يعلمه الله .. وإذا كانت لك قوة في الدنيا تحمى هذا السر من أن
يكشف .. فإنه لن تكون لك قوة في الآخرة ..

وحدة الكون وقدرة الله

وتمضى السورة الكريمة «فما له من قوة ولا ناصر» .. القوة تنقسم إلى قسمين أساسيين .. إما أن تكون قوة ذاتية تملكها أنت بأية وسيلة من الوسائل فتحميك .. كقوة جسد .. أو قوة سلاح .. أو أية قوة أخرى تقف منعة من أن يصل إليك القصاص .. وإما أن يكون لك أقوياء ينصرونك على عدوك .. كأن تكون من عائلة ذات عزوة أو يكون حولك أناس أقوياء مسلحون يقفون معك وينصرونك على عدوك .. والسورة تمضى في نفس المعنى .. فهي بعد أن تذكر الإنسان بالألا يغير بخلقه و إخضاع الكون له ، تذكره بالألا يغير بقوته ولا بمن ينصرونه .. وفي الآخرة لن تكون لك قوة من ذاتك .. ولن تكون لك عزوة تنصرك وتعينك على من تظلم .. ولكن لماذا التذكير هنا بالقوة .. لأن القوة تغري الإنسان بالظلم .. والمظلوم هو ضعيف أخذ قوى حقه .. فهو لا يستطيع أن يسترده .. والذي يبغى في الأرض ويتجبر هو من له قوة تنصره وتعينه على هذا .. والله سبحانه وتعالى يقول لا تجعل الظلام يغريك بأنه سيسترك .. ولا تعتقد أن الله سبحانه وتعالى يتركك هكذا .. بل هناك حافظون يسجلون عليك كل ما تفعل .. ولا تجعل غرور البشرية يأخذك .. بعيدا عن الله .. ولا تحسب أن ما تخفيه ينجيك .. ولا تعتقد أن قوتك في الدنيا .. سواء أكانت قوة ذاتية أم من أهلك واتباعك يمكن أن تحميك من الله .. دع كل هذا يطرق عقلك في كل ثانية .. حتى تعرف قدرة الله فتتبع منهجه وطريقته .

● ذات الرجوع

والله سبحانه وتعالى حين يذكرنا بالآخرة .. فلأن هذه هي أمنية كل إنسان أسرف على نفسه وأطلق لها العنان في شهواتها بلا حساب .. وأمنية الكافر الكبرى هي ألا يكون بعد الموت شيء .. لأنه إذا استحضر الجزاء أصاب نفسه الخوف والهلع ..

ثم تمضى السورة الكريمة .. «والسَاء ذات الرجوع» .. والرجوع هو المطر .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا هنا بحقيقة علمية هامة لم يكشفها الله لعباده إلا بعد نزول القرآن بمئات السنين .. ولقد عرفنا فيما كشفه الله لنا من

وحدة الكون وقدره الله

علم بشرى أن مياة البحار تتبخر ثم بعد ذلك تصعد إلى السماء فتصبح سحابا ثم تعود إلى الأرض مرة أخرى على شكل مطر . . أى أن السماء ترجع الماء إلى الأرض . . ومرة أخرى تتم الدورة ، وتتبخر مياة البحار والمحيطات وينشأ السحاب ثم يعود الماء . . أى أن الماء الذى يترك الأرض يعود إليها مرة أخرى . . وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى « والسماء ذات الرجوع » . . أى السماء ذات المطر . . هكذا تفهم لمن لا يعلم شيئا عن عملية البخر التى تتم . . ولا يوجد فيها تصادم مع عقل بشرى يجهل هذه الحقيقة العلمية . . فإذا عرفنا الحقيقة العلمية تكون الآية أدق فى المعنى وأشمل . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى « والأرض ذات الصدع » . . أى الأرض التى تتشقق ليخرج منها الزرع . . وهذه أيضا تتكرر فى كل دورة زراعية . . فتتشقق الأرض ليخرج منها زرع . . ثم يأتى زرع جديد فتتشقق الأرض ليخرج منها المحصول الجديد . . كل شيء يأتى ويعود . . هذه هى قوانين الله فى الأرض . . وإذا كان كل شيء يعود . . مثلها يأتى . . فلماذا الإنسان وحده لا يعود !! إذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل للماء دورة يعود بها إلى الأرض مطرا . . وجعل الأرض تعطى المحصول بعد المحصول إلى ما شاء الله . . فما الذى يجعل الإنسان يشذ ويقول . . إنه لن يعود مرة أخرى إذا كانت دورة الحياة فيها عودة . . والله سبحانه وتعالى أراد أن ييسط أمام عقولنا ويعطينا مثلا لما يمكن أن يحدث فى عودة الإنسان . . فأعطانا مثل الماء والزرع . . ليبين لنا أنه قادر على إعادة الشيء مرات ومرات . . وأن المسألة ليست شيئا عسيرا . . ولكنها شيء يسير جدا يتكرر فى الحياة أمامكم . . وتراه عيونكم كل يوم . .

ثم تمضى السورة الكريمة « إنه لقول فصل وما هو بالهزل » . . وهنا يعطينا الله سبحانه وتعالى عمق القضية وجديتها . . فالله لا يسوق لنا كل ما تقدم لناخذه باستخفاف . . ولكن لناخذه بعمق وجدية . . لماذا؟ لأنه فى الآخرة سيكون الفصل . . ولن تكون هناك أى فرصة أخرى لإنسان ليتوب أو ليرجع مرة أخرى إلى الحياة الدنيا . . ومادام فصلا فهو نهاية . . ليس بعدها

وحدة الكون وقدرة الله

إلا الجزاء .. فلا يريد الله سبحانه وتعالى من أحد أن يأخذ هذا الكلام إلا بعمق وجدية .. حتى إذا جاء وقت الفصل لم تكن له حجة .. ولم يقل يارب لقد كنت أحسب أنني سأعود مرة أخرى إلى الدنيا .. أو كنت أطمع في رحمتك لكي تعيدني إليها .. وقد أعددت نفسي حين أعود على أن أعمل صالحا ترضاه .. أراد الله أن يبطل كل هذا فقال « إنه لقول فصل » .. أي حكم لا رجعة فيه .. وقال سبحانه وتعالى « وما هو بالهزل » .. أي ما سيلقاه العاصي في الآخرة ليس هزلا .. كأن يقول بعض الناس « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » .. أو يقولون إننا كنا نحسن الظن بالله .. أو يتحدثون باستخفاف حول النار وعذابها .. الله سبحانه وتعالى ينبههم أن هذه المسألة لا يجب أن نأخذها بهزل .. لأنه سيكون يوما عظيما .. وكل تذكيري بهذا اليوم هو رحمة بكم .. وهو بذلك يريد أن يلفتنا إلى هول اللقاء الذي سيتم في الآخرة حتى لا نستخف به .. بل نأخذ كلام الله سبحانه وتعالى على أنه بقدرات الله .. وقدرات الله ليس كمثله شيء .. وكلها عظمت قدرة الله في نفس المؤمن أحس بالهول الرهيب في يوم القيامة ..

● أمهلهم رويدا

نأتي بعد ذلك إلى ختام السورة الكريمة « إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » .. هنا يريد الله أن يلفتنا إلى أن هناك من يكيدون للمؤمنين .. ويكيدون لمحاربة دين الله .. وإذا سمعنا أو رأينا لفظا لا يصح أن ينسب إلى الله سبحانه وتعالى مثل الله يكيدهم .. فلنعلم أن ذلك اللفظ لوقوعه في صحبة غيره .. ويبسط الأمور لنا .. فمثلا قول الله سبحانه وتعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .. هل عندما نجازي صاحب السيئة يكون ذلك سيئة أيضا .. أبدا .. انك عندما تجازي صاحب السيئة على سيئته يكون ذلك حسنة .. وإنما سميت سيئة لوقوعها في صحبة السيئة الأولى .. فالمعنى إذا كنت قد أسأت بفعلك فنحن حين نعاقبك على ذلك نسيء إليك .. أي نعمل شيئا يصيبك بالسوء .. وإن كان هذا الشيء في حقيقته شيئا حسنا لأنه يدفع

وحدة الكون وقدره الله

السيئة .. أو على الأقل لا يجعلك تكررهما مرة أخرى .. فإذا كان يدفع السيئة ، وذلك شيء يسوؤك لأنك لم تصل إلى هدفك الذي كنت ترجوه فأنت قصدت بالسيئة ايذاء معيناً أو عملاً تسيء به إلى إنسان .. ومادام الضرر لم يقع فإنك تحس .. إن كل ما قدرته وأعدته قد أبطله الله .. فيسوؤك ذلك رغم أن ما حدث هو فعل حسن .. وأما إذا قوبلت السيئة بالسيئة كأن تضرب إنساناً ضعيفاً فيأتي من هو أقوى منك فيضربك .. فإنه في هذه الحالة يكون ما حدث حسناً لأنه يعلمك ألا تفترى على الضعيف والله سبحانه وتعالى قادر على أن يسلط عليك من هو أقوى منك .. وتعلم أنه إذا أغرتك قوتك فعليك أن تتذكر قدرة الله سبحانه وتعالى وحينئذ يكون الفعل الذي قوبلت به السيئة هو فعل حسن .. وإنما سميت سيئة كما قلنا لوقوعها في صحبة الأولى .. فإذا كان أولئك الذين يكيّدون ويخططون ويدبرون .. يفعلون ذلك لا إيذاء المؤمنين ومحاربة دين الله .. فإن الله يواجههم بنفس جنس عملهم .. أي أنه يتركهم يدبرون ما يدبرون .. ويدبر الله سبحانه وتعالى ما يبطل كيدهم ..

ولذلك فعندما نرى أناساً يحاولون أن يستغلوا العلوم المادية في صرف الناس عن الإيمان أو مستشرقين يدعون البحث في الإسلام .. وهم في الحقيقة يحاولون أن يصلوا إلى أي تناقض ظاهري يستغلون به عقول السذج والضعفاء .. وعندما أرى من يجادل في خلق السموات والأرض إلى آخر ما يحدث أمامنا هذه الأيام .. نعرف أن هؤلاء جميعاً يحاولون الكيد لدين الله .. وتزييه الطريق المعوج .. مستخدمين في ذلك كل الوسائل ..

وقبل أن غضي في الحديث عن هؤلاء الناس .. يجب أن نلتفت إلى حقيقة هامة هي أن دين الله سبحانه وتعالى يشتد ويقوى عندما يوجد من يحاربه .. فإذا رأيت الإسلام يضغط في أي مكان فاعلم أن ذلك بداية ليصحو الدين في نفوس المؤمنين ويصبح قويا عاتياً يعصف بمن يحاربه .. وأي اعتداء على الإسلام إنما يعطى قوة دافعة لهذا الدين في قلوب الناس .. وبعض المؤمنين يشفق من كيد الكافرين ضد الإسلام .. إما خوفاً من أن يؤثر ذلك على المؤمنين ويحذبهم بعيداً

وحدة الكون وقدرة الله

عن الطريق المستقيم وإما جزعا أن يؤدي ذلك إلى ضعف الدين وانصراف المؤمنين عن عبادتهم . . وكلا الرأيين غير صحيح . . لماذا ؟ لأن هؤلاء الكافرين يكيدون بقدراتهم البشرية . . فهم يأتون في قضايا يحاولون اظهار تصادم القرآن مع حقائق الكون مثل تفسيرهم الخاطيء لكروية الأرض والذي تحدثنا عنه في الفصول السابقة وأثبتنا أن قول الله سبحانه وتعالى « والأرض مددناها » دليل على كروية الأرض . . أو يأتون في محاولة لظهار تناقض في القرآن الكريم . . كقول الله سبحانه وتعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ثم قوله تعالى

﴿ وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ سورة العنكبوت آية ١٣

والحقيقة أن النفس الأولى التي يعيها الله سبحانه وتعالى في قوله « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وهى النفس التي ترتكب المعصية . . فكل إنسان يحاسب عن معاصيه . . ولايسأل عما فعله غيره من المعاصي . . أما النفس الثانية التي بينها الله سبحانه وتعالى في قوله « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » . . هى النفس التي لاكتفى بالمعصية . . بل تحاول أن تفضل غيرها وتدفعها إلى المعصية . . فقد يكون هناك إنسان يصلى فيأتى شخص ويظل يجادله بالباطل حتى يصرفه عن صلاته . . وقد يكون هناك إنسان يدفع إنسانا آخر إلى المعصية دفعا . . وهناك نوع ثالث يحاول أن يستخدم كل مهاراته ومنطق خداعه ليضل الناس عن سبيل الله . . هؤلاء لا يحملون أوزارهم فقط ولكن ينالهم نصيب من أوزان الذين أضلوهم . . وقد يأتى إنسان ليحاول أن يخرجك عن مفهوم الإيمان . . بأن يصل العبادات لغير الله . . كأن يقول إن الصلاة مثلا نوع من الرياضة إلى آخر ما سمعه ونراه . . ذلك كله نشهده هذه الأيام . . ونراه أمامنا في كل لحظة .

الله خير الماكرين

على أن الله سبحانه وتعالى في ذكره لهذه الحقيقة وهى أن هناك ناسا سيأتون ويكيدون لدين الله . . ويكيدون للمؤمنين . . من الآن وحتى قيام الساعة . .

وحدة الكون وقدرة الله

لا يذكرها ليعلمنا بهم فقط .. ولكن ليؤكد لنا أنه إذا كان هؤلاء الكافرون يكيدون .. فهناك كيد الله سبحانه وتعالى .. وهو أقوى منهم وأقدر .. ومن هنا فإنهم إذا فعلوا لا يجب أن يدخل في أنفسنا أى جزع أو خوف لأن الله لهم بالمرصاد .. وانى أعجب لبعض الناس يدبرون ويخططون ضد دين الله فى الأرض .. وليعلوا كلمة الباطل .. وهم فى تخطيطهم هذا يعملون حسابا لكل خطوة .. ويدرسون كل الاحتمالات .. ومن كل الزوايا .. ويتوهمون إنهم سينجحون فيما ينوون فعله .. نقول لهؤلاء انكم تنسون شيئا هاما .. وهو أن الله موجود .. وأنه يخطط ويدبر .. وأن الفرق هو انكم تخططون بقدرة مساويكم من البشر .. ولكنكم لا تشعرون بما يعده الله سبحانه وتعالى لكم .. فالله سبحانه وتعالى يشعر بمكركم وأنتم لا تعرفون ماذا يعد الله والله سبحانه وتعالى يقول فى ذلك « وإذ يمكر بك الذين كفروا » .. ثم يقول الله « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .. لماذا قال الله سبحانه وتعالى إنه خير الماكرين .. لأن ما يعده الله لا يعلمه أحد .. وما دام لا يعلمه أحد فهو يأتى بغتة ليهت أولئك الذين وضعوا كل مكرهم وحيلتهم فيما أرادوا أن يفعلوه .. إنهم يكيدون كيدا للدعوة .. وما داموا لم يستطيعوا الوقوف أمام الدعوة وأمام دين الله وقوف مواجهة بدأوا يمكرون .. أى يعدون الخطط فى السر ويتحايلون على مواجهة دين الله .. ولكن كل ما يفعلونه مفضوح أمام الله .. والله سبحانه وتعالى لا تنطلى عليه حيلة .. ولا ينطلى عليه خداع .. وهو يعرف أمورا يظن من يكيد للدين أنها خافية عليه .. ولكن هذه الأشياء كلها هى عند الله بأدق أسرارها .. ولذلك تفشل المخططات .. وتنقلب على أصحابها .. كما يحدث فى كثير من الأحيان .. وربما تساءلوا عن السبب .. والسبب واضح .. فهم قد نسوا قدرة الله سبحانه وتعالى .. وهى القدرة الحقيقية فى الكون .. واتجهوا إلى الأسباب .. وهى تعطى .. ولكن أمر الله .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يعطل الأسباب إذا شاء .. ويجعلها تعطى إذا شاء .. ومن هنا فالكون كله خاضع لمشيئته .. وليس لقدرة البشر بالأسباب التى خلقها الله سبحانه وتعالى للعيش على الأرض .. واننى أقولها بصراحة .. ما من إنسان قدر شيئا ونسى

وحدة الكون وقدرة الله

قدرة الله سبحانه وتعالى .. إلا جعل الله من أسباب هذا الشيء ما يأتيه بعكس ما يطلب .. ثم سلط عليه نفسه وتركه في الدنيا يذهب هنا وهناك .. ويخطط ويدبر .. ويتمزق قلقا وخوفا دون أن ينال شيئا ..

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يدخل الطمأنينة إلى قلب المؤمنين .. وبنفس وحدة المعنى التي في السورة الكريمة .. سورة الطارق .. بأن تطرق قدرة الله عقلك كل دقيقة .. ولا تغيب عنه أبدا .. ففي حالة الاثم والعدوان تطرق قدرة الله عقلك لتذكرك أن محاولة أى كافر للنيل منك .. لن يتركها الله سبحانه وتعالى تنجح .. وهو يعلم كيد الكافرين وقادر على أن يعطيهم ويجزيهم أضعاف أضعاف ما يكيدون لدين الله .. حين تتذكر ذلك تدخل الطمأنينة إلى قلبك .. وتواجه أى قوة في العالم دون خشية إلا الله ..

ثم نأتى بعد ذلك إلى ختام السورة الكريمة « فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » .. الله سبحانه وتعالى يطلب من رسوله أن يمهل الكافرين ويبتظر أمر الله فيهم .. وبعض الناس يستعجل الجزاء ويريد أن ينزل الله سبحانه وتعالى بالظالم الجزاء فور ظلمه .. وبعض الناس يتساءل في كثير من الأحيان وهو يرى إنسانا طغى وبغى .. أين عدل الله وأين قدرة الله .. نقول له إن عدل الله موجود .. لا يفلت منه أحد .. وقدرة الله موجودة .. لا يستطيع أحد أن يخرج منها .. ولكن الحكمة من الخلق كله تنتفى لو أن كل سيئة قوبلت بالجزاء في اللحظة التي تتم فيها .. والله سبحانه وتعالى يريد من عبده المؤمن أن يأتيه اختيارا .. لا اجبارا .. فالفرق بين الإنسان وباقي المخلوقات أن الإنسان قادر على الاختيار .. ولذلك فالله لا يريد أن يجبر الناس على الإيمان .. ولو أراد لأنزل عليهم آية من السماء ظلت أعناقهم خاضعة لها إلى يوم القيامة .. ولما كلفه هذا شيئا .. والاختيارية هنا تقتضى شيئين أساسيين .. أن تكون قادرا أن تفعل .. وقادرا ألا تفعل .. وأن يتم اختيارك بحبك لله دون ما قهر على نفسك .. وأن يتعاضم هذا الحب ليتغلب على كل معصية مزينة لمتعة وقتية ..

وحدة الكون وقدرة الله

● الجزء غيب

ولو أن الله سبحانه وتعالى استحضر الجزء مع العمل .. ما شذ واحد عن الإيمان .. ذلك أنه لو رأى الإنسان ، وهو يمد يده إلى مال حرام ، النار التي سيحرق فيها جزاء على عمله .. لهرب وترك مال الدنيا كله .. ولو رأى الإنسان الذي يغضب الله بأى عمل لو أتيح له أن يرى جزاءه عما فعل لما أقدم على ذلك أبدا .. ولو أتينا بمال الدنيا كله .. وشهوات الدنيا كلها .. ووضعناها في مكان وأتينا بإنسان في مقتبل العمر ممتلئا قوة .. حتى يستطيع أن يتمتع بهذا كله أكبر متعة .. وقلنا له : لك كل ما تراه أمامك .. ثم فتحنا له بابا من أبواب جهنم .. وقلنا له قبل أن تتمتع بكل هذا كما تشاء وكيفما تشاء .. فإن مصيرك هنا إلى الأبد .. لو فعلنا ذلك ورأى الإنسان ما سيحدث له بعد المعصية عين اليقين .. لما وجد القوة والقدرة في نفسه على أن يقدم على معصية .. ولكن الذى يدفع الإنسان إلى أن يقدم على معصية هو أن الجزء مستور لا يراه .. ولذلك فإنه يبنى نفسه مرة بأنه ليس هناك عقاب ولا آخرة .. ومرة بأنه سيغفر له .. ومرة بأنه سيتوب في آخر حياته .. ومرة بأنه سيفلت من العقاب إلى آخر ما يدخله الشيطان في النفس البشرية من محاولة لتزيين المعصية حتى يقدم الإنسان عليها .. ولذلك فإن ستر الجزء .. هو الاختيار الحقيقى للنفس البشرية وفتح الله الأبواب لبعض العصاة ليزيد ظلمهم ، هو فتنة .. والفتنة هى امتحان أو اختبار .. إما أن تنجح فيه أو تفشل .. وأساس الاختبار أن تكون شهيدا على نفسك .. فلا تقول لو إنه حدث كذا لما فعلت .. ولكنه حدث وفعلت وكنت على نفسك شهيدا .. وسجل ذلك الكرام الحافظون عليك .. فأصبح لا جدال ..

والله سبحانه وتعالى حين يقول « فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » فهل يريد أن يقول إن الله لا يأتى الجزء مع نفس العمل .. بل أحيانا يمد للظالم .. ولكن هذا لا يجعلك تياس .. ولا تحس أن الله قد تخلى عن المؤمنين .. فالجزء لا بد

وحدة الكون وقدرة الله

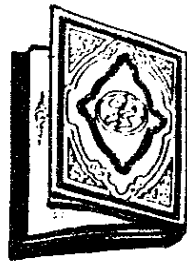
قادم .. وانما الامهال هنا هو الاختبار الحقيقي لإيمان المؤمنين .. اختبار لمدى قوة هذا الإيمان .. فإذا فتن بذلك الاختبار كان الإيمان ضعيفا ..

على أن بعض الناس يعتقد أن الجزاء في الآخرة فقط .. وأنا أقول إن الجزاء في الدنيا والآخرة .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يترك ظلما بلا نهاية .. ولا عاصيا بلا عقاب ليصبح عبرة لكل من حوله .. وهو حين يقتص من الظالم لا يسلط عليه مؤمنا .. ولكنه يسلط عليه من هو أظلم منه حتى يكون الجزاء رادعا .. ويكون الانتقام من نفس نوع العمل وأحيانا هو أشد .. ولذلك فإن قول الله سبحانه وتعالى « ونذيق بعضكم بأس بعض » .. إنما يدلنا على أن من يسلط على الظالم يكون ذا بأس شديد ليذيقه من نفس بأس عمله .. والمهم أن الله في قضائه يجعل الظالمين عبرة ليستريح الناس من أعماقهم إن ربك يمهل ولا يهمل .. على أن إمهال الله للعاصي هو من أبواب الرحمة التي كتبها على نفسه حتى للعاصيين من عباده .. فلو أن الله أخذ الناس بذنوبهم ما أبقى عليها منم دابة .. ولكن الله يمهل كامتحان للمؤمن .. وفرصة توبة لغير المؤمن .. وكل شيء مسجل بواسطة الكرام الحافظين ..

وإذا تأملنا سورة الطارق .. نجد أن الله يريد منا أن نتذكر .. وأن تطرق عقولنا قوته وقدرته .. وأنه لا يغيب عن علمه شيء .. ولا نعتقد أن الظلام يخفينا عنه .. وأنه هو الذى خلق النجم الذى يثقب الظلام ويظهر ما فيه .. وهو بعلمه يعلم ما نخفى وما نعلن .. وحتى نعرف جيدا أننا سنكون شهداء على أنفسنا .. وأن كل ما نعلمه مسجل علينا بكرام حافظين يكتبون ما نفعل .. والله يطلب منا أن تطرق قوته عقولنا إذا أصابنا الغرور بما مكنتنا الله فيه في الأرض .. فنعلم أننا موجودون بقدره الله .. وأننا مخلوقون من خلية دقيقة مستها القدرة .. فكان الإنسان .. وأن الإنسان سيد الكون بقدرات الله وليس بقدراته هو .. وإنه سيعود إلى الله سبحانه وتعالى الذى خلقه من عدم .. وإعادته أسهل من خلقه .. والناحية الثانية للغرور هي الاغترار بالقوة .. سواء كانت القوة الذاتية أو قوة من ينصرونك .. فهذه وتلك لن تكونا معك وأنت

وحدة الكون وقدرة الله

تلاقى الله ولن تجد قوة من ذاتك ، ولن تجد من ينصرك .. والوجه الثالث للاغترار .. هو الاغترار بالذكاء بأن تعتقد أنك تستطيع أن تخفى على الله شيئا وما تحاول اخفائه الله سيعلمه وهو يعلم السر وما تخفيه في صدرك .. ثم يذكرنا الله في دورات الحياة المتكررة فالماء يصعد إلى السماء في هيئة بخار .. فترجعه السماء إلى الأرض كمطر .. وتكون هذه العملية هي مد الأرض بماء عذب سائغ للشاربين من مياه البحر المالحة التي لا يستطيع إنسان أن يشرب منها كوبا واحدا .. وهذه العملية تبين لنا أن كل شيء يدور عدة دورات فكوب الماء الواحد يشربه ملايين الأشخاص كل في عصره .. فهو يدخل الجسد البشري ويخرج منه ثم يتبخر .. والأرض (نفس قطعة الأرض) أطعمت ملايين الأشخاص على مر السنين .. فإذا كان لكل شيء عودة .. فلماذا يشذ الإنسان ويحسب إنه لن يبعث .. ويضيف الله بأن هذا قول فصل يجب أن يؤخذ بعمق وجدية .. وأن الذين يجاربون دين الله يجب أن نواجههم .. وقدرة الله تطرق عقولنا فنعرف أنهم لا حول لهم ولا قوة .. وأن الله مذهب كيدهم .. وألا يصرفنا عن الإيمان ما نراه من ظالم لا يقتص منه في التو واللحظة، أو كافر لا ينزل به عذاب الله .. ذلك لأن لكل من هؤلاء موعدا .. ولكن الله يتركهم فترة امتحان للإيمان وليكون الكافر على نفسه شهيدا .. وأساس الكون كله .. هو الفرصة المتكافئة .. في قواه الظاهرة وقواه الخفية .. ولكن ما هي القوى الخفية في الكون؟



الفصل الثاني

القوى النفسية في الحكم

القوى الخفية في العالم

الله سبحانه وتعالى حينما خلق هذا الكون .. وضع لكل شئ فيه قانونا . وجعل القوانين تخضع لمن خلقت من أجله .. فالإنسان له القانون البشري الذى يناسب خلقه من طين .. والجان له القانون الذى يناسب خلقه من نار .. فهو يستطيع أن يخترق الجدران بحكم طبيعة خلقه .. ويستطيع أن يتشكل كما يشاء .. والشياطين لها قوانينها .. والملائكة كخلق من نور لها قوانين .. وهى تصعد إلى السماء وتنزل إلى الأرض بأمر ربها ..

ونحن حين نتحدث عن العلم .. فإننا نطلب من العقول أن تنطلق كما تشاء .. لتبحث فيما تشاء من ظواهر الكون المادية .. فقوانين الشمس والأرض والنجوم والرياح والنبات والحيوان .. وكل ما يستطيع الإنسان أن يبحث فيه بحثا معمليا متاح للعقل البشرى .. يجتهد فيه كما يشاء .. ومطلوب من الإنسان أن يكتشف آيات الله فى الكون .. والله سبحانه وتعالى حين قال فى كتابه العزيز :

﴿ سُرِّبَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَا هُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ ﴾

سورة فصلت آية ٥٣

إنما أعطانا أنه سيكشف عن هذه الآيات لغير المؤمنين .. لأنه سبحانه وتعالى قال « حتى يتبين لهم انه الحق » .. أى أن هؤلاء الذين سيربهم الله آياته منكرون للحق .. ولو أنهم كانوا مؤمنين .. لما كانت هناك حاجة لأن يذكر الله سبحانه وتعالى « حتى يتبين لهم أنه الحق » .. ذلك أن المؤمن يعرف أن الله حق .. والقرآن حق .. ورسول الله حق .. وهذا الدين بمنهج حياته وبالاعلام عن الآخرة حق .. ولكن ارادة الله قضت أن يكتشف غير المؤمنين آيات الله ليدحضهم .. ويكونوا هم بعدم إيمانهم المثبتين للإيمان فى الأرض .. ذلك أن الكفار يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله .. فى مرات مستخدمين نظريات يطلقون عليها العلم زيفا .. وفى مرات مستخدمين ما يوجد فى عقول البسطاء من تضاربات يحاولون الايهام بها .. بين القرآن وحقائق الكون .. ولذلك يأتى

القوى الخفية في العالم

الله سبحانه وتعالى بهم هم .. ليسخر من كل قدراتهم .. ويستخدمهم في تثبيت الإيمان ..

والله سبحانه وتعالى .. قد استخدم الكفار في تثبيت الإيمان .. منذ بداية نزول القرآن الكريم حتى الآن .. ففي أول أيام الرسالة نزلت الآية الكريمة :

﴿ تَبَّتْ بَدَأُ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ ﴿٥﴾ ﴾

سورة المسد

وكانت هذه الآية كما ذكرنا في الجزء الأول .. أول تثبيت للإيمان على أحد أئمة الكفر .. ذلك أن أبا لهب كان يستطيع زيفا أو كذبا .. أن يأتي في جمع من العرب ويقول .. « لقد قال في كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا يتغير ولا يتبدل .. قال اننى ساموت كافرا وأصلى نارا ذات لهب .. وهأنذا أمامكم أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. لأثبت أن محمدا كاذب فيما يقول » .. كان أبو لهب بهذه الشهادة يستطيع أن يهدم الدين من أساسه .. ولكنه حتى هذا الأمر الاختياري لم يجرؤ عليه .. وعند تغيير القبلة .. قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ ﴾

سورة البقرة آية ١٤٢

واستخدام حرف السين هنا يدل على أنهم لم يقولوها إلا بعد نزول الآية الكريمة .. وكان من الممكن ألا يقولوا .. ثم يأتي إلى العرب ويقولوا أن محمدا قد قال « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم » .. ولكن أحدا لم يقل ذلك .. وكان ذلك هدمًا في قضية الدين .. ولكنهم جاءوا وقالوا ..

القوى الخفية في العالم

وإذا انتقلنا إلى التحديات في العصر الحديث . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ

مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

سورة الكهف آية ٥١

أى أنه سيأتى أناس يضلون عن سبيل الله . . أى يحاولون اضلال غيرهم . . وأنا لم أشهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق إنسان . . ولم أتخذهم سنداً لى . . فلو أنه لم يأت من يجادل فى خلق السموات والأرض ولا خلق إنسان . . ويقول ان الإنسان أصله قرد إلى آخر النظريات التى نسمعها عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان . . لقلنا أين هؤلاء الذين أنبا عنهم القرآن . . ولكن كونهم أتوا . . وكونهم يحاولون الاضلال عن سبيل الله بنفى القدرة الالهية فى الخلق . . فقد جاءوا مثبتين للإيمان . . وسيأتون على مر السنين والقرون . . فعطاء القرآن مستمر حتى يوم القيامة . . سيأتى من الكفار وغير المؤمنين من يكشف لهم الله آيات من آياته . . يحاولون هم الوصول إليها بالتشكيك فى عين الله . . وتأتى نتيجتها بأنه الحق . . وتأتى مثبتة للإيمان . .

● قوانين الجن والملائكة

تلك مقدمة كان لابد منها . . لبيان القدرة الالهية . . وكيف تستطيع أن تسخر الكافر وغير المؤمن بدين الله لتثبيت هذا الدين واطهار أنه الحق . . وهذه العقول غير المؤمنة تحاول أن تدخل فى مجالات لم يخلقها الله للعقل البشرى . . فتجادل فى الملائكة والآخرة والجان والشياطين . . إلى آخر هذه المخلوقات . . التى لم نعرف عنها شيئاً ولا نستطيع أن ندخلها إلى المعمل لنضعها تحت الميكروسكوب . .

القوى الخفية في العالم



وليس هذا محاولة للحجر على العقل البشرى .. بل للعقل البشرى الحق في أن يبحث في كل شيء .. بشرط ألا يقدم لنا خرافات .. لا يملك عليها دليلا ..

فإذا تحدث عن قوانين الجن والملائكة .. أو عن خلق الإنسان بطريقة تتنافى مع ما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى .. نقول ما هو برهانكم ؟ فإذا كان مجرد فرض أو وهم .. فإننا نرفضه ولا نقبله .. وإذا كان عليه دليل مادي فإننا نناقشه .. والله سبحانه وتعالى حين خلق أعطانا قوانين المخلوقات الأخرى التي خلقها .. ولكننا لا نتحدث عن خصوصيات وإنما نتحدث عن الأشياء العامة ..

حين يأتي إنسان ويجادل في ذلك .. ويحاول أن يكذب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم) .. ويقول هذا غير ممكن .. نقول له : هل عرفت قوانين الشيطان .. فيقول لا .. نقول أليس الدم مكونا من كرات حمراء وكرات بيضاء إلى آخره .. ألا يستطيع أى ميكروب أن يدخل إلى مجرى الدم ويجرى فيه .. إذن فلماذا تنكر أن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم .. مادمت لا تعلم شيئا عن قوانين الشيطان .. ومادمتنا نعلم جميعا أن كل شيء في هذا الكون له قانون يخضع له .. فقانون الشمس ليس كقانون الأرض .. وقانون الجهاد ليس كقانون الإنسان .. والملائكة لهم قانون يفعلون ما أمرهم الله .. والجان لها قانون مختلف عن قانون الإنسان .. وهناك عباد يعطيهم الله علما ورحمة .. فيصبحون بقوانين خاصة لهم قدرات على الكون ..

على أننا يجب أن نتنبه إلى سورتين هامتين نقرأهما كل ليلة .. هما سورة الفلق وسورة الناس .. ففي سورة الفلق نتجه إلى الله ونستعين به في الأمور التي لا ارادة لنا فيها .. وفي سورة الناس نتجه إلى الله ونستعيد به في الأمور التي لنا

القوى الخفية في العالم

فيها ارادة .. ولكننا نخاف أن نضعف أمامها .. ولنوضح هذا الموضوع قليلا ..

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

سورة الفلق

كل هذه الشرور التي نستعيد بالله منها .. تأتي من خارج أنفسنا .. أو من خارج منطقة الحساب والتكليف في افعال .. ولا تفعل .. فعندما يقول الله سبحانه وتعالى « قل أعوذ برب الفلق » .. فالاستعاذة هنا .. هي الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى من شيء يفرع الإنسان ويهدد أمنه وأمانه .. ولا يستطيع الإنسان أن يواجهه بقدراته .. ومن هنا فهو يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى لأنه القادر على دفع السوء بقدرته تفوق قدرة البشر جميعا ..

والله سبحانه وتعالى هو الذي طلب منا أن نستعيد به .. ومن هنا فنحن حين نفعل ذلك .. إنما نطبق منهج الله في أنه أمان الخائفين وجار المستجير .. والمنهج هو النور والهداية للإنسان في حياته .. والفلق هو النور بعد الظلمة .. أو هو ما ينفلق عنه الوجود والحياة .. وإذا كان الفلق بمعناه الأول أو الثاني .. والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجد النور في الكون لتسير الحياة على هداه .. وهو الذي أوجد النور في القلوب .. ليهدئها إلى الإيمان واليقين .. وهو الذي أوجد الكون وخلق هذا الخلق المبدع وهو فائق الحب والنوى .. من هنا فكلا المعنيين يلتقيان ..

والله سبحانه وتعالى .. حين طلب منا أن نفرع إليه قال « من شر ما خلق » .. وهنا لنا وقفة .. فإدام الله سبحانه وتعالى قال « من شر ما خلق » .. فلا بد أن هناك شرا .. قد خلقه الله بالنسبة للإنسان .. ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخلق لنا إلا النافع في حياتنا .. والإنسان هو الذي أوجد

القوى الخفية في العالم

الشر .. وأوجد المعصية .. وأوجد كل ما يفسد هذا الكون .. ويسفك الدماء فيه .. وينشر الظلم والبغى والطغيان .. فما هو الشر الذي خلقه الله سبحانه وتعالى ؟

● معنى الفيضانات والزلازل

هناك رأيان يجب أن نتناولهما في هذا الموضوع .. الرأي الأول .. يتعلق بحكمة الخالق .. والرأي الثاني يتعلق بالخلق نفسه .. أما ما يتعلق بحكمة الخالق فالله سبحانه وتعالى قد خلق لنا قوى هائلة في الكون لنؤدى مهمتنا في الحياة .. وأخضع لنا هذه القوى بمشيئته هو .. فالشمس والقمر والأرض والنجوم وكل ما في الكون والحيوانات التي ألفت البشر .. كل هذه القوى مسخرة للإنسان بأمر الله .. ولكن الإنسان بغروره يحاول أن يدعى أن هذه القوى مسخرة له بأمره وذاته .. أى يحاول أن يأخذ مما أعطاه الله له من أسباب الحياة في الكون ، على أساس أنه شيء طبيعي .. لم تتدخل قوة الله سبحانه وتعالى في تسخيره .. ومن هنا يأتي الله سبحانه وتعالى بعلامات تذكر الخلق بنعم الله عليهم .. فتأتى الرياح لتصير اعصارا مدمرا .. وتحدث الزلازل والفيضانات بأعداد قليلة .. وبصورة نادرة .. لأنه ليس المقصود منها الدمار .. فلو شاء الله لدمر الكون كله في لحظة .. ولكن المقصود منها التذكير .. ليقول الله للإنسان .. إذا كنت تدعى أن الرياح مسخرة لك بأمرك .. أو بقوانينها .. فأنا سأحرق قوانين الرياح لتصبح اعصارا مدمرا .. وقوانين الأرض الطيبة التي تعطيك كل شيء لتبتلع ما فوقها .. لعلك تتذكر انك لا تملك السيطرة على هذه القوى .. وإذا كنت تستخدمها وتنتفع بها ، فذلك بقدرات الله سبحانه وتعالى التي سخرها لك .. فاعبده .. وأسجد له ..

وإذا كانت هناك اشارات وقتية تأتى بين الحين والحين .. وفي مساحات محدودة جدا لتذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى .. فإن هناك بجانب ذلك ما يذكرنا دائما بهذه القدرة .. فمثلا إذا جئنا إلى الحيوانات .. نجد بعضها

القوى الخفية في العالم

مسخرًا للبشر .. ليخدمه في الحياة .. فالفرس مثلا أقوى من الصبي الصغير مئات المرات .. ولكن هذا الصبي يستطيع أن يركبها ويسخرها لما يريد .. وقوة الصبي وعقله وقدراته لا يمكن أن تجعل الحصان خاضعا له خضوعا اراديا .. أى بارادة الإنسان .. فلو وجدت الفرصة لمعركة بين الحصان والصبي .. لقضى الحصان على الصبي في دقائق .. ولكن هذا الحيوان ذلله الله لخدمة الإنسان .. فأصبح مقهورا بقدرة الله .. يستطيع أن يستخدمه في الأغراض التي يريد ..

فإذا جئنا إلى الثعبان مثلا .. وجدنا أن الله سبحانه وتعالى لم يخضعه للإنسان .. وليس معنى هذا أن الثعبان شر مطلق .. بل أن من السموم الناقعات دواء .. فنحن نستخرج من سم الثعبان دواء ربما أنقذ حياة مئات الألوف من البشر .. ونحن نستفيد بجلد الثعبان .. وبعض الشعوب تستفيد بلحمه وتأكله .. إذن فهو ليس شرا مطلقا .. ولكنه شر يمكن أن يؤذى الإنسان ويقتله .. ومن هنا فنحن نستعيد بالله منه .. لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لم يخضعه لنا . ولذلك فهو يستطيع أن يهاجم الإنسان ويقتله ..

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى المخلوقات المجهولة لنا .. كالشياطين والجان .. نجد أن الله سبحانه وتعالى لم يسخرها لنا .. ولم يجعلها خاضعة لخدمة البشر .. وهي تستطيع أن توسوس للإنسان بالشر .. وأن تؤذيه .. ومن هنا فإننا لا نستطيع بقوتنا الذاتية أن نواجهها لأننا لا نراها .. ولكن الله طلب منا أن نستعيد به منها .. فإذا استعدت بالله من شر هذه المخلوقات وقفت ارادة الله سبحانه وتعالى بينك وبينها حجابا لا تستطيع أن تخترقه ، فأصبحت لا تملك لك ضرا .. إذن فهناك أشياء لم يخضعها الله سبحانه وتعالى بقدرته للبشر .. ولا يستطيع البشر أن يخضعها بقدراته .. وسواء أكانت هذه الأشياء من قوى الطبيعة .. أم من قوى الحيوانات .. والإنسان الذي يعيش معنا أو من القوى الخفية في الكون التي لا نراها .. فإنها شر للإنسان .. لأنه لا يستطيع أن يقف أمامها بقدراته الذاتية .. ومادامت كذلك .. فقد أمرنا الله أن نستعيد به منها .. ونحن حين نلجأ إلى الله في ساعة المرض .. نلجأ إليه لتكون قدرته مع

القوى الخفية في العالم

الدواء ليتفاعل معه في الجسم ويقضى على الميكروبات . . ففي كثير من الأحيان يتناول مريضان بنفس الدواء نفس الدواء . . احدهما يشفى والثاني يشتد عليه المرض . . ونسأل الطبيب فيقول لك إنها قدرة الله التي جعلت الدواء يتفاعل هنا مع الميكروب فيقتله . . ولا يتفاعل هناك . . والميكروبات ليست شرا مطلقا فإننا نستخرج منها الأمصال التي تقينا من الأمراض . . وأحيانا نستخرج منها الدواء . . ولكنها شر للإنسان . . ونحن بجانب العلاج الطبي نتجه إلى الله سبحانه وتعالى ليحقق لنا الشفاء . . وهذا هو معنى الآية الكريمة « وإذا مرضت فهو يشفين » . . ذلك فإن الأخذ بأسباب الأرض جزء من محاربة الداء . . أما أسباب الشفاء فهي في يد الله سبحانه وتعالى . . ولقد أمرنا أن نأخذ بالدواء الذي خلقه الله لشفاء الداء . . ثم نترك اتمام الشفاء لقدرة الله . . ولعل أكثر الناس فهما لهذه النقطة هم الأطباء الذين يشاهدون معجزات الشفاء كل يوم . . والذين ينتظرون بعد اعطاء الدواء قدرة الله على الشفاء . .

إذن فحكمة الخالق في كل ما تحدثنا عنه من شر للبشر . . هو لفت للقدرة التي سخرت كل شيء للإنسان . . ففوق الميكروب . . أو الثعبان . . أو أى خلق من خلق الله لا تقاس بجانب قدرات الكون كله من شمس وقمر ورياح وبحار وأنهار . . والله يريد دائما أن يلفتنا إلى أن الأشياء مدللة بقدرته وليست بعقولنا . . فيأتى بأشياء متناهية في عدم القدرة أمام قدرات الكون . . كالميكروبات أمام الشمس مثلا . . ليذكرنا انه هو الذى ذلل لنا قوى الكون الهائلة . . وأنا بقدراتنا لا نستطيع أن نذلل أدنى الأشياء المتناهية في الصغر كالميكروبات . . وذلك حتى لا يظن الإنسان الذى سخر له الله الكون كله انه مستغن عن الله . . بل تأتى هذه الأشياء لتذكره بالنعمة . . وفي نفس الوقت تجعله يحس انه محتاج إلى الله في كل دقيقة . . وخوف الإنسان من الأشياء التي لم تذلل له هو ربط للإنسان بالخالق . . وفي نفس الوقت اشعار للإنسان بضعفه وقدرة خالقه . . ذلك أنه ضعيف لا يستطيع أن يتغلب على هذه الأشياء . .

القوى الخفية في العالم

ولكنه في نفس الوقت قوى إذا استعاذ بالله .. فلا تستطيع هذه الأشياء أن تمسه ..

● الحكمة من الخلق

هذه حكمة الخالق .. أما الحكمة من الخلق .. فهي في المقارنة الدائمة بين ما هو مسخر لنا .. وما لم يسخر لنا .. هذه المقارنة الدائمة المستمرة .. آية يومية لكل من تبعد نفسه عن الإيمان .. انه جبار في الأرض .. نسي الله .. وحسب انه ملك الدنيا ومن عليها .. وأخذ يملأ الأرض ظلما وطمعانا .. يأتي الله ليسلط عليه أدق مخلوقاته وهي الميكروبات .. فيصبح عليلا مريضا .. لا يقدر على المشي .. وربما لا يقدر على الكلام .. وهنا تظهر حكمة الخلق أمام خلقه .. حينما يرون هذا الجبار وقد أذله المرض .. فيصيحون (سبحان الله) .. وتتجلى القدرة الالهية أمام هؤلاء الذين ينسيهم بريق الدنيا وزخرفها قوة الله وقدرته ..

ثم يمضي الله سبحانه وتعالى ليقول « ومن شر غاسق إذا وقب » .. والغاسق هو الليل .. « وإذا وقب » معناها إذا دخل بظلمته .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا .. أنا خلقت الليل والنهار .. وجعلت النهار مضيئا آمنا لتسير حركة الحياة في الكون .. وجعلت الليل ساكنا مظلما لتنام فيه وتستريح .. وتصبح قادرا على حركة الحياة في اليوم التالي .. ولكن ليل ظلمة .. والظلمة تخفي الأشياء .. وتغري بالشر .. ومعظم الجرائم والشور ترتكب في الليل .. وأنت في النهار قد ترى عدوا يترصد بك .. أو تلمح حشرة يمكن أن تؤذيك .. وتشعر بالأمن والأمان لأن الدنيا حولك مليئة بالحركة والحياة .. ولكن ذلك ينتهي مع ظلمة الليل .. ومن هنا فأنا أعطيك نعمة الأمان بالليل كالنهار .. وهي أن تستعيد بي .. ثم تنام أنت هانئا مطمئنا .. لأنني أنا الله الحي القيوم .. الذي لا تأخذه سنة ولا نوم .. فأنت إذا استعدت بي ستنام في حراستي وأنا لن أغفل عنك لحظة واحدة مادمت قد لجأت إلى واستعدت بي .. فلا تخش أن

القوى الخفية في العالم

تأخذني سنة من النوم .. أو أغفل عن أى شيء .. لأننى لا أنام .. ولا يفوتنى شيء مما يحدث فى الدنيا .. ظاهرا أو باطنا .. وحراستى لك .. لا تستطيع جيوش العالم كله أن تمنحك اياها .. فإذا جاء الليل فاستعد بى ونم آنا مطمئنا فأنا الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم .. لن أغفل عنك لحظة .. ولن أتركك ثانية .. بل ستكون دائما فى حراستى بقدراتى التى لا تستطيع أن تصل إليها كل المخلوقات ..

وتمضى الآية الكريمة فتقول « ومن شر النفاثات فى العقد » .. ولقد وقف العلماء عند هذه الآية الكريمة وقفة طويلة .. فقد قالوا .. النفاثات هن الساحرات ولكن فرعون كان له سحره .. ومن هنا أطلق بعض العلماء النفاثات على السحرة على اطلاقهم الذكر والأنثى .. وحدث الخلاف .. لماذا ؟ لأننا نواجه قضية غيبية وليست قضية عقلية .. فأنت لا تستطيع أن تدخل السحر فى المعمل .. ولا تستطيع أن تضع مواصفات له .. ولذلك فإن هذه الأشياء كانت ولا تزال محل جدل كبير .. فبعض الناس ينكرها انكارا تاما على أساس انه لا يصدق إلا ما يراه .. ونحن نقول له هل كان أجدادنا يرون الميكروبات والفيروسات كما نراها الآن .. الجواب كلا .. لأنها كانت غيبيا عنهم .. ولكن كونها غيبيا لا يمكن أن ينفى وجودها .. وكوننا حين اخترعنا الميكروسكوب ليكبر ألوف المرات .. فإن هذا الاختراع لم يوجد الميكروبات والفيروسات .. ولا يستطيع أحد أن يقول انه خلقها .. ولكنه فقط أزال سترا من الأستار التى كانت موجودة على عقولنا .. فاستطعنا أن نرى ما كان موجودا ولكن لم نكن نراه .. والله فى ذلك حكمة كبيرة! .. فهو يكشف لنا كل يوم عن أشياء فى الكون كانت غيبيا عنا وربما لم نكن نصدقها لنراها أمامنا رؤيا العين .. وتصبح حقيقة واقعة ليقول لنا هذا ما كان غيبيا عنكم .. وكانت تنكره عقولكم لأنكم لا ترونه .. قد أصبح حقيقة واقعة أمامكم .. وعرفتم أنه موجود .. حتى إذا حدثكم عن غيب لم تروه حتى الآن .. فاعلموا أن عدم رؤيتكم له لا ينفى حقيقة وجوده ..

القوى الخفية في العالم

ومادام الله سبحانه وتعالى قد ذكر السحر في القرآن الكريم .. وذكر السحرة .. فلا بد أن يكون هناك سحر وسحرة .. ولكن العلم لا يعرف شيئا عن السحر ونحن نقول لهم هذه قضية غيبية قد تكون علما غدا .. وبعد غد .. ولكنها حقيقة مادام الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا عنها ..

● السحر وأعين البشر

ولكن ما هو السحر؟ يقول الله سبحانه وتعالى .. « سحروا أعين الناس واسترهبوهم » .. والسحر نوعان .. نوع فيه قدرة البشر .. ونوع فيه الاستعانة بقوى غير قوى البشر .. النوع الأول وهو ما في قدرة البشر لا يغير طبيعة الأشياء وإنما يصورها في عين الإنسان بغير شكلها الحقيقي .. أى أن العين هي التى تسحر .. والنظر هو الذى يخدع .. وليست المادة هى التى تتغير مصداقا لقوله سبحانه وتعالى « سحروا أعين الناس واسترهبوهم » .. وإذا اتبعنا السحر من أبسط ما يقوم به البشر إلى أكبر ما يقوم به الذين يستعينون بغير البشر .. نجد أنه فى أبسط أشكاله خداع للنظر .. فالسحرة البسطاء الذين يقدمون الألعاب فى الحفلات الحواة .. يعتمدون على خداع النظر أو خفة اليد .. ذلك أنهم يتدربون على تحريك اليد بسرعة لا تلاحظها العين .. وبذلك يحسب الإنسان أن ما يحدث أمامه هو تغيير لطبيعة الأشياء .. والحقيقة أن ما يحدث هو خداع للنظر .. والنظر يخدع بأشياء كثيرة .. السراب تحسبه العين ماء وبعض ألوان الطيف تبدو كأطباق طائرة للعين .. والحركة السريعة لا تستطيع أن تصل إليها عين الإنسان .. وأنت إذا أدت مروحة كهربائية وحاولت أن تحدد شكلها وهى ساكنة لا تستطيع إلا بعد أن توقف دورانها لتراها ساكنة أولا .. فخداع النظر لا يمكنك من معرفة الشكل مع الحركة السريعة .

إذن فخداع النظر نوع من السحر .. وهذا معروف الآن لا جدال فيه .. والسحرة الذين يقومون بالألعاب السحرية يعتمدون على سرعة حركة اليد .. فيخدعون العين .. ويبدون وكأنهم يأتون بنوع من السحر .

القوى الخفية في العالم

هذا تفسير بسيط ليفهم الناس أن السحر لا يغير طبيعة الأشياء .. وإنما يسحر العين .. فترى ما يريد من الساحر أن تراه .. هذا إذا كان السحر مجرد استعراض للقدرات .. أما إذا كان السحر للشر .. فلا يمكن أن يصل الساحر إلى مراده إلا إذا أضاف الرعب والرهبة بجانب خداع النظر .. أى أن الساحر يجب أولاً أن يدخل الخوف في قلب المراد التأثير عليه بالسحر حتى يخضعه تماماً .. ويجعله يفعل ما يريد .. ومن هنا فإن بعض هؤلاء السحرة يستعينون بأصوات مخيفة .. أو بجهاجم وعظام الموتى .. المهم أنهم أولاً يدخلون الرعب إلى نفوس الناس .. ثم بعد ذلك يسحرون أعينهم ويستخدمونهم في الشر والأيذاء .. ونادراً ما يمارس مثل هؤلاء السحرة أعمالهم في ضوء النهار .. بل هم يمارسونها دائماً في غرفات مظلمة وسط أصوات مثيرة للرعب .. يتسلط من خلالها الساحر على المسحور .. ورغم أن الساحر لا يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء .. فإنه بإدخال الرهبة إلى القلب مع استخدام سرعة الحركة .. واليد المدربة .. والحيلة المتقنة .. يخيل للرائى أنه يرى قوى خارقة ويخضع لها تماماً .. ولذلك عندما واجه السحرة موسى عليه السلام وألقوا حبالهم وعصيهم .. قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا حَبَّأَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (٦٦)

سورة طه آية ٦٦

واستخدام كلمة (يخيل) التي استخدمها الله سبحانه وتعالى يجب أن نلتفت إليها .. وهى أن السحرة لم يغيروا طبيعة الأشياء .. ولكن خيل للحاضرين أن حبال السحرة وعصيهم هى حيات وأفاع تسعى .. فاستخدام الله سبحانه وتعالى كلمة (يخيل) معناه أن الحبال والعصى لم تتغير طبيعتها إلى حيات .. ولكن جو الرعب الذى أحدثه السحرة بجانب حيلتهم وخفة أيديهم قد خدع أعين الناس .. فجعلهم يتخيلون أنها أفاع وثعابين .. حينذاك ماذا حدث .. ألقى موسى عصاه .. فإذا هى حية تسعى وتلقف ما يأفكون .. حينئذ سجد

القوى الخفية في العالم

السحرة لرب موسى .. وصدقوا أنه رسول .. لماذا .. لأنهم أيقنوا أنه ليس ساحرا .. فهم أعرف الناس بخداع النظر .. وهم أعرف الناس بفنون السحر .. وهم أعلم الناس أن الساحر لا يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء .. ولكن طبيعة الشيء هنا قد تغيرت .. وتحولت عصا موسى إلى ثعبان هائل .. وهذا ليس من صنع ساحر .. ولكنه من قدرة الله سبحانه وتعالى .. وكان السحرة أول الساجدين .. لأنهم أيقنوا أن موسى رسول صادق عن ربه .

● التجربة والتدريب

ولقد دخل موسى هذه التجربة بعد أن دربه الله سبحانه وتعالى .. ليعلم الفرق بين السحر والمعجزة .. وحتى لا يسحره السحرة ويسترهبوه .. فقال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا عَلَيَّهَا وَأَهْشَبُهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَعَارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

سورة طه آية ١٧ - ٢٠

حينئذ أوجس موسى خيفة .. بعد أن رأى العصا التي كانت في يده تتحول إلى حية هائلة فقال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۗ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

سورة طه آية ٢١

وأعادها الله مرة أخرى عصا .. لماذا فعل الله سبحانه وتعالى ذلك مع موسى .. يجب أن نعرف أن كل شيء يحدث له حكمة .. لا شيء في أمر الله يحدث عشوائيا .. أو بلا هدف ..

القوى الخفية في العالم

وهذه معجزة ليست في تحويل العصا إلى حية فقط .. ولكن نفس ما حدث هو اعجاز .. ذلك أن الله في علمه أن فرعون سيأتي بالسحرة ليحاول أن يهدم بهم رسالة موسى عليه السلام .. وأن هؤلاء السحرة سيخدعون الناس ويسحرون أعينهم .. فدرب الله سبحانه وتعالى موسى على تغيير طبيعة الأشياء .. ليستطيع أن يتبين الفرق بين السحر والمعجزة .. ولو أن الله سبحانه وتعالى أدخل موسى التجربة دون تدريب .. لكان موسى عندما رأى العصى تنقلب إلى حيات .. خاف وذعر .. وربما حاول الابتعاد عن المكان حتى لا يؤذي .. وكانت هذه كافية لتدخل الشك في قلوب من آمن .. ومن سيؤمن .. فإدام الرسول نفسه قد خاف من السحرة فلا بد أنهم هم الأعلى .. ومن هنا جاء الله سبحانه وتعالى برسوله ودربه أولاً .. فزالت الرهبة من نفسه ورأى الفرق بين الحية الهائلة التي تحولت عصاه إليها وبين كيد السحرة الذي لا يمكن أن يقارن بقدرة الله سبحانه وتعالى .. وحين واجه السحرة .. كانت التجربة في قلبه تحميه .. ومع ذلك « فأوجس في نفسه خيفة موسى » .

فقال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَتَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا ط

﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ ﴾

سورة طه آية ٦٨ - ٦٩

وكذلك أيد الله نبيه ليثبته مرتين .. مرة بتحويل عصاه إلى حية تسعى .. ومرة أخرى بتأييده عندما أوجس في نفسه خيفة من السحرة ..

على أن هناك لفظة إيمانية وهي إيمان السحرة برهيم .. ولقد آمن السحرة بالله قبل أن يقتلهم فرعون بساعات .. وبذلك دخلوا الجنة .. وهذه الواقعة .. تجعل الإنسان لا ييأس أبداً من رحمة الله .. ذلك أن هؤلاء السحرة ظلوا على

القوى الخفية في العالم

كفرهم .. وجاءوا ليحاربوا دين الله بسحرهم .. ثم آمنوا حينما رأوا المعجزة .. وكان الإيمان قبل أجلهم بساعات فغفر لهم .

● قوانين لغير البشر

إذن فالسحر بالنسبة للإنسان العادي أو بالنسبة للبشر الذين لا يستعينون بقوى أخرى قد بينه الله سبحانه وتعالى ووضحه بأنه يعتمد أساسا على خداع الأعين وادخال الرهبة في النفوس والحيلة .. هذه الأشياء الثلاثة تجعل المسحور يستسلم لارادة الساحر .. متوهما أنه يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء وأن يأتي بمعجزات .. والله سبحانه وتعالى يأمرنا بالألا نخاف هذا النوع من السحر ولا نخشاه .. وإذا حاول أحد أن يدخل الرهبة في قلوبنا بهذا النوع من السحر .. فعلينا أن نستعيد بالله فلا يستطيع أن يؤثر فينا .

هناك نوع آخر من السحر يعتمد على قوى أخرى غير قوى الإنسان .. وإذا أردنا أن نوضح ذلك فعلىنا أن نقرأ في سورة النمل قصة ملكة سبأ .. فعندما أراد سليمان أن يأتي بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى بيت المقدس .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

سورة النمل آية ٣٨

ولم يحدد سليمان الذي أعطى من الله السيطرة على الجن والإنس والشياطين .. لم يحدد ممن يطلب احضار عرش ملكة سبأ .. بل معناه أن بلقيس ومن معها قد غادروا اليمن وأنهم في الطريق إليه يعتبر خرقا لقوانين البشر .. وربما لا يكون خرقا لقوانين الجن .. أو لقوانين مخلوقات أخرى لا نعلم عنها شيئا .. ولكنها بطبيعة قوانينها والخواص التي أعطهاها الله لها .. تستطيع أن تقوم بهذا العمل .

القوى الخفية في العالم

ماذا حدث عندما طلب سليمان القيام بهذه المهمة ، وما معنى طرح السؤال « أيكم يأتي بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين » . . معناه أن بلقيس ومن معها قد غادروا اليمن وأنهم في الطريق إليه . . وهو يريد واحدا أن يذهب إلى اليمن ويأتي بالعرش . . وبلقيس ومن معها مازالوا في الطريق إليه . . ويصل العرش قبل أن تقطع بلقيس ملكة سبأ ومن معها المسافة الباقية بينها وبين مكان سليمان عليه السلام .

هنا ملاحظة هامة . . من الذى تكلم . . هل تكلم بشر عادى . . وقال أنا أستطيع أن آتيك به . . لا . . لأن هذا فوق قوانين البشر وقدراتهم . . هل تكلم الجن على طلاقته . . لا . . إنما الذى تكلم هو أقوى الجن وليس جنا عاديا . . ولذلك كان المتكلم فردا واحدا . . فقال الله سبحانه وتعالى « قال عفريت من الجن » . . إذن . . فالذى تكلم ليس الجن على طلاقته وإنما أقوى الجن الذى يقدر على هذه المهمة الصعبة . . وحينما تكلم أقوى الجن أعطى زمنا يناسب القانون الذى يتبعه . . أى الذى خلقه الله له . . فقال :

﴿ أَنَاءُ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾

سورة النمل آية ٣٩

أى قبل أن يقوم سليمان من مجلسه . . وكم يستغرق مجلس سليمان . . ساعة ، ساعتين . . ثلاث ساعات . . المهم أنه حدد مدة زمنية طويلة إلى حد ما حتى يأتي بالعرش .

هنا تدخل الذى عنده علم من الكتاب . . لماذا . . لأن الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى علما من الكتاب سيأخذ قانونا أقوى من قوانين الجن . .

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَاءُ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

سورة النمل آية ٤٠

القوى الخفية في العالم

هنا يجب أن نتنبه إلى الحكمة الكبرى ، فكل خلق في حضرة سليمان يتكلم بالقانون الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى له . . فالإنسان من طين . . مادة عتمة . . الله سبحانه وتعالى جعل قوانينه تناسب خلقه . . ولذلك عندما عرضت مسألة احضار العرش لم يتقدم إنسان . . ولم يقل واحد من الحاضرين من البشر . . أنا أتيك به إذا أعطيتني عددا من الجياد القوية أو أى شيء آخر . . وإنما سكت البشر على اطلاقه . . لأن قوانينه تمنعه من التعرض لهذه المسألة .

ولم يتكلم الجن العادى . . لأنه لا يقدر على هذه المهمة . . رغم أن قوانينه قد تؤهله لأن يقوم بهذا العمل . . فالجن بقوانينه أخف وأقوى من البشر . . ويستطيع أن يقطع المسافات أسرع . . وأن ينفذ من المادة . . وهذا قانون أعطته له طبيعة خلقه من نار . . والنار لها قوانين غير قوانين الطين . . أقول سكت الجن على طلاقته خوفا من فشله في هذه المهمة . ونطق أقواهم وهو عفريت واحد .

وهكذا يجب أن نعلم أن لكل خلق قانونا . . وأن الله سبحانه وتعالى قد جعل من هذه القوانين ما يجعل من بعض خلقه قادرا على أن يفعل ما لا يستطيعه البعض الآخر . . وجعل الذى عنده علم من الكتاب يستطيع أن يخرق القوانين كلها . . لتبقى له سبحانه وتعالى وحده القدرة على أن يغير طبيعة الأشياء . . ويعطى للأذن ما يجعله فوق الأعلى . . فهو أعطى لبشر من قوانين الكتاب ما جعله يتفوق على جميع خلقه . . ويأتى بعرش ملكة سبأ في لا زمن تقريبا .

وبعض الناس يستعين في السحر بقوى لها قوانين تفوق قدرة الإنسان . . فيستعين بالجان والشياطين . .

● حكمة هاروت وماروت

وهنا نأتى لقصة هاروت وماروت . . وقبل أن نبدأ هذه القصة يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون على أساس الفرص المتكافئة . . أى أن لكل

القوى الخفية في العالم

إنسان في الحياة نفس الفرصة المتساوية التي للإنسان الآخر . . فإذا استعان إنسان بقوى لها قوانين تفوق قدرة البشر . . فإنه أخذ فرصة غير متكافئة مع سائر البشر . . وهو حين يأخذ هذه الفرصة . . إنما يتحدث كذبا انه سيستخدمها من أجل الخير . . ولكن قدرته تغريه فيبدأ في استخدامها في الشر والايذاء . . وحينئذ يسلط الله عليه نفس القوة التي استعان بها فتؤذيه . . ويموت إما منتحرا أو مجنونا أو في فقر مدقع . . والمهم أن نهايته دائما تكون سيئة مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾

سورة الجن آية ٦

تلك لمحة سريعة . . سنتحدث عن ذلك بالتفصيل . . يقول الله سبحانه وتعالى في قصة هاروت وماروت :

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَتَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ ^ط وَمَا كَفَرُوا سُلَيْمَانَ وَلَكِنَّ

الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾

سورة البقرة آية ١٠٢

. . ولهذا قصة تروى . . فقد قيل إنه عندما أعطى الله سليمان الملك كان الشياطين يستخدمون السحر في الافساد في الأرض . . فقام سليمان بجمع كل توائم هذا السحر ودفنها في الأرض . . ولما مات سليمان . . قالت الشياطين إنه كان يحكمهم بالسحر . . ودلت على المكان الذي أخفى فيه هذه التوائم فتم استخراجها . . نعود إلى الآية الكريمة :

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَتَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ ^ط ﴾

سورة البقرة آية ١٠٢

القوى الخفية في العالم

أى أن الشياطين حاولت الخداع بأن سليمان قد أوقى ملكه عن طريق السحر وليس برسالة من الله سبحانه وتعالى .. « وما كفر سليمان » .. أى أن الله سبحانه وتعالى يبرىء سليمان من هذه التهمة ويقول إنه لم يكفر .. بل أوقى رسالة حقيقية من الله سبحانه وتعالى .. وإذا كان سليمان لم يكفر .. فالذين كفروا هم الشياطين التي أطلقت هذه القصة غير الحقيقية على سليمان .. وتمضى الآية الكريمة « يعلمون الناس السحر »

وإذا وقفنا عند هذه الآية .. نجد كلمة السحر لنعلم أنه بجانب السحر البشرى الذى هو خداع البصر .. يوجد سحر من أجناس أخرى هي الشياطين .. وأن الذين يمارسون هذا النوع من السحر من الشياطين .. هم كفرة .. أو مردة .. عاصين لله سبحانه وتعالى .. والشياطين بحكم قوانينها تستطيع أن تتشكل فى أشكال مختلفة مثل الحيوانات والإنسان أحيانا إلى آخر ذلك .. وهى حين تتشكل فى هذه الأشكال فإنه يحكمها قانون الشكل .. وهذا رحمة من الله سبحانه وتعالى لأنه لو كانت الشياطين تستطيع أن تتشكل بأشكال مختلفة .. ولا يحكمها إلا قانونها .. لكانت الحياة على الأرض عملية صعبة للإنسان .. ولتحكمت فيه الشياطين وأزعجته .. ولكن كونها محكومة بقانون الشكل الذى تشكله .. فإنها تخشى إن هى بقيت فيه أكثر من لحظات أن يستطيع الإنسان القضاء عليها .. فإذا تشكل الشيطان فى شكل إنسان .. أو قرد .. أو حمار .. فإنك إذا أطلقت عليه الرصاص أو ضربته بسكين قتله .. وهو يعرف ذلك ، ومن هنا فإنه لا يبقى على هذا الشكل لأنه يعرف أنه معرض للخطر من الإنسان .. فلا يتشكل إلا لحظات .. ثم يعود إلى طبيعته .. وهذا التشكل هو الذى تقوم به الشياطين لخداع البشر .. وأحيانا يتشكل الشيطان على شكل قبيح جدا ويقف بين المرء وزوجه .. وكلما نظر الزوج إلى زوجته وجدها على صورة قبيحة تجعله يكرهها . وتمضى الآية الكريمة :

﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِ بْنِ بَابِلَ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ ۗ ﴾

القوى الخفية في العالم

حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا
يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿١٠٢﴾

سورة البقرة من الآية ١٠٢

● الفرصة والحساب

نأخذ من هذه الآية الكريمة عدة مبادئ .. أولها : إن السحر بهذه الطريقة
أى بطريقة التشكل لحجب الحقيقة عن الرائي إنما هو قوانين الجن .. أو
الشياطين .. أما الإنسان فلا يملك من فنون السحر غير خداع البصر .
وثانيها : إن هذا السحر نزل به ملكان هما هاروت وماروت ..

وأن كل من أذن له الله ليتعلم على أيديهما قال له إنما نحن فتنة فلا تكفر ..
أى أن هذا النوع من السحر هو فتنة للبشر .. وكل من يتاح له معرفة
أسراره .. إنما هو معرض للكفر .. لماذا ؟ لأن هذا النوع من السحر يعطى
الإنسان فرصة كبرى على غيره من بني جنسه .. وإذا ملك الإنسان الفرصة
ويستطيع أن يتحكم في بني جنسه بقوى أكبر منه فإنه بهذه الحالة يجد نفسه متجها
إلى الظلم والبغي والكفر .

ولنوضح هذا قليلا .. هب أننا نعيش في قرية صغيرة .. وأتيح لأحد أفراد
هذه القرية أن يحصل على بندقية أو سلاح نارى .. إنه عندما يحصل عليها
يقول : انى سأستخدمها فى حماية نفسى ودفع الأذى عن أهل بيتى .. ثم بعد
ذلك يجد انه يستطيع أن يخضع بها أهل القرية كلها .. فيبدأ فى فرض الاتاوات
والارهاب والافساد فى الأرض .. وهكذا تعطيه الفرصة غير المتكافئة اغراء كبيرا
للإفساد ..

القوى الخفية في العالم

ولكن لماذا أنزل الله سبحانه وتعالى هذه الفتنة . . الفتن كلها هي امتحان للإيمان . . المال فتنة والولد فتنة والنفوذ والسلطان فتنة والترف فتنة ، وهذه الفتن كلها إنما وضعها الله سبحانه وتعالى في كونه كإمتحان للبشر . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ

الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

سورة آل عمران آية ١٤٢

إذن . . فالفتن كثيرة في الكون . . يأتي إنسان فيقول اللهم ارزقني مالا لاتصدق وأكون من الصالحين . . فإذا رزقه الله المال . . منع الصدقة وأخذ حق اليتيم والمسكين . . ويأتي آخر ويقول اللهم ارزقني ولدا أو أولادا يكونون عزوة لي . . فإذا أعطاه الله الأولاد استخدمهم ليرهب بهم الناس ويفرض الاتاوات . . وهكذا . . وكل هذا يدخل في معنى الأمانة . . أى أن الله سبحانه وتعالى حمل الإنسان الأمانة . . ومعنى ذلك أنه حمله وديعة عنده . . والمهم هو وقت السداد . . وإذا أردنا أن نوضح هذه النقطة قليلا . . فإن الله قد عرض على الإنسان الأمانة أى حرية الاختيار . . فى افعال ولا تفعل . . ويأتى الإنسان ليقول : ربى بما أعطيتنى من حرية الاختيار فانى سأعبدك حق عبادتك وأصلح فى الأرض . . ويمضى الإنسان ليفسد فى الأرض بدلا من أن يصلح فيها . . ويهلك الحرث والنسل . . ثم يأتى وقت أداء الأمانة . . وهو ساعة الموت . . وهنا المفروض أن يقدم الإنسان حسابا لحالقه . . ولكنه لا يستطيع الوفاء بما وعد . . ويأتى وقت السداد فلا يجد شيئا يقدمه . . وكذلك الإنسان الذى يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يجعله قادرا على تسخير قوى فوق قوى البشر . . ويقول ياربى استخدمها فى الخير . . ويستخدمها فى الشر وايداء الناس . . ثم يأتى وقت يجد فيه أنه قد خان عهد الله ولم يرع الأمانة . . وكل ما يصيب الإنسان فى هذه الدنيا

القوى الخفية في العالم

من فتن .. هو اختبار للإيمان .. فالإنسان يطلب والله يعطيه ليختبر إيمانه ..
وليس لأن الله لا يعلم هذا الإيمان .. ولكن ليكون الإنسان شهيدا على
نفسه .. فيجادل ويقول لو اننى أعطيت لفعلت الخير .. ولكنه يعطى الإنسان
ليفعل الشر ليكون شهيدا على نفسه .. والإنسان العاقل هو الذى يتعد عن
هذه الفتنة ويقول ياربى أنا لا أضمن نفسى وأخشى أن أفتن فى إيمانى فلا أريد
شيئا لا أقدر عليه .. مثل هذا الإنسان يكون بعيدا عن الفتنة .. لأنه عرف
ضعف النفس البشرية فرفض أن يحمل أمانة لا يستطيع الوفاء بها .. مكتفيا بما
حمله الله فى افعل ولا تفعل .. وهذا الإنسان عادة ليس له صلة بعوالم أخرى
وإنما يحيا الحياة الطيبة .. ولكن من لهم تطلعات فى الدنيا هم الذين يطلبون
الفتنة ثم يسقطون فيها .. والفتن كما قلنا .. امتحان للنفس البشرية وامتحان
عسير ..

● الخير ممتنع هنا

نعود بعد ذلك إلى الآية الكريمة .. نقول إن السحر عند البشر هو بإخضاع
قوى غير بشرية للإنسان يستعين بها .. وهذه القوى .. قوانينها غير قوانين
البشر فهى تستطيع أن تقطع المسافات فى زمن قياسي .. وتستطيع أن تتشكل
بأشكال معينة .. ومن هنا فإنه يمكنها أن تأتى بأشياء بعيدة فى زمن بسيط .. أو
تقوم بالتشكل حسب إرادة البشر التى سخرت له ..

ولما كان هذا السحر من قوانين الجن والشياطين .. فإن الله سبحانه وتعالى قد
أطلعنا على ما يمكن أن يفعله .. فتقول الآية الكريمة :

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ ۗ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ ۗ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ ۗ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ ۗ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ ۗ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ ۗ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ ۗ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ ۗ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ ۗ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ ۗ

سورة البقرة من الآية ١٠٢

القوى الخفية في العالم

إذن فالخير ممتنع هنا .. لأن الله سبحانه وتعالى قد حدد لمثل هذا السحر ما يمكن أن يؤديه .. فهو يستخدم في التفرقة بين المرء وزوجه .. أو في بث الكراهية في العائلة الواحدة .. أو في ارتكاب الجرائم والسرقات .. المهم في أنه يستخدم فيما يضر ولا ينفع .. والضرر هنا يضر الاثنين معا .. من استخدم السحر .. ومن استخدم ضده السحر .. ولكن الله وقى من استخدم ضده السحر .. وطلب منه أن يستعيز به .. ويقراً « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات في العقد » .. ومن هنا وضع الله سبحانه وتعالى سياجا للوقاية للمؤمن .. فالاستعاذة بالله .. وقراءة القرآن الكريم وقراءة سورة الفلق .. ومن يفعل ذلك لا تمسه مثل هذه الأشياء .

على أنه في قول الله تعالى « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » .. معناها أن الذين يتعلمون هذه الأشياء يقع عليهم الضرر .. ذلك لأنهم استغلوا الفرصة غير المتكافئة في الشر .. ومن هنا فإن الذي يستعين بهذه القوى نجد أن رزقه قد وضع في يد من هم أدنى منه .. أى أن الله سبحانه وتعالى يرزقه على يد من هو أقل منه علما بتلك القوانين .. هذه واحدة .. والثانية أن الله يسلط عليه من استعاذ بهم من الجن .. فتحدث له الكوارث في نفسه وأولاده وبيته .. لا يستطيع أن يواجهها .. وتكون نهايته أسوأ نهاية .. فيموت فقيرا .. مصابا بالكوارث .. كافرا .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾

سورة الجن آية ٦

أى أنهم باستعانتهم بهذه القوى غير البشرية لا يزدادون خيرا ولكن يزدادون رهقا وعتنا .. ثم يصل بهم الحال إلى الكفر والعباد بالله وهكذا تكون الفرصة غير المتكافئة وبالا على صاحبها .. لا يرى فيها خيرا أبدا .. ولكن يعيش في بؤس وشر ورعب حتى ينتهي أجله كافرا .

القوى الخفية في العالم

فالسحر سواء كان بقانون البشر .. أو بقانون غير البشر .. لا يغير طبيعة الأشياء .. ولكنه بقانون البشر هو خداع للعين واسترهاب للنفس .. وبقانون غير البشر هو أشياء تحدث بقوانين مخلوقات أخرى يخيل لنا نحن المحكومين بقانون أدنى .. أن أشياء قد تغيرت .. ولكنها في الحقيقة لم تتغير .. بل تشكل شيئاً ما .. بين بصرك وبين حقيقة الأشياء .. وهى فى الحالتين استخدام لنوع من الخداع بقانون البشر .. أو بقانون غير البشر .. تسترهب الناس وتفتنهم وتسحر أعينهم فيخضعون لها .. والحقيقة أن السحر تخيل وسيطرة على المرء .. سواء بقوانين متساوية أو بالاستعانة بقوى أخرى .. والذي يحدث مجرد تخيل يوقع الإنسان تحت سيطرة الساحر .. ولكن ذلك كله لا يصيب الإنسان المؤمن .. لأن الإيمان يجعلك تعرف يقينا .. إنه لا يوجد جنس فى الكون يستطيع أن يغير طبيعة المادة .. والإنسان المؤمن الذى يستعيز بالله دائماً لا يمكن أن يصيبه كيد ساحر مهما كان .. لأن الله يدافع عن الذين آمنوا .. ويقىهم كل شر .. والإنسان الذى يريد الشر للمؤمن لا يصيب به إلا نفسه .. مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى « ولا يجتق المكر السيء إلا بأهله » .. ثم إن الله سبحانه وتعالى قد حكم على هؤلاء الذين يحاولون بالسحر خداع البشر واسترهابهم مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » .. أى أن الذين اشتروا بالإيمان خداع الناس واسترهابهم ليس لهم فى الآخرة عند الله أجر .. بل لهم عذاب مهين .. لما اشتروا الكفر بالإيمان .. والله سبحانه وتعالى لا يمكن كافراً من مؤمن .. فالذى يخيل إليه أنه بالسحر واستخدام الشر قد نجح .. يقول له إنك وقعت فى فتنة .. وتمضى الأيام .. ويجد الإنسان الذى أراد الشر بالناس أن هذا الشر يعود إليه ليصبح ذليلاً منبوذاً تسلط عليه الكوارث .. وتأتى الآخرة .. فإذا هو كافر ليس له فيها نصيب .

بقيت بعد ذلك مسألة الحسد .. يقول الله سبحانه وتعالى « ومن شر حاسد إذا حسد » .. ما هو الحسد .. الحسد هو تمنى زوال النعمة .. بمعنى إننى أرى

القوى الخفية في العالم

إنسانا في نعمة فأتمنى زوالها عنه . . وأعمل في سبيل ذلك . . ولكن هل للحسد علاقة بالعين . . علاقة مادية . . أو أن الأعمى لا يستطيع أن يحسد مثلا . . هذا خطأ شائع . . فالأعمى والمبصر كلاهما يستطيع الحسد . . أى تمنى زوال النعمة عن شخص آخر . . فالحسد متعلق بارادة الحاسد وليس ببصره . . والإنسان الذى يحسد . . يفعل ذلك اختيارا . . فأنت لست مكرها على الحسد . . ومكان الحسد هو القلب وليس العينين .

ولكن الذى يحسد . . لا يفهم معنى النعمة . . فالنعمة من الله سبحانه وتعالى ولا يوجد عبد تأتى إليه بعلم منه . . بل إن الله سبحانه وتعالى يفتح الأبواب أمام من يشاء ويجعلها صعبة أو مستحيلة أمام من يشاء . . تلك حقيقة يجب أن نفهمها . . النعمة من الله . . وللإبقاء على النعمة عليك أن تردد قول الله تعالى : « ما شاء الله . لا قوة إلا بالله » . . فى هذه الحالة تنتقل النعمة إلى واهبها الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى فيبطل الحسد .

ومرة أخرى يجب أن نتذكر أن الله سبحانه وتعالى . . قد وضع تكافؤ الفرص فى الكون . . وليس معنى أنه ميسر لك فى الرزق . . أو فى الجاه والسلطان . . إنك تملك أسباب الجاه والسلطان والتمتع . . فهناك من يملك المال وهو عاجز عن التمتع به . . وقد تضع أمامه أشهى الأطعمة ولكنه لا يستطيع أن يمد يده إلى لقمة واحدة مما أمامه . . لما يعانى من مرض . . وقد تأخذه إلى أجمل بقاع الدنيا ولكنه يجلس فيها حزينا كثيرا . . لا يحس بالجمال حوله . . وقد يعيش فى قصر كبير . . ويكون حارس هذا القصر أو من يخدم فيه أكثر تمتعا من صاحب القصر نفسه . . أكثر تمتعا بالحياة والجمال فى هذا القصر . . إلى آخر ما نراه فى الدنيا كلها . . وقد يجعل الله الإنسان الذى يملك كل أسباب الدنيا محتاجا إلى من هم أدنى منه . . وربما حاجة تنغص عليه حياته .

والفرص المتساوية قد تخفى علينا ونحن نبحث عن المال والجاه . . ولكننا يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد وهب إنسانا نعمة المال . . وإنسانا نعمة

القوى الخفية في العالم

الصحة .. وإنسانا نعمة البركة .. وإنسانا نعمة اليسر في الرزق .. ومن فقد شيئا عوضه الله عنه بأشياء .. ففاقد البصر له أذن مرهفة تعوضه عما فقد .. وفاقد الحركة قد يعطى ذكاء خارقا يجعله أعلى بكثير ممن يتحركون في الحياة .. والأشياء هنا تمشي بمقدار .. فإذا كانت الفرص غير متكافئة ظاهرا فذلك لا يخل بتكافؤ الفرص في الحقيقة فربما يتمتع إنسان عاجز عن شيء بعطف الناس كثيرا مما يجعله ميسرا في حياته عن كثيرين .

● معنى الحسد

والحسد هو تمنى زوال النعمة .. وهذا التمنى قد يأتي بأن تعمل أنت على تعطيل الأسباب التي تؤدي للنعمة ظاهرا .. كأن يكون لإنسان أرض وافرّة الانتاج كثيرة الرزق تحسده عليها .. فتأتي وتغرقها أو تقلع الزرع منها .. أو يكون لإنسان بيت جميل أو سيارة فاخرة فتأتي لتحرقها .. وقد يكون هذا التمنى بالدعاء دون الفعل .. أو يكون من داخل النفس بحيث يؤثر على المحسود .. فيوجد في داخله ما يؤرق عليه حياته بمجرد احساسه أن هناك من يتربص به ويتمنى زوال نعمته ويعمل على ذلك .

وإذا كان للحسد أشكال مختلفة . كما للسحر .. فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهما .. ومادام الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهما .. فهما موجودان في الكون .. ولا يمنع وجودهما إنها شيئان غير ماديين لا يمكن أن نضعهما في المعمل ونجرى عليهما التجارب العلمية .. فما هو فوق المادة وما لا تراه العين موجود في الكون لا يستطيع أحد أن ينكره ولقد تعرضنا لهذه النقطة بالتفصيل وشرحنا أن هناك أشياء لم نكن نعلم بوجودها في الماضي نراها الآن رؤيا العين .. وأشياء لم تكن في قدرة العقل البشري منذ مئات السنين قد أصبحت الآن في قدرة هذا العقل . يستطيع أن يدركها ويستوعبها كحقائق موجودة وملموسة .. والإنسان سواء مارس السحر .. أو كان حاسدا .. فكلاهما معصية لله سبحانه وتعالى .. فممارس السحر يريد أن ينتهي بأن يحقق لنفسه خيرا .. ولكنه ينتهي

القوى الخفية في العالم

وقد أحاط به الشر من كل جوانبه . . وأصبح الخير ممتنعاً تماماً . . والحاسد يتمنى زوال نعمة غيره ، وهو في هذه الحالة لن يستفيد شيئاً . . فالذى يغرق زراعة غيره أو يهلك أرضه . . أو يحرق بيته . . لن يعطيه الله هذه الأرض أو هذا البيت . . وهو في الحقيقة ظالم لنفسه . . أى أنه لم يعطها شيئاً تنتفع به . . ولو شيئاً عاجلاً . . ولكنه في نفس الوقت أعطاها الإثم الذى يوردها مورد الهلاك في الدنيا والآخرة . . وكان الأحرى بالحاسد أن يعرف أن النعمة من الله سبحانه وتعالى وإن الله عنده خير كثير . . وأنه يستطيع أن يعطى كلاً منا ما يريد دون أن ينقص ذلك من ملك الله شيئاً . . ومن هنا فكان الأحرى به أن يتجه إلى الله سبحانه وتعالى ليطلب منه ما يشاء . . ولكنه بدلاً من ذلك يتمنى زوال نعمة الغير . . ولو أن هذا المال . . أو الجاه . . أو السلطان . . أو الصحة سيذهب إلى الحاسد لقلنا ربما يبحث عن نفع عاجل . . ولكن الحاسد أول من يعلم أنه لا يصله شيء من هذا . . وهو في تصرفه إنما ينسب النعمة إلى المنعم عليه . . ولو أنه كان مؤمناً حقاً لنسب النعمة إلى خالقها . . ولعرف أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى . . فكأن الحسد هو اعتراض من الحاسد على ارادة الله سبحانه وتعالى فى أن يهب نعمه لمن يشاء . . والاعتراض على الارادة هنا . . نوع من الكفر . . فهو لا ينكر أن الله هو المنعم فقط . . ولكنه يعترض على الارادة التى أعطت النعمة .

والحقيقة أن حسد النعمة- قد لا يصيب إلا الحاسد بحسده . . فمادام المنعم عليه يستعيز بالله سبحانه وتعالى . . وينسب النعمة إلى المنعم نفسه وهو الله لا يصيبه شيء . . ومادام لم يغتر وقال « إنما أوتيته على علم عندي » وينسب فى الأرض فإنما النعمة تبقى مادامت منسوبة إلى المنعم . . وتزول عندما ينسبها إلى نفسه . . فالإنسان الذى يقف متباهياً بغرور ويقول أنا فعلت هذا بذكائى وقدرتى . . يقول له الله سبحانه وتعالى مادمت قد أشركت معى شريكاً هو ذاتيتك وذكائك فأنا أغنى الشركاء عن الشرك ويتركه فتزول عنه هذه النعمة وتذهب لأنه بذاته لا يستطيع أن يحقق شيئاً . . ولكن ما يحققه هو بفضل من الله

القوى الخفية في العالم

الذى يوفقه ويهديه .. وينير له الطريق .. ويمنحه الأسباب التى تجعل هذه النعم خاضعة له .. ولوزالت بركة الله من المال لذهب فيما لا ينفع .. ولوزالت بركة الله من الصحة لكان هناك المرض .. ولوزالت بركة الله من أسباب الرزق لأصبحت هذه الأسباب لا تعطى شيئاً رغم كل الجهد الذى بذله ويذله الإنسان .

● الناس فريقان

ويجب أن نعلم أن الناس فريقان .. فريق معتمد على الله .. ينسب الفضل دائماً لله .. وهذا الفريق لا تزول عنه نعمه .. ولا يضره سحر .. ولا يحسد ماله حاسد .. لأنه محاط بسياج من الله سبحانه وتعالى .. وفريق آخر ينسب الفضل لنفسه وهؤلاء إنما يصيبهم زوال النعمة وغيرها لأنهم قد نقلوا القدرة من الله سبحانه وتعالى إلى قدرة البشر .. وفرق هائل بين القدرتين .

إذن فالله يطلب منا سبحانه وتعالى أن نستعيد به من أشياء .. وهذه الأشياء إن لم تكن شراً مطلقاً فهي شر لنا .. ومادام الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعيد به من هذه الأشياء فهو يعلم أن قدراتنا لا تستطيع أن تواجهها .. لأننا لا نعلم شيئاً عن قوانينها .. فالشياطين مثلاً ترى الإنسان وهو لا يراها .. وكذلك الجن .. وجهلنا بقوانين هذه المخلوقات وعدم رؤيتنا لها .. يجعلنا عاجزين عن أن نواجهها بقدرات الدنيا .. وفي هذه الحالة طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نلجأ إليه فيمنع عنا بقدراته هذه الأشياء .

والسحر هو خداع للبصر واسترهاب للنفس .. إما بقوانين الأرض .. واستخدام الجماجم والأصوات المزعجة .. وخفة اليد والحيلة .. وإما بقوانين الجان بالتشكل .. ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء .. والله سبحانه وتعالى حين طلب منا أن نستعيد به من هذه الشرور كلها .. ورفع القدرة والأمر إليه .. فهو دليل على أنها فوق قدرة العلم البشرى .. فلا نجادل فيها بطريقة معملية مادية .. وإنما نأخذها على أساس إخبار الله لنا بها .. خصوصاً وقد عرفنا أنها

القوى الخفية في العالم

غيب عنا . . وكل إنسان مهما بلغ من العلم . . يجد في نفسه استجابة لهذه الأشياء . . وعليه أن يستعيد بالله منها . . ومادام الشيء قد خرج عن علم البشر . . ومادام ليس في قوتك ان تدفعه عنك . . فإن الله سبحانه وتعالى يطلب منك أن ترفع الأمر إليه . . فيواجهه هو بقدراته .

وهناك كلمة أخيرة . . إن شر ما يصيب النفس البشرية هو الوسوسة . . أى الاستماع إلى اغراء الشياطين وقوى الشر . . وليس معنى أن الله أخبرنا بهذه الأشياء أن يدخل الخوف والوسوسة إلى قلوبنا . . بل معناه أن نحس باطمئنان كامل لقدرة الله ، واننا معه في أمان تام . . لأن الله يدافع عنا . . ولا يدخل إلى قلوبنا لحظة أن هناك قوة أو قدرة تستطيع أن تجب قدرة الله سبحانه وتعالى . . مهما كانت . . وان رحمة الله قد أصابتنا حين نستعيد به من هذه الأشياء . . فهذا العلم الذى أنزله الله لنا هو سياج الأمن الذى يحفظنا من كل سوء . . ويبعد عنا كل شر . . ولا تصدق دجالا . . أو أفاقا . . يوهمك أنه يستطيع أن يؤذيك أو يضرك . . وأنت محاط بسياج من قدرة الله . . وحتى أولئك الذين أوتوا العلم بهذه الأشياء . . إنما أوتوا الشر الذى يحيط بهم وينهى حياتهم أسوأ نهاية .

على أن بعض الناس يتعلق بالأسباب وحدها . . ويعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الكون ووضع له قوانين . . ثم تخلى عنه . . ولكن هذا غير صحيح . . فالله سبحانه وتعالى قائم على ملكه إلى يوم القيامة . . وطلاقة القدرة باقية في الكون مع الأسباب . . وهذا حديثنا في الفصل القادم .

الفصل الثالث

طَلَاقَةُ الْقُدْرَةِ فِي الْكُوفِيِّ

طلاقة القدرة في الكون

الله سبحانه وتعالى خلق ما في الأرض جميعا .. وخلق لها الأسباب التي تتفاعل بها .. والقوانين التي تحكمها .. والله سبحانه وتعالى حين قال « كن » .. تم الخلق في نفس اللحظة .. ولكن الأسباب تفاعلت في السموات والأرض في ستة أيام .. وهي ستة أيام كأيام البشر لأن القرآن يخاطب الإنسان .. ومن هنا فإن كل ما يتحدث عنه موجه إلى القدر البشري .. والعقل البشري .. سواء كان ذلك حاضرا أم مستقبلا مما يخفى على عقولنا الآن .

ولكن هذه القوانين والأسباب لا يمكن أن تكون قيادا على طلاقة القدرة .. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لو قضى بالأسباب وحدها في الأرض .. لعبد الناس الأسباب .. ونسوا المسبب أو الخالق .. لذلك بقيت طلاقة القدرة لتلفت الناس إلى أن الذي خلق الأسباب لا تقيد هذه الأسباب في قدرته .. وإنه يفعل ما يشاء .. عندما يشاء .. وقتها يشاء .. لذلك نجد إنسانا يكذب ويكدر كثيرا .. ومع ذلك فهو ضيق الرزق .. وإنسانا آخر يعمل قليلا ومع ذلك فرزقه وفير ..

وإنسانا ضعيفا ينتصر بقدرة الله على إنسان قوى ظلمه .. تلك ليست القاعدة .. فالقاعدة هي الأسباب .. ولكن طلاقة القدرة .. تأتي .. وتأتي بشكل ظاهر لتلفت الناس إلى قوة الله وقدرته .

إن هذا الحديث لا يعجب أناسا كثيرين من أولئك الذين تعلقوا بالحياة المادية .. ذلك لأنهم ينسبون إلى الإسلام أنه دين يحض على التخلف بسبب الإيمان بطلاقة القدرة .. ويقولون إن قول الله تعالى « يرزق من يشاء بغير حساب » .. هو مدعاة لثلا يسعى الإنسان في الرزق .. فإدام الله يرزق من يشاء بغير حساب .. فلماذا العمل والتعب .. ولماذا السعي وراء الرزق .. مع ما يورثه للنفس من مشقة ومما تكره .. وقبل أن نجيب على هذا السؤال .. نطرح قضية هامة معاصرة .. تفتيق هؤلاء الناس إلى صدق قول الله وتجعلهم يعرفون يقينا صدق الآية الكريمة « يرزق من يشاء بغير حساب » .. هؤلاء

طلاقة القدرة في الكون

الذين يطعنون الدين في هذه الآية .. يعبدون الأسباب ويتخذونها إلهًا .. فكل رزق مساوٍ للعمل الذي يتم من أجله .. فأنت إذا عملت ليل نهار .. زاد رزقك .. وإذا عملت بضع ساعات مثلاً قل رزقك .. وهكذا .. تلك هي القاعدة التي يتبعونها في أن كل رزق يجب أن يكون مساوياً للعمل الذي يتم من أجله .

نقول لهم .. إن هذا قد يكون صحيحاً كقاعدة عامة .. ولكنه لا ينفي قول الله تعالى « يرزق من يشاء بغير حساب » .. ولنلاحظ في الآية الكريمة قول الله « من يشاء » .. ولم يقل سبحانه وتعالى أرزق كل الناس بغير حساب .. بل لكل رزق معلوم على قدر ما أتاه الله من عمل وجهده له .. ولكن هناك المشيئة .. أو طلاقة القدرة .. تعطى بغير حساب .. أو بغير أسباب .

وإذا نظرنا إلى دول البترول .. تلك التي تملك القوة الحقيقية في المال أو في الرزق في العالم أجمع .. إذا نظرنا إليهم .. نجد أنهم أكثر الناس رزقاً أو مالا .. بل هم قد فاقوا في الرزق تلك الأمم التي فاقتهم في العمل والعلم .. وأصبحت تتجه إليهم ليدعموها في الرزق .. فأمريكا وأوروبا الغربية من أكثر الدول عملاً وعلماً .. ولكنها في اقتصادها تتجه إلى دول البترول لتقترض منها البلايين .. لتدعم اقتصادها .. وتحاول أن تجذب أموال دول البترول لتستثمر في بنوكها .. بل إن دول البترول تستطيع أن تفلس أكبر دول العالم كأمريكا وألمانيا الغربية واليابان .. إذا هي سحبت دعمها الاقتصادي لها .. وأوقفت مشترياتها منها .

إذن من الذي يملك القوة الاقتصادية الحقيقية في العالم .. إنها دول البترول .. فهي التي تملك المال أو الرزق حقيقة .. وهي التي تستطيع أن تتحكم ليس في رزقها فقط .. ولكن في اقتصاد العالم كله .. وذلك بشهادة كل الماديين وغير المؤمنين في العالم .

طلاقة القدرة في الكون

● يرزق من يشاء

بقي بعد ذلك الشق الثاني من السؤال .. وهو إذا كانت دول البترول قد وصلت إلى هذا المركز الذي يتحكم في اقتصاد العالم أجمع .. فلا بد أنها قدمت حسب النظرية المادية من العلم والعمل ما يفوق ما قدمته دول العالم أجمع .. ولكن هذا غير صحيح .. فهذه الدول تقدم علما وعملا .. بل إن اكتشافات البترول قامت بها شركات غربية من الدول التي تخضع الآن اقتصاديا لدول البترول .. أى أنه حتى العمل القليل الذي تم .. تم بواسطة خبراء .. جاءوا وبحشوا .. وآلات ومعدات تكنولوجية استوردت من دول أخرى .. فكيف إذا لم يكن الله سبحانه وتعالى « يرزق من يشاء بغير حساب » .. كيف يمكن تفسير ما هو حادث .. لو أن القاعدة على إطلاقها أن الأسباب هي التي توجد الرزق لما كان ذلك يمكن أن يحدث .. ولما كانت دول البترول تستطيع أن تكون أكبر قوة اقتصادية في العالم .. وفي زمن قياسي .. لا يستطيع العمل والعلم خلاله أن يحدثا ذلك .. فلكي تتطور دولة .. أو عدة دول .. لتصبح أغنى دول العالم .. فإن ذلك يتطلب بجانب العمل والعلم فترة زمنية طويلة .. ولكن هنا .. لا الزمن .. ولا العلم .. ولا العمل تتناسب مع الرزق .. إذن من الذي أوجد هذا الرزق .. الله سبحانه وتعالى مصداقا للآية الكريمة « يرزق من يشاء بغير حساب » .

هنا يجب أن يتوقف الحكم المادى الغربى الذى يأخذ الأسباب على إطلاقها .. والذى يطعن فى الآية الكريمة « يرزق من يشاء بغير حساب » .. ويدعى أنها لا تتماشى مع تطورات العصر .. وتقدم العلم ومقاييس الزمن .. نقول له قبل أن تتسرع فى اتهامك .. تأمل فى الكون .. تجد فى كل مكان رزقا لمن يشاء الله بغير حساب .. هذا الرزق يلقي بالأسباب بعيدا .. لتأتى طلاقة القدرة وتعلن أن الله يفعل ما يشاء .. عندما يشاء .. وقتها يشاء .. وأنه إذا كانت الأسباب موجودة .. فإن طلاقة القدرة موجودة فى الكون .. وأعتقد أنه

طلاقة القدرة في الكون

لا أحد يستطيع أن يرد على هذه النقطة .. أو يدعى ظلما ويغير حق أن الآية الكريمة « يرزق من يشاء بغير حساب » .. ليست حقيقة كونية .. موجودة منذ خلق الله الأرض .. وستظل إلى قيام الساعة .. ونحن نطلب من كل من يستطيع الرد على ذلك أن يتكلم ..

نعود بعد هذه اللمحة إلى طلاقة القدرة .. لماذا أبقى الله سبحانه وتعالى طلاقة القدرة في الكون ولم يتركه يتفاعل بالأسباب وحدها؟ الذي حدث .. أن الأسباب .. أو المعطيات المادية .. تعطينا ظاهر الحياة .. وتنظم سيرها العادي .. ولكن إبقاء هذه الأسباب وحدها فيه بعد عن الله سبحانه وتعالى .. ذلك أن الله قد مكن بعض خلقه من الأسباب في الأرض .. ليسير الكون .. وتمضي الحياة .. فهذا رئيس للدولة .. وهذا ميسر له أسباب النفوذ والسلطان .. وهذا ميسر له أسباب المال .. إلى آخر ما نراه في الدنيا كلها .. وجعل الله العطاء ظاهرا من الأسباب ليسير الكون .. ثم ماذا حدث .. جاء إلى الكون أناس ماديون .. يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله بالأخذ بالأسباب وحدها .. فهذا يملك المال وهو يستطيع منحى ما أريد إذا فعلت له ما يطلب .. وهذا يملك الجاه والسلطان .. وهو يستطيع أن يعطيني منه ما أريد إذا فعلت له ما يطلب .. وهكذا ظاهر الحياة الدنيا .

هب أن هؤلاء الناس لا يخشون الله .. انهم قد طلبوا مني أن أفعل ما يغضب الله من أجل منصب .. أو جاه .. أو مال .. فإذا يكون الموقف .. لو كنت أعبد الأسباب وحدها لنفذت لهم ما يريدون .. لأصل إلى حاجتي .. أو ما أريد .. فإذا قال لي صاحب المال .. أو صاحب النفوذ والسلطان اقتل وسأعطيك كذا وكذا .. لفعلت ذلك بلا تردد .. إحساسا مني بأن عطاء الأسباب في يد هذا وحده .. وأن معصيته ستؤدى بي إلى التهلكة وتحرمني من مقومات الحياة .. وأن طاعته ستجعلني أعيش الحياة الرغدة التي أتمناها في الدنيا .. وبهذا .. وبغير ما نظر إلى ما قال الله افعل ولا تفعل .. انطلق أنا

طلاقة القدرة في الكون

لأحقق هوى وشهوات .. ذلك الذى يملك المال أو الجاه أو السلطان .. ولو كانت تغضب الله .. وتمضى الأسباب لتؤدى إلى عبادة الفرد .. حيث يصبح الهوى الشخصى .. والغرض البشرى .. هما الأساس فى الحياة .. فيفسد الكون كله .. ولا تمضى الحياة وفقا لمنهج الله الذى يحمى الانسان الضعيف من بطش القوى .. والمظلوم من قدرة الظالم .. ولكنها تكون حياة وفقا لهوى النفس .. فيصبح الذى يحكم هو شهوة الحاكم وليس دين الله ..

هذه هى خطورة الأخذ بالأسباب وحدها .. وهى خطورة تعرض الكون كله للاختلال .. وتضيع موازين العدل .. وتكثر من البغى فى الأرض والفساد .. وما من أمة عبدت الفرد إلا وانتشر فيها الظلم .. وعم فيها الارهاب .. وضاع فيها الحق واستعبد فيها الإنسان .. تلك حقيقة تستطيع أن تدركها إذا نظرت إلى أى دولة نصب حاكمها نفسه إلهًا . يعبد من دون الله فى الأرض .. وهى حقيقة منذ بدء التاريخ فى عهد فرعون حتى عصرنا هذا .. والله سبحانه وتعالى قد شدد العذاب على أولئك الذين يعاونون هذا الحاكم .. ويفعلون له ما تهوى نفسه ويغضبون الله سبحانه وتعالى .. فخص آل فرعون دون سائر خلقه بأنهم منذ ساعة أن توفاهم حتى يبعثهم يوم القيامة يعرضهم على النار صباحا ومساء .. فقال سبحانه وتعالى :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ

أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

سورة غافر آية ٤٦

أى أنه لم يختصهم فقط بأشد العذاب يوم القيامة .. بل زادهم بالعرض على النار غدوا وعشيا إلى يوم البعث .. وتشديد العذاب هنا متناسب مع شدة المعصية .. فعبادة الفرد هى اطلاق للشهوات والظلم والإفساد ..



● الأسباب وحدها .. لا

إذن فإطلاق الأسباب وحدها في الكون .. يؤدي إلى عبادة الفرد .. وإلى ظلم عظيم .. ويجعل الناس يعبدون الأسباب .. وينسون المسبب ويخضعون لمن في يده الملك والسلطان .. والجاه والمال .. ويتركون حكم الله .. لماذا؟ لأن الأسباب هنا هي التي تعطي .. وهي التي تهب .. وما يهب ظاهرا يعبده الناس .. لأنه ظاهرا يعطي ويمنع .. ومن هنا كان لابد من طلاقة القدرة لتصحيح المسيرة .. وتفيق الناس .. وتجهلهم يعلمون أن الله هو الذي أعطى الأسباب .. وأنه يستطيع كما أعطاها أن يأخذها .. وأن العبادة لله وحده .. وأن من ترك المسبب وعبد الأسباب .. فإنه قد ضل .. ونسى الله ..

ولذلك فنحن نتعجب من إنسان يملك أمور الدنيا كلها من قوة وجاه ومال وسلطان .. ثم يأتي إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة فيقصيه عن ملكه ويبعده عن ماله .. ويصبح ذليلا طريدا .. تضيق عليه الأرض بما رحبت .. بعد أن كان يملك من أسباب القوة والملك ما يجعل الدنيا كلها تخضع له وتتقرب إليه ..

ونحن نرى كل يوم طلاقة القدرة في العالم كله من ملك يذهب .. وملك يجيء .. ومن صاحب سلطان أو مال .. يصبح فقيرا معدما أو مطرودا في ساعات .. ومن ذلك الذي كان يجلس على كرسي الوزارة .. ثم بعد ذلك بساعة نجده في السجن والقيود في يديه .. كل ذلك يحدث أمامنا ليذكرنا بطلاقة القدرة وقوة المشيئة .. ويؤكد لنا أن الأسباب التي أعطيت لأي بشر .. لتمكن له ملكا .. أو جاها .. أو سلطانا .. إنما هي أسباب معطاة من الله سبحانه وتعالى .. وليست باجتهاد هذا الشخص أو نابعة من ذاته .. بحيث إذا أراد الله .. زالت هذه الأسباب .. ولو كانت الأسباب ذاتية .. أي تنبع من الإنسان نفسه لبقيت له .. ولم يستطع أحد أن يأخذها منه .. ولكن كونها تزول عنه وفي لحظات دليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذي وهبه هذه الأسباب .. وهو الذي أخذها منه ..

طلاقة القدرة في الكون

ولا تقتصر طلاقة القدرة على قمة الأمور في الدنيا .. بل هي في أكبر الأشياء وفي أبسط الأشياء .. ولا تقتصر على فرد دون آخر .. بل يراها الجميع .. وكل منا صباح في يوم من الأيام (ربنا كبير) .. أو (ربنا موجود) .. أو (ربك يمهل ولا يهمل) وهو يرى طلاقة القدرة تتدخل لتنصر مظلوما ضعيفا على ظالم قوى .. أو تقتصر من إنسان ارتكب جريمة وحسب أنه نجا من العقاب .. أو لتعيد حقا ضاع من صاحبه وحسب الناس أنه ضاع إلى الأبد .. أو لتزيل ظلما .. أو لتقعد جبارا كان يؤذى الناس لتجعله عاجزا عن رد الأذى عن نفسه .. تلك كلها طلاقة القدرة وكلمة (يارب) التي تخرج من قلب مظلوم لا حول له ولا قوة يتبعها تدخل السماء لتزيل ظلما وتعيد حقا .. وتصحح الموازين في الأرض ..

وإذا كانت طلاقة القدرة باقية في الكون .. فأساس بقائها أنها تذكرنا بالله سبحانه وتعالى .. فإذا وعدك ظالم بأخذ أسباب المال مقابل أن تفعل له ما يغضب الله فإن طلاقة القدرة تذكرك بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب .. وإنك إذا عصيت هذا الظالم وأطعت الله .. فإن الله يعطيك من الرزق ما لا يخضع للأسباب .. ويفتح لك أبوابا ما كنت تدري عنها شيئا .. ومن حيث لا تعلم يأتيك الرزق الذي تريده .. وإذا طلب منك صاحب جاه أو سلطان أن تفعل ما يغضب الله فإن طلاقة القدرة تذكرك بأنك إذا أطعت الله أعطاك هذا المنصب أو خيرا منه .. وأنه إذا كان هذا الإنسان يملك الأسباب التي تجعلك تخاف ألا تصل إلى ما ترجوه .. فإن الله سبحانه وتعالى يملك طلاقة القدرة التي تعطيك بلا حساب .. وبهذا تعرف جيدا أن من يغريك : هذا بماله .. وهذا بسلطانه .. هما سببان زائلان .. وأن طلاقة القدرة لا يهمها هذه الأسباب .. ولا تتقيد بها ..

● الله يذكرنا بقدرته

على أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل طلاقة القدرة غيبا عنا .. ولا جعلنا نجهلها ولا نعرف عنها شيئا .. بل ذكرها في مواضع كثيرة من القرآن

طلاقة القدرة في الكون

الكريم .. بحيث نجد في كل سورة اشارة إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .. فإذا قرأت قوله تعالى « يختص برحمته من يشاء » .. « يعذب من يشاء » .. « يغفر لمن يشاء » .. « يهدي من يشاء » .. « يضل من يشاء » .. « يرزق من يشاء » .. « يعز من يشاء » .. « يذل من يشاء » .. « يؤتى الملك من يشاء » .. « ينزع الملك ممن يشاء » .. « إن الله على كل شيء قدير » .. نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا طلاقة القدرة في هذه الآيات وفي عشرات من الآيات الأخرى في القرآن الكريم .. وليست هذه الآيات إلا مثلاً فقط على أن طلاقة القدرة يشار إليها في القرآن الكريم في أكثر من موضع .. ولوقرأت القرآن لوجدت أضعاف أضعاف هذه الآيات تنبئنا بطلاقة القدرة .. على أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل طلاقة قدرته سرا على عباده .. بل أنبأهم بطلاقة هذه القدرة ووجودها .. ولعل الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .. هو قمة طلاقة القدرة .. ذلك أن هذه الآية تنبئنا أنه ليس عند الله أسباب .. وأنه إذا كان قد خلق الأسباب لتنظيم الحياة على الأرض فهي ليست قيدياً على مشيئته سبحانه وتعالى .. ولو كانت قيدياً لقال لنا الله إنه إذا أراد شيئاً هياً له الأسباب ليكون .. ولكن كلمة « كن » معناها أنه لا دخل للأسباب هنا .. وأن الشيء يوجد بمجرد قول الله سبحانه وتعالى « كن .. فيكون » دون أسباب أو مسببات .. وخلق السموات والأرض وما فيها كان بكلمة « كن » .. وخلق الإنسان كان بكلمة « كن » .. والله سبحانه وتعالى يقول : « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور » ويقول : « ويجعل من يشاء عقيماً » .. والحكمة هنا أنه رغم أن الله سبحانه وتعالى قد جعل السبب في الذرية من ذكر وأنثى .. أى أنه لا يتم الانجاب إلا باجتماع الذكر والأنثى .. إلا أن طلاقة القدرة تجعل من يشاء عقيماً .. أى أنه رغم اجتماع الذكر والأنثى لا يتم الانجاب .. وتتوقف الأسباب أمام مشيئة الخالق ..

هذا ما قاله الله سبحانه وتعالى عن طلاقة القدرة في القرآن الكريم .. فإذا جئنا إلى التطبيق .. وجدنا أن طلاقة القدرة ظاهرة واضحة في الرسل عليهم

طلاقة العذرة في الكون

السلام .. فمعجزاتهم كلها تأتي بطلاقة القدرة وليس بالأسباب .. فنوح عندما دعا ربه أن يهلك الكافرين .. فتحت ينابيع من السماء والأرض ليتم الطوفان .. ولم تفتح هذه الينابيع بالأسباب .. ولكنها فتحت بطلاقة القدرة .. وإبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار .. وخاصية النار هي الإحراق .. قال الله سبحانه وتعالى « يا نار كون بردا وسلاما على إبراهيم » .. فتوقفت خاصية الإحراق في النار فأصبحت لا تحرقه ولا تؤذيه .. هنا أيضا طلاقة القدرة .. وموسى عليه السلام عاش مع طلاقة القدرة طوال عهد نبوته .. نظرا للمعصية المستمرة لبني إسرائيل .. فقد قال الله « اضرب بعصاك البحر » .. فانفلق .. وظهر قاعه ووقف الماء الذي من خاصيته الاستطراق .. وقف ساكنا بعيدا عن الأرض بقدرة الله سبحانه وتعالى .. وعبر موسى وقومه البحر .. وعندما حاول فرعون العبور عادت نظرية الاستطراق إلى الماء فأغرقتة هو وجنده .. وعندما استسقى موسى قومه .. ضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا .. ولو أن موسى عليه السلام قام بحفر حفرة ليبحث عن الماء .. لقلنا إنه اتخذ الأسباب .. ولكن لمجرد ضربه الحجر بعصا انفجر منه الماء .. لا عين واحدة .. ولكن اثنتا عشرة عينا .. ذهبت كل عين بمائها إلى القوم الذين قسمها الله لهم .. ورفع الجبل فوق بني إسرائيل وضربهم الميت بأجزاء من البقرة بعد ذبحها .. أي ضرب ميت بميت .. وتخرج منها الحياة .. ويبعث القليل ليدل على قاتله .

● هو على هين

كل هذه معجزات لا يمكن أن تدخل فيها الأسباب .. بل هنا تتجلى طلاقة القدرة في أن يقول للشيء « كن فيكون » .. ثم تأتي بعد ذلك طلاقة القدرة في زكريا ومريم .. حينما دعا زكريا الله أن يهبه غلاما « فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله ييشرك بيحيى »

« يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » هنا أخذت زكريا طلاقة القدرة فاهتز .. وسأل الله سبحانه وتعالى كيف يمكن أن يحدث

طلاقة القدرة في الكون

ذلك وهو شيخ كبير وامراته عاقر أى أن الأسباب إذا طبقناها هنا لا يمكن أن تؤدي إلى مولد طفل .. حينئذ رد الله سبحانه وتعالى عليه « هو على هين . وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .. أى أن الله سبحانه وتعالى ذكر زكريا بطلاقة القدرة فقال له لا تعتقد أن هناك شيئا صعبا على لأن الأسباب لا تأتى به .. بل من أهون الأشياء على قدرتي أن أفعل ما أريد .. ويتم ما أشاء بدون أسباب .. وإذا كان هذا صعبا على فهمك .. فتذكر خلقك .. « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .. فإذا كانت قدرتي أن أوجد من العدم .. أفلا أستطيع أن أخلق بلا أسباب ..

وعندما دخل زكريا المحراب على مريم وجد عندها رزقا .. أى فاكهة في غير أوانها .. فسألها « أنى لك هذا » أى من أين أتيت بهذه الفاكهة وهذا الطعام .. فقالت « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .. إشارة إلى أن طلاقة القدرة لا يستعصى عليها شيء ..

بل إن خلق المسيح عيسى ابن مريم كان من طلاقة القدرة .. والله سبحانه وتعالى خلق آدم من لا شيء .. وخلق حواء من آدم .. أى أنشى من ذكر بلا أنشى .. وخلق من ذكر وأنشى .. ولاتمام مراحل الخلق بقى أن يتم الخلق من أنشى بدون رجل .. وقد تم ذلك فى عيسى ابن مريم عليه السلام .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الاسراء والمعراج نجد أنها معجزة كبرى دالة على طلاقة القدرة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم أسرى به من مكة المكرمة إلى بيت المقدس .. حيث صلى بالأنبياء .. وهى طلاقة فى القدرة أن يصلح حتى بأولئك الذين انتقلوا إلى جوار ربهم منذ مئات السنين .. ثم بعد ذلك انطلقت به طلاقة القدرة ليخترق السموات السبع .. ويصل إلى سدرة المنتهى .. وهذا الانطلاق كان فيه تغيير لطبيعة الأشياء حتى يمكن لرسول الله أن يصل إلى سدرة المنتهى .. بل إن الوحي نفسه من طلاقة القدرة أن يلتحم الملك بإنسان ليتم تبليغ القرآن الكريم ..

طلاقة القدرة في الكون

كل هذه الأشياء في مجموعها .. هي تطبيق حي لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .. فالله لم يذكر لنا طلاقة القدرة في القرآن الكريم .. دون أن يعطينا أمثلة على التطبيق .. متواكبة مع رسله .. تؤيدهم هذه القدرة بالمعجزات التي رواها لنا القرآن الكريم ..

على أن طلاقة القدرة لم تتوافر للرسل وحدهم .. بل هي في كل جزء من الحياة .. وإذا أردنا أن نتأمل طلاقة القدرة في مظاهر الدنيا .. فلنأخذ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

سورة البقرة آية ٢٦

إذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجد أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلا ببعوضة ، والمثل هنا كالأمثلة في القرآن الكريم لا تضرب جزافا .. ولكن لحكمة بالغة .. حين ضرب هذا المثل قال الكفار ماذا أراد الله بهذا مثلا ولم يفهموا شيئا .. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضرب مثلا بدقة الخلق .. فإن خلق البعوضة المتناهية في الصغر بكل الوظائف اللازمة لها في الحياة .. دقة في الخلق تستوجب خالقا قادرا .. فهذه البعوضة الصغيرة الحجم .. قد جعل الله فيها كل أسباب الحياة .. وما فوقها .. أي ما أصغر منها وأدق في الخلق .. خلقه الله ووضع فيه أسباب الحياة .. واستمرار الحياة .



● لا تستهينوا بالخلق ..

وهنا حكمة بالغة .. ان الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا ألا نستهين بال مخلوقات الدقيقة التي خلقها لصغر حجمها وضآلتها .. بل انه كلما زادت دقة المخلوق كان بأسه شديدا .. وكلما زادت ضخامة المخلوق فليس هذا بالضرورة دليلا على القوة .. وإذا أخذنا بهذه النظرية .. وعدنا إلى بداية الخلق .. نجد مثلا أن الحيوانات الضخمة التي عاشت في القرون الأولى على الأرض كالديناصور مثلا قد هلكت وانقرضت ولم تستطع أن تعيش العصر الجليدي الذي ساد الكرة الأرضية .. هذه الحيوانات المرعبة التي كانت تزلزل الأرض .. لم تستطع أن تتغلب على الطبيعة .. بينما البرغوث والنملة مثلا قد عبرا هذه العصور حتى عصرنا هذا .. ويقول العلماء وهم يفسرون هذه الظاهرة .. إن الحيوانات الضخمة في أجسامها كانت تملك عقولا صغيرة .. لم تتمكن من التحايل على البيئة ولذلك هلكت .. هذا هو تفسير العلم .. ولكن التفسير الإيماني يقول .. ان الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن البقاء لا يخضع لعنصر القوة .. وإنما يخضع لعنصر القدرة وأن الأشياء القوية .. أو ذات القوة الهائلة التي تظن أنها ستسود الأرض إلى الأبد .. تأتي قدرة الله سبحانه وتعالى فهلكها .. بينما تبقى الأشياء الصغيرة التي لا ترى بالعين المجردة .. فالفيروس مثلا الذي لا يستطيع أحد رؤيته حتى الآن لتناهي حجمه في الدقة .. أقوى من الفيل والأسد وعقل الإنسان وكل قدرات المخلوقات على الأرض .. فهو يستطيع أن يقضى على أي من هؤلاء ، فالكل يقف عاجزا أمامه .. وهو يعيش ملايين السنين مع ضآلة حجمه وتناهيه في الصغر .. وهذه الفيروسات تستطيع أن تسلب الحياة من شعب بأسره .. ومن أمة تختال على الناس بقوتها .. فيسلط الله سبحانه وتعالى هذه الفيروسات التي لا ترى وتنتشر بين أفراد هذه الأمة كوابد يفنيها .. هنا طلاقة القدرة التي تعطي ذلك الشيء المتناهي في الصغر قوة هائلة تجعله يهلك أقوى الأقوياء في الأرض .. دون أن يستطيع القوى أن يفعل شيئا .. ويأتي ذلك لنؤمن بأن القوة هي لله فلا نغتر بقوتنا الظاهرية .. ونحسب

طلاقة القدرة في الكون

أنه لا يوجد في الأرض من يغلبنا .. وأدق مخلوقات الله تستطيع أن تسلبنا الحياة في ساعات .. وفي ذلك قضاء على الغرور في النفس البشرية وتثبيت للإيمان بأنها بدون قوة الله وتأييده لا تساوى شيئاً .

على أن الله سبحانه وتعالى .. قد أعطانا كل هذه لحكمة بالغة .. وأوجد لنا ما يثبت طلاقة قدرته علماً وعملاً .. وقولاً وفعلاً .. حتى يمضي موكب الإيمان في الحياة في نفوس مطمئنة إلى قوة الله .. لا تزلزلها الأحداث .. ولا تشقيها الأسباب .

والنقطة الأولى في الحكمة البالغة في طلاقة القدرة هي إيمان بأن الله موجود إذا عجزت الأسباب .. وهذا الإيمان هو الذي يبقى الإنسان المؤمن مطمئناً إلى أن الله سبحانه وتعالى لن يتخلى عنه مهما كانت الأسباب تقول ذلك .. وإذا كانت الدول المادية التي لم يدخل فيها الإيمان تعاني من شيء وهو الاحساس بالخوف واليأس من الحياة .. ورغم كل ما في هذه الدول من تقدم مادي .. وأمن وأمان .. فإن كل فرد فيها يعيش في قلق يمزقه .. لماذا .. لأن كل إنسان مادي يعبد الأسباب .. دون المسبب .. ويعتقد في القدرة البشرية دون قدرة الله سبحانه وتعالى .. فإذا فصل من وظيفته لا يقول إذا أغلق الله باباً للرزق أمامي فسيفتح لي عدة أبواب .. ولا يقول إن هذا ابتلاء من الله ليمتحنني ، وأن مع اليسر يسراً ، ولا يقول إن الذي آمنت به وعبدته لن يتخلى عني أبداً .. فذلك منطق الإيمان .. ولكن منطق المادية يجعله يرى المستقبل أسود .. ويحس أن الدنيا أغلقت في وجهه .. وأنه لن يجد باباً للرزق .. وأنه قد انتهى تماماً .. ومن هنا فهو ييأسه من رحمة الله يلجأ في كثير من الأحيان للانتحار ويصاب بالجنون .. لماذا .. لأنه يعتقد أن البشر الذي منعه هو الذي يملك كل الأسباب .. وأن الله سبحانه وتعالى لا يملك شيئاً .

وإذا مرض الإنسان المادي .. بمرض ميثوس من شفائه .. فقد الأمل في المستقبل .. ولم يقل إذا عجزت الأسباب فإن رحمة الله لن تتخلى عني وسيجد لي

طلاقة القدرة في الكون



سبيلا للشفاء .. أو يقول ان الله سبحانه وتعالى قادر على أن يشفيني حتى ولو عجزت الأسباب .. بل هو في عبادته للأسباب يتخذها إلها ، فإذا عجزت الأسباب فإن إلهه قد تخلى عنه .. ولم يعد أمامه إلا مصير أسود .

● نجاة للمؤمنين

الله سبحانه وتعالى .. يريد أن ينجي المؤمنين من هذه الحياة الشقية .. فهو وعدهم بالحياة الطيبة .. والحياة الطيبة ليس فيها الشقاء البشري الذي تفرضه المادة على الإنسان .. بل فيها رحمة الله سبحانه وتعالى .. تلك الرحمة التي جعلت طفلا كإسماعيل عليه السلام .. يضرب الأرض بقدمه الصغيرة فيخرج ماء زمزم .. بعد أن هرولت أمه عليها السلام بين الصفا والمروة سبعة أشواط وهي تبحث عن الماء .. تأتي رحمة الله لتجعل الماء يخرج من ضربة بقدم طفل صغير .. فيتشقق الصخر ويخرج منه الماء .

تلك هي المعجزة الكبرى التي يريدنا الله أن نعيش معها .. فإذا وقفت أمامنا الأسباب فأمامنا الطلاقة الكبرى .. نلجأ إليها .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز « أمنٌ يجيب المضطر إذا دعاه » .. وإذا تأملنا هذه الآية .. نجد أن الله سبحانه وتعالى استخدم لفظ (المضطر) المضطر ذلك الذي تخلت عنه أسباب الدنيا ووقف كل شيء حائلا بينه وبين ما يريد .. حينئذ لا تجدى الأسباب معه .. فيقول الله سبحانه وتعالى .. إذا تخلت عنك الأسباب فلا تيأس ولا تعتقد أن كل شيء قد ضاع .. بل ارفع يديك إلى السماء وقل (يارب) وساعتها تفتتح أبواب السماء .. وتتدخل القدرة .. لتحقيق لك ما تريد .

وهذا ليس غريبا عنا .. عن حياتنا العادية .. وليس كلاما يقال دون أن يكون له واقع في الحياة .. فلو استعرض كل منا شريط حياته لوجد أن فيه طلاقة القدرة .. كم منا واجه مشاكل بلا حل .. وربما ظل ساهرا ليالى

طلاقة القدرة في الكون

طويلة .. يقلب عقله .. ويعمل فكره .. ولا يستطيع أن يصل إلى الحل .. ثم فجأة يتغير كل ما حوله ليجد الباب مفتوحا من حيث لا يدرى ولا يحتسب .. ويأتى الحل ميسرا سهلا من أشياء لم نكن نتوقعها .. ولا نظن أنها ستحدث .. كل منا مر بذلك .. وكل منا رأى في حياته مرة أو مرات قدرة الله سبحانه وتعالى وهي تزيل ظلما ما كان يحسب أن يزول .. أو تحل مشكلة لم يكن يعتقد أن لها حلا .. أو تأتى بشيء لم يكن يجلم به .. كل هذا حدث لنا جميعا .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يملأ النفس المؤمنة برحمته .. بحيث تواجه مصاعب الحياة وفي قلبها شعلة ايمان لا تنطفىء .. هذه الشعلة هي أمل متصل بالله سبحانه وتعالى .. أمل لا ينطفىء أبدا .. حينئذ يحس الإنسان المؤمن بأن كل الصعاب التي يواجهها لن تقضى عليه .. ولا تمس أمنه وأمانه .. لماذا .. لأنه يتذكر قول الله سبحانه وتعالى « هو على هين » .. فالصعاب مهما بلغت فهي على الله شيء هين .. وهي أمام قدرة الله سبحانه وتعالى لا شيء .. فلا يدخل اليأس إلى قلبه أبدا .. ولا تحطمه الحياة فتدفعه إلى الجنون والانتحار .. ولعل ارتفاع نسبة الجنون والانتحار في الدول المادية .. وانخفاضها في الدول التي تتمسك بالدين هما خير دليل على الحياة الطيبة التي يعطيها الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين .

والنقطة الثانية هي أن طلاقة القدرة تفسر لنا ما يحدث في الكون من أشياء لا تتفق مع الأسباب .. فنحن نعيش في كون تحكمه طلاقة القدرة مع الأسباب .. ولذلك فإننا نرى أحيانا أن انسانا يملك كل أسباب القوة من جيش وشرطة وأجهزة دولية .. ثم يأتى إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة .. فنجد قدرة الله سبحانه وتعالى تأتى إلى هذا القوى فتزيله من مكانه .. وتأتى بهذا الضعيف وتضعه مكانه .. ذلك يحدث أمامنا في العالم كل يوم .. ولو طبقنا

طلاقة القدرة في الكون

الأسباب لقات عكس ما يحدث .. ولكن الأسباب شيء .. وطلاقة القدرة شيء آخر .

فإذا جئنا لأمة كافرة .. كالاتحاد السوفيتي مثلا نجد الله سبحانه وتعالى يسلط عليها ما يهلكها .. أحيانا بين يوم وليلة .. وأحيانا على فترة من الزمن .. فإذا نظرنا إلى الاتحاد السوفيتي بعد أن كان هو مخزن الحبوب في العالم .. وبعد أن كانت أوكرانيا تنتج من القمح ما يزيد على حاجة الاتحاد السوفيتي بكميات هائلة .. نجد أن البركة قد رفعت منها .. وأصبح الاتحاد السوفيتي يستورد كميات كبيرة من القمح من الخارج .. ولا يجد رغيف الخبز الذي يقتات به وانتهى الأمر به إلى الانهيار والتفكك إلى دويلات صغيرة متناحرة .. وكذلك نجد في كل الدول التي تحارب الدين .. تملؤها الكوارث .. ويذهب عنها الأمن والأمان .. ويصبح رزقها ضيقا .. وأمنها معدوما .. والشقاء ينجم على كل من يعيش فيها كل ذلك يتم بطلاقة القدرة دون الأسباب التي ربما قد تؤدي إلى عكس ذلك .. بل أنه في بعض الأحيان .. تقوم هذه الدول بمشاريع تجند لها دعايتها .. وتقول ان بها خيرا ويرا .. وأنها ستحقق الرفاهية والعيش الرغد .. ثم تتم هذه المشاريع فإذا بها تأتي بعكس ما قيل عنها تماما .. وإذا بها وبال .. في وبال .. في وبال ..

وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى تجعله هو الوحيد .. وتجعل كل ما حوله متغيرا .. وتأتي أنت لترى الدول الكبيرة التي لم تكن تغرب عنها الشمس وقد تضاءلت وربما انمحت من خريطة الكون .. وربما أصبحت عاجزة عن حماية نفسها .. مع أن الشعب هو الشعب لم يتغير .. والقدرات هي القدرات لم تتغير .. ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي غير كل شيء .

● كل شيء له مولد

والنقطة الثالثة ان كل شيء في الكون قد جعل الله له مولدا في طلاقة قدرته .. فطلاقة القدرة هي التي تكشف أسرارها لكل جيل أخفيت عن الجيل

طلاقة القدرة في الكون

الذي سبقه .. فالله له عطاء جديد لكل جيل من البشر .. وإذا أردنا أن نستطرد في شرح هذه النقطة .. نقول ان بعض الناس يعجزه تفكيره عن فهم تفسير للآية الكريمة « وإذا مرضت فهو يشفين » .. وبعضهم لا يذهب إلى الطبيب تطبيقاً لهذه الآية .. والبعض الآخر يذهب إيماناً منه بأن الشفاء يحدث على يد الطبيب .. ولكن الذي يحدث أن لكل شفاء أجلاً .. فإذا جاء الأجل أو الموعد كشف الله للطبيب المرض فيتحدد الداء والدواء ليتم الشفاء .. والذي يحدث عادة .. وهذا في حياتنا كلنا .. اننا نذهب إلى أشهر الأطباء وأكثرهم علماً وفناً فلا يتم على يديه الشفاء .. ثم نذهب إلى طبيب صغير أو مبتدئ فيعرف الداء ويكتب الدواء .. ونحن حين يحدث هذا نتعجب .. ذلك لأن الذي حدث يخالف الأسباب في الأرض .. فالمفروض أن الطبيب الأكثر علماً هو الذي يكتشف الداء بحكم علمه وخبرته .. والطبيب المبتدئ لا يمكن أن يكتشف ما عسى على أستاذه .. تلك هي أسباب الأرض .. ولكن الحقيقة .. أو ما يحدث .. وما نشاهده جميعاً ونعرفه هو عكس ذلك .. والحقيقة أن علم الطبيب المبتدئ لا يمكن أن يزيد على علم أستاذه .. ولا خبرته .. ولكن الذي حدث أن وقت الشفاء قد جاء .. فيسر لنا الله الطبيب الذي عرف الداء وكتب الدواء .. وإذا لم نذهب نحن إلى الطبيب فأحياناً يحدث ذلك بطريق ما نسميه « الصدفة » وهو أن يجمعنا مكان مع أحد الأطباء .. ويدور الحديث عن المرض ويقوم الطبيب بتشخيص الداء وكتابة الدواء ..

وكما يقال عن المرض .. يقال عن كل كشف من أسرار الأرض .. يريد الله سبحانه وتعالى أن يمكن منه خلقه .. فكل كشف له ميلاد عند الله وفي علمه .. والذي يحدث أنه عندما يأتي وقت هذا الميلاد إما أن يصادف هذا الكشف عالم يبحث عنه .. فيكشفه الله سبحانه وتعالى له .. وإذا لم يصادف هذا الكشف عالم يبحث في نفس الموضوع كشفه الله سبحانه وتعالى لعالم يبحث في موضوع آخر .. ولذلك نرى كثيراً من الأبحاث العلمية التي تبدأ بالبحث عن كشف ثم تنتهي إلى كشف آخر مختلف تماماً .. لم يكن يدور في ذهن العالم .. بل حدث

طلاقة القدرة في الكون

بطريق ما نسميه الصدفة .. ولو تتبعنا الكشوف العلمية وما يحدث فيها .. لوجدنا أن اكتشافات كثيرة قد تمت دون أن يكون هناك باحث عنها بالذات .. بل بدأ البحث عن شيء وانتهى إلى شيء آخر .

وهكذا يكون العطاء في كثير من الأحيان بمولد وميقات من الله سبحانه وتعالى .. ولكن الله سبحانه وتعالى لا يطلعنا على ذلك .. فأحيانا نأخذ بالأسباب .. وأحيانا نرى أن هناك أشياء يحار العقل فيها فننسبها للصدفة .. أو للحظ .. أو لكل هذه المسميات .

النقطة الرابعة أن الإيمان بطلاقة القدرة هو أساس الإيمان وركيزته والذي لا يؤمن بطلاقة القدرة لا يمكن أن يؤمن بالغيب .. فالإنسان الكافر .. أو الذي ينكر وجود الله يأخذ بالأسباب وحدها .. فما هو ظاهر أمامه .. يصدقه .. وما هو غيب عنه يكذبه .. فإذا حدثته عن الجنة والنار .. والثواب والعقاب .. وما أعده الله سبحانه وتعالى للمؤمنين من عباده سخر منك .. ولكن الذي يؤمن بطلاقة قدرة الله هو الذي يفهم معنى أنه سيكون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. ولذلك فإننا لكي نؤمن بالآخرة .. ونؤمن بقدرة الله على بعث الموتي .. ونؤمن بما يعدنا الله من ثواب أو عقاب .. يجب أن نؤمن أولا بطلاقة القدرة .. ونعرف أن الله سبحانه وتعالى لا تحده قيود ولا حدود .. ولا شيء عنده يقع تحت كلمة مستحيل .. وأنه مادام قد وعد .. ووعدته الحق .. فإنه سيتحقق .. وأنه قادر على أن يخلق جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. وقادر على أن يعطي الإنسان نعيمًا أبديا .. ويعطيه عذابا أبديا .. وقادر على أن يسجل أعمال كل البشر .. وعلى أن يواجههم بأعمالهم في الآخرة .. تلك كلها لا تخضع لقانون السببية .. ولكنها تخضع لطلاقة القدرة التي حرص الله سبحانه وتعالى على أن بينها لنا قولاً وفعلاً .. ويضعها في حياتنا اليومية .. فنحن نعيش

طلاقة القدرة في الكون

مع طلاقة القدرة كل يوم ليزداد إيماننا بالغيب الذي حجب عنا . . ونحن حين نجد طلاقة القدرة التي تصطدم مع العقول وتحيرها . . إنما يزداد إيماننا بأن الله سبحانه وتعالى فوق قدرة العقول كلها .

● أساس إيماني

تلك حقيقة يجب أن نتنبه إليها . . فطلاقة القدرة أساس إيماني لكل شيء أخبرنا الله عنه . . وجعله غيباً عنا . . وكل شيء يكشفه الله سبحانه وتعالى لنا جيلاً بعد جيل . . ذلك أن هذه الأشياء التي تزيدنا يقيناً بقدرة الله . . يجب أن تزيدنا خشوعاً له . . فكل يوم يضاف إلى علمنا أسرار كانت موجودة في هذا الكون . . ولم نكن نعرف عنها شيئاً . . وهذه الأشياء في كثير من الأحيان تصحح مفاهيم خاطئة كانت موجودة على أساس أنها علم أَرْضِي .

ولو أننا قمنا بحصر ما كشفه لنا الله سبحانه وتعالى من أسرار في الكون . . لوجدنا أن هذا الجيل يجب أن يكون أكثر عبادة وخشية لله من الأجيال التي سبقته لأنه وصل إلى أسرار في الكون جعلته يعرف قدرة الخالق وعظمته . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا

أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾

سورة يونس الآية ٢٤

ومعنى هذه الآية الكريمة . . أن الله سيكشف من أسرار كونه للبشر ما يريهم به دقة صنعه وإحكام خلقه . . ولكن البشر لن يأخذوا هذه الأشياء على هذا المعنى . . بل سيركبهم الغرور . . ويحسبون أنهم هم الذين صنعوا . . وهم الذين اكتشفوا . . ويجعلهم هذا الغرور يظنون أنهم قد وصلوا إلى العلم الذي يمكنهم من أن يتحكموا في كل شيء في الأرض . . حينئذ يأتي قضاء الله . .

طلاقة القدرة في الكون

وتقوم الساعة .. ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة (ظن) لحكمة بالغة .. ذلك أن الله هو الذى سخر للإنسان كل ما فى الكون .. وهو الذى كشف له عن الآيات فى هذا الكون .. ولكن بدلا من أن ينسب الإنسان الفضل لصاحبه .. نسبه لنفسه .. ليس حقيقة .. ولكن (ظنا) .. فالعلم كلما تقدم .. اعتقد الإنسان أن هذا عطاء من ذاته .. وأنه هو الذى سخر هذه الأشياء لنفسه .. وهذا الظن يجعله يعتقد أنه قد سيطر على الأرض تماما .. وأصبح قادرا عليها وعلى كل القوى فيها .. حينئذ تأتى الساعة .. وتتعطل القوانين كلها .. ويعرف الإنسان أن ما وصل إليه هو من فضل الله .. وأن الله إذا كان قد خلق لنا الأسباب وجعلها خاضعة لنا .. فيجب ألا نغتر بها وننسى طلاقة القدرة ..

ولقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

سورة فصلت الآية ٥٣

والقرآن كلام متعبد به .. لا يتغير ولا يتبدل حتى قيام الساعة .. ولذلك فإن كل جيل سيقراً « سُرِّيهِمْ » .. (والسين) مستقبلية .. والمعنى أن كل جيل يرى ما لم يره الجيل الذى سبقه .. ليس فقط من آيات الله فى الأرض .. بل فى الآفاق .. وفى النفس البشرية .. ولعل التقدم العلمى فى كشف الآفاق .. وفى معرفة أسرار الجسم البشرى يحىء مصداقا لهذه الآية الكريمة .. ويجب أن نعرف أنه لا يقدر على العطاء المستقبلى إلا الله سبحانه وتعالى فلا يمكن مهما بلغت أنا من العلم أن أتنبأ بما سيحدث مستقبلا .. ولأجيال قادمة .. ولكن الله سبحانه هو القائل .. وهو الفاعل .. ومن هنا فإنه يستطيع أن يعطينا صورة يقينية عن المستقبل .

والنقطة الخامسة أن الإنسان حين يتمسك بالأسباب .. فإنه يعطى نفسه قدرات ليست فيه .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حين يرى عبدا من عباده

طلاقة القدرة في الكون

يأخذ بالأسباب .. فإنه يتركه ليتفاعل مع الأسباب التي اعتقد أنها قد أعطته .. وفي هذه الحالة تسقط عنه الأسباب فيذهب العطاء .. ولو أن الإنسان كان قد ملك الأسباب حقيقة وهي التي تعطي ، لما زالت عنه هذه الأسباب وذهب العطاء .. ولقد أعطانا الله سبحانه وتعالى مثلا لذلك في القرآن الكريم .. فقارون قال : « إنما أوتيته على علم عندي » .. وصاحب الجنتين في سورة الكهف قال : « ما أظن أن تبید هذه أبدا » .. والذين أرادوا أن يأخذوا حق الفقراء في ثمر الحديقة .. قالوا : « لا يدخلها اليوم عليكم مسكين » .. وكان في هذا كله الهلاك .. فخشف بقارون وبيداره الأرض .. وأحيط بثمر الجنتين .. وذهب خير الحديقة .. وأصبحت كالصريم .. كان ذلك كله سببا في زوال النعمة .. لأن المنعم عليه أخذ ظاهرية الأشياء دون حقيقتها وهي طلاقة القدرة التي أعطت .. والتي أخذت .

وطلاقة القدرة تعني أن الله واحد أحد .. والقول بأن الله أحد .. معناه أنه يجمع من الصفات ما لا يمكن أن تجتمع لبشر أو لمخلوق .. بل للمخالف وحده سبحانه وتعالى .. وهو الذي يملك وحده طلاقة القدرة .. يقول للشئ كن فيكون بلا أسباب .. وكل منا له حظ في العلم .. ولكن الله سبحانه وتعالى عليم .. أي لم يعلمه أحد .. وإنما العلم من ذاته .. ويعلم ما لا نعلم .. إذن فقولنا (أحد) .. هو تنزيه لله سبحانه وتعالى أن يكون هناك شبيه له .. فالشئ الواحد ممكن أن يكون له شبيه .. والشئ الواحد ممكن أن يكون من مجموع الأشياء .. فأنت تقول عن عدة أشخاص إنهم يتحدثون بلسان واحد .. أي أن كل واحد منهم .. يكرر نفس الكلام الذي يقوله زميله .. ولكن « الأحدية » تنفي هذا كله عن الله .. وأنت تقول للشئ المكون من عدة أجزاء شئ واحد .. فالكرسي مثلا مكون من خشب ومسامير وجلد .. ولكنه شئ واحد .. هو كرسي .. والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك تماما .. ذلك أن الله لا يمكن أن يكون مكونا من أجزاء متداخلة .. تبارك وتعالى وتنزه عن هذا .. وإلا فأى واحد من الثلاثة خلق الآخرين .. ومن الذي وجد أولا ..

طلاقة القدرة في الكون

وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي وجد أولا . . فباقي الأجزاء هي من خلقه وليست جزءا منه . . ومن هنا فإنها تصبح من مخلوقات الله . . وليست جزءا من الذات . . والقول بأن الله سبحانه وتعالى . . مكون من عدة أجزاء ، ينفي الكمال عن الله إذا انفصلت ما يقال عنها أجزاء متداخلة عن الله سبحانه وتعالى . . إذن فالقول بأن الله واحد . . هو قول فيه تجاوز . . ولكن صحيح القول أنه أحد . . ليس كمثل شيء . . ولا يحتاج لأي خلق من خلقه . . بل هو الله الأحد الذي لا شبيه له . . ولا يرقى شيء مهما بلغ إلى قدرته وعظمته . .

● الله الصمد

والله هو الصمد . . أي القوى الذي يقصد لذات قوته . . أي أن الله سبحانه وتعالى وحده الأحد الذي ليس كمثل شيء . . الصمد الذي يقصد إليه في الحوائج . . فأنت تتجه إلى الله سبحانه وتعالى إذا أردت شيئا واستعصى عليك . . وأنت تتجه إليه إما اضطرارا . . وإما اختيارا . . وهناك خلق مسخر لله لا اختيار لهم في الاتجاه إلى الله أو لغير الله . . فالملائكة مثلا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . ليس اختيارا . . ولكن اضطرارا . . فهم مخلوقون لهذا . . وكذلك الشمس والقمر . . وكل الأشياء التي سخرها الله سبحانه وتعالى . . فهي مسخرة لما خلقت له . . فالشمس لا تستطيع أن تختار يوما تشرق ويوما تغيب . . والأرض لا تستطيع أن تقول سأتوقف عن الدوران . . والنجوم والقمر والجبال والبحار . . كل شيء مسخر لا يملك قدرة الاختيار . . ومن هنا فهو متجه إلى الله . . يقوم بدوره الذي خلقه الله سبحانه وتعالى له . .

يأتي بعد ذلك الإنسان . . وقد أعطاه الله حرية الاختيار . . وجعله قادرا على أن يفعل أو لا يفعل . . وأن يتجه إلى الله . . أو يحاول انكار وجود الله . . وذلك في فترة حياته الدنيا فقط . .

طلاقة القدرة في الكون

إذن فقول الله سبحانه وتعالى « الله الصمد » وضع أمامنا الصورة الصحيحة للعقيدة .. فهادام الله أحدا .. فليس هناك غيره .. ومادام الله الصمد .. فهو مقصود في الحوائج .. ليس هناك من يقوم بديله .. فلا وجود على الحقيقة إلا وجوده .. ولا فاعل إلا فعله .. والله سبحانه وتعالى لا ينقص من ملكه أن يعطى كل إنسان ما يشاء .. ولا أن يكفر الناس جميعا .. فالله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين .. وهو القادر على أن يهب ويأخذ .. وأن يجعل الضعيف قويا .. وهذا هو الفرق بين عطاء الله وعطاء البشر .. وفرق آخر .. أن الإنسان إذا أعطى لا يستطيع أن يسترد عطاءه .. فأنت إذا أعطيت شخصا مالا .. وتكر لك .. فأنت لا تستطيع أن تسترد هذا المال مادام هذا المال قد أصبح مملوكا له .. وأنت إذا كنت طبييا وأعطيت الإنسان دواء أزال مرضه ثم رفض أن يدفع لك نفقاتك فأنت لا تستطيع أن تسلبه نعمة الصحة .. ولكن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطى ويأخذ .. فهو إذا أعطى النعم وكفر الإنسان بها .. يستطيع أن يجعل الغنى فقيرا .. ويجعل السليم مريضا .. وإذا قابل الإنسان النعمة بالشكر .. زاده الله وأعطاه ..

والله سبحانه وتعالى .. إذا أعطى إنسانا أسباب الحكم في الأرض .. فبغى على الناس وظلمهم .. فإنه يسلط عليه من هو أظلم منه .. فينتقم منه .. فالله لا يسلط على الظالم رجلا طيب القلب مؤمنا .. ذلك أن اللين والرحمة .. وحب العفو .. وكظم الغيظ .. ومواجهة الاساءة بالإحسان .. وهو ما أمر به الله .. يقف بين هذا العبد المؤمن .. وبين القصاص العادل من الظالم .. ولكن يسلط على الظالم من هو أشد منه ظلما .. حتى يكون القصاص رهيبا .. ويأتيه الله من حيث لا يدري ولا يحتسب ..

وطلاقة القدرة لله سبحانه وتعالى هي نعمة لا تبارى على خلقه .. فالله سبحانه وتعالى لا هوى له .. كلنا عبيده .. لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .. ومن هنا .. فإن طلاقة القدرة تصحح المسيرة في الكون .. ذلك أن

طلاقة القدرة في الكون

الله دائما مع الضعيف ضد القوى .. ومع العاجز ضد القادر .. ولو لم توجد طلاقة القدرة .. وبقيت الأسباب وحدها تعطي .. لملاً الفساد الأرض .. ذلك أن الذي يأخذ بالأسباب يمتلىء غرورا بقدرته على خلق الله .. ويأخذ حق الغير .. ويحاول أن يملك ما لا يستطيع أن يفنيه أو يستخدمه طول حياته .. ومن هنا فإن قضية الحياة نفسها تفسد .. ولكن الله سبحانه وتعالى يزيل الأسباب .. فيصبح القوى ضعيفا .. والغنى فقيرا .. والعزيز ذليلا ..

إذن فالله سبحانه وتعالى خلق الكون .. ومنح كل من في الكون رزقا وعطاء .. الكافر منهم والمؤمن .. والعطاء من الله سبحانه وتعالى لكل فرد هو ابتلاء .. سواء أكان هذا العطاء خيرا أم شرا .. فأحيانا يكون ما نحسبه شرا هو خير لحياتنا من مئات الأشياء التي قد نفرح عندما تحدث .. والله سبحانه وتعالى قد أعطانا الأسباب لتسير الحياة في الكون .. ولكن في نفس الوقت .. بقيت طلاقة القدرة لله سبحانه وتعالى .. ذلك حتى لا ننسى الله ونعبد الأسباب .. فالكون يمضي كله بالأسباب .. ثم تأتي طلاقة القدرة في حدث من الأحداث .. لتلفت الناس إلى أن معطى الأسباب موجود وقادر .. وأن الأسباب التي خلقها الله سبحانه وتعالى .. لا يمكن أن تكون قيда على قدرته .. وأنا يجب أن نلتصق في حياتنا بالله .. وليس بالأسباب التي مكن الله فيها عددا من خلقه .. وفي هذه الحالة نتذكر أن ما أجراه الله علينا على يد عبد من عباده .. إنما هو من الله أولا .. قسمه الله لنا .. ثم أجراه على يد هذا العبد .. فلا ننسى المنعم ونعبد السبب .. ولنعلم أيضا حينما يحيط بنا اليأس .. ونصل إلى شيء لا نستطيع الأسباب أن تجد له حلا .. وتقف قدراتنا عاجزة أمامه .. نتذكر أن طلاقة القدرة موجودة .. وفي هذه الحالة لا يدخل اليأس إلى قلوبنا أبدا .. لأن قدرة الله بلا حدود ولا قيود ..

وطلاقة القدرة تصحح المسيرة .. وتذكر الناس بعدم الابتعاد عن الله .. وتدخل لتنصر المظلوم على الظالم .. وغير القادر على القادر وتقتصم للضعيف من القوى ..

طلاقة القدرة في الكون

والله أحد لا شريك له ، قادر على أن يفعل ما يشاء وقتها يشاء .. مقصود في كل الحوائج .. بيده الخير كله .. يستطيع أن يعطى كل إنسان حاجته .. دون أن ينقص ذلك مما عند الله شيئا .. وهو في قوته لا يستعصى عليه أحد .. مهما بلغ جاهه أو سلطانه .. ولذلك فإننا يجب ألا نخاف الدنيا كلها .. مادامنا مع الله .. ومادامنا على الحق ..

والله أحد ليس كمثل شئ .. لا شريك له .. ولا أحد يعلو ليكون ندا لله جل جلاله .. وكل الناس بدرجاتهم وجاههم في الدنيا هم عبيد لله سبحانه وتعالى .. فالكل عبد الله .. والكل آتية بعد هذه الحياة .

وطلاقة القدرة تعطينا الشجاعة في هذا الكون لكي نواجه كل ظالم .. ونقف مع كل مظلوم .. ونأخذ جانب الحق .. فإذا حاول أحد أن يخيفنا بالأسباب أو ظاهر الحياة الدنيا من جاه أو سلطان أو ملك أنعم الله به على عبد من عباده .. فلتذكر أن الله سبحانه وتعالى كما أعطى يستطيع أن يأخذ .. وكما أعز يستطيع أن يذل .. وأن نقف مع الحق .. ولا تغرنا الأسباب لأنها زائلة .

وطلاقة القدرة من روح الإيمان .. لأنها تجعلنا نؤمن يقينا بما يستطيع الله أن يكافئ به المؤمن في الآخرة من نعم دائمة .. مما لا عين رأت .. ولا أذن سمعت .. ولا خطر على قلب بشر .. وتذكرنا دائما بأن الله وحده هو القادر .. والله وحده هو الفعال .

حديث قدسي

●● أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : يا موسى إن من عبادي من لو سألتني الجنة بحذافيرها لأعطيته ، ولو سألتني علق سوط من الدنيا لم أعطه ، ليس ذلك من هوان له على ولكن أريد أن أدخر له في الآخرة من كرامتي ، وأحميه من الدنيا كما يحمي الراعي غنمه من مراعي السوء . يا موسى ما ألجأت الفقراء إلى الأغنياء بأن خزانتى ضاقت ، ويأن رحمتي لم تسعهم ، ولكني فرضت للفقراء في أموال الأغنياء ما يسعهم ، أردت بأن أبلو الأغنياء كيف مسارعتهم فيما فرضت للفقراء في أموالهم . يا موسى إن فعلوا ذلك أتممت عليهم نعمتي ، وأضعفت لهم في الدنيا ، للواحدة عشر أمثالها . يا موسى كن للفقير كنزا ، وللضعيف حصنا ، وللمستجير غيثا ، أكن لك في الشدة صاحبا ، وفي الوحدة أنيسا ، وأكلوك في ليلك ونهارك .



●● يعذب اللسان بعذاب لا يعذب به شيء من الجوارح فيقول : يارب . عذبتني بعذاب لم تعذب به شيئا من الجوارح ، فيقول : خرجت كلمة بلغت مشارق الأرض ومغاريها ، فسفك بها الدم الحرام ، وأخذ بها المال الحرام ، وانتهك بها الفرج الحرام ، فوعزتي لأعذبك بعذاب لا أعذب به شيئا من الجوارح .



الفصل الرابع

خواتم عن سورة مريم

خواطر عن سورة مريم

لا يكمل الحديث عن طلاقة القدرة إلا إذا سجلنا بعض الخواطر عن سورتي آل عمران ومريم . . ذلك أن طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . تتمثل في أجل معانيها في قصة مريم . . وعيسى ابن مريم عليهما السلام . . ولقد كان اختيار مريم فيه طلاقة قدرة . . واصطفائها الأول فيه طلاقة قدرة . . وتطهيرها فيه طلاقة قدرة . . واصطفائها الثاني فيه طلاقة قدرة . . ومولد عيسى ابن مريم من طلاقة القدرة . . ثم بعد ذلك رسالته مؤيدة كلها بطلاقة القدرة . . ورفعها إلى السماء فيه طلاقة قدرة .

كل هذه الأشياء جاءت لتهزم العالم المادى الذى كان يعيش فيه بنو اسرائيل خلال هذه الفترة . . فنو اسرائيل في طول حياتهم والمادة تحكمهم وتسيطر عليهم . . والذهب هو معبودهم . . حتى حينما أراهم الله طلاقة القدرة بأن جاوز بهم البحر وأنجاهم من آل فرعون . . اتخذوا عجلا من الذهب له خوار البهائم . . وعندما أنعم عليهم الله سبحانه وتعالى بالمن والسلوى وهى أشياء غيبية لا يستطيعون التحكم فيها . . ولكنها رزق يأتيهم به الله - طلبوا أن يأكلوا مما تنبت الأرض في عدم ثقة بالغيبيات . . وثقة كاملة بالماديات . . وعندما أرسل الله لهم طالوت ملكا ونبيا . . قالوا إنه لا يملك مالا . . يؤهله للملك . . وهكذا كل حياتهم هى انكار لنعم الله . . وإيمان بالماديات . . وبعد عن الغيب . . حتى أنهم قتلوا أنبياء الله الذين جاءوهم يدعون إلى منهج غيبى ويطلبون نبد الإيمان المطلق بماديات الحياة . . وهنا يجب أن نفرق بين رسول ونبي . . فالرسول مرسل بمنهج سماوى من الله سبحانه وتعالى وهو مؤيد من عنده . . والله يحفظه فلا يستطيعون الوصول إليه . . ولكن النبي لا يأتي بمنهج - ولكن يأتي بقدوة سلوكية - أى أنه يأتي مطبقا لرسالة غيره من الرسل . . التطبيق السليم والصحيح . . هذا النبي الذى هو قدوة سلوكية تعرض للقتل من بنى اسرائيل الذين لم يهتموا بمنهج الله فى البعد عن الماديات .

وقبل أن أبدأ الحديث عن الخواطر الايمانية حول سورة مريم . . أحب أن أوضح حقيقة هامة . . هى أن الله سبحانه وتعالى حين يرسل رسولا . . يكون

خواطر عن سورة مريم

هذا الرسول من البشر .. لماذا؟ .. لأن رسالة الله في افعل ولا تفعل .. هي المنهج الذى اختاره الله سبحانه وتعالى للحياة الآمنة الطيبة على الأرض .. ولكن الله لا يترك منهجه بدون تطبيق .. بل هو يرسل المنهج .. ويرسل من يطبقه ليكون قدوة حسنة للمؤمنين بالمنهج .. وليرى الناس كلهم المنهج يطبقه على الطبيعة بشر مثلهم .. فلا يقولوا ياربى إن هذا المنهج لا نستطيعه .. أو إنه ياربى فوق طاقة وقدرات البشر .. فيرسل الله سبحانه وتعالى بشرا رسولا .. يطبق المنهج بحذافيه .. ويريه للناس فى الحياة العملية وفى التجارب اليومية .. حتى يكون هؤلاء الناس شهداء على أنفسهم يوم القيامة .. ولا يقول واحد منهم إن الله قد حملنا فوق قدراتنا أو فوق ما نطيق .

إذن فبشرية الرسول .. أمر حتمى للرسالات كلها .. ولو كان الرسول فوق مستوى البشر لوجدنا عذرا لأولئك الذين لا يتبعون المنهج ويخالفونه .. ولقال هؤلاء كيف تريدوننا أن نتبع منهجا وضع لمن هم فوق مستوى البشر .. هؤلاء الذين طبقوا المنهج ليسوا بشرا مثلنا .. أما نحن كبشر عاديين فقدراتنا تختلف .. وهى فى جميع الأحوال أقل منهم قدرة .. فإذا أردت ياربى أن ترسل لنا منهجا نتبعه .. فأرسل لنا بشرا رسولا يطبقه .. ولا ترسل لنا رسولا فوق قدرة البشر لأنك فى هذه الحالة تطالبنا بما فوق طاقة البشر .. ومن هنا كانت حتمية الرسالات تقتضى أن يكون الرسول بشرا ليكون قدوة مساوية لقدرة المؤمنين .. فيتخذه قدوة حسنة دون ما حجة بأنه يملك ما فوق الطاقات البشرية .

نعود بعد هذه المقدمة إلى الخواطر عن قصة مريم عليها السلام .. وتبدأ القصة كما يرويها القرآن الكريم بامرأة عمران ..

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ

مَنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

سورة آل عمران الآية ٣٥

خواطر عن سورة مريم

.. أى أن امرأة عمران حينما حملت .. وقبل أن تلد .. أو كانت تعرف أنها ستلد ذكرا أو أنثى .. نذرت ما فى بطنها لله سبحانه وتعالى ولعبادته .. وكان هذا النذر لمحة إيمانية من امرأة مؤمنة أرادت أن تهب لله ذريتها تقربا منه .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

سورة آل عمران الآية ٣٦

فوجئت امرأة عمران عندما وضعت أنها لم تضع ولدا ولكنها وضعت أنثى .. وفى هذه الحالة انتابتها الحيرة .. فقد كانت تريد ولدا يدعو إلى منهج الله وينشأ فى عبادته .. ولكنها وضعت بدلا من ذلك أنثى .. فاتجهت إلى الله سبحانه وتعالى لتقول :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴾

سورة آل عمران الآية ٣٦

أى أن الذكر أو الولد له قدرات على المشاق فى الحياة .. وعلى الدعوة لدين الله لا تملكها الأنثى .. ورد الله سبحانه وتعالى ليذكرها بطلاقة القدرة .. فقال يا امرأة عمران إننى أعلم بما وضعت ، وأنا الذى أخلق ما فى الأرحام ولست أخلقه فقط بل أعلم كل شئ عنه من يوم مولده إلى يوم وفاته .. كم عمره .. وكم رزقه .. هل هو شقى أم سعيد .. مرزوق أو مقتر عليه فى الرزق .. ماذا سيحدث له من أحداث ويصيبه من أمراض .. فى كل رحلة حياته .. وأعلم كل صغيرة وكبيرة عما يواجهه فى الحياة .. وليس هذا فقط بل اننى أخلق صورته وأعلم هذه الصورة قبل أن يعرفها أحد من العالمين .. ومن هنا فإن علمى بما

خواطر عن سورة مريم

جاء في الأرحام يتجاوز علم الدنيا كلها . . والله سبحانه وتعالى لو شاء أن تضع امرأة عمران ولدا لأعطاها ولدا ولكن الطلاقة الكبرى بدأت منذ اللحظة الأولى لخلق مريم في رحم أمها فجعلها الله أنثى وحينئذ اتجهت أمها إلى السماء وقالت ياربى « وانى أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . . أى ياربى لا تجعل للشيطان كيذا ولا سيطرة على مريم وعلى ذريتها .

● لقاء مع القدرة

وهنا يأتى سؤال هام : من أين عرفت امرأة عمران أن مريم ستكون لها ذرية ؟ هل أنبأها الله سبحانه وتعالى بما هو قادم . . أم أنه دعاء أم لابنتها حسب ما هو متبع ، ولا أحد يعلم إذا كان الله قد أنبأ أمها بما أعده لمريم . . فلم نخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه أنبأها . . ولكنه فى الغالب دعاء كل أم . .

هنا بدأت الخطوة الأولى للقاء مريم مع طلاقة القدرة . . فتقبلها الله سبحانه وتعالى كنذر نذر لله قبولا حسنا . . وهذا القبول غير الاصطفاء الذى سنتحدث عنه فيما هو قادم . . ولكنه الخطوة الأولى على الطريق إلى المعجزة الكبرى لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . وما يعده لبنى إسرائيل من نبي يفيقهم بطلاقة القدرة عن عبادة الأسباب والماديات وأنبئها نباتا حسنا . وذهبت مريم إلى مكان تنقطع فيه إلى العبادة . . وتنافس الأحابار ورجال الدين أيهم يكفلها . . فقد كانت من طيب المنبت والخشوع إلى الله سبحانه وتعالى بحيث رغب كل منهم فى أن يكون له شرف كفالتها . . وألقوا أقلامهم . . وقسم الله سبحانه وتعالى أن يكفلها زكريا . . ودخلت مريم وانقطعت لعبادة الله .

كان زكريا يدخل على مريم المحراب ليحضر لها طعامها وشرابها ويطمئن عليها بينما انقطعت هى إلى عبادة الله سبحانه وتعالى . . ولكن زكريا فوجيء بشيء غريب . . ذلك أنه كلما دخل على مريم وجد عندها رزقا . . وأى رزق ذلك الذى وجد . . رزق عجيب . . فأكهة الصيف فى الشتاء . . وفاكهة

خواطر عن سورة مريم

الشتاء في الصيف .. ورزق لا ينفد مها أكلت منه مريم .. ولا يتلف أو يتعفن ..

كان هذا شيئا عجيبا أثار انتباه زكريا .. وكان هذا أول اصطفاء لمريم بأن اختصاصها ربه بطلاقة القدرة .. فأراها أنه يعطي ما يشاء لمن يشاء دون أسباب .. حتى إذا وقعت المعجزة .. ووضعت مريم عليها السلام عيسى .. بدون الأسباب البشرية .. لم تهتز اهتزازا يذهب نفسها .. ولم تشك في أن ما حدث ربما كان فيه خدعة .. بل انها رأت بعينها في الاصطفاء الأول بطلاقة القدرة .. ما يبرر ويسهل عليها فهم الاصطفاء الثاني على نساء العالمين .. بأن تضع بدون رجل .. ودون أن يمسه إنسان .. ولذلك كانت طلاقة القدرة في رزق مريم عن غير طريق الأسباب بداية تمهيدية من الله سبحانه وتعالى .. واصطفاء أول تمهيدا للاصطفاء الثاني على نساء العالمين .. ولكن زكريا النبي الحريص على مريم دخل الشك إلى قلبه .. ورغم علمه بأن مريم متفرغة تماما للعبادة وانها لا تغادر غرفتها وتقضى الليل والنهار في الركوع والسجود لله سبحانه وتعالى .. إلا أنه ببشريته أراد أن يتأكد فسألها « أنى لك هذا » أى من أين ذلك يا مريم .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا هنا لفتة كريمة فيها صلاح الكون كله .. فلو أن كل رب لأسرة .. أو راع لمجموعة من الناس .. عندما وجد مظهرا من النعم لا يتناسب مع القدرات البشرية .. قال من أين لك هذا ؟ لصلاح الكون كله .. ولأصبح كل إنسان رقيقا حقيقيا على أسرته .. ولكن الذى يحدث أن الأب أو المسئول عن الأسرة .. يجد من بناته وأولاده ما لا يتناسب مع قدراته المادية .. كفستان مرتفع الثمن ، أو مال كثير .. أو أى شيء غال لا يستطيعون شراءه .. لو أنه وقف وقال من أين لكم هذا .. لعرف كل واحد منهم أنه إذا انحرف ، فإنه سيحاسب .. ولعلم قبل أن يمد يده إلى الحرام .. أن الحرام سيكشفه .. ويجعله موضع مساءلة .. ولكنه حين يغمض الأب عينيه ويرى مع

خواطر عن سورة مريم

بناته وأولاده ما لا يتناسب مع دخولهم فلا يسألهم من أين لكم هذا .. يشيع الفساد في الكون .. وتلك الآية ترينا مدى حرص زكريا على مريم وسلوكها .. مع أنها عابدة متعبدة .. منقطعة لعبادة الله سبحانه وتعالى .. إلا أن ذلك لم يعفها من المسألة من زكريا .. ولم يقل زكريا لنفسه أن مريم امرأة عابدة متعبدة لا يمكن أن يأتيها هذا إلا من طريق سليم .. ولكنه وضع المسألة أولا .. ليكون متأكدا مائة في المائة من مصدر هذا الرزق .. حيث ردت مريم :

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧)

سورة آل عمران من الآية ٣٧

وكان الرد مفاجأة لزكريا .. فقد التقى وجهها لوجه مع طلاقة قدرة الله التي تهب ما تشاء لمن تشاء دون اللجوء إلى الأسباب .. وإنما تقول للشيء كن فيكون .. وهنا ثارت في نفس زكريا قضية قديمة .. فهو ليس له ذرية وامراته عاقر .. وهو كئيب يخاف على أتباعه بعد موته أن يتفرقوا أو يضلوا .. ويريد لهم قدوة سلوكية تحفظهم من بعده .

وثارت في نفس زكريا مسألة طلاقة القدرة .. فهادام الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب فلماذا لا يدعوه ليرزقه بولد .. ومادامت الأسباب لا تقيد قدرة الله سبحانه وتعالى .. فإنه قادر على أن يهب زكريا ما يريد ..

● إعجاز الخالق

وهناك .. وفي محراب مريم :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٨)

سورة آل عمران الآية ٣٨

﴿ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٨)

خواطر عن سورة مريم

.. رفع زكريا يده إلى السماء .. وهو في محراب مريم .. وقال ياربى لقد تجلت طلاقة قدرتك في هذا المكان فرزقت مريم فاكهة وطعاما ليسا موجودين في الدنيا .. فبحق طلاقة القدرة هذه .. هب لى ذرية طيبة واسمع دعائى .. ولم تمض إلا لحظات وزكريا قائم يصلى فى المحراب عند مريم حتى نزلت الملائكة وقالت له :

﴿ أَنْ اللَّهُ يُبَشِّرُكَ بِغُيُبٍ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ

الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾

سورة آل عمران الآية ٣٨

.. نزلت الملائكة على زكريا تبشره بالغلام .. ليس بهذا فقط .. بل تقول له ما هو مستقبله .. وإلى ماذا سيصير .. فلم تكتمف الملائكة بإبلاغ زكريا بأن الله سيهب له غلاما .. بل إنه سيكون سييدا ونبيا من الصالحين .. وهكذا كان الإبلاغ فيه اعجاز .. اعجاز بعلم الخالق قبل أن يخلق .. وقبل أن تحمل زوجة زكريا .. فقال له إن زوجتك ستحمل .. وستأتى بولد .. ولن أخبرك بهذا فقط .. بل ان هذا الغلام سيشب ويكبر .. ويكون سييدا فى قومه .. ونبيا من الصالحين .. وهكذا نرى مدى التفسير الصحيح لقول الله سبحانه وتعالى « ويعلم ما فى الأرحام » .. وهو لم ينبىء زكريا بأن امرأته ستلد ولدا .. وهى قد حملت به .. أو قد مضى عليها فى الحمل عدة شهور .. بل قال له وأنبأه بذلك قبل أن تحمل .. وقبل أن يحدث أى اتصال بين زكريا وزوجته .. وأنبأه بالمستقبل الذى ينتظر هذا الطفل بعد سنوات طويلة ..

هنا اهتز زكريا .. اهتز من اللقاء بطلاقة القدرة .. وتذكر الأسباب التى تعطى .. واعتقد انه قد فهم خطأ .. فأراد أن يتأكد .. فرفع يده إلى السماء مرة أخرى .. وقال :

﴿ رَبِّ أُنَبِّئْنِي بِغُلَامٍ لِّىْ غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِى الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ ﴿٤٠﴾

سورة آل عمران من الآية ٤٠

خواطر عن سورة مريم

.. رفع زكريا يده إلى السماء وقال ياربى لقد التبس على الأمر فأنا أريد أن أتأكد اننى لم أسىء الفهم .. أنا ياربى رجل عجوز .. وامراتى عاقر لا تلد .. الأسباب هنا ممتنعة من الناحيتين .. ناحية زكريا الذى بلغ من الكبر عتيا .. ولم يعد بالأسباب صالحا لإنجاب الولد .. وحتى هب أن زكريا صالح لذلك فامرأته عاقر .. لم تلد طوال حياتها .. ولم تلد فى شبابها .. فهل ياربى إذا كنت لم أستطع أن أنجب الولد فى شبابى .. وإذا كانت زوجتى عاقرا لم تحمل طوال حياتها .. أتأتى الآن وهى عجوز لتحمل .. وآتى الآن أنا وأنا شيخ كبير لأفعل ما عجزت عن أن أفعله فى شبابى .. هنا اهتز زكريا بالأسباب .. وكان لقاءه مع طلاقة القدرة .. وكان أول لقاء له .. لقاء قويا هزه من أعماقه فاعتقد انه قد فهم خطأ قول الملائكة أو أن هناك لبسا ما .. حينئذ يقول له الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْعًا ۝٩ ﴾

سورة مريم آية ٩

وفى سورة آل عمران :

﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۝٤٧ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٤٧

هنا يذكر الله سبحانه وتعالى زكريا بحقيقتين هامتين حول طلاقة القدرة فيقول له إن الله يفعل ما يشاء ، أى ليس هناك قيود على ارادة الله سبحانه وتعالى .. وإذا كانت هناك الأسباب فى الدنيا فالله هو الذى خلق الأسباب .. ولا يمكن أن يكون المخلوق قيذا على الخالق .. إن الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب لا تقيد هذه الأسباب وتحد من قدرته .. بل انه يفعل ما يشاء دون أن تكون هناك فى الكون كله قدرة مانعة لهذا الفعل .. أو موقفة له .. ولو كانت هى الأسباب التى خلقها الله سبحانه وتعالى لنظام الحياة فى الكون .. ثم يلفت الله

خواطر عن سورة مريم

سبحانه وتعالى زكريا إلى الحقيقة الثانية .. فيقول له إنك تتعجب مما أبلغتك الملائكة وأخبرتك به .. ولكنك يجب ألا تتعجب لأن الذي تحسبه صعبا ومستحيلا هو على هين .. انه أمر بسيط جدا بالنسبة لى .. أنا الذى خلقت هذا الكون كله بما فيه ومن فيه .. هل يستعصى على أن أخلق لك غلاما .. ذلك أمر هين وبسيط أمام قدرة الله سبحانه وتعالى .. وإذا كنت تتعجب من ذلك فانظر إلى نفسك حتى يزول العجب فقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا .. أوجدتك من العدم .. فلماذا تتعجب أن أخلق لك ابنا .. إذا كنت أنا قد أتيت بك من العدم .. وخلقتك ووهبت لك الحياة .. فمن السهل على أن أهب لك الولد .

● العطاء .. بلا أسباب

وكانت هذه إفاقة لزكريا وهو واقف في محراب مريم .. وأول ما رآه من طلاقة قدرة الله التى جعلته بعد ذلك لا يشك في مريم أبدا إذا وجد عندها أشياء عجيبة .. بل يعلم ان طلاقة القدرة تستطيع أن تعطى بلا أسباب .. بدليل إنها أعطت زكريا الولد بلا أسباب .. وكان هذا من الله سبحانه وتعالى تطهيرا لمريم عليها السلام من أى شك يمكن أن يقع في أى نفس بشرية .. ذلك ان المعجزة التى تمت مع زكريا وفي المحراب عند مريم .. جعلته يعرف يقينا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب .. ولا يتساءل هو أو غيره عما يكون عند مريم من رزق يهبه الله لها .

ومضى القرآن الكريم ليروى قصة مريم :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ

الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

سورة آل عمران الايتان ٤٢ - ٤٣

خواطر عن سورة مريم

هنا نزلت الملائكة إلى مريم لتنبئها أن الله قد اصطفاها وطهرها ثم اصطفاها على نساء العالمين .. الاصطفاء الأول هو بالعيش مع طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .. والله تقبل مريم عند ولادتها كندر الله .. ثم اصطفاها بأن جعلها دون خلقه تعيش دائما مع طلاقة القدرة استعدادا لما سيحدث من ولادة المسيح عليه السلام ثم طهرها بعد ذلك بأن منع عنها الشياطين وجعلها تتطهر بالعبادة الدائمة له والركوع والسجود لله سبحانه وتعالى .. ثم حدث الاصطفاء الثاني وهو اختيارها دون نساء العالمين كلهن .. أن تضع مولودا دون أن يمسه رجل .. وكان الاصطفاء الثاني هو اصطفاء لمريم بالذات .. ولذلك نلاحظ في القرآن الكريم أنه حين تأتي أنباء المعجزات والقصص الایمانية لا يذكر الله سبحانه وتعالى الاسم كاملا .. لماذا ؟ .. لأن هذه لمحات ایمانية مقصود أن يقتدى بها الناس .. ولو أنهم ذكروا بأسمائهم كاملة .. لكانت هذه المعجزات خاصة بهم لا تتكرر لغيرهم .. إلا مريم .. فكلما ذكرت في القرآن .. قال الله سبحانه وتعالى مريم ابنة عمران .. لأن معجزة الميلاد من أنثى بلا ذكر لن تتكرر بالنسبة لنساء العالمين كلهن إلى يوم القيامة .. فهذا اصطفاء لمريم أو اختيار لها لهذه المعجزة دون نساء العالمين .. ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى لم يستخدم لفظ نساء الأرض .. ولكنه استخدم لفظ نساء العالمين .. أى نساء الإنس والجن وكل مخلوقات الله .. لن توجد أنثى يتكرر لها ما حدث لمريم مما اصطفاها الله سبحانه وتعالى به وهي معجزة الميلاد من أنثى بدون ذكر .

تم الاصطفاء الأول .. ثم بعد ذلك قضت مريم سنوات في العبادة حتى تطهرت .. والتقت بطلاقة القدرة وألفتها فأصبح الله يرزقها بغير حساب ويطهرها ويحفظها من شياطين الإنس والجن .. ثم جاء الاختيار الثاني ونزلت الملائكة على مريم لتقول لها :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٤٥

خواطر عن سورة مريم

كانت هذه أول بشارة لمريم ومحاولة لاعدادها لما سيتم من ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام .

وأخذت مريم بهذه البشارة .. فرغم التقائها مع طلاقة القدرة .. وتعودها عليها في الرزق من الله بغير حساب .. ورغم أنها قضت فترة طويلة تتعبد وتتطهر .. وحفظها الله من كل الشياطين .. فإن نفسها اهتزت من وقع الخبر .. واتجهت إلى السماء وقالت :

﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾^ط

سورة آل عمران الآية ٤٧

اتجهت هي الأخرى كما اتجه زكريا إلى الأسباب .. ومع عيشها في ظل طلاقة القدرة في المحراب فإنها لم تستطع أن تستوعب تماما طلاقة القدرة في الخلق .. فقالت ياربى كيف ألد ولم يمسنى بشر .. لم يقربنى رجل .. فكيف أضع غلاما .. وهنا جاء رد الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾^ج

سورة آل عمران من الآية ٤٧

لم يقل الله سبحانه وتعالى لها كيف سيتم ذلك .. ذلك أن الخلق مما احتفظ الله به لنفسه .. ولم يطلع عليه أحدا من خلقه .. حتى أن ابراهيم عليه السلام حينما سأل الله :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾^ط

سورة البقرة آية ٢٦٠

.. لم يقل له الله سبحانه وتعالى كيف يحيى الموتى .. ولم يطلعه على سر الحياة والموت .. وإنما أدخله في تجربة رأى فيها إحياء الموتى بقدرة الله .. فجاء بالطير

خواطر عن سورة مريم

وقطعه ثم وضع كل جزء على جبل ثم دعاهم فجاءوا إليه أحياء .. كانت هذه تجربة عملية على إحياء الموتى .. ولكنها لم تكن إخبارا من الله سبحانه وتعالى لابراهيم عن سر الحياة والموت .

كذلك مريم .. حين سألت الله سبحانه وتعالى .. كيف سيكون لى ولد ولم يمسنى بشر ، لم يعطها سر الخلق .. ولكنه قال لها :

﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۗ ﴾

سورة آل عمران آية ٤٧

أى لم تتعجبين أن الله قادر على أن يخلق ما يشاء .. وقد أراك طلاقة القدرة فى الرزق .. وسيريك طلاقة القدرة فى الاصطفاء .. لم تتعجبين يا مريم .. ألم يخلق الله سبحانه وتعالى آدم بدون ذكر أو أنثى .. ألم يخلق حواء من ذكر بدون أنثى .. فالله سبحانه وتعالى ليس لقدرة حدود .. انه قادر أن يخلق بدون ذكر أو أنثى كخلق آدم .. وقادر أن يخلق بدون أنثى كخلق حواء .. وقادر أن يخلق من أنثى بدون ذكر كعيسى ابن مريم .. وقادر أن يخلق من ذكر أو أنثى وهو خلق الأسباب .. إذن فلا عجب هنا لأن الله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء وإذا أراد أمرا فإنه لا يلجأ إلى الأسباب .. وانما بطلاقة قدرته يقول له كن فيكون .. إذن فلا تتعجبي مما بشرتك به الملائكة .. لأن الله قادر على أن يخلق عيسى دون أن يمك بشر .

● لماذا جاء الملك

وجاء الملك المكلف بالمهمة إلى مريم .. فظهر لها على هيئة بشر .. قد يقول بعض الناس مادامت الملائكة قد بشرت مريم بالغلام .. ومادام الله سبحانه وتعالى قد لفتها إلى طلاقة القدرة فى انه يقول للشئ كن فيكون .. فلماذا جاء الملك إلى مريم وتمثل لها فى صورة إنسان .. نقول إن فى ذلك حكمة كبرى ..

خواطر عن سورة مريم

ان الملك لم يأت إلى مريم ولم يتمثل لها في صورة إنسان . . ويقول لها أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . . ثم يختفى فجأة دون أن يمسه لو لم يحدث ذلك لربما دخل الشك إلى قلب مريم . . واعتقدت أن بشرا قد مسها بأن خدرها أو وهى نائمة . . وعلى العموم لم يكن الأمر يدخل يقينا إلى نفسها . . ولكن كون الملك جاء . . وكونه تمثل لها بشرا سويا . . وكونه قال لها إني رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . . وكونه اختفى دون أن يمسه . . أدخل اليقين في قلب مريم في أن ما حدث لها . . هو من طلاقة قدرة الله وليس لبشر دخل فيه . . ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت فؤادها مرة أخرى بعد أن اهتزت نفسها . . من تبشير الملائكة لها . . وتعجبت أن تلد بدون أن يمسه ذكر . . وهنا . . ومع هذا التثبيت من الله سبحانه وتعالى مريم . . لأنها تجربة سيكذبا فيها اليهود . . ولو لم تكن على يقين مما حدث . . وانه من طلاقة قدرة الله فإن نفسها قد تهتز وتضعف . . ذلك لأنه أمر غير مألوف في تاريخ البشر كلهم . . وانه يصطدم بأسباب العقل . . وانه لا يتمشى مع المنطق البشرى . . ومن هنا كان لابد من تثبيت مريم تثبيت اليقين . . حتى لا تهتز نفسها أبدا لما سيقابلها من أهلها وعشيرتها من انكار وعدم تصديق لما حدث . . وكان لابد أن تكون مريم على يقين كامل من أن مشيئة الله سبحانه وتعالى هي التي أعطتها عيسى عليه السلام . . ومن هنا كان التثبيت بالتعرف على طلاقة القدرة . . في أمور مادية محسة كالرزق . . ثم التطهير بالعبادة حتى تشف النفس البشرية . . وتستطيع أن ترى ما لا يراه غيرها . . ثم بالإخبار من الملائكة . . ثم بعد ذلك باليقين من الروح أو الملك الذي أرسله الله لها على صورة إنسان . . والذي اختفى من أمامها دون أن يمسه . . ومع ذلك قالت مريم :

﴿ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

سورة مريم آية ٢٠

خواطر عن سورة مريم

.. وعادت مريم إلى الأسباب مرة أخرى .. فرد الله :

﴿ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ۖ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

سورة مريم آية ٢١

هنا حسم الله سبحانه وتعالى المسألة مع مريم تماما في رده عليها هذه المرة فقال إن ذلك على هين وبسيط أن أهبك غلاما بدون بشر .. وسيكون هذا الغلام آية للناس ، أى معجزة من الله سبحانه وتعالى لخلقهم من الماديات التى عبدوها من دون الله .. ورحمة منا .. أى أنه سيكون رحمة لمن يتبعه .. يقودهم إلى الطريق .. ويرشدهم إلى المنهج .. ويكون قدوة لهم .. وينقذهم من ضلال بنى اسرائيل وماديتهم « وكان أمرا مقضيا » .. هنا الحسم .. أى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يقول لمريم إن هذا الأمر قد قضى وانتهى .. ولم يعد لك خيار فيه .. وأنه بعد هذا الاعداد كله فلا بد أن يدخل اليقين قلبك على أن الله سبحانه وتعالى يقول للشئ كى فيكون فيما يريد أن يفعله .. ولقد قضى الأمر وانتهى .. ولم يعد موضع أخذ ورد .. وحملت مريم بطلاقة القدرة .. وذهبت إلى مكان بعيد عن الناس .. فقد كانت تخشى أن تواجههم .. فهى تعلم يقينا أن هذا آية من آيات الله .. ولكن ماذا ستقول لهم .. وكيف تشرح لهم بطلاقة القدرة .. وهم لا يعرفون عنها شيئا .. أن بنى اسرائيل أناس ماديون .. والمادة تبعد الشفافية عن الجسم وتجعله معتما .. لا يرى إلا ما هو مادي صرف .. معزول تماما عن الغيبات فكيف ستأتى إلى هؤلاء القوم .. لتقول لهم كلاما عن بطلاقة قدرة الله .. وكيف سيصدقونه وهم على غير علم .

● وكان هذا يخيف مريم

كان هذا هو الذى يخيف مريم عليها السلام .. وهو الذى جعلها تبتعد عن الناس إلى مكان قصي بعيد تضع فيه طفلها .. لأنها لم تكن تستطيع أن تواجه وحدها قوما لا يعلمون شيئا عن بطلاقة القدرة .. بمعجزة من معجزات بطلاقة

خواطر عن سورة مريم

القدرة .. مريم نفسها كانت على يقين مما حدث .. وبعد الآيات البيّنات التي أراها لها الله سبحانه وتعالى .. وتبشير الملائكة لها .. ثم الملك الذي ظهر ليجعلها تتأكد يقينا أنه لم يمسهها بشر .. ثم قول الله سبحانه وتعالى « وكان أمرا مقضيا » .. كل ذلك قد جعل مريم لا تهتز ولا تظن بنفسها السوء .. بل هي على يقين من المعجزة .. ولكن ماذا تقول للناس .. وكيف تفسر لهم ما حدث .. وكيف تجعلهم يصدقون ؟

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يكن غافلا عن هذا .. كان يعلم هذا كله .. وهو العليم بخلقه .. وكان يعرف أن مريم إذا واجهت بنى اسرائيل وقالت لهم انها طلاقة قدرة الله فلن يصدقوها .. ولن يستمعوا إليها .. وسيفترون عليها مختلف الافتراءات .. حينئذ جاء الحل من السماء .. قال لها الله سبحانه وتعالى أنت لن تتكلمي يا مريم ولا أريد لك أن تتكلمي .. ذلك أنك مهما قلت فإن كلامك قد يؤخذ وينسج عليه افتراءات ضدك .. ولكن الذى سيتكلم هو هذا الطفل الرضيع الذى يبلغ من العمر ساعات فقط .. سأجعله ينطق أمامهم لأريهم طلاقة القدرة .. فإذا ما رأوا آمنوا .. لا يوجد طفل فى العالم يتكلم بعد ولادته بساعات .. ولا يستطيع لفترة قد تزيد إلى عام .. ولكنى سأجعل عيسى ابن مريم يتكلم بعد ولادته بساعات .. لماذا .. لمجرد الاعجاز .. لا .. فالله سبحانه وتعالى أعلى وأكبر من أن يريد شهادة من خلقه على اعجازه .. أو أن يريد شهادة من خلقه على أى شىء .. ولكن حتى إذا كذبوا بطلاقة القدرة التى فعلت كل هذا وجاءت بعيسى ابن مريم .. أريهم طلاقة القدرة على الطفل الصغير عليها تفيقهم من غيهم وتجعلهم يحسون أنه من الجرم والاثم الكبير الافتراء على مريم ..

ومن هنا فإن عيسى ابن مريم تكلم ساعة ولادته .. بل انظر إلى دقة تعبير القرآن الكريم :

فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِينَ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾

سورة مريم آية ٢٤

خواطر عن سورة مريم

أى أن عيسى ابن مريم عليه السلام تكلم لحظة ولادته وعمره دقائق فقط ..
وقبل أن تمتد يد أمه لتلتقطه من تحتها .. لا تخزني فقد جعل الله تحتك نورا منه
يهدى إلى الحق .. وكان قول عيسى عليه السلام ردا على مريم التي كانت
تفكر .. كيف ستلقى قومها به .. وماذا ستقول لهم .. وكان الموقف بالنسبة
لها عصيبا .. حتى أنها قالت « يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » ..
وهي في لحظة تمنيتها الموت لأنها تعرف ما ستقبله من بنى إسرائيل .. وكيف
سيقابلونها بالنكران والافتراءات .. والموقف العصيب الذي ستمر به .. وهي
في قمة هذا .. تكلم عيسى ابن مريم وقال لأمه « ألا تخزني قد جعل ربك تحتك
سريا » .. ثم نبهها الطفل الذي ولد منذ دقائق فقط أنها في حاجة إلى الطعام
والشراب .. لتقوى وتشتد وتستطيع أن تواجه ما هو قادم .. فقال لها « وهزى
إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكل واشربي وقرى عينا » .. ثم
جاءت الآية الكبرى من الله سبحانه وتعالى ..

﴿ فإِمَّا تَرَىٰ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنَأْكُلَمَ

الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾

سورة مريم آية ٢٦

هكذا قال عيسى ابن مريم لأمه مؤيدا بروح القدس .. ومؤيدا بنور من الله
سبحانه وتعالى .. قال لها ان أحدا لا يطلب منك أن تتكلمي فمهما قلت في هذه
الحالة فلن يفيد .. ولن يقنع أحدا .. ذلك أنهم معزولون عن طلاقة
القدرة .. وقد جئت لهم لأخرجهم بطلاقة القدرة من المادة التي يعبدونها ..
فمهما قلت يا مريم فقولك لن يقنع أحدا .. وفي مثل هذه الحالة قول الأم
لا يفيد .. فاصمتي أنت تماما .. وقولي : « إني نذرت للرحمن صوما » .. أى
قررت أن أصوم لله تعالى .. فكان الصوم عن الكلام .. قولي لهم إنني لن أكلم
إنسانا اليوم لأنني صائمة عن الكلام .. ولكن الذى سيكلمكم ..

خواطر عن سورة مريم

ويناقتشكم .. ويرد على حججكم .. هو هذا الطفل الصغير الذى عمره ساعات .. إنه هو الذى سيرد ليكون دليلا ماديا ملموسا أمامكم على طلاقة قدرة الله التى جاءت به .. ومادتم لا تعبدون إلا المادة ولا تثقون إلا فى الماديات .. فقد اختار الله سبحانه وتعالى لكم معجزة من جنس ما تثقون فيه .. ليرد كيديكم .. ويكون آية من الله لكم لا تستطيعون انكارها .. ولا تقدرتون على اخفائها ..

عند هذه النقطة اطمأن قلب مريم .. وعرفت أن الله سبحانه وتعالى الذى اصطفاه على نساء العالمين لن يتركها .. وأنه سيرسل معها من يدل على صدقها وطهرها .. وان هذا الطفل الصغير الضعيف سيكون الدليل على قدرة وعظمة الله سبحانه وتعالى وعلى صدق مريم ..

● المواجهة .. بالمعجزة

وحين اطمأنت مريم عليها السلام إلى أن الله سبحانه وتعالى سيرسل معها الدليل المادى الذى لا يحمل الشك فى صدقها .. اطمأن قلبها .. وحملت ابنها وذهبت إلى قومها .. ويقول القرآن الكريم :

﴿ فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا نُحْتُ هَٰؤُلَاءِ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

سورة مريم الآيتان ٢٧ - ٢٨

وهكذا نجد أن المواجهة التى توقعتها مريم قد حدثت .. وأن بنى إسرائيل قد واجهوا مريم بالسوء قبل أن يسمعوها منها كلمة واحدة .. وهم كقوم ماديين عبدوا الأسباب .. لم ينتظروا حتى تتكلم مريم لتروى لهم ما حدث وهو المنطق الطبيعى فى هذه الأشياء .. فقد كان من الممكن أن يسألوها عن هذا الطفل ..

خواطر عن سورة مريم

ربما ليس طفلها .. ربما وجدته في مكان يواجه خطرا فجاءت به .. وربما ماتت أمه وهي تلده فحملته مريم إلى قومها .. ولكن كل هذه الافتراضات التي تحتم الأخذ بحسن النية أولا لم ترد على خاطر بني إسرائيل .. بل افترضوا السوء من أول وهلة وأخذوا يعيرونها وانها ارتكبت اثما كبيرا ويذكرونها بطيب أصلها وصلاح أبويها وأخيها هارون .. وكيف أن هذا الصلاح والتقوى كان يجب أن ينتقل إليها .. وأن تكون هي قدوة سلوكية حسنة .. واتهموا قبل أن يسألوا وقبل أن يعرفوا الحقيقة .. وفي هذا بين لنا القرآن الكريم سوء أخلاقيات بني إسرائيل وإسراعهم إلى الظن بالسوء والافتراء في الاتهام .. وكيف أنهم وقد عصوا الله وقتلوا أنبياءهم .. إنما ذلك عن خلق سيء لا يعرف للعمل الطيب مكانا .

حينئذ ماذا فعلت مريم .. أشارت إلى عيسى عليه السلام وهي تحمله .. فبهت القوم لأنهم لم يتوقعوا منها ذلك .. كانوا يتوقعون أن تتحدث هي معهم .. أو أن تقول لهم شيئا يبرئها .. أو تحاول تبرير ما حدث .. ذلك كان ظنهم ولكنهم فوجئوا بها وهي تشير إلى الطفل الصغير .. ولم يفهموا لأن طلاقة القدرة غابت عنهم وهم لا يتعاملون إلا بالأسباب .. فأبدوا عجبهم مما فعلته مريم فقالوا : « كيف نكلم من كان في المهد صبيا » .. أى يا مريم أنت تستخفين بعقولنا فهذا طفل صغير عمره ساعات .. أو يوم أو بعض يوم .. فكيف تطلين منا أن نتحدث معه .. وهل ينطق مثل هذا الطفل .. إن الأسباب كلها تقول لا .. إنه عاجز عن النطق ..

ولكن الله سبحانه وتعالى أنطق عيسى ابن مريم .. أنطقه وهو طفل صغير .. أنطقه ليثبت لهم طلاقة القدرة .. وأن الله سبحانه وتعالى الذي لا يجعل طفلا ينطق إلا بعد عام أو أكثر من عام من عمره .. يستطيع أن يجعل طفلا عمره يوم أو بعض يوم أن يتحدث .. ولا يجعله يتحدث حديث الأطفال .. بل يجعله يتحدث حديث الرجال راجح العقل والمنطق .. وأن

خواطر عن سورة مريم

يناقش ويرد بالحجة عليهم .. وأن يكلمهم وكأنه قد بلغ مبلغ الرجولة ..
وعقل كل شيء ..

● المعجزة .. والحكمة

لماذا وقعت هذه المعجزة .. ولماذا أتمها الله سبحانه وتعالى ؟ ليجعل هؤلاء القوم الماديين يوقنون بما حدث لمريم .. فلو أنها رزقت طفلا عن طريق عادي كما تلد النساء لما استطاع هذا الطفل أن يتكلم أو ينطق حرفا واحدا .. وحتى ولو كانوا قد انتظروا عليه حتى يكبر .. ليتعلم النطق لكان حديثه حديث الأطفال .. فيه سذاجتهم وافتقارهم إلى المنطق والحجة والفهم .. ولكن كون عيسى ابن مريم نطق بعد ولادته بيوم أو بعض يوم فإن ذلك معناه يقينا أن ذلك الطفل لم يأت بالطريق العادي وهو الذكر والأنثى .. ولكن معجزة كلامه تدل على طلاقة القدرة في مولده .. وأن مريم لم يمسهها بشر .. وإنما عيسى ابن مريم جاء بكلمة « كن » .. والا إذا كانت مريم قد مسها أي بشر لجاءت بطفل عادي مما تلد النساء .. كان يجب على بني إسرائيل أن يفيقوا ساعة نطق عيسى ابن مريم .. وأن يعلموا أنهم أمام معجزة خارقة لله سبحانه وتعالى .. وأن يؤمنوا بكل ما تقوله مريم .. ويؤمنوا بعيسى رسولا ونبيا ..

ماذا قال عيسى ابن مريم .. كان أول ما قاله « قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا » .. أي أن أول ما بشر به هم رسالته .. قال إني عبد الله حتى لا يفتن الناس بمولده .. فيحملوا الأشياء أكثر مما تحتمل .. فحسم الموقف بأنه عبد من عباد الله وبشر ورسول .. ثم بعد ذلك قال « آتاني الكتاب وجعلني نبيا » .. أي جعل لي كتابا سأبلغه إليكم .. ورسالة من السماء لكم .. وهكذا كانت أولى معجزات عيسى عليه السلام في أولى كلمات نطقها .. فقد أبلغهم بالمستقبل وهو مازال في المهد صبيا .. فقال لهم إني قد جئتكم بكتاب من الله سبحانه وتعالى .. لأهديكم إلى صراطه المستقيم .. والله جعلني لكم نبيا .. وفوق ذلك آتاني الحكمة .. وأنتم ترون هذه الحكمة .. وأنا أتحدث إليكم ..

خواطر عن سورة مريم

فليس حديثي هذا حديث طفل رضيع .. ولكنه حديث رجل أوق الحكمة يستطيع أن يجادلكم فيما تقولون .. وكانت هذه معجزة ثانية بطلاقة القدرة .. إنباء بغيب قادم ونبوة ورسالة .. ومازال عيسى ابن مريم في المهد صبيا .. وانباء بأنه وهو طفل رضيع لم يعط نعمة الكلام فقط من الله سبحانه وتعالى .. بل أعطى نعمة الحكمة أيضا ..

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (٣١)

سورة مريم آية ٣١

ومضى عيسى ابن مريم في كلامه ليقول إن الله سبحانه وتعالى قد أحاطني ببركته أينما أكون .. فما من مكان أذهب إليه .. إلا حلت فيه البركة .. وملاه الرزق .. كما أوصاني الله سبحانه وتعالى أن أعبده حق عبادته مادمت حيا .. والعبادة واجبة على الإنسان في فترة الحياة التي تتصل فيها الروح بالمادة .. تلك الفترة هي التي يكون فيها الإنسان مختارا أن يفعل أو لا يفعل .. أن يعبد الله أو يعصيه .. فقبل الحياة .. وبعد الموت لا يكون هناك اختيار .. بل هو قهر .. والله سبحانه وتعالى قال في قرآنه الكريم « لتندر من كان حيا » .. أي أن القرآن الكريم للأحياء وليس للأموات .. ولا يستطيع واحد عصي الله في حياته الدنيوية أن يقول بعد أن يموت .. إنني سأعبد الله حق عبادته بعد الموت ليكفر عني ما فعلته وارتكبته من معاص .. فبعد الموت ينقطع عمل ابن آدم .. ويعرف جزاءه أو مصيره .. بل إن في ساعة (الغرغرة) .. وهي ساعة خروج الروح من الجسد .. تعرض أعمال ابن آدم عليه .. فإن كانت طيبة انفرج وجهه وظهر السرور عليه .. وعندما تنظر إليه بعد الموت .. تقول ان نهايته أو خاتمته كانت طيبة .. وإن كان عمله سيئا .. انقبضت أساريره وأكفهر وجهه .. وحاول أن ينطق بالشهادتين فخانه لسانه .. وفي هذه اللحظة يعرف أن مصيره هو النار .. والذي يصل إلى حالة الغرغرة يعرف يقينا أنه ميت .. ويبدأ أولى دقائق حياته في العالم الآخر .. وهكذا جاء قول عيسى ابن مريم

خواطر عن سورة مريم

مؤكداً أنه كنبى لم يعف من التكليف .. فقد طلب منه الله سبحانه وتعالى وأوصاه بأن يعبده حق عبادته مادام حيا ..

ويعضى عيسى ابن مريم عليه السلام .. ليكمل ما أوصاه الله به فيقول ..
«وبراً بوالدى» .. ولم يقل وبراً بوالدى .. وهذه تأتي لتؤكد لبني إسرائيل مرة أخرى معجزة الله في مريم عليها السلام .. فلو أن عيسى جاء من ذكر وأنثى .. لقال وبراً بوالدى .. ولكنه قال وبراً بوالدى ليكون شاهد صدق على طريقة خلقه .. وأنه لم يأت من ذكر وأنثى .. بل أتى بطلاقة القدرة من مريم عليها السلام دون أن يمسه رجل ..

● وكانت معجزة كافية

وهنا يجب أن تكون لنا وقفة .. لقد أتت مريم قومها وهي تحمل عيسى عليه السلام .. ونطق عيسى وهو في المهد .. وكانت هذه معجزة كافية لتقنع بني إسرائيل بأن ما حدث ليس شيئاً عادياً .. ولا تنطبق عليه أسباب الدنيا التي يعرفها الناس .. ولكن الله سبحانه وتعالى يعرف عناد بني إسرائيل .. ومكابرتهم في الحق .. وإمعانهم في الباطل .. ولذلك فقد أراد أن يأتي بأكثر من آية .. تأكيداً لصدق مريم عليها السلام في كل ما تقول .. ولم يجعل الطفل ينطق فقط .. ولكنه جعله يؤكد لهؤلاء القوم بأنه جاء من امرأة دون أن يمسه رجل .. ويؤكد لهم هذا بكلامه هو .. وهو رسول ونبي .. مؤيداً من الله بمعجزة منذ لحظة ولادته .. ومبلغاً عن الله سبحانه وتعالى برسالة ومنهج .. ومن هنا .. فإنه صادق أمين فيما يقوله .. فإذا قال وبراً بوالدى ولم يقل وبراً بوالدى .. فإن ذلك معناه صدق معجزة مريم .. وهكذا يسوق الله سبحانه وتعالى الدليل تلو الدليل لبني إسرائيل على طلاقة القدرة .. وصدق رسالة عيسى عليه السلام .. ورغم ذلك فقد كابروا ولم يؤمنوا ..

ويعضى عيسى عليه السلام ليقول « ولم يجعلني جباراً شقياً » أى أنني لم آت إليكم كجبار يفسد في الأرض ويقهر الناس ويجبرهم على الأشياء .. وينشر

خواطر عن سورة مريم

الرعب وسفك الدماء .. بل جئتكم رحمة من الله سبحانه وتعالى .. رحمة منه لأعيدكم إلى المنهج الذى تركتموه واتخذتموه وراءكم ظهوريا .. أى وضعتموه وراء ظهوركم حتى لا تلتفتوا إليه ولا ترجعوا إليه أبدا وجئتكم كرحمة لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم .. وفى هذا رحمة من الله وفضل .. إنه يرفع العنت عنكم .. ويزيل عنكم بعض المشاق التى فرضت عليكم بعصيانكم للمنهج ولأوامر الله .. أنا قد جئت لأرفع عنكم كل هذا برحمة من الله سبحانه وتعالى .. فكأننى رحمة فى أن أعيدكم إلى المنهج .. لتعودوا إلى طريق الله السوى .. وأجنبكم عذابه وغضبه .. وجئت إليكم لأيسر لكم حياتكم فأحل لكم بعض ما حرم عليكم .. وجئتكم برحمة أخرى .. هى أنى أخرجكم من الماديات التى غرقتم فيها .. وألفتكم إلى الغيب وإلى الله سبحانه وتعالى .. عليكم ترعون الله وتهتدون .. وتعرفون أنه بجانب ماديات الدنيا .. فهناك الغيب والروح .. وهناك غير المادة التى تعبدونها وتتخذونها إلهاء .. وهناك الله سبحانه وتعالى الذى هو بطلاقة قدرته يستطيع أن يحقق لكم كل ما تريدون .. فلا تتخذوا منهج الله وراء ظهوركم وتنبذوه .. وتعبدوا مادة الدنيا وحدها .

لم يجعلنى الله جبارا .. ولكنه سبحانه وتعالى جعلنى رحمة .. ولم يجعلنى شقيا محكوما عليه بالشقاء والعذاب .. بل جعلنى مرضيا عنه منه .. أى أن الله قد رضى عنى فى الدنيا والآخرة .. ولم يجعلنى من زمرة الأشقياء الذين يشقون بغضب الله فى الحياة الدنيا وعذابه فى الآخرة .

ثم يمضى عيسى ابن مريم عليه السلام « والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .. وهذه الآية تحمل معانى عميقة .. فما من شىء أحدث جدلا فى الدنيا مثل ثلاثة أشياء .. يوم ولادته وطريقة هذا المولد .. ويوم وفاته ورفعته إلى السماء .. ويوم يبعث حيا ، أى بعثه فى آخر الزمان ليهدى الناس .. أو بعثه يوم القيامة .. وهذه النقاط الثلاث مازالت موضع جدل كبير حتى يومنا هذا .. وستظل كذلك حتى قيام الساعة .. فما زال مولد عيسى ابن مريم موضع

خواطر عن سورة مريم

جدل بين اليهود والنصارى . . وما زال كل فريق منها يتحدث عن هذا المولد بطريقة تختلف عن طريقة الفريق الآخر . . مازالت النظريات الفلسفية تقوم . . والفلاسفة والذين يكتبون عن الدين يحاولون وضع الروايات المختلفة والنظريات الفلسفية المتناقضة عن مولد المسيح عليه السلام . . ورغم أن القرآن الكريم قد حسم الموقف تماما . . وروى عن الله سبحانه وتعالى قول الحق الذي فيه يختلفون . . إلا إنه مازالت هناك فلسفات تقوم ونظريات بعد نظريات . . ولقد كان يكفي ما أراه الله لعباده من طلاقة القدرة في مولد المسيح عليه السلام . . وحديثه وهو طفل . . والمعجزات التي أيده بها . . فقد كان جبريل لا يفارق عيسى عليه السلام ليثبتته أمام الجدل والاثام اللذين واجهه بهما بنو إسرائيل . . ولكن رغم كل هذه المعجزات والتحضير الالهي لمولد عيسى . . واللفتة إلى الروحانيات . . أو إلى الغيب وطلاقة القدرة التي جاء بها عيسى عليه السلام . . فإن الجدل مازال يثور . . ولكم أن تطلعوا على الكتب التي تصدر حتى في هذه الأيام فتجدوا انها تحمل صور هذا الجدل . . ودليلا يهدمه دليل . . ولكن رغم هذا الجدل فإن عيسى عليه السلام . . أعطى السلام والأمن من الله يوم مولده وبرأه الله سبحانه وتعالى من كل جدل يحدث بعد ذلك . .

ويدور الجدل حول وفاة عيسى عليه السلام . . والقرآن الكريم يقول لنا . . إن عيسى لم يصلب وأن الله قد رفعه إليه . . ولاشك أن مسألة الرفع إلى السماء يجب ألا نتوقف عندها . . ذلك لأن عيسى عليه السلام من مولده إلى وفاته مؤيد بقدرة الله سبحانه وتعالى . . وإذا كان ميلاده معجزة . . وحديثه وهو طفل معجزة . . والأشياء التي قام بها وهو نبي والتي سنتناولها معجزات . . وكلها مؤيدة بطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . لا تخضع لأسباب الكون . . فلماذا نريد أن نخرج عن هذا كله في رفعه إلى السماء . . ولماذا نصدق طلاقة القدرة في مولده ومعجزاته . . ثم بعد ذلك نأتى إلى وفاته ورفعته إلى السماء ونجادل في الأسباب . . مادامت الرسالة كلها مؤيدة بطلاقة القدرة . . فيجب أن نأخذ كل الأحداث فيها بمنطق طلاقة قدرة الله . . وليس بمنطق الأسباب . . فلا نطبق

خواطر عن سورة مريم

على جزء من حياة عيسى عليه السلام طلاقة القدرة .. وعلى جزء آخر منها الأسباب ، وألا نكون قد ناقضنا أنفسنا .. وهدمنا المنطق .. بل إننا يجب أن نأخذ رسالة عيسى منذ مولده حتى رفعه إلى السماء بطلاقة القدرة وحدها التي تقول للشئ كن فيكون ولا نأخذها بالأسباب والمسببات التي نعرفها .

● لماذا الجدل ؟

ثم لماذا الجدل عن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء بالجسد أو الروح فلقد حدثت هذه المعجزة لرسولنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام وأسرى به الله بالجسد إلى سدره المنتهى .. ثم أعاده إلى الأرض مرة أخرى .. وهذا ثابت ويقيني مما أخبرنا به القرآن الكريم صدقا من الله سبحانه وتعالى .. فهل تقف طلاقة قدرة الله عن أن يرفع عيسى إلى السماء بالجسد .. إن الذي يؤمن بطلاقة القدرة يعلم يقينا أنه لا شيء يستطيع أن يحددها .. ولا قيود ولا حدود على قدرة الله سبحانه وتعالى ولا أسباب ولا مسببات .. ومادام الفعل قد نسب إلى الله سبحانه وتعالى فهو الذي عرج إلى السماء بمحمد عليه السلام وهو الذي رفع عيسى إلى السماء .. فإن العمل يجب أن ينسب إلى قدرة الفاعل الذي ليس كمثلته شيء .. فإذا كان الفاعل هو الله سبحانه وتعالى يكون الفعل بلا قيود ولا زمان ولا مكان .. ويكون مصدقا لأن الفاعل هو الله الذي خلق كل شيء والذي يقول كن فيكون .

إذن فلا محل للجدل هنا .. لأن الجدل يمكن أن يثار إذا كان الفاعل إنسانا .. أو محدود القدرة .. ولكن إذا كان الفاعل هو الله فلا جدال .. أما بقاء عيسى عليه السلام ليبعث في آخر الزمن أو يوم القيامة فلا يثير جدلا هو الآخر .. ذلك أنه في الحالة الأولى .. فإن الفرق بين معجزة محمد عليه السلام ومعجزة عيسى هو فرق الزمن الأرضي أو الوقت .. فمحمد عليه السلام عرج إلى السماء ثم أعيد إلى الأرض في فترة زمنية قصيرة .. وعيسى عليه السلام سيأخذ فترة زمنية أطول ولا زمن عند الله سبحانه وتعالى ..

خواطر عن سورة مريم

على أننا في كل هذا .. وأعود فأكرر مرة أخرى يجب أن ننسب الفعل إلى الفاعل .. وإذا كنا في الأشياء الأرضية ننسب الفعل إلى الفاعل .. فحفل يقيمه وزير أو حاكم لا نتقبله بعقولنا كما نتقبل بنفس المقاييس حفلا يقيمه رجل فقير بسيط .. فإذا قيل لي إن حاكما أو وزيرا قد أقام حفلا .. وإن رجلا بسيطا قد أقام حفلا .. فإنني بعقلي ودون أن يخبرني أحد أعرف أنه يجب أن أنسب الفعل إلى الفاعل .. فأعرف أن الحفل الذي يقيمه الوزير أو الحاكم يقام في مكان فاخر .. يحضره عدد كبير من الناس وعلية القوم .. بينما حفل الرجل الفقير يقام في مكان بسيط ويحضره عدد قليل من عباد الله البسطاء ، إذن ففي الحالتين قد نسبت الفعل إلى الفاعل .. وفرقت فرقا هائلا بين امكانيات الفاعل في حدث واحد وهو الحفل .. وإذا كانت هذه هي المقاييس فإننا يجب أن نفرق بين قدرة الفاعل وهو الله .. وبين قدرة البشر .. وأن ننسب الحدث لقدرة فاعله الذي ليس كمثلته شيء ..

على أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في كتابه العزيز أن هذه المسائل الثلاث - مولد عيسى ورفعته إلى السماء وبعثه - ستكون مثار جدل حتى قيام الساعة .. وأن الله سبحانه وتعالى قد برأ عيسى عليه السلام من هذا الجدل .. ومن كل ما قيل ويقال بعد رفعه إلى السماء ..

على أننا حين نتحدث عن معجزات عيسى عليه السلام .. فيجب أن نلاحظ شيئا هاما .. هو أن الله سبحانه وتعالى فرق بين هذه المعجزات رغم أن عيسى عليه السلام رسول مؤيد من الله .. فقال الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى ..

﴿ قَدْ جِئْتُمْ بِعَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ

وَأَنْبِئِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

سورة آل عمران آية ٤٩

نلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين المعجزات .. فجعل بعضها
تتبعه عبارة (بإذن الله) .. والبعض الآخر لم يذكر فيه شيئا عن هذه العبارة ..
ورغم أن عيسى عليه السلام رسول مؤيد من ربه بالمعجزات ، إلا أن الله
سبحانه وتعالى قد فرق بين المعجزات التي هي بإذنه والمعجزات التي أيد بها
رسوله .. فمعجزة الخلق وان عيسى عليه السلام يخلق من الطين كهيئة الطير
وينفخ فيه فيكون طيرا .. ذكر الله سبحانه وتعالى أن الحياة تدب في هذا الطين
بإذن الله .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد احتفظ بسر خلق الحياة لنفسه .. ولم
يعطه لعبده من عباده .. ومن هنا كان لزاما أن تأتي كلمة بإذن الله بمعنى أن الخلق
يتم لا بمعجزة ذاتية ولكن بإذن الله سبحانه وتعالى .. ثم تمضى السورة الكريمة :
« وأبرئء الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله » .. ذلك أن الشافي هو الله
سبحانه وتعالى .. ولا شافي غيره .. مصداقا لقوله تعالى « وإذا مرضت فهو
يشفين » .. كما أن إحياء الموتى هو بإذن الله سبحانه وتعالى الذى يحيى
ويميت .. وهكذا كانت هذه المعجزة إعلانا من الله سبحانه وتعالى بأنه هو
الفاعل وحده .. لا يشرك أحدا معه فى ذلك .. إنه إذا كانت هذه المعجزات قد
تمت على يد رسول فإنها تتم بإذن الله فإنه هو الذى يحيى ويميت وهو الذى يشفى
من المرض ..

ثم تأتي بعد ذلك المعجزات الأخرى « وأنبئكم بما تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي
بُيُوتِكُمْ » تلك آية من الله سبحانه وتعالى إلى عيسى عليه السلام .. مكنه الله
منها فاستطاع أن يقوم بها بذاتيته .. وهى وإن كانت تأييدا من الله .. إلا إنها
تأييد لرسوله .. كدليل على صدق الرسالة .. وأن الله سبحانه وتعالى لم يحتفظ

خواطر عن سورة مريم

بسر هذه الأشياء لنفسه .. بل أطلع عليها عيسى عليه السلام ومكنه منها ..
ومن هنا فإن هناك معجزات احتفظ الله بسرها لنفسه ومكن عيسى من القيام
بها .. ومعجزات أطلع الله عيسى عليه السلام على سرها ومكنه منها وسر الخلق
والموت وإحياء الموت احتفظ به الله لنفسه ولم يطلع رسولا من رسله على الكيفية
التي يتم بها ذلك .

على انه رغم طلاقة القدرة التي لازمت عيسى منذ ساعة مولده حتى رفعه إلى
السماء .. تلك الطلاقة التي أعطته من ساعة ولادته حتى ساعة رفعه إلى السماء
معجزات بينات .. فإن ذلك لم يقنع بنى إسرائيل .. ولم يجعلهم يؤمنون به ..
بل على العكس جعلهم يتمسكون بالماديات وهم يرون الغيبات وطلاقة
القدرة .. وبدأوا يتآمرون عليه ويكذبون رسالته .. وكلما جاءهم بمعجزة
أنكروها ولم يلتفتوا إليها .. ذلك هو طبع بنى إسرائيل .. فقد جاءهم موسى
بمعجزات لا تعد ولا تحصى .. وكلما حدثت أمامهم معجزة .. بقوا فترة وجيزة
على الإيمان .. ثم عادوا إلى الكفر مرة أخرى .. ولم تجعلهم كل المعجزات
يبتعدون عن الماديات ويتجهون إلى الله سبحانه وتعالى .. بل كان ولاؤهم دائما
للذهب والمال حتى يومنا هذا .. ولقد لعنهم الله بكفرهم ..

● .. ولم يؤمنوا ! ..

وعيسى عليه السلام بعد كل ما أراه لهم رؤيا العين .. ويقين المشاهدة ..
أحس انهم لم يؤمنوا .. وأحس أنهم يبتعدون عن الله سبحانه وتعالى .. ولذلك
يقول الله سبحانه وتعالى :

* فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ

نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

سورة آل عمران آية ٥٢

خواطر عن سورة مريم

أى أن عيسى عليه السلام حين أحس من هؤلاء اليهود بكفرهم وعنادهم ..
وعدم طاعتهم أو اقتناعهم رغم كل ما أرسله الله على يديه من آيات بينات ..
أحس عيسى منهم الكفر .. فبدأ يبحث عن رجال أمناء مؤمنين .. يبلغون
رسالته من بعده ويحملون منهج الله إلى عباد الله في الأرض .. كان ذلك يقينا من
عيسى عليه السلام أن بنى إسرائيل لن يؤمنوا له رغم كل البيئات التي جاء بها ..
ورغم أنه قد جاء إليهم رحمة من الله سبحانه وتعالى ليحل لهم بعض ما حرم
عليهم .. ليدلهم على منهج الله الذي ينجيهم من عذاب اليم .. ورغم كل هذا
الذي يعتبر في مصلحة بنى إسرائيل .. فقد أحس عيسى منهم الكفر وعدم
الإيمان .. فبدأ يلتجئ إلى الحوارين ومريديه ليلقنهم الرسالة الصحيحة ..
ويخبرهم بما أنزله الله عليه .. حتى يكونوا من بعده دعاة مخلصين لهذا الدين
الذي كان واثقا ان بنى إسرائيل سيحاولون تشويهه ومحاربته ونشر الأكاذيب عن
رسالته ولقد قام الحواريون بتلقى منهج الله ثم نقلوه بعد ذلك إلى أقطار
الأرض ..

وهكذا كان عيسى عليه السلام حريصا في حياته على أن يبلغ الرسالة التي
كلفه الله بها .. فلما لم يفلح مع بنى إسرائيل اتجه إلى تلاميذه وحوارييه ..
وأعطاهم التعاليم التي نزلت عليه من السماء .. وأخذ عهدا منهم أن يقوموا
بإبلاغها إلى الناس حتى يفوت على بنى إسرائيل فرصة القضاء على هذا الدين
وهو ما كانوا يبيتونه وأحسه عيسى عليه السلام في حياته .

إلى هنا .. وأتوقف عن خواطري حول سورة مريم .. وعيسى ابن مريم
عليهما السلام .. ولقد كانت رسالة عيسى عليه السلام تجسيدا لطلاقة قدرة الله
سبحانه وتعالى .. فطلاقة القدرة جاءت من أول الرسالة إلى آخرها .. فعندما
نذرت امرأة عمران ما في بطنها لله سبحانه وتعالى .. جعلها الله تلد أنثى .. ولما
أحست امرأة عمران أن الذكر ليس كالأنثى .. ورفعت يديها إلى السماء معلنة
ذلك .. قال لها الله سبحانه وتعالى إنه أعلم بما وضعت .. ثم بدأ اصطفا
مريم يكشف طلاقة القدرة لها على أشياء مادية من الرزق الذي يعطيه لها الله

خواطر عن سورة مريم

وهي في المحراب تتعبد .. وشاء الله سبحانه وتعالى أن يرى زكريا طلاقة القدرة عندما سأل مريم من أين لك هذا .. ورزقه بابن وهو رجل عجوز وامرأته عاقر .. ثم طهر الله سبحانه وتعالى مريم بالعبادة له والسجود إليه والتقرب منه ثم اصطفاها مرة أخرى على نساء العالمين لتكون هي الأنثى الوحيدة في سائر مخلوقات الله من الأنس والجن وكل ما خلقه الله لتضع مولودا بدون ذكر .. ولذلك كان الاصطفاء الثاني مقرونا بذكر اسم مريم مميزا في القرآن الكريم .. ففي كل آيات القرآن الكريم يقول الله سبحانه وتعالى مريم ابنة عمران .. وعيسى ابن مريم .. ولا يأتي ذكرها ولا ذكر ابنها بالاسم الأول وهو مريم وعيسى .. مع أن المتبع في القرآن الكريم هو الاسم الأول فقط .. لأن ما يرويه القرآن هو أمثلة إيمانية لا تتعلق بالشخص نفسه .. إلا في قصة مريم فقد اختصها الله بهذه المعجزة التي لن تتكرر إلى يوم القيامة .. والتي فضلها بها على كل النساء واللات خلقهن في العالمين .

وقد جاء ميلاد المسيح ابن مريم دليلا على طلاقة القدرة التي تقول للشئ كن فيكون .. فولد من أنثى بدون ذكر .. وثبت الله مريم قبل أن يحدث ذلك .. ثم أظهر صدق المعجزة بأن جعل عيسى ابن مريم ينطق وهو طفل عمره دقائق .. ثم أيده بالمعجزات .. عدد منها بإذن الله كأن يصنع الطين على هيئة الطير ويحى الموتى ويشفى المرضى ، كل ذلك يتم بإذن الله .. وعدد منها يتم بما أطلعه الله ونبأه به من أسرار الكون لتكون آية ودليلا على صدق رسالته كإنباء الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم .

ورغم هذه المعجزات البينات .. وأن عيسى قد أرسل رحمة لبنى إسرائيل .. فقد كفر به بنو إسرائيل وتربصوا به .. فلما أحس عيسى منهم الكفر جمع حواريه أو تلاميذه .. وأبلغهم ما أرسل به لينقلوا رسالة الله إلى البشر .. وحملهم أمانة هذه الرسالة ..

وعند هذا الحديث .. يجب أن نتناول معجزة الخلق .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الخامس

عجزة الخلق

معجزة الخلق

الاعجاز في القرآن الكريم هو إعجاز دائم .. أى أن القرآن معجزة يوم أن أنزل .. ومعجزة في هذا العصر .. ومعجزة في العصور القادمة إلى أن تقوم الساعة .. ذلك أن إعجاز القرآن اعجاز متجدد .. وعطاءه هو عطاء لكل جيل .. عطاء مختلف عن الجيل الذى سبقه .. تلك حقيقة هامة لا بد أن نعيها حين نتحدث عن اعجاز القرآن الكريم ..

والقرآن لا يفسر بمعنى أنه لا يمكن لأحد أن يقول إنه يفسر القرآن .. بل هي خواطر إيمانية لكل مجتهد حول القرآن الكريم .. ذلك أن التفسير الكامل للقرآن لا يعلمه إلا الله وحده .. وإنما خواطر القلب المؤمن هي التي يمكن أن نسجلها حول آيات القرآن الكريم .. ولو أن القرآن الكريم كان من الممكن أن يفسر لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بتفسيره .. لأنه نزل عليه .. ولكن رسول الله بين للناس الأحكام التكليفية التي يثاب المرء إن فعلها .. ويعاقب إن تركها .. وهي حدود الله سبحانه وتعالى في أفعل ولا تفعل .. أما ما يتعلق بالوجود وأسرار القرآن حول هذا الوجود .. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشع ذلك ولم يعمله .. وإن كان قد علمه هو نفسه .. لماذا؟ لأن العقول قد لا تتقبله .. فالقرآن لم يأت ليعلّمنا أسرار الوجود .. وإنما وضعت أسرار الوجود في القرآن الكريم لتعطي عطاء لكل جيل حسب العلم الذى يكشفه الله له .. حينئذ يكون عطاء القرآن مستمرا مع تقدم العلم والحياة إلى أن تقوم الساعة ..

إن في القرآن إعجازا في اللفظ .. واختيار الكلمات والمعاني .. بحيث تناسب كل عقل .. وكل جيل .. ولعل أولى معجزات القرآن أنها تخاطب الجميع : المتعلم .. والجاهل .. والذى قرأ علوم الدنيا كلها .. والذى لم يقرأ حرفا واحدا .. وإذا لاحظنا في الخطاب البشرى .. نجد أنه يقال لكل مقام مقال .. أى أن الذى يتحدث به مع نخبة من العلماء غير الذى يتحدث به مع أناس بسطاء .. لم يقرأوا شيئا .. غير حديثك لأولئك المفكرين .. ولكنك

معجزة الخلق

تذهب إلى المسجد فتجد العالم والأمى ونصف المتعلم يجلسون معا . . . ويقرأ القرآن . . . فتهتز نفوسهم جميعا . . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى يخاطب ملكات خفية في النفس لا يعلمها إلا هو . . . وهذه الملكات هي التي تهتز للقرآن الكريم . . . كلام الله . . . وكل واحد من الجالسين مهما كانت ثقافته له متاع فيما يقرأ . . . واهتزاز وانفعال داخل نفسه . . . رغم أنه من الصعب أن تخاطب هؤلاء جميعا . . . وتحديثهم بكلام دنيوى لاختلاف مستوى العقول . . .

إن القرآن الكريم لم يأت ليعلمنا أسرار الوجود . . . ولكنه أشار إليها وسجلها ليظهر الاعجاز الالهى للناس . . . في كل عصر . . . ومع تقدم العلم البشرى . . . على أن ربط القرآن الكريم بالنظريات العلمية شئ لا يجب أن يحدث . . . فالقرآن لا تربط صحته باتفاقه مع نظرية علمية أيا كانت . . . ولكن العلم هو الذى يستمد صحته وبيانه إذا اتفق مع آيات القرآن الكريم . . . فكل علم يخالف لحقائق القرآن هو علم زائف . . . لأن قائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى وخالق الكون هو الله سبحانه وتعالى . . . ولا يمكن لمخلوق أن يصل في أسرار الكون إلى علم الخالق . . . تلك حقيقة هامة خاصة لأولئك الذين يحاولون أن يربطوا معجزة الخلق بنظريات أرضية . . . والحياة والموت هما مما اختص به الله سبحانه وتعالى نفسه . . . حتى إنه إذا أعطى هذه المعجزة إلى رسول من رسله . . . كما أعطاهما إلى عيسى عليه السلام . . . فإنه يقول . . . باذن الله . . . فعيسى يقول . . . « وأحيى الموتى بإذن الله » . . . ويقول . . . « إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » . . . ولكنه يقول . . . « وأبرىء الأكمه والأبرص » . . . « وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم » . . . يلاحظ أن معجزة الحياة والموت لم ترد إلا ومعها كلمة باذن الله . . . بينما وردت المعجزات الأخرى كإبراء الأكمه والأبرص . . . وغير ذلك . . . كمعجزات أيد بها عيسى من الله سبحانه وتعالى . . . دليلا على صدق رسالته . . . وتبليغه عن الله . . . ولكن معجزة الخلق هي لله وحده . . . ولكن بعض الناس يأتى ليجادل في ذلك . . . مدعيا أن الإنسان أصله قرد . . . إلى آخر ما يقال في عدد من النظريات

معجزة الخلق

العلمية .. ونحن نقول لهؤلاء .. إذا كان الإنسان أصله قرد .. فلماذا توقف هذا التحول منذ ألاف السنين .. لماذا لم نشهد نحن في كل التاريخ المكتوب للبشرية .. ان قردا قد تحول إلى إنسان .. فمن الذى اختص قردا واحدا .. دون بقية بنى جنسه .. فى أن يتحول إلى إنسان مرة واحدة فى التاريخ لا نعرف لها سجلا .. ولم نسمع عنها شيئا .. اللهم إلا افتراضات لا تستند إلى الحقيقة .. لو أن الإنسان أصله قرد .. لكانت سنة أن يتحول القروود إلى بشر .. ومادام ذلك قد حدث مرة واحدة .. فإنه لا بد أن يتكرر .. ولكننا لم نشاهد هذا فى التاريخ الإنسانى .. فما الذى أوقفه .. ولماذا لم تستمر العملية ككل عمليات الحياة .. إن الذى أوقفه أنه لم يحدث أصلا .. ولم يكن موجودا إلا فى خيال أولئك الذين زعموه بلا دليل علمى محسوس .. ولو كان هذا صحيحا لأمكن بعد تقدم العلم البشرى أن يقوم العلماء بتحويل قرد إلى إنسان .. ولكنه مجرد زيف ..

والله سبحانه وتعالى حين أوجد الحياة أبلغنا بطريقة الخلق ومعجزته .. وقال إننى خلقت من كل شىء زوجين اثنين .. أى أن كل مخلوقات هذه الدنيا بدأت بخلق الله سبحانه وتعالى للذكر وأنثى .. ثم بدأ التكاثر بعد ذلك .. وكل من يقول غير هذا .. هو مخالف للحقائق العلمية فى أن الحياة لا يمكن أن تتكاثر إلا بالذكر وأنثى .. وهذا هو بداية الخلق ..

● أسرار الخلق

على أن بعض الناس لا يكتفى بما قال الله سبحانه وتعالى عن الخلق .. وإنما يحاول أن يصل إلى أسرار هو ليس مؤهلا لها .. نقول له إن الله سبحانه وتعالى أعطى للعلم البشرى ما يفيد .. وحجب عنه ما هو علم لا ينفعه .. وجهل لا يضره .. فعدم علمك بأسرار خلق الشمس مثلا .. لا يؤثر فى شىء فى استفادتك بالشمس نفسها .. فى الزراعة .. والتدفئة .. واستغلال النهار فى السعى من أجل الرزق .. وغير ذلك مما احتاجه فى حياتى العادية .. تماما كما

معجزة الخلق

يحدث بالنسبة للكهرباء مثلا .. فعدم معرفتي بأسرار الكهرباء لا يمنعني من أن أضغط على الزر .. فأوقد المصباح .. وأؤدى عليه حاجاتي في الليل .. وعدم علمي بأسرار التليفون لا يمنعني من أن أستخدمه لأتحدث به إلى من أريد .. وهكذا أشياء كثيرة في الكون .. أستطيع أن أستخدمها دون أن أصل إلى أسرارها .. أى أستخدمها العالم بها والجاهل بها بنفس الطريقة .. ونفس الاستفادة

ومن هذه الأشياء .. الغيبيات التي اختص بها الله سبحانه وتعالى نفسه .. نجد إنسانا يبحث عن أسرار الروح .. نقول له انك لن تخلق روحا .. ولن تصل إلى أسرارها لأنك لا تستطيع أن تأخذها وتضعها في المعمل .. وتجرب التجارب عليها .. فهي شيء غير مادي يتصل بالمادة فيعطيهما الحركة .. ويخرج منها فتعود مادة هامة كما كانت .. وأنت لا تعرف مكان الروح في جسدك .. في أى جزء هي .. هل هي في القلب .. أو في المخ .. أو في اليدين .. أو في القدمين .. فالجسد كله يتحرك بالروح .. ولكن هذه الحركة عامة .. بحيث لا يستطيع إنسان أن يحدد بالدقة مكان الروح من الجسد .. بل ان الروح حين تغادر الجسد فإن وزنه لا ينقص ..

إذن النفس هي اتصال الروح بالمادة لتعطيها الحياة .. فإذا اتصلت الروح بالمادة أعطتها القدرة على الحركة والنمو .. وكل ما تحتاجه الحياة البشرية .. وإذا انفصلت عنها عادت المادة إلى طبيعتها الساكنة الهامدة .. والله سبحانه وتعالى احتفظ لنفسه بسر الحياة .. وسر الموت .. فهو خالق الحياة .. وخالق الموت .. وكل محاولة في هذه المجالات .. إنما هي علم لا ينفع وجهل لا يضر .. ذلك أن عدم معرفتي بأسرار الروح والخلق لا يمنعني من ممارسة حياتي على الأرض .. وليس معنى ذلك أن البحث في هذا الموضوع منهي عنه .. بل ليبعث أهل الأرض كما يشاءون .. ولكن الذي نرفضه أن يأتي إنسان بنظرية مبنية على الظن والاستنتاج .. ويحاول أن يجعل منها قضية لطعن الدين .. بينما

معجزة الخلق

هي في الحقيقة مجرد ظن لا يغني عن الحق شيئا .. كأن يقول عالم إن الإنسان أصله قرد دون أن يأتي بدليل مادي على ذلك .. فهذا أمر مرفوض لأنه يخالف قول الله تعالى .. بأن الخلق تم لكل نوع بزوجين ذكر وأنثى .. فالبحث العلمي إذا قام على حقائق فإنه مقبول .. وإذا قام على الظن والافتراض .. فإنه مرفوض .. وحقائق الكون كما ذكرها الله في القرآن الكريم هي حقائق أزرية .. لا يمكن أن تتصادم مع الخلق لأن القائل هو الخالق ..

ونأتى الآن إلى خلق آدم .. الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الإنسان من طين .. أي من عناصر الأرض والتربة التي نعيش عليها .. والبحث العلمي المعمى أثبت أن الأرض تتكون من ١٨ عنصرا .. كلها موجودة في جسد الإنسان .. ثم نفخ الله سبحانه وتعالى فيه من روحه .. والروح من أمر الله .. لم يصل إليها العلم .. ولن يصل .. فتم خلق آدم .. وخلق حواء من آدم .. ثم عرض الله سبحانه وتعالى آدم على الملائكة .. وقال لهم إنه خلق خليفة في الأرض .. وهنا قالت الملائكة .. اتخلق من يفسد فيها .. ويسفك الدماء .. ونحن نسيح بحمدك .. قول الملائكة هذا قد يوحي بأنه كان هناك خلق آخر قبل خلق الإنسان .. عوالم أخرى كالجن مثلا .. وأن هؤلاء أفسدوا في الأرض .. وسفكوا فيها الدماء .. وكانت تجربة شهدها الملائكة .. فحكموا بها .. ومن هنا فإن حكمهم كان على شيء قد مضى .. وحدث .. وهم يطبقون التجربة بالقياس .. حينئذ ماذا فعل الله سبحانه وتعالى .. علم آدم الأسماء كلها .. أي أنه علمه أسماء الأشياء التي سيقابلها في حياته على الأرض .. وسواء كان ذلك هو العلم البشري كله .. اختزن في عقل آدم ليخرج بعد ذلك إلى ذريته جزءا جزءا .. أو سواء كان ذلك العلم الأولي الذي استخدمه آدم حين نزل إلى الأرض .. فالثابت أن علم آدم جاء من الله سبحانه وتعالى .. وأن الله هو الذي علم الإنسان ..



● العقل يرث الحضارات

وهنا لنا وقفة قصيرة .. أن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يجعل العقل البشرى منفردا بأن يرث الحضارات .. أى أن الإنسان هو الكائن الذى يستطيع أن يبدأ من حيث انتهى أبواه وأجداده .. فأنت تستطيع أن تعلم ابنك ما وصلت إليه من قمة العلم .. وهو يزيد عليه .. ويعلم ابنه ما وصل إليه من قمة العلم .. وابنه يزيد عليه وينقل إلى أبنائه ما أخذه عن أبيه .. وما زاد عليه .. وهكذا تنتقل الحضارة الإنسانية من جيل إلى جيل مستوعبة الماضى .. مضيئة إليه من الحاضر لتصل إلى المستقبل .. هذه خاصية للعقل البشرى وحده .. أعطاه الله سبحانه وتعالى له .. وهى خاصية لا توجد فى الحيوانات مثلا .. فأنت تدرب القرد أو الفيل .. أو أى حيوان آخر .. على أن يقوم بأعمال معينة تحتاج إلى شىء من التدريب .. وهو ينجح فى القيام بها .. ولكنه لا يستطيع أن ينقل ذلك إلى أخوته وأولاده .. بل لا يستطيع أن ينقله إلى أحد من بنى جنسه .. فالقرد الذى يتعلم شيئا مثلا .. لا يستطيع أن يعلمه لأولاده .. ليزيدوا عليه ثم يعلموه لأولادهم .. وهكذا .. كما يحدث فى البشر .. ذلك أن وراثه الحضارة خاصية يتمتع بها العقل البشرى وحده .. وهذه الخاصية قد وضعها الله سبحانه وتعالى فى العقل البشرى ليستطيع أن يتقدم .. وأن يكون معدا عندما يكشف الله له آياته فى الأرض فيستوعبها .. ولولا تلك الوراثة الحضارية لبقى الإنسان الأول على ما هو عليه .. ولما تقدمت الدنيا كلها .. لأنه فى هذه الحالة حتى لو حصل إنسان على العلم فإنه يعجز عن نقله إلى أولاده .. فينشأ الابن على الفطرة .. وحتى إذا استوعب الابن علما لا ينقله إلى أولاده .. وهكذا يبقى الإنسان بدائيا كأول عصور الحياة .. ولكن وراثه الحضارة التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى العقل البشرى وحده قد جعلته يستطيع أن يحقق هذا التقدم العلمى الهائل .. فإذا قال لك أحدهم مزهوا بما حققه الإنسان من العلم الذى أتاحه الله له فى الأرض .. فقل له لا تزه بنفسك ولا بالبشر جميعا .. بل ارجع الفضل إلى الله .. واسجد له شكرا .. لأنه هو الذى اختص عقلك البشرى دون سائر المخلوقات .. لوراثة الحضارة

معجزة الخلق

والعلم .. ولو كان لك عقل كالقرد مثلا .. لبقيت على حالتك بالنسبة للحياة الأولى .. ولما استطعت أن تتقدم خطوة واحدة في سبيل الحضارة .. وأن تصل إلى هذا العلم الذى أتاحه لك .. فالفضل أولا فى كل تقدم بشرى هو لله سبحانه وتعالى الذى أعطى العقل البشرى خاصية التقدم بأن جعله يستطيع أن يرث الحضارة .. وإذا أردنا أن نسجد شكرا للنعم التى أتاحتها لنا الكشفت العلمى .. والتقدم التكنولوجى .. فإننا يجب أن نسجد أولا لله سبحانه وتعالى .. الذى وهبنا العقل .. الذى يمكن أن يحقق هذا .. واختصنا بالقدرة على استيعاب التقدم العلمى .. والذين يحاولون استغلال هذا التقدم العلمى بالتشكيك فى قضية الدين .. نقول لهم ارجعوا إلى الأساس .. أولا .. من الذى حقق هذا التقدم العلمى .. علم اتاحه الله للعقل البشرى .. وكيف استطاع العقل البشرى أن يستوعب العلم .. استطاع أن يستوعبه بالخاصية التى أعطاهها الله له .. وميزه بها .. وهى القدرة على استيعاب الحضارة .. والزيادة فيها .. فاستيعاب علم مضى .. والزيادة عليه بعلم قادم .. ثم استيعاب هذا العلم القادم .. فضل الله على الإنسان وحده .. ولو كان للإنسان عقل كسائر الحيوانات مثلا .. لما استطاع أن يوجد حضارة أو يستوعب علما .. والذى خلق هذا العقل البشرى .. وأعطاه هذه الميزات .. هو الله سبحانه وتعالى .. ولا يستطيع أحد أن يجادل فى هذه الحقيقة ..

بعد أن علم الله آدم الأسماء كلها عرضها على الملائكة .. وقال أنبثوني بأسماء هؤلاء .. حينئذ قالت الملائكة سبحانه .. لا علم لنا إلا ما علمتنا .. الله سبحانه وتعالى هنا يريد أن يعلمنا مبدأ هاما .. إنه يستطيع أن يعطى الأدنى ما يميزه على الجنس الأعلى .. وهو وحده القادر على ذلك .. فالملائكة مخلوقات من نور .. والإنسان مخلوق من طين .. والنور مادة شفافة .. والطين مادة معتمة .. ولكن الله سبحانه وتعالى جاء فميز آدم الذى هو من طين بالعلم .. وجعله يتفوق على الملائكة الذين هم من نور .. وتلك لا يقدر عليها إلا الله

معجزة الخلق

سبحانه وتعالى .. معطيا المثل على أنه يستطيع أن يعطى الأدنى ما يتفوق به على الأعلى .. ليقضى على الغرور في أى من خلقه ..

واعترفت الملائكة بأن علم آدم الذى أعطاه الله له يفوق علمهم .. حينئذ أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم .. وهنا نقطة هامة يثيرها بعض الناس .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن السجود لغيره .. فكيف يأمر الملائكة بالسجود لآدم .. والسجود منهى عنه لغير الله .. نقول لهم .. انكم لم تفهموا ماذا حدث .. إن الملائكة لم يسجدوا لآدم .. ولكنهم سجدوا طاعة لأمر الله الذى أمرهم أن يسجدوا لآدم .. فالسجود هنا ليس لآدم نفسه .. ولكنه لأمر قاله الله سبحانه وتعالى .. تماما كما يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتجه إلى الكعبة في صلاتنا .. ونسجد .. نحن لا نتجه إلى الكعبة لذاتها .. ولكن طاعة لأمر الله سبحانه وتعالى أن نسجد للقبلة في هذا الاتجاه .. وكل أوامر الدين من السجود والحج والصوم والصلاة .. إنما هي تنفيذ لأوامر الله سبحانه وتعالى .. فنحن نصلى خمس مرات في اليوم .. تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى بالصوم ونصوم رمضان تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى بالصوم .. ونزكى من أموالنا تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى بالزكاة .. ونحج البيت تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى بالحج .. كل هذه الأشياء لا نفعلها اختياراً منا بالنسبة للقبلة أو لعدد مرات الصلاة .. أو للصوم .. أو للحج .. ولكنها تنفيذ لأمر الله بأن افعل ولا تفعل .. وهذا السجود والخضوع هو طاعة لله سبحانه وتعالى ..

● أوامر الله .. تكفى

على أنني أختلف مع بعض الذين يحاولون ربط أوامر الله بأنها مظاهر دنيوية .. فيأتى بعض الناس ليقول لك إن الصلاة هي نوع من الرياضة .. وأنا أقول لا .. إنها طاعة لأمر الله .. ولو كانت نوعاً من الرياضة للعبنا الرياضة وتركنا الصلاة .. وبعض الناس يقول لك إن الصوم هو للاحساس بشعور الإنسان الجائع .. وأنا أقول لا .. إنه طاعة لأمر الله .. ولو أنه احساس

معجزة الخلق

بالجوع لما وجب الصيام على الجائع الذي لا يجد قوتا يكفيه .. ولأصبح الإنسان الجائع معفى من الصوم .. وهكذا كل مناسك الله .. فالحج يقال عنه اجتماع للمسلمين .. وأنا أقول لا .. بل هو تنفيذ لأمر الله .. ولو كان مجرد اجتماع للمسلمين لعقدنا مؤتمرا اسلاميا يجتمع فيه المسلمون .. واستغنيا عن الحج .

إذن كل مناسك الدين في افعل وآ تفعل .. إنما نقوم بها لأنها أوامر الله .. دون ما فلسفه دنيوية .. فأنا أتجه إلى القبلة لأن الله سبحانه وتعالى أمرني بذلك .. وأصلي وأصوم وأزكى لأن الله سبحانه وتعالى أمرني بذلك .. دون أن يكون هناك أى صلة بين ما أفعل أو الرياضة .. أو الشعور بالجوع .. أو ما يقوله بعض الناس عن مظاهر دنيوية .. يحاولون بها تبرير فروض الله .. والله سبحانه وتعالى حين يقول افعل .. فهذا كاف جدا لأن افعل دون أى مبرر آخر .. وحين يقول لا تفعل فهذا كاف جدا ألا أفعل دون أن يكون هناك مبرر آخر .. ذلك أنه مادام الأمر قد صدر من الله فإن مجرد صدوره من رب العالمين هو سبب اتباعي له .. وليس أى سبب آخر .. فتلك هى العبادة الحقة لله سبحانه وتعالى .. فالله هو الخالق .. وهو الذى قال اعبدنى بأن تفعل كذا وكذا أو كذا .. والله هو الأحق بأن نجبرنا بطريقة عبادته والتقرب إليه .. وهذه رحمة منه سبحانه وتعالى أن يسر لنا هذا السبيل .. وأظهر لنا ما يجب أن نفعله لعبادته والتقرب إليه .. ونحن حين نأخذ ذلك نأخذه شاكرين لله سبحانه وتعالى أن بين لنا الطريق إلى عبادته .. وإلى الحياة الطيبة التى وعد بها عباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة ..

سجد الملائكة .. طاعة لأمر الله أن يسجدوا لآدم .. ولم يسجدوا لآدم .. لأنه هو آدم .. أو هو إنسان .. ولكن سجدوا لأن الله أمرهم أن يفعلوا ذلك .. تماما كما نتبع نحن تعاليم الله فى السجود والعبادة كما بينها الله لنا .. هنا حدثت معصية ابليس .. وابليس كان من الجن .. ومن الجن المقربين ..

معجزة الخلق

ولكن الكبرياء دخلت نفسه .. والغرور ملكه .. فرفض السجود .. وقال
«أسجد لمن خلقت طينا» ..

وهنا يدور جدل كبير .. فأبليس قد عصى الله .. ورفض أن يسجد لآدم
فطرد من الجنة ولعن إلى يوم القيامة ووعد بعذاب شديد في الآخرة .. وآدم قد
عصى ربه وأكل من الشجرة .. فتاب الله عليه ولم يطرده من رحمته .. بل أنزله
إلى الأرض وأرسل له هدى من عنده ليتبعه .. بعض الناس يقول لماذا غفر الله
لآدم ولم يغفر لأبليس .. وأنا أقول إن الفرق بين المعصيتين كبير .

وهنا لنا وقفة .. لو لم يكن الله سبحانه وتعالى قد أعلن بوضوح أن إبليس
مطرود من رحمته .. رجيم ومبعد .. ربما قلنا إن إبليس مكلف فعصى .. وهو
عرضة أن يعود إلى منهج الله فيقبل الله توبته ويغفر له فيصبح معفى عنه ..
مغفورا ذنبه .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقطع أى حس بالظن بوسوسة
الشیطان .. ولذلك فقد حكم عليه هذا الحكم المطلق الذى لا رجعة فيه ..
لماذا ؟ لأن معصية إبليس هى معصية كبيرة .. لا يمكن أن تغتفر .. فأبليس قد
رد الأمر على الله سبحانه وتعالى .. وعندما طرده الله من رحمته لم يتب .. ولكنه
قال .. بعزتك لأغوينهم أجمعين .. وهنا يجب أن ننظر إلى جلال القسم الذى
يدل على ذكاء إبليس .. فانه لم يجد منفذا لأن يمضى فى معصيته فى الأرض ..
إلا عزة الله سبحانه وتعالى .. فالله سبحانه وتعالى عزيز .. وهو فى عزته ليس
محتاجا لأحد من خلقه .. بل أن الخلق هم المحتاجون لله سبحانه وتعالى ..
ولكن الله غنى عن العالمين .. ومعنى أنه غنى عن العالمين .. أى غنى عن كل
ما خلقه من أنس وجان .. وملائكة .. وأرض .. وسماوات .. وكل خلق
له .. فمن هذه النقطة .. نقطة العزة استطاع إبليس أن ينفذ بقسمه .. ليقول
لله سبحانه وتعالى بعدم حاجتك إلى هؤلاء جميعا .. وإلى خلقهم وأرزاقهم إلى
يوم القيامة .. سأقوم بأغوائهم ..

معجزة الخلق

● الغواية والإنسان

وما هي الغواية؟ هي ابعاد الناس عن طريق الله .. وتزيين الباطل لهم .. فالمنهج في افعال ولا تفعل .. انما يريد الخير للإنسان .. ولكن مفهوم الخير يختلف عند البشر .. فهناك خير عاجل .. وخير آجل .. ولتقرب هذه النقطة إلى الأذهان .. هب أن هناك طالبين .. أحدهما يقوم للمذاكرة .. والدرس .. والتحصيل .. والآخر يقضى نهاره في اللعب .. ولا يذهب إلى المدرسة .. كلاهما يريد الخير لنفسه .. ولكن النظرة إلى الخير هي التي تختلف .. فالأول يرى الخير في المذاكرة والتحصيل .. ليحصل على مستقبل أفضل .. فهو يريد الخير الآجل .. والثاني يريد أن يتمتعها في كل يوم تعيشه .. ثم بعد ذلك يجد نفسه متشردا .. أو سارقا .. ليحصل على رزقه .. هذا هو الفرق بين الاثنين .. والفرق في النظرة إلى الخير .. والمؤمن ينظر إلى الخير على أساس الدنيا والآخرة .. فهو يريد أن يحقق خيرا في الاثنين معا .. ومن هنا فإن أي شيء يأتيه في الدنيا يمنع عنه خير الآخرة .. فهو مرفوض .. بينما الكافر يريد الخير العاجل .. ومن هنا فهو يفعل أي شيء .. ليحصل على خير الدنيا دون أن يعمل حسابا للآخرة .. فإذا استطاع أن يحصل على المال من أي طريق حرام .. أو على المتعة من غير حلال .. أسرع إليها .. ثم يأتي الموت فيجد كل منهما ما قدمه .. الأول قدم الخير للآخرة .. فيجد خيرا .. والثاني لم يقدم شيئا للآخرة فيجد الجزاء ..

إذن .. فمنهج ابليس أن يمنعك أن تفعل شيئا لأخرتك .. ومن هنا فهو يزين لك الحياة الدنيا .. بما فيها من متع مادية ويحاول أن ينسيك الآخرة بما فيها من نعيم دائم .. وهذه الغاية تتم بقسم ابليس بعزتك .. وهو يدخل من باب استغناء الله عن كل خلقه .. فلو أراد الله سبحانه وتعالى خلقه جميعا مهديين إلى الصراط المستقيم .. لما استطاع أن يتقدم منهم .. ولما استطاع أن يغويهم .. ولذلك استثنى وقال : إلا عبادك منهم المخلصين .. أي ياربي سأغوي خلقك .. إلا الذي تريده أنت وتحصه بالهداية .. فإنني لا أستطيع أن يبقى لي

معجزة الخلق

سلطان عليه .. لأن كلمة الله هي العليا .. ولا أحد يستطيع أن يقف أمام سلطان الله ..

ثم قال ابليس أنا لن أقعد لهم على طريق الشر .. لأن طريق الشر غير محتاج إلى .. أنا لا أذهب إلى الخمارة .. أو إلى بيت الدعارة .. أو إلى أماكن القمار .. وإنما سيكون عملي في مهابط الطاعة .. في أماكن العبادة .. هؤلاء هم الذين أغويهم أنا .. لأن هذا عملي ، أن أخرج هؤلاء عن طاعتك .. فكل إنسان اتبع الشر .. فهو قد اتبع طريقى دون حاجة إلى غواية .. ولكن كل إنسان يريد أن يعبد الله .. فمهمتى أن أغويه وأبعده عن هذه العبادة .. لذلك قال .. « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » .. ولم يقل .. لأقعدن لهم على الطريق المعوج ..

وهكذا تتضح ضخامة معصية ابليس .. فهو قد تحدى الله بالمعصية .. ورد الأمر عليه قائلاً .. أنا لا أسجد لمن خلقت طينا .. أتى أن ابليس اعتبر نفسه أكبر من أن يخضع لأمر من الله سبحانه وتعالى .. ووضع نفسه في موضع مساو للأمر .. يرد عليه أمره .. فيقول له اسجد .. ويقول لن أسجد .. ثم لم يقل له لن أسجد .. وكفى .. بل قال له لن أسجد لمن خلقت طينا .. أى أنه وضع علمه في وضع مساو لعلم الله .. وقال هذا خلقت من طين ولن أسجد له لأننى أعلم أننى خير منه .. وإن كنت قد أمرتنى بالسجود .. فلن أسجد لأن لى علما مساويا لعلمك .. وأنت خلقت هذا من طين .. وخلقتنى من نار .. وأنا أفضل منه .

كانت هذه هي المعصية الكبرى التى لا يمكن أن تغتفر .. ثم بعد ذلك كان هناك طريق التوبة .. ولكن ابليس بدل أن يسلك طريق التوبة .. أمعن فى مكابرتة .. فقال .. « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » .. اننى لن أتركهم يعبدونك ياربى .. ولكنى سأحيط بكل مطيع لك .. مؤمن بك .. لأفسد عليه إيمانه ..

معجزة الخلق

وأزين له طريق السوء .. والبعد عن منهج الله سبحانه وتعالى .. إلا الذين اخترت .. فهؤلاء لا أستطيع أن أقربهم لأنك تحميهم وتدافع عنهم .. وأنا مخلوق .. وأنت الخالق .. وهكذا حتى في المضي في المعصية أحس ابليس أنه لا يستطيع أن يقترب من عباد الله المخلصين الذين هداهم إليه ..

● اصرار على المعصية

ثم ننظر إلى الامعان في المعصية .. ويمضي ابليس في امعانه فيقول .. « ثم لآتينهم من بين أيديهم .. ومن خلفهم .. وعن ايمانهم .. وعن شمائلهم » .. إذن ابليس قال لآتينهم من أمامهم .. ومن خلفهم .. وعن اليمين .. وعن الشمال .. ولكنه لم يقل لآتينهم من فوق .. أو من تحت أرجلهم .. لم يذكر شيئاً عن الجهتين الباقيتين .. رغم أنها من الجهات الست المعروفة .. ذلك لأنه يعلم جيداً أن ما فوق الإنسان يمثل الفوقية الالهية .. ومكان سجود الإنسان موضع قدميه يمثل مكان العبودية .. ولا يتأتى للشيطان أبداً أن يعيش في مستوى علو إلهي فوقى .. ولا في مستوى تحتي يمثل مكان السجود والعبودية .. إذن انتهت الجهات الست .. ولم يستطع ابليس أن يدعى أنه سيأتى من مكان فوقى .. أو من مكان تحتي هو مكان السجود والعبادة .. والعجيب أنك إذا نظرت إلى نظريات الأحاد في كل عصر .. تجدها من هذه الجهات الأربع .. فيقول لك هذا تقدمى .. أو رجعى .. أى خلفى يريد العودة إلى الوراء .. أو يمينى .. أو يسارى .. تلك هى نظريات الأحاد الأربع التى يأتى منها ابليس .. ولكننا لسنا فى واحدة من هؤلاء .. لسنا تقدميين .. ندعو إلى التحلل والأحاد .. والاباحية .. ولسنا رجعيين نسير على ما وجدنا عليه آباءنا .. ولسنا يمينيين على عرف العصر .. ولا نحن يساريون على عرف العصر .. وإنما نحن أمة محمدية فوقية .. كل أمورنا تأتى من السماء .. ولذلك فإنك إذا خضعت إلى حكم الله سبحانه وتعالى .. فاعلم أنك غير خاضع لمساويك .. ولا أنت ذليل لخلق مثلك .. بل أنت خاضع للذى هو أعلى منك .. والذى

معجزة الخلق

تخضع له كل المخلوقات طوعا في الحياة الدنيا .. وكرها في الآخرة .. وأنت في ذلك مساو لأعلى خلق الله في الأرض .. فهو خاضع لله .. وأنت خاضع لله .. وهو مطلوب منه أن يطبق منهج الله .. وأنت مطلوب منك أن تطبق منهج الله .. إذن لا ذلة هنا أبدا .. بل أنت مساو لأكبر خلق الله في الدنيا .. وربما أنت أفضل منه في الطاعة .. فإذا قال لك أحدهم إن العبودية ذل .. تقول له أبدا .. بل الذل هو في اتباع غير منهج الله .. فإذا أنت اتبعت غير منهج الله تصبح ذليلا لبشر مثلك .. مهانا في حياتك .. مقضيا عليك بالذلة .. ولكن إذا خضعت لله وحده فأنت وكل خلق الله في منزلة متساوية .. ترفع رأسك أمام الجميع لأن أى إنسان مهما علا .. فهو خاضع لمنهج الله .. إما طوعا في الحياة الدنيا .. وإما قهرا في الآخرة ..

● أمية الرسول

.. ولعل هذا هو الذى جعل الله سبحانه وتعالى يختار رسولا أميا ليحمله بآخر رسالة من السماء إلى الأرض .. وما هو معنى أمى .. معناه أنه كما ولدته أمه .. لم يأخذ ثقافة من خلق من خلق الله مساو له .. لا تثقف على الشرق ولا على الغرب .. ولا قرأ لفيلسوف ولا لصاحب نظرية .. إذا كان الإنسان في هذه الحالة لم يقرأ لمساو له .. ولم يأخذ من ثقافات الدنيا شيئا .. يكون كل ما يأتى به معجزا ومعجبا .. لأنه من فوق .. من الله سبحانه وتعالى .. إذن فالأمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم شرف وشهادة .. فهى شرف له .. لأن الذى نزل به القرآن من اعجاز .. قد هز الدنيا كلها .. وشهادة لأنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه جاء بهذا الكلام من فلاسفة الشرق .. أو فلاسفة الغرب .. بل هذا الكلام موحى به من الله سبحانه وتعالى .. والقرآن الكريم الذى فيه اعجاز متجدد .. وعطاء مستمر للبشرية كلها حتى يوم القيامة .. إذا جاء على يد رسول أمى فهو شهادة له بأنه منهج السماء .. وما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسرى على البشر من بعده .. فتلك معجزة تختص

معجزة الخلق

بالقرآن الذى نزل على رسول الله .. أما نحن فقد طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نتعلم ونقرأ .. ونتدبر فى آيات الله فى الأرض .. لماذا؟ لأن أحدا منا لن ينزل عليه قرآن أو كتاب من السماء .. فقد انتهت الرسالات بنزول القرآن الكريم . وخاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام .. ولذلك لا يكلفنا الله سبحانه وتعالى بما اختص به رسول الله .. بل يطالبنا بأن نقرأ ونتعلم .. ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل إلى ارتفاعات حضارية .. وكانت له نظريات عقلية واصلاحات حدث بها الناس .. ليقودوا حركة حياتهم لكان الكافرون قد قالوا إن القرآن الكريم علم بشرى .. ولكن الأمية هنا تأكيد لصلة رسول الله بالسماء وأنه ليس للأرض أى دخل فى هذا المنهج .. وأن هذا المنهج ليس من معطيات عقول البشر .. بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل بعلويته واتصاله بالسماء إلى المنهج الذى يعلم البشر جميعاً . أما القرآن فيعلم البشرية كلها .. ومن هنا فإن كل ما أوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو من الله .

مادام الشيطان قد قال لأغوينهم .. فإن ذلك يعنى اصرارا على المعصية .. وهنا فرق بين معصية ومعصية .. وفرق بين الاصرار على المعصية والندم عليها والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى ذلك ..

● المعصية تختلف

إذن فمعصيتا آدم وإبليس الاثنان من خلق الله .. وكلاهما عصي .. ولكن المعصية تختلف .. فمعصية آدم غفرت له .. ومعصية إبليس لم تغفر .. ذلك لأن إبليس رد الأمر على الأمر .. ودخل فى نفسه الكبر فى أمر من أمور الله .. ووضع نفسه ظلما فى وضع مساو لعلم الله سبحانه وتعالى .. فاستحق بذلك أن يطرد من الجنة .. وأن تنزل عليه اللعنة .. ولكن آدم اعترف بمعصيته .. وقال ياربى ان كنت قد عصيت فإنك أنت الحق .. وقولك الحق .. ولكن نفسى ضعفت ولم تستطع الاحتمال .. وهذا هو الفرق بين المعصيتين .. فالأولى دخل

معجزة الخلق

فيها الكبر . والثانية دخل فيها الندم .. وكلتاها آية .. آية ليفهم الناس المعصية التي تغفر .. والمعصية التي لا يغفرها الله .. فإذا عصى الإنسان .. واستكبر وأصر على ما فعل .. ووضع نفسه في وضع مساو لعلم الله .. فأخذ يشرع ويحل ما حرم الله .. ويحرم ما أحله .. واتخذ نفسه إلهًا .. فهو بذلك لا يدخل في رحمة الله .. أما إذا ندم على ما فعل .. واعترف بأنه ضعف .. وبأن الله سبحانه وتعالى هو الحق .. وقوله الحق .. فقد دخل في الرحمة والغفران ..

الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم .. عرفه بعدوه وهو الشيطان .. ودربه على حياته القادمة في الأرض .. فقال له إن هذا الشيطان عدوك .. فلا يغوينك .. لماذا؟ .. لأن اغواءه لك لا يحمل الحياة الطيبة .. فأنت إذا اتبعته أصبحت شقيا .. سارقا .. أو قاتلا .. معتديا على أعراض الناس .. مذموما من الجميع في الدنيا والآخرة ..

ورغم ذلك فإن الله سبحانه وتعالى الذي خلق النفس البشرية عالم يضعفها .. ولذلك فهو يقول « وخلق الإنسان ضعيفا » .. والضعف هنا عدم القدرة على اتباع منهج الله .. رغم أن فيه الحياة الطيبة .. ذلك أن الإنسان عجول .. يريد كل شيء .. ويريد في وقت قصير جدا .. ولو أنه صبر لنال ما يريد .. ولو أنه اتبع منهج الله لأوق أضعاف أضعاف ما سيحصل عليه من المعصية .. ولكنه يريد كل شيء في لحظة .. وهو يريد خلودا في الأرض .. وما هو بخالد .. ويريد مالا لا يفنى .. والمال صفته الفناء .. إما يفارقك هو .. أو تفارقه أنت .. وكلاهما فناء له لأنك أصبحت عاجزا عن أن تصل إليه .. ومن هذه النقطة استطاع الشيطان أن يغري آدم في الجنة .. ويجعله يأكل من الشجرة التي حرمها الله .. والشجرة هنا رمز لكل معصية .. والخلود والمال الذي لا يفنى رمز لكل طمع بشري .. ولقد كانت التجربة ليحدث شيئا .. أولهما أن يعلم الإنسان أن ما يعده الشيطان غير صحيح .. بل أحيانا يأتي بعكس ما هو مطلوب منه .. فالإنسان قد يزين له الشيطان قتل إنسان آخر .. ويقنعه بأنه لن يقع في قبضة العدالة أبدا .. فإذا

معجزة الخلق

ارتكب الجريمة كان بعد ساعات في يد العدالة .. لماذا؟ .. لأن الشيطان يريد المعصية .. ويريد اهلاك العاصي في نفس الوقت .. ذلك أنه يحس بعداوة رهيبة للإنسان .. فهو يعتقد أن الإنسان كان سبب طرده من الجنة .. وسبب لعنة الله في الدنيا والآخرة .. كل هذه الأشياء قد خلقت بغضا رهيبا في الشيطان للإنسان .. ولذلك فهو يغريه ليهلكه .. يزيد له أن يفعل .. فإذا فعل يهرب الشيطان بعد أن أوقعه في المعصية ويتركه لأسوأ الجزاء في الدنيا والآخرة .

ولقد كان من رحمة الله سبحانه وتعالى أن أخبرنا بذلك لتتخذ حذرنا .. ونتقى وسوسة الشيطان .. وأعطانا التجربة المادية لأدم .. لنعلم أن وسوسة الشيطان وهم من الغرور .. وتزيين للباطل .. وأن الإنسان لن يحصل على شيء من هذا كله .. ولذلك فإن معصية الشيطان تختلف عن النفس الأمانة بالسوء .. فالنفس الأمانة بالسوء إذا أرادت معصية .. أصرت عليها وألحت حتى يقوم صاحبها بارتكابها .. وهي هي نفس المعصية .. لا تتغير ولا تتبدل . ولكن اغواء الشيطان يختلف عن ذلك .. ذلك أنه يريد المعصية لمجرد المعصية .. فإذا وجد إنسانا قويا في ناحية من النواحي .. اتجه إلى ناحية ثانية .. لأنه لا يريد هذا اللون من المعصية فقط .. ولكنه يريد المؤمن عاصيا على أى شكل من الأشكال .. فإذا عز عليه باب .. يطرق بابا آخر .. وهكذا يظل يحاور النفس المؤمنة .. يزين لها هذا فلا تأخذه .. فيزين لها ذلك .. ويأتى عن طريق فيجده مغلقا .. فيأتى عن طريق آخر .. وهكذا يظل يحوم حول النفس المؤمنة اغراء من كل ناحية .. حتى تسقط النفس في معصية من المعاصي .. ولقد كانت رحمة الله بالمؤمن .. ان دله على طرق الشيطان من كل ناحية من النواحي .. ودله على الطريقة التي يقى نفسه بها ..

● الإنسان .. وعدوه

وهكذا خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان .. وعرفه عدوه في الأرض .. وعرفه الطريق الذي يعمل به .. وبين له كيف أن الشيطان لا يقدم إلا غرورا

معجزة الخلق

لنفس .. وأن مهمته أن يخلخل منهج الله .. بصرف النظر عن نوع المعصية .. ودلنا على أنه بقراءة القرآن نبعد الشيطان عن أنفسنا .. ولكن بعض الناس يقول أنه يقرأ القرآن .. ومع ذلك فإنه لا يحس بالوقاية من وسوسة الشيطان . نقول له إن هناك شيئا اسمه الفاعل .. وشيئا اسمه القابل .. وكلنا يستمع إلى القرآن .. ولكن درجة التقبل ليست عندنا واحدة .. بل كل بدرجة إيمانه .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى ..

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

مَاذَا قَالَ ءَانفَا ۗ ﴾

سورة محمد آية ١٦

أى أنهم يسألون عن القرآن لأنه لم يؤثر فيهم .. القرآن فاعل صحيح .. وإنما المستقبل غير موجود .. وحتى نوضح هذه المسألة في الأمور المادية نقول لك إذا أتيت بثلاثة أشخاص .. كل واحد منهم مختلف في درجات البصر .. فالأول بصره حاد .. والثاني متوسط .. والثالث ضعيف .. ووضعتهم في مكان خلوى وسألتهم ماذا يرون عند حافة بصرهم .. فسروى لك كل واحد منهم شيئا مختلفا .. ولكن الوجود أمامهم هو شيء واحد لا اختلاف فيه .. والمسألة أن كل واحد منهم قد رأى بقدر قوة بصره .. بل إن الشيء الواحد قد يؤثر تأثيرا مضادا .. إذا كان المستقبل مختلفا فأنت إذا نفخت في يدك في البرد .. تريد أن ترفع درجة حرارتها لتسخنها .. وإذا نفخت في الشاي فأنت تريده أن يبرد .. الفعل واحد .. هو اخراج الهواء من الفم .. ولكن المتقبل للفعل مختلف .. ومن هنا كان أثر الفعل عكسيا .. ففي المرة الأولى كان لرفع الحرارة .. وفي المرة الثانية كان لخفضها .. مع أن الحادث واحد .

كذلك القلوب .. بعضها متفتح للإيمان يجهد نفسه في طاعة الله . ويحمل نفسه على المنهج .. والثاني باع كل شيء في سبيل شهواته .. وفي ذلك يقول الله

معجزة الخلق

سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ

وَقَرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۗ ﴾

سورة فصلت آية ٤٤

وهكذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا أن الفعس قد يكون واحدا .. والاستقبال له مختلفا .. فيجب لكى تستقبل القرآن أن تصفو أداة الاستقبال للقرآن .. وتتقى كل خاطر يبعدك عن المنهج .. وتبتعد عن كل اغراء يوقعك في الخطيئة ..

وأنت تواجه الشيطان .. فإنك خلق الله .. وهو خلق الله .. ومادمت تواجهه مواجهة منفردة .. فإن المعركة هنا تعتمد على قوتك وقوته .. ولكنك إذا واجهته وأنت ملتحم بالله .. فلا يستطيع أن يقدر عليك .. ولنوضح هذه النقطة قليلا .. نقول لو أن طفلا صغيرا .. مشى في الشارع وحده .. وقابله طفلان صغيران .. المفروض هنا أن تقع معركة يستخدم كل منهم قوته .. ولكن هب أن الطفل نزل مع أبيه .. وأبوه هذا شاب قوى .. هل يستطيع الطفلان الآخران أن يتعرضا له .. أبدا .. إنها يهربان من وجهه لماذا ؟ .. لأن المعركة لم تعد صراعا بين قوة صبي .. وقوة صبي آخر .. بل دخل فيها من هو أقوى من الصغيرين بمراحل .. وهكذا أنت في معركتك مع الحياة .. فى كل شيء تعمله .. إذا دخلت وأنت موصول بربك فمحال أن يهزمك أحد .. لأن قوة الله معك .. تجعل الهزيمة محققة لمن يريد أن يؤذيك .. ولكن متى تتعرض للهزيمة والمهانة .. إذا دخلت المعركة بعيدا عن ربك .. فإنك فى هذه الحالة تواجه قوة متساوية .. مع قوة متساوية .. والخلبة لمن هو أقوى .. أنت هنا أبعدت قوة الله عن جانبك .. وهى القوة التى تضمن لك النصر .. والتى

معجزة الخلق

لا يستطيع أن يهزمها أحد .. ولا يصل لقدرتها أحد .. وأنت بذلك تتخلى عن أقوى سلاح في حياتك .. وأقدر من ينصرك في كل أزمة .. تتخلى عن القوة الحقيقية في الكون .. عن الفعال لما يريد .. وتدخل مغترا بقوتك وقدرتك وحدك .. ثم تتعجب بعد ذلك كيف هزمت .. ولو انك فكرت ثانية واحدة .. لعرفت السبب .. ولعلمت أنك جردت نفسك من أقوى وأقدر أسلحتها وأنه يجب ألا تتعجب وتساءل نفسك لماذا هزمت .. لأن السبب معروف ..

● لا سلطان علينا

وأنت حين تستقبل القرآن بصفاء .. وتستعيد بالله من الشيطان .. يصبح الشيطان لا سلطان له عليك .. ذلك أن المؤمنين لا سلطان للشر عليهم .. ولذلك، فإن الشيطان يأتي في الآخرة ليقول « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي » .. ومع ذلك فإن أولى خطوات الشر تبدأ من النفس البشرية .. فالشيطان لا يستطيع أن يجبر أحدا ويقهره على الشر .. ولا يستطيع أن يستخدم سلطان القهر لمن لا يريد أن يفعل .. ولكنه أولا يجب أن يجد استمالة وقبولا من النفس البشرية .. يجب أن يكون هناك اقناع بالشر .. والاقناع هنا لا يكون بالحقيقة .. ولكن بالغرور .. ولا يدخل إلى نفس متواضعة .. وإنما يدخل على نفس يملؤها الكبر .. ويصور لها فكرها .. انها تستطيع أن تصنع قدرها .. وأن تغتنم الفرصة .. وأن تصل بالدس والغش والخداع والشر .. إلى ما تشتهييه .. هذه النفس هي التي فيها الاستجابة .. الاستجابة للشر .. والتي تبدأ مسيرتها مع الشيطان من هذه النقطة .. وتمضي الأحداث .. وربما تمر السنوات .. ثم يعرف الإنسان أن كل ما فعله لم يحقق له شيئا .. بل أتى له بعكس ما يريد .. فيصبح مكروها من الناس .. مذموما .. ليله قلق .. ولا يرى فيه النوم .. والنهار شقاء لا يرى فيه الراحة .. وكل ما حوله من نعيم لا يحمل قطرة واحدة من سعادة ..

معجزة الخلق

فإذا أردت أن تتخذ الطريق الذى رسمه الله للحياة الطيبة فى الأرض .. فأول شيء يجب أن تعلمه أنك غير مقهور على الشر .. ولا على معصية الله .. بل إنك تفعل ذلك بمحض ارادتك .. وباستجاباتك لهذه الأشياء .. علك تحقق منها نفعا عاجلا .. أما إذا لم تستجب .. فإنك تظل معصوما منها .. ولذلك لا تصدق من يقول لك إنك مقهور على الشر .. بل اعلم أن العيب فى نفسك .. ولا تصدق من يقول لك مثلا إنه لو لم تعرض عليه رشوة .. أو لم يسر له اختلاس .. لظل نزيها .. فالأصل هو فى النفس .. وفى استجابتها أولا .. ولولا أن التمنى كان فى نفسه .. والرغبة ملكت قلبه .. ما مديده إلى حرام .. وما مشى فى طريق الشر ..

ويجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان يريدنا بلا معارض وبلا موسوس .. فهو قادر على ذلك .. وإذا كان يريدنا أن نكون مقهورين على الطاعة .. فهو قادر على ذلك .. ولكنه يريدنا أن نأتى إليه باختيارنا .. وأن نعبده اختيارا من أنفسنا .. وليس قهرا منها .. ومن هنا فكان لابد أن يكون هناك الإيمان والمعصية .. هذا له حلاوة .. وهذا له اغراء عاجل ليتم الاختيار عن حقيقة واقعة .. وليكون هذا الاختيار هو الطريق إلى الجنة .. وإلى الحياة الطيبة فى الدنيا .. ولذلك فإن وجود الشيطان واغراءاته وكل ما هو موجود فى الحياة الدنيا .. إنما هو ضرورة لازمة للطاعة .. فلو أنها ليست موجودة .. لكان الإنسان مقهورا على الطاعة .. ليس له طريق غيرها .. ولانفتت بذلك كل الحكمة من الجزاء والعقاب .. ولانفتت حكمة خلق الحياة .. والدنيا والآخرة ..

وجود الاغراء الدنيوى .. أو الشر .. أو وسوسة الشيطان حكمة بالغة للحياة الدنيا .. لأن الاختيار يقتضى وجود بديلين يختار الإنسان بينهما .. ولولا تزيين الشيطان للمعصية ما عرفنا قدر حب الله فى قلوبنا .. حين ترى نفعا عاجلا مزيئا له بأسلوب تهواه نفسه .. ثم تعرض عنه وتقول إني أريد الله ..

معجزة الخلق

فذلك أقوى مراتب الطاعة .. احساس العبد بحبه لربه .. ولأن هذا الإله يجب أن يعبد وأن يترك من أجله كل ما أخبرنا به أن يترك ، هو مقياس الطاعة في النفس البشرية ..

ولنضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان .. هب أن أما دعيت إلى حفل كبير فيه من زينة الدنيا ما فيه .. وبعد أن ارتدت أفخر ثيابها فوجئت بطفلها وقد ارتفعت درجة حرارته يشكو من الحمى .. حينئذ فهي تلقى بكل ما ارتدته جانباً .. وتجلس بجوار طفلها تمرضه .. وتستدعى له الطبيب .. مقياسان في قلب الأم تفاعلا معا .. المقياس الأول حبها .. لأن تذهب إلى هذا الحفل .. والمقياس الثاني حبها لأن تؤدي واجب الأمومة نحو طفلها .. والذي يتغلب هو المقياس الأقوى .. ولكن لو لم يوجد هذا المقياس .. أى لو لم تدع الأم إلى الحفل .. ولم يمرض طفلها في نفس الوقت .. فهل كنا نستطيع أن نعلم أن هذه الأم نارة بعقلها .. أو أنها ستلقيه إلى أحد الخدم أو أحد الجيران .. وتذهب هي تستمتع بوقتها .. ما كان يمكن أن نعلم لو لم يوجد المقياسان في وقت واحد .. كذلك الخير والشر .. والطاعة والمعصية .. ووسوسة الشيطان وحب الله .. كلاهما يجب أن يوجد في النفس البشرية في وقت واحد .. لكي نعلم مقدار حب العباد لله .. أو مقدار إعراضهم عن ذلك الحب ..

● الرحمة والتجربة

والله سبحانه وتعالى كان رحيمًا بنا في التجربة .. فهو لم يخلقنا ليلقى بنا إليها دون أى تدريب سابق .. بل خلقنا ودرّبنا وأفهمنا ماذا سيحدث .. فالشيطان عصي الله أمام آدم .. ثم توعد آدم .. والله سبحانه وتعالى نهى آدم عن الأكل من الشجرة .. وقال لآدم انى حرمتها لأنها تهلكك وتضرك .. وجاء الشيطان بمنطق الكذب .. فقال إن هذه الشجرة تمنحك الخلود .. وملكا لا يبلى .. وأن الله سبحانه وتعالى منعك من الأكل منها .. لأنه لا يريد أن تصبح ملكا .. أو خالدا .. كان هناك قول الله الحق .. وكان هناك قول الشيطان الذى لا يحمل

معجزة الخلق

إلا الكذب .. وعدم الصدق .. ومع ذلك ضعف آدم .. ضعف أمام رغباته في الخلود .. وضعف أمام رغباته في الامتلاك .. مع أنه كان يعيش في جنة يأكل فيها بلا تعب ولا اجهاد .. ورغم أنه كان يعيش في تلك الجنة يُذهب فيها إلى المكان الذي يريده .. ويجد رزقه وقتها يريد .. وعندما يشتهي .. أى لا يحتاج لشيء أكثر مما وفره الله له .. إلا أن الطمع البشرى بلا حدود .. أو مع أن الله سبحانه وتعالى قد وفر لآدم الاستمتاع البشرى .. فقد بقى الطمع في نفسه .. واستطاع الشيطان أن يدخل إليه من هذه الناحية ..

التجربة كانت فيها معصية من آدم .. لأن الله سبحانه وتعالى كرمه .. ولكن نفس آدم أساءت الظن بالله .. لأن الله سبحانه وتعالى وفر له سبل الحياة بلا عناء ولا تعب .. ولكنه أراد أن يزداد من ذاتيته .. كأن هناك من يملك شيئا .. ولأنه حين حرم الله عليه الشجرة حرمها لأنه يعلم انها ضارة به .. تشقى .. ولكن آدم لم يفطن لهذا .. ولم يفطن أن تحريم الله له بالنسبة لهذه الشجرة .. لا بد أن يحمل خيرا له .. لأن الله سبحانه وتعالى حين خلقه من طين .. أمر من هم أعلى منه خلقا .. الملائكة والجان .. وهم مخلوقات من نار .. ومن نور .. أن يسجدوا له .. وفي هذا تكريم كان يجب أن يلتفت إليه آدم .. فيعلم أن ربه الذي كرمه بأن يسجد من هم أعلى منه خلقا لآدم .. لا يمكن أن يريد به السوء .. بل لا بد أنه يريد به خيرا .. وإلا فلماذا كرمه .. أنت حين تكرم إنسانا .. وتعمل كل شيء من أجله .. فإن ذلك دليل على حبك له .. ورغبتك في تحقيق الخير .. ولو أن الله سبحانه وتعالى أراد بآدم شرا .. لفعل .. ولما أخضع ملائكته بأمر السجود لآدم .. هذا التكريم كان يجب أن يلتفت إليه آدم .. ونلتفت إليه نحن أيضا .. لنعلم أن الله سبحانه وتعالى كرمنا .. وفضلنا على خلقه .. ولا يمكن أن يكون هذا التكريم .. لأن الله يكرهنا .. بل لأن الله يحبنا .. ويريد لنا الخير .. ونقبل على منهج الله من منطق هذه النقطة .. فنعلم يقينا أن ما قال الله سبحانه وتعالى عنه افعل .. فهو

معجزة الخلق

خير لأن الله يريد لنا الخير .. وما قال عنه لا تفعل فهو الشر .. لأن الله لا يريد لنا الشر ..

ثم هناك لفظة أخرى يجب أن تؤكد هذا المعنى .. هي معاداة الشيطان للإنسان .. تلك المعاداة التي جهر بها .. ورفضه أمر الله بالسجود .. كانت هذه يجب أن تلفتنا إلى أن الشيطان عدو لنا .. فإذا وسوس لك أن افعل كذا .. فهو يريد بك شرا .. وإذا وسوس لك ألا تفعل كذا .. فهو يريد أن يمنع عنك الخير .. كانت هذه هي التجربة التي مر بها آدم في الجنة .. ومع ذلك ضعفت نفسه وعصى .. وأكل من الشجرة .. وهنا ظهرت الحقيقة .. فلو أن آدم لم يأكل من الشجر لظلنا حتى يومنا هذا نقول .. لو أنه أكل منها لأصبح خالدا .. وأصبحت ذريته من الخالدين .. وأصبح عنده مال لا يفنى .. وربما كان الشيطان مصدقا عندنا .. ولكن كون آدم أكل .. فظهر أن كل ما قاله الشيطان من اغواء .. هو كذب .. يريد به أن يطرد آدم من الجنة .. فلا هو أصبح من الخالدين بعد أن أكل .. ولا هو أصبح صاحب مال لا يفنى .. ولكن ظهرت عورته أمام كل الخلق .. وأسرع إلى الشجرة يقطع من أوراقها ليداري هذه العورة .. إذن فالحقيقة أنه عندما اتبع اغواء الشيطان .. لم يحصل على شيء إلا الضرر .. والطرود من الجنة .. والشيطان يريد أن يفضح عوراتنا .. ويظهر السوء منها أمام الدنيا كلها .. منذ خلق الله آدم حتى هذه الساعة .. وإلى آخر الخلق ..

● وامتدت رحمة الله

وهكذا كانت التجربة والواقع .. قبل أن ينزل آدم إلى الأرض .. الله سبحانه وتعالى أعطاه أمرا .. والشيطان أغواه على معصيته .. وظهر أن أمر الله هو الخير .. وأن وسوسة الشيطان كلها كذب وخداع .. واغواء بلا حقيقة .. وكان الله رحيما أن أعطانا هذه التجربة .. وذكرنا بها في قرآنه الكريم .. علنا نفيق .. ونعرف الحقيقة .. ونعلم أن الله سبحانه وتعالى يريد بنا الخير ..

معجزة الخلق

ولا يريد لنا الشر ولا العذاب أبدا .. وأنا إذا أحببنا الله .. أحبنا ودافع عنا .
وامتدت رحمة الله إلى الإنسان في الأرض .. ثم علمه كلمات يتوب عليه
بها .. ويمحو له الذنوب .. ويغفر الخطايا .. بشرط أن يكون في النفس
البشرية ندم آدم .. ولا يكون فيها استكبار ابليس .. وقال إذا ضعفت نفسك
فاستعد بي من الشيطان .. وأنا أعيدك منه .. وقال قبل أن تقبل على أى
عمل .. اقبل عليه بقولك باسم الله .. ذلك أنك لا تبدأ باسم الله إلا إذا كان
العمل الذى تعمله خيرا .. فإنك تستحى أن تبدأ معصية باسم الله .. وعلمنا
أن نقول بسم الله الرحمن الرحيم .. لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق لنا
الرحمة .. وأنت حينما تعمل أى عمل .. وفى بالك الله سبحانه وتعالى .. فانه
سيعطيك العطاء فى الدنيا .. والثواب فى الآخرة .. وإياك أن تستحى إن كنت
عاصيا لله .. أن تستفتح أعمالك باسم الله .. لأن الله سبحانه وتعالى لا يعرف
الحقد .. ولا يتغير على خلقه .. فأنت إذا عصيته .. لا يتغير ويقول .. أنا
سأطرد هذا العبد .. ولن أتقبل منه شيئا .. بل انه بمجرد أن تقول بسم الله
الرحمن الرحيم .. وتقبل على الله .. يقبل الله عليك .. فإذا كنت قد عصيت
الله فى شيء .. فتذكر أنه رحمن .. رحيم .. وأنه يقبل على كل عاص .. فى
اللحظة التى يتوب فيها ويعود إلى الله .. إن الله سبحانه وتعالى لا يحقد ..
ولا يفعل .. ولا يتغير .. وأنت عبد من عباده عندما ترجع إليه تجده الرحمن
الرحيم ..

والله سبحانه وتعالى حين شرع العقوبة لأى معصية .. فمعناه أنه شرع لها
الوجود .. وإلا فلماذا يضع الله عقوبة لشيء ليس موجودا .. وكما شرع لها
الوجود .. شرع لها التوبة .. باب ليخرج العاصى منه .. فيغفر له .. فإذا
كنت قد عصيت الله فلا يجب أن تستحى أن تلوذ برحمة الله .. فالله سبحانه
وتعالى رحمن رحيم .. كلمة رحيم مأخوذة من الرحمة .. ومعنى ذلك أن الله
سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا .. أنا أريد بكم الخير حتى ولو عصيتموني ..

معجزة الخلق

ولذلك كتبت على نفسى الرحمة .. فإذا كنت عاصيا فلا تستح أن تلجأ إلى رحمتى وتوبتى ..

وهكذا نرى مدى حب الله سبحانه وتعالى لعباده .. يأتى أولا ليخضع الكون لهم .. ويخضع من هم أعلى منهم .. كالملائكة .. ثم يقول لهم .. انى أحبكم .. ولذلك كرمتكم .. وما سأقوله لكم هو الخير فاتبعوه .. وما سأنهاكم عنه هو الشر فانبذوه .. ثم تأتى التجربة فى معصية .. فنعرف صدق حب الله سبحانه وتعالى لنا .. ورحمته بنا .. ونعرف أنه قد منع آدم من الأكل من الشجرة .. لأنها شر .. والشيطان أغراه بها لأنها شر أيضا .. ولكن الذى منع وهو الله يريد لنا الخير .. والذى أغرى هو ابليس يريد بنا الشر .. وتحديث التجربة واقعا .. بعد أن كانت نظرية .. ثم ينطلق الإنسان إلى الأرض .. يحمل التجربة والتوبة .. فيأكل من مائة شجرة .. فيقول الله سبحانه وتعالى سأفتح لك باب توبتى مادمت نادما .. ولن آخذ منك رحمتى .. فأنا أرزق عبادى جميعا .. المؤمن والكافر .. والعاصى والمطيع .. وتلك رحمتى بعبادى .. عل العاصى فى يوم حين يحس بنعمتى ورحمتى يصبح مطيعا عابدا ويعود إلى ..

على أن هناك نقطة أحب أن أشرحها فى هذا المجال .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى رحيم .. ومعنى رحيم أن هناك مبالغة فى الرحمة .. وبعض الناس يعتقد أن صفات الله سبحانه وتعالى تتأرجح بين القوة والضعف .. فمرة يكون راحما .. ومرة يكون رحمانا .. ومرة يكون رحيميا .. نقول له إن هذا خطأ كبير .. فصيغ المبالغة تأتى فى صفات البشر .. ولكن الله سبحانه وتعالى ليس عنده أن الصفة تضعف .. أو الصفة تقوى .. بل هى ثابتة بلا تغيير .. ولكن المتغير هو متعلقات هذه الصفة ..

ولنشرح هذه النقطة قليلا .. هب أن إنسانا يأكل كمية كبيرة من الطعام .. فأنت تقول عنه أكل .. وهب أنه يأكل كمية صغيرة .. ولكن خمس أو ست

معجزة الخلق

مرات في اليوم .. فأنت تقول عنه أيضا أكل .. ولو أنه لا يأكل في كل مرة كمية كبيرة من الطعام .. ولكنه يأكل خمس أو ست مرات في اليوم .. إذن المبالغة تأتي في الحدث .. وفي تكرار الحدث .. وإذا أردت أن تفهم التغيير في متعلقات صفات الله .. فأنت تقول رحمن .. لأنه يرحم المؤمن والكافر في الدنيا .. ويجعل الأشياء تفعل لهم .. إذن عدد الداخلين في رحمة عطاء الله بالنسبة للدنيا .. هم كل خلقه .. ليعطيهم جميعا عطاء ربوبية .. إذن فهو رحمن .. ولكنه في الآخرة مثلا رحيم .. لأنه يطرد الكافرين من رحمته .. ويبقيها للمؤمنين وحدهم .. إذن الصفة لم تتغير .. ولكن الذي تغير هو من تشملهم هذه الصفة .. ففي الدنيا كل عبد يأخذ من رحمة الله .. عدد هائل .. فهو رحمن .. وفي الآخرة يقل هذا العدد .. وتصبح متعلقات الصفة .. أو من تشملهم الصفة أقل عددا ممن كانت تشملهم في الدنيا .. فيصبح رحيمًا .. ومن هنا فإن صفات الله ثابتة .. ولكن من تتناولهم هذه الصفات هم المتغيرون حسب أحوال خلق الله .. وقولك « وما ربك بظلام للعبيد » .. معناها أنك نفيت عن الله صفة المبالغة في الظلم .. ولكنك لم تنف عنه الظلم لأنه قد يكون ظلوما وليس ظلوما .. نقول له إنك لم تفهم الآية .. فتكرار الصفة يوجب نفى المبالغة .. فعدد خلق الله لا حصر لهم .. لو أن الله ظلم كلا منهم ذرة .. لأصبح ظلوما لكثرة عدد الذين ظلمهم .. ولو أن كلا منهم لم ينله إلا ذرة من الظلم .. لذلك نفى الله عن نفسه حتى هذه الذرة .. فقال إنه ليس بظلام .. أي حتى ذرة الظلم في هذا العدد الهائل لا تصدر عن الله سبحانه وتعالى ..

● الله .. والعاصي

إذن بداية العمل بسم الله .. تعطينا العطاء والثواب في الدنيا والآخرة .. وتحفظنا من أشياء كثيرة ..
.. ويأتى الله سبحانه وتعالى إلى العاصي فلا يأخذه مرة واحدة .. وإنما يأخذه بعذاب محدود صغير .. فيشكو إلى الله سبحانه وتعالى .. ويرفع يديه إلى

معجزة الخلق

السماء .. ويصبح يارب .. فينجيه الله .. وبمجرد أن يحس الإنسان ببعد الخطر .. يعود مرة أخرى إلى الذنب .. بل ربما عاد إلى ما هو أكبر منه .. ناسيا أو متناسيا .. أنه كان يمر بضر .. أو بشدة .. أو بضيق .. وأنه رفع يديه إلى السماء وقال يارب .. وكان عدلا ألا تفتح أبواب السماء لعاص .. وألا ينفذ منها الدعاء الذي قيل بلسان لا يذكر الله .. كان ذلك عدلا .. ولكن رحمة الله سبقت .. فانفتحت أبواب السماء .. واستجيب للدعاء .. وكشف الله الضر .. وبمجرد أن أحس الإنسان أنه قد نجا .. عاد إلى كفره .. فيعود الله سبحانه وتعالى ليذكره به .. ويقول له أفق انك تهلك نفسه .. من تبارز .. وأنت لا قدرة لك .. وأنا وحدي القادر .. ولكن الغرور يركب الإنسان .. فيمهله الله .. ثم يذكره بقدرته عليه .. فيفتح عليه بابا صغيرا من الشدة .. أو الغضب .. فيجأ للسماء .. ويرفع يديه ويصبح يارب .. ويكون عدلا من الله سبحانه وتعالى ألا يتقبل .. ويكون عدلا ألا تفتح أبواب السماء .. ولكن رحمة الله تتدخل .. وترفع الشدة .. وتزيل الكرب .. فإذا أحس الإنسان أنه نجا .. عاد إلى كفره .. إلى أن يفتح الله عليه بابا من الشدة .. أو العذاب لا يغلق أبدا .. لأنه صمم على الكفر .. رغم أن الله أراه رحمته مرات ومرات .. وأزال عنه الكرب المرة تلو المرة ..

وإذا عدنا إلى قصة موسى عليه السلام نجد أن الله سبحانه وتعالى أخذ فرعون بالقول اللين أولا .. فقال الله لموسى وهارون :

﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ

أَوْ يَحْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴿

سورة طه الآيتان ٤٣ ، ٤٤

فرعون طغى .. واتخذ نفسه الها في الأرض يعبد من دون الله .. والله سبحانه وتعالى أرسل له رسولا .. ليهديه إلى صراطه المستقيم .. ويذكره

معجزة الخلق

بالله .. لم يقل لهذا الرسول اذهب .. واقطع رقبة فرعون .. وخذ ملكه ..
وأنا سأمكنك من ذلك .. ولم يقل له سأخسف بفرعون وآله الأرض ..
وأعطيها لك .. ولكننا نجد هنا أدب الرحمة في أن الله سبحانه وتعالى يقول ..
اذهب لهذا الطاغية الذى نصب نفسه إلهاً يعبد من دونى .. وقل له قولاً لنا ..
برفق .. دون أن تهينه .. أو تنهره أمام قومه .. علّ قولك هذا يوقظ فى نفسه
الشعور بالذنب .. والإيمان بى فيتذكر ويخشانى ..

لنر كيف يجب الله سبحانه وتعالى عبده حتى العاصى .. ويأخذه باللين
والرفق والهوادة .. وهو القادر على أن يبطش به بطشاً .. هل هناك رحمة أكثر
من هذا .. إن أرحم الرحماء لا يمكن أن تفيض منه هذه الرحمة .. على عاص
له .. إلا الله سبحانه وتعالى .. بل ان الله يأمرنا أن نستر على العاصى ..
ولا نفضحه .. فإذا وجدنا إنساناً يرتكب معصية .. وشاء قدره أن نعلم بها ..
فمن حسن الإيمان أن نسترها عليه .. ولا نفضحه .. لماذا ؟ لأن ستر المعصية
قد يفتح أمامه طريق التوبة والندم والرجوع إلى الله .. بينما نشر هذه المعصية
وإذاعتها قد يجعله يضل عن الطريق .. ويتهادى فيها .. فهو إذا رأى انه عصى
الله .. وأن الله ستره .. فرجماً يفتيق إلى نفسه .. ويعود إلى التوبة مرة أخرى ..
هذه هى رحمة الله بعباده .. حتى العاصى منهم .. والله لا يريد أن يعذب
أحدًا .. ماذا يفعل الله بعبادنا .. ولكن الإنسان هو الذى يصبر بالمعصية على
أن يدخل النار .. ويستكبر على الأرض .. وكلما أعطاه الله من نعم .. زادته
طغياناً وكفراً .. وجعلته بدلاً من أن يسجد لله شكراً .. ينطلق ليحاربه
بنعمه .. ذلك كفر الإنسان .. وتلك رحمة الله .

● فرعون يتكرر

.. نعود بعد ذلك إلى قصة فرعون وموسى .. قال موسى القول اللين
لفرعون .. فلم يرتدع .. وزاده القول اللين طغياناً .. وحاول أن يبارز موسى

معجزة الخلق

بالسحرة .. فأبطل الله خداع السحر .. وكان السحرة أول المؤمنين .. وكانت هذه معجزة كافية لأن يؤمن فرعون بعد أن سجد السحرة لرب موسى .. كان فرعون يجب أن يؤمن بأن موسى ليس ساحرا .. ولكنه رسول .. وبدلا من ذلك زادته هذه الآية طغيانا .. فإذا به يأمر بقتل السحرة .. وكلما جاء موسى بآية .. أنكرها .. ثم أمر بتذبيح أولاد قوم موسى .. واستحياء نسائهم .. وبدأ الله سبحانه وتعالى بعد كل الآيات التي أيد بها موسى .. بدأ الله يذكر فرعون بقدرته مباشرة .. بدون رسول .. فسلط على قوم فرعون الدم .. والضفادع .. والقمل .. وفي كل مرة تحدث فيها آية من هذه الآيات التي تحمل العذاب الأصغر .. بدلا من أن يؤمن فرعون .. ويتذكر قدرة الله .. ويتوب إليه .. ويعرف أن الله فعال لما يريد .. يأتي إلى موسى .. ويقول له ادع لنا ربك يزيل عنا هذا ونحن نؤمن .. فيدعو موسى ربه .. فيزيل العذاب .. فيزداد فرعون كفرا .. فتأتى آية أخرى .. تذكر بالأولى وبقدرة الله .. وبأن الله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض .. أى أنه يملك القوة للفعل .. والقدرة على تحقيق ما يريد .. وفرق بين القوة والقدرة .. فأنت قد تملك القدرة .. ولكنك لا تملك القوة لتحقيق ما في قدرتك .. قد تكون تاجرا بارعا .. ولكنك لا تستطيع أن توفر لك مكانا تمارس تجارتك فيه .. وقد تكون مهندسا ممتازا .. ولكنك لا تستطيع أن تأتى بالأشياء اللازمة لتبنى العمارة الضخمة التي تقدر على بنائها .. ولكن الله سبحانه وتعالى يملك الاثنين معا .. أى أنه يملك كل عناصر الفعل .. فإذا أخذ فرعون بآية من العذاب .. أراد الله أن يذكره به وبقدرته .. عله يتذكر .. فإذا ذهب الآية قال لن يستطيع أحد أن يأتي بآية أخرى .. وظن أنه قد نجا تماما .. وصور له غروره أن ما يحدث لن يتكرر .. فيذكره الله مرة أخرى .. فيسرع إلى موسى يطلب منه الدعاء فيكشف الله عنه الضر .. فيعود مرة أخرى إلى طغيانه .. هذا هو الاصرار على الكفر .. والاصرار على المعصية .. والاصرار على الكفر والمعصية لا يجبهما الله سبحانه وتعالى ..

معجزة الخلق

وقصة فرعون هذه ليست غريبة عن حياتنا . . فالله سبحانه وتعالى يأتي لكل عبد من عباده الكافرين ليذكره به . . فيتجه بالدعاء إلى الله وقت المحنة . ثم تزول المحنة فينسى . . وهكذا حتى يفتح الله عليه بابا إذا عذاب شديد . . حينئذ يتذكر الله . . ولكن بعد فوات الأوان . . فرعون حينها كان يغرق في البحر أعلن إيمانه . . ولكن الوقت كان قد فات . . لأن الله فتح عليه من أبواب الرحمة والتوبة . . وأراه من الآيات . . ما كان يجب أن يجعله مؤمنا . . شديد الإيمان . . ولكنه أصر على الكفر . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يذكرنا بذلك . . ويأن الاصرار ليس من صفات المؤمنين . . ولكنه من صفات العصاة الكافرين . . فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾

﴿ لَذُنُوبِهِمْ ﴾

سورة آل عمران من الآية ١٣٥

والاستغفار هنا ندم وتوبة على الاثم . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى « ولم يصروا على ما فعلوا » . . أى أنه نفى عنهم الاصرار على الاثم . . إذن عمل المؤمن يجب أن يكون باسم الله . . لأن الله هو الذى سخر له الأشياء . . وباسم الله لأنه يريد أن يستعين بقدرته الله . . ومادام كل عمل تعمله . . وفى بالك الله . . فالله يعينك . . ويكون معك . . وذكرك الله سبحانه وتعالى يجعل القلب يخشى . . والناس لا تمضى فى المعصية . . لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يذكرنا انه معنا يسمع ويرى . . ومن هنا فإننى حين أقوم بعمل يؤذى غيرى يقول الله لى لا . . هذا ليس لك . . وهنا تتدخل الشرائع . . ولا تتدخل الشرائع إلا لصالح الإنسان . . فالإنسان يريد فى حياته أن يحصل على كل شيء . . ما يملكه . . وما يملكه غيره . . حينئذ يأتي الله سبحانه وتعالى ليقول له لا . . أنا حميتك بقانونى . . من أن يعتدى غيرك على

معجزة الخلق

ما تملك .. ولقد حميتك من هذا رحمة منى لأنك فرد .. وغيرك كثيرون .. وإذا أبحث الاعتداء على المال فكأنى أبحث للناس كلها الاعتداء على مالك .. وإننى قد أكون حرمت اعتداءك على مال فرد أو اثنين ولكننى منعت الملايين من الاعتداء على ما تملك من مال أو عرض .. أو أى شىء بالنسبة للدنيا .. وأنا حين أفعل ذلك .. أحميك .. وأحفظ لك مالك وعرضك .. وأمنك .. فاذا اعتدى أحد عليه فأنا اقتص منه وأنا القادر على القصاص .. الفعال لما أريد ..

وهكذا كانت معجزة الخلق من الله سبحانه وتعالى .. رحمة للإنسان .. فضلا من الله .. كان يقتضى منا الحمد والشكر والطاعة .. وعندما نقول فضلا من الله .. فاعلم أن السموات والأرض .. وما فيها من رزق ونعم وآيات وخلق من يوم الخلق .. إلى يوم القيامة .. هى فضل من الله .. أى زائد عن حاجته .. لا يحتاج إليه لأن الله غنى عن العالمين .. وهكذا حين يعطينا النعم .. يعطى .. ويعطى .. ويعطى .. لأنه ليس محتاجا أن يبقى شيئا لذاته .. فهو سبحانه وتعالى غنى عن هذا كله ..

معجزة الخلق فيها رحمة .. وفيها نور .. وفيها فضل .. وفيها رضا من الله .. وكل ما نحتاجه هو أن نتأمل هذا كله ابتداء من آدم إلى يومنا هذا .. وإلى ما سياتى .. لنعرف مدى حب الله سبحانه وتعالى لنا .. ومدى رحمته بنا .. ومدى كفر الإنسان بنعم الله .. ولو قدرنا الله حق قدره لعلمنا أن العمر قصير ، حتى لو خصصناه كله لشكر الله على رحمته .. ولكن الإنسان أحيانا لا يرى وعيناه مفتوحتان .. ولا يسمع وأذناه سليمتان ..

رقم الايداع ٣٣٢٤ / ٩٣

I. S. B. N

977 - 08 - 0177 - 1

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم

۴

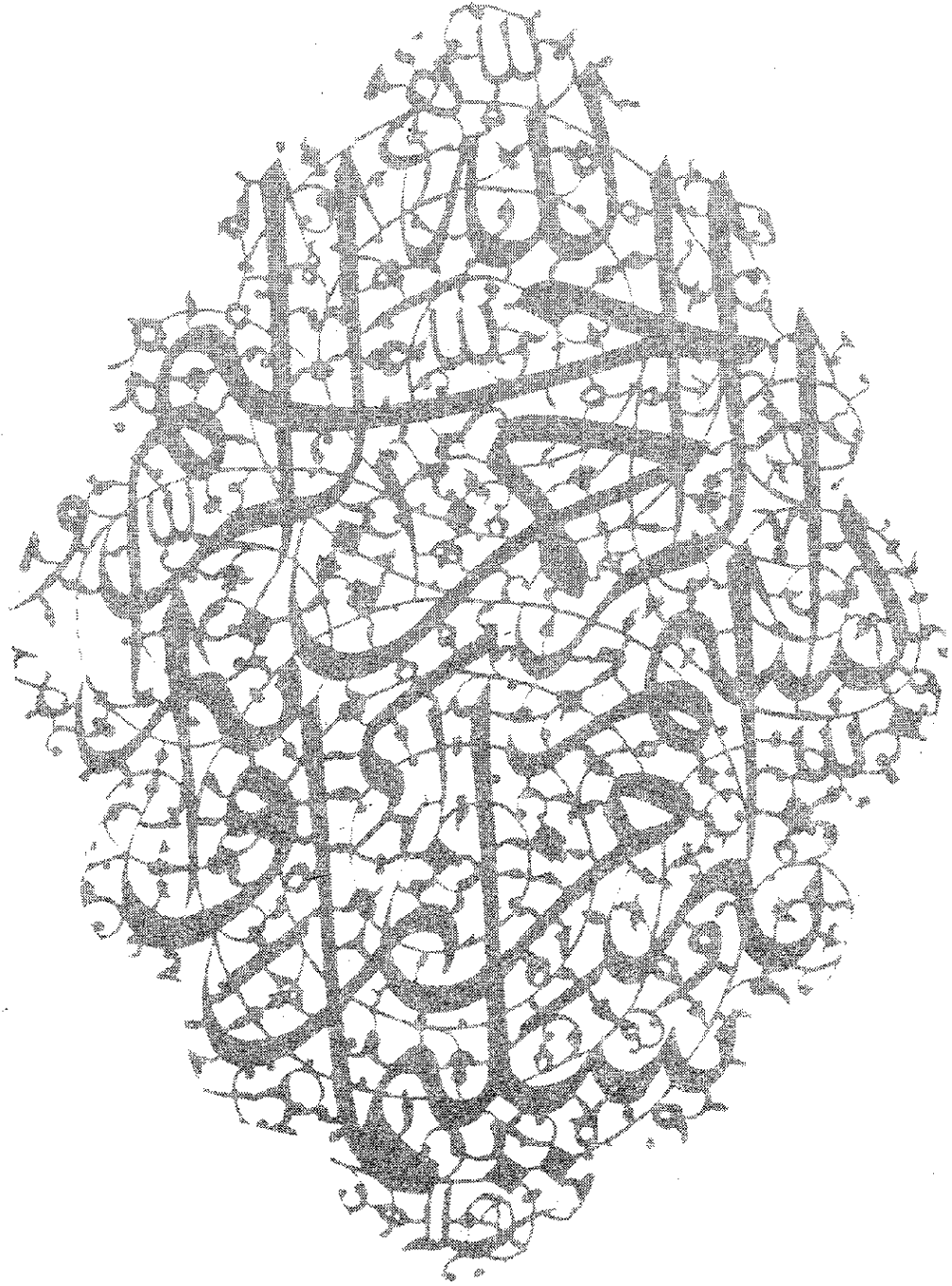
مجله اسلامی

محمد متولی الشعراوی



ادارة الكتب والمكتبات

الإخراج الفني : أشرف حسين



الفصل الأول

عِنْدَ مَا يَتَوَقَّفْنَا لِيُكُونَ!

عندما يتوقف الكون !

في كثير من الأحيان يلفتنا القرآن إلى أشياء قد تغيب عن عقولنا .. أحيانا بسبب زحمة الحياة .. وأحيانا بسبب التعود والعادة .. وأحيانا بسبب العجلة التي يريد بها الإنسان أن يقضى أموره .. وقصر النظر الذي يجعله بعيدا عن الصبر .. قليل التفكير في الحكمة في كثير من الأمور .

ذلك أن الله سبحانه وتعالى وضع في كل شيء حكمة .. وسواء غابت عنا أو عرفناها .. فهي موجودة والله المبدع قد خلق في الكون أسراراً تتكشف كل يوم .. لتذهلنا بعظمة الخالق وحكمته .

أن سورة التكوير .. تبدأ بشرح الأحوال التي تتعلق بقيام الساعة .. أو بيوم القيامة .. وفي كل آية من الآيات الأثنتي عشرة الأولى .. كلمة إذا .. فتبدأ السورة ..

« اثنتا عشرة آية تبدأ بحرف إذا .. وهو حرف شرط .. ثم بعد ذلك يأتي الجواب المراد وهو :

« علمت نفس ما أحضرت »

وفي سورة الانفطار أيضا .. إذا يقول سبحانه :

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾

سورة الانفطار

أى أن هذه كلها مقدمات عندما تحدث تعلم كل نفس ما قدمته وما أخرته .. وهكذا نجد أن هذه الآيات المتعددة .. كلها علامة على شيء واحد وهو الآخرة .. وعلم الإنسان بما قدم وأخر .

على أننا نلاحظ أن هذه الآيات تصور انقلابا هائلا في الوجود .. انقلابا لم تعتده النفس البشرية .. فالنفس اعتادت أن ترى الشمس تؤدي دورها كل يوم باستكانة .. واعتادت على النجوم في نظامها الرتيب .. واعتادت على الجبال راسية في مكانها ! .. فإذا تغير كل هذا وهو من نظام الكون الأساسي .. ولم تعد

عندما يتوقف الكون !

الشمس تؤدي مهمتها .. ولا النجوم تؤدي مهمتها .. ولا البحار تؤدي مهمتها .. ولا الجبال تؤدي مهمتها .. إلى آخر الآيات .. فكأننا خرجنا تماما عن صورة الكون المألوف .. إلى صورة أخرى مغايرة تماما .

والإنسان لا يتنبه للخطر .. ولا يحس بالنعمة إلا ساعة تخرج حياته عن المألوف فيه .. فأنت مادمت تتمتع بالصحة .. لا تشعر إنك تتمتع بشيء .. بل تأخذ هذه النعمة على أساس اعتيادي .. وأن هذا هو المألوف .. والذي يجب أن يحدث .. فإذا اعتلت صحتك .. عرفت معنى النعمة .. وقدرت ما حباك الله به وما أعطاه الله لك .. دون أن تتنبه أو تشعر .. فأنت ترى بعينيك .. ولكنك لا تحس بنعمة البصر إلا إذا حدث شيء .. أو مرض أخرج هذا البصر عن مألوف عمله .. وأنت تسمع بأذنيك .. ولكنك لا تحس بنعمة السمع إلا إذا اختل هذا الجزء من الحواس .. وهكذا كل شيء في حياتك .. كونه يمشی منسجما مع وظيفته التي خلق لها .. يفقدك الشعور به .. فإذا اختل .. بدأت تتنبه إلى هذه النعمة .. وتحس بما حباك الله به ..

كم من إنسان يأكل بأسنانه عشرات المرات .. كل يوم وهو لا يشكر الله .. فإذا ما أصيب ضررس واحد من هذه الأسنان .. بدأ يشعر بالآلام هذا الضررس وبأهميته .. وكم من إنسان يتخم نفسه بالطعام .. دون أن يحس بنعمة الله عليه .. في أنه وقاه شر ما أفرط فيه .. فإذا ما أصيبت معدته شعر بأن له معدة .. وأنها نعمة كبيرة .. وأنه يجب أن يحافظ عليها .. إلى آخر ما نعرفه في كل أعضاء الجسم .. الذي هو سليم منها يجب أن نشكر الله سبحانه وتعالى على أنه عافاه لنا .. وجعله يؤدي عمله المخلوق له أداء كاملا .. في هذه الحالة فإننا لا نحس بالنعمة .. ولا نقدم الشكر .. فإذا خرج عضو من أعضاء الجسد عن مهمته المألوفة وأصابه عطب .. ذكرنا نعمة الله فيه .

القرب من الله

والإنسان في حياته يكون أقرب إلى الله حين يمرض .. ذلك أنه يحس بنعمة

عندما يتوقف الكون !

الله .. وكلمة آه التي يقولها الإنسان وهو يتألم .. كلمة فطرية .. يفرع بها الإنسان إلى خالقه لأنه هو الذي وهب .. وهو الذي يستطيع أن يشفى .. فإذا ما استرد الإنسان صحته .. استرد معها افتراءه .. ونسى النعمة .. لأن الإنسان يفقد الأثر بالنعمة .. مادامت هي موجودة .. وهي ممنوحة له من الله .. دون أن يتعب هو .. أو يجهد .. ولذلك لا يشعر بقيمة المطر .. إلا من تتعدم عندهم الأمطار .. ولا يشعر الإنسان بقيمة الرزق .. إلا عندما يمر بأزمة يحتاج فيها إلى المال .. وفي كل الأزمات وخلال كل الفترات التي تخرج فيها الحياة عن رتابتها .. يصبح ما اعتقده الإنسان أنه حق مطلق له قد أخذه هو لنفسه .. يصبح هناك ما يذكرنا جميعا بالمنعم .. وحينئذ ترتفع الأيدي إلى السماء .. ويتوجه الإنسان إلى الله .. ذلك أن خروج النعمة عن مألوف عطائها يذكرنا بفضل الله علينا .. ذلك الفضل الذي ننساه دائما حين يعطينا الله من نعمه .. ويفتقد علينا من فضله .

إذن فقيمة الأحداث التي تصيب الإنسان في نفسه .. أو فيما تحيط به من نعم .. إنما هي تذكرنا بالخالق .. بالله سبحانه وتعالى الذي أعطانا هذه النعمة .. ولولا تلك الأحداث والأزمات لمضيئنا في حياتنا .. أو لمضي الكثير منا في حياته وهو لا يحس بنعم الله عليه ..

ولكن بعض الناس يحاول أن يأخذ على نظام الكون .. هذه الأشياء المذكورة بالنعمة .. فمثلا تأتي إلى قرية تعدادها عشرة آلاف شخص .. نجد خمسة من المكفوفين .. وإنسانا فقد إحدى عينيه .. وآخر فقد قدمه .. أو لا يستطيع أن يحركها .. إلى آخر هذا .. شواذ في الوجود .. وفي الخلق .. ولكن هم قلة القليل .. لتذكرنا بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق لنا هذا الوجود .. وأن هذا الوجود ليس وجودا آليا .. أو ميكانيكيا .. وأننى لم أحصل على حق .. هذا الجسد السليم بذاتيته .. ولم أحقق لنفسي .. بل هو نعمة من الله سبحانه وتعالى .. فالمكونات الفردية تؤكد لنا أن الخالق مهيمن على كل شيء .. وأنه إذا

عندما يتوقف الكون !

كان واحد منا لم يشذ في صورته .. فتلك نعمة من الله سبحانه وتعالى .. وبعض الناس يقول في محاولة لتبرير دقة صنع الإنسان .. إن العقل الالكترونى فى حساباته مثلا لا يخطئ .. بينما العقل البشرى يخطئ .. ونحن نقول لهم .. إن كل الآلات بما فى ذلك العقول الالكترونية لا تخطئ لأنه ليس لها اختيار .. فهى تفعل ما تؤمر به .. ولكن العقل الإنسانى يخطئ .. لأن الله أعطاه ميزة الاختيار .. وهى ميزة أعطته بدائل يستطيع أن يلجأ إليها .. فإذا سألته سؤالا يستطيع أن يتجنب الحقيقة .. ويكذب .. كما يستطيع أن يقول الصدق .

وكون العقل البشرى عنده البدائل التى يختار منها .. دليل على قدرته .. لأنه لو لم تكن هذه البدائل ما كان يمكن أن يخطئ .. بل كان لابد أن يمضى فى حياته آليا .. ولكن ميزة الخطأ أو الصواب هى التى وضعت أمامه القدرات الهائلة للتقدم .. أو هى ميزة الحياة .. ذلك أن العقل استطاع بتحركه وقدراته غير الآلية .. أن يصل إلى ما كشفه الله له فى الأرض من علم وتقدم .. ولو لم يكن يملك هذه القدرات غير الآلية .. لما أمكنه أن يصل إلى ذلك .. فالعقل الالكترونى مثلا الذى لا يخطئ .. لا يستطيع أن يخترع عقلا الكترونيا أكثر تقدما وتطورا منه .. ولكن العقل البشرى الذى يملك الاختيار .. وهو بالتالى يملك ميزة الفكر فى أن يقبل أو لا يقبل .. وميزة الابتكار فى أن يميز بين البدائل .. كل هذه الميزات التى منحها الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى قائمة على قدرة هذا العقل .. بتحريك غير آلى .. أى أنه قد لا يكون فى دقة الآلة التى يخترعها .. والتى قد تبهر الإنسان .. ولكن خروج هذا العقل عن آلية التفكير قد أعطاه ميزة الحضارة كلها والتقدم ..

عقل يخطئ ويصيب

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى هذا كله .. وإلى أنه وراء كل شىء فى هذا الكون إله قائم عليه .. وأن هذا الإله خلق للإنسان عقلا ربما يقل فى قدرته

عندما يتوقف الكون !

الميكانيكية عن كثير من الآلات الصماء .. التي لا تخطيء .. ولكن كونه قد خلق بحرية فكر .. وقدرات تحمل الصواب والخطأ .. قد استطاع بما كشفه الله له أن يصل إلى هذه المدنية .. فالعقل الالكتروني الذي لا يخطيء ، هو أدنى مرتبة من العقل البشري .. لماذا؟ .. لنحس بعظمة الله في مقاييس الكون .. وحكمته في خلق العقل البشري .. لفتة من الله سبحانه وتعالى بأن ميكانيكية العمل .. مع عدم حرية الاختيار هو أدنى مرتبة من عقل حر مفكر .. وأن العقل الأدمي الذي يصيب ويخطيء .. قد منحه الله من الميزات والقدرة أكثر من ذلك العقل الالكتروني الذي لا يخطيء .. فالعقل البشري لا تقيدته قيود .. تجعله قاصرا عن أن يقوم بشيء واحد .. بينما كل الآلات التي قد تذهلك طريقة تقدمها العلمي .. لا تملك أهم شيء في الدنيا وهو الفكر .. وكما أننا إذا درسنا العقول الالكترونية مثلا .. لأدركنا ما أنعم الله به علينا من نعمة العقل الإنساني .. والفكر الإنساني .. فالإنسان حين يرى إنسانا أعمى يتذكر فضل الله عليه في أنه قد أعطاه النظر .. وإذا رأى إنسانا أعرج .. أحس بنعمة رجليه .

إذن فالأشياء الموجودة في الكون وسائل ايضاح لنعم الله سبحانه وتعالى .. وفيها خروج عن المؤلف بحيث يهز الإنسان من داخله .

ولكن قد يسأل سائل .. ما ذنب هؤلاء في أن يكونوا وسيلة ايضاح لغيرهم .. ونحن نقول أن الله سبحانه وتعالى رغم أنه جعل ذلك في قلة من البشر لا تكاد تذكر بالنسبة لعدد البشرية الهائل .. إلا أنه عوض هؤلاء عما فقدوه .. ولا بد أن لكل واحد فيهم ميزة عن غيره من الخلق تعوضه عما فقد .

الميزة الأولى التي يشتركون فيها جميعا .. هي أنهم ينالون من عطف الناس .. ومعاونتهم ما لا يناله غيرهم .. أما الميزة الثانية .. فإن لكل واحد منهم نبوغا لا يتوافر لغيره .. وناحية يتميز بها في عبقرية من نوع آخر .. ولعلنا

عندما يتوقف الكون !

نرى أمثلة كثيرة لذلك .. فأكثر الناس قدرة على حفظ ما يسمعون هم الذين فقدوا أبصارهم .. وفي كثير من الأحيان وصل أولئك المصابون بعاهاات مثل شلل الأطفال وغيره إلى مناصب رؤساء دول .. وشيخ الاقتصاد الذي أنقذ ألمانيا بعد الحرب كانت رجلاه قصيرتين بشكل يلفت النظر .

إذن فالله سبحانه وتعالى عندما وضع مثل هذا الشذوذ في الكون .. وضعه بنسبة ضئيلة جدا .. لتلفت البشرية كلها إلى نعمة الله .. ثم بعد ذلك يأتي عون الله فيعوضه من الخير والنبوغ .. والعطف الإنسانى ما ييسر له كثيرا من أمور حياته .. ويمنحه فرصا متميزة .

وإذا ناقشنا ما يقوله بعض الذين لا يؤمنون بالدين .. من أن الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان بالفكر .. ثم سلب الفكر من بعض الناس .. فأصبحوا مجانين .. نقول أن لهذا حكمة .. كما أن لكل شيء في هذا الكون حكمة في الخروج عن المألوف .

ونسى النعمة .. والمنعم

على أننا قبل أن نتقل لنتناقش حالة أولئك الذين سلبوا نعمة الفكر .. أو نعمة العقل التي أعطاها الله للبشر .. فإننا نحب أن نتوقف وقفة أخرى .. عند مسألة قدرات العقل البشرى والعقول الالكترونية .. ذلك أن هناك نقطة لا بد من مناقشتها .. وهى أن العلم كشف من الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى .. وليس ذاتية يحققها العقل البشرى من نفسه .. فالله سبحانه وتعالى يكشف للعقل البشرى جيلا بعد جيل ما هو فوق قدرات هذا العقل .. لنعرف جميعا أن العلم هو من عند الله .. وأنه لا علم لنا .. إلا ما علمنا الله سبحانه وتعالى .

فإذا قال إنسان كيف يخترع العقل الإنسانى الذى يخطىء ويصيب ما هو أكثر

عندما يتوقف الكون !

منه دقة .. وهو العقل الالكتروني في عدد من العمليات الحسابية .. بل كيف يمكن أن يخترع العقل الإنساني ما هو أقوى من قدراته في مجالات كثيرة من العلم .. الحقيقة أن هذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى . لتدلنا على أن هذا الكشف هو من الله .. وأنه هو الذي يسره للعقل البشري .. وجعله في طاقته .. كما يسر أشياء كثيرة لم تكن في قدرة العقل البشري .. وأدخلها في قدراته .. كالطيران .. والتليفزيون .. واللاسلكي .. والكهرباء .. كل هذه الأشياء كانت موجودة في الكون منذ بدء الخلق .. ثم أدخلها الله سبحانه وتعالى في قدرة العقل البشري .. فأصبحت من استخدامات الإنسان في الحياة اليومية .. ولكن الله لم يدخل هذه القوة في قدرة العقل البشري منذ بداية الخلق .. حتى لا يقول الناس إن هذه من القدرات الذاتية التي يستطيع العقل البشري التحكم فيها .. بل أدخلها بعد فترة من الوقت لتكون آية على أن الكشف من الله للعقل .

على أن بعض الناس يتساءل : إذا كانت كبرى نعم الله على الإنسان هي العقل .. يرث الحضارة .. ويعطيه الله العلم والمعرفة .. فما ذنب هؤلاء الناس الذين ولدوا فاقدي العقول .. ونعود إلى نفس ما تحدثنا عنه .. من أن الله سبحانه وتعالى وضع في الكون نماذج قليلة جدا .. لتذكر البشر بنعمه .. ولكنه في نفس الوقت أعطاهم من الميزات ما يعوضهم عما فقدوه .. فإذا كان عدد قليل من الناس قد فقد عقله .. فقد رفع الله سبحانه وتعالى عنه التكليف في الدنيا والآخرة .. بحيث لا يحاسب .. فهو يقول ما يشاء في الدنيا ولا يحاسبه المجتمع .. وهو في الآخرة لا يحاسبه الله سبحانه وتعالى .. وفي هذا تعويض كبير عن العقل .. في نفس الوقت الذي جعل فيه هؤلاء الناس تذكرة دائمة للإنسان بنعمة العقل .. وبأنه ليس هو الذي خلق عقله .. ولا هو الذي أورثه الحضارة البشرية .. ولكن الله هو الذي خلق .. وهو الذي أورث .

إذن فعدل السماء مطلق .. فيما أعطاه الله للإنسان .. ولكل واحد فينا

عندما يتوقف الكون !

- رغم كل ما يمر به - نقطة يتميز بها عن غيره من البشر . . تعوضه عما يعتقد أنه فقده . . فالذى لا يملك المال يملك البركة . . فيبارك الله له فى القليل . . والذى لا يملك المنصب . . يملك الصحة التى تعوضه عن هذا كله . . أو يملك البركة فى أولاده . . فيسر الله له سبل العلم والحياة والرزق لهم . . والذى لا يملك هذا كله يملك الستر . . ونعمة القناعة . . إلى آخر نعم الله التى لا تعد ولا تحصى . . والإنسان لو نظر إلى نعم الله التى أعطاها له . . لعرف أن ما أعطاه أكبر كثيرا مما منع . . وفى بعض الأحيان تأتى لحظات من الحياة يكشف فيها الإنسان أن نعم الدنيا كلها التى اعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد حرمه منها لا تساوى نعمة واحدة مما وهبه الله . . فكم من مريض يتمنى أن يأخذ الله كل نعم الدنيا ويعطيه صحته . . أو يعطيه راحة البال . . أو يزيل عنه الشقاء .

فلنتذكر . . خالق النعمة

إذن فالأحداث إذا خرجت عن طبيعتها حول الإنسان . . فهى تذكره بالخالق الذى أعطاه هذه النعم . . وقد يغره الوجود فى نظامه العام . . فيعتقد أنه ليس وراء هذا الوجود خالق ومدبر . . فيأتى الله سبحانه وتعالى بأولئك الذين يخرجون عن النظام العام . . ليذكر الناس بأن هذا الكون هو من خلق الله . . وأن كل شئ فيه يمضى بأمر الله . . وكل شئ يمكن أن يخرج عن مهمته . . ومن رحمة الله أنه يخرج بنسبة تافهة لا تذكر . . إنما هو تذكير للقدره . . وبأن هذا الكون ليس موجودا وجودا تلقائيا . . وليس خاضعا لأحد أبدا إلا لخالقه . . وتأتى الأشياء لتلفتنا إلى الحق سبحانه وتعالى . .

فالشمس الرتيبة التى تراها كل يوم تؤدى مهمتها فى استقرار ودوام . . حتى تجعلك تحس خطأ انها دائمة وخالدة . . سيجىء يوم تتغير فيه :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾

سورة التكوير

عندما يتوقف الكون !

فترى انقلابا هائلا في الكون يؤكد أن هذا الكون كله متغير .. وأن بقاءه ودوامه على هذه الحالة هما تنفيذ لمشيئة الله .. وعندما تأتى المشيئة لتغيير الكون .. يذهب الاستمرار والاستقرار فى كل شيء .. ومن هنا فإنك يجب ألا تتعلق بعظمة الخلق مهما بلغت .. ومهما بدا لك انها مستقرة .. وإنما تتعلق بعظمة الخالق الذى هو وحده الباقي .. فكل هذا المعتاد .. والمألوف الذى حولك فى الكون من شمس ونجوم وبحار .. وجبال سيتغير .. لماذا ؟ لأنه لا يستمر بذاته ولكنه يستمر بقدره الله سبحانه وتعالى .

عندما يشاء الله

وحيث تبرز قضيتان هامتان .. يراها بعض الناس .. انها متعارضتان .. وفى الواقع انها متفقتان تماما .. القضية الأولى أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وله مشيئة فى أن يختار ولا يختار .. أى أنه أعطاه ميزة بالقدرة على الاختيار .. وهو ما لم يعطه لغيره من خلقه .. والقضية الثانية .. هى مشيئة الله التى يخضع لها كل شيء .. فى الكون .. فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

سورة الانفطار

والجواب على ذلك سهل .. فالإنسان حر فى أن يختار هذا أو يختار ذلك .. ولكن من منا يستطيع أن يحقق ما يريد بالضبط .. أنت تريد أن تؤذى إنسانا .. وتفعل كل ما فى استطاعتك لتصل إلى ذلك .. ولكنك لا تصل إلى ما تريد .. ربما قدمت شكوى فيه فتنقلب الشكوى عليك .. وبدل أن يصاب هو بالأذى .. تصاب أنت .. وربما حاولت أن تقتله مثلا .. وفى آخر لحظة ارتجفت يدك .. أو ظهر شيء أزعجك .. فطاشت الرصاصة .. ولم يتم شيء .. وفى أحيان أخرى .. تنجح فى مسعاك .. سواء كان خيرا أو شرا .. إذا التقى ما تريده مع المشيئة تم .. وإذا لم يلتق مع المشيئة لا يتم .. ولذلك

عندما يتوقف الكون !

فالدين يأمرنا أن نسعى .. وأن نعمر في الأرض .. وأن نقوم بما ينفع الناس .. هذا كله عبادة لله سبحانه وتعالى .. ثم تأتي بعد ذلك النتيجة .. فيجزى الإنسان على ما نواه وسعى فيه فعلا .. ولعل الحديث الشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول :

« إنما الأعمال بالنيات .. وإنما لكل امرئ ما نوى »

يفسر لنا ذلك تماما .. فمناسبة الحديث لشخصين خرجا مع رسول الله .. أحدهما مهاجر إلى الله .. والثانى كما قيل إلى امرأة يريدتها .. ولما بلغ الأمر رسول الله .. قال إنما الأعمال بالنيات .. وإنما لكل امرئ ما نوى .. ولو كنت واقفا في هذه اللحظة لرأيت الرجلين يخرجان مع رسول الله .. الظاهر واحد .. ولكن هذا له جزاء .. وهذا له جزاء آخر .. رغم أن العمل في ظاهره واحد .. إنما في حقيقته مختلف .. كذلك مشيئة البشر .. قد يسعى شخصان لهدف واحد .. أحدهما يحققه .. والثانى لا يصل إليه .. سواء اختارا طريق الخير أو الشر .. الاختيار لهما .. ولكن التوفيق .. أو الاتمام يأتي من المشيئة .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يأتي يوم القيامة .. فيصفه بأنه يوم تبلى السرائر .. يقف اثنان أمام رجل فقير محتاج .. أحدهما يضع في يده المال سرا .. ويختفى دون أن يراه أحد .. والثانى يقف حتى يأتي الناس .. ويقول بأعلى صوته .. « جنيه كامل أهوه » لیسمعه الجميع .. وتكتب للأول حسنة .. ولا تكتب للثانى .. مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يصل إلى الرجل جنيهان .. ولو عن طريق غير طريق ارضاء الله بالاحسان على الفقير .. فيأتيه جنيه بالاحسان .. ويأتيه جنيه آخر بالتباهى والتفاخر .. ورغم أن الوصيلتين مختلفتان .. إلا أن المشيئة تمت .. ووصل إلى هذا الرجل رزقه الذى قدره الله له .. فالإنسان يختار بين البدائل نعم .. ويسعى في الخير أو الشر .. نعم .. ويأتى الشيطان ليغرى .. وطاعة الله لتذكر الإنسان .. ثم يتم العمل إذا التقت المشيئة به .. أما إذا لم تلتق .. فقد يأتي شيء يوقف هذا كله .. والأمثلة في الحياة كثيرة .. قد تذهب إلى طبيب مشهور .. فيعجز عن أن

عندما يتوقف الكون !

يشخص لك الداء .. ويعالجك خطأ .. ثم يأتي طبيب صغير .. ربما بما نسميه نحن الصدفة .. ليكشف عليك .. فيهديه الله إلى المرض الذي تشكو منه .. وتتعجب أنت كيف يتفوق تلميذ على أستاذه .. مع أن الأول أكثر علماً وخبرة .. والثاني لا يزال مبتدئاً .. ولكن الله يرد أن يلفتك إلى أن ما في الكون هو الذي يعطيه .. وأنه إذا كانت القاعدة أن الطبيب المشهور الذي درس ونجح .. وأمضى سنوات طويلة من الخبرة .. هو الذي يستطيع أن يكتشف الداء .. فإن هذه القاعدة لا بد أن تسرى .. لأن الحياة في الأرض تمشي بالأسباب .. ولكن في نفس الوقت يلفتك إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أعطى لهذا الطبيب ثمرة بحثه من العلم .. وأنه حين يسلبها منه في حالة من الحالات .. إنما ليذكرنا أننا يجب أن نعترف بفضل الله على كل واحد فينا .. فيما وهبه إياه .. فعلم الطبيب الكبير هو فضل من الله .. أعطاه له بالأسباب .. وهي الاجتهاد والاطلاع والبحث .. حالة الطبيب المبتدئ الذي اكتشف الداء .. هو الهام من الله أعطاه له ليلفت الناس إلى أنه إذا كان قد وضع في الكون قوانين .. فهناك فوق القانون مشيئة الله .. وأن هذه القوانين تعمل بأذن الله وقدرته .. ولذلك فهي نعمة يجب أن نشكر الله عليها .

وفي حياة كل منا أمثلة كثيرة .. لأشياء أرادها وعمل من أجلها .. ويسرها الله له .. وأشياء أرادها وعمل من أجلها .. ولم يسرها الله له .. حياتنا كل يوم فيها هذه النماذج التي نعيشها كل يوم .. على أننا سنناقش هذا الموضوع بالتفصيل عندما نصل إليه .

تكوير الشمس .. وفاعليتها

نعود إلى الآية الكريمة .. « إذا الشمس كورت » .. الصورة الموجودة .. ان الشمس تبدو لنا على صوة كرة .. فما معنى قول الله سبحانه وتعالى .. « إذا الشمس كورت » .. بينما هي في واقعنا تبدو لنا مكورة فعلاً ..

عندما يتوقف الكون !

وقبل أن نتناول هذه النقطة . . نقول أن تكوير الشمس الذي يبدو لنا . . هو ما لا يتصل بفاعليتها . . فالشمس سواء بدت لنا مكورة . . أو غير ذلك . . الذى نستفيده منها . . هو الأشعة التى تصل إلينا من الشمس . . وأشعة الشمس منبسطة فى الوجود كله . . فى الكون كله . . فإذا كانت الشمس على هيئة كرة . . أو غير ذلك . . دون أن تصل أشعتها إلى الأرض . . انعدمت الفائدة منها بالنسبة للبشر . . وتكوير الشيء فى اللغة . . معناه طى الشيء . . إيذانا بإنهاء مهمته . . فأنت اذا طويت الكتاب . . معناه انك انتهيت من قراءته . . أو قراءة الفقرة التى تريد الانتهاء منها . . وهناك فى الكون أشياء تؤدى مهمتها بأن تطوى . . وأشياء أخرى تؤدى مهمتها بالبسط . . فالثوب مثلا اذا انتهت منه طويته . . ومقبض الباب لا بد أن تقبض عليه حتى يؤد مهمته بالفتح أو الاغلاق . . إذن فما معنى إذا الشمس كورت . . انها لفتة من الله سبحانه وتعالى .

والقرآن كما قلت يخاطب كل العقول . . ومن هنا فإنه لا يخاطب هؤلاء . . ويخاطب معهم عقول كل البشر . . ولذلك فإن شكل الشمس كما تبدو لنا من بعيد أو شكلها عندما تقترب منها . . حيث نرى السنة اللهب تمتد إلى مسافات بعيدة . . فكل هذا لا يأتى فى الحسبان . . لماذا . . ؟ . . لأنه تنطبق عليه القاعدة جهل لا يضر . . بمعنى أنه سواء علمت أسرار الشمس أو لم أعلمها . . وسواء قضيت السنوات الطويلة أدرس فى طبيعة تكوين الشمس أو لا أدرسه . . فإن

هذا كله لا يؤثر فى انتفاعى بالشمس فى حياتى اليومية . . فأنا أستفيد بالشمس . . كرة كانت . . أو السنة لهب . . أو أى شكل آخر . . ذلك أن استفادى منها هى من الأشعة التى تصل إلى الأرض من الشمس . . تلك التى تبعث الدفء فى الأرض . . وتنمى الزرع . . ولها دور كبير فى حياة الكون كله .

فإذا كانت الشمس على هيئة كرة ، أو غير ذلك . . فهو ما لا يتصل

عندما يتوقف الكون !

بفاعليتها .. إذ أنها لو كانت على شكل من الأشكال .. ومنعت أشعتها من أن تصل إلى الأرض .. انعدمت فائدة الشمس للبشر .. وأصبح وجودها كعدمه .. مادامت لا تؤدي مهمتها في حياة الإنسان .
ولكن ما معنى قول الله سبحانه وتعالى :
« إذا الشمس كورت »

إنها لفئة من الله سبحانه وتعالى تعنى أنه إذا الشمس قد انتهت مهمتها في الكون .. والأشعة المنبسطة التي ترسلها كل يوم إلى الأرض كخيوط دقيقة تنزل منها .. هذه الأشعة كورت .. وأصبحت ملفوفة .. أى أنها أصبحت تحيط بالشمس وحدها .. دون أن تصل إلى الأرض .. فقول الله سبحانه وتعالى :
« إذا الشمس كورت »

معناه انه لم يعد لها مهمة في الوجود .. وهذه من علامات انتهاء الحياة في الكون .. وقيام الساعة .

علامة نهاية .. وبداية

ولكن لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى في الآية :
« إذا الشمس كورت » .

ذلك ليعطينا الفرق بين الدنيا والآخرة .. فهذه علامة لنهاية وبداية .. نهاية عالم نعيش فيه بالأسباب .. وبداية عالم تنتهى فيه الأسباب .. ففي الدنيا .. الحياة تسير طبقاً لقوانين معينة وضعها الله سبحانه وتعالى .. وهذه القوانين نستمد منها الحياة .. فمهمة الشمس في ارسال أشعتها إلى الكون .. هي استمرار الحياة الأرضية .. ولكننا في الآخرة لسنا محتاجين إلى هذه الأسباب .. وذلك فإن الشمس تنتهى مهمتها وتصبح الحياة .. أو الوجود .. بطريقة مخالفة .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

عندما يتوقف الكون !

« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات .. »
لماذا؟ .. لأن الأرض هذه خلقها الله .. وفيها عناصر الحياة بالسبب ..
فوضع فيها العناصر التي تمد النبات بالغذاء .. والتي تمد الأرض بالماء .. إلى
آخر ما هو موجود في خلق الله .. مما يتناسب مع الحياة على الأرض ..
والإنسان عليه أن يزرع ويجهد .. ويعمل الإنسان .. حتى يستطيع الحياة على
الأرض وحتى تمضي هذه الحياة التي وضع الله لها القوانين ، ولكن في الآخرة لن
يعمل الإنسان .. ولن يزرع .. ولكن الله سيعطيه بلا أسباب .. يخطر ببالك
الشيء .. فيجىء لك .. إذن فالأرض بحالتها الراهنة .. والسماء بما تؤدي من
مهام .. كلها لخدمة حياة الإنسان .. على الأرض .. حيث أن الله سبحانه
وتعالى قد سخر كل ما في السموات والأرض من قوى لخدمة الإنسان .. ولكن
الأمر يختلف في الآخرة .. لأن هذا التسخير ينتهي .. وتصبح الحياة مختلفة
تماما ..
فقله تعالى :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾

سورة التكوير

معناه التف ضوؤها .. واشعاعها .. ولم يعد يصل إلى الكون .. وانتهت
مهمة الشمس .. وطويت أشعتها .. وأصبح الوجود غير الوجود ..
وتمضي السورة الكريمة

﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾

سورة التكوير

ومعنى الانكدار في اللغة هو الانصباب .. أو الانقضاض .. ومهمة النجوم
تأتي في وجودها .. في أماكنها في الفضاء .. فإذا ما هوت النجوم كما سيحدث
عند قادم الساعة .. فمعنى ذلك أيضا أن مهمتها قد انتهت هي الأخرى .. ولم

عندما يتوقف الكون !

يعد لوجودها بشكلها الحالى معنى .. وتمضى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (٤)

سورة التكوير

وهذه الجبال الشاهقة التى نراها أمامنا راسية شامخة .. هى الرواسى التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى الأرض .. لتجعل حركة الأرض رتيبة ليس فيها أى اضطراب .. وطبعاً ما ينطبق على الشمس والنجوم .. ينطبق على الجبال .. فى مهمتها هى فى الحياة الدنيا وحدها .. لتحفظ التوازن فى الكرة الأرضية .. وتمد البشر بما يحتاجون من معادن .. وتتكون على قممها الثلوج التى تمد عدداً من الأنهار .. والعيون بالماء .. إلى آخر ما نعرفه .. وما لا نعرفه عن مهمة الجبال فى الأرض .. ولكن هذا كله لا لزوم له فى الآخرة .. حيث ستبدل الحياة تماماً .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ (٢٠)

سورة النبأ

« وتمضى السورة الكريمة » :

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ (٤)

سورة التكوير

واللفظ يأتى فى القرآن .. يحاول العلماء أن يجيئوا بكل الاستعمالات اللغوية له .. وينظروا أنسب معنى لغوى يؤديه .. فالعشار تطلق على النياق .. ومفردتها ناقة .. ويكون مر على حملها عشرة شهور .. وذلك إيذاناً بأن الواحد سيصبح اثنين .. ثم يأتى مع المولود الجديد اللبن الذى يكون منه غذاؤه .. وغذاء الإنسان .. ومعنى ذلك أن التكاثر هنا غير مطلوب بأسبابه .. أى أنه إذا العشار عطلت .. لم يصبح هناك أية حاجة إلى الأزدىاد البشرى بالطريقة التى

عندما يتوقف الكون !

وضع الله قوانينها في الأرض .. فتلك الطريقة .. طريقة الميلاد وضعت حتى لا ينقرض كل من يعيش على الأرض بعد فترة من الزمن .. ذلك أن الحياة ما هي إلا رحلة قصيرة في عمر الزمن .. وإذا كان الموت مكتوبا على كل حي .. فإن الميلاد هو الذى يضمن للحياة استمرارها وحركتها .. وإلا إذا كان الموت بلا ميلاد .. يكون هناك انقراض للبشرية .. وكل من في الكون .. والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا في هذه النقطة .. إلى أنه لا حاجة وقت أن تأتى الآخرة لهذا التزايد والميلاد .. لأن الآخرة خلود .. فهي إما جنة أبدا .. أو نار أبدا .. أى أنه في هذه الحالة لسنا محتاجين للتكاثر العدى .. للبقاء على النوع .. لأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد ألغى الموت في الآخرة .. ووضع بدلا منه الخلود فإنه لا حاجة للتكاثر بالأسباب البشرية وستصبح كل النعم بلا أسباب .. بكلمة كن .. وبمجرد التفكير فيها .. والله سبحانه وتعالى وضع التكاثر بالأسباب في الدنيا .. ولكن في الآخرة ما دامت قد ألغى الأسباب .. يكون التكاثر أو الزيادة إذا أرادها الله سبحانه وتعالى .. أو بالخلق المباشر .. يكون بلا أسباب سوى كلمة كن ..

والله يريد أن يقول لنا أنه في يوم القيامة ستتوقف كل الأسباب التي وضعتها للحياة في الأرض .. ويتبدد كل شيء .. وهناك تفسير آخر بأن هذا المعنى يشمل أيضا السحب .. تحمل الأمطار إلى الأرض .. لينمو الزرع ويزدهر .. ولا حاجة لذلك ولا مهمة في الآخرة .. ولذلك فإن السحب ستتعمل مهمتها .. وتتوقف .

ثم تمضى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾

سورة التكوير

ومعنى الوحوش حشرت أى جمعت .. وهل الوحوش غير مجموعة .. طبعا لا .. لأن كلمة الوحوش .. معناها الأنعام غير المستأنسة .. فلا يمكن أن

عندما يتوقف الكون !

نستأنس الوحوش المفترسة .. ونرعها مثلا .. ونهيبء لها أسباب التكاثر ..
كما نفعل مع الأنعام المستأنسة التي خلقها الله للإنسان .. لتكون سببا مساعدا
في حياته .. بامداده بالألبان واللحوم .. وغير ذلك مما تؤديه من مهام في
الأرض .. وبعض الناس يقول انك يمكن أن تستأنس الوحوش .. فهناك
مدربو الحيوانات المفترسة .. وهؤلاء يستطيعون أن يسيطروا عليها بشكل ما ..
حتى يفعل الأسد ما يريده المدرب منه .. ويطيعه .. ويصبح بلا خطر عليه ..
وهذا يصح في بعض الأحيان .. ولكن الشيء الذي لم يتنبه إليه البشر .. أن
هذه أشياء فردية .. لا تمثل قاعدة عامة في الكون إننا لا نرى مدربا مهما كانت
مهارته أو قدرته .. يستطيع أن يستأنس أسدا .. بحيث يصبح هذا الاستثناس
وراثيا .. أي أن ينتقل إلى ابن هذا الأسد .. ومن ابنه إلى ابنه .. أي أن
الاستثناس هنا عمل فردى لا يخرج النوع عن طبيعته الوحشية وأن أخرج فردا
واحدا منه كما أن الاثناس بهذه الطريقة لا يتم بالكمال الالهى .. ولكن بالقدرة
البشرية المحدودة .. فقد يفترس الأسد مدربه في لحظة غفلة منه .. ولكنك
لا ترى .. ولا يمكن أن ترى كبشا .. أو جملا .. أو بقرة تفترس إنسانا .. بل
انك ترى الطفل الصغير الذى لا حول له ولا قوة .. يقود ذلك الجمل
الهائل .. فيطيعه .. ويفعل ما يريد .. رغم أن قوة الجمل تساوى قوة الطفل
مائة مرة .. ولكن الذى أخضع الجمل للطفل ليس قدرة الطفل .. ولكنها قدرة
الله التى جعلت هذا الجمل بضعامتة يخضع خضوعا تاما للطفل الصغير على
ضالته لأنه مسخر من الله له .

فالإنسان لا يستطيع أن ينقل الاستثناس إلى وحش من الوحوش .. ويجعله
مسخرًا لخدمته ولذلك فإن ما يحدث بالنسبة للوحوش .. هو استثناس من ذات
واحدة .. أو من وحش واحد لإنسان واحد .. لا يتكرر ولا يتبدل إذا تغير
أحدهما .. ولكن الأنعام الأخرى مستأنسة بتسخير الله لها لخدمة الإنسان ..

ولكن لماذا قال الله سبحانه وتعالى :

عندما يتوقف الكون !

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾

سورة التكوير

ما معنى .. إذا

الوحوش حشرت ؟

السؤال هنا .. هو لماذا قال الله سبحانه وتعالى :

« وإذا الوحوش حشرت » ..

خلق الوحوش أساسا في الكون له حكمة لا بد أن نتنبه إليها .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يظهر في الكون آيات تلفتنا إلى قدرته .. ونحن حين نرى الحيوانات المستأنسة في خدمتنا .. نسخرها حيث نشاء .. نعتقد أن هذا تابع من قدرتنا .. ولكن الله سبحانه وتعالى .. يريد أن يلفتنا إلى أن هذا تسخير منه - وليس قدرة منا - ولذلك فقد خلق الوحوش لترد على أي إنسان يريد أن يدعى أنه قد أخضع ما خلق الله له من أنعام في الكون بقدراته هو .. فيقول له ! إذا كنت قد فعلت ذلك بقدراتك .. فهذه وحوش لم أسخرها لخدمتك .. فاستخدم قدراتك وأرنى إذا كنت ستستطيع أن تسخرها أنت أيها الإنسان لخدمتك .. ولذلك فإننا حينما نرى هذه الحيوانات المفترسة .. القليلة العدد في العالم .. نتذكر ذلك الكم الهائل من الأنعام التي خلقها الله لنا .. وسخرها لنا بقدرته .. فنحس أن الكون يسير بقدرته الله .. ونشكر الله على نعمه .. « وإذا الوحوش حشرت » ..

معناه أن طبيعة تكوينها .. أنها غير مجموعة بل نافرة .. وغير خاضعة لنا .. ونحن لا نجتمع معها في مكان واحد .. بل هي تنفر منا .. ونحن نفرمنا .. ومعناه أيضا أنها نافرة طوال فترة حياتها تبحث عن فرائسها .. ومعناه أيضا أنها نافرة من بعضها البعض .. لأنها تعتدى على بعضها البعض .. ويفترس الواحد منها الآخر من نفس النوع أحيانا دفاعا عن نفسه .. والقوى منها يفترس

عندما يتوقف الكون !

الضعيف .. وقد يستطيع الضعيف أن يتغلب على القوى إذا أخذه على غرة ..
هذه الوحوش يوم القيامة تجدها قد جمعت وظهرت كلها .. تقف أمام الناس
هادئة خاشعة من هول الموقف .. أى أنها تخرج عن طبيعتها ..
وتمضى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾

سورة الانفطار

ما هو معنى التفجير .. إذا أردنا أن نصل إلى المعنى الذى يمكن أن يدخل إلى
أذهاننا بسهولة ويسر .. فلنتذكر تفجير ذرة .. وما يحدثه من طاقة هائلة .. من
النيران والدمار .. فإذا طبقنا نفس المعنى على البحار .. نجد أن المعنى قد
اقرب منا فى قوله تعالى :
« وإذا البحار فجرت »

أى إذا امتلأت نارا أو أنها تضطرب وتهيج . والمهم فى هذا المعنى هو الخروج
عن المألوف الذى تعودناه .

كيف تسأل ؟

ثم نأتى بعد ذلك إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴾

سورة التكويز

والناس هنا تتعجب من هذه الصياغة .. « الموءودة » هى التى وضعت فى
التراب حية بعد ولادتها .. وكانت عادة وأد البنات منتشرة عند العرب فى
الجاهلية .. ولكن الآية تقول :

عندما يتوقف الكون !

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ ﴿٩﴾

سورة التكوير

وهل الموءودة تسأل .. وهل تعرف بما تجيب .. وهي التي اعتدى عليها بغير ذنب جنته ..
إن هذه العادة السيئة التي كانت سارية في الجاهلية كانت عملية فظيعة جدا ضد المرأة .. فالطفلة التي حدث عليها مثل هذا العدوان الرهيب .. أنت سبب في ايجادها .. أى هى بعض منك .. ومن مثلها وُجِدَتْ .. وهذا دليل على قساوة القلب .. وقساوة العطف .. ذلك أنك عندما تقوم بهذا العمل تتجرد من انسانيك تماما .. لأنك تعاقب طفلة على ذنب أنت سببه .. وتعاقب نوعا على ذنب منه وجدت .. وتعتدى على من لا حول له ولا قوة .. ومن لم يقم بأى أذى .. أو أى عمل ضدك ..

والله سبحانه وتعالى حين يأتى بهذا .. إنما يريد تقريع الأب الذى أقدم على هذه العملية التي تخالف كل قيم الانسانية .. ويريد أن يعرفه أنه سيسأل عن ذلك يوم القيامة .. فيوجه السؤال للطفلة .. ما السبب الذى دعا أباك إلى أن يقوم بهذا العمل الوحشى .. ماذا فعلت حتى يقوم أبوك بمعاقتك بهذه الطريقة .. وطبعا سيكون الرد أنها لم تفعل شيئا .. ويتم حساب الأب: مادامت هذه الطفلة لم تكن قد ارتكبت ذنبا .. فلماذا فعلت بها هذا .. وهو فى حقيقته باستخدام هذه الألفاظ .. إنما أراد الله أن يستحضر أمام الأب الصورة الكريمة لعمله ضد طفلته .. فيأتى بالطفلة البريئة ويسألها لماذا قتلت هذا الأب بلا ذنب .. والأب حاضر يستحضر كل هذا المنظر الذى حدث فى الحياة الدنيا .. فيعرف هول ما ارتكبه .. ولو أن السؤال كان للأب .. فرجما حاول اختلاق الأسباب أو تعليل فعلته .. ولكنه سؤال الابنة أمام الأب يجعله يحس بعظم ذنبه .. ولا يجد ردا .

عندما يتوقف الكون !

ما هي النفس

ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ (٧)

سورة التكوير

وكلمة النفوس حار فيها الفلاسفة على مر العصور .. مرة يقولون أنها الروح .. ومرة يقولون أنها القلب .. ومرة يقولون أنها المادة .. ولكن الحقيقة أن كلمة نفس تطلق على امتزاج الروح بالمادة .. فإذا كانت الروح وحدها دون أن تدخل أو تمتزج بأى مادة .. سميت الروح .. وإذا كانت المادة وحدها .. دون أن تمتزج بأى روح .. سميت المادة .. فإذا تم الامتزاج سميت النفس .. والله سبحانه وتعالى يقول :

« الله يتوفى الأنفس » .

ما معنى يتوفاها .. معناها أنه يفصل الروح عن الجسد .. هذا هو معنى توفى الأنفس .. فإذا عادت الروح إلى الجسد .. عادت النفس من جديد .. ومادام هذا هو مدلول النفس .. أى امتزاج الروح بالجسد .. فكيف يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة :

« وإذا النفوس زوجت » ..

معنى ذلك أن الأرواح التى خرجت من الأجساد عادت إليها مرة أخرى .. فالموت هو انفصال الروح عن الجسد .. ومعنى قوله تعالى :

« وإذا النفوس زوجت »

أى أن المادة ستعود إلى الروح .. وتعود النفس مرة أخرى بعد أن ذهبت بالموت .. ولكن المعنى هنا يتجاوز هذا .. بحيث يمتد إلى الحياة الدنيا كلها .. فإذا النفوس زوجت .. ليس معناه فقط أن المادة والروح عادتا مرة أخرى

عندما يتوقف الكون !

فالتحمتا .. ولكن معناه أنها عاداتنا معا أيضا .. كل عمل قام به الإنسان في الدنيا .. وافترق عنه ، سواء كان خيرا أو شرا ، فالعمل الذى يقوم به الإنسان في حياته الدنيا .. فيه أشياء لا تفارقه إلا بالموت .. وهناك أشياء اقترفها أو أقوم بها لفترة من الفترات ثم أنساها .. وأشياء أنسى الله فيها .. وأنسى أنه رقيب جسيب .. وأشياء أخرى أعتقد أن أحدا لم يرفى .. مع أن الله يسمع ويرى .. المهم أن كل هذه الأشياء سواء التى افترقت وأنا فى الحياة .. أو التى واصلت معى الرحلة إلى نهاية الحياة .. كلها ستأتى فى هذه اللحظة .. مع عودة الروح والمادة الى امتزاجهما .. تعود معهما أعمال الدنيا التى ظن الإنسان أنها انتهت .. ولكن بعض الناس يظن أن عمل الشر الذى قام به مادام قد فارقه .. قد انتهى .. وبعض الناس يظن أن عمل الخير الذى قام به مادام فارقه قد انتهى .. ونقول لهؤلاء وهؤلاء .. لا .. فكل شيء محسوب ومكتوب .. وذلك الذى يظن أنه فعل ذنبا .. وهرب من العقاب .. أو لم يره أحد ، والذى يفرح ويسمى نفسه بالعبرى ، أو الفهلوى لأنه استطاع أن يخدع الناس .. ويحصل على مال حرام .. أو يسرق جهد غيره .. إنما هو فى الحقيقة يتمتع بقسط كبير من الغباء .. لماذا ؟ .. لأنه خاف من قدرة الإنسان المحدود القدرة .. ونسى الله بقدرته المطلقة .. التى ليس لها حدود ولا قيود .. هو خدع بشرا .. أو مجموعة من البشر .. تلك مسألة تافهة .. ولكن الله يسمع ويرى .. وهو يراه .. وهذا هوالمهم .. لأن قدرة الله تفوق قدرة البشر جميعا ملايين المرات .. ولا أدرى كيف يفرح انسان بالهرب من مجموعة لها قدرات محدودة .. وينسى أن قدرة الله سبحانه وتعالى تراقبه .. وأن الله عزيز مقتدر .. ولو فكر الإنسان بذرة من العقل .. لعرف الحقيقة أنه لم يخدع إلا نفسه وأنه لم يكسب .. بل خسر كثيرا .. لماذا ؟ .. لأنه فى انشغاله ولهفته على أمور الدنيا .. خاف من عين بشر تراه .. أو علم بشر يصل إليه .. ونسى عين الله التى لا تنام .. وعلمه الذى لا يغفل عنه شيء فى الأرض .. ولا فى السماء .. تلك حقيقة لا بد أن نتذكرها جميعا .. لأنها أساس الإيمان .. فحين ننسى الله ونخاف البشر .. نكون قد خرجنا من دائرة الإيمان الحقيقى .

عندما يتوقف الكون !

الحقيقة .. والبشر
ولذلك يمضي الله سبحانه وتعالى في السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ ﴿١٠﴾

سورة التكوير

ما معنى نشرت .. معناها أن هذه الصحف كانت مطوية .. مخفية عن البشر في الدنيا .. فبعض الناس كان يفعل أشياء في الخفاء .. لا يعلمها أحد .. والبعض الآخر كان يحرص على إخفاء حقيقته .. ويظهر بعكس هذه الحقيقة .. وبعض الناس كان يقول شيئاً .. وفي قلبه شيء آخر .. يكذب وينافق .. ويفعل ما يغضب الله .. وطوى هذا كله .. وانتهى برحيل الإنسان عن الحياة .. ونسى .. ولم يعد شيئاً مذكوراً .. هذا هو المألوف في الدنيا .. ولكن وكما قلت فإن الآخرة هي خروج عن كل مألوف في الحياة الدنيا .. ولذلك فإن ذلك الذي طوى وأصبح نسياً منسياً .. وأعتقد الناس أنه انتهى وفات .. ولم يعد له وجود دنيوي سينشر يوم القيامة ويعرف .. ويراه صاحبه أمامه .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

من الآية ١٤ سورة الإسراء

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا

عندما يتوقف الكون !

حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

سورة الكهف

فالذى يعتقد أنه حصل على مغنم في الدنيا بطريقة أو بأخرى مما حرمه الله .. سيواجه يوم القيامة بأن كل هذا قد حضر أمامه .. وجاءت لحظة الحساب .. إنه لا يواجه هذا في الدنيا بل يواجهه في الآخرة .. وبينما هو يحسب .. وكل من في الأرض يحسب أن ما فات طوى .. فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا .. أنه إذا كان هذا هو المألوف في الدنيا .. فمقاييس الآخرة تختلف .. وكل شيء سيكون حاضرا .. ذلك الذى ظنه الجميع نسيا منسيا .

إذن فالعمل الدنيوى يكون له وجود في الآخرة ساعة يتم الحساب .. والذى يعتقد أنه حصل من مغنم في الدنيا بطريقة أو بأخرى مما حرمه الله .. سيواجه يوم القيامة بأن كل هذا قد حضر أمامه .. وجاءت لحظة الحساب التى قد لا يواجهها في الدنيا .. بينما يواجهها في الآخرة .

إن الذى يعاقب على ما فعله في الحياة الدنيا .. خلال فترة وجوده وحياته .. هو من رحمة الله عليه .. ذلك أن عقاب الدنيا مهما كان قاسيا .. لا يمكن أن يقارن بيوم القيامة .

وتمضى السورة الكريمة :

« وإذا الصحف نشرت »

.. ما معنى نشرت .. معناها أن هذه الصحف كانت مطوية مخفية عن البشر في الدنيا .. فالبعض كان يحرص على اخفائها .. والبعض نسيها أو نسيتها الدنيا بعد وفاته ورحيله عنها .. ولكن هذه الصحف التى كانت مطوية تخرج للإنسان يوم القيامة .. ثم تمضى السورة الكريمة :

عندما يتوقف الكون !

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ (١١)

سورة التكوير

.. وعلم الإنسان عن السماء علم محدود جدا .. رغم كل الاكتشافات التي تمت حتى الآن .. فالسما لا تزال بنيانا مغلقا أمام البشر .. وستظل كذلك إلى يوم القيامة .. وكل الاكتشافات التي تتم .. والتي ستتم في المستقبل ستبقى معها أسرار السماء مغلقة على العلم البشرى .. فإتساع السماء يمتد ملايين السنوات الضوئية التي لا يمكن أن يصل إليها علم بشر .. والله سبحانه وتعالى حين يقول :

« وإذا السماء كُشِطَتْ »

.. معناها كشف أسرارها للبشر .. ويرى ويعرف ما لم يكن يراه ويعرفه فيما مضى .. أو في حياته الدنيا .. فأسرار السماء مغلقة أمام البشر تماما .. وبعدها لا نهائي .. والله سبحانه وتعالى قد جعلها مليئة بالأسرار .. ولا نهائية في إتساعها .. حتى لا يصل إليها علم بشر .. فالإنسان محتاج إلى ملايين السنين ليصل إلى بعض الكواكب التي نراها .. فكيف لا نراه ؟

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴾ (١٢) ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ (١٣)

سورة التكوير

.. هذه عملية الهول الأكبر .. يوم يرى الإنسان الجحيم .. ويرى الجنة .. يراها عيانا بيانا .. والله سبحانه وتعالى يقول في سورة التكاثر :

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ (٥) ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ (٦) ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ

الْيَقِينِ ﴾ (٧)

سورة التكوير

عندما يتوقف الكون !

ومعنى ذلك أن أنواع العلم عند الله متعددة .. والله سبحانه وتعالى يعطينا العلم أولاً خبيراً من عنده .. يصدقه المؤمن .. وينكره الكافر .. ويبقى هذا الخبر موضع جدل عند غير المؤمن .. ثم بعد ذلك عندما يصدق الخبر الذى قاله الله سبحانه وتعالى .. يكون ذلك عندك علم يقين .. أى أنك تؤمن يقيناً بأنه مادام الله سبحانه وتعالى هو القائل .. فهو علم يقينى لا شك فيه .. وكأننى أراه .. ولو أننى لم أره عين اليقين .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى صورة حسية يوم القيامة .. أو عندما يشاء الله بمعنى أنه بعد أن كان معنى أو صورة فى عقلك يصبح صورة تراها بعينيك .. وهذه الصورة هى حق اليقين .. الذى لا جدال فيه .. وذلك فى يوم القيامة .. يوم ترى كل شىء بعين اليقين .

والإنسان فى حياته الدنيا .. تغيب عنه أشياء كثيرة .. فالله سبحانه وضع سنة الحياة متكاملة ورسم طريقها كاملاً .. ولكن بعض الناس تطبق القوانين .. فيما يتعلق بأمور الدنيا .. وينساها أو ينكرها فى دين الله ، فأنت إذا

بدأت حياتك .. ذهبت إلى المدرسة لتدرس وتحصل .. وأنفقت الأموال .. وأمضيت السنوات .. فى عمل مضمّن .. فإذا سألك أحد لماذا تفعل هذا .. ولماذا لا تلعب وتلهو كما تريد .. بدلاً من السهر والمذاكرة والارهاق .. قلت له : اننى أبني مستقبلي .. واقتنع هو بذلك .. بل أن ولى الأمر يغضب ويشور .. عندما يرى اهمالاً من ابنه فى بناء مستقبله .. ثم تأتى الثمرات بعد ذلك .

وأنت حين تمرض مثلاً .. يقول لك الطبيب : لا تقرب هذا الطعام .. وخذ هذا الدواء .. والطعام الذى يجرمك منه الطبيب .. قد يكون لذيذاً محبباً إلى نفسك .. والدواء الذى يعطيه لك يكون مرا كريهاً إلى نفسك .. ولكنك

عندما يتوقف الكون !

رغم ذلك كله تمثل لأوامر الطبيب حتى تشفى من مرضك .. وتعود إليك صحتك .. وأنت في شبابك تحاول أن تعمل وتكسب بقدر ما يمكن .. وأحيانا ترهق نفسك .. لماذا ؟ حتى تجد حاجتك عند الشيخوخة .. أو عندما تضعف صحتك .. ولا تقوى على العمل ..

ولماذا ننسأه في الدين ؟

والعجيب أنك تطبق هذا كله في حياتك الدنيا على أساس أنه أمر مسلم به .. وتتهم من لا يفعل ذلك بأنه فاقد العقل .. يجنى على نفسه .. وسيحصل الفشل والألم في حياته .. فالطفل الذي لا يذهب إلى المدرسة .. نقول أن أباه ناقص عقل .. لأنه لا يعده للمستقبل .. والمريض الذي لا يتناول الدواء ولا يمتنع عما يضره من الطعام .. تتهمه بضعف الإرادة .. وتقول أنه يجنى على نفسه .. والإنسان الذي لا يعمل وهو شاب ويلهو تقول أنه سيحصل الندم في شيخوخته .. ولكن ذلك الذي يمضي في الحياة الدنيا ناسيا الله .. وناسيا الآخرة .. وناسيا الحساب .. وناسيا كل ما ينتظره .. نقول عنه إنه إنسان فهلوى .. أو شاطر .. بينما نفس القوانين تنطبق عليه .. بل أقسى .. فهو يهدر حياته الدنيوية .. وعندما يصل إلى الآخرة .. يكون رصيده صفرا .. في موقف الهول الأعظم .

نقول أن التلميذ الذي لا يذهب إلى المدرسة عندنا فاشل .. والمريض الذي لا يتبع أوامر الطبيب ناقص العقل .. والإنسان الذي لا يعمل في شبابه قصير النظر .

لكن الذى يعصى الله فى الدنيا ولا يطيع أوامره .. ويضيع دنياه وآخرفته .. لا ننظر إليه نفس النظرة .. مع أن قانون الله واحد فى جميع الأحوال .. والدراسة .. أو الدواء .. أو العمل الشاق .. ليست أشياء محببة إلى

عندما يتوقف الكون !

النفس .. وهناك مما حرمه الله .. ما هو محبب إلى النفس .. ولكنك للأسف الشديد تجرد بعض الناس يحرم نفسه من أشياء كثيرة .. ليحصل على الشهادة أو المال .. أو ليبراً من مرض .. ولا يبذل نفس الجهد ليرضى الله ويمتنع عما حرمه .

وجاءت الساعة

« وإذا الجحيم سعرت .. وإذا الجنة أزلقت »

.. هنا يبقى وقت الحساب .. تماماً كما تأتي السن التي يندم فيها الشاب على أنه لم يتعلم .. والمريض على أنه لم يتناول الدواء .. والشاب على أنه لم يعمل .. يأتي ذلك الوقت الذي يندم فيه الإنسان على أنه عصي الله .. رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أمهله مرات ومرات .. وأراه العذاب الأصغر .. وذكره بما يفعل .. ولكن النفس البشرية تريد أن تسعى إلى نفع عاجل .. وتعتقد أن الدنيا بلا نهاية .. والحياة - مهما بلغ العمر - ممتدة ، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم أر يقينا أشبه بالشك من يقين الإنسان بالموت » .. ذلك أن الإنسان مهما بلغ عمره .. وهو يعرف يقينا إنه ميت .. يظن أن ذلك لن يأتي إلا بعد سنوات وسنوات .. ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع حدوداً للاستمتاع البشري .. ولكن الطمع البشري ظل بلا حدود .. فالإنسان إذا أسرف في الطعام مرض .. وإذا أسرف في الرفاهية أصابت جسده العلل التي أصبحت تعرف الآن عند الطب بأمراض الرفاهية .. أو أمراض المدنية .. ولهذا حكمة .

إن ما يمكن أن تتمتع به وقتاً أو كمية محدود .. حتى تحس أن ذلك للزائد عن الحد قد أعطى لك لتعين به غيرك على حركة الحياة .. وانك إن لم تفعل ذلك فلا فائدة له عندك .. ولكننا مع هذا كله .. وفي مشوار الحياة القصير .. ننسى أن الله يسمع ويرى .. وننسى أن الحساب الذي أخبرنا الله عنه . هو علم يقين فعلاً .

عندما يتوقف الكون !

ولو تذكرنا هذا لعرفنا تفاهة ما نحصل عليه كل قانون من هذه القوانين ..
حكمة تقديم العمل أولا للحصول على الثمار .. وهذه الحكمة لا تمضى بدونها
الحياة .. ونحن حريصون عليها في الأعمال الدنيا .. ننساها بالنسبة للآخرة ..
ولذلك يذكرنا الله سبحانه وتعالى بها .
ثم تمضى السورة الكريمة :

﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتَ ﴾ (١٤)

سورة التكوير

.. أى أنه إذا حدث هذا كله .. وخرج كل ما فى هذا العالم عن المؤلف ..
فالشمس والجبال .. والنجوم .. وكل آيات الكون .. الكبرى التى أخضعها
الله سبحانه وتعالى للإنسان .. وسخرها له .. ووضع لها نظاما رتبيا تمشى
به .. خرجت عن هذا النظام .. وعن هذا المؤلف .. وعن مهمتها .. لأن
الحياة الدنيا قد انتهت .. فى هذه اللحظة تعلم كل نفس ما أحضرت .

لماذا .. ما أحضرت

وبعض الناس يتساءل هنا .. لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى
« ما أحضرت » .. ولم يستخدم ما أحضر لها .. وهل النفس هى التى قامت
باحضار هذه الأشياء إلى الآخرة .. أم أن قدرة الله سبحانه وتعالى هى التى
أحضرتها له .. ولكن كما قلت وأقول دائما لكل لفظ فى القرآن حكمة ودقة فى
الاختيار .. فلا يوجد شيء فى كتاب الله اسمه الصدفة .. بل كل شيء بميزان
دقيق .

الله سبحانه وتعالى يقول: « ما أحضرت » .. لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان فى
هذه الحياة .. ويبين له طريق الحق .. ثم بعد ذلك ترك له حرية الاختيار فيما
يفعل ولا يفعل .. الذى آمن بالله سبحانه وتعالى وصدق الرسالات دخل فى

عندما يتوقف الكون !

تعاقد إيماني مع الله .. فقال يا ربى لقد آمنت .. وآمنت بمحض اختياري ..
وبهدايتك إلى .. ومن هنا فإننى بإيماني التزمت بما تقول فى افعال ولا تفعل ..
فكأن الإنسان المؤمن ألزم نفسه أولا بالإيمان بالله .. ولذلك نجد الله سبحانه
وتعالى حين يذكر الأوامر التكليفية فى القرآن .. يقول :

« يا أيها الذين آمنوا »

فى كل أمر تكليفى ..

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام .. »

أى يا أيها الذين ارتضىتم الإيمان طريقا باختياركم الحر .. وصدقتم ، فهذا هو
المطلوب منكم .

إذن فالإنسان شريك هنا فى كل ما يتم من أفعال يحاسبه عليها الله سبحانه
وتعالى بالثواب أو بالعقاب .. ومن هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

« علمت نفس ما أحضرت »

.. لأنه لم يحضر لها شيئا لا علاقه لها به .. وإنما أحضر لها كل شيء لها به
علاقة .. والنفس هى التى آمنت .. وارتضىت .. وصدقتم .. ودخلت فى
عقد إيماني مع الله سبحانه وتعالى .. ولذلك هى التى أحضرت .. أى فعلت
أعمالها .

وأولئك الذين لم يؤمنوا .. هم رفضوا الدخول فى الإيمان بالله .. وبرفضهم
هذا اختاروا طريقا آخر .. وفعلوا ما فعلوه .. باختيارهم هذا الطريق ..
ولذلك أحضر لهم ما فعلوه .. لأنهم شركاء فى الفعل أيضا .. ليس بالإيمان ..
ولكن بالعمل .. بإنكارهم رسالة الله .. وبالعامل على عكس ما رسمه الله
سبحانه وتعالى منها للحياة فى افعال ولا تفعل .. فالنفس البشرية شريكة فى كل
ما تقوم به .. وهذه النفس تعلم ما أحضرت فى يوم القيامة .

ولكن كيف تعلم ؟ إذا كانت نفسا مؤمنة .. فقد علمت بما آمنت به ..

عندما يتوقف الكون !

نقول نعم .. ولكنها علمت به علم يقين ..

أى أيقنت أن هذه الساعة ستم .. وأن الحساب سيكون .. ولكنها فى هذه اللحظة ترى كل شىء عن اليقين .. والنفس التى لم تؤمن أنكرت كل هذا .. وحاولت أن تستره ومضت فى الدنيا تحاول بعقلها المحدود أن تشق طريقا آخر بمنطق الهوى .. وليس بمنطق الحق .. فى هذه اللحظة لم تكن عند هذه النفس صورة ما يحدث يوم القيامة .. ولم تقبل على الصورة التى أنزلها الله سبحانه وتعالى .. فى هذه اللحظة تعلم علم اليقين .. وترى عين اليقين .. لا علم الصورة .. وبعد أن كان الأمر مبهما .. أو كان الأمر مستورا عنها .. أصبح واضحا مرثيا رأى العين .. بحيث لا يستطيع أى واحد أن ينكر أى شىء .. لا يستطيع من لم يؤمن أن ينكر فى هذه اللحظة وهو يرى عين اليقين .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا لا تغتروا بثبات الوجود .. لا تغتروا بأن الشمس تشرق كل يوم .. والأرض ثابتة .. والجبال راسية .. والدنيا تبدو وكأنها دائمة .. لا تغتروا بكل هذا وينسيكم ما هو قادم .. ذلك أنه فى اللحظة التى تنتهى فيها الحياة .. سيذهب كل هذا فى غمضة عين .. كل ما نألفه .. وألفته سيضيع وينتهى .. وكل ما تعودت عليه سيختفى .. وسنجد عالما آخر مختلفا تماما عن ذلك الذى ألفته .. بل لا يمت إليه بصلة .. ستكشف لك أشياء لم تكن تعرفها .. وستظهر لك أسرار كانت خافية عنك .. إن هذا سيحدث ويجب أن نوقن أنه سيحدث .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« فلا أقسم بالخنس » ..

.. لماذا يقول الله سبحانه وتعالى لا أقسم .. ؟ بينا الهدف هو القسم ..

عندما يتوقف الكون !

الله لا يجيء بمادة القسم
نقول : أن الله سبحانه وتعالى يقول في السورة :
« فلا أقسم بالخنس » ..

ذلك أن الله عندما يجب أن يقسم .. لا يجيء بمادة القسم أبدا .. فيقول
سبحانه وتعالى :
« والطور وكتاب مسطور »

.. ولا يقول أقسم بالطور .. فكما قلنا ، إذا شاء الله سبحانه وتعالى أن
يقسم لا يأتي بمادة القسم .. وإنما حين ينفي القسم فهذا تأكيد له ..
لماذا ..؟ .. لأن القسم على الشيء معناه اعتراف من المتكلم .. لشبهة
المخاطب في الإنكار .. فأنت حين تتحدث مع شخص عن شيء ما .. وتجد
فيه الشك تقسم له .. ولكن الله سبحانه وتعالى فوق هذا كله .. ذلك أن علمه
وقوله لا يصل إليهما الشك أبدا .. فإذا قال شيئا سبحانه وتعالى .. فيكفي أنه
قال .. لأنه هو الله .. هو الخالق والعالم .. هو الله ..

ونحن إذا أردنا أن نقسم بشيء .. أقسمنا بالله .. لأنه عليم بكل
شيء .. شهيد على كل ما يحدث .. ولكن الله سبحانه وتعالى - وذاته مصونة -
حين يخاطبنا .. فإنه ليس محتاجا لقسم .. لأنه لا يوجد من هو أعظم ولا أعلم
منه ليقسم به .. ومن هنا فإن قول الله وكلامه .. هما في مرتبة القسم .. بل
أعلى من مرتبة القسم .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

من الآية ٥٣ سورة فصلت

عندما يتوقف الكون !

أى أنه كان يكفيهم أن هذا القول من الله ليتم التصديق .. ولكن الله سبحانه وتعالى لا يريد لأحد يوم القيامة أن يكون له حجة عليه .. ومن هنا يأتي بالبينات في كتابه .. ويضع من المعجزة في القرآن .. ما يجعله كتاب هداية وصدق .. لكل من يعقل .. ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى لهؤلاء المنكرين .. لو كنت مقسما .. لأقسمت بكذا وكذا .. ولكننى لا أقسم .. والقسم هنا لا ينصب على الحقائق التي يذكرها الله سبحانه وتعالى .. ولكنه ينصب على صدق التبليغ عن الله .. فيما جاء في القرآن الكريم .. فالله سبحانه وتعالى حين يقول لا أقسم .. في هذه السورة .. يأتي بعد ذلك بجواب .. وهو أنه لقول رسول كريم .. أى أن القسم لا ينصب على كلام الله .. ولكنه شهادة من الله سبحانه وتعالى على صدق البلاغ .. وصدق الرسالة .. إذن فنفى القسم هنا معناه أن الله سبحانه وتعالى لا يقسم .. لأن كلامه أعلى من أى قسم في هذه الدنيا .. ولازلة الشبهة عما يثيره وسيثيره بعض المبطلين عن هذا القرآن .. يقول الله سبحانه وتعالى لو كنت مقسما .. لأقسمت بكذا وكذا .. ولكننى لا أقسم .. وهذا معنى النفى هنا .. ويأتى هذا ليس عن الحقائق الموجودة في القرآن .. ولكن عن أمانة التبليغ .. وهو ما سنتناوله بالتفصيل عندما نصل إلى الآيات التي تشرح ذلك .

يقول الله سبحانه وتعالى :

« فلا أقسم بالخنس »

.. والخنس معناها الكواكب والنجوم .. تطلع من أماكنها في أبراجها .. ثم تعود إلى أبراجها .. لماذا اختار الله النجوم في هذا القسم .. وفي قسم آخر :

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

سورة الواقعة

عندما يتوقف الكون !

ذلك أنه في خلق هذه النجوم من المعجزات والآيات الكونية .. ما يعجز
البشر جميعا .. والبشر عاجز علميا وعقليا عن معرفة العظمت الموجودة في خلق
السماء .. ولكن تكفى ومضة من الومضات لترينا هذه العظمة كأن يكون بيننا
وبين كوكب مئات الملايين من السنين الضوئية لنرى البعد الشاسع واللانهاى
الموجود في الفضاء لمواقع هذه النجوم .. ونعرف أن الله سبحانه وتعالى حينها
صنع هذا الكون الهائل .. صنع فيه أشياء تصل أبعادها إلى مسافات ينوء فيها
العقل .. وجعلنا نراها لنحس بهذه العظمة .. على أنه في خلق النجوم
وحركتها .. والنظام البديع في هذا الكون .. آيات على دقة متناهية .. يعرفها
كل من يدرس علم الفلك .. أو يعمل به .. فإن الحركة التى تتم في السماء
بهذه الدقة المذهلة .. ومنذ ملايين السنين هى من صنع خالق عظيم ..

والسبب الثانى للقسم .. هو أن هذه النجوم تمثل لنا حقيقة هامة في
الكون .. فنحن نراها بالليل .. ولا نراها بالنهار مثلا .. مع أنها موجودة ..
وهى تبدو لنا ثابتة بالعين المجردة .. ولكنها تتحرك .. ولها مجالات
مغناطيسية .. إلى آخر ذلك .. ومعنى هذا أننا عاجزون عن أن ندرك حقائق
كثيرة من الكون ادراك الرؤية النظرية .. ذلك أننا نعتقد أن ما نراه فقط هو
موجود .. أما ما هو غائب عنا فلا وجود له .. ولكن الحقيقة غير ذلك تماما ..
فهذه النجوم سواء رأيناها .. إذا جاء الليل .. أو لم نرها إذا طلع النهار ..
موجودة في أماكنها .. لا تغيب بمجرد طلوع الشمس .. ثم تعود عندما يأتى
الليل .. فعدم رؤيتها بالنهار ليس اختفاء لها .. ولكنه عدم ادراك منا لهذا
الوجود .. وهذه النجوم سواء لاحظنا حركتها أو لم نلاحظ .. فلها حركتها في
الكون .. وعدم ملاحظتنا لهذه الحركة ليس معناها أنها توقفت .. بل هى
موجودة .. ومن هنا فإن الله يريد أن ينبهنا .. إلى أن هناك أشياء نراها ..
وأشياء تختفى عنا .. ولكن اختفاءها عنا ليس انعدامها لوجودها .. ولكنه
خروجها من علمنا .. أو بصرنا .. ولذلك فإن ما سيحدث يوم القيامة بالنسبة
للشمس والجبال .. وكل ما ألفناه في حياتنا اليومية .. هو مخفى عنا ..

عندما يتوقف الكون !

لا نستطيع أن نراه أونرصده .. ولكن هذا الاختفاء لا يعنى عدم الوجود .. ولكنه يعنى عدم العلم منا بهذا الوجود .. فإذا أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأن هذا سيحدث .. فيجب فى هذه الحالة ألا نحكم عقولنا أو علمنا .. بل أن نصدقه .. لأنه يأتي من هو أعلم منا .. ومن خلق هذا الكون ووضع له

نظامه .. وإذا كنا نريد أن نعلم على علمنا فقط .. فالله يأتي لنا بأشياء ظاهرة .. لا تحتاج إلى أبحاث .. وإنما يراها كل الناس .. ويقول لنا : انكم لا ترون هذه النجوم وقت طلوع الشمس .. ولكنها موجودة .. فالانكار هنا مردود عليه بأن علمكم قاصر .. وحواسكم قاصرة ..

والله سبحانه وتعالى قد ضرب على ذلك أمثلة كثيرة فى الاحساس بالوجود... مع عدم فهم الشيء .. أو قصورنا عن فهمه .. ولعل أبرز الأمثلة التى ضربها الله سبحانه وتعالى .. هو الروح .. ذلك أنه جعلها ظاهرة وخافية .. وتلك هى المعجزة .. ففى الوقت الذى هى فيه أوضح من الوضوح .. هى من أدق الأسرار التى لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .

أين الروح ؟ ..

ونفسر هذه النقطة قليلا .. الإنسان أو أى كائن حى .. نقول : الإنسان يمشى ويتحرك .. ويرى .. ويسمع .. ويحس إذا كان حيا .. فإذا خرجت الروح ذهب كل هذا وأصبح جثة بلا حراك .. إذن نحن جميعا نرى الروح .. ليس فى ذاتيتها .. ولكن فى آثارها .. نراها فى أنفسنا .. ونراها فى غيرنا من البشر جميعا .. بل وفى كل الكائنات الحية .. والدليل على الروح هو القدرة على الحركة .. والكلام .. والرؤية .. والطعام والشراب .. وكل ما يفعله الإنسان فى حياته .. فلو خرجت هذه الروح لحملنا الجسد وواريناه التراب .. لأنه بدون الروح لا شىء .

عندما يتوقف الكون !

هذه حقيقة ليست محتاجة إلى مناقشة .. لأننا نراها رأى العين .. ولا أحد يستطيع أن يجادل فيها .. لأنه لا أحد يستطيع أن يجعل الميت الذى غادرت الروح جسده .. يقوم بوظائف الحى .. الذى مازالت فى جسده الروح .. ومع ذلك فما هى الروح .. لا أحد يعرف .. وأين مكانها .. هل هى فى القلب الذى ينبض .. أو فى العقل الذى يفكر .. أو فى العين التى ترى .. أو فى الأذن التى تسمع .. أو فى اليد التى تفعل .. أو فى القدم التى تمشى .. إنها فى كل هؤلاء جميعا .. ولكننا لا نستطيع أن نحدد مكانها بالضبط .. قد يقول بعض الناس أن الروح فى كل خلية حية .. وهذا صحيح نظريا .. ولكن إذا أصيب إنسان فى حادث .. وبترت قدماء مثلا .. فهل انفصل جزء من روحه .. أم أن الروح باقية فى جميع أجزاء الجسم تودى وظيفتها كاملة .. الذى انفصل وتم بتره هو الأداة التى تقوم بالعمل .. أما الروح نفسها فما زالت باقية تعطى وتهب الحياة للجسم .. والدليل على ذلك أنها عندما تخرج يموت الإنسان .. فيتوقف كلية عن كل وظائف الحياة .

إذن فتحديد مكان الروح بالضبط .. لا يمكن أن يصل إليه أدق العلماء .. لأن آثارها والدليل عليها موجود فى كل أجزاء الجسم .. ولكن وجودها لا يعطينا علما عنها .. وهذه هى المعجزة .. فيها هى الروح .. ظاهرة أمامنا فى كل جسد .. ولكن إنسانا لن يستطيع أن يخرج روحا من جسد .. ويقول هذه هى الروح .. أنظروا .. هى التى كانت تحرك هذا الجسد كله .. أو يعيد ادخال الروح إلى جسد تكون قد خرجت منه .. وهنا رغم ظهور آثار الروح تماما .. فإن السر مخفى عنا .

نصل بذلك إلى أن الروح هى التى تدير الجسم .. وتعطيه الحركة والحياة .. والحس .. ظاهرة آثارها .. ولكن بالله عليك ما شكلها .. هل رأيتها .. هل سمعتها .. هل لمستها .. إنها فى كل وسيلة من وسائل الحس .. ولكنك مع كل وسائل الحس عاجز عن ادراكها .. فإذا تحدث الله سبحانه وتعالى عن

عندما يتوقف الكون !

الكون .. وحركته .. وما لا تراه فيه .. فلا تنظر إلى هذا القول ..
بالتعجب .. لأن عنصرا خلقه الله سبحانه وتعالى .. وأدخله في جسدك .. ثم
جعله لا يدخل في علمك .. أو في نظام حسك .. أو قدرة رؤيتك .. فإذا كان
مخلوق من مخلوقات الله .. وهو لروح .. لا يدخل في نطاق رؤيتك .. فكيف
يكون الخالق سبحانه وتعالى .

إذن فقسم الله سبحانه وتعالى بالحنس .. الكواكب التي تطلع من أماكنها ..
« والجوار الكنس » .

أى المكان الذى يأوى اليه الظبى .. أو الحيوان .. والذى قد تمر عليه ..
وهناك ظبى فيه .. وأنت لا تدري ولا تعلم .. ولكن لأن هذا أخفى عليك ..
ليس معناه أنه غير موجود .. بل معناه أن علمك لا يصل إليه .. ثم يجيء
بعدها ..

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾

سورة التكوير

« والليل إذا عسعس » معناها أنه اشتد ظلامه .. ومعنى ذلك أن أولئك
الذين ينكرون هذا إنما يعيشون في جهل له ظلام دامس مثل الليل تماما .. فهم
لا يرون شيئا .. لأن الظلام الذى وضعوه حول أنفسهم يقصر كل حياتهم على
الماديات التى يرونها .. هذا الظلام قد حجب عن أنفسهم نور الإيمان الذى كان
يقودهم إلى الحقائق .. ولف الشيء بالظلمة .. والظلمة الشديدة .. هو اخفاء
له عن النظر دون اختفائه من الوجود .. فالعلاقة هنا بين النجوم .. وظلمة
الليل .. والبيت الذى يختفى فيه الظبى أو الحيوان .. تأتى في معنى واحد ..
وهو وجود الشيء رغم عدم علمك به ..
ثم يقول الله سبحانه وتعالى :
« والصبح إذا تنفس » .

عندما يتوقف الكون !

وهذه معجزة الحياة في الكون .. ولقد ثبت أن الكون كله يتنفس مع الصبح .. تأتي ملايين الأشجار في الكون .. فتأخذ الهواء الفاسد .. وتعطى الأوكسجين اللازم لحياة البشر .. الحياة الصحيحة .. ولذلك فكلمها ابتعد الإنسان عن المدينة .. والتلوث الذى يحدثه الكون .. وذهب إلى مكان فيه حدائق وأشجار .. كان ذلك أجدى لصحته وأحسن .. لأنه سيعيش في جو من الأوكسجين النقى .. الذى يخرج من هذه الأشجار كل صباح فكأنه سيعيش حياة تملؤها الصحة .. والناس حريصون على أن يحيطوا منازلهم والأماكن التى يعيشون فيها بالأشجار والحدائق لهذا السبب ..

والصبح عندما يتنفس يكون أنقى ، الأوكسجين قد انطلق إلى الدنيا .. ثم تبدأ الحياة .. ووسائل المواصلات والمصانع .. وكل ما فعله الإنسان لتفسد جمال ما خلقه الله في حياة للبشر .

والصبح إذا تنفس .. أى أن له حياة .. فكأن الصبح من وطأة ظلمة الليل الشديدة .. التى تخرج فيها يدك ولا تكاد تراها الظلمة .. مع علمك بوجود هذه اليد .. فانك لا ترى مكانها .. يأتي الصبح .. واشراق الضوء .. ليعطينا الهواء النقى للتنفس .. وتخرج الأشجار والنباتات الأوكسجين صالحا نقيا .. لأن يتنفس به الإنسان .. فالكون في الصبح في ذلك الوقت يبدأ التنفس .

وإذا أردنا أن نضع المعنى متكاملًا .. فالله سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن أشياء ستحدث يوم القيامة .. ثم قال لنا ان عدم علمكم بها لا ينفي وجودها .. وأنها ستحدث .. وأضاف أن علم الإنسان قاصر .. كظلمة الليل تختفى بعض الأشياء فيها .. فلا تتبينها العين رغم وجودها .. وإن هذا القرآن هو الصبح الذى يريك كل شىء بوضوح .. وهو كعملية التنفس التى تتم على الأرض لأنه يدل على طريق الحياة الطيبة الآمنة .. ولكن لماذا اختار الله سبحانه وتعالى هذا المثل .. إننا سنكمل الحديث في الفصل القادم .

الفصل الثاني

قَوَائِنُ الْكَوْنِ وَالْأَنْسَانِ

قوانين الكون والانسان

الدنيا كلها بجميع قدراتها .. وعلومها وتقدمها .. لا تصل إلى ذرة في علم الله سبحانه وتعالى .. ومن هنا فإن ما يقوله الله ليس محتاجا إلى تأكيد .. لأن قول الحق أكبر من أى تأكيد .. وغير المؤمن يحاول دائما أن يدخل الشك إلى القلب المؤمن بكلمة كيف .. ذلك أنه فيما تناوله الآية الكريمة من علامات القيامة يحاول الإنسان أن يثير الجدل حولها بكلمة كيف .. كيف سيحدث هذا؟

والعلم الحديث يكشف لنا عن أشياء .. ولكنه لا يستطيع أن يفسر لنا أشياء كثيرة تحدث في الكون .. والقانون الذى يربط الإنسان وهونائم بالكون .. غير القانون الذى يربطه وهو مستيقظ .. أنه عندما يكون منتبها متيقظا .. تحكمه قوانين معينة .. فىرى بعينه .. ويسمع بأذنيه .. ويمشى بقدميه .. ويعيش حياته العادية .. فإذا نام .. رأى وعيناه مغمضتان .. ومشى وقدماه لا تتحركان .. وحدثت له أشياء لا يمكن أن تحدث له فى الدنيا .. ولا تخضع لمنطق العقل .. وذلك يتم دون أن يستطيع العلم أن يحدد لنا كيف .. أو يكشف لنا كيف تتغير علاقة الإنسان بالكون .. وتتغير كل القوانين التى تربطه به .. وقد سألت صديقى العالم إذا كان الإنسان يرى بعينه .. فكيف يرى وهو نائم مغمض العينين .. وإذا كان الإنسان يمشى بقدميه .. فكيف يمشى ويجرى فى الحلم وقدماه راقدتان فوق السرير .. سألته لأنه دائما يريد أن يعرف كيف .

وقلت أن الأحاسيس التى تربط الإنسان بالكون وهو مستيقظ .. تربطه وهو نائم .. ومع الأحاسيس بالشعور .. فإذا رأى حلما يحزنه .. قام والدموع فى عينيه .. وإذا رأى حلما يبهجه .. قام والبسمة على شفثيه .. وإذا رأى حلما يفزعه قام فزعا .

إذن فهناك قانونان مختلفان يتحكمان فى الإنسان .. أحدهما يخضع له وهو مستيقظ .. وهذا يدرسه العلم ويقترّب منه .. ومن بعض حقائقه .. والقانون

قوانين الكون والانسان

الثاني يخضع له نفس الإنسان وهو نائم . . وهو ما يحاول العلم أن يصل إليه ولكنه لا يستطيع . . وهناك قانون ثالث يحكم علاقة الإنسان بالكون بعد أن يموت . . ثم هناك قوانين ليوم القيامة . . كل قانون من هذه القوانين يحدد علاقة مختلفة تماما بين الإنسان وقوى الكون . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يقرب إلى أذهاننا هذا . . فأرانا اختلاف علاقة الإنسان بالكون في حالة النوم واليقظة . . فذلك رحمة من الله بعقولنا . . ذلك أن الله عندما ينبئنا عن قضية غيبية هي فوق قدرة العقل الإنساني . . ولا يريد أن يكشفها له . . يعطينا بجانبها ما يبسطها لنا ويقربها من أذهاننا . .

على أن كلمة « كيف » . . تأتي دائما لتحاول تشكيك الإنسان المؤمن أو احراجة وسط الذين يدعون العلم . . وينكرون الإيمان . . فهو يريد أن يعرف كيف خلق الله الكون . . وكيف يبعث الله الناس يوم القيامة . . إلى آخر هذا الكلام الذى يقال .

والحقيقة ان استخدام كلمة كيف هنا ضد العلم البشرى . . وضد القوانين البشرية . . وكل قوانين الدنيا . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يكشف للإنسان عن أشياء في الكون . . ويخفى عنه أشياء أخرى . . هذه مشيئة الله . . وتلك حكمة أرادها الله ليمتحن من يؤمن بالغيب . . ومن يكفر . . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . . ومن هنا فإنك حينما تقول كيف في أشياء غيبية . . لا تستطيع أن تصل إليها بالعلم البشرى . . أى في داخل المعمل وبتجارب معملية . . وحينما تكون كيف هذه عن قدرة الله سبحانه وتعالى . . وقوة الله سبحانه وتعالى . . فإنك هنا تنكر كلمة لا إله إلا الله . . لماذا؟

لأنك تقول كيف حينما يكون الإنسان متساويا مع من يناقشه . . بمعنى اننى وأنا لم أدرس الطب . . لا أستطيع أن أناقش الطبيب . . وإذا لم أدرس الفلك مثلا . . لا أستطيع أن أناقش عالم الفلك في حركة النجوم والكواكب . . تلك

قوانين الكون والانسان

حقيقة كونية لا يستطيع أحد أن ينكرها .. عندما أقول كلمة كيف .. لا بد أن يكون العلم متساويا .. والعقل متساويا .. أو قريبا على الأقل .. فكلمة كيف لا تقال في حياتنا البشرية إلا بين عقليين متساويين في العلم .. ومن منا نحن البشر نستطيع أن يتساوى في علمه مع الله سبحانه وتعالى .. لا يمكن أن أنزل إلى الشارع .. وآق بإنسان لم يقرأ بكلمة في حياته .. بل لا يعرف القراءة والكتابة .. ثم أتناقش معه في كيف أعالج مريضا .. أو كيف ابني عقلا الكترونيا .. أو كيف أصل إلى الكواكب .. أو في نسبة الزمن .. كل هذا خارج عن نطاق علمه .. وبالتالي فإنه يجهله .. وأى نقاش فيه هو نوع من الجنون .. والغاء للعقل .. وسيقول عنى العلماء .. ومنهم من كنت أتناقش معهم .. اننى رجل مجنون .. كيف تشعر إذا قرأت اعلانا عن مناقشة تجرى بين اينشتين مثلا .. وأحد سكان الغابات عن كيفية التفجير الذرى أو النووى .. أو غزو الفضاء .. هل يسمح العقل البشرى بهذه المناقشة .. وهل يمكن أن تحدث .. وهل يجتمع علماء الأرض ليروا أو يستفيدوا من النقاش الذى يجرى بين رجل الغابة .. وبين اينشتين حول غزو الفضاء .. وما سيضيفه هذا النقاش من علم للبشر ولل بشرية .

أظن أن هذا مستحيل .. وأن مناقشة مثل ذلك ستثير سخرية العالم ..

ولكن للأسف الشديد فإن ما ينكره العلماء على غيرهم من البشر بالنسبة للعلم .. يستباحونه بالنسبة لله سبحانه وتعالى .. وهم يريدون أن يناقشوا كيف خلق الله .. وهم يريدون أن يناقشوا الموت والبعث .. والجنة والنار .. وتلك غيبات إيمانية أبقاها الله في علم الغيب عنده .. ولم يطلع عليها أحدا من خلقه .. ومن هنا فإنه لا يمكن النقاش فيها .. لأن هذا النقاش لن يوصلنا إلى علم .. وإذا كان الفارق بين رجل تربى في الغابة وبين اينشتين هو مائة درجة .. فالفارق بين علم أكبر علماء الأرض .. وبين علم الله هو بلايين البلايين من الدرجات التى لا تعد ولا تحصى .. فالله ليس كمثله شيء .. والله

قوانين الكون والانسان

سبحانه وتعالى لا يصل لذرة من علمه أحد . . . ولذلك قال الله في قرآنه
الكريم :

﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

سورة الإسراء

علم الله . . . والإيمان

اننى أستطيع أن أناقش . . . أن أدرس ظواهر الكون . . . تلك التى أستطيع أن
أدخلها فى المعمل . . . وأجرى عليها تجارب بعيدة عن نظريات الهوى . . . أو
الكلام الذى يقال بلا دليل . . . ولكن كل شىء غيبى عنا هو علم الله . . . وهو
يدخل فى قضية الإيمان . . . ولا يدخل فى قضية العلم . . . فإذا كان الله قد أرانا
آياته فى الأرض . . . وبين لنا فى كتابه العزيز قوانين الكون قبل أن تكتشف بمئات
السنين . . . بل وبألوف السنين . . . ليدلنا على أنه الخالق . . . فإن ذلك يكون كافيا
جدا لقضية الإيمان . . . أما من يريدون أن يضعوا قدراتهم . . . مثل قدرة الله
سبحانه وتعالى . . . فيقولون كيف . . . هم بذلك يحاولون أن يضعوا قدرة عقولهم
فى كفة متساوية . . . مع قدرة الله سبحانه وتعالى . وهذا مرفوض تماما .

ولكن صديقى العالم لم يكتف بهذا الكلام . . . بل قال: كيف يكلم الله الناس
فى يوم القيامة . . . هذه الألوف من اللهجات . . . وهذه الألوف من اللغات . . .
كيف يكلمها الله فى فترة واحدة . . . ودفعة واحدة . . . ونسى الآية الكريمة التى
تقول :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَسَائِكُمْ ﴾

سورة الروم

أى أن اختلاف اللهجات هو آية من آيات الله سبحانه وتعالى . . . والله هو

قوانين الكون والانسان

الذى منح الإنسان نعمة الكلام .. وعلم اللغة تصديقا لقوله تعالى :
« وعلم آدم الأسماء كلها » .

والله حين أرسل الرسل .. أرسلهم بلغة أقوامهم .. وكان لا بد لكى ينتقل
العلم من إنسان إلى إنسان .. ومن جيل إلى جيل .. وإن ترث البشرية
الحضارة .. أن تكون هناك لغة .. بل أن الله سبحانه وتعالى يقول :
« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه »

أى أن الكلام لأدم علمه الله سبحانه وتعالى .. ثم علم آدم حواء .. ثم
بدأت اللغة فى البشرية كلها .. ومن هنا فإن هذه آية من آيات الله .. خص بها
الإنسان .. وميزه بها .. ووهبها له .. وإذا كانت اللغة هبة من هبات الله
للإنسان .. فإذا كل فرد منا يفهم اللغة التى أراد له الله أن يتحدث بها .

ولقد أراد الله أن ينبئنا أن اللغة هبة من عنده .. وليست وراثه .. وليست
خاضعة لأقوام دون أقوام .. ولا هى حسب الجنس .. فإذا أتينا بطفل صغير
من أوربا .. ووضعناه فى بلد تتكلم اللغة العربية .. فإنه ينشأ وهو يتحدث
اللغة العربية .. رغم أنها ليست لغة آباءه وأجداده .. والعكس صحيح بالنسبة
لطفل عربى يوضع فى مجتمع أجنبى .. هذه الحقيقة وضعها الله ليؤكد لنا أن
اللغة ليست وراثه .. وهو لم يختص بها قوما معينين .. بحيث إذا أتيت بطفل
انجليزى .. فإنه يتحدث باللغة الانجليزية مهما كانت البيئة التى ينشأ فيها ..
وإذا أتيت بطفل عربى .. فإنه يتحدث اللغة العربية مهما كانت البيئة التى ينشأ
فيها .. ولكن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .. واللغة تعلمنا أنه لا جدوى أبدا
من النطق بالفاظ لها مدلول ومعنى إلا إذا كانت قد سمعت أولا .. فلو أنك
أتيت بشخص أجنبى لم يسمع اللغة العربية .. ونطقت أمامه ألفاظا عربية ..
فإنه لا يفهم شيئا .. وكذلك بالنسبة للعربى الذى تنطق أمامه ألفاظا غير
عربية .. فإنه لا يفهم أيضا .

قوانين الكون والانسان

نعود بعد ذلك إلى بداية العالم .. إذا كان العالم قد ابتدأ من ذكر وأنثى ..
كما دللنا على ذلك .. كيف تفاهما .. لا بد أنهما سمعا شيئا اعتادت عليه
أذانها .. فنطق به لسانها .. وتكلمها به .. ولكن كيف سمعا وهما الأول
والبداية .. ومن سمعا .. إذن لا بد أن يكون هناك سمع ليس من جنسيهما ..
لأن الأصل .. في الجنس البشرى أنه من لا يسمع لا ينطق .. كما نعرف
جميعا .. إذن لا بد أن يكون قد علمها معلم آخر .. إذن فالإيمان بوجود الله
ضرورة لغوية .. لأنه لا بد أن الله سبحانه وتعالى قد كلم آدم فسمع .. وكلم
آدم حواء فسمعت .. وبدأت اللغة لغة التخاطب والتفاهم نقلا عما علمها
الله .

هذا واقع مادامت هذه الإنسانية كلها قد بدأت من ذكر وأنثى وكان بين هذا
الذكر وهذه الأنثى تفاهم .. فلا بد أنهما سمعا الكلام .
وهنا يأتي قول الله سبحانه وتعالى :
« وعلم آدم الأسماء كلها »

ليشرح لنا ما حدث .. فالله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء .. أى اللغة
التي يتحدث بها ويفاهم بها .. ويتكلم بها .. ومن معجزات القرآن أن ذلك
لا يزال هو المتبع حتى الآن رغم مرور هذا الوقت الطويل .. وهذا التقدم
العلمي الضخم في العالم .. فنحن الآن حين نريد أن نعلم طفلا أن يتكلم فأننا
نبدأ بأن نعلمه الأسماء .. ولا نبدأ بأن نعلمه الأحداث .. أو أى شيء آخر ..
إنما نعلمه الأسماء أولا .. أول شيء نقول له هذا قلم .. وهذه كراسة .. وهذا
أسد .. وهذا كوب .. وهذا طعام .. وهذا طريق .. وهذا نور .. وهذا
ظلام .. نعلمه الأسماء أولا .. وبعد أن يتعلم الأسماء تصبح الاشتقاقات من
الأسماء .. وأخذ الأحداث منها عملية سهلة .. إذن عندما يقول الله سبحانه
وتعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها »

قوانين الكون والانسان

فيجب أن نعرف أن الله قد علم آدم لغة الكلام أولاً .. وأن لغة الكلام حتى عصرنا هذا تبدأ بتعليم الأسماء كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم .

إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي علم الإنسان اللغة التي يتكلمها .. ألا يستطيع أن يخاطبه بكل لغة علمها .. أو عرفها له .. ألا يمكن أن يتم هذا الخطاب في وقت واحد؟ .. العقل والمنطق والمداول يقول نعم .. لماذا لأننا عرفنا بالدليل أن القوانين التي يخضع لها الإنسان متغيرة .

قوانين النوم .. غير قوانين اليقظة .. وقوانين الجسد .. غير قوانين الروح .. وهناك قوانين نعرفها .. وهي قوانين الإنسان في اليقظة .. لأننا نتعامل معها في الحياة .. ولكن هناك قوانين لا نعرفها ونجهلها تماماً رغم أننا نعيشها .. وهي القوانين التي يخضع لها الإنسان وهو نائم .. فلا يستطيع أحد أن يفسر لنا هذه القوانين .. على سبيل الجزم .. إنما هناك نظريات بلا دليل .. فالعلم في المادة التي تدخل المعمل .. قد يصل إلى علم يقيني .. ولكن فيما وراء المادة .. فإنها نظريات بلا دليل .. وعلى أية حال .. إذا كان العلم عاجزاً عن أن يفسر لنا قانون الإنسان وهو نائم .. فكيف يريد أن يفسر لنا قانون الإنسان في الآخرة .

والله سبحانه وتعالى حين كشف لنا من علم .. كشف لنا أن قانون قدراتنا موجود في الكون .. فالبصر له حدود معينة يقف عندها .
.. فأنت لا تستطيع مثلاً إذا نظرت بعينيك أن ترى ماذا يحدث في قرية بعيدة .. أو فوق القمر .. ولكنك بواسطة عدسات تليفزيونية خاصة يدخل ذلك في قدرتك البشرية .. أو في قدرة عينيك على الأصح .. لأنك إذا كنت لا تبصر .. فلا أحد يستطيع أن يدخل شيئاً في قدرة إبصارك .. فالإنسان الأعمى لا يستطيع أن يستفيد من الامكانيات البشرية التي قد يعطيها العلم

قوانين الكون والانسان

للبصر كتكبير الأشياء مثلا ملايين المرات .. ورؤية ماذا يحدث فوق القمر بواسطة عدسات تليفزيونية .. كل هذا هو للمبصر وحده .. وكما يقال عن التليفزيون .. يقال عن الاذاعة .. فأنت تستطيع أن تسمع إنسانا يتحدث في أمريكا .. أو في أى مكان في العالم .. بواسطة استخدام الأثير .. ولكن فاقد السمع مهما قدمت له .. لا يستطيع أن يستفيد من ذلك .

إذن .. فهناك قوانين يخضع لها البشر .. فى اليقظة والحياة العادية .. وهذه القوانين هى خليط مما كشفه الله للإنسان من علم .. وما خلقه الله له من حواس يستقبل بها هذا العلم .

عندما نتحدث لمن رحلوا عنا

على أنه عندما ينام الإنسان .. يخضع لقوانين أخرى بعيدة تماما عن قوانين الحياة .. فهو يرى أشياء وأماكن لم يرها فى حياته .. وربما ليس لها وجود فى الدنيا .. وهو يفعل أشياء لا تنطبق عليها قوانين الأرض .. كأن يقفز من جبل عال .. وينزل إلى الأرض سليما .. بل أنه أكثر من ذلك أحيانا يرى أولئك الذين رحلوا عن هذه الدنيا من أسرته .. ويتحدث إليهم ويكلمهم .. وهو أحيانا فى أحلامه يبكى .. وأحيانا يضحك .. وأحيانا يقوم منزعجا .. وأحيانا يقوم مسرورا .. فكيف يمكن أن يحدث هذا كله للإنسان .. مع أنه نائم .. كيف يمكن أن يرى وعيناه مغمضتان .. مع أننا لو وضعنا عصا على عينيه فى اليقظة .. لا يستطيع أن يبصر .. كيف يمكن أن يحس ويشعر .. ويتعذب ويتألم .. ومن أين تأتى هذه الأماكن العجيبة التى يراها .. والتى لا وجود لها فى الدنيا .. والعلم عاجز حتى الآن عن أن يعرف كيف يرى الإنسان وهو نائم وعيناه مغمضتان .. وكيف يمشى ويجرى وهو على السرير قدماه لا تتحركان .. إذن فقوانين الكون التى يخضع لها البشر خلال اليقظة تختلف تماما عن تلك التى يخضع لها خلال النوم .. مع أن الفرق بينهما دقائق .. فإذا أخذنا نحن قوانين

قوانين الكون والانسان

اليقظة وحدها .. على أنها القوانين التي تحكم البشر .. وتركنا قوانين الكون التي نعيشها جميعا .. فإننا نجد أنفسنا قد تركنا جزءا هاما من حياة الإنسان .. وإذا نحن أخذها بكلمة كيف .. فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن أن نقدم تفسيراً علمياً واضحاً لما يحدث .. والجواب هنا أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يرينا يقينا أن علمنا قاصراً حتى نتخلى - في قضايا الغيب التي هي أكبر من قدراتنا - عن كلمة كيف .. ونعرف أننا في حياتنا نخضع لقوانين لا نستطيع تفسيرها .. مع أننا نراها يقينا .. ومن هذا المنطق .. فإن الإيمان ليس رأى العين .. ذلك أن رأى العين لا تدخل في العقل الإيماني .. فأنا حينما أراك وأتحدث إليك .. لا أقول اننى أؤمن بأننى أراك .. لأننى أراك فعلا .. ولكنى حينما أؤمن .. فأنتى أناقش القضية حتى يقتنع بها عقلى .. وحينئذ يصبح الإيمان بما هو غيب عن هذا العقل .. قياساً على ما هو واقع .. وبعد فكر ودراسة ومناقشة .. لكل ما أعطاه الله سبحانه وتعالى لنا من شواهد تقودنا إلى الإيمان .. ولذلك يبدأ القرآن الكريم في سورة البقرة بقوله تعالى :

﴿الرَّابِعُونَ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢١﴾

سورة آل عمران

أى أن الإيمان بالغيب أساس من أسس العقيدة .. وحيث أنك لا ترى الغيب .. فإن الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا ما يقربه إلى عقولنا بحيث يدخل الإيمان إلى القلب .. ولا يصبح الغيب محل المناقشة .. فحين يقول الله سبحانه وتعالى أن كل شيء يوم القيامة سيتغير ويتبدل .. فإن هذا الكلام مادام صادراً عن الله سبحانه وتعالى .. فيكفى مصدره وصدوره عن الله .. ليصبح يقينا دون أية إضافات أخرى .

قوانين الكون والانسان

داخل النفس البشرية

وهناك في حياتنا أشياء نستطيع أن نحسها ونراها .. ولكن هناك أشياء لا نراها ونحسها .. فالاحساس بالجوع والحب والكره .. أشياء لا تنطبق عليها الرؤية .. ولكنها مع ذلك غرائز وضعت فينا .. وموجودة داخل النفس البشرية .. والحقيقة أن الإلهام والشعور داخل النفس البشرية .. يوجد قبل إحساس هذه النفس بما حولها من العالم .. تلك سنة الخلق .. فالطفل الصغير قبل أن يتصل بالعالم الخارجى .. أو بعد ولادته بساعات .. أو أيام .. يحس بالجوع والعطش .. والألم .. ويعبر عنها بالبكاء .. ويحس بالحنان والدفء .. والحب والكره .. والقسوة والرحمة .. كل هذه الأشياء توجد في داخل النفس البشرية .. مع دقائق الحياة الأولى .. بينما الحواس قد تنتظر أسابيع أو شهورا .. قبل أن تستطيع أن تؤدي مهمتها بشكل يمكن أن يعبر عنه الطفل .

وإذا درسنا النفس البشرية .. وإحساساتها الداخلية .. نجد أن قواها هي إحساس الإنسان بوجود الله .. هذا الإحساس الذى يفتقر في بداية حياتنا إلى شىء من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته .. والكون ووجوده .. ولكنه يؤكد ويحس بوجود الخالق سبحانه وتعالى .

وأحب أن أوضح هذه النقطة قليلا .. إن النفس البشرية التى فيها أحاسيس لم يستطع أحد أن يحللها بدقة .. ولا نستطيع نحن أن نصل إليها .. هذه النفس تحس يقينا بوجود الله سبحانه وتعالى .. فاسم الله مثلا .. هو شىء لا تدركه الحواس الخمس .. ولا يدركه العقل البشرى .. لأنه أكبر من كل هذه القدرات .. ولكن تدركه حاسة داخل النفس .. حاسة غير مرئية .. ومن هنا فإننا إذا ذكرنا كلمة الله سبحانه وتعالى .. نجد أن الأذن تفهمها .. وأن النفس تجد بينها وبين الله ألفه .. ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئا لا يوجد أصلا داخل النفس البشرية .. ذلك أنه لا بد من وجود التصور أولا داخل النفس ..

قوانين الكون والانسان

حتى تألف الشيء .. ويستطيع أن يصل إلى العقل .. ومن هنا فإنك إذا حدثت إنسانا عن شيء لم يره .. ولم يسمع به في حياته .. تجده لا يفهم .. خصوصا إذا ذكرت اللفظ دون شرح .. فأنت إذا قلت ناطحة سحاب مثلا .. أو مركبة فضاء .. أو حتى الأشياء البسيطة مثل كلمة بحيرة .. دون أن يكون الإنسان قد رأى فعلا هذا الشيء سواء رؤية مباشرة .. أو عن طريق التعلم .. فإنه لا يفهم .. ويسأل ما معنى هذا .. وتستطيع أن تجرب مع أطفالك بأن تجربهم عن أشياء لم يروها .. ولم يعرفوا عنها شيئا .. وتذكر أمامهم مجرد الاسم .. حينئذ سترتسم على الوجوه علامة استفهام ضخمة .. ان من أمامك لا يفهم .. ولكن عندما تذكر اسم الله .. تجد كل نفس تدركه .. رغم أن أحدا لم يره .. ولم يستطع أن يصل بقدرة عقله إليه ..

ما معنى هذا .. معناه أن الله فينا بالفطرة .. أننا نحس بوجود الله في داخلنا .. وان هذا اللفظ ليس غريبا علينا .. كيف يكون الاسم مألوف .. وهو خارج نطاق العقل .. بعض الناس يسميها الفطرة .. والبعض يسميها الالهام أو الشعور .. ومهما كانت التسمية فإن الحقيقة تبقى في أن النفس البشرية تألف وتفهم اسم الله سبحانه وتعالى لمجرد ذكره .. وأنها تجد تألفا مع هذا الاسم .. وشعورا داخليا يؤكد قدرة الله سبحانه وتعالى ووجوده .

ولكن العالم المادى الذى نعيش فيه .. لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور .. وذلك نجبرنا به الله سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۗ ﴾

سورة الأعراف

فمسألة الربوبية لا يختلف عليها أحد .. بل ان الإنسان منذ فجر التاريخ

قوانين الكون والانسان

وهو يبحث عما وراء المادة بطرقه المختلفة . . ولقد حاول بعض البشر أن يعبروا عن هذه القوة بأشياء استندوا فيها إلى عقولهم ، والتزم البعض الآخر بالرسالات السماوية التي أرسلها الله للبشر . . ليخبرهم عما يريدهم أن يعلموه بالنسبة للكون . . ومنهج الحياة . . وطريقة عبادة الله . . ولكن هؤلاء . . يحسون أن هناك قوة وراء هذا العالم . . وهى قوة عظيمة خارقة . . وهناك شعور داخلى فى كل نفس بشرية . . يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادى الذى تراه لا يمكن ألا أن تكون وراءه قوة خارقة . . قادرة منظمة قوية .

على أن هناك مرحلة أخرى أحب أن أسجلها . . هى أن الإنسان حين يصل إلى مرحلة التفكير فى وجود الله . . باستخدام العقل البشرى . . لا بد أن تكون قد مرت فترة من عمره حتى ينضج ويكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين . . ولكننا نجد الطفل الصغير يعبد الله . . والعقل البسيط الذى لم يقرأ كتابا واحدا يعرف أن الله موجود . . والإنسان الدارس والفيلسوف يعرف بوجود الله . . كل العقول تتفاوت فى الفهم . . وربما تتفاوت فى المنطق . . وفى أشياء كثيرة . .

ولكنها بكل ثقافتها وفهمها سواء كانت بسيطا أو عميقا تعبد الله . . دون أن تحس أن هناك تناقضا بين وجود الخالق سبحانه وتعالى . . والكون الذى نعيش فيه . . بل أن أكثرهم يحسون بانسجام فطرى غريب . . بأن الله سبحانه وتعالى ووجود الكون حقيقيان داخل النفس . . ليس بينهما أى تناقض . . وإذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود الله سبحانه وتعالى . . وإذا كان كل من يحاول أن يحجب وجود الله ، يفهم هو معنى هذه الكلمة التى يناقشها . . والتى يحاول أن ينكرها ليكون الهوى البشرى هو أساس المجتمع كله فإن وجود الله فيها بالفطرة . . وفهمنا جميعا لاسم الله الذى فوق قدرة العقل والاحساس . . والمناقشات التى تتم إنما هى كلها تأكيد بأن الله سبحانه وتعالى موجود . . وأنه قادر على أن يغير هذا العالم عندما يريد ويأتى كل إنسان إلى الآخرة ليواجه حسابه .

قوانين الكون والانسان

ما معنى القسم ولماذا .. ؟
.. تأتي بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾
مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

سورة التكوير

هذا هو الذى أقسم به الله سبحانه وتعالى في بداية السورة .. فما معنى هذا القسم .. ؟

.. الله سبحانه وتعالى يبين لنا في السورة أشياء هي غيبات عنا .. لا يستطيع أن يدركها العقل البشرى إلا بالإيمان .. وفوق أن هذه الأشياء غيبات عنا .. أى نحن لا نراها الآن .. ولكنها ستحدث في المستقبل .. بل أنها فوق ذلك كله .. أكبر من القدرة البشرية .. بمعنى أنه ليس في قدرة إنسان أن يفجر البحار .. أو يوقف أشعة الشمس .. أو يزيل الجبال .. ويبدل الأرض ويغير النجوم إلى آخر ما أنبأنا به الله من علامات الساعة .. هذه الأشياء إذا نسبت إلى القوة البشرية .. فإنه من الصعب تصديقها .. ولكنها إذا نسبت إلى قوة الله سبحانه وتعالى أصبح من الممكن أن تحدث .. ولذلك فنحن لسنا أمام أمر محجوب عنا فقط .. ولكننا أمام أمر لا بد أن ينسب إلى قدرة الله .. لأنه لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله .

والصورة تعطى انقلابا عاما في الكون .. ثورة في الوجود .. تقضى على كل الأشياء التي اعتادها الناس .. وأصبحت نظاما رتبيا في الكون .. وقانونا ثابتا محكما .. ثم تأتي فترة ينقلب فيها هذا كله .. ويتغير كل موجود .. إلا الله سبحانه وتعالى .. فالإنسان إذا أراد أن ينصرف إلى شيء في هذا الوجود كله .. فلا بد أن يرتبط بالوجود المطلق الذى لا يتغير .. وهو الله .. أما كل مخلوق

قوانين الكون والانسان

سوى الله . . فإنه سيتعرض للفناء مهما بدا ساكنا مستقرا أبديا . . ولذلك فإن الله حين أقسم يأتي القسم من الله سبحانه وتعالى . . وهو الوحيد الباقي . . وألا يأتي من أى شيء سيلحقه الفناء . . هذا أول أهداف القسم . . أما الهدف الثاني . . فهو بيان الوسيلة التي يتحقق بها للإنسان المؤمن النجاة من كل هذا . . والوصول إلى الحياة الخالدة الباقية . . وهذه الوسيلة هي اتباع منهج الله . . ومنهج الله لا يمكن للعقل أن يبتكره . . لأن كل عقل . . وكل نفس لها هوى . . وهذا الهوى . . أو الغرض يدخل في كل ما تقوم به هذه النفس من اعداد أو تصوير لمنهج الحياة . . وأنت إذا أردت أن تعرف . . هل هذا المنهج من الله سبحانه وتعالى . . أو من صنع البشر . . فما عليك إلا أن تنظر إلى أولئك الذين يدعون إليه . . فالمنهج البشرى . . يضعه إنسان . . سواء كان مفكرا . . أو فيلسوفا . . أو سياسيا . . أو من رجال القانون . . المهم في هذا كله . . أنه يضع هذا المنهج . . وتكون حوله مجموعة من الناس . . أيا كانوا . . وبأى شكل يدعون لتطبيق هذا المنهج . . أنظر إلى هؤلاء الناس . . إذا وجدت أنهم يستفيدون فائدة شخصية من تطبيق هذا المنهج . . بأن يزدادوا ثراء . . أو غنى أو نفوذا . . أو يمتلكوا شيئا . . فاعرف أن هذا منهج بشرى . . وضعه إنسان . . أو عدد من الناس لهم هوى أو غرض في نفوسهم يريدون تحقيقه . . فإذا أخذنا الشيوعية مثلا . . وأردنا أن نطبق عليها هذه النظرية . . نجد أن أولئك الذين يدعون لهذا المنهج . . أو يقودونه سواء كانوا أعضاء للجنة المركزية . . أو أعضاء للمؤتمر العام للحزب . . نجد أنهم مميزون عن باقي الناس يحصلون على ميزات . . لا يحصل عليها أحد غيرهم . . وهم يعيشون عيشة الترف والبذخ . . بينما شعوبهم تقاسى وتعانى أشد المعاناة . . ولذلك حين نجد فائدة شخصية لمن يدعون لتطبيق هذا المنهج . . نقول أنه منهج وضع لتحقيق غرض معين . . أو منفعة خاصة لعدد محدود من الناس . . وإذا أخذنا النظام الديكتاتورى مثلا في أى من بلاد الدنيا . . نجد أن أولئك الذين يحيطون بالحاكم . . مستفيدون . . أو هم أكثر الناس استفادة من هذا النظام . . حينئذ نحس ونعرف أن هذا النظام من وضع بشر . . ولكن حين يقول رسول الله صلى

قوانين الكون والانسان

الله عليه وسلم .. « إذا سرقت فاطمة بنت محمد .. لقطع محمد يدها » ..
و حين يقف أبو بكر الصديق .. وهو يحكم بتعاليم الله .. ليقول : القوي منكم
ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه .. والضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ
الحق له .. و حين يقول أيضا : « وليت عليكم ولست بخيركم .. فإن أصبت
فأعينوني .. وإن أخطأت فقوموني » .. نعرف أن ذلك هو منهج الله ..
لماذا ؟ .. لأنه لا يعطى ميزة لأي فرد من أولئك الذين يدعون إليه .. فإذا سرق
أى إنسان أقيم عليه الحد .. وقطعت يده .. وإذا سرقت فاطمة بنت محمد
رضى الله عنها .. يقام عليها الحد .. والذي يقيمه هو النبي والداعى .. فأى
ميزة تلك هى التى حصل عليها .. بحيث تجعله يستفيد فوق سائر الذين
يتبعونه .. وإذا جاء خليفة وحاكم .. وقال : إن القوي ضعيف حتى آخذ الحق
منه .. والضعف قوي حتى آخذ الحق له .. أصبح مركز القوة الوحيد هو الحق
وحده .. ولا توجد أى مراكز أخرى تستطيع أن تقف أمام الحق .. بل كل قوي
يصبح ضعيفا حتى يؤخذ الحق منه .. وإذا كان الحق هو مركز القوة الوحيد فى
الحكم الاسلامى .. انتهى الهوى تماما .. ولا يستطيع أى إنسان أن يحصل على
ميزة .. بل أن المهاجرين فى أول الاسلام تركوا أموالهم .. وكل ما يملكونه من
وسائل الترف والزينة والجاه .. والمال فى مكة .. وهاجروا إلى المدينة .. فكأنهم
باتباعهم الدين الجديد لم يستفيدوا شيئا دنيويا .. بل تركوا أعز ما يملكون فى
الدنيا فى سبيل المنهج .. والدعوة إليه .. وحيث تحس أن الإنسان يترك
ما يملك .. فى سبيل منهج يتبعه ويدعو إليه .. ولا يستفيد شيئا .. فإنك تعرف
أن هذا المنهج هو منهج الحق .. الذى لا يوجد فيه هوى .. ولا غرض
دنيوى .

منهج البشر وكيف تعرفه ؟

ولكل إنسان ، مهما كان ، فى حياته هوى شخصى .. حتى ولو كان
طفيفا .. فتلك هى الطبيعة البشرية .. ولكن الذى لا هوى له هو الله سبحانه
وتعالى .. فهو غير محتاج لك .. ولا يريد منك شيئا .. وهو يعطيك

قوانين الكون والانسان

ولا يأخذ .. ولا يطمع فيما تملك .. ولا تستطيع أنت أن تنال من ملكه شيئا .. حتى يخافك أو يخشاك .. إذن فالتشريع هنا لا يتم عن هوى .. وإنما يتم عن حق وعدل .. فإذا زاد على ذلك .. مع أن علم الله لا يصل إليه بشر .. وحكمته فوق عقول الناس .. أصبح التشريع كاملا متكاملا .. والإيمان هنا هو إيمان بقدرة الخالق .. فمتى آمنت يصبح كل ما يصدر عن الله .. ولا تراه .. لأنه مخفى عنك .. أو لأنه سيحدث بعد فترة من الزمان .. أصبح كل هذا يقينا .. والذي يجب أن تتأكد منه فقط هو أنه صادر عن الله .. ومادام صادرا عن تلك القدرة الهائلة التي لا تحدها حدود .. ولا قيود .. فهي تستطيع أن تفعل ما تشاء .. وإيمانك يجعلنا نحس يقينا بأن ما يقوله الله سبحانه وتعالى هو الحق .. ولذلك جاء القسم .. جاء ليقول: إن كل هذه الأشياء التي أنبأتكم عنها مما سيحدث .. عندما تنتهي الحياة .. أو تأتي الساعة .. هي من الله وأن الذي أخبركم بها رسول كريم .. رسول لأن الله لا يخاطب البشر بالخطاب المباشر إلا في الآخرة .. ومن هنا فلا بد من رسول يختاره الله سبحانه وتعالى ليبلغ الرسالة أو المنهج .. وقد أتت الرسل على مر التاريخ تحمل تعاليم السماء إلى البشر .. وتصحح ما فسد من أن يصبح هوى النفس .. والغرض هو الحق .. وكريم بمعنى أنه معروف عندكم بكرم الخلق .. وقد كنتم تأتمنونه على كل غال ونفيس .. وحتى بعد أن أعلن الرسالة وبدأ الدعوة إلى الدين الجديد فأنت ما زلت تعترفون بكرم خلقه وتأتمنونه على كل غال ونفيس .. والدليل على ذلك أنه عندما هاجر رسول الله إلى المدينة .. كانت عنده ودائع من عدد من أهل مكة غير المسلمين .. تركوها عنده لكرم خلقه وأمانته .. وأنه كلف من يعيد إليهم هذه الودائع .. إذن فهو كريم وأمين بشهادة قومه قبل الرسالة .. وبعد الرسالة .. والله يقسم أنه كريم وأمين أيضا في رسالته .. وأمين في تبليغ هذه الرسالة كما أنزلها الله سبحانه وتعالى .. فالقسم هنا جاء عن أشياء تدخل في قدرة الله وحده .. ولذلك لا بد من تأكيد من الله .. بأنها ستحدث .. والقسم يأتي بأن البلاغ صحيح .. وأن الرسول الذي يقوم بالبلاغ معروف بكرم الخلق .. قبل أن يعهد إليه بالرسالة .. بشهادتكم جميعا .. وأنه

قوانين الكون والانسان

بعد أن أوحيت إليه الرسالة كريم أيضا .. بمعنى أنه سخي في العطاء .. لا يؤدي ما طلب منه فقط .. ولكنه يزيد على ذلك حبا في الله .. وعشقا لمنهج الله .. فالرسول وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. يقوم الليل كله .. ويصلي حتى تتورم قدماه .. ويؤدي فوق ما طلب منه .. ويلزم نفسه بأشياء لم يلزم الله بها .. ولكنه يقوم بها تطوعا .. مع ما فيها من مشقة على النفس .. إذن فهو ليس فقط مبلغا ورسولا .. بل هو محب للمنهج .. كريم في أداء ما طلبه الله منه .. إلى درجة ارهاق النفس لإرضاء الله .

هل هو محمد .. أم جبريل ؟

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :
« ذى قوة عند ذى العرش مكين » ..

والله سبحانه وتعالى حين يقول قوة .. لا يعنى القوة البدنية .. ولكنه يعنى قوة النفس .. فقوة البدن هذه مسألة سهلة يستطيع كل انسان أن يصل إليها .. ولكن قوة النفس هى الاختبار الحقيقى للرجال .. وقد قال رسول الله ليس القوى بالصرعة .. ولكن القوى من يملك نفسه عند الغضب .. فالله سبحانه وتعالى حين يصف نبيه بالقوة .. ليس معنى هذا أنه مصارع قوى .. أو معناه الغلبة البدنية .. ولكنه قوى يقف وحده أمام الدنيا كلها .. ويرفض أن يلين .. فإذا عرضوا عليه المال والذهب .. والحكم .. وكلها مغريات هائلة للنفس .. استطاعت قوة نفسه أن تتغلب على هذا كله .. فيقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر .. أو أهلك دونه .. ما قبلت » ..

هذه هى القوة الحقيقية للنفس .. قوى وهو يواجه مع قلة ضعيفة ذليلة جبروت قريش وإيذاءها دون أن يتراجع .. أو يصيبه الضعف أو الوهن ..

قوانين الكون والانسان

قوى وهو يخرج مع أبي بكر . . ويرى كفار قريش على باب الغار . . سيوفهم مشرعة . . فيقول لأبي بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما . . ولا يخشى . . ولا يخاف شيئا . . قوى وهو يأخذ بدعوته إلى المدينة . . ويواجه المعركة تلو المعركة . . حتى إذا جمعت له قبائل العرب كلها . . واليهود في المدينة ليقضوا على دينه ووجد نفس يواجه قوى هائلة . . لم يدخل الخوف إلى قلبه . . بل ظل ثابتا صامدا . . قويا في الحق . . فعندما أتى على بن أبي طالب مع رجال يهودى ليقضى بينهما . . وجلس على إلى جوار الرسول . . قال له رسول الله : قم حتى أقضى بينكما . . قوى لأن الدنيا كلها لم تستطع أن تجرفه . . أو تشده إليها . . فيركن إلى الترف . . وإلى المسكن الفاخر .

هذه كلها وغيرها هي علامة قوة النفس الحقيقية . . ولذلك عندما كان أى إنسان له حق . . كان يرحب بأن يقضى الرسول بينه وبين خصمه . . وعندما يكون الإنسان عليه الحق . . كان يهرب من هذا القضاء . . لماذا ؟ . . لأنه يعرف أن قوة نفس الرسول ستجعل الحق وحده ينتصر دون أى شيء آخر مهما بلغ .

هذه هي القوة في أمور الدنيا . . ولكن الآية الكريمة تقول :
« ذى قوة عند ذى العرش مكين » . .

فما هي القوة عند الله سبحانه وتعالى . .
بعض المفسرين يقول : ان هذه الآيات في وصف جبريل عليه السلام . .
وأن الله سبحانه وتعالى . . أراد أن يعطينا ما هو غائب عنا . . وهو الرسول الذى اصطفاه الله سبحانه وتعالى من الملائكة ليبلغ إلى رسالة إلى محمد عليه الصلاة والسلام . . وأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد لنا أن كلا الرسولين . . سواء ذلك الذى نزل بالقرآن إلى الأرض وهو جبريل . . أو ذلك الذى أبلغه إلى البشر وهو محمد عليه الصلاة والسلام . . كلاهما أمين في بلاغه . . وبعض المفسرين يقول : ان الله سبحانه وتعالى لا يحتاج لوصف

قوانين الكون والانسان

جبريل بالأمانة .. لأن جبريل مسير لا اختيار له .. فالملائكة يفعلون ما أمرهم الله .. وليس لهم اختيار في أن يفعلوا شيئا أو لا يفعلوه . إنما الذى له اختيار في ذلك هم البشر .. الذين حملهم الله الأمانة فقبلوها .. وأصبح لهم اختيارات . فهم يستطيعون قول الحق .. ويستطيعون إنكار الحق .. إلى آخر ما نعرفه من خيارات متاحة للبشر ، ولذلك فإن أمانة التبليغ هنا تأتي ردا على الكفار الذين يريدون أن يشككوا في هذا الدين .. وتشكيكهم ينصب على أنه قول بشر .. أو قول شاعر .. أى أنه ليس منهج الله .. ومن هنا جاءت الآية لترد عليهم .. فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد اصطفى رسولا من البشر .. ورسولا من الملائكة .. فلا تعارض في أن تنطبق أوصاف القوة والأمانة والكرم عليهما .. والله سبحانه وتعالى يقول :

« ذى قوة عند ذى العرش مكين » ..

أى أنه ليس قويا في الدنيا فقط .. ولكن ممكن عند ذى العرش .. له مكانة عليا عند الله سبحانه وتعالى .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« مطاع ثم أمين » ..

قد يقول بعض الناس أن الرسول قد يتصف بالقوة والمكانة عند الله ولكن الناس الذين اتبعوه لا يطيعونه .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لهم : ان أولئك الذين يتبعون هذا الدين لا يعصون الله ما أمرهم .. ويفعلون ما يؤمرون .. أى أن الذين يتبعون رسول الله يطيعونه ويفعلون ما أمرهم الله به .. ولكن لماذا التنويه هنا بالطاعة .

معنى الطاعة ؟

إذا أردنا أن نفسر ذلك .. فيجب أولا أن نفرق بين الطاعة وعدم الطاعة .. ولا نأخذ اللفظ على إطلاقه .. فالطاعة إما أن تكون في أمور محيية إلى

قوانين الكون والانسان

النفس . . كأن يدعوك إنسان إلى أن تقضى فترة في مكان جميل . . أو تؤدي عملا يعطيك مالا وفيرا بجهد قليل . . أو تسافر إلى بلد أنت تحب أن تسافر إليه . . أو قد يدعوك إلى طعام محبب إلى نفسك . . إلى آخر ما هو محبب إلى النفس البشرية . . حينئذ تكون الطاعة سهلة ومحبة إلى النفس . . ولكن عندما يدعوك الإنسان إلى مشقة تتحملها نفسك ، حينئذ تكون الطاعة اختبارا للإيمان . . ولذلك حين يصف الله رسوله بأنه مطاع معناها أن الرسول سيطلب من الناس ما يضع قيودا على هوى النفس . . ولكنه يصلحها .

ولقد تحدثنا من قبل فيما حرمه الله . . وقلنا ان التحريم هو لصالح كل فرد فينا . . فالإنسان الذي يمد يده إلى مال حرام . . لو أن هذا أبيع لمدت الدنيا كلها يدها إلى ماله . . فإذا كان هو فردا واحدا منع من عمل فقد تم هذا المنع لحمايته هو من أن يمد أفراد كثيرون أيديهم لما عنده . . وفي هذا فوضى تقتلع المجتمع من أساسه . . فمجتمع فيه السرقة مباحة . . ينتهي إلى فوضى تهزه بعنف وتقضى عليه . . ومجتمع فيه القتل مباح . . أو العرض مباح . . أو أى شيء مما حرمه الله مباح . . هو مجتمع بالأشك مقضى عليه خلال سنوات قليلة . . لا يستطيع إنسان أن يحيا فيه الحياة المطمئنة التي وعدنا الله سبحانه وتعالى بها .

ولعل من الغريب حين نتأمل أننا نجد أن مبادئ الدين الإسلامى مطبقة كقيم اجتماعية في المجتمعات المتقدمة . . ففي أى مجتمع متقدم تراه يحافظ على حق كل إنسان . . يعاقب أشد العقوبة على الكذب . . باعتباره من الرذائل التي تقود المجتمع إلى عدم الثقة . . وإلى اخفاء الحقائق . . وإلى أشياء كثيرة . . يكافىء الأمين . . ويعترف بالفضل لصاحبه . . ويفتح الآفاق أمام الجميع . . كل هذه الأشياء هي من قيم الإسلام . . ولكن هؤلاء الناس أخذوها وجعلوها قيما إجتماعية . . لماذا ؟ . . لأن التقدم لا يتم إلا بتطبيقها . . بل إن الأعجب من ذلك أننا نجد أشياء هي مباحة في هذه المجتمعات . . ولكن هذه المجتمعات

قوانين الكون والانسان

تقاومها .. وتشن الحملات لمنعها .. كالخمر مثلا .. محاضرات عن مضار الخمر .. وجمعيات لإنقاذ المدمنين على الخمر من الهلاك .. الذى يقودهم إلى هذا الادمان .. وأبحاث طبية إلى غير ذلك .. أن هذا كله لا يتم إيمانا بالإسلام .. أو لأن الإسلام حرم الخمر .. وإنما يتم عن قيم .. ونتائج فرضت نفسها على المجتمع .. إذا أريد له أن يزدهر .. وفى هذه يقول الله سبحانه وتعالى عن الإسلام :

﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

سورة الصف

والذى لاشك فيه أنه لا يوجد تفسير أصدق لهذه الآية من التفسير الحادث الآن .. فالذين يجاربون شرب الخمر .. ويحاولون اقتلاع هذا الداء من مجتمعاتهم .. والذين يبيحون الطلاق لأنه ضرورة إجتماعية .. والذين يصنعون القيم للمجتمع مستمدة من تعاليم الله .. ولكن بلا إيمان .. وإنما كضرورة إجتماعية ، يعلنون للعالم أجمع أنهم يظهرون مبادئ هذا الدين .. وإن كرهوا أن يزدهر الدين نفسه .. فهم كارهون لظهور الدين .. وفى نفس الوقت يظهرون مبادئه ويجعلونها قيما إجتماعية .. ولقد قال الشيخ محمد عبده .. حينما زار أوروبا .. « رأيت قوما لا يقولون لا إله إلا الله ويعملون بها .. ونحن قوم نقول لا إله إلا الله .. وفى أحيان كثيرة لا نعمل بها » .

الدليل على الاتهام

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

« وما صاحبكم بمجنون »

وهو بذلك يرد على الاتهام الذى حاول بعض المشركين أن يلصقوه ظلما وعدوانا برسول الله .. وانظر إلى قول الله سبحانه وتعالى .. وإلى دقة القرآن الكريم وبلاغته فى التعبير .

قوانين الكون والانسان

« وما صاحبكم »

أى أن هذا الرسول الكريم قد صاحبكم فترة كبيرة .. أربعين سنة .. وعرفتموه .. وعرفتم خلقه جيدا .. فإذا كان اليوم قد جاء بدين يحقق العدالة .. ويسلب الظالم قوته .. ويعطى الضعيف حقه .. فلا تحاولوا أن تصرفوا الناس عن هذا الدين بادعاءاتكم الكاذبة .. ذلك أن رسول الله صاحبكم قبل أن يقوم بتبليغ الرسالة أربعين سنة كان فيها مثالا للأمانة والصدق .. ورزانة العقل .. وكان مفخرة لقومه .. ومن هنا فإن إدعاءكم عليه بأى شيء كاذب .. هذا الادعاء يمكن أن يصحح بكلمة واحدة وهى: « وما صاحبكم » أى يمكن أن يصحح أو يرد عليه .. بأن رسول الله لم يأت من بلد بعيد .. ولم يكن محجوبا عنكم قبل الرسالة .. بل كان يصاحبكم وكنتم تشهدون له .. فإذا انقلبت هذه الشهادة الآن إلى ضدها .. فذلك لغرض وهوى فى النفس .. وليس عن حقيقة .. ولذلك فإن الحكم على رسول الله .. قد صدر منكم أنتم قبل أن أبلغكم باختيارى له رسولا كريما .. ومن هنا فإن هذا الحكم هو حجة عليكم بأنكم كاذبون فيما تدعون .. وان قلتم مجنون فمردود عليكم .. أولا بشهادتكم له بالخلق الكريم .. وثانيا بأنكم كنتم عرضتم عليه أن تملكوه عليكم ويترك الدعوة .. فرفض .. فهل كنتم ستملكون عليكم إنسانا مختل العقل .

ولقد حاول المشركون أن ينالوا من رسول الله .. ومن هذا الدين بأكثر من طريقة .. ولكن الله سبحانه وتعالى ناقشهم بالحجة .. وجردهم من كل ما قالوا .. أو من كل ما حاولون أن يمسوا به هذا الدين .. قالوا : إن رسول الله افترى هذا الكلام ونسبه إلى الله .. فتحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بسورة من القرآن .. وإذا كان ادعائهم بأن هذا الكلام افتراء .. فليفتروا وليأتوا بمثله .. ولكنهم عجزوا أمام هذه الحجة .. فقالوا شاعر .. ورد الله تعالى :

« قليلا ما تأمنون »

قوانين الكون والانسان

لماذا ؟

إن هذا القرآن قد أرسل في أمة شهرتها البلاغة والفصاحة .. والقرآن ، في اعجازه البلاغى ، يخاطب كل العقول .. وكل النفوس على اختلافها في كل وقت من الأوقات .. على اختلاف أحوالها .

ولنشرح هذه النقطة قليلا .. البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال .. ولا يوجد بشر في هذه الدنيا يستطيع أن يأتي بكلام يقال في كل مناسبة .. فيكون مطابقا لمقتضى الحال .. فأنت حين تتحدث لإنسان غاضب ، تتحدث بلهجة .. وحين تتحدث لإنسان سعيد فرح ، تتحدث بلهجة أخرى .. وحين تتحدث إلى حاكم أو أمير . فهناك لهجة ثالثة .. وحين تتحدث إلى إنسان عادى فهناك لهجة رابعة .. ولو أخذنا أبلغ بلغاء العصر .. وقلنا له أنظم قصيدة .. أو أعد كلاما لتلقيه أمام الناس .. بحيث يمكن أن تقوله أمام مجموعة من المتبحرين في العلم .. وتخاطب به في نفس الوقت مجموعة من الجهلاء .. وتقوله أمام أمين أو حاكم .. وتقول نفس الكلام أمام خادم هذا الأمير .. ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال .. فإنه يعجز .. ولكن القرآن في هذه الناحية قد تخطى كل شروط البلاغة .. في أنه مطابق لكل أحوال البشر .. يهز نفوس الكفار .. ويهز نفوس المؤمنين .. ويحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعا .. الغنى منهم والفقير .. التعيس منهم والسعيد .. الخادم منهم والسيد .. وهو يخاطبهم في حالاتهم النفسية كلها .

فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه .. والإنسان السعيد إذا سمع القرآن اهتزت نفسه .. وزادت سعادته .. فالقرآن يحيط بعلم حالات كل الأفراد من أمم مختلفة .. وشعوب مختلفة .. وثقافات مختلفة .. وتراث مختلف .. فإذا سألت كل واحد منهم ما هو شعوره وهو يسمع القرآن .. ربما أعطاك كل واحد جوابا مختلفا .. ذلك لأن القرآن يخاطب في النفس البشرية أحاسيس وملكات .. لا يعلمها إلا خالقها .. ولذلك فإن هذه الملكات تتأثر

قوانين الكون والانسان

بكلام الله .. وتهتزله .. دون فارق من فوارق الدنيا .. ولذلك كان أخشى ما يخشاه الكفار .. أن يستمع الناس إلى القرآن .. ولو كانوا غير مؤمنين .. حتى أن الوليد بن المغيرة وهو كافر .. قال : إن له لحلاوة .. وإن عليه لطلاوة .. وإن أعلاه لمثمر .. وإن أسفله لمغدق .. وأنه يعلو ولا يعلى عليه .. وهكذا تأثر به دون إيمان .

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين دخل بيت صهره بعد أن علم بإسلام أخته وزوجها .. كان ينوى الشر .. وما أن استمع إلى آيات القرآن حتى هدأت نفسه .. وانشرح صدره للإسلام .. لماذا؟؟ لأن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى .. وقد خاطب نفسا في غاية الضيق وهى نفس عمر بن الخطاب وقت دخوله للبيت بنفس الألفاظ التى خاطب بها المؤمنين الذين يقرأون .. وهم في حالة انسجام وسعادة لقربهم من الله .. وإذا بنفس الآيات التى أدخلت الهدوء والانسجام على نفوس قد آمنت .. أدخلت نفس الهدوء على نفس ثائرة لم تكن آمنت بعد .. ولهذا فإن القول بأنه شاعر مردود عليه .. بأن بلاغة القرآن لا تعطى ولم تعط لبشر .

ثم انتقلوا إلى نقطة أخرى .. قالوا مفترى .. نقول لهم ما دمتم قد فهمتم أنه مفترى .. فافتروا أنتم .. إن كنتم تستطيعون .. بل ان الكفار كانوا أقدر على الافتراء .. فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له دراية بفن الكلام والخطب والشعر والأدب .. بل أنه لا يقرأ ولا يكتب .. فإذا كان رسول الله وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة .. وأنتم تقولون هذا الكلام .. فأنتم تملكون وسائل الافتراء وعندكم الشعراء والأدباء فافتروا مثله .. وكان العجز هو جوابهم .

وهكذا أعجزهم الله

ولقد أراد أن يرد على هذا .. فقال الله سبحانه وتعالى :

قوانين الكون والانسان

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿ (٤٢) ﴾

سورة الحاقة

حتى الرد فيه إعجاز .. فالشعر مفهوم أنه كلام موزون مقفى .. يعرفه الناس جميعا .. ومن هنا فإن القول بأن هذا شعر، دليل على أنكم لا تؤمنون .. لماذا؟ .. لأنكم تعرفون الشعر معرفة جيدة .. وهذا ليس شعرا بأوزانه وقوافيه .. ولذلك فإنكم عندما تقولون أنه قول شاعر .. ليس هذا عن جهل .. ولكنه عن عدم إيمان .. ومحاربة لهذا الدين .. لأنكم تعرفون الشعر جيدا .. ولا يمكن أن يغيب عليكم أن ما تقولونه هو افتراء .. لعلكم بقواعد اللغة .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :
« ولا هو بقول كاهن قليلا ما تذكرون »

وقول الكاهن لا يمكن أن يخاطب كل الملكات .. ولا أن يكون فيه هذا الإعجاز .. كما أن الكاهن يفضحه طول الوقت والزمن .. ومن هنا فإنه كبشر ينسى ويأتى بعكس ما قاله نتيجة لمرور الوقت والزمن .. ولذلك عندما رد الله سبحانه وتعالى على قولهم بأنه كاهن .. كان الرد بكلمة تتذكرون .. لأن طول الزمن الذى يجعل الكاهن ينسى ما قاله .. خصوصا عندما يكذب .. فتكون كلمة تتذكرون هى الفيصل .. ولم يستخدم هنا عدم الإيمان التى استخدمها سبحانه وتعالى فى قولهم شاعر .. لأن الشعر له قواعد معروفة ويكون الكلام على أنه قول شاعر .. قصد الافتراء فيه واضح .. ويلاحظ هنا أن الله يقرع الحججة بالحجة .. والتحدى بالتحدى .

ورد رسول الله :

ما أنا بقارىء

وتمضى الآية الكريمة : « ولقد رآه بالأفق المبين » .

قوانين الكون والانسان

ما معنى هذه الآية .. محمد صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صور متعددة .. رآه في صورة بشر .. ورآه في صورة مَلَك .. ثم رآه في صورته الحقيقية .. عند سدره المنتهى .. في الإسراء والمعراج .. هناك رأى رسول الله جبريل في صورته الحقيقية .. في السماء .. ولقد كان أول لقاء بين جبريل وبين رسول الله في الغار .. وكان هذا اللقاء أول امتزاج لرسول الله بالملك الذي جاء بوحي السماء .. وكان امتزاجا فيه معان كبيرة .. أولها أمر من الله سبحانه وتعالى يوضح لنا .. أن هذا المنهج يأتي بأمر وقدرة الله .. دون ما تدخل بشرى .. فقال له الملك: اقرأ .. ورد محمد عليه الصلاة والسلام: ما أنا بقارىء .. وكلا القولين يتم بالأسباب التي يملكها كل منهما .. فالملك يقول: اقرأ .. أمر من الله سبحانه وتعالى .. ومحمد يرد: ما أنا بقارىء .. بالأسباب البشرية .. فهو لم يتعلم القراءة والكتابة .. حتى يستطيع أن يقرأ .. ويضمه الملك ضمة شديدة .. ضمة تجهده وترهقه .. لماذا؟ .. لا لأن فيها امتزاجا بين الملك والبشرية .. هذا الامتزاج وهو الوحي كان صعبا شديدا على محمد عليه الصلاة والسلام .. حتى أنه كان يتصبب عرقا .. وذهب إلى خديجة وهو يرتجف .. امتزاج رهيب بين بشر وملك .. لا يمكن أن يتم إلا بأمر الله سبحانه وتعالى .. واختلاف الطبيعة والقوانين .. ولا أن يتحمل إلا بقدرة الله ورحمته .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل جنس خلقه قانونا ..

فالبشر لهم قانون يتمشى مع خلقهم من طين .. والجن لهم قانون يتمشى مع خلقهم من نار .. والملائكة لهم قانون يتمشى مع خلقهم من نور .. وكل واحد من هؤلاء بقانونه الخاص لا يستطيع أن يمتزج بالآخر .. وإذا كان هناك امتزاج بين إنس وجن .. فهذا لا يتم بقانون عام .. ولكنه يتم بقوانين خاصة .. قد يصل إليها بعض الناس دون بعضهم .. والذي يحصل على هذه الميزة .. ويستخدمها في غير ما يرضى الله .. يصيبه عذاب أليم .. ولكن الامتزاج بين الملائكة والبشر لا يتم إلا للرسول .. أو لمن يختاره سبحانه وتعالى برسالة أو مهمة في الأرض .

قوانين الكون والانسان

ساعة نزول القرآن .. قال جبريل ناقلا كلام الله سبحانه وتعالى إلى محمد عليه الصلاة والسلام: «اقرأ» .. فرد النبي : ما أنا بقارىء .. ولقد كان الاثنان يتحدثان بوحى من قانونهما .. فجبريل يقول : اقرأ .. لأن الله سبحانه وتعالى قرر أن يعلم محمد ما لم يعلمه لأهل الأرض كلهم .. ورد الرسول: ما أنا بقارىء .. كان من واقع السبب البشرى .. والصدق مع النفس .. إذ كيف يقرأ وهو لم يتعلم القراءة ولا الكتابة .. ولقد جاء هذا بحكمة .. ليقول الله سبحانه وتعالى لرسوله : اننى أعلم أنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة .. ولكننى سأعلمك ما لم أعلمه لأحد من العالمين .. وبذلك يكون العلم من الله سبحانه وتعالى .. لا دخل لبشر فيه .. ولا لإنسان .. وتكون الأسباب هنا غير متمشية .. فعندما يأمر الله لا توجد أسباب .. ولكن توجد طلاقة القدرة التى تَجِبُ الأسباب كلها .. فالأسباب وضعت للحياة الدنيا وحدها .. وحتى تسير نظم الحياة .. ولكنها لم توضع للأخرة مثلا .. حتى تتم الأشياء بلا أسباب .. بمجرد ورودها فى الخاطر أو الذهن تتم .

وكان هذا اللقاء بين الملك الكليم .. والرسول الكريم معجزة .. لتعلن للناس .. إن المعلم هنا ليس الإنسان .. ولكنه الله سبحانه وتعالى .. ولذلك قال :

«اقرأ باسم ربك»

أى أن الله هو المعلم .. انك لم تقرأ يا محمد بالأسباب .. ولن تقرأ بأن نرسلك إلى معلم يعلمك القراءة والكتابة .. ولكن ستقرأ باسم الله .. أو بقدرته .. ستتعلم ما لم يتعلمه بشر .. وكان هذا الاعجاز كافيا ليؤمن الجميع بأن المنهج من الله سبحانه وتعالى .. ولكن الكبر والكفر والعناد من البشر .. وقفت حائلا دون ذلك .

وهكذا كان الاعجاز فى القرآن الكريم من أول لحظة .. ولقد رأى محمد

قوانين الكون والانسان

عليه الصلاة والسلام جبريل في أكثر من صورة .. ولكنه عندما صعد إلى السماء
رآه في صورته الحقيقية .. كتطمين من الله سبحانه وتعالى لمحمد .. واعجاز
بأن أطلعه على ما لم يطلع عليه أحدا من خلقه .

رآه رأى العين

إذن فقول الله سبحانه وتعالى :

« ولقد رآه بالأفق المبين »

دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنهج .. ويعرف المبلغ
عن الله وهو جبريل عليه السلام .. ومن هنا فلا يقال ولا يقبل قول فيه أى
اهتزاز عن الوحي .. ذلك أن محمد صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل رأى
اليقين بحيث لا يختلط عليه أى شئ .. بينما يعرف جبريل معرفة تامة .. وهو
ينقل عن يقين بأن الوحي من الله سبحانه وتعالى يقين وحق .. وتمضى السورة
الكريمة :

« وما هو على الغيب بضنين »

أى أن الله سبحانه وتعالى يشهد الرسول أنه يقوم بالتبليغ الكامل لكل
شئ .. ولا يجرب شيئا عن المؤمنين بل إنه فى أمانة المبلغ حريص عليها كل
الحرص .. وفى تعليم المسلمين لدينهم .. وإفهامهم بكل أحكام هذا
الدين .. لا يضمن بشئ مما يوحى إليه غيبا عن الناس جميعا .. أى أنهم ليسوا
شهودا على الرسول والوحي وقت الإبلاغ .. ولكن الله سبحانه وتعالى
يشهد .. أن الرسول يقوم بتبليغ كل شئ ..

لقد كانت هناك أحكام جاء القرآن وضحها .. وأحكام أخرى جاء القرآن
وأقرها .. وهناك عتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى افراطه فى الرحمة بمن
لا يؤمنون .. ذلك أن الرسول قد بعث رحمة للعالمين .. يعرف ويرى تماما

قوانين الكون والانسان

ما ينتظر غير المؤمنين من عقاب عظيم .. ومن هنا فهو مشفق على الناس جميعا .. لأنه مرسل إليهم جميعا .. يحاول أن يبذل كل ما يستطيع .. وفوق ما يستطيع ليدخلهم إلى رحمة الله .. لأن الله أرسله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين .. وفي هذا يحمل نفسه فوق ما يطيق .. والآيات التي فيها عتاب على رسول الله تحمل هذا المعنى .. شيء حمل رسول الله نفسه عليه .. وهو غير محمول عليه بحكم التشريع .. شيء مباح ، ورسول الله قيد نفسه حتى في المباح .. وخرج من السهل إلى الصعب .. قول الله تعالى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۙ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ ﴾

سورة عبس

أيها أسهل على رسول الله .. أن يدعو إلى الهدى رجلا أعمى .. جاء وفي قلبه إيمان .. أم أن يتعب نفسه مع صنديد قريش الذين ملأ الكفر قلوبهم .. الأسهل طبعا أن يجلس مع ذلك الذي جاء يطلب الإيمان فيهديه إلى طريق الإيمان .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار الطريق الأصعب .. أنه يريد أن يعز الإسلام بصناديد قريش وزعمائها .. وهنا تتدخل الإرادة الإلهية .. الرسول يترك أمرا سهلا ميسورا . ويكلف نفسه بالجانب الشاق .

وهنا يقول الله .. لماذا تترك السهل وتحمل نفسك كل هذه المشقة .. لا تضيق على نفسك لأن الله غني عن هؤلاء جميعا .. والآية هنا من مقام العبادة .. وزيادة القرب من الله سبحانه وتعالى .. ولذلك كان رسول الله يحمل نفسه المشقة زيادة في مقام العبادة .. فيقول الله سبحانه وتعالى لنبيه : اني لا أريد منك أن تحمل نفسك فوق ما تطيق .. إنه حب من الله لنبيه .. وحب وعبادة من الرسول لله .

صدق المنهج في التبليغ

ولعل هذه الآيات على قلتها تلفتنا إلى شيء هام .. هو : لو أن رسول الله

قوانين الكون والانسان

صلى الله عليه وسلم لو لم يبلغ كل ما أوحى إليه عن الآية لكانت هذه الآيات هى ما يحجب عن المؤمنين .. ولكنها دليل على صدق البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .. وإن رسول الله كما وصفه الله :

« وما هو على الغيب بضنين »

أى أنه لا يخفى شيئا أبدا مما يوحى الله إليه .. ثم تمضى السورة الكريمة :
« وما هو بقول شيطان رجيم »

والشياطين فى الماضى كانت تسترق السمع فى السماء .. وكانت فى استراقها هذا تعلم ببعض أشياء قبل أن تنزل إلى الأرض .. ولكن هذا منع تماما وقت نزول القرآن .. وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن ذلك :

﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَرْنَا مِنْهَا خَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدِ اللَّسْمِ فَتَن يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ ﴾

سورة الجن

وهكذا وقت نزول القرآن منعت الجن والشياطين من استراق السمع لما ينزل من السماء .. ولذلك فإن هذا ليس بقول شيطان قد استرق السمع من السماء .. ووصل إلى شىء ما .. بل إنهم معزولون تماما عن السمع .. لا يستطيعون الوصول إلى القرآن .. ومنهج الشيطان مخالف تماما لمنهج الله سبحانه وتعالى فى كل شىء .. وهو منهج يدعو إلى الافساد فى الأرض .. وإلى القتل .. والمذابح ويبيح الحرمات .

فأين تذهب

ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

قوانين الكون والانسان

« فأين تذهبون » .

وفي هذا تذكير لنا بأن الله خلقنا .. وأنا إليه نعود .. فأين تذهبون .. أى تختفون من الله .. فلا يوجد مكان فى الأرض .. يخرج عن علم الله .. ولا يوجد علم تعلمه يخفى على الله سبحانه وتعالى .. ولا يوجد مكان تذهب إليه ولا يستطيع الله أن يعيدك منه .. كل المنافذ التى تعتقد أنها تستطيع أن تنجيك من الله فى الدنيا والآخرة مطلوب منك أن تأخذ بها .. ثم بعد ذلك سترى أنه لا يوجد منفذ واحد تستطيع أن تخرج فيه أو منه عن علم الله .. أو ارادة الله .. أو قدرة الله .. فأينما تكن .. وحيثما كنت .. يأت بك الله وقت أن يشاء .. وحين يشاء .

أنتم تجادلون فى الدنيا .. وتجادلون فى هذا الدين .. وتكابرون وتستكبرون فى الأرض .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يسألكم سؤالا .. ويطلب منكم الإجابة عليه :

« فأين تذهبون » .

أخبرونا فى أى مكان يمكن لكم أن تخرجوا عن ارادة الله سبحانه وتعالى .. أو عن قدرته .. كل واحد منا لابد أنه ملاقى الله .. فأين تذهبون .. ذلك هو السؤال الذى لا يستطيع أى فرد أن يجيب عليه .. ولا يملك أى إنسان القدرة أو القوة أن يفلت من مُلك الله .

الله سبحانه وتعالى سأل هذا السؤال .. وطلب الإجابة .. وهو يعلم أنهم سيعجزون عن الإجابة .. ولكنه أراد أن يلفتهم إلى أن البشر كلهم سيلاقونه .. وأنه لابد من لقاء الله .. ولذلك يجب أن يرسم كل إنسان حياته على أنه سيلاقى الله سبحانه وتعالى .. ويسأل نفسه أين يذهب .. وماذا سيفعل فى هذا الموقف .. ولو كان هذا السؤال حاضرا دائما فى أذهان الناس لامتنعوا عن كثير من المحرمات .. والظلم الذى يرتكبونه .. فإذا أرادوا أن

قوانين الكون والانسان

يفتكوا بضعيف تذكروا قدرة الله عليهم .. وإذا أرادوا أن يحصلوا على مال حرام .. تذكروا أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يذهب هذا المال .. ومعه المال الحلال فيما ينغص حياة الإنسان .. كالمرض الذى ينفق أى شخص الألف دون أن يستطيع الحصول على الشفاء .. أو كالولد الفاسد الذى يأخذ المال بالقوة والعنوة .. وبيعه يميناً ويساراً حتى يفنيه .. أو الزوجة التى لا تراعى الله فى مال زوجها .. وتنفقه فى تفاهات الحياة .. وبيدخ شديد .

كل هذه الأشياء وغيرها .. إذا حدثت لك فإنك تنفق المال وأنت تعيش .. أى أن المال الذى أخذته حراماً .. لا يأتيك بالسعادة .. ولكن يأتيك بالتعاسة .. وأنت تعيش مريضاً بلا أمل للشفاء .. أو ترى ابناً عاقاً ينتزع أموالك بالقوة .. أو زوجة تبعث مالك يميناً ويساراً على كماليات الحياة .

هذا هو الشقاء الذى يأتى من أن تنسى الله .. ثم بعد ذلك يأتى يوم القيامة فيحاسبك الله على ما فعلت .. فتكون فى هذه الحالة قد أخذت الشقاء فى الدنيا والآخرة .. امتدت يدك إلى مال حرام فجعله الله نقمة عليك .. فكنت شقياً وأنت تنفقه .. وكنت شقياً عند لقاء الله .

والإنسان إذا نسى الآخرة أو أنكرها .. فليفعل ما يشاء .. فالآخرة والحساب أساس الإيمان .. ولقاء الله سبحانه وتعالى هو ما يشغل بال أى مؤمن ويجعله يتجه إلى الطريق السليم .. والله سبحانه وتعالى الذى يشمل برحمته ملايين البشر فى العالم كل يوم .. ليس عاجزاً على أن يشملك برحمته .. والله سبحانه وتعالى الذى يرزق كل من فى الأرض .. ليس صعباً عليه أن ييسر لك رزقك ويزيده .. ويفتح لك أبواباً جديدة .. والله سبحانه وتعالى الذى يزيل برحمته الهموم والمتاعب كل يوم عن الملايين .. ليس عاجزاً عن أن يحل لك مشكلتك .. والله سبحانه وتعالى الذى يدبر كل شىء .. ويسر كل شىء .. قادر على أن يدبر لك .. ويسر لك الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة .. ولكنك

قوانين الكون والانسان

حين تنسى لقاء الله تنقلب الموازين فتصبح الدنيا حراما أو حلالا .. هي الهدف لا فرق بين ما يغضب الله .. وبين ما يرضيه .. لأنك لا تؤمن بلقاء الله في الآخرة .. ومن هنا جاء السؤال ليجعلك تفكر قليلا وترى أن كل إنكار للقاء الله سبحانه وتعالى .. هو زيف حقيقة .. والله يقول :

« فأين تذهبون »

وليقبل لنا أى إنسان غير مؤمن .. إلى أين سيذهب .. وكيف سيهرب من لقاء الله ..

وتستطرد السورة الكريمة :

« إن هو إلا ذكر للعالمين » .

وكلمة ذكر هنا تلفتنا لفتة ثانية .. معنى الذكر أن شيئا كان عندك فغفلت عنه .. وبذلك يذكرك به .. وكان الأصل في الإنسان أنه حينما خلقه الله سبحانه وتعالى تلقى المنهج عن آدم عليه السلام .. وكان مفروضا أن آدم يبلغه لذريته .. ولكن الحقيقة أنه كلما بعد الزمن تغفل النفس قليلا .. ويبدأ التحريف والتبديل في منهج الله .. وينصرف الناس عن المنهج واضعين أهواءهم أساسا لحياتهم .. فيبعث الله رسولا ليذكروهم .

وفي القرآن يروى لنا الله سبحانه وتعالى كيف غفل الناس جيلا بعد جيل عن الله .. وكيف أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل إليهم .. كما يبين الله لنا الداءات التي تهلك المجتمع وتصيبه بغضب من الله .. ولقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۗ ﴾

قوانين الكون والانسان

بعض السطحيين الذين يقرأون القرآن يسأل : كيف أقر الناس وأجابوا بنعم
عندما سأهم الله :
« ألت بربكم »

ثم بعد ذلك اختلفوا .. والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى أشهدهم على
هـ شء لا يختلف عليه أحد في العالم . والله سبحانه وتعالى هـ

قوانين الكون والانسان

إن الإيمان فينا بالفطرة .. وأنه كان يجب أن ينقل إلينا كما علمنا آباؤنا كثيرا من أمور الحياة .. ولكن قضية الدين دائما تتبعها الغفلة .. لماذا؟ مثلا لم يغفل الإنسان أو لا يغفل أبدا عن صنع الخبز .. وهي عملية منقولة لنا عن الآباء .. هم الذين علمونا كيف يطحن الدقيق ويترك حتى يخمر ثم يخبز .. وقالوا لنا إنه إذا لم يترك الدقيق حتى يخمر فسد الخبز .. وحرصنا نحن على ذلك .. ولكننا سمعنا منهم عن المنهج .. ولم نحرص عليه .. لماذا؟ لأن المنهج يقف دائما أمام شهوات النفس .. في أن تغتصب مالا حق لها فيه .. وأن تعتدى على الضعيف .. وأن تحصل على مال بدون وجه حق .. والنفس بطبيعتها تريد أن تمتلك .. وأن تمتلك بلا حدود .. ورغم علم الإنسان يقينا أنه سيأتى إليه يوم قرب أو بعد .. يترك هذه الدنيا .. ويخرج منها كما دخلها لا يحمل شيئا من متاع الدنيا ولا زخرفها .. رغم علمنا بذلك .. فإن الطمع البشرى يجعلنا نريد أن نملك ونملك .. حتى ولو عرفنا أننا تاركوه .. بل إن الإنسان رغم علمه اليقيني بالموت يعتقد أن كل إنسان غيره سيموت .. ويستبعد هو نفسه أن تأتى نهايته .. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم أر يقينا أشبه بالشك كيقين الإنسان بالموت » .

الدين يضع القواعد والضوابط .. ويسوى بين الناس .. ويكبح جماح النفس .. ذلك الذى يريد أن يحصل على كل شيء حقا كان أو باطلا .. وألا يحصل غيره على شيء .. هذه الأشياء التى يظنها البعض قيودا على النفس .. وهى فى الحقيقة خلق مجتمع يسوده السلام والحب .. ونبذ الكراهية والحقد .. ولو طبق كل إنسان منهج الله على نفسه لاستراحت البشرية كلها .. والله سبحانه وتعالى حين يقول :

« ذكر »

يعنى أن هناك قضية .. وهى قضية الغفلة عن المنهج .. وأن الله يريد أن يذكرنا بها .. علنا نناقش أنفسنا .. والعجيب أننا فى أشياء كثيرة نترك الذكر تماما .. فالابن إذا أصيب بمرض .. الأب يأتى له بأحسن الأطباء وقد يحمله من

قوانين الكون والانسان

بلد إلى بلد باحثا عن الشفاء .. ولكنه إذا عرف أن ابنه لا يصلح تجاوز عن ذلك ببساطة ولا يذكره بالصلاة .. ولا يذكره بمنهج الله ولكن من أين تأتي الغفلة .. هذا هو حديثنا في الفصل القادم .

حديث قدسى :

يا عبادى .. كلكم ضال إلا من هديته .. فسلوني الهدى
أهدكم .. وكلكم فقير إلا من أغنيته .. فسلوني أرزقكم ..
وكلكم مذنب إلا من عافيته .. فمن علم منكم إن ذو قدرة على
المفطرة .. فاستغفروني غفرت له ولا أبالي . يا عبادى لو أن
أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على
أنقى قلب رجل من عبادى ما زاد ذلك في ملكى جناح
بعوضة .. ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم
ويابسكم .. اجتمعوا على أشقى قلب من عبادى .. ما نقص
ذلك من ملكى جناح بعوضة .. ولو أن أولكم وآخركم وحيكم
وميتكم ورطبكم ويابسكم .. اجتمعوا في صعيد واحد ..
فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته .. فأعطيت كل سائل
منكم ما سأل .. ما نقص ذلك من ملكى .. إلا كما لو أن
أحدكم مر بالبحر .. فغمس فيه ابرة ثم رفعها إليه .. ذلك بأن
جواد ماجد .. افعل ما أريد .. عطائي كلام .. وعذابي
كلام .. إنما أمرى إذا أردته أن أقول .. كن فيكون .

كل عمل ابن آدم يضاعف .. الحسنة بعشر أمثالها .. إلى
سبعمائة ضعف .. إلى ما شاء الله .. إلا الصوم .. فإنه لى ..
وأنا أجزي به .. يدع شهوته وطعامه من أجلى .. للصائم
فرحتان : فرحة عند فطره .. وفرحة عند لقاء ربه .. ولخلاف
فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ..

الفصل الثالث

الإنسان .. والأمانت

الانسان ... والامانة

من أين تأتي الغفلة .. ولماذا تصيب الإنسان بالذات .. لأن الإنسان هو الذى اختار أن يحمل الأمانة .

أخذ الإنسان حرية الاختيار فى افعال ولا تفعل .. فماذا حدث .. صور له جهله أشياء كثيرة .. فعبد كل شىء فى الدنيا .. لا ينفعه ولا يضره .. عبد الأحجار والأصنام .. وعبد النار والشمس .. وعبد الحيوانات المفترسة والحيوانات الأليفة .. وانطلق فى جهل بعيد عن الله سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون المدبر له .. انطلق الإنسان جاحدا بنعمة الله .. ترك الرسالات التى أنزلها الله سبحانه وتعالى له .. ليبين له طريق الحياة الطيبة الآمنة .. وأخذ يشرع لنفسه حسب أهوائه .. فأصابه الشقاء فى الدنيا .. وحلت به الكوارث .. ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك .. ؟

إذا أردنا أن نصل إلى ما تريده النفس البشرية فى هذه الدنيا .. فقد لخصه الله سبحانه وتعالى فى شيئين أساسيين .. وصف بهما وصفا بليغا مدخل الشيطان إلى النفس البشرية .. وما يريده كل إنسان .. ذلك أن الشيطان حين أراد أن يغرى آدم بمعضية الله سبحانه وتعالى قال له :

« هل أدلك على شجرة الخلد .. وملك لا يبلى »

إذن الإنسان يريد شيئين فى الدنيا .. الخلود والأموال التى لا تبنى .. ولا تنتهى .. أنه يريد أن يبقى فى الدنيا خالدا لا يموت .. ويريد أن يكون له ملك يعيش عيشة الترف التى يريدها دون أن تتأثر هذه الأموال بكل ما ينفقه .. ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية .. هذه الآلهة كلها التى اخترعها البشر هى إما جالبة للرزق .. وإما دافعة للضرر وتبعده عن الموت .. وهى فى الحقيقة لا تفعل هذا ولا ذاك .. ولكنه الخوف الذى يضعه الشيطان فى النفس غير المؤمنة هو الذى يجعلها تعتقد أن هناك شيئا فى يد أحد غير الله سبحانه وتعالى .

الانسان ... والامانة

وهنا نتوقف قليلا عند هذه النقطة .. الله سبحانه وتعالى حين أخذ من آدم ذريته .. وأشهدهم على أنفسهم .. نجد في النفس البشرية أثر هذا حتى الآن .. فكل نفس بشرية تعرف الله بالفطرة .. ولا تحتاج لأى شرح إذا ذكرت لها كلمة الله سبحانه وتعالى .. يكفي أن تذهب إلى الحج لترى اسم الله ينطق بجميع لغات الدينا .. بكل لغة من لغات العالم .. والمعنى واحد .. وهؤلاء الناس الذين جاءوا من كل بقاع الأرض قد لا يستطيعون التحدث معا .. أو التفاهم معا .. لأنهم لا يفهمون بعضهم البعض .. ولا يتكلمون لغة بعضهم البعض .. ولكن إذا ذكر اسم الله أمامهم توحدت قلوبهم عند كلمة الله .. وإذا أقيمت الصلاة توحدت وقفاتهم جميعا بين يدي الله .. هم لا يعرفون بعضهم البعض .. وربما التقوا أياما في الحج .. ثم بعد ذلك لا يلتقون .. ولكن رغم أنهم غرباء في كل شيء .. تجمعهم كلمة الله سبحانه وتعالى .. بل ان الله سبحانه وتعالى يعن في التحدى .. ويقول « هذا هو الله » فهل تجد له سميا .. أى أنه تحدث في القرآن .. إنه هو خالق كل شيء .. وهو الله لن تجد اسمه يطلق على أحد .

عندما يتحدى الخلق جميعاً

وهذه نقطة يجب أن نقف عندها .. إن عادة الإنسان أن يطلق اسما على كل شيء .. لا يوجد شيء في الدنيا بغير اسم إلا إذا كان مجهولا من الإنسان فكل شيء يطلق عليه اسم .. أنت لك اسم .. وإذا جاءك ابن تطلق عليه اسما .. والظواهر الطبيعية لها أسماء .. وكل شيء في الدنيا له أسماء .. والاختراعات الجديدة .. والاكتشافات الجديدة يضع الإنسان لها أسماء .. حتى يستطيع الإنسان أن يعرفها أو يعرفها أو يعرفها - بتشديد الراء - إذن فكل شيء في هذا الدنيا له اسم يميزه عن غيره .. ثم يأتي القرآن ويتحدى .. ويقول .. إن الله سبحانه وتعالى لن تجد له سميا .. أى لن تجد إنسانا يتسمى باسمه .

والتحدى هنا لمن ؟ .. التحدى في القرآن ، وفي الإيمان هو للمشركين ، ذلك

الإنسان ... والامانة

أن القرآن لا يتحدى المؤمن أبدا .. لأن المؤمن قد أمن وأطاع .. وهو ليس محتاجا للتحدي .. ولكنه محتاج لما يزيده إيمانا .. وقربا من الله سبحانه وتعالى .. أما المحتاج للتحدي فهو ذلك الذى يكفر .. فيأتى الله ليقول له : ان هناك تحديا .. تحديا لك فى كذا وكذا .. فهل تستطيع أن تفعله .. يا من تعبد نفسك .. أو تعبد الإنسان أو تعبد الحجر أو تعبد أى شىء آخر .. إذا كنت تريد أن تثبت حقيقة أنك أنت وما تعبد .. يعضدونك ويشدون أزرعك .. لهم قطرة من القوة .. فانى أتحداكم أن تفعلوا كذا وكذا .

والتحدى دائما من الله سبحانه وتعالى للإنسان .. يكون فى أمر اختياري .. إذ أن التحدى لا يمكن أن يكون فى أمر اجباري يجبر الإنسان عليه .. بمعنى مثلا أننى لا أستطيع أن أقول لإنسان أننى أتحداك مثلا أن تطيل عمرك شهرا أو شهرين .. أو أتحداك ألا تصاب بمرض طوال حياتك .. إلى آخر هذه الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها .. هنا يكون التحدى بالغ الصعوبة .. وغير ميسر .. وأحيانا مستحيل ولا يعتبر تحديا ..

ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يتحدى .. يأتى بأمر اختياري يمكن لأى إنسان أن يصل إليه ويتحدى فيه .. فالله سبحانه وتعالى مثلا علم أزلا أن بعض الناس سيتخذون العلم الذى أتاحه الله لعقول البشر .. وجعله فى طاقته .. سيأخذون هذا العلم ليعبدوه ويتخذوه إلها .. ويقولون انتقلنا من عصر الدين إلى عصر العلم .. هذا علم الله أزلا .. فوضع فى القرآن ما يرد عليهم .. قال لهم : إن الذى تعبدونه من دون الله قد يوصلكم إلى أشياء تدهش عقولكم .. وتزعزع إيمانكم .. ولكنى أقول لكم أن هذا العلم بهيلمانه عاجز عن أن يخلق ذبابة .

هذا تحد رهيب للعلم الذى وصل إلى القمر .. وهو فى طريقه إلى المريخ لن يستطيع أن يخلق ذبابة واحدة .. ولو اجتمع لها علماء العالم كله .. وفعلا كان

الانسان ... والامانة

هذا هو التحدى .. والتحدى هنا يقول أنا سأعطيكم من علمى ما أريد .. لتصلوا إلى القمر .. وتطيروا فى الهواء .. وتفعلوا ما يعتبره العقل البشرى يشبه بالمعجزات .. ولكن لكى تعلموا أن هذا بأذى وأمرى .. فانى سأمنع عنكم خلق أحقر شئ « الذبابة » .. ستصلون بعلمكم إلى ما أريد .. ولكن لو اجتمع علماء العالم كلهم ليخلقوا ذبابة .. ما استطاعوا .

ويأتى العلم ليحقق للعالم أشياء كثيرة .. حتى أن الإنسان أصبح يملك وسائل نسف الأرض .. ووسائل الكترونية حديثة تفوق فى خدمتها كل ما تصوره العقول .. ونزل الإنسان فوق القمر .. وهو فى طريقه إلى كوكب الزهرة .. إلى غير ذلك .. ولكن التحدى ظل قائما .. ذلك أن الإنسان لا يستطيع مع كل ما أوتى من العلم أن يخلق ذبابة .. أو حتى جناح ذبابة .

جاء التحدى فى أشياء أخرى كثيرة فى القرآن .. مثل المطر .. وبالرغم من كل الاختراعات الحديثة .. فإن العلم عاجز عن أن ينشأ سحابة صناعية .. ويجعلها تمطر حيث يريد .. بل إن بعض بلاد الدنيا تعاني من كثرة الماء .. وكثرة الأمطار .. والبعض الآخر يعاني من القحط الشديد .. والعلم لا حيلة له فى ذلك .

مع أن الله كشف لنا الطريقة التى يتكون بها السحاب .. ثم الطريقة التى ينزل بها المطر .. وهنا إمعان فى التحدى .. إذ أنه يعطينا الأسباب .. ويجعلنا عاجزين عن العمل .. ثم يتحدانا فى أمر اختيار كإنزال المطر مثلا .. وهو أمر أبسط كثيرا علميا .. من الوصول إلى القمر والمريخ .. ولكن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بها .

وفى القرآن تحديات كثيرة ليست هى موضوع حديثنا الآن .. إذا أن الحديث عن الله والنفس البشرية .. حين يأتى الله سبحانه وتعالى ويريد أن يتحدى الكفار فى شئ اختياري .. هل الله يريد أن يتحدى كافرا بعينه .. أو طبقة من

الانسان ... والامانة

الكفار بعينها كالعلماء .. أو التجار؟ .. أم أنه يريد أن يكون التحدى شاملا للجميع .. يستطيع أن يقدر عليه كل كافر .. حتى ذلك الذى لا يكتب حرفا .. لم يحرف من الدنيا شيئا .. يأتى الله سبحانه وتعالى ويجعل التحدى هنا عاما فى مقدرة كل فرد .

التحدى .. فى الاسم

أى أنه يتحدى فى الاسم .. والاسم هنا شيء يقدر عليه كل إنسان .. بل ويستخدمه كل إنسان فى الدنيا كلها .. كل فرد يستخدم الأسماء مهما بلغت ثقافته أو علمه .. أو جنسيته .. إلى آخره .. يأتى الله سبحانه وتعالى ويتحدى .. ويقول إننى أنا الله .. وهذا اسمى .. سأختص به نفسى .. ولن تجد له سميا .. أى مسمى بهذا الاسم فى الدنيا كلها .

يأتى هذا التحدى وأنا أوجه السؤال إلى كل من يقرأ هذا الحديث .. هل سمعتم عن إنسان اسمه « الله » ؟ .. هل سمعتم إن عقلا بشريا جرؤ على أن يطلق هذا الاسم على ابن له .. أو زوج له . أو على أى شخص كان .. حتى الآلهة التى اخترعها الإنسان ليعبدها جعل لها أسماء ليس بينها اسم « الله » سبحانه وتعالى .. ولقد جاء هذا التحدى فى أمر اختياري .. أى يستطيع أى إنسان يفعله بإرادته .. وفى أمر لا يستلزم أى مؤهلات .. أى يستطيع أى فرد فى الدنيا أن يقوم به دون أن يكون له ثقافة أو علم .. أو فكر .. أو أى شيء مميز .. أى أنه تحد للبشرية كلها .. ومع أن هذا التحدى نزل منذ أربعة عشر قرنا .. ومع أن هناك أناسا يعملون ضد دين الله .. ويحاولون هدمه .. لم يستطع واحد منهم أن يطلق الاسم على فرد أو شيء .. أو حتى على إله يعبده .. وهكذا بقى التحدى .. وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها

هذا التحدى لا يقدر عليه إنسان .. ولا يمكن أن يقوم به بشر مهما بلغ شأنه .. ولكن التحدى فى أمر اختياري لا يستلزم أى صفات أو مؤهلات

الإنسان ... والأمانة

معينة .. وعجز الإنسان عن مواجهة هذا التحدى .. هو قدرة من قدرات الله سبحانه وتعالى وحده .

وبرغم ذلك التحدى الذى لا يجيب عليه أحد .. نجد بعض الناس يحاولون جاهدين انكار وجود الله سبحانه وتعالى .. ويجادلون فى ذلك جدا كثيرا .. ولكن هؤلاء الناس أنفسهم حينما تعجز الأسباب عن أن تدفع عنهم ضرا .. وحين يجدون أنفسهم فى كرب لا يستطيعون الخروج منه .. أو فى بلاء لا يستطيعون رده .. تجد ألسنتهم تصيح بلا شعور يارب .. وتستنجد بالله الذى يحاولون انكار وجوده .. كيف تستنجد نفس بالله سبحانه وتعالى .. وهى فى نفس الوقت تحاول أن تنكر وجود الله .. إنها تجزع إليه .. تستغيث بالخالق .. بالقدرة .. بالقوة .. بالذى يقول كن فيكون .. كيف يتم ذلك ؟

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد عرف ضعف النفس البشرية .. كما علم أنها ستبتعد عن المنهج .. فوضع لها تحديات فى القرآن الكريم .. فإنه سبحانه وتعالى حفظ القرآن من العبث البشرى .. فإذا فعل الله .. لقد كانت الكتب السماوية التى سبقت القرآن أمانة فى أعناق البشر .. ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أئتمن البشر عليها .. هم الذين يحفظونها من أى تحريف أو تبديل .. أو اغفال لذكر أحكام الله .. ولكن الله سبحانه وتعالى اختص القرآن الكريم بأنه يحفظه .

وبذلك بقى القرآن الكريم أربعة عشر قرنا .. وسيبقى إلى يوم القيامة .. محفوظا من أى عبث بشرى .. أو أى تدخل من أى إنسان كان .. ومهما بذلت من محاولات .. ومهما دبر .. فإن أحدا لن يستطيع أن يمس القرآن .. لأن الله سبحانه وتعالى يحفظه .. وبقية من أى تحريف أو تدخل بشرى .. ولذلك فإنك ترى مثلا أنه بينما خط الحفاظ على المنهج من المسلمين يتقلص مع مرور

الانسان ... والامانة

الزمن .. أى أن عدد المسلمين الذين يتبعون المنهج .. ويعيشون .. يقل مع الزمان .. ومع المغريات المادية .. فإن خط حفظ القرآن يعلو ويتضاعف .. فتجد ألمانيا تطبع القرآن بشكل جميل فى لوحة واحدة .. مع أنها لا تؤمن بالقرآن .. وتجد اليابان مثلا .. وإيطاليا .. تطبعان المصاحف طباعة متقدمة .. ونجد كل إنسان يضع المصحف فى جيبه .. أو فى سيارته .. أو آيات قرآنية تعلق على الصدور .. وتعجب أنت من أن الخط الإيماني يميل إلى الهبوط .. بينما خط حفظ القرآن يعلو ويزداد .. نقول لك .. إنه لو كان الخيطان يتبعان ارادة البشر .. لكان من المنطقي أن يسيرا فى اتجاه واحد .. ولكن هناك خطأ يتبع الارادة البشرية وهو الإيمان .. وخطا يتبع ارادة الله سبحانه وتعالى .. وهو حفظ القرآن مصداقا لقوله تعالى :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

أما الخط البشرى فيتناقص .. وأما الخط الإلهى فيعلو ويزداد .. وهذه احدى معجزات القرآن ..

« إلا أن يشاء الله »

ثم تأتى السورة الكريمة إلى قوله تعالى :

« إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين »

إن هو إلا ذكر للعالمين .. أى أن هذا القرآن نزل ليذكر الناس بالطريق المستقيم .. ليعلمهم طريق العبادة .. والحياة الطيبة الآمنة على الأرض .. فالقرآن للأحياء وليس للموتى .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى وضع فيه السعادة فى الدنيا والآخرة .. وهو موجود ليذكر الناس حتى لا يكون لأحد حجة على الله سبحانه وتعالى فى أنه لم يعرف طريق الهداية .. أو جهل هذا الطريق .. فالقرآن موجود لكل من يريد أن يتذكر .. إلا أن الله سبحانه وتعالى يقول :

« لمن شاء منكم أن يستقيم »

الإنسان ... والأمانة

إذن هو لم يطلق التذكرة هنا لكل البشر .. ولكنه حددها .. أن هذا القرآن أتى ليكون مذكرا لكل من أراد الاستقامة .. فإذا أمسكت القرآن .. وبدأت تدرس تعاليمه .. بهدف الاستقامة .. هداك الله سبحانه وتعالى إلى الطريق المستقيم .. وإلى الخير .. ثم أتى الآية الكريمة :
« وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين »

وهذه الآية تحدد طريق المشيئة .. بأنها من الله سبحانه وتعالى .. وهي تثير جدلا كثيرا .. وبعض الناس يرى فيها سلبا لحرية الاختيار التي أعطها الله للبشر .. ذلك أنه إذا لم أصل .. فقد شاء الله ألا أصلى .. وإذا تركت الصوم .. فقد شاء الله أن أترك الصوم .. وإذا لم أذك فهذه مشيئة الله .. فلماذا يحاسبني .. وهذا القول فيه مغالطة شديدة .. ولنبدأ الحديث بالتفصيل .

الله سبحانه وتعالى حين خلق الإنسان .. جعل له أشياء .. هو مخير فيها .. وأشياء لا اختيار له فيها .. ومعظم الأشياء خلاف العبادات .. والتكليف .. وأمور الحياة .. الإنسان غير مخير فيها .. شكل الإنسان .. هل هو طويل أم قصير .. ذكى أم غبي .. أبيض أم أسود .. قوى البنية أم ضعيف البنية .. من هو أبوه .. من هي أمه .. ما هو بلده الذي يولد فيه .. كل هذا لا اختيار للبشر فيه .. الكون كله بشمسه وقمره .. ونجومه وجباله .. وأرضه ونظامه البالغ الدقة .. الأجل والموت والحياة والصحة .. والمرض .. كلها عوامل لا تخضع للمشيئة البشرية .. رغم ما يدعيه عدد من الناس .. فالطبيب هو واسطة الشفاء .. وليس هو معطى الشفاء .. والله أحيانا يهدى أصغر الأطباء إلى الداء فيعالجه .. وأحيانا يعمى أكبر الأطباء عن الداء .. فلا يستطيع أن يقدم العلاج .

الجسد البشرى لا دخل للإنسان فيه .. في أجزاء كبيرة منه .. فالقلب يدق

الإنسان ... والامانة

سواء أردت أنا أو لم أرد .. والمعدة تعمل على هضم الطعام دون أن أصدر إليها أمرا بذلك .. والدورة الدموية تسير وأنا لا أكاد أحس بها .. وأشياء كثيرة في الجسم تمضى دون ما إرادة مني .. بل انها في كثير من الأحيان تؤدي وظيفتها وأنا نائم .. لا أدري شيئا .. إذن هذه الأشياء كلها لا اختيار لي فيها .. ولا حساب عليها .

نأتى بعد ذلك إلى الأشياء التي تدخل في نطاق الحساب .. وهي الحياة .. بكل معاملاتها .. وكل ما يدور فيها .. الله سبحانه وتعالى قد وضع لي أشياء .. وترك لي الخيار .. أى أن أختار بين البدائل .. ولم يضع عليها قيودا في افعل ولا تفعل .. فأنا مثلا أستطيع أن أضع أثاثا في المكان الذي أعيش فيه .. يلائم ذوقى .. وليس هناك حساب .. أو أن أختار لونا معيناً لثوب ارتديه .. أو أن أختار شكل الثوب .. أن أركب القطار أو الباخرة .. أو الطائرة .. أو السيارة .. أختار وسيلة المواصلات .. كل هذا يدخل في المنطقة الاختيارية للإنسان .. ولكن لا عقاب عليه .. لأن الله لم يحدد لي شيئا .. وترك كل ذلك لاختياري .

ثم ندخل بعد ذلك في منطقة التكليف .. وهي المنطقة التي عليها الحساب .. التي قال لي الله سبحانه وتعالى فيها .. افعل ولا تفعل .. مادام الله سبحانه وتعالى قد قال افعل .. فلا بد أنه أعطاني القدرة على الفعل .. ومادام الله قد قال لا تفعل .. فلا بد أنه أعطاني القدرة على عدم الفعل .. وهنا منطقة الحساب .. وهذه تخضع للمشيئة البشرية بلا قيود .. بل إن هناك قيودا قد وضعها البشر على هذه المنطقة الاختيارية .. فجاء الله وأبطل هذه القيود من الحساب .. حتى يكون العدل مطلقا .. فإذا أتيت بإنسان .. وظللت أعذبه عذابا فوق طاقته .. ليقوم بفعل منكر نهى عنه الله .. فإنه إذا قام بفعل هذا المنكر غفر الله له .. لأنه لم يتم بالارادة الحرة النابعة من هذا الإنسان .. بل تم بالتعذيب .. وتصل هذه المسألة إلى حد الفتيات اللاتي يكرهن على أعمال سيئة

الانسان ... والامانة

بالتعذيب يغفر الله لمن .. مادام هذا ناتجا عن تعذيب واكراه .. وليس عن ارادة حرة .. بل إن من يكره ليعلم عدم إيمانه .. وهو في قلبه مؤمن .. يكتب عند الله مؤمنا .

مشيئة الله وأحكام الاختيار

إذن فما معنى ..

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله »

اننى سأقدم هنا معنيين فقط .. المعنى الأول أن ما تشاءون إلا أن يشاء الله . معناه أن كل شيء في هذا الكون خاضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى .. وقد شاء الله أن يعطيكم الاختيار الحر في عدد من المسائل .. ترك لكم أن تفعلوا فيها ما تريدون .. ولو شاء الله سبحانه وتعالى .. ما أعطاكم هذا الاختيار .. فهناك خلق من خلق الله نراه أمامنا لا يخضع لأى اختيار .. كل ما خلقه الله في هذه الأرض .. من جماد .. ونبات .. وحيوانات .. كلها مقهورة تؤدي مهمتها في الكون بلا اختيار .. والملائكة الذين لا نراهم .. هم أيضا لا اختيار لهم .. والله سبحانه وتعالى قد خلق كل هذه المخلوقات .. ومشيئته أن تكون مقهورة على ما تفعل .. ولذلك سقط عنها الحساب .. وخلق الجن والإنس .. وشاء الله أن يكون لهم اختيار في بعض أمورهم .. ولذلك جاء هذا الاختيار ليس محتاجا للتحدى .. ولكنه محتاج لما يزيده إيمانا .. وقربا من الله لمشيئة الله سبحانه وتعالى .. ولو لم يكن الأمر كذلك .. فأرونى إنسانا يستطيع أن يكون له اختيار .. فيما لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يعطيه الاختيار فيه .. أرونى إنسانا قادرا على أن يتنفس .. أو لا يتنفس .. طبقا لاختياره هو .. ويبقى على قيد الحياة .. أرونى إنسانا يستطيع أن يأمر معدته أن تتوقف عن هضم الطعام عندما يشاء .. أو أن تقوم بهضم الطعام إذا أصيبت بمرض منعها عن أداء وظيفتها .. أرونى إنسانا يستطيع أن يتحكم في لونه .. أو فى أمه .. ومن تكون .. أو أبيه

الانسان ... والامانة

ومن هو . . أو في أى بلد يولد . . أو أن يعطى الحركة لقدميه أو يديه باختياره هو إذا أصابها بالشلل .

كل هذه الأشياء . . ولقد أتيت بها من داخل الجسد البشرى . . لا تخضع لاختيار البشر حتى ولو أرادوا ذلك . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا تخضع . . كما شاء للإنسان أن تكون له إرادة حرة في منطقة معينة من حياته من افعل ولا تفعل . . أرونى إنسانا يستطيع أن يوقف الشمس عن الظهور أو يمنع الليل من المجيء . . أو يوقف الأرض عن دورانها . . كل هذا شاء الله سبحانه وتعالى ألا يكون للبشر فيه مشيئة . . إذن فقول الله :
« وما تشاءون إلا أن يشاء الله »

لا يتعارض أبدا مع المشيئة الحرة للبشر . . ذلك إن شاء في أشياء ألا تخضع لاختيار البشر . . وخرجت فعلا عن هذا الاختيار . . وشاء في أشياء أخرى أن تبقى داخل الاختيار البشرى . . فكانت مشيئة الله نافذة . . وكان الاختيار الحر للبشر في عدد من أمور حياتهم . . إذن فهذا الاختيار الحر يخضع لمشيئة الله . . لأن الله شاء أن يكون للبشر اختيار في هذه المنطقة . . ولو كانت إرادة الله غير ذلك لما استطاع بشر أن يكون له اختيار .

وبذلك يكون حرية الإنسان داخل المشيئة الإلهية . . لأن الله شاء له أن يأخذ هذه الحرية ليحاسبه عليها . . ثم بعد ذلك . . نأتى إلى النقطة التالية . . وهى أن الله سبحانه وتعالى علم أن هذه المشيئة ستفسد البشر . . وتبعدهم عن نور الله . . فالأغراءات كثيرة . . والإنسان خلق ضعيفا . . وهنا جاءت رحمة الله ليعطى شعاعا من نوره . . لكل إنسان يضل الطريق . . هذا الشعاع يهدى إلى الحق . . ويرينا طريق الحياة السعيدة المطمئنة في الدنيا . . والآخرة . . كيف يحدث ذلك ؟

الانسان ... والامانة

ما هي الأمانة

التي قبلها الانسان

وقبل أن نكمل الحديث عن هذا الموضوع .. أحب أن أتعرض إلى نقطتين أساسيتين .. إن حرية الاختيار التي أعطاها الله سبحانه وتعالى للإنسان عبر عنها في القرآن الكريم بكلمة الأمانة .. فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٧)

سورة الأحزاب

ما هي الأمانة .. معناها العام .. هي أن يعطيك إنسان شيئاً تحفظه له عندك كأمانة .. ويشترط لذلك أن يكون هذا العطاء بينك وبينه بلا شهود .. فإن كان هناك شهود .. لم تصبح أمانة .. ولكنها تصبح ديناً .. وإذا كانت هناك ورقة مكتوبة لا تصبح أمانة .. ولكنها تصبح ديناً مسجلاً على ورقة .. إذن شرط الأمانة أن تكون بينك وبين الشخص الذي ائتمنتك دون شهود .. بحيث تستطيع أن تنكرها إذا أردت .. وأن تفي بها إذا أردت .. وفي كلتا الحالتين يكون الوازع هو الحق وحده .. وهو الاحساس بوجود الله سبحانه وتعالى .. وبأنه هو المطلع .

إذن فالأمانة التي عرضها الله سبحانه وتعالى على الإنسان .. عرضها قبل ذلك على عدد من مخلوقاته .. لكن هذه المخلوقات جميعاً رفضت أن تحمل الأمانة .. لماذا ؟ .. لأنها أحست أنها لن تستطيع أن تفي بها .. فالنعم التي أعطاها الله سبحانه وتعالى لنا لها حق أداء .. وهذه المخلوقات كلها أحست بعجزها عن حق أداء الشكر لله على نعمه .. ولذلك رفضت .. وجاء الإنسان .. وقبل حمل الأمانة .. قَبِلَ أن يأخذ النعم .. ويؤدي عنها حق

الإنسان ... والامانة

الشكر .. وحق العبادة لله .. وأن يكون في ذلك مختارا .. يفعل أو لا يفعل .. وكما تفرح أنت إذا ترك إنسان عندك مبلغا ضخما كأمانة .. فإذا احتجت إلى شيء .. كان من السهل أن تمد يدك وتحصل على ما تريد .. ثم يأتي وقت المطالبة .. فلا تستطيع أن تفي بالامانة التي حملتها .. فقد فرح الإنسان بأن لديه رصيда من النعم التي سخرها الله سبحانه وتعالى له .. يستطيع أن يسحب منها كما يشاء .. وعندما يريد .. دون أن يؤدي حقها لله .. حق شكر .. وحق عبادة .. وحق طاعة .. ولقد كان الإنسان حين فرح بذلك ظلوما .. لماذا؟ .. لأنه ظلم نفسه .. فطلب ما لا تقدر عليه هذه النفس الضعيفة أمام مغريات الكون .. ولأنه ظلم نفسه .. لأن البعد عن منهج الله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بظلم .. فلو اتبعنا جميعا الحق .. ما بعدنا عن منهج الله .. ولا فسدت الأرض .. فالحق هو ما يطالبنا به الله .. فإن اتبعناه .. فنحن لم نخن الأمانة .. لأننا اتبعنا منهج الله في الأرض .. ولكن متى نخون الأمانة؟ .. عندما نظلم .. نأخذ حق الغير .. نمد أيدينا إلى مال حرام .. نعتدى على حرمة غيرنا وماله وعرضه .. حينئذ نكون قد ظلمنا الناس .. وخننا الأمانة .. فالظلم هنا يرتبط بالبعد عن منهج الله .. هو ظلم للنفس .. بقيادتها .. إلى غير طريق الحق .. وهو ظلم للناس .. بالاعتداء على حقوقهم .. فالقوى يسلب الضعيف حقه .. والغنى يستغل الفقير .. وتفسد الدنيا من ظلم البشر .

والإنسان عندما فعل ذلك كان جهولا .. لماذا؟ .. لأنه ظن أنه سيكسب شيئا .. ففقد نفسه إلى الهلاك دون أن يكسب أى شيء .. صور له جهله أن الدنيا هي الأساس .. وصور له غروره أنه يستطيع أن يحصل على ملك لا يبلى .. أى لا يزول .. وصور له قصر نظره أنه يستطيع أن يتخلد في الأرض .. وأن يعيش إلى ما لا نهاية .. وأن هناك من الوسائل البشرية ما يمكن أن يؤخر الموت .. ويعطى حياة طويلة .. كل هذا هو شعور الإنسان الذى يصوره له جهله .. ذلك أن الإنسان رغم معرفته الأكيدة .. بأنه ميت

الإنسان ... والامانة

لا محالة .. فإنه يتصور أن يموت الناس جميعا إلا هو .. ومحس حتى وهو في أحلك الظروف .. وهو يصارع الموت .. أنه سينجو .. ولو أن كل إنسان أحس يقينا بالموت .. لتغيرت الدنيا كلها .

إذن .. فالإنسان حمل الأمانة .. أمانة الشكر على عطاء الله .. الشكر على نعمة الحياة .. الشكر على رزق الله .. الشكر على أن الله سبحانه وتعالى يبارك له .. ويعطيه .. ويرزقه .. وينجيه من كل سوء .. ويدفع عنه كل شر .. حمل الأمانة .. التي تلزمه بالحق بين الناس .. وبالعدل في حكمه .. وباحترام حقوق الآخرين مهما كانوا ضعفاء .. حمل هذه الأمانة .. ونزل إلى الأرض .. فماذا فعل .. استطاع الشيطان أن يصل إلى قلبه .. وصور له أنه يستطيع أن يملك .. وأن يملك بلا حساب .. بينما في الحقيقة أن ملك الإنسان ينحصر فيما ينفقه لحاجته .. وأحيانا تجد إنسان غنيا تقدم به العمر .. ومع ذلك هو يحاسب عن كل قرش أنفقه .. ويحاول أن يوفر بقدر ما يستطيع .. وتتساءل أنت وتتعجب : كيف تكون هذه الأموال كلها عند هذا الإنسان .. ثم يقتر على نفسه هذا التقدير .. وتجد أنها مسألة لا تتمشى مع حكم العقل ولا مع منطق الفكر السليم .. نقول لك ولكنها تتمشى مع قدر الله .. فالمال رغم أن هذا الرجل قد كسبه .. ليس رزقه .. ولو كان رزقه لتمتع به .. ولكنه مجرد حارس عليه ليسلمه إلى صاحبه .. وهو في دوره هذا بالحراسة على هذا المال .. إنما يأخذ منه رزقه فقط .. ويبقى بقدره الله .. أمينا على الجزء الباقي .. حتى يوصله إلى أصحابه .. فيأخذوه .. وربما انفقوه فيما لا ينفع ولا يجدى .

وجهل الإنسان الحقيقة

إذن الإنسان حين قبل الأمانة .. وقبل أن يحملها .. لم يقدر أنه سيأتي يوم من الأيام يسأله الله عنها .. وأين بدد الأمانة .. وصور له جهله أن ما يتمتع به في الدنيا .. هو الذي سيفوز به .. وأنه إذا ملك أكثر من حاجته أمن غده ..

الانسان ... والامانة

وأصبح آمانا مطمئنا .. بينما الحقيقة .. أن الأمانة في وجه الله وحده .. وأن الإنسان مهما ملك .. قد يأتي عليه يوم وليلة ينزع فيها كل ملكه .. ويصبح لا يملك شيئا .. وأماننا الأمثلة في كل مكان في العالم مما يحدث ، والله سبحانه وتعالى أعطى للإنسان حرية الاختيار بالمشيئة .. أى لأن الله شاء أن يكون الإنسان حرا في عدد من جوانب حياته .. وفي نفس الوقت حملة أمانة الطاعة والشكر لله .. وجعل هذه الأمانة بينه وبين الله سبحانه وتعالى .. لا يطلع عليها فرد .. ولذلك كانت من دقة القرآن الكريم .. أنه أطلق لفظ الأمانة على ما حملة الإنسان .. لماذا؟

لأنه لا يوجد إنسان يعرف .. ما بين الله وبين البشر .. إلا الله سبحانه وتعالى .. فأنا قد أتظاهر بالصلاح .. وأذهب إلى المسجد وأصلى .. في كل وقت .. ولكن هذا التظاهر لا يكون عبادة .. وإنما يكون لأحصل على سمعة طيبة .. بين الناس .. أو ليسر لي أمرا من أمور الدنيا .. فإذا خلوت إلى نفسي عصيت الله .. وإذا كنت بعيدا عن الناس .. لم أراقب الله فيما أعمل .. فكأن المسألة كلها تظاهر لفائدة دنيوية .. ولكننا ونحن نرى الظاهر وحده نحكم على هذا الإنسان بالصلاح والتقوى .. لأننا لا نعرف الجزء الباقي من حياته .. وقد يذهب إنسان إلى الحفلات الخيرية .. يعلن أمام الناس عن تبرعه بمبلغ من المال للخير .. وهو يريد بذلك ثلاثا : أن يقول الناس أنه رجل الخير والبر والتقوى .. هذه واحدة .. وأن ينهر الناس بغناه وثروته التي تمكنه من التبرع بهذه المبالغ للخير .. فيقول الناس : لا بد أنه غني .. لا بد أن عنده أموالا كثيرة .. هذه ثانية .. أو يكون هذا تقربا لغير الله سبحانه وتعالى .. كأن أضع هذا المبلغ لرجل ذي نفوذ باسم الخير ليقضى له مصلحة دنيوية .. أو يكون لي طلب في جهة ما .. فأحاول أن أرضى صاحب هذه الجهة .. فأتبرع لمشروع يديره هو .. والمهم في هذا كله .. أنني أقصد غير وجه الله .. ذلك أن الخير الذي أفعله لوجه الله سبحانه وتعالى .. تعطى فيه يمينك مالا تدريه شمالك .. أى أنه يحاط بالكتمان الشديد حتى لا يشتبه فيه أية ذرة شك .. من أن القصد به

الإنسان ... والامانة

هو غير الله .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الشركاء عن الشرك .. فهاذا أشركت معه أحدا في عمل من الأعمال .. فإن الله سبحانه وتعالى يستغنى عن هذا العمل ولا يقبله .. ويتركك لما أشركت به .

ولذلك استخدم الله سبحانه وتعالى لفظ الأمانة .. التي تحدثنا عنها .. وقلنا انها تكون بين طرفين .. ولا يعرف ثالث عنها شيئا .. كذلك العبادة .. وكل عمل يقصد به وجه الله .. يكون بين العبد وبين الله .. فإذا أخذ أى صورة من علانية الأداء .. أو أية صورة من المظهرية فسد .. كذلك لا يحكم على هذا العمل من مظهره .. فلا يقال عن إنسان أنه رجل البر والتقوى .. لأنه يجرى وراء أصحاب النفوذ يعطيهم ماله باسم الخير .. ليحقق غرضا دنيويا .. ولا يقال رجل عابد لمجرد أنه يتظاهر بالتقوى .. بل لابد أن يكون التصديق بالعمل .. وفي آخر المطاف .. نجد أن الإنسان مهما برع .. ومهما كان .. لا يستطيع أن يحكم حكما صحيحا .. على علاقة إنسان آخر بالله سبحانه وتعالى .. بل إن الحكم لله وحده في هذه العلاقة .. لأن الإنسان أحيانا يخفى في صدره ما لا يعلمه أحد إلا الله .. ولذلك قال الله عن يوم القيامة :

« يوم تُبلى السرائر » .

أى يوم يكشف الله عما في الصدور .. ويظهره .. فنعرف من كان يقول ما لا يفعل .

أحداث الحياة .. والمشيمة

على أننا إذا دخلنا في نقاش حول المشيمة الإلهية .. واختيار الإنسان فإننا نجد جدلا كثيرا .. ولن ندخل في هذا الجدل الذى هو جهل لا يضر .. وعلم لا ينفع .. وإنما فقط سأعطي رأبى في هذا الموضوع .. بما يوضح بعض جوانبه التى تجعل الإنسان يحس بمسئولية اختياره .. أو بأنه محاسب على هذا الاختيار فى الآخرة .. وهذا هو المهم .

الإنسان ... والامانة

إذا أردنا أن نقسم أحداث الحياة .. فإننا يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة أشياء : أشياء عامة .. فعل يحدث وليس لي دخل فيه .. كالكون مثلا بكل آياته : شمس وقمر ونجومه .. وأرضه وهوائه .. هذه ليس لي دخل فيها .. وبالتالي لا تدخل في دائرة النقاش .. وفعل يقع على .. وليس لي دخل فيه .. كان أكون سائرا في الطريق .. فتصدمني سيارة .. أو أصاب بمرض .. أو ينهدم المنزل الذي أعيش فيه .. أو أمشي فأتعثر في الطريق وأسقط .. فأصاب إلى غير ذلك من ملايين الأفعال في الأرض .. تلدغني حشرة مثلا .. أو أفقد وظيفتي .. لأن الشركة قد أفلست .. كل هذه أشياء لا تدخل لي فيها .. ولا تدخل في منطقة الحساب .. لماذا؟ .. لأنها أشياء تقع على دون ارادة .. دون ما فعل مني .. ولذلك فهي أحداث لا تدخل في دائرة افعال ولا تفعل .

وإذا أخرجنا أحداث الكون بهذه الطريقة .. بقي بعد ذلك فعل لي فيه ارادة .. وهذا الفعل أما أن أقوم به أنا .. وإما يفرض على .. مثلا إنسان جاء واعتدى على بالضرب أو بالسب .. لم أكن أنا أريد أن أقاتل .. ولكن هذا الفعل فرض على .. إنسان جاء ليسلبنى شيئا لم أكن أنا أريد أن أسلب .. ولكن هذا الفعل فرض على .. إلى آخر الأفعال التي تفرض على البشر بالأحداث .. هذا فعل وقوعه على لا يحملي ذنبا .. لأنني أنا الشخص المعتدى عليه .. ولكنه يحمل ذنبا على المعتدى .. وحينئذ يحل القصاص .. أي يجوز لي رد الاعتداء دون أن أرتكب إثما .. ورد الاعتداء هنا يتم بالارادة الحرة .. فأنت تستطيع أن تضرب إنسانا بالقلم .. كما ضربك بالقلم .. وتستطيع بدلا من أن تضربه قلمي .. أن تحطم ضلوعه .. وتستطيع أن تقتله .. إذن رد الفعل هنا يختلف .. وهكذا يجيء تشريع الله من افعال ولا تفعل .. محاولا اشاعة الحب بين الناس بدلا من الكراهية والبغضاء .. وسفك الدماء .. فيحرص على العفو عن المسيء .. ويحاول أن يجعل رد الإساءة لا يزيد عن حجم الإساءة نفسها .. حتى لا تتطور الأمور .. إلى ما هو أبشع .. مما يفسد الدنيا .. ويملاها حقدا وبغضاء .

الانسان ... والأمانة

فأنت مثلا إذا ضربك إنسان ضربة واحدة بالعصا .. وأمسكت العصا وضربته .. تكون في هذه الحالة قد رددت العدوان بمثله .. وتجد أن هذه القضية لا تثير أحدا .. لا من أهلك ولا من أهله .. فإدام الرد مساويا للفعل .. فإنه نادرا ما يصيب أحدا من البشر بالانفعال .. لدرجة أن تتسع الخصومة ليدخل فيها عدد كبير من الناس ..

ولكن إذا ضربك إنسان بالعصا .. فأمسكت بندقية وقتلته .. حينئذ يكون رد الفعل عنيفا .. وتجد أكثر من إنسان من أهل القتل يريد أن يقتصر منك .. وهكذا تدخل مشيئة الله سبحانه وتعالى وهو المشرع الحكيم العليم ليمنع سفك الدماء .. والبغضاء والمشاحنة .. فجعل العفوله ثواب كبير .. وكتمان الغيظ عملية محببة إلى الله .. وفي نفس الوقت .. وحتى لا يشجع العدوان على إطلاقه .. جعل الرد بمثالا للعدوان تماما :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ..

المشيئة الحرة.

نأتى بعد ذلك للنفس البشرية وأعمالها .. والتي تقع منها اختيارا أو ترد خطرا .. ولكنها تفعل ما تفعل .. بمشيئتها الحرة .. ودون ما ضغط عليها .. هذه الأعمال الاختيارية مقسمة إلى قسمين .. قسم لا ثواب ولا عقاب عليه .. كأن تحب أن تناول صنفا معينا من الطعام أحله الله لك .. أو تختار نوعا من الفاكهة .. أو تؤثث بيتك بالطريقة التي تريد .. إلى آخر هذه الأعمال التي لم يتعرض لها القرآن بفاعل ولا تفعل .. هذه أنت حر فيها .. ليس عليها عقاب إذا ما فعلتها .. ويبقى بعد ذلك القسم الصغير من الأعمال الاختيارية التي أنزل فيها الله أحكاما بفاعل ولا تفعل .. هذا هو الاختبار الايماني في الحياة .. اختبار حرية الإنسان في الفعل .. والله سبحانه وتعالى لا يحاسب بشرا إلا على عمل حر قد قام به .. وأنت لكى تقوم بعمل .. لا بد أن تتوافر لك عدة مقومات ..

الانسان ... والامانة

الزمن مثلا الذى سيتم فيه العمل .. القدرة على هذا العمل .. الوجود لإتمام العمل .. والامكانيات .. إلى آخر ذلك .. ولنوضح هذه النقطة قليلا ..

هب أننى أريد أن أبني عمارة .. لا بد أن أهيبء الأرض أولا .. وهذه الأرض قد تكون موجودة .. أو غير موجودة .. فإذا وجدت حددت زمان العمل .. أنا بتحديد الزمن .. أتجاوز طاقتى البشرية .. ذلك لأننى لا أستطيع أن أجزم أننى سأكون موجودا فى الغد .. أى أننى لا أستطيع أن أقول جزما أننى سأذهب إلى السوق غدا لأشترى شيئا .. أو سأبدأ فى بناء هذه العمارة غدا .. لماذا؟ .. لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون على ظهر الدنيا غدا .. أو رحلت عنها .. هذه واحدة .. ولا أضمن ظروف العمل .. فقد أكون على ظهر الدنيا .. وأذهب إلى مكان العمارة .. ثم بعد ذلك لا يحضر الرجال الذين سيقومون بالبناء .. ولا أستطيع أن أقوم بالبناء وحدى .. وأجعله يقوم .. وحتى لو وجدت أنا .. وجاء الرجال .. فلا أضمن أن يأتى سبب خارج عن ارادتى .. ليمنع اتمام العمل .. كأن يأتى أحد الناس .. ويوقف البناء بدعوى أن هذه الأرض ملكه .. أو تستولى الحكومة على الأرض فجأة .. أو يصدر قانون بمنع البناء على هذه الأرض .. أو تكون أوراقى غير مستوفاة بشكل لم أتنبه إليه .. أو يأتى أى إنسان ويقيم اشكالا يمنعنى من البناء .. إذن رغم أننى أملك المشيئة وهى وجودى لحظة البناء .. وأملك القدرة .. وهى هؤلاء العمال الذين جاءوا للبناء ..

أملك الأرض والأسمت والحديد .. فقد لا يتم العمل .. إذن من وحده الذى يستطيع أن يتم العمل .. ولا يقف فى طريقه حائل .. انه الله سبحانه وتعالى ..

الله وحده هو الذى يستطيع أن يقول للشئ كن فيكون .. فهو إذا أراد .. لا يمكن لفرد أن يأتى ويمنع هذه الارادة .. وهو إذا شاء . لديه القوة وحده ..

الانسان ... والامانة

لينفذ ما يريد .. دون الاستعانة بأحد في الدنيا كلها .. وهو العزيز القادر الذى لا تستطيع أى قوة مهما كانت أن تأتى لتوقف عملا قال له الله سبحانه وتعالى له :
كن ..

إذن الذى يملك المشيئة الحقيقية فى أن يتم عمل فى الأرض هو الله سبحانه وتعالى .. ولكننا نحن البشر لا نملك إلا مشيئة مجازية .. وقد نخرج فى الصباح .. وفى نيتنا أن نفعل كذا وكذا .. ثم لا يتم شىء من هذا كله .. لأننا كما قلت لا نملك القدرة لإتمامه . ولأن هناك ظروفًا تأتى لكل منا مهما علا شأنه .. وبلغ سلطانه لتمنع تنفيذ عمل يريد أن ينفذه .. حتى الحاكم الذى له الأمر والنهى .. والكل يطيعه .. لا يستطيع فى أحيان كثيرة أن ينفذ ما يريد .. هذه هى مشيئة العمل .

بقيت بعد ذلك النقطة الأخيرة .. وهى نقطة الحساب .. وهذه النقطة عن الأفعال .. التى حددها الله سبحانه وتعالى فى منحج الإيمان بافعل ولا تفعل .. قد تأتى أنت هذه الأفعال مكرها .. كأن يجلدك رئيس العصابة لتسرق .. وتضطر كارها .. وتحت شدة التعذيب تسرق .. وتحاول أن تهرب .. فيعيدك .. مادمت تأتى هذا العمل مكرها .. فقد أسقط الله عنك الحساب .. حتى فى الإيمان .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى .. فى الاكراه على الكفر :

« إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

إذن الإكراه يسقط الحساب ..

إنها فى القلب

تبقى بعد ذلك الارادة الحرة .. ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع هذه الارادة الحرة فى مكان لا يستطيع أن يسيطر عليها أحد فى العالم .. انها فى القلب .. وما هو داخل القلب أو النية لا تستطيع الدنيا كلها أن تصل إليه ..

الانسان ... والامانة

فأنت قد تكره انسانا .. وربما تحت التعذيب .. أو التهديد .. أو الخوف ..
تتظاهر بالحب له .. ولكن الحقيقة أنك تكرهه من داخل قلبك .. وتبقى هذه
الحقيقة لا تستطيع أن تمسها الدنيا كلها .. أنت لا تريد أن تفعل شيئا قد
يكرهك الناس على فعله .. ولكنك في قلبك تستنكره وتنكره .. والله يعلم
ما تخفى الصدور .

إذن الحساب هنا على الإرادة الحرة .. التي لا يستطيع بشر ولا قوة في الأرض
أن تجبرك على شيء فيها .. ولكنها متروكة لك وحدك .. وهي لا تتغير
ولا تتبدل إذا كنت غنيا أو فقيرا .. مريضا أو صحيحا .. كبيرا أو صغيرا ..
قويا أو ضعيفا .

هذه المنطقة بالذات التي يتم على أساسها الحساب .. تركها الله سبحانه
وتعالى حرة لك .. هذه هي منطقة الأمانة التي حملتها .. ولماذا هي أمانة ..
لأن ما فيها بينك وبين الله وحده .. لا يستطيع إنسان أن يفتح صدرك ..
ليعرف حقيقة ما فيه .. فما في القلب هو سر بين الله والعبد .. وهو الأمانة التي
حملها الإنسان في الأرض .. فإن فعل إثما بإرادته الحرة .. وقلبه .. مصدقا
لعمله بلا إكراه .. استحق العقاب .. وإذا فعل خيرا وقلبه مصدق لعمله
بلا محاولة للتظاهر أو التفاخر .. أو الكبر .. أثيب .. وفي هذه المنطقة
وحدها .. منطقة القلب والأمانة .. يكون الشعور الإنساني حرا وحقيقيا ..
ويكون الجزاء من نوع العمل ..

إذن الله سبحانه وتعالى .. حينما أعطانا الاختيار .. حدد منطقة الاختيار في
أعمالنا .. ثم جاء إلى هذه المنطقة .. وهي منطقة الاختيار ليخرج منها عددا من
الأعمال ليس فيها تشريع .. وترك لك حرية الاختيار بلا ثواب ولا عقاب ..
ثم جاء لمنطقة الأمانة .. وجعل الثواب والعقاب فيها .. لماذا ؟ .

الانسان ... والامانة

لماذا جعل الله سبحانه وتعالى القلب منطقة الثواب والعقاب .. لأنه الجزء الوحيد الذى لا يسيطر على مشاعره أحد إلا أنت .. فما فى قلبك هو ملكك وحدك .. بإرادتك وحدك ولا يستطيع أى فرد أن يضع إجبارا فيه .. وبذلك يكون الحساب عدلا .. لا يدخل فيه ظلم أبدا .. ولماذا قال افعل ولا تفعل .. لأن منهج الايمان به .. والخالق هو الذى يحدد كيف يعبد خلقه .. ولأنه وضع فى هذا المنهج أشياء تمنع فساد الدنيا .. وتصلح الحياة .. كما سبق أن قلت .

والله سبحانه وتعالى حين يأمرنا ألا تمتد أيدينا لمال غيرنا .. إنما يحمى مالى كفرد من المجتمع كله .. ولكن إذا ترك الله سبحانه وتعالى الاعتداء على المال بلا عقاب .. فكأنه أباح للدنيا كلها أن تعتدى على مالى .. ولك أن تتصور ماذا يمكن أن يحدث فى هذه الحالة .

وإذا حمى الله سبحانه وتعالى عرض أحد .. فهذه الحماية ليست قيда على .. وإنما هى ميزة كبيرة لى .. ذلك أنه إذا أباح لى الاعتداء على عرض غيرى .. فكأنه أباح للمجتمع كله الاعتداء على عرضى .. ولك أن تتصور أيضا ما يمكن أن يحدث فى الدنيا إذا كان ذلك هو الشرع والقانون .. واننى أذكر أن رجلا جاء إلى رسول الله .. وقال له أريد أن أسلم .. ولكننى أحب النساء .. ولن أقطع عن ذلك فقال له رسول الله .. وهو المعلم لأمته .. أتحب أن يفعل أحد هذا فى أختك .. قال : لا .. قال : أتحب أن يفعل أحد هذا فى أمك .. قال : لا .. قال : أتحب أن يفعل أحد هذا فى زوجتك .. قال : لا .. قال : أتحب أن يفعل أحد هذا فى ابنتك .. قال : لا .. فرد الرسول الكريم كلنا كذلك يا أخا العرب .

وهكذا بين الرسول حكمة التشريع فى أنه قيد إنسانا من عدوان على عرض إنسان آخر .. فقد وفر الحماية لأمه وأخته .. وابنته .. وزوجته .. وأظن أننا لو فاضلنا بين الاثنين .. لأخذنا القيود التى وضعها الله سبحانه وتعالى .

الانسان ... والامانة

قيود ولكنها تحميك

وهكذا وضع الله قيودا ليحمي المجتمع .. ويوفر للإنسان المؤمن الحياة الطيبة الآمنة على الأرض .. فيعيش مطمئنا إلى أن أحدا لن يعتدى على ماله .. أو عرضه .. أو يعتدى عليه وعلى حياته وأسرته .. وأطفاله .. ولو فهم الناس هذه القيود لاحسوا بنعمة الله الكبرى عليهم .. بل إن الدول التي لا تتخذ الإيمان سبيلا .. اضطرت أن تفرض مثل هذه القيود .. وان كان العقاب مختلفا .. لتحمي المجتمع .. وليستطيع هذا المجتمع أن ينمو ويتقدم .. فإذا كان الإنسان يشكو من قيد قد وضعه الدين عليه .. أو على تصرفه .. فليتذكر الميزة التي أعطاها له هذا القيد ليعرف بعد ذلك أن الدين بأوامره ونواهيه ليس قيودا .. ولكنه حماية .. وليس عقابا .. ولكنه اصلاح وصلاح .. وهو أن قال لا تفعل .. فلأن لا تفعل هذا .. هي حماية للإنسان في المجتمع ..

مرة أخرى إلا أن يشاء الله

وأختم خواطري حول هذه السورة الكريمة بالحديث عن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۚ ﴿٢٢﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۗ
وَأَذْكُرُّ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۗ ﴾

سورة الكهف

هذه الآية يجب أن نتوقف عندها وقفة .. لماذا ؟ .. لأنى أنا أقول أنى سأفعل كذا غدا .. وأنت تقول إنك ستفعل ذلك غدا .. والوحيد القادر على الفعل هو الله سبحانه وتعالى .. إن شاء فعل .. وإن شاء لا يفعل .. ونحن عاجزون تماما عن أن نفعل أو لا نفعل .. إلا بمشيئة الله .. ولنوضح ذلك قليلا .
الذى يريد أن يفعل شيئا .. يجب أن يملك أولا القدرة على الفعل .. ويجب

الانسان ... والامانة

أن يملك ثانيا الوقت الذى سيتم فيه الفعل . . ويجب أن يملك ثالثا المكان الذى سيتم فيه الفعل . . بمعنى أننى إذا قلت سأذهب لمقابلة فلان غدا . . وهذا هو أبسط الأشياء فيما يقول الإنسان أنه سيفعله . . فإننى يجب أن أملك القدرة فى أن أكون موجودا غدا على قيد الحياة . . حتى تتم هذه المقابلة . . وأنا لا أملك هذه القدرة . . فالإنسان لا يملك القدرة على أن يهب نفسه الحياة لحظة واحدة . . وليس يوما كاملا . .

إذن قولى اننى سأقابل فلانا خاطيء . . لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون موجودا غدا على قيد الحياة أم لا . . الحياة رهن بمشيئة الله سبحانه وتعالى . . إن شاء أبقاها . . وإن شاء أخذها . . فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى عالم القدرة . . فأنا قد أكون موجودا غدا . . ولكنى لا أستطيع أن أذهب لمقابلة هذا الشخص . . قد أمرض فجأة . . أو قد يأتينى شيء مفاجيء عاجل . . أو قد يهبط على ضيف غير متوقع مثلا . . أو يحدث . . أى شيء آخر . . المهم أننى قد أكون على قيد الحياة . . ومع ذلك لا أستطيع أن أذهب لهذه المقابلة . . بسبب أشياء لا أملك القدرة على عدم حدوثها .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى النقطة التالية . . وكنت أنا على قيد الحياة . . وبصحة جيدة وانتفت جميع الظروف التى تمنعنى من أن أتم هذه المقابلة . . فهناك الطرف الآخر . . وهو الشخص الذى سأقابله . . وقد أذهب فلا أجده فى مكتبه لأى سبب . . يتعطل فى الطريق . . يمرض . . يأتية عمل مفاجيء . . يحدث له أى طارئ مفاجيء . . يمنعه من حضور المقابلة . . كأن تتعطل سيارته . . أو يصطدم بسيارة أخرى فيضطر للذهاب إلى الشرطة . . أو تحدث له أى مشكلة فى الطريق . . أو فى المنزل .

المهم فى هذا كله . . اننى لا أملك عنصرا واحدا من عناصر القدرة على العمل لأقول اننى سأفعل كذا . . ولكن من الذى يملك القدرة . . هو الله

الانسان ... والامانة

سبحانه وتعالى .. فهو الذى يقول كن فيكون .. حتى لا يموت .. باق لا يفنى .. لا يستطيع أحد أن يشغله عن شيء .. أو أن يمنع فعله أو قضاءه .. فإنه متى قضى شيئا فإنه يكون .. لماذا ؟ . لأنه ليست هناك قوة تستطيع أن توقف أو تمنع .. أو تؤجل .. أو تؤخر .. أو تقدم ما يريد الله سبحانه وتعالى .. ومن هنا فإن الفعال لما يريد هو الله سبحانه وحده .. أما نحن جميعا كلنا .. كل البشر فعالون لما يشاء الله .. فمادام العمل يدخل فى المشيئة فهو سيتم .. لأن الله وحده هو الفعال .

ومن هنا فإن قول الله سبحانه وتعالى :
« ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » .
يريد أن يلفتنا إلى حقيقة كونية هامة .. لأن الذى يتم هو مشيئة الله وإرادته .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :
« واذكر ربك إذا نسيت »

حتى تتذكر دائما أن الله هو الفعال .. والإنسان أصله من تراب .. ثم من نطفة .. وهو الخلق بعد آدم .. التراب أو النطفة لا تستطيع أن تفعل شيئا من هذا التراب الذى ندوس عليه كل يوم هو نفس الجسد الذى نمشى فوقه .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل الإنسان يفيق من الغرور ويذكره بخلقه .. وإذا كنت أنت من تراب وأنا من تراب .. فمن أين جاءتك القدرة الخارقة التى تجعلك تنسى الله وتعبد نفسك .

الله سبحانه وتعالى هو الذى وهبك هذه القدرة .. هو الذى خلق الكون لك .. وسخره من أجلك .. ولكن تعرف هذه الحقيقة يجب أن تعلم جيدا أن الله فعل هذا كله من حفنة من تراب .. فهؤلاء الذين تراهم أممك، يعبدون أنفسهم هم حفنة من تراب مستها قدرة الله سبحانه وتعالى .. ولكى تسجد لهذه القدرة تأمل قليلا فيما استطاعت أن تفعله من حفنة من تراب .. وكيف حولتها إلى إنسان يسود الكون كله .

الانسان ... والامانة

إن الله يريد أن يذكرنا بنعمه .. وأن تعلم أن الفضل منه .. وأن الذى أعطى يستطيع أن يأخذ .. وأن الذى منح يستطيع أن يمنع .. وهذه مسألة هامة جدا .. فى سلوكيات الحياة .. لماذا؟ .. لأن الإنسان حينما يغتر بقدرته يبطش ويظلم .. ويفتك بالضعفاء .. ويطغى فى الأرض .. أما إذا تذكر أن هذا كله من قدرة الله .. وأن الله سبحانه وتعالى الذى منح يستطيع أن يأخذ .. والذى أعطى يستطيع أن يوقف هذا العطاء .. فإن خشية الله تدخل فى قلبه .. فتجعله يراجع نفسه .. فلا يبغي ولا يظلم .. ويخشى الله فى كل عمل يعمل .. وفى هذا صلاح الكون كله .. ولكن بعض الناس لا يزال يجادل .. وينسى الإنسان إنه غيبى وساذج .. وهذا موضوع الفصل القادم .

حديث قدسى

قسمت الصلاة بينى وبين عبدى شطرين .. فنصفها لى .. ونصفها لعبدى . ولعبدى ما سأل ..
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اقرأوا .. يقول العبد : « الحمد لله رب العالمين » .. فيقول الله عز وجل : حمدنى عبدى .. يقول العبد : « الرحمن الرحيم » .. يقول الله : أثنى على عبدى .. يقول العبد : « مالك يوم الدين » .. يقول الله عز وجل : حمدنى عبدى .. ويقول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين . ويقول الله : هذه بينى وبين عبدى .. ولعبدى ما سأل .. ويقول العبد : « إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .. فهؤلاء لعبدى .. ولعبدى ما سأل .

الفصل الرابع

الله .. والزمن

الله .. والزمن

أمور الغيب دائما .. هي الباب الذي يدخل منه كل ملحد إلى النفوس الضعيفة .. لماذا؟ .. لأننا لا نرى الغيب .. ومادما لا نراه فهو كما قلت شيء إيماني .. إما أن تؤمن به .. أو لا تؤمن .. والإيمان هو بالغيب .. لأنك إذا رأيت شيئا فلا تقول إنك تؤمن به .. لأنك تراه عين اليقين .. وبذلك فأنت لا تؤمن .. لأن الإيمان ليس مطلوباً في الحسيات والمشاهدات .. ولكنه مطلوب في الغيبات .. فيما هو غيب عنا .. ولقد وضع الله سبحانه وتعالى الإيمان بالغيب أولى مراتب الإيمان .. فقال تعالى في سورة البقرة ..

﴿الْمَرْءُ لِرَبِّهِ لَكَنَّا لَكِنَّا لَأَرَبٍ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

سورة البقرة

وهكذا وضع الله سبحانه وتعالى .. أول شروط التقوى : الإيمان بالغيب .. باعتباره قضية هامة جدا .. تحكم السلوك الإنساني .. فأنت مادمت تؤمن بالغيب .. وباليوم الآخر وبالحساب .. فإنك تحشى الله سبحانه وتعالى .. في كل عمل تعمله .. فإذا مدت يدك لتسرق .. تتذكر أنك ملاقى الله .. وأنه سيحاسبك على ذلك .. فتراجع عن هذه السرقة .. وإذا أردت أن ترتكب ما حرم الله .. وتذكرت الآخرة والحساب .. خشيت الله وتراجعت ..

إذن أساس السلوك البشرى في الدنيا .. هو الإيمان بالغيب .. والإيمان بالغيب .. يدخل فيه أساسا الإيمان باليوم الآخر .. فإذا لم يكن إيمانك بكل هذا .. إيمان يقين .. بمعنى أن ذلك يحدث .. وكأنك تراه أمامك .. يقينا لا يدخل إليه الشك أبدا وإلا في هذه الحالة تكون قد اهتزت ويستطيع من هنا الملحد .. أو غير المؤمن .. أن يدخل إليك ليضع الشك في نفسك .. ويحاول أن يوهمك أن كل حديث عن الغيب .. هو غير صحيح .. أو غير واقع .. ومادام غير واقع .. فإن السلوك الإيماني كله يتغير .

الله .. والزمن

والإيمان بالغيب والآخرة .. هو أساس الإيمان كله .. فإمام ليس هناك حساب فممن نخشى؟ .. وممن نخاف؟ .. ولماذا ترتدع .. من الذى يرفع يدك عن ضعيف تغتصب حقه .. إلا إيمانك بالآخرة والحساب .. من الذى يوقفك عن أن تأكل أموال الناس بالباطل؟ .. أو أن تظلم وتبغى فى الأرض .. وتغرك قوتك .. فتفعل ما تشاء .. وتبغى على حقوق الناس كما تريد .. ان الوازع الذى يقول لك قف مكانك هو الإيمان بالآخرة .. لأنك فى هذه الحالة .. ستحس بأن كل عمل تعمله مكتوب عليك .. وإنك إذا كنت قويا جبارا فى الأرض .. أو فى هذه الحياة الدنيا .. فإنك ستلقى الله وإنك ضعيف ذليل فى الآخرة .. لا ناصر لك ولا معين .. وستقف أمامه خاشعا ليسألك عما فعلت .. يسألك عما جنته يداك .

إذن لولا الإيمان بالآخرة .. لتحولت الدنيا كلها إلى مجموعة من الوحوش .. يقتل القوى الضعيف .. ويعتدى القادر على غير القادر .. ويضيع الحق .. وتباح الحرمات .. ولكن أخشى ما يخشاه المؤمن هو حساب الله له فى الآخرة .. لماذا؟ .. لأنه يؤمن أنه ملاقى الله سبحانه وتعالى .. وأن حساب الآخرة سيكون بقدرات الله سبحانه وتعالى ..

قضية اليوم الآخر

بل أن أخشى ما يخشاه الكافر هو الحساب فى الآخرة .. قد يبدو هذا الكلام عجيبا .. كيف لإنسان لا يؤمن بالآخرة ومع ذلك يخشاه .. حقيقة الكافر لا يؤمن بالآخرة .. ولكن فى داخله شيء يؤرقه .. والموت الذى يراه كل يوم على حياة غيره .. يملاً حياته هو بالرعب .. والفرع .. وينغص عليه عيشه .. انه يعرف يقينا إنه سيخرج يوما ما من هذه الحياة .. فهو يرى ذلك كل يوم فى حياة ألوف غيره .. بل يراه فى حياة أقرب الناس إليه .. وهم أسرته وأقاربه .. ولذلك فهو لا يستطيع أن يزيح هذه الحقيقة من عقله .. ويلح عليه السؤال ..

الله .. والزمن

إلى أين؟ .. إلى أين؟ .. فيحاول أن يأتي بالدليل تلو الدليل .. ولو زيفا ..
ولو تضليلا .. ولو اضلالا .. محاولا أن يقنع نفسه أنه لا شيء بعد الموت ..
وأنه لا آخرة ولا حساب .. عله يهون على هذه النفس .. التي ترى العذاب في
داخله .. يهون عليه ارتكاب المعاصي .. ولكنه ومهما فعل .. يظل في قلق
وخوف .. ويؤرقه الغد .. ويزعجه المستقبل .. ويحس أن حياته بكل ما فيها
من مظاهر الدنيا هي لا شيء .. ومهما حاول أن يقنع نفسه .. فإنه يعيش في
فراغ قاتل .

إن قضية اليوم الآخر .. أى يوم الدين .. هى قضية الإيمان .. الإيمان إنك
ستلقى الله سبحانه وتعالى .. وسيحاسبك .. فلتحاسب نفسك أولا ..
والمؤمن إذا جاء أجله .. كانت نفسه مطمئنة .. لأنه كان على يقين أنه سيلقى
الله .. فراعى الله فيما يعمل .. أما غير المؤمن .. إذا سمع حديثا عن
الموت .. انزعجت نفسه .. وملاً قلبه الخوف .. لماذا؟ .. لأنه يعلم داخل
نفسه أنه سيلقى الله .. ولكنه يحاول بأدلة كاذبة .. أن يستر هذه الحقيقة ..
التي سيكشفها الموت .. مصداقا لقوله تعالى :

« فبصرك اليوم حديد »

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) ..
والحديث في ظاهره لا ينطبق على المنطق الدنيوى .. فالمفروض أنني وأنا أعيش
في الدنيا متيقظ متنبه .. فإذا جاء الموت .. جاء كما يقولون النوم الأبدى ..
ولكن الحقيقة غير ذلك .. فالناس في هذه الدنيا نيام .. وماذا يحدث للنائم ..
أنه لا يرى ما حوله .. ولا يتنبه لحقيقة ما يجرى .. وكذلك نحن في الدنيا ..
لا نرى ما حولنا .. لأن الروح موجودة داخل الجسد .. يجد من رؤيتها ذلك
الطين الذى خلق منه الإنسان .. ولذلك فهى لا ترى الملائكة .. ولا ترى
الجان .. ولا ترى كثيرا مما يحدث في الدنيا .. مما لورأته لأحست بأن حقائق
الكون مستورة عنها .. ولعلمت يقينا بالغيب .. وما يحدثنا الله به عن أشياء

الله .. والزمن

لا نسمعها ولا نراها .. مثل عالم الجن .. وعالم الملائكة .. ولكن عندما تخرج الروح من الجسد .. ترى الروح .. وهى لذلك ترى ما كان محجوبا عنها .. وتتنبه .. وتستيقظ .. وتفيق مما صور لها .. من أن الدنيا هى كل شيء .. وأن الحصول على كل شيء ولو بالباطل هو قانون الحياة .. عندما تخرج الروح من الجسد .. تعلم ما هى قوانين الحياة .. وما هى قوانين ما بعد الحياة .. وترى أشياء كثيرة لا تراها ولم تكن تصدقها فى الحياة الدنيا .

إذن فالناس وهم متيقظون متبهون وهم فى الحياة الدنيا .. انما هم فى الحقيقة نيام .. مستورة عنهم غيبات كثيرة .. تقال لهم ولكن لا يرونها .. فإذا ماتوا انتبهوا .. وعرفوا كل شيء .. مصداقا لقول الله :

« فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »

ولولا أن الله سبحانه وتعالى هو مالك يوم الدين .. ما استطاع إنسان مستقيم أن يتحرك فى الحياة .. لماذا ؟ لأن حركتك فى الحياة إذا كنت مستقيما على المنهج سينتفع بها غيرك ممن لا يتبعون المنهج .. أنت لا تمد يدك إلى مال أحد .. ولكن هم سيمدون أيديهم إلى مالك .. أنت لا تؤذى أحدا .. ولكن هم سيؤذونك فى رزقك وأهلك كل ما يستطيعون به النيل منك .. أنت تعفو عن المسيء .. وهم سيستغلون هذا العفو معتبرين انه ضعف .. ومادمت رجلا طيبا فلا يخشى منك .. وهكذا يستهينون بك .. فإذا لم تعلم يقينا أن كل هذا له حساب .. أنك ستجازى على اتباعك للمنهج .. وأن الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا .. وانه سيمدك بنصره مادمت مؤمنا .. إذا لم يكن كل هذا صحيحا .. لكانت الدنيا للكافر وحده .. ولكننا قد تركناها لغير المؤمن .. يفعل ما يشاء ودون حساب .. ولكن الحساب من الله يأتي فى الدنيا والآخرة .. ولذلك فالله سبحانه وتعالى بالمرصاد لكل كافر .. يحبط أعماله فى الدنيا .. ويوفيه أجره فى الآخرة .

وهكذا يكون الإيمان بيوم الدين .. إيمانا بأن المؤمن لا يشقى .. لأن غيره

الله .. والزمن

عصى الله .. وخالف الله .. إيماناً بأن المؤمن لا يذل .. لأنه يعفو ويصفح ولا يؤذى أحداً .. فيأتى الله سبحانه وتعالى ليقول له: اطمئن اطمئنا كاملاً .. واتبع أنت المنهج .. واتركهم يفعلون ما يريدون .. أو أدعهم بالحكمة والموعظة الحسنة .. وتأكد أن الله سبحانه وتعالى قادر عليهم .. وأن يد الله هي العليا .. والله لا يريد هؤلاء أن يأتوا إليه مكرهين .. وإلا لخلقهم هكذا .. أو لأنزل آية من السماء ظلت أعناقهم لها خاضعين .. انه سبحانه وتعالى لا يريدهم أن يأتوه قهراً .. أو قسراً .. أو تحت تهديد سيف .. أو خوفاً من ضربهم بالسياط .. كل هذا لا يريد الله سبحانه وتعالى .. لماذا ؟ لأن قدرة الله في إخضاعهم إيمانياً أقوى من قدراتنا نحن .. ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم يأتون إليه وهم مكرهون لاستطاع .. ذلك على الله هين .. ولكن الله يريد من البشر .. أن يأتوا إليه طائعين مختارين .. أن يأتوا يقولون يارب اعطنا القدرة على أن نطيع .. وأن نعصى .. وزين لنا الشيطان المعاصي .. وبهرتنا الدنيا ببريقها ومغرياتها .. ولكننا تركنا كل ذلك من أجلك .. وجئنا إليك يارب طائعين مختارين .. لنعلن أننا نحبك .. وأن حبك في قلوبنا .. ورضاك في نفوسنا .. قد فاق كل شيء .. فلم يعد في الدنيا ما يجذب قلوبنا إلا الحب لك .. ولم يعد في الدنيا شيء يغرينا إلا رضاك .. ولذلك فكل عمل فيه حب لك نحن نحبه مهما طغى على نفوسنا .. وكل عمل فيه رضاك نحن نقدم عليه مهما كان من مشقة .. لأننا يارب نعلم أن الخير هو ما اخترت .. ونعلم أننا سنلاقيك ونحسب حساب هذا اليوم .

هذا هو منهج الإنسان المؤمن .. ومنهج العبادة التي يريد الله سبحانه وتعالى .. الله لا يريد منا أن نأتى إليه مكرهين .. ولكن يريد أن نأتى إليه باختيارنا .. ولهذا خلقنا مميزين بالعقل وحرية الاختيار .. ولو أن الله سبحانه وتعالى .. كان يريد أن يقهرنا على عبادته .. لخلقنا لا اختيار لنا .. كالملائكة وباقى خلقه الذين هم ليسوا مختارين فيما يفعلون .

الله .. والزمن

مالك يوم الدين

وإذا قرأت :

« مالك يوم الدين »

في المصحف تجدها مكتوبة بقراءتين :

« مالك يوم الدين » .. « وملك يوم الدين »

فإذا قرأتها بأى القراءتين فهي صحيحة. فإذا قرأتها مالك .. فمالك الشيء هو المتصرف فيه وحده .. ليس هناك دخل لأى فرد آخر فيه .. أنا أملك عباءتى وأملك متاعى ، وأملك منزلى ، وأنا المتصرف فى هذا كله وحدى .. والملك الذى يحكم على الجميع .. كلمته هى العليا وليس فوقها كلمة .. يأمر فيطاع .. ويقول فينفذ قوله .. فإذا قلت :

« مالك »

فمعنى ذلك أن أحدا لا يتصرف فى ملكه غيره .. والله وحده هو المتصرف فى كل الأمور .. وفى يوم الدين .. هو الذى يملك التصرف بلا منازع .. ولا يستطيع أحد غيره أن يتدخل أو يكون له الأمر ولو ظاهرا .. ففى الدنيا يعطى الله الملك ظاهرا لبعض الناس .. ويولى بعض الناس ظاهرا أمر بعض .. ولكن فى الآخرة ليس هناك ظاهر .. فالأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى .. فهو المالك وحده ظاهرا وباطنا .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فى وصف يوم الدين :

« يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله »

وإذا قرأنا :

« ملك يوم الدين »

فمعناها المتصرف وحده فى أمور هذا اليوم مصداقا لقوله تعالى :

« لمن الملك اليوم لله الواحد القهار »

الله .. والزمن

فكان الله سبحانه وتعالى .. خلق الأسباب في الدنيا لتمضي الحياة .. ولكنه في الآخرة .. لا توجد أسباب .. وإنما قضاء الله سبحانه وتعالى مباشر .. والملك في ظاهر الدنيا عند الناس ولكن الحقيقة أن الملك لله وحده، فإذا أراد الإنسان أن يتعامل في تفسيره مع ظاهر الحياة .. قال ان ملك يوم الدين هي الأبلغ .. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى جعل كلامنا يملك ظاهرا في الحياة الدنيا .. فهذا يملك .. وهذا يملك .. وهذا يملك في دنيا الأسباب .. ولكن في الآخرة .. لا أحد يملك ظاهرا ولا باطنا .. لا مالك ولا ملك إلا الله سبحانه وتعالى .

ولكن بعض الناس قد يتساءل : هل الأمر في الآخرة لله وحده سبحانه وتعالى .. أم الأمر في كل وقت لله ؟ نقول أن الأمر في كل وقت لله .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد مكن بعض خلقه .. أو بعض الناس في الأرض .. فجعل لهم ملكا ظاهريا .. أى ظاهرا للناس لا يخفى عليهم .. ولهذا حكمة هي حكمة الحياة نفسها .. والله سبحانه وتعالى لو لم يجعل الظاهر في الأرض .. ولو لم يجعل الأسباب .. لما وجدت الآخرة ولانتفت الحكمة من خلق الدنيا .. لماذا ؟ لأن الدنيا هي دار اختبار الإيمان .. أى أن الله سبحانه وتعالى يمتحن فيها عباده .. وهو لا يمتحن هؤلاء لأنه لا يعلم المصلح منهم من المفسد .. ولكنه يمتحنهم ليكون كل منهم شهيدا على نفسه .. وحين يأتي يوم القيامة يجيء واحد من هؤلاء .. ويقول ياربى لقد كنت سأتبع طريقك السوى ولكنك لم تمتحنى . ولكيلا يجادل إنسان .. ويكون كل شخص شهيدا على نفسه خلق الله الأسباب في الدنيا .. وخلق هذا الملك الظاهرى .

وقبل أن نشرح ما معنى الملك ظاهرا للناس .. نود أن نبين الحكمة من اختبار النفس البشرية .. فبعض الناس يتساءل إذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء .. وليس لعلمه حدود ولا قيود .. فلماذا يمتحننا في هذه الحياة الدنيا وهل هو محتاج إلى ذلك ؟ . والجواب طبعا لا .. فالله سبحانه وتعالى كما

الله .. والزمن

قلت .. علمه أزلى .. ويعرف كل نفس منذ خلقها .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نكون شهداء على أنفسنا .

ولنضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان .. والله المثل الأعلى .. تأتى الجامعات فى كل أنحاء الدنيا وتقيم امتحانات لطلابها .. هل الجامعة تجهل العلم .. فتريد أن يعلمها الطلاب ما لم تعلم .. طبعا هذا غير صحيح .. ولكنها تريد أن يكون كل طالب شهيدا على نفسه .. فإذا قال أحدهم انى أعرف كل ما تعلمته .. أو كل ما قررته على الجامعة .. فإنه فى هذه الحالة يرى اجاباته .. فإذا هو لا يعلم شيئا فيكون شهيدا على نفسه .. ولا يستطيع أن يجادل .. ولكن ماذا يحدث لو أننا ألغينا هذا الامتحان .. كل طالب سيدعى انه يستحق مرتبة الشرف .. حتى ذلك الذى لم يقرأ صفحة واحدة .. وتكون النتيجة اختفاء المقاييس .. والله سبحانه وتعالى أرسل منهجه للبشر .. وقال افعل .. ولا تفعل .. وحتى يكون كل إنسان شهيدا على نفسه .. كانت الحياة الدنيا .. وكانت حرية الاختيار لنصل بذلك إلى الحياة الآخرة .. دار الخلود .. حيث ينعم من أطاع الله .. ويحاسب من لم يطعه .

فلو ان الله سبحانه وتعالى .. لم يجعل الملك ظاهرا فى الأرض للبشر .. لما كانت هناك معصية .. لأنه مادام الأمر مباشرا من الله .. وبلا أسباب كما سيحدث فى الآخرة .. فما الذى يغرى الإنسان .. وفيه يكون له اختيار فى المعصية أو الطاعة ؟ وكل شىء مباشر من الله سبحانه وتعالى بلا أسباب .. اذن لا بد من وجود الأسباب .. وأن يكون الملك ظاهرا بين يدى بعض الناس .. ويحدث اغراء للآخرين .. فى أن هناك من يضر وينفع من البشر أخذا بالظاهر .. ويأتى ذلك البشر الذى مكنه الله فى الأرض .. ويطلب من الناس أن يفسدوا فيها .. وأن يعصوا الله .. ويفسد هو فيتبعوه .. رغم أن الله سبحانه وتعالى .. قد بين لهم فى كتابه المنهج .. ولكنهم يتركون المنهج ويتجهون إلى الظاهر .. يزين لهم الشيطان ما يرتكبونه من معصية .. على أساس أن

الله .. والزمن

ظاهر الحياة الدنيا هو الحقيقة .. وأن الخير في الدنيا في المال الحرام .. وأخذ حق الضعيف .. وأن تملك كل ما تستطيع .. وأن المال حلالا أو حراما .. هو الأمان .. وبين الحقيقة التي يقدمها لنا الله سبحانه وتعالى في منهجه .. والزيف الذي يحاول بعض الناس ايهامنا به .. عن طريق ظاهر الحياة الدنيا يكون الامتحان .. ليصبح كل إنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة .. ويحضر مع كل نفس عملها .

ظاهر الأسباب

فكأن ظاهر الأسباب في الدنيا .. هو من أساس حكمة الحياة .. أن يكون ظاهرا أمامك .. ان هذا يعطى .. وهذا يمنع .. وهذا يستطيع أن يعطيك المال والخير .. وهذا يستطيع أن يمنع عنك الرزق .. وأنت إما أن تندفع لإرضاء بشر على حساب الله سبحانه وتعالى .. فتكون بذلك قد عصيت .. وإما إن تلتزم بمنهج الله ولا تخشى أحدا .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى ..

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ۗ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

سورة آل عمران

إذا خشيت الشيطان وكل ما يخوفك به في الدنيا من فقدان للمركز .. أو للجاه .. أو للمال .. أو لأي شيء آخر .. فأنت في هذه الحالة تبتعد عن منهج الله .. وتعصيه لإرضاء بشر .. وفي هذه الحالة تكون شهيدا على نفسك .. وإذا التزمت بطاعة الله ولم تخش غيره تكون أيضا شهيدا على نفسك .. ثم لا يحدث غير ما أمر به الله .

إذن ظاهرية الملك لازمة في الحياة الدنيا .. غير لازمة في الآخرة .. ولذلك

الله .. والزمن

فإن هذا الظاهر يخفى في الآخرة .. وتخفى معه الأسباب .. ويكون كل شيء مباشرا من الله سبحانه وتعالى لعبيده .. لماذا؟ لأن الآخرة هي دار خلود .. وليست مرحلة اختبار للحساب .

وهكذا نرى أن وجود ظاهر الملك في الدنيا لأحد غير الله سبحانه وتعالى .. هو أمر تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا .. من انها امتحان يمر به الإنسان .. ليوصله إلى الجنة .. أو إلى النار .. أما في الآخرة .. فظاهر الملك يخفى .. كما تخفى الأسباب .. ولذلك فإن الأمر في يد الله وحده .. في الدنيا والآخرة .. ولكن الظاهر أن تبلى في الدنيا بملك ظالم .. أو يحاكم يأخذ ما أتاه الله من أسباب للظلم والطغيان .. فيأكل أموال الناس .. ويتخذ نفسه لها .. ذلك ظاهر الحياة الدنيا .. أما في الآخرة .. فإنك تخرج تماما عن أى طغيان بشرى مما تواجهه .. وتخرج تماما عن حكم الذين لا يأترون بمنهج الله ولا يتبعون ما أنزله .. فيخفى الطغيان البشرى .. ويخفى الظلم البشرى .. فلا مالك .. ولا ملك .. بأى معنى إلا الله سبحانه وتعالى .

والله سبحانه وتعالى يستخدم كلمة يوم .. في وصف يوم الدين .. كما يستخدمها سبحانه وتعالى في آيات أخرى كقوله :
« وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » .. « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ..

هنا يأتي بعض الناس ليجادل في هذا ويقول: كيف يكون اليوم عند الله سبحانه وتعالى مرة بألف سنة .. ومرة بخمسين ألف سنة .. وأى مقياس هو لليوم عند الله .. ويزعم في ذلك أن هناك تضاربا في القرآن الكريم فهو يحسب اليوم مرة بألف سنة .. ومرة أخرى بخمسين ألف سنة .

ونحن نقول لهؤلاء .. إن الله سبحانه وتعالى عندما يستعمل كلمة يوم .. فإنه يخاطب البشر .. فالقرآن إنما نزل للناس .. ومادام قد نزل لهم .. فلا بد

الله .. والزمن

أن يخاطبهم بلغة يفهمونها .. وإلا استحال عليهم فهمه .. وبالتالي كانت الهداية إلى منهج الله مستحيلة .. نحن الذين نعرف اليوم .. فالיום هو فترة من الزمن .. تبدأ من شروق الشمس إلى شروق الشمس .. أو من شروق الشمس إلى غروب الشمس .. فبعض الناس يطلق على النهار كلمة يوم .. والبعض الآخر يطلق على النهار والليل كلمة يوم .. وفي كلتا الحالتين هو وصف لفترة من الزمن .. تحدها علامة معينة .. مثل شروق الشمس .. أو شروق الشمس وغروبها .. فالقرآن يخاطبنا على قدر عقولنا .

ولكن هل معنى يوم الدين أنه يوم من شروق الشمس إلى شروق الشمس .. أو يوم فيه ليل ونهار .. أو يوم يحده زمن معين .. تتحكم فيه ظواهر خارجة عن الإرادة كشروق الشمس .. وغروب الشمس .. ودوران الأرض حول نفسها .

إن الزمن لا يوجد إلا في حياة البشر .. فكل حدث بالنسبة للبشر له زمن محدود .. أو ظرف زمان .. وله مكان محدود يقع فيه .. أو ظرف مكان .. وذلك حتى يستطيع العقل البشرى أن يستوعبه .. ولا يوجد فعل في العرف البشرى يمكن ألا يقع في زمن محدد .. أو مكان محدد .. ولا نستطيع نحن أن نستوعب مثل هذا الفعل إلا بالزمان والمكان .. فالعمر يحسب بالزمن .. والأحداث تؤرخ بأزمانها وأماكنها .. وكل إنسان منا له تاريخ ميلاد .. ومكان ميلاده .. وله تاريخ وفاته .. ومكان وفاته .. وبغير ذلك لا تفهم الأمور .. فنحن عاجزون عن فهم الأمور على إطلاقها .. بل لابد أن يحدها الزمان والمكان .. تلك قوانين الله في الأرض .

ولكن الله سبحانه وتعالى .. لا يحده مكان ولا زمان .. إذن فكيف يستخدم الله سبحانه وتعالى كلمة يوم التي يحدها مكان وزمان .. وهو لا يحده مكان ولا زمان .

الله والزمن

معنى الزمن

ولكننا إذا أردنا أن نفهم معنى الزمن في حديث الله سبحانه وتعالى . . فإننا يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى . . هو الذى يخلق الزمان والمكان . . أى أنه مالك الاثنين معا . . والمخلوق لا يكون قيذا على ارادة الخالق . . أو يحدد هذه الارادة .:

يوم الدين موجود فى علم الله سبحانه وتعالى . . بأحداثه كلها . . بجنته وناره . . وكل الخلق سيحاسبون فيه . . وعندما يريد الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون . . أو يخرج من علمه سبحانه وتعالى إلى علم غيره . . سواء من الملائكة . . أو البشر . . أو من غيرهما من خلق الله . . نقول أن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يخرج شيئا من علمه إلى علم غيره . . سواء من الملائكة أو البشر ، أو من غيرهما من خلق الله . . نقول: إن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يخرج شيئا من علمه إلى علم خلقه على إطلاقهم . . فإنه يقول كلمة : « كن » .

فيخرج الشيء من علم الله الأزلى إلى علم غير الله المحدود . . أى أن الله سبحانه وتعالى . . لا يحده يوم ولا زمان ولا مكان ، ولكنه جل جلاله إذا قال هذا يوم الدين . . كان ذلك هو يوم الدين . . فإذا أراد الله سبحانه وتعالى فى هذه اللحظة وقع فى هذه اللحظة . . وإذا أراد جل جلاله بعد ألف عام . . وقع بعد ألف عام . . وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره بعد مليون سنة . . حدث بعد مليون سنة . . فما يريد الله سبحانه ليوم الدين هو موجود فى علمه . . بكل مواصفاته من وزمان ومكان . . وحشر . . وطريقة بعث . . وطريقة حساب . . وجنة . . ونار . . كل هذا موجود فى علم الله . . والله سبحانه وتعالى يملك أن يكون يوم الدين هو هذه اللحظة أو هو بعد ألف سنة . . أو بعد ملايين السنين .

الله .. والزمن

والإنسان لا يملك الزمن .. ولكن الزمن هو الذى يملكه .. فأنت لا تستطيع أن تأتى بالماضى .. لتغير شيئاً قد حدث فيه .. فما حدث قد انتهى وخرج عن قدرتك تماماً .. ولذلك إذا كنت قد ارتكبت جريمة قتل مثلاً .. فأنت لا تستطيع أن تعيد الزمن إلى الوراء .. حتى تعود الحياة إلى الشخص الذى قتلته .. وإذا أذيت إنساناً مثلاً فأنت لا تستطيع أن تعيد الزمن .. حتى تزيل الضرر الذى أصابه فيما آذيته به .. وكما أنك لا تملك القدرة على الماضى .. فإنك لا تملك القدرة على المستقبل .. فأنت لا تستطيع أن تعرف ما هو قادم من شر حتى تتقيه .. ولا من خير حتى تستزيد منه .. ولكنك تملك فقط اللحظة التى تعيش فيها .. فاللحظة التى سبقت هى ماض لا يملكه إلا الله .. واللحظة القادمة هى مستقبل لا يملكه إلا الله .. وأنت لا تستطيع أن تتحكم فى الزمن فتوقفه .. فلا تستطيع مثلاً أن توقف دوران الأرض .. حتى لا يكون ليل ولا نهار .. ولا تستطيع أن تتحكم فى الزمن لتبقى طفلاً لا ينمو .. أو شاباً لا يصيبه الهرم .. أو إنساناً يتخطاه الموت .. كل هذا خارج عن إرادتك البشرية تماماً .. وسواء أردت أو لم ترد .. فالزمن يمضى .. وأنت تأتى إلى الدنيا فترة محدودة وترحل .. وما تفعله لا تستطيع أن تعيد الزمن لتصحيحه .

ولذلك إذا قلنا يوماً بمنطق البشر .. فهذا قانون دنيوى .. لا تسيطر عليه أنت .. حقبة من الزمن تمر .. سواء أردت أو لم ترد .. بأحداثها التى لا تستطيع أن تتنبأ بما هو قادم منها .. ولا أن توقف أو تعيد ما تم منها .. هذا هو المنطق البشرى .. ولكن الله سبحانه وتعالى بقدراته هو يملك كل شيء .. فيوم الدين موجود عنده فى علمه .. وهو يستطيع أن يظهره لنا فى الوقت الذى يريده .. فأنت إذا قست كلمة يوم الدين بمقاييس البشر .. فأنت مخطيء .. لأن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى .

وإذا قال به عن العلماء .. إن مالك يوم الدين معناها مالك أمور هذا اليوم .. نقول لهم : متى كان الله سبحانه وتعالى غير مالك لكل أمر .. لقد

الله .. والزمن

كان دائما هو المالك .. ولكنه استخلفنا في مال أو حكم أو سلطان .. بأذنه .. وبأمره .. متى شاء .. وكيف شاء .. دون تقييد بأى أمر من الأمور .. ولذلك .. عندما يحث الله سبحانه وتعالى على الانفاق لإعانة الفقير والمسكين .. لا يقول: انفقوا مما لديكم .. أو مما كسبتموه .. وإنما يقول سبحانه وتعالى: « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطانا هذه الخلافة .. وفوض الأمر إلينا فيما أعطى من مال .. أو جاه .. أو سلطان .. ليرى ماذا نفعل .. وهل نفق فيما أمرنا الله .. أم نفق فى الافساد فى الأرض .. ونكون بذلك شهداء على أنفسنا يوم القيامة .

والله سبحانه وتعالى من قدرته .. انه يستطيع أن ينزع ما أعطاه للبشر فى أى وقت يشاء .. وهذه من طلاقة القدرة .. فالإنسان إذا أعطى الإنسان مالا مثلا .. فإنه قد لا يستطيع أن يسترده منه .. وإذا أولاه ولاية مثلا - قد لا يستطيع أن ينزعه منها .. ذلك أن الوالى يمكن أن يجرد جيشه أو يسلحه .. ويعلن استقلاله عن ولاة الحكم .. وكذلك فى كثير من أمور الدنيا .. فإذا أطعمت إنسان طعاما مثلا فإنك لا تستطيع أن تسترده .. ولكن الله سبحانه وتعالى .. يستطيع أن يأخذ من كل إنسان أيا من نعمه التى استخلفه فيها .. ويستطيع كذلك فى لا زمن تقريبا .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أعطى إنسانا الصحة .. فهو قادر على أن يزيلها عنه فى لحظات .. وإذا كان الله قد أعطى إنسانا مالا .. فهو قادر على أن يذهب عنه . وإذا أعطاه حكما .. أو عزة .. أو جاها فهو يستطيع أن يسلبه اياها تماما .. ذلك هو الله .. وتلك قدراته .. ولذلك لا يجب ألا نتعجب من إنسان ضاع ملكه فى أيام .. أو فقد ماله فى ساعات .. أو ابتلى بمرض بين يوم وليلة لا يستطيع أن يجد له شفاء ..

الله .. والزمن

تلك هي من قدرات الله سبحانه وتعالى .. ولذلك حين نقول :
« مالك يوم الدين » .

فإن الله سبحانه وتعالى .. يملك الأمر في الدنيا والآخرة .. الأمر بيده دائما .. وهو الذى يضع ويحدد .. وفي الآخرة تزول كل الأسباب .. ويزول معها كل قانون دنيوى .. وتصبح القدرة والقوة لله سبحانه وتعالى مباشرة بلا أسباب .. بما أنه مالك الأمر كله بلا أسباب .. فهو سبحانه وتعالى يحدد وبلا أسباب .. شكل هذا اليوم وكل مواصفاته .. فلا نستطيع نحن أن نقول أن هذا اليوم سيكون ٢٤ ساعة .. أو سيخضع لأى مقياس من مقاييس البشر .

بعض العلماء يقول .. ان الناس قبل اليوم الآخر .. ستشملهم غيبوية الموت .. وأن الآخرة ستكون استيقاظا لهم .. لأنهم فى الآخرة سيتعرضون لأهوال .. ويرون أشياء .. ومن هنا ستكون الآخرة نهارا .. لأن الرؤية وقتها أو محلها النهار .. ونحن نقول لهم أن هذا فيه تجاوز .. لماذا؟ .. لأنهم كما يخطئ الكثيرون منا .. يأتون بمقاييس الدنيا .. ويطبقونها على يوم ليس من أيام الدنيا .. والله سبحانه وتعالى أعطانا علامات الآخرة . ومن هذه العلامات كما قدمنا فى سورة التكوير .. وشرحنا باستفاضة اختلاف المألوف .. أى أن كل شئ فى هذه الدنيا .. قد ألفتة النفس كالليل .. والنهار .. والبحار .. والجبال .. والنجوم .. والشمس .. والقمر .. كل ما ألفتناه فى هذه الدنيا ينتهى .. مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ

سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝

سورة التكوير

الله .. والزمن

ولهذا فإن كل المقاييس الدنيوية ستزول .. ولا يصح لنا أن نستخدم مقياسا دنيويا من المؤلف .. في وصف يوم الدين ..
كأن نقول ان كلمة يوم .. معناه أنه سيكون نهارا .. إلى آخر ما يقال ..
لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا .. أنه في هذا اليوم .. سيزول كل شيء ألفه الإنسان .. فلا يأتي أى منا ليقول : إن هذا اليوم ٢٤ ساعة .. أو أنه نهار .. إلى آخر هذا .. لا بد كل شيء يتم بمقاييس الله سبحانه وتعالى .. يضعها هو ونحن لا ندرى عنها شيئا .. إلا عندما يريد الله سبحانه وتعالى أن يظهرها لنا ..

وهكذا نرى أن الزمن عند الله مختلف .. لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يخلق الزمن ويحدده .. ولذلك فعندما يتساءل بعض الناس .. عن معنى الآية الكريمة :

« كل يوم هو في شأن » .

وهل اليوم هنا يحسب بالساعات .. أى كل ٢٤ ساعة .. أو اليوم معناه النهار .. فنحن نقول أن الله سبحانه وتعالى شأنه لا ينتهى أبدا .. فإذا كان معنى اليوم .. هو النهار والليل .. فالله سبحانه وتعالى .. شأنه ليلا ونهارا. وإذا كان معنى اليوم هو النهار فقط .. والأرض كرة نصفها ليل ونصفها نهار .. ولذلك فإن النهار موجود دائما على الأرض .. وهذا معناه أن شأنه لا ينتهى أبدا .. وإذا أردنا الدقة .. وتتبعنا دوران الأرض حول نفسها .. وحول الأرض .. وخطوط الطول التى رسمها الإنسان على سطح الأرض .. لوجدنا أنه فى كل جزء من الثانية .. يبدأ فيه نهار فى مكان .. وينتهى ليل فى مكان .. والله سبحانه وتعالى حين يقول :

« كل يوم هو فى شأن » ..

فهو فى شأن لا ينتهى أبدا .. لأن حركة الليل والنهار .. مستمرة على الأرض .. لا تنتهى أبدا .. ولذلك فالله سبحانه وتعالى فى شأن دائما ..

الله .. والزمن

على أن القوة البشرية .. تتوه في قدرة الله سبحانه وتعالى .. فهي في قضايا الغيب قاصرة .. لا تستطيع أن تفهم .. والله سبحانه وتعالى .. يعلم أن علم البشر محدود .. وهو الذى أعطى هذا العلم للبشر .. لذلك يأتي الله سبحانه وتعالى في قضية الزمن .. ورحمة بعقول البشر .. ليعطى مثلا يقرب المعنى إلى الأذهان .. فيقول جل جلاله :

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

سورة الحج

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

سورة المعارج

.. والله هو الذى ييسر لنا الأمور .. يخاطبنا على قدر عقولنا .. وعندما يقول الله :

«يوم» ..

فمعنى ذلك أنه يوم بمقدار حسابنا البشرى .. كما سبق أن قدمنا .. والاختلاف هنا الذى وضعه الله سبحانه وتعالى في حقبة الزمن .. بين شروق شمس وغروب شمس .. أو شروق شمس وغروب شمس هو اختلاف مقصود .. ليبين لنا أنه لا زمن .

اختلاف المقياس

كيف يمكن أن يحدث ذلك .. باختلاف المقياس .. الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا ويقول لنا : أنا الذى خلقت اليوم الذى تعيشونه .. وهو ٢٤ ساعة .. والمخلوق ليس قيذا على قدرة الخالق .. ولذلك .. فإذا أردت أن أخلق

الله .. والزمن

يوما .. يفصل بين شروق شمس وغروبها ألف سنة .. لاستطعت .. وإذا أردت أن أخلق يوما يفرق بين شروق شمس وغروبها .. مليون سنة لاستطعت .. ذلك هو الله الخالق .. فالزمن هنا يخضع لادارة الله سبحانه وتعالى في قوله :
« كن » ..

إذن فمقاييس الزمن لا تحكم الله سبحانه وتعالى .. لماذا ؟ .. لأن الله هو الذى يخلق الزمن ويحدده .. وهو قادر على أن يخلق يوما مقداره ساعة .. ويوما مقداره مائة ألف سنة .. ويوما يستمر بلا نهاية .. فلا مقاييس للزمن هنا .. لأن الله يخلق ويختار .. فلا يأتي أحد ما يعتر على ذلك ، لأن الله سبحانه وتعالى قال :

« مالك يوم الدين » ..

أن يحاول أو يأخذ من كلمة يوم .. قيذا على قدرة الله .. فيقول أنه ليل أو نهار .. أو أن مقداره ٢٤ ساعة .. أو سنة .. أو عشر سنوات .. ولكن كلمة يوم هنا .. مختلفة عن مقاييس الدنيا .. لأن الله سبحانه وتعالى .. قال لنا وأخبرنا أن الآخرة خروج عن كل مألوف في الدنيا .. وقال لنا وأخبرنا .. ان كلمة يوم التى استخدمها سبحانه وتعالى في القرآن الكريم .. ليست مقصورة على المعنى البشرى .. الذى نفهمه .. بل قد يكون يوم ٢٤ ساعة .. ويوم ألف سنة .. ويوم خمسين ألف سنة .. ولذلك ترك لنا نسبة الزمن مفتوحة .. ليقرب من أذهاننا .. أن الآخرة .. أو يوم الدين .. لها مقاييس أخرى .. ولنعرف ونحس أن كلمة يوم بالنسبة للآخرة .. تختلف مقاييسها .. عن كلمة يوم بالنسبة للدنيا .

وهكذا نرى عظمة القرآن الكريم .. فى أنه يأتي بما يحسبه بعض الناس تناقضا ظاهريا .. ثم يعطينا هذا التناقض .. فيهلل أولئك الذين أصابت قلوبهم الغفلة .. فيبدأون الحديث عن القرآن الكريم .. والتناقض فيه .. إلى آخر ما قيل .. وما يقال .. فتنشط العقول المؤمنة ويفتح الله عليها لتبين للناس

الله .. والزمن

الاعجاز الموجود الذى لولا غير المؤمنين لما تنبه إليه أحد .. وهكذا يسخر الله
ويبين معجزاته .

وفى بعض الأحيان .. يأتى بعض الناس .. ليسألوك عن تناقضات ظاهرية
فى كتاب الله .. فيقولون أن الله سبحانه وتعالى يقول :
« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » .
ويقول :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

ويتساءلون كيف يمكن أن تخاف القلوب وتطمئن إلى شيء واحد وهو ذكر
الله .. مع أن الخوف عكس الطمأنينة .. فالخوف فزع وشعور بالخطر ..
والطمأنينة راحة .. واحساس بالأمان .. فكيف يمكن أن يجتمعا فى وصف شيء
واحد .. وهو ذكر الله .. مع أن الذى يخيف .. عكس الذى يطمئن .
ونحن نقول لهؤلاء .. كما قلنا من قبل .. فيما يتعلق بالزمن .. وكونه اليوم
ألف سنة .. أو خمسين ألف سنة .. نقول لهم .. إن الله سبحانه وتعالى حين
يقول .. فلا شيء فى القرآن الكريم اسمه الصدفة .. ولا شيء اسمه تجاوز
المعنى .. بل ان المعنى فى القرآن مطابق ومساو للفظ تماما .. فحين يقول الله
سبحانه وتعالى :

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » ..

فهو يصف ذلك الإنسان المؤمن .. أو النفس المؤمنة .. يصفها وصفا
دقيقا .. هذه النفس .. قد نسيت الله لحظة .. أغراها أى شيء فى الدنيا ..
مال .. أو جاه زائف .. المهم .. إن هذه النفس جرتها الدنيا لحظة أو
لحظات .. فنسيت الله .. ثم تذكرت .

ومعنى التذكر .. انها أفاقت مرة أخرى .. فعرفت أنها ستلقى الله سبحانه
وتعالى .. وأن هذا اللقاء يقين .. حينئذ يدخل الوجمل .. وهو الخوف الشديد
إلى هذه النفس .. تحس بهول ما صنعت حين نسيت الله لحظة .. لماذا ؟ ..

الله .. والزمن

لأنها تعرف الله .. تعرف قدراته .. وتعرف ما استلاقه في اليوم الآخر .. إذا نسيت .. في هذه اللحظة .. تستحضر العقاب يقينا .. وقدرة الله يقينا .. فيصيبها الهول والفرع .. لماذا؟ .. لأنها تعلم أن الجزاء يأتي بقدرات الله .. وهذا يجعل أقوى القلوب المؤمنة .. ترتعد من الوجل والخوف ..

هذه هي النفس المؤمنة .. أما النفس غير المؤمنة .. فهي تلهو وتلعب .. وإذا ذكر الله .. لا يدخل الوجل .. ولا الخوف إلى النفس .. لماذا؟ لأن استحضار العذاب أو لقاء الله .. غير موجود بل أن بعض هؤلاء الناس . يتهمون الإنسان المؤمن بأنه إنسان أبله .. رجل لا يتمتع بالذكاء .. وكيف يتمتع بالذكاء .. وهو يشقى ويتعب للحصول على مال ورزق .. ثم بعد ذلك يعطيه لغيره من الفقراء والمحتاجين مجانا .. وكيف يكون ذكيا .. وهو يستطيع أن يضع الجنيه فوق الجنيه .. والرزق فوق الرزق .. ويشترى عمارة .. أو سيارة فاخرة .. أو يذهب فيقضى وقتا ممتعا في أوروبا وأمريكا .. ومع ذلك فإنه يفضل أن يعطى هذا الرزق لإنسان بائس .. أو فقير .. أو محتاج .. دون أن يتمتع به هو .

الناس تتمتع بما حباها الله من مال تشتري به فاخر الثياب .. وفاخر الأثاث .. وفاخر السيارات .. وتتمتع بالدنيا ، ومن أعز على الإنسان من نفسه يمتعها؟ . وهذا المؤمن يتعب في المال ويشقى .. ثم يوزعه على الناس .. والمتع في الدنيا حوله .. ولكنه يفض البصر عنها .. ويحرم نفسه .. ويبتعد عن الحرام .. إنه إنسان حرم نفسه من ماله .. ومن زينة الدنيا .

ولكن الحقيقة .. أن الإنسان المؤمن .. هو أذكى الناس جميعا .. لأن المال الذي اكتسبه غيره .. أنفقه وأفناه في متاع محدود .. وعلى قدر ما تعطى الدنيا .. ولكن هذا المؤمن أخذ ماله .. واختار ثلاثة أشياء هامة .. أولا أن هذا المال يبقى ولا يفنى .. فماله إذا أنفقه في الدنيا يفنى .. وماله عند الله

الله .. والزمن

يبقى .. وهو يريد أن يجعل هذا المال .. باقيا أبدا إلى يوم القيامة .. ولذلك فقد دفع بماله إلى الفقراء والمساكين .. لا ليفنيه .. ولكن ليبقيه .. فأيهما أذكى ؟ ذلك الذى يفنى ماله فى لحظات .. أم ذلك الذى يجعله خالدا .. هذه واحدة .. أما الثانية .. فقد كان هذا المال .. سيتمتع به حسب قدرات البشر .. فالذى سيأخذ هذا المال .. وفى أى فن يعمل .. سيتمتع صاحب المال على حسب قدراته .

فإذا اختار صاحب المال سيارة فاخرة مثلا .. من أفخر سيارات الدنيا .. فيستمتع بقدرات البشر الذين صنعوا هذه السيارة .. بما استطاعوا أن يوفرها فيها من وسائل الراحة والرفاهية .. وإذا اختار مثلا أن يأتيه طعامه من أفخر مطاعم العالم .. فهو سيتمتع بطعام طيب .. حسب قدرات ذلك الطاهى الذى أعد الطعام .. فإذا اختار أفخر ثياب الدنيا .. فهو سيتمتع بقدرات الدنيا حسب قدرات صانع هذا الثياب .. ولكنه اذا اختار الله سبحانه وتعالى .. فإنه قد اختار أن يتمتع بقدرات الله .. التى ليس لها حدود ولا قيود .

فمن الذى يمتاز بالذكاء فى هذه الحالة .. ذلك الذى اختار المتعة بقدرات البشر .. أم الذى اختار المتعة بقدرات الله سبحانه وتعالى .. أيهما أكثر ذكاء وفطنة .

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الثالثة .. إن المال فى الدنيا قد يضر وينفع .. أى أنه ليس نافعا لصاحبه على اطلاقه .. فإذا استخدمت المال مثلا .. فى الافراط فى فاخر الطعام .. أصابت جسمك الأمراض والعلل .. التى قد تمنعك من تناول لقمة واحدة .. فإذا أردت أن تسرف فى الشراب مثلا .. أو فى الملذات الحسية .. ينهدم جسدك .. وتضعف قوتك .. وتضعف صحتك .. وتصبح عليلا .. وهكذا أصابك المال بالضرر وليس بالمنفعة ..

وقد تنفق هذا المال على إنسان فيطعم فيك .. وتحسن إليه فيرى الخير عندك

الله .. والزمن

فيقرر أن يقتلك ليحصل على مالك كله .. وفي هذا يكون المال ضررا لك وليس نفعاً .. وقد يجلب عليك المال العداوات .. والعقد .. والكراهية .. من غيرك من البشر .

وهكذا نرى أن المال في الدنيا .. قد يضر وينفع .. أى أنه ليس كله نفعاً .. أى فيه ضرر ونفع .. ولكنه عند الله سبحانه وتعالى .. نفع بلا ضرر .. وتمتع حسب قدرات الله سبحانه وتعالى .. دون أن يصيبك منه إلا الخير .. والخير العميم .. فمن هو الذكى .. ذلك الذى ينفق ماله فيما يمكن أن يعود عليه بالضرر .. أم ذلك الذى ينفق ماله فيما يعود عليه بالنفع الخالص .

وهكذا نرى ان المؤمن ليس إنسانا غيبا .. كما يدعى بعض الناس .. بل انه أذكى كثيرا .. من هؤلاء الذين يتظاهرون بالفطنة .. وحسن معالجة الأمور .. ويختارون ما قد يضرهم ولا ينفعهم .. بينما المؤمن ينفق ماله .. فيما ينفعه ولا يضره .

يقين الإيمان

ولذلك .. فإن الإنسان المؤمن .. يتصرف فى حياته كلها من منطلق واقع يقينية الإيمان .. وهو يعلم يقينا أنه سيلاقى الله سبحانه وتعالى .. وهو يعلم يقينا انه سيحاسب .. وهو يعلم يقينا أن هناك الآخرة .. وهو يعلم أن الله يجزى الحسنة بعشر أمثالها .. ويضاعف لمن يشاء .. وهو فى عمله هذا مستبشر بالله وبالآخرة .. وكأنه يراها .. ويعيشها .. ويحسها .. فإذا نسى لحظة .. أو سها فترة .. ثم تذكر .. أو ذكره إنسان بالله .. ظهرت أمامه الصورة التى يعرفها عن الآخرة .. فارتعد الجسد خوفا من الله .. ووجل القلب رعبا من الجزاء .

الله .. والزمن

هذا هو معنى الآية الأولى ، فأتى بعد ذلك إلى الآية الثانية التي يقول فيها الله سبحانه وتعالى :
« ألا بذكر الله تطمئن القلوب »

هذا ذكر .. وهذا ذكر .. نعم .. والخطاب في الآيتين للإنسان المؤمن .. الذى وجل قلبه مؤمن .. والذى اطمأن قلبه مؤمن أيضا .. فقط هنا مجال التذكير مختلف .. فالأول ذكر الله وهو يرتكب معصية .. أو يهيم بارتكاب معصية .. والثانى .. ذكر الله وهو يواجه ابتلاء .. وهو يواجه أزمة .. وهو يواجه ضيقا .. والإنسان المؤمن يصادف فى حياته أشياء كثيرة وأزمات .. بل فى بعض الأحيان .. يتلى من الله سبحانه وتعالى .. امتحانا للإيمان .

وكقاعدة عامة نستطيع أن نطبقها .. فالإنسان غير المؤمن .. فزع فى حياته .. قلق فى كل شىء .. من الغد .. من المستقبل .. من المال .. من الصحة .. من زوال النعمة .. من بطش ظالم أو جبار .. من رزق الغد .. من كل شىء حوله .. فإذا صادفته أزمة .. انقلب هذا الفزع إلى رعب .. يؤدى فى كثير من الأحيان إلى الجنون .. أو الانتحار .. أو ارتكاب جريمة .. أما الإنسان المؤمن .. فإذا صادفته أية أزمة فى الدنيا .. فإن قلبه مطمئن إلى أن الله لن ينساه .

إذا لم يكن لديه طعام الغد .. فرزق الغد سيأتى .. وإذا حدثت له أزمة فالله مفرج الكرب والأزمات .. وإذا اعتدى عليه جبار .. فقلبه مطمئن إلى قضاء الله .. فإذا أصابته شدة ذكر الله فاطمأن قلبه .. وإذا زالت عنه نعمة .. تذكر أن الله سبحانه وتعالى .. يعطى من يشاء .. وأنه سيعوضه عما فقد .. فاطمأن قلبه .. فهو كلما ذكر الله سبحانه وتعالى .. علم أن الله معه بقدراته .. ومادام الله معه .. فمنذا الذى سيغلبه .. ومنذا الذى سيصيبه بالسوء .. ومم يخاف ؟ فأين هو التناقض بين قوله تعالى :

الله .. والزمن

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »

وقوله سبحانه :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب »

فذكر الله يعنى انك تذكر الله وأنت غافل .. والآية الثانية تعنى انك تواجه أمرا من أمور الدنيا قد يفرعك .. وفى كلتا الآيتين .. أنت تفرع إلى الله .. الأولى بقلب وجل خائف منه .. نادما على ما فعلت .. طالبا التوبة .. والثانية بقلب مطمئن إلى قضائه .. محتميا بالله .. مؤمنا بأنه لن يتخلى عنك .. وأنه مادام الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عنك .. فلن تستطيع أى قوة فى الدنيا أن تصل إليك .

تلك هى معجزات الإيمان .. الخوف من الله سبحانه وتعالى .. إذا نسيناه .. والرجاء فى الله سبحانه وتعالى .. كلما ضعفت قدراتنا عما واجهناه .. أو نواجهه فى هذه الحياة .

نعود بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى :

« مالك يوم الدين »

كل ما نسبته الله سبحانه وتعالى .. نفسه فالشبه له . ما هو معنى ذلك ؟ معناه أن الله عندما يقول « مالك يوم الدين » فيوم الدين منسوب إلى الله سبحانه وتعالى أى أن كل ما سيحدث فيه .. وكل ما سيتم .. يقع تحت :
« سبحانه الله » .. « وليس كمثله شيء » .

لأننا فى هذه الحالة ننسب الفعل إلى الفاعل .. وهذه قاعدة عامة .. فأنا إذا قلت مثلا كلمة (فرح) على إطلاقها .. فإنها تفتقر إلى التحديد .. لكننى إذا نسبتها إلى فاعلها .. فقد يقرب من ذهنك المعنى .. فإذا قلت مثلا .. فرح .. البواب .. كان لها معنى حسب قدرات البواب .. فإذا قلت فرح ابنة

الله .. والزمن

المحافظ .. تغير المعنى تغيرا كاملا .. رغم أن الفعل واحد .. ولكن الفاعل مختلف .. فإذا قلنا فرح ابنة الملك .. تغير الفعل مرة أخرى .. ليشمل الفخامة والقدرة وأشياء كثيرة .. لا يشملها فرح ابنة البواب مثلا .. فأنت حينما تقارن فرح ابنة البواب .. وفرح ابنة الملك .. وما بينها من فارق هائل .. فإنك في الحالة الأولى تنسب الفعل إلى الله سبحانه وتعالى .. ففي هذه الحالة .. يتناسب الفعل مع قدرات الفاعل .. الذى ليس كمثله شيء .. والذى تفوق قدراته قدرات البشر جميعا .. بملايين المرات .. لذلك لا تحاول أن تضع عقلك قيда على فعل الله سبحانه وتعالى .. وأن تصوره بقدراتك أنت .. بل اثبتة .. أو انسبه لقدرات الله سبحانه وتعالى .. فيخرج عن نطاق العقل .. ماذا قال الله سبحانه وتعالى :

« مالك يوم الدين » .

فإن كل شيء يحدث فيه بقدرة الله مباشرة .. دون أى واسطة أو أسباب .. فانسب الفعل للفاعل .. الذى لا يحده قيد ولا زمن .. هكذا يأتي كل شيء في يوم الدين .. مقدار ذلك اليوم مثلا .. الله يعلمه ونحن لا نعلمه .. لأن يوم الدين بكل ما فيه في علم الله سبحانه وتعالى .. أن يبقى يوم الدين ألف سنة .. أو مائة ألف سنة .. أو مليون سنة .. مما نعد نحن .. أمر ممكن لأن الله سبحانه وتعالى خالق هذا اليوم .. يستطيع أن يبقيه ما يشاء إلى ما شاء .. ما سيحدث من أهوال في هذا اليوم .. وماذا سترى الناس .. وماذا ستسمع .. وماذا ستشاهد .. كل هذا مما لم نألفه .. ولم نعرفه في حياتنا هذه سيحدث .. رؤيتنا للملائكة .. رؤيتنا للنار والجنة .. كل ذلك يخرج من نطاق قدراتنا .. إلى نطاق قدرة الله .. فهو الذى سيخرج لنا هذا كله .. وسيريه لنا .. ولذلك لا تقل كيف .. لأن الله سبحانه وتعالى يملك القدرة .. وليس كمثله شيء ..

على أن الله سبحانه وتعالى .. تحدث في القرآن الكريم عن مفهوم الزمن ..

الله .. والزمن

فقال سبحانه وتعالى :
« أتى أمر الله فلا تستعجلوه »

والذى يلفت النظر هنا .. هو أن الله سبحانه وتعالى يقول « أتى » .. ويقول « فلا تستعجلوه » .. أتى فعل ماضى .. أى أنه حدث فى الماضى .. شىء ثم وقع .. فكيف يقول الله سبحانه وتعالى « أتى » .. ويقول « فلا تستعجلوه » .. مع ان الاستعجال يقال لشىء مستقبلى : .. أى شىء لم يحدث بعد .

هذا هو معنى الزمن عند الله سبحانه وتعالى .. فأتى أمر الله أى أتى وأصبح حقيقة واقعة .. وكل أحداث الأرض منذ بدء الخليقة حتى نهايتها موجودة عند الله سبحانه وتعالى .. وهو الذى يقول لها: « كن » .. فتخرج من علمه وبقدرته .. إذن أتى معناه انه تم فى علم الله .. تماما كما قلنا .. إن يوم القيامة أو يوم الدين .. بكل ما سيحدث فيه .. أو ما سيجرى وما سيتم موجود فى علم الله سبحانه وتعالى .. فإذا شاء الله له أن يخلق .. قال: « كن » .. فظهر إلى علمنا .. وعرفناه .. وإن لم يشأ أبقاه غيبا عنا .. فلا ندرى به شيئا .. ولا نعلم له وجودا .

ولذلك عندما يخاطبنا الله سبحانه وتعالى عن شىء فإنه عنده أتى وانتهى .. ولكنه يقول لنا: « فلا تستعجلوه » .. أى لا تستعجلوا بروزه إلى علمكم المحدود .. ودائما الإنسان عجول .. يريد أن يصل إلى كل شىء بسرعة .. حتى لو كان فى هذا الشىء ضرره .. فالله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا .. إن ما هو ماضى عندى .. أعرفه وقررتة وخلقته .. ربما سيظهر لكم عندما أشاء .. ولذلك لا تستعجلوه فرمبا كونى حجبتة عنكم فيه حكمة بالغة .
الله سبحانه وتعالى حين يقول « أتى » .. فهو يقرر ما هو واقع فعلا .. فأنا لا أستطيع أن أحكم على شىء مستقبلى .. لأننى لا أملك القدرة على التنفيذ ..

الله .. والزمن

بل أنا خاضع لظروف كثيرة تحكمنى .. ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يقول: «أتى» .. فلا يوجد من يستطيع أن يمنع أمرا لله أن ينفذ .. ولذلك فهو لا محالة واقع .. حدد الله بدايته ونهايته .. وقد يستمر هذا الأمر لحظة .. وقد يستمر ملايين السنين مما نحسبه نحن .. ثم إن الله سبحانه وتعالى قد حدد كل تفاصيله .. وكل شيء يقع فيه .. وبهذا المفهوم نفهم معنى :
«مالك يوم الدين»

على أن الإنسان المؤمن .. حينما يفكر في يوم الدين .. فإنه يحس براحة نفسية .. لماذا؟ لأن هذا اليوم .. هو الضمان لكل مؤمن .. امتنع عن حرام الدنيا .. وامتنع عن كل شيء فيه نفع عاجل .. أو مكسب عاجل .. نهى الله عنه .. ذلك انه في هذه الحالة .. يطمئن إلى انه مادام قد امتنع عن حرام الدنيا فجزاؤه في الآخرة .. ومادام قد قصد بعمله وجه الله سبحانه وتعالى .. فالله لن يضيع أجره .

ولن يأتي إنسان مهما بلغ في هذه الدنيا من قوة وقدرة ونفوذ .. ويقول أو يدعى .. انه يستطيع أن يمنع أجر الآخرة عن إنسان أحسن .. أو تصدق .. أو تقرب إلى الله بعمل من الأعمال الصالحة .. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى .. هو مالك هذا اليوم دون ما تدخل بشرى على وجه الاطلاق .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :
«يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . والأمر يومئذ لله» .

ولذلك فإن أى عمل صالح .. هو اعداد من المؤمن ليوم الدين .. وهو اعداد لا يخضع لقدرة بشر إلا صاحب الشيء نفسه .. فانت مهما كانت القوى التى ضدك .. تستطيع أن تمد الاعداد الجيد .. المتقبل من الله ليوم الدين .. وإعداد المؤمن هو اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .. فقد أهديت شاة لرسول الله من بعض المسلمين فطلب من عائشة أن تتصدق بها على فقراء

الله .. والزمن

المسلمين .. وكانت عائشة رضى الله عنها .. تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يحب لحم الكتف .. فأبقت قطعة لحم الكتف ولم تتصدق بها .. ولما جاءت عائشة سأها رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ماذا صنعت بالشاة قالت تصدقت بها وبقيت كتفها .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بل كلها بقيت إلا كتفها .

الصدقة باقية

السيدة عائشة أرادت أن تقول لرسول الله .. ان كتف الشاة هي التى بقيت ولم تتصدق بها .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. صحح لها المنطق .. وقال لها لقد بقيت الشاة .. أى ما تصدقنا به هو الباقي .. ولكن كتف الشاة التى أبقيتها لتأكلها هى الجزء الذى ضاع لأننا سنأكله ويفنى .. كل الشاة بقيت لنا إلى يوم القيامة جزاء على الصدقة .. لأن ما تتصدق به للأخرة هو الباقي .. وأن ما سنأكله سينتهى .. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقول الإنسان مالى .. مالى .. وهل لك من مالك إلا ما لبست فأبليت . وأكلت فأفانيت . وتصدقت فأبقيت) . إذن ما هو الباقي للإنسان من المال ؟ الصدقة وحدها .

والإنسان فى الدنيا .. يعيش قلقا خائفا من زوال النعمة .. فالنعمة إما أن تفارق الإنسان بأن تزول عنه .. أو يفارقها هو بأن يترك الحياة الدنيا .. لذلك تجد أشد الناس حرصا على الدنيا .. ذلك الذى هو فى نعمة يخشى أن يفارقها .. ولكن النعمة فى الآخرة لا تفارق الإنسان أبدا .. إذن فمن الخير لى أن يكون نعيمى فى الآخرة .. حيث لا تفارقنى النعمة أبدا .. بل أعيش مخلدا فيها .

ولقد دخل أحد الأشخاص على رجل صالح .. وقال له أريد أن أعرف .. أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ قال له الرجل الصالح .. إن الله أرحم

الله .. والزمن

بعباده .. من أن يجعل موازينهم في أيدي أمثالهم .. فميزان كل امرئ في يد نفسه .. لماذا؟ لأنك تستطيع أن تغش الناس .. ولكنك لا تستطيع أن تغش نفسك .. ميزانك في يدك تستطيع أن تدرك أنت من أهل الدنيا .. أم من أهل الآخرة .. فقال الرجل طالبا من العبد الصالح أن يشرح له كيف ذلك؟ فرد العبد الصالح .. إذا دخل عليك من يعطيك مالا ودخل عليك من يأخذ منك صدقة فبأيها تفرح؟ فسكت الرجل .. وهنا قال العبد الصالح: إذا كنت تفرح بمن يعطيك مالا .. فأنت من أهل الدنيا .. وإن كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة .. فأنت من أهل الآخرة .. لماذا؟ لأن الإنسان يفرح بمن يقدم له ما يحبه .. فالذى يعطيني مالا .. يعطيني الدنيا .. والذى يأخذ مني صدقة .. يعطيني الآخرة .. فإذا كنت من أهل الآخرة .. فاني أفرح بمن يأخذ مني صدقة .. أكثر من فرحي بمن يعطيني مالا .

ولذلك كان بعض الصالحين .. إذا دخل عليه من يريد منه صدقة .. يقف له .. ويقول مرحبا بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجر .. ولذلك فأنا يجب أن أرحب به وأحبيه .. لأنه يحمل حسناتي إلى الآخرة .. ولذلك أيضا فإن الكلمة غير الطيبة تفسد الصدقة .. مصداقا لقوله تعالى :
« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » .

لماذا قال الله سبحانه وتعالى ذلك .. لأن الذى يتبع الصدقة بالأذى .. ليست وجهته الآخرة .. وليس إيمانه كاملا .. إذ كيف أهين أو أؤذى ذلك الذى جاء يحمل حسناتي إلى الآخرة بغير أجر .. أياقى إنسان يحمل لى زادى إلى الآخرة فأهينه وأؤذيه .. أياكون هذا إيماننا؟ أم انى أرحب به وأكرمه .. وأفرح به لأنه سيؤدى لى خير ما فى الدنيا .. وسيؤديه بلا أجر .
ولذلك فإن قول الله سبحانه وتعالى :
« مالك يوم الدين » .

هى قضية ضخمة من قضايا الإيمان .. لأننا ساعة أن نؤمن فنحن مردودون

الله .. والزمن

إلى الله وحده .. وفي هذا اطمئنان للإيمان في القلوب .. وأنت وحدك الذى تضع الأساس .. أو تملك الميزان ولذلك فلو لم يقل الله سبحانه وتعالى :
« مالك يوم الدين »

جعل الآخرة كالدينا .. فيها من يستخلف فى الأمور .. لاهتز الإيمان باليوم الآخر .. ولم يكن فيه الحسم .. والقوة .. والقدرة .. ولأصبح القوى فى الدنيا يأخذ كل شهوات الحياة .. ويعطى نفسه ما يشتهى بلا قيود .. بينما ذلك الذى يتبع المنهج .. قد قيد نفسه ولم يحصل على شىء .
« ومالك يوم الدين » ..

معناها ان الابتداء من الله .. والانتهاء إلى الله .. فكأن الحياة تشبه طرفى قوس .. تبدأ بخلق الله .. وتنتهى بعودة إلى الله .. ومادام الابتداء من الله .. والانتهاء إلى الله .. لم يبق بين البداية والنهاية إلا ما يرد إلى الله .. أى أن كل عمل فى الدنيا يقصد به وجه الله .. هو الباقي فى هذه الحياة .. وأريد هنا أن نلاحظ شيئاً - هناك فى اللغة ما يسمونه بضمير الغائب .. إذا قلت : زيد حضر .. فهو موجود معنا وقت الحديث .. هناك غائب .. وحاضر . ومتكلم .. وقضايا العقيدة كلها ليس فيها مشاهدة .. فأنت عندما تجلس أمامى وأراك وأتحدث إليك .. لا أقول اننى أوؤمن لأنك أمامى وأنا أراك .. ولكن الإيمان يكون بما هو غيب عنى . ولذلك فالله سبحانه وتعالى يتكلم بضمير الغائب .. لأن الله غيب فيقول :
« الحمد لله رب العالمين »

الله غيب .. ورب العالمين غيب .. والإيمان إيمان بالغيب .. ولا توجد عقيدة فى أمر حسى أبداً .. لا أقول مثلاً اننى جالس أمامك وأنت تتحدث إلى .. هذه ليست عقيدة .. لأنها أمر حسى لا يدخل فى مقام الاعتقاد .. إذن فـ « الحمد لله » غيب .. « ورب العالمين » غيب .. و« الرحمن الرحيم »



غيب .. و«مالك يوم الدين» غيب .. والقياس هنا على أساس الغيب ..
 ولا بد إذا سرنا على نفس الطريق .. أن يكون السياق اياه نعبد .. ولكن الله
 سبحانه وتعالى غير السياق .. وجعله حاضرا .. فقال: «إياك نعبد» .. فانتقل
 الغيب إلى حضور المخاطب .. بعد أن كان علم يقين بالغيب .. أصبح علم
 يقين .. فلا تقول اياه نعبد ولكن تقول اياك .. فكأنتك استحضرت الغيب ربا
 ورحمنا ورحيما .. واستحضرت «مالك يوم الدين» .. وعندما اختمرت
 صفات الغيب .. انتقلت إلى محضر الشهود .. وقلت :
 «إياك نعبد وإياك نستعين»

اياك نعبد

عندم نرى لفظ اياك .. فالعبارة هنا تفيد الخصوصية .. بمعنى اننى قلت لك
 اننى سأقابلك .. فاننى قد اقابلك وحدك .. وقد اقابلك مع جمع من الناس ..
 أو مع آخرين .. فهنا الخصوص أو التصور غير محدد .. ولكننى إذا قلت
 لك .. اياك سأقابل .. فمعنى ذلك ان المقابلة ستكون خاصة .. واننى
 سأقابلك أنت بالذات .. ففى هذه الحالة لا يمكن أن تعطف عليها شيئا
 آخر .. اياك سأقابل .. أى اننى سأقابلك أنت .. إذن فاستعمال لفظ «اياك
 نعبد» .. معناه أن العبادة لله وحده .. فلو قلت نعبدك وحدك .. لا تؤدى
 نفس معنى إياك نعبد .. لماذا؟ لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا
 وكذا .. ولكن إذا قلت «إياك نعبد» .. وقدمت إياك .. تكون قد حسمت
 الأمر بأن العبادة لله وحده .. لماذا؟ لأن العبادة خضوع لله .. بافعل
 ولا تفعل .. ولذلك جعل الصلاة هى العبادة .. والسجود هو منتهى الخضوع
 لله .. ذلك إن الإنسان يعرف بأنه مستوى القامة .. ومعناها أن رأسه أعلى
 وقدميه أسفل ، فعندما يأتى السجود .. تأتى هذه القامة .. أعلاها إلى
 أسفلها .. وهذا هو منتهى الخضوع .. الرأس يأتى عند موضع القدم .

تأتى بعد ذلك إلى «إياك نعبد» .. أى نخضع لك .. نستعين بك فى كل

الله .. والزمن

الأمر .. ولكن هذا الخضوع يتم غيبا .. هل أمرني الله سبحانه وتعالى أن اختفى عن الناس جميعا .. في غرفة مغلقة .. أو في مكان مظلم عندما أعلن خضوعي له .. لا .. وإنما أمرني أن أفعل ذلك علنا .. أمام الناس جميعا .. أن أسجد واضع رأسي مكان قدمي .. وأعلن خضوعي وذلتني لله أمام البشر كلهم .. أعلن عبوديتي لله .. وذلك حتى لا أستعلى ولا أستكبر .. والله يريد الناس جميعا عبيدا له وحده .. لذلك يستوى في العبودية .. وفي اعلان الخضوع لله الغنى والفقير .. والكبير والصغير .. والملك والعبد .. كل هؤلاء يستوون في الخضوع لله .. وفي اعلان هذا الخضوع .

إذن قوله سبحانه وتعالى: «إياك نعبد» .. تنفي العبودية لغير الله .. أي لا نعبد غير الله .. ولذلك لا نعطف عليها أبدا .. ساعة ترى المفعول تقدم «إياك نعبد» .. فمعناها حتما .. إننا نعبدك ولا نعبد سواك .. إذن «إياك نعبد» .. أعطت التخصيص بالعبادة .. حين يخص الله سبحانه وتعالى نفسه بالعبادة .. وذلك حين نقول الحمد لله .. فإننا نستحضر مستوجبات الحمد .. وهي نعم الله ظاهرة وباطنة .. وحين نقول رب العالمين .. فنحن نستحضر نعم الربوبية من خلق وإيجاد من عدم .. إلى كون ملء بالنعم التي تعطى بلا مقابل .. إلى اخضاع لقوى الكون لخدمة الإنسان .. إلى منهج يحقق لنا السعادة .. وحين نستعرض: «الرحمن الرحيم» فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة .. ومقابلة الإساءة بالإحسان وفتح باب التوبة .. وكل ما وضعه الله سبحانه وتعالى من رحمة في هذا الكون وسعت كل شيء .. وحين نستعرض «مالك يوم الدين» .. فإننا نستحضر يوم الحساب .. وكيف أن الله سبحانه وتعالى سيجزينا خير الجزاء .. ويعطينا نعيما وجنة وفق ما يريد .. فإذا استعرضنا هذا كله واستحضرتاه فهذه نعم الله أعطاها لنا .. فما هو المطلوب منا؟ المطلوب منا .. «إياك نعبد» أي أن نعبد الله وحده .. وكيف نعبد الله .. إذا عرفنا المطلوب منا .. فكيف نمضي في العبادة؟ وهنا نتوقف قليلا .. لنضع خاطرا هاما لا بد أن نعرضه .. إذا أردت أن

الله .. والزمن

تصنع شيئاً .. فإن أمامك طرقاً كثيرة .. قد تصنعه مثلاً على طريق ما يسمونه طريق الهواة .. أى بلا دراسة ولا دراية .. وإنما بشيء تحاول أن تقلده ولكنك إذا أردت أن تصنع شيئاً بإتقان .. فلا بد أن يكون هناك منهج تدرسه يحوى أصول هذه الصناعة .. حتى تستطيع أن تنفذها بإتقان .. إذا قال لك ابنك انه يريد أن ينجح فى الامتحان .. ويحقق شيئاً جميلاً أو معرفة .. تقول له لا بد أن تذاكر .. إذن المذاكرة شرط من شروط النجاح .. والكل متفق على أن الشرط سبب وجود الجواب .. فالمذاكرة سبب وجود النجاح .. هذا هو ظاهر العلم .. ولكن باطن العلم غير ذلك .. ذلك أن ظاهر العلم يهمل شيئاً هاماً .. عناصر حركة الإنسان .. وهو الدافع قبل الواقع .. أنت تقول انك تذاكر لتنجح .. فكأن النجاح وجد فى ذهنى أولاً .. بكل ما يحققه لى من مميزات .. ثم بعد ذلك ذاكرت .. ليصبح هذا النجاح حقيقة واقعة .. ومعروف أن الشرط سبب وجود الجواب .. إذن .. لا بد أولاً أن تؤكّد ان الدافع يأتى قبله .

إذن فالدافع موجود قبل المذاكرة .. وبعد المذاكرة جاء الواقع فتحقق ما أردت .. فالسيارة سبب .. وقطع الطريق سبب .. ولكن الدافع أن أصل إلى مكان أحب أن أصل إليه كالاسكندرية مثلاً .. فأنا عندما اذهب .. أركب أولاً ولكن الدافع يكون فى ذهنى قبل أن أركب .. إذن فالغاية وجدت أولاً ثم بعد ذلك جاء الشرط لتحقيق الغاية .. فبعد أن كانت دافعا فى عقلى فقط . صارت واقعا .

الفصل الخامس

إِلَّا .. لِيُعْبُدُونَ

إلا .. ليعبدون

في كثير من الأحيان نجد الجدل يخرج أشياء كثيرة عن معانيها .. ويدخلها فيما ينفع وما لا ينفع .. الله سبحانه وتعالى .. خلقنا في الحياة لنعبده .. هذه حقيقة لا يستطيع أحد أن ينكرها .. والله سبحانه وتعالى جعل علة الخلق هي العبادة .. وتم الخلق لتحقيق العبادة .. وتصحيح واقعا .. ولكن هل العبادة هي مجرد الجلوس في المساجد والتسبيح .. أم ان لها منهج عمل بينه القرآن .. منه العبادة .. ومنه العمل .. ومنه السعى في الأرض .. ومنه مقاومة الفتن والاغراءات .. ومنه الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .. ومنه أشياء كثيرة .. بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم .. ووضحها في منهج متكامل للحياة ..

لو أن الله سبحانه وتعالى .. أراد منا التسبيح والصلاة فقط وحدهما دون شيء آخر .. ما خلقنا مختارين .. والله سبحانه وتعالى غنى عنا جميعا .. ويستطيع أن يخلق مما يشاء .. كما يشاء .. من يسبحون بحمده .. ولا يعصون له أمرا .. وأن من خلق الله سبحانه وتعالى .. كالملائكة وغيرهم .. من يسبح بحمده ولا يعصى له أمرا .. ومن هو مقهور على عبادته ..

ولو أن هدف الخلق .. هو العبادة بمفهومها الذي يحاول بعض الناس أن يفسره .. ما استطاع خلق من خلق الله أن يشذ عن طاعته .. والله سبحانه وتعالى له صفة القهر .. ومن هنا فهو يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته .. لا يستطيع أحد المعصية أو الافلات .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه ..

« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين »

أى أن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجا لعبادة القهر .. وليس محتاجا لأن يقهر خلقه ليعبدوه .. فهو غنى عن الجميع .. وعبادة الخلق لله سبحانه وتعالى ..

إلا .. ليعبدون

لن تزيد من ملكه شيئا .. وعصيان خلق الله سبحانه وتعالى لن ينقص من ملكه شيئا .

ولكن الله خلقنا لنعبده اختيارا .. لنأتيه ونحن نملك الحرية أن نأتي .. وألا نأتي .. أن نتبع المنهج وألا نتبعه .. يريدنا الله سبحانه وتعالى .. أن نأتي طواعية من أنفسنا .. ونختار أن نكون مقهورين لعبادته .. ونحن نستطيع ألا نكون .. ولكن بارادتنا .. وبحبنا لله سبحانه وتعالى .. يدفعنا هذا الحب أن نقيد ارادتنا التي شاء الله سبحانه وتعالى .. أن يعطيها لنا اختيارا .. أن نقيد هذه الارادة بارادة الله سبحانه وتعالى .. فإذا قال افعل فعلنا .. وإذا قال لا تفعل لم نفعل .. حبا لله وقربا منه .. وجهدا مخلصا في الوصول إلى رضاه .. هذه هي أعلى المنازل عند الله سبحانه وتعالى .. التي منحها لآدم ولذريته من بعده .

فالذي يأتي الله سبحانه وتعالى مقهورا .. إنما يأتيه وهو غير مختار .. فهو لا يستطيع أن يفعل الا ذلك .. ولكن الذي يأتي الله سبحانه وتعالى اختيارا .. فهو أعلى منزلة .. لأنه يستطيع أن يفعل غير ذلك .. زينت له الشهوات .. وزينت له المعاصي .. والشيطان يغريه .. والدنيا تجذبه .. ويريق كل شيء يحيط به .. ومع ذلك فهو يترك هذا كله بارادته .. يدفعه حبه لله سبحانه وتعالى .. أن يأتي طائعا مختارا .. ليتخلى عما نهى عنه الله .. ويتمسك بما أمره الله به .. تلك عبادة عن محبوبة .. عن حب الله .. عن تمتع بطاعة الله سبحانه وتعالى بالاختيار .. نسبح لله .. نعم .. عن حب .. نعبد الله نعم .. عن قرب وعن رغبة .. نأتي الله سبحانه وتعالى .. لنقول له : يارب أعطينا الحرية في أن نفعل .. أو لا نفعل .. وزين لنا الشيطان الدنيا ونعيمها .. وحفت الطاعة بالملكاه .. ولكننا تركنا الدنيا كلها .. بما تعرضه وما تقدمه .. وجئنا إليك مؤمنين .. إن الحياة التي وضعتها لنا .. هي الحياة السليمة الصحيحة الباقية .. هي النعيم الحقيقي .. أتينا إليك طائعين

إلا .. ليعبدون

مختارين .. لنلتزم بعبادتك .. هذا الالتزام هو حب لك .. أو على الأصح ..
حب لما تحب .. وكره لما تكره .

عباد الرحمن

ولذلك يجب علينا أن نفرق .. حينما يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن
الكريم .. عبادا وعبيدا .. يجب أن نفرق بين هاتين الكلمتين .. ونعرف أنها
ليستا مترادفتين .. ولكن لكل منهما معنى يختلف عن الآخر .. فكل خلق الله
عبيد .. لماذا؟ لأن هناك أمورا قهرية تجرى على هذه الدنيا .. وهناك أشياء
كثيرة لا اختيار لي فيها .. أبي وأمي مثلا .. بلدي .. رزقي .. الأحداث التي
تقع على .. كل هذا أنا مقهور فيه .. ولذلك حين يريد الله سبحانه وتعالى
عبيدا .. فإنه يجرى عليهم صفة القهر .. فلا يستطيعون أن يتحللوا أبدا ..
ولكن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يخلق عبادا .. فإنه يخلق أناسا لهم منطقة
اختيار .. يستطيع كل واحد فيهم أن يشذ .. وأن يفعل أو لا يفعل .. وأن
يطيع أو لا يطيع .

فالذي يتنازل باختياره عن حركة الحياة .. هم عباد الرحمن .. أولئك الذين
أعطاهم الله صفة الاختيار .. في أن يفعلوا أو لا يفعلوا .. ولكنهم تنازلوا عن
الاختيار الذي منحه الله لهم .. تنازلوا عنه .. فإن أطاعوا فحبا لله لا قهرا ..
وإن هم فعلوا فخشوعا وخضوعا لله .. وليس عن عدم قدرة .. وإن هم
وحدوا حركة حياتهم مع منهج الحياة الذي رسمه الله سبحانه وتعالى .. فذلك
حبا في الله وتقربا إليه .. هؤلاء الذين يسميهم الله سبحانه وتعالى عبادا .
ولذلك استمع إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾

إلا .. ليعبدون

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾

سورة الفرقان

هؤلاء العباد .. ولم يقل الله سبحانه وتعالى وعبيد الرحمن .. بل قال: «وعباد الرحمن» .. لماذا؟ لأن هؤلاء قهروا أنفسهم على حب الله بمحض ارادتهم واختيارهم .. ودخلوا في حب الله فالزموا أنفسهم بمنهجه .

والإنسان المقهور على شيء لا يستطيع منه فرارا .. ولا اختيارا .. أقل ثوبا من ذلك الذي يستطيع أن يفعل أو لا يفعل .. ذلك أن الثاني قد ألزم نفسه بشيئين أساسيين .. الشيء الأول أنه كان يستطيع أن يفعل ولم يفعل .. وهذه منزلة عند الله سبحانه وتعالى .. لماذا؟ لأن العبد ارتفع بعبوديته .. بأن قهر نفسه واختار الله في وقت كان يستطيع فيه المعصية .. وهذه درجة أعلى في الحب .. أن تختار الله سبحانه وتعالى طواعية .. وأن تتوجه إليه راجيا متوسلا أن يقبلك .. في هذه الحالة يكون حب الله في قلبك قد زاد .. وتكون منزلتك عنده قد ازدادت أيضا .. هذه واحدة .

الحقيقة الثانية : ان الإنسان قد التزم بالتكليف .. وألزم نفسه بمنهج الله .. فدخل في عقد إيماني مع الله سبحانه وتعالى .. مع أنه يستطيع أن يفعل غير ذلك .. وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم .. نجد أن الله سبحانه وتعالى في التكليف لا يخاطب الناس جميعا .. وإنما يسبق أحكام التكليف دائما بكلمة :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام »

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة »

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم »

إلا .. ليعبدون

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلَّ الله لكم »

.. أى أن الله سبحانه وتعالى .. لا يكلف إلا المؤمن .. الذى يدخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى .. الذى يقول يارب آمنت بك ربا .. وبالإسلام ديننا .. وأريد يارب أن أتبع هداك .. وأن أمضى فى صراطك المستقيم .. ويتم ذلك بالإرادة الحرة .. دون ما تدخل .. حين يأتى العبد إلى الله سبحانه وتعالى .. معلنا إيمانه .. ملزما نفسه بما يريد أن يتبعه .. حينئذ يكون قد دخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى .. ويكون ملتزما بمحض اختياره أن يتبع منهج الله .. فيخاطب الله بالمنهج .. ويبلغه بالتكليف .. أما ذلك الكافر .. الذى لا يلتزم بشيء .. ولا يؤمن بشيء .. فهو لا يدخل فى هذا التكليف الإيمانى .. بين الله والعبد المؤمن .. وهو غير مخاطب بالتكليف .

إذن فالإنسان إذا دخل طريق العبادة .. طريق الإيمان .. فإنما يفعل ذلك باختياره .. فاذا التزم .. أصبح من عباد الله .. الذين يكلفهم الله ويطيعونه .. ويلتزمون بمنهجه .. وهكذا تكون العبادة بالنسبة للإنسان من شقين الأول .. أن يؤمن طواعية واختيارا .. والشق الثانى .. أن يلتزم طواعية واختيارا أيضا .. فإذا قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

سورة الزمر

نعرف أن غفران الذنوب جميعا .. لأولئك الذين اختاروا منهج الله .. وارتقوا من منزلة العبيد إلى منزلة العباد .

إلا .. ليعبدون

قلوب تخشع

فالذى يأتيك طائعا مختاراً .. يأتيك بالحب وهو قادر على ألا يأتيك .. هؤلاء هم العباد .. وحين يريد الله سبحانه وتعالى .. حين يقول: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» .. هل معنى ذلك أنه يريدهم عبداً أو عبادا .. يريدهم عبادا .. أى يريدهم أن يتنازلوا باختيارهم .. وحبهم لله .. عن كل ما يغضب الله .. وأن يتبعوا باختيارهم وحبهم لله ما يرضيه .. ولو أراد الله غير ذلك ما استطاع واحد منا أن يكفر .

ولذلك قال إبليس: «إلا عبادك منهم المخلصين» .. أى ذلك الذى اختار طريقك يارب .. أو هؤلاء الذين اختاروا طريقك .. واختاروه بحب .. ومشوا فيه بإخلاص .. وتنازلوا عن اختيارهم حبا لك .. هؤلاء لا يستطيع إبليس أن يغويهم أبداً .. لماذا؟ لأنه يعلم أن الله يرعاهم .. ويدافع عنهم .. ويحيط بهم أينما كانوا .. وأن سياج عناية الله يمنع إبليس من الاقتراب منهم .. هؤلاء هم العباد المخلصون .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: «لا إكراه فى الدين» .. فالله لا يريد قوالب تخضع .. ولكنه يريد قلوبا تخشع بالحب .. لأن إخضاع القلب .. يمكن أن يأتى بالرغم منك .. فإذا أمسك إنسان كراباجا .. وقال لك افعل كذا وقلت لا .. فيضربك بقوة .. ويؤلمك الضرب .. خضع قلبك .. أى خضع الظاهر منك وقمت تفعل له ما يريد .. ولكن هل تفعل هذا بحب؟ هل تفعل هذا بشوق؟ هل تفعل هذا عن رغبة؟ لا ، أنت تفعل وأنت مكروه .. الله سبحانه وتعالى وهو قادر على هذا .. لا يريد أن يكرهك .. ولكنه يريد قلوبا تخشع .. أى يريدك أن تخشع من داخل قلبك .. والقلب هو المنطقة الحرة التى خلقها الله فى الإنسان .. ولا تستطيع قوة فى الأرض .. أن تجعلها مقهورة على شىء .. فما فى قلبك هو ملك خاص لك .. ليس للعالم كله سلطان عليك .. وقد يكرهك إنسان فتظاهر له بالحب .. ولكن قلبك يظل يكرهه ويرفضه .. وقد تتظاهر لإنسان بالخضوع .. ولكن قلبك يمقتة .. وفى نفس الوقت مهما فعلوا فيك .. ولو

إلا .. ليعبدون

وضعوك في سجن تعذب فيه ليل نهار .. ولو قطعوا جسدك .. فإنهم لن يستطيعوا أن يكرهوا قلبك على حب شيء تكرهه .. أو كره شيء تحبه .. بل تبقى هذه المنطقة حرة لا يتدخل فيها إنسان .. ولا يستطيع إنسان أن يتدخل فيها .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :
« الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان »

لماذا ؟

لأن الاكراه في هذه الحالة .. يكون اكرها للقالب .. وليس للقلب .. والله سبحانه وتعالى كما قلنا .. لا يريد قوالب تخضع .. ولكنه يريد قلوبا تخشع .. ولذلك مادام القلب خاشعا .. فالله راض .. حتى ولو أجبر القالب على غير ذلك .. ولذلك فقد أسقط الحساب عن كل من أكره قلبه على شيء وقلبه يرفضه .. فأنت إذا أمسكت عصا غليظة .. وأجبرت إنسانا على الصلاة .. وقلبه لا يريد الصلاة ويرفضها .. فلا صلاة له .. وأنت ان أكرهت إنسانا على فعل منكر .. وقلبه يرفضه .. فلا حساب عليه .. فالله يسقط عنه الحساب .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :
« إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين »

إنه يقول لرسوله ونبيه الكريم .. أنا لا أريد أعناقاً تخضع بالقهر .. لأنني لو أردت ذلك فما أسهل أن أفعله .. أنا لا أريد إكراها .. إنما أريد « عبادة » .. تأتي بالحب لي .. وليس بالإكراه على عمل أريده .
فالله سبحانه وتعالى حين يقول :
« وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون » .

فالمهمة هنا أن يكونوا عبادا لا عبيدا .. وأن يأتوا الله سبحانه وتعالى عن محبوبة وخضوع .. ولو أتوا عن غير ذلك ما حققوا مهمتهم في الحياة .. وأن يأتوا عن حب في كل ما يعملون .. إذا عبدوا فعبادتهم عن حب .. وإذا

إلا .. ليعبدون

حكموا فحكمهم عن حب في ارضاء الله .. وإذا باعوا وإذا اشتروا .. فكل ذلك في إطار حب إرضاء الله .. في كل أمر من أمور الدنيا .. لا يشغلهم إلا ذلك الحب .. فكل عمل يقومون به .. يبتغون به رضاء الله .. ويسألون أين الرضا فيتبعونه .. فلا يغش أحدهم في بيع .. ولا يزور في قول .. ولا يزيف شهادة .. وهكذا .

ومادام الله سبحانه وتعالى قد خلقنا مختارين .. فكل ما نعمله فيه اختبار لنا .. وفيه اختيار لنا .. ويكون عن رضا .. وعن نية .. وعن رغبة .. وعن غاية .. فالذى يسرق .. يختار أن يسرق .. والذى يفعل ما يغضب الله .. فهو يختار ذلك .. وهو في اختياره هذا .. قد خرج عن طريق الحياة الذى رسمه الله سبحانه وتعالى له .. فهو لم يأخذ شيئا .. ولن يأخذ شيئا .

حقيقة الحياة كلها إنها اختبار في العبادة .. يمر به الإنسان .. اختبار لما يمكن أن يفعل ولا يفعل .. فالمال مال الله .. لا يملكه أحد .. والأرض أرض الله .. لن يحتفظ بها أحد .. الإنسان يأتي ويخرج .. وكما جاء يخرج .. فيما عدا عمله .. وحسناته وطيب الذكر والعبادة .

الرحلة كلها من المهد إلى اللحد .. رحلة إيمان .. وفي مفهومها الواسع اختبار لحب الله في القلب وعبادة الله في الأرض عن اختيار حر .. ومهما فلسفنا الأمور .. أو وضعنا للدنيا موازين ومقاييس .. فإننا نأتى في النهاية .. إلى انها رحلة إيمانية لا اختبار حب الله في النفس .. دون أى شيء آخر .. وإذا كانت أشياء قد وضعت في الأرض لتحث الإنسان على العمل أو على الزرع وتعهدده .. وكل ما نراه .. فهذه كلها أسباب ومسببات .. وضعها الله سبحانه وتعالى .. لتمضى الحياة في الكون ..

وإذا كان هناك مغريات قد وضعت فتلك اختبارات الإيمان .. أما من يقول

الله .. والزمن

انه يملك .. أو انه يستطيع كذا وكذا .. أو أنه يفعل كذا وكذا .. فكل ذلك في مبناه الحقيقي مجاز .. لا علاقة له بجوهر الأشياء .. فأنا أملك مجازا مادمت حيا .. فإذا مت .. فلا أملك شيئا ولو كنت ملكا للدنيا كلها .. وأنا أحكم مجازا وأقضى .. فإذا انقضت أسباب الحكم التي مكنتي الله بها .. فلا أستطيع أن أقضى ولا على فرد واحد ..

رحلة الحياة هي اختبار إيماني في العبادة .. قد جعله الله اختيارا للبشر .. ليفضلهم على سائر مخلوقاته ويجزيهم عليه جزاء كبيرا .. فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قال عن الإنسان «إني جاعل في الأرض خليفة» .. تلك الخلافة هي ذلك الاختبار الإيماني الذي يمر به كل إنسان .

الوجود .. والايجاد

العلة في الخلق هي رسول الله صلى الله عليه وسلم .. العلة في الوجود والايجاد .. هي تحقيق العبادية المثلثي لله سبحانه وتعالى .. من الذي حقق ذلك .. من الذي قال فيه الله سبحانه وتعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

الْإِسْلَامَ دِينًا ۖ ﴾

سورة المائدة

من الذي جاء على يديه كمال الدين .. وتمام النعمة .. انه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. تتمثل فيه أفضل درجات الرضا من الله سبحانه وتعالى .. وآخر درجات الاتمام للعبادية .. التي أرادها الله من خلق الإنسان على الأرض .. عبادية عن محبوبة وعشق لله .. عبادية عن دخول طاعة الله سبحانه وتعالى طوعا واختيارا .. عبادية بالالتزام بما أنزل الله التزاما كاملا .. والبعد عما

إلا .. ليعبدون

نهي عنه بعدا كاملا .. هذه هي العبادة المثلى .

الله سبحانه وتعالى أرسل محمدا .. ليكون مثلا أعلى للبشرية كلها .. يحتذى به أولئك الذين يريدون أن يعبدوا الله عبادة حرية واختيار .. وحب وإيمان .. وقرب من الله سبحانه وتعالى .. فإذا عرفت هذا كله .. فلا بد أن يتسع عقلك وفطنتك لمنزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه .. وقربه منه .. وجهه له .

ولكن لكي نعرف هذا كله .. بما يحمله من عمق للبشرية .. فلا بد أن نعرف معنى قوله تعالى « اياك نعبد » .. ومادام الأساس في البشرية كلها هو العبادة فلنبدا بمعنى « اياك نعبد » ..

ولنبدا خطوة خطوة .. « اياك نعبد » .. أى لا نعبد سواك .. نعبدك وحدك ، وهذا معناه الخضوع لله سبحانه وتعالى الواحد الأحد .. والله سبحانه وتعالى الذى نخضع له .. خضوعنا له هو قمة الشرف لنا .. فالله سبحانه وتعالى بعلاه وقدراته وقوته .. وكل صفاته .. هو قمة تجعل الخضوع له تشريفا .. فأنت لا تخضع لمساو لك .. ولا لمن فوقك درجة .. ولا لمن فوقك درجات .. بل تخضع لخالق الكون كله .. ومهما تعددت القوى التى تفوقك .. فإن لكل قوة فى الكون قدرة لا تتجاوزها .. ولكن الله سبحانه وتعالى فوق كل قدرة .

والأصل فى الحياة أن يخضع الأدنى للأعلى .. ولو كان هذا هو الكون .. لتكرر خضوع بعضنا لبعض .. ولكن الله سبحانه وتعالى .. حررنا من هذه العبودية بأن جعلنا لا نخضع لسواه .. ولودرسنا العقل البشرى عبر التاريخ .. لوجدناه قد خضع وعبد الشمس .. وعبد الريح .. وعبد الحيوانات المفترسة .. وعبد الأحجار والأصنام .. أشياء كان يخشاها .. وأخرى كان يعتقد أنها تحميه من الأذى وتنصره على أعدائه .. وأخرى صور له عقله أنها

إلا .. ليعبدون

تقربه من الله سبحانه وتعالى .. وكان في كل خضوعياته يخرج من عبودية إلى عبودية .. فهو مرة يعبد الها فيجد انه لا ينصره فيتجه إلى اله آخر .. فلا يجد له حولا ولا قوة .. فيمضى إلى إله ثالث ورابع .. ويظل حائرا ينتقل من عبودية إلى أخرى .. يصور له جهله أشياء .. ويصور له خوفه أشياء .. فخضع الإنسان للإنسان .. وخضع للحيوان .. وخضع للجهاد .. وفي كل خضوعه كان يعطى ولا يأخذ .. يعطى القرابين .. ويعطى الذهب والفضة للمعابد .. ولا يأخذ شيئا .. فإذا بالله سبحانه وتعالى يأتي ويقول .. « وتوكل على الحى الذى لا يموت » فيحررنا من كل هذه العبوديات .

فأنت تجد حاكما تخضع له .. ثم يذهب هذا الحاكم ويضيع خضوعك .. وتجد نفسك بلا نصير .. ولكن الله سبحانه وتعالى يزيل عنك هذه العبودية .. أنت تخضع لرجل ذى مال .. ثم يأتي ليفلس .. وتجد نفسك لا شيء .. ولكن الله سبحانه وتعالى يزيل عنك هذه العبودية .. أنت تخضع لإنسان لأنه يملك شيئا ولكنه يتخلى عنك - وبدلا من أن يعطيك ما تريد .. يعطيك الخوف والفقر .. أنت تعبد مالا أقتنيتته أو ذهباً أخذته .. أو قوة جعلتك تتفوق على غيرك أو سلاحا تملكه ولا يملكه آخر .. هذه هى عبادات الدنيا .. ثم يذهب هذا المال أو تضيع هذه القوة .. أو يأتي إنسان بسلاح جديد يهزمك .. المهم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينجيك من كل هذا .. يريد أن ينصحك يقول لك « توكل على الحى الذى لا يموت » .. فإذا طلبته وجدته .. فهو القوى وقوته أزلية .. وهو القادر وقدرته لا تزول .. وهو المتحكم وحكمه لا ينتهى وعرشه قائم حتى قيام الساعة .. كلمته هى النافذة فى كل وقت .. وفى كل عصر .. وفى كل زمان .. هو الله وحده لا ينازعه ولا يستطيع أن يصل إلى ملكه أحد .. هو الباقي حين يزول الجميع .. وهو القوى حين يضعف كل شيء .. وهو القادر حين تزول القدرة على الدنيا كلها .. وهو الذى يستطيع أن يبدل العسر يسرا .. والظلام نورا .. والضيق فرجا .. ولا يطلب لذلك كله ثمنا ولا جزاء .. إلا أن تقول: «إياك نعبد» .. فكيف ترك الله وتعتمد على

إلا .. ليعبدون

سواه .. وكيف لا تتوكل على الحى الذى لا يموت .
لو حكمت عقلك دقيقة .. لوجدت أن كل مادون الله هو سراب
وأوهام .. وشيء ضائع وزائل .. ولكن الباقي هو الله .. فإذا كان الله سبحانه
وتعالى يطالبك أن تتوكل عليه .. أى إذا قصدت حاجة فقل: اللهم أعنى ..
وإذا أردت عملا فارفع يدك إلى السماء وقل: اللهم يسر لى .. وإذا كان هناك
ما يؤرقك فقل: اللهم اذهب عنى هذا .. وإذا كنت تواجه شيئا عسيرا فاطلب
العون من الله سبحانه وتعالى .. وتوكل على الحى الذى لا يموت .

اياك نعبد

إذا قلنا « إياك نعبد » .. فاننا نعتر ولا نذل .. لماذا ؟ لأن ذل الدنيا كلها
لا يستطيع أن يدخل إلى قلوبنا .. فإذا هددنا قوى ونحن ضعفاء فلن تصيبنا
ذلة .. لأن الله سبحانه وتعالى معنا .. وإذا واجهتنا أى مصاعب أو متاعب ..
فلا يجعلنا هذا نعيش فى ذل لأن وكيلنا هو الله سبحانه وتعالى .

نحن نصبح فى الصباح وصدورنا مملوءة بالعزة .. ورءوسنا مرفوعة
للسماء .. لماذا ؟ لأننا توكلنا على الله سبحانه وتعالى .. وكل ما فى الكون
خاضع لله .. فلا قوى يستطيع أن يدعى قوة فوق قوة الله .. ولا عزيز يجزؤ أن
يقول إلا انه ذليل لله سبحانه وتعالى .. لذلك فإن الإنسان الذى لا يعتمد على
الحى الذى لا يموت يعيش فى ذل الدنيا .. وفى عبودية هذا الذل .. فهو يصبح
خائفا أن يفقد عمله .. أو يفقد ماله .. وهو حين يتكلم أو يتصرف .. خائف
أن يغضب رئيسه عليه أو يغضب صاحب العمل . وهو فى خوف دائم من كل
من هو أعلى منه .. وهذا الخوف يدفعه إلى حياة بائسة بغیضة .

ولكن ذلك المعتر بالله سبحانه وتعالى .. لا يهمه إلا أن يرضى الله وحده ..
والذل لله عز .. والذل لغير الله بؤس وشقاء وهوان .. ذلك أن الله سبحانه

إلا .. ليعبدون

وتعالى يريد لى الخير .. ولا يريد لى الشر .. فهو يعطينى .. وهو يرحمنى .. وهو لا ينظر إلى ما فى يدي .. وهو مادمت أحبه فإنه يمنحنى من نعمه فوق ما أريد .. ولكن الإنسان يريد أن يأخذ ولا يعطى .. وأن يسلب الحق .. وأن يفعل كل ما تكرهه النفس .

عندما نقول « إياك نعبد » .. فإن عبوديتنا لله تعطينا الخير من الله .. والله سبحانه وتعالى قد أعطانا العزة فى هذه العبودية فى أشياء كثيرة .. فالله سبحانه وتعالى قد جعلنا جميعا متساوين أمامه .. ليزيل عنا ذل الدنيا .. وجعل لنا عبادته تذكرة لذلك .. وجعل لنا فى يوم الجمعة موعدا .. فرضه علينا ليذكرنا بالحقيقة التى ننساها أحيانا وهى عزة العبادية .. فنحن أمام الله جميعا متساوون فى كل شئ .. الحاكم عبد .. والمحكوم عبد .. أكثر الناس عزا وجاها .. يدخل المسجد حافى القدمين .. ويجلس على الأرض .. وأقل الناس يدخل المسجد بنفس الطريقة .. ويجلس بنفس الطريقة .. لماذا؟ حتى يذكرنا الله سبحانه وتعالى .. أن مناصب الدنيا لا قيمة لها عنده .. وأن منازل الدنيا ليس معناها رضى من الله .. فنغتر وتأخذنا العزة بالاثم .. ونحسب أن عطاء الله فى الدنيا هو عطاؤه فى الآخرة .

أبدا فهذا غير صحيح .. يأتى الإنسان فى الدنيا فيعطيه الله الجاه والمنصب والمال .. فيغتر .. ويعتز .. ويأمر وينهى .. ويمضى يمينا ويسارا .. يحسب انه فى منعة .. ثم تأتى صلاة الجمعة .. فيذهب هو وأقل الناس شأنا عنده .. يجلسان معا على الأرض متساويين .. وربما كان أقل الناس فى الصف الأول .. وهو فى الصف الأخير .. ويركعان معا .. ويسجدان معا .. لا فرق ولا منازل دنيوية هنا .. لماذا؟ حتى لا ينسيه غروره وما هو فيه من عز . حتى لا ينسيه هذا ان الله سبحانه وتعالى يريد عبادا .. وان العباد هم الذين يأتونه طائعين مختارين .. وانه إذا كان الله قد أعطاه فى الدنيا .. فليس هذا استثناء بالدخول إلى الآخرة فى منزلة أكبر أو أعلى .. فإذا تذكر ذلك وخرج من المسجد ..

إلا .. ليعبدون

ووقف أمامه رجل فقير ضعيف .. فلا تجعله عزة الدنيا يفترى على هذا الرجل .. بل يتذكر انه عندما كان في المسجد .. كان هذا الضعيف المسكين في الصف الأول .. وهو في الصف الأخير .. فإذا تذكر ذلك .. تذكر الله وقوته .. وأحس ان هذا الشخص قد يكون أقرب منه إلى الله .. فلا يظلم .. ولا يغتر .

والعجيب أن بعض الناس يأتي إلى المسجد قبل الصلاة بدقائق .. ثم يتخطى الرقاب حتى يصل إلى الصف الأول .. ويظل يزاحم .. ويضايق في المصلين حتى يجد مكانا له مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم - ما معناه - إن الرحمت تنزل على الصف الأول فالذى يليه فالذى يليه .. نقول لهذا الشخص : من تخدع ..؟ .. ليس معنى أن الرحمت تنزل على الصف الأول .. انك تأتي في اللحظة الأخيرة .. ثم تحشر نفسك في الصف الأول معتقدا انك تخدع الله سبحانه وتعالى .. ان الملائكة يقفون على أبواب المساجد يوم الجمعة .. فيقيدون في صحائفهم الداخلين .. الأول فالأول .. حسب دخولهم إلى المسجد .. حتى يصعد الخطيب إلى المنبر .. فإذا وصلت قبل الصلاة بدقائق فالزم مكانك .. ولا تحاول أن تخدع الله سبحانه وتعالى .. لأنك لن تستطيع أن تخدعه .. ولا تتخط الرقاب .. واعلم أن هذا هو بيت الله .. لا فضل فيه لأحد إلا لمن دخله أولا .. وإياك أن تتحدث في أمور الدنيا داخل المسجد .. فالله لا يبارك في حديث الدنيا داخل بيته .

على باب المسجد .. كما تخلع نعليك .. تخلع الدنيا كلها .. فأنت هنا مهما كان جاهك وسلطانك .. من عباد الله .. الدنيا خارج المسجد .. أما في داخله فعبادة الله وحده .. والله خلقنا متساوين .. أكرمنا هو أتقانا .. ولم يخلقنا مميزين بسبب درجات الدنيا .. التي وجدت لتسير الحياة في الأرض .. فإذا أردت أن تعبد الله فاخلع الدنيا من نعليك قبل أن تدخل المسجد .. فإذا قضيت الصلاة .. وخرجت من المسجد فباشر أمور دنياك .

رقم الايداع ٣٣٢٥ / ٩٣

I. S. B. N

977 - 08 - 0178 - X

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم

إلا .. ليعبدون

أوائل الدعوة .. فقد قاوم الكفار الاسلام مقاومة عنيفة .. لأنه يساوى بين السيد والعبد أمام الله .. ولذلك فقول الله سبحانه وتعالى: «إياك نعبد» .. ومساواته بين خلقه - تلك المساواة المطلقة .. التى لا تعترف بفروق الدنيا .. ستجد بلاشك من يحاربها ويقف أمامها .. وسيكون هؤلاء المحاربون الذين يتصدون لمنهج الله سبحانه وتعالى .. هم السادة أو الأقوياء .. الذين يرفضون هذه المساواة .. ويريدون بقاء السيادة لهم .. كما يريدون بقاء مجتمع السادة والعبيد .. ويحاربون الدين الجديد التى يساوى بين السيد والعبد .

والذين سيتمسكون بالعبادة وبمنهج العبادة .. الذى هو فيه هذه المساواة الكاملة .. والذى فيه نصره الضعيف على القوى .. والمظلوم على الظالم .. الذين سيتمسكون بالعبادة وبمنهج العبادة .. الذى هو فيه هذه المساواة الكاملة .. والذى فيه نصره الضعيف على القوى .. والمظلوم على الظالم .. الذين سيتمسكون بهذا المنهج هم الضعفاء .. لماذا؟ .. لأن ضعفهم نشأ من اغتيال كسبهم وحقوقهم من الأغنياء ، إذن فهناك إنسان قوى لا يريد منهم «إياك نعبد» .. ولكن يريد كل شئ له .. يريد أن يتميز على الناس جميعا .. وإنسان ضعيف يتمسك بمنهج «إياك نعبد» .. لأنه يعيد إلى الضعفاء حقوقهم .

إذن ساعة نقول «إياك نعبد» سيتأبى عليك الذى يحبون أن يعبدوا من الناس .. وهم الأقوياء .. ومادام ذلك سيحدث .. فسندخل أول الأمر فى صراع .. جانب منه ضعفاء متمسكون بدين الله .. وجانب منه أقوى يرفضون هذا الدين .. يريد الله سبحانه وتعالى هنا أن يثبت الذين آمنوا .. فيقول لك لا تخف من هذا الصراع .. ولا تحس بالرعب أو الفزع من أولئك الذين يملكون الأسباب فى الدنيا .. أسباب الحياة والسلطان والقوة .. الذين يريدون أن يُعبدوا من الناس .. ذلك لأنه إذا عجزت الأسباب .. فهناك الله سبحانه وتعالى .. وهو يستطيع أن يحميك .. فاطلب المعونة من الله .. استعن بالله

الله .. والزمن

إذن عبادة الله عزة .. لأنها تذكرني بأني متساو أمام الله .. مع أكبر خلقه في الدنيا وأعلاها شأنًا .. وأنتى أنا وهو نصلى معا .. ونركع معا .. ونسجد معا .. ولا تسرى علينا إلا قوانين الله سبحانه وتعالى .. هذه واحدة .. والنقطة الثانية أنتى عبد الله الذى لا يتركنى أبدا .. إذا أردت أن أقف بين يديه .. اتجهت إلى القبلة .. وصحت الله أكبر .. وإذا أردت أن أدعوه .. صحت يارب .. فقال ماذا تريد يا عبدى ..؟ .. والعظيم من عطاء الدنيا إذا أردت منه شيئا فإنك تطلب أن تقابله .. وعليك أن تقابل أولا من هم أدنى منه .. ليسألوك لماذا تريد أن تقابله .. وفيم تريد أن تتكلم .. فإذا قلت لهم وأوضح الغرض من المقابلة .. تركوك أياما وأسابيع .. وربما أشهرًا وأنت تنتظر .. وقد يقولون لا .. وقد يقولون نعم .. فإذا قالوا نعم حددوا لك الزمان والمكان .. ثم بعد ذلك ذهبت قبل الموعد بنصف ساعة أو ساعة .. وجلست منتظرا .. فإذا تمت المقابلة بعد هذا كله .. وأردت أن تشرح له ما جئت من أجله .. قد لا يستمع إليك .. ويقوم واقفا لينهى المناقشة .

أنظر إلى هذا كله .. ثم أنظر إلى عبوديتك لله سبحانه وتعالى .. أنت الذى تحدد الزمان .. وأنت الذى تحدد المكان .. فالله سبحانه وتعالى موجود دائما .. لتدعوه عندما تريد .. وإينما كنت تستطيع أن تتجه إلى السماء وتصيح يارب .. فتجد الله مستمعا إليك .. وأنت الذى تحدد الوقت .. والله سبحانه وتعالى لا يمل حتى تمل أنت .. فلو ظللت طول الليل تناجى وتدعو ، فالله معك يستمع إليك .. حتى تمل أنت وتتوقف عن الدعاء .. إذن فحسب نفسى عزا أنتى عبد الله .. يحتفى بي بلا مواعيد .. ويعزنى ويقول يا عبدى أنت تلقانى متى تريد .. وفى أى مكان تريد .. أهذه عبودية أم عزة .. وهل توجد عزة أكثر من هذا ؟ -

المساواة فى العبادة

ولقد كان مبدأ المساواة فى العبادة .. من المبادئ التى قاومها غير المسلمين فى

إلا .. ليعبدون

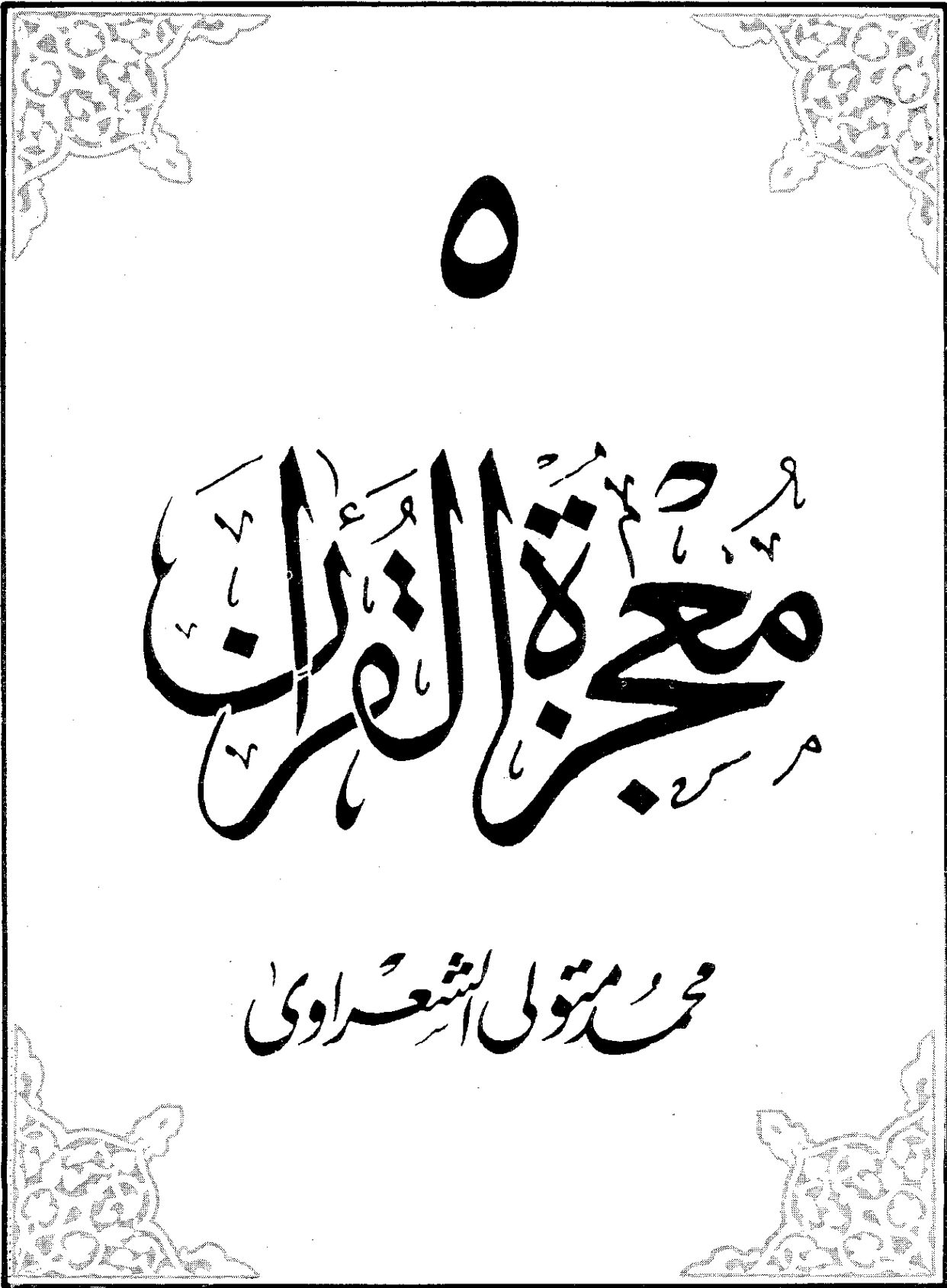
سبحانه وتعالى .. وقل « وإياك نستعين » ..
ومادمت ستخص الله وحده بالعبادة ، فإن هذا التخصيص سينشأ عنه صراع
بين حق وباطل .. وقد يكون هذا الصراع الباطل .. قوة ظاهرة في الدنيا ..
ولكن الحق له قوة تفوق قوة الباطل .. ولذلك تأتي: « إياك نعبد » أولا .. ويعلم
الله سبحانه وتعالى أن صراعا سينشأ بين أقوياء وضعفاء في الدنيا .. فيقول :
قل: « وإياك نستعين » .. فلا يدخل الخوف إلى قلبك من هؤلاء .. وتذكر إنك
تستعين بالله سبحانه وتعالى .

وكلمة « وإياك تستعين » هذه .. هي دستور في حياة الإنسان المؤمن ..
لأنك حين تقول استعان فلان بفلان .. لا يمكن أن يكون لذلك معنى غير
معناها وهو طلب المعونة .. وطلب المعونة معناه أنه استنفد الأسباب التي عنده
في أن يقوم بالعمل .. فلما عجز استعان بغيره .. فأنا أريد أن أحمل حملا
معينا .. فلا أستطيع لأن الحمل ثقيل .. وهنا ألجأ إلى غيري .. وأطلب منه أن
يقدم لي المعونة . حتى أستطيع أن أنقل هذا الحمل الثقيل من مكان إلى آخر .

إذن « وإياك نستعين » .. معناها أنه فرغت أسبابنا كبشر .. لأن الخصم
الذي أمامنا أقوى منا .. فنحن نقول: انه فرغت أسبابنا يارب .. لأن الباطل
أمامنا قوى .. وهنا يقول الله سبحانه وتعالى : لا يمكن أن تخصصني أنت
بالعبادة .. وأتخلى عنك .. بل أنا أعينك وأنصرك .. وهنا نحن نستعين بقدره
الله أمام باطل قوى .. ولكن يجب أن تنفد أسبابنا أولا .

ثم بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « إهدنا الصراط المستقيم » .. هنا
نحن نطلب الهداية من الله سبحانه وتعالى إلى الطريق الذي ارتضاه لعباده ..
وحين يطلب الإنسان العابد الهداية من ربه .. يكون ذلك معناه أنه ارتضى الله
سبحانه وتعالى مكلفا ومشرعا .. وقال : يارب لقد آمنت .. يارب سأعبدك
وحدك وأستعين بك .. فاهدني الصراط المستقيم وأرني الطريق الذي يوصلني
إليك .

والله ولي التوفيق



۵

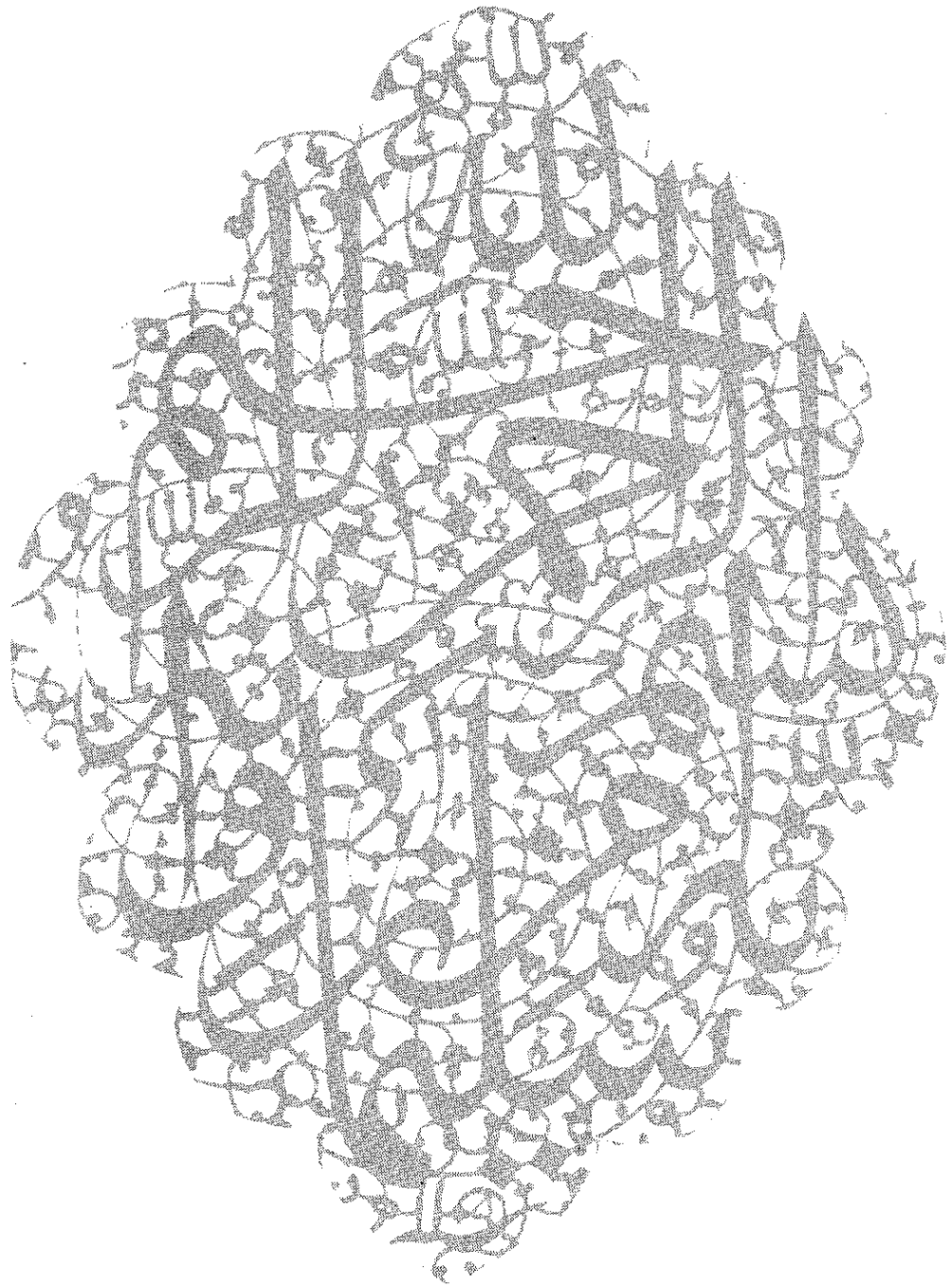
معجزات الهی

محمد متولی الشعراوی

أخبار اليوم

إدارة الكتب والمكتبات

الإخراج الفني : اشرف حسين



الفصل الأول

القرآن .. والنفس البشرية

القرآن .. والنفس البشرية

إن كل ما يتعلق بالكون .. وآثار القرآن الكريم حول الوجود .. فقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بما علم هو نفسه منها .. واكتفى بأن علم من وجد عنده استشرافاً للفهم .. ولكنه لم يشع ذلك ولم يعممه .. ذلك لأنه بمقياس العقل في ذلك الوقت .. كانت توجد عقول كثيرة لا تتقبل مثل هذا الفهم .. ولا تستطيع أن تعقله .. بل كان مجرد طرح مثل هذه الموضوعات .. لا يفيد قضية نشر الدعوة للدين .

والقرآن الكريم لم يأت ليعمم أسرار الوجود .. ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة .. وبأسرار الوجود مكتنزة .. وذلك حتى لا يكشف الحق تبارك وتعالى أسرار الوجود لأولئك الذين يجتهدون بعقولهم للوصول إلى أسرار الكون .. حينئذ يكون عطاء القرآن متساويا مع فهم العقول .

وتمر الزمن ويزداد التقدم البشرى .. ويتيح الله لعباده آيات من آياته في الأرض .. ويكون عطاء القرآن متساويا مع قدرة العقول .. ذلك لأن للقرآن عطاء متجدد في كل عصر .. وإلا لو أعطى الله كل ما عنده وقت نزول القرآن لجمد بعد ذلك .. ولم يكن له عطاء .. ولكن القرآن معجزة خالدة حتى يوم القيامة .. ومن هنا فإن يحمل عطاء لكل جيل .. يختلف عن العطاء الذى أعطاه للجيل الذى سبقه .. وهكذا .. ونحن مثلا لا نجد صحابيا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل عن غير التكليف .. فمثلا لم يسأل الرسول أحد عن « ألم » .. ألف لام ميم .. ولا عن « حم » .. مع أن الرسول كان يستقبل أناسا كثيرين يؤمنون بكتاب الله .. وأناسا كثيرين يكفرون بما أنزل الله .. وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله وضد القرآن .. ولكننا لم نسمع عن واحد منهم .. وهم قوم بلاغة فصحاء يجيدون اللغة العربية بالموهبة .. لم نجد أحدا من الكفار سأل عن معنى ألف لام ميم .. أو « حم » .. أو « عسق » .. كيف يمر المكابر على ذلك مثل فواتح السور .. ولا يجد فيها ما يستطيع أن يواجه به رسول الله ويجادله .. وقد كانت هذه فرصة في المجادلة .

القرآن .. والنفس البشرية

ولاشك أن عدم استخدام الكفار لفواتح السور .. دليل على أنها لم تكن تناقض واقعا عندهم .. فلا المؤمنون سألوه عنها .. ولا الكافرون سألوه عنها .. مع أن الكافرين كانوا حريصين على أن يهاجموا رسول الله بأى شيء من الأشياء .. ولو أن هذه الحروف من فواتح السور كانت تخدمهم في غرضهم وهو مهاجمة هذا الدين .. لقالوا للناس ذلك وجأهروا به .

القرآن يخاطب ملكات خفية في النفس

والقرآن فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية ويستميلها .. إنه يخاطب ملكات خفية في النفس لا نعرفها نحن .. ولكن يعرفها الله سبحانه وتعالى .. وهذه الملكات تنفعل حينما يقرأ القرآن .. ولذلك كان حرص الكفار على ألا يسمع أحد القرآن حتى الذين لا يؤمنون بالله .. ذلك أن كل من يسمع القرآن سيجد له تأثيرا وحلاوة .. قد لا يستطيع أن يفسرها .. ولكنها تجذبه إلى الإيمان .. ومن هنا كان أئمة الكفر يخافون من سماع الكفار للقرآن أن يميلوا إليه ، ولو كان القرآن لا يعطى شيئا من هذا .. ولا يخاطب الملكات الخفية في النفس .. لما اهتم الكفار بأن يسمع أحد القرآن أو لا يسمعه .. ولكن شعورهم بالقوة والقدرة للقرآن الكريم على النفس البشرية .. جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط .. ويعتدون على من يتلوه في الأماكن العامة .. بل قالوا .. فألغوا فيه .. ومعناها شوشروا عليه .

ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكهم وتلك طريقتهم .. إلا خوفا مما يفعله القرآن الكريم في النفس البشرية .. كيف يستطيع أن يؤثر فيها .. وأن يجذب النفس الكافرة أو غير المؤمنة إلى الإيمان .. وتلك من معجزات القرآن الكريم التي يتميز بها عن أى كتاب في هذا العالم .

لكل شيء أجل وميعاد

رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك القرآن .. فيما عدا التكليف بالفعل

القرآن .. والنفس البشرية

ولا تفعل .. تركه ليبين الزمن معجزاته .. فالقرآن كلام الله .. والكون هو خلق الله .. وفي القرآن آيات الله .. وآيات الكون تفسر لنا آيات القرآن الكريم في الخلق .. في خلق السموات والأرض .. وفي الليل والنهار .. والشمس والقمر .. وكل الآيات .

وهذه الآيات الأرضية لها ميلاد تكشف فيه للإنسان .. هذا الميلاد يأتي مع باحث عن آيات الله في الأرض .. فيثبته الله سبحانه وتعالى على جهده بكشف آية من الآيات الأرضية له . فإذا لم تصادف الآية التي جاء موعد ميلادها الكوني .. إذا لم تصادف هذه الآية علما يبحث عنها .. كشفها الله سبحانه وتعالى لعالم أو مجتهد يبحث عن شيء آخر .. ولذلك فنحن نسمع كثيرا عن بحث بدأ بشيء وانتهى إلى شيء آخر .. ونسمع كثيرا عن أشياء يقول العلماء إنهم اكتشفوها بالصدفة .. والحقيقة أنه ليس هنا شيء اسمه الصدفة في الكون .. ولكن لكل شيء أجل وميعاد .. وعندما يأتي الأجل يكشف الله عن آية من آياته في الأرض بما نسميه نحن الصدفة .. وبما نراه كل يوم في حياتنا .. بل إن الإنسان أحيانا يمرض ويذهب إلى كبار الأطباء .. فلا يعرفون الداء .. ثم يذهب إلى طبيب صغير فيكتشف الداء .. هل هذا الطبيب أكثر علما من أساتذته .. الحقيقة لا .. ولكن عندما جاء موعد الشفاء .. كشف الله أسباب المرض لأصغر طبيب .. مما حجبته عن أكبر أساتذة الطب .. وكل ما يعطيه الله لبعض خلقه .. هو أن يعطيهم القدرة بإستنباط سر من أسراره .. أو آية من آياته في الكون .. عندما تكون العقول مستعدة .. والكون مهياً لتقبل ما في القرآن .. فبعض الناس يتساءل مثلا .. لماذا لم يذكر القرآن مثلا بكلام واضح أن الأرض كروية عندما نزل .. وأنا أقول لهم بالله كيف كان من الممكن أن تستقبل العقول البشرية مثل هذا الكلام أو تستوعبه .. خصوصا أنه يأتي في أمر لا ينفع .. بل قد يضر .. وفي علم لا ينفع وجهل لا يضر .. فانتفاع الإنسان بالأرض وما عليها ليس مرهونا بأنه علم أنها كروية أو غير كروية .. وأستفيد من دوران بالليل أو النهار مثلا .. سواء علمت أن الأرض تدور حول نفسها أو لم

القرآن .. والنفس البشرية

أعلم تلك الحقيقة ، إذا الاستفادة من بعض الأشياء لا تتوقف على معرفة أسرارها والكون موجود بكل خواصه ليفيد الناس الفائدة التي تمكنهم من الحياة فوق الأرض عرفوا كل خواصه .. أو عرفوا بعض هذه الخواص فقط .. فانت مثلا تشعل المصباح بضغطة على زر الكهرباء .. وتنتفع بضوء الكهرباء .. ولو إنك لا تعرف أسرارها .. بل إن معظم الناس الذين يستخدمون الكهرباء ويستفيدون منها لا يعرفون أسرارها .. ولكن ذلك لا يمنعهم من الاستفادة من خواصها ، ولا يقلل من هذه الاستفادة . إذن فعدم علمنا بكروية الأرض أو أنها تدور حول نفسها .. لا ينقص منا شيئا من فائدة هذه الأشياء .. بل نحن نستفيد من كل هذه الخواص .. رغم عدم علمنا بها .. ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم .. تعرض لهذه المسائل تعرضا لا يتناسب مع مستوى العقول واستعدادها .. فإنه ربما يصرف بذلك العقول عن أساسيات القرآن .. وهي العبادة إلى الجدل والمجادلة .. حول ما يقوله .. ولا يستطيع العقل أن يستوعبه أو يفهمه في ذلك الوقت .

كل عصر له عطاء

والحق سبحانه وتعالى قد ترك في القرآن أشياء لو ثبتت العقول في العلم .. حتى إذا استطاعت العقول أن تكشف شيئا في الكون .. وجدت خيطا يربط بين آيات الله في الكون .. وبين آيات القرآن الكريم .. واكتشف أن الأسرار الكونية التي وصلت إليها ليست علما جديدا .. ولكنه علم وضعه الله سبحانه وتعالى في الأرض ساعة الخلق .. ثم بعد ذلك كشفه لعقول البشرية بعد ألوف السنين .. ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر كونيات القرآن لحمد القرآن .. لماذا .. لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد أن يفسر رسول الله .. فيقف الأمر عند ذلك .. وتأتي المعطيات الجديدة .. والكشوف الجديدة .. فلا تجد في القرآن عطاء له .

ولذلك فإن عدم تفسير رسول الله للكونيات في القرآن .. هو تفسير لهذه

القرآن .. والنفس البشرية

الكونيات .. لأنه ترك تفسير هذه الكونيات لعطاء العقول .. فكل من يستطيع أن يجتهد ويوفقه الله إلى آية من آيات الأرض يجد إشارة لها في القرآن الكريم وهنا يكون المنع هو عين العطاء .. لأنه أتاح الفرصة لعطاء متجدد للقرآن الكريم .. إلى قيام الساعة .. وكل عصر له عطاء يؤكد معجزة القرآن .

قرآن .. وكتاب

وكلمة القرآن تقوم على تفهم الذي تقرؤه .. لأنه قرآن ، قرأ ، قرآنا .. مثل غفر غفرانا .. وهو علم نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى .. ويسميه الله كتابا .. إذن هو قرآن إذا لاحظت القراءة .. وهو كتاب إذا لاحظت الكتابة. والقراءة تستلزم حافظا يقرأ .. والكتابة لا تستلزم حافظا ..

فالإنسان حين يقرأ من الكتاب ليس محتاجا إلى الحفظ .. ولذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل الحفظ .. يحفظ في الصدور ويسجل في الصحف .. حتى لا يضيع بين الحافظين .

وحيثما كتب القرآن كان زيد لا يكتب شيئا إلا إذا وجد مكتوبا .. وهناك اثنان من الحافظين .. وهكذا اشتركا في الكتابة والحفظ معا في تدوين القرآن الكريم وجمعه .. وكان لا يكتفى بحافظ واحد بل بحافظين ، حتى إذا نسى أحدهما ذكره الآخر .. وكان هذا هو أساس جمع القرآن الكريم في مصحف .. ولكن زيدا شذ عن القاعدة في آية واحدة .. تلك الآية وجدها مكتوبة .. ولكن كان لها حافظ واحد .. ولكن انظروا إلى الخواطر الإيمانية .. حين يقذفها الله سبحانه وتعالى لاستكمال منهجه .. الآية وجدها زيد عند خزيمة .. ولم يكن هناك أحد يحفظها غيره .. ولكنها مدونة ومكتوبة .. حينئذ تذكر زيد كلمة لرسول الله في قوله : (من شهد له خزيمة فحسبه) .

.. وكان الرسول قد أعطى خزيمة نصاب الشهادة وحده .. وهذا له حادثة

القرآن .. والنفس البشرية

يجب أن نروها .. فقد كان هناك رجل قد استدان منه رسول الله مالا .. ف جاء الرجل وطالب بالمال .. فقال الرسول .. لقد أعطيتك المال .. فقال الرجل أريد شاهدا على ذلك .. ولم يكن أحد مع رسول الله حينما أعطى الرجل المال .. ف جاء خزيمه بن ثابت وقال يا رسول الله أنا كنت موجودا وأنت تعطيه هذا الدين .. فانصرف صاحب الدين على الفور .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم التفت إلى خزيمه .. وقال له يا خزيمه أنت لم تكن موجودا حينما أدت الدين لصاحبه .. فكيف قلت إنك كنت معي .. ورد خزيمه .. يا رسول الله أنصدمك في كل ماجئت به من أمور الدين موحى إليك من الله سبحانه وتعالى .. ثم أكذبك في بضعة دراهم .

كان فكر خزيمه أن رسول الله إما أن يكون صادقا .. وإما أن يكون غير صادق ! .. ومادام هو صادقا في المنهج .. فلا بد أن يكون صادقا في الدين .. وفي أنه رد هذا الدين لصاحبه .. ذلك أن عدم الصدق في واقعة الدين يلغى الصدق في كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هنا فلا بد أن يكون رسول الله صادقا في كل ما قاله .. وهذا المدين كاذب .. وهكذا تقدم خزيمه للشهادة .. على أساس المنطق الايماني .. وهنا قال رسول الله من شهد له خزيمه فحسبه وبذلك تم تسجيل الآية .

إذن فالقرآن قرآن لأنه يقرأ .. وكتاب لأنه يكتب .. وإذا أردنا أن نعرف القرآن التعريف الحقيقي .. فهو يبدأ بالفاتحة .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين .. » حتى آخر سورة « قل أعوذ برب الناس .. » .

وبعض الناس يقول إن القرآن كلام منزل على محمد صلى الله عليه وسلم .. بقصد التحدى والاعجاز بين منهج الله .. ولكنك لن تعرف ما هو القرآن إلا إذا قرأته من أوله لآخره .. وهناك كتب نزلت من الله سبحانه وتعالى . فالتوراة

القرآن .. والنفس البشرية

والانجيل وصحف موسى .. هي كلام الله .. ولكن هذه الكتب كان مقصودا بها المنهج فقط .. بينما القرآن الكريم يحمل المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فموسى عليه السلام كان منهجه التوراة .. ومعجزته العصا .. يضرب بها البحر فينفلق .. ويلقيها أمام السحرة .. فتتحول إلى حية تأكل ما يصنعون .. ويضرب بها الحجر فينبعث منه الماء ..
والانجيل هو منهج عيسى عليه السلام .. أما معجزاته فكانت إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .
إذن فالمعجزة شيء .. والمنهج شيء آخر .. ولكن القرآن الكريم تميز بأنه المنهج والمعجزة معا .. لأن القرآن نزل على نية الثبات .. إلى أن تقوم الساعة .. ولذلك لا بد أن يؤيد دائما بمعجزات .. وأن تكون المعجزة معه .

المنهج عين المعجزة

فالمنهج عين المعجزة .. حالة مفقودة في الرسائل كلها .. ولكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم .. أمر موجود يمكن أن يشار إليه في أى وقت من الأوقات .. ونظرة واحدة فيما قال الله سبحانه وتعالى عن كونيات الحياة للعقل البشرى في القرن العشرين .. نجد أن القرآن يشير إليها .. لأن العمر في الرسالة القرآنية إلى أن تقوم الساعة .. ومادام إلى أن تقوم الساعة .. فيظل معجزة حتى قيام هذه الساعة .. ولا بد في هذه الحالة أن يكون له عطاء يمثل إعجازا لكل عصر .

ولو جاء القرآن وأعطى إعجازه كله في قرن مثلا من الزمان .. ويستقبل القرن الآخر بلا إعجاز .. وبذلك يجمد .. ولكن لكي تبقى المعجزة .. يجب أن يظل إعجاز القرآن الكريم إلى أن تقوم الساعة ..

القرآن .. والنفس البشرية

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى .. « سنريهم آياتنا في الآفاق » .. هذه هي الآية الكونية .. « وفي أنفسهم » .. وهذه هي الآيات الطيبة .. حتى يتبين لهم أنه الحق .. أي أن القرآن هو الحق .. وبذلك يمكن لنا أن نقول ان آيات الكون ستأتى موافقة لآيات القرآن الكريم .. حتى يتبين لهم أنه الحق .. وكلمة « سنريهم آياتنا » توحى لنا أن الله سبحانه وتعالى سيعطينا آيات الكون وأسراره .. ويمكن أن يعطيها للمؤمنين أو لغير المؤمنين .. ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى من آيات الكون للمؤمنين .. فبرع المسلمون ووضعوا أساس العلم الحديث للعالم .. ثم أعطى لغير المؤمنين .. وذلك يفسر قوله سبحانه وتعالى حتى يتبين لهم أنه الحق .. أي أن الذى أعطاهم الله آيات الكون فى وقت من الأوقات .. منكرين للقرآن كحق .. لأن المؤمن يفهم أن القرآن هو الحق .. وهوليس فى حاجة إلى بيان .. أما غير المؤمن فهو الذى يشك فى هذا الدين .. وفى هذه الحالة يكشف له الله آية تبين له أنه الحق ، والقرآن حين يتحدى .. يتحدى فى أمر معجز .. وأنت لا تتحدى إنسانا كسيحا فى المشى .. ولا تتحدى إنسانا ضعيفا فى حمل الأثقال .. هنا التحدى غير موجود .

ولكنك إذا أردت أن تتحدى .. فيجب أن يكون هذا التحدى فى شىء تنبغ فيه .. ولذلك جاء القرآن وتحدى العرب فى البلاغة والكلمة .. وكان العرب متفوقين فيها .. وبذلك حين غلبهم القرآن .. كان التحدى فيه حجة .. فقد جاء من نوع ما نبغوا فيه .. لأنه لو كان غير ذلك .. ولو جاء القرآن لقوم لا يحسنون البلاغة .. وليس منهم بلوغ الكلمة .. يكون حينئذ ليس معجزا .. ولقد كان العرب يتفوقون بالأداء الطيب المعجز شعرا ونثرا وخطابة .

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كيف كان موقفه فى هذا كله .. لقد عاش بينهم أربعين سنة .. لم ينظم شعراً .. ولم يلق فيها خطاباً .. ولم يكن من نبغاء البلاغة .. وما عرف عنه إلا كلام عادى قبل الرسالة .. وليس له علاقة لفنون الشعر والخطابة .. ولا هو متفوق فيها .. ولا يقوم بما يقوم به فطاحل

القرآن .. والنفس البشرية

البشر والأدب من تحد وقصائد إلى غير ذلك .. والمعجزة هنا أننا حين نتحدى أولئك الذين نبغوا في فن البلاغة .. نتحداهم بإنسان لم يشتهر عنه أنه قال شيئاً من البلاغة .. حتى نعرف أن هذا الذي يقول ليس من عنده .. والمواهب الموجودة في الشعر .. تظهر في سن مبكرة .. من العشرين إلى الثلاثين .. وإن كانت هناك مواهب تظهر عند الصغر .. ولكن النبوغ والعبقرية لا تأتيان إلا متأخراً في سن الأربعين .. وعندما يفاجأ العرب والعالم .. بأن محمد بن عبدالله .. الأُمِّي الذي لم يعرف عنه أنه خطب أو قال شعراً .. أو كان من رواد البلاغة .. عندما يقول كلاماً معجزاً لأصحاب المواهب .. نقول في هذه الحالة .. أن هذا ليس من عنده .. لأنه ليس من المعقول أن يكون عنده هذه العبقرية ثم يكتمها إلى سن الأربعين .. ولكن المعقول أنها جاءت له من الله .. ولذلك عندما يعرض القرآن للمتشككين يقول :

﴿ وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتُتُّ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي ﴾

(سورة يونس)

وهكذا يقول رسول الله أنه ليس هو قائل هذا القرآن حتى يبدله .. ثم تمضي الآية الكريمة :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

(سورة يونس)

هنا بلاغة وإعجاز في الرد .. فرسول الله يرفض أن ينسب الكمال لنفسه .. والناس بطبعها تدعى الكمال لنفسها .. وتنسب للنفس ما لم تفعله .. كل واحد منا يريد أن يثبت أنه عبقرى .. وأنه عالم .. وأنه في فنه مسيطر .. وأنه

القرآن .. والنفس البشرية

لا يوجد من يفهم مشاكل الدنيا كلها إلا هو .. وهو في سبيل ذلك مستعد أن يسرق جهد غيره وينسبه إلى نفسه .. أى أن الطبيعة البشرية تحاول أن تدعى الكمال ولو كذباً .. ولكن هؤلاء الناس يريدون أن يعطوا الكمال لرسول الله .. فينسبوا إليه أنه هو الذى قال هذا القرآن .. وبدلاً من أن ينساق رسول الله وراء هذا الكمال الذى يحاولون أن ينسبوه إليه .. يوحى له الله بأن يرد عليهم ويقول لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به .. ثم بعد ذلك يوحى الله إليه بالحقيقة أو الدليل يرد عليهم فيقول .. فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون .. أى أننى عشت معكم أربعين سنة قبل أن يوحى إلى .. ولم أحاول حتى مجرد الدخول فى مزايدات البلاغة والشعر والخطابة .. ولم يشتهر عنى ذلك .. بل كنت أقول كلاماً عادياً .. فإذا كان هذا هو خلقى وطبعى كما تعرفون .. فيجب أن تعرفوا أن الكلام المعجز لكم .. والذى أتلوه عليكم هو ووحى من الله سبحانه وتعالى وهذا كلامه .. فإن كنت أحسن فن الكتابة والخطابة فربما ساروكم الشك .. ولكنى كنت أقول كلاماً عادياً .. ولم أحاول أن أدخل معكم فى أى من مسابقات البلاغة والخطابة .. ولا أن أعجزكم بقولى .. فعندما يأتى هذا القول المعجز يكون من الله سبحانه وتعالى .

لا يعرفون .. كيف يكذبون

ثم نجد شيئاً هاماً .. رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو قرآناً هو كلام الله .. ويأتى بالحديث القدسى .. ثم يأتى بالحديث النبوى .. كم لونا من الكلام .. ثلاثة .. قرآن .. وحديث .. وحديث قدسى .. والثلاثة مختلفة فى الأسلوب والبلاغة .. بحيث عندما يقرأ أحدهم قول القرآن يقول هذا قرآن .. وإذا تلا أحد عليك الثانى يقول هذا حديث قدسى .. وإذا تلا عليك الثالث تقول هذا حديث نبوى .. وآتوني بأى عبقرى من عباقرة البلاغة .. ليستطيع أن يكون له ثلاثة أساليب .. لكل أسلوب طابع خاص مميز .. لا يشترك فيه مع غيره .

القرآن .. والنفس البشرية

لا يمكن أن يكون لشخص واحد ثلاث شخصيات أسلوبية .. بل لكل واحد شخصية أسلوبية واحدة .. وإذا حاول أن يخرج عنها فلا بد أن تغلبه .. وتكون هذه الفروق الهائلة بين الأساليب الثلاثة هي دليلاً على أنها من عند الله .. وبذلك يكون التشخيص الأسلوبى فيما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بالمنهج الذى هو القرآن .. ثم الحديث القدسى .. ثم بالحديث النبوي .. أكبر دليل على صدق الرسالة .. والحق سبحانه وتعالى حين أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم .. وفاجأ الناس بهذا البيان .. ذهلوا .. ولم يستطيعوا أن يردوا .. كانوا يريدون تكذيب القرآن .. ولكنهم لا يعرفون كيف يكذبونه قالوا هذا ساحر .. وكان الرد ببساطة إن السحر ليست له إرادة مع الساحر .. بحيث لا يستطيع أن يدفع المسحور عن نفسه .. ولذلك نقول لهم مادام محمد ساحراً وسحر الناس .. لماذا لم يسحركم أنتم حتى تؤمنوا به .. لو كان ساحراً ما كنتم امتنعتم عليه وكان يسحركم كما سحر الآخرين .. إنما كونكم حتى الآن تجلسون تردون وتجادلون .. معناه أنه لم يسحركم .. وهذا دليل على أنه ليس بساحر .

وقالوا مجنون .. ونحن نقول لهم إن عمل المجنون هو عمل بغير رتبة .. بمعنى أنك لا تستطيع أن تتنبأ بما سيفعله إنسان فاقد العقل .

بل أنه قد يكون جالساً معك يتحدث .. وبعد دقيقة واحدة يضربك أو يؤذيك أو يقتلك .. رتبة العقل هنا غير موجودة .. وغير العاقل لا يمكن أن نقول ماذا سيفعل فى الدقيقة التالية .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان على خلق عظيم .. بشهادة الله سبحانه وتعالى .. وبشهادتكم أنتم .. فقد كنتم تلقبونه بالأمين .. وتأمنونهم على أموالكم وكل ما له قيمة .. فكيف يمكن أن تأمنوا إنساناً بلا عقل .. إذن فأنتم تردون على أنفسكم .

القرآن .. والنفس البشرية

ولا يمكن أن تأتي المواهب للإنسان فجأة .. فأنت إذا أردت أن تتعلم شيئاً .. فلا بد أن تبدأ بالتجربة والخطأ .. فإذا أردت أن تقود سيارة مثلاً .. فلا بد أن يأتي إنسان يجيد قيادة السيارة آلياً .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلمه أحد البلاغة .. ولم يتدرب عليها .. وكان خلقه الحق والصدق .. ولقبه الأمين .. والسلوك هو انطباع النفس على خلق معين انطباعاً ييسر الحركة فيه بدون فكر .. فيقال فلان خلقه الكرم .. أى أنه كريم حتى ولو كان يملك القليل .. خلقه الصدق .. أى أنه صادق حتى على نفسه .. خلقه الأمانة .. أى أنه أمين مهما بلغت قيمة ما تأتمنونه عليه .. لا يطمع ولو كان فقيراً وأعطيته مبلغاً هائلاً من المال .. ورسول الله عرف بهذه الطباع كلها وعرف أنه على خلق عظيم .

ولقد تعب الكفار من أن كل ما حاربوا به هذا الدين .. أظهر الله كذبه وبطلانه .. ولذلك قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء .. وكان من المنطق أن يقولوا إذا كان هذا الحق من عندك فاهدنا له .. إنما هذا دليل على كراهيتهم للحق وتبنيهم للباطل .. وقالوا « لولا نزل القرآن على رجل من القريتين عظيم » ..

لأنهم يريدون واحداً منهم .. يأمنونه في أن يكون معهم .. ولو كان هذا ضد الحق .. فالاعتراض هنا على أنه ليس من هؤلاء الأغنياء .. الذين يمكن أن يتعاطفوا معهم أو يمكن أن يتبعوهم دون أن يحسوا بأن شيئاً تغير .. وهكذا كان القرآن عندما يقرأ يزداد المؤمنون إيماناً .. أما الكفار فكانوا يحاولون أن يجدوا فيه منافذ أو مأخذ فلا يجدون إلى أن انتهى الأمر وآمنوا .
والحق سبحانه وتعالى حين يعطى رسله منجماً .. والحق غيب .. ويكون عطاؤه غيباً .. ولذلك يجدد عطاء المنهج للرسول .. « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً » .. طبيعة التكوين البشرى لا يمكن أن تستقبل من الله مباشرة .. والوحي معناه الاعلام بشيء في خفاء .

القرآن .. والنفس البشرية

ولكن نسط هذا المعنى .. لو أنه جاءك ضيف ثقيل .. لا تريد أن تقابله .. تتفق مع خادمك على إشارة معينة تعطيها له .. فيعلم ويتخلص من هذا الضيف .. ويكون في هذه الحالة الاعلان قد تم بطريقة خفية لا يفهمها إلا من أراد أن يقول .. ومن استقبل هذا القول بإشارة خفية لا يفهمها إلا من أراد أن يقول .. ومن استقبل هذا القول بإشارة خفية .. والوحي مادام إعلماً بخفاء .. فإنه يقتضى موحياً .. وموحي إليه .. والموحي هو الله سبحانه وتعالى .. يوحى للملائكة .. ويوحى للنحل .. ويوحى لغير أنبيائه .. كلم موسى مثلاً حين أوحى إليه أن يلقي موسى عصاه في البحر .. والشياطين يوحون إلى أوليائهم ولكن حين يطلق اسم الوحي كعلم .. يكون إعلماً من الله لرسوله .. والله سبحانه وتعالى حين يكلم بشراً ويوحى إليه .. لا بد من ثلاث طرق :

.. « ما كان لشراً أن يكلمه الله إلا وحيّاً أو من وراء حجاب » .. كما كلم الله موسى عليه السلام .. أو يرسل رسولاً كجبريل عليه السلام .. وبذلك تكون نعمة الوحي الأولى مطلق الهام .. « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيّاً » يعني إلهاماً .. الله يقذف في قلبه ما يشاء ويعلمه به .. ولكن الخواطر في القلب كثيرة .. فكيف نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى هذه النفس .. حين يوحى الله إلى بشر .. نجد التسليم المطلق في ملكات النفس .. ولا نجد أية معارضة .. ولذلك فإنه أحياناً يأتي وحي من الله بأمر منا مناقض للعقل .. ومع ذلك نقوم به ونتبعه .. مثلاً أم موسى قال لها الله سبحانه وتعالى « فإذا خفت عليه فألقيه في اليم » ..

ولو انك ذهبت إلى أى إنسان يخاف على ابنه من خطر وقلت له ألقه في البحر .. لاتهمك بالجنون .. ولم يتقبل كلامك .. لأنك في هذه الحالة تريد أن تنجى الابن من موت مظنون إلى موت محقق .. فالابن إذا كان يتعرض للخطر .. فإنك تأخذه وتحفيه في مكان آخر .. أو تهاجر به من دولة إلى أخرى .. أو تقوم بإخفائه بحيث لا يظهر أبداً .. ولكن أن تلقي طفلاً بلا حول

القرآن .. والنفس البشرية

ولا قوة في البحر .. فأنت تحكم عليه بموت محقق .. لأنك تقذف به إلى أهواج وتيارات قد تقتله .. فإذا نجا من تيارات البحر فهناك الطيور الجارحة .. وهذا طفل صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه .. فإذا نجا من الطيور كانت له الريح .. تستطيع أن تقلب الصندوق الصغير الذي يرقد فيه .. فإذا نجا من الريح كانت له الأمطار تنزل فتملاً الصندوق بالماء فيغرق .. وهكذا إذا نجا من واحدة لقي مصرعه في الثانية .. فأنت في هذه الحالة لن تنجيه .. ولكنك توصله لموت محقق ..

ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا من ذلك .. أنه مهما حفت بنا الأخطار .. فلا نحس أن هذا غضب من الله .. فقد يكون في هذا الطريق المغلق طريق نجاة .. رسمه الله سبحانه وتعالى .. فلا يدخل اليأس إلى نفوسنا أبداً .. ولا نحس ولا نعتقد أننا انتهينا .. ولكن الذي نريد أن نصل إليه .. هو أنه حين أوحى الله إلى أم موسى أن تلقيه في البحر أو النهر .. قامت أم موسى بوضع طفلها في صندوق .. وألقته في الماء دون أن يكون في نفسها أى معارض يمنع هذا رغم أن العقل يرفضه .. وهذه هي سمات الوحي في مخاطبته للملكات البشر .. الله سبحانه وتعالى حين أوحى إلى أم موسى أن ألقه في اليم .. جعلها تسمع أمره إلى الماء .. فليلقه اليم بالساحل .. والأمر هنا قد صدر من الله سبحانه وتعالى للماء .. وعرفت أم موسى أن اليم سيلقيه في الساحل .. فأرسلت أخته تتبعه لترى إلى أين سيذهب .. وفي أى مكان سيلقيه الماء .

ساعة الوحي :

والرسالات السماوية نجد فيها الوحي بالخاطر .. والكلام من وراء حجاب .. أو إرسال رسول في السماء هو جبريل عليه السلام .. كل أعمال التكليف تصدر بالطرق الثلاثة .. ولكن القرآن الكريم لم يأت إلا بطريق واحد .. فلم يأت القرآن نفثاً في الخاطر .. ولم يأت القرآن كلاماً من وراء

القران .. والنفس البشرية

حجاب .. وإنما جاء بواسطة إرسال رسول من الملائكة .

ويجيء الرسول بصلصلة الجرس تنبيهاً بأن الوحي قد جاء .. ثم بعد ذلك يسمعون حول رأس الرسول دويماً .. إذن هناك تغيير كيميائي يحدث .. ومن هنا لا يمكن أن يلتبس الأمر مادام يتم بهذه الطريقة .. وإرسال رسول هو جبريل عليه السلام بالوحي .. يجعل نفس محمد تطمئن على أن المسألة ليست فيها شك .. بل إن كيمائيات الجسد تتغير .. فيقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كان يجلس بجواره أحد الصحابة .. وحينما جاءه الوحي لامست ركبته الشريفة الصحابي .. فأحس بها كأنها جبل .. كل هذه العمليات تتم دليلاً على أن الوحي قد جاء .. وترك ثقل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الأمر .. فقد كان يعاني إرهاقاً شديداً ساعة الوحي .. ثم بعد ذلك بعض الوقت .. فاشتاق النبي إليه .. وهذا الشوق كان يعطيه طاقة لتحمل الوحي .. وهو المزج بين الطبيعة البشرية وطبيعة المزج .

ولذلك قال سبحانه وتعالى « ورفعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك » .. أى أننا خففنا عليك ما كان يحدث عند امتزاج الوحي بك .. وقد يأتي الوحي بسورة طويلة ويقوم الصحابة بكتابتها .. ثم يأتي رسول الله يقرأها في الصلاة .. وتكون طبق ما نطق به .. اثتوني بإنسان يقول كلاماً من عنده .. وبعد سنوات يردد نفس الكلام بنفس الألفاظ .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأنه وحي يوحى ولأنه كلام الله .. يظل في قلبه طوال حياته .

مصدقاً لقول الله سبحانه وتعالى « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي

يوحى » ..

يأتي بعض الناس في محاولة للتشكيك في القرآن الكريم .. ويقول .. الإنسان قد استطاع الوصول إلى القمر .. وبعد ذلك نفذ من أقطار السموات .. وهذا الكلام لا يتفق مع العقل .. ولا المنطق .. فالمجموعة

القرآن .. والنفس البشرية

الشمسية كلها هي ضاحية من ضواحي الأرض .. وما بين الشمس أو المجموعة والأرض ٨ دقائق ضوئية .. ولكن هناك من الكواكب بيني وبينها مليون سنة ضوئية .. وكل هذه دون الساء الدنيا ..

وهكذا يظهر أن معنى قول الله سبحانه وتعالى « وإنا لموسعون » .. أي أنه فضاء ولا نهاية .

وإذا حسبنا الثانية الضوئية نجد أنها ٣٠٠ ألف كيلومتر .. فإذا ضربنا ٣٠٠ ألف × ٦٠ وهي عدد الثواني في الدقيقة .. ثم ضربها في ٦٠ وهي عدد الدقائق في الساعة الواحدة .. ثم في ٢٤ وهي عدد الساعات في اليوم ثم في ٣٦٥ وهي عدد الأيام في السنة ، ثم ضربنا كل هذا في مليون وهو عدد السنوات الضوئية بيننا وبين بعض الكواكب .. نحس بالبعد اللانهائي في الساء الدنيا وحدها .. وهو بعد تعجز عن إدراكه العقول ..
فعندما يأتي الله سبحانه وتعالى ويقول :

﴿ يَلْمِزُكَ الْخَنَازِقَ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾

(سورة الرحمن)

يقول بعض الناس إن هذا هو سلطان العلم الذي استطاع أن يقودنا إلى القمر .. ولست أدري ما هي العلاقة بين الساء والقمر ..
والله سبحانه وتعالى يقول « أقطار السموات والأرض » ..
والقمر ضاحية من ضواحي الأرض .. ولا دخل له بالساء .. ولا يحتاج إلى سلطان ..
ولو كان الله سبحانه وتعالى .. يقصد سلطان العلم لما قال بعدها « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تتصران » ..

القرآن .. والنفس البشرية

ولكن لماذا جاء الله في هذه السورة بكلمة سلطان .. لو أن كلمة بسلطان لم ترد في القرآن الكريم .. لقلنا أن حديث الاسراء والمعراج ربما كان حديثاً فقط .. لماذا؟ .. لأن النبي صلى الله عليه وسلم صعد إلى السماء .. والقرآن يقول إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا .. ولا تنفذون (ثم يسكت) ولا يقول إلا بسلطان .. وفي هذه الحالة يكون قد حكم الله .. لا أحد ينفذ من أقطار السموات والأرض .. وكلمة بسلطان .. معناها من الله سبحانه وتعالى .. وتكون هذه الآية تأكيداً لصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج .. ولو لم يأت لأثارت تساؤلات كثيرة ..

إذن هذه الآية لا علاقة لها بصعود الإنسان إلى القمر .. لأن القمر ليست له علاقة بحكاية السماء .. أين القمر من السماء؟ .. أين القمر من الكواكب التي تفصلها عنا ملايين السنين الضوئية .. التي لا يستطيع رقم أن يصل إلى حسابها .. فإذا قال إنسان إنه سيرسل بشراً إلى السماء نقول له إن عمر هذا الإنسان سينتهي قبل أن يصعد إلى السماء .. ذلك أنه محتاج قبل أن يجتاز السماء الدنيا إلى ملايين السنين .. ومن هنا يجب أن نلاحظ أن هناك فرقاً بين حقيقة وبين ظل .. وبين جهل .. وبين وهم .. ولا نربط القرآن إلا بالحقيقة العلمية الثابتة .. لأننا لو ربطناه بغير ذلك .. لتذبذب القرآن .

وحكاية ربط النظريات العلمية بالقرآن محتاجة إلى وقفة .. ذلك أن عدداً كبيراً من النظريات العلمية يثبت خطأها بعد فترة من الوقت .. ولذلك لا يجب أن نربط القرآن إلا بالعلم الذي عليه دليل الحقيقة الثابتة .. أما ما عدا ذلك من جهل وتقليد وشك وظن .. فإياك أن تربط القرآن بواحدة من هذه .. لأنك في هذه الحالة تسيء إلى كتاب الله بنية حسنة .. وأنت تربطه بآيات الكون .

.. والذي أريد أن أقوله .. إن القرآن هو المهيمن .. وهو الصادق .. ولو جاءت نظرية علمية تناقض القرآن الكريم .. فإننا نؤمن أن القرآن على حق ..

القرآن .. والنفس البشرية

وهذه النظرية العلمية باطلّة كاذبة .. لماذا .. ؟ لأن القرآن كلام الله .. والنظريات العلمية هي نظريات البشر .. وكلمات الله أصدق إذا ناقض قول بشر .. ولذلك فإن القرآن مهيمن كلامه .. لاشك فيه .. فكلام الله يقين .. ولا عيب أن تتناقض وهما نظرية مع القرآن الكريم .. لأن التناقض لا يحدث هنا في أمر تكليفي بأفعل ولا تفعل .. وهو الأساس في كتاب الله .. فنحن بعد أن عرفنا أن الأرض كرة .. والأرض تدور حول نفسها .. ما الذي زاد في التكليف .. ؟ لا شيء .. والذي لم يعرف هذه الحقيقة من الأميين .. أو الذين لم يحصلوا العلم .. ما الذي حدث لهم .. في أمور حياتهم اليومية وعلاقتهم بالله .. لا شيء .. إذن فهو علم لا ينفع .. وجهل لا يضر .. إذن فالأمور المقصورة في كونيّات الكون .. والكونيات التي تعرض لها القرآن .. دعها حتى تنضج النضج الذي يمكنك بعد ذلك عن يقين من أن تربط واحدة منها بالأخرى ..

وهذا مصداقاً للآية الكريمة ..

﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(سورة فصلت)

ولنضرب لذلك مثلاً .. كنا ندرس ونحن في المدرسة أن الأرض كروية .. وكنا ندرس ذلك بأدلة يرويها العلم .. ولكن العلم الآن ليس محتاجاً إلى أدلة .. لأن الإنسان رأى الأرض وهي كرة .. وليس مع العين دليل آخر .. ثم عرفنا أن الغلاف حول الأرض .. وأنه يتبع الأرض ويدور بها .. إذن الغلاف الجوى جزء من الأرض يتبعها ويدور معها .. والذي يطير في الغلاف الجوى بالطائرة .. لا نقول أنه خرج من الأرض .. بل إنه يطير مع الأرض ..

وكنا نقرأ قديماً قوله الله سبحانه وتعالى « قل سيروا في الأرض » .. فنأخذها على أن الأرض ظرف للسير .. ولكن بعد أن عرفنا أن الغلاف

القرآن .. والنفس البشرية

الجوى جزء من الأرض .. اتضح لنا أننا لانمشى فوق الأرض أو على الأرض .. ولكننا نمشى فى الأرض .. أى بين الغلاف الجوى والقشرة الأرضية .. وإلا لو كنا نمشى على الأرض لوجب أن نمشى فوق الغلاف الجوى .. ولو كنا أجهدنا الأسلوب لفهم فى الماضى .. ما عرفنا المعنى .. ولكن الحقيقة الكونية التى كشفها الله لعباده .. قربت لنا المعنى .. وجعلتنا أكثر فهماً له ..

فعندما يقول الله « سيروا فى الأرض » .. كان يقصد أن الغلاف الجوى جزء من الأرض لا ينفصل عنها .. وأنى حينها أسير .. أسير فوق القشرة الأرضية وتحت الغلاف الجوى .. إذن فأنا أسير فى الأرض .. وليس على الأرض .

قدرة الفاعل

ويقول الله سبحانه وتعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة . وهى تمر مر السحاب .. صنع الله الذى اتقن كل شىء » ..

كان بعض الناس يفسر هذه الآية على أساس أنها فى الآخرة .. ولكن ليس فى الآخرة حسابان .. بل فى الآخر يقين .. أما الحسابان فهو فى الدنيا .. لأن هناك فى حياتنا الدنيا أشياء أخفيت عنا .. وأشياء لانراها .. وقول الله « صنع الله الذى اتقن كل شىء » ..

يدل على أن القضية غريبة عن العقل .. لأنك حين تقرأ الآية وتستغربها .. ولا تستطيع أن تقبله عقلياً .. يقول لك الله سبحانه وتعالى إن هذا من صنع الله .. حينئذ أصبحت حقيقة كونية .. وعليها دليل وهو قول الله سبحانه وتعالى .. وحينما يقول الله .. فإننا ننسب الفعل إلى الفاعل .. حين نتحدث ونقول شيئاً لا بد أن أنسبه لقدرتك .. حتى أعرف هل تستطيع أن تقوم به أم لا .. فإذا كنت ضعيفاً وقلت أنك هزمت بطل العالم فى رفع الأثقال .. حينئذ

القرآن .. والنفس البشرية

أستغرب هذه الحقيقة .. وأشك فيها لأن قدرتك لا تتناسب مع الفعل .. أما إذا قال الله سبحانه وتعالى .. فقدرته تتناسب مع كل شيء في الدنيا .. ولذلك فإذا قال الله فهويقين .. لأنه لا قادر غيره .. ولا قوى سواه .. وتلاحظ هنا أن الله تبارك وتعالى قد قال « تمر مر السحاب » .. كون أن الجبال التي نحسبها جامدة تمر .. هذا دليل على أن الأرض تدور . ولا يمكن أن يحدث المرور هنا إلا إذا كانت الأرض تدور حول نفسها .. ولكن لماذا قال الله سبحانه وتعالى « مر السحاب » .. لأن السحاب ليس مروره ذاتياً .. أى أنه لا يملك قوة ذاتية للحركة وإنما تدفعه الريح .. فكأن الجبال لا تملك هي الأخرى قوة ذاتية للحركة .. ومادامت تمر مر السحاب .. فإنما هناك قوة تدفعها وهي تبعيتها لحركة الأرض .. وعندما نسمع في القرآن كلمة « تحسبها » .. نعلم أن هذا يخص أمور الدنيا .. فلا حسابان في الآخرة وإنما يقين .. وإنما الحسابان في الدنيا لأنها هي التي فيها أشياء مخفاه عنا ولا نراها .. وبعض الناس يتساءل إذا كانت هذه الجبال وهي عالية تمر هذا المر .. أو تتبع الأرض في حركتها فلا بد أن تنفصل عن الأرض .. ولكن الله سبحانه وتعالى خلق توازناً في الأرض ..

فالبروز العالى يتبعه عمق كبير .. وهناك تناسب في الكتل .. وهذا التناسب هو الذى يحفظ توازن الأرض .. وأنت إذا أخذت قطعة من الأرض إلى مركزها .. وأخذت قطعة من القطاع الثانى لابد أن تكون متساوية في الوزن .. وإلا .. لو أقمت عمارة في هذه الحالة .. فإنها تقع أو تسقط .. ولكنك وأنت تقيم عمارة فأنت تأخذ الثقل وهو الطوب ولوازم البناء في مكان آخر .. وهنا فأنت لم تخل بالتوازن .. وكل لفظة في القرآن الكريم إلى آيات الكون .. لا يجب أن تجعلنا متسرعين في تفسير هذه الآيات قبل أن يظهرها الله سبحانه وتعالى .. وكل سر في الكون له ميلاد .. ومهما اجتهد الانسان فإنه لا يكشف له السر إلا إذا جاءت لحظة ميلاده .. ولذلك ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات الكونية في القرآن الكريم حتى يظهرها الله للعقول .. وقال سيدنا عمر .. دعوا هذه الأشياء حتى يأتى إذن الله لعقول أن تجدها .

القرآن .. والنفس البشرية

فيه شفاء ورحمة

وعلى أية حال .. فإن هذه الأشياء لا تدخل في المنهج .. ومن هنا فإنها لا تؤثر على حياة الإنسان .. ولا على انتفاعه بالظواهر الكونية .. فالشمس ينتفع بها من يعرف حقيقتها .. ومن لا يعرف .. وكذلك كل المظاهر الكونية .. وهنا يكون التعب في علم لا ينفع وجهل لا يضر .. والقرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وقد حمل منهج البشرية ليحمي حركة الإنسان الاختيارية .. ومادام الإنسان يلتزم في حياته بالقرآن الكريم .. فإنه يستديم الجمال في الكون .. ويظل الكون جميلاً فيما لك فيه خيار جماله ودقته في الأشياء التي لا خيار لك فيها .

ولقد قلنا أن هذا الكون ليس فيه عمل اختيار كامل .. أو متقن كل الاتقان .. وكلنا نقول حينما نرى ما يحدث في الكون أن الكمال لله وحده .. وفساد الكون يأتي من أشياء داخل فيها اختيار الإنسان بدون منهج الله .. فهذه الأشياء هي التي تفسد الكون .. ولو دخلنا في الأمور الاختيارية بمنهج الله لاستقام جمال الكون ..

وأحب أن أضرب مثلاً على ذلك .. لو ذهبت إلى غابة أو روضة أو حديقة لم يدخلها الإنسان لو وجدت فيها الجمال .. ولو ذهبت إلى حديقة ثانية دخلها الإنسان .. تجد فيها القذارة والتشويه للجمال .. لماذا ؟ منهج الله جاء ليعصم الحياة في حركة الإنسان الاختيارية .. وإذا ظل الجمال في الكون موجوداً رضى الموجود عن الوجود .. واستقامت حركته وظلله الأمن والسعادة والرفاهية .. إذن منهج الله في القرآن .. إنما جاء ليهدى للتي هي أقوم .. لذلك فإن القرآن نزل في وقت اندثرت فيه الرسالات .. وزادت في الشعوب بأكملها العلل والداءات .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن القرآن إنه شفاء ورحمة ..

« ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة »

القرآن .. والنفس البشرية

إذا أردنا أن نعرف لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة .. ولماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى فيه رحمة وشفاء .. والرحمة هي التي تمنع كل داء في الكون يأتي منه فساد المجتمع .. الرحمة تستأصل كل ما لا تحبه في الحياة .. أما الشفاء فهو أن يكون الداء موجوداً فعلاً ثم بعد ذلك تأتي العافية .. والذي حدث عندما نزل القرآن أن الداءات كانت موجودة في الكون من حروب وقتل وتشريد .. واستعباد وتفرقة بين الناس .. يأكل القوي حق الضعيف .. عذاب في الأرض .. كان هذا هو حال المجتمع البشري عندما جاء القرآن .. ولذلك نزلت الرسالة لتشفي البشرية من الشقاء الذي تعيش فيه .. فإذا شفيت البشرية من هذا واستقر منهج الله في الأرض .. وحكم حركة الحياة .. تأتي بعد ذلك الرحمة .. لماذا؟ لأن الأصل في الأشياء أنك تمنع الشر الموجود أولاً .. فإذا منعت هذا الشر والتجأت إلى منهج الله .. ابتدأت الرحمة تأتي لتمنع الشقاء عن الكون .. فإن حدثت غفلة وابتعد الناس عن المنهج .. جاءت داءات جديدة .. فإذا عدت إلى القرآن .. وإلى منهج الله .. جاء الشفاء .. ثم جاءت الرحمة ..



الفصل الثاني

لماذا نتركوا.. المنهج

لماذا تركوا .. المنهج ؟

داء البشرية الأصيل هو الغفلة (وتغيير المنهج) .. ذلك لأن الإنسان يتغاضى عن كثير من منهج الله .. فأنت إذا مرض إينك .. أسرعت به إلى الطبيب تريد له العلاج .. وإذا لم تجد طبيبا أسرعت بطفلك إلى طبيب آخر .. وهكذا تنتقل من طبيب إلى طبيب تتعجل الشفاء لطفلك .. ولكن إذا ترك طفلك الصلاة .. فإنك نادرا ما تؤاخذه على ذلك .. فأنت تهتم بالابن اهتماما بالغاً في أن توفر له مستقبله الدنيوى .. ومن خلال هذا تنسى تماما « المنهج » .

بل إنك في كثير من الأحيان .. تقاوم منهج الله .. لأنه يجد من حركتك في الحياة التي لو تركت لكى تتمتع بالحركة فيها حسب هواك وما تريد .. لفسد العالم كله ..

والمنهج فى الإسلام موصى به من الله سبحانه وتعالى .. وهو محفوظ منه .. أى أن الله هو الذى يحفظه .. والقرآن معجزة .. ومنهج الاعجاز فيه هو أنه ليس للبشر فيه مكان .. فهو كلام الله محفوظ من الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة .. والاعجاز فيه أنه يعطى عطاء لكل جيل يختلف عن الجيل الذى قبله .. والاعجاز فيه إنه صالح لكل زمان ومكان .. والاعجاز فيه أنه يداوى أمراض المجتمعات أينما كان .. وانه كلام الله .. يحمل العلاج لكل الداءات .. ما معنى هذا ؟ معناه أن مجرد القول بهذا الكلام يفسر لنا معجزة كبيرة فى القرآن الكريم .. فالرسالات قد نزلت تعالج داءات المجتمع .. كل رسالة نزلت إلى قوم تعالج الداءات أو الانحرافات الموجودة فيه .

وكان المجتمع البشرى إذا انحرف .. أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا إلى هذا المجتمع .. ليعيد منهج الله ويعلى راية الحق ويعالج الداء .. حتى إنه كان هناك أكثر من رسول فى وقت واحد .. مثل إبراهيم ولوط .. ولكن القرآن جاء يعالج المشاكل برمتها .. لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى كان فى علمه أن الداءات ستوحد .. ولذلك كانت وحدة الحل ضرورة .. ولقد شهدنا ذلك يتحقق .. فما يحدث الآن فى أى مكان من بلاد الدنيا .. نجده بعد دقائق قد عرفه العالم

لماذا تركوا .. المنهج ؟

أجمع .. وأنت تستطيع أن تتركب الطائرة ، وخلال ساعة أو ساعتين تكون قد نقلت من قارة إلى قارة أخرى .. المسافات اقتربت والدنيا كلها أصبحت يسمع بعضها البعض .. وكأنها تعيش في بقعة واحدة .. لم تعد هناك انعزالات في الكون .. بل أصبح الكون كله يعيش قريبا متقاربا .. وبذلك توحدت الداءات التي يشكو منها العالم .. ولونظرت إلى أى دولة من دول العالم .. غنية أو فقيرة .. لوجدتها تشارك باقى الدول فى نفس المشكلة .. البطالة لارتفاع الأسعار .. وقلة الأجور .. ومشاكل الانتاج ..

ولعل أبرز دليل على وحدة الداءات فى المجتمع .. أن الدولة المتقدمة ترسل خبراءها إلى الدول المتخلفة .. لتعالج المشاكل فيها .. ولو أن هذه المشاكل أو الداءات مختلفة .. لما استطاع خبراء الدول المتقدمة أن يعالجوا مشاكل الشعوب الأخرى .. ولكنها واحدة .. دول تغلبت عليها .. ودول أخرى لم تستطع التغلب .. وهذا إعجاز القرآن الكريم .. بأنه تنبأ بوحدات الداءات والمشاكل فى العالم .. فجاء بوحدة الحل لهذا كله فى نظام الحياة الذى قدمه الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين .

وعندما جاء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام الله .. كان هناك قضايا قضى فيها الرسول .. وجاء حكم الله موافقا لذلك مرة .. ومعدلا له مرة .. ولذلك قال المتشككون فى منهج رسول الله .. ان تصحيح الله لأحكام صدرت من رسوله صلى الله عليه وسلم .. دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يخطئ .. نقول لهم أن ذلك جزاف من القول .. فما هو الخطأ؟ وما هو الصواب؟ الخطأ هو أن توجد قاعدة مسبقة ثم يخالفها المخطئ .. فيأتى من وضع القاعدة فيصوبها له .. نحن نعلم الطفل أن الفاعل مرفوع .. فيأتى هو ولا يرفع الفاعل مع انك نبهته إلى ذلك مسبقا .. وفى هذه الحالة تصوب له أنت خطأه .. لماذا؟ لأنه خالف القاعدة الصحيحة التى أعطيت .. ولكن إذا لم يكن هناك قاعدة .. ويأتى التصويب بعد

لماذا تركوا .. المنهج ؟

الحدث .. فلا يقال انه أخطأ .. لأن الذي أخطأ لابد أن يعرف ما هو الصواب .. ولم يكن هناك حكم من الله خالفه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم رده الله عن هذه المخالفة .. ولكن كل الأمور كان يتم الحكم فيها ببشرية الرسول .. ثم يأتي قول الله بحكم الله .. وحكم البشر في قضية لا يمكن أن يكون مساويا لحكم الله . فحين يأتي كلام الله لا يقال إن الله صوب .. وإنما يقال إن الله قد هداه إلى ما هو أصوب .

رسول الله كان عنده عبد اسمه زيد بن حارثة .. وهبته له زوجته خديجة .. ولما علم أهل زيد .. وكان قد خطف منهم وبيع في مكة لما علموا بوجوده في مكة .. جاءوا إليه .. وعندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقدم أهل زيد .. ترك لزيد أن يختار .. إما أن يبقى معه وإما أن يعود مع أبويه .. فقال زيد ما كنت لاختار على رسول الله أحدا .. وهنا أراد الرسول أن يكرم الإنسان الذي اختاره فتبناه .. فكان له أبا وسمى زيد بن محمد .. وكانت عادة التبنى موجودة عند العرب .

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبطل التبنى .. فهدى رسوله إلى ذلك .. فقال تعالى : « أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله » .. إذن عندما وقعت الواقعة لم يكن هناك حكم من الله خولف .. ولكن التصرف كان يتمشى مع الأحداث .. ثم جاء حكم الله الذي نزل عليه الجميع .. وانظروا إلى دقة الأداء القرآني في قوله تعالى : « هو أقسط » .. أى أنه أفضل ..

ومعنى ذلك .. أنك أنت يا محمد فعلت ذلك .. ولكنى سأدلك على ما هو أقسط عندي .. لأنك قريب منى .. ورسول إلى البشر أجمعين .. ولذلك فلا بد أن أهديك إلى أقوم طريق .. وأعلمك إلى ما يقربك منى .. إذا أردت أن تعرف فأعلم انه أقسط عند الله أن تدعو زيدا إلى أبيه .. أى زيد بن حارثة .. ذلك هو الأقرب إلى الله سبحانه وتعالى .. وحين تنزل الآية .. يتخذ الرسول

لماذا تركوا .. المنهج ؟

الكريم على الفور طريق القربى إلى الله سبحانه وتعالى ويبطل التبنى .

ويأتى بعض الناس ليقول هناك تناقض بين هذه الواقعة وبين قوله تعالى :
« وما ينطق عن الهوى » .. ونقول لكل من يثير هذا الكلام : انك لم تفهم معنى
الآية الكريمة « وما ينطق عن الهوى » معناه أنه لا ينطق عن هوى فى نفسه ..
فإذا كان صديقاً لأحد أو قريباً لفرد أو يجب إنساناً فلا يجعله هذا الهوى يبتعد عن
الحق أو يقضى بغيره .. رسول الله حين ينزل إليه الحق .. لا ينطق عن هوى
أبداً مهما كان ذلك الذى تهواه نفسه .. فهو دائماً مع الحق .. ولذلك كان
الناس إذا اختلفوا حول أى قضية .. كان من له الحق يطلب أن يحكموا فيها
رسول الله .. ومن كان عليه الحق هرب من حكم رسول الله .. ذلك أنهم
يعلمون جميعاً أن رسول الله مع الحق .. ولا ينطق عن الهوى .

ولهذا كانت كل لفتات الله سبحانه وتعالى إلى رسوله .. إنما هى لفتات لزيادة
القربى .. ولفترات حتى لا يحمل رسول الله نفسه فوق طاقته .

رسول الله فى قضية ابن أم مكتوم نزلت فيها الآية الكريمة : « عبس وتولى إن
جاءه الأعمى »

ما الذى اختاره الرسول .. إختيار الأمر السهل أم الأمر الصعب ؟ لقد ترك
الرسول السهل إلى الصعب .. وبدلاً من أن يتخذ الطريق السهل ذهب يتعب
نفسه مع قادة كفار قريش .. وهنا يطالبه الله بأن يلتجئ إلى الأسهل .. لأنه
يجب رسوله .. والرسول يجب الله ويريد أن يتحمل فى سبيله مشقة هائلة ..

ولذلك لم يعاتبه الله ..

وهكذا لا بد أن نعرف مقام محمد عند ربه .. فالله سبحانه وتعالى يريد لنبىه
أقرب مقام .

وفى نفس الوقت تأتى رحمة الله أن تحمل رسوله ما لا يطيق : « ما أنزلنا عليك
القرآن لتشقى » ..

لماذا تركوا .. المنهج ؟

فقد ألزم محمد نفسه بشيء أكثر مما يجب عليه .. وهذا من منطلق الأمانة في التبليغ والأداء .. والرسول صلى الله عليه وسلم حين يبلغ هذه الآيات كلها ولا يكتب منها شيئاً فهي أمانة البلاغ .. والقرآن قد جاء إلينا كما قاله الله سبحانه وتعالى .. الله تكلم .. وجبريل نقل كلام الله إلى محمد .. ومحمد نقله إلى الصحابة والدنيا كلها .. والقرآن كما قلنا الكون يفسره .

وهناك اتجاهان الآن .. اتجاه يحاول أن يلصق العلم بالقرآن .. واتجاه آخر يرفض أن يقترن العلم بالقرآن .. لأن النظرية العلمية قد تكون غير صحيحة .. والمنهج الأول خاطيء .. والمنهج الثاني خاطيء .. لماذا ؟ لأن هناك في الكون حقائق علمية ونظريات علمية .. وأن تربط القرآن بنظريات علمية خطأ .. لأن النظرية العلمية قد تخطيء .. ولكن هناك الحقائق العلمية .. وابتعادك بالقرآن عن النظريات العلمية تماماً قد يجعلك لا تلحظ المعجزات القرآنية وآيات الله في الكون .. ولكن الذي يحدث أن النظريات العلمية إما جهل .. وهو أن تؤكد حقيقة علمية غير صحيحة .. وإما تقليد أمام نظرية علمية واقعة وليس عليها دليل .. وإما علم حقيقي إذا كانت النظرية واقعا علميا وعليها دليل مجزوم به .

ولكن هل يصطدم القرآن بالعلم ..؟ .. الحقيقة لا .. القرآن لا يمكن أن يصطدم بالعلم .. لأن الله هو الذي خلق الكون .. وأنه سبحانه وتعالى هو الذي أنزل القرآن وهذا كلامه .. ومادام القائل هو الفاعل ، فلا يمكن للعلم أن يصطدم مع القرآن أبدا .. وإنما القرآن يصطدم مع الجهل .. مع الشك .. مع الظن .. مع الوهم ومع التقليد .. أما ما ثبت أنه علم .. فلا يمكن أن يصطدم مع القرآن الكريم .. لأنه كما قلت .. قائل القرآن هو خالق الكون .. ومادام القائل هو الفاعل فلا توجد حقيقة كونية تتناقض مع حقيقة قرآنية .. وهو ما يؤكد كل علماء العالم .

لماذا تركوا .. المنهج ؟

الفهم الخاطيء

ولكن ما الذى يحدث .. ؟ ومتى ينشأ التناقض ؟ حقيقة علمية وحقيقة قرآنية لا تناقض .. إنما التناقض ينشأ من أن هناك حقيقة كونية تحتوى على نسبة من الخطأ .. أو حقيقة قرآنية يُساء فهمها .. فتصدم بحقيقة كونية .
مثلا بعض الناس يقول إن القرآن الكريم أكد عدم كروية الأرض .. فإذا سألتهم من الذى أعطاكم هذه الحقيقة القرآنية .. قالوا الآية الكريمة :
« والأرض مددناها » .. أى بسطانها .. أى أن الأرض مبسطة بنص القرآن الكريم ..

نقول لهم هذا الفهم خاطيء .. فقول الله سبحانه وتعالى « والأرض مددناها » .. يحمل الدليل الاعجازى على كروية الأرض . ويستبعد أن تكون الأرض مسطحة .. بل إن الآية الكريمة « والأرض مددناها » لا تصح إلا إذا كانت الأرض كروية .. كيف ؟

القرآن الكريم قال : « والأرض مددناها » أى بسطانها ، ولكن هل قال القرآن الكريم أو حدد أى تلك التى مددناها أو بسطانها .. لا لم يحدد .. ولكنه ذكر لفظ الأرض على إطلاقها .. أى أنك إذا نزلت على أى أرض على سطح الكرة الأرضية ترى الأرض مبسطة أمامك .. سواء كان المكان الذى نزلت فيه .. فى خط الاستواء أو فى القطب الشمالى أو الجنوبى .. إذن الأرض ممدودة حيثما ذهبت .. وأينما كنت .. فإذا كانت الأرض مربعة أو سدسة أو مثلثة أو على أى شكل هندسى آخر يتنافى مع الحقيقة القرآنية فى قول الله سبحانه وتعالى « والأرض مددناها » .. أى « بسطانها » .. لأنك ستصل فيها إلى مكان تكون فيه الأرض ممدودة .. لا بد أن تكون الأرض كروية .

ولذلك عندما يقولون إن كروية الأرض تصطدم مع حقيقة قرآنية .. نقول : إن الصدام لم يحدث بين حقيقة علمية قرآنية ... بل الصدام الذى حدث هو بين فهمك أنت لحقيقة قرآنية وإعطائها غير معناها .. فأنت قد أخذت الحقيقة

لماذا تركوا .. المنهج ؟

القرآنية بالعكس .. فاصطدمت مع الحقيقة الكونية .. بينما لودققنا في المعنى لوجدنا أن الحقيقة القرآنية والحقيقة الكونية لا اصطدام بينهما .. ولذلك فليطمئن الغيورون على دين الله .. الذين لا يريدون أن يربطوا القرآن بالمسائل العلمية .. نقول لهم إذا أردتم أن تربطوا القرآن فيجب أن يكون ذلك حقيقة قرآنية بحقيقة كونية .. وحينئذ لا تصادم أبدا .. لأن حقائق الكون لا تتعارض مع الحقائق القرآنية ..



مثل آخر .. بعض الناس يأتى ويقول لك تفسيرا لقول الله سبحانه وتعالى « ويعلم ما فى الأرحام » .. ويقولون إن بعض الأطباء أصبحوا يأخذون عينات .. ويعرفون هل جنين الأم ذكر أم أنثى قبل الوضع بفترة قليلة .. نقول لهم : أولا ما يذكر عند الأطباء ليس حقيقة كونية .. لأن هناك نسبة فى الخطأ تحدث .. تقل أو تزيد .. ويضاف إلى ذلك أن الاختيار هنا فيه نسبة ٥٠٪ خطأ و ٥٠٪ صواب .. أى أن هناك احتمالين لا ثالث لهما .. إما أن يكون ذكرا وإما أنثى .. ومن هنا يكون التمييز سهلا .. بل إننا نرى عددا من النساء ينظرن إلى امرأة ويقلن لها ستأتين بولد .. أو ستلدين أنثى .. وتضع المرأة فعلا حسب النبوءة .. فهل هؤلاء السيدات اللاتي لم يقرأن سطرا واحدا فى حياتهن فى الطب أو فى غير الطب .. يعلمن ما فى الأرحام .. أم أن المسألة مجرد تخمين .. لو أن الاختيار بين بدائل عديدة ثلاثين أو أربعين مثلا .. وجاء العلم بالنوع الحقيقى من بين الثلاثين احتمالاً لقربت المسألة من أن تكون حقيقة علمية .. ولكن البدائل هنا واحد فقط .

أن كلمة (ما) تعنى أكثر من ذلك بكثير .. فهى تعنى هل هو ذكر أم أنثى ؟ .. شقى أم سعيد ؟ .. أبيض أم اسود ؟ .. ما هو عمره وما هو رزقه .. وما هو نصيبه فى الحياة .. وما سيحدث له منذ لحظة دخوله فى الحياة إلى لحظة خروجه منها .

ولعل القرآن الكريم يفسر لنا شيئا من مدلول كلمة ما .. فى قوله سبحانه

لماذا تركوا .. المنهج ؟

وتعالى في سورة مريم : « يا زكريا إن نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » .. وقوله تعالى :

﴿ يَبْحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٤﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا
وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٥﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٦﴾ وَسَلَامٌ
عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة مريم)

وقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ فَنادتهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا
بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

بماذا أنبا الله زكريا .. ؟ .. أنباه أن امرأته وهى عاقر ستلد .. وأنها ستلد
غلاما .. سيطلق عليه اسم يحيى ، وهو اسم لم يطلق على أحد من قبل .. وأن
هذا الغلام سيكون سيدا ونبيا من الصالحين .. وأنه سيأخذ الحكم صبيا ..
وسيكون تقيا وبارا بوالديه .. ولن يكون جبارا .. وأن السلام سيكون عليه يوم
ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا .. كل هذا أخبر الله به زكريا .. بالغلام قبل أن
يوجد في بطن الأم أو قبل أن يتم الحمل .. فزكريا كان يصلى في المحراب ..
ويدعو الله بأن يرزقه بولد .. حين أخبرته الملائكة .. لم ينتظر حتى يتم
الحمل .. ولا هو اقتصر على ذكر أو أنثى .. ولكنه تناول أشياء كثيرة ومتعددة
ستحدث بعد ميلاد الطفل بسنوات عديدة .. وعرفها زكريا .. فمن ذا الذى
قال إن كلمة (ما) تعنى ذكرا أو أنثى فقط .

لماذا تركوا .. المنهج ؟

لقد روى الله سبحانه وتعالى لذكريا مجمل الأحداث الهامة في حياة ابنه يحيى .. قبل أن تحمل أمه فيه .. فإذا قلت إن كلمة « ما » تعنى ذكرا أو أنثى .. نقول لك من الخطأ أن تقصر معنى القرآن على شيء .. وأن تربط القرآن بكونيات لم تثبت لأن فيها نسبة خطأ .. كما هو الحال بالنسبة للذكر أو الأنثى .. ولعل هذا يذكرنا بما حدث في أول العصر الحديث حين ربط بعض العلماء بين الكواكب السيارة السبع والسموات السبع .. ثم مرت السنوات واكتشف كوكب ثامن .. وكان هذا الذي حدث محاولة لربط ظن كوني بحقيقة قرآنية .. والعلماء في ذلك الوقت فرحوا عندما وجدوا الكوكب الثامن .. ونسوا أن كل هذا في السماء الدنيا .. ثم بعد ذلك زاد الكشف حتى أصبح عدد الكواكب أحد عشر .. وأن بيني وبين الشمس ٨ دقائق ضوئية .. وبينى وبين عدد من الكواكب وهو ما سبق أن تحدثنا عنه .. فإذا جاء أحد يحاول أن يربط نزول الإنسان على القمر كحقيقة علمية بالآية القرآنية « لا ينفذون إلا بسلطان » . ويقولون إن هذا هو سلطان العلم .. نقول أنك قد جهلت حقيقة قرآنية . على أن الله سبحانه وتعالى قد تحدى الجن والأنس أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض .. والقمر ضاحية من الأرض .. والمجموعة الشمسية كلها دون السماء الدنيا .



والإنسان في كثير من الأحيان يغتر بقوته .. ويحاول أن يجعل من هذه القوة ميزانا للكون كله .. مع أن الله سبحانه وتعالى قد جعل القوة البشرية محدودة .. والقدرة البشرية على الاختيار مركزة في الحدود .. فالجسد الإنساني مثلا خارج قدرة الاختيار .. كيف أنت .. ما هو شكلك .. طويل أم قصير .. كيف تنمو؟ .. كل هذا خارج منطقة الاختيار .. أعضاؤك تعمل خارج الاختيار .. قلبك يدق سواء أردت أم لم ترد ..

ومعدتك لا تنتظر أمرا منك حتى تقوم بهضم الطعام .. وأنفك ورئتك لا تأخذان إذنا منك لتستنشق الهواء .. تبقى بعد ذلك الحركة الاختيارية .

لماذا تركوا .. المنهج ؟

وهي تسير مع جزء محدود من حركة الحياة .. هناك أشياء تركك الله سبحانه وتعالى تختارها دون أن يقيدك .. فأنت حر مثلا بين أصناف متعددة من الطعام .. تختار منها ما تشاء دون أن يكون هناك عقاب عليك .. وأنت تستطيع أن تذهب لتعيش في أى بقعة من بقاع الأرض .. دون أن يحاسبك الله لماذا تركت هذا البلد وعشت في تلك .. ولكن الأمر الاختياري الذى عليه الحساب هو فى التكليف .. فقد أعطاك الله القدرة أن تفعل ولا تفعل .. فعرض عليك الصلاة .. وأنت تستطيع أن تصلى وأن تترك الصلاة .. وكذلك الصوم .. وكذلك الزكاة .. لماذا ترك هذه التكليفات وأعطى لك فيها أن تختار فى أن تفعل ولا تفعل .. لأن الله سبحانه وتعالى يريدنا كذلك .. فلو كان الله سبحانه وتعالى يريد أن نذهب إليه قهرا .. لاستطاع وهو قادر على ذلك .

وإذا أراد أن يخلقنا مسخرين لعبادته .. لكننا كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يثبت أن من خلقه من يذهب إليه اختيارا . وهو قادر ألا يذهب .. لماذا .. ؟ لأن هذه صفة المحبوبة للمعبود .. لو أن الله سبحانه وتعالى جعل كل الناس مؤمنين .. لكان ذلك صفة القهرية .. ولكن الله يريد المحبوبة التى تجعلك وأنت قادر على ألا تطيع .. وأن تطيع .

وإذا أردنا أن نضرب بذلك مثلا .. والله المثل الأعلى .. نقول : هب أن لديك عبيد .. واحدا اسمه سعد وواحدا اسمه سعيد .. الأول تقيده وترسله إلى حيث تريد .. لا يجرؤ على أن يعصيك لأنك تستخدم معه القهر .. أما الثانى فتتركه بلا قيود .. ولكنه يفعل ما تطلبه منه مع أنه قادر على العصيان .. فى هذه الحالة يكون الثانى يطيع أوامرنا لأنه يحبك .. وقد يكون هذا الحب من العطاء .. عطاء الله لنا فى الدنيا والآخرة .. ذلك العطاء الذى يسترنا وينجينا ويحيينا الحياة الطيبة .. ثم يعطينا الجنة فى الآخرة .. يدفعنا إلى عبادة الله حبا فى عطاءه .. وبعض المتصوفين يعرفون أن عطاء الله هو الأنس بقلائه .. هذا

لماذا تركوا .. المنهج ؟

يكون من أجل لقاء الله سبحانه وتعالى والتنعم بهذا اللقاء .
ولقد قالت رابعة العدوية .. « اللهم إن كنت تعلم انى أعبدك طمعا في
جتتك فاحرمنى منها .. وإن كنت تعلم انى أعبدك خوفا من نارك فأدخلنى
فيها .. فأنا أعبدك لأنك تستحق أن تعبد » ..

وهكذا خلقنا الله سبحانه وتعالى فى الحياة مختارين لنعبده .. وأنت حين
تستعرض أفراد الانس وأفراد الجن .. تجد فوارق فى العطاءات .. البشر منا
كأناس هم أفراد متساوون .. إنسان وإنسان .. ولكن قد يعطى الله فرصا
لأحدنا أكثر من الآخر .. وكذلك توجد هذه الفوارق فى جنس الإنسان
والجان .. فالله تبارك وتعالى خلق الإنسان من طين وخلق الجن من نار ..
وعناصر المواد التى تكون منها كإنسان تتحكم فى طبيعته .. فإذا وقفت أنا مثلا
وراء جدار فإنه لا يظهر منى شىء من أمام هذا الجدار .. أى أنى بطبيعتى
كإنسان من طين .. لا أستطيع أن أخترقه ، ولا أن يراى أحد وأنا محتبىء
خلفه .. ولكن لو أوقدنا نارا خلف هذا الجدار وأنت جالس أمامه .. فربما ترى
وهج النار .. إذن فالوهج نفذ من الجدار .. بينما الطين بقى جامدا لا يستطيع
أن ينفذ .. كذلك الجن فقد خلقه الله من نار .. أى أن الله سبحانه وتعالى
أعطاه خصائص لم يعطها للإنسان .. وهكذا كان الجن بحكم خلقه متميزا عن
البشرية .. ولكن الله سبحانه وتعالى يأتى للجنس الأدنى وهو المخلوق من طين
ويجعله يتميز على الجنس الأعلى .. فيأمر الملائكة أن يسجدوا له .. ويسخرهم
لشئونه .. ويعطى لمن يشاء القدرة على أن يسخر الجن ويجعله خادما له .. كما
أعطى لسليمان عليه السلام .. بحيث كان البشر هنا حاكما للجن وأجناس
أخرى متميزا عليها .

قوة بارادة الأقوى

ولماذا فعل الله سبحانه وتعالى ذلك .. ليميز أن المسألة ليست بعنصر
الخلق .. ولكن بارادة الخالق .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه يخضع

لماذا تركوا .. المنهج ؟

الأعلى للأدنى ، لنعلم أن القوانين لا تحكم الله سبحانه وتعالى .. ولكن الله هو الذى يحكم القوانين .. وهذه لا قيود لها على قدرة الله سبحانه وتعالى .. وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى من صفاته .. ولكن الله شاءت رحمته فى كل أمر غيبى عنا .. أن يقربه إلينا ليجعله فى حدود الفهم البشرى وتلك هداية للبشر ورفقا بعقولهم .. فالله سبحانه وتعالى مثلا جعل الذرية من الذكر والأنثى .. هذا هو قانون الحياة .. ولكنه يأتى بخلق آدم بلا أب ولا أم .. ويخلق حواء بدون أنثى من ضلع آدم .. ويخلق عيسى ابن مريم عليهما السلام .. ثم يخلق من الذكر والأنثى .. وهذا قانون الكون .. ولكنه يخضع لمشيئة الله .. فيجعل الله سبحانه وتعالى من يشاء عقيما ، أى أنه رغم وجود الذكر والأنثى لا تحدث ذرية .

والله سبحانه وتعالى يضرب لنا هذه الأمثال كدليل على طلاقة القدرة .. وأن القوانين لا تحكم الله .. وقدرة الله فوق كل قانون .. والله يفعل هذا فى أمثلة قليلة وليس على العموم .. لأن ارادة الله شاءت أن تمضى الحياة فى الأرض بالأسباب .. أى بالقوانين التى وضعها الله لها .. ولكن حتى لا نترك الله ونعبد هذه القوانين والأسباب .. ونعتقد انها تعطى وحدها دون المسبب أو الخالق .. فقد ضرب الله لنا هذه الأمثلة .. لنعرف أن ارادة الله فوق القوانين وفوق كل شىء .. فإذا جعل الله جنيا فى خدمة الانس .. مصداقا لقوله :
« وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا »

وحيث نقرأ هذه الآية نعرف أن الله إذا أعطى فرصا غير متكافئة يحاسب عليها .. أى أن الأساس فى الكون هو الفرصة المتكافئة للجميع .. كل إنسان ميسر لما خلق له .. فيه ميزات تساوى الميزات التى يحصل عليها الآخر .. فإذا استطاع إنسان أن يسخر جنيا حصل على فرصة أكبر من أفراد جنسه .. لأنه فى هذه الحالة يكون فى خدمته من يملك قانونا أقوى .. ويستطيع أن يفعل ما لا يستطيع أن يفعله غيره من البشر .. حينذاك إذا استبد بهذا الإنسان هواه وأنانيته .. واستخدم هذه الميزة فى الشر بدلا من الخير .. سلط الله عليه ما يجعله مرهقا

لماذا تركوا .. المنهج ؟

متعبا في حياته .. ولذلك نجد أمثال هؤلاء الناس يعيشون حياة تعسة شقية .. وينتهى أمرهم بالانتحار أو الجنون .
إذن الذى يأخذ فرصة أعلى من غيره .. قد تشقيه ولا تسعده .. والذى يعطيه الله فرصة أقوى إذا لم يستخدمها فى الخير .. سلط عليه الشقاء ..
ولذلك نجد من يصل إلى فرصة أعلى .. نحن نغبطه على أنه سيعيش حياة كريمة .. ولكن الحقيقة أنه ربما تجلب له هذه الفرصة الشقاء والتعاسة .. وذلك هو قانون التوازن فى الدنيا .. أى مجتمع .. المجتمع الذى لا يصلح إلا إذا تكافأت فيه الفرص .. قرية آمنة مطمئنة .. ثم يأتى إنسان ويحصل فيها على السلاح .. يعطيه فرصة غير متكافئة مع أهل القرية .. ويجعله هو الأقوى إذا استخدم هذا السلاح فى الدفاع عن القرية ضد أى مجرم يعيث بأمنها .. أو ضد أى إنسان يريد أن يهددها .. بارك الله فى عمله .. ولكن إذا استخدم هذا السلاح فى فرض الأتاوات على الناس والظلم فى الأرض .. وأن يكون هو الأقوى .. سلط الله عليه من أهل القرية .. أو من خارجها .. من يأتى ويحمل سلاحا ويقف ليهدده هو .. ويصبح هنا تكافؤ فرص .. لأن الذى يمتلك السلاح فى هذه الحالة يخشى ذلك القادم أو الذى يحمل سلاحا من أهل القرية .. فيبدأ فى مراجعة نفسه وابتعد عن طغيانه .. فإذا أخذه غرور الدنيا ولم يفعل ذلك .. فقد يدفع حياته ثمنا لتجبره وبعدها عما أمر به الله ..

إذن فوجود الإنسان الذى يخل بتكافؤ الفرصة فى المجتمع .. يفسد هذا المجتمع .. فيأتى الله سبحانه وتعالى بمن يعيد التوازن إليه .. وفى هذا التوازن يكون الصلاح .. فتكافؤ الفرص فى الحياة هو التوازن .. فإذا اختل ذلك فسد المجتمع .. كذلك الذى يستعين بقوى غير قوى البشر كالجن مثلا .. نجد شكله منفرا .. ورغم أنه قد يستخف بعقول بعض البشر .. ويحصل منهم على أموال .. إلا أنك دائما تجده مفلسا معسرا ويموت فى أسوأ حال .. إذن الفرصة غير المتكافئة لا تجلب له إلا الشقاء .. كما قال الله سبحانه وتعالى : « فزادوهم رهقا » .

لماذا تركوا .. المنهج ؟

سليمان .. والجان

والله سبحانه وتعالى حين سخر الجن لسليمان .. سخرهم لنفع الناس وعمارة الأرض .. ولم يسخرهم في الايذاء .. فالذين يسخرونهم في الايذاء يجنون الشر .. وهذه رحمة من الله تبارك بعباده .. لأنه لو أعطى لعدد من البشر فرصة لم تتح للآخرين .. فإن القسوة والشقاء سيسودان العالم .. خصوصا إذا استغل من أعطى هذه الفرصة ليزداد بها شرا ومعصية .

ونريد أن نلفت الأنظار هنا إلى قوله سبحانه وتعالى في تسخير الجن لسليمان :
« وما كفر سليمان » .. أى أن الله سبحانه وتعالى حين سخر لسليمان الجن ، كان عليما بأن سليمان لن يكفر .. ولن يستخدم هذه القوة المسخرة له في الشر .. ولكن استخدمهم في الخير .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى عن الملكين هاروت وماروت اللذين علما الناس السحر .. « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » .. وكلمة (لا تكفر) معناها انك إذا أخذت قوة ظاهرية في الكون فايك أن تستعملها في غير الخير .. وهذا ينطبق على العموم في أى قوة يعطيها الله لك .. فأنت وقت الطلب تقول يارب اعطني كذا لأعبدك حق عبادتك وافعل الخير في الكون .. فايك أن تستعملها في غير الخير .. فإذا أعطاك الله غرتك قوتك الظاهرية ، وبدأت تفسد في الأرض .. فإذا أردت حكما مثلا دعوت الله سبحانه وتعالى أن يمكنك في الأرض .. واستجاب الله لك .. فإذا بك بعد أن يمكنك الله في الأرض تستخدم ما أعطاه لك في محاربة الحق ونشر الظلم والفساد .. معتقدا انك في منعة من الله سبحانه وتعالى .. وهكذا وقت أن كنت تطلب تدعى الخير .. وبعد أن تمكنت اتجهت إلى الشر .

وهنا يعلمنا الله مسلك الشيطان في النفس البشرية .. فأنت إذا ملكت سيأتى الشيطان ليوسوس في نفسك .. كما وسوس في نفس آدم .. فيوحى إليك أن

لماذا تركوا .. المنهج ؟

ملكك هذا لا يبلى .. أى لا يزول .. وانك خالد لن تلقى الله ليحاسبك ..
فتنسى يوم الحساب .. وتبدأ تفسد فى الأرض .. ثم بعد ذلك يزول ملكك ..
ويذهب عنك الجاه والسلطان .. وتلقى الله وحيدا مجردا من كل جاه الدنيا ..
حينئذ يكون الشيطان قد أفسد عليك الفرصة التى أخذتها .. بدلا من أن تكون
أنت الأعلى أصبحت أنت الأسفل .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى طلب منا
حين نقرأ القرآن .. أن نستعيد بالله من الشيطان الرجيم .. لماذا ؟

لأنك لو استعنت بالخالق بين خلقه .. لا يستطيع هذا الخلق أن يفسد
نفسك .. والشيطان يريد وأنت تقرأ القرآن أن يمنعك من أن تتلقى فيوضات
القرآن .. فإذا استعنت بالله فالشيطان يحمد .. لأنه إذا ذكر الله حمد الشيطان
الرجيم .. إذن فقول الله إذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ..
يقال ليصبح جهاز استقبالك لصفاء القرآن بلا شوائب .

والقرآن كلام الله .. فأنت تسمعه سبحانه وتعالى يتكلم .
ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا »
لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتكلم .. وأنت حين تتحدث وقت
قراءة القرآن فانك لا تشوش على قارئه .. ولكنك تشوش على كلام الله ..
ولذلك فإن جعفر الصادق .. رضى الله عنه .. كان أكثر أهل بيت رسول الله
علما بأسرار القرآن .. لذلك قال : عجبت لمن يصيبه الهم والخوف .. خوف
المكربه .. أنه لم يقرأ قول الله تعالى « حسبنا الله ونعم الوكيل » وقد سمعت الله
بعدها يقول : « فأنقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » .. وهكذا كان
يقول عن القرآن دائما سمعت الله يقول :

والقرآن سمي قرآنا لأنه يقرأ .. وسمى كتابا لأنه يكتب .. وجعله سبحانه
وتعالى حفظا فى الصدور وتسجيلا فى السطور .. والقرآن نزل ليذكر الناس
الطريق المستقيم .. ويرسم لهم الحياة الطيبة الآمنة هى الأرض .. لكن الله

لماذا تركوا .. المنهج ؟

سبحانه وتعالى لينصف خلقه ولا يجعل لأحد حجة يوم القيامة .. حفظ القرآن من التدخل البشرى ..

فلم يستطع أحد .. ولن يستطيع أن يخفى شيئا من القرآن .. أو يبدل أو يغير فيه .. ولو نظرنا إلى منهج القرآن .. لوجدنا الناس كلما تقدم بهم الزمن .. تحللوا من المنهج وابتعدوا عنه .. ولكن مع تحللهم من المنهج فإن حفظ القرآن في ارتفاع مستمر .. وهنا تظهر معجزة من معجزات القرآن الكريم .. ذلك أن الله قد علم ألا هوى النفس البشرية .. وعلم أن هذه النفس ستحيد عن الطريق المستقيم .. فماذا فعل الله .. ؟

لقد كانت الكتب السماوية التي سبقت القرآن أمانة في عنق البشر .. ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ائتمن البشر عليها .. هم الذين يحفظونها من أى تعديل أو تحريف .. أو إغفال لذكر أحكام الله .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد اختص القرآن بأنه هو الذى يحفظه مصداقا لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .. وبذلك بقى القرآن الكريم أربعة عشر قرنا .. وسيبقى إلى يوم القيامة محفوظا من أى عبث بشرى .. أو أى تدخل من إنسان مهما كان .

لقد بذلت محاولات ودبرت مؤامرات .. ولكن أحدا لم يستطيع ولن يستطيع أن يمس القرآن الكريم .. لأن الله سبحانه وتعالى يحفظه ويقيه من أى تحريف أو تدخل بشرى .. ولذلك عندما درس المستشرقون القرآن والكتب السماوية الأخرى .. وجدوا تعارضا بين الكتب السماوية وبين حقائق الكون .. ولكنهم لم يجدوا أى تعارض بين القرآن وبين قوانين الكون .. لماذا .. ؟ لأن الكتب الأخرى دخلها هوى البشر .. نسوا بعض ما ذكروا به .. والذى لم ينسوه أخفوه .. والذى لم يخفوه حرفوه وبدلوه .. أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى يحفظه .. لذلك فإنك ترى أيضا أنه بينما خط المسلمين في تطبيق المنهج يقل مع مرور الزمن .. ومع المغريات المادية ، فإن خط حفظ القرآن يعلو ويتضاعف .. بل إن الله سبحانه وتعالى قد سخر غير المؤمنين للمساهمة في خط حفظ

لماذا تركوا .. المنهج ؟

القرآن .. ليدل على أن هذا الخط منه هو وحده لادخل لبشر فيه .. فتجد ألمانيا مثلا تطبع القرآن الكريم بشكل جميل في لوحة واحدة .. وإيطاليا واليابان تطبعان القرآن طباعة متقنة .. وربما لاتقومان بطبع الانجيل ولا التوراة .. وتجد الانسان يضع المصحف في جيبه أوفى سيارته .. وآيات قرآنية تعلق على الصدور .. والقرآن في كل بيت حتى ذلك الذى لايتبع منهج الله .. وتعجب أنت أن خط الايمان يميل إلى الهبوط .. وخط حفظ القرآن يميل إلى الصعود .. نقول لك : أنه إذا كان الخطان يتبعان إرادة البشر لكان المنطق أن يسيرا في إتجاه واحد .. ولكن هناك خطأ يتبع الارادة البشرية وهو الايمان .. وخطا يتبع إرادة الله وهو حفظ القرآن .. الخط البشرى يتناقص والخط الالهى يعلو ويزداد .. ذلك لأن الحفظ مقطوع به من الله .. وبوعده منه سبحانه وتعالى .. ولو كان الامر منطقياً لأهملنا تسجيل القرآن كما أهملنا تسجيل منهجه من حياتنا .. ولكن الاهمال يحمل سلوك البشر .. وتوثيق المنهج من حيث تسجيله وحفظه والعناية به هو من الله .. إذن فلا عذر لأحد .. فإن منهج الله حفظا وتسجيلا لن يختفى من الوجود .. وسيظل القرآن لكل من أراد أن يستقيم ويتبع المنهج .

ولكن الناس حين يصرفون أنفسهم عن القرآن يكونون داخلين في دائرة التكليف أو الأمر الاختيارى .. ودائرة التكليف تستطيع فيها أن تفعل . تطيع أو لا تطيع .. ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال إفعل فلا بد أنك تستطيع ألا تفعل .. ومادام قد قال لاتفعل فإنك تستطيع أن تفعل .. وإلا لما قالها .. والله سبحانه وتعالى قد جعل لك أمورا إختيارية .. وأمورا بلا إختيار .. ومعظم الأشياء خلاف العبادة والتكليف وأمور الحياة الشخصية .. الانسان غير منحرف فيها .. شكل الانسان .. هل هو طويل أم قصير .. ذكى أم غبى .. أبيض أم أسود ، قوى البنية أم ضعيف الجسد .. من هو أبوه ومن هى أمه .. ماهو البلد الذى ولد فيه .. كل هذا لا إختيار للبشر فيه .. والكون بنظامه المتقن هواؤه وماؤه .. أرضه وسماؤه .. شمس وقمره .. نجومه وجباله .. نظامه المتقن الذى لا يختل .. البالغ الدقة .. كل هذا لا إختيار للبشر فيه ..

لماذا تركوا .. المنهج ؟

الحياة والموت .. الصحة والمرض كلها عوامل لا تخضع للمشيئة البشرية .. رغم ما يدعيه عدد من الناس .. فالطبيب هو واسطة الشفاء .. وليس معطى الشفاء .. والله سبحانه وتعالى أحيانا يهدى أصغر الأطباء إلى الداء فيعالجه .. وأحيانا يعمى أكبر الأطباء عن الداء فلا يستطيع له علاجا ..

بل إن الجنس البشرى لا يدخل لانسان في أجزاء كثيرة منه .. القلب يدق سواء أردت أم لم ترد .. والمعدة تعمل على هضم الطعام دون أن تصدر لها أمرا بذلك .. والدورة الدموية تؤدي مهمتها وأنا لا أكاد أحس بها .. وأشياء كثيرة في الجسم تمضى دون إرادة مني .. بل إنها في كثير من الأحيان تؤدي وظيفتها وأنا نائم لا أدري شيئا .. كل هذه الأشياء لا اختار لي فيها . ولا حساب عليها .. والكون بجماده ونباته وحيوانه وأجناسه الأخرى غير الانس والجان مقهور لله سبحانه وتعالى .. ولذلك نجد كل الأنظمة تمضى تؤدي مهمتها .. ولكن الخلل في الكون يجيء من ناحية ما جعل الله سبحانه وتعالى الانسان مختارا فيه .. فالاختيار هنا يجعل الانسان يؤدي أعمالا ضد المنهج فيفسد الكون.

وإذا كنا نريد أن نعيش القرآن .. وأن نحيا بما أمر الله .. فإننا لا نطمع في أن نفسر القرآن .. لأن أى تفسير للقرآن متروك للزمن .. وسيظل القرآن يعطى إلى أن تأتى الساعة ، وفي كل زمن سيتسع القرآن تفسيره تفسيراً يتفق مع قضايا الكون كله .. أما الأحكام التكليفية أو منهج العبادة في القرآن الكريم .. فإنها لا تحتاج إلى تفسير .. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فسرها .. وليس منا من هو أعلم من رسول الله .

فالامر في أحكام التكليف والعبادة يتعلق بالثواب والعقاب .. وهذه يتساوى عندما من أدرك عصر النبوة ومن لم يدركه إلى قيام الساعة .. ولذلك كان التفسير كاملاً حتى لا يبقى هناك شيء غامض في أمور العبادة .. فلأنها لا تطبق الحياة التي يشير إليها القرآن الكريم .. فالذى يستقبل القرآن الكريم إستقبالا

لماذا تركوا .. المنهج ؟

إيمانيا لا يقف أمامه حكم من أحكام العبادة .. ولذلك فإنني أحب أن أقول إن كل مفسر يتعرض للقرآن إنما يسجل خواطره الإيمانية حول القرآن .. وإذا أردت أن أطوف بخواطري حول القرآن فإنني أجد أن الله سبحانه وتعالى قد طلب منا أن نقرأ الآية .. وقبل أن نفسرها أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. وذلك هو أول لقاء بين المؤمن وبين القرآن .. مصداقا لقوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » .. لماذا ؟ .

لأن الشيطان عدو للإنسان .. وتتمثل هذه العداوة في آدم عليه السلام أصل البشرية كلها .. لقد استكبر الشيطان وهو يرى الله يخص الإنسان برحمته فيخلقه بيديه وينفخ فيه من روحه .. ويجعله خليفته في الأرض .. استكبر الشيطان كيف يفعل الله هذا لآدم ويتركه هو .. وهو الأكثر قدرة بحكم خلقه من نار .. وعندما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم رد الشيطان الأمر إلى الله .. لم يعصه فقط .. بل وضع نفسه في موضع متساوٍ لله سبحانه وتعالى .. لم يعصه فقط .. بل وضع نفسه في موضع متساوٍ لله سبحانه وتعالى .. وقال : « خلقتني من نار وخلقته من طين » .. « أسجد لمن خلقت طينا » .. وكان الشيطان ممثلا في إبليس .. فطرده الله من رحمته ..



إذا أردت واتجهت بنيتك أن تقرأ القرآن الكريم .. فتقدم لذلك بأن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. لماذا ؟ هذا أمر طبيعي .. فالذي يبعدك عن المنهج ويحاول أن يوسوس لك بعمل الشر .. ومعصية الله هو الشيطان .. ذلك لأن الشيطان عدو للإنسان .. وعداوة الشيطان للإنسان مسبقة .. ومنذ الخلق .. وهي تتمثل في عداوة الشيطان لآدم عليه السلام .. وذلك حينما استكبر الشيطان عن أمر الله بالسجود لآدم .. وقال خلقتني من نار وخلقته من طين .. وقال « أسجد لمن خلقت طينا » .. وهكذا جاءت عداوة الشيطان من أنه يعتقد أن الإنسان أقل منه .. وأنه يعتبر الإنسان من مادة أدنى من المادة التي خلق منها

لماذا تركوا .. المنهج ؟

الشیطان .. ومن هذا جاء الاستكبار .. وكانت معصية إبليس لأمر الله ..
فأعلن سبحانه وتعالى طرده من رحمته .. وسماه رجیماً مبعداً .

معصية الشيطان

ومعصية الشيطان تختلف عن معصية البشر .. فالشيطان عصي الله سبحانه
وتعالى .. ورفض أمر السجود لآدم .. وكانت هذه معصية .. وآدم عصي الله
وأكل من الشجرة .. وهذه معصية .. ولكن كلتا المعصيتين مختلفتان تماماً ..
فالشيطان حين عصي واستكبر على الله سبحانه وتعالى .. وأصر على المعصية ..
وقال : « لأغوينهم أجمعين » .. وتحدى وأمعن في التحدى .. ورفض أن
يعترف أنه على خطأ .. بل رد الأمر على الأمر وهو الله سبحانه وتعالى .

أما آدم عليه السلام فإنه حينما عصي اعترف بذنبه وتاب إلى الله .. ولم يصر
على ما فعل .. بل قال يارب إني إنسان ضعيف أغواني الشيطان وأذلني ..
وأنت يارب أعلم أنك أنت الحق .. وأن قولك الحق .. وأن منهجك الحق ..
ولكن نفسي ضعيفة .. لم تحتمل المنهج فوقعت في الخطأ .. وإني أعود إليك
يا ربى تائباً .. نادماً .. مستغفراً .

كان هذا هو منهج آدم .. اعترف بالوهية الله .. واعترف بعظم الذنب
والتوبة عنه .. والتعهد بعدم العودة إليه .. أما إبليس .. فإنه على عكس
ذلك .. لم يعترف بذنبه .. بل أصر على المعصية .. وأصر على أن رأيه هو
الحق .. وأنه لم يخطئ .. وأنه حين يرد أمر الله فإنه يفعل ذلك وهو يعتقد أنه
على صواب .. ولذلك أبعد الله وطرده من رحمته .. فيماذا قابل إبليس هذا
الطرد؟ قابله بإمعان في التحدى بأن قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » ..
ولكنه حتى وهو في المعصية .. كان يعلم أن أمر الله نافذ ولذلك قال
« بعزتك » .. من باب العزة لله لأن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين ..

لماذا تركوا .. المنهج ؟

ولذلك جاء من هذا الباب .. باب غنى الله سبحانه وتعالى عن كل خلقه وعدم حاجته إليهم .. أقسم إبليس .. ولم يجد منفذا ينفذ منه إلى البشر .. إلا بعزة خالقهم عنهم وعدم حاجته إليهم ..

ولو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون كل الخلق طائعين له .. مهتدين لمنهجه .. لما استطاع إبليس أن يقترب منهم .. ولذلك استثنى فقال : « إلا عبادك منهم المخلصين » .. أى أن الذى يريد الله ويصطفيه عبدا مخلصا له .. لا يستطيع إبليس أن يصل إليه .. لأن سلطان الله يمنعه .. ومعنى قول إبليس « بعزتك » .. إنك ياربى لو أردتهم خاضعين للهداية بأمرك أنت .. وبدون إرادة منهم .. ما استطعت أن أصل إلى واحد من البشر .. ولكنك تركت أمر الهداية للاختيار .. فالذى هو مخلص فى هدايته .. أنا لا أستطيع أن أقرب منه .. أما الذى لم تدخل الهداية إلى قلبه لتصبح يقينا .. والذى ينظر للدنيا بعين .. والآخرة بعين .. فأنا سأحاول أن أغويه لينظر إلى الدنيا وحدها .

حديث قدسى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ان الله عز وجل قال :
« أنا أغنى الشركاء عن الشرك .. فمن عمل عملا أشرك فيه
غيرى .. فأنا منه برىء .. وهو للذى أشرك » .

الفصل الثالث

مَنْعُ السَّمَاءِ وَأَحَدٌ

منهج السماء واحد

ما هي طرق اغواء الشيطان للإنسان المؤمن . . ؟ لقد بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وهي كما يلي : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » . . أى أن إبليس لا يبذل جهده لمن باع نفسه للمعصية . . وانطلق يخالف كل ما أمر به الله . . فالنفس الأمارة بالسوء لها شيطانها . . وهي ليست محتاجة إلى إغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء . . لذلك فإن إبليس لا يذهب إلى الحانات مثلا أو بيوت الدعارة . . ويبذل فيها جهدا لأن هذه لا تحتاج إلى جهد منه . . فكل من ذهب إلى هذه الأماكن فإنما هو ذاهب إلى معصية . . وليس في حاجة إلى إغواء . . وقد اختار هذا الطريق . . ولكن إبليس يذهب إلى مهابط الطاعة . . أو أماكن العبادة . . هؤلاء الذين يبذلون إبليس معهم كل جهده . . أو كل حيله وإغوائه . . ليصرفهم عن عبادة الله .

ولذلك لم يقل إبليس في حديثه لأقعدن لهم على الطريق المعوج . . لأن الطريق المعوج لا يحتاج إلى جهد . . لأنه بطبيعته يتبع الشيطان . . ومن هنا فإن إبليس يغوى أهل الطاعة لا أهل الشر والفساد . . بأن يزين لهم المعصية . . أو يغيرهم بمد أيديهم إلى المال الحرام . . أو يزين لهم أمرا من أمور الدنيا التي نهى عنها الله سبحانه وتعالى .

وقصة إبليس في غواية آدم . . لعل فيها الشرح الكافي . . فآدم عاش في جنة يجد فيها كل ما يطلب . . بلا تعب . . وبلا عمل . . وحرمت عليه شجرة واحدة من الجنة كلها التي فيها ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات . . فجاء إبليس ليغري آدم على المعصية . . فأخذ يزين له هذه الشجرة . . ويزين له مخالفة أمر الله . . ويقول له : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » . . ثم قال : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » .

وهكذا كانت الغواية في أن إبليس صور لآدم أن الله قد منعه من هذه الشجرة

منهج السماء واحد

ليمنع عنه خيرا .. فلما صدق آدم إبليس .. عرف أن الله قد منعه من الشجرة لأنه يريد له الخير .. وكان هذا رحمة من الله سبحانه وتعالى أن يبلغنا حتى نفطن إلى طريق إبليس إلى الغواية .. فلا خير في خير يؤدي إلى النار ومعصية الله .. ولا شر في شر يؤدي إلى الجنة وطاعة الله .

وهكذا أراد الله أن يلفتنا لفتة كريمة إلى أنه اختار للإنسان طريق الخير والحياة الكريمة في الأرض .. ورسمه له وبينه .. ولكن الشيطان يأتي ويزين لنا طريق الباطل ، ويحاول أن يصور أن فيه خيرا .. فإذا سقط الإنسان في الشر .. هرب إبليس ونال الإنسان جزاءه .. فالذى يسرق مثلا لا يعتقد أبدا أن أمره سينكشف .. ذلك لأنه لو فكر لحظة واحدة في أن أمره سينكشف .. وأنه سيلاقى جزاءه لتردد كثيرا في أن يسرق .. ولكن الشيطان يقول له مد يدك وخذ هذا المال . إن أحدا لن يراك .. وتستطيع أن تفوزه دون عقاب .. وبدله على طريقة للتزييف والتزوير مثلا .. ويقنعه بأن أحد لن يكشفها .. والقاتل حين يقدم على جريمته .. فإنه يقدم عليها وهو معتقد أن أحدا لن يراه ولن يكشف أمره .. ولذلك فإن الطرق الحديثة في مكافحة جريمة التخريب مثلا .. تقتضي أول ما تقتضي أن يبقى كل من في المكان حتى ينتهى الاحتفال تماما .. لأنه من النادر أن يضع أحد قبلة لينسف بها نفسه .. لذلك فإنه إن لم يؤمن تماما أنه سينجو فإنه لن يقوم بهذا العمل .. وكذلك كل الجرائم الأخرى .. يزين الشيطان للإنسان أنه سيفلت منها .. ويظل يوسوس له ويقنعه حتى يقتنع .. ثم بعد ذلك ينكشف أمره .. فيهرب الشيطان ويتركه يواجه مصيره .

حكم العقل

ولو أن آدم قد حكم عقله لعلم كذب منهج إبليس .. فإبليس كما يدعى يدلّه على شجرة الخلد .. ولو كان حقيقة أن هذه الشجرة شجرة الخلد لما قال إبليس لله سبحانه وتعالى « انظرنى إلى يوم يبعثون » .. ولما طلب منه أن يبقى على

منهج السماء واحد

حياته إلى يوم القيامة .. بل لأكل من شجرة الخلد ونال الخلد وأصبح غنيا عن الله سبحانه وتعالى .. ولكن إبليس دخل من ناحية الغفلة في النفس البشرية .. واستطاع أن يقود آدم إلى المعصية .

وكما دخل إبليس من ناحية الغفلة لآدم .. دخل من ناحية الغفلة لأبناء آدم .. ولو أن أبناء آدم حكموا عقولهم .. وتذكروا أن هناك عدواة سابقة بين آدم وإبليس .. وأن إبليس طرد من الجنة بسبب آدم .. وأنه طرد من رحمة الله بسبب آدم .. ولذلك فهو عدو لآدم وذريته حتى يوم القيامة .. ولعرفوا أن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى ليمهله إلى يوم البعث لينتقم من آدم وأولاده بإبعادهم عن الطريق المستقيم . وإغوائهم على معصية الله . فإذا عرفنا ذلك أخذنا حذرنا منه .. وحين نأخذ حذرنا وتنكشف وسوسة الشيطان .. فإنه يهرب .

إبليس والإفساد

وشرح إبليس كيف سيفسد الصراط المستقيم .. وقال « لآتينهم من بين أيديهم » يعني من أمامهم « ومن خلفهم » وهذه جهة ثانية .. « وعن إيمانهم » وتلك جهة ثالثة .. « وعن شمائلهم » وهذه جهة رابعة .. ولكن الجهات ست وليست أربعا .. فها هما الجهتان الباقيتان اللتان لا يأتي منهما الشيطان .. هما فوق وتحت .

لماذا هرب إبليس من هاتين الجهتين بالذات .. ولم يقل سيأتى من فوقهم ومن تحتهم .. لأنه يعلم أن الجهة الفوقية تمثل الفوقية الالهية .. ولذلك ابتعد عنها .. وأن الجهة السفلى جهة السجود تمثل العبودية البشرية حيث يسجد الإنسان لله .. ولذلك يبتعد إبليس عن هاتين الجهتين تماما .. وأنت إذا ما نظرت إلى ما يروجه الملحدون في كل عصر نجد عجا .. نجد كل هذه الجهات الأربع المذكورة عن الملحدين ، ما عدا الجهة العليا والجهة السفلى .. فأحدهم يقول عن نفسه تقدمى .. أى جهة الأمام .. والثانى يقال عنه رجعى

منهج السماء واحد

أى جهة الخلف .. آخر يقال عنه يمىيى .. جهة اليمين .. وآخر يقال عنه يسارى .. جهة اليسار .. ولكن لا أحد من المذاهب الالحادية يسمى نفسه فوقى .. لأن المستوى الفوقى هو للألوهية .. ولا يسمى نفسه تحتى لأنه مكان السجود للعبودية .. ونحن نقول لكل أصحاب هذه المذاهب نحن لسنا تقدميين ندعو إلى التحلل .. ولا رجعيين نرفض أن نتقدم خطوة إلى الأمام مع الزمن .. ولا يمينيين على عرف العصر .. ولا يساريين أيضا على عرف العصر .. وإنما نحن أمة محمدية فوقية .. كل أمورنا تأتي من الفوقية الالهية .

ميزة الإسلام

ولا بد أن نشرح هذه النقطة قليلا .. نحن أمة محمدية فوقية .. تعبد الله بإعلان عبوديتها وخضوعها له .. ولذلك حين نتبع هذا المنهج .. منهج السماء .. نكون قد تميزنا عن البشر جميعا .. كيف ؟ .. لأن كل إنسان فى الدنيا لا يخضع لله سبحانه وتعالى .. ولا يأخذ منهجه عنه .. هو خاضع لمنهج بشرى .. وضعه مساو له من البشر .. والبشر له هوى .. وفى كل نفس بشرية هوى تريد أن تحققه .. ولذلك فهى تضع المنهج الذى يمكنها من أن تتميز على الناس ..

وإذا نظرت إلى أى منهج بشرى وجدت أنه يحقق الفائدة لمن وضعوه .. ويقدم لهم ميزات فوق ميزات غيرهم .. فذلك هو طريق البشر .. طبقة تضع منهجا لتمييزه عن الآخرين وتستفيد هى وحدها .. وقد يكون هذا المنهج من وضع مجموعة أفراد وليست طبقة .. ولكن المهم فى هذا كله أن الفائدة تعود على عدد محدود من الناس هم واضعو هذا المنهج .. ولكنك إذا خضعت لحكم الله .. فاعلم أنك خاضع لغير مساويك .. والله سبحانه وتعالى لا هوى له .. فهو غنى عن العالمين .. أنت محتاج إليه .. وهو غير محتاج لك .

ولذلك حين يضع لك منهجا فإنه يضع هذا المنهج ليعطيك الخير .. ولا يضعه ليمنع عنك خيرا .. أو ليستأثر هو بالخير .. لأنه أولا هو مصدر الخير

منهج السماء واحد

كله .. وثانيا هو غير محتاج لما تملك ولا ما يملك البشر جميعا .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى المنزه عن الهوى إذا وضع المنهج .. فلا ذلة .. لماذا ؟ .. لأنه يضع المنهج بقواعد ثابتة تسرى على الجميع .. فأنت خاضع لمنهج الله سواء كنت تربح قروشا قليلة لا تكاد تكفيك أو عندك مال الدنيا .. ولا ذلة ، لأنك أنت ومن هو أعلى منك خاضعون لمنهج السماء . ولذلك فعندما تتبع منهج الله تعيش عزيزا .. مرفوع الرأس .. ماضيا في طريق الحق .. والله لا يأخذ منك ولكن يعطيك ويفتح لك .. لا يذلك ولكنه يعزك .

النبي الأُمى

ربما كانت تلك الحكمة هي التي أدت إلى أن يختار الله سبحانه وتعالى نبيا أميا .. لم يتعلم .. ذلك أن الله حينما اختار رسوله من البشر .. والرسالات في تبليغها للناس لا بد أن تتم عن طريق البشر .. فبشرية الرسول ضرورة حتمية في رسالات الله إلى أهل الأرض .. لأن الرسالة السماوية تمثل النظرية .. وحياة الرسول الكريم تمثل التطبيق .. وإذا لم يكن الرسول بشرا كان ملكا .. أو من هو فوق قدرة البشر .. لقال الناس كيف نتبع ملكا ونحن بشر .. إن هذا الملك له قانونه .. وهو مخلوق من نور ونحن مخلوقون من طين .. هو يستطيع أن يعيش بلا طعام فلا يأكل ولا يشرب .. ولكن نحن لا بد أن نبحث عن الرزق لنطعم أنفسنا وأولادنا .. ولا يحتاج بعضهم بأن عدم بشرية الرسول تجعل تطبيق المنهج مستحيلا .. ولكن كون الرسول بشرا .. وكونه بشرا من بينهم يعرفه قومه خير المعرفة ، يبطل هذه الحجة .. ويجعل تطبيق المنهج سهلا وميسرا .. لأن الذى يقوم به بشر .. إذن فالمنهج فى قدرة البشر .. وهكذا فإن بشرية الرسول حتمية لسلامة التطبيق .



فإذا كانت بشرية الرسول حتمية .. فلماذا اختار الله سبحانه وتعالى محمدا أميا لا يقرأ ولا يكتب ؟ معنى أمى .. أى كما ولدته أمه .. لم يأخذ ثقافة من

منهج السماء واحد

بشر .. فلا هو تثقف على الشرق .. ولا هو تثقف على الغرب .. ولا هو قرأ لفيلسوف .. ولا اطلع على نظرية انسان .. بل هو لم يقرأ كلمة في حياته .. عندما يأتي هذا الإنسان بكل هذا الاعجاز القرآني فهو لا يمكن أن يأتي به من ذاته .. لأنه غير مؤهل لذلك .. ولا بد أنه أتى به من الفيض الالهي .. من فوق .

إذن فالأمية شرف لرسول الله ودليل على صدق رسالته .. وليست مهانة لأمثالنا .. بل إن اختيار الله سبحانه وتعالى للعرب في جاهليتهم ليكونوا هم أمة القرآن له حكمة .. فلو نزل هذا القرآن في أمة متحضرة في ذلك الوقت .. كفارس أو الروم .. لقالوا التقاءات حضارية .. وهبات عقلية .. وموجات إصلاحية .. قام بها أناس عن حضارة وثقافة .. ليقودوا حركة الحياة . ولكن الأمية التي جاءت لتحجب الفكر البشري عن رسول الله .. والجاهلية التي جاءت لتحجب الرؤية الحضارية عن رسول الله .. إنما جاءت أيضا لتؤكد أن هذه الرسالة هي من السماء .. وأنه لا دخل للأرض فيها .. ومادام ليس للأرض دخل .. ولا لثقافتها وحضارتها مكان .. فالذي قاله هذا قرآن أوحى إليه من السماء .

والله سبحانه وتعالى حين منع رسول الله بالأمية من ثقافات ومعطيات عقول البشر .. وصله بالعلوية التي تعلم البشرية ما لم تعلم .

مدرسة الرحمن

ويحضرني هنا لقاء الغار .. حينما نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام مع الملك جبريل وضمه بقوة وقال : « اقرأ » .. ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يرتعد من الضمة .. « ما أنا بقارىء » .. نقول إنه لا تعارض بين الاثنين .

فالرسول حينما قال ما أنا بقارىء .. أخذ بالأسباب البشرية في أنه لم يتعلم القراءة والكتابة .. ولذلك كان صادقا مع نفسه .. وأمام ربه .. والله سبحانه وتعالى حينما قال لرسوله : « اقرأ » .. لم يأخذ بالأسباب الأرضية .. بل أخذ

منهج السماء واحد

بالأسباب العلوية .. أى يا محمد ستقرأ .

ولكنى لن أرسلك إلى معلم أو مدرسة تتعلم فيها القراءة .. ولكنك ستقرأ باسم ربك .. أى العلم الذى سيأتيك هو من الله سبحانه وتعالى .. وهو علم يحيط بعلم البشرية كلها .. ولكنه لا يحتاج منك لأن تتعلم القراءة والكتابة .. لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيعلمك .. وسيعلمك ما لم تعلم .. فالعلم مصدره الله .. وهكذا كان الاعجاز فى الآية الأولى التى نزلت من القرآن تطلب من نبي أمى أن يقرأ .. والنبي وهو يرتعد من ضمة الملك جبريل يقول : ما أنا بقارىء .. فيأتى الله سبحانه وتعالى ليقول له : أنت ستقرأ وأنا الذى سأعلمك علما من عند الله .. من السماء .. لا علم بشر .



وهكذا كانت قضية بشرية وأمىة الرسول تقتضى كمعجزة أن المنهج صالح لحياة البشر .. وأن العلم القادم ليس هو من نتاج لقاءات العقول .. بل علم من السماء .. ولذلك تحدى الله سبحانه وتعالى أن يأتى أحد بسورة مثله .. وكان هذا التحدى خروجاً بالقرآن عن القدرة البشرية .. ذلك أنه حسب علم البشر يأتى إنسان مخترع شيئا .. ثم يأتى بشر آخر يمثل هذا الشيء ويزيد عليه .. وكلما تقدم الزمن وكشف الله لعباده عن علم الأرض جاءت الزيادات بعد ذلك .. ولكن القرآن الكريم لأنه من السماء بقى إعجازا أربعة عشر قرنا .. وسيبقى إعجازا أبديا .. ولذلك نجد أن الأمة الإسلامية قد استطاعت بهذا العلم الإلهى أن تسود الأرض كلها .. وأن تقضى على حضارتين كانتا على قمة ما صنع البشر فى الأرض فى ذلك الوقت وهما الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية .. كيف تم ذلك ؟ ..

هل استطاع القرآن أن يعطى للعرب سلاحا بشريا يفوق أسلحة هذه الدولة .. أم كشف عن سر القنبلة الذرية مثلا .. لم يحدث ذلك أبدا .. إنما

منهج السماء واحد

جاء هذا الدين الجديد بمنهج من السماء .. إذا اتبعناه سدنا الأرض ..
لماذا ؟ .. لأنك وضعت منهجا سهاويا مقابل منهج أرضي .. ولذلك فإن المنهج
الذى ساد به العرب الأرض .. لم يكن منهجا من وضعهم أو اختراعهم .. ولو
كان منهجا بشريا لانهزم أمام الروم والفرس .. ولكنه منهج علوى من السماء .

معصية إبليس

نعود بعد هذا الايضاح إلى معصية إبليس .. لماذا قال الشيطان أنه سيغوى
البشر .. ولماذا نشأت هذه العداوة الرهيبة .. أولا لأن الله فضل الإنسان على
سائر المخلوقات وجعله خليفة له في الأرض .. وسخر له الأرض والسماء ..
وميزه باختيارية العبادة .. أى أنه يأتى إليه طائعا مختارا عن حب وود ..
والشيطان يريد أن يفسد كل هذا لعدواته للإنسان .. وزاد الحقد حين اتخذ آدم
سبيل التوبة طريقا لغفران ذنب المعصية .. ومضى إبليس فى تكبره واتخذ طريق
الكبر والمكابرة .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد غفر لآدم .. وتلقى آدم
من ربه كلمات فتاب عليه .. إذن فآدم وإبليس دخلا فى المعصية ولكن بطريق
مختلف .. أولهما هو آدم تاب إلى الله واعترف بذنبه وضعفه .. فأعطاه كلمات
يتوب بها ويعود إلى منهج الله .. وإبليس أصر على المعصية وأمعن فى المكابرة ،
وبدلا من أن يعود إلى الله قال لأغوين هذا الذى فضلته على .



وإبليس دائما يأتى من الباب الذى يرى فيه المنهج ضعيفا .. فإذا وجد إنسانا
متشددا فى ناحية يأتى من ناحية أخرى تكون ناحية ضعف .. فإذا كان الإنسان
متشددا فى الصلاة يحافظ عليها ويؤديها فى أوقاتها .. جاء إبليس من ناحية المال
فيوسوس له حتى لا يخرج الزكاة ، ويقترب ويأكل حقوق الناس .. مدخلا السرور
إلى نفسه بالوهم ، بأن هذه الطريقة تزيد ما عنده وتجعله غنيا آمنا مطمئنا ..
والحقيقة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما نقص مال من صدقة) .

منهج السماء واحد

والصدقة هي التي تكثر المال .. وتضع بركة الله فيه .. وتجعله يزداد وينمو .. والمال هو مال الله ينتقل من يد إلى يد في الدنيا .. وحينها يحين الأجل يتركه الإنسان ويمضى .. ولكن بعض الناس يغفل هذه الناحية ولا يتذكرها .. فحينها يجد إبليس إنسانا متشددا في الصلاة محبا للمال .. جاءه من ناحية ضعيفه فيمنعه من الزكاة ، ثم يزيد هذا الضعف بأن يغريه بالمال الحرام .

وتبدأ المعاصي التي تنسج عودا عودا كما ينسج الحصير ليغطي القلب كله وتمنعه عن ذكر الله .. وإذا وجد إبليس في العبد المؤمن تشددا في الصلاة والزكاة وضعفا من ناحية المرأة مثلا .. أتاه من ناحية هذا الضعف ، فيظل يزين له امرأة خليعة ويزينها في نظره .. ويوسوس له ويوسوس لها حتى يسقط في الحرام . ومتى سقط في الزنا سقط في الكبائر .

فإذا كان قويا في هذه النواحي كلها جاء إبليس وزين له الخمر أو مجلس السوء أو النسيئة .. المهم أن إبليس يترك نقطة التشدد في الإنسان ويأتيه من نقطة ضعفه حتى ينفذ إليه من نقطة الضعف .. ومتى نفذ بدأ ينسج الحصير عودا عودا .

ولذلك تجد هناك فارقا بين معصية يوحى بها الشيطان ، ومعصية تصر عليها النفس .. فإذا حدثتك نفسك بمعصية ووقفت عندها وأصررت عليها .. فاعلم أنها هي التي تحاول أن تقودك لمعصية من هذا اللون بالذات .. لأن النفس تريد من صاحبها أن يكون على لون خاص يحقق لها رغبة أو شهوة .. ولكن إبليس ليس على هذا المنوال .. فإبليس يريد المؤمن عاصيا على أي شكل من أشكال المعصية .. ولا يهمه نوع معين من العصيان في ذاته .. فإذا طرق لك بابا وجدك فيه متشددا متمسكا لا تصغى إليه .. انطلق بطرق بابا آخر فيه نقطة ضعف .. وهكذا يظل ينتقل من باب إلى باب حتى تسقط في قبضته وتستمتع إليه .

منهج السماء واحد

إغواء وخداع

وقد فصل الله أمر الشيطان .. فطرده من رحمته وجعله رجيا مبعدا ، وهو يعرف أن مصيره النار .. وإياكم أن تظنوا أن الشيطان حين يغوى الإنسان يأتي له عن طريق شر يضره .. بل ربما يلبس هذا الشر لباسا خادعا ليقع فيه .. فاللص مثلا إذا أراد أن يسرقك لا يأتي إليك ويقول لك أنا سأسرق ما في جيبيك .. بل ربما دفعك إلى الأرض ثم يتقدم منك ليرفعك من المكان الذي سقطت فيه .. وفي هذه اللحظة أنت تظن أنه يعمل خيرا وأنه يعينك على النهوض بعد أن سقطت على الأرض .. في هذه اللحظة يكون هو قد ارتكب الشر وسرق حافظه نقودك .

إذن هو غلف عمله الشرير بلباس من الخير ظاهري .. لكن يأتي إلى شيخ مثلا .. يحمل حقيبة ثقيلة .. ويعرض عليه أن يحملها عنه ليعينه حيث أن هذا الشيخ ضعيف لا يقدر على حمل الحقيبة ولكن ماذا يحدث ؟ .. أنه بعد أن يأخذ الحقيبة ليحملها يغافل صاحبها ويهرب بها .. عمل ظاهره الخير وحقيقته الشر .

وهكذا الشيطان يغريك على مال حرام مثلا .. ويوسوس إليك أنك محتاج لهذا المال وأنت ستأخذه كسلفة وتعيده عندما يتيسر حالك في القريب العاجل .. وتفعل أنت ذلك .. وتمد يدك .. عمل ظاهره خير لك تفرج به أزمته وترد المال .. ولكنك لا تستطيع أن ترده .. بل إنك تحس أن هذه الطريقة سهلة وتمضى في الطريق إلى المعصية .

فلا تحسب أن الشيطان أبله بحيث يأتي لك بصورة الشر على أنه شر ويذكرك بالعذاب .. بل أنه يتسلل لك على أساس أنه خير لك .. وإذا كان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم .. فإن الله سبحانه وتعالى قد شاء من رحمته أن يكشف لنا أسلوبه حتى نستطيع أن نقى أنفسنا منه .. وأحسن ما يقى الإنسان هو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم .. لأن الشيطان يخلخل فيك منهج

منهج السماء واحد

الله .. فالشيطان لا يترك أبدا مادمت أنت على الطاعة يحاول أن ينفذ إليك من ناحية بعد الأخرى حتى يوقع بك .. ولذلك فإن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم .. تزيدك فهما للقرآن واحساسا بآياته .. وهذا يقربك من الله .

استيعاب القرآن

والقرآن الكريم هو عطاء من الله سبحانه وتعالى لعباده .. والله في عطائه يساوى بين جميع الخلق .. فعطاء القرآن متساو .. ولكن كل إنسان يأخذ على قدره .. فالقرآن يقرأ والناس تسمع .. ولكن هل يتقبل الجميع القرآن بنفس القبول .. لقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
مَاذَا قَالَ ءَانفًا ۗ ﴾

(سورة محمد)

والقرآن هدى ورحمة ..

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَآءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ
وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۗ ﴾

(سورة فصلت)

فعطاء القرآن واحد ولكن الفرق فيمن يستقبلون القرآن .. قلب مؤمن يستقبل عطاء القرآن بشكل مختلف تماما عن القلب غير المؤمن .. إنسان متعبد للقرآن في نفسه قبول للآيات بينما الإنسان غير العابد لا يفقه شيئا من القرآن الكريم .

ولكى نوضح هذه النقطة قليلا .. أنت مثلا عندما تخرج في الشتاء من

منهج السماء واحد

منزلك .. وتجد الجو باردا وتنفخ في يداك حتى تدفئها من البرد .. وعندما يأتي لك كوب شاي ساخن .. وتريد أن تقلل من سخونته تنفخ فيه .. الفعل واحد ولكن متقبل الفعل مختلف .. ولذلك مرة قمت بالفعل للتدفئة ومرة قمت بنفس الفعل للتبريد .. ولذلك عندما تقرأ القرآن أو تستمع إليه .. لا بد أن تنقى النفس المستقبلية للقرآن وتجعلها صافية .. وأحسن صفاء للنفس هو أن تخلصها من الشيطان وأقول ما تخلص به نفسك من الشيطان هو أن تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. وبذلك تكون قد استعدت بالله وكان الله معك .. فإذا صفت نفسك لاستقبال القرآن .. فإن آياته الكريمة تمس قلبك ونفسك .. ويكون لك هدى ونور .. وأنت إذا استعدت بالله من أى شيطان أو أى مكروه فانك بذلك تجعل الله إلى جانبك .. فإبليس من خلق الله وأنت من خلق الله .. فإذا واجهتما بعضكما كانت الغلبة لمن هو أكثر قوة أو أكثر حيلة .. ذلك لأن كلا منكما يعتمد على ملكاته الشخصية في مواجهتهما معا .. ولكن إذا استعاذ أحدهما بالله كان الله في جانبه .. والشيطان لا يمكن أن يستعيد بالله أو يستعين في عمل من الأعمال .. إذن فأنت صاحب الميزة لأن الشيطان مطرود من رحمة الله .. رجيم ومبعد .. فهو إذا استعان بذاتيته أو بما منحه الله من صفات خلقه .. ولذلك مهما كانت قدرة الشيطان أو قوته .. فإنك إذا استعدت بالله من الشيطان الرجيم تكون أنت الأقوى ويكون النصر في جانبك .. لأن الله عندما يكون معك في هذه اللحظات تكون قدرتك وقوتك فوق كل قدرة وأعلى من كل قوة .. ولذلك عندما ينفرد الخلق بالخلق تكون الغلبة للقوى .

ولكن عندما يذهب مخلوق إلى خالقه ويستعيد به ويستعين به يكون هو الأقوى رغم ضعفه .. ويكون هو الغالب رغم عدم قدرته .. وإذا بعد اثنان من البشر عن الله أصبح كل منهما يعتمد على قوته الذاتية .. فإذا استعان أحدهما بالله انقلبت الآية تماما .. ولذلك فعندما تقرأ القرآن لا بد أن تصفى جهاز استقبالك .. ليس لقدرتك أنت ولا الاستعانة بقوتك .. ولكن بقدرة الله .

منهج السماء واحد

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى أن الشيطان سيأتى يوم القيامة ليقول :
« وما كان لى عليك من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » .

وبهذا يكشف لنا الله سبحانه وتعالى سرا آخر عن إبليس .. هو أنه ليس له سلطان .. أى أن إبليس لا يستطيع أن يقهر أحدا على المعصية ولكنه يغيره .. فإذا استجاب سقط .. وإذا استعان بالله نجا .. والشيطان لا يستطيع أن يقودك إلى الشر رغما عنك .. ولكن باختيارك .. بوقوعك فى اغرائه واستجابتك له .. لذلك يتم الحساب على ما ترتكبه من المعاصى باغواء الشيطان .. ولو أن إبليس له صفة القهر أو سلطة اخضاع الإنسان دون ما ارادة منه لسقط الحساب .. فنحن نعلم جميعا أن الحساب لا يتم على أمور جبرية لا يملكها الإنسان فيها حق الاختيار .. والقهر يسقط الحساب عن البشر .. ولكن الذى يتم على أساسه الحساب هو أمر اختياري تستطيع أن تفعله أو لا تفعله بإرادة منك .. وهنا يكون الحساب عدلا .. لأنك أنت الذى اخترت .. وهكذا يريد الله سبحانه وتعالى أن ينيها إلى نقطة هامة أن وسوسة الشيطان بالشر ليس فيها القهر .. ولكن فيها الاختيار .. والله سبحانه وتعالى يعطينا فيها القدرة على أن نختار .. وأن نفعل أو لا نفعل .. ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى كيد الشيطان بأنه ضعيف .. لماذا ؟ .. أولا لأن معك قوة الله وقدرة الله تستطيع أن تستفيد بها .. وثانيا لأن الأمر هنا اختيار لا إجبار .. فليس هناك قهر .. ولو كانت نفسك قوية لاستطعت أن تتغلب عليه .. وإبليس لا يستطيع أن يرغمنا على عمل .. ولا يملك الحجة الصحيحة لاقناعنا بإثم .. ولكن المسألة أنه يملك النفس الضعيفة ويستطيع أن يغيرك أو يوهمك بشيء كاذب .. حتى إذا ارتكبته وجدت أن النتيجة غير ما قال .. رغم ذلك فإن التهافت على الدنيا والتكالب عليها .. يدفعنا إلى ألا ننتبه للغفلة فيدخل الشيطان حياتنا مرات ومرات .

أعوذ بالله

فإذا استعدت باسم الله من الشيطان الرجيم .. فانك يجب أن تبدأ باسم الله

منهج السماء واحد

الرحمن الرحيم .. ولذلك قال رسول الله (كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر)
يعنى مقطوع الذنب .. وهذا لا ينطبق على القرآن الكريم وحده .. بل على كل
عمل يصادفك في حياتك .. لأنك حين تبدأ باسم الله فإنك تطرد الغرور من
قلبك .. ذلك أنك كما قلنا يمكن أن تبدأ العمل معتمدا على قوتك الذاتية ..
وفي هذه الحالة تبدأ والغرور يملؤك بأنك تستطيع أن تحقق ما أنت مقدم على عمله
بقوتك الذاتية .. فكأنك استغنيت عن الله وابتعدت عنه .. ويظل الغرور يملأ
قلبك فتصدق الأكذوبة الكبرى في أن يستطيع أن يصنع قدره ومستقبله ..
ولكن إذا استعدت بالله وبدأت العمل ذاكرا اسم الله سبحانه وتعالى .. فانت
في هذه الحالة تتذكر أنك بدون الله غير قادر .. وأنه إذا سلب عنك عونه وبركته
وقدرته فإنك تصبح عاجزا عن أن تفعل شيئا .. وقرب الإنسان من الله وشعوره
بحاجته إليه في كل لحظة وثانية هو الذي يقرب الإنسان من الله .. ولقد سئل آل
بيت رسول الله لماذا لا تطلبون الغنى .. فقالوا نحن قوم نحب أن نجوع
فنطلب .. ونعطى فنشكر .. وهذه العبارة تحمل رغبة الطلب في دوام الصلة
بالله .. فالإنسان إذا أحس أنه يستطيع أن يحقق لنفسه ما يريد .. فإذا أصابته
نعمة من الله نسبها لنفسه .. وادعى أنه يستطيع أن يحصل على الرزق بقدرته
هو ..

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى
بجانبه » .

ما معنى هذه الآية الكريمة .. معناها إذا أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بنعمة
نسبها لنفسه فأعرض عن الله بدلا من أن يشكره .. لماذا ؟ لأنه حقق شيئا بما
أعطاه الله من علم في الأرض .

ونوضح هذه النقطة قليلا .. الإنسان في بداية حياته مثلا كان يعتمد على
الأمطار في الري والزراعة .. فإذا نزل المطر رفع يديه للسماء شاكرًا لله نعمه ..
وإذا تأخر المطر رفع يديه إلى السماء طالبا من الله رحمته .. كان هذا هو حال
الإنسان حتى أنعم الله عليه بشيء من العلم .. فاستطاع أن يبني سدا لتخزن

منهج السماء واحد

خلفه المياه .. فإذا سقط المطر كان هناك فائض خلف السد .. يستطيع أن يستعين به الإنسان في أوقات الجفاف .. عند هذه اللحظة يحس الإنسان وهما أنه استغنى عن الله .. لأنه إذا تأخر المطر ولم تمطر السماء .. ذهب وفتح عيون السد ليأخذ منه الماء .. وهكذا أنعم الله على الإنسان بأن أعطاه علماً يستطيع به أن يقيم سدّاً ليحجب مياه المطر ويبقيها حتى الموسم القادم .. وكان الرد على ذلك أن الإنسان بدلاً من أن يشكر الله على العلم الذى أتاحه له ليجعل حياته أيسر .. بدلاً من أن يفعل ذلك نأى عن الله سبحانه وتعالى ونسب العمل إلى نفسه ونسبه إلى قدراته هو .. وكأنه استغنى عن قدرة الله التى أعطته المطر وأعطته العلم ليبنى السد .

وهكذا فى كل مظاهر التقدم والمدنية .. كلما ازداد كشف الله سبحانه وتعالى لآياته فى الأرض للبشر .. ليعطيهم حياة أيسر وأفضل .. ابتعد هؤلاء الناس عن الله .. وبدأوا يتجهون إلى آيات الله فى الأرض ليتخذوها إلهاً .. ونسمع من يقول انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم .. وكل هذه السفسطة مما يدور على السنة بعض الناس فى هذه الأيام .

وبذلك يكون هؤلاء الناس قد نسوا المنعم ، وعبدوا النعمة .. ونقلوا إلى قدراتهم الذاتية ما كشفه الله لهم من آياته فى الأرض .

وحين يبدأ الإنسان قراءة القرآن الكريم ، يستعيد بالله من الشيطان الرجيم .. ثم يبدأ باسم الله الرحمن الرحيم .. والعمل الذى لا يبدأ باسم الله عمل أتر .. أى ليس كاملاً .. ليس فيه الدنيا وليس فيه الآخرة .. أى أنه ينطبق عليه قول الله « خسر الدنيا والآخرة » لماذا ليس فيه الدنيا .. ؟ لأن عدم ذكرك الله يجعلك تعتمد على قوتك الذاتية .. أنت هنا لا تستعين بالقادر .. وكذلك تعتقد أنك ألصق بهذا العمل .. رجل ذكى يستطيع أن يصنع قدره .. رجل استغنى عن الله .. لأنه يبدأ عمله دون أن يستعين باسم الله .. وهنا

منهج السماء واحد

يكون العمل على قدر طاقتك .. والله لا يبارك .. والله لا يوفق مادمت غير مستعين به .. بل يترك لذاتك .

وهكذا تخسر الدنيا .. لماذا ؟ لأنك إذا بدأت باسم الله كان معك بقدرته وقوته .. كان الله معك يفتح لك الطريق .. ويزيل لك العقبات ويدلك على الخير .. ويحفظك من الشر .. وهذا يتم لا بقدرتك أنت البشرية المحدودة .. ولكن بقدره الله التي هي بلا قيود .. ولا حدود .. وهكذا تجد نفسك إذا استعنت بالله تجني أكثر .. وتحقق أكثر .. ولذلك فأنت تخسر في الدنيا إذا لم تستعن به .. والله الذى ليس كمثله شيء .. وبذلك تكون قد خسرت الجزء الأكبر من الدنيا .. ولم يبق لك فيها إلا قليل تستطيع أن تحققه بذاتك فتجد العناء والتعب والشقاء .. وقد لا تحقق شيئا .. وخسرت الآخرة .. لأنك إذا بدأت العمل باسم الله .. فإن الله جل جلاله يضع لك وقاية من الآثم ومن كل ما يغضب الله .

لا معصية .. مع الذكر

وعندما تبدأ عملا باسم الله .. فانك لا يمكن أن تبدأ بمعصية .. عندما تهم بشرب الخمر ويأتى اسم الله فى بالك .. تجزع وتخاف وتسرع تاركا ما كنت تنوى أن تفعله .. عندما تهم بسرقة وتذكر اسم الله .. تبتعد نفسك وتبتعد يدك عن المال الحرام .. عندما يعرض عليك إنسان رشوة لا تستطيع أن تقول باسم الله .. هل يرتشى إنسان وهو يذكر هذا الاسم الكريم .. تجد نفسك تتردد .. ويدك لا تمتد .. وتذكرك لاسم الله يذكرك بقوانين الله فلا تأخذ الرشوة .

وهكذا فى كل أمور الدنيا مادام ذكر الله على لسانك فإنه يمنعك من المعاصى .. سد بينك وبين الآثام .. إذن فأنت إذا تعودت أن تبدأ أى عمل باسم الله استجبت أن تبدأ عملا يغضب الله ، لأنك لا تبدأ باسم الله إلا فيما أجازه الله أو أباحه الله .. وهكذا أمرنا أن نبدأ بعد الاستعاذة بالله من الشيطان

منهج السماء واحد

أن نبدأ عملنا باسم الله . ومستعينين بالله ولننظر إلى الرحمة من الحق في قوله تعالى : « باسم الله الرحمن الرحيم » . . . ولنشرحها شرحا يقربها إلى الذهن . . . ولماذا أمرنا الله بأن نبدأ بقولنا باسم الله الرحمن الرحيم .

باسم الله

باسم الله . . . أى باسم الإله المعبود . . . فنحن نذكر الله سبحانه وتعالى . . . وأنه الخالق الذى نعبد . . . وعبادة الله تأتى بما أعلمنا به الله سبحانه وتعالى من أوامر بأفعل ونواه بلا تفعل . . . وإذا أردنا أن نعبد الله فإن الله سبحانه وتعالى قوة وقدرة لا تدركها العقول والأبصار . . . ومن هنا شاءت رحمته أن يبين لنا الطريق لعبادته . . . فلو تركنا الله لأنفسنا لاختلطنا ولوضع كل انسان طريقة لعبادة الله تتفق مع الهوى البشرى . . . ولرأيت طرقا متضاربة وأشياء لا تخطر على البال هذا يشرع لهواه . . . وهذا يشرع لهواه وضاعت الحقيقة . . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل لتبين طريق العبادة للناس . . . وقال أنا الله وهذه رسلى . . . وإذا أردت أن تعبدنى وتدخلى فى طاعتى . . . فأنا أريك طريق الهداية . . . طريق العبادة . . . وهذا طريق الحق . . . لماذا ؟ لأننا جميعا من خلق الله سبحانه وتعالى وهو لا يميز بين أحد منا . . . نحن متساوون أمامه . محتاجون لما عنده وهو لا يحتاج لما نملك . . . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يضع لك طريق الهداية بلا هوى . . . بحيث لا يحمل أحدا ما لا يحمله للآخر . . . وبحيث لا يختص أحدا بالمحابة أو التمييز . . . وكل المناهج البشرية التى توضع . . . أنها يراعى فيها فائدة البشر . . . فالإنسان عندما يشرع . . . يحاول أن يستفيد هو من التشريع . . . يحاول أن يأخذ منك شيئا . . . لكن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع فإنه يعطيك ولا يأخذ منك شيئا . . . بل يزيدك من فضله . . . وهكذا ترى أن التشريع يأخذ من الإنسان . . . أما التشريع الإلهى فإنه يعطى الإنسان ويزيده . . . والله يرزق من يشاء بغير حساب .

إذن فحين نبدأ باسم الله . . . يريد الله أن يذكرنا بحقيقتين هامتين . . . أولاهما

منهج السماء واحد

حق العبادة والشكر .. لأنه مادام الله يعطينا طريق العبادة في الحياة .. موعطاء العبادة في الدنيا والآخرة .. وهو لا يأخذ منا شيئاً .. وإنما هو يدلنا على الطريق الذى نزداد به من فضل الله في الدنيا وفي الآخرة .. وكما سبق أن وضحت فإن الله سبحانه وتعالى لا يرسل لنا منهج العبادة وفحسب نظرياً .. وإنما يرسل لنا التطبيق العملى .. فيرسل بشراً رسولا ليبين لنا منهج العبادة .. وبشرية الرسول هنا حتمية ليكون من نفس الجنس .. حتى لا نجادل ونقول حملتنا يارب ما فوق طاقة البشر .

الرحمن الرحيم

ويعضى الله سبحانه وتعالى ويقول : « الرحمن الرحيم » .. وذلك ليزكرنا بحقيقة أخرى هامة .. هى أن باب الله سبحانه وتعالى مفتوح دائماً .. وأنه إذا كنت قد ارتكبت معصية .. أو ضعفت نفسك فى أثم .. أو نسيت الله فى لحظة .. فإن هذا ليس معناه أن الباب أوصد فى وجهك .. بل الله الرحمن الرحيم يقبل التوبة ويغفر للذنوب جميعاً .. ولهذا إذا ارتكبت معصية .. فإياك أن تستحى من أن تعود إلى الله وأن تبدأ باسم الله .. لماذا .. لأن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الحقد .. ولا يتغير على خلقه .. فالإنسان عندما تعصيه أو تخالف أوامره قد ينفض يده عنك .. وقد ينهى علاقته بك إلى الأبد .. وفى كثير من الأحيان يسعى للإضرار بك .. ولكن الله سبحانه وتعالى إذا عصيته عن ضعف أو نسيان أو زلة .. دون استكبار أو إصرار ، فإنه يفتح بابه لك .. فإذا قلت باسم الله الرحمن الرحيم وعدت إليه .. وجدته رحماناً رحيماً .. وجدته يغفر لك المعصية ويزيل عنك الذنب ويطهرك .. لتبدأ من جديد على طريق الله .. إذن فالرحمن الرحيم .. حيثيات اقبال العاصي على أن يعود ويبدأ عمله باسم الله .. حيثيات من الله سبحانه وتعالى .. والذى يريد أن يذكرنا فى كل لحظة أن باب الرحمة مفتوح .. والله سبحانه وتعالى حين شرع عقوبة أى معصية .. معناها أنه أذن لها أن تقع .. فلولا لم يكن علم الله سبحانه وتعالى بأن هذه المعصية ستقع .. ما شرع له العقوبة .. وكما شرع العقاب .. شرع التوبة .. ووضع اسم الرحمن الرحيم .. اشتقها من الرحم وهو مكان الجنين فى

منهج السماء واحد

البطن .. ولا يوجد من هو أكثر مغفرة في الدنيا من الأم بالنسبة لولدها .. فالولد قد يخطيء .. ولكن قلب الأم هو دائما غفور لهذه الخطايا .. ولا تجد أما مهما بلغت من خلق سيء أو جحد للنعمة أو قلب قاس .. لا تجد أما مهما كان فيها من الخصال لا تغفر لابنها إساءاته وعصيانه .. والله سبحانه وتعالى كلما أعطانا شيئا غيبيا .. وأراد أن يقرب هذا الشيء الغيبى إلى مفهومنا البشرى .. أعطانا مثلا نراه في حياتنا حتى تستطيع القلوب أن تستوعب .. والعقول أن تعي .. ولذلك حين أراد أن يرحمنا برحمته .. اتخذ الأم وابنها مثلا للمغفرة حتى نعرف أن رحمة الله بلا حدود .



إذن فكلمة رحمن وكلمة رحيم مشتقة من الرحم الذى يعطى الجنين كل ما يحتاج .. ليأخذ منه كل ما يريد بلا مقابل .. فالرحم يعطى للجنين الغذاء .. ويعطيه كل وسائل الراحة .. ولا تأخذ الأم من الجنين شيئا .. فهو يأكل من طعامها ويتغذى من دمها .. ويحصل على كل احتياجاته من جسدها .. وقد يكون على حساب احتياجات الأم نفسها .. فتضعف هي ويقوى هو .. والمهم أن الرحم هو مكان العطاء للطفل بلا مقابل .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا أن قلب الأم مغفرة بلا حدود .. وأن رحم الأم هو المكان الذى ينمو فيه الجنين بعطاء بلا حدود .. علنا بعد ذلك نقرب بأذهاننا من معنى كلمة الرحمن الرحيم .. والله غنى عنا جميعا .. ومادام غير محتاج الينا فهو يعطينا بلا مقابل .. والله غفور رحيم .. رحمته لا تعرف الحقد ولا الضغينة ولا الأنانية .. فسبحانه وتعالى رحمته بلا حدود ولا قيود .. وكلنا في حياتنا نعيش طامعين في رحمة الله سبحانه وتعالى نخطيء ونعود إلى حظيرة الله .. ونضعف فيقويننا الإيمان لتتغلب على ضعفنا .. فإذا كنت عاصيا فإن الله سبحانه وتعالى يقول لك لا تستحى أن تهتف باسمى .. فإني قد فتحت لك أبواب الرحمة ما يسع ذنوبك جميعا .. وعندما تهتف باسمى حين تبدأ العمل .. فأنت تمنع عنك غرور النفس .. ولذلك إذا لم تقدر على العمل بذاتك .. فإني

منهج السماء واحد

أعينك عليه بتسخير الأشياء لك فتزداد قدرة على قدرة .. وتحصل على ثواب الدنيا والآخرة .



وبعض الناس يثير في هذه النقطة جدلا حول صفة الرحمة في الله سبحانه وتعالى فيقول أنه يأتي بها مرة بصيغة القوة والضعف .. والكثرة والقلّة .. فإذا قيل رحمن تصبح مبالغة وإذا قيل رحيم تصبح مبالغة .. وإذا قيل راحم تصبح بلا مبالغة .. ونحن نقول أن صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف .. فمرة يكون راحما .. ومرة يكون رحمانا .. ومرة يكون رحيمًا .. وصيغ المبالغة لا تأتي إلا في الشيء المتغير .



الفصل الرابع

الله لا يتغير.. ولا يتبدل

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

الله سبحانه وتعالى لا يتبدل ولا يتغير ولكن الذى يحدث فى التغيير أن متعلقات هذه الصفة هى التى تكثر وتقل .. أنت تقول إن فلانا أكل .. أى أنه تناول طعاما عاديا كسائر البشر - ثم تقول أكل أى أنه يتناول من الطعام أضعاف ما يتناوله البشر .. فإذا كان الإنسان يتناول رغيفا فى الطعام .. فإن هذا الشخص الأكل يتناول ثلاثة أو أربعة أرغفة .. فإذا كان يأكل نفس الأرخفة العادية .. ولكنه يتناول الطعام عشر مرات فى اليوم فتكون المبالغة منا فى تكرار الحدث .. ويأكل فى كل وجبة رغيفا مثلا ولكنه يكرر ذلك عشر مرات فى اليوم ، فهو أكل .. إذن فالمبالغة تأتى من تكرار شئ عادى .. ومن خروج الشئ عن المألوف ، ثم يأتى الله سبحانه وتعالى فيقول « وما ربك بظلام للعبيد » .. ويقول « ولا يظلم ربك أحدا » .. حينما تأتى إلى هذه الآية الكريمة « وما ربك بظلام للعبيد » نجد هنا صيغة المبالغة - وقد يتبادر إلى بعض الأذهان مثل المستشرقين مثلا - أن الله سبحانه وتعالى .. وقد نفى عن نفسه المبالغة فى الظلم فقال « بظلام » .. لم ينف عن نفسه صيغة الظلم .. ويضيف الله سبحانه وتعالى « ولا يظلم ربك أحدا » - فهو فى هذه الآية قد نفى عن نفسه الظلم تماما . ولكنه فى الآية الأولى نفى المبالغة فى الظلم ، نقول له إنك لم تفهم معنى الآيتين الكريميتين ، الآية الأولى « وما ربك بظلام » أقال الله سبحانه وتعالى للعبيد .. أم للعبيد .. لو أن الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة العبد بدلا من استخدامه كلمة العبيد .. لقلنا إن الله قد نفى صفة المبالغة فى الظلم عن نفسه .. ولكنه ترك صفة الظلم .. ولكن قوله سبحانه وتعالى « للعبيد » .. معناها أن الحدث هنا متكرر .. فلو أن الله لا يبالغ فى الظلم .. ولكنه يظلم كل فرد من عباده مقدار ذرة - لكان بذلك تبارك وتعالى « ظلما » .. لماذا ؟ .. لأنه كما قلنا تكرر الحدث مرات .. ومن هنا تأتى صيغة المبالغة مهما كان الحدث ضعيفا .. لأن المبالغة هنا لا تأتى من الحدث نفسه .. ولكنها تأتى من التكرار .

ومن هنا إذا ظلم الله كل إنسان ذرة .. فإن تكرار الحدث مع هذا العدد الهائل يصبح من صيغ المبالغة .. ولذلك يريد الله سبحانه وتعالى أن ينفى هنا

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

انه يظلم أحدا من عباده ولو مقدار ذرة .. لذلك فهو يقول « وماربك بظلام للعبيد » .. أى أنه لا يظلم إنسانا ولو ذرة واحدة .. ولذلك استخدم الله سبحانه وتعالى هنا صفة المبالغة .. لماذا ؟ لأن متعلقات الصفة مجموع هائل من البشر .. ولكن قول الله سبحانه وتعالى « ولا يظلم ربك أحدا » .. هنا جاءت بصيغة الفرد .. فكأنه نفى الظلم بصيغة المبالغة .

الصفة لا تتغير

ولذلك فإن استخدام الله سبحانه وتعالى للحفظ « ظالم » ولفظ « ظلام » .. ليس معناه أن تتغير علوا وضعفا .. لأن الكمال لله سبحانه وتعالى .. ولكن معناه أن الذى يتغير هو متعلقات الصفة .. فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن ينفى وقوع أى ظلم على عباده الذين هو قادر عليهم جميعا .. فيجب فى هذه الحالة أن تتناسب الصفة مع العدد الذى يقدر عليه الله وهو كل خلقه .. ولذلك يجب أن تنفى بصفة المبالغة .. لأن الله سبحانه وتعالى .. لو أصاب عباده كل مجموع بذرة واحدة من الظلم لكان ظلما .. والله سبحانه وتعالى ينفى هنا حتى مجرد مظنة الظلم .

فعندما يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول راحم ورحيم .. فتلك تتعلق بصفات الرحمة .. فهو فى الدنيا يرحم المؤمن والكافر .. فيسخر ما خلقه للبشر جميعا .. فالشمس حين تعطى أشعتها لا تفرق بين مؤمن وكافر .. بل هى تعطىها للجميع عطاء ربوبية .. والأرض حينما تنفعل وتخرج لك الزرع .. هى لا تفرق بين المؤمن والكافر .. ولذلك فهى تعطىها عطاء متساويا .. فلا تقول هذا مؤمن يقوم بزراعتى فسأعطيه الثمر .. وهذا كافر سأحرمه من ثمره .. أو تقول هذا المؤمن سأعطيه أضعاف هذا الكافر .. ولكنها تنفعل للثنين معا .. وباب الرحمة والتوبة مفتوح فى الدنيا للعاصي .

إذن فصيغة الرحمة هنا لا بد أن تكون بصيغة المبالغة .. لأنها تشمل الخلق

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

كلهم .. المؤمن منهم والكافر .. العاصي منهم والمطيع .. ولكن إذا أتينا للآخرة مثلا .. نجد أن الله يطرد من رحمته العاصين والكافرين .. ولا تشمل رحمته إلا عباده المؤمنين .. هنا في هذه الحالة قلت متعلقات صفة الرحمة .. وإن كانت الصفة نفسها لم تتغير ولم تتبدل .. هكذا في كل صفات الله جل جلاله .. كلما شملت الصفة عددا هائلا جاءت بصيغة المبالغة فإذا كانت متعلقات الصفة عددا محدودا فلا مبالغة .. والصفة لا تتغير ولكن متعلقاتها .

والحق عز وجل طلب منا حين نبدأ في قراءة القرآن وفي كل عمل .. أن نبدأه « باسم الله الرحمن الرحيم » .. بسم الله الذي سخر لنا الأشياء ، ولولا تسخيرها لنا لما استطعنا أن نسخرها لأنفسنا ، وإذا كان بعض الناس لا يفتن إلى تسخير الله لما في الكون .. فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بذلك دائما حتى لا ننسى .. ولكن لماذا ننسى ؟ لأن رتبة الأشياء تجعلنا نحس أنها حق مكتسب لنا في الحياة .. فالشمس تشرق كل صباح .. ولكن من منا يفكر وقت شروق الشمس أن الله سخرها لنا من سبل الحياة في الكون .. الشمس تشرق كل يوم .. ولا نحس أن ذلك إلا من رتبة الكون ونظامه دون أى تفكير .

إن الإنسان لو فكر في أن هذه الشمس التي تشرق كل صباح هي نعمة من نعم الله التي سخرها لعباده .. وأنه لا أحد يستطيع أن يسخر الشمس للخلق إلا الله سبحانه وتعالى .. ما وجد في الدنيا كافر .. لأن الشمس تشرق كل يوم بأذن ربه .. لتذكره بنعمة الله عليه وتسخيرها له .. وكذلك القمر .. وكذلك النجوم .. وكذلك الأرض .. وكل ما تعطى من عطاء للبشر .. الأرض التي ذللها الله سبحانه وتعالى للإنسان وكذلك الأنعام التي تدر لنا الألبان .. ونستخدمها في أشياء كثيرة .. ولكن الإنسان ينسى هذا .. فإذا ركب الطفل الصغير حصانا أو جملا فاننا نقول إن الطفل يقود الجمال .. وذلك ما يقال في الدنيا جوازا .. ولكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى قد ذلل الحصان أو الجمال للإنسان .. فاستطاع هذا الطفل أن يقوده .. ذلك أن هذا الحصان أو هذا

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

الجمال .. هو أقوى من الطفل عشرات المرات .. ويستطيع أن يتغلب عليه أو يفتك به .. ولكنك تجده مع ذلك طائعا ذليلا للإنسان .. هذه الطاعة ليست للبشر .. وإنما لأمر الله في التسخير للبشر .. فهذا الجمال لا يخضع للطفل الصغير خوفا منه .. ولا عن عدم قدرة .. ولكنه يخضع له لأن الله أمره أن يخضع فخضع .

ولذلك فالله سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى هذه النعمة في الكون .. فجاء ببعض الحيوانات التي خلقها .. ولم يجعلها مذلة للإنسان بل تركها غير مسخرة له .. جاء الله في الكون بعدد هائل من هذه الحيوانات أخضعها للبشر وذلكها لهم .. وبعدها قليل منها لم يذللها مثل الثعالب والعقرب الحيوانات المفترسة التي يخشاها الناس ويهابها لأنها تلحق الضرر بهم .. ورغم مرور مئات الألوف من السنين .. وربما ملايين السنين فإن هذه الحيوانات ظلت لا تخضع لبشر .. ولا يستطيع إنسان أن يستأنسها ويستخدمها .. فلا نجد إنسانا مثلا يستطيع أن يستخدم الأسد في جر المحراث .. أو يستطيع أن يستخدم النمر في دوران الساقية رغم أنها أقوى من البقر .. لماذا ؟ حتى إذا جاء إنسان وحاول وقال أنا سخرت هذا واستخدمته لنفسى وذلتته .. فإنا نقول له إذا كنت قد فعلت ذلك .. فذلل لنا العقرب وابعده عنا سمها .. واذلل لنا الثعالب أو الأسد أو النمر إلى غير ذلك من الحيوانات المفترسة غير المذلة للبشر .. حينئذ سيعجز تماما إذا أنت لم تستطع أن تذل العقرب على ضالة شأنه .. والثعالب على صغر حجمه فكيف تستطيع أن تذل الجمال أو الحصان على قوتها وكبر حجمها وقدرتها على الفتك بك .. إنك لم تذلها .. ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى سخرها لك .

نقول .. لا

ولكن بعض الناس يثرون هنا نقطة هامة .. فالحيوانات المفترسة يأتون بها إلى السيرك .. ويقوم الإنسان بواسطة الكرياج أو التخويف بتدريبها بحيث تطيعه .. أفلا يعتبر هذا تذليلا .. نقول لهؤلاء .. لا .. لا يعتبر تذليلا ..

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

لأن هذه حالة فردية تتوقف على مهارة المدرب وموهبته وقدرته على إخضاعه الأسد الذي أمامه فقط .. وفي كثير من الأحيان يقوم الأسد بافتراس مدربه .. ولكن هل يستطيع المدرب أن ينقل هذا إلى جنس الأسد عامة .. وهل استثناس هذا الأسد إن كان يصح أن يقال ان هذا استثناس .. هل ينتقل هذا الاستثناس إلى ذرية الأسد بحيث تولد الذرية خاضعة للبشر .. الجواب طبعا لا .. إذن لا هو استثناس للجنس على اطلاقه .. ولا هو استثناس ينتقل إلى ذريته بحيث تولد هذه الذرية خاضعة .. ولكنه حالة فردية لا يمكن القياس عليها .. وكما قلت في أحيان كثيرة .. قد يفترس الأسد مدربه .. وبهذا ينهدم القول بالاستثناس .. إذن كل ما يحدث بالنسبة لاستثناس حيوانات مفترسة .. هو حالات فردية تتوقف على مهارة المدرب .. فإذا فقد المدرب مهارته أو غفل عنها لحظة افترسه الأسد أو النمر .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد أطلق لنا الحيوانات على اطلاقها فكل بقرة تولد ذلولاً .. وكل جمل يأتي إلى هذه الدنيا .. هو خاضع للبشر مدلل له .. وكل حصان يستطيع الطفل الصغير إذا دربته أن يقوده .. وهذه ليست حالات فردية ولكنها عامة .. تخضع لعموم التكليف وتنتقل وراثيا من الأب والأم إلى الجنس كله ، وهذا هو التذليل الحقيقي والتسخير الذي يحمل آية من آيات الله للبشر ..

وحين نقول باسم الله نستعين بالذي سخر لنا كل شيء في هذه الدنيا وأخضعه لنا .. ولكن الإنسان لا ينتبه للخطر ولا يحس بالنعمة إلا ساعة تخرج حياته عن المألوف .. فأنت مادمت تتمتع بالصحة لا تشعر انك تتمتع بشيء .. انك تأخذ هذه النعمة على أساس المألوف .. فهناك ألفة بينك وبين الصحة والعافية تجعلك لا تحس بقيمتها .. فإذا اعتلت صحتك أو مرضت .. في هذه اللحظة تعرف معنى النعمة .. وتتنبه إلى ما أعطاه الله لك .. إنك لا تحس بنعمة البصر إلا إذا حدث شيء أخرج هذا البصر عن مألوف عمله .. فأصبحت لا ترى كالمعتاد .. أنت لا تحس بقلبك إلا إذا مرض واختل .. وبأذنيك إلا إذا أصاب سمعك شيء .. وببيديك إلا إذا وجدت صعوبة في أن تستخدمهما .. وبقدميك

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

إلا إذا فقدت القدرة على المشي .. حينئذ فقط تحس .. والإنسان يكون في حياته أقرب إلى الله حين يمرض .. ذلك أنه في تلك اللحظة التي غادرت فيها العافية جسده .. أحس بنعمة الله .. وكلمة (آه) التي يقولها الإنسان حين يتألم .. كلمة فطرية يفزع بها الإنسان إلى خالقه لأنه هو الذى وهب .. وهو الذى يستطيع أن يشفى .. فإذا ما استرد الإنسان صحته استرد معها انعدام الاحساس بالنعمة .. فبقاء النعمة يجعلنا ننساها .. ولكن خروجها عن المؤلف يجعلنا نحس بها .. ولذلك لولا تلك الأحداث والأزمات التي تمر بنا .. الكثير منا في حياته وهو لا يحس بنعم الله عليه .. والله سبحانه وتعالى كما وضع فيها سخره لنا من مخلوقات .. وضع فيها الدليل على نعمته مثلما تناولناه حول الحيوانات التي أخضعها الله للإنسان والتي لم يخضعها .. كذلك وضع في البشر أشياء تذكره بالنعمة .. ولقد وضع الله هذه الأشياء بأعداد قليلة .. وأعطى أصحابها ما يعرضهم عما فقدوه .. فمثلا نأتى إلى قرية تعدادها عشرة آلاف شخص .. فنجد عشرة أو أكثر من ذلك قليلا من المكفوفين .. وبعض الناس قد فقد عينيه أو إحدى قدميه أو ما شابه هذا .. شواذ في الوجود .. وقلة القليل في الخلق .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد وضعها ليذكرنا بنعمته علينا .. حتى لا نقول إن هذا الوجود وجود آلى .. أو ميكانيكى .. واننى حين خلقت سلبيا معافى قد حققت ذلك بذاتى .. فيوجد الله في القرية رجلا فاقد البصر ليقول لى أنت لم تحقق لذاتك نعمة البصر .. وإنما أنا الذى حققتها لك .. وإذا نسيت فإن هذا يذكرك .. وإذا اعتقدت انك أنت الذى أوجدت القدمين السليمتين .. والساعدين القويين فالله يذكرك بأن هذه نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى عليك .. وفي نفس الوقت فإن الإنسان الذى فقد جزءا من نعمة الله عليه بالسمع أو بالبصر أو بالحركة .. يوجد له الله من يقوده في حركته في الحياة .. ومن يعرضه عن هذا العجز .. فالضريز مثلا أو فاقد البصر .. يعطيه الله ذاكرة لا تخطيء .. ويعطيه فوق ذلك عطايا من البشر لا يحصل عليه إنسان سليم معافى .. ويسر له من الأمور ما تعلمه أنت وما لا تعلمه .. والمهم في هذا كله أن الله يجعل حياة مثل هذا الشخص ميسرة .. بالقدر الذى يعرضه عما فقد .

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

وهكذا يأتي فقدان اى إنسان لنعمة من النعم تذكره بباقي نعم الله سبحانه وتعالى .. تلك النعم التي يأخذها كل إنسان على أنها حق مكتسب ولا يتنبه إليها .. ولذلك تأتي لفتة من الله يرى فيها الإنسان شخصا آخر فاقدا لهذه النعمة فيتذكر فضل الله عليه .

والاشياء الموجودة في الكون والتي تخرج عن مألوف الخلق هي وسائل إيضاح لنعم الله سبحانه وتعالى يهز الإنسان من داخله .. ولقد رأينا ونرى كل يوم نوابغ في كل علم .. من أولئك الذين حرمهم الله نعمة من النعم .. فلكل واحد من هؤلاء نبوغ لا يتوافر لغيره .. وناحية يتميز بها في عبقرية من نوع معين .. فأكثر الناس قدرة على حفظ ما يسمعون هم الذين فقدوا أبصارهم .. وعدد من المصابين بعاهات مثل شلل الأطفال وصلوا إلى مناصب رؤساء دول ، وشيخ الاقتصاد الذي أنقذ ألمانيا بعد الحرب .. كانت رجلاه قصيرتين بشكل يلفت النظر .

وإذا تأملنا في أشياء كثيرة في الكون .. نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخضع الأقوى للأضعف بقدرته - فمثل الطفل والجمل والحصان يعطينا صورة لذلك - ومثل العقول الالكترونية التي تفوق قدرة عقول الانسانية في عدد من العمليات الحسابية .

نقول أن الله سبحانه وتعالى قد أخضع هذا الكشف للعقل البشرى .. ليدلنا على أن الكشف العلمى هو من الله سبحانه وتعالى .. فلذلك يسر لعقل البشر أن يخترع آلة تفوقه في الدقة .. إذن فعديل السماء مطلق فيما أعطاه الله للإنسان .. ولكل واحد منا نقطة يتميز بها عن غيره من البشر ، ونعم الكون سواء كانت من خلق الله .. أو ما كشفه الله من علم للعقل البشرى كلها تحمل الدليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق .. وهو الذى أعطى .. ولو كان العطاء عطاء بشريا لاستطاع البشر أنفسهم أن يخضعوا تلك النسبة القليلة من الشواذ للاطار العام للخلق .. ولذلك إذا كان للكون نظامه العام الذى

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

يألفه الإنسان حتى يعتقد زيفاً أنه ليس وراء هذا الوجود خالق أو مدبر .. يأتي الله سبحانه وتعالى ليخرج أشياء بسيطة عن النظام العام .. لتذكر الخلق بالخالق .

ومن رحمة الله أن يحدث هذا بنسبة تافهة لا تذكر .. بهدف التذكير بالقدرة الإلهية .. وإن هذا الكون ليس موجوداً تلقائياً .. فالكون لا يخضع لأحد أبداً إلا لخالقه .. فعندما تبدأ العمل باسم الله .. فإنك تجعل قدرات الله معك فلا تخشى شيئاً .. ولا تخاف أحداً .. وحين نستعين بالله من الشيطان الرجيم .. نستعين بالخالق من خلقه .. وهنا لا يقوى الشيطان ولا يجرؤ على أن تكون له مواجهة .. فهادمت في معية الله .. فلا يجرؤ إبليس أن يذهب إليك .

حكمة الغار

ولعل في قصة الغار الذي التجأ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة .. التجأ هو وأبو بكر رضى الله عنه إلى غار ثور واختبأ داخله .. وجاء الكفار ووقفوا عند مدخل الغار .. وملاً الخوف قلب أبي بكر من أن يقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أيدي الكفار .. وقال لو نظر أحدهم تحت قدميه لشاهدنا .. وكان أبو بكر بذلك يقرر واقعا .. فالكفار يقفون عند مدخل الغار .. والنبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في داخله .. ونظرة واحدة من الكفار داخل الغار تفضح الأمر كله .. فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. رفع الأمر إلى الله .. وقال لأبي بكر (ما ظنك باثنين الله ثالثهما) .. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة بقول الله سبحانه وتعالى « لا تحزن إن الله معنا » .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم رفع الأمر إلى الله سبحانه وتعالى .. وهو وأبو بكر في معية الله .. وأصبح هنا قول أبو بكر لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا .. هو قول يعتمد على الذاتية البشرية .. ولكن قول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا تحزن إن الله معنا) .. معناه أنه بقدرة البشر .. إنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا .. ولكننا ما دمنا قد رفعنا الأمر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

ستزيغ أبصارهم فلن يرونا .. وحتى لو نظروا تحت أقدامهم فلن يرونا .. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظنا .. فنحن لا نحفظ أنفسنا .. وهكذا جاءت هذه الآية لتبين لنا .. كيف أن الله سبحانه وتعالى إذا كان معنا كانت لنا الغلبة .. وإننا يجب أن نستعين بالله فى جميع الأمور .. وتنطبق نفس الحكمة على تنزل القرآن وهو ما سبق أن ذكرناه بالتفصيل .. فمحمد صلى الله عليه وسلم حين قال له « اقرأ » .. كان يقول له أنا لا أريدك أن تقرأ بالأسباب ولا بما تعلمته .. ولكن « اقرأ باسم ربك » .. وهنا نقل القدرة إلى الله سبحانه وتعالى الذى ليس لقدرته حدود ولا قيود .. فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لرسول الله أنا لا أريدك أن تقرأ بما تعلمته من البشر .. ولكنك ستقرأ بما ستعلمه من خالق البشر .. إذا أراد أن يقول لشيء كن فيكون .

والله تبارك وتعالى يخبرنا فى سورة الكهف .. ان الاعتراف بفضل الله .. هو للنعيم .. فيقول الحق سبحانه وتعالى « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه » .. والقول هنا أنه حينما دخل جنته أو حديقته ووجدها مثمرة يملؤها الثمر .. مخضرة جميلة .. فى هذه اللحظة اغتربقوته أو بعلمه .. وساعة حدث هذا الغرور ظلم الإنسان نفسه .. لماذا؟ .. لأنه نسب إليها الفعل دون أن يذكر قوة الله .. وحين يحدث ذلك يتخلى الله عن هذا الإنسان .. ويتركه لذاته .. ليضيع فى الدنيا .. ولذلك فهو ظلم نفسه لأنه جردها من عون الله لها .. ورمى كل الثقل عليها .

وتمضى السورة الكريمة إلى قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴿٣٦﴾

(سورة الكهف)

وهنا يكون قد دخل نفسه مدخل الشيطان الذى دخله لآدم .. إستدله الشيطان بأن قال له .. « قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

لا يبل .. وهذا الإنسان وسوست له نفسه بأن هذه الجنة لن تبعد .. أى لن تنتهى وتذهب .. أى أنها ملك لا يبلى .. وأضاف «وما أظن الساعة قائمة» وهكذا أعطى لنفسه الخلد من أن الساعة لن تأتى .. وأنه سيظل خالدًا هو وحديقته هذه .. بماذا رد عليه الإنسان المؤمن .
رد قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد غاب عليه أنه فى هذه اللحظة التى يتمتع فيها بمثل هذه النعم نسي الله .. فنسب الشيء إلى نفسه .. وقال له لولا أن قلت وأنت تدخل هذه الجنة : ما شاء الله وأنه لا قوة إلا بالله .. فلا تنسب القوة إلى نفسك .. حينئذ ماذا حدث .. «أحيط بثمره» .. فانتهد الحديقة وأصبحت خرابًا .
﴿ فَاصْبِرْ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ
يَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾

(سورة الكهف)

فى اللحظة التى نسي فيها الله - تخلى الله سبحانه وتعالى عنه .. وتركه لقدراته .. فهلكت الحديقة وذهب عنها الماء وانتهت الخضرة وضاع الثمر .. وأصبحت خاوية وتركه الله ليصلحها بقدراته هو ومن معه دون عون من الله سبحانه وتعالى .. ولكنه لم يجد من نصره من دون الله .. ولو أنه رفع الأمر إلى قدرة الله لبارك الله له فى رزقه وفى زرعه .

قصص القرآن

والقصص فى القرآن الكريم لا يتناول أشخاصًا بذواتهم أى أن هذه القصة وكل قصص القرآن الكريم .. إنما هى عبرة عامة وموعظة تتكرر فى كل

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

عصر .. ما عدا قصة مريم عليها السلام .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يذكر أبطال هذه القصص بأسمائهم الكاملة لتعرف أشخاصهم .. بل اكتفى باسم واحد عام .. ففرعون مثلا هو كل شخص يريد أن يجعل من نفسه إلهًا يعبد في الأرض .. وصاحب الجنة في سورة الكهف .. هو كل من ينسى الله وينسب الفضل إلى نفسه .. ولذلك فإننا نعيب على بعض الناس في البحث عن من هو فرعون موسى .. أو من هو ذو القرنين .. ونحن نقول إن الهدف ليس الشخص ولكنه العبرة والعظة .. ولذلك عندما جاء الله سبحانه وتعالى إلى سورة مريم عليها السلام .. قال مريم ابنة عمران .. ولم يقل مريم فقط .. لماذا؟ لأنه في هذه الحالة المقصود مريم ابنة عمران بالذات .. وإن هذه القصة لن تحدث لغيرها .. كذلك المقصود بقصة عيسى عليه السلام .. هو عيسى ابن مريم بالذات .. وليس أي إنسان آخر .. فمن اختصه القرآن بقصة تتعلق بذاته هو عيسى ابن مريم .. ومريم ابنة عمران .. أما باقي قصص القرآن فالذي يجب أن نستخلصه منه هو العبرة والعظة دون أن نتعب أنفسنا في البحث عن علم لا ينفع .. أو جهل لا يضر .. فما الذي يتغير في قصة موسى عليه السلام إذا عرفنا أن فرعون موسى هو رمسيس الأول أو رمسيس الثاني أو رمسيس الثالث .. ليس هذا هو المهم .

ولكن المهم أن تعرف العظة .. مما يتعرض له أي إنسان ينصب نفسه إلهًا من دون الله في الأرض .. وما يتعرض له الذين يتبعونه بغير علم .. ولذلك فإننا يجب أن نستخلص العبرة من قصص القرآن الكريم .. ولا نضيع الوقت في معرفة أصحاب هذه القصص في التاريخ .

الله يتكلم

وحين يقرأ القرآن الكريم من أي قارئ .. يجب أن يتصور المؤمن أنه يسمع الله يتكلم .. ويلغى المتكلم الوسيط .. ولذلك حين نقول باسم الله أو نبدا أعمالنا باسم الله الرحمن الرحيم .. لا بد أن ننسب الكلام إلى المتكلم .. فانت

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

حين يأتي إليك إنسان في أمر من الأمور ويريد منك تنفيذه .. فسألكه باسم من تتكلم .. فتجد أنه إذا كان عاديا قال باسم وكيل النيابة أو باسم وزير الداخلية مثلا .. ثم إذا ارتقى في المقام تكلم باسم الشعب .. أو باسم الدستور .. وأنت تطيع المتكلم عندما ينسب الكلام إلى المصدر الذي يعطيه القوة .. فإذا قلت باسم الله نسبت الفضل له .. ومن الذي يعطيك في هذه الحالة القوة .. إنه الله الذي ليس كمثلته شيء .. والذي يقول للشئ كن فيكون .

عندما تبدأ قراءة القرآن .. فإنك تستعيز بالله من الشيطان الرجيم .. ثم تبدأ القراءة باسم الله الرحمن الرحيم .. وحين تبدأ أى شئ باسم الله .. فإنك تنقل الأمر من قدرتك إلى قدرة الله .. فيكون الله سبحانه وتعالى يسخر ما لا يستطيع تسخيره .. ويسر لك الأمر .. ويبارك لك فيما تفعل .. فأنت إذا كنت فلاحا وذهبت لتحرق الأرض لتعطى لك الزرع .. فلا بد أن تتذكر أولا أنك لم تخلق الأرض .. ولا خلقت عنصرا من عناصرها .. وأنت لم تخلق البذرة التي وضعتها في الأرض .. فهذه من خلق الله .. جاء الإنسان إلى الدنيا فوجد الله سبحانه وتعالى قد أعدها له .. وأنت لم تخلق المياه التي نزلت من السماء .. ولم تنزلها في هذه البقعة بالذات .. والدليل على ذلك أن العالم ملىء بالصحارى .. بينما مناطق أخرى تصيبها الفيضانات من كثرة الأمطار .. ولو كنت الذى فعلت هذا لاستطعت أن تروى الصحراء .. وأن توجد البحار والأنهار .. ولكنك لم تستطع .. وكل ما يقال مخالفا لذلك .. هو ظن .. وليس علما ولا حقيقة .. فلا أنت خلقت البذرة .. ولا أنت أنزلت المياه .. كل ما فى الأمر .. أنك أعملت فكرك المخلوق من الله فى المادة المخلوقة من الله .. بالطاقة المخلوقة من الله .

علمك محدود

إذن فعلمك هنا محدود .. محدود .. ولذلك حين تقبل على الزراعة .. إذا لم تبدأ باسم الله .. لنسبت الفضل إلى غيره .. وبالله عليك لو أنك لم تبدأ

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

باسم الله .. باسم من تبدأ .. باسمك أنت ، وأنت لا قدرة لك على خلق الأرض .. ولا انزال المطر .. ولا إيجاد البذرة .. لا قدرة لك على أن ترغم الأرض أن تنبت .. ولا أن تخلق أرضا غير تلك التي خلقها الله لترعها .. ولا أنت تستطيع أن تخلق بذرة من عدم .. ولا أن تنزل الماء .. فما هي قدرتك التي تبدأ بها .. وأي قدرة تلك التي تدفعك أن تستغنى عن الله سبحانه وتعالى لتنسب الفضل لنفسك .. لا توجد قدرة انسانية تستطيع أن ترغم عملا من الأعمال في الدنيا على أن يفعل بها .. هناك أشياء سخرها الله للإنسان .. وما سخره الله لك يخدمك بدون جهد منك .. وأحيانا بجهد ضئيل حتى تستمر الحياة والعمل .

وفي الدنيا أشياء كثيرة لا تدخل في قدرتي وقدرتك .. ولا في طاعتي وطاعتك .. الشمس لا يستطيع أحد أن يأمرها أن تطلع أو تغيب حسبما يريد .. والقمر لا يفعل بأوامر أهل الأرض أن يظهر أو لا يظهر .. والسحاب يمشي حيث يشاء الله لينزل المطر حيث يريد .. والهواء موجود في الأرض سواء قلت له استمر أو طلبت منه أن يختفى - هذه الأشياء كلها سخرها الله سبحانه وتعالى لك .. فأنت حين تبدأ باسم الله .. باسم الخالق الذي سخر لك كل هذا .. وما كنت تقدر أنت بقدراتك على أن تسخرها .. أنت في هذه الحالة تبدأ باسم الذي جعل هذه الأشياء تفعل لك .. وأحيانا تنزل إلى المنفعل بك فلا تجد قدرة لك عليه .. الأرض تفعل لك لأن الله قد سخرها .. ولكن في بعض الأحيان ورغم التكنولوجيا الحديثة لا تفعل لك .. دول كبرى متقدمة تنظر إلى علمها وإلى تخلفنا في العلم بحسد شديد .. وتقول أنها تقدمت وفعلت كذا وكذا .. وكذا .. ثم بعد ذلك نفاجا بنقص شديد في أحد محاصيلها الزراعية .. وهذا يحدث ونسمع عنه بين حين وآخر .. وعندئذ نتساءل ..

برغم العلم والتقدم لم تستطع هذه الدول أن تجعل الأرض تفعل لها بنسبة مائة في المائة .. لماذا ؟

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

الأسباب .. والقدرة

وهذه النقطة تحتاج إلى شيء من الايضاح .. فالله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون .. وجعل من قوانين الحياة أنها تتم بالأسباب .. من يزرع الأرض ويهتم بها ويبحث عن آيات الله فيها .. تنفعل له .. سواء كان مؤمنا أو كافرا .. فالله سبحانه وتعالى خلق ما في الأرض جميعا .. وخلق لها الأسباب التي تتفاعل بها .. والقوانين التي تحكمها .. والله سبحانه وتعالى حين قال كلمة « كن » .. تم الخلق في نفس اللحظة .. ولكن لأسباب تفاعلت في السموات والأرض في ستة أيام .. هي ستة أيام كأيام البشر .. لأن القرآن يخاطب الإنسان .. ومن هنا فإن كل ما يتحدث عنه موجه إلى العقل البشرى .. سواء كان ذلك حاضرا أو مستقبلا .. مما يخفى على عقولنا الآن .. ولكن هذه القوانين والأسباب لا يمكن أن تكون قيда على قدرة الله سبحانه وتعالى .. ذلك أن الله لو قضى بالأسباب وحدها في الأرض .. لعبد الناس الأسباب وحدها .. ونسوا المسبب أو الخالق .. ولذلك بقيت طلاقة القدرة في الكون .. لتلفت الناس إلى أن الذي خلق الأسباب لا تقيده هذه الأسباب في قدرته .. ولكنه يفعل ما يشاء .. ووقتها يشاء .. ولكن طلاقة القدرة لا تحدث إلا بين حين وآخر .. لأنها ليست قانون الأرض .. ولا هي وسيلة الحياة فيها .

إذا حدثت طلاقة القدرة كل يوم انتفت الأسباب .. ولم يعد لقانون الدنيا وجود .. ولكنها تأتي لفترة .. وهي في مجيئها مكلفة من الله سبحانه وتعالى .. تكون مؤثرة حتى يحسها الإنسان ولا تمر مروراً عابراً .. لذلك تأتي ونجد أن محصول الحبوب في دولة كبرى تأخذ بالتكنولوجيا الحديثة قد انخفض أو اصابته كارثة .. ومعنى هذا أن الأرض قد رفضت أن تنفعل بالأسباب وتتساءل نحن .. إن الأرض هي الأرض .. والطرق العلمية هي الطرق العلمية .. والماء هو الماء .. فما الذي تغير ..؟

أقول أنها لفترة من الله سبحانه وتعالى حتى لا نعبد الأسباب ونترك الله ..

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

ولكن حتى هذه اللفظات .. يحاول الإنسان بقدر طاقته أن يجعل لها قوانين سببية .. مع أنها جاءت لتلفت الناس إلى القدرة الالهية التي هي فوق الأسباب .

يرزق من يشاء

وهذا الحديث قد لا يعجب أناسا كثيرين .. من أولئك الذين تعلقوا بالحياة المادية .. ذلك أنهم ينسبون إلى الاسلام .. أنه دين يحض على التخلف بسبب الإيمان بطلاقة القدرة .. ويرددون قول الله تبارك وتعالى « .. » ويرزق من يشاء بغير حساب » .. على أساس أنه مدعاة ودعوة صريحة لعدم العمل .. فإذا كان الله يرزق من يشاء وبغير حساب .. فلماذا العمل والتعب .. ولماذا السعي وراء الرزق .. مع ما يورثه للنفس من مشقة .. وقبل أن أجيب على هذا السؤال لابد من ايضاحين :

الايضاح الأول أنه إذا كانت طلاقة القدرة تعطى .. فإنها كما أوضحت لا يمكن أن تصبح قانون الكون .. لأن طلاقة القدرة هي قانون الآخرة .. وليست قانون الدنيا .. ففي الآخرة يأتيك بمجرد أن يجول في خاطرك أو تفكر فيه .. لا عمل في الآخر ولا سعي .. وإنما عطاء من الله بلا حدود ولا قيود .. أما في الدنيا فهناك قانون الأسباب .. ومعه طلاقة القدرة .

والايضاح الثاني أن لكل إنسان رزقا قد لا يعلمه .. وإذا كان الكافر يحدد الرزق بالمال وحده .. فإن المؤمن يحدد الرزق بعطاءات كثيرة من الله سبحانه وتعالى .. فحب الناس لك رزق .. والبركة في بيتك رزق .. والبركة في صحتك وأولادك رزق .. إلى آخر ما تنطبق عليه كلمة الرزق .. نعود مرة أخرى إلى نهاية الآية الكريمة « يرزق من يشاء بغير حساب » .. لنطرح قضية هامة معاصرة تفتيح هؤلاء الناس إلى صدق قول الله .

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

الذين يطعنون في هذا الدين يعبدون الأسباب ويتخذونها إلهًا .. فكل رزق عندهم مساو للعمل الذي يتم من أجله .. فإذا عملت ليل نهار زاد رزقك .. وإذا عملت بضع ساعات قل رزقك .. وهكذا تلك هي القاعدة التي يتبعونها .. كل رزق مساو للعمل .

المسبب .. والأسباب

نقول لهؤلاء الناس إن هذا قد يكون صحيحا لقاعدة عامة .. ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب .. ولنلاحظ في نهاية الآية الكريمة « من يشاء » .. ولم يقل سبحانه وتعالى أرزق كل الناس بغير حساب .. ولكن كل رزق معلوم على قدر ما أتاحه الله له من عمل وجهد .. وتبقى المشيئة أو طلاقة القدرة تعطى بغير حساب وبغير أسباب .. وإذا نظرنا إلى دول البترول مثلا .. تلك التي تملك القوة الحقيقية في المال أو في الرزق في العالم كله .. إذا نظرنا إليهم نجد أنهم أغنى الناس في العالم كله رزقا ومالا .. بل هم فاقوا في الرزق .. تلك الأمم التي فاقتهم في العمل وفي العلم .. فأصبحت تتجه إليهم ليدعموها في الرزق كأمريكا وأوروبا الغربية وهم أكثر عملا وعلما .. تتجه إلى دول البترول لتتقترض منها الملايين لتدعم دول .. وتحاول أن تجذب أموال دول البترول إلى بلادها .. بل أن دول البترول .. تستطيع أن تفلس أكبر دول العالم كأمريكا وألمانيا الغربية واليابان .. إذا هي سحبت دعمها الاقتصادي لها .. وأوقفت تعاملها معها .. فالذي يملك القوة الاقتصادية في العالم هو دول البترول التي لا تتحكم في رزقها فقط .. ولكن في اقتصاد العالم كله .. بشهادة غير المؤمنين والماديين في هذا العالم .

وإذا قلنا أن دول البترول قد وصلت إلى المركز التي يتحكم في اقتصاد العالم أجمع ، فلا بد أنها قدمت حسب النظرية المادية السببية من العلم والعمل .. ما قدمته دول العالم أجمع .. وهذا غير صحيح .. بل إن بعض هذه الدول

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

تعمل على استخراج البترول منها .. شركات غريبة من الدول التي تخضع اقتصاديا لدول البترول .. والعمل الذي تم .. تم بواسطة خبراء وآلات ومعدات تكنولوجية استوردت من دول أخرى .. فكيف يحدث هذا إذا لم يكن الله سبحانه وتعالى « يرزق من يشاء بغير حساب » .. ولقد شاءت قدرة الله أن يتم ذلك في أمة اسلامية ، ويكون برهانا صادقا على كلام الله .

ولو أن القاعدة على إطلاقها .. أن الأسباب هي التي توجد الرزق لما كان ذلك يمكن أن يحدث .. ولما كانت دول البترول تستطيع أن تكون أكبر قوة اقتصادية في العالم .. وفي زمن قياسي لا يستطيع العلم والعمل خلاله أن يعطيا بهذه الوفرة وبهذا السخاء .. ذلك لكي تتطور دولة أو عدة دول لتصبح أغنى دول العالم .. فإن ذلك يتطلب بجانب العلم والعمل فترة زمنية طويلة .. ولكن هنا لا الزمن ولا العلم ولا العمل يتناسب مع الرزق .. إذن من الذي أوجد هذا الرزق؟ .. ومن الذي أعطاه؟ .. الله سبحانه وتعالى مصداقا للآية الكريمة « ... يرزق من يشاء بغير حساب » .. ويدعى أنها لا تتمشى مع تطورات العصر ومقاييس العلم والزمن .. نقول له قبل أن تتسرع في اتهامك .. فقد أتينا لك بمثل من العصر الذي تعيش فيه .. ولم نأت لك بمثل من التاريخ .. حتى لا نقول حكاية مكذوبة أو أسطورة من الأساطير .

ولم نأت لك بنبوءة .. حتى لا نقول غيب لن يحدث .. ونحن نقول لك قبل أن تتسرع في اتهامك .. تأمل الكون .. تجد في كل مكان لله رزقا بغير حساب .. هذا الرزق يلقي بالأسباب بعيدا .. لتأتى طلاقة القدرة وتعلن أن الله يفعل ما يشاء .. عندما يشاء .. وكيفما يشاء .. وأنه إذا كانت الأسباب موجودة .. فإن طلاقة القدرة موجودة منذ خلق الله الأرض .

الاستعانة بالقدرة

إذن فبداية العمل باسم الله .. هي استعانة بقدرة الله سبحانه وتعالى في

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

الكون .. ورد الفعل إلى الفاعل الذى يحدث أن الأسباب المادية تعطينا ظاهر الحياة الدنيا وتنظيم سيرها العادى .. ولكن نسبة العمل إلى الأسباب وحدها تبعدنا عن الله سبحانه وتعالى .. ولقد مكن الله بعض خلقه من الأسباب فى الأرض .. ليسير فى الكون .. وتمضى الحياة .. فهذا رئيس الدولة .. وهذا ميسر له أسباب النفوذ والسلطان .. وهذا ميسر له أسباب المال إلى آخر ما نراه فى الدنيا .. وجعل الله العطاء ظاهرا فقط من هذه الأسباب ليسير الكون .. ثم ماذا حدث ؟ .. كانت هذه الأسباب أو حاول بعض الناس الماديين أن يتخذوا له ما يطلب .. وهذا يملك الجاه والسلطان .. وهو ظاهرا يستطيع أن يعطينى ما أريد إذا فعلت له ما يطلب .. وهذا ظاهر الحياة الدنيا .

هب أن هؤلاء الناس لا يخشون الله .. وأنهم قد طلبوا منى أن أفعل ما يغضب الله من أجل مال .. أو جاه أو سلطان .. لو كنت أعبد الأسباب وحدها لنفذت لهم ما يريدون لأصل إلى ما أريد .. فلو قالوا اقتل .. لقتلت .. ولو قالوا أظلم .. لظلمت .. ولو قالوا إفعل كذا وكذا مما يغضب الله .. لفعلت .. إحساسا منى فى أن عطاء الأسباب فى يد هؤلاء وحدهم .. وأن مخالفتهم ستؤدى بي إلى الحرمان من مقومات الحياة .. وأن طاعتهم ستعطينى الحياة الرغدة التى أتمناها . وهكذا وبغير نظر إلى ما قال الله .. افعل .. ولا تفعل .. انطلق لأحقق هوى وشهوات البشر .. ولو كانت تغضب الله .. وهكذا يصبح الهوى الشخصى والغرض البشرى هما أساس الحياة فيفسد الكون كله .. ويصبح الحكم هو شهوة الحاكم .. وليس دين الله .

هذه هى خطورة الأخذ بالأسباب وحدها .. وهى خطورة تعرض الكون كله للاختلال وتضييع موازين العدل .. وتكثر من البغى والفساد فى الأرض .. وما من أمة عبدت الأسباب إلا انتشر فيها الظلم .. وعم فيها الارهاب .. وضاع فيها الحق .. واستعبد الإنسان .

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

نسوا الله

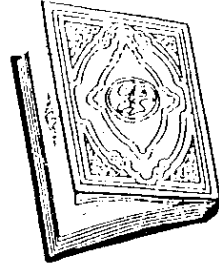
إن إطلاق الأسباب وحدها في الكون يؤدي إلى عبادة الفرد .. وذلك يؤدي إلى ظلم عظيم .. ولذلك كان لابد من طلاقة القدرة لتصحيح المسيرة وتفريق الناس .. وتجعلهم يعلمون أن الله هو الذى أعطى الأسباب ويستطيع كما أعطاها أن يأخذها .. وأن العبادة لله وحده .. فمن ترك المسبب وعبد الأسباب .. فقد ضل ونسى الله .. ولذلك فنحن نتعجب من ضعيف لا حول له ولا قوة يمكنه الله من قوى .. ومن كان يملك الجاه والسلطان ثم أصبح طريدا يبحث عن إنسان فلا يجد حتى من يصفحه .. ومن ينتقل من الحكم إلى السجن وبالعكس .. إن ذلك يحدث أمامنا ليذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى وقوة المشيئة .. وأن الله هو الذى يعطى الملك والجاه والسلطان .. فإذا عبد الناس هذه الأسباب وانطلقوا يسجدون لها .. أزالها الله .. لماذا؟ حتى يفريق الناس ويعلموا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى الأسباب .. وأن هذه الأسباب ليست ذاتية للحاكم أو صاحب السلطان .. ولو كانت ذاتية لما زالت عنه .. ولكن الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى أعطى الأسباب يستطيع أن يزيلها .. وأمام هذه الحكمة التى تحدث فى عالمنا كل يوم .. يسجد الناس لله بدلا من السجود لغير الله .. سواء أكان أسبابا أم بشرا .. ومحسون أن القوة والمنعة هما من الله وليس من أى إنسان .

يارب

ولا تقتصر طلاقة القديرة على قمة الأمور الدنيا .. بل هى فى أكبر الأشياء وفى أبسط الأشياء .. طلاقة القدرة تتدخل لتنصر مظلوما ضعيفا من ظالم قوى .. وتقتصر من إنسان ارتكب جريمة وتصور أنه نجا من العقاب .. أو تعيد حقا حسب صاحبه أنه ضاع .. أو لتذل جبارا يؤذى الناس وتجعله عاجزا عن رد الأذى عن نفسه .

الله لا يتغير .. ولا يتبدل

تلك طلاقة القدرة .. وكلمة (يارب) تخرج من قلب المظلوم : فلا تجد بينها وبين السماء حجابا .. وتتدخل السماء لتزيل ظلما .. وتعيد حقا .. وتصحح الموازين في الأرض .. ولذلك فإن المؤمن لا يعمل بنفس مفهوم الكافر .. فأساس عمل الكافر المال الذي ينتج عن العمل بصرف النظر عما يقوم به . ولكن المؤمن يضع دائما اسم الله مع العمل .. ويبدأ العمل دائما باسم الله .



الفصل الخامس

حركة الحياة في الكون

حركة الحياة في الكون

الله سبحانه وتعالى نظم بالمنهج حركة الحياة في الكون .. لماذا ؟ لأن حركة الحياة هي مقصود كل إنسان سواء كان مؤمنا أو كافرا .. فكل منا يريد أن يتحرك في الحياة ويحصل على رزقه وقوته ، وعلى ما يستطيع الحصول عليه مما يعينه على حياته .. لذلك كان المؤمن متحركا في الحياة .. والكافر متحركا في الحياة .

ولكن الله سبحانه وتعالى رسم منهاجا للإنسان المؤمن .. يتحرك فيه في حياته ولكن هناك فارقا بين تحرك الكافر وتحرك المؤمن .

الإنسان المؤمن يتحرك في الحياة وفقا لمنهج الله سبحانه وتعالى .. وهو لا يهتم في سبيل ذلك بضرر دنيوى أو ما يقال عنه بالضرر الدنيوى .. فإذا وجد مالا حراما يستطيع أن يأخذه امتنع عن ذلك .. وإذا وجد شيئا يستطيع أن يستولى عليه بالباطل رفض أن يفعل .. وإذا استطاع أن يعتدى على حق ضعيف تراجع ولم يقدم .. كل هذه تعتبر عند أهل الدنيا كسب وغنائم .. ولكنها بالنسبة للإنسان المؤمن خسارة كبيرة لأنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه عليها في الآخرة وأن الثواب الذى قد يحصل عليه في الدنيا محدود جدا .. ولكن ثواب الآخرة بلا حدود .. ومن أجل هذا كان المؤمن يسير في حركة الحياة على أساس الحق .. وعلى أساس أن يأمن كل إنسان على حقه .. بينما الكافر يسير في الحياة على أساس النفع العاجل .. إنه يريد كل ما تعطيه الحياة من خير ظاهر .. حتى ولو كان هذا النفع العاجل سيؤدى به إلى الهلاك والدمار .. فنجده يقدم على سرقة مال غيره .. وربما خاطر بحياته من أجل ذلك .. وهو في الدنيا لا تحكم حركته حدود ولا قيود .. فإذا وجد من هو أضعف منه سلب ماله .. وهو ينطلق في حركة الحياة يأخذ من عرق سواه ..

والذى يفسد الحياة وحركتها على الأرض هو أن يوجد احياء دماؤهم من عرق سواهم .. وما يزيدهم فسادا ألا يكون الإنسان آمنا على نفسه وماله .. في هذه الحالة تضيق حركة الحياة في الكون .. ويصبح المجتمع أشبه بالغابة التى تعيش

حركة الحياة في الكون

على مبدأ السلب والنهب .. وسفك الدماء وأخذ حقوق الآخرين .. وحينئذ لا يمكن أن تكون الدنيا أمينة ولا مأمونة بالنسبة لأي إنسان .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحافظ على حقوق الضعيف قبل القوى .. وأن نرى من لا ناصر له .. فإذا فعلنا ذلك صلح المجتمع كله .

قضية المنهج واحدة

ولقد كانت قضية المنهج منذ خلق الله آدم حتى الآن قضية واحدة .. هي قضية الحق والعدل والإيمان بالله الواحد الأحد .. وكان الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل .. كل رسول يأتي يؤمن بمن قبله ويشدد على أمته أن ينصروا الرسول المقبل .. لماذا؟ لأن رسالة السماء للإنسان أو النبي آدم في جوهرها واحدة .. ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ ميثاقا على الأنبياء .. وكان الميثاق أن كل رسول يأتي في عصر رسول آخر يؤمن به .. كما حدث بالنسبة لإبراهيم ولوط مثلا .. فقد أرسلنا في عصر واحد . هذا يعالج داء .. وهذا يعالج داء آخر .. وكان كل منهما مؤمنا بالآخر .. حتى أن إبراهيم عليه السلام جادل الملائكة حينما جاءوا ويهلكون قوم لوط .. جادلهم في أمر لوط .. فقال له الملائكة نحن أعلم بمن فيها .. ذلك أنهم يتلقون أوامرهم من الله سبحانه وتعالى .. فهم بذلك أعلم .

إذن فكل رسول جاء في عصر رسول آخر كان يؤمن به .. وإن لم يكن في عصره كان يوصي أمته أن ينصروا الرسول المقبل ويطيعوه .. وكان أفراد أي أمة شهداء على أنفسهم .. ونبي كل أمة شهيد عليها .. والله شاهد وشهيد على الجميع .

وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يحتفظ بانسجام تام في الدعوة إلى منهجه منذ أول الخلق حتى نهايته .. فلا يتعصب قوم لملتهم أو لنبيهم لأنهم جميعا

حركة الحياة في الكون

يبلغون عن اله واحد منهجا واحدا . . وبذلك يكون موكب الرسالات موكبا متلاحما متكاملا متعاظدا . . وبذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين أنه لا حجة لنبي ولا لتابع نبي أن يصادم مؤمنا آخر برسالة سماء . . بل لا بد أن يقف المؤمنون جميعا متصادمين مع من لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى . . ولكن ماذا يحدث إذ تولى بعض الناس الذين آمنوا برسول سبق عندما جاءهم رسول جديد مصدقا لما معهم . . ومبيناهم بعض الذي اختلفوا فيه . . إن الذي يتولى ويعطى ظهره للنبي الجديد يقول الله سبحانه وتعالى عنهم « فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . . والفسق هو الخروج عن منهج الله سبحانه وتعالى .

الكمال الإيماني

وهكذا أوجب الله علينا أن نأخذ الكمال الإيماني من مواكب الرسل لأنه ما من رسول أتى وهاجم منهج الرسول الذي قبله أو سفهه . . أو حاول أن ينكره . . بل كل رسول جاء مصدقا بمن قبله ومبشرا بمن بعده . . فمن يأتي بعد ذلك فيقول أنا أقبل هذا ولا أقبل ذاك فإنما هو في الحقيقة خارج عن منهج الله . . لماذا؟ لأن الرسالات في جوهرها واحد . . ومصدرها واحد . . فلا يعقل أن تأتي رسالة من نفس المصدر فأرفضها وأقول اني لا أؤمن بها . . مع أن الرسول الذي جاء مبلغا عن الله بمعجزات من الله بصدق رسالته . . بمنهج عن الله يصح ما قد يكون قد حرف .

ولكن ما الذي يحدث ؟

في الحقيقة أن رفض الإيمان بالرسول الجديد تكون له أسباب ، وهذه الأسباب هي التي تدفع الذين اعتنقوا منهج الرسول السابق من تصديق الرسول الجديد . . والأسباب هنا واضحة وظاهرة ، وهي أنه قد حدث تحريف في منهج الله لصالح البشر . . وأن عددا من الناس القائمين على المنهج وعلى حفظه قد

حركة الحياة في الكون

حرفوا فيه لاستفادة البشرية .. ليصبحوا هم المستفيدين .. ووضعوا فيه ما لم يبلغه الله ، وما لم يقله رسله .. ثم نسبوه لله سبحانه وتعالى ، هذا التحريف هو الذى يمنعهم من اتباع الرسول الجديد .. لأن الرسول قد جاء بمنهج حق يجردهم من ميزات الدنيا التى وضعوها لأنفسهم واستباحوها ونسبوها ظلما وعدوانا إلى الله سبحانه وتعالى .
وفى هؤلاء يقول الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا تقف أمور الدنيا ومغانمها وما تعطيه حائلا بين بعض الناس وبين تصديق الرسول الجديد .. فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء الناس بقوا على إيمانهم .. أم أنهم خرجوا عن منهج الله .

الله سبحانه وتعالى قد وضع منهاجا يحيط بالإنسان فى كل تصرف له ولذلك لا تجد تصرفا بشريا لا يخضع لمنهج الله .
وقول الله تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » دليل على ذلك ..

ولقد أراد أحد الناس أن يتحدى الشيخ محمد عبده فى هذه النقطة فجاء إليه وقال له : إن الله سبحانه وتعالى قد قال : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » .. فرد الشيخ محمد عبده نعم القرآن لم يفرض فى شيء .. وهنا قال السائل أخرج لى من القرآن ما يبين كم رغيفا تصنع من أردب القمح .. وقام الشيخ محمد عبده إلى أحد الحبازين وسأله كم رغيفا يصنع من أردب القمح .. فرد الحباز كذا رغيفا فقال السائل مندهشا وهل هذا من القرآن ؟ فرد الشيخ محمد عبده نعم من القرآن ..

وقد قال الله سبحانه وتعالى :

حركة الحياة في الكون

﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧)

(سورة الأنبياء)

وحتى أطيع القرآن وأمضى على المنهج سألت أهل الذكر فأفتوني .. وهكذا لوفكرنا قليلا لوجدنا أن منهج الله يحيط بحياة الإنسان إحاطة كاملة .. ومادنا جميعا نعلم أن لهذا الكون إلهًا واحدًا ، ونؤمن بذلك .. ومادنا جميعا نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسله .. كل رسول مصدق لمن قبله ومبشر بمن بعده ، فلا نأتى ونقول إننا لا نؤمن بمنهج الله وخاتم رسله .. إلا أن يكون هناك غرض شخصي .. منهج يوافق الهوى .. منهج هو من صنع الناس للناس .. والعجيب أن الإنسان في بعض الأحيان يفضل أن يتبع منهجا وضعه البشر .. من أن يتبع رسالة السماء .

وهنا لابد من تفسير .. إن الإنسان لا يجب أن يتبع مساويا .. بل لابد أن يكون الذي يتبعه أعلى منه .. فما الذي يجعل إنسانا يتبع منهجا بشريا من مساو له .. والجواب على ذلك بسيط .. حين تتلاقى المصالح والأهواء ويحلل الحرام ويباح كل منكر .. تجد الإنسان يتبع منهج الإنسان .. هذه هي الحقيقة التي يجب أن نعيها حينما نسمع عن تشريع البشر للبشر .. وحينما نسمع أن بعض الناس وبعض الشعوب والأمم ترك منهج الله الذي لا هوى فيه والذي يعطى لكل إنسان حقه .. والذي هو أمن وأمان للجميع .. ترك هذا التشريع وتتبع تشريعا بشريا .. حينئذ نقول هوى النفس دخل هنا .. وأصبح التشريع يوضع لصالح من يحكم .. فإذا تغير الحاكم تغير التشريع .. وهكذا يظل هذا التشريع يتبدل ويتغير حتى يصل إلى مجموعة من المتناقضات التي هي أساسا هوى النفس .. الذي قال الله سبحانه وتعالى عنه :

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

(سورة المؤمنون)

حركة الحياة في الكون

وإذا نظرنا لأى تشريع بشرى ، فلا بد أن ننتظر أولا إذا كان هذا التشريع يحقق ميزة لأولئك الذين وضعوه .. حينئذ نعرف أين هو هوى النفس وحينئذ نعلم من الذى يشرع .. وحينئذ تبدو لنا الأسباب التى ابتعد من أجلها بعض الناس عن منهج الله .. وجعلوا الخلق مقابلا للخالق .. إنه هوى النفس الذى يحكم مناهج البشر .

الله سبحانه وتعالى لم يترك خلقه إلا بعد أن بين كل شىء لهم .. وبين لهم أنه خلق هذا الكون من أجلهم .. كيف أخضع كل ما فى الكون من نبات وحيوان وجماد للإنسان .. بل إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الحجة البالغة ، فخلق أشياء لا نقدر عليها ثم سخرها لنا .. فالشمس والقمر والبحار والكون كلها فوق قدرة الإنسان .. والسؤال : هل أنت سخرت هذا كله ليكون فى خدمتك .. سخرته بقدرتك وقوتك وعلمك .. الجواب طبعا لا .. فإذا كان الجواب كذلك .. فما هى القوة التى سخرت لك ما لا تقدر عليه .. فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى سخر ، وهو الذى وضع المنهج « أفغير دين الله ييغون » .

ولكن الهوى النفسى الذى سيطر يحاول أن يتخذ صورا معينة .. مثل تطور الكون أو عصر العلم .. أو عصر الاكتشافات العلمية .. إلى آخر هذا الكلام .. وهذه كلها مبررت للخروج من منهج الله إلى هوى النفس البشرية .. فمنهج الله لا يقيد إنسانا من أن يبحث فى الأرض وأن يستكشف .. بل إنه يحثه على ذلك ولكن فى حدود المنهج .. فلا يأتى إنسان كشف الله له سرا من أسرار الحياة يتخذ من هذه النعمة طريقا إلى محاربة الله فى الأرض ممجدا فيما كشف ناسبا الفضل لنفسه متناسيا نعمة الله عليه .. نقول له هل هذا الشىء الذى اكتشفته كان موجودا فى الكون أم لم يكن موجودا .. هل أضفت شيئا إلى الدنيا .. ويكون الجواب لا .. لأنه لا أحد يستطيع أن يضيف إلى الدنيا شيئا .. ولكن الإنسان حين يكتشف خاصية جديدة وضعها الله فى الأرض وأخفاها إلى أن جاء وقت ميلادها .. إذن فهو لم يضيف شيئا إلى

حركة الحياة في الكون

الكون .. ثم نأتى بعد ذلك إليه لنسأله .. أنت تريدنا أن نتبع منهجك ونترك منهج الله بدعوى انك الأحدث أو الأقرب إلى العقل والفهم .. أو الأقرب إلى المعجزة العلمية كما يدعون .. ونحن نريد أن نسألك هل ما اكتشفته من علم يساوى عظمة خلق الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين على الكون .. هل هذا الذى اكتشفت يساوى عظمة خلق البحار والأنهار والجبال .. هل ما اكتشفته يساوى عظمة هذا الكون كله .. فإذا كان جوابك نعم .. فلك الحق أن تقول انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم .. وإذا كان جوابك لا .. فكأنك تحتقر عقولنا لانك تقدم شيئاً تافهاً ، وتطالبنا أن نترك من أجله عبادة الله بكل العظمة والقدرة الظاهرة أمامنا .

لو انك خلقت كونا جديدا لا أقول أبدع من الكون ولا أقول مماثلا لكون الله .. ولكنى أقول أصغر من كون الله ، لكان لك الحق فى أن تدعى .. ولكنك حتى الآن عاجز عن أن تخلق ذبابة .. ومع ذلك تريد أن تخرجنى من عبادة ربي بدعوى العلم .. أى علم هذا الذى يدعو للخروج عن طاعة الخالق واتباع هوى النفس فى أشياء لم توفر أساسيات للبشرية وإن كانت قد أعطتها شيئاً من الرفاهية .. فقد سلبتها الأمن والأمان والحياة الطيبة وكل شئ جميل فى هذا الكون ، وملأت الدنيا بالتلوث وشبح الحرب والقتل والسلب والنهب .

على انه لا بد من ايضاح لهذه النقطة .. تلك المخترعات البشرية متى تنشط وتزدهر .. إنها تنشط فى أوقات الحروب .. فى أوقات القتال والقتل عندما تشتعل الحرب ويريد كل إنسان أن يسيطر على الآخر ويقهره ويذله .. ويريد شعب أن يسيطر على باقى الشعوب ويذها ويسلبها خيراتها .. حينئذ يبدأ الانفاق بسخاء شديد مع البحث عن أدوات وأسرار مدمرة فى هذا الكون .. وإذا رجعت إلى تاريخ معظم المخترعات تجد انها أساسا كانت للشرب والقتل .. ثم بعد ذلك عندما انتهت الحرب بدأ تطويرها للأغراض السلمية .. القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية وحتى ما يسمونه بغزو الفضاء ليس لخدمة الإنسان

حركة الحياة في الكون

ورفاهيته ، ولكن ليسيّط البشر على البشر ويقهروهم . . فإذا استخدم بعد ذلك أى اختراع من هذه الاختراعات لخدمة الإنسانية . . فلا يجعلنا ذلك ننسى الهدف الأساسى الذى تم من أجله هذا الاختراع ونهمل ونكبر .

والله سبحانه وتعالى خلق فى الكون أساسياته أو مقومات الحياة . . فخلق لنا الماء الذى نشربه . . ثم جاء العلم ليجعل الإنسان بدلا من أن يشرب من البئر أو التربة يشرب ماء مثلجا فى منزله . . وخلق الله الإنسان صالحا للحركة يستطيع أن ينتقل من مكان لآخر ، وخلق له الدواب التى تعينه على ذلك . . وجاء العلم المخلوق من الله وكشف للإنسان نوعا من الرفاهية يستطيع أن ينتقل بها ، وخلق الله سبحانه وتعالى للإنسان الطعام . . وجاء العلم المخلوق من الله ليدخل بعض التحسينات على إنتاج الطعام فيجعله أكثر غزارة أو أحسن طعاما .

وهكذا كل ما فعله الإنسان كان اضافة ولم يكن أصلا فى شيء . . حتى اللبن الذى تحدى الله سبحانه وتعالى به البشر . . وجعله آية من آياته اختص بها نفسه . . عجز العلم حتى الآن عن أن يوفر كوب لبن واحدا بطريقة صناعية . . وظلت الأبقار هى الأساس تسقى الدنيا كلها لبنا كل يوم بوفرة كبيرة . . وعلماء العصر بكل قوتهم عاجزون عن أن يعطونا كوبا واحدا من اللبن . . ثم بعد ذلك لا ينجل إنسان من أن يقول لقد بدأ عصر العلم وانتهى عصر الإيمان . . ويدعو لعدم الإيمان بالله .

قدرة الخلق

اذن العلم لم يخلق أساسيات الحياة ولا هو أعطى شيئا لم يكن موجودا ولكنه وفر الرفاهية فى الكون . . فما الذى يدعونا لأن نترك الله ونقول أن عصر العلم قد بدأ ؟

حركة الحياة في الكون

على أننا إذا أردنا نظرة منصفة .. فلا بد أن ننظر إلى عالم اليوم وما فيه من شرو وحرور وقتل ونهب للأموال فكل هذا الذي نراه ، ونسأل أنفسنا .. هل ما وفره العلم يساوي كل هذا الشقاء .. هل سلب حرية الإنسان وأمان الإنسان وأن إحساس الناس بأنه في أية لحظة يمكن أن تأتي حرب نووية تفتني العالم كله .. احساس الملايين من البشر بغدم الأمن والأمان هل يساوي هذا في حياة الناس الشقاء الذي يعيشونه الآن .

إننا نجد أوروبا الآن في موجة عارمة اسمها العودة إلى الطبيعة .. وهذه الموجة التي انتشرت بين الشباب تطالب بأن يعود الإنسان إلى الطبيعة التي خلقها الله .. وأن يدمر الناس القنابل النووية وغيرها من أسلحة الدمار ويتخلصوا من كل ما يلوث الجو ويفسده .. ويعودوا إلى الطبيعة السميحة بكل ما تأتيه من خير بلا شرو .. ومن حياة بلا آلام .. ومن راحة بال بلا قلق .. ومن كل شيء حلو .. ولو أننا نحن الذين طالبنا بذلك لقالوا متخلفين .. ولكنها أوروبا التي يعتبرها هؤلاء الناس أساس الحضارة والمدنية تطالب بالعودة إلى الطبيعة .. ولعل في هذا ردا وردا علميا على ضيق النفس البشرية مما سببته وتسببه المدنية من آلام ومشاكل .

ما معنى هذا .. هل معناه أن نترك الدنيا لغيرنا .. أبدا .. ولكن معناه أن نسير في كل شيء بمنهج الله سبحانه وتعالى .. فإذا عملنا عملنا باخلاص .. وإذا أخذنا لم نأخذ حقوق أحد .. ولم ننسب فضلا لغير أهله .. مادما نتبع المنهج فلنأخذ الدنيا كلها ونبحث في العلم كيفما نشاء .. ولكن دون خروج عن المنهج حينئذ يحدث انسجام بيننا وبين الكون .. ونحس بالسعادة في كل خطوة نخطوها ..

ولكن الذي يحدث أننا نريد أن نترك منهج الله بهذه الأشياء الظاهرية التي تبهر ضعاف النفوس .. والمفروض أن كل كشف علمي في الأرض يزيدنا التصاقا بالله سبحانه وتعالى .. فهو إظهار لقدرة الله في الكون وإبداعه في الخلق .

حركة الحياة في الكون

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »
أى الذين فتح الله لهم بابا من أبواب العلم .. كان يجب أن يكونوا أكثر
الناس خشية لله .. لأن الله أطلعهم على آية من آياته وأفهمها عقولهم ..
ولذلك كان يجب أن يكون الشكر على قدر العطاء .. ولكن بعض العقول تغتر
وتعتقد أنها هي التي فعلت .. ولا تستطيع أن تفسر لنا كيف أنه في بعض
الأحيان تعجز هذه العقول عن أن تحرك أصبعا من أصابع صاحبها عندما يداهم
المرض ويصبح عاجزا عن الحركة .. ولا أن تقول لنا كيف أنها تقف عاجزة
لا تستطيع أن تمنح نفسها الحياة .. ولا تقدر أن تعطي لنفسها الصحة .

على أن المشاكل التي تنشأ في كثير من الأحيان من اكتشافات علمية يهمل لها
البشر ، تجعل الشك في القيمة المطلقة لهذه الاكتشافات موجودا في كل لحظة ..
فهؤلاء الذين قدموا المبيدات الحشرية هم الذين حرموها .. وكثير من الأدوية
التي قيل إنها تفعل المعجزات وتشفى كثيرا من الأمراض حرم استعمالها تماما بعد
سنوات بسيطة .. لأنه ثبت أن لها أضرارا تفوق منافعها مئات المرات ..
والسجل العلمى حافل بمثل هذه الأشياء .

على أن الإنسان يقتله جشعه .. فهو يملك المال الذى يكفيه طوال حياته
ويزيد .. ولكنه يطلب مزيدا من المال ويشقى نفسه في الحصول عليه .. وكل
مخلوق لله يأكل على قدر حاجته .. الطير تلتهم من الحبوب ما يكفيها فقط وتترك
الباقى .. وأنت إذا وضعت كمية كبيرة من الغذاء أمام أى حيوان فإنه لا يأكل
منه إلا حاجته ويترك الباقي .. أما الإنسان فهو الوحيد الذى يأكل أكثر من
حاجته .. ويشرب أكثر من حاجته .. ويريد أن يملك أكثر من حاجته .. وهذا
الجشع البشرى هو أساس الشقاء الذى تعانىه البشرية .. وفي كل ما هو يزيد
عن الحاجة من طعام أو شراب أو مال يكثر بلا حساب .. فهو بعيد عن منهج
الله .

حركة الحياة في الكون

الإسلام

والله سبحانه وتعالى خلق في كونه أشياء أسلمت لله سبحانه وتعالى ورفضت الاختيار .. رفضت أن تكون مختارة في طاعة الله ..

والله سبحانه وتعالى يقول « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » .. إذن هذا الكون كله قد أسلم ورفض أن يكون مختارا في أن يؤمن أو لا يؤمن .. أسلم طوعا .. بل اختار الإيمان دون أن تكون له إرادة في المعصية .. أما الإنسان فقد قبل أن يحمل الأمانة وأن يأتي الله باختياره عن حب .. ومادام يستطيع أن يأتي فهو يستطيع أيضا ألا يأتي .. ومادام قد أعطى حرية الإيمان وحرية ألا يؤمن .. فقد أعطى أيضا حرية ألا يؤمن .. ما هي الأمانة .. هي شيء أئتمنتك الله عليه .. فإذا أردت أن تبسطها وتضرب مثلا والله المثل الأعلى .. أقول هب أنني جئت إليك وأودعتك شيئا وقلت هذه أمانة عندك سأخذها عندما أطلبها .. أنت في هذه الحالة وفي سلوكك شيئا .. إما أن تأخذ هذا المال الذي أودعته .. وتبعثره فيما ينفع ولا ينفع ولا تحافظ عليه ولا ترعى الأمانة حق رعايتها .. وفي هذه الحالة يأتي وقت السداد فلا تجد عندك شيئا .. وإما أن تحافظ عليها وتنميها وتزيدها .. ويأتي السداد فتجد ما تسد به ويفيض .

والله سبحانه وتعالى حين أعطانا حرية الاختيار .. وأعطانا كل ما في الكون وسخره لنا .. كان هذا من أجل الإنسان .. ثم أعطانا الأمانة .. وهي العقل وحرية الاختيار وأشهدنا على أنفسه .. فقال .. أنا ربكم وهذه معجزاتي .. الأرض والسماء والجبال .. والشمس والقمر والنجوم .. وكل ما في الكون مسخر لكم .. وخلقته من أجلكم .. وأنا أقول لكم انني أنا الخالق ولا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق .. إذا استخدمتم عقولكم رأيتمون في كل آية في الأرض .. وفرعتم إلى في كل ما تخافون منه .. فلقد وضعت لكم منهج الحياة

حركة الحياة في الكون

الذي يسعدكم في الدنيا والآخرة .. فمن أدى أمانته نحوى في رحلة الدنيا القصيرة .. متعته في الدنيا والآخرة .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (٢١) ﴿ تَزُلَّ مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (٢٢) ﴿

(سورة فصلت)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١٧٤)

(سورة طه)

بعض الناس حمل الأمانة وراح يضيعها فيما لا ينفع وفيما نهى الله عنه .. معتقدا أن الدنيا دائمة .. وأن الحياة بلا نهاية كافرا ببقاء الله .. وبعض الناس آمن وحفظ الأمانة .. حتى إذا جاء يوم اللقاء .. قال يارب أعطيتني الأمانة فحفظتها وعملت بها فجازني أحسن الجزاء .

الإسلام .. والسيف

على أن بعض الناس .. يعتقد أنه من الاسلام أن تجعل من لم يؤمن طوعا يؤمن كرها .. فإذا كان هناك إنسان لا يصلح فمن حقه أن تكرهه على الصلاة ولو اضطرت أن تجلده .. وإن كان هناك إنسان لا يؤمن .. فبالسيف يؤمن .. نقول له : ليس هذا هو الاسلام .. ولا يمكن الوصول للاسلام بالكره أو بالاكراه .. ولم يسلم أحد كرها ، بل كل الذين أسلموا أتوا باختيارهم طائعين .. ولا يقبل قول أن الاسلام انتشر بالسيف .. ذلك أن السيف رفع في الاسلام لحماية حرية الإنسان في أن يؤمن أو لا يؤمن .. ولمنع الاكراه .. فلقد

حركة الحياة في الكون

كانت هناك قوى متسلطة على الناس بالسيف .. تكرههم على عبادة غير الله ، وترغمهم على عقائد زائفة .. بل إن هناك من كانوا مكروهين على عبادة البشر .. فكان الحاكم ينصب نفسه إلهًا .. من عبده فله الأمان .. ومن لم يعبده يقتل .. وهنا قال الاسلام لا .. قفوا عن حدكم .. ودعوا الناس أحرارا في اختيار ما يعتقدون .. دعونا نعرض عليهم الاسلام .. وأعرضوا أنتم عليهم ما أردتم .. « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .. وكانت سماحة الاسلام .. وقوة الاسلام .. وحجة الاسلام هي الدافع لأن يعتنقه الملايين .. لأنهم رأوا فيه دين الحق ..

ولو أن ما يقوله بعض الناس صحيح من أن الاسلام لا ينتشر إلا بالسيف .. فأين هو السيف الذي يجعل الألوفا يعتنقون الاسلام كل يوم .. وأين هو السيف الذي يجعل الملايين يدينون بدين الاسلام .. بل لو كان هذا من أساس الدين لقام المسلمون بقتل كل إنسان غير مسلم في الدول التي فتحوها .. وكان في هذه الدول غير مسلمين .. نحن ما فرضنا ديننا على إنسان غير مسلم في بلاد يحكمها الاسلام .. بل تركناه على فكره .. له إن شاء أن يسلم .. وله إن شاء أن يبقى على دينه .. ولعل وجود غير مسلمين في بلاد فتحها الاسلام في بداية الدعوة الاسلامية .. بل وحماية هؤلاء الناس غير المسلمين وتوفير الأمن والأمان وحرية العبادة لهم .. للدليل على أنه لا إكراه في الدين .. وأن الاسلام يؤمن بحرية العقيدة .. وأن الله سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يأتوا إليه طائعين لا مكرهين .

ولكن كلنا نسلم لله كرها وبلا اختيار .. أنت ترى أن هناك تناقضا في هذا الكلام .. ولكن في الحقيقة ليس هناك تناقض .. بل هذه هي طبيعة الحياة وسنة الله . في حياة كل فرد منا أشياء يسلم فيها باختياره .. الله سبحانه وتعالى أعطاه فيها ارادة أن يسلم أو لا يسلم .. فقال له افعل .. ومادام الله قد قال لك افعل .. ففي مقدورك ألا تفعل .. وإلا لما قال الله افعل .. وهناك أشياء

حركة الحياة في الكون

قال الله فيها لا تفعل .. ومعنى ذلك أن في مقدورك أن تفعل .. قول الله سبحانه وتعالى بافعل ولا تفعل .. لا يكون إلا إذا كان لك حرية الاختيار .. وإلا يصبح الأمر هنا بلا معنى .. فكيف يقول لك الله سبحانه وتعالى افعل في شيء أنت مجبر على فعله لا اختيار لك فيه .. أو يقول لك لا تفعل في شيء أنت لا تستطيع أن تفعله .. حينئذ يكون الأمر فاقدًا معناه .. إلا إذا وجد الاختيار .

ولكن هناك أشياء في الكون .. أنت مقهور أن تسلم فيها الله .. يوم ولادتك مثلا .. هل تستطيع أن تختاره وتقول سأولد يوم كذا ولا يولد يوم كذا .. أبوك وأمك هل لك اختيار فيهما لتقول أنا سأختار أبي هذا الرجل الغني وأمي هذه السيدة الثرية .. يوم وفاتك مثلا أتستطيع أن تقول لن أموت اليوم سأموت غدا أو في العام القادم .. ما يقع عليك من أمراض وأحداث هل أنت مختار فيه ؟ .. هل تستطيع أن تقول سأمرض بهذا المرض ولن أمرض بهذا المرض .. نموك مثلا .. هل تستطيع أن تقول لن أنمو وسأبقى طفلا .. أو لن أصل إلى الشيخوخة وسأظل شابا .. قلبك ومعدتك .. هل تستطيع أن تقول لقلبك لا يدق لمدة اسبوع مثلا .. أو سأوقف معدتي عن الحركة لمدة شهر .. أو لا أريد للدورة الدموية أن تمشي في جسمي عدة أسابيع .. أو سأتوقف عن التنفس ساعة أو ساعتين ..

كل هذا لا تستطيع أن تفعله بل أنت مكره فيه .. فالله هو الذي يختار يوم ولادتك .. ومن هو أبوك ومن هي أمك .. وهو الذي يختار يوم ولادتك .. ومن هو أبوك ومن هي أمك .. وهو الذي يضع فيك الحياة لتنمو .. فإذا أراد أن يسلب الحياة فهو الذي يسلبها .. ففي هذه الأشياء وكلها سواء أردت أو لم ترد أنت مسلم لله سبحانه وتعالى كرها .. أي دون إرادة منك .. بل الله يفعل ما يريد سواء أردت أو لم ترد .

إذن حينما يقول الله سبحانه وتعالى : « وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها » .. فليس معنى ذلك أنك تكره الناس على الإسلام .. ولكن

حركة الحياة في الكون

معناه أن الله سبحانه وتعالى جعل في حياة بعض مخلوقاته ومنها الإنسان والجن مثلا مناطق الاختيار .. يعطيهم فيها الحرية في أن يختاروا .. ومناطق هم مكرهون فيها .. مقهورين لله لا اختيار لهم .. قد يحدث لك شيء أو تمرض بمرض معين أو يقع عليك ما تكرهه .. لو أن لك ارادة حرة في هذا لمنعت حدوده مادمت تكرهه .. ولكنك مقهور لأمر الله فيه لا تستطيع دفع الأمر عن نفسك ومادمت تكره شيئا ولا تستطيع دفعه عن نفسك .. إنك مكره أن تسلم فيه لله سبحانه وتعالى فيما أراد .. إذن فأنت في هذه الأمور مسلم لله كرها .. أى دون أى اختيار منك .. بينما في أمور الدين أنت مسلم لله طوعا أى باختيارك .. فأنت تستطيع أن تصلى أو لا تصلى .. وأن تزكى أو لا تزكى .. وتصوم ولا تصوم .. وتحج أو لا تحج ؟

* * *

وبعض الناس يجاهر بالكفر بالله ويتباهى .. نقول له لو انك فعلا تستطيع أن تخرج من طوع الله .. فأرنا كيف تتصرف في الأمور التي أكرهك الله عليها .. أرنا كيف تستطيع أن تختار يوم مولدك أو يوم وفاتك .. أو أن تمنع المرض عنك .. أو أن تغير ما يقع عليك من أقدار أو أن توقف نمو جسدك .. إلى آخر الأمور التي أعلن الله سبحانه وتعالى أنك مقهور فيها .. فإذا استطعت ذلك فقد يكون لك حجة .. فإذا لم تستطع ولن تستطيع .. فإنك فاقد الحجة في نفسك وفي ذاتك .. فكيف تريد أن تقنعنا بما أنت عاجز عنه .. لو انك تتحكم في قدرك كما تدعى فأرنا كيف لا تسلم لله في يوم مولدك ويوم أن تموت وفي الأحداث التي تقع عليك ولا تستطيع دفعها .. أنت خاضع لله .. مسلم له كرها .. أى رغما عنك ..

إذن قول الله سبحانه وتعالى «وله أسلم من في السموات والأرض طوعا» .. نأخذ ذلك لأجناس الأرض التي اختارت الإسلام لله ونأخذ معها الإنسان المؤمن الذي أسلم لله في كل الأمور .. فهو أسلم لله في الأمور التي له

حركة الحياة في الكون

اختيار فيها وفي الأمور التي ليس له فيها اختيار .. فالإنسان المؤمن أسلم قيادته لله سبحانه وتعالى في كل أمر من أمور الدنيا .

وإذا أتينا إلى قوله تعالى « وكرها » .. فهذه النسبة للإنسان الذي يرفض أن يسلم قيادته لله في الأمور التي له فيها اختيار .. فهو يكفر بالله ويرفض أن يسلم قيادته له .. حينئذ نقول : رغم رفضك طوعا أن تسلم قيادتك لله فيما ليس لك فيه اختيار .. فإنك تسلمها لله قهرا أو كرها فيما ليس لك فيه اختيار .. فأنت لا تستطيع أن تدفع عن نفسك أمرا من أمور الله سبحانه وتعالى أنت تكرهه .. الله يجري عليك ما يشاء .. وأنت تسلم وتدعن وأنت كاره لأنه لا اختيار لك في أشياء كثيرة مثل مولدك ووفاتك والأقدار التي تتم عليك .

إرادة الله

إذن فالله سبحانه وتعالى هو الذي يملئ إرادته في كثير من أمور حياتك التي لم يترك لك اختيارا فيها .. لكان علينا أن نفهم إن الله سبحانه وتعالى ترك لنا الاختيار في عدد من الأمور وأراد لنا .. فلا يأتي إنسان ويكره إنسانا آخر على شيء تركه الله مختارا فيه .. كأن يقتله إذا لم يسلم .. أو أن يستخدم السيف لإجبار الناس على الإسلام .. الحرية هنا من الله سبحانه وتعالى .. أرادها للإنسان .. وأراد الله ألا تطغى إرادة بشر على إرادة بشر .. وألا يكره إنسان إنسانا آخر على أن يفعل شيئا رغم إرادته .. وهذه هي الرحمة .. الرحمة من الله في ألا يجعلك مقهورا لبشر مساو لك .. بل يجعلك حرا فيما أراد أن تكون لك فيه حرية الاختيار .

* * *

وأنت حين تفكر في منهج الله وفيما قاله بافعل ولا تفعل .. نقول لك إذا فعلت ما الذي يفيد الله مثلا .. وإذا لم تفعل ما الذي يضر الله .. لا شيء وإذا

حركة الحياة في الكون

كان الأمر له مصلحة فيه وهوى شخصي .. كأن يأمر إنسان أن تفعل شيئاً لفائدته .. حينئذ يكون الفعل لمصلحة من يأمر وليس لمصلحة من يقوم به .. فإذا لم يكن للأمر مصلحة فيما أمر به .. فلا بد أنه يريد مصلحة الفاعل نفسه .. تماماً كما تأمر ابنك الصغير بأن يذاكر أو يجتهد .. ولا يضيع وقته في اللهو والعبث حتى ينجح في الامتحان .. قد يتحمل الابن شيئاً من المشقة في المذاكرة .. ولكنك مع ذلك تأمره بالمذاكرة .. وقد يكون أحب إلى نفسه أن ينزل ويلعب ويلهو ولا يقرأ سطرًا .. ولكنك مع ذلك تأمره بالمذاكرة وتكون حريصاً عليه .. وتأخذ من رزقك لتأتى له بمدرس خصوصي يعينه .

وقد تتحمل أنت ضنك العيش وتقترض وتعمل أكثر حتى توفر له ما يضمن له النجاح .. هل الأمر هنا لمصلحة الأمر أم لمصلحة من يقوم بالفعل .. الجواب انه لمصلحة من يقوم بالفعل .. ومادام الأمر كذلك .. فإن من مصلحة الابن وحده أن يذاكر حتى إذا بلغ مبلغ الرجولة .. كان رجلاً مرفوع الرأس مصون الكرامة .. يحترمه الناس .. وله مركز في المجتمع .. وإذا كان الله سبحانه وتعالى لا هوى له ولا مصلحة .. فإن هدفه من منهجه للخلق هو اصلاح الخلق ذاته .. هو أن يكون هذا الخلق منسجماً مع باقى الكون في التسليم لله سبحانه وتعالى .
وإذا أردنا أن نعرف معنى:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان من في السموات ومن في الأرض أسلم لله .. فمطلوب منك أنت أن تنسجم مع الكون وتسلم حركتك الاختيارية فيه لله سبحانه وتعالى .. فكل ما في الكون سخر وقهر على أن ينفذ ما أراه الله سبحانه وتعالى .. والشمس والجبال وباقي المخلوقات قالت أتينا طائعين حتى تكسب ثواب الطاعة .. ولو

حركة الحياة في الكون

انها قالت لن تأتي طائعين لأتت كرها .. ولكنها أرادت أن تكسب ثواب الطاعة
فاختارت أن تأتي طائعة .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى « وإليه يرجعون » أى ليست المسألة أن الله سبحانه وتعالى قد خلقك مختاراً ثم خرجت من كونه وشردت .. لا أنت لم تخرج من كون الله .. وإذا كنت تريد أن توهمنا انك خرجت عن قهر الله لك .. فقل لنا كيف انك لن تعود إليه .. ادفع عن نفسك الموت ان استطعت واعط لنفسك الخلود .. ولكنك لن تستطيع .. فإذا كنت مقهوراً في أشياء داخل نفسك .. داخل ذاتك .. إذا كنت خلال فترة الاختيار وهى الحياة الدنيا خاضعاً لله سبحانه وتعالى في أمور كثيرة .. فكيف بعد أن تترك هذه الحياة .

أن كل من لم يسلم وجهه لله في أمور الاختيار التى أعطها الله سبحانه وتعالى له فى الدنيا يكون فى كبرياء كاذب .. لأن الكبرياء الصادق يرفعك إلى أن تنسجم فى الأمور الاختيارية مع إرادة الله سبحانه وتعالى .. وأن تسلم له قيادتك الاختيارية وهذا هو أساس الإيمان .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا وَإِنَّمَا يَكْفُرُ الْكُفْرَانُ لَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ قَبْلُ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَكَفَرُوا بِهَا فَأَنَّ لِلَّهِ الْبِرَّ الْمَشْهُورَ وَإِنَّمَا يَكْفُرُ الْكُفْرَانُ لَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ قَبْلُ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَكَفَرُوا بِهَا فَأَنَّ لِلَّهِ الْبِرَّ الْمَشْهُورَ ﴾

(سورة البقرة)

خاتم الأديان

هنا فإن الله سبحانه وتعالى رد الأمر كله منذ بدء الخليقة حتى نهايتها للإسلام

حركة الحياة في الكون

والتسليم لله .. فهذه الأديان كلها إنما هي يكمل بعضها البعض « قل آمنا بالله » .. هذا هو الأساس والعهد .. الإيمان بمن؟ بالله .. ثم اقرأ النص القرآني الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم » .. أي ان الديانات السابقة كلها أكملها الله سبحانه وتعالى بالإسلام .. ولذلك مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ليكمل اللبنة الناقصة في البناء الإيماني .. فهذه الرسالة اكتمالا للبناء الإيماني الذي أراده الله سبحانه وتعالى .. ثم انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى : « وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم » .. وتوقف عند كلمة « وما أوتى » لنعرف أنهم لم يأتوا بشيء من ذاتيتهم .. ثم قوله تعالى « لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

إذن فليس لأي رسول سلطة زمنية حتى يستقل بما أوحى إليه أو بما أوتى .. لماذا؟ لأنه لا شيء هنا من ذاتية الرسل .. ولكن كل من الله .. ومن هنا لا أستطيع أنا أن أتوقف عند رسول معين وأفرق بينه وبين باقي الرسل .. وأقول سأأخذ من هذا ولا آخذ من الذي بعده .. لأنه لو كان للرسول ذاتية لكان هذا جائزا لتقول أن فكر الرسول انضح من الرسول الذي بعده أو أكثر عمقا .. ولكن حيث لا ذاتية لأحد .. فإن الأمر من الله .. وبما أن الأمر من الله سبحانه وتعالى .. فاننا نأخذ من الله فيعطينا عن رسول بعد رسول حتى نصل إلى تمام الدين الذي هو من الله في قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » .. ثم يختمها بماذا؟ « ونحن له مسلمون » .

إذن البداية من الله .. والنهاية إلى الله .. وهي الإسلام لله سبحانه وتعالى .. ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال : « ونحن له مسلمون » تكون تلك هي القضية الكونية في موقف الرسالات .. ومادام الإسلام هو ذلك الانقياد إلى الله من الإنسان فيما له فيه اختيار يكون الكون كله بما فيه الإنسان المؤمن المسلم قيادته لله سبحانه وتعالى .. يكون مسخرا لله .. فلا تأتي حركة لتعاند حركة أخرى .. لماذا؟ لأن الله سبحانه هو الذي خلق وسخر وهيمن .. ووضع لكل

حركة الحياة في الكون

إنسان في مجال حركة الحياة قانونا يعصمه من أن يعتدى على غيره .

وإذا نظرت إلى البشر حينما اضطروا أن يعيشوا في مجتمعات معا . . نجد أنهم حاولوا أن يضعوا لأنفسهم معايير تمنع التصادم والكوارث في الأرض . . فإذا نظرنا إلى نظام الطيران مثلا نجد أن هناك هيئات دولية . . تحاول أن تمنع تصادم الطائرات في الجو . . ومن هنا فإن لكل طائرة مسارا وإذنا بالطيران . . فكذلك منهج الله وضع حتى لا تصطدم حركة في الوجود بحركة في الوجود . . ولذلك في قانون التسخير . . لا تصطدم حركة الوجود أبدا . . الأرض لا تصطدم بالشمس . . والقمر لا يصطدم بالأرض ولا بالشمس . . والجبال لا يصطدم ببعضها البعض . . وهذا الكون الهائل المليء بالكواكب والمجرات والأجرام السماوية . . لا تجد فيه اصطداما يحدث . . بل انسجام غريب ودقة ما بعدها دقة . . لا تجد الشمس لا تشرق يوما في موعدها ولا القمر يختفى دقيقة واحدة عن موعده . . بل كل شيء غاية في الانسجام .

تعال إلى ما صنعه الإنسان ويقوده باختياره . . سيارة تصطدم مع سيارة وقطار يصطدم مع قطار . . ودولة تصطدم مع دولة . . ومخلوقات تصطدم كلها ببعضها البعض . .

هذا الاصطدام في حركة الحياة . . ينشأ في الأشياء التي جعل الله للإنسان اختيارا فيها . . أما الأشياء المسخرة للإنسان والتي ليس له فيها اختيار فإنها تسير في غاية الدقة منذ أن خلقها الله .

وإذا كان الإنسان يضطر إلى أن يعدل قوانينه التي وضعها في كل فترة من الفترات . . فهذا الاضطراب إنما ناشىء عن اصطدام حركة الحياة . . فنحن لم نسمع أنه جرى تعديل على نظام الكون منذ ملايين السنين . . فلا الشمس عدلت مسارها . . ولا القمر وجدناه يوما في مكان ويوما في مكان آخر بحاجة التعديل أو التصحيح . . ولا الأرض غيرت مدارها . . فإذا كان الأمر

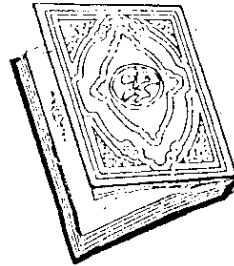
حركة الحياة في الكون

كذلك .. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا منهج الحياة الذي ينسجم مع الكون ولا يصطدم أبدا .. فلماذا تشذ أنت عن الكون كله .. ولماذا يشذ بعض البشر عن منهج الله .. وبدلا من أن يأخذوا قوانين الله التي وضعها للحياة في الأرض .. نجد قوانين قد وضعها مفكرون من البشر .. هذا قانون روماني وهذا قانون فرنسي إلى آخره .. افترك تشريع الله مع ما يحمله لنا من انسجام مع الكون وتتبع ما يشرعه البشر .. ثم نتساءل عن سر الشقاء والتصادم وعدم الانسجام في الكون .. وفي كل فترة نعدل ونبدل ونغير .. بينما الله سبحانه وتعالى أعطانا القانون الأزلي الذي يحقق لنا الحياة الطيبة .

إذا أردنا أن نعرف لماذا تتصادم حركة الحياة في الكون .. ولماذا هذا الشقاء .. فعلينا أن نتذكر ما الذي حطم الانسجام بيننا وبين الكون .. وأوجد هذا الشقاء .

* * *

وإذا أردنا أن نخرج من هذا كله .. فلا بد أن نعرف أن البداية من الله ، والنهاية من الله .. وأنه لا حل إلا التسليم لله .



الفصل السادس

الله .. والعِبَاد

الله .. والعباد

الله سبحانه وتعالى له صفة العدل المطلق .. وعدل الله لا يجعله يميز بين خلق وخلق .. بل كلهم متساوون أمامه .. لا تفرقة ولا تمييز .. لذلك فإن من يقول أن التقدم العلمي هو دليل إيمان ، إنما يمس صفة العدل . ذلك أن معنى هذا الكلام .. أن أولئك الذين سبقوا قبل حدوث هذا التقدم العلمي كان إيمانهم ناقصا .. لأن أحد أسس الإيمان كانت غير موجودة ..

ومن هنا فإن اطلاق مثل هذه الأشياء في عموميات .. في الحقيقة تمس قضية الإيمان بشكل مباشر .. فأيات الله الدالة على خلقه .. وعلى عظمته .. وعلى قدرته .. موجودة منذ بداية الخلق .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد وجد في الكون من أسراره ما ينبىء بعظمة الخالق ويدل عليها .. ثم أعطى عطاء متجددا بعد ذلك لكل جيل غير الجيل الذى قبله .. هذا العطاء إنما لتعلم أن الله سبحانه وتعالى قائم على ملكه لا يتخلى عنه لحظة واحدة .. وان له عطاء متجددا لخلق كل يوم .. بل كل ساعة .. حتى لا نحس نحن البشر أن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون ثم تركه بعد ذلك يعمل بالأسباب وحدها ، بل لا بد من الأسباب من طلاقة القدرة .. تكشف وتعطى وتمنح .. وتذكر الناس بأن الله ينصر الضعيف على القوى .. والمظلوم على الظالم .. حتى لا يستشري الفساد فى الأرض . والسياء لا تتدخل إلا عندما لا تكون فئة من الخلق قائمة تجاهد فى سبيل الحق ، فإذا كانت هناك مثل هذه الفئة .. فإن السماء تبارك لها عملها وتنصرها .. أما إذا لم تكن هناك هذه الفئة فإن السماء تتدخل تدخلا مباشرا . لتنزع ظلما من قوته وسلطان ظلمه .. أو تزيج جبارا فى الأرض فتنتزعه من أسباب جبروته .. المهم أن يحدث شيء ما ، يجعل الناس تصيح من أعماقها (ربنا كبير .. ربنا موجود) .. وأنت حين تسمع هذه العبارة تحس أن طلاقة القدرة قد تدخلت لتصحح وضعا لا تستطيع أسباب الدنيا أن تصححها .. ذلك أن الله خلق الدنيا .. وخلق لها قانون الأسباب لتعمل به .. فإذا حدث شيء بقانون الأسباب .. كأن انتصر قوى على ضعيف .. أو تمكن ظالم من مظلوم ، فانك فى هذه الحالة تأخذ المسألة على أنها أمر عادى ..

الله .. والعباد

لماذا ؟ لأن هذا هو قانون السببية الذى تسير عليه الحياة فى عمومها ، والذى نشترك فيه جميعا .. فأنت لكى تحصل على الرزق مثلا يجب أن تعمل .. فإذا عملت وأخذت أجرك فهذا شىء طبيعى لا يثير فى نفسك العجب .. وأنت حينما تريد أن تسافر إلى مكان ، فإنك تذهب وتقوم باجراءاتك وتساfer .. شىء طبيعى تابع لقانون السببية .. وشىء تشترك فيه البشرية جميعا .

ولكن فى أحيان تجد أن قانون السببية لا يعمل .. يفتح الله لك بابا صغيرا .. لنرى منه قدرته وتحس بعظمته ، وبأن قانون الأسباب لا يقيد الله سبحانه وتعالى فيما يشاء .. وحينئذ حين تقف أمام قوى تقول كل الأسباب أنه سينتصر عليك .. ثم نجده ينهزم وينهار .. لا تملك إلا أن تصيح من أعماقك (ربنا كبير .. ربنا موجود) .. وحين يراد بك سوءا وتُحَكَم أسبابه ، ثم يكشفه الله ويدفعه عنك .. فإنك فى هذه الحالة تصيح (ربنا كبير .. ربنا موجود) .. وحينما تكون فى عسرة من الرزق ، ثم يأتى الله سبحانه وتعالى ويفتح لك بابا للرزق من حيث لا تدري ولا تعلم .. شىء لم تكن تتوقعه على الإطلاق .. إنسان يأتى إليك ويكفيك بعمل ويجزل لك العطاء .. حينئذ تصيح قائلا : (ربنا كبير .. ربنا موجود) .

وليست طلاقة القدرة وقفا على أحد دون الآخر ، بل فى حياة الناس جميعا فكلنا رأى طلاقة قدرة الله فى فترة من فترات حياته .. رأى طلاقة القدرة فى عدل الله أو رحمة الله .. أو شفاء من مرض يئس الأطباء من علاجه .. أو رزق جاء ليذهب حالة عسر وضنك .. لماذا ؟ لماذا يرينا الله طلاقة القدرة فى الدنيا حتى لا ييأس المؤمن أبدا .. فإذا توقفت الأسباب عن العطاء ، فإن الله سبحانه وتعالى يفتح بابا من أبواب رحمته .. ومن هنا فإن الإنسان المؤمن عندما تصل به الأسباب إلى طريق مسدود ، يرفع كفيه دائما إلى السماء ويقول : (يارب) .. ويعلم أن الطريق الذى سدته الأسباب .. تفتحه طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .

الله .. والعباد

وفي القرآن الكريم يروى لنا الله سبحانه وتعالى أمثلة من طلاقة قدرته حتى نمضي في الحياة بلا يأس .. فقصة هاجر عليها السلام فيها طلاقة قدره .. ذلك لأن إبراهيم أخذ هاجر وابنها إسماعيل إلى واد غير ذي زرع .. وعند الكعبة المشرفة تركها هي وابنها .. وارتاعت المرأة .. كيف يتركها وهي امرأة ضعيفة ومعها طفل رضيع في مكان قفر لا زرع فيه ولا ماء .. ولا نبات ولا إنسان .. فسألته هاجر : هل تفعل ذلك يا إبراهيم بفكرك أنت أم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أمرك بذلك .. فقال إبراهيم عليه السلام : بل الله أمرني بذلك .. قالت هاجر بإيمان .. إذن لن يضيعنا .

وانطلق إبراهيم عائدا وترك الأم وطفلها الرضيع في هذا المكان القفر .. هنا في هذه البقعة كان قانون السببية معطلا فلا توجد أسباب للحياة .. لا يوجد ماء يشربونه ولا طعام يأكلونه .. ولا بشر يعينها بأن يحضر لها الطعام والثياب .. وهكذا تعطلت الأسباب .. وكنا إذا حكمنا قانون السببية فلا بد أن نقول : أن الأم وطفلها هالكان لا محالة .

وحاولت هاجر أن تأخذ بقانون الأسباب .. فانطلقت تسعى بين الصفا والمروة .. تصعد على هذا التل .. وتصعد على ذلك التل .. عسى أن ترى إنسانا أو تشاهد طيرا أو تلمح من بعيد قافلة قادمة .. كان كل هدفها أن ترى سببا من أسباب الحياة تتمسك به هي وطفلها .. وقطعت المسافة سبع مرات بين الصفا والمروة .. تصعد إلى هذا التل .. ثم تصعد إلى ذلك التل فلم تجد شيئا .. ولم تجد أحدا .. ونال منها التعب .. فجلست بجوار وليدها . وإذا بالصغير الضعيف يضرب بكعبه الأرض فينفجر منها (بثر زمزم) وتدب الحياة في المكان ويمتلئ بالماء .. هنا كانت طلاقة القدرة هي التي فجرت الماء .. وهي التي أعطت الحياة في الوقت الذي تعطلت فيه الأسباب ..

وقصة موسى عليه السلام .. خافت أمه أن يذبحه فرعون ورجاله .. وكان

الله .. والعباد

من الممكن أن تهاجر به سرا من مصر .. أو أن تذهب إلى مكان بعيد لا يراها فيه أحد .. أو أن تختفى به في مغارة في جبل .. كانت الأسباب تقول هذا .. وكانت هذه هي طريقة النجاة .. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل من قصة موسى مثلا على طلاقة القدرة .. فأوحى إلى أمه أن تلقيه في الماء ليكون هذا هو السبيل لنجاته وحفظ حياته .. وأنت حين تضع شيئا في صندوق وتلقيه في الماء فإنما تريد أن يراه الناس جميعا .. فالواقف على الشاطئ إذا نظر إلى الماء رأى الصندوق .. فكأنما هذا اعلان لا اخفاء .. ومع ذلك جعل الله سبحانه وتعالى هذا الاعلام هو عين الاخفاء .

تشبها للمؤمنين

ولكن لماذا أعطانا الله هذه الأمثلة .. تشبها للمؤمنين على الإيمان وليس معنى هذا ألا نأخذ بقانون الأسباب ولا نعمل منتظرين طلاقة القدرة .. بل ان طلاقة القدرة لا تأتي إلا إذا استنفد الإنسان الأسباب أولا .. فإذا فرغ الإنسان من الأسباب ولم تعطه شيئا رفع يديه إلى السماء .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا » .. والمضطر هنا هو الذي يستنفد أسباب الدنيا ولا يجد أمامه مخرجا .. وهذا هو الذي تفتح أبواب السماء له ، على أن الله سبحانه وتعالى له اختبارات إيمانية .. فهو يختبر صبر العبد وقوة إيمانه وتحمله .. وهذه الاختبارات الإيمانية هي الأساس ليزيل الله الضيق ويذهب الهم ويفتح أبواب السماء .

والإيمان بالله هو إيمان كامل ، فلا يوجد شيء اسمه إيمان ناقص . ذلك أنك إذا أخذت من الإيمان شيئا فقد أخذت جوهره .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا لَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » ذلك أن الإيمان هو الالتزام بمنهج الله .. والله سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين ألا يواجهوا حركة حياتهم إلا بالحق .. وساعة تؤمن بالله .. معنى ايمانك هي حيثية قبول الحكم منه .. فأنت مادمت آمنت أنه

الله .. والعباد

الله .. القادر .. الحكيم .. الخالق .. فإنك تلتزم بما يطلب منك ، فإن لم تلتزم كان إيمانك بلا قيمة ولا وزن .. لماذا؟

أنظر إلى قول الله سبحانه وتعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك .. ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما » .. هذه الآية الكريمة التي نزلت في اليهود إنما تبين لنا صفة من صفات الإيمان هي جوهره ، فالإيمان كالأمانة .. ليس هناك إنسان أمين وإنسان نصف أمين وإنسان ربع أمين .. بل إما أن يكون الإنسان آمينا .. أو لا أمانة له .. بصرف النظر عن قيمة ما سيأخذه أو ما سيغريه على التخلي عن الأمانة .. فيأتي الله سبحانه وتعالى بمثلين الأول هو القنطار .. والثاني هو « الدينار » كلاهما يمثل قيمة نقدية .. وفي نفس الوقت يضرب لنا مثلا إيمانيا .

الأول أعطيته قنطارا كأمانة .. كبر الحجم والقيمة يغريه بأن يأخذ هذه الأمانة لنفسه .. ولكن لأنه أمين لا يقترب منها ويحفظها لك .. والثاني أعطيته دينارا .. تفاهة القيمة تجعله لا يطمع فيها .. ولكنه يطمع في الدينار ولا يرده إليك إلا إذا قاضيته وذهبت إلى القاضى وإلى المحكمة وأجبرته على أن يدفعه ..

إذن فالمسألة هنا ليست بالقيمة ولكن بالالتزام .. لا أستطيع أن أقول عن إنسان يسرق جنيها أنه أمين لأنه سرق جنيها فقط .. بل من يسرق جنيها فقد خان الأمانة .. كذلك الإيمان .. من لا يلتزم بجزء منه فقد انتفى عنه الإيمان ..

لذلك نجد الله سبحانه وتعالى حينما يكلفه .. ينادى أولا ويقول : « يا أيها الذين آمنوا عليكم » كذا وكذا .. يعنى يا من آمنتم بي إلهي .. اسمع مني الحكم الذى أريده منك .. وأنا لا أطلب هذا الحكم من خلقى جميعا ولكن أطلبه من الذين آمنوا .. لذلك ينادى الحق سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا » .. فمن أوفى بعهده الإيماني فعل .. ومن لم يوف بعهده الإيماني فقد

الله .. والعباد

خرج عن مناداة الله في قوله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا » .. وهكذا يكون الإيمان وفاء بالعهد والتزاما بما أمر به الله وتنفيذ مراد الله في افعل ولا تفعل .

ولا تصدق أبدا أن إنسانا غير مؤمن يحبه الله سبحانه وتعالى .. بعض الناس لا يؤدي ما أمر به الله .. ثم بعد ذلك يأتي إليك ويقول إنه يحس بأن الله يحبه وأنه يحس أن الله يرحاه .. نقول هؤلاء جميعا .. لا تعرشوا على الوهم .. فالله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بذلك .. بل قال : « إنه يحب المتقين » ..

ليس من أهلك

وإذا أردنا أن نضرب مثلا لذلك .. والله المثل الأعلى :
نأتى إلى قصة نوح عليه السلام .. الحق سبحانه وتعالى وعد نوحا بأن ينجيه من الغرق وهو وأهله .. ثم فوجيء نوح بابنه يكفر ويرفض أن يصعد معه إلى السفينة ويقول : « سأوى إلى جبل يعصمني من الماء » .. ويرد نوح :
« لا عاصم اليوم من أمر الله » .. ثم يحول بينهما الموح فيغرق الابن ويصاب نوح بذهول ..
لقد وعده الله بأن ينجيه هو وأهله .. ولكنه أغرق ابنه .. فهل وعد الله غير حق ؟

فيرفع نوح يديه إلى السماء ويقول : « رب ان ابني من أهلى وإن وعدك الحق » .. أى ياربى ابني هذا من أهلى الذين وعدتني بأن تنجيهم معى ووعدك ياربى الحق وأنت وعدت .. فيرد الله سبحانه وتعالى : « إنه ليس من أهلك أن عمل غير صالح » ..

مامعنى هذا الكلام ؟ .. معناه أن الذاتية عند الله وصلات النسب والدم لا تنفع الإنسان ولا تؤهله لحب الله ورحمته .. ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لابنته فاطمة : (يا فاطمة اننى لن أغنى من الله شيئا) ..

الله .. والعباد

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما خاطب نوحا لم ينسب الابن لنوح .. ولكن نسب الابن إلى عمله .. فقال « انه عمل غير صالح » .. وأهل الأنبياء هم الذين على منهجهم .. هم الذين يتبعون المنهج .. ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. جاء بسلمان وهو فارسي وليس عربي الجنسية أو المولد .. وقال : (سلمان منا آل البيت) .. الذى نسب سلمان إلى آل بيت رسول الله هو عمله .. وليس قرابته أو صلة الدم أو أى شىء آخر .

ولعلى أذكر فى ذلك قصة كعب بن الأشرف .. دخل عليه جماعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون منه الطعام والكساء ، فقال لهم أتؤمنون بأن محمدا رسول الله .. وكان كعب كافرا .. أراد أن يعرف إن كانوا مؤمنين أو لا .. فقالوا له نعم نحن نؤمن بأن محمدا رسول الله .. فقال كعب لقد حرمتم أنفسكم من الخير .. كنت أريد أن أبركم وأن أكسوكم وأن أعطيكم الطعام ولكن بإيمانكم بمحمد حرمتم أنفسكم من خير كثير .. فهادمتم قد أعلنتم الايمان فلا طعام لكم عندى ولا شراب ولا كساء .

وجلس أفراد الجماعة يتداولون .. وقالوا نحرم أنفسنا من هذا الخير كله ؟ .. فعادوا إلى كعب وقالوا له دعنا فترة نراجع فيها أنفسنا لأنه ربما كان فى ملتنا شبهة .. فلما قالوا هذا الكلام أعطاهما الطعام والشراب والكسوة .. ولكن هؤلاء اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، فقد خرجوا على الإيمان ليحصلوا على الطعام والكسوة .. وهكذا كان خروجهم ولو لمجرد قولهم شبهة البعد عن الإيمان بالله .. ولكن هل هذا الكلام لا ينطبق على هؤلاء الناس وحدهم .. إنه ينطبق علينا جميعا ..

كل منا يزين للسلطان أو الحاكم فعلا من الأفعال التى لا يرضى عنها الله ليحصل على نفع شخصى ، فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا .. كل من يعين إنسانا على باطل أو على ظلم أو يمضى به فى طريق غير طريق

الله .. والعباد

الحق .. يزين له الطريق ويغريه فيه فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا .. كل من يشهد زورا أو يفعل باطلا أو يفعل شيئا دنيويا لا يرضى الله فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا .. وحتى تعمم القاعدة : كل من يجعل آية من آيات الله سلعة يبيعها أو يخالفها ليحصل على الثمن يعتبر داخلا في النص .

لا خلاق لهم

ماذا يقول الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء ؟ . يقول « أولئك لا خلاق لهم » .. وما هو الخلق .. الخلق أن توجد صفة من الإنسان تلتصق به حتى يصير يوصف بها .. فلان اتصف بالصدق .. معناه انه التصق بالصدق .. وفلان خلقه الكرم .. أى أصبح طبعه الكرم .. وفلان صفته السماحة إلى آخر ذلك ..

والله سبحانه وتعالى يقول : « لا خلاق لهم » .. أى لا صفة لهم فى الآخرة التى هى أساس التقييم الصحيح .. والتقييم الصحيح فى الوقت الذى لا يستطيع الإنسان أن يغير شيئا .. فى الوقت الذى هو مقهور فى كل شيء فمن لا خلاق له فى الدنيا يستطيع أن يعدل سلوكه وأن يغيره .. وربما بعد أن يعدل سلوكه يكون له نصيب .. أما من لا خلاق له فى الآخرة .. ولا يكلمهم الله ولا يزكيهم فهل يستطيع أن يفعل شيئا .. ذلك الذى خسر إيمانه .

ولذلك عندما يحاول الكافرون مخاطبة الله وهم فى النار .. يقول لهم الله سبحانه وتعالى : « إخسأوا فيها ولا تكلمون » وعندما تقرأ آيات الله حول الحساب والآخرة نجد أن الذين يستهينون بيوم القيامة هم الذين لا يؤمنون بالله .. ولكن المؤمنون يرتعدون من هول ذلك اليوم .. ومن حساب الله الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها « ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » .

على أن الإيمان بالله يجعلك فى درجة عالية جدا .. بحيث عندما يحدثك الله

الله .. والعباد

سبحانه وتعالى عن الغيبيات فكأنك ترى ما تقرأه يحدث أمامك .. والله سبحانه وتعالى يقول مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير رأى العين .. ولو أن الله سبحانه وتعالى قال ألم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل .. لكان ذلك في رأى بعض الناس تعبيرا أدق .. لأن محمدا عليه السلام مادام لم ير فإنه يكون قد علم من غيره .. فالعلم قد تحصل عليه باجتهادك الشخصي .. وقد تحصل عليه عن طريق غيرك من البشر .. فأنت حين تدرس العلوم والتاريخ في الجامعات فإنك تعلم ما علم غيرك ونقل إليك بواسطة الكتب .. ثم تضيف أنت علما بعد ذلك فتصبح إضافة يتعلمها غيرك من الناس الذين سيأتون بعدك .. إذن فاستخدام كلمة « ألم تعلم » بدلا من « ألم تر » كانت ستكون أدق بشريا .

لكن القرآن الكريم كلام الله لم يكتبه بشر .. والحديث في قضية من قضايا الايمان بالنسبة لإنسان مؤمن بمثابة رؤية صادقة .. فإذا جاء من الله فهو رؤية يقينية .. ولأن القرآن يحدثنا عن غيبيات مما سيحدث في الآخرة .. والإيمان أساسا إيمان بالغيب ، فإذا لم تكن متيقنا من أنك ستقابل في الآخرة كل ما ذكره الله سبحانه وتعالى .. فإنه في هذه الحالة يهتز إيمانك .

إن أساس اليقين البشرى في الدنيا هو الرؤية بالعين .. وما دمت أراك أمامى فلا يوجد سؤال في نفسى هل أنت موجود داخل الحجرة أم غير موجود .. ولا يثور حول ذلك جدل .. وإذا كنت أجلس وأتحدث مع زوجتى فلا أسأل نفسى أبدا هل هي موجودة في البيت أم لا .. تلك بديهيات لا تدخل في مجال المناقشة ويسلم بها كل إنسان .

ولعل الجدل الذى كان قائما حول كروية الأرض انتهى تماما حين صعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض على شكل كرة كبيرة هائلة .. وفي تلك

الله .. والعبادة

اللحظة توقف الجدل تماما لأن رؤية العين حولت القضية من جدل علمي إلى يقين بصرى وانتهى كل شيء ولا مجادلة .

وأنت في قضية الإيمان تناقش كل شيء بعقلك وتبحث الأمور وتزنها .. فتقارن الحجة بالحجة إلى أن تهتدى للإيمان .. عند هذه النقطة يستقر الإيمان في قلبك ولا يطفو مرة أخرى إلى العقل ليناقش من جديد .. فإن عاد مرة أخرى إلى العقل فإيمانك في هذه الحالة إيمان ناقص .

فإذا آمنت إيمانا كاملا .. وأخبرك الله سبحانه وتعالى عن شيء فهو رؤية يقينية في نفسك .. تماما كالرؤية اليقينية التي تتم بالعين .. فإذا حدثك عن النار مثلا فكأنك تراها .. وإذا حدثك عن الجنة فهي يقين رؤية في نفسك .. وإذا حدثك الله سبحانه وتعالى عن شيء مضي .. فهو يقين في نفسك كأنك عشته .

إذن فالعملية هنا هي قضية إيمانية كبرى .. فالسماح من الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمؤمن يقينية .. فإذا قال الله سبحانه وتعالى : « ألم تر » فهي رؤية يقينية تماثل رؤية العين .. ولأن القرآن لا يتبدل ولا يتغير إلى يوم القيامة .. لذلك فإن المسائل المستقبلية فيه تظل مستقبلية .. فإذا قال الله سبحانه وتعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .. فمعنى ذلك أن هذا الأمر سيظل أزليا .. بمعنى أن هذه الآية حين نزلت قرئت سنريهم .. ونحن الآن نقرأها سنريهم .. والذين سيأتون بعدنا سيقرونها سنريهم .. وهكذا يريد الله لنا أن نعرف أن هناك عطاء جديدا لكل جيل من الله سبحانه وتعالى ، غير عطائه للجيل الذي قبله .. ولذلك فإن حرف « السين » في القرآن يحمل إعجازا مستقبليا حتى يوم القيامة .

ولكن لماذا جاءت كلمة « ألم تر » في سورة الفيل .. ولماذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون حادث الفيل هذا يقينا مثل يقين الرؤية . لأن هذا الحادث يمثل

الله .. والعباد

طلاقة القدرة التي تعطى شعاع الإيمان وتطرد شعاع اليأس من نفس المؤمن ..
فالحادث كما نعرفه أن أبرهه جاء بعدد ضخم من الأفيال ليهدم الكعبة .. وخرج
سكان مكة إلى الجبال تاركين البيت لأنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام أبرهه
وأفياله وجنوده وجيشه الجرار ..

هنا حادث إيماني هائل .. رجل استعان بجبروت الدنيا وهو أبرهه ليهدم بيت
الله الحرام .. وقوة دنيوية أخرى وهم سكان مكة خافوا من جبروت الأرض
وتركوا البيت .. حينئذ ماذا فعل الله سبحانه وتعالى .. لقد انطلق أهل مكة إلى
شعاب الجبال ، وتركوا الطريق خاليا بين جيش أبرهه الجبار وبين بيت الله
الحرام .. ولم يكن أمام أبرهه إلا أن يمشى مسافة قصيرة بلا مقاومة ليهدم
البيت .. وهكذا تخلى البشر عن قضية حق وهي حماية بيت الله الحرام ممن يريد
أن يهدمه وابتعدوا جميعا .

هنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يفجر قضية إيمانية كبرى وأن يريهم أن الجبار
الذي يخشونه .. والجيش الجرار الذي يهابونه هو عند الله لا يساوى شيئا ..
وأن صاحب الحق الضعيف يجب ألا يخاف من الباطل القوي .. ولذلك جاء الله
سبحانه وتعالى بالطير .. تلك المخلوقات الضعيفة التي أن أمسكتها بيدك
وضغطت عليها بقوة ماتت أو فقدت الحياة .. جاء الله سبحانه وتعالى بهذه
المخلوقات الضعيفة .. وقال سأريكم أيها البشر أن أضعف مخلوقات سيهدم هذا
الجيش الجبار ويمحقه .. وانطلقت الطير تحمل حجارة صغيرة فقضت على الفيلة
الجبارة في زمن قصير وحطمت الجيش تماما .. حدث هذا أمام أعين الناس
وشهده الجميع .

والعجيب أن بعض العلماء لا يتقبل الآن أن طيرا صغيرا يهزم جيشا جبارا من
الفيلة لجيش أبرهه .. فأخذ بعضهم يشكك في الرؤية .. ويقول انها جراثيم
هي التي قتلت جيش أبرهه وقضت عليه .. كأنما هي مسألة صعبة على الله

الله .. والعباد

سبحانه وتعالى أن يرسل طيرا ضعيفا ليقتضى على جيش من الأفيال القوية ..
ولذلك فهم يريدون أن يسهلوا على الله سبحانه وتعالى .

ونقول لهؤلاء جميعا : أن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجا إلى عون أو
مساعدة .. وأن عام الفيل كان عام مولد رسول الله .. ورسول الله بعث في
الأربعين .. أى أنه كان هناك من هم في سن الخامسة والخمسين والستين
والخامسة والستين والسبعين ومن هم فوق ذلك .. هؤلاء جميعا رأوا عام الفيل
رؤية العين .. فلو لم تأت هذه الطير .. ولو لم تلق بحجارة من سجيل ولو لم
تجعل جيش أبرهه عصفا مأكولا لكان هؤلاء الناس قالوا إن ما يقوله محمد غير
صحيح .. ولقد شهدنا عام الفيل ولم نر طيرا تأتى ولم نرها تفنى جيشا عظيما
وفيلة جبارة بأحجار صغيرة .. ولكن أحدا من الكفار أو غير المؤمنين الذين كان
يهمهم الطعن في هذا الدين لم ينفوا هذه الواقعة وقت نزولها .. مع أنهم رأوها .
وهذا دليل على أنها حدثت كما رويت في القرآن الكريم .. ولعل هذا ينبهنا إلى
الحكمة في قوله تعالى : « ألم تر » .. لأنه وجد من بيننا الآن من يتشكك في هذا
الأمر .. فكان لابد أن يقول الله سبحانه وتعالى : « ألم تر » .. وكأنها جاءت
ردا على هؤلاء الذين تشككوا في الماضي والذين يتشككون الآن ..

التكليف .. وحركة الاختيار

والعبادة لله سبحانه وتعالى هي تكليف .. والتكليف إنما جاء ليضيق حركة
الاختيار عند الإنسان .. افعل هذا .. ولا تفعل هذا .. والله قيد حركتنا حينما
وضع المنهج بافعل ولا تفعل .. ولو أننا درسنا العلة في تقييد حركة الإنسان
لحمدنا الله سبحانه وتعالى على منهجه .. فما قال افعل كان الخير فيه .. وما قال
لا تفعل كان الخير في تركه .. فكأن التكليف لو عقلها العاقل لعلم أن الله
المعبود المكلف وضع لنا كل ما هو كريم في الحياة وضمن لنا عدم التصادم مع
الكون .. لأن الله يريد أن يوفر للإنسان المؤمن الحياة الطيبة الآمنة .. لذلك
فهو يضع قواعد هذه الحياة .

الله .. والعباد

قد يكون هذا شاقا على بعض النفوس .. ولكننا لو تأملنا لوجدنا المشقة ضئيلة جدا لتقى المجتمع من شرور رهيبة .. والله سبحانه وتعالى حين يمنعني عن السرقة .. قد يحميني من نزوة نفس .. ولكنه إذا أباح السرقة فقد أباح مالي للمجتمع كله .. وهو حين يحرم القتل ، ربما منعني من نزوة انتقام .. ولكن تعالوا وانظروا إلى مجتمعات أبيحت فيها السرقة والقتل والنهب - كما يحدث الآن في لبنان مثلا - أرأيت إنسانا آمنا على نفسه هناك .. أرأيت إنسانا يخرج من بيته في الصباح ويعرف أنه سيعود إلى أولاده أو لا يعود .. أرأيت إنسانا آمنا على طعام اختزنه لساعة عسرة أو لإطعام أولاده الصغار .. أرأيت إنسانا يمشي في الشارع يتلفت يمنا ويسرة لا يعرف من أين يأتيه الموت .. إنه مجتمع رهيب ..

ومنذ عدة سنوات انقطعت الكهرباء في مدينة نيويورك بأمریکا عدة ساعات فارتكبت ألوف الجرائم من السرقة والاغتيال والنهب .. وقعت كل هذه الجرائم خلال خمس أو ست ساعات من الظلام .. انطلق المجتمع كله يقتل بعضه .. وينهب بعضه .. ويسرق بعضه .. ويفتك بعضه بالبعض الآخر ..

هذه تجربة حدثت فعلا في مجتمع يوصف بأنه متقدم .. ولو ان انقطاع التيار الكهربائي هذا حدث في بلد يطبق حدود الله كالسعودية مثلا حيث تقطع يد السارق .. لو أن التيار الكهربائي انقطع هناك عدة أيام لا عدة ساعات لما حدثت جريمة واحدة .. ولعاش كل طفل وامرأة وشيخ في أمن وأمان .. ولتعاونوا جميعا على قضاء حوائجهم في الظلام .. وهذا هو الفارق .. هذا هو الذي يريد الله سبحانه وتعالى أن يوفره لكل مؤمن .. يريد أن يوفر له الأمن والأمان والحياة الطيبة الكريمة .. وهذا لا يتأتى في أي مجتمع لا يقيم حدود الله .. مهما قيل عن هذا المجتمع أنه متقدم .. ولن تجد في مجتمع لا يقيم حدود الله حياة طيبة .. بل تجد الخوف يسيطر على كل إنسان .. كل متربص بالآخر .. وكل يحمل سلاحا ليدافع عن نفسه أو ليهاجم غيره .. هل عرفنا الآن بمثل حي قريب ما معنى تطبيق منهج الله .. وهل شهدنا كيف يتصادم

الله .. والعباد

الإنسان مع الحياة إذا ابتعد عن هذا المنهج فينقلب الأمن إلى خوف والطمأنينة إلى ذعر .. والحياة الطيبة إلى حياة بائسة .

إذن فمن نعم الله علينا أنه وضع لنا منهج الحياة ولم يتركنا نضعه لأنفسنا .. ذلك لأنه لو تركنا نضع نحن المنهج لفسدت الدنيا .. ولاعتدى القوى على الضعيف ، وأخذ القادر حقوق غير القادر .. ومن نعم الله أيضا أنه رب كل شيء .. ومن هنا فإن ما سخره الله لنا لا يستطيع أن يتمرد على أمر الله .. فالشمس والقمر والهواء والجبال والأرض .. كلها لا تستطيع أن تعصى أمر الله ، في أن تخضع للإنسان .. وتخدمه ، وتفعل ما هي مسخرة له .. فلا الشمس مثلا تستطيع أن تقول انها لن تشرق اليوم أو غدا .. أو تستطيع أن تبعد عن الأرض فتحولها إلى كتلة من الجليد .. أو تقترب منها فتحولها إلى مكان حار متلهب تنتهي فيه الحياة .. ولا يستطيع الهواء أن يقرر مثلا في يوم من الأيام أن يترك سطح الأرض ويذهب بعيدا .. وتصبح الأرض بلا غلاف جوى الحياة فيها مستحيلة ، ولا يستطيع البحار والأنهار أن تجف .. ولا الجبال أن تزول وهي الرواسى التى تحفظ سطح الأرض وتوازنها .. كل هذا لا يمكن أن يتم لأن الله رب العالمين .. رب هذه المخلوقات كلها .. وكل هذه المخلوقات تخضع لأمر الله سبحانه وتعالى ..

ولو كان هناك أكثر من إله لفسدت الأرض لأن كل إله كان سيصدر أوامر مختلفة إلى ما خلق أو ما يسيطر عليه .. وكل ما سخره الله سبحانه وتعالى للبشر هو عالم مقهور لا اختيار له .. أو هو عالم كما سبق أن بيننا اختار أن يكون مقهورا لله على أن يأخذ الحرية فى افعل ولا تفعل ولذلك فقد يرى الكون الإنسان عاصيا لله .. وهذا تصادم بين كون يخضع خضوعا تاما لله وإنسان عاص .. ولكن رغم ذلك لا يستطيع هذا الكون أن يخرج عن تسخير الله له لخدمة الإنسان كافرا كان أو مؤمنا .

هذا فى الحياة الدنيا : أما فى الآخرة فإن كل هذه الأشياء المسخرة من الله

الله .. والعباد

تشهد على الإنسان .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « يوم تشهد عليهم وأستهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » .. فيقولون « أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » .. أى أن جوارح الإنسان هى خاضعة له بالتسخير فى الحياة الدنيا .. فإذا أمرها بمعصية تؤذيها كارهة لأنها مسخرة لا تستطيع أن تعصى للإنسان أمرا .. فإذا جئنا إلى الآخرة وزال التسخير .. نطقت الأيدي والأرجل بما كان الإنسان يفعل من المعاصي .

رحمة الخالق

ولذلك يصور لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى رحمة الخالق بالإنسان وجحود الإنسان لربه :

« قالت الأرض يارب إئذن لى أن أخسف بابن آدم الأرض فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت السماء يارب لى إئذن لى أن أسقط كسفا على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت الجبال يارب إئذن لى أخر على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك .. وقالت البحار يارب إئذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك » .

إذن كل العوالم التى سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان .. ضجت من معصيته وتوجهت إلى الله سبحانه وتعالى طالبة الاذن أن تفنى بنى آدم من الوجود جزاء له على معصيته .. ويمضى الرسول الكريم مكملًا . وهنا يقول الله سبحانه وتعالى : (لو خلقتموه لرحمتموه دعونى وعبادى إن تابوا إلى فأنا حبيبهم . وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم) ..

إذن هذه هى رحمة الله بخلقه تلك الرحمة التى جعلته يسخر لنا ما فى الكون .. ثم يمنع كل ما هو مسخر من أن يخرج عن طاعة الإنسان .. هذه هى

الله .. والعباد

رحمة الله وصبره على عباده .. وعدم مواجهة الاساءة بالعقوبة .. وفتح باب التوبة والمغفرة لكل نادم على معصية . وفتح باب رحمته لكل عاص .. إن الله لا يأمر الأرض أن تهلك من فوقها بزلزال مدمر .. ولم يأمر المياه أن تغرق الأرض .. ولم يأمر السماء أن تسقط كسفا على الناس .. بل منع كل هذا برحمته .. وفتح باب التوبة والمغفرة ووضع لنا منهج الحياة .. ومع ذلك فنحن نعصاه .

ادراكات .. لا تستوعبها العقول

والله سبحانه وتعالى جعل لكل خلق من خلقه ادراكات .. ولكن ظنون الناس وعقولهم لا تتسع لهذا .. فكل خلق نراه أمامنا أو لا نراه يتفاهم مع خالقه .. مع أننا لا نستطيع أن نتفاهم مع بعضنا البعض .. ويريد البعض منا ألا يتفاهم مع منهج الله .. فالشمس لها حديث مع الله .. والأرض لها حديث مع الله .. والجبال لها حديث مع الله .

اقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۗ

قَالنَّآ أَتِينَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴿١١﴾

(سورة فصلت)

خطاب مع الله سبحانه وتعالى .. قول السماء والأرض وهي تناجي خالقها .. وهنا نتوقف قليلا .. هل يقال لشيء أو يقول الشيء إلا أن يكون هناك فهم من القائل .. وهل حديث الشمس أو الأرض الذي ورد في القرآن الكريم ليكشف لنا ادراكات هذا الفهم الذي تعجز عقولنا عن فهمه .. الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه علم سليمان منطق الطير .. وأن سليمان فهم من النملة .. وأن الجبال يسيحجن مع داود .. وعرفنا أن رسول الله صلى الله عليه

الله .. والعباد

وسلم كان يسمع تسبيح الحصى وهو في يده .. والحصى يسبح سواء كان في يد رسول الله أو بعيدا عن يده .. ولكن الله سبحانه وتعالى أفهم رسول الله لغة الحصى فسمع تسبيحه .. كما فهم سليمان عن النملة .. وجذع النخلة بكى حيننا إلى رسول الله .. إذن كلها عوالم لها ادراكات .. بل اننى أضيف لهذه العوالم عواطف .. مع أن العواطف مشهور عنها انها عند الإنسان فقط .

ولكن انظر إلى قول الله سبحانه وتعالى عندما يتحدث عن اخراج قوم فرعون عن مصر « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين » .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض » .. إذن السماء والأرض لهما بكاء .. ومادامت السماء والأرض لم تبكيا على آل فرعون .. فإن لهما مناسبات تبكى فيها .. ولو أن السماء والأرض لا تبكيان على أحد لما كان الله سبحانه وتعالى يخبرنا بذلك .. ولكن قول الله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض » يدل على أنها تبكيان .. وهما تبكيان العبد الصالح .. الأرض تبكى مكان سجود العبد المؤمن عليها .. والسماء تبكى مكان صعود دعاء العبد الصالح إليها .. فالمكان يصلى فيه الإنسان ويدعو ربه .. المكان الذى لم يشهده إلا على طاعة .. ولم يره فى معصية .. ينسجم مع هذا العبد الصالح ، ويأنس بجلوسه فيه .. فإذا فارقه الإنسان بالموت مثلا يحزن عليه ويبكى .. ولذلك قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه (إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان موضع فى الأرض وموضع فى السماء . أما موضع الأرض فهو مصلاه .. المكان الذى كان يسعد وهو يسمع الإنسان يصلى ويسبح مولاه .. أما الموضع فى السماء فهو مقعد عمله الطيب الذى يتقبل فيه دعاؤه) .

وهكذا نجد ان الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه خلق انفعالات للأرض والسماء .. فإذا قالت الأرض شيئا .. أتقوله لى أم لمن خلقها .. تقوله طبعاً لمن خلقها .. ولا يعز على من خلقها أن يتفاهم معها .. لأن الأشياء فى التكوين منفعة للخالق .. والله سبحانه وتعالى يقول : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول

الله .. والعباد

له كن فيكون .. وهكذا تصبح الكلمة وجودا .. وكل شيء في الكون موجود بكلمة « كن » .. وكل شيء منفعل لله سبحانه وتعالى .. لأنه وجد من الله قال له « كن » فتم الخلق .. ولا يحدث ذلك إلا إذا كان هناك فهم من هذا الشيء لأمر الله سبحانه وتعالى .

* * *

وكل شيء في الدنيا والآخرة هو في علم الله سبحانه وتعالى .. فالله لا زمن عنده ولا شيء يججب المستقبل .. ولكن الزمن عندنا نحن .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(سورة الحديد)

إذن فالوجود كله في علم الله سبحانه وتعالى .. لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء .. ولا يمكن أن يتم خلق شيء إلا إذا كان خالقه يعلمه ولا يجمله .. ولا يمكن أن يكون المخلوق قيذا على خالقه .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء .. ما خلق .. وما سيخلق .. وما سيتم إلى يوم القيامة .. فالله سبحانه وتعالى هو الذي يحدد .. فإذا أراد أن يخلق يوما مثلا مقداره أربع وعشرون ساعة .. قال له : « كن » فكان .. وإذا أراد أن يخلق يوما مقداره ألف سنة .. قال له : « كن » فكان .. وإذا أراد أن يخلق زمنا للناس قال له : « كن » فكان .. ومن صفات مخلوقيته عز وجل أنه يخلق الماضي والحاضر والمستقبل .. ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بذلك في القرآن

الله .. والعباد

الكريم .. فمزق لنا حجب المستقبل فقال تعالى : « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد » .

ولقد نزلت هذه الآية عندما قام الفرس بحرب الروم وهزموهم .. وكان الروم يعتقدون المسيحية .. والفرس كفرة لا يؤمنون بالله . وفرح المشركون بهزيمة الروم لأنهم يناصرون أهل الكفر وهم الفرس .. ونزلت الآية الكريمة بأن الروم سيفلبون في بضع سنين .

والسؤال هنا أنه لو كان هذا القرآن من عند غير الله .. لما غامر أبدا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلام لا يتبدل ولا يتغير .. متعبدا بتلاوته إلى يوم القيامة .. يعلن ويؤكد نتيجة معركة حربية ستحدث بعد بضع سنين بين دولتين .. لأن هذا يعرض قضية الإيمان كلها للخطر .. فهاذا كان يمكن أن يحدث لو أن الروم والفرس تصالحا ولم يتقاتلا .. أو أنه بدأت معركة هزم فيها الروم مرة أخرى .. ومن الذى يستطيع أن يتنبأ بنتيجة معركة حربية ستقوم بعد ثمانى سنوات ويحدد الغالب فيها مع أن أحدا لم يطلب منه ذلك .

ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد .. وهو الذى يخلق النصر والهزيمة .. وكل ما سيحدث في علمه .. جاء القرآن يتحدث ويمزق حجاب المستقبل .. الذى لا يستطيع أن يمزقه أحد .. ويعلن نتيجة معركة حربية ، ويعلن من المنتصر .. ويعلنها بثقة تامة .. وتمر السنون وتحدث المعركة كما تنبأ القرآن تماما .

علم الله حتى يوم القيامة وما بعد يوم القيامة .. وإذا كان القرآن قد مزق الحجب .. وأتى بمعجزات لا تزال تتضح كل يوم .. فإنه قد أتى بذلك ليفيق عقل البشر .. فيعرفوا يقينا أن القرآن منزل من عند الله فيتبعوه .. ولكن « إنها لا تعنى الأبصار ولكن تعنى القلوب التى فى الصدور » .

حديث قدسى

عن أبي ذر رضى الله عنه .. عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن الله تبارك وتعالى انه قال :

يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسى .. وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا .. يا عبادى .. كلكم ضال إلا من هديته .. فاستهدون أهدكم .. يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم .. يا عبادى كلكم عار .. إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم .. يا عبادى .. انكم تخطئون بالليل والنهار .. وأنا أغفر الذنوب جميعا .. فاستغفروني اغفر لكم .. يا عبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضروني .. ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم .. ما زاد ذلك في ملكي شيئا .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم .. كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا .. يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته .. ما نقص ذلك مما عندي .. إلا كما ينقص المخيط .. إذا ادخل في البحر .. يا عبادى .. إنما هي أعمالكم أحصيها لكم .. ثم أوفيكم اياها .. فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك .. فلا يلومن إلا نفسه .

الفصل السابع

البداية من باب الرحمة

البداية .. من باب الرحمة

حين نبدأ باسم الله .. فاننا نبدأ العمل ومعنا قدرة الله سبحانه وتعالى تعيننا على العمل .. والفعل عادة يحتاج إلى أكثر من صفة .. فإن كنت تريد عملاً يحتاج إلى قوة .. تقول باسم القوى حتى تمدك صفة الله سبحانه وتعالى بالقوة .. وإذا أردت علماً فانك تبدأ في الاستعانة باسم الله العليم .. ليمدك الله من لدنه بالعلم .. وإذا كانت الحكمة هي مطلبك تقول باسم الله الحكيم .. وإذا كان ما تريد أن تستعين به هو القهر .. استعنت بالله القاهر .

إذن فأنت في كل مرة تستعين باسم الله .. متخذاً من صفاته سبحانه وتعالى ما يناسب العمل الذي تنوى القيام به .. ولكن الأعمال والأفعال لا تحتاج إلى صفة واحدة .. بل صفات كثيرة .. بل أن أنفه عمل يحتاج إلى أكثر من صفة .. بل إلى صفات متعددة .. ولا تعتقد أن هناك عملاً يحتاج للقدرة وحدها .. وإنما يحتاج للعلم مع القدرة .. ويحتاج للحكمة .. ويحتاج إلى أشياء أخرى كثيرة .

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى .. بدلاً من أن يثقل عليك صفات المجالات للفعل .. قال لك .. قل .. « باسم الله » .. لأن هذا الاسم يجمع كل الصفات ويعينك على كل الأمور .. فإذا قلت « باسم الله » .. فكأنك قلت باسم القوى .. وباسم القادر وباسم المهيمن .. وباسم الرحمن .. وباسم الرحيم .. وبكل الأسماء الحسنى .. لماذا؟ .. لأنك أتيت باسم الذات الموصوفة بصفات الكمال .. ولقد اختلف عدد من العلماء حول « بسم الله الرحمن الرحيم » .. وهي موجودة في ١١٤ آية من القرآن الكريم .. هل هي من آيات السور نفسها .. بمعنى أن كل سورة تبدأ « باسم الله الرحمن الرحيم » .. تحسب البداية على أساس أنها من آيات السورة .. أم أنها جاءت في فاتحة الكتاب .. ثم بعد ذلك كفواصل بين السور .. ورجح بعض العلماء أن « باسم الله الرحمن الرحيم » آية من آيات القرآن الكريم ولكنها ليست آية من السورة نفسها .. ولهذا السبب فإنك تسمع بعض الأئمة حين يقيم الصلاة

البداية .. من باب الرحمة

ويقرأ الفاتحة .. يقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » في سره .. ثم بعد ذلك يبدأ
بـ « الحمد لله رب العالمين » ويستكمل قراءة الفاتحة ..

وفاتحة الكتاب هي قسمة بين الله وبين العبد .. الله سبحانه يقول في حديث

قدسى :

(قسمت الصلاة بيني وبين عبدي) ويعنى بالصلاة فاتحة الكتاب - بدليل
التفسير الذى جاء بعدها .. وكون الله سبحانه وتعالى لم يقل فى حديثه القدسى
قسمت الفاتحة بيني وبين عبدي .. ولكنه قال قسمت الصلاة بيني وبين
عبدي .. وذلك يدل على أن فاتحة الكتاب هي جوهر الصلاة .. والفاتحة
قسمها الله سبحانه وتعالى إلى نصفين .. نصف له جل جلاله .. ونصف
لعبده .. أما الذى لله سبحانه وتعالى فثلاث آيات هي « الحمد لله رب العالمين
الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » .. والآيات التى هي للعبد « إهدانا الصراط
المستقيم .. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم
ولا الضالين » .. وهنا نلاحظ أن « الرحمن الرحيم » جاءت بعد « بسم الله
الرحمن الرحيم » فأنت حين تقرأ الفاتحة تقول « بسم الله الرحمن الرحيم » ..
ثم بعد ذلك تقول .. « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم » .. فكأن « بسم
الله الرحمن الرحيم » الأولى التى قلتها إنما هي بداية للعمل .. والعمل يتم
للوصول إلى غاية ونتيجة .. فإذا بدأت « بسم الله الرحمن الرحيم » .. مستعينا
بالله سبحانه وتعالى وبقدرته .. متجها إلى الله سبحانه وتعالى طالبا رحمته
وغفرانه .. فلا يؤأخذك بما فعلت فى الماضى .. وينزل رحمته عليك لتبدأ العمل
الذى تنوى القيام به .

فإذا أنعم الحق تبارك وتعالى عليك بإتمام العمل .. فإذا تكون النتيجة
الطبيعية لذلك ؟ .. هو أن تقول « الحمد لله رب العالمين » .. ثم بعد ذلك تعود
فتقول « الرحمن الرحيم » .. شاكرا لله سبحانه وتعالى رحمته التى أمدك بها سواء
توفيقا أو إعانة .. ثم بعد ذلك تمضى فتقول « مالك يوم الدين اياك نعبد و اياك
نستعين » ..

البداية .. من باب الرحمة

وقد قال رب العزة جل جلاله .. قسمت الصلاة بيني وبين عبدى .. ثلاث
لى .. وثلاث له .. فإذا قال « الحمد لله رب العالمين » قال الحق حمدنى
عبدى .. وإذا قال « الرحمن الرحيم » .. قال الحق اثنى على عبدى .. وإذا
قال « مالك يوم الدين » .. قال الحق مجدنى عبدى .. وإذا قال « ايك نعبد
وايك نستعين » .. قال الحق تبارك وتعالى هذه لى وله .. منه العبادة ومنى
العون ولعبدى ما سأل .. والثلاث التالية « اهدنا الصراط المستقيم صراط
الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » يقوله الحق سبحانه
وتعالى .. يكون لعبدى ما سأل ..

والحق تبارك وتعالى بدأ الحديث القدسى بقوله « الحمد لله » .. ولم يقل
سبحانه وتعالى إذا قال العبد « بسم الله الرحمن الرحيم » أحبته بكذا .. ولكنه
جل جلاله بدأ حديثه القدسى بقوله إذا قال العبد « الحمد لله » .. وبذلك دل
على أن فاتحة الكتاب شىء والتسمية الاستهلالية شىء آخر .. فالتسمية
الاستهلالية من القرآن وليست من نص السور .. لأن الله سبحانه وتعالى حين
قال قسمت الصلاة بيني وبين عبدى .. لم يبدأ الفاتحة بقوله تعالى « بسم الله
الرحمن الرحيم » .. ولكنه قال تعالى الحمد لله .. ولذلك تقول « بسم الله
الرحمن الرحيم » فى الصلاة سرا .

ويريد الحق تبارك وتعالى بالتسمية الاستهلالية « بسم الله الرحمن الرحيم » أن
يذكرنا دائما أننا ندخل عليه من باب الرحمة .. أكثر من أن ندخل عليه من باب
العمل .. والإنسان خلق خطاء .. والإنسان خلق ظلوما .. وسيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله الا أن يتغمده الله
برحمته) .. قيل حتى أنت يا رسول الله .. قال عليه الصلاة والسلام حتى
أنا ..

وأنت إذا استعنت بالله .. فانك تستعيد برحمة الله سبحانه وتعالى .. لأنك
لوم تستعد بعدل الله الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .. ولولا رحمة

البداية .. من باب الرحمة

الله ما بقيت لنا نعمة .. ولو يؤاخذ الله الناس بذنوبهم .. ما أبقى على ظهرها من دابة .. وأنت لو لم تستعد بالله .. لما وجدت سبيلا إلى جنته .. فذنوب الإنسان في الدنيا ومعاصيه لا تحصى ولا تعد .. إذا تكلم فقد ينم .. وإذا حكم فقد يظلم .. وإذا ظن فقد يسيء .. وإذا تحدث فقد يخطيء .. وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق .. هذه أشياء يرتكبها كل واحد منا مئات المرات .. وبدرجات متفاوتة .. فما من إنسان لم يصدر عنه في يوم من الأيام كلمة تحمل معنى النم .. ولو مرة .. ولم يصدر عنه حكم بعيد عن الصدق في أي أمر من أمور الحياة وجانبه الحق .. ومن منا لم يسيء الظن بإنسان كل يوم .. ومن منا لا يخطيء الحديث ولا يبتعد عن الحق ولو خطوة واحدة .. ومن منا ذلك الذي يستطيع أن ينسب الكمال لنفسه .. وأن يخلص هذه النفس عن هواها .. وأن يبعدها بعدا كاملا عن كل خطيئة .. منذ الذي يستطيع أن يدعى أنه منذ أن يستيقظ حتى ينام .. لم يخطيء خطأ .. ولم يرتكب إثما ولو صغيرا .. ولم يهدر حقا لإنسان ..

إن الذين يبذلون أقصى جهدهم في الطاعة لله .. لا يصلون إلى مرتبة الكمال .. فالكمال لله وحده .. ورسول الله صلى عليه وسلم يقول (كل بني آدم خطاء .. وخير الخطائين التوابون) .. والله سبحانه وتعالى يصف الإنسان فيقول « إن الإنسان لظلوم كفار » .. والشيطان يحاول أن يقعد بالإنسان عن الصراط المستقيم .. وأن يمنعه عن طاعة الله .

ولذلك كان لابد من باب الرحمة يدخل منه البشر إلى الله سبحانه وتعالى .. وإن يكون هذا الباب مفتوحا على مصراعيه .. يهرع إليه كل عاص ليقول يارب عدت إليك وأنا نادم على ما فعلت .. فتقبلني .. حتى أن عددا من كبار الزاهدين والمتقربين إلى الله . ربما ارتكب في بداية حياته بابا من أبواب المعصية ثم تاب إلى الله فتقبل توبته .. وحسن إسلامه .. وإذا نظرنا إلى بداية الإسلام نجد أن رجالا ونساء من الذين حاربوا هذا الدين في أوله .. قد حسن إسلامهم .. ووضعوا في الإسلام ليصيروا عوننا ونصرا لدين الله بعد أن كانوا

البداية .. من باب الرحمة

حربا عليه .. وغفر الله سبحانه وتعالى لهم ما ارتكبوه في أيام الجاهلية .. وفتح لهم أبواب رحمته ورضاه ليصبحوا من أئمة هذا الدين .

ولكن لماذا قال الله « بسم الله الرحمن الرحيم » .. ولماذا قرن اسمه بالرحمن الرحيم .. حتى إذا قلت لأى عاص ابدأ عمرك باسم الله يقول لك لقد صنعت كذا وكذا .. وأنا أستحي أن استعين بالله بعد أن عصيته وأغضبته .. تقول له أن الله سبحانه وتعالى علم ذلك أزلا .. ففتح الباب لكل عاص يريد أن يتوب إليه ويستعين به .. فقرن اسمه جل جلاله بالرحمن الرحيم .. حتى تتذكر أنك لو كنت ارتكبت معصية فان الباب مفتوح .. ولو قلت اننى قد عصيت الله نقول لك إن ذلك لا يمنع من الاستعانة بالله لأنه رحمن .. ولأنه رحيم .. ولا تمنعك معصية من أن تستعين باسم الله في كل عمل .. لأنها الطريق إلى التوبة .. وإلى الإيمان .. الله سبحانه وتعالى يطلب منك أن تستعين به في كل أمر من أمور الدنيا .. وأنت إذا استعنت باسم الله الجامع لكل صفات الكمال أعانك .. فإن كنت عاصيا .. فلا تعتقد أن الله قد طردك من رحمته .. أو يتخلى عنك إذا رفعت يدك إلى السماء واستعنت به .. أو قد غضب عليك حتى أنه لا يستجيب لك عندما تستعين به .. إنه سبحانه وتعالى يطلب منك أن تستعين به .. ولذلك فقد وضع لك صفة الرحمن الرحيم .. حتى نتذكر أن بابه مفتوح دائما .. وكما قلت أنه لولا رحمة الله ورحمانيته لما بقيت لنا نعمة .

* * *

إذن فنحن نعيش معاصينا في مجال جلالات الرحمن وجلالات الرحيم .. ولذلك حينها يأتي الحق تبارك وتعالى ويعرض نعمه على الخلق .. ثم يعرض بعد ذلك ما فعل الإنسان بهذه النعم يقول « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .. ولقد جاءت هذه الآية الكريمة في القرآن الكريم مرتين .. مرة في قوله تعالى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها أن الله لغفور رحيم » .. والآية الثانية يقول « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » .. سياق الآية

البداية .. من باب الرحمة

الأولى تجليات الرحمة .. وسياق الآية الثانية جبروت الإنسان العاصي يأخذ نعمة الله ويستغلها في معصيته .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » ..

وعندما يقول الحق جل جلاله وهو يعدد نعمة غفور رحيم .. قال ذلك لأن النعمة تقتضى ثلاثة عناصر .. عنصر هو المنعم .. وعنصر ثان وهو المنعم عليه .. وعنصر ثالث وهو النعمة .. وفي حديث النعمة نجد أن الله استخدم حرف (ان) - وهو حرف شرط - ولكنها تستعمل في المشكوك فيه .. بينما (اذا) حرف شرط تستعمل في المحقق .. شئء محقق تريد أن تتحدث عنه تستخدم (اذا) فإن قلت ان حدث هذا .. فأنت تشك في أنه سيحدث .. ولكنك إذا قلت إذا حدث هذا .. فإنك تعرف أنه سيحدث ..

ولقد استخدم الله (ان) بلهجة التشكيك فقال : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .. لأنه أراد أن يقول لنا أنه ما من بشر سيقبل على عد نعم الله .. انه يخاطبنا بلهجة الشك لأن هناك شكاً في أن يقبل أحد على عد نعم الله .. ولم نسمع حتى الآن عن انسان جاء بسجل وبدأ يحصى فيه نعم الله سبحانه وتعالى .. لماذا لأن الاقبال على احصاء يكون على شئء تستطيع أن تحصيه .. فمثلا في مراكز الاحصاء تحصى عدد البشر كل عام .. لأنها تستطيع أن تقوم بالاحصاء .. وتحصى عدد المنازل والشقق والانتاج الزراعى والحيوانى وغيره .. أما الذى لا تستطيع أن تحصيه فهل تقبل على احصائه ..؟ هل سمعت عن مركز للاحصاء قام باحصاء الذرات الموجودة في الأرض من الرمال .. لم نسمع عن هذا طبعا .. لماذا؟ .. لأنه لا أحد يستطيع .. وبالتالي مادام يظن أن هذا غير ممكن فإنه لا يقبل عليه .. ونعم الله لا تعد ولا تحصى .. ولم نسمع رغم تقدم آلات الاحصاء بالعقول الالكترونية وغيرها التى جعلت عددا من الاحصاءات غير الممكنة في الماضى سهلة الحدوث الآن .. لم نسمع أن مؤسسة أو هيئة قامت باحصاء نعم الله على الإنسان في الأرض .. لماذا؟ .. لأنه من

البداية .. من باب الرحمة

المستحيل ذلك .. فشهيق الهواء الذى يدخل الصدر نعمة .. ان هو لم يدخل فقد الإنسان حياته .. وزفير الهواء الذى يخرج من الصدر نعمة .. إن لم يخرج من الصدر فقد الإنسان حياته .. وشعاع الضوء الذى ينعكس على العين نعمة .. لأنه ينعكس على العين ويمكنها من الرؤية والعين حين تستقبل شعاع الضوء وتعكسه لترى نعمة .. الخطوة الواحدة نعمة .. وحركة أصبعك نعمة .. وان تبتلع ريقك نعمة .. وان يتبض قلبك نعمة .. وان يتحرك لسانك بالكلام نعمة .

* * *

كل هذه وملايين غيرها نعم .. ونعم كبيرة على كل فرد فينا .. والإنسان لا يحس بالنعمة .. لماذا ؟ لأنه كما قلنا يعتاد عليها ويألفها .. فيعتقد أنها حق مكتسب له وينسى المنعم .. ان كل إنسان على وجه هذه الأرض يسبغ الله عليه بملايين النعم .. وان لم يعطه شيئاً جديداً يحس به .. فعندما يكون نائماً ويستيقظ فقد عادت إليه نعمة الحياة .. وإذا قام من سريره فهذه نعمة الحركة .. وكل حركة في حياة الإنسان نعمة .. ولكن بعض الناس لا يتنبه إلى نعم الله ينعم بها وهو جاحد .. ومهما تعددت وسائل الاحصاء وتطورت فإنها ستظل عاجزة .. وسيظل الإنسان عاجزاً عن احصاء نعم الله .. ولو أراد أن يستطيع .

واستمرار النعمة دليل على أن المنعم غفور رحيم .. ومن رحمة الله - أنه لا يعطى النعمة للشاكرين وحدهم .. أو للمؤمنين وحدهم .. ومن رحمته أنه لا يحرم من يعصيه من نعمه .. ولو لم يكن الله رحماناً رحيماً وغفوراً رحيماً لمنع نعمه عن عصاه .. وهنا يستوجب الله الحمد على كل النعم .. وقد بدأت الفاتحة وهى أم الكتاب بالآية الكريمة « الحمد لله رب العالمين » وأسباب الحمد فى الكون كثيرة .. فأيات الله فى الكون كله .. فى لؤلؤة بديعة التكوين .. فى زهرة يملؤها العبير وتختلط فيها الألوان .. عطاءات الله كثيرة تستحق الحمد .. والحمد يأتى أيضاً خوفاً من العقاب .. فأنا موجود تحت سيطرة الخالق .. فإذا ارتكبت خطأ كان فى استطاعته أن يبطش بى على الفور .. فأين أنا من قدرة

البداية .. من باب الرحمة

الله ..؟ وما هي قوتي أمام قوته سبحانه ..؟ إذا أراد سبحانه وتعالى أن يهلك الكون كله لاستطاع في لحظة .. وأنا أبطش تغرني قوتي .. وأنسى الله في ساعات يسرى .. آخذ المال الذي أعطاني إياه واستعمله في معصيته .. والصحة التي منحها لي الله فاستعملها في الأيذاء أو فيما لا يرضيه .. وأمضى في الدنيا أحاول أن آخذ منها كل ما أستطيع .. وليس فيها ما يؤخذ لأنى تاركه جميعا .. يقصدنى الخلق لأزيل ظلما فامتنع .. أو افعل خيرا فتأخذنى العزة بالاثم .. ويطلب منى أن أسعى فى معروف فافرض .. أملأ الدنيا بالنميمة والحقد وارتكب الذنوب والمعاصي .. وأبحث عن الأمان فى جاه الدنيا .. ولا أمان إلا فى وجه الله .. ثم تأتى أيام يملؤها العسر والشدة .. واتطلع إلى السماء وأصبح يارب .. وكان عدلا ألا تجاب نفسى ملأتها الخطايا واستغرقتها الحياة الدنيا .. ولكن الله يفتح بابه ويمد يده .. ويمسح الشقاء ويزيل الهم .. لأنه قدم الرحمة على البطش وقدم العفو والمغفرة على العقاب .

* * *

نعم متكررة

وفى كل يوم يموت الألوف .. ويهبنا الله نعمة الحياة والبقاء فى الوجود .. وعندما أفتح عيني فى الصباح .. لا بد أن أقول الحمد لله لأنه منحنى نعمة الحياة والوجود .. وفى كل يوم تقع مئات الحوادث ويزول ثوب العافية عن الألوف من البشر .. وتحدث الكوارث ويكون ضحاياها الألوف من الناس فى العالم .. فإذا قمت من النوم فلا بد أن أنطق بالحمد لله .. وإذا مضى اليوم ولم يزل الله عنى ثوب العافية فلا بد أن أصبح من أعماقى الحمد لله .. والله نجانى من حوادث اليوم وشروره .. وسترنى وأنا مذنب .. وأعطانى وأنا غير مستحق للعتاء .. وفتح لى طريقا مغلقا أو أزال من طريقى إنسانا يضايقنى .. أو عرفنى ما لم أكن أعرفه .. ألا يستحق هذا منى أن أقول الحمد لله .. اننى لو قضيت يومى كله أعد نعم الله على ما أعطانى ووهبنى .. وما منعه عنى ونجانى لكان اليوم كله لا يكفى حمدا لله .

البداية .. من باب الرحمة

ورحمة من الله سبحانه وتعالى بالعالمين جعل الشكر له والحمد في كلمتين « الحمد لله » .. والعجيب أنك إذا حاولت أن تشكر بشرا على جميل أسداه إليك - فتبقى ساعات وساعات تلهج بالشكر والثناء .. وتعيش ساعاتك بل وأيامك قبل لقائك لهذا الشخص تعد الكلمات وتختار العبارات .. تضيف وتحذف وتسال الناس رأيهم عليك تصل إلى قصيدة أو خطاب يلهج بالشكر لهذا الإنسان على عمل طيب واحد قدمه إليك .. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا عسى أن يعرف البشر مدى النعم وقدرة المنعم .. فيحس في داخل قلبه بعظمة الله .. ويوفى البشر حقهم في الشكر دون ذلة تدنى النفس .. أو مبالغة تصيب الإنسان بالغرور .. أو نفاق يرتكب به البشر المعاصي .. ان الله يعطى بغير حساب وينعم على كل المخلوقات يكتفى بكلمتي « الحمد لله » يضعهما في أول كتابه فاتحة الكتاب - ويضعهما خاتمة لكل حياة مؤمنة في الأرض فيقول تعالى « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

ولو أن الله تبارك وتعالى ترك صيغة الحمد دون أن يحددها لكان من الصعب على العقل البشرى أن يجد الصيغة المناسبة ليحمد هذا الكمال الالهي .. ومهما أوق البشر من بلاغة وقدرة فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى ما يفى الله حق قدره ويكون شكرا على نعمه .. فكيف نحمد الله والعقل البشرى عاجز عن ادراك قدرته .. والعقل البشرى مغرور بما يسره الله له في الدنيا من علم .. وكيف نحمد الله والكلمات تعجز عن التعبير عن الحمد لله .. مصداقا لقوله تعالى « وما قدروا الله حق قدره » .. وإذا كان البشر عاجزين عن أن يفوا للقدرة الالهية بالتقدير .. فكيف يستطيعون أن يفوا لها بالحمد .. وكيف يمكن للمخلوق المحدود أن يحمد الكمال الالهي .. ولذلك علمنا الله سبحانه وتعالى في فاتحة الكتاب كيف نحمده ..

والمساواة بين البشر جميعا في توحيد « الحمد لله » .. فيها يسر منهج الله ورحمته بعباده .. ولو أن الله سبحانه وتعالى تركها بلا تحديد .. لتفاوتت درجات

البداية .. من باب الرحمة

الحمد .. فهذا أمى لا يقرأ ولا يكتب يحمد الله بلفظ بسيط حسبها تستطيع فطرته .. وهذا عالم يحمد الله بما أتيج له من قدرات على البلاغة والتعبير .. ولكن شاء عدل الله أن يسوى بين عبيده جميعا فى صيغة الحمد ليعطى الفرصة المتساوية المتكافئة بين المتعلم والأمى من عبيده .

* * *

وإذا نظرنا إلى النعمة أولا قبل المنعم عليه .. لوجدنا أن الإنسان حين يأتى إلى الأرض .. وقبل ميلاده .. يقدر الله سبحانه وتعالى سبل حياته ورزقه وعمره .. وهل هو شقى أم سعيد .. وكل النعم التى سينعم بها عليه فى الدنيا .. وهكذا تسبق النعمة الوجود البشرى .. وحين ينزل الإنسان إلى الحياة تكون نعم الله سبحانه وتعالى قد سبقته .. فينزل الله من صدر أمه لبنا دافئا فى الشتاء باردا فى الصيف .. معقما من كل الأمراض بأكثر مما يستطيع العلم بكل قدراته أن يعقمه .. ويجد هذا اللبن جاهزا .. فإذا جاع نزل اللبن له .. وإذا شبع توقف نزوله حتى يجوع مرة أخرى .. معين من الغذاء لا ينضب إلا إذا استغنى الطفل عنه .. والطفل حين يولد ضعيفا عاجزا عن الدفاع عن نفسه .. ولكن الله يهيم له أبويه ليحولا ضعفه إلى قوة .. فهمها لا ينامان حتى ينام .. وإذا مرض حملاه إلى الطبيب .. وإذا جاع وهو عاجز عن الكسب سخر له أبويه يسعيان فى سبيل رزقه .. وإذا حاول أحد الاعتداء عليه كان أبواه الدرع الواقية يفتديانه بحياتهما ويحرمان نفسيهما من مباحج الحياة ليربياه ويعلماه .. حتى الذى يموت أبواه يهيم الله سبحانه وتعالى من يكفله .. ويصبح أقوى الأقوياء فى العالم ضعيفا أمام ابنه الصغير .. وهكذا أوجد الله سبحانه وتعالى لهذا الضعيف النعم التى يحتاجها .. بل أوجدها له قبل أن يأتى إلى الدنيا .. فترى الأم تعد لابن ملابس وسريه قبل أن يولد .. كل هذا والطفل لم يأت بعد إلى الدنيا .. وهو مازال فى بطن أمه .. وهكذا نرى أن النعمة تسبق الوجود البشرى ..

وإذا كان بعض الناس يقول أن الذى يوفر الحياة للبشر هم البشر .. بمعنى أن

البداية .. من باب الرحمة

أبا الطفل وأمه وعائلته هم الذين يعدون له سبل الحياة .. نقول أن هذه سنة الله في الأرض .. فهو سبحانه قبل أن ينزل الإنسان إلى الأرض خلقها له .. وهياً له ظروف الحياة فيها .. فالنعمة سبقت المنعم .. وآدم عليه السلام خلق بلا ماض .. فلم يكن له أبا يعد له أو أم تجهز من أجله .. ولكن سبقت النعمة فعاش في جنة لا يجوع فيها ولا يشقى .. وهكذا كانت نعم الله سبحانه وتعالى تسبق آدم وتنتظر لتعطيه الحياة الطيبة التي لم يصنعها بشر .. ولكنها من صنع الله سبحانه وتعالى .

ومن يدعى أن النعم التي تسبق البشر هي من صنع الإنسان .. نقول له .. إن لبن الأم الذي يعتبر غذاء أساسياً للطفل .. ليس من صنع البشر ولكنه من صنع الله .. وحنان الأم والأب .. ليس من صنع بشر .. ولا يستطيع البشر أن يضع عاطفة قوية راسخة ولكنها من صنع الله .

* * *

والإنسان حين يقول الحمد لله .. فإنه يقطع بأن حمدا لا بد أن يكون موجودا في الكون .. لماذا؟ .. لأن هناك أشياء يجدها الإنسان في الكون تخضع له .. وتعطيه نعمة بغير قدرة منه .. وبغير دخولها في علمه .. فلا هو يستطيع أن يقدم لنفسه هذه النعم .. ولا هو يمكن أن يدخلها في سيطرته .. فالإنسان خلق فوجد الكون مهياً له .. الشمس تدفئه وتعطيه الحياة .. والأرض تطعمه وتعطيه الثمر .. والمطر ينزل عليه ليسقيه .. والهواء موجود أينما كان ليتنفسه بسهولة .. والنهار يعمل وينتج والليل لينام ويستريح .. كل هذه الأشياء خلق الإنسان ليحدها في الكون .. ألا تستحق الحمد ..؟

إذن فنحن حين نقول الحمد لله .. فنحن نعلن أن هناك في الكون أشياء يجب أن يتم الحمد عليها .. نعم كثيرة تجعل حياة الإنسان ممكنة وسهلة في هذا الكون .. ولعل نعمة تسخير الكون للإنسان تقتضي وجود الحمد ..

حديث قدسى :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يقول ربنا عز وجل :
« أنظروا في صلاة عبدي .. أتمها أم انقصها ؟ .. فإن كانت تامة
كتب له تامة .. وإن كان نقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدي
من تطوع ؟ فإن كان له تطوع .. قال أتموا لعبدي فريضته من
تطوعه ثم تؤخذ الأعمال » .

٦

معجزات ابراهیم

محمد مرتضوی اشعراوی

أخبار اليوم

إدارة الكتب والمكتبات

الفصل الأول

الأمثال في القرآن الكريم

الأمثال في القرآن الكريم

لماذا ضرب الله الأمثال؟
الله سبحانه وتعالى ضرب للناس أمثالا في القرآن الكريم وقال :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾

(سورة الزمر ٢٧)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾

(سورة البقرة ٢٦)

وقال جل جلاله :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة إبراهيم ٢٥)

الله سبحانه وتعالى حين ضرب الأمثال ربطها بموكب الإيمان . وربطها بالهدى والضلال .. فكأنما كل هذه الأمثال إنما ترتبط بقضايا إيمانية أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعها أمام المؤمن ليزداد إيمانا . . وأراد الله أن يرد بها على الكافرين .

قبل أن نبدأ لتحدث عن لماذا ضرب الله الأمثال في القرآن الكريم .. فإننا لابد أن نفرق بين المثل والمثال .

أولا هناك كلمة مثل .. وهناك كلمة مثال .. ومثل (بكسر الميم) تعنى التشبيه بشيء .. أى أن هذا الشيء الذى نتحدث عنه يشبه كذا تماما . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ أو ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة البقرة) (من الآية ٣٨ سورة يونس)

الأمثال في القرآن الكريم

ومعنى ذلك بسورة كالقرآن تماما .. أى أن هناك تشبيه حالة بحالة .
ونحن إذا أردنا في الدنيا أن نستعمل كلمة مثل .. نقول هذا الشيء مثل
الكرة .. لأنه مستدير كهيئة الكرة تماما .. أو أن نقول هذا الشيء يشبه سنام
الجمال .. أى أنه على هيئة سنام الجمال تماما .. وهنا نحن نشبه حالة بحالة ..
أو مفردا بمفرد .

أما المثل (بفتح الميم) فهو يختلف عن ذلك تماما .. ذلك لأنها لا تشبه شيئا
فرديا بشيء فردى .. ولا تشبه حالة بحالة مثلها .. ولكن المثل يأتي لتقريب
فكرة ما إلى الذهن البشرى ، بحيث يستطيع أن يستوعبها .. ولا يشترط أن
يكون المثل من نفس نوع الشيء الذى نتحدث عنه .. بل قد يكون مختلفا
تماما ، ولكنه فقط يعطينا الفكرة .

ولنوضح هذه النقطة قليلا ..

إذا أخذنا الأمثال في حياتنا .. وجدنا أنها تقرب المعانى .. فمثلا حينما تواجه
إنسانا يتحدثك أو يحاول أن ينال منك مغترا بقوته .. مزهوا بقدرته .. تقول له
إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا .. ولا يوجد ريح هنا ولا إعصار ، حتى
تضرب مثل هذا المثل .. ولكنك تريد أن تقول إذا كنت قويا فأنا أقوى منك ..
استخدمت في هذا كلاما يعطى المعنى دون أن تتقيد بالأشخاص ، ولا بالحالة
نفسها .. ولا تتقيد بأن يكون ما قلته مثل (بكسر الميم) ما هو حادث فعلا ..
فليس هناك ريح .. ولا هناك إعصار حتى يكون التشبيه ممثلا ومطابقا لما تريد
أن تقوله .. ولكنك استخدمت الفكرة المعروفة في أن الإعصار أقوى من
الريح .. وأقدر على مواجهتها لتدلل على المعنى الذى تريده .. وهو أنك إذا
كنت قويا فقد لقيت من هو أقوى منك .

وهناك مثل آخر يقول (قبل الرماية تملأ الكنائن) .. ومعنى ذلك أنك قبل
أن تصل إلى ميدان الحرب وتقاتل وتبدأ الرمي بالسهم .. لا بد أن تكون كنائتك

الأمثال في القرآن الكريم

التي تمتلئ بالسهام وتحملها وراء ظهرك .. لا بد أن تكون قد ملأتها ..
وإلا لو ذهبت إلى الحرب وكنانتك خالية ، فلن تستطيع أن تقاتل .. تأتي أنت
إلى ابنك مثلا وتجده طوال السنة يلعب ولا يذاكر .. ثم في ليلة الامتحان يجلس
طوال الليل محاولا أن يستوعب .. فتقول له : قبل الرماية تملأ الكنائن .. أى
أنك لم تستعد طوال العام .. ولم تذاكر .. لذلك فإن كنانتك خالية .. فكيف
تستطيع أن تذهب إلى الامتحان غدا .. وكان عليك أن تستعد قبل دخول
الامتحان .

والمثال هنا لا يرتبط بواقع الشيء .. فلا ابنك ذاهب للقتال .. ولا توجد
سهام ولا كنائن .. بحيث يكون التشبيه مطابقا للأحداث .. ولكنك لا تريد
ذلك .. بل تريد أن تقرب المعنى أو أن تعبر عن المعنى ، بصرف النظر عن
الواقع الحادث .. فبالتالى فإنك فى هذه الحالة تجعل السامع يفهم ما تريد .

وهكذا باقى الأمثال .. كلها لا تشبه شيئا بشيء بعينه .. بل إن الذى تقوله
من واقع أحداثه قد يكون مختلفا عن الذى يحدث فعلا .. ولكنه يعطيك نفس
المعنى ويقربه إلى عقلك ، ويجعلك تفهم وتعرف المراد منه .. وهناك مئات
الأمثال التى نعرفها جميعا مثل أبدي المخض عن الزيد .. وما وراءك
يا عصام .. إلى آخر هذه الأمثال التى نردها كل يوم .

لماذا ضرب الله الأمثال ؟

والله سبحانه وتعالى قد ضرب لنا الأمثال .. ليقرب إلى أذهاننا معانى هى
غيب عنا .. ذلك أن عالم الغيب لا يصل إليه العقل البشرى مهما اجتهد ..
لأن هذا العالم محجوب عنا .. وكل ما هو محجوب عنا .. هو عدم بالنسبة
للعقل .. والفكر البشرى لا يستطيع أن يصل إليه .

فمثلا إذا أخذنا الأشياء التى لم تكن موجودة فى حياتنا ثم أصبحت
موجودة .. هذه الأشياء مثل التليفون أو التليفزيون أو الطائرة إلى آخر علم الله

الأمثال في القرآن الكريم

الذي أظهره للإنسان ومكنه منه .. هل كان من الممكن قبل أن توجد هذه الأشياء أن يستطيع العقل استيعابها .. طبعاً لم يكن من الممكن .. وحتى الأسماء التي وضعت لها .. لم تكن موجودة في لغة البشر قبل أن توجد هذه الأشياء .. لأن العقل لم يكن يستوعب هذه الصورة .. أو هذا الاختراع الجديد .. وباختصار كل هذا فوق قدرة العقل البشرى .. وأدخله الله تعالى في قدرة العقل البشرى بأن كشف الله له عنه .. وهكذا خرج إلى علم الإنسان .. وأصبح مألوفاً لديه بعد أن كان مجهولاً .. فلو أننا جننا بإنسان ولد منذ خمسمائة سنة وناقشناه عن هذه الأشياء لما فهمها .. ولو قلنا له أن الإنسان يطير في الهواء ويصل الآن إلى القمر ويحترق الفضاء لاتهمنا بالجنون .. ذلك لأن هذه الأشياء بالنسبة لعقله كانت معدومة تماماً لا وجود لها .. ولكن الآن أصبحت تدخل في نطاق العقل البشرى حتى العقل الذي لم يتعلم شيئاً .. ولم يدخل المدرسة في حياته .. فإنه لا يستغرب إذا قلت له .. الطائرة وسفينة الفضاء إلى آخر ما يقال .

الإيمان ضرورة

هنا لنا وقفة أن نمضي في الحديث .. الله سبحانه وتعالى غيب عنا .. لم يره أحد .. ومع ذلك فإن لفظ الجلالة في كل لغة من لغات الدنيا موجود .. وإذا قلت كلمة الله لأي إنسان لا يستغربها .. بل يحس بمعاني الجلالة والخلق .. والقدرة والقوة .. بشكل لا يتفق مع منطق الأشياء الدنيوية .. بل إن الملحددين الذين يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى .. إنما يؤكدون هذا الوجود .. ذلك لأن الشيء لا ينكر إلا إذا كان موجوداً .. أما إذا كان غير موجود .. فإنه ليس محتاجاً إلى إنكار .. فإنه بطبيعة عدمه لا يفرض أي جدل .. فإذا كان هناك كوكب مخفف عنا في السماء لا نراه .. هل يثور هناك جدل بين العلماء عن هذا الكوكب .. طبعاً لا .. لأن الوجود أصلاً انتفى .. ففيم الجدل .. والمشكلة نفسها التي تطرح هذا الجدل غير موجودة .. وإذا كان هناك في باطن الأرض أو في الغلاف الجوي أشياء لا نعرفها ولم نصل إليها .. هل يجادل أحد

الأمثال في القرآن الكريم

فيها؟ وكيف يقوم الجدل ونحن لا نعرفها .. وكيف يمكن المناقشة والعقل لا يستطيع أن يصل إليها .. ومن هنا .. فإن أي جدل يتم على شيء .. فلا بد أن يكون هذا الشيء موجودا .. وكون أن أي إنسان يحاول ستر وجود الله .. ويقول إن الله سبحانه وتعالى غير موجود « وأعوذ بالله من هذا » فإنه في هذه الحالة يثبت هذا الوجود .. وإلا فما الذي أنكره وما هو هذا الشيء الذي أحاول أن أثبت أنه غير موجود .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى موجود بذاته .. موجود بآياته .. تدرك العقول معنى لفظ الجلالة مصداقا للآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣)

إذن فهذه الآية التي هي معجزة من معجزات القرآن تبين لنا كيف أن العقول كلها تدرك معنى لفظ الجلالة ، مع أن أحدا لم ير الله .. إلا أننا جميعا الجاهل منا والمتعلم .. والذي قرأ والذي لم يقرأ سطرًا واحدًا في حياته ، إذا ذكر أمامه لفظ الجلالة كان له معنى وألفة .. ولم يستغربه أحد .. وهذا دليل لغوي على وجود الله سبحانه وتعالى .. ودليل على أن العقل يعرف خالقه .. وأن المعنى معروف لديه .. بل إن الذي يحاول ستر وجود الله .. نقول له إنك تثبت وجود الله ، ذلك أنه لو كان الله سبحانه وتعالى غير موجود كما تزعمون .. ما كان هناك سبب لمحاولة ستر وجوده .. وكأنك في هذه الحالة تثبت بأن الله موجود .

الأمثال في القرآن الكريم

تلك هي المعجزة التي لا بد أن نتبها لها . . وأن نعرف أن الله سبحانه وتعالى موجود في قلب وعقل كل واحد منا . . وأنا جميعا إذا ذكر اسم الله أمامنا . . عرفنا ولم نشعر بعدم ألفة . . وهذا اعجاز الله .

ولذلك فإن العقل البشرى . . وهو يألف وجود الله ويحس به . . يبدأ البحث في الكون . . فيرى آيات الله سبحانه وتعالى الدالة عليه جل جلاله . . يرى الشمس كل نهار . . ويرى النجوم كل مساء . . ويحس بالهواء الذي يتنفسه والذي هو لازم لحياته . . ويرى الماء يملأ الأرض . . ويرى الزرع الذي يقات منه وكيف خلقت التربة لتغطية هذا الزرع ليعيش . . ويرى نعم الله سبحانه وتعالى تحيط به في كل مكان . . فالأرض ولو أنها كرة مستديرة ، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد مهدها له ليستطيع السير فيها والتنقل . . والإنسان ولو أنه يقف فوق الأرض ورأسه في الهواء . . إلا أن جاذبية الأرض تمسك به ، فلا يطير في الهواء . . بل هو يستطيع أن يسير مطمئنا وقد لا يدري أنه يسير فوق كرة كما كان في الماضي قبل أن يعرف الناس كروية الأرض . . والأنعام التي خلقها الله سبحانه وتعالى للإنسان مسخرة له . . تعطيه اللبن وهو أحد مقومات الحياة . . وتعطيه اللحوم ولها منافع كثيرة . . والماء ينزل من السماء ليسقى الزرع والأنعام ولا ينتهي أبدا . . فكلما شرب منه الناس وارتوى منه الزرع . . وشرب منه باقى مخلوقات الله . . جاء مطر جديد لتستمر الحياة .

كل هذا النظام البديع الذي يسير عليه الكون لا بد له من موجد ومن خالق . . قائم عليه بنظام غاية في الدقة . . وهنا يعرف الإنسان بالعلم كما عرف بالفطرة . . أن لهذا الكون إلها هو الذي أوجد كل هذه النعم وهو الذي خلق الإنسان .

الأمثال في القرآن الكريم

لماذا الرسل ؟

هذا غاية ما يستطيع أن يصل العقل إليه .. هو أن يعرف وجود الله بآياته في الكون وفي الخلق .. ويعرف أنه إله واحد لا شريك له .. لماذا ؟ لأن الله قد أخبرنا بأنه هو الذى خلق كل هذا وسخره للإنسان .. ولم يستطع أحد أن يدعى أنه فعل هذا .. فلو أن هناك إله آخر .. فاما أن يكون قد عرف .. وفي هذه الحالة كان لابد أن يتكلم ويخبرنا أنه خلق .. وإما أن يكون قد جهل هذا .. وفي هذه الحالة تسقط عنه صفة الألوهية .. ولذلك فإن قضية وحدانية الله سبحانه وتعالى محسومة تماما .. لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى قال إنه خلق وأوجد ولم تأت قوة أخرى لتقول انها خلقت أو أوجدت .. ولا تستطيع أى قوة أخرى أن تدعى ذلك .. فلذلك فالقضية محسومة في أنه إله واحد لا شريك له .. هو الله سبحانه وتعالى .. ولا تحتاج إلى مزيد من المناقشة .

وإذا توصلنا إلى هذه الحقيقة ، وهى أقصى ما يستطيع العقل أن يصل إليه ، فإننا في هذه الحالة محتاجون لأن نعرف ماذا يريد الله منا في هذا الكون .. وكيف نعبده ونتقرب إليه ، ونشكره على هذه النعم التى سخرها لنا .. والتى لا يستطيع أحد أن يدعى أنه قام بتسخيرها .

من الذى يحدد الطريقة التى نعبد الله بها ونتقرب إليه ونشكره على نعمه ..

لاشك أن الذى يحدد ذلك هو الخالق والمعبود .. وهو الذى يقول يا عبدي إذا أردت أن تعبدني وتتقرب إلى .. فافعل كذا .. ولا تفعل كذا .. فهو وحده الذى يستطيع أن يحدد .. ومن هنا كانت حتمية الرسل .. بشر اختارهم الله سبحانه وتعالى وأوحى إليهم بما يريد من منهج العبادة فى الأرض .. وأن يبلغوا عباده كيف يتقربون إليه ويشكرونه على نعمه .. ويؤدون حق الألوهية له .

الأمثال في القرآن الكريم

ومن هنا جاءت الرسل لتبلغ عن الله سبحانه وتعالى منهج العبادة الذي اختاره وارتضاه لخلقه . . وحتى يصدق الناس أن هؤلاء الرسل قد اختارهم الله سبحانه وتعالى ليلبغوا منهجه إلى الناس . . أيدهم بمعجزات تحرق قوانين الكون ونواميسه . . وحفظهم ليلبغوا رسالته . . فجعل لكل نبي معجزة لا يقدر عليها غيره من البشر . . وجعل هذه المعجزة دليلا على صدق الرسالة . . ووضع فيها من القوة والقدرة ما لا يستطيع إنسان أن يدعيه . . فلم تحرق النار إبراهيم . . ولا يستطيع أحد أن يسلب من النار خاصية الحرق إلا الله سبحانه وتعالى . . وانشق البحر لموسى . . ولا يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله سبحانه وتعالى . . وأحيا عيسى الموقى بإذن الله . . وكانت معجزة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم هي القرآن الكريم الذي وضع فيه الله سبحانه وتعالى إعجازا متجددا إلى يوم القيامة ، يفيض على كل جيل بمعجزات لم يعطها للجيل الذي قبله .

ولماذا منهج السماء ؟

وهكذا جاءت الرسل بمنهج الله سبحانه وتعالى إلى البشر . . وجاءت بمرادات الله جل جلاله في افعل ولا تفعل . . ولكن هل كان هذا لفائدة يرجوها الله سبحانه وتعالى من خلقه . . أبدا . . بل كانت رحمة وفائدة لخلقه .

والله سبحانه وتعالى خلق الكون بكل ما فيه من نعم قبل أن يوجد الإنسان . . ذلك لأنه لا بد أن توجد النعمة قبل أن يوجد المنعم عليه . . فالإنسان قبل أن يوجد على الأرض كان لا بد أن توجد مقومات حياته . . وكان لا بد من وجود الهواء الذي سيتنفسه . . والطعام الذي سيأكله . . والماء الذي سيشربه . . والشمس والكون الذي سيخدمه . . إذن فكل هذه النعم وجدت قبل أن يوجد الإنسان وسخرت له . . ووجدت بجلال وكمال قدرات الله سبحانه وتعالى . . لم يستطيع الإنسان أن يضيف إليها شيئا . . فلا هو اخترع غلافا جويا جديدا . . ولا أوجد أرضا أخرى كبيرة أو صغيرة . . ولا استطاع أن

الأمثال في القرآن الكريم

يعطينا شمساً صناعية تفعل لنا ما تفعله الشمس التي خلقها لنا الله . . . ولا أوجد نجوماً وكواكب . . . ولا استطاع أن يوجد بحاراً أو أنهاراً أو ماءً صناعياً يشرب منه الناس . . . وكل ما أعطاه الله سبحانه وتعالى للعقل البشري من تقدم هو في ترف الحياة وسهولتها . . . فأصبح الماء يصل إليك في مكانك . . . وأصبحت تدوس على زر فيصنع لك الشيء في دقائق . . . وأصبحت تركب سيارة وطائرة وصاروخاً . . . كل هذا زيادة في رفاهية العيش . . . ولكن النعم الأساسية التي بها مقومات الحياة . . . هي من خلق الله منذ بداية الكون .

إذن فمن كمال صفات الله . . . أنه ليس محتاجاً لعبادة خلقه . . . ذلك لأن هذه الصفات هي التي أوجدت كل شيء في هذا الكون قبل أن يوجد الإنسان فيه . . . وإنما منحه السماء من أجلنا نحن عباد الله ، حتى نستطيع أن نتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، فيعزنا بفضلته . . . ويتغمدنا برحمته . . . ويمتتنا بقدراته . . . ولو إننا لم نعلم بواجب العبادة ما نقص ذلك من ملك الله شيئاً ولا من كماله . . . ولا من جلاله . . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل بمنهج السماء فهو رحمة لنا . . . قوة لنا في الدنيا وعز . . . ونحن نعرف أن الله يدافع عن الذين آمنوا . . . وأن الله معنا . . . ونعيم لنا في الآخرة بقدرات الله سبحانه وتعالى . . . لا يمكن أن نصل إليه ولا إلى شيء منه بقدراتنا نحن . . . ولذلك فإن كل عاص لله . . . لا يضر الله شيئاً . . . ولكن ، أي هذا العاصي أو الكافر هو الذي يخسر . . . ويحرم نفسه من نعيم الله سبحانه وتعالى .

تقريب الغيب

وكما اقتضت قدرة الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وتسخيرها للإنسان . . . اقتضت رحمته أن يضرب في منهجه الأمثال . ليقرب إلى عقولنا المحدودة ما هو غيب عنا . . . ذلك أن هناك أشياء حسية أطلعنا الله عليها . . . وجعلنا نحسها ونراها . . . وأشياء أخرى اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تظل غيباً عنا كاختبار وامتحان إيماني . . . لذلك لم يطلعنا عليها وإن أخبرنا بها . . .

الأمثال في القرآن الكريم

وكان يجب على العقل البشرى .. أنه مادام قد وصل إلى اليقين بالله سبحانه وتعالى ، فيكفى أن الله قال .. فيصبح ذلك قضية إيمانية .. ولكن الله سبحانه وتعالى علم أنه سيأتى مضللون .. وأن هؤلاء المضللين .. تؤيدهم شياطين الإنس والجن .. سيحاولون أن يهزوا الإيمان فى القلوب .. وأن يشككوا الناس فى عقيدتهم .. ولا مجال فى ذلك إلا فى استخدام ما هو غيب لا نستطيع أن نراه أو نلمسه .. ذلك أن الرؤية عين يقين .. فهادمت أنا أراك أمامى فلست محتاجا إلى دليل آخر يقول لى أنك موجود معى فى الحجرة .. ولكن إذا كنت لا أراك فأنى أبحث عن دليل .. كأن أسمع صوتك .. أو أحس بحركتك .. إلى آخر هذه الأدلة المحسوسة .

هنا يأتى المضللون .. يحاولون التشكيك .. ليس فيما نراه .. ولكن فيما لا نراه .. ومن هنا يبدأ حديثهم .. محاولين أن يصلوا إلى ستر هذه الحقائق المخفية عن النفس البشرية أو إنكارها .. ورحمة من الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى .. ورحمة بالمؤمنين .. ضرب هذه الأمثال ليقرّب ما هو غيب عنا بشيء محسوس لنا .. ولا يقربه بالمثل (بكسر الميم) .. بل يقرب الفكرة نفسها بالمثل (بفتح الميم) .

فالله مثلا لا زمن عنده .. الأحداث عنده سبحانه وتعالى لا تخضع للزمن ولا لأية قيود .. ولكن لأن الإنسان يحكمه الزمن .. فكل مقاييس حياته منذ ولادته حتى مماته .. محسوبة بالزمن .. فهو يكبر بمرور الوقت .. وهو لا يفعل شيئا إلا ولا بد أن يستغرقه زمن معين .. طال أو قصر .. وهو محدود بهذا الزمن .. ولذلك فعقله لا يستطيع أن يتصور أو يتخيل أن هناك أحداثا غير محكومة بالزمن .

والزمن مخلوق لله سبحانه وتعالى .. أى أن الله هو الذى خلق الزمن .. دوران الأرض حول نفسها من خلق الله .. ودوران الأرض حول الشمس من

الأمثال في القرآن الكريم

خلق الله .. وهو الذى جعل العام اثني عشر شهرا .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

.. إذن فالزمن مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى .. والمخلوق لا يتحكم في الخالق .. بل الخالق هو الذى يتحكم في المخلوق .. يشكله كيف يريد .. أو يجعله عندما بعد خلق .. فتلك قدرات الخالق جل جلاله .
يأتى الله سبحانه وتعالى فيقول في كتابه العزيز :

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۗ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الحج)

ويقول جل جلاله :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۗ ﴾

(من الآية ٤ سورة المعارج)

ويقول مالك يوم الدين ولا يحدده بزمن إلا أنه يوم .

ويقول العقل البشرى .. هل اليوم ألف سنة .. أو خمسين ألف سنة .. أم ما هو اليوم عند الله .. إن اليوم الذى نعرفه من شروق شمس إلى مشرق شمس أخرى .. أو من غروب شمس إلى غروب شمس مرة أخرى اليوم .. ذلك اليوم الذى نعرفه .. فما هو اليوم عند الله تبارك وتعالى ؟ .

إن هذا الاختلاف في زمن اليوم .. يفتح أمام العقل البشرى ويقرب إليه معنى نسبية الزمن .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه لا زمن عنده .. وأنه هو الذى يخلق الزمن .. فإن أراد أن يخلق يوما مقداره ألف

الأمثال في القرآن الكريم

سنة .. قال له كن فيكون .. وإذا أراد أن يخلق يوماً مقداره خمسين ألف سنة .. قال له كن فيكون .. وإذا أراد أن يخلق يوماً مقداره مليون سنة .. قال له كن فيكون .. وإذا أراد أن يخلق يوماً كيوم الدين .. يعلم الله سبحانه وتعالى وحده متى زمن هذا اليوم .. قال له كن فيكون .. وهكذا فإن الله قادر على أن يخلق ألف سنة في يوم واحد .. وقادر على أن يخلق يوماً واحداً يساوي خمسين ألف سنة مما نحسب نحن ونعد .. وإن أراد أكثر من ذلك أو أقل .. قال كن فيكون .

إذن فمقاييس الزمن لا تحكم الله سبحانه وتعالى .. ولكنه هو الذى يحدد مقاييس الزمن . ومادامت مقاييس الزمن غير موجودة .. ولا تحد من قدرة الله .. فالله يستطيع أن يخلق يوماً مقداره ٢٤ ساعة .. وأن يخلق يوماً مقداره ألف سنة أو خمسين ألف سنة .. أو مائة ألف سنة أو مليون سنة .. فهو الذى يخلق ويختار .

فإذا قال الله سبحانه وتعالى يوم الدين .. فهو الذى يملك كل هذا اليوم بكل خصائصه وبدون أى مقاييس بشرية .. يحدد بدايته ونهايته .. فيستطيع أن يجعله لحظة .. ويستطيع أن يجعله ملايين السنين مما نحسب نحن .

إذن هذا الخلاف .. أو الاختلاف الذى ساقه الله سبحانه وتعالى فى زمن اليوم ، إنما أراد أن يقرب به إلى عقولنا .. كيف أن الله سبحانه وتعالى لا زمن عنده .

رحمة بالمخلوق

نأتى بعد ذلك إلى الأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى .. فنجدها جميعاً فيها رحمة لعباد الله .. فهى تحاول أن تقرب إليهم ما هو غيب عن العقل البشرى لا يستطيع أن يصل إليه .. وهى تقرب إلى عقولنا الجزاء الذى يعطيه

الأمثال في القرآن الكريم

الله لنا سبحانه وتعالى في الآخرة .. سواء كان هذا الجزاء عقابا أو ثوابا .. وهي تقرب إلينا معنى الحياة كلها .. منذ بدء الخلق حتى نهايته .. وهي تلفتنا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى في غير ما نراه .. حتى نعرف يقينا أن الله الذي خلق الناس جميعا .. وأعطاهم حقا متساويا .. يدافع عن كل خلقه بنفس القدر وبالتساوي .. وهو كما يحمي حقوقنا من غيرنا ، يحمي حقوق غيرنا منا .. وهو يلفتنا إلى حق الفقير والضعيف وكبير السن والوالدين .. وكل من له حق علينا .. حتى تكون حركتنا في الحياة حركة صحيحة .. ثم بعد ذلك يعطينا الأمثال عن مواكب الايمان وكيف تتم .. والمهلكات في الدنيا وكيف تحدث .. وما هو ظاهرها وباطنها .. كل ذلك بأسلوب يجعل الفكرة تدخل إلى عقولنا لفهمها بمقاييس عالمنا المحس .. ولو أن القدرة هنا مختلفة ، والقوة مختلفة .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء .. ولا بد في كل حدث .. أن ننسب الحدث إلى الفاعل .. أو إلى قدرة الفاعل .. فلكل إنسان قدرات متفاوتة .. فإذا قال لك أغني أهل الأرض أنه سيعطيك منحة .. وقال لك أفقرهم أنه سيعطيك منحة .. فكلاهما استخدم نفس اللفظ ، وهو كلمة (منحة) .. ولكن هل تساوى اللفظ في المعنى ؟

نجد هنا أن اللفظ رغم أنه واحد .. إلا أن هناك تفاوتا كبيرا في المعنى .. ما الذي أوجد هذا التفاوت .. نسبة الفعل إلى الفاعل .. ذلك هو التفاوت الذي جعل اللفظ مختلفا تماما .. فأفقر أهل الأرض قد يعطيك قطعة صغيرة من الخبز أو شق تمرة .. وأغني أهل الأرض قد يعطيك ملايين الجنيهات .. كلاهما منح .. ولكن هل تساوت المنحة .. أم أنه كان هناك تفاوت كبير لأن الفاعل مختلف .

فإذا نقلنا القدرة إلى الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء .. إذا قال الله سأمتعك .. وقال لك أحد أهل الأرض سأمتعك فاللفظ واحد .. ولكن هل المعنى واحد ! .. أبدا .. المعنى الأول ينسب إلى قدرات الله الذي ليس كمثله

الأمثال في القرآن الكريم

شيء .. فيكون المتاع بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. أما الفعل الثاني فيكون على قدرات البشر المحدودة .. وهو المخلوق الضعيف .. فما يستطيع أن يقدمه .. هو لا شيء بجانب ما تستطيع أن تعطيه قدرات الله سبحانه وتعالى .

إذن فالأمثال التي يضربها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم تقرب المعنى فقط ، وتجعله محسوسا للناس .. حتى إذا جاء من يضل .. وقال إن هذا الكلام فوق قدرة العقل وحاول أن يشكك فيه .. نقول له إن الله سبحانه وتعالى رحمة بنا قد ضرب لنا مثلا يقرب المعنى .. والأمثلة التي يضربها الله سبحانه وتعالى قد تكون في القرآن وقد تكون في الحياة نفسها .. فمثلا ما قاله الله عن خلق الإنسان .. وأطوار هذا الخلق من تراب ثم من صلصال .. ثم من حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه .

أمثلة من الحياة

يأتى المضلون ليجادلوا في هذا مع أنهم لم يشهدوا الخلق .. ويحاولون أن يشككوا في القرآن الكريم .. ولكن الله سبحانه وتعالى جعل في الحياة قضية محسوسة وهى الموت .. لترد عليهم وعلى اضلالهم .. فالموت نقض للحياة .. والشئ الذى ينقض .. أول ما ينقض فيه هو آخر ما تم فيه .. فالعمارة يبدأ هدمها من آخر طابق ارتفع اليه البناء .. وأنت حين تذهب إلى الاسكندرية مثلا .. وتريد أن تعود مرة أخرى ، فإن أول خطوة في العودة هى آخر خطوة في الذهاب .

فلننظر ماذا يحدث في الموت وهو نقض للحياة .. أول ما يخرج من الإنسان هو الروح أو النفس .. وهو آخر ما دخل فيه .. هذه النفخة تتوقف ، فيكون هذا أول نقض للحياة . ثم يتعفن بعد ذلك ويصبح طريا كالصلصال .. ثم يصير ترابا ويعود إلى الأرض .. هذا هو نقض الحياة ، وهو أمر غيبى عنا ..

الأمثال في القرآن الكريم

وهكذا شاءت ارادة الله سبحانه وتعالى . . أن تجعل الموت مثلاً محسوساً عما هو غيب عنا وهو خلق الحياة .

الإنسان يضرب مثلاً

على أن الله سبحانه وتعالى قد ضرب لنا الأمثال وسمع الأمثال التي يضربها الناس برسول الله ، محاولين التشكيك في الإيمان . فرد عليها . . وهذه الأمثال رغم إنها قد مر عليها أكثر من ١٤٠٠ سنة . . فما زالت كما هي تستخدم في الاضلال .

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة يس :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

وهكذا أراد الإنسان العاجز وغير القادر على أن يضرب مثلاً الله القادر سبحانه وتعالى . . فتساءل الإنسان عمن يحيى العظام وهي رميم بعد أن تصبح تراباً . . ورد الله سبحانه وتعالى على ذلك بأن المعجزة أمامكم . . فهذه العظام أين كانت قبل أن توجد وتخلق . . كانت تراباً مثلما هي الآن . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلقها من التراب ، ألا تستطيع قدرته أن تعيد خلقها مرة أخرى من التراب . . علماً بأن إعادة الشيء أسهل من عمله أول مرة . . وإن كانت قدرة الله لا تعرف الصعب ولا السهل . . على أننا سنتناول هذا المثل بالشرح في فصل قادم .

وتلك الأمثال

على أننا لا بد أن نلفظ أن الله سبحانه وتعالى حين يضرب الأمثال في القرآن الكريم . . يأتي بالأمور مجتمعة . . ولا يأتي بها فرادى . .

الأمثال في القرآن الكريم

ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة البقرة)

إذن فهو قد جاء بالأمر جامعا ولم يأت به فرادى .. فلم يبدأ بأن الناس جمعوا الحطب .. ثم ذهبوا إلى مكان كذا ثم أشعلوا النيران .. بل جاء به مكتملا .. وقول تعالى :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الكهف)

كأنه جاء بالحياة كلها مجتمعة ولم يأت بتفصيلها .. ولكن جاء بها من أولها إلى آخرها .. وهو يريد أن يضرب مثلا حالة بحالة .. دون الدخول في تفاصيل .

كما يلاحظ في الأمثال أنها تأتي مطلقة .. بمعنى أنها لا تنطبق على حالة معينة .. أو زمن معين أو أفراد معينين .. حتى الأفراد الذين يضرب الله المثل بهم لا يأتي بذكر أسمائهم .. لماذا؟ .. لأنه ليس المقصود هو الفرد ولا الحالة بعينها .. بل إن هذه الأمثال تتكرر في الدنيا وفي كل العصور .. الذي قال : « أوتيته على علم عندي » .. موجود منه الألوف في هذا العصر .. وفرعون الذي يطغى ويستبد ويريد أن يعبد في الأرض .. موجود منه عشرات من الحكام الذين ينصبون أنفسهم آلهة .. والذين يستبدون ويعذبون الناس ويملاؤون السجون .. والمعتقلات .. وغيرهم من الأمثال التي ضربها الله سبحانه وتعالى .. كمثال صاحب الجنتين الذي كان مزهوا بما يملك .. وأصحاب الجنة الذين أقسموا « ليصر منها مصبحين ولا يستثنون » .. والذين حاولوا أن يأكلوا حق الفقير واليتيم والمسكين فيما أعطاهم الله من مال .. وفيما أعطاهم من رزق .. والكفار الذين يحاولون أن يضلوا الناس بغير علم ويزينوا لهم السوء ..

الأمثال في القرآن الكريم

كل هؤلاء وغيرهم ممن ضرب الله بهم مثلا في القرآن الكريم . . تتكرر قصصهم في كل عصر . . وتجدهم في كل زمن . . . بل إن أولئك الكفار الذين يقولون « وما يهلكنا إلا الدهر » ومحاولون إنكار وجود الله . . هم أيضا موجودون بنفس الحجج التي قيلت وبنفس الأمثال .

الله يتحدى

على أن الأمثال في القرآن الكريم لا تقتصر على ذلك . . بل إن فيها تحديا للبشرية كلها مثل قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجتمعوا لَهُ ۗ وَإِنْ يَسْلُبهمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۗ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۗ ﴾

(سورة الحج)

وفي هذا يتحدى الله سبحانه وتعالى البشرية كلها . . بالعلم الذي سيحققونه أنهم لن يصلوا إلى خلق ذبابة . . ولا إلى استرجاع ما يأخذه الذباب من طعامهم أو شراهم . . وهذا دليل على ضعفهم (مما ستحدث عنه بالتفصيل في الفصول القادمة) . . على أن هذا التحدي في خلق أضعف المخلوقات وهي الذبابة . . يريد الله أن يؤكد به أن البشرية قد تصل إلى القمر . . وإلى المريخ . . ولكنها لن تستطيع أن تصل إلى سر خلق الحياة أو المادة الحية . . فهي ستظل عاجزة على مر السنين عن ذلك .

كذلك ضرب الله الأمثال في دقة الخلق بالنسبة لخلق البعوضة ، وما فوقها ، أي ما هو أدق منها .

الأمثال في القرآن الكريم

إلى هنا نكون قد بيننا أن الله سبحانه وتعالى بضربه الأمثال في القرآن الكريم ، يريد أن يقرب إلى الذهن البشرى أشياء هي غيب عنه . . وأن يجعل فكرة هذه الأشياء قريبة دون أن يطلع الإنسان عليها . . أو يكون التشبيه بالمثل . . وأنه في هذه الأمثال التي تناولت ستر وجود الله ومصير المكذبين . . والجنة التي وعد بها المتقون . . ومواكب الرسل . . ومواكب الايمان . . إنما قد تناولت أمثالا لا يتكرر حدوثها في كل عصر . . لتظل الموعظة دائمة . . كما تناولت تقريب المفاهيم ليتمكن الرد على ادعاءات المضلين . . والله سبحانه وتعالى قد لمس بهذه الأمثال جوانب كثيرة في حياة البشر .

ومن الأمثال التي ضربها الله في القرآن الكريم مثل مواكب الرسل وبشرية الرسول ، والتكذيب الذي يقابل به . . وكيف أن المكذبين لا يكتفون بانكار رسالة الرسول وعدم الايمان بها . . بل يحاولون ايداءه هو والمؤمنين . . وكيف تسير مواكب الايمان بعد ذلك . . وكيف يقابلها هؤلاء المكذبون . . هذا المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى . . ينطبق على مواكب الرسل منذ بداية الرسالات السماوية وحتى نهاية الدنيا . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثاني

مواكب الرسول

مواكب الرسل

نبدأ بالمثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى عن مواكب الرسل والرسالات .. وكيف يقابلها أهل الأرض .. والمثل الذي ضربه الله حول هذه القضية لا يزال يعيش بيننا حتى الآن ، بالرغم من انتهاء الرسالات . وما زال نفس الجدل الذي أنبأنا الله عنه نسمعه .. وكأنما كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يحصننا ضد هذا الجدل .. وضد الذين يضلون عن سبيله .. وأعطانا المثل عنهم .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ لَيْلًا لَمَّا تَنْهَوُنَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ فَعَزَّزْنَا بِكُم مِّنْ لَّيْلٍ لَّمْ يَنْهَ الْأُولَىٰ وَكَذَّبْتُمْ بِهِ فَسُحْقًا لِّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَئِيرُكُمْ مَعَكُمْ أَنِ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة يس)

نتوقف عند هذه الآية لنشرح الجزء الأول من المثل الذي ضربه الله لمواكب الرسالات ..

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾

(سورة يس)

مواكب الرسل

ولم يقل تبارك وتعالى أية قرية . . . ومن هنا . . . فإن هذا المثل ينطبق على كل قرية . . . أو كل جماعة من الناس تسكن قطعة من الأرض فيها نعمة من نعم الله يتمتعون بها . . . وقيمون عليها حياتهم .

لماذا قال الله « أصحاب القرية » ولم يقل أهل القرية . . . لأن الذين يقاومون رسالات السماء ويحاربون الرسل هم أصحاب النفوذ والسلطان الذين أترفوا في الحياة الدنيا وأعطاهم الله الجاه والملك . . . وفي غالب الأمر يكون باقى الناس تبعا لهؤلاء . . . أما خشية من نفوذهم وسلطانهم وإيذائهم . . . أو محاولة للتقرب منهم باعتبارهم الوسيلة المتاحة أو الظاهرة للحصول على نعم الدنيا . . . ولو علم هؤلاء الناس الحقيقة وآمنوا بأن الرزق بيد الله . . . وأن أصحاب النفوذ لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . . . لتغيرت الصورة تماماً . . . ولكن الناس تأخذ بظاهر الأشياء . . . وتعتقد أن صاحب النفوذ يستطيع أن يمنح ويمنع . . . ويمكن أن يعطى ويأخذ . . . ورغم أن الله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال في الحياة . . . فيصبح صاحب النفوذ والسلطان بين يوم وليلة وقد زال عنه كل شيء ويهرب من مكان إلى آخر . . . محاولاً إنقاذ حياته . . . لو تأمل الناس هذا لعرفوا أن الذى لا يستطيع أن يحمى نفسه ويبقى النعم التى يتمتع بها لا يستطيع أن يحمى أحداً أو يهبه شيئاً . . . وإلا لكان من الأولى أن يهب لنفسه ملكاً لا يزول ونفوذاً لا ينمحي . . . ولكن لأن الدنيا تمضى بالأسباب ، فيجعل الله سبحانه وتعالى إنساناً سبباً فى أن يجرى الله نعمته على إنسان آخر . . . ولكن المنعم عليه ينسى المنعم الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى . . . ولا يتذكر إلا الأسباب التى أعطته . . . وظاهر الشيء الذى أمامه . . . فيعتقد أن فلاناً يستطيع أن يمنح ويمنع . . . والحقيقة أن الله يجرى على يد من يشاء من عباده هذه النعم . . . وأنه لولا مشيئة الله ما أخذ أحد شيئاً .

ومن هنا . . . فإن المؤمن إذا جاءته نعمة نسب الفضل لله سبحانه وتعالى أولاً . . . لأنه يعرف أنه المنعم الحقيقى . . . وغير المؤمن إذا جاءته نعمة نسب الشيء للإنسان لأنه لا يؤمن بالله .

مواكب الرسل

ومن هنا جاء المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى بلفظ « أصحاب القرية » على أساس أن هؤلاء هم الذين يكذبون الرسل ويؤذونهم ، ويحاولون بما أتاهم الله من نعمه أن يبارزوا الله بالمعاصى .

لماذا يحاربون الرسل ؟

ولكن .. لماذا يحارب هؤلاء الذين أترفوا فى الدنيا .. لماذا يحاربون الرسل .. ؟ الجواب على ذلك أنهم يخشون على نفوذهم وسلطانهم من الحق ومن رسالات السماء .. ذلك أن هؤلاء الناس أقوياء بحكم ما هم فيه .. وهم فى قوتهم يظلمون ويأكلون الحقوق بالباطل ، ويفعلون ما يريدون دون ما مراعاة لحق الضعفاء .. وهم يتخذونهم عبيدا .. أو يجعلونهم يعملون من أجلهم ولا يعطونهم حقوقهم أو أجورهم .. أو يقننوا لأنفسهم أشياء تميزهم عن بقية أهل القرية بحجة السيادة أو حقوق الحكم إلى آخر ذلك .. ولكن الله سبحانه وتعالى لا يعرف صاحب نفوذ .. ولا يحابى أحدا .. فهو العدل المطلق .. يعدل بين الناس جميعا .. والرسالات السماوية أساسها حماية الضعيف من القوى .. وغير القادر من القادر ذلك أن القوى والقادر يستطيعان أن يصلا إلى حقوقهما وأن يجورا على حقوق غيرهما من الضعفاء .. ومن هنا فإن الرسالات السماوية تحرس حق الضعيف وتعيده إليه .. وتجعل الناس متساوين . لا فرق بين أحد ، تجعل الاعتداء على حقوق أضعف الضعفاء كالاعتداء على حقوق أقوى الأقوياء .. كلاهما جريمة لها عقاب .. والعقاب متساو لا ينظر إلى نفوذ أحد .. ولا إلى مركزه .. ولا إلى مقامه .. وإنما ينظر إلى الجريمة نفسها .. ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جاءوه يتشفعون فى امرأة من عائلة شريفة سرق ، ويريدون ألا يقيم عليها الحد .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف منهم تركوه . وإذا سرق

مواكب الرسل

الضعيف منهم أقاموا عليه الحد . . والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها . ﴿

هذه هي رسالات السوء التي لا تميز بين شريف وضعيف . . وتحاسب الناس بأعمالهم . . وليس بأنسابهم ولا بنفوذهم ولا بأموالهم .

ومن هنا فإن أول من يقاوم رسالات السوء ويحاول أن يكذبها هم أصحاب الجاه والنفوذ والمال والسلطان ، لأنها ستجرد هؤلاء من ميزات حصلوا عليها بالباطل وفرضوها . . وستجعلهم مساوين للضعفاء في الحقوق والواجبات . . وستقضي للضعيف من القوى . . فإذا رأوا أن ذلك هو زوال لنفوذهم وذهاب لسلطانهم ، كانوا أول مكذب للمحافظة على جاه الدنيا وزخرفها . إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا في أول المثل إلى أن الذين يقفون موقفا معاديا من رسالات السوء هم أصحاب النفوذ والسلطان والترف .

تعاقب الرسالات

ويمضي الله سبحانه وتعالى في ضرب المثل :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ

أَسْنِينَ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِتَالِثٍ ﴿

(سورة يس)

هنا يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أنه قد أرسل إلى بني آدام أكثر من رسول . . وذلك ليعلم الناس أن هناك مواكب رسالات . . أولئك الذين عاشوا في الأيام الأولى يعرفون أن هناك رسلا ستأتي بعدهم . . وأولئك الذين يعيشون

مواكب الرسل

بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون أنه كان هناك موكب للرسل انتهى بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .. وقد أنبأ الله في القرآن عن الرسل السابقين .. وذلك من رحمة الله بعباده .. أنه لم يرسل رسولا واحدا فقط .. لماذا؟ .. لأنه لو أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا في أول البشرية بتعاليم من الله .. ثم بعد ذلك تعاقبت الأجيال .. وأخذ كل جيل جزءا من رسالة الله .. لضاعت الصورة كلها .. ولجئنا يوم القيامة مجادلين بأن ما وصلنا عن الله سبحانه وتعالى هو غير ما أراده الله .. وهنا لا يكون الحساب عدلا .. ولكن الله سبحانه وتعالى أرسل مواكب الرسل لتبين وتظهر ما حرّف في الرسائل السابقة .. وما أخفى عن الناس .. وما نسى بقدوم العهد .. كل رسول يعالج الداءات التي حدثت .. والانحراف عن منهج الله الذي تم .. وكان هناك أكثر من رسول في وقت واحد كإبراهيم ولوط وعليهما السلام .

ثم حين جاء الكتاب الخاتم وهو القرآن الكريم .. وحتى يضمن الله أن يصل هذا القرآن إلى عباده كما نزله ، تعهد الله تبارك وتعالى فقال :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهكذا فإن الحفاظ على القرآن الكريم حفاظ من الله تبارك وتعالى .

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴿٢﴾ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة فصلت)

وهكذا كانت خاتم الرسائل يحفظها الله .. وتصل إلى البشر وليس فيها إخفاء ولا تبديل .

وقد يتساءل البعض .. لماذا لم ينزل الله سبحانه وتعالى الذكر من عهد آدم مرة واحدة ، ويحفظه الله من أول الخلق إلى يوم القيامة؟ ..

مواكب الرسل

نقول .. إن الدنيا في أولها كانت مجتمعات صغيرة متباعدة قد يعيش مجتمع منها ويفنى دون أن يعرف شيئا عن المجتمع الآخر .. ولذلك كانت الداءات مختلفة .. اقتضت رسولا إلى كل أمة .. ليعالج داء انتشر فيها .. حتى أن الأمر اقتضى كما قلنا ، أن يكون هناك أكثر من رسول في وقت واحد .. ثم تقدم العالم .. وزالت بينه فوارق الزمن والمكان .. بحيث أصبح ما يحدث في مكان يصل إلى المكان الآخر في أيام .. ثم في ساعات .. ثم تقدم الزمن وأصبح ما يحدث في أى مكان يصل إلى العالم كله في دقائق معدودة .. وهكذا توحدت الداءات .. وأصبحت وحدة المعالجة ضرورية فتزل القرآن الكريم ليعالج قضية موحدة .. هي قضية البشرية كلها .. نزل للناس كافة .. لأن الداءات قد توحدت .. وأصبح لا بد من وحدة المعالجة .

على أن الرسالات السماوية في جوهرها ودعوتها للتوحيد واحدة .. وإن اختلفت في أحكام أخرى بما يلائم تطور الزمن .. فإنه يجمعها جميعا :

أنه لا إله إلا الله .. وأن المعبود الحق هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له .

لماذا الرسل ؟

وقبل أن نمضي في شرح المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى ، لا بد أن نشرح لماذا جاءت الرسل ؟ .. ولقد بينا في الفصل السابق أن الرسل أساسا قد جاءوا لتبليغ منهج الله في افعال ولا تفعل .. وأن الانسان يستطيع أن يهتدى بعقله إلى أن هناك خالقا للكون كله هو الله سبحانه وتعالى .. ولكنه لا يستطيع أن يعرف ما هي مرادات الله من خلقه .. ولا كيف نعبد الله .. وكيف نشكره على نعمه .

مواكب الرسل

والله يبين ذلك في القرآن الكريم فيقول في سورة ابراهيم :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ
مَنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَنِّحَ كُرْحَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

إذن فأساس الرسالات السماوية وهو الرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى .. الرحمة بخلقه وعباده الخطائين .. وكل ابن آدم خطاء .. والله سبحانه وتعالى خلقنا ليمتعنا بالجنة .. وينعمنا نعيما أبديا على حسب قدراته هو سبحانه وتعالى .. وهذا تكريم لبني آدم .. وأراد أن يجعل الدنيا اختبارا لحب الله في قلوبنا .. فمن أحب الله وأخلص له فاز بالجنة .. ومن عصى الله وخالفه واستهان بأوامره .. عاقبه الله سبحانه وتعالى بالنار .. ولقد وضع الله للحياة الدنيا دستورا .. فيه صلاح البشر .. ولا يوجد من هو أعلم من الله بالحياة الآمنة الطيبة الكريمة للإنسان .. فالله هو صانعنا .. وصانع الشيء هو الأدرى والأعلم بما يفسده ويصلحه .

ولقد خلقنا الله مختارين .. قادرين على المعصية .. وقادرين على العبادة .. لأنه أرادنا أن نأتيه عن حب واختيار .. لا عن قهر كالمخلوقات التي خلقها الله سبحانه وتعالى ، مقهورة على طاعته كالملائكة .. ولذلك أسقط الله سبحانه وتعالى عنا القهر والإكراه .. فمن أتى بعمل الخير وهو مكره ومجبر ومقهور .. بينما هو في حقيقة نفسه لا يريد أن يعمل هذا الخير .. فلا يثاب عليه .. ومن أكره على عمل سوء ، وهو يريد خيرا لا يعاقب عليه مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النحل)

مواكب الرسل

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣٣)

(من الآية ٣٣ سورة النور)

إذن أساس الرسالات هو دعوة من الله سبحانه وتعالى للبشر لأن يتمتعهم في
الآخرة خالدين فيها متمتعين بنعم لا تزول .. تأتي إليهم بمجرد أن تجول في
خاطرهم .. وكل ما هو مطلوب من الإنسان .. هو أن يتبع منهج الله الذي
يعطيه الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة .. وجات الرسل ليبشروا خلق الله برحمة
الله سبحانه وتعالى وإنعامه عليهم .. وهو بعد أن خلق لهم النعم في الدنيا ..
خلقهم فيها .. زاد فضلا على فضل .. بأن خلق لهم الجنة لينعموا بها في
الآخرة .. ولذلك فإن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧)

(سورة الأنبياء)

يدل على أن منهج الله هو رحمة بعباده وخلقهم .. ودعوة للتمتع الحقيقي بنعم
الله في الدنيا والآخرة .

ومن رحمة الله أيضا .. أن منهجه هو تثبيت للإنسان في حياته الدنيوية ..
ذلك أن الله قد خلق الدنيا وخلق لها أسبابها التي تعمل بها .. ولكن هذه
الأسباب ليست قيادا على المسبب .. ولا تعمل بذاتها .. أو تعطى بذاتها ..
وإنما تعمل وتعطى بإرادة الله الذي له طلاقة القدرة التي هي موجودة ونراها جميعا
في ضعيف ينصره الله على قوى .. وفي مظلوم ينصره الله على ظالم .. وفي
أحداث في الدنيا لا تمضي بالأسباب .. فكلمة (ربنا موجود) .. أو (ربنا

مواكب الرسل

كبير) .. أو (ربك يجهل ولا يهمل) .. كلها كلمات ردها كل واحد منا في حياته .. وهذه الكلمات لا تقال إلا إذا ظهرت طلاقة القدرة في حدث مر بنا .. ذلك أنه إذا انتصر قوى على ضعيف .. فتلك تتطلب منا أن نتذكر قدرة الله ونقول (ربنا موجود) .. ولكننا لا نقول هذه الكلمة إلا إذا تعطلت الأسباب .. وصارت ارادة المسبب عكس ما تعطيه الأسباب .. ومن هنا فإننا نصيح من أعمقنا لأننا نرى قدرة الله مجسدة أمامنا في حدث من الأحداث .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت عباده المؤمنين ومن هنا فإن رسالات السماء تأتي لتؤكد أنه إذا عزت الأسباب على المؤمن .. فإنه يرفع يديه إلى السماء ويصيح يارب .. لأنه يعلم أنه إذا كانت الأسباب لا تعطيه .. فإن المسبب قادر أن يعطيه بدون الأسباب .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول ..

﴿ إِيَّاهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يوسف)

وما الذي يحدث عادة حين تضيق الأسباب بالناس .. وتغلق الدنيا أبوابها في وجوههم .. الكفار وغير المؤمن بالله يصيبه يأس قاتل ينتهي به إما إلى الجنون أو إلى الانتحار .. ولكن المؤمن يظل ثابتا .. لا ترعزعه الأحداث . بل يرفع يديه إلى السماء ويقول (يارب) .. وهو مؤمن بأن الله سيجعل له مخرجا .

وهكذا جاءت رسالات السماء لتثبت الذين آمنوا في الحياة الدنيا وتبشرهم بالجزاء العظيم الذي ينتظرهم في الآخرة برحمة من الله .. حتى يحيا حياتهم في الدنيا وهم مرفوعي الرأس بلا ذل لأحد .. ويحيا في حياتهم الآخرة وهم في نعيم مقيم لا يفارقهم أبدا .. هذا جزاء المؤمنين إن أحبوا الله وعبدوه .

والجزاء هنا على قدرات الله .. وليس على قدرات البشر .. والله سبحانه وتعالى لا يطلب منهم رزقا ولا مالا .. وإنما يطالبهم بالعدل والاصلاح

مواكب الرسل

والصلاح .. إذن فالرسل جاءوا مبلغين لمنهج الله : . مبشرين من أطاعوه ..
منذرين من عصوه .. مثبتين الذين آمنوا أمام أحداث الدنيا وتقلباتها .

بشرية الرسول

وتعنى الآية الكريمة وهي تورد حجج الكافرين منذ إرسال الرسل وحتى هذه
الساعة .. تقول الآية :

﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾

(الآية ١٥ سورة يس)

وهذه الحجة .. حجة تكذيب الرسول لأنه بشر استخدمها الكفار من عهد
نوح ويستخدمونها حتى الآن .. محاولين بذلك أن يصلوا ببشرية الرسول إلى أن
الله سبحانه وتعالى لم يرسل شيئا .. حتى أننا في هذه الأيام لا نزال نسمع من
يقول إن محمدا كان بشرا يصيب ويخطيء .. وأن قوله يؤخذ ويترك .. بل إن
أساس طعن المستشرقين في القرآن هو محاولاتهم كذبا وافتراء أنه قول بشر .. مع
أن قضية بشرية الرسول قضية حتمية .. ولو لم يكن بشرا .. لكان ملكا أو
مخلوقا من أى نوع آخر .. ولوجد من يطعن في الرسالة .. وسنين هذا
بالتفصيل .

رسالة الله سبحانه وتعالى هي للبشر .. ورسالة الله هي منهج لا بد أن يطبق
أمام الناس حتى يتبعوه .. وأن يكون هذا التطبيق صحيحا بواسطة بشر يوحى
إليه ، محروس من الله سبحانه وتعالى .. مؤتمن على تبليغ الرسالة .. ومن هنا
فإن الرسول الذى يأتى بمنهج السماء .. بلاغا عن الله .. إنما يطبق هذا المنهج
على نفسه أولا .. ولا يجعل أحكام المنهج تعطيه ميزة عن باقى المؤمنين ، ولذلك
إذا أردت أن تعرف هل هذا منهج حق .. أو منهج باطل .. أنظر إلى مبلغه أو
من يقدمه لك .. فإن رأيت أنه حقق ميزات لنفسه .. وجعل نفسه مميزا عن

مواكب الرسل

باقى الذين معه .. فاعلم أنه منهج بشرى وضعه صاحبه ليحقق ميزات ومكاسب لنفسه .. وإن رأيت أن هذا المنهج لا يحقق أى ميزة لصاحبه بل يساوى بين الناس جميعا .. ويتحمل صاحبة المشقة من أجله .. فاعلم أنه منهج حق .. ذلك أن مناهج وقوانين البشر الأساس فيها أنها تحقق ميزات لمن وضعوها أو للقائمين عليها .. فذلك هو سبيل المنهج البشرى .. يبيح لمن يضعه ما يحظره على الناس جميعا .. أما منهج السماء .. فإن أول من يتبعه هو الرسول .. ولا يأتي أبدا بشيء يخالفه ولا يحقق لنفسه ميزة فوق المؤمنين .

إذن فالرسول بشر .. جاء مبلغا بمنهج السماء .. وحياته هى التطبيق لهذا المنهج .. وهنا تكون بشرية الرسول حتمية .. لماذا ؟ .. لأنه لو أرسل الله ملكا لقال الناس يارب .. هذا ملك .. مخلوق من نور .. ونحن مخلوقون من طين .. له قدرات فوق قدراتنا البشرية .. ولذلك فقد كلفتنا يارب أكثر مما تطيق قدراتنا .. ولكن كون الرسول بشرا .. وكونه من بين قومه .. وكونه يطبق المنهج .. تسقط حجة هؤلاء جميعا .

إذن فبشرية الرسول محتمة .. حتى لا يقول الناس أن هذا المنهج موضوع لملك .. له فوق قدراتنا .. أو موضوع لمخلوق يتميز عنا فى القدرات والمخلق .. ولكن الله أتى ببشر .. اختاره من بين قومه .. حتى يكون شهيدا عليهم يوم القيامة .. فإن قالوا حججتنا أن المنهج كلفنا ما لا نطيق .. كانت هذه الحجة مردود عليها بأن هذا المنهج طبقه بشر مثلكم .. ولم يتحمل فوق ما يطيق .. وكان مثلا لكم لا بد أن تحتدوا به .. ومن هنا فإن عدم بشرية الرسول تكون حجة على الرسالة وليست حجة لها .. ومجالا للطعن فى عدم مناسبة التكليف للمكلف به .. ولكن لكون الرسول بشرا .. فذلك عين الحكمة .. لنقول أن هذا التكليف قام به بشر مثلنا ونحن قادرون على القيام به .

مواكب الرسل

وكان أجدر بهؤلاء الكافرين . . أنه مادام الرسول بشرا . . ومادام في قدراته القيام بالتكليف . . كان الأجدر بهم أن يناقشوا التكليف نفسه . . وكيف يدعو إلى الخير والرحمة وطيب الخلق والتسامح والتكامل . . وكل القيم العليا التي جاءت بها الرسالات السماوية . . وحتى هذه اللحظة نجد أن من يثير نقطة بشرية الرسول . . يحاول أن يدفع بها عن نفسه وغيره قراءة المنهج . . بالتقييم الصحيح . . وهو لأنه يحس أن هذا المنهج حق . . وأنه لا يستطيع أن يناقشه . . يدفع القضية كلها محاولا إثارة قضية بشرية الرسول ليتخذها حجة في أن يقول إنه مادام بشرا يخطئ ويصيب . . فلن آخذ عنه . . ولو أنه كان يريد النقاش حقيقة لناقش في هذه المنهج نفسه . . ولما هرب باثارة هذه القضية الوهمية التي هي ضده وليست له . . فبشرية الرسول حتمية لتطبيق الرسالة على أساس أنها للبشر . . وليست لمن يملكون قدرات غير بشرية .

فإذا قرأت الآن من يثير قضية بشرية الرسول . . فأعلم أنه لا يستطيع مناقشة منهج الله . . ولذلك فهو يحاول أن يهرب بكلام هو ضده وليس له .

الإسلام والقهر

وتمضى الآية الكريمة بعد أن ضربت لنا المثل بأن الكفار يستخدمون بشرية الرسول في محاولة لتكذيب الرسالات وإيهام الناس كذبا أنها ليست من عند الله . . تمضى الآية الكريمة :

﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة يس)

مواكب الرسل

حينما كذب أصحاب القرية المرسلين .. التجأ المرسلون إلى الله سبحانه وتعالى يشهدونه فقالوا :

﴿ رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكَ لَمُرْسَلُونَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة يس)

أى أننا لا نكذب على الله فى الرسالة التى جئنا بها .. ولماذا نكذب إذا كنا لا نحقق ميزة .. لو أننا جئنا بمنهج بشرى نحقق به ميزة لكان أول شىء نفعله أن نحاول ارضاء أصحاب النفوذ والجاه .. ذلك لأن هؤلاء هم الذين يملكون أسباب فائدتنا .. ومن هنا فلا يعقل أن نكون قد جئنا برسالة بشرية نعادى بها هؤلاء الناس .. لأن ذلك ضد منهج البشر .. وتصرف البشر .. فالإنسان عادة إذا أراد فائدة دنيوية يبحث أين هؤلاء الذين يملكون هذه الفائدة الدنيوية . ثم يبدأ فى نفاقهم .. ويضع المنهج الذى يعتقد أنه يرضيهم .. أما إذا جاء بمنهج يغضبهم به لأنه ينتزع ميزاتهم .. ويحاول أن يساوى بينهم وبين غيرهم .. فإنه فى هذه الحالة يتعرض لبطشهم .. بدلا من مكافأته منهم .. وفى هذا يكون المنهج الذى أتى به .. منهج حق .. وهؤلاء الرسل جاءوا بمنهج الحق .. وهم لا يحاولون أن يطبقوا ما أتوا به بالقوة والعنف .. بل هم يبلغون رسالات الله .. والله الذى خلق الإنسان مختارا .. ومتمتعا بحرية الاختيار .. فى أن يفعل أو لا يفعل .. يترك هذا الإنسان بعد أن تم ابلاغه برسالة ربه .. يتركه بعد ذلك ولا يقهره الله سبحانه وتعالى وهو قادر على ذلك .. لا يقهره على الإيمان .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله :

﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(من الآية ١٩ سورة يونس)

ويقول جل شأنه :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

مواكب الرسل

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ولذلك فإن مهمة الرسول ابلاغ منهج الله للناس .. والدعوة إلى الله بالقول .. والموعظة الحسنة .. ثم بعد ذلك من يدخل في دين الله ويؤمن .. يجب أن يدخل وهو راغب في الإيمان .. وهو مرید لهذا الإيمان .

وهنا نقطة لا بد أن نتحدث عنها .. ذلك أن عددا من المستشرقين يتهم الإسلام بأنه قد انتشر بالسيف .. وأن الناس كانوا يجبرون بين الإيمان أو القتل .. وأن الفتوحات الإسلامية هي التي نشرت الإسلام بالسيف .. وهذا قول يحمل بهتانا عظيما .. ذلك أنه لو كان الإسلام قد انتشر بالسيف .. لما وجد في الدولة الإسلامية غير المسلمين .. ولكن وجد في الدولة الإسلامية اليهود والنصارى .. وظلوا على دينهم لم يحاول أحد أن يقتلهم أو يدخلهم في دين الإسلام قهرا .. بل تركوا على دينهم .. وما تمتع هؤلاء بحرية العبادة وأمان الحياة إلا في ظل الدولة الإسلامية .. حتى أن أقباط مصر الذين كانوا يختفون في المغارات وقت الحكم الروماني .. قد خرجوا إلى الأفق في أيام الحكم الإسلامي .. وكانوا يؤدون عبادتهم في حماية الحكومة الإسلامية .

ومن هنا فإن القول بأن الإسلام قد انتصر بالسيف قول كاذب .. ولكن الإسلام استخدم السيف ليدافع عن حرية الكلمة .. وحرية العقيدة للبشرية كلها .. فقد كان دعاة المسلمين يريدون أن يعرضوا الإسلام على الأمم .. فيشرحوا الدين الجديد للناس .. وبعد إبلاغهم بالدين الجديد والحجج التي نزل بها القرآن .. بعد ذلك من شاء آمن .. ومن لم يشأ ظل على دينه .. وهكذا كان المسلمون يطالبون بحرية الرأي .. وحرية العقيدة وأن يعرضوا الإسلام على الناس .. ومن له حجة - والله الحجة البالغة - فليتقدم .. ثم بعد ذلك يترك حرية العقيدة لكل إنسان .

مواكب الرسل

ولكن حكام هذه الدول . قتلوا دعاة المسلمين . . ومنعوا المسلمين من أن يعرضوا دينهم على الناس . . وصادروا حرية الرأي وحرية العقيدة . . محاولين فرض دين الكفر . . وحملوا السيف ليمنعوا الإسلام من أن يصل إلى قلوب وآذان البشر . . وكان لابد دفاعا عن حرية الرأي والعقيدة أن يحمل المسلمون السيف . . ليضمنوا للبشرية حرية الرأي . . وحرية العقيدة . . ويخلصوها من جبروت فرض الكفر والاحقاد على الناس بالقوة . . وبعد أن وصلوا إلى الموقف الذى يستطيعون فيه ابلاغ تعاليم الإسلام للناس . . تركوا السيف وألقوا به بعيدا . . وبدأوا فى شرح تعاليم الدين . . ثم تركوا بعد ذلك كل إنسان حرا فى أن يدخل الإسلام أو يبقى على دينه . . فمن دخل الإسلام كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم بلا تمييز ، ومن بقى على دينه كانت له حرية العقيدة يحميها المسلمون .

لماذا العداة ؟

إذن فالرسل حين استشهدت بالله . . قالت ما علينا إلا البلاغ المبين . . أى أن الله سبحانه وتعالى كلفنا بأن نبلغكم منهجه . . فمتى أبلغناكم هذا المنهج . . نكون قد أدينا رسالة الله . . فالله سبحانه وتعالى هو الذى يحاسبكم . . ولكن هذا الكلام لا يعجب السادة والمترفين . . الذين يريدون أن تكون العزة فى الدنيا لهم قهرا . . بل إنه يؤرقهم . . لماذا ؟ لأنهم يحسون فى داخلهم أن الرسل سيجذبون الناس بمنهج الله . . وأن الإيمان الفطرى للنفس البشرية . . يدفع هذه النفس إلى منهج الله . . وتحس إن هى اتبعته بانسجام مع الكون ، وبالراحة والطمأنينة والسلام داخل النفس . . كما أن هناك داخل نفس كل كافر . . ما يجعله يحس أن المؤمن أفضل منه . . فهو يحاول أن يؤذيه . . ويتعمد أن يسخر منه . . وكلما رآه يحاول أن يهينه . . وما هذه المحاولات كلها . . إلا لأن شيئا داخله يجعله غير منسجم مع هذا الكون . . وهو يريد أن يخرج المؤمن من إيمانه ليصبح الاثنان سواء .

مواكب الرسل

وكان المفروض عندما أشهد الرسل وقالوا .. ما علينا إلا البلاغ المبين .. أى البلاغ الظاهر .. المؤيد بالحجة .. كان المفروض أن يتركوهم وشأنهم .. ولكنهم أبوا ذلك وأرادوا أن يتعرضوا للرسل بالأيذاء .. ولكن الرسل لم يجبروهم على شيء قهرا .. فقالوا « إنا تطيرنا بكم » .. أى إنا قد تشاء منا من وجودكم فى هذه القرية .. فدعوتكم للإيمان قد أفسدت الناس علينا .. وجعلتهم بعد أن كانوا خاضعين لنا خضوعا كاملا .. ينظرون إلينا على أننا متساوين معهم .. وهذا مالا نريده ولا نسمح به .. ثم ازداد هؤلاء الكفار فى بغيتهم على الرسل فقالوا لهم « إن لم تنتهوا لترجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم » .. أى أنهم أرادوا من الرسل أن يتركوا الدعوة لدين الله .. وأن يتركوا هذه الدعوة وينضموا إليهم كما عرضوا على رسول الله وعرضوا على عمه أبى طالب أن أراد مالا جمعنا له المال . وإن أراد ملكا ملكناه علينا .. محاولين بذلك أن يغروه لترك الرسالة .. والانضمام معهم إلى موكب الكفر .

وهكذا بدأ أصحاب القرية العداة .. وطالبوا رسل الله أن يتركوا الدعوة .. فلما فشلوا فى اغرائهم .. قالوا .. إذا لم تتركوا الدعوة للدين فأنا سنقتلكم رجما أو نعذبكم عذابا شديدا حتى تتركوه .. وهكذا عندما فشل الاغراء لجأ الكفار إلى التهديد .. بأن حاولوا أن يجعلوا الرسل يتركون الدعوة .. أو يتعرضون لأيذاء شديد .. وبذلك يكون العداة قد بدأ مع الكفار .. ويكونون بذلك هم الذين اتخذوا الخطوة الأولى فى العداوة لله .. وهم الذين بدأوا فى محاربة دين الله الذى لم يحاول أحد أن يفرضه عليهم .. ويكونون بذلك قد استحقوا عدلا عقاب الله ، لأنهم هم الذين بدأوا العداوة .. وبدأوا إيذاء الرسل الذين يدعون إلى الهداية وإلى الصراط المستقيم .. ورد الرسل فقالوا « طائركم معكم أين ذكركم بل أنتم توم مسرفون » .. أى أن هذا التشاؤم الذى تحملونه لنا هو من عند أنفسكم .. هو من ذاتكم .. وأنتم قوم تريدون أن تسرفوا فى الأرض .. وأن تبغوا وأن تأخذوا حقوق غيركم غصبا وبالقهر .. فإذا سمعتم كلمة العدل ضاقت بها نفوسكم .. وملاها التشاؤم .. لأنها تمثل بداية النهاية

مواكب الرسل

بالنسبة للظلم الذى تحاولون أن تفرضوه على الناس . . وأن تجعلوه هو دستور الحياة . . بينما الله سبحانه وتعالى قد جعل دستور الحياة هو العدل .

والاسراف هنا هو إعطاء النفس البشرية كل شهواتها واطلاق العنان لها . . لترتكب ما تريد وتشتهى دون ضابط من عدل أو احترام لحقوق الناس . . والله سبحانه وتعالى فى منهجه قال افعل ولا تفعل . . وفى قوله لا تفعل . . فقد قيد النفس البشرية من أن ترتكب ما تفسد به الحياة فى الكون . . وأن تعيش فى الحدود التى تضمن عدالة للجميع . ذلك أننا كلنا عبيد لله . . والله سبحانه وتعالى . . له عطاء ربوبية يعطيه لنا جميعا . . وهو لا يقبل العدوان إلا ردا للعدوان . . ولا يقبل الاعتداء بغير الحق . . ولكن النفس البشرية بطبيعتها تكره القيود وهى تريد أن تنطلق فى شهواتها وتسرف فيها دون ما مراعاة لحق . . وهذا الاسراف على النفس وليس لها . . لماذا ؟ لأنها قد أخذت نفعا عاجلا . . ولم تنتبه إلى الجزاء الذى ينتظرها فى الآخرة . . ذلك الجزاء الذى يؤدى بها إلى الهلاك . . ومن هنا فهى لم تقدم خيرا لنفسها . . بل تقدم شرا . . هكذا كان هذا الشر عليها وليس لها . . لأنها وإن حققت نفعا وقتيا فقد كسبت بذلك عذابا أبديا . . والعجيب أننا فى أمور الدنيا نحاول أن نعمل من أجل ما نعتقد انه نفع قادم . . فكل منا يرسل أولاده فى مرحلة طويلة إلى المدرسة ثم إلى الجامعة ويظل يسهر عليهم ويضنيهم فى المذاكرة ليحصلوا على درجة علمية ، ويعتقد أنها ستفهمهم فى المستقبل . . وربما قيد حركته وحركتهم أيضا من أجل ذلك . . ويأتى نفس الإنسان مع يقينه أن حياته ستنتهى وأنه سينقل إلى الحياة الآخرة ، نجده غافلا عن أن يعمل لآخرته ما عمله لدنياه . . وأن يطبق نفس المنطق الذى يطبقه على حياته الدنيوية . . مع أن هناك فارقا كبيرا بين مستقبل سيحققه لسنوات معدودة . . وبين نعيم مقيم سيخلد فيه ولا يموت أبدا . . ولكنها الغفلة التى تصيب القلب البشرى وتجعله ينظر إلى ما هو عاجل . . وإلى ما تقدمه له الدنيا . . وينسى ما هو قادم . . وهو لقاء الله فى الآخرة . . وتلك الغفلة التى

مواكب الرسل

تصيب القلوب ، سببها البعد عن منهج الله . . ولو أن كلا منا تمسك بمنهج الله
لربح الدنيا والآخرة .

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية الجزء الأول من المثل الذي ضربه الله
سبحانه وتعالى لنفهم معنى مواكب الرسل من بداية الخلق حتى نهايته . . ونكون
قد وصلنا إلى أن الله سبحانه وتعالى يريد بهذا المثل أن يخبرنا بأنه أرسل أكثر من
رسول ليزيح الغفلة عن قلوب الناس . . ويظهر ما أخفاه بعض الناس من منهج
الله وما نسوه وما حرفوه . . وأن مواكب الرسل وجدت أمامها في كل قرية أولئك
المقاومين للإيمان ، المكذبين برسالات الله . . وأن هؤلاء من الذين يخافون أن
ينزع دين جديد نفوذهم في الدنيا . . وأن مجردهم من ميزات حصلوا عليها
بالبغي والعدوان . . وأنهم لما وجدوا الدين الجديد لا يوافق أهواءهم ،
ولا يتمشى مع نزواتهم . . ولا يعطيهم السيادة . . بدأوا في حربه . . فقالوا إن
الله لم ينزل شيئاً . . وأن ذلك قول بشر . . ثم تمادوا بعد ذلك في تكذيبهم للدين
إلى محاولتهم اغراء الرسل بأن يتركوا الدعوة . . فلما فشل الأعداء . . بدأوا هم
بالعدوان وبالأيذاء . . فكان عقاب الله عدلاً . . حيث أنهم هم الذين بدأوا .

ثم يضرب الله بعد ذلك مثلاً لمواكب الإيمان التي جاءت في فترات بين الرسل
وبعد انتهاء الرسالات السماوية . . وكيف أن هذه المواكب ستستمر إلى يوم
القيامة ماذا فعل الدعوة إلى منهج الله . . واتباع ما جاء به الرسل . . وماذا فعل
الكافرون ليواجهوا هذه المواكب . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

حديث قدسى

لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . وجعل بين عين كل إنسان منهم وميضاً من نور . ثم عرضهم على آدم . فقال أى رب ، من هؤلاء ، قال هؤلاء ذريتك . فرأى رجلاً منهم أعجبه بياض ما بين عينيه ، فقال أى رب . من هذا ، قال هذا رجل من آخر الأمم يقال له داود . فقال رب : كم جعلت عمره . قال ستين سنة ، قال أى رب زده من عمري أربعين سنة . فلما قضى عمر آدم جاءه ملك الموت . فقال أو لم يبق من عمري أربعون سنة ، قال أو لم تعطها ابنك داود ، قال فجحد آدم . فجحدت ذريته . نسي فنسيت ذريته . وخطيء آدم فخطئت ذريته .

الفصل الثالث

مواكب الأسياف

مواكب الايمان

مواكب الإيمان ضرب الله لها أكثر من مثل وأكثر من قصة في القرآن الكريم . . كل تناول جانباً من جوانب الإيمان . . ولا يمكننا أن نستعرضها جميعاً في فصل واحد . . بل هي ستأتي تباعاً خلال الفصول القادمة .

على أننا إذا تعرضنا هنا لمواكب الإيمان . . فإننا سنتعرض للأمثال التي ضربها الله لمواكب الإيمان في عهد الرسل . . والتي ضربها الله لمواكب الإيمان في الفترات التي بين الرسالات . . وللمثل الذي أعطاه الله عن المؤمنين لأهل الكتاب من اليهود والنصارى .

حينما نبدأ بمواكب الإيمان نكمل المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى في سورة يس :

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾
اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي
وَأَلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي
شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنْ أَرَادَنِيَ ضُرًّا لَأَكْفُرَنَّ بِالَّذِي أَسْمَعُ
بِرَبِّي فَأَسْمِعُونِ ﴿٢٤﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ بِمَا غَفَرَ
لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

هنا مثل عن مواكب الإيمان في عهد الرسول . . فالذين يؤمنون برسالة الرسل وبالدين . . لا يقفون عادة عند حد الإيمان . . بل يكونون دعاة له . . ويحاولون أن يجذبوا غيرهم إلى الهداية . . وأن يجادلوا الكفار بالحجة . . عسى أن يؤمنوا

مواكب الإيمان

بالدين . . أى أنهم لا يقفون من مواقف الكفر موقف المتفرج . . ولا هم يتركون الرسول وحده يدعو . . بل هم مواكب إيماني مؤيد وداع لما جاء به الرسول . . وهذا الموكب يعانى من أذى الكفار كما يعانى الرسل . . ويضطهدون ويعذبون .
على أننا نلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾

ذلك أن مواكب الإيمان سواء كانت من الرسل أو من أولئك الذين آمنوا بالدعوة وصدقوا بها دائما تسعى لعرض الإيمان على غير المؤمن وشرحه له . . تلك هى سمات المؤمنين .

فالإنسان المؤمن يريد دائما أن يجذب غيره إلى الإيمان . . أولا لأن فى قلبه حب الله . . وهذا الحب يجعله يريد أن يلفت الدنيا كلها إلى الإيمان بالخالق . . وثانيا لأن فى قلبه الخير . . ومادام الخير فى قلبه . . فهو يريد للناس جميعا . . وهل هناك خير من الفوز العظيم الذى يفوز به الإنسان فى الآخرة . . إن المؤمن يعرف يقينا الجزاء والحساب . . وما فى قلبه من خير . . يجعله يريد للناس جميعا أن ينجو من العذاب . . ويفوزوا بخير الدنيا والآخرة . . وحبه لله يجعله يريد الدنيا كلها أن تشاركه هذا الحب العظيم .

وفى هذا يلفتنا الله فى أكثر من مكان لهذا السلوك الإيماني . فىقول فى سورة الأعراف :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۗ

قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

مواكب الايمان

والحوار هنا بين موكب الايمان وبين الكافرين .. والكفار يعاتبون المؤمنين في سعيهم الايماني .. ويوجهون إليهم اللوم ويقولون : « لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا » .. وكأنما يستكثرون الكفار على المؤمنين محاولاتهم المستمرة لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .. ولكن هذه هي طبيعة موكب الايمان .

وحتى لا يحاسب الله المؤمنين يوم القيامة أنهم شهدوا مواكب الكفر دون أن يعظوهم أو يذكرهم بالله .

وهذه التذكرة هي ثواب للمؤمن حتى ولو لم يهتد الكافر .. وكأنما المؤمن يتصرف من منطلق إيماني .. وبذلك تكون الرسالة قد بلغت على أيدي الرسل .. واستمرت بمواكب الايمان .. حتى لا يأتي أحد يوم القيامة ويجادل الله في أنه لم يعلم .. أو لم يبلغ .. فإذا اهتدى الكفار .. كان هناك أجران .. أجر لبيان الطريق المستقيم .. واستمرار البلاغ عن الله لعباده عن طريق الموكب الايماني .. وأجر على من اهتدى من غير المؤمنين ودخل في الايمان .. ثم يقول سبحانه وتعالى في سورة الرعد :

﴿ أَفَلَمْ يَأْتِئِسَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوِيَّسَاءُ اللَّهِ هَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

أى أنه رغم علم المؤمنين بأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يهدي الناس جميعا ويخضعهم له .. مع علمهم بهذه الحقيقة .. فإنهم يظنون مستمرين في موكبهم الايماني .. عسى الله إن شاء أن يجعل الهداية على أيديهم .. ومهما بلغ الكفر فإن المؤمن لا ييأس أبدا .. بل يظل يدعو للمبدأ الايماني وهو الذي يسعى .. وهو الذى يحث الناس على اتباع منهج الرسل وعلى طاعة الله .. فهذا

مواكب الايمان

الموكب الإيماني لا ينتهي أبدا مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم
(الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة)

موكب الإيمان مستمر

الله يريد في هذا المثل أن يفهمنا أن موكب الإيمان مستمر . . وأن المؤمنين يسعون دائما إلى تذكير غيرهم بمنهج الله وحثهم على اتباعه . . وهو يضرب لنا هذا المثل لأن الحياة قصيرة قد لا نستوعب نحن ما يحدث فيها . . ولذلك يريد أن يفهمنا أن موكب الإيمان مستمر في الدنيا دائما . . ثم يمضي المثل الذي ضربه الله .

﴿ قَالَ يَنْقُومِ آتِبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ آتِبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة يس)

هنا يريد الله أن يلفتنا إلى حقيقتين هامتين في موكب الإيمان والرسالة . . الحقيقة الأولى أن هؤلاء الناس يعيشون حياة شاقة في اصطدامهم بمن يحاولون استغلال المجتمع الإنساني والافساد في الأرض . . وفي نفس الوقت فإنهم لا يحصلون على أجر دنيوي . . فالرسل لا يطلبون من الناس مالا . . ولا يطلبون أن يعيشوا في قصور . . ولا يطلبون أن يعيشوا في حياة الثراء والترف . . بل هم لا يحصلون على ميزات كثيرة يتمتع بها عباد الله غيرهم . . وهم مثلا لا يتركون ميراثا لأهلهم . . بل إنهم كل ما يتركونه يذهب للصدقة ولا يرث أهلهم شيئا . . وهم في الزكاة أو أموال الصدقات التي يجمعونها لا يعطون منها أقاربهم ولو كانوا من مستحقي الصدقة . . بل إنني أريد أن أذكر آية كريمة نزلت في المدينة المنورة . . عندما بدأت غزوات المسلمين ، وبدأت معها الغنائم . . ومع الغنائم التي حصل عليها المسلمون كانت هناك رغبة من

مواكب الايمان

زوجات الرسول في بعض الغنائم .. وكان هذا إتجاها إلى الدنيا .. وإذا بالقرآن ينزل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكَ إِن كُنْتَن تَرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأَسْرِحُكُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتَن تَرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

سورة الأحزاب

وهكذا حددت هذه الآية الكريمة أن متاع الدنيا من فاخر ثياب ومال وغنائم وكل ما تقدمه الدنيا من زينة هو ليس لزوجات رسول الله .. حتى لا يكون هناك مطمع دنيوى .

إذن فالرسول لا يطلب أجرا ممن آمن .. وإنما أجره من الله .. وهو لم يطلب مالا ليبنى به قصورا ويحيط نفسه بمباهج العظمة . وهو لا يعطى أهله ولا أقاربه مالا أو فائدة باستغلال النفوذ ، إلى آخر ما يحدث بالنسبة للمناهج الدنيوية .. كل هذا لا يتم بالنسبة للرسول .. ولو تم لانحرف المنهج .. ولكان عند الناس عذر في عدم الإيمان ، لأنه يحقق فائدة دنيوية يسعى إليها غير المؤمن .. ولكن كون الرسائل هى مشقة يتحملها الرسول دون أن يطلب أجرا من أحد من المؤمنين .. أو يتميز عليهم .. أو يطالبهم بما لا يفعل .. وبما لا يلتزم هو به .. ومادام هو ملتزما التزاما تاما بالمنهج .. ومادام لا يستفيد من هذا يكون ذلك أدعى لأن نتبعه .

ولنسأل أنفسنا إذا كان هذا الرجل لا يتلقى منهاج من السماء .. فما هى فائدته فى كل المشقات التى يتحملها .. وفى كل الأذى الذى يقع عليه ..

مواكب الايمان

فلو كان هناك عقل . . لكان هناك اتباع للرسول الذى جاء بمنهج السماء . .
ولا يريد علوا فى الأرض ولا ثراء ولا نفوذا .

إذن فموكب الإيمان فى دعوته إنما يتخذ من الرسل قدوة . . ويقول للناس
اتبعوا من لا يسألكم أجرا ، ولا يريد أن يأخذ من أموالكم ليزيد هو فى ماله . .
ولا يحقق بواسطتكم جاهها فى الدنيا . . وهو فى نفس الوقت أكثركم التزاما بالمنهج
الذى يدعو إليه . . لا ينهاكم ثم يفعل هو .

قمة الحججة الإيمانية

ثم يمضى موكب الإيمان بعد ذلك « ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه
ترجعون » . . وهنا يأتى السؤال بقمة الحججة الإيمانية . . وهو أى عذر لى أو
حجة فى ألا أعبد الذى خلقنى . . والذى سأعود إليه مرة أخرى ليحاسبنى
ويجزينى أجر إيمانى وعملى . . والحجة هنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى
خلق . . وتلك حجة لا يستطيع أحد أن يجادل فيها . . الإنسان لم يخلق
نفسه . . ولم يقل أحد إلا الله أنه هو الخالق . . ومن هنا فإن قضية الخلق
محسومة لله سبحانه وتعالى . . لم يدعها غيره . . والذى أخبرنا عنها هو الله
وحده . . إذن ما هو أساس عدم العبادة مادامت القضية محسومة وواضحة . .
ولماذا المجادلة . . « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » . . لا هذا
ولا ذاك . . ومع ذلك فإن الإنسان يبتعد عن هذه القضية محاولا أن يجادل فيها
بأكثر من جدال . . ومادام الله هو الذى خلق والقضية محسومة . . ألا يستطيع
الخالق سبحانه وتعالى أن يعيد خلقه مرة أخرى ويحشرهم إليه يوم القيامة . .

إذا كنت أنا قد صنعت شيئا . . فهل لا أستطيع أن أعيد صناعته . .
بالعكس فى المرة الثانية يكون أسهل من المرة الأولى بالنسبة للإنسان على
الأقل . . فقد تحتاج فى المرة الأولى إلى ابتكار ولمسات . . ولكنك فى المرة الثانية

مواكب الإيمان

إذا قيل لك أعد صناعة نفس الشيء تستطيع أن تعيده أسهل وأيسر . . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس عنده سهل ولا صعب . . فإذا كانت قضية الخلق محسومة . . فكيف تكون قضية إعادة الخلق فيها جدل . . بينما هي بالنسبة لقدراتنا نحن أسهل .

قضية البعث

ولكن الكفار الذين قد لا يجدون حجة في المجادلة في قضية الخلق لأنها كما قلنا محسومة . . يجادلون في قضية البعث . . ولقد جاء رجل يقال له العاصي ابن وائل ، وأخذ عظمة قديمة من البطحاء وفركها بيديه حتى صارت ترابا . . ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . أحيى الله هذا بعد ما ترى . . أى بعد أن صار ترابا . . فقال رسول الله . . نعم يبعث الله هذا . . ويميتك الله ثم يحييك . . ثم يدخلك نار جهنم . . ونزلت الآية الكريمة في سورة يس :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

إذن الذين يجادلون في البعث . . إنما حجتهم داحضة . . لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق أول مرة . . وهو يستطيع أن يعيد خلقه . . أو أن يعيد ما خلقه مرة أخرى . . وذلك أسهل .

فمواكب الإيمان عندما يأتي يذكر الناس بهذه الحقائق . . وهى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقهم . . وهو قادر مادام قد خلق على أن يعيدهم مرة أخرى . . ولو أنهم فكروا قليلا لوصلوا إلى هذه الحقيقة . . ولكن من نقائص العقل البشرى أنه يأتي إلى من هم دون الله ليتخذ منهم آلهة . . ولو أن هذا

مواكب الايمان

العقل كان يفكر التفكير السليم .. لما ترك الأعلى ليتخذ إلهًا ممن هم دونه .. فلا يقبل عقلا ولا منطقا أن أترك القوة التي ليس فوقها قوة .. والقدرة التي ليس فوقها قدرة وآتى إلى من هم أقل قدرة لأعبدهم .. أو آتى لمخلوق مثله لأتخذة إلهًا .. ولكن الذى يحدث أن النفس البشرية لها شهوات .. وهى تريد أن تنطلق بهذه الشهوات دون أن يكون هناك قيود تحدها .. والله سبحانه وتعالى قد خلقنا جميعا .. وجعل لنا حقوقا متساوية .. فإذا جاء هوى النفس يطلب ما هو حق للغير جاء عدل الله وقال لا .. وحينئذ يبحث هوى النفس عن مبيح له ذلك .. فيخترع آلهة .. أو يتصور آلهة تبيح له شهوات نفسه .. ومن هنا فهو يريد أن يشكل إلهه على هواه .. فيتخذ أحجارا أو أسماء أو أشياء يسميها هو .. ولا وجود لها .. ويضع لها هو المنهج الذى تمليه عليه نفسه .. وفى هذه الحالة يكون الإنسان قد ألغى عقله .. وحاد عن الحق .

الجدل الإيماني

وهنا يأتى الجدل الإيماني ليرد على القضية من كل جوانبها .. بعد أن بين أن أى إله يتخذ هو من دون الله .. لأن الله وحده هو الذى خلق وأوجد .. وكل إله من دون الله لم يخلق شيئا .. ولم يوجد شيئا .. يأتى بعد ذلك إلى حجتهم .. ويقول هب أنكم لا تؤمنون بالبعث .. ولا بأنكم ستعودون مرة أخرى لتحاسبوا .. هب أن ذلك هو ما فى عقولكم .. أفتتخذون آلهة من دون الله .. لماذا؟ للحياة الدنيا كما تقولون .. سنمضى معكم فى هذا .. هؤلاء الآلهة الذين اتخذتوهم من دون الله ليدفعوا عنكم الضر ويحفظوكم فى الحياة الدنيا .. هل هم قادرون على ذلك؟ فيقول مواكب الإيمان :

﴿ أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلهَةً إِنْ يَرِدِ الرَّحْمَنُ بَضْرًا لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْعًا

وَلَا يَنْقُذُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة يس آية ٣٣)

مواكب الايمان

أى أن هؤلاء الآلهة الذين اتخذتموهم فى الدنيا وحدها عاجزون حتى عن هذه المهمة . . فهم إذا أرادنى الله بضر وهو خالقى . . ويجرى على قدره . . لا يستطيعون ولا يملكون دفع الضر عنى . . وحتى ما تدعونى من أنكم أخذتم هذه الآلهة لتشفع لكم عند الله سبحانه وتعالى . . فالله لا يقبل شفاعتها . . وبذلك فهى عاجزة تماما عن انقاذى من ضر أرادنى الله به . . أو التشفع لى عند الله ليذهب الضر عنى . . إذن لا هى أفادتنى فى منع الضر . . ولا كانت واسطة لى فى شىء .

وهكذا جاء الرد على كل الجوانب . . فإذا كان هناك إيمان بالدنيا والآخرة . . فالله هو الذى خلقنى وهو قادر على أن يرجعنى ليحاسبنى . . فلا بد أن أودى له حق العبادة . . وإذا كنت أريد الدنيا وحدها ولا أصدق بالآخرة . . فحتى فى هذه الحالة فإن الآلهة التى اتخذتها من دون الله غير قادرة على توفير الحماية لى فى الحياة الدنيا . . وانقاذى من ضر أرادنى الله به . . بل وأكثر من ذلك هى عاجزة على أن تشفع لى عند الله .

عندما نصل إلى هذه النتيجة . . نكون قد وصلنا إلى أن كل من يعبد غير الله هو فى ضلال مبين . . أى ابتعد عن الطريق . . وضل الوصول إلى غايته . . فلا هو عمل للآخرة . . ولا هو حقق لنفسه فى الدنيا ما يحميه من غضب الله إن أراد به سوءا . . فكأنما خسر الاثنين معا . . الدنيا والآخرة . . ولذلك فإن الله وهو يضرب المثل بعد أن ساق الحجج يقول :

﴿أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنَّهُ إِذْ لَبَّى ضَلَّالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي ءَامَنُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرْتُ لِي بِمَا غَفَرْتُ لِي

﴿ رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٧)

الايذاء والعنف في مواجهة مواكب الإيمان

الذي حدث أن موكب الكفر لم يجد لديه حجة في أن يرد .. أو أن يقول شيئاً ذلك أن كل الحجج التي جاءت كانت دامغة .. فلم يكن هناك إلا الايذاء والقتل .. لأن الإنسان حين يفقد حجته يلجأ إلى العنف .. فظالماً هو يملك الحجة فيستطيع أن يجادل . ولا يلجأ إلى العنف أبداً مادام قويا بحجته وبرهانه .. إنما ذلك الذي يلجأ إلى العنف فهو ضعيف الحجة .. ولذلك فإن مواكب الكفر تلجأ دائماً إلى الايذاء والعنف في مواجهة مواكب الإيمان .. وتحاربهم بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة .. مادام قد فقد المنطق وضاعت حجته .. ولكن مصير أهل الإيمان دائماً إلى الجنة .. يجزيهم ربهم على عملهم .. وعلى دعوتهم .. ويبقى الخير في قلوبهم حتى بعد ايذاء الكفار لهم .. ذلك أنهم يحسون أن هؤلاء الكفار قد خسروا خساراً مبيهاً .. ويتمنون لو أنهم يصلون إلى حقيقة الإيمان وحقيقة الكون لذلك يقول الرجل الصالح :

﴿ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٧)

(سورة يس)

وهنا لابد أن نلتفت إلى قول الله سبحانه وتعالى « بما غفر لي ربى » وقوله تعالى على لسان المؤمنين الذين حاربوا مع داود ضد جالوت :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ ﴾ (١٤٧)

(سورة آل عمران)

مواكب الإيمان

ذلك أن الله يريد أن يعلمنا أن باب التوبة مفتوح دائما . . وأن الإنسان المؤمن إذا صدق إيمانه . . وصدق عمله من أجل الله . . فإن الله يتجاوز عن سيئاته ويغفر له . . ذلك حتى نحس جميعا أن الذنب لا يقف عقبة أمام حسن الإيمان . . مادام الإنسان قد ارتكبه بجهالة ثم تاب عنه توبة حقيقية ثم يقول الله :

﴿ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة يس آية ٢٨)

والله هنا يريد بعد أن أخبرنا بموقف الإيمان وموقف الكافرين . . وكيف كذبوا الرسل أولا . . وبدأوا هم بالعداوة . . ثم وقفوا هذا الموقف المعادى أمام مواكب الإيمان التي جاءت تحثهم على اتباع المنهج . . يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا أن هؤلاء الكفار ليس لهم قيمة . . ولا قوة . . ولا قدرة . . وأنهم حتى لا يستحقون أن تنزل إليهم جند من السماء لتقضى عليهم . . بل إن الله سبحانه وتعالى لم يكن منزل هذه الجند لأن هؤلاء لا يساؤون شيئا . . وهو إن تركهم في غيهم في الدنيا فليس بذلك مرجعه إلى أنه غير قادر عليهم . . وليس مرجعه إلى أنهم معجزون في الأرض . . أو يساؤون شيئا أمام قدرة الله . . بل مرجعه وأساسه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وأعطاه حرية الاختيار . . في أن يؤمن أو لا يؤمن . . فإن الله سبحانه وتعالى وهذه مشيئته يترك الكافر يجادل ويكابر . . وينذره ويرسل إليه الرسل ومواكب الإيمان . . لا لأنه لا يقدر عليه . . ولكن لأنه تركه مختارا . . ويوم يأتي أجله أو ينتهي عمره . . فهو لا يساوى عند الله شيئا ويستطيع أن يسلبه الحياة في لحظة . . أو في أقل من لحظة .

أصحاب الكهف

على أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلا لموكب إيماني آخر في سورة الكهف . . وصورة الموكب الإيماني هنا تختلف . . وهي تمثل عصرا انتشر فيه الكفر . . قلة

مواكب الايمان

مؤمنة لا تدري ماذا تفعل أمام بطش الكافرين .. وهنا يعطينا الله المثل ليكمل بذلك موكب من مواكب الإيمان .

وقبل أن نبدأ الحديث أحب أن أقول .. إن كل الأمثال التي تضرب في القرآن .. قد أخفى الله سبحانه وتعالى حقيقة أبطالها .. لأنها تحدث وتكرر في كل عصر .. والخلاف الذي يحدث حول من هم أبطال هذا المثل أو هذه القصة أو في أي عصر حدثت .. هو خلاف لا يفيد القضية .. فالمفروض بدلا من أن يجربنا هذا الخلاف إلى متاهات .. أن نلتفت إلى الحكمة التي أرادها الله سبحانه وتعالى ونتدبر فيها .. فذلك هو المقصود .. وهو الأساس .

قصة أهل الكهف .. هي قصة فتية آمنوا بربهم .. أي فتية ؟ كل فتية آمنوا بربهم .. قال الله :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ ١٠ إِذْ أَوْى
الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
رَشَدًا ١١ فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ١٢ ثُمَّ بَعَثْنَا لَهُمْ
أَيُّ الْحَزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ١٣ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ
فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ١٤ ﴾

(سورة الكهف)

هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم الله هدى .. إنما هم يمثلون المنهج
الإيماني واستمراريته .. الله قد ضرب لنا المثل في أصحاب القرية في منهج

مواكب الايمان

إيماني .. يجادل ويواجه .. وهذا هو أساس المنهج الإيماني .. ولكن الله في هذا المثل في سورة أهل الكهف .. بأنهم لم يواجهوا ولم يستمروا .. بل هربوا بدينهم .. أو فروا بدينهم بعيدا عن الكفار .. فهل في هذا تناقض .. كيف يبقى الإنسان مرة يجادل .. ثم يفر بدينه مرة أخرى !

نقول لمن يدعى ذلك أنك لم تفهم الحكمة .. فالحكمة في المثليين واحدة وإن اختلف الأسلوب .. فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبقى المنهج الإيماني مواجهها الكافرين .. مجادلا لهم حتى آخر لحظة .. ولكنه في نفس الوقت لا يريد من المنهج الإيماني إذا واجه قوة ستقضى عليه .. أن يستسلم ويتركها ليقضى عليها .. إنما عليه أن يفر بدينه إلى مكان آخر .. ثم بعد ذلك يعود مرة أخرى .. بعد أن يكون قد قوى واستطاع أن يواجه .. يعود مرة أخرى قويا إلى المواجهة .. وهو لا يريد لمن يدعون لدينه أن يهربوا من المجتمع .. أو أن يعزلوا .. بل لا بد أن يبقوا .. وأن يقولوا كلمة الحق .. وأن تظل الدعوة مستمرة . ولذلك إذا قرأنا قصة أهل الكهف بعناية .. نجد أن الله سبحانه وتعالى قد حدد شرطين لا ثالث لهما .. ليفر الإنسان بدينه إلى مكان آخر ويبدأ الدعوة من جديد .. الشرطان هما :

﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا

إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

(سورة الكهف)

إذن فالأساس هو ما حدده القرآن الكريم في هذه السورة .. فقد كان الفتية المؤمنون إذا بقوا .. فإنهم سيواجهون أحد أمرين .. أما أن يرحمهم علنا أمام الناس .. ويقتلوهم على رؤوس الأشهاد .. وفي هذه الحالة ينتهي موكب الإيمان من هذه البلدة إلى فترة محدودة .. وإما أن يجبروهم علنا على أن يعودوا إلى عبادة الأصنام .. وفي هذه الحالة .. ربما يكون هناك عدد من المؤمنين الذين

مواكب الايمان

يكتمون إيمانهم .. فيشهدون هؤلاء الفتية وقد ارتدوا عن الإيمان فيفتنون بهم ويرتدون هم أيضا .. ويتوقف موكب الإيمان في هذه البلدة إلى حين .

إذن فالأساس هنا هو استمرارية موكب الإيمان أو المحافظة على هذه الاستمرارية .. هذا بالنسبة لمن يدعون إلى تطبيق المنهج .. أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى .. فالله يستطيع أن ينصر دينه وكلمته .. وهو ليس محتاجا إلى أحد .. وهذا ما سنبينه .. إنما الأساس هو أن الهجرة أو الفرار بالدين .. لا يكون إلا لهذين السبيين اللذين حددهما الله .. وأن بقاء الدعاة في المجتمع .. ماداموا غير مهتدين بالقتل .. أو مهتدين بأن يكرهوا علنا على الكفر .. أقول إن بقاءهم في هذه الحالة واجب إيماني .. وأنهم لابد أن يبقوا ويظلوا يؤدون واجبهم كدعاة للحق .

هؤلاء الفتية وجدوا أن بقاءهم في المجتمع الكافر سيعرضهم لأحد شيئين .. إما أن يقتلوا ويحرم المنهج ممن يدعون إليه .. وفي هذه الحالة فإن قتلهم لا يفيد المنهج .. لأن المنهج محتاج لموكب إيماني .. وإما أن يكرهوا على الكفر فيصبحوا فتنة للذين آمنوا .. ودعوة إلى الكفر والالحاد .. وفي هذه الحالة أيضا يحرم المنهج الإيماني من حاملين له ومؤمنين به ودعاة له .. وفي هذه الحالة لابد أن يفروا إلى مكان ليعودوا مرة أخرى وهم أكثر قوة .

وكانت أول مرحلة لهؤلاء الفتية هو أن يلتجئوا إلى الكهف حتى يتدبروا أمرهم .. ولذلك فهم لم يذهبوا إلى الكهف ليقوا هناك بقية حياتهم .. أو لكي يناموا أو لكي يعتزلوا المجتمع ويعيشوا هم في مجتمعهم الخاص .. وإنما الكهف وسيلة للاختفاء نهارا .. ربما ليكملوا رحلتهم ليلا .. أو وسيلة للاختفاء فترة قصيرة حتى يهاجروا من هذا البلد .. بعد أن تهدأ العيون التي تتبعهم .. والتي تريد أن ترجمهم .. أو ترغمهم على الكفر .. فلما دخلوا الكهف ألقى الله

مواكب الايمان

سبحانه وتعالى عليهم النوم .. ولم يكن هذا مقصودا منهم .. بل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرادته لحكمة .. ولكن التجاءهم للكهف كان المقصود به منهم إبقاء الخميرة الإيمانية .. أو خميرة منهج الإيمان .. ليذهبوا بها إلى مكان آخر يمكن أن تحتمر فيه وتنتشر .. لذلك لا بد من المؤمن أن يحافظ على حياته .. لأن حياته هى الخميرة لمنهج الإيمان .. وحتى يظل المنهج الإيماني .. وفرارهم كان من أجل استبقاء حمل المنهج .. وليفروا إلى مكان ينشروا فيه الدعوة .

وتمضى الآية الكريمة :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدًا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا ﴾

وهنا اشارة من الله سبحانه وتعالى إلى الرحمة التى تصيب العبد المؤمن .. والذى يضطهد بسبب إيمانه ودينه .. والمعروف أن الكهف مكان ضيق .. لا يصلح للاقامة إلا فترة قصيرة .. فهو عادة يكون سبب التهوية وغير صالح للحياة .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد حفظ لهم الحياة فى هذا الكهف الضيق سنوات طويلة وهذه اشارة إلى أن ذلك الذى يسلك مسلك الإيمان .. قد يجعل هذا المسلك حياته الدنيوية ضيقة صعبة .. وقد يسلبه ميزات كثيرة من التى يتمتع بها الناس .. ويجعله يعانى .. وهنا تأتى رحمة الله على عبده المؤمن .. إذ يجعل الله سبحانه وتعالى من هذه الحياة الضيقة حياة ميسرة .. ويذهب الضيق الذى أوجده الكفار فى حياة الإنسان المؤمن .. بأن ينشر الله من رحمته على هذه الحياة .. ما يجعل من الضيق فرجا .. ومن العسر يسرا .. ومن الحياة المحدودة جدا حياة واسعة .. ويهيئ الله برحمته مخرجا بالنسبة للخطوات القادمة ..

خرج الفتية إلى الكهف .. وفى هذا المكان الضيق الذى - كما قلنا - لا يصلح للحياة لفترة طويلة .. جعل الله سبحانه وتعالى برحمته هذا المكان يصلح لهم لما

قالوا :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحِمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشْدًا ﴿١٠﴾ ﴾

إذن فهم رفعوا الأمر من قدراتهم هم عندما فشلوا في اقناع قومهم بعبادة الله وترك الأصنام التي يعبدونها . . وعندما أحسوا بالتهديد بالرجم أو بالاكراه على الكفر . . رفعوا الأمر إلى قدرات الله فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً .

ماذا حدث بعد ذلك ؟

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

والله يريد أن يلفتنا إلى أن الصلة التي تؤرق الإنسان في نومه . . أو تصله بالدنيا في كل الأوقات . . هي الأذن . . فكل الحواس تنام ماعدا الأذن . . ذلك أنك إذا جئت إلى إنسان نائم . . وقربت أصبعك من عينه حتى تكاد تلمسها . . فإنه لا يحس ولا يستيقظ . . وإذا وضعت يدك على يده . . قد لا يستيقظ إذا كان ينام نوما عميقا . . وإذا أطلقت رائحة غريبة في حجرة فلا يحس بها ولا يستيقظ . . حتى إذا أطلقت غازا ساما . . فقد يستنشقه ويموت وهو نائم دون أن يستيقظ .

ولكنك إذا أحدثت صوتا عاليا بجانب أذنه باستخدام أية آلة تحدث صوتا عاليا . . أو باستخدام كفيك تصفق بها بجانب أذنه . . أو بالنداء عليه بصوت

مواكب الايمان

عال ، فإنه يهب من نومه مذعورا . بل ان الأذن هي أول حاسة تعمل في جسم الإنسان عند ولادته .

فالطفل حديث الولادة قد تمضي عليه عدة أيام قبل أن يستطيع أن يستخدم حاسة البصر استخداما سليما .. ولكن حاسة السمع تعمل من أول لحظة فيزعجه الصوت العالى .. والأذن هي أداة الاستدعاء عند البعث ..

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا كيف نام هؤلاء الفتية تلك السنوات الطويلة دون أن يحسوا .. بأن ضرب الله على آذانهم .. فأصبح النهار بلا ضجيج كالليل في سكونه تماما .. وحتى إذا وصل أعداؤهم إلى مدخل الكهف وتحذثوا بصوت عال .. فإن ذلك لن يزعجهم ولن يجعلهم يحسون بالخطر .. وربما تصرفوا تصرفا يكشفهم ويعرضهم لايذاء الأعداء .. ولذلك كان الضرب على آذانهم حتى يرقدوا في سلام تام .. تماما كما ينام الإنسان في جوف الليل .. حين تهدأ الحركة تماما فلا يسمع صوتا واحدا .

ووفر الله لهم سبحانه وتعالى أسباب الحياة الكونية .. فجعل الشمس تدخل إلى الكهف .. دون أن تصيب أشعتها أجسادهم فتوقظهم حرارتها وشاءت قدرته أن يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال .. ليحفظ أجسادهم من أمراض الرقدة الطويلة .. ومن أن تأكلها الأرض .

ثم جاءت الحكمة في البعث بعد فترة طويلة من النوم :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ ۚ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا

مواكب الايمان

أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْتُمُ فَاَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ
فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُسْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾

(سورة الكهف)

من الواضح هنا أن الفتية المؤمنين قد فقدوا عنصر الزمن .. وعندما أفاقوا من نومهم بعد هذه السنوات الطويلة .. لم يكن هناك شيء في الكهف قد تغير .. وإن كان كل ما في خارج الكهف قد تغير .. ولكنهم لم يشعروا به .. لأن عنصر الزمن لا يحس به الانسان إلا بالتغيرات .. بمعنى أنك إذا جلست في حجرة .. وأقفلت كل منافذها .. وجعلتها ظلاما ليس فيها أى حركة ولا أى أحداث تتم .. ولا صلة لك بالعالم الخارجى .. فأنت لا ترى الشمس حين تشرق أو تغرب .. وليس هناك ساعة تدلك على الزمن .. ولا من يأتيك فإنك تفقد القدرة على الصلة بالزمن .. فالزمن أساسه التغير الذى يتم .. الشمس التى تشرق وتغرب .. مظاهر الكون التى تتأثر بالزمن .. القمر وحركة النجوم .. أى أساسه الحركة .. ومادام الفتية المؤمنون كانوا فى سكون تام .. نتيجة أن الله ضرب على آذانهم .. وماداموا قد قاموا فوجدوا الكهف كما هو .. لم يتغير فيه شيء .. فقد خيل لهم أن الزمن لم يتغير .. وأنهم قد لبثوا يوما أو بعض يوم .. ومن هنا فقد كانوا على حذرهم وخوفهم من الكفار .. ولذلك طلبوا من ذلك الذى يأتى إليهم بالطعام ألا يجعل أحدا يشعر بهم حتى لا يرحمهم أو يعيدوهم فى ملتهم .. وجعل الله الناس يعثرون عليهم .. فقال :

وَكَذَلِكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ

وكان العثور عليهم له أكثر من حكمة .. فأولا .. تحولت البلدة الكافرة التى كانت تعبد الأوثان إلى بلدة مؤمنة تعبد الله سبحانه وتعالى .. فى هذه السنوات

مواكب الايمان

الطوال التي مرت .. تغير الحال تماما .. وانتهى موكب الكفر وزال من البلدة وانتشر موكب الايمان .. وكان في ذلك حكمة في أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلمس هؤلاء الفتية كيف انتصر موكب الايمان .. وأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن ينصر دينه .. وأن هذا الذي تبدل وتغير .. إنما تم وهم نائمون في الكهف .. وذلك حتى يعلموا أن قدرة الله فوق كل قدرة .. وأنه إذا كان بعض الناس قد وفقهم الله إلى اختيار طريق الايمان .. فإن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجزيهم بالجنة .. ويريد أن يمتعهم بقدراته في الآخرة .. وليس ذلك لأن الله محتاج إلى خلقه لينشر دينه أو ليعلى كلمته .. ولكنه غنى بقدرته عن ذلك كله .. وذلك حتى نعرف جميعا .. اننا إذا أخذنا طريق الايمان .. فإن ذلك يكون رحمة من الله بنا .. ورضا من الله عنا .. ولا يكون حاجة من الله إلينا ..

وهكذا رأى الفتية المؤمنون وشهدوا موكب الايمان .. وعرفوا أن هدى الله لهم كان من رحمته بهم .. ولم يكن عن حاجة لأحد .

وحكمة أخرى .. أنهم شهدوا بأنفسهم البعث ورأوا كيف أنامهم الله هذه السنوات الطويلة .. فلم يحسوا إلا أنهم قد قضاوا يوما أو بعض يوم .. وأن الله سبحانه وتعالى الذي بعثهم في هذه الدنيا قادر على أن يبعثهم في الآخرة .. ويستيقنوا برؤيا اليقين بعد أن آمنوا إيمان اليقين .. بأن الساعة قادمة .. وبأن ما آمنوا به هو الحق .. ويعرفوا أنهم اختاروا طريق الحق .. وأنهم فازوا فوزا عظيما .

والحكمة الثالثة .. ليستيقن هؤلاء الذين جاءوا ونشروا الايمان بعد الكفر . بالبعث وبالآخرة .. وبقدرة الله سبحانه وتعالى على بعثهم يوم القيامة .. ويتحول الإيمان بالغيب عندهم إلى رؤيا يقينية شهدوها بأعينهم .. وذلك حتى

مواكب الايمان

يثبت إيمانهم .. وجزاء لهم على أنهم جاءوا ليبدلوا دولة الكفر إلى دار إيمان ..
وليعبدوا الله وحده .. بعد أن كان من قبلهم يعبدون الأوثان .

مثل لأهل الكتاب

ثم نأتى بعد ذلك إلى المثل الذى ضربه الله فى القرآن لأهل الكتاب عن
المؤمنين . والذى يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الفتح :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ
رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ
السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ
فَعَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى أراد أن يقول لأهل الكتاب أن هذا الدين يجمع بين الدنيا
والآخرة فلا هو معزول عن ماديات الدنيا .. ولا هو معزول عن
الروحانيات .. بل هو دين ودنيا .. يأخذ من كل بقدر صلاح المؤمن .. ويقدر
المنهج .

ولما كان اليهود قوم ماديون .. يقدسون المادة وحدها .. ويكتزون المال ..
ولا يعطون اهتماما إلا للماديات الحياة .. فقد جاء الله لهم بمثل للعبادة فقال :

مواكب الايمان

﴿ تَرْتَهُم رُكْعًا مُّجْتَدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي

وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (سورة الفتح آية ١٢٩)

ليقول لأهل التوراة ، إن موكب الإيمان في الإسلام لا يعتمد على الماديات وحدها . . ولكنه يعطى العبادة لله حقها . . وتراهم دائما في المساجد يعبدون الله ركوعا وسجودا . . حتى أنهم من كثرة السجود فإن ذلك يظهر على وجوههم علامة بارزة يعرفهم الناس بها عندما يشاهدونهم . . أى أن الموكب الإيماني في الإسلام لا ينطلق إلى ماديات الدنيا ، وينسى عبادة الله سبحانه وتعالى . . بل هو يعطيها حقها تماما .

أما في الانجيل فحيث تأخذ الروحانية نصيبا كبيرا . . يعطى الله مثلا ماديا للمؤمن كزرع اعتنى به حق عنايته فكبر واشتد عوده وغلظ . . كلما رآه الكفار ورأوا ما هو فيه من حسن عناية وإثارة . . دب في قلوبهم الغيظ . . وذلك ليؤكد الله سبحانه وتعالى أن الموكب الإيماني في الإسلام لا يهمل أمور الدنيا ويتركها ، بل هو يأخذ بأسباب الدنيا والآخرة . . وأن منهج الإيمان فيه ما يؤدي إلى صلاح العبد المؤمن في دنياه وفي آخرته .

وبذلك تكون أمثال مواكب الايمان التي ضربها الله سبحانه وتعالى . . تؤكد لنا أن موكب الايمان يسعى دائما إلى مواجهة الكفر والاحاد بالحجة والبرهان . . وأن هذا الموكب الإيماني لا يتوقف أبدا . . وأن عنده مما أعطاه الله من البراهين ما يجعله قادرا على أن يواجه أى مجتمع كافر . . وأن الكفار في لجوئهم إلى القوة والعنف والقتل في محاربة الدين الاسلامى . . إنما يفعلون ذلك لأنهم لا يستطيعون مواجهة هذا الدين بالحوار والاقناع . . وأن هؤلاء الكفار ليسوا بمعجزين في الأرض ولا يساؤون عند الله شيئا . . وهو ان كان يتركهم في غيهم

مواكب الايمان

لأنه كتب على نفسه أن يترك الإنسان مختاراً في أن يؤمن أو يكفر . . وليس لقيمتهم أو لعلو شأنهم . . أو لأنهم يساوون شيئاً على الإطلاق .

وأن مواكب الإيمان لا بد أن يستمر . . وعليه واجب ، هو مواجهة الكافرين والدعوة إلى دين الله . . ولكن إذا حدث أن تمكن الكفر في بقعة من الأرض . . وكان مصير المؤمنين إما أن يقتلوا أو يرجعوا ، فيتوقف مواكب الإيمان إلى حين . . أو أن يكرهوا على العودة إلى الكفر علناً وأمام الناس . . حينئذ يحق لهم أن يفروا بدينهم إلى مكان آخر . . على أن يعودوا وهم أكثر قوة . . وأن الله سبحانه وتعالى . . قادر على أن ينصر دينه دون معونة أو حاجة إلى أحد من البشر . . ولكن مواكب الإيمان هي رحمة من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ليشبههم بها في الآخرة ويدخلهم الجنة .

وأن الله يعلم أن الذين يتخذون طريق الإيمان والدعوة إليه يحاربون من الكفار ومن غير المؤمنين حتى يضيقوا عليهم حياتهم . . وأن الله يفتح لهم من رحمته ما يبذل هذا الضيق فرجاً . . ويوجد لهم من السبل ما يعرضهم عن هذه الحرب التي يلاقونها من أعداء الدين . . ثم يثبتهم باليقين . . ويريمهم من آياته ما يثبتهم على المنهج . . ويثلب صدورهم بأنهم اختاروا الطريق المستقيم . . ومواكب الإيمان لا يترك الدنيا وما فيها . . ولا يترك الآخرة وما أعدده الله لها . . بل هو منهج عبادة يعطى لكل حقه . . فالدنيا معبر للآخرة لا بد فيها من العمل . . والآخرة خلود لا بد أن نعد أنفسنا لها .

وكما أعطى الله الأمثال على مواكب الإيمان . . أعطى الله الأمثال عن الكافرين . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الرابع -

مَنَّا الكَافِرِينَ

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

الله سبحانه وتعالى ضرب أمثالا كثيرة في القرآن الكريم ليوضح بها سلوك كافرين في الحياة الدنيا .. وما سيلقونه في الآخرة .. لبعدهم عن الحق .. بين بالحجة والمنطق كيف أن الكافرين والمنافقين والمشركين .. وإن كانوا شتركون في سلوك واحد .. إلا أن لكل واحد منهم طريقة تفكير مختلفة .. بين الله بالأمثال التي ضربها كيفية هذا التفكير وعدم القدرة على التمييز .. ولم تصر الأمثال التي ضربها الله عن الكافرين وغير المؤمنين والمشركين والمنافقين .. لى سلوكهم وحده .. بل تجاوزت ذلك لترهم خطأ هذا السلوك وتبين لهم لضلالة التي يعيشون فيها .. ورغم هذه الأمثال فإنها زادتهم ضلالا .. ولم ننبهوا لها ولا للحكمة منها .

الأمثال الثلاثة

على أننى سأقدم فى هذا الفصل نماذج لسلوك الكافرين وفكرهم كما بينه لله .. وفى فصول قادمة .. سأتناول بالتفصيل الأمثال التى تحدى الله بها لكفار .. وهى أكثر من مثل فى القرآن الكريم .

وقبل أن نبدأ الحديث .. لابد أن نأخذ مثلاً عاماً .. فالله سبحانه وتعالى فى سورة إبراهيم يقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ
لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ﴾ (١٨)

وقال الله فى سورة الكهف :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ (١٧) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
وَلِقَائِهِمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ
جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَلَّخُدُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوا ﴿١٠٦﴾ ﴿

وقال الله تعالى في سورة النور :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ
يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

وفي هذه الأمثال الثلاثة يبيننا الله عن مصير أعمال الكافرين . . أو من يكفر
بالله ولا يؤمن . . والله في هذا يريد أن يلفتنا إلى قضية إيمانية هامة . . هي أن
أساس العمل الصالح أن يكون مقرونا بالإيمان . . فإن لم يكن مقرونا بالإيمان
ذهب عنه صلاحه . . وضاعت قيمته وذهب إلى القصور منه . . والله سبحانه
وتعالى يقول في حديث قدسي : « أنا أغني الشركاء عن الشرك »

وهذه نقطة بداية هامة . . لأن بعض الناس يعتقد أنه يستطيع أن يشرك مع
الله شركاء في العمل ثم يأخذ الجزاء من الله . . وأولئك الذين يذهبون إلى
الحفلات الخيرية مثلا . . ويعلنون عن أسمائهم ويتباهون أمام الناس بم
تبرعوا . . بل يحاول كل منهم أن يزيد على الآخر حتى يقال إنه رجل بر أو رجل
احسان . . أو أنه أغني منه إلى آخر ما يحدث . . هل يحتسب لهؤلاء جميعا وهذ

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

صددهم ونياتهم . . هل تحتسب الحسنات لهم من الله . . وهم يقصدون بها غير وجه الله . . الجواب طبعاً لا .

ومثل ذلك ما يقال من أن ٢٥٪ من حصيلة سباق الخيل تذهب للخير . . نول أى خير هذا الذى يأتى بارتكاب معصية . . وهل الله فقير محتاج إلى مال نتى ننفق من معصية أو مما حرم الله . . إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يملك نزائن الأرض كلها وهو الذى يرزقنا . . وكل المال الذى فى الأرض هو مال الله سبحانه وتعالى . . فكلنا نخرج من الدنيا ويتركه . . والله هو الذى يرث وحده لأرض وما عليها . . ولذلك يقول الله :

﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحديد)

أى أن المال أصلاً ملك لله . . وهو الذى يجعلنا مستخلفين فيه لفترة من لفترات طانت أو قصرت . . ولكمية زادت أو نقصت . . ومن هنا فإن الله غير محتاج لمال حتى ننفق فى وجوه البر من المعاصى ومما حرم الله . . والله طيب لا يقبل إلا طيباً . . ومن هنا فإن لم يكن المال من حلال فإن الله لا يقبله .

هذه قضية لا بد أن نفهمها حتى لا تحبط أعمالنا فى الحياة الدنيا . . ولكن هب أن المال من حلال فعلاً . . وأن العمل به يقصد به الخير . . ولكن الإيمان بالله غير موجود . . هل يقبل منك هذا العمل ويجازى الناس عليه . . وهل هؤلاء الناس الذين عملوا كما يقولون من أجل الإنسانية . . والذين قد يكون الله كشف على أيديهم دواء نافعا أو اختراعاً أفاد الإنسانية . . هل هؤلاء يدخلون الجنة مع عدم إيمانهم . . وهل ما قدموه من عمل للإنسانية يغفر لهم أنهم لم يؤمنوا بالله أو يجعل الله يتجاوز عن ذلك .

مَثَلُ الكَافِرِينَ

اختبار للإيمان البشرى

الجواب طبعا لا .. ذلك أنك فى أى عمل تقوم به .. إنما تطلب الجزاء ممن عملت من أجله .. فأنت مثلا إذا كنت تقوم ببناء عمارة لى .. تطلب الأجر منى .. وإذا قمت لغيرى تطلب الأجر منه .. ولا يعقل أن تقوم بالعمل لإنسان آخر أو لشخص آخر .. ثم تأتى فتطلب منى الجزاء .

والأساس فى الأعمال كلها .. وفى الدنيا كلها .. هو الإيمان .. ذلك لأن الدنيا هى دار اختبار للإيمان .. فيها امتحان يليه امتحان .. منها الابتلاء بالخير .. والابتلاء بالشر .. ومنها الفتنة التى يسقط فيها البعض .. وينجو البعض بإيمانهم منها .. كل هذه .. وكل أحداث الدنيا هى اختبار للإيمان البشرى .. والله غنى عنا جميعا .. لا نزيد فى ملكه شيئا .. ولا ننقص منه شيئا .. ذلك أن الله قد خلق الكون بكل ما فيه من نعم وآيات وخصائص وأسرار .. كشف الله للعقل البشرى بعضا منها .. وما زال هناك ما هو مجهول للبشر .. كل هذا خلقه الله قبل أن يخلقنا نحن .. ولذلك فنحن لا نزيد فى صفات قدرة الله ولا كماله شيئا .. ولا ننقص منها شيئا .

إذن الأجر نأخذه ممن عملنا من أجله .. فإذا كنا قد عملنا من أجل الله ، وإذا كنا قد عملنا وفى قلبنا الله وارضاء الله .. فنحن نأخذ أجرنا من الله .. ونأتى يوم القيامة آمنين .

وإذا كان فى قلبنا غير الله فإن الله يوفينا أجرنا ممن عملنا من أجله .. سواء كان هذا الجزاء خيرا أم شرا .. أما فى الآخرة فليس لنا شىء لأننا لم نعمل من أجل الله .. لذلك شاء عدل الله أن الذين يعملون من أجل الدنيا يوفيهم أجورهم فى الدنيا .. مصداقا لقوله تعالى :

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

.. ولذلك نرى أنه من عمل من أجل الإنسانية مثلا تخلده الإنسانية فتقام له المعامل وترصد له الجوائز ويطلق اسمه في الدنيا كلها .. وهكذا نال جزاءه من نوع ما عمل من أجله .. ومن يعمل من أجل مجموعة من الناس .. فإنهم يرفعونه ويبنون له القصور .. وربما عينوه حاكما عليهم .. ومن هنا فقد نال جزاءه من نفس نوع العمل الذي قام به .. ومن يعمل من أجل الله واليوم الآخر يجد جزاءه عند الله سبحانه وتعالى في الآخرة .. ذلك هو عدل الله .. وهو الأساس في الحساب .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يفهمنا ذلك فيضرب لنا الأمثال حتى يقرب هذا المعنى من أذهاننا .. وحتى نستطيع أن نستوعبه .

المثل الأول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَا

يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

فالله يريد أن يقول لنا إن الذين كفروا وهم لا يؤمنون بي ويكفرون بألوهيتي ،
سهما عملوا ومادام الايمان ليس في قلوبهم فمثل أعمالهم كرماد (والرماد هو التراب
لمتخلف عن الحريق) . تأتي بهذا الرماد ونضعه في أى مكان خلوى في يوم
عاصف أى شديد الرياح .. تبلغ فيه الرياح من شدتها قوة العاصفة .. وذلك
حتى لا يتبادر إلى أذهاننا أن الرياح ربما تكون شديدة ولكنها في شدتها قد ترك

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

شيئا .. ولذلك يصورها الله بالعاصفة التي لا تترك شيئا من الرماد على الاطلاق إلا بعثرته وأضاعته .. فهم أى هؤلاء الكافرين فى أعمالهم مهما قصدوا بها .. إنما هى كالرماد الذى أطاحت به عاصفة .. ومهما كسبوا فهم لا يقدرُونَ على شىء منه .. أى لا يبقى لهم شىء منه .. لماذا ..؟ .. لأنهم ليس فى قلوبهم الله .. ومن هنا فإنهم لم يبقوا شيئا للأخرة .. ولم يعملوا شيئا يقصدون به وجه الله .. ولذلك ضاعت أعمالهم جميعا كما تضيع حفنة من الرماد فى العاصفة .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ذَلِكْ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

(سورة إبراهيم الآية ١٨)

والضلال يأتى من الضلالة .. وهى من ضل الطريق أى ابتعد عن الغاية التى توصله إلى الهدف .. أى أن هؤلاء الناس بعدم إيمانهم وكفرهم .. قد ابتعدوا عن الطريق الذى يجعل الله سبحانه وتعالى يتقبل منهم صالح الأعمال .. ولذلك كان ضلالهم بعيدا .. لأنهم متى ابتعدوا عن الغاية لم يصلوا إلى شىء .. ومهما عملوا وفى قلوبهم ظلام الاحاد والكفر .. فلن يتقبل منهم .

الأخسرون

ثم يأتى الله بمثل ثان فيقول :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ ١٣٤ ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ١٣٥ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَايَهُمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾ ١٣٦ ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ وَّهُمْ

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا ﴿١٠٦﴾

(سورة الكهف)

يريد الله أن ينبئنا بالأخسرين أعمالا . . واستخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة الأخسرين هو استخدام لصيغة المبالغة . . أى أن هناك من هو خاسر . . وهناك من هو أخسر منه . . أى أن هؤلاء الناس ليسوا من الخاسرين فقط بل من الأخسرين الذين لا ينالون شيئا على الإطلاق . . ولا يكسبون شيئا .

.. الذين ضل سعيهم

من هم هؤلاء الناس . . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا . أى أنهم ضلوا عن الطريق فيما يفعلون . . واتخذوا طريقا لا يوصلهم . . وهم في ضلالهم هذا لا يحسون بأنهم قد بعدوا عن الطريق . . بل يحسون أنهم يحسنون صنعا ويعملون الخير . . ويحسون أنهم سيجزون على ذلك بأحسن الجزاء . . ويتفخرون على الناس بأنهم يفعلون طيبا . . ثم يعرفهم الله سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ

لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْنًا ﴿١٠٧﴾

(سورة الكهف)

أى أن هؤلاء الناس كفروا بالله . . وكفروا بآياته . . وكفروا بالآخرة . . ورغم أن آيات الله سبحانه وتعالى واضحة بينة لا يستطيع غيره أن يدعيها لنفسه . . ولا يمكن لعقل أن ينكرها فأمامهم الكون والشمس والقمر والنجوم والأرض والبحار . . وكل ما خلقه الله مما لا يستطيع غير الله أن يدعى خلقه . أمامهم هذه الآيات بينة ظاهرة ، ومع ذلك كفروا بها . . وأمامهم الخلق والبعث

مَثَلُ الكَافِرِينَ

قضيتان محسومتان .. فالذى خلق أول مرة كما قلنا .. يستطيع أن يعيد هذا الخلق .. ورغم هذه الآيات البينات .. فقد كفروا بها وبلقاء الآخرة .. وعملوا وليست في قلوبهم إلا الدنيا وحدها .. ولذلك فإنهم لا وزن لهم عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .. لأنهم لم يقدموا شيئاً لهذا اليوم حتى يمكن أن يوضع في ميزان أعمالهم .. وبماذا يجزون في هذا اليوم .. يجزون بجهنم .. ذلك هو جزاء من يكفر بالله وآياته ورسله .. ولا يكفر فقط وإنما يزداد في الكفر .. ويستهزئ بالآيمان .. ويسخر من المؤمنين .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا

جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سِيقًا ﴾

(سورة النور)

وهنا يضرب الله مثلاً آخر لأعمال الكافر التي يحسبها طيبة نافعة له : فيقول الله سبحانه وتعالى : أن مثلها كمثل السراب الذى يراه المسافر فى الصحراء عند وقت الظهر وعند اشتداد وهج الشمس ..

وكلنا يعرف السراب الذى يظهر فى الصحراء من انعكاس ضوء الشمس .. أى أن الكافر عمله الذى يحسب أنه سيحسب له وسيجزي عنه .. تماماً كالسراب الذى يراه المسافر فى الصحراء عن بعد فى يوم شديد الحر وهو ظمآن يتمنى شربة فيحسبه ماء .. ويسرع إليه وهو ظمآن من شدة الحر .. وعندما يصل إلى مكانه لا يجده شيئاً .. أى لا يجد أنه قد كسب شيئاً على الإطلاق مما عمل مادام قد كفر بالله .. ولكن المفاجأة التى تذهله .. والتى لم يكن يحسب لها حسابه .. وهو يوم الأهوال .. يبحث عن العمل الطيب الذى اعتقد أنه قد قام به فى الحياة الدنيا .. والذى يظن أنه قد يشفع له فى هذا اليوم .. ولكنه لا يجده شيئاً .. ثم يجد الله سبحانه وتعالى الذى لم يؤمن به والذى لم يحسب حساب

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

لقائه فيوفيه أجره وجزاءه من جنس العمل الذي قدمه لله وهو الكفر به والهزء بآياته ورسله .. فهاذا يكون الجزاء في هذه الساعة .. ؟ يكون نار جهنم وبئس المصير .. والله سريع الحساب . أى أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوفيه حسابه بسرعة لأن الله لا يشغله حساب عبد عن حساب عبد آخر .

الإيمان أساسه تقبل الأعمال

أعتقد أننا في هذه الحالة نكون قد وصلنا بوضوح إلى أن الإيمان هو أساس تقبل الأعمال .. وأن الله لا يتقبل عملا من كافر .. ولا عملا من مشرك .. وإنما يتقبل العمل الذي يقصد به وجه الله وحده ..

ومن هنا فإن كل قول عن أناس عملوا في الدنيا وقلوبهم كافرة .. أو قدموا للانسانية وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ..

كل قول بأن هؤلاء يدخلون الجنة .. هو قول مردود .. وإنما يجزون أعمالهم في الدنيا بما عملوا .. ولكن الله الذي لم يقصدوه بأعمالهم .. ولا كان في قلوبهم لا يقيم لهم يوم القيامة وزنا .. ولا ينتظرون منه جزاء .. بل إن الله سبحانه وتعالى شاءت رحمته أن يعطينا مثلا الفرق بين أعمال المؤمن والكافر ليقرب لنا هذا المعنى .. وحيث أن جزاء الله هو غيب عنا لا نستطيع أن ندركه .. فقد أراد الله بهذا المثل أن يقربه إلينا .. حتى نستطيع أن نفهمه ونحسه ، وأن تكون الصورة قريبة من أذهاننا .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ

فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

ثم يقول الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ
النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَثَلْبُهُ كَفْرًا كَمَا كُنْتُمْ تُصِفُونَ عَلَيْهِ تْرَابٌ فَاصَّابُهُ وَابِلٌ
فَتَرَكَّهُمْ صُلْدًا لَا يُقَدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

في هذا المثل يعقد الله مقارنة بين الذي ينفق في سبيل الله وقبله يملؤه
الإيمان . . وبين ذلك الذي ينفق مراعاة للناس وقلبه فيه الكفر والعياذ بالله . .
ليقرب إلى أذهاننا الفرق الرهيب بين الجزاء الذي ينتظر المؤمن . . والجزاء الذي
ينتظر الكافر على نفس العمل . . ولكن أحدهما يقوم به وفي قلبه إيمان ويقصد به
وجه الله . . والثاني يقوم به وفي قلبه كفر ويقصد به الناس أو الدنيا .
يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

أي أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا مثلا لكل من ينفق مالا في سبيل الله
يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى .

ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد استخدم كلمة أموالهم . . مع أن المال
هو مال الله . . ولكن الله أراد هنا أن يحترم الأسباب في الكسب . . حتى يحس

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

كل مؤمن بأنه ينفق من جهده في سبيل الله .. وأنه يعطي شيئاً من ذاته في سبيل الله ، فيحس بفرحة العمل الصالح .

ويريد الله أن يكرم عبده المؤمن أو يكرم عمله .. ويقول له هذا من مالك .. أو مما اكتسبته وأنا قبلكه .. وهذا إكرام من الله سبحانه وتعالى لعباده الصالحين .

﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ﴾

الله سبحانه وتعالى وعدنا بأن الحسنة بعشر أمثالها وأنها بسبعمائة ضعف ، وأن الله يضاعف لمن يشاء .. قد تكون هذه الحقيقة بعيدة عن فكر بعض الناس .. فيتساءلون كيف يمكن أن يضاعف الله الحسنة بمثل هذه المضاعفات .. وكيف يمكن أن يكون الشيء الواحد بسبعمائة ضعف .. حينئذ يقول الله أنتم تستغربون هذا الجزاء لأنه مخفى عنكم وليس تريباً إلى عقولكم .. ولكني سأقربه إلى عقولكم بمثل تروونه كل يوم ، وبعيش في حياتكم المادية حتى تكون الصورة قريبة إلى أذهانكم .. هل ترون الأرض التي تزرعونها .. إنك تضع الحبة الواحدة فيها فتعطيك أضعاف أضعاف هذه الحبة .. إن المال الذي تنفقه في سبيل الله مثل حبة قمح تضعها في الأرض .. الحبة الواحدة تنتج سبع سنابل .. في كل سنبل من هذه السنابل مائة حبة .. أي أن الله سبحانه وتعالى يقول لا تستغرب من أنني أضعاف الحسنات هذه المضاعفة الكبيرة .. فوأنك نظرت إلى الأرض التي هي مخلوق من مخلوقاتي ، فإنك تجد أنك تضع فيها الحبة فتعطيك سبعمائة حبة .. فإذا كان خلق من مخلوقاتي يعطيك سبعمائة ضعف .. فما بالك بقدراتي وأنا الخالق على أن أضعاف الحسنات إلى أكثر من ذلك .. ولذلك يقول الله « والله يضاعف لمن يشاء » .. أي أنها لا تقف عن السبعمائة ضعف .. بل هي مرتبطة بمشيئة الله سبحانه وتعالى فهو يضاعف لمن يشاء ..

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

وبهذا يكون الله سبحانه وتعالى قد قرب لنا صورة مضاعفة العمل الصالح ..
وصورة مضاعفة الجزاء للمؤمنين بحيث أصبحت صورة محسوسة .. قريبة إلى
ذهن المؤمن .. يراها أمامه كل يوم .. فلا يقول أحد كيف يضاعف الله
الحسنات .. وكيف أن الحسنة بسبعمائة ضعف .. بل كلما نظر إلى الزرع وإلى
ما تنبته الأرض تذكر قدرة الله الذي أعطى للأرض خاصية المضاعفة .. وكيف
أنه سبحانه وتعالى وهو خالقها قادر على المضاعفة أكثر .. وبلا حدود .

ثم يأتي الله إلى الصورة المضادة .. صورة ذلك الكافر الذي ينفق ليس في
سبيل الله .. ولكن من أجل نفاق الناس ورضائهم .. والذي يقدم على العمل
وليس في قلبه الله .. فبماذا يشبهه ..؟ .

يقول سبحانه وتعالى : « مثله كمثل صفوان » .. أى كمثل صخرة ملساء
ليس فيها حتى ولا تعاريج بسيطة يمكن أن تبقى شيئاً مما عليها .. أى أن هذه
الصخرة ملساء تماماً ليس فيها أى فجوات .. عليها تراب يغطي سطحها .. قد
يحسبها بعض الناس تربة طيبة .. لكنها كمية من التراب فوق صخر .. « ثم
أصابها وابل » .. أى مطر شديد .. وهنا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم يقل
أصابها مطر .. فقد يكون المطر خفيفاً فيترك جزءاً من التراب فوق الصخر ..
ولكن إذا كان هناك وابل من المطر فلا تبقى ذرة واحدة من التراب فوقها ..
حينها نزل هذا الوابل من الماء أصبحت الصخرة « صلداً » .. أى ليس عليها
ذرة واحدة من التراب الذى كان فوقها .. وانكشف أنها صخرة لا تنبت
شيئاً .. وأن التراب الذى كان فوقها ليس تربة .. وليس له قرار .. بل هو
مجرد طبقة لا تنفع .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا ﴾

(سورة البقرة ٢٦٤)

مَثَلُ الكَافِرِينَ

.. أى أن الله يريد أن يقول لنا أنه حتى طبقة الغبار البسيطة التي قد تغطي حقيقة هؤلاء الكافرين في الدنيا لا يبقى منها شيء .

أعمال المؤمن والكافر

وهنا لابد أن نستحضر الفرق الرهيب بين أعمال المؤمن والكافر .. ونستحضرها من هذا المثل الذي أعطاه الله لنا .. فنجد أن المؤمن يقوم بالعمل في سبيل الله .. ويضاعف له هذا العمل إلى سبعمائة ضعف .. والكافر قد يقوم بعمل الخير .. ولكنه يريد أن يرائي به الناس .. ولا يقصد به وجه الله ولا اليوم الآخر .. ومن هنا فإنه لا يحسب له شيء .. أو يذهب العمل إلى ما قصد به .. وفي هذا حتى نؤمن يقينا بأننا إذا أردنا عملا يجزينا به الله فلا بد أن نقصد به وجه الله سبحانه وتعالى .. ولا نقصد غيره .. ولا نشرك معه أحدا وبعض الناس يناقش هذه القاعدة الإيمانية بحدة ونقول له لماذا أنت تناقشها بهذه الحدة .. هل كان في باله الله وهو يعمل .. ان كان في باله الله وقت أن عمل فهو عمل إيماني يجازى عليه .. وإن لم يكن فكيف تطلب من الله أجرا عن عمل ليس فيه شيء لله .. ولو قلنا لهذا الكافر وهو يعمل .. إنك لن تأخذ أجرا من الله فسيهز كتفيه بلا مبالاة .. لأن الله لا وجود له عنده .. فكيف يأتي في الآخرة مجادلا فيما فعل .. وهو لم يأبه في الدنيا بما قلناه له .. الإنسان يطلب أجرا عن عمل له .. ومن عمل للإنسانية .. وأعطته الإنسانية وكرمه وأقامت له التماثيل ونشرت اسمه في الدنيا كلها .. هذا أجره في الدنيا .. على أن بعض الناس يجادل في ذلك .. ويقول إن الله قال في كتابه يغفر الذنوب جميعا ..

ونحن نقول لهم إن الله قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ ﴾

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

فيقول أن هناك تعارضا بين تلك الآية وبين قوله إن الله يغفر الذنوب جميعا . . أنت الذى أخطأت حين اعتبرت الشرك ذنبا . . ولكن الشرك ليس ذنبا . . إنه فوق الذنوب جميعا . . ذلك أن الذنب يقتضى أن تكون مؤمنا بمنهج الله وشرط الذنب الذى يقتضى المغفرة من الله سبحانه وتعالى أن يكون هناك إيمان . ومخالفة وندم وتوبة . . والكافر لا يندم ولا يتوب لأنه لا منهج له .

المنافقون أخطر على قضية الدين

على أن الله سبحانه وتعالى كما ضرب الأمثال بالنسبة للكافرين ضربها بالنسبة للمنافقين . . بل إن الله اعتبر المنافقين أخطر على قضية الدين من الكافرين . . ذلك أن الكافر معروف عداؤه بالنسبة لقضية الإيمان . . وهو يجاهر بهذه العداوة . لذلك فإن المؤمنين يأخذون حذرهم منه ويواجهونه . . وهذه العداوة المسبقة تجعل كل ما يصدر عنه مرفوضا . . أما المنافق فهو يظهر المودة ويخفى العداوة . . ولذلك فإن المؤمنين يظنونهم واحدا منهم فلا يأخذون حذرهم منه . . ولا ينظرون إلى ما يقول على أساس أنه عدو الله . . وفى هذه الحالة فهم يأمنون . . ويمكن أن يستغل هو هذا الأمان فى أن يطعن فى قضية الدين . . ويشكك فيها ويجد آذانا تسمعه . . ولذلك فإن المنافق أخطر على قضية الإيمان من الكافر .

ولذلك يضرب الله مثلا لهم فى سورة البقرة فيقول :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صَمٌّ بَكْرٌ عَمَى فَمَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ

كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنْ

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

الصَّوَاعِقُ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَحْطِفُ أَبْصَرَهُمْ
كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَرِشَاءَ اللَّهِ لَذَهَبَ
بِسْمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨﴾

هكذا أراد الله بهذا المثل أن يوضح لنا مدى اضطراب المنافقين . . ومدى
قلقهم . . ومدى الحيرة والتمزق في ملكات هؤلاء . . هذا التمزق الذي يفضحه
تصرفهم عندما يعلنون الإيمان باللسان . . ولكن قلوبهم ممتلئة بالكفر .

وإذا أردنا أن نفهم المثل ، فلا بد أن نستعرض الآيات التي قبله . . يقول الله
تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

. . بل قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا قُلُوا الدِّينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

والله سبحانه وتعالى يمثل هؤلاء بمن استوقد نارا لتضيء ما حوله .. وبمن أراد أن يهتدى لما حوله .. فذهبوا إلى المؤمنين عليهم يحصلون على الهداية .. أو يرون طريق الهداية .. ولكن كان في قلوبهم الكفر .. فلما أضيء لهم الطريق .. ولأنهم غير صادقين مع الله .. وغير صادقين مع أنفسهم .. ذهب الله بنورهم .. وأصبحوا لا يرون شيئا وتركهم الله في الظلمات التي اختاروها لأنفسهم بنفاقهم وجشعهم وحبهم للدنيا .. تركهم في هذه الظلمات لا يبصرون .. طريق الهدى .. ولا طريق الايمان .. أى أن سبحانه وتعالى علم ما في قلوبهم .. وما يخفونه من كفر ونفاق .. فأثابهم بهذا الكفر الذي يخفونه .. فأصبحوا لا يرون شيئا ولا يسمعون شيئا .

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾

والصيب هو المطر .. والمثل كما قلنا يضرب عن المنافقين .. فكان الله سبحانه وتعالى أراد أن يشبههم بأنهم كقوم أصابهم نزول المطر من السماء .. والمطر كما نعلم جميعا رزق عميم وخير وفير .. ولكنهم لم يأخذوا من المطر خيره .

لأنه كما قال القرآن الكريم : إن ذلك المطر فيه ظلمات ورعد وبرق .
 أى أنه مطر عاصف صاعق .. يذهب النفس عما هي فيه .. فهم أخذوا ما جاء في المطر من الصواعق والرعد والبرق ، ولم يلتفتوا إلى خير المطر نفسه .

مَثَلُ الكَافِرِينَ

ولابد أن نتأمل بالتفصيل هذه الصورة القرآنية التي تمثل حال المنافقين . . نحن نعرف أن المطر ينزل من السحاب . . وأن السحاب حين يتجمع في الجو بشكل كثيف يورث الظلمة نهارا . . لأنه يحجب نور النجوم والقمر . . فالظلمة سابقة لنزول المطر لأنه لا مطر إلا من سحاب . . والسحاب من طبيعته أن يوجد الظلمة . . ومن طبيعته أيضا أن يصاحبه رعد وبرق . . والرعد يستقبله الإنسان بآلة السمع وهي الأذن . . وأما البرق فيراه الإنسان بآلة الابصار وهي العين .

ولما كان صوت الرعد قويا ، فعندئذ يفزع الإنسان عند سماعه . . ويحاول أن يبعد الصوت أو يمنع استقبال الأذن للصوت ، بأن يضع أصابعه في أذنيه ، ليمنع شدة صوت الرعد على أذنيه . . كما يحدث ذلك أيضا بالنسبة لأي صوت عال يزعج الأذن وإن كان أقوى هذه الأصوات هو الرعد . . ولنا هنا أن نتأمل قول الحق سبحانه وتعالى . . « يجعلون أصابعهم في آذانهم » . . ذلك أن كل كلمة في القرآن الكريم كما قلنا من قبل مناسبة تماما لموضوعها . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يصور لنا أن صوت الرعد عنيف جدا . . وأنهم لذلك لا يكتفون بوضع أئمة الأصبع أو طرفه فقط لمنع صوت الرعد . . ولكنهم يحاولون أن يدخلوا كل الأصبع في آذانهم . . لأن الصوت عال جدا يجعل الإنسان يبالغ في محاولة منعه . . حتى أنه لو استطاع أن يضع أصبعه كله في أذنه لفعل . . والله سبحانه وتعالى يقول « يضعون أصابعهم في آذانهم » . . ومعنى ذلك أن الذي يفعل جماعة وليس شخصا واحدا . . وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا أن هذا المثل ينطبق على كل منافق . . أو على جماعة المنافقين على مر العصور . . وليس على منافق أو عدد معين من المنافقين .

ولنا أن نسأل كيف يحدث ذلك . . أن الأمر للجماعة يكون عادة لما يقوم به كل فرد فيهم . . فإذا كنا مسافرين وقلنا اركبوا سياراتكم فمعنى ذلك أن يتجه كل راكب إلى المكان المخصص في السيارة التي ستحملة . . فمعنى قول الله تعالى

مَثَلُ الكَافِرِينَ

يضعون أصابعهم في آذانهم ، ان كل واحد من المنافقين يضع اصبعيه في أذنيه ، وذلك حذر الموت . . ونحن نعرف أيضا أن الرعد يصاحبه برق وصواعق . . وأن الصواعق تنزل خلالها شحنات كهربائية . . قد تحرق أو تقتل . . والمنافق يعرف أن العاصفة التي فيها رعد وبرق قد تصدر عنها صواعق تسبب الموت .

ومعنى ذلك أن الإنسان يجب ألا يظن أن استقبال الخير يأتي مجردا . . فإن استقبال الخير يأتي ومعه التحمل . . هذا لأبد في قوانين الدنيا . . فأنت إذا أردت أن تكسب أكثر فإن عليك أن تعمل أكثر . . وهذا العمل يقتضى منك تحملا حتى تصل إلى ما تريد من الخير . . ولكن المنافقين لا يريدون ذلك . . فهم يريدون الخير فقط دون تحمل مشاقه . . ولذلك فالمنافق يريد بخداعه للمؤمنين أن يأخذ عاجل النفع دون أن يتحمل شيئا . . وهو يريد أن يتظاهر بلسانه أنه مع المؤمنين ليكون له نصيب فيما يجريه الله على أيديهم من خير . . وفي نفس الوقت فهو مع الكافرين حتى لا يتحمل ما يتحملة المؤمنون من مشقة إيمانية في سبيل دعوتهم . . ومن إيذاء الكفار لهم . . وفي نفس الوقت فهو لا يريد أن يحمل نفسه على المنهج الإيماني بما يحمله من مشقة للنفس في تقييد شهواتها . . والمنافق قصير النظر . . مفتون بالمزايا . . وغير قادر على تحمل المسؤولية .

المنافقون في أول عهد الإسلام

ولذلك فالمنافقون في أول عهد الإسلام لم يستطع واحد منهم أن يصبر على ما تضعه التكاليف الإيمانية على النفس من قيود . . وما يضعه المنهج الإيماني من شدة يلقاها المسلمون من أعدائهم . . كل ذلك تحمله المؤمنون وحدهم . . ورأوا في المطر خيره . . وهو الماء الذي ينزل من السماء ويسقى الزرع والحيوان والنبات ويشرب منه الإنسان . . ذلك الخير الذي يدوم . . أما البرق والرعد والصواعق . . فهي ظاهرة وقتية لا تبقى إلا فترة بسيطة . . فإذا تحملها الإنسان بشجاعة مرت وتركت له الخير وهو الماء . . أما إذا كان الإيمان في النفس ضعيفا

مَثَلُ الكَافِرِينَ

فإنه في هذه الحالة ترهبه هذه الظواهر الوقتية . . فيهرب من المنهج كله . . تاركاً خيره وهو الماء .

والله سبحانه وتعالى يريد بهذا المثل أن يقرب إلى أذهاننا صورة المنافق الذي يخشى على ضياع الدنيا . . وترهبه أى شدة وقتية . . فيجرب تاركاً الخير الأجل الباقي . . وكان يجب على الإنسان أن يصبر على أى شدة . . أو أى ابتلاء ليصل إلى الخير الأجل .

وهنا لا بد أن نعرف أن المؤمن يختلف عن المنافق . فهو يأخذ الأمور الصعبة مأخذ الجد . . ويزيح ألوان الشرور ليستخرج منها الخير . . المؤمن قد يتعرض للابتلاء والشدة ويصبر أمام هذا الابتلاء وهذه الشدة . . أما المنافق الذي يتغنى من اظهار الإيمان أن يستمتع بخيرات المؤمنين . . وفي نفس الوقت يبطن الكفر ليأمن شر الكفار . . هو كصاحب المطر الذي يريد أن يأخذ الماء ويهرب من الرعد والصواعق .

والله سبحانه وتعالى يضع دائماً المنافقين مع الكفار . . ويعتبرهم كما قلنا أشد خطراً من الكفار . . ذلك أن الله يقول :

﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝١٩ ﴾

أى أنه سبحانه وتعالى محيط بما في نفوسهم . . وما يخفونه عن الناس فهو يعلمه . . ومحيط بهم إحاطة قدرة . . فهو يجعلهم في الدنيا ينالون جزاء نفاقهم وما نالوه من حقوق المسلمين . . وهنا يكون العذاب الأول . . ثم يكون العذاب الكبير في الآخرة حين يستقرون في الدرك الأسفل من النار .

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

الاسلام منهج

وهنا نصل إلى الحكمة الالهية من المثل . . إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الاسلام ليس فقط نطقا بالشهادتين . . ولكن الاسلام منهج يختبر به الخالق عباده . . وهذا الاختبار هو ما تظهره التكاليف الايمانية . . والمحن والنعم . . فالنعمة ابتلاء تماما كالمحنة . . لأن الله حين ينعم على عبده يختبره . . هل سيشكر . . أم سيكفر . . فإذا استخدم النعمة فيما يرضى الله وفيما أمر به الله فقد شكر . . وإذا استخدمها في الافساد في الأرض . . وفيما يغضب الله . . فقد كفر بالنعمة . . والمحنة إذا صبر الإنسان عليها فقد فاز . . وإذا لم يتحملها وضاق بها . . قادته إلى المعصية . . وهكذا نعرف أن الابتلاءات هي لتمييز المؤمن . . والله يريد أن يخبرنا أن المنافق لا يريد أن يتحمل تكليفا . . وإنما يريد أن يحصل على ميزات فقط . . ولذلك فقد شبههم الله سبحانه وتعالى في الجزء الأول من المثل بأنهم كالذى استوقد نارا . . ولكنه فقد القدرة على الابصار بهدى الضوء ، رغم أنه لم يفقد بصره . . لأن النفاق أعمى قلوبهم وسد أسماعهم ووضع غشاوة على أبصارهم .

ثم يأتي الجزء الثانى من المثل مكمل الصورة :

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓءِٔاذَانِهِمْ

مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

هؤلاء المنافقون

إن هؤلاء المنافقين الذين يحيطون بالمؤمنين ويظهرون الإيمان وهم يبطنون الكفر . . إنما يريدون بذلك فائدة دنيوية . . وهم يريدون أن يحصلوا بدون وجه حق على خير مما يصيب المؤمنين أو مما يملكونه . . وهم بهذا قد دخلوا مدخلا إيمانيا بدعوى أنهم آمنوا أو يريدون أن يؤمنوا . . ومن هذا المدخل الايماني . .

مَثَلُ الكَافِرِينَ

ومن جلوسهم مع المؤمنين رأوا نور الله .. كان لابد في هذه الحالة أن إيمانهم يرى على ضوء ذلك الهدى .. ولكن الإيمان في القلب ليس سليما .. ولذلك فإن القلب لا يستقبل .. والنور لا يصل .. فهم رغم وجودهم في مجالس الإيمان .. وجلوسهم وسط النور الإيماني .. فإنهم لا يرون شيئا .. لأن الله سبحانه وتعالى قد ذهب بنورهم .. وهم مع أنهم يجلسون في مجالس الإيمان التي يشع عليها نور الله سبحانه وتعالى .. فإنهم في ظلمات لا يبصرون شيئا من هذا النور .. وهم رغم جلوسهم في مواكب الإيمان يسمعون كلام الله .. فهم صم لا يصل هذا الكلام إلى آذانهم فيعرفونه .. ورغم أنهم يحضرون مجالس الإيمان فهم لا يستطيعون أن يتحدثوا حديث الإيمان ، لأنهم لا يعرفون هذا الحديث فقلوبهم لم تستوعبه .

وهم في هذه الحالة كمثلي قوم نزل عليهم مطر غزير من السماء .. أى نزل عليهم خير عميم من الله سبحانه وتعالى .. وصاحب هذا المطر برق ورعد .. ولكنهم لقصر نظرهم لم يلتفتوا إلى الخير .. بل خافوا من المصاعب الوقتية التي تصاحبه .. فأصبح همهم هو كيف يهربون من هذا الخير العميم خوفا من أن تصيبهم صاعقة فتقتلهم أو أذى .. أو شدة فتزعجهم .

ولو أنهم فطنوا لعرفوا أن الزمن الذي يستغرقه الرعد والبرق قليل .. بينما النفع الذي يجلبه المطر دائم ولاستفادوا من هذا النفع الدائم بدلا من أن يفروا من شدة وقتية تواجههم .. ولكنهم في بحثهم عن الخير العاجل .. ولأنهم تظاهروا بالإيمان دون حقيقة أو صدق وحتى يصلوا إلى النفع العاجل .. فإنهم لا قوة لهم ولا عزم . لأنهم لا إيمان لهم .. وهم يحسبون كل صيحة عليهم .. وهم أول من يفرون من أى قتال .

مَثَلُ الْكَافِرِينَ

حديث قدسي

يا عبادي . إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .
يا عبادي ، كلكم ضال إلا من هديته . فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم
جائع إلا من أطعمته . . فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي ، كلكم عار إلا من
كسوته . فاستكسوني أكسكم . يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر
الذنوب جميعا . فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري
فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم .
وإنسكم وجنكم . كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في
ملكى شيئا . يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم : وإنسكم وجنكم ، كانوا على
أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادي ، لو أن
أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد . فسألوني ،
فأعطيت كل إنسان مسألته . ما نقص ذلك مما عندي . إلا كما ينقص المخيط .
إذا أدخل في البحر . يا عبادي . إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم . ثم أوفيكم
إياها . فمن وجد خيرا فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك . فلا يلومن إلا
نفسه .

* * *

كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك . وأما تكذبيه
إياي . فقلوه : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق على أهون من إعادته .
وأما شتمه إياي . فقلوه اتخذ الله ولدا . وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد . ولم
يكن لي كفوا أحد .

* * *

« ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ؟ . فليخلقوا ذرة . أو ليخلقوا حبة . أو
شعيرة » .

الفصل الخامس

مَثَلُ التَّحَدِي

مَثَلُ التَّحْدِي

الله سبحانه وتعالى لم يضرب للكافرين الأمثال فقط على ما هم فيه من ضلالة ليقرب هذه المعاني إلى عقول المؤمنين . . بل تحدى الله سبحانه وتعالى . . بدقة الخلق . . وتحدى بقدرة الخلق . . ففي سورة البقرة قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٦)

عندما نزلت هذه الآية . قال أهل الكفر والنفاق . . كيف يضرب الله المثل في القرآن بالبعوض والذباب والعنكبوت . . تلك المخلوقات الضعيفة التافهة . . ولكن قصر نظر هؤلاء الكفار والمنافقين هو الذي صور لهم أن البعوض أو الذباب أو العنكبوت . . هي كائنات ضعيفة واهية بالقياس الحجمي بالنسبة للإنسان . . فالذبابة أو البعوضة أو العنكبوت حجما وقوة إذا قسيت بالإنسان فهي لا تساوى شيئا . . ولكن الله سبحانه وتعالى . . ضرب الأمثال بهذه الكائنات . . ليصور العلاقة بين أضعف المخلوقات وبين مقدرة الخالق . . وبين ادعاء المشركين . . بأن الله له شريك في الكون .

وقد ضرب الله في مثل آخر ستحدث عنه في هذا الفصل . . ضرب مثلا بالذبابة . . وكيف أنها وهي أضعف المخلوقات . . قد وضع الله سبحانه وتعالى تحديا فيها بالنسبة لقدرة الكون كله . . وتحدى الله سبحانه وتعالى في المثل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

مَثَلُ التَّحَدِي

لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ
صَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ؕ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

(سورة الحج)

إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها . . يتساءل بعض الناس : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى - في معرض ضربه للأمثال تقريبا لأذهان عباده - إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا . . نقول أن الله سبحانه وتعالى حين يصف نفسه بصفة . . أو يسمى نفسه أسماء كالرحمن . . والرحيم . . والعزیز . . والقدير . . فهذه تسميها أسماء الله . . أو صفات الله . . ولكن حين يسند الله سبحانه وتعالى إلى ذاته فعلا . . فإننا لا نشق من هذه الفعل أو تلك الأفعال أسماء الله أو صفات الله . . مثال ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْنِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى هنا يمثل صراعا بين الكفار وبين رسول الله . . فالكفار يريدون أن يَمْكُرُوا بالرسول بتدبير أمورهم كلها سوء وأذى . . وهم يحسبون في ذلك . . أنهم في سريتهم وحذرهم . . وهم يدبرون خطط الشر والايذاء . . ويحسبون أن الله غير محيط بهم . . ولكن قدرة الله محيطه بهم . . ولذلك فهي تعد لهم من الأحداث ما لا يعرفونه . . وما يفسد خططهم تماما . . ويردها إليهم فلا يحققون شيئا . . وتدبير الله سبحانه وتعالى هو الغالب . . لأن الله هو القوي العليم . . هنا لا نستطيع أن نقول أن خير الماكرين اسم من أسماء الله سبحانه

مَثَلُ التَّحَدِي

وتعالى . . . لأن الفعل وهو المكر منسوب إلى الله سبحانه وتعالى في قوله خير الماكرين . . . وإنما يريد أن يقول لنا أنه قادر على حماية رسول الله من مكر الكافرين . . . وأن تدبيره أعلى من تدبيرهم . . . وأمره هو النافذ عليهم . . . سواء أرادوا أو لم يريدوا . . . ويسمى ذلك في اللغة مشاكلة .

الاستحياء

فإذا سأل سائل . . . فكيف ينسب إلى الله القول أن الله لا يستحي أن يضرب مثلا . فالاجابة هي أن الله يرد على الكفار الذين قالوا ألا يستحي رب محمد أن يضرب مثلا بكذا وكذا . . . وفي تلك لفتة إلى أن علم الله أعلى من علمهم . . . وأن مايعتبرونه هم شيئا تافها . . . لا يستحق من الله سبحانه وتعالى أن يضرب مثلا به . . . وإنما في الحقيقة فيه قدرة وحكمة تجعل الله يضرب لنا هذا المثل .

والاستحياء هو تغيير في البنية والسلوك عند الخوف من القيام بعمل يعيب الإنسان أن يفعله . . . أو لا يريد أن يراه أحد وهو يفعله . . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد وصف الاستحياء كفعل انساني في سلوك ابنة شعيب . . . عندما ذهبت إلى موسى عليه السلام . . . تطلب منه أن يأتي ليقابل أباه . . . فيقول الحق تبارك وتعالى في سورة القصص :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ

مَا سَقَيْتَ ﴿

إذن فذهاب ابنة شعيب إلى موسى وأن تكلمه أمام الناس وهو غريب عنها . . . مسألة اعتقدت أنها تعيبها . . . أو على الأقل غير محبة إلى نفسها أن تفعلها أمام الناس . . . ولكنها مأمورة من والدها أن تفعل ذلك . . . ولذلك فهي تفعله وهي

مَثَلُ التَّحْدِي

كارهة .. فالاستحياء أمر قسرى .. يعترى الإنسان عند خوفه من أن يلام من فعل قام به .. وهو فى الغالب صراع بين ملكات النفس البشرية .. فهناك ملكة تدعو النفس البشرية إلى المعصية .. وتأتى أخرى وتحاول أن تمنعها .. وهكذا نعرف أن الاستحياء هو خوف من فعل غير محمود .. وهو بمعناه لا ينطبق إلا على السلوك البشرى ..

أما قول الله سبحانه وتعالى إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها .. فذلك ليس معناه أنه تغيير قسرى أو خوف من فعل شيء يعاب عليه .. والله جل وعلا منزه عن ذلك تمام التنزيه المطلق .. والله يغير ولا يتغير .. ويفعل ولا ينفعل .. ولكن هذا بيان لجهل الكافرين الذين تساءلوا عن استحياء الخالق فى أن يضرب مثل هذا المثل .. ذلك أنهم تساءلوا عن شيء يدل على عدم العلم .. وعدم القدرة على الفهم .. فهم كما قلنا قد نظروا إلى المظاهر وهو الحجم .. ونظروا إلى الضعف الظاهرى .. ولكنهم لم يفطنوا إلى قدرة الخالق فى الدقة .. وفى الاعجاز .. ولذلك فإنهم عندما قالوا وهم لا يعلمون ألا يستحيى الله .. رد الله عليهم بأنه لو علمتم القدرة والحكمة وأوتيتهم من العلم .. لعرفتم أن هذا المثل لا بد أن يضربه الله سبحانه وتعالى .. وأن هذا المثل لا يرمز إلى شيء أو لا يبين شيئا يستحيى منه أحد .. بل أن قدرة الله لا بد أن يضربها لكم لتفهموها .. ومعنى يضرب الله مثلا .. أى أن الله يريد لهذا المثل أن يشيع بين الناس .. وهو يأتي من ضرب النقود .. أى سكها حتى تصبح صالحة للتداول بين البشر .. إذن الله سبحانه وتعالى يريد لهذا المثل أن يتداول بين الناس .. ويريد أن يقول للكفار أنه لا يوجد فى هذا المثل ما يجعل من يضربه يستحيى منه .. بل توجد فيه من مظاهر القوة والقدرة ما لا بد أن يبين للناس .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى « بعوضة فما فوقها » .. إذا أخذنا البعوضة على أنها قليلة الحجم بالنسبة للإنسان .. فإن فى هذه عظمة للخالق .. وإذا

مَثَلُ التَّحْدِي

أخذناها على أساس ضعف قوتها بالنسبة لقوة الإنسان .. فإن في هذا قوة للخالق .. ولتحدث عن ذلك .. نقطة .. نقطة .

النقطة الأولى هي قلة حجم البعوضة بالنسبة للإنسان .. بل إن الله سبحانه وتعالى قال « فما فوقها » .. أى ما أصغر منها .. نقول .. إذا تأملنا التقدم العلمى الذى تم فى العالم .. نجد أن هذا التقدم والرقى يسير نحو الدقة .. فى أول الأمر مثلا كانت الساعة تصنع كبيرة ضخمة تحتاج إلى مساحة . الآن هناك ساعة توضع مكان فص الخاتم وأقل من ذلك .. وقدما كان الراديو مثلا يحتل مساحة كبيرة .. أما الآن فقد أصبح حجمه أقل من حجم الكف .. والسيارة مثلا كانت كبيرة الحجم قليلة السعة .. وهى الآن تتطور .. والآلات الحاسبة كانت فى الماضى لابد أن توضع على المكتب لا يستطيع أحد أن يحملها من مكان إلى آخر لكبر حجمها ، فأصبحت الآن توضع فى الجيب وتقوم بعمليات متعددة .. وهكذا كلما ارتقى العلم وتقدمت البشرية .. مالت الأشياء إلى الدقة وصغر الحجم .. بل أنه فى الماضى مثلا كان لابد للطائرات أن تحمل أطنانا من القنابل ، حتى تستطيع أن تدمر حيا من الأحياء .. وكان لابد أن تشترك عشرون أو ثلاثون طائرة ، لأن حجم القنابل الذى يحمل كان كبيرا جدا .. أما الآن فإن طائرة واحدة تحمل قنبلة هيدروجينية تستطيع أن تدمر مدينة بأكملها .. إذن الدقة أو صغر الحجم هو من علامات التقدم العلمى .. أو الرقى فى العلم .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول للكفار .. أنتم التفتتم إلى صغر حجم البعوضة بالنسبة لحجم الانسان فاحتقرتموها .. ولكنكم لم تلتفتوا إلى دقة الخلق .. فإن هذه البعوضة بحجمها المتناهى فى الصغر تحمل معها كل أجهزة الحياة .. من عيون ترى .. وأجنحة تطير .. وأجهزة جنسية لحفظ النوع .. وجهاز هضمى للطعام وإخراج الفضلات وكل مقومات الحياة .. لم تلتفتوا إلى دقة الصنع وعظمة الخالق الذى وضع كل سبل الحياة فى هذه المساحة

مَثَلُ التَّحْدِي

الصغيرة . . ولو أنكم التفتتم إلى هذا لعرفتم الحكمة من المثل . . ولأدرتكم أن هذه البعوضة الصغيرة التي تسهينون بها في مثل حى وضعه الله أمامكم على دقة الخلق وقدرة الخالق ، في أن يجمع كل تلك الأجهزة اللازمة لحياة هذا الكائن الحى في هذا الحجم الصغير . . ولكنها سطحية التفكير وعدم القدرة على التمييز في عقول الكافرين .

حكمة الخلق

ثم يقول الله سبحانه وتعالى « فما فوقها » . . أى أن الله لا يضرب مثلاً بالبعوضة فقط المتناهية الصغر في الحجم . . بل إنه سبحانه وتعالى لم تقف قدرته عن خلق البعوضة في هذا الحجم الصغير . . بل هناك ما هو أصغر من ذلك بكثير خلقه الله . . ولذلك فليس هنا نهاية قدرة . . بل القدرة ممتدة إلى ما هو أصغر وأصغر . . وقد تقدم بنا العلم ، فاستطعنا أن نرى أشياء لم نكن نراها لدقة حجمها . . ووجدنا أن هذه أشياء كلها صغر حجمها . . زادت قوتها وقدرتها . . فالجراثيم مثلاً على دقة حجمها تستطيع أن تقتل أقوى الكائنات الحية ، وتهلكه دون أن يستطيع النجاة منها . . بل أن أخطر الجراثيم خطراً على الحياة البشرية هو الذى لا نستطيع أن نراه حتى الآن لدقة حجمه ، فلا يظهر تحت الميكروسكوب الإلكتروني . . وهذا لا يستطيع العلماء أن يقاوموه . . أو أن يجدوا له علاجاً لأنهم لا يرونه . . ومن ثم لا يستطيعون إجراء التجارب العلمية عليه لدرء خطره . . ولذلك يصبح هذا المخلوق المتناهى في الدقة هو أكثر خطراً على الإنسان من الجراثيم التي ترى . . ولا يستطيع أحد أن يعرف الداء ليجد له الدواء . . ولذلك فإن المشكلة التي تحير العلماء في كثير من الأمراض ، هي التي لا يستطيعون عزل الميكروب المسبب للمرض حتى يرونه ويدرسونه ويفحصونه .

بل ان من أكثر الأشياء دقة وربما فتكا ، هي الأسلحة التي لا ترى كاستخدام أشعة الليزر مثلاً . . وهذه وحدها هي القادرة على تدمير الأقمار الصناعية أو

مَثَلُ التَّحْدِي

اصابتها في الفضاء للدقة المتناهية . . وكذلك الأسلحة الكيماوية التي تنتشر في الجوفتقتل عشرات الألوف في لحظات ، مع أن أحدا لا يراها . . وربما لا يميز الإنسان رائحتها .

إذن الدقة في الخلق هي إعجاز من الله سبحانه وتعالى . . لا بد أن نتنبه له . . وكلما زادت الدقة . . زادت معرفتنا لقدرة الخالق الذي استطاع أن يخلق في هذا الحيز الصغير الذي لا يرى بالعين المجردة . . استطاع أن يخلق فيه حياة تتكاثر . . واستطاع أن يخلق فيه قوة تستطيع أن تفنى ما هو أكبر منها بملايين المرات . . وما هو أقدر منها ظاهريا . . ولو أن الكفار كان لديهم شيء من العلم . . أو حتى من الفهم . . لتنبهوا لهذه الحقيقة . . ولعرفوا أن الله سبحانه وتعالى حين يضرب هذا المثل ببعوضة فما فوقها . . فإنه يلفتنا إلى القدرة الإلهية في دقة الخلق . . ويلفتنا إلى أن ما قد لا نراه بأعيننا قد يكون أشد قوة وأخطر مما نرى . . على أنه حتى في البعوضة نفسها . . فإن ذلك المخلوق الذي قال عنه الكفار . . ألا يستحيى رب محمد أن يضرب مثلا ببعوضة . . أن يعرفوا من ظاهر الحياة الدنيا أنهم عاجزون أمام هذه البعوضة الصغيرة الضعيفة التي يحتقرونها . . فهي تستطيع أن تأخذ جزءا من دمائهم دون أن يستطيعوا أن يردوها . . أو يعيدوها مرة أخرى إلى أجسادهم . . وهي تستطيع أن تنقل إليهم الأمراض التي قد تقتلهم . . ولا يستطيعون منها النجاة . . ولذلك فإن ضرب المثل بالبعوضة فيه حكمة بالغة .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ نَأْمَأَ الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ

مَا ذَأَ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۗ

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

مَثَلُ التَّحَدِي

أى أن الذين آمنوا لتفكرهم وتدبرهم لآيات الله ، يعرفون أن ما قاله الله سبحانه وتعالى هو الحق . . وحتى لو لم يصلوا إلى العلم الأرضي في هذا المثل . . فيكفى أن الله سبحانه وتعالى قد ضرب هذا المثل ليكون حقا . . فالمؤمن يستقبل كلام الله سبحانه وتعالى من منطلق إيماني . . ومادام الله قد قال . . فيكفى هذا . . فإذا ظهرت الحكمة بعد ذلك . . أو كشف الله سبحانه وتعالى عن الحكمة يكون ذلك تثبيتا للإيمان . . وإذا شاء الله أن يبقى الحكمة في علمه هو . . فيكفى حيثية عند الإنسان المؤمن أن الله قد قال . . ولذلك فإن كلام الله يزيد المؤمنين إيمانا وتصديقا . . أما الكافرون الذين لا يؤمنون بالله . . فإنهم يأخذون هذا الكلام على ظاهره . . وعندما تفشل عقولهم أو لا تستطيع الوصول إلى الفكر السليم وراء المثل . . فإنهم يقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا . . ولو أنهم تفكروا وتدبروا دون بحث علمي أو تقدم تكنولوجي . . في كيف أن الله سبحانه وتعالى خلق في هذا الحجم الصغير حياة كاملة . . لكان هذا يكفى . . ولكن حتى هذه النقطة لم يتنبهوا إليها . . ولم تعرفها عقولهم . . بل أن كل ما وصل إليه تفكيرهم هو أن الإنسان كبير الحجم والبعوضة صغيرة الحجم . . ومن هنا فإن الله ضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالبعوضة . . هو شيء في رأيهم لا يصح . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾

١ من الآية ٢٦ سورة البقرة

أى أن الله سبحانه وتعالى بهذا المثل يضل به كثيرا من الناس . . من المشركين والكافرين والمنافقين . . الذين لا يأخذون من الحياة الدنيا إلا ظاهرها . . دون عمق أو تعمق . . وهم يريدون شيئا سهلا ميسورا دون أن يتعبوا أنفسهم حتى في التفكير . . أما أولئك المؤمنين الذين يتدبرون القرآن الكريم . . فهذا المثل يهدي كثيرا منهم . . لأنهم يتدبرون في كلام ويصلون إلى المعنى المقصود من دقة الخلق .

مَثَلُ التَّحْدِي

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

أى أن أولئك الذين تصيهم الضلالة هم الفاسقون الخارجون عن منهج الله الذين امتلأت أفكارهم وعقولهم بتفاهات الظاهر دون أن يتدبروا شيئا من حكمة الخلق .

التحدى الأعظم

تأتى بعد ذلك إلى المثل الذى تحدى به الله سبحانه وتعالى حين قال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ۖ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٤﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة الحج)

وفى هذا المثل تحد للبشرية كلها .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول لهم إنكم وما تدعون من دون الله من آلهة أو من علم أَرْضَى لَنْ تَخْلُقُوا الذُّبَابَ الَّذِي تَعْتَبِرُونَهُ مَخْلُوقًا تَافِهًا .. ولو اجتمعتم جميعا .. ولقد كان هذا المثل فى الماضى تحد بأن ما يشرك به الناس من أصنام وآلهة مزيفة عاجزة عن أن تخلق الحياة فى أتفه الأشياء بالنسبة لنظرهم على الأقل .. فهى لا تستطيع أن تهب الحياة لأحد ولو للذباب .. ثم يتقدم الزمن وتتقدم الحضارات والعلوم والاختراعات .. ويصل الإنسان إلى القمر .. وقد يصل إلى المريخ والزهرة .. ويأتى العلم كل

مَثَلُ التَّحْدَى

يوم باختراع مذهل لا تصدقه العقول .. وتسمع من يقول لك .. لقد انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم .. وترد أنت عليهم بهذا المثل .. إن الله قد تحداكم أن تخلقوا الحياة .. ولم يتحداكم بأن تخلقوا كونا مثل الكون الذى خلقه الله سبحانه وتعالى .. ولا شمسا تضيء ملايين السنين ونجوما .. ولا قمرا .. كلها معلقة بالفضاء لا يمسكها إلا قدرة الله سبحانه وتعالى .. ولم يتحداكم أن تخلقوا أرضا مثل الكرة الأرضية التى تعيشون عليها .. ولا نعما مثل التى ملأ الله بها الأرض من ماء وهواء .. وتربة خصبة تنبت الزرع .. ولا تحداكم أن تخلقوا إنسانا مثل ملايين البشر الذين خلقهم الله سبحانه وتعالى .. ولكنه تحداكم أن تخلقوا ذبابة .. وتحداكم أن تجتمعوا من أجل ذلك .. وقال أنكم حتى لو اجتمعتم لن تفلحوا .. وكأن التحدى للناس جميعا

ولكن يبين الله سبحانه وتعالى .. أنه هو الذى يعطى العلم للإنسان .. وهو الذى يكشف له عن أسرار وضعها فى كونه .. فقد كشف لكم الله عن أسرار جعلتكم قادرين على غزو الفضاء .. وعلى السير فوق القمر .. وعلى اكتشاف خصائص مذهلة فى الكون .. ولكنه حجب عنكم العلم الى تحداكم فيه .. وهو خلق المادة الحية أو خلق ذبابة .

وقول الله سبحانه وتعالى .. ضَرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. وكلام الله متعبد بتلاوته .. لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة .. معناه أنه لا بد أن تستمع لهذا المثل فى كل عصر .. وحتى قيام الساعة .. وهو منطبق وحقيقى فى كل العصور .. أى أنه يقينا لن يأتى عصر يستطيع الإنسان أن يخلق فيه ذبابة مهما تقدم به العلم ومهما ارتقى .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى ذلك . فيقول : « فاستمعوا له » .. ثم يقول الله إن الذين تدعون من دون الله .. وهكذا كان التحدى من الله سبحانه وتعالى على اطلاقه .. أى الذين تدعون من دون الله من آلهة .. وعلم .. وعلماء .. وأصحاب قدرة ..

مَثَلُ التَّحْدِي

صحاب نفوذ .. وشياطين وجان .. وكل من تستطيعون أن تدعوه من دون .. قوموا بدعوتها .. وأجمعوهم جميعا .. وقولوا لهم تعالوا واخلقوا لنا ذبابة حدة .. فإن استطاعوا يكون لكم العذر في دعوتكم .. ولكن الله يقول لنا م غير مستطيعين .. حتى الآن .. وحتى هذه اللحظة لم يستطع علماء الدنيا ها .. ولا معامل الدنيا كلها .. ولا أبحاث الدنيا كلها أن تخلق جناح بة .. أو حتى خلية للمادة الحية .. بحيث يستطيع أى مكابر أو جاحد أن يل هذا من خلق الإنسان .. وفي هذه الآية اعجاز كبير لأن الله سبحانه بالى .. كان فى علمه سيأتى بعض الناس بعد ألوف السنين ليقولوا انتهى سر الإيمان وبدأ عصر العلم .. فرد الله سبحانه وتعالى عليهم قبل أن يلوها .. وقال لهم : إذا كان عصر الإيمان قد انتهى وعصر العلم قد بدأ .. فه سبحانه وتعالى هو الذى خلق كل هذا الكون .. بما فيه .. ومن فيه .. يريد منكم إلا أن تخلقوا ذبابة واحدة لتثبتوا دعواهم وحتى تقدموها حيثية لهذا دعاء .. والله يقول لكم قبل أن تقدموا على ذلك .. انكم لن تقدروا .. أى يبلغكم بالنتيجة قبل أن تبدأوا لتعلموا أن الله بكل شىء عليم .

ثم يمضى الله سبحانه وتعالى ليزيد فى تحقير الكافرين والمنافقين .. ويقول .. ربما كانت مسألة الذبابة هذه صعبة عليكم .. ولذلك فسأيسرها م : إذا أخذ الذباب منكم شيئا فاستعيدوه منه .. إذا علق بأرجل الذباب من طعامكم فاستعيدوه منه مرة أخرى .. ثم يزيد الله فى التحدى فيقول تى هذا لن تستطيعوه « وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه » .. أى أن الله حانه وتعالى نزل بالتحدى من مرحلة الخلق إلى مرحلة استعادة ما يسلبه باب .. وقال .. وحتى هذه لن تستطيعوها .

عظمة الخالق فى دقة الخلق

ثم قال الله سبحانه وتعالى : « ضعف الطالب والمطلوب » .. أى أن طلبته منكم هو ضعيف جدا .. ومع ذلك فإنكم لا تستطيعون مقابلة هذا

مَثَلُ التَّحَدِي

التحدى رغم ضعفه .

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

أى أن البشر كلهم لا يقدرّون قدرة الله حق قدرها . . فالله قوى لا حو ولا قوة لغيره . . عزيز يفعل ما يشاء . . ولا يوجد من يحاسبه على فعله . . أ؛ أنه كان يكفى نظرة واحدة لقدرة الله فى كونه أن تجعلكم تعرفون هذه القدر وترونها . . وتسلمون بها . . على أن هناك مثلا آخر ضربه الله سبحانه وتعا بالنسبة لمذهبات النعمة . . وحذرنا ألا نقع فيها . . ذلك المثل هو انكار ح الفقير واليتيم والمسكين والمحتاج فى النعمة . . ومحاولة أخذ حقوقهم من الزك الصدقة وغيرهما مما فرضه الله . . فقال الله سبحانه وتعالى فى سورة « الروم » :

﴿ فَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۗ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُوا

وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وبعض الناس يعتقد أن المال يزيد بأكل حق اليتيم والفقير والمسكين . . و الصدقة تنقص المال . . والزكاة تذهب بجزء منه . . والحقيقة غير ذلك تماما . فالصدقة والزكاة تطهران المال وتحفظانه . . وتزيدانه بركة . . فتبقى النعم وتستمر . . والمال هو مال الله . . أتنا إياه ليرى ماذا سنفعل . . وهل سننشأ على النعمة . . أم سنبنغى ونطغى ونفسد فى الأرض . . والله جعل فى ماله > للضعفاء والفقراء . . فلا آتى أنا وأسلب هذا الحق . . لأن الله قادر على يذهب بالمال كله .

مَثَلُ التَّحَدِي

ولنقرأ في سورة القلم :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾
 لَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ
 كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ آغِدُوا عَلَيْنَا حَرَثَكُمُ إِن كُنتُمْ
 صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ
 مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾
 بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا
 سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا
 يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يَبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ
 ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۗ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

فهو يضرب لنا مثلا بأصحاب الجنة .. مجموعة من الناس يملكون بستانا
 بيرا .. أتى ثمره وحصاده وهم في هذا البستان الذي ملأه الله لهم بالنعم ،
 يريدون أن يأكلوا حق اليتيم والفقير والمسكين في هذه النعم ، فلا يعطوه
 حقه .. ولذلك فإنهم انفقوا على أنهم يذهبون في الصباح الباكر ليحصدوا هذه
 لنعم قبل أن يستيقظ الناس .. ولا يسمحوا ليتيم أو فقير بأن يقترب من
 جنتهم .. وفي الصباح الباكر .. وقبل طلوع الشمس يوقظ بعضهم بعضا ،

مَثَلُ التَّحَدِي

ويتسللون واحدا بعد الآخر إلى الجنة ليأخذوا ثمرها .. حينئذ .. وحين يصلون يجدون أن الثمر كله قد تلف .. والرزق كله احترق وأصبح هشيا .. ذلك أنه وهم نائمون طاف عليها طائف من الله فأصبح ثمرها كالصريم .. أو الشيء المحترق .. المهشم .. أى لا تصلح للغذاء الأدمى .. جفت وسقطت وتلفت فأصبحت لا تصلح لشيء .. حينئذ أعتقد أصحاب هذه الجنة أنهم قد ضلوا الطريق إليها .. وأنهم لا بد دخلوا مكانا آخر .. فلقد كانت هذه الجنة حتى ساعات قليلة مليئة بالثمار الناضجة الطازجة .. ولكنهم تأكدوا من أنهم فعلا في جنتهم التي يملكونها .. وحينئذ تنبهوا أنهم قد نسوا الله .. ونسوا قدرته .. وأنهم في ظلمهم للضعفاء لم يتذكروا أن الله مع هؤلاء الضعفاء .. وأنه هو ناصرهم .. فأفاقوا وقالوا : إنا لضالون بل نحن محرمون من نعم الله .

وفي اللحظة التي أفاقوا فيها وتذكروا قدرة الله .. بدأوا يسبحونه « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » . والأوسط هنا إشارة إلى أن خير الأمور عند الله الوسط .. وهو بين الاسراف والتقتير .. قال أوسطهم لولا تسبحون الله وتعودون إليه .. ثم أخذوا يلومون بعضهم البعض .. وكل واحد منهم يحاول أن يحمل الآخر تبعة ما حدث .. واعترفوا بأنهم كانوا طاغين ومتجبرين في حق المحتاج واليتيم .

وفي هذه اللحظة تذكروا أن الله سبحانه وتعالى يفتح باب التوبة ويبدل العسر يسرا . وقالوا عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها .

ويقول الله سبحانه وتعالى « كذلك العذاب » في الدنيا .. إن من ينسى الله ويحرم الفقير والمسكين من حقه .. يجرمه الله من نعمه .

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى يبين للإنسان المؤمن .. فالقرآن نزل . يبين لنا مهلكات النعم في الدنيا .. أو مذهبات النعم .. وقال أيها المؤمنون إذ

مَثَل التَّحَدَى

أردتم أن تبقى نعم الله عليكم .. فتذكروا دائما أن النعمة من الله سبحانه وتعالى فأنسبوا الفضل لله دائما حتى تبقى النعمة .. وإياكم أن تنسبوا الفضل لأنفسكم وتنكروا فضل الله .. وتظنوا أن هذه النعم دائمة لكم بقدراتكم أنتم .. فإن الله سبحانه وتعالى قادر - وهو الذى منحها - أن يذهبها .. ولذلك أعطانا مثل صاحب الجنتين .. ومثل قارون .. أحدهما لديه نعمة عاجلة .. والآخر لديه نعمة مخترنة .. وكلاهما أنكر قدرة الله ونسب النعمة لنفسه .

أصحاب الجنة !

والمثل الآخر لمذهبات النعمة ، هم أصحاب الجنة ، الذين أنكروا حق الضعيف والمسكين والفقير .. فأراد الله أن يذكرهم أنهم قد نسوا حق أولئك الذين أوصى الله بهم .. فإن الله ينسأهم ويذهب عنهم النعمة .. ولذلك فأول الأشياء فى بقاء النعمة أن تنسب الفضل لله سبحانه وتعالى .. ولا تنكرها .. وأن تخرج حق من أوصى بهم الله .. وتذكر أنهم إذا كانوا ضعفاء لا يقدرتون .. فإن الله سبحانه وتعالى الذى أوصى بهم هو حاميمهم وهو معهم .. فأول شيء تفعله هو أن تخرج حق الضعفاء فى النعمة .

خير الأمور الوسط

على أن الله سبحانه وتعالى أعطى أمثالا ليثبت بها المؤمن .. أمثالا تشرح له الحياة الدنيا حتى لا تغره .. وأمثالا تقربه من موعد الآخرة حتى لا ينسأها .. وأمثالا تحذره من أن يغتر بقدرة الإنسان على التقدم والحضارة ..

والله سبحانه وتعالى ضرب للمشركين أكثر من مثل فى القرآن الكريم .. ليبين الضلالة التى يعيشون فيها .. وتفاهة الفكر الذى يعتنقونه .. وهو فى هذه الأمثال كلها .. أراد أن يقرب المعنى للإنسان المؤمن .. حتى يستطيع أن يستوعب الحكمة .. وأن يعرف قدر هؤلاء الناس وضحالة فكرهم .. بل إن

مَثَلُ التَّحَدِي

الله سبحانه وتعالى تحداهم في مثل ضربه لهم سيظل ساريا إلى يوم القيامة ، وفي كل الأمثال التي ضربها الله ، كانت بأشياء من واقع الحياة لتقرب المعنى إلى ذهن الإنسان المؤمن .

قضية الشرك محسومة

على أن قضية الشرك بالله .. قضية محسومة كما قلنا .. فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق وأوجد .. وقد أخبرنا بذلك .. ولو أن هناك آلهة أخرى .. لقاتل وردت .. وكون الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق وهو الذي أوجد .. وهو الذي أبلغنا تكون قضية وحدانية الله محسومة تماما .. ولكن بعض الناس تأبى عقولهم .. إلا أن يحاولوا أن يشوهوا هذه الحقيقة .. وبعضهم يتخذ من البشر آلهة .. وبعضهم تخلق له مخاوفه آلهة .. وبعضهم يغريه الشيطان .

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحشر)

إذن كل من يتخذونه أولياء من دون الله إنما يتخذونه وهما .. وإنما يعبدون خوفا .. وإنما يخترعون خيالا .

ويأتى الله سبحانه وتعالى ليناقش جل جلاله هذه القضية في القرآن الكريم .. ويضرب لنا مثلا في سورة الزمر :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا أَرَجُلٌ هَلْ يُسْتَوِيَانِ

مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

مَثَلُ التَّحَدَى

الله سبحانه وتعالى يريد أن يوحد الناس . . والناس قد اخترعت آلهة متعددة في غيبة من العقل . . حتى أن بعضهم صنع آلهة بنفسه ثم عبدها . . وفي ذلك تحقير للعقل البشري . . ويأتى الله سبحانه وتعالى برحمته . . ويريد أن يلفتهم إلى عبادة الإله الواحد . . هنا يأتى لهم بمثل من واقع حياتهم . . فيقول الله سبحانه وتعالى اننى سأضرب لكم مثلا في العبودية والسيادة من واقع حياتكم : هب أن عبدا مملوكا لعدد من الأسياد . . وهؤلاء فوق أنهم متعددون . . أى أن لكل منهم سلطات . . يريد من هذا العبد أن يلبي رغباتها . . وفوق أنهم متعددون . . فأنهم مختلفون لا يتفقون على رأى . . بل لكل واحد منهم رأى مخالف للآخر . . هذا يعطى أمرا . . وذلك يعطى أمرا مضادا . . والثالث له أمر يخالف الأمرين السابقين . . وبينهم تشاكس وتنافر . .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يعطى هذه الصورة الغيبية في هذه الصورة الحسية . . مشاهدة في كل يوم . . فإن لم يكن يراها على نفسه فإنه يراها على غيره .

ويسأل الله عباده . . أيرتاح هذا العبد الذى يأتمر من أسياد متعددين مختلفين . . يحصل على الراحة . . أيستطيع أن يرضيهم جميعا . . وإذا كان ذلك مستحيلا . . فهل يستطيع أن يرضى بعضهم دون أن يخاف انتقام الآخرين وغضبهم عليه . . وهل هذا العبد هو الذى يصل إلى الحياة المريحة . . أم ذلك الذى يأتمر بأمر إله واحد وسيد واحد . . فهو عنده أمر واحد فقط يعطيه . . ولا يحدث خلاف . . لأن الأمر واحد . . يعطينا الله سبحانه وتعالى هذه الصورة . . ويقول لنا :

أليس من الأسهل والأسلم لكم أن تطيعوا إلهًا واحدًا وأن تعبدوا إلهًا واحدًا . . لقد شاءت رحمتى أن تيسر لكم أمر العبادة . . ولكنكم أنتم تريدون أن تخلقوا لأنفسكم آلهة متعددة . . أى أنكم تختارون الطريق الصعب . . غير

مَثَلُ التَّحَدِي

الميسور .. غير الحقيقي .. تتعبون به أنفسكم وتلقون بأيديكم إلى التهلكة ..
بينما اخترت لكم الطريق السهل الميسور .

وهكذا يقرب الله سبحانه وتعالى لنا الصورة في صورة مادية محسوسة ..
ليظهر لنا غياب هؤلاء الذين يريدون أن يتعبوا أنفسهم ، فيخترعوا لها اختراعا آلهة
متعددة .. وعندما تقترب منا الصورة إلى هذه الدرجة .. نحس بتفاهة فكر ..
وتفاهة حجج .. أولئك الذين يخترعون آلهة متعددة ليعبدوها ..
وفي سورة الروم يضرب الله مثلا ثانيا :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ

فِي مَارَزَقْتَكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ تَخَافُونَهُمْ كَيْفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

وهنا يضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانيا . ويقول جل جلاله أني سأخذ هذا
المثل هذه المرة من أنفسكم حتى تحسوا به احساسا مباشرا .. اني أرزقكم أموالا
وأعطيكم رزقا في الحياة الدنيا .. فهل تأتون بأنتم في هذه الأموال .. وتشركون
فيها أحدا غيركم فيما أعطيتكم من رزق .. إن هذا الرزق ، الله هو الذي وهبه
لكم .. هل خرج أحدكم إلى القرية وأحضر عددا من الناس .. وقال لهم
تعالوا فعندي رزق ولنشترك فيه .. بحيث نصبح كلنا فيه سواء أي نقسمه على
بعضنا البعض .. أم أنكم تخافون على هذا الرزق .. وتحاولون أن تمحوه بكل
وسيلة .. بل أن كل واحد منكم يخاف أن يأخذ الآخر منه شيئا .. وإذا كان
هذا هو مسلككم مع أنفسكم .. ألا يكون هو نفس مسلككم على الأقل مع الله
الذي أعطاكم هذا الرزق ومنحكم هذه النعمة .. ولكنكم والله وحده هو

مَثَلُ التَّحْدِي

الوهاب .. تأتون بشركاء تشركونهم مع الله فيما رزقكم .. فتقولون هذا رزق الله .. وهذا رزق من فلان .. بل أنكم تنذرون النذور لغير الله فيما رزقكم به الله .. فيكون نذركم لمن لم ينزل به الله سلطانا .. ونجد أنواعا غريبة من آلهة وتعاويد عبر التاريخ وحتى الآن .. يقال إنها جلب الرزق .. مع أن الله سبحانه وتعالى هو الرزاق والمنعم .. والله بهذا المثل يريد أن يجعل الإنسان حكما على نفسه .. فيقول له لقد وهبت لك رزقا .. فهل أشركت فيه غيرك .. وهل أدخلت فيه شركاء .. أم أنك حاولت ألا تشرك فيه أحدا .. إذن لماذا تريد أن تأتي لله بشركاء .. وتخلع عليهم صفات الألوهية .. إذا كان عقلك قد طاش .. فأنا أحاول أن أعيد لك الحكمة وأن أضرب لك مثلا تحسه في ذاتك وفي نفسك .. حتى لا تحتاج إلى مجرد عمق التفكير .. بل سيكون هذا المثل ظاهرا بمجرد أن أضربه لك .. ستحسه وتعرفه .

ثم يضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال على أن من يتخذ إلهها غير الله .. فقد أورد نفسه مورد التهلكة .. فيقول الله سبحانه وتعالى في سورة العنكبوت :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوجه الإنسان إلى أنه لا أحد يراعاه .. ويعطى له الرزق والحماية إلا الله سبحانه وتعالى .. وأنه إذا ابتعد عن الله .. فأين يذهب .. وإلى من يلتجئ .. ومن الذى يملك له من الله شيئا .. لا أحد .. ولذلك فإن أولئك الذين يحسبون أنهم عندما يلجأون لغير الله يحققون شيئا .. فانهم واهمون .. ذلك لأنهم لم يلجأوا إلى شيء له قوة أو قدرة .. بل لجأوا إلى شيء بلا قدرة .

مَثَلُ التَّحَدِي

خيوط العنكبوت

ولكن هذا القول من الله إخبار عن شيء غيبي عنى .. لا ألمسه ماديا ..
ولذلك يريد الله أن يثبت الذين آمنوا ويقرب لهم الصورة .. أن يضرب مثلا من
حياتهم اليومية مثلا يرونه كل ساعة .. وهو في كل بيت .. مثل خيوط
العنكبوت .. يقول لهم انظروا إلى خيوط العنكبوت هذه .. هل تستطيع أن
تحمي أحدا .. أو توفر الحماية حتى للعنكبوت نفسه .. إنها أسهل شيء
يسقط .. ويستطيع طفل صغير بأى شيء لين أن يسقط بيت العنكبوت في
ثانية .. لا يحتاج ذلك إلى قوة من الطفل .. ولا إلى الشيء الذي يمسك به
ويسقط بيت العنكبوت .. وهو لا يحمي أحدا ولا يحمي صاحبه .. وحتى
الحشرات التي تحاول أن تلتجىء إليه وهي تظن أن هذا البيت فيه الحماية وإنما
تسقط في شرك نصب لها .. وتفقد حياتها وهي تظن أنها تحتمي بهذا البيت
وتنجو .. أى أن طريق النجاة الذي تصوره لنا عقولنا بعيدا عن الله .. هو
طريق الهلاك بالنسبة لنا .

هنا لابد أن نتوقف لحظة .. أمام ما يقال وما يشاع عن هذا المثل .. فبعض
الناس يقول أن خيوط العنكبوت فيها صلابة .. أو هي قوية .. على الأقل
بالنسبة للحشرات التي تسقط في بيته .. فهذه الحشرات عندما تسقط وتحيط بها
خيوط العنكبوت لا تستطيع أن تتخلص منها .. ذلك لأن الخيط أقوى من قدرة
الحشرة .. نقول لهؤلاء جميعا أن القرآن كتاب نزل للإنسان .. وهو يخاطب
الناس حسب قدراتهم البشرية .. ومن هنا فإننا لا يجب أن نضع قياسا غير
ذلك .. ونحن نريد أن نفهم معاني القرآن .. الوهن هنا هو بالنسبة لقدرة
الإنسان وقوة الإنسان ..

الفصل السادس

مثل الحياة الدنيا

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

الأمثال عن الحياة الدنيا في القرآن تتناول أكثر من جانب .. وبعض الناس في ير من الأحيان يحاول أن يضع للأمثال أسبابا قد لا تكون هي الحقيقة أو الهدف بها .. مثال ذلك ما أثير حول قول الله سبحانه وتعالى في سورة المدثر (الآيات ٢٧ - ٣١) .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا سَعَةٌ عَشْرٌ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءِيمَنًا وَلَا رَتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ نَازِلًا إِذْ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾

ولقد قيل أشياء كثيرة عن رقم ١٩ الذى هو عدد الملائكة « عليها تسعة عشر » .. وحللوها بالعقل الالكترونى .. وخرجوا منها إلى متاهات كثيرة .. تسعة عشر عدد حروف بسم الله الرحمن الرحيم .. والله سبحانه وتعالى يضرب لنا المثل ويقول :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

حتى نعرف أنها قضية إيمانية .. وأن المشكلة ليست في عدد الملائكة .. سواء كانوا عشرة .. أو عشرين .. أو ثلاثين .

مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا

وقفه العقل الإيمانية

والسؤال في العدد هو دائئا دائر . . فلو قال الله إن عددهم ثلاثة . . لوجدت من يسأل . . لماذا ثلاثة ؟ وإذا قال إن عددهم أربعة . . لوجدت من يسأل . . أربعة لماذا ؟ أو خمسة لماذا ؟ والسؤال الدائر لا يرد عليه . . فإله قد جعل أصحاب النار ملائكة . . وهذا اختيار الله سبحانه وتعالى . . والله قد جعل عددهم تسعة عشر . . وهذا اختيار الله أيضا . . ومادام أي عدد سيسأل عن سببه . . يجب ألا يرد على السؤال . . لأنه لا يوجد عدد يحسم اختيار الله سبحانه وتعالى .

ولكن الحق أراد بهذا المثل وقفه العقل الإيمانية . . لأنه لو أن كل شيء يخضع للتعليل العقلي . . لما كانت هناك وقفات إيمانية . . ولكانت الدنيا والآخرة . . كل منها . . بكل ما فيها . . له تعليل عقلي . . ولكن أمور الحياة الدنيا التي يحتاجها الإنسان في معيشتة . . هي التي تدخل وتخضع للتعليل العقلي . . وهناك أمور تعبدية . . وغيبية . . لا بد أن تخضع للوقفه الإيمانية للعقل . . ولذلك فإن الوقفة الإيمانية تقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذي اختارهم تسعا عشر . . وهذه مشيئته . . ولكن الذين في قلوبهم مرض يسألون لماذا اختار الله تسعة عشر . . ولو أن الله اختار عشرة . . كان نفس السؤال موجودا . . وهو لماذا اختار الله عشرة . . أما المؤمن فإنه يستيقن ويقول إن هذا اختيار الله سبحانه وتعالى .

ولو فتحنا هذا الباب . . ودخلنا إلى التعليل العقلي وحده . . وتركنا الوقفا الإيمانية للعقل . . لوجدنا أمامنا أسئلة كثيرة بلا جواب . . فقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَجْمَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مُّكْنِيَةً ۖ ﴾ (١٧)

سورة الحاقة

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

كان لا بد أن يحمل مثل هذا التساؤل .. ولماذا العدد ثمانية .. وليس أكثر
! أقل .. والله سبحانه وتعالى خلق سبع سموات .. وكان لا بد أن نسأل لماذا
لمن الله السموات سبعا .. ولم يخلقهن عشرا أو خمس عشرة .. وقول الله
سبحانه وتعالى :

فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

في قصة موسى عليه السلام .. كان لا بد أن نسأل ما هي الحكمة في أن تكون
بعين ليلة .. ولماذا لا تكون ثلاثين أو عشرين .. وبهذا نفتح الباب أمام أشياء
نعرف لها جوابا .. إلا أنها مشيئة الله فيما فعل .. والله سبحانه وتعالى حين
تتار هذه الأعداد .. لم يخترها بحيث يكون بينها قاسم مشترك .. تكون هذه
عف هذه .. أو هذه نصف أو ثلث هذه .. وإلا لكنا قد ذهبنا إلى
لميلات .. ولكن الأعداد سبعة .. وثمانية .. وتسعة عشر .. وأربعين ..
س بينها قاسم مشترك .. ولذلك فالله سبحانه وتعالى قد اختارها لأنها
نبيته .. ويأتى الذين فى قلوبهم مرض ليقولوا لماذا اختار الله هذا العدد ..
كن الذين فى قلوبهم الإيمان .. يقفون وقفة إيمانية من هذه الأعداد ويعرفون
ها مشيئة الله فى اختياره .. وأن أى عدد يضرب به مثل .. إنما يمثل هذه
شيئة .. وتلك وقفة العقل الإيمانية التى تبعدنا عن متاهات لن نصل فيها إلى
قيقة .. ولذلك لا يجب أن نحمل الأمثال والأعداد فى القرآن الكريم أكثر مما
تمل .

والله سبحانه وتعالى رحمة بالعقول البشرية قد ضرب لنا مثلا فى القرآن الكريم
بول الحياة الدنيا من بدايتها إلى نهايتها .. ونلاحظ فى هذا المثل أنه يذكرنا ..
يذكرنا بأن الحياة الدنيا بداية ونهاية .. وأنها ليست مستمرة .. فيقول الله
سبحانه وتعالى فى سورة الكهف (الآية ٤٥) :

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى طلب من رسوله أن يضرب للمؤمنين هذا المثل ليثبت إيمانهم . . ولقد أراد الله أن يضرب هذا المثل ويقول ان الحياة الدنيا لها أول ولها آخر . . لماذا؟ لأن الذى يدرك أول الحياة الدنيا لا يدرك آخرها . . والذى يقترب من آخرها لا يدرك أولها . . ولذلك فإنه من المستحيل أن يعيش إنسان الدنيا كلها من أولها إلى آخرها . . فكل واحد فينا يعاصر فترة من الحياة الدنيا . . ما قبلها هو غيب عنه . . وما بعدها هو غيب عنه . . ومن هنا فإننا بآراكننا المحدود لا نستطيع أن ندرك أن الدنيا لها بداية ولها نهاية . . بل إننا قد نعتقد أنها دائمة لا نهاية لها . . فنحن نولد وهى موجودة ونرحل وهى موجودة .

مثل عن الحياة الدنيا

وحتى لا تغرنا الدنيا . . ونعتقد أنها دائمة . . طلب الله سبحانه وتعالى من رسوله أن يضرب للناس مثلاً عن الحياة الدنيا . . يقرب الصورة إلى نفوس الناس بشيء حسى يرونه . . فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾

أى أن هذه الدنيا ليست ذاتية الخلق . . أى لم تخلق نفسها . . أو لم توجد هى . . بل خلقها الله سبحانه وتعالى . . تماماً كما يخلق الزرع الذى تنبته . .

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ولماذا ضرب الله مثل الحياة الدنيا بالزرع . . لأن كل واحد منا يشهد دورة الزرع . . تحدث أمامه في فترة قصيرة يشهد أولها وآخرها . . ومن هنا فإن المثل أمامه حتى ، يعرفه ويراه . . مرة أو عدة مرات كل عام . . فيقول :

﴿ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى وهو الذى ينزل الغيث . . هو الذى خلق الحياة على الأرض . . تماما كما ينزل الماء من السماء فينبت الزرع . . « فاختلط به نبات الأرض » . . أى أن هذا الماء الذى نزل من السماء قد أخذ من مقومات الأرض استمرارية الحياة . . فقد خلق الله الأرض وأودع فيها أسس استمرارية الحياة للإنسان . . أو العوامل والعناصر التى تكفل استمرار الحياة . . تماما كما ينزل الماء من السماء فيسقى الأرض ويأخذ النبات منها عناصر استمرار الحياة . . ليكبر ويعلو ويتعرعرع . . ولذلك فإن الأرض قادرة فقط على اعطاء عناصر استمرار الحياة . . ولكن الحياة نفسها بدون ماء تنعدم . . فإذا ذهبنا إلى صحراء جرداء فيها الأرض وليس فيها الماء . . لا نجد فيها حياة .

إذن فأصل الحياة جاء من السماء . . وعوامل استمرارها خلقها الله ووضعها في الأرض . . والأرض تأخذ زينتها وتعطى من استمرار مد السماء لها بالحياة ، أو مد الله لها بالحياة . . ثم يكبر الزرع وتأخذ الأرض زخرفها ، فينتج منه الثمار والورود . . ويصبح شكله بهيجا يسر الناظرين . . ثم بعد ذلك تأتى نهاية الحياة . . فيصبح هذا الزرع هشيما محطما لا جذور له في الأرض . . تستطيع الرياح أن تبعثره في أى مكان . . أى أن جذور الحياة تنتهى . . وتصبح كأن لم تكن . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

لأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوجد الحياة . . وقادر على أن يذهبها .

وهكذا ذكر لنا الله سبحانه وتعالى الحياة الدنيا كلها . . في حدث صغير يتسع له عمر كل فرد فينا . . ويقدر عليه بصر كل فرد . . فهو يركز الحياة الطويلة منذ خلق آدم حتى تقوم الساعة في حالة موجزة من الممكن أن يشهدها كل فرد منا . . ويقول إن الغيب عنكم وهو هذه الحياة الطويلة من أولها إلى آخرها . . أقربه لكم في مثل صغير . . انظر إلى الزرع كيف ينبت ثم يصير هشيما . . وأعلم أن هذه الحياة تماما مثل دورة الزرع . . مصيرها إلى فناء وزوال . . فلا تجعلها تغرك عن الله . . ولا تبعدك عن منهجه . . فهي مثل دورة الزرع ستنتهي إلى لا شيء .

ثم يأتي الله سبحانه وتعالى ويضرب مثلا آخر للحياة . . في سورة يونس :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ

الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا

وَأَزْيَنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا

حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴿

في هذا المثل الذي يختلف عن المثل الأول . . ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا لبداية الدنيا ونهايتها . . ولكنه أعطانا في هذا المثل شيئا من التفصيل . . لما يمكن أن يحدث بالنسبة لعمر الحياة على الأرض . . ففي المثل الأول . . كان الكلام

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

مجملا عن البداية والنهاية . . ولكن في هذا المثل وضع شيئا من التفصيل . . عن كيف تبدأ الدنيا وكيف تنتهى . . فبداية الدنيا كماء نزل من السماء دليل على أن الحياة في الدنيا مخلوقة وليست ذاتية . . فالماء ينزل من علو . . والحياة تأتي من الأعلى . . وهو الله . . هذه الحياة تستمر بارادة الخالق . . أو باستمرار الوجود من العلو وهو المطر . . وتأخذ عناصر استمراريتها من الأرض . . فتخرج الأرض النبات الذى يأكل منه الناس والأنعام . . ثم يضيف الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَنْتَ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُم قَدِرُونَ عَلَيْهَا ﴾

وهذه الآية تمثل لنا استمرار موكب الحياة في الأرض .
فالحضارة التى بدأت مع الإنسان تتقدم معه لتزين الأرض . . وتجعل لها زخرفها . . وهنا لابد أن نتنبه إلى عدة عناصر . .

العنصر الأول أن منشأ الحضارة هو من خلق الله . . وما زاد عليها من اكتشافات هو مما يكشف الله سبحانه وتعالى من علمه للإنسان . . فأنت إذا أخذت نظرية من نظريات الهندسة . . ولتكن نظرية رقم مائة . . نجد أنها اعتمدت على النظرية التى قبلها وهى رقم ٩٩ . . وتلك اعتمدت على النظرية رقم ٩٨ . . والنظرية التى قبلها اعتمدت على النظرية التى قبلها . . وهكذا حتى تصل إلى النظرية رقم واحد . . وتساءل على ماذا اعتمدت ، فتجد أنها اعتمدت على بديهية من بديهيات الكون التى خلقها الله . . أى أن كل هذا العلم أساسه بديهيات الله فى الكون . . فالإنسان لم يخلق شيئا جديدا . . ولم يوجد شيئا لم يكن موجودا . . وإنما طوره بشكل يجعل استخدامه أسرع وأحسن . . ويكشف عن خصائصه التى خلقها الله .

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

إذا أخذنا مثلا أشعة الليزر واستخدمناها في الطب وفي قياس المسافات وفي الحروب إلى آخر ما عرفناه .. وما يمكن أن تقدمه هذه الأشعة للإنسانية من استخدامات في الكون .. والسؤال هنا هو من الذى أوجد أشعة الليزر .. والجواب أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقها .. أى أنها ليست من خلق بشر .. ومن هنا فهى موجودة في الكون منذ الأزل .. ولكنها لم تدخل في علم الإنسان إلا خلال هذه الفترة .. فكأن الإنسان .. لم يخلق شيئا .. ولكنه اكتشفه .. أو اكتشف استخداماته .. ولكن هذا الشيء موجود من خلق الله .. منذ خلق الأرض ومن عليها .. وكذلك كل اكتشافات العلم في الحياة .. إنما هى كشف عن قدرة موجودة .. أو عن خصائص موجودة في الكون .. لم نكن نتنبه إليها ..

والعلم البشرى في الكون كله في آية واحدة من سورة فاطر (الآية ٢٦) .
ويقول الله سبحانه وتعالى فيها :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نُحُورًا مُمْتَرَاتٍ ۖ ثُمَّ خَلَقْنَا مِنَهَا

وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ

وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ۚ كَذَلِكَ ۖ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

الْعُلَمَاءُ ﴿٢٨﴾

ومن هنا فإن العلم الإنسانى يدور حول الأرض وما فيها وما تنبت .. وحول الجبال وما تحمل من معادن وأسرار .. وحول الناس والدواب والأنعام .. وكلما اكتشف العلم شيئا جديدا .. كان ذلك ادعى للعلماء الذين يكشف لهم الله دقة

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

صنعه أن يكونوا أكثر الناس خشية لله .. فهم يرون الاعجاز في كل خلق الله .. وهم بوصولهم إلى هذا الاعجاز .. كان لابد أن تدخل الخشية إلى قلوبهم .. وهم يرون دقة الصنع وإبداع الخالق .

العلم اكتشف فقط

أما الخلق الحقيقي والايجاد الحقيقي لله سبحانه وتعالى مصداقا لقوله في سورة لقمان:

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۗ وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَىٰ أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ ۗ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ۗ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾
هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

هذا هو الخلق .. ولا يستطيع أن يدعيه أحد إلا الله .. والعلم لم يخلق شيئا .. ولكنه اكتشف خصائص استخدمها الإنسان .. فالإنسان في الماضي كان يحفر الأرض بقطعة من الخشب .. فجاء العلم وأعطاه المحراث .. مستخدما مواد الله في الكون .. ثم أعطاه الجرار .. وكل إضافة جديدة تجعل عملية الزرع أسهل .. ولكن أساس الزرع وجد مع الإنسان .. ولا يستطيع أحد أن يدعيه .. بل أن هناك أشجارا في الغابات الكثيفة .. تقذف بحبوبها بعيدا لتنتب هناك أشجار جديدة .. دون أن يكون للإنسان دخل في ذلك . والماء أوجده الله مع الخلق .. ولكن العلم استطاع أن يقلل المتاعب .. بدلا من أن أذهب إلى العين أو إلى النهر لأشرب .. نقل لي الماء باستخدام المواد التي خلقها الله بحيث أصبحت أجد كوب الماء في المكان الذي أعيش فيه .. والشمس بكل أشعتها وما فيها من أسرار .. هي كما هي منذ بدء الخليقة .. وكل يوم نكتشف أشعة من أشعة الشمس لها فوائد لم نكن نعرفها

مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا

فستخدمها .. وهكذا كلها اكتشافات لخصائص وليس ايجادا لأشياء .. فلا يوجد شيء ناتى به من العدم .. ولكن العقل المخلوق لله يوجهه الله للعمل فى المادة المخلوقة من الله فيكتشف شيئا جديدا .. وحتى الإنسان هو من آدم .. فالسبب فى وجودى هو أبى وأمى .. والسبب فى وجودهما هو جدى وجدتى .. فإذا تتبعنا الحيط نجد أننا نصل إلى أصل البشرية كلها . وهو لا بد أن يوجد ذكر وأنثى .. أى أنه لا بد من الخلق ليبدأ التكاثر .. وهذا الخلق هو آدم وحواء .. بل ان عدد البشر فى الدنيا أقل .. ومنذ عدة قرون كان أقل جدا .. ونظلم تتسلسل إلى أن نصل إلى البداية وهى ذكر وأنثى .

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأُزِينَتِ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا ﴾

يصور لنا تسلسل الحضارات .. ذلك أنه عند بداية الحضارة .. كان التقدم فى العالم يسير بطيئا .. بحيث لا يتم اكتشاف إلا كل فترة طويلة من الزمن .. ولأن العقل البشرى أعطاه الله القدرة على أن يرث الحضارة الإنسانية .. كل عقل يرث حضارة الجيل الذى قبله .. وهكذا لا يبدأ كل جيل من الصفر .. ولكنه يبدأ ولديه رصيد من الحضارات والاكتشافات يساعده على أن يكون التقدم أكثر وأسرع .. وهكذا كلما مر عصر وجاء عصر جديد كان هناك إضافة ضخمة إلى رصيد الإنسان الحضارى .. تمكنه أن يبدأ من نقطة متقدمة عن الجيل الذى قبله .

ومع استمرار التقدم والزمن يصبح لدى الإنسانية بداية تؤهله لأن يضيف أكثر .. ذلك أنها تبدأ من حيث انتهى الآخرون .. وهكذا نجد مع تقدم الزمن .. بعد أن كان هناك كل ١٠٠ سنة اكتشاف علمى .. يصبح هناك اكتشاف علمى كل عشر سنوات .. ثم كل خمس سنوات .. ثم كل سنة ..

مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا

ثم كل شهر .. ثم كل يوم .. ثم عدة اكتشافات في اليوم الواحد .. كل ذلك لأن الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان بعقل يرث الحضارات .. ولم يعط هذا العقل لباقي مخلوقاته .. فالحيوانات مثلا تعيش بنفس الطريقة منذ بداية خلقها .. فهي لم تضيف شيئا إلى حياتها .. وليس لها رصيد حضارى أو عقل يرث الحضارات .. وكذلك الجماد والنبات .. إنما الذى يملك عقلا يرث الحضارة ويضيف إليها .. هو الإنسان الذى م الله سبحانه وتعالى وفضله على خلقه .

موكب العلم يتقدم

يمضى موكب العلم ليضيف اكتشافات جديدة إلى حياة الإنسان .. ويزين الأرض .. فكل ما على الأرض هو زينة لها .. كل ما يحدث على الأرض من عمارات شاهقة .. وما يؤسس عليها .. وما يزرع بالزرع المختلف الألوان .. هذه كلها زينة للأرض ، فلا أحد يأخذها معه .. ولا أحد يأخذ شيئا معه .. إلا حسناته أو ذنوبه .. أما كل ما عمله فوق الأرض وما بناه فهو يتركه زينة للأرض نفسها .. يأتى الذين بعدهم والذين من بعدهم .. فيرونه ويعجبون به .. وقد لا يعرفون من أقامه .. ولكنهم يتمتعون بالزينة التى تملأ الأرض .

حينما يتقدم العلم ويرى الناس ما تحققه لهم الاكتشافات العلمية .. يبدأون فى الاتجاه إلى العلم .. وينسون المعلم .. الذى وضع هذا العلم فى الأرض .. ويسر لنا أن نكتشفه .

ويبدأ الإنسان بغتر بقوته .. ويحس بأنه هو الذى يعمل وهو الذى يضيف .. ويرى أثر العلم فى ظاهر الحياة الدنيا فيتجه إليه .

ولكن العلم الذى قد يعطى الإنسان الكثير لا يستطيع أن يعطيه شيئا واحدا .. مما سيعطيه له الله بقدراته .. فقد يجعلنى العلم أضغط على زر

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

فيطهي لي الطعام .. أو يأتيني ما أطلب .. ولكنه لا يستطيع مهما تقدم العلم أن يجعلني أجد الشيء أمامي بمجرد أن يخطر على بالي .. فساعة أفكر فيه ودون أن أعمل شيئاً أجده حاضراً أمامي .. وهذا سيحدث في الآخرة .. وهو أبسط ما سيحدث فيها بالنسبة للمؤمن .

النهار والليل

ولكن الإنسان يظل يتقدم بالعلم حتى يظن أنه قد سيطر على الأرض تماماً .. ويحس أن كل ما يطلبه أو يريده يستطيع أن يحققه .. وأنه قادر على أن يصل إلى كل ما يريد بالنسبة للأرض وما عليها .. حينئذ يصدق فيه قول الله : « وظن أهلها أنهم قادرون عليها » .. وهذا الظن يرجع إلى نسبة الإنسان كل شيء إلى قدراته هو .. ناسياً قدرة الله سبحانه وتعالى الذي يسر له ذلك .. حينئذ .. حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة العالية من الحضارة ، حتى أنه يظن أنه قادر على أن يتحكم في كل ما على الأرض .. فيجعله يعمل وفقاً لهواه أو إرادته تكون نهاية الإنسان وقيام الساعة :

﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتْمَاءً أَمَرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا ﴾

حينئذ تقوم الساعة ويأتى أمر الله .. ليعرف الإنسان يقيناً أنه غير قادر على شيء .. وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾

دليل على أن الليل والنهار موجودان على سطح الأرض في وقت واحد .. فبعض الناس ستأتيهم الساعة والوقت عندهم نهاراً .. لأن الله خلق الليل والنهار معاً .. مصداقاً لقوله تعالى في سورة يس :

﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وكان العرب يقولون أن الليل يسبق النهار .. وبيدأون يومهم بالليل أولا ..
أى بعد غروب الشمس .. وهكذا عندما نزل القرآن .. كانت هناك
قضيتان .. قضية النهار يسبق الليل .. وهذه لم يتعرض لها أحد .. ولم يقل بها
أحد .. وقضية أن الليل يسبق النهار .. وهذه كانت خطأ يعتقدوه العرب ..
فجاء الله سبحانه وتعالى ليصحح هذا الخطأ فقال :

﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾

.. ومعنى ذلك أن الليل لا يسبق النهار كما تعتقدون .. ومادام الليل
لا يسبق النهار .. والنهار لا يسبق الليل .. إذن فقد وجدا على الأرض في
وقت واحد .

﴿ أَنْتَهُمَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ﴾^ج

.. بعد أن استعرض الله سبحانه وتعالى كيف أن العلم البشرى والحضارة
البشرية سترتقى وتتقدم .. حتى يحسب الإنسان أنه قد سيطر على الأرض
تماما .. وأصبحت الأرض خاضعة لمشيئته وإرادته .. كل شيء فيها هو يتحكم
فيه .. حينئذ تقوم الساعة فيدمر الله الأرض وما عليها .. وتنتهى الحياة من
الدنيا .. ويصبح كل الذين ظنوا أنهم قادرون على الأرض أمواتا لا يقدرُونَ على
شيء .

على أن هذا الهلاك .. أو هذا الدمار الذى يتم فى الآخرة .. لا يجعل الله
سبحانه وتعالى يترك الدنيا بلا عقاب للكافرين حتى تقوم الساعة .. بل إن
السماء تتدخل إذا استشرى الظلم .. وعم الفساد .. وكان الكفر هو عقيدة
الناس .

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ونظرة واحدة إلى خريطة العالم . . . ترىنا كيف أن هذا المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى موجود في كل بقاع الدنيا . . . والأصل في الخلق . . . أن الله خلق الناس . . . ويسر لهم رزقهم . . . وأعطاهم المنهج الذي لو اتبعوه لعاشوا آمنين مطمئنين . . . ولو أن منهج الله طبق في أي دولة في العالم . . . وفي أعنى الدول اجراما حولها إلى أكثر الدنيا أمانا . . . هذه هي الحقيقة التي لا بد أن نعرفها . . . والتي نستطيع أن نصل إليها بسهولة . . . إذا أحصينا عن جرائم القتل والنهب والسلب في الدول التي تطبق منهج الله . . . فنجدها تكاد تتلاشى .

ماذا يكون العقاب

ماذا يحدث لهذه القرى . . . ولماذا تتحول من الأمن إلى الخوف . . . ومن الشبع إلى الجوع . . . ولماذا في كل دولة في العالم حرب . . . وقتال . . . وقتل . . . ولا يوجد هناك أمان . . . السبب في ذلك أن الإنسان كفر بنعمة الله . . . وابتعد عن طريقه . . . ووضع منهجا لهوى النفس . . . وما أن الذين يضعون هذا المنهج هم الأقوياء أو الحكام أو المترفين . . . فقد جاءوا بما يحقق لهم أكثر الميزات . . . وبما يسلب من غيرهم كل الميزات . . . وهكذا أصبح هوى النفس هو الذي يحكم . . . ومع هذا الهوى وجد الظلم . . . ومع الظلم وجدت الثورات والانقلابات . . . ثم المطامع والحروب . . . وكل واحد يريد أن يأخذ ما في يد الآخر . . . ولا أحد يأخذ شيئا . . . بل كل نعم الدنيا تنتقل من يد إلى يد . . . إلى يد .

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

انظر بعد ذلك ماذا يكون العقاب .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَاذْذُقْهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٢)

والجوع ألا يجد الإنسان ما يقيم أوده .. أو الطعام الذي يكفيه هو ومن يعول .

والخوف هو ألا يكون آمنا على نفسه أو على من يعولهم .

وكلا العاملين الجوع والخوف هم البلاء في كل الحروب . فالشعوب في الحروب تجوع ولا تجد طعاما .

وكما شهدنا في الحرب العالمية مثلا .. كان نصيب الفرد في بريطانيا بيضة واحدة في الأسبوع .

أما في الأماكن التي دارت فيها الحروب .. فلم يكن الإنسان يستطيع الحصول على بيضة .. أو قطعة من السكر .. أو رغيف من الخبز .. مع أن عندهم الأرض التي تنتج ما يحتاجون ويزيد .

والحرب تقضي على الخير .. وتذيق الناس لباس الجوع .. ثم ينتشر الخوف .. الخوف من الموت .. الخوف من الرصاص الطائش الخوف من العدوان .. فلا أحد يحمي أحدا .. المهم في ذلك كله .. أننا إذا نظرنا إلى العالم اليوم .. نجد في أكثر من بقعة منه ناسا تذوق لباس الجوع والخوف .

ونجد معظم الناس حتى في الدول التي ليس فيها حروب خائفين .. ربما ساءت الله عليهم أنفسهم .. فامتألت الدولة بالعصابات التي تسرق وتقتل ..

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وربما سلط الله عليهم غيرهم فغزا أرضهم .. وربما نشأت البغضاء والضغينة بينهم وبين بعض فقامت الحروب .. وكما قلت فإنه يكفي نظرة واحدة إلى أحوال العالم المضطرب الذي نعيش فيه .. من أغنى الدول حتى أفقرها .. لنعرف رضا الله على خلقه .. ولنرى غضب الله على خلقه .

على أن عدل الله .. كما اقتضى ألا يأخذ كافرا أو مذنبا أو عاصيا ويترك كافرا آخر .. كذلك فإن هذا العدل اقتضى ألا يتحمل مؤمن وزر ومعصية كافر .. وأن تكون كل نفس مسئولة عما تفعل .. ولا تحاسب عما يفعله غيرها .. ولقد ضرب الله سبحانه وتعالى أكثر من مثل لذلك في القرآن الكريم .. وكانت الأمثال بأقرب الناس إلى الله سبحانه وتعالى .. وهم الأنبياء .. فكان أبو إبراهيم كافرا رفض أن يؤمن .. وكان ابن نوح كافرا رفض أن يؤمن .. ورفض أن يركب مع أبيه السفينة .. قال :

﴿ سَعَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النور)

وكانت امرأة لوط وامرأة نوح غير مؤمنتين .. خانتا زوجيهما .. فلم يغنيا عنها من الله شيئا .. وكانت امرأة فرعون مؤمنة .. فلم يصبها كفر زوجها بأذى .. وبني الله لها قصرا في الجنة .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم في سورة التحريم :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَاتِ نُوحٍ وَأَمْرَأَاتِ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ

﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَاتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

فِي الْجَنَّةِ وَنَجَّيْنَا مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾

ويلاحظ هنا في القرآن الكريم .. أن الله سبحانه وتعالى لم يقل على لسان امرأة فرعون ونجني من زوجي .. لأنه في هذه الحالة مادام كافرا وهي مؤمنة .. فلا زواج بينهما .. بل إن صلة النسب تختفي .. فنوح عندما قال لله بعد أن وعده بأنه سينجيه وأهله من الغرق :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ

الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْمَعَنَّ

مَالِيَسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾

(سورة هود)

فهذا يدل على أنه فضلا عن أن أهل أي نبي هم المتبعون لمنهجه .. فإن إنسان لا يجاسب عن وزير يرتكبه إنسان آخر .. وهكذا نجد ان امرأة فرعون .. رغم أن زوجها وكل المحيطين بها كانوا كفارا .. فإنها حينما توجهت بالدعاء إلى الله أن يبني لها قصرا في الجنة وينجيها من فرعون وعمله .. لم يتقبله منها فقط .. بل ضرب بها مثلا في القرآن الكريم حتى لا تأتي امرأة يوم القيامة .. فتقول ان زوجي كان كافرا فاتبعته .. أو يأتي رجل يوم القيامة فيقول أن زوجتي كانت كافرة فأغوتني .. أو يأتي أي إنسان فيقول إن أباه أو عمه قد أغواه .. نقول لهؤلاء جميعا ان عدل الله سبحانه وتعالى شاء « ألا تزر وازرة وزر أخرى » .. ومن هنا فإنك إن ابتعدت عنهم ولم تشترك معهم في الكفر وأمنت بالله فلن يضرك كفرهم شيئا .. وإذا اتبعتهم على أن يحملوا أوزارك يوم القيامة .. لا يحملون منها شيئا .. وستحمل أنت هذا الوزر .

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ولا تعتقد أن الذي يحمل منهجا ولا يعمل به هو في حماية من العذاب . . بل حمل المنهج أساسه العمل به . . تلك هي القاعدة التي يريدنا الله سبحانه وتعالى لعباده . . ومن هنا فقد ضرب المثل للذين يحملون منهج الله ولا يعملون به . . فقال في سورة الجمعة :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

. . أى أنه شبه الذين لا يعملون بالمنهج مع أنهم يعرفونه . . كمثل الحمار الذى يحمل مجموعة من كتب الحكمة والعلم . . هل يستفيد منها شيئا ؟ طبعا لا يستفيد . . مع أن الناس حين يعرفون أن إنسانا يحمل منهجا فهم يتبعونه أو يطيعونه . يقول لهم الله سبحانه وتعالى . . لا تغفروا لمن يحمل المنهج ولا يعمل به . . ولا يغركم أنه يحمله . . ويتساءل الناس كيف ذلك ؟ فيعطيهم الله الصورة التي تقرب مثل هذا الإنسان إلى عقولهم بصورة محسوسة يرونها أمامهم كل يوم . . فيقول لهم أن هذا الشخص مثل الحمار الذى يحمل كتبا فيها قيم وعلم وحكمة . . هل يستفيد منها شيئا ؟ مهما كان يحمل من كنوز . . هؤلاء تماما كهذا الحمار . . قد يحملون علم الدنيا كله . . ولكنهم لا يعرفون شيئا . . ولا يستفيدون شيئا . . وذلك أيضا مثل الذين كفروا بآيات الله .

على أن الله ضرب في القرآن الكريم أمثالا للعمل الطيب والعمل السيء . . والكلمة الطيبة والكلمة السيئة . . والحق والباطل . . وضرب مثلا لعيسى عليه السلام فقال «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم . . خلقه من تراب ثم قال له كن » . . وهذه الأمثال هي موضوع كتابنا القادم إن شاء الله . . والله يسر لنا السبيل . . ويهدينا إلى صراط مستقيم .

رقم الايداع ٩٣ / ٣٣٢٧
I. S. B. N
977 - 08 - 0180 - 1

۷

معجزات الهی

محمد متولی الشعراوی

تقديم

الأمثال .. في القرآن

لماذا ضرب الله الأمثال ؟

إن الله سبحانه وتعالى حين ضرب الأمثال ربطها بموكب الايمان وربطها بالهدى والضلال . فكأنما هذه الأمثال أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعها أمام المؤمنين ليرد بها على قضية مثارة ، أو يلفتهم لفتة إيمانية ، أو يبين لهم مثل الكافرين .

والأمثال كما قلنا لاتشبه شيئاً فردياً بشيء فردي ، ولكن المثل يأتي لتقريب فكرة ما إلى الذهن البشري ، بحيث يستطيع أن يستوعبها . ولا يشترط أن يكون المثل من نفس نوع الشيء الذي نتحدث عنه . ولكن يشترط أن يعطينا الفكرة التي نريدها أن تكون واضحة في أذهان الناس .

وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى من الأمثال بالقرآن الكريم ، أن يوضح لنا ويقرب إلى أذهاننا معالم هي غيب عنا . ذلك أن عالم الغيب لا يصل إليه العقل البشري مهما اجتهد ، لأن هذا العالم محجوب عنا .

ولكن كما اقتضت قدرة الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وتسخيرها للإنسان ، اقتضت رحمته أن يضرب في

تقديم

منهجه الأمثال ، ليقرب إلى عقولنا المحدودة ما لا نستطيع أن تصل إليه ، ذلك أن هناك أشياء حسية أطلعنا الله عليها ، وأشياء أخرى اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تظل غيبا عنا ، كاختبار وامتحان إيماني وتثبيت للايمان فإن الله قد قرب إلينا ما هو غيب عنا بأمثال نعرفها ونحسها في حياتنا .

ولقد تناولنا في الجزء السادس من الكتاب الأمثلة التي ضربها الله سبحانه وتعالى حول : مواكب الرسل ، ومواكب الايمان ، ومثل الكافرين ، ومثل التحدى ، ومثل الحياة الدنيا .

وفي هذا الجزء نكمل الأمثال في القرآن الكريم ، وهي التي تقرب لنا معاني الجنة والنار ، ومعاني الغرور النفسى واتباع الشياطين ، ومثل عيسى وأدم عليهما السلام ، ومثل الرقم ١٩ الذى ضربه الله سبحانه وتعالى لملائكته الذين يقفون على أبواب النار .

ونرجو من الله أن نكون قد وفقنا في خواطرننا حول هذه الأمثال .

الفصل الأول

ملك المعصية

مثل المعصية

منهج الله سبحانه وتعالى هو اختبار حب الله في النفس البشرية . . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق أجناسا كثيرة . . وأراد أن يعطيها الاختيار في أن تطيع . . أو لا تطيع . . فلم تقبل . . وقالت . . رب إننا نريد أن نكون مقهورين على حبك وعبادتك ، ولسنا مختارين . . ولذا قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

(سورة الأحزاب ٧٢)

ومن هذه الآية يتبين عدل الله سبحانه وتعالى بالنسبة لخلقه . . ذلك أنه قبل أن يلزمه . . عرض عليه . . فمن لم يقبل منهم بقى مكرها . . ومن قبل مختارا كان عدلا أن يحاسب على اختياره .

إذن منهج الحياة كلها هو اختبار حب الله في النفس البشرية . . وإغراء الشيطان كله يتركز حول نقطة واحدة . . هي أن يجعل الانسان يترك حب الله . . ويذهب الى حب من هم دون الله مما لا يضر ولا ينفع . . وبذلك ينقل الانسان من رحمة الله الى خارج موجبات هذه الرحمة . . فيضل الانسان في الأرض ويشقى لأنه يعمل بالقدرات البشرية . . دون الاستعانة بقدرة الله سبحانه وتعالى .

تلك هي القضية الأساسية للايمان . . وإذا حللنا أحداث الحياة كلها نجدها إما حب لله وطاعة له . . وإما حب لغير الله ومعصية لله . . فالذى

مثل المعصية .

يأكل المال الحرام إنما ارتفع في نفسه أو زاد فيها حب المال على حب الله . .
فانطلق الانسان وراء المال ونسى طاعة الله . . وأحب المال أكثر من حب
الله سبحانه وتعالى . . والذي يفسد في الأرض ارتفع عنده حب شهوات
النفس الى أكبر من حب الله . . فاطلق لشهواته العنان ونسى الله . . وفي
كل حدث من أحداث الدنيا يمر عليك فيه إختبار لحب الله في النفس . .
فأنت إذا تركت نفعا عاجلا كمال أو شهوة حرام في سبيل الله . . فإن حبك
لله سبحانه وتعالى يكون أكبر من حبك لما هو دونه . . وأنت إذا قضيت
بالعدل . . وأنصفت مظلوما ووقفت مع الضعيف . . اوراعيت الله في
مالك وبيتك . . فذلك هو حب الله في نفسك دفعك ربما أن تعرض نفسك
للأذى في سبيل حب الله سبحانه وتعالى .

وإذا رجعنا الى قصة ابراهيم أبي الأنبياء خليل الله وإسماعيل . . ماذا
نرى ؟ . . نرى أن ابراهيم عليه السلام قد رأى رؤيا في المنام أن الله
سبحانه وتعالى يأمره بذبح ولده إسماعيل . . فقال الله تعالى على لسان
ابراهيم عليه السلام في (سورة الصافات الآيات ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ
مَآذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأَبَّأُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾
فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا بَرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

مثل المعصية

وهنا نقف وقفة . . نحن نعرف أن إبراهيم عليه السلام لم يرزق بإسماعيل إلا بعد فترة طويلة مرت عليه عدة سنوات ، وهو لم ينجب من زوجته سارة ثم تزوج بهاجر وهى مصرية ، وأنجب منها إسماعيل . . إذن هذا الطفل الذى جاء بعد سنوات عديدة يكون غالبا جدا على الأب . . وإذا أضفنا الى ذلك أنه بلغ معه السعى ، أى أنه كبر واقترب من مرحلة الشباب يكون تعلق أبيه به أكبر . . باعتبار أنه معين له فى شيخوخته . . حينئذ يأتى أمر الله فى المنام ليأمر إبراهيم أن يذبح ابنه . . ماذا يمكن أن يحدث فى هذه الحالة . . أب قد بلغ مرحلة الشيخوخة وابنه الوحيد . . وفى السن التى يعتمد فيها الأب على الابن . . ثم يأمره الله أن يذبحه . . أهناك اختبار لحب الله فى القلب أكبر من هذا الاختبار .

ولا يأمره الله سبحانه وتعالى أن يذبح بعيدا عنه . . حينئذ تكون المصيبة أهون . . بأن يتركه هو ويرحل ولا يرى شيئا . . ويأتى غيره لذبحه . . ولكن الله يأمر أن يقوم إبراهيم نفسه بذبح الابن . . ويمسك السكين بيده . . ويضعها على عنق ابنه ليذبحه .

اختبار كبير

أرأيت اختبارا أكبر من هذا لحب الله سبحانه وتعالى ؟ وهل من يمثل لهذا الأمر . . يكون هناك شىء فى قلبه أقوى من حب الله . . ومن منا إذا قيل له إن الله يأمرك أن تذبح ابنك الوحيد . . وأنت شيخ لا يرجى لك بأسباب الدنيا أن ترزق بغيره . . من منا يمثل لذلك . . إلا أن يكون

مثل المعصية .

حب الله في قلبه أكبر من الدنيا بما فيها . . لأن الانسان قد يضحي بماله . . وقد يضحي بزوجته . . ولكن عندما تأتي مسألة الابن تكون عملية قاسية على النفس .

ومع ذلك أخذ إبراهيم ابنه . . وأخذ السكين . . وانطلق به الى حيث تتم عملية الذبح . . وهنا جاء الشيطان محاولاً أن يغري إبراهيم بالمعصية ، أو أن يثير إسماعيل على أبيه . . فكان رد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هو رميه بالجمار ليبتعد عن طريقهما . . ولم يستطع الشيطان أن يجد منفذاً الى قلبيهما .

وانطلق إبراهيم عليه السلام الى المكان المحدد . . وأمسك بالسكين ليذبح ابنه طاعة لله سبحانه وتعالى . . ولينجح في اختبار حب الله في النفس . . ذلك الحب الذي يعلو كل شيء . . حتى على حب الأب الشيخ لابنه الوحيد .

حينئذ ينزل الملك بالكبش ليفدى إسماعيل عليه السلام . . ويعرف إبراهيم أن المسألة كانت اختباراً لحب الله في نفس إبراهيم . . وأن إبراهيم عليه السلام نجح في الاختبار .

ولم يكن هذا مثلاً غير متكرر . . وإن اختلفت الظروف . . ولكنه مثل يتكرر في الدنيا كل يوم . . ففي أول الاسلام . . وعند الهجرة . . ماذا حدث ؟ . . ترك المسلمون أموالهم وأولادهم وأسرهم وزوجاتهم ، وكل

مثل المعصية .

ما يملكون في مكة ، وانطلقوا الى المدينة مهاجرين الى الله . . تركوا كل متاع الدنيا من أجل الله ورسوله . . وكان هذا اختبارا لحب الله في نفوسهم . . ولو أن أحدا قال الآن : هيا نترك أموالنا وأولادنا وزوجاتنا وننطلق مجاهدين في سبيل الله . . لرأيت كل إنسان يتعلل لك بعذر . . فواحد يقول : إن أولاده صغار . . وآخر يقول يجب أن يبقى من أجل كذا وكذا . . فالجهاد والعبادة هما اختبار لحب الله سبحانه وتعالى في النفس البشرية . . وإذا وصلت النفس البشرية الى أن حب الله ورسوله فوق حبها للدنيا وما فيها من زوجة وولد ومتاع . . وصل الى أعلى درجات الايمان . . مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)

ليكون الحساب عدلا

والله سبحانه وتعالى قد خلق الناس مختارين ليكون الحساب عدلا . . ذلك فإنه رغم أنه رب العالمين . . إلا أنه لا يلزم بالتكاليف الايمانية إلا من آمن به . . ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو العبادات . . فإنه لا يقول يا أيها الناس . . ولكنه يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . . أى يا من آمنتم بي إلهها واحدا أحدا . . هذا هو الطريق الى عبادتي ومرضاتي . . أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتحكموا بالعدل بين الناس . . الى آخر التكاليف التي يضعها الله سبحانه وتعالى بالنسبة لمن دخل في عقد إيمان مع الله . . أما من لم يدخل . . ولم يؤمن . . فإن الله لا يكلفه بشيء . . لأنه ليس بعد الكفر ذنب .

مثل المعصية .

ولقد شاء الله سبحانه وتعالى . . رحمة منه بعقولنا أن يضرب لنا أمثلة في القرآن الكريم عن الانسان الذي يرى دين الحق وآيات الله في الأرض . . ثم بعد ذلك يتعد عنها . . ويتخذ من المعصية سبيلا . . فقال الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف :

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَلَاهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦)

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾

(سورة الحج آية ٧٢)

الله سبحانه وتعالى يبدأ المثل بقوله تعالى :

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ

(الأعراف ١٧٥)

مثل المعصية .

وهذا المثل لن نتحدث عنه في خصوصية من الخصوصيات . . بل سنتحدث في عموميته . . ذلك أن الأمثال في القرآن الكريم إنما ضربت للناس جميعا . . وهي تتكرر وتقع في كل زمان ومكان . . أبطاها بين الناس جميعا . . فإذا نظرت في أى عصر فإنك ستجد فرعون موسى في الحاكم الذى يريد أن يعبد فى الأرض من دون الله . . وستجد قوم نوح وقوم هود وقوم صالح . . وكل من استكبروا وعاثوا فى الأرض مفسدين . . وأكلوا الكيل والميزان . . والميزان هنا فى كل أمور الدنيا . . وكل حقوق البشرية . . والذين استكبروا وقالوا من أشد منا قوة . . الى آخر الأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم . . ستجدهم جميعا ممثلين فى أمم موجودة فى الأرض . . حتى الذين يعبدون الأصنام والأوثان . .

والذين يعبدون البشر . . والذين يعبدون المال أمثال قارون وغيرهم . . كل هؤلاء أمثلة متكررة أمامنا فى الحياة . . حتى نرى ونعى ونعرف . . فلا نقع فى الضلالة . . ولا نبتعد عن طريق الله . . ولا نتخذنا كل المغريات التى يحاول الناس أن يقدموها لنا . . وهى حق يراد به باطل .

آيات الكون

آيات الله فى الكون ظاهرة ومعروفة . . والعقل يهتدى إليها والفترة تهتدى إليها . . وعدل الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون آياته فى كونه منذ

مثل المعصية

بدء الخليقة حتى قيام الساعة ظاهرة للناس أجمعين . . فهذا الكون بكل ما فيه من معجزات ومن شمس وأقمار وسماء وأرض وجبال وبحار ونبات وحيوان وإنسان هو من آيات الله سبحانه وتعالى . . ولا يستطيع أحد أن يدعى مهما تكبر في الأرض وعلا أنه هو الذى خلق الشمس ، أو خلق الأرض ، أو خلق النجوم ، أو خلق نفسه . . فتلك قضية تغلب كل كافر . . ولقد أشار الله سبحانه وتعالى الى ذلك في القرآن الكريم في مواضع كثيرة . . وبين أنه لا أحد يستطيع أن يدعى الخلق . . أو حتى وضع نظام الكون . . عندما كان الذى آتاه الله الملك يقارع الحجة بالحجة مع إبراهيم عليه السلام . .

فقال إبراهيم : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ فقال الملك المتكبر ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ (سورة البقرة ٢٥٨) مشيراً الى أنه قد يحكم على إنسان بالموت فكأنه يميت ثم بعد ذلك يعفو عنه فكأنه يحييه . . ولو أن هذه القضية تحتاج الى مناقشة لأن القتل هو نقض للبنية يجعل الروح تخرج من الجسد . . أما الموت فهو انتهاء الأجل فى الحياة مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى ﴿ أفإن مات أو قتل ﴾ (آل عمران ١٤٤) أى أن الله فرق هنا بين الموت والقتل .

ماذا حدث بالنسبة لابراهيم عليه السلام ؟ قال : ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذى كفر ﴾ (سورة البقرة ٢٥٨)

مثل المعصية .

أى أنه عندما أشار إبراهيم عليه السلام الى نظام الكون فقط . . بل الى جزء يسير جدا من نظام الكون وهو شروق الشمس وغروبها . . فبهت الذى كفر . . وسقطت حجته ولم يستطع الاجابة .

إذن آيات الله فى الكون التى تدل على أنه الخالق موجودة وظاهرة أمامنا جميعا . . والايان فىنا بالفطرة . . وللعقل أن يناقش كيف يشاء . . وغاية ما يستطيع العقل أن يصل اليه . . أن هناك خالقا لهذا الكون وضع هذا النظام البديع . . وأن هذا الخالق سبحانه وتعالى قد سخر للانسان كل القوى الموجودة فى هذا الكون لخدمته . . وهذه القوى هى أقوى من الانسان ملايين المرات . . أى أن الانسان لا يستطيع أن يسخرها بقدراته هو . فلا يستطيع أحد أن يسيطر بقدراته على الشمس أو البحار أو الأمطار أو الجبال وغيرها . . ومع ذلك فكل هذه الأشياء تخدم الانسان وتعيه فى حياته فإنما هى مسخرة لخدمته من قوة أعلى هى التى خلقتها وهى التى سخرتها . . وحينئذ يهتدى العقل الى أن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون .

ولكى يعرف الناس ماذا يريد الله سبحانه وتعالى منهم مقابل ما سخر لهم من النعم . . كان لابد أن يرسل الله رسولا يبين منهجه فى الكون . . وأن يكون هذا الرسول مؤيدا بمعجزة تحرق قوانين الأسباب حتى يصدق الناس ويطمثوا أنه مبلغ عن الله سبحانه وتعالى .

مثل المعصية

إذن آيات الله في الكون هي معروفة ومحسة لنا جميعا . . ولكن الانسان يرى هذه الآيات وينسلخ عنها . . أى أنه يتركها واحدة بعد الأخرى . . يبدأ بالتخلي عن واحدة وينكر الثانية . . وينسى الثالثة ، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا . فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير القلوب على قلبين : على أبيض مثل الصفا . فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض . والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا »

عداوة الشيطان

يترك الانسان نعم الله واحدة بعد الأخرى . . ومعنى يتركها أى ينكرها . . فإذا كانت عنده نعمة الصحة ادعى أن ذلك من قدراته الذاتية ، لأنه يفعل كذا ويمشى على نظام كذا . . وإذا ذكر بالكون أخذ ينكر أن الكون مسخر له من الله . . وادعى أن ذلك إنما هو الطبيعة . . ثم بعد ذلك ادعى لنفسه أنه صانع الحضارة . . وصانع العلم ، وصانع التقدم ، الى آخر ما نسمعه .

حينئذ ماذا يحدث ؟ . . الذى يحدث أن الله سبحانه وتعالى يتخلى عنه . . ويتركه لقدراته التى عبدها . . أولالآهة من البشر الذين عبدهم . . ماذا يحدث فى هذه اللحظة ؟ . . يكون الشيطان متربصا له . . لماذا ؟

مثل المعصية .

لأن الشيطان للبشر . . . عداوته دفينه وعميقة منذ بداية عهد البشرية . . . فهو يحقد على آدم . لأن الله كرمه عليه . . . وأمره بالسجود له . . . ويزداد حقدا لأنه هو السبب أو الوسيلة التي أغوى بها وقادته الى معصية الله والى الطرد من الجنة . . . والى العذاب في الآخرة .

والانسان مع الله في حماية من الشيطان . . . لماذا ؟ . . . لأن الله يدافع عن الذين آمنوا . . . ولأن الله يشب الذين آمنوا . . . ومن هنا فإن الشيطان لا يجرؤ على أن يقترب من عباد الله المخلصين . . . لأن الله سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ إلهاد الله المخلصين ﴾

(سورة الصافات ٤٠)

ولنضرب مثلا ولله المثل الأعلى . . . إذا كان أمامى حمل ثقيل لا أستطيع أن أحمله . فماذا أستطيع أن أفعل لأقوم بهذا العمل . . . بلا شك إنى سأحاول أن أستعين بمن هو أقوى منى ليعينى عليه . . . حينئذ لوجاء الرجل القوى وحملا ذلك الحمل الثقيل معا فإننا نستطيع أن نرفعه . . . فإذا كانت قوة الإنسان الأقوى تعين . . . فما بالك بقوة الله سبحانه وتعالى حين تكون معك . . . حينئذ يصبح هذا الحمل لاشيء . . . ولكنك إذا كفرت بالله - والعباد بالله - واعتمدت على نفسك فماذا يحدث . . . ستسقط أنت وما تحمل على الأرض . . . وما تقوى عليه أبدا . . .

كذلك غواية الشيطان . . . مادام معك الله . . . فلن يستطيع أن يسقطك أبدا على الأرض حتى لو كنت تحمل أثقال الدنيا كلها . . . فأنت

مثل المعصية .

تدخل على الحياة بكل أثقائها وفي قلبك الايمان الذى يجعل الصعب سهلا
والمستحيل ممكنا . . يهون الله أمامك كل صعب . . ويفتح لك من أبواب
رحمته ما يجعلك تحمل على كتفك ثقلا واحدا من أثقال الحياة . . حينئذ
لا يجد الشيطان الى نفسك مدخلا .

جزاء الاحسان

ولكن ماذا يحدث إذا تركت الاستعانة بالله ، واستعنت بمن هم دون
الله . . أولا يسلط الله عليك خلقه . . فذلك الذى تعتقد أنك قد أرضيته
نفاقا ورياء وباطلا . . وارتكبت فى سبيله السيئات والمعاصي . . وظلمت
الناس لترضيه تجده أول من ينقلب عليك ، ويقابل الاحسان بالاساءة . .
ولأنه إحسان لم تقصد به وجه الله فإنه لا يعود عليك إلا بالسوء . . والأمثلة
أمامنا كثيرة كل يوم من أناس يشكون الجحود ومقابلة الاحسان
بالاساءة . . أقول لهؤلاء جميعا إنكم لم تقصدوا بإحسانكم وجه الله . لأن
الله يقول :

﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾ (سورة الرحمن ٦٠)

ولكن قصدتم إرضاء بشر فجاءكم الجزاء بمقاييس البشر .
ثم يسلط الله عليك هم الدنيا . . فتبدأ تحمل هم ما هو قادم أو ما هو
غيب عنك . . وتحس بعجزك أمام الأثقال التى تتوقعها . . وبما أنك تعبد
عقلك . . والعقل لا يجد لك الحل . . فإنك أحيانا نلجأ الى الانتحار . .
وأحيانا أخرى تنغمس فيما يغيب العقل .

مثل المعصية .

والمهم في هذا كله أن الدنيا كلها تنقلب الى شقاء داخل النفس . .
يؤرقها ويعذبها .

وحيث يأتى دور الشيطان الذى اتبعك . . ويبدأ الشيطان غوايته بأن
يخوفك من الدنيا . . يخوفك من رئيس أو حاكم ظالم فتعينه على ظلمه . .
ويخوفك من رزق قادم فتمد يدك الى المال الحرام ، مدعياً أنك بذلك تؤمن
مستقبلك ومستقبل أولادك . . ويخوفك من وظيفة أو منصب يزول
عنك . . فتحاول أن ترضى رؤساءك بدلا من أن ترضى الله . . وتجد
نفسك فى دوامة من الخوف مصداقا لقول الله :

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾

(آل عمران ١٧٥)

وتظل تدور فى دائرة الخوف حتى تفقد الحياة كل معنى لها . . وتجد
نفسك غير آمن على حياتك وأولادك . . تحس دائما بالقلق يقتلك . .
وترى فى الغد صورة مفزعة للحياة والمستقبل .

تلك هى عداوة الشيطان للإنسان . . وعندما يأتى يوم القيامة يتبرأ
الشيطان من كل هذا . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :
﴿ فَاتَّبِعْ الشَّيْطَانَ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (سورة الأعراف ١٧٥) أى أن
الشيطان زين له الباطل وجعله يغويه . . بأن أظهره له فى غير حقيقته . .
فى صورة مزيفة ولكنها وردية . . متاع الغرور فى الدنيا . . كأن تملك

مثل المعصية

وتملك وتملك . . . سيارة وعمارة وأرضا . . . وكل هذا هو من أساليب
الغواية . . . لأنه لا أحد يملك شيئا إلا الله سبحانه وتعالى . . . فنحن كما
دخلنا الدنيا نخرج منها . . . لا نحمل إلا حسناتنا أو سيئاتنا .
ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٦) .

يقول الله سبحانه وتعالى إن هذا لا يحدث رغما عن مشيئة الله جل جلاله
وتعالى وعلا . . . ذلك أن الله شاء أن يعطى للانسان حرية الاختيار بين
الحق والباطل . . . وبين الطاعة والمعصية . . . فباديء بدء . . . كون أن
الانسان يملك القدرة على الاختيار وليس مقهورا كالشمس والجبال والأرض
والحيوان . . . كون هذا حدث فهذه مشيئة الله . . . في أن يعطيه حق
الاختيار . . . ذلك أنه لا شيء يحدث في الكون ضد مشيئة الله سبحانه
وتعالى . . . بل كل ما يحدث في الكون هو بمشيئة الله .

معنى المشيئة

الله سبحانه وتعالى يريد أن ينهنا هنا الى حقيقة مهمة أنه سبحانه وتعالى
ليس عاجزا عن مواجهة الكافرين . . . ولا هو غير قادر على أن يهلكهم . . .
وأن كل ما يحدث في الكون بمشيئة الله سبحانه وتعالى الذي شاء أن يخلق
الانسان مختارا ليكون الحساب عدلا . . . وتكون الجنة حقا والنار حقا . . .
فكل إنسان صالح لأن يفسد أو يصلح . . . وفي هذا شاءت إرادة الله

مثل المعصية .

سبحانه وتعالى بعد أن بين له طريق الحق وطريق الضلال . . شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يتركه مختاراً ليلقى جزاءه . . فإذا أتى الله أتاه مختاراً دون جبر من الله سبحانه وتعالى . . وإذا اتخذ سبيل المعاصي تركه الله يمضى فيه ، لأن الله تعالى لا يهدى القوم الضالين والقوم الفاسقين . إذن لا يعتقد أحد أن إنساناً يعصى الله تحدياً أو عدم قدرة . . ولكنه يعصى الله سبحانه وتعالى لأن إرادة الله سبحانه وتعالى شاءت له أن يقدر على المعصية . . كما يقدر على الفلاح والايان .

إذن لو شاء الله سبحانه وتعالى لرفعه بهذه الآيات . . ولفتح له طريق الايمان . . ولكن إرادة الله التي شاءت أن يخلق الانسان مختاراً . . هي التي جعلت الانسان صالحاً للمعصية وصالحاً للتقوى . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ولكنهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٦)

وهنا يبين لنا الله لماذا تخلى عن هذا الانسان العاصي أو الكافر . . ذلك أنه أخلد الى الأرض فاعتقد أن الخلود والبقاء في الأرض وحدها . . إما لأنه أنكر البعث والأخرة واعتقد أن الخلود والبقاء في الفترة الزمنية التي يعيشها في الأرض فعمل لها وحدها . . وهنا فهو لم ينظر إلا الى النفع المادى الذى يعطيه الحياة الأرضية دون ما نظر الى القيم في الحياة . . أى أنه عمل من أجل الحياة في الأرض وحدها . . وزاد على ذلك أنه في هذا العمل لم يتبع الحق . . بل اتبع هواه . .

مثل المعصية .

وهنا لنا وقفة . . لماذا يذكرنا الله كثيرا بعملية إتباع الهوى . . أو هوى النفس . . ذلك لعدة أسباب . . منها أن الله سبحانه وتعالى قد جعل منهجه قائما على الحق . . والحق غالبا ما يكون ضد ما تهوى النفس . . فالنفس تهوى أن تأخذ ما لاحق لها فيه . . فالنفس تهوى مثلا أن تأخذ شقة جارك وماله وأثاثه وكل ما يمتلك . . وتضمه الى ما تملك . . والنفس تهوى الفائدة العاجلة . . وهى فى سبيل ذلك تكذب وتزور وتناق . . دون أن ترى أثر ذلك كله على المجتمع وكيف أنها تفسده . . والنفس تهوى أن يكون لها الكبرياء فى الأرض ، وأن تحصل على كل ما تريد دون ما عناء أو مشقة .

هوى النفس

ولكن هل يستقيم المجتمع الانسانى بهوى النفس . . ماذا يمكن أن يحدث لو أطلقنا العنان ، وأبחנו لكل إنسان أن يسرق من المال ما يريد . . وأن يأخذ من حقوق غيره ما يشاء . . وأن يستعبد البشر ويسخرهم لخدمته . . ما الذى يمكن أن يحدث فى الكون . . إلا أن يتحول الكون كله الى مجموعة من العصابات والقتلة . . ويصبح كل إنسان غير آمن على حياته ولا بيته . . فبدلا من أن يسخر طاقاته لعمارة الأرض يسخرها لحماية نفسه . . وتصبح الدنيا كلها مجموعة من الفوضى بلا نظام وبلا أمن وبلا معنى . . لذلك وحتى فى الدول التى لا تتخذ من قيم الدين منهجا للحياة . . فإنها تضطر لإضطرارا لكى تضع قوانين تعطى الحماية لكل فرد لتستقيم الحياة .

مثل المعصية .

إذن فالمسألة هنا ضرورة . . يلجأ الناس إليها ليقوم المجتمع . .
وعندما يتعد الناس عنها يفسد المجتمع . . ويتحكم فيه هوى النفس فيكثر
فيه الظلم والرشوة والاختلاس والفساد والفاحشة . . والذي يتخذ هوى
النفس وسيلة ينسى أن الله سبحانه وتعالى قد نظم الحياة ليحمى حق كل
فرد فينا . . ذلك أنه حرم على مال غيري ، ولكنه حرم مالى على المجتمع
كله . . فالمستفيد من قوانين الله هو كل فرد في المجتمع .

ولله سبحانه وتعالى يعاملنا بحق الربوبية . . ولذلك فهو يرعى حقوقنا
جميعا . . ولا يبيح لمسلم أن يسرق كافرا . . ولا للمؤمن أن يعتدى على
عرض غير المؤمن . . فكل منا . . كل من خلق الله . . له حقوقه التي
يجب أن يحترمها الجميع بصرف النظر عن درجة إيمانه . . ولذلك عندما
سرق مسلم من يهودى وأراد الصحابة أن يمالئوا المسلم ويتهموا اليهودى
بالسرقة نزل قول الله سبحانه وتعالى فى سورة النساء (الآيات من
: (١٠٥ - ١٠٩) :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتِكَ اللَّهُ وَلَا
تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا
تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَيْمًا ﴿١٠٧﴾
يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا

مثل المعصية .

يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَاتَمٌ هَتُولَاءٌ جَدَلْتُمْ
عَنَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ
وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

وكان هذا القول فيه حسم لثلا يحاول الناس ممالأة إنسان لأنه مسلم على حساب الحق . . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى وهو الحق لا يرضى في منهجه بظلم مهما كانت أسبابه . . بل أن من قوة منهج الله أنه يحفظ حقوق الناس جميعا . . حتى إذا جاء من لا يؤمن بهذا الدين ويقع في خصومة مع من يؤمن به . . ووجد أن القضاء هنا لصالحه . . ووجد أن الدين لم يسلبه حقه ولم يبع ظلمه لأنه لا يؤمن به . . أحس بعظمة دين الله وبأنه دين الحق . . وربما دخل فيه واعتنقه . . فإذا لم يعتنقه كان هناك دوى في المجتمع كله عن هذا الدين الذي هو مع الحق وحده ، دون النظر لأي اعتبار آخر . . وفي هذا يحس الجميع بأن هذا الدين هو دين الحق . . لم يضعه بشر . . ولم ينبع عن هوى حتى ولو كان ذلك لا يخدم أولئك الذين اتبعوه . . بل ينبع عن الحق المطلق الذي لا يأتي إلا من الله سبحانه وتعالى .

إذن فأعدى أعداء منهج الله . . هو هوى النفس . . الذي يريد أن يقلب الباطل حقا . . وأن يعطى لكل إنسان ما لا يستحقه ظلما . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن ذلك الذي أخلد إلى الأرض . .

مثل المعصية

واعتبرها هي دار الخلود ويعمل من أجلها فقط ، فلا يفعل شيئاً إلا للمادة . . . وزاد على ذلك بأنه اتبع هوى النفس الذي يهدم كل عدل في المجتمع ويشيع الظلم والفساد . . . حينما يفعل أى إنسان ذلك . . . يكون قد ابتعد عن مشيئة الهداية لله سبحانه وتعالى فيتلقفه الشيطان ويراه يتخبط بين مادية الأرض وهوى النفس فيأخذ به الى الفساد . . . ويتخذة أداة لظلم الناس والاعتداء عليهم وسرقة حقوقهم .

إنه يلهث

حين يصل الانسان الى هذه الدرجة يشبهه الله سبحانه وتعالى الى أنه أصبح مثله . . .

﴿ فمثلته كمثل الكلب . إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾

(سورة الأعراف ١٧٦)

نلاحظ أن الكلب هو الحيوان الوحيد الذى يلهث دائماً . . . أما باقى الحيوانات فإنها تلهث حين تكون عطشى فقط . . . أى أننا إذا استعرضنا حيوانات الأرض نلاحظ أنها لا تلهث وتخرج ألسنتها إلا إذا كانت عطشى . . . أما الكلب فانه يلهث فى جميع الأحوال ، سواء كان عطشاناً أو يملاً بطنه الماء . . . جوعان أو شبهان . . . فذلك الانسان الكافر شبه بالكلب الذى يضع فمه فى كل شىء قذر نجس . . . وفى كل شىء له رائحة

مثل المعصية .

نتنة . . تماما كذلك الكافر الذي يضع اللقمة في فمه فلا يهيمه من أين تأتي . . ويضع أنفه في أشياء ويشترك فيها ولا يهيمه إن كانت قدرة أو نظيفة . . تؤدي الى إيذاء الناس أو إفساد المجتمع . . فهو يقدم كل ما هو دنيء ورخيص ويقبله من أجل المال .

هذا هو الوجه الأول للتشبيه . . فالكافر يقوم بأعمال كثيرة لا يقترب منها مؤمن . . ويقوم بأعمال لا تتسم بالخلق . . ولا ترتبط بأى قيم . . ويتهم الناس بالباطل ويدعى عليهم كذبا . . ولا يبالي إذا كانت أعماله هذه ستؤدي الى خراب البيوت . . وتشريد أطفال صغار والقضاء على أناس شرفاء . . ونشر الشقاء والذل .

ولا يحسب المؤمن أنه لو ترك الكافر وحاله سيسكت . . ذلك أن المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ﴾

(سورة الأعراف ١٧٦) .

ذلك أنك لو حملت عليه وهاجمته فإنه يحاول أن يرد هذا الهجوم مستخدما أقدر الوسائل اللاأخلاقية . . يضع أنفه وفمه في النجاسة ولا يبالي . . وإذا تركته هاجمك هو . . فالكافر لا يطيق المؤمن . . لأنه فى داخل نفسه هناك شىء يؤرقه . . هناك شىء يحس أنه يغلى فى داخله إنه يرى فى هذا المؤمن الخير الذى لم يستطع أن يحمل نفسه عليه . . لذلك فإن الكافر

مثل المعصية

لا يمكن أن يترك المؤمن دون أن يحاول أن يهاجمه أو يشوّهه . . . ويكفى لكى تعرف ذلك أن تأتى لبعض الناس الذين يفعلون المعاصى وضع بينهم إنسانا لا يفعلها . . . إذا كان بعض الناس يشربون الخمر وجلس بينهم واحد لا يشربها . . . انقلبوا جميعا عليه يحاولون أن يلحقوا به أذى بالكلام ، وأحيانا بالفعل لأنهم لا يطيقون وجوده . . . كذلك إذا وجد الشريف وسط اللصوص ، وجلس بينهم فى عمل واحد فإنهم يحملون عليه جميعا حتى ولو لم يهاجمهم هو . . . ولعل الايمان الذى خلق فينا بالفطرة يكمن داخل نفوسنا . . . وهذا الايمان من النفس التى رأت الله فى عالم الذر حينما أشهد الناس على أنفسهم وقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۗ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٢)

هذه النفس وصاحبها يرتكب المعصية تحس بهول ما ستلقاه . . . فتوجد فى داخله صراعا يجعله يريد أن يفتك بكل مؤمن . . . ويصور الله سبحانه وتعالى هذه الصورة فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا نُتُنَّا عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ۗ ﴾

(سورة الحج ٧٢)

مثل المعصية

إذن فالكافر لا يترك المؤمن . . بل هو يحاول بقدر الامكان . . إما أن يجعله يتبع طريقه . . أى طريق الكفر . . أو يهاجمه بشتى الوسائل . . لأنه يحس إحساسا داخليا بأن المؤمن أفضل منه . . ويحس إحساسا نفسيا بالذنب وهو يرى المؤمن المطمئن الثابت الذى لا تهزه أحداث الدنيا .

لعلمهم يتفكرون

وفى أى مجتمع تجد دائما الكفار أو غير المؤمنين يحاولون أن يبحثوا عن عورات المؤمنين ليشوهوا صورتهم أمام الناس . . بينما لو كان هناك إنسان كافر أو ملحد . . فإنه لا أحد يتبعه . . بل إن المجتمع يحاول أن يبرر له معاصيه وجرائمه . . وينسبها تارة الى حالة نفسية . . وتارة الى ظروف قاسية . . محاولا بذلك أن يجد له المبرر للمعصية .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى : فاقصص القصص لعلمهم يتفكرون « . . وهنا يريد الله سبحانه وتعالى أن يختم المثل الذى ضربه لنا عن المعصية والكفر . . وعن العاصين والكافرين . . فيقول مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم اقصص عليهم هذه القصة التى تشرح لنا كيف تتم الغواية وكيف يضل الانسان ويخرج من الايمان الى الكفر . . لعلمهم يتفكرون فيها ويعرفون أسبابها . . فإذا أحس أحدهم أنه بدأ ينصرف عن آيات الله ويتعد عنها . . يعرف أن هذا هو الطريق . . أو أولى خطوات الطريق ليفتنه الشيطان فى الدنيا ما دام قد دخل اليها غير متسلح بالايمان . . ولا مستعين بقدره الله سبحانه وتعالى .

مثل المعصية

حينئذ نكون قد وصلنا الى الهدف أو الغاية من المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى لنا . . ذلك المثل الذى يرينا أننا لا بد أن نتمسك بمنهج الله فى الكون ونلتفت الى آياته وتعاليمه . . وننظر الى ما يحدث أمامنا بفكر إيمانى . . فإذا أتى الناس هذا ثم انسلخوا عنه وتركوه . . فإننا لا بد أن نعرف أن الشيطان سيتبعهم . . وأن مشيئة الهدى والعون من الله سبحانه وتعالى ستتركهم لأنفسهم . . وحينئذ يحسون أن الأرض . . أو هذه الحياة القصيرة هى الخلود . . ويفقدون إيمانهم بالآخرة . . وما داموا قد فقدوا الايمان بالآخرة فإنهم سيصبحون فى هذه الحالة لا قيم عندهم . . يتبعون هوى النفس دون أى شىء آخر . . ويصبح مثلهم كمثل الكلب الذى يلهث إذا هاجمته . . ويلهث إذا تركته . . يستخدمون كل وسيلة مهما تكن غير شريفة وغير نظيفة . . ويصبح فى داخلهم غل لموكب الايمان . . فإذا هوجموا استخدموا جميع الوسائل فى الرد دونما رادع من خلق أوقيم أو دين . . وإذا تركوا وشأنهم هاجموا مواكب الايمان وتعرضوا لها بالزور والبهتان . . ذلك مثل المكذبين بآيات الله .

ولعل هذه الصورة تكتمل بقصة الخير والشر على الأرض . . تلك القصة التى ضربها الله سبحانه وتعالى لابنى آدم أول ذرية من البشر التى ارتكبت فيها أول جريمة قتل فى تاريخ البشرية . . وعن هذا المثل يحدثنا الله . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثاني

مَثَلُ بَيْتِ دَهْرٍ

مثل بنى آدم .

مثل الخير والشر في هذه الدنيا لا يجب أن يؤخذ بمقاييسنا نحن . . بل لا بد أن يؤخذ على اطلاقه . . لأن كل انسان منا خلق صالحا لفعل الخير . . ولارتكاب الشر . . أما ما يقع من الله سبحانه وتعالى فهو خير . . لكن بعض الناس يأخذ الشر بمقاييسه هو . . فمثلا اذا لم يذاكر ورسب في الامتحان . . اعتبر هذا شرا . . بينما هو خير عميم . . لماذا؟ . . لأنه هب ان كل انسان لم يذاكر ونجح في الامتحان . . ماذا سيحدث؟ . . سيترك الجميع المذاكرة ولا يتم تحصيل للعلم ولا تقدم في الحياة الدنيا . . ولذلك فان من جمال الأسباب في الحياة . . أن يرسب من لا يذاكر . . ومن جمال الأسباب في الحياة الا يجد قوت يومه من لا يعمل . .

ومن جمال الاسباب في الحياة أن تتخلف الأمم التي ينتشر فيها الفساد والسرقات . . ومن جمال الأسباب في الحياة ان تنتج الأرض وتعطى أحسن محصولاتها لمن يعتنى بها في البذرة وفي الري وفي كل مستلزمات الزراعة . . وذلك هو جمال أسباب الحياة الذي يضمن استمرار التقدم للبشر . . واستمرار الحياة في الكون . . وان يعمل الناس في عمارة الأرض كما يريد الله سبحانه وتعالى . . وليس هذا شرا . . بل هو خير لأنه اذا تساوى من يعمل ويأخذ بالأسباب ومن لا يعمل . . ضاعت الحكمة من الكون وضاع من البشرية التقدم . . لذلك فان من يهمل أرضه مثلا . . من الخير ألا تعطيه محصولا . . ومن يهمل عمله من الخير الا يعطيه دخلا . . وهناك في الكون من الأسباب ما ينفعل لك . . وما ينفعل بك . . فما

مثل بنى آدم

ينفعل لك يتم دون أى جهد شخصى . . ودون أى تفرقة بعدل الله . .
فالشمس تشرق وتعطى أشعتها للجميع : المؤمن والكافر . . دونما جهد
من أى منهما . . والهواء يتنفسه العاصى والمطيع . . دون أن يجبس عن
احدهما ويعطى للآخر .

اما الأسباب التى تنفعل بك . . فهذه بقدر ما تعطيها . . بقدر
ما تعطيك . . بلا ظلم . . فاذا اعتنيت بالأرض أعطتك المحصول
الجيد . . واذا اعتنيت بالصناعة لاقت رواجاً . . واذا اعتنيت بالتجارة
كان ربحك أكبر . . بقدر ما تعطى بقدر ما تأخذ والله يزيد على هذا . .
ويبارك لمن يشاء . . ذلك لأن الاسباب فى الكون لا تعمل بعيداً عن مشيئة
الله . . بل هى خاضعة لهذه المشيئة التى لا قيود عليها . . فلا قيود على
طلاقة قدرة الله تبارك وتعالى .

إلا أن قصة ابني آدم والقربان الذى قرباه إلى الله سبحانه وتعالى . .
والنهاية التى انتهت بها القصة بأن قتل الأخ أخاه . . فيها مثل ايماني على
الخير والشر . . كجانبيين من جوانب الحياة . . يستطيع الانسان أن
يستخدم أيا منهما .
قال الله تعالى :

﴿ * وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ

يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ

مثل بنى آدم .

إِلَى يَدِكَ لِنَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ
﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾

(سورة المائدة ٢٧ - ٣٠)

هذه الآيات الكريمة تضرب لنا مثل ابني آدم . . . أو تحكى لنا قصتها . . . ماذا حدث ؟ عندما بدأت البشرية في مزاوله مهامها على الأرض ، ونزل آدم وزوجه من الجنة وسكنا هذه الأرض . . . كان الله سبحانه وتعالى يرزقهما بذكر وأنثى في كل حمل تبدأ عمارة الأرض . . . وكان الذكر والأنثى اللذان جاءا في حمل واحد لا يتزاوجان . . . وإنما تتزوج الأنثى من الحمل الأول بالذكر من الحمل الثاني . . . والذكر من الحمل الثاني بالأنثى من الحمل الأول . . . هكذا علم الله آدم . . . والحكمة في هذا لم تكتشف الا في الفترة الأخيرة . . . كل شىء في الدنيا تأتى بشبيه له قريب منه ينشأ الناتج ضعيفا . . . وكلما بعدت كان الناتج قويا . . . هذه حكمة الله التى أودعها في خلقه . . . ولذلك فان زواج الأقارب اذا توالى ينتج سلالة ضعيفة . . . وذلك ينطبق على الحيوان وعلى النبات . . . وهذا ما نعرفه الآن باسم عملية التهجين . . .

على اننا نأتى بالبقرة من أمريكا مثلا ونقوم بعملية تهجين من البقر المصرى تنتج سلالة قوية . . . فاذا طمعنا بعد ذلك ولم نعد التجربة . . . باعتبار ان البقر الذى لدينا قوى . . . فانه في هذه الحالة تنشأ سلالة

مثل بنى آدم

ضعيفة . . تتوالى فى النزول . . فاذا أتينا مثلا ببذرة البطيخ الشيليان من أمريكا . . وزرعناها فى تربة مصر فإننا نجد المحصول جيدا وعظيما . . فإذا اخذنا من ناتج المحصول وزرعنا دون ان تتم عملية التهجين هذه . . يبدأ المحصول يضعف بالتدريج .

الله سبحانه وتعالى أراد ان يلفتنا إلى هذه الحقيقة فى قصة ابنى آدم . . بانه حتى فى أول الخلق تمت المباحة بقدر الاستطاعة بين من هم من حمل واحد . . فكان الابن لا يتزوج أخته التى هى معه فى الحمل نفسه . . حتى ينشأ الجيل الذى بعدهما قويا . . ولكننا لم نلتفت لهذا الا اخيرا . . كان ذلك أيضا من حكمة تحريم زواج الأخوات . . زواج الأخ وأخته . . وابنة الأخ وابنة الأخت . . وما شرعه الله سبحانه وتعالى فى الاسلام .

ماهى القصة

ابنا آدم هابيل وقابيل . . كان على كل واحد منهما أن يتزوج من الأخت التى جاءت فى الحمل مع الأخ الآخر . . فماذا حدث ؟ . . قابيل وجد أن الأخت التى جاءت مع هابيل فى حمل واحد دميمة . . أو غير مقبولة الشكل ، فرفض ان يمثل لما علم الله آدم من الحكمة . . وثار . . وقال لا بد أن أتزوج أختى التى جاءت معى فى حمل واحد . . ضاربا بما علم الله آدم . . وضاربا بتعاليم الله التى كانت تقضى بالفصل بين الأخوين والأختين فى حمل واحد .

مثل بنى آدم .

وذهب الأخوان قابيل وهاويل إلى آدم ليحكم بينهما . . فقال آدم : ان هذه هي الحكمة التي علمها الله له . . ولكن قابيل الذي كان يتهم أباه بالتحيز لهاويل رفض هذا الكلام . . وغرته قوته على أن يحاول فرض الأمر متجاهلا بذلك تعاليم السماء .

ولما اشتد الخلاف ورأى آدم أنه لا فائدة أراد أن يرد الأمر إلى الأمر . . أو إلى الله سبحانه وتعالى . . واقترح عليهما ان يقدموا قربانا إلى الله . . وما يحكم به الله . . أو من يتقبل قربانه يكون هذا هو صاحب الحق . . وفي هذا يكون احتكام إلى الله في أمر من أمور التشريع . . ووافق الأخوان على ذلك . . ذهب هابيل وأحضر أحسن ما عنده كبشا سميئا من أحسن ما يملك وجعله قربانا لله . . وذهب قابيل وأحضر حفنة من ثمرات لم يتخيرها وجعلها قربانا . . وهذا يدل على ان التقوى في قلب هابيل كانت أكبر . . وأنه عندما قدم قربانا إلى الله اختار أحسن ما عنده . . لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . . أما قابيل فقد غرته بشريته وقوته . . ومادام ظاهرا يستطيع ان يفرض الأمر الواقع ، فلماذا العناية ؟ ولماذا التقرب ؟ ولذلك جمع بعض ثمرات باهمال وجعلها قربانا .

ووقف الاثنان ينتظران حكم الله في القربان الذي قدماه اليه . . وجاء حكم السماء فنزلت النار ، وأكلت قربان هابيل ، علامة على التقبل من الله سبحانه وتعالى . . وأن الله يؤكد شرعه من أن ابن الحمل الأول يتزوج من ابنة الحمل الثاني . . وابن الحمل الثاني يتزوج من ابنة الحمل الأول . . ولكن هذا الحكم لم يعجب قابيل . . ولم يرض بحكم الله . . وثار وقال

مثل بنى آدم .

لأخيه : إن لم تخضع لرأى فسأقتلك . . وهنا رد هايل بأنه لا ذنب له فيما حدث . . ذلك ان الذى تقبل القربان والذى حكم ليس هايل . . ولكنه الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا قال هايل انما يتقبل الله من المتقين . . فلماذا تريد ان تقتلنى وأنا لا ذنب لى فى هذا ؟ والله سبحانه وتعالى هو الذى تقبل . . وقد تقبل منى لأنى تقى . . وهو يجب المتقين ويتقبل منهم . . وكيف تمت التقوى ؟ . . وكيف كانت ؟ . . ولماذا كان هايل تقيا ؟ . . لأنه رضى بحكم الله أولا . . فى أن يتزوج اخته من الحمل الثانى . . ورضى بحكم الله ثانيا فى القربان الذى قدمه . . ولذلك فهو يتبع تعاليم الله سبحانه وتعالى . . ويعمل وفق مرادات الله . . انه لا يحاول ان يشرع لنفسه بغير ما قضى الله . . ولا هو يحاول ان يعدل فى أحكام الله وفق هواه البشرى . . بل هو راض ومتبع لمنهج الله . . وهذه هى سمات المتقين .

رضى هايل بأن يتزوج أخته من الحمل الآخر . . فكافأه الله بان جعلها جميلة تسر الناظرين . . ورضى بالتحكيم لله بالقربان ، وقدم أحسن ما عنده . . فتقبل الله منه

يمثل ثورة البشر

ولكن هل يرضى قابيل بهذه النتيجة ؟ . . لا . . لا بد أن يمثل ثورة البشرية التى تحكم هوى النفس على المنهج الالهى . . ولا بد أن تغره قوته . . ويعتقد أنه يستطيع أن يفرض ما يشاء مادام قويا . . وكم من الأقوياء فى الدنيا يحس أنه بقوته التى مكنه الله منها يستطيع ان يفرض

مثل بنى آدم .

مايشاء ، ويعبث في الأرض ضاربا بمنهج الله . . ليحقق ما تريده نفسه رغم ما في ذلك من سلب حقوق الآخرين . . والاعتداء عليهم وظلمهم .
وهنا نأتى للحكمة الخالدة « إلى بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بياسط يدي اليك لأقتلك . انى أخاف الله رب العالمين » . . هنا يقول بعض الناس ان هذه سلبية من هابيل . . إذ كيف يترك أخاه ليقتله دون أن يدافع عن نفسه . . ولكنها في الحقيقة لا تمثل سلبية . . ولكنها تحكى ايماننا وبقينا . .
فهابيل يريد أن يثير نوازغ الخير في نفس اخيه . . هل هذا الخير يتغلب على الشر الذى ملأه . . وهو بذلك اتخذ أول خطوة يتخذها انسان مؤمن اذا اراد انسان آخر به سوءا في أن يحاول اثاره الخير في نفسه . . فتجد الانسان المؤمن اذا اراد انسان آخر به سوءا . . فانه يذكره بالله وقدرته عليه . .
ويذكره بالخير وماله من جزاء . . وكثيرا ما نسمع من يقول لانسان يريد شرا اتق الله . . أو يذكره بالله سبحانه وتعالى . . عل هذه التذكرة تجعله يتردد أو يفيق مما هو فيه . .

يضاف إلى ذلك انك إذا قلت لأى انسان يريد بك شرا . . مهما أردت بى الشر فلن أمد اليك يدي بالأذى . . فى هذه الحالة وفى أحيان كثيرة تسكن نفسه وتبتعد عن الشر الذى أراده . . مضافا الى ذلك صلة الرحم التى بين الأخوين . . والتى غالبا اذا قابل أحدهما اساءة الآخر بالاحسان تجعل الثانى يفيق ويبتعد عن الشر الذى يريده . . وهكذا لجأ هابيل كانسان مؤمن إلى محاولة اثاره عوامل الخير فى نفس قابيل عليها تردعه عما يريد ان يفعله وعن جريمة القتل التى يريد أن يرتكبها . . ثم يرفع هابيل الأمر إلى

مثل بنى آدم

الله سبحانه وتعالى ويذكر أخاه به فيقول :

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾

(سورة المائدة ٢٩)

أى انه يذكر أخاه بان جريمة القتل التى سيرتكبها جزاؤها كبير عند الله . . ذلك انه من يقتل انسانا فانه يحمل فوق جريمة القتل كل اثم المقتول وذنوبه ان كانت له اثم . . ويبقى فى النار مخلدا فيها . . ذلك ان الله سبحانه وتعالى لا يسمح لأى انسان بالعبث فى خلقه . . ولذلك فان الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾

(سورة النساء ٩٣)

. . ويقول جل حلاله :

﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(سورة المائدة ٣٢)

. . وفى هذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بالذنب العظيم للقاتل . . وأنه قد حرم قتل النفس البشرية الا بما شرع الله . . كأن يكون

مثل بنى آدم

القتل قصاصا على جريمة قتل ارتكبت بغير حق . . أو ان يكون لمنع الفساد في الأرض . . وفيما عدا ما شرع الله سبحانه وتعالى في قتل النفس . . فان القتل ذنب عظيم . . ولذلك حرم الله على عباده قتل النفس الا بالحق . . أى الحق الذى شرعه الله كقصاص على جريمة ارتكبتها هذه النفس .

أين الخير ؟

ولكن بالرغم من هذا التحذير . . ومحاولة اثاره كوامن الخير في نفس قابيل وتذكيره بالله وبالجزاء الذى ينتظره . . فان هذا لم يجعله يرتدع . . ذلك ان قوته وعبادته لنفسه وغروره بانه هو الأقوى ، وهو الذى يستطيع أن يقتل . . كانت كل ما يفكر فيه . . يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(سورة المائدة ٣٠)

وهنا لفتة من الله سبحانه وتعالى إلى أن النفس جبلت على الخير بفطرتها . . وأن الانسان هو الذى يطوعها ويقهرها لفعل الشر . . ولذلك فإن مسألة القتل قد احتاجت من قابيل جهدا ليطوع نفسه ويدفعها إلى الشر . . تماما كما يحاول كثير من الناس أن يذهب ليتناول كمية كبيرة من الخمر مثلا قبل ان يرتكب جريمة حتى تغيب هذا الخمر عوامل الخير في نفسه . . فيقدم على الجريمة في لحظة غياب الخير . . أو أن يظل المجرم في صراع نفسى وعقلى قبل الاقدام على جريمته . . يحاول أن يثير نوازع الشر في نفسه . . وأن يجعل الغل والحقد في قلبه . . حتى يستطيع أن يرتكب

مثل بنى آدم

جرمته دون أن يتردد . . . وكثير من الذين يتخذون سبيل الجريمة نجد أنه في المرة الأولى يحتاج إلى تطويع نفسى كبير حتى يستطيع ان يصبح قادرا على ارتكاب جرمته . . . فاذا فعل ذلك تركه الله سبحانه وتعالى للشيطان يزين له الجريمة . . . ويمنيه بأنه سيفلت من العقاب الدنيوى . . . وأنه سيحصل على مميزات كذا وكذا حتى يرتكب جرمته . . . ونادرا ما يرتكب أى انسان جريمة الا وهو واثق من أنه سيفلت من العقاب الدنيوى على الأقل . . . هكذا يزين له الشيطان . . . ثم بعد ذلك تقع الجريمة وتتكشف . . . ويخسر الانسان الدنيا والآخرة . . . على ان الانسان الذى يفعل ذلك هو انسان قصير النظر . . . يمتاز بالغباء . . . ذلك أن الذى يفكر فى العقاب الدنيوى فقط . . . انما يفكر فى شىء زائل وقتى . . . ويفرح بشىء لا ينجيه الا لفترة مؤقتة طالت أو قصرت . . . لأنه مهما اختفى عن أعين الناس ومهما استطاع بفكره وبمعاونة الشيطان ان يهرب من البشر . . . فانه لا يوجد مكان لا يراه الله فيه . . . ولا يوجد وقت يغفل الله فيه عنه . . . ولذلك فانه إن غفلت البشرية كلها . . . فان الله سبحانه وتعالى لا يغفل . . . وما قيمة البشرية وهو مغادرها . . . وكيف الهروب من الله وهو ملاقيه . . . والعقاب فى الدنيا على أساس قدرات البشر . . . والعقاب فى الآخرة بقدره الله سبحانه وتعالى . . .

وفرق هائل بين القدرتين . . . ولذلك لا يفرح انسان بأنه أفلت من العقاب البشرى ويحسب ان هذا فوز . . . بل هو خسران مبین . . . لانه إن أفلت فىلى أين يذهب ؟ وأين يختفى ؟ . . . وإلى أى مكان يهرب من لقاء الله ؟

مثل بنى آدم .

قتذن فقد كان تذكير هابيل لقابيل بعاقبة جريمة قتله بأنه سيكون مخلدا في النار هي فطنة المؤمن التي لا تخيب . . وهي ذكاء المؤمن الذي يعرف حقيقة الدنيا والآخرة . . وكان عدم اكتراث قابيل بهذا التذكير . . هو غباء الكافر . . الذي يعتقد ان العقاب الدنيوى هو نهاية المطاف . . وانه إن افلت منه قد أفلت نهائيا من العقاب . . واذا كانت النفس البشرية قد جبلت على الخير ، فان الانسان يطوعها للشر . . ولذلك فالأصل في الانسان . . والاصل في الكون هو الخير . . ولكن الانسان بقصر نظره واغتراره بقوته وقدراته هو الذى يدفع ويطوع هذه النفس للشر . . وهي صالحة لهذا وصالحة لذلك . . حسب تطويع صاحبها لها .

على أننا هنا لا بد لنا من وقفة . . ذلك ان الله سبحانه وتعالى يريد ان يذكرنا وينبهنا إلى ان ذلك الضعيف الذى لا يستطيع ان يدافع عن نفسه ضد الذى يحاول ايذائه أو الاعتداء عليه . . فان الله سبحانه وتعالى يقتص له . . ذلك ان الله قائم على خلقه . . قوام على عباده بالعدل والقسط . . وقد شاء عدل الله سبحانه وتعالى ان يعطى لعباده كلهم حقوقا متساوية . . وان يكون هو القائم أو القوام على هذه الحقوق . . بحيث اذا اعتدى قوى على ضعيف مستخدما بذلك قوته التي وهبها الله له فان الله يقتص منه . . فلا يحسب إنسان مهما يكن قادرا أو قويا بأنه سيفلت من العقاب . . ولا يحسب انسان مهما يكن ضعيفا وغير قادر أن الله لن يقتص له . . فعدل الله ماض فينا جميعا . . وكلنا عبيده . . لنا عنده نفس الحقوق . . وعلينا نفس الواجبات . . وذلك حتى تطمئن نفس الانسان الضعيف إلى ان ظلم

مثل بنى آدم

القوى له لن يجعله يفلت من العقاب . . وانه اذا كان هناك جبار في الأرض . . فجبار السموات أقوى وأقدر .

الخير . . والشيطان

وتمضى الآية الكريمة . .

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَاصْبِحْ مِنَ الْخٰلِيسِرينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة ٣٠)

أى انه حين استذله الشيطان . . ونسى الله . . وارتكب جريمة القتل خسر الدنيا والآخرة ولم يكسب شيئا . . ففي الدنيا باء بغضب من الله ، وذلك الغضب يجعل رحمة الله سبحانه وتعالى تبتعد عنه . . فينطلق من اثم إلى اثم لا يكسب شيئا . . وخسر الآخرة ، لأنه اصبح من اصحاب النار ، فلم يكسب الا الخلود في عذاب النار دون رجاء في الرحمة . كوينئذ تأتى الحكمة الخالدة التى ترى هذا الانسان الذى اغتر بنفسه انه لا يساوى شيئا . . وان قوته وعلمه وكل ما يملكه هو لا شىء عند الله سبحانه وتعالى . . وان الله قد يعطى من هو أضعف منه من العلم والقوة . . ما لم يعطه لهذا الانسان الذى غرته قدراته وقوته على معصية الله وارتكاب الاثم . . فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة المائدة ٣١)

مثل بنى آدم .

حينما تمت جريمة القتل بقيت الجثة أمام قابيل لا يعرف ماذا يفعل بها . .
لقد كانت هذه أول جريمة قتل في تاريخ البشرية . . وأول انسان ينتقل من
الحياة إلى الموت على ظهر الأرض . . ماذا يفعل قابيل فى الجثة . . هل
يتركها هكذا فى العراء ؟ . . أم ما الذى يحدث . . فتلفت قابيل حوله وهو
حائر عله يستطيع ان يهتدى إلى حل . . أو يجد طريقة يبعد بها جسم
الجريمة الذى يذكره بالأثم الكبير الذى ارتكبه . . يبعدها عن نظره . .
يواريها بعيدا . . فقد كان منظر الجثة والدماء يصرخ فى وجه قابيل صراخا
داخلى النفس وان لم يكن خارجها . . وكلما التقى نظره بجثة أخيه اراد ان
يبعده عنه . . لأن الجريمة تؤرق المجرم كلما تذكرها . . ولذلك فهو يحاول
ان يكتبها فى نفسه ، وينحيا بعيدا . . وأنت اذا أردت ان تهيج النفس
البشرية فذكر الانسان باثم ارتكبه أو بفعل لا يقره الله قام به . . حينئذ
تحس النفس البشرية بضيق . . لأن هذه النفس رأت الله وهى تعلم
ما ينتظرها من عقاب .

حينئذ دار قابيل بنظره حول المكان الذى ارتكب فيه جريمته محاولا ان يجد
وسيلة للتخلص من جثة أخيه أو إبعادها عن نظره . . فماذا حدث ؟ . .
ارسل الله سبحانه وتعالى غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة
أخيه . . كأن الله سبحانه وتعالى يريد ان يقول لقابيل . انت الذى غرتك
قوتك . . وغرتك مقدرتك . . وارتكبت جريمة القتل وعصيت . .
سأريك ما هى قوتك وماهى قدرتك . . وسأجعل الغراب الضعيف الذى
لا يضاهيك فى الحجم ولا يقترب منك فى القوة . . سأجعل هذا الغراب

مثل بنى آدم

الضعيف معلما لك . . يعلمك لتعرف قدر نفسك . ولتعرف أنك لا تساوى شيئا . . أنت ارتكبت جريمة القتل هذه اعتزازا بقوتك . . وغرورا بمقدرتك . . ولكنك عجزت أمام سوءة اخيك بعد أن اصبح جثة هي عورة لا بد ان تدارى . . ووقفت وأنت المغرور عاجزا تتطلع هنا وهناك لا تدرى ماذا تفعل . . وأنا أرسل اليك هذا الغراب ليكون أستاذا لك . . وقادرا فوق قدرتك . . فيعلمك كيف توارى سوءة أخيك ، حتى تعرف ان القوة لله وليست لأحد . . وأن المغرور بما أعطاه الله عاجز تماما أمام قدرات الله . . وليكن هذا لك آية . . لتعلم انه لا علم الا ما علمه الله لك . . ولا قدرة الا بما اعطاه الله لك

وتنبه قابيل للحكمة

وحيثئذ يتنبه قابيل إلى الحكمة من ارسال الغراب أو ينبهه الله سبحانه وتعالى إلى إرسال الغراب ليريه كيف يواري سوءة أخيه . . فيقول :

﴿ فَأُوْرِي سَوَّءَةَ أَخِي ۖ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ ۗ ﴾

(سورة المائدة ٣١)

وحيثئذ ينبه الله قابيل إلى الحكمة من ارسال الغراب ويتنبه لها . . ويعترف بعجزه أمام هذا المخلوق الضعيف . . ويتنبه للجريمة التي ارتكبها . . ولغرور النفس الذي سيطر عليه فيقول : ياويلتى ويعرف ان الويل والعذاب هو الذي ينتظره . . ثم يعترف بعجزه أمام العلم الذي اعطاه الله سبحانه وتعالى للغراب فيقول أعجزت أن أكون مثل هذا

مثل بنى آدم

الغراب ؟ . . أى أننى وأنا قوى الذى اعتقدت أننى بقوى استطيع ان افرض ما أريد . . وأن أحقق ما أشاء . . اكتشفت فجأة اننى عاجز . . وعاجز أمام من ؟ . . أمام من هو أقل منى قوة وقدرة . . أمام هذا الغراب . . حينئذ عرف قدراته الحقيقية وهو انه عاجز مهما خيل اليه انه قوى . . وأنه مهما بلغ من العلم . . أنه لاشىء مقابل ما يعطيه الله من علم لعدد من مخلوقاته . . وهذا العجز الانسانى اراد الله سبحانه وتعالى ان يظهره لنا حتى لا نحس بأننا نملك القوة والقدرة لنعصى الله . . مدعين أنها قدرات ذاتية . . فالانسان فى نفسه حقيقة عاجز عن أشياء كثيرة . . وهو استطيع ان يفعل . . أو يدعى انه استطيع ان يفعل مجازا . .

فالانسان عاجز أو غير قادر حتى على نفسه . . حتى على جسده . . من منا استطيع ان يأمر قلبه بأن يتوقف عن النبض . . أو يأمره اذا توقف ان يعود للنبض مرة أخرى . . من منا استطيع ان يأمر رئتيه بعدم التنفس . . كأن يقول قررت ألا أتففس لمدة ساعة حتى تستريح رئتاى . . ثم أعود إلى التنفس . . من منا استطيع ان يقول لمعدته اهضمى هذا الطعام . . أو لا تقربى هذا الطعام الذى نزل اليك . . من منا استطيع أن يقول لكبدته اعملى أو توقفى عن العمل . . بل إننا سنترك هذه الحركات غير الاختيارية . . لنناقش الحركات الاختيارية . . انت تمشى بقدميك . . أو هكذا تعتقد على الأقل . . ذلك انك حين تريد ان تمشى فانك تقوم وتمشى . . وحين لا تريد ان تمشى تجلس . . ولكنك اذا نظرت إلى أحد المصابين بأمراض مختلفة فى العمود الفقرى والأعصاب والمخ وغيرها . .

مثل بنى آدم .

تجد ان له قدمين ولكن لا يستطيع ان يمشى . . لو أن المشى قدرة ذاتية من الانسان لو أنه لا يعتمد على قدرة الله . . ولكنه نابغ من الشخص نفسه . . أكان من الممكن ان يكون لأنسان قدما ولا يستطيع ان يمشى ؟ . . أكان من الممكن والعينان وسيلة الابصار ان يكون لانسان عينان مفتوحتان ولكنه لا يرى ؟ . . أكان من الممكن ان يكون لأنسان يداً كاملتا النمو ولكنه لا يستطيع ان يحركهما ليفعل بهما شيئا ؟ . . أكان من الممكن ان يكون لانسان لسان ولكنه لا يستطيع النطق ؟ . . أوله أذنان ولكنه لا يستطيع السمع . . إننا نرى هذه الأمثلة أمامنا كل يوم وهى قليلة جدا فى الحياة بالنسبة لملايين البشر الأصحاء الأقوياء . . ولكنها مع قلتها لها حكمة . . بأننا نتحرك وفقا لارادتنا ولكن بمشيئة الله . . ونتكلم عندما نريد الكلام ولكن بمشيئة الله . . ونبصر بأعيننا ولكن بمشيئة الله . . فاين هى القوة والقدرة الذاتية للانسان فتجعله يغتر . . ويرتكتب المعاصى . . ويقول أنا . . وأنا . . وهو فى الحقيقة عاجز . . واين هو علم الانسان من علم الله الذى سيكشفه لنا فى الآخرة . . الذى يجعل الشئ يأتينا بمجرد ان نخطر على عقولنا . . اين هذا العلم من ذلك الذى أشار إليه الله سبحانه وتعالى فى قصة سليمان . .

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ

طَرْفَكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ

وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

(سورة النمل ٤٠)

مثل بنى آدم

أين علم الانسان ؟

أين علم الانسان من هذا كله . . . والذى عنده علم من الكتاب قد قام بنقل عرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس قبل أن يرتد طرف عين سليمان . . . أى قبل ان يرتفع جفن العين ويعود إلى الانخفاض مرة أخرى . . . أى فى مالا زمن . . . هذا قدر من عنده علم من الكتاب . فماذا يكون قدر من عنده علم الكتاب كله . . . فلا بد ان يعترف الانسان انه عاجز أمام قدرة الله سبحانه وتعالى . . . فلا يغتر ولا ينسب الفعل لذاته أو لشخصه . . . ولينسب الفضل كله لله . . . واذا لم يفعل فإن الله سبحانه وتعالى يأتي بأدنى مخلوقاته ويسلطه على هذا الجبار ليديه انه عاجز تماما . . . كما يأتي الله سبحانه وتعالى بجرثومة صغيرة لا تظهر ولا حتى تحت الميكروسكوبات العادية ولا الميكروسكوبات الالكترونية . . . يأتي بهذا المخلوق البالغ الدقة . . . والصغر ويسلطه على أكبر جبابرة الأرض الذين يعتقدون أنهم يقولون للشئء كن فيكون . . . والذين يقولون من أشد منا قوة . . . يسلط الله سبحانه وتعالى هذه الجرثومة عليهم فتدخل إلى اجسادهم فتجعلهم عاجزين . . . ويجمع أطباء الأرض كلهم بما لهم من علم . . . ويأتون بأحدث اكتشافات الدنيا ، واحسن عقاير بلا فائدة . . . ويبحث العلماء عن السبب فلا يعرفونه . . . وأحيانا امعانا من الله سبحانه وتعالى فى اظهار عجز خلقه يعرفون الداء ، ولكنهم لا يجدون له الدواء . . . ولعل هذا يذكرنا بما حدث بالنسبة لدول كبرى . . . رقد رؤساؤها فى المستشفى طويلا بلا حراك . . . بينما كانوا يدعون انهم أقوى الناس فى الأرض . . . ووقف حولهم علمهم وهو عاجز أن يفعل شيئا . . . ووقفت الدنيا بكل

مثل بنى آدم .

قدراتها وما وصلت اليه من علم واكتشافات عاجزة تماما أمام قدرة جرثومة صغيرة من خلق الله . . ثم بعد ذلك يتحدثون عن قدرة البشر . . وقوة البشر

هذا هو ما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا اليه عندما أرسل الغراب ليرى قابيل كيف يوارى سوءة اخيه . . ويجعله يتعلم ممن هو أقل منه قدرة وأضعف منه . . ذلك الغراب الذى يستطيع قابيل ان يقتله بحجر أو بيده اذا أمسك به . . ولا يستطيع الغراب ان يحمي نفسه . . ذلك الغراب بعثه الله معلما لقابيل . . ومعلما للبشرية كلها بعدم الغرور . . لأن من هو ادنى منك قد يعطيه الله من العلم أكثر مما يعطيك . . وأنت والقادر ظاهرا على أشياء كثيرة ربما تعجز أمام ادق مخلوقات الله سبحانه وتعالى وهى جرثومة صغيرة لا تعرف لها علاجا ولا تعرف لها دواء

بلم يكمل الله سبحانه وتعالى فيقول على لسان قابيل فقال ﴿ فأصبح من النادمين ﴾ . . أى ان قابيل حين تنبه إلى ضعفه وعجزه . . وعرف ان غرور قوته كان من الشيطان الذى يحاول ان يغرى الانسان على المعصية . . ثم بعد ذلك يهرب ساعة الجزاء مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ

مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الحشر الآية ١٥)

مثل بنى آدم .

فندم على الغرور الذى أدى به إلى هذه المعصية التى سيجازى عليها جزاء مهولا . . . لأن قابيل هو الذى سن سنة القتل فى الدنيا . . . مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) . . . أى ان كل جريمة قتل وقعت أو ستقع فى الأرض منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة سيقع اثمها على من عمل بها وعلى قابيل الذى استن هذه السنة السيئة .

إلى هنا ونأتى إلى الحكمة التى أرادها الله سبحانه وتعالى من قصة ابنى آدم التى جاءت فى القرآن الكريم . . . فبرينا أن الرضا بما قسمه الله وهو الخير . . . ولو أن قابيل رضى بما قسمه الله وتزوج اخته التى جاءت فى الحمل مع أخيه هابيل . . . لكان ذلك خيرا له . . . ولوقاه شرورا كبيرة . . . ولوقاه الخلود فى النار . . . ولكن عدم الرضا بما قسمه الله والذى يضع الشر فى النفس البشرية ويقودها إلى طريق التهلكة . . . والمؤمن هو الذى يعلم دائما أن الخير فيما اختاره الله يفعل ما فى وسعه ويأخذ بالاسباب . . . فاذا جاءت النتيجة وفق هواه فهو خير . . . واذا كانت النتيجة عكس هواه . . . فهو أهول . . . كان سيؤدى به إلى الشر . . . والله وقاه بأن أعطاه الخير . . . بدلا من أن ييسر له الشر . . . والمؤمن عليه أن يرضى بحكم الله . . . والله تقبل قربان هابيل . . . وكان على قابيل ان يرضى بهذا الحكم ويمثل له . . . ولكنه بدلا من ذلك وضع نفسه فى مرتبة العليم . . . ورفض تقبل حكم الله . . . وان الله سبحانه وتعالى يتقبل من المتقين . . . فاذا أردنا ان نتقرب إلى الله . . . فلا بد ان تكون التقوى فى قلوبنا أولا . . . وان نتخير الطيب نتقرب

مثل بنى آدم .

به إلى الله ولا نختار الخبيث والاشياء التالفة والعفنة لأن الله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل الا طيبا . . والا يقودنا غرور النفس وتغرنا قدراتنا على ظلم

الناس . . ولنعلم ان قدرة الله وقوة الله مع الضعيف . . ولنحذر ان نبطش وان نظلم . . فان الله قادر أن يسلط علينا أبسط مخلوقاته لتسلبنا القدرة والقوة التي نظن انها تنبع من ذاتنا ومن انفسنا . . والا نسن سنة سيئة في الحياة يراد بها الافساد في الأرض لاننا سنتحمل وزرها ووزر من عمل بها

إلى هنا ونأتى إلى مثل آخر في القرآن الكريم . . هو مثل الكلمة الطيبة . . والكلمة الخبيثة . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثالث -

مَنْكَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ
وَالْكَلِمَةُ الْحَسِيَّةُ

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

الله سبحانه وتعالى حينما خلق الانسان ونفخ فيه من روحه . . انطلق الانسان في مهمته في الحياة . . وهى عمارة الأرض ؛ وتطبيق منهج الله . . وكانت أحداث الحياة كلها بالنسبة للانسان هى الكلمة . . والفعل . . والنية . . وفى خارج إطار هذه الثلاثة لن تجد شيئا فى الدنيا . . فالانسان إما أن يتكلم . . أو يبيت النية على أن يفعل شيئا . . أو يفعل هذا الشيء فعلا . . ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى للكلمة السيادة فى الدنيا . . فهى التى يتلقى عن طريقها الانسان منهج الخالق سبحانه وتعالى . . ومنهج الله هو كلمات الله إلى خلقه . . والكلمة هى أساس سيادة الانسان فى الأرض . . ذلك أنه لولا الكلمة ما استطاع انسان أن يدون فكرا . . وما استطاع الانسان نفسه أن يستفيد من علم غيره . . والانسان يرث الحضارات عن طريق الكلمة . . ويرث العلم عن طريق الكلمة . . ويرث التقدم عن طريق الكلمة . . وكل جيل يقرأ ما وصل إليه الجيل الذى قبله . . ثم يضيف إليه وينقله إلى الجيل الذى بعده . . إذن فالذى صنع الحضارة الانسانية وجعلها تتوارث جيلا بعد جيل . . وكل جيل يضيف إلى ما انتهى إليه الجيل الذى قبله . . كل هذا تم بالكلمة . . ولو أننا أعطينا من الله سبحانه وتعالى الكلمة . . ما أمكن لعلم أن يدون . . ولا لتقدم أن يعلم . . ولأصبحت الانسانية كلها لا اتصال بينها . . الجيل الماضى عاجز عن أن ينقل إلى الجيل الحاضر علمه . . والجيل الحاضر عاجز عن أن يدون ويبقى للجيل القادم حضارته . . وهكذا لو أن الانسانية جردت من الكلمات لحسرت حضارتها كلها وثقافتها كلها . .

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

الكلمة تعبير عن شيء ما . . . لكن هذا التعبير لا يأتي من مطلق . . . ولا من فراغ . . . بل لا بد أن يوجد المعنى في الذهن أولاً . . . ثم بعد ذلك تأتي الكلمة التي تعبر عنه . . . أى أن الكلمات لا تصدر من فراغ . . . ولكنها تصدر عن أشياء موجودة أو متصورة ذهنياً لتعبر عنها . . . بحيث إذا قيلت الكلمة قفز المعنى إلى الذهن . . . لذلك لا نجد مثلاً أن هناك كلمات لأشياء غير موجودة . . . وقبل أن يخترع التليفزيون لم يكن اسم التليفزيون موجوداً . . . ذلك أنه لم يكن يوجد في العقل البشرى حتى يمكن أن يعبر عنه بكلمة . . . وكذلك التليفون . . . وكذلك أشعة الليزر . . . وكذلك الصواريخ . . . والأطباق الطائرة . . . إلى آخر ما يسجله العلم . . . ولكن الشيء وجد أولاً ؛ ثم بعد ذلك وضع له الاسم الذي يجعل العقل عندما يذكر أمامه هذا الاسم تتضح أمامه متعلقات الاسم فيفهم عن ماذا تتحدث . . . ولذلك فإن اللغات في جميع أنحاء العالم يضاف إلى قواميسها كل عام كلمات جديدة . . . والكتب تصدر في كل أنحاء العالم لتعلم الناس هذه الكلمات الجديدة في كل فرع من فروع الحياة . . .

إذن ما هو غيب عن الإنسان لا يستطيع أن يعبر عنه بكلمة . . . أو لا يستطيع أن يفهمه . . . ولذلك فإنك عندما تتحدث عن شيء لم يره إنسان تجد أن من تتحدث إليه لا يفهم ما تقول . . . حينئذ تحاول أن تقرب إليه المعنى بشيء موجود يفهمه . . . كأن تقول له : ان هذا الشيء مثل الكرة مثلاً . . . أو كالخط المستقيم . . . أو شكله بيضاوى . . . أو حجمه كالقيل تماماً . . . أو في سرعة الطائرة . . . وإذا أردت أن تعرف ذلك بالدقة

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

فاقرأ حديث الذين رأوا أشياء غير مألوفة في الأرض ويحاولون أن يصفوها للناس . . نجد أنهم يشبهونها بأشياء مألوفة لدينا حتى نستطيع أن نفهمها . . الذين رأوا الأطباق الطائرة مثلا وحاولوا أن يصفوا ما رأوا إلى الناس . . لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك إلا بالتشبيه . . وقالوا إن الطبق مستطيل يبدو من بعيد كشكل السيارة . . أو مستدير أو مسدس . . وانه يخرج منه مخلوقات تمشي على قدمين مثل الانسان . . ولكن أجسادها نحيلة كالعظام بلا لحم . . وعقولها كبيرة مثل حجم العقل الانساني أربع أو خمس مرات . . وتخرج من أيديها وأرجلها مثلا أشعة تضيء مثل الكهرباء . . وفي مقدمة الطبق الطائر ماسورة على هيئة مدفع تخرج منه حمم مثل الصواعق إلى آخر ما قيل حول الأوصاف التي رواها أولئك الذين قالوا انهم رأوا الأطباق الطائرة . . وأرادوا أن يشرحوا للناس ما رأوه . . ولقد كان هذا الشرح مستحيلا دون أن يشبهوه بأشياء فعلا ، حتى يستطيع العقل أن يستوعبها .

لفظ الجلالة

وهنا لنا وقفة . . ذلك هو لفظ الجلالة « الله » سبحانه وتعالى . . ما ذكر اسم الله إلا وفهمه الجميع . . الجاهل والمتعلم . . الصغير والكبير . . والذي قرأ علوم الدنيا . . والذي لم يقرأ حرفا واحدا في حياته . . الله غيب عنا . . لم يره أحد . . الله ليس كمثله شيء . . فلا يمكن تشبيهه - تبارك وتعالى وتنزهه - بأى شيء في عالمنا المادى . . إذن من أين جاء هذا الفهم ؟ . . جاء لأننا عرفنا الله سبحانه وتعالى

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

بالفطرة . . . وأشهدنا على نفسه قبل أن نأتى إلى هذه الحياة . . . قال جل جلاله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف - الآيات ١٧٢ : ١٧٣)

. . . ومصداقا لهذه الآيات الكريمة . . . فإننا إذا ذكر لفظ الجلالة فهمناه جميعا دون حاجة إلى شرح . . . ولذلك فإن الايمان ضرورة لغوية . . . لأن اللفظ في اللغة لا يطلق إلا على موجود . . . ولا يفهم إلا إذا كان ما يطلق عليه موجودا . . . ومعنى فهمنا للفظ الجلالة أن الله سبحانه وتعالى موجود . . . وكلنا يعلم وجوده .

وحتى الذين يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى من الكافرين . . . نقول لهم انه لا يمكن أن يتم هذا الستر إلا إذا كان الله سبحانه وتعالى موجودا . . . فلا جدل بين الناس يقوم حول العدم . . . أو حول شيء غير موجود . . . لأنه ما دام الشيء غير موجود فالعقل البشرى لا يعرفه . . . وعلى هذا لا تكون هناك مشكلة تقتضى الانكار . . . ولكن إذا وجد الشيء وجد الجدل . . . لأن الجدل لا بد أن يقوم على شيء يفهمه العقل . . .

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

ووجود الشيء وفهم العقل له تم أولا . . ثم بعد ذلك بدأ حديث عنه . .
والذين يجادلون في الله ويحاولون ستر وجوده إنما هم في الحقيقة يثبتون هذا
الوجود لأنهم يتحدثون عنه . . ولا يمكن للعقل البشرى أن يتحدث إلا عن
شيء موجود فعلا ويعرفه .

والكلمة التي هي تعبير عن شيء موجود فعلا . . لها تأثير كبير في حياة
البشر . . فكم من كلمة أشقت إنسانا . . وكم من كلمة أسعدت
إنسانا . . وكم من كلمة أقامت أسرة سعيدة . . وكم من كلمة هدمت
أسرة وشردتها . . وكم من كلمة قامت على أساسها عداوات وحروب . .
وكم من كلمة بدلت الحروب بالسلام . . وكم من كلمة أدت إلى
جرائم . . وكم من كلمة منعت الجرائم . . وكم من كلمة أقامت ثورات
وأسقطت عروشاً . . وكم من كلمة قضت على ثورات وأبقت عروشاً .

الكلمة . . والبشر

إذن فالكلمة في حياة البشر لها أهمية كبرى . . وهي التي يبدأ بها
العمل . . الكلمة تضع الاطار للعمل . . أو تضع النظرية كما يقولون
أو الخطة . . ونحن لا نستطيع أن نقوم بعمل متقن إلا إذا حددناه بكلمات
أولا . . حتى نعرف ماذا نفعل . . فلا يعقل أن تأتي بالناس وتطلقهم
هكذا كل واحد منهم يفعل ما بدا له . . حينئذ تكون العملية هي فوضى
مطلقة ؛ ويكون الناتج منه شيئا بلا نفع . . ولكن إذا أتيت بالذين
يشتركون في عمل محدد . . وعرفت كل واحد منهم ماذا سيفعل . .
وشرحت له بالكلمات ما هو مطلوب منه . . سيكون عند كل واحد منهم

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

صورة ذهنية واضحة لما سيقوم به . . سيتم العمل على أكمل وجه . . لأن الصورة الذهنية لا بد أن تكون واضحة قبل أن يقوم بالفعل تماما . . كما أنه من الضروري حين تفتح مدرسة مثلا أن تضع منهاجاً لهذه المدرسة قبل أن يأتي تلميذ واحد ليتلقى الدرس فيها .

الله سبحانه وتعالى ذكر الكلمة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة . .
وقال :

﴿ وَنَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾

(سورة الأنعام - الآية ١١٥)

﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾

(سورة التوبة - الآية ٤٠)

وكلمة الله نافذة . .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢)

(سورة يس ٨٢)

ولذلك فإن كلمات الله سبحانه وتعالى هي تمام فعله . . لماذا؟ لأن الله عزيز . . فليس هناك أي قوة تستطيع أن تقف وتمنع تنفيذ كلمة من كلمات الله ؛ أو توجد ظروف تمنع أن تتم هذه الكلمة وتصبح فعلاً ووجوداً . . ولنشرح هذه النقطة قليلاً . .

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

الانسان قد يقول . . . ولكن الفعل لا يتم . . . وهناك فرق بين القول والفعل في حياة البشر . . . لماذا ؟ . . . لأننا نعيش عالم الأغيار . فالفعل عندنا محتاج إلى عناصر كثيرة لكي يتم . . . محتاج أولا إلى وقت وإلى زمن . . . ونحن لا نملك الزمن . . . ولكن الزمن هو الذى يملكنا . . . نحن لا نستطيع أن نعرف يقينا أننا سنعيش الساعة القادمة مثلا . . . لذلك فإننا إذا تحدثنا عن فعل شيء قد لا نعيش وقد لا نوجد حتى نتمه . . . وإذا امتد بنا العمر إلى ساعة حدوث الفعل . . . فنحن نخضع لظروف كثيرة . . . منها انه لا بد لنا من إمكانيات حتى يتم العمل . . . وهذه الامكانيات لا نملكها ذاتيا . . . بل هي معتمدة على آخرين لا نستطيع أن نتحكم في ظروفهم . . . فمثلا إذا أردت أن أبني بيتا فقد أعد كل شيء وأملك الزمن . . . ولكن الذين سيعملون في البناء لا يحضرون فلا يتم . . . ونحن قدرات مختلفة بعضها فوق بعض . . . ومن هنا فان قدرة قاهرة قد تأتي لتمنع وقوع الفعل . . . كأن تأتي مثلا الحكومة وتستولى على الأرض التي قررت إقامة البناء عليها . . . فتمنع إتمام الفعل . . . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس عنده زمن . . . ولا توجد قوة أو قدرة فوق قوة الله وقدرته . . . فهو قاهر فوق عباده . . . وهو العزيز الذى لا يوجد إلا من هم دونه . . . ولذلك إذا قال للشيء كن فيكون .

شجرة طيبة

والله سبحانه وتعالى تحدث عن الكلمة كثيرا في القرآن الكريم . . . ولكنه ضرب مثلا فقال في كتابه الكريم :

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ
فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾

(سورة ابراهيم - الآية ٢٤ و ٢٥)

الله سبحانه وتعالى يريد أن يجب عباده المؤمنين في كل كلمة طيبة وكل
عمل طيب . . ذلك لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . . والكلمة الطيبة
هى التى تمسح كل سوء وتذكر كل حسن . . تتغاضى عن العيوب . .
ولا تعرف إلا المحاسن . . الانسان فى هذه الحياة يشقى بأنه يضحخ
العيوب . . ويضحخ المشكلات . . ولا ينظر إلى الزوايا الحسنة . . والله
سبحانه وتعالى يريد أن يشيع بين المؤمنين الحديث الطيب . . وألا يتناول
المؤمنون أعراض الناس أو سيئاتهم فيما يتحدثون . . وبما أن الله كما قلنا هو
رب العالمين وعطاء الربوبية يكون عطاء متساويا للناس كل الناس ؛ بصرف
النظر عن درجاتهم الايمانية . . وقد حرم الله سبحانه وتعالى الغيبة
والنميمة . . وصورهما فى القرآن الكريم بصورة بشعة فقال تبارك وتعالى :

﴿ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ ﴾

(سورة الحجرات - الآية ١٢)

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

وهكذا كانت الصورة من البشاعة بحيث تصبح كريمة لكل انسان . .
فلا يتصور أن يأتي أحد لرجل ميت ؛ ويجلس أمام الناس ليأكل لحمه . .
صورة بشعة كريمة للقول السيء أو الكلمة الخبيثة . . ويوم القيامة يأتي الله
بمن قال هذا القول السيء ويأخذ من حسناته ويعطيها لمن أغتیب . . فإذا
نفدت حسناته جاء بسيئات من تم اغتيايه لمن اغتابه بالقول السيء . .
لذلك فإن سيدى جعفر الصادق رضى الله عنه . . علم أن رجلا قد
اغتابه ؛ فطلب من خادمه أن يأتيه بأحسن أنواع التمر الموجودة عنده . .
ثم انتقى طيبها وأرسلها فى طبق إلى الرجل الذى اغتابه ؛ وكتب معها ورقة
قال فيها : أعلمت أنك قد اغتبتنى بالأمس . وبما أنك قدمت إلى أحسن
ما عندك وهو حسناتك . . فلم أجد بدا من أن أرد الهدية فأعطيك أحسن
ما عندى وهو هذا التمر .

لماذا . . الشجرة

عندما نبدأ فى الحديث عن المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى للكلمة
الطيبة والكلمة الخبيثة . . فإننا نتوقف عند تشبيه الكلمة بشجرة . . لماذا
شبه الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة . . والكلمة الخبيثة
بالشجرة الخبيثة . . لا بد أن الله يريد أن يلفتنا إلى عدة معان فى تشبيهه
الكلمة بالشجرة . . أولا الشجرة تبدأ بذرة . . وتكبر . . وتكبر . .
وتكبر . . وكذلك الكلمة خبيثة كانت أو طيبة . . تخرج من الفم كبذرة
صغيرة . . ثم بعد ذلك يتناقلها الناس فتكبر وتكبر . . وتشيع فى القرية ؛
ثم تنتقل إلى القرى الأخرى وهكذا . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

يلفتنا في أول المثل إلى خطورة الكلمة . . فيقول لا تحسبوا أن الكلمة مجرد حروف ينطق بها الفم . . ثم تنسى وتنتهي وتذهب . بل هي كالشجرة التي تبدأ ببذرة . . ثم تنتشر فروعها وتكبر وترعرع . . لذلك فليراقب كل واحد منا كلماته ليعرف أن هذا الكلام له خطورته وله معناه . . ويريد الله أيضا أن يقول لنا : أن الكلمة محسوبة . . فلا نطلقها على عواهنها . . فإذا رميت البذرة في الأرض قبل أن تنبت الشجرة فقد وضعت لها قرارا . . والكلمة محسوبة على البشر . . لذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨)

(سورة ق - الآية ١٧)

. . أي أن القول الذي يلفظه الانسان هو محسوب عليه . . فلذلك لا بد أن يتدبر الناس قبل أن يقولوا القول السيء لأنه محسوب عليهم . . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الشجرة تكون بذرة ثم تكبر وترعرع وتعطي ثمارا . . ثم هذه الثمار تتحول مرة أخرى إلى بذرة . . وتؤخذ وتزرع في أماكن مختلفة فتنبت شجرة من نفس النوع . . وهذا الشجر يأتي بدوره بثمر . . والثمر هو الآخر يصبح بذرة صالحة للزراعة . . وهكذا بلا نهاية . . حينئذ نعرف عظم ثواب الكلمة الطيبة ؛ أو السنة الطيبة ؛ وعقاب الكلمة الخبيثة ؛ أو السنة الخبيثة . . ونعرف أن كليهما تنتشر في الأرض كالشجرة التي تنتج البذرة . . ويكون جزاء الذي استن سنة طيبة . . وقال كلمة طيبة أن له ثوابها وثواب من عمل بها إلى يوم

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

القيامة . . ويكون جزاء الكلمة الخبيثة أو السنة الخبيثة وزر صاحبها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . . مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾

(العنكبوت - ١٣)

. . وقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها . ومن استن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) .

هكذا كان اختيار الله سبحانه وتعالى لتشبيهه الكلمة بالشجرة اختيارا بالغ الدقة . . لأنه يريد أن يقول أن البشرية ستوحد . . والمسافات ستلغى أو تختفى . . ويصبح ما يحدث في أقصى الأرض يعرف في كل مكان فيها خلال دقائق . . فالشئ الطيب ينتقل بسرعة . . والشئ الخبيث ينتقل بسرعة . . ويظل في المجتمع ويقلده الناس . . وإذا نظرنا إلى داءات البشرية الآن نجد أنها تأتي من سنن خبيثة ابتدعها بعض الناس الذين لا إيمان لهم . . ثم بعد ذلك أثمرت الشجرة ؛ وانتقلت البذرة إلى أنحاء الدنيا كلها . . أنظر مثلا إلى « الموضة » التي تتفنن في تعرية جسد المرأة وإظهار ما حرمه الله . . تجد أن « الموضة » تبدأ في بلد خبيث لا إيمان فيه . . ثم تنتقل بعد ذلك ثمرة هذه الشجرة الخبيثة إلى دول العالم كله . . فتجدها في كل عاصمة وفي كل دولة . . فرغم أنها نشأت في بلد واحد ؛ وانتقلت الثمرة بعد ذلك إلى باقي دول العالم . . وانظر إلى الجريمة التي

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

ترتكب في بلد من البلاد التي لا تطبق شرع الله . . ثم تنتشر إلى باقى دول العالم . . إذن فلا يقتصر أثر الكلمة الطيبة أو السنة الطيبة على منبتها . . بل هي ثمر ثمارا تملأ الدنيا . . ولذلك كان التشبيه من الله جل جلاله بالشجرة .

وهذا هو الفرق

إلا أن الله سبحانه وتعالى فرق بين الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة . . صحيح أن كلا منهما يشبه الشجرة التي تنتج الثمار وتنشر البذور . . ولكن الكلمة الطيبة قال الله سبحانه وتعالى عنها . . كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . . أى أن الكلمة الطيبة والسنة الطيبة باقية راسخة في الأرض ؛ لا تخرج منها أبدا . . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة) . .

إذن السنة الطيبة والكلمة الطيبة متى بذرت فى الأرض تبقى ويعمل بها الناس قلوا أو كثروا فانها لا تنتهى أبدا . . بل الخير موجود دائما . . ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٢٤)

(سورة ابراهيم ٢٤)

وهنا يريد الله أن يلفتنا إلى أن جزاء الكلمة الطيبة والسنة الطيبة هو عنده سبحانه وتعالى فيقول :

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

﴿ وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة ابراهيم ٢٤)

أى لا تنتظر الجزاء من الأرض . . . أو لا تنتظر الجزاء كل الجزاء من الأرض . . . فإذا قلت الكلمة الطيبة فانتظر الجزاء من الله . . . وابتغ الجزاء من الله وحده . . . فإذا نالك خير من الأرض . . . كان خيرا . . . وإذا لم يحدث فأنت تعلم يقينا أن الجزاء من عند الله سبحانه وتعالى لأن الله هو القائل :

﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾

(سورة الرحمن - ٦٠)

أما إذا كنت تفعل الخير ابتغاء لرضاء غير الله من أصحاب النفوذ وغيرهم . . . فإن الله سبحانه وتعالى يسلط عليك من ابتغيت رضاه على حساب الحق . . . فيكون هو أول من يؤذيك . . . وأول من يهينك . . . وتلقى منه السوء من حيث لا تتوقع ولا تحتسب . . . إذن قول الله تعالى :

﴿ وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٤)

أما يريد أن يلفتنا به إلى أن لا ننتظر الجزاء عند أحد . . . بل ننتظر منه سبحانه وتعالى وقد نلقى خيرا في الدنيا من كلمة الخير التي قلناها . . . ولكن الجزاء الحقيقي والجزاء العظيم هو عند الله سبحانه وتعالى في الآخرة .

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ تَوْتَىٰ أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٥)

. . . وهنا تظهر عظمة الدقة القرآنية في قوله تعالى :

﴿ كُلِّ حِينٍ ۗ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٥)

. . . فهذا القول كل حين ينطبق على كل كلمة طيبة . . . يمكن أن يقال توتى أكلها كل حين بمعنى أنها كلما انتقلت من مكان إلى مكان . وزرعت في المكان الجديد أو انتشرت فيه جاءت بمحصول جديد لمن ألقى البذرة الأولى فأثابه الله عليها بأجر من عمل بها . . . أى أن الكلمة الطيبة أو السنة الحسنة في كل مكان انتقلت إليه كان لها ثواب أو ثمر يؤتى به لصاحبها الذى سن هذه السنة الحسنة والكلمة الطيبة في كل فترة من الفترات . . . رغم أنه لم يبذل جهدا إلا في البذرة الأولى التى وضعها في الأرض . . . هذه واحدة . . .

وإذا كانت الكلمة الطيبة عن شخص ما . . . فإن هذا الشخص كلما تذكر أنك قلت عنه كلمة طيبة أراد أن يجزيك عليها بالطيب . . . فكأنه في كل فترة من الفترات . . . وكلما جاءت مناسبة . . . كانت هذه الكلمة ثمرة . . . ولعلنا جميعا حين نعرف أن إنسانا تحدث عنا بطيب القول يستشير

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

فيينا عوامل الخير فنحاول أن نرد له هذا الكلام الطيب بما هو أطيب منه . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٥)

أى أن ذلك يحدث بمشيئة الله سبحانه وتعالى الذى يبارك فى العمل الطيب . . ليس بقدرات البشر ولكن بقدراته هو . . فنجد صاحب الكلمة الطيبة أو السنة الطيبة يأتية الطيب دون أن يعرف من أين أتاه ولا كيف أتاه . . أى أن الله سبحانه وتعالى يسخر له من يسعى فى العمل الطيب ويعطيه ثماره .

ويكمل الله سبحانه وتعالى بأن يبين لنا مثل الكلمة الخبيثة . . فيقول :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٦)

أى أن الله يريد أن يقول لنا أن الكلمة الخبيثة شجرة أيضا . . أى أن لها بذوراً وتنتشر من مكان إلى آخر بثمارها التى تتحول إلى بذرة تنقل لتزرع فى أماكن أخرى . . فكما تنتشر الكلمة أو السنة الطيبة . . كذلك فإن الكلمة الخبيثة أو السنة الخبيثة لها انتشار أيضا . . ولكن هناك فرقا . . فيقول :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٦)

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

أى أن الكلمة الخبيثة عطاؤها خبيث مثلها . . وهى تأتى بثمر لا يعطى
نفعاً بل يعطى ضرراً للبشرية كلها . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَأْتِي رَبَّهُ بِذَنبِهِ ۗ وَالَّذِي خَبَثَ لَآ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ

كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف - الآية ٥٨)

بذرة . . من الانسان

إذن كل سبىء فى الأرض هو بذرة بذرها انسان سبىء لا إيمان له . . ثم
بعد ذلك انتقلت من مكان إلى مكان لتفسد حياة الانسان على الأرض
وتضع فيها ما يشقيه . . والانسان أعطاه الله المنهج . . ولكنه أراد بعقله
أن يفسد الكون . . ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَجْتَنَّتْ مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٦)

ومعنى أنها اجتثت من فوق الأرض انه لا قرار لها . . وهكذا العمل
السيء . . لا تجد له عطاء متجددا . . ومن السهل جدا أن يقتلع من
الأرض إذا ووجه بالحق أو بالعمل الطيب . . فهو ليس متين القرار بحيث
يثبت أمام الحق . . ولكنه صاحب جذور ضعيفة ، ولذلك إذا وقعت
معركة بين الحق والباطل . . فإن الحق هو الذى ينتصر والباطل يجرى

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

مهزوما . . وإذا أردت أن تعرف دقة هذا المثل . . فانظر إلى حكم رجل ظالم أو ملك ظالم . . ذلك الذى يأمر بالسوء ويشيع الفحشاء ويبغى فى الأرض . . بمجرد أن ينتهى حكم هذا الرجل الذى استخدمت فيه كلمات السوء وأفعال السوء ؛ ويأتى حكم جديد إلا ويقتلع كل شىء قام به هذا الحاكم الظالم من جذوره ؛ ولا يبقى منه شىء . . بل على العكس تظهر الخبايا والخبائث التى كانت مخفية . . ويظهر الناس كلهم ليسبوا الحاكم الذى رحل ويقتلعوا أنصاره وكل السنن التى اتبعها . . ولا يشترط فى ذلك أن يكون الحاكم الذى جاء طيبا . . بل قد يكون الحاكم الذى جاء أخبث من الحاكم الذى رحل . . ولكن مع ذلك كل منهما يقتلع جذور الآخر . . ولا يكون حكم الظالم له جذور أبدا . .

فإذا أخذنا حكم ستالين مثلا بما كان فيه من ظلم واعتداء على الناس إلى آخر ما نعرفه . . نجد أن الحكم الذى جاء بعده اقتلع كل الجذور التى وضعها ستالين . . فأطاح برجاله ووضعهم فى السجون وأعدمهم . . وأطاح بالمظالم التى وضعها ستالين ؛ بل أطاح بسمعة ستالين نفسه ولطخها بالطين وحطم تماثيله . . وجاء النظام الجديد بظلم آخر أى أنه لم يأت بالعدل . . ولكنه اجتث جذور ظلم ستالين . . ووضع هو جذورا جديدة . . ثم جاء الذى بعده فأطاح بكل هذه الجذور التى اعتقد الناس أنها قد رسخت فى الأرض وأصبح لها قرار . . وأطاح بالرجال الذين اعتقدوا أن الدنيا قد دانت لهم . . وأنهم خالدون فى مناصبهم . . أطاح بهم جميعا . . وقرأ تاريخ الحكم الديكتاتورى فى العالم كله . . حكم عبادة

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

الفرد . . . تجذ كل واحد يأتي يقتلع جذور الذي سبقه ويلطخه بالطين . . .
ومع ذلك فإن الناس لا تعتبر ولا تتأمل في كلمات الله سبحانه وتعالى في أن
الخبث ليس له جذور في الأرض . . . وأنه في كل فترة قصيرة تقتلع جذوره
وتلقى أشجاره وهم الرجال الذين قاموا برعاية هذه الثمرات السيئة
والحرص عليها . . . تلقى هذه الأشجار كلها لتموت . . . ثم يأتي من بعده
ببذور إما طيبة فتبقى . . . وإما خبيثة فتقتلع بعد فترة . . . ويقول الله
سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ ﴾

(سورة المائدة - الآية ١٠٠)

. . . أى أن الخبيث قد يكون كثيرا بمعنى أنه يأتي حكم سيء أو حاكم
سيء ثم وراءه حاكم سيء . . . ولكن لا جذور لهذا ولا جذور لذلك . . .
فمع كثرة الخبيث فهو يقتلع من الأرض دائما . تماما كما قال الله سبحانه
وتعالى :

﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۚ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٦)

ولعل في هذا ردا على بعض الناس الذين يتعجبون من كثرة الخبيث في
الحياة الدنيا ؛ ويحسبون أنه قد طغى على العمل الطيب والفعل الطيب .
نقول لهم ان هذا الخبيث الذي ترونه لا قرار له في الأرض وهو يقتلع كل

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

فترة قصيرة فأما الزبد فيذهب جفاء ؛ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

القول الثابت

نأت بعد ذلك إلى ختام المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى :

﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِأَلْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٧)

وهنا يجبرنا الله سبحانه وتعالى عن الدور الايماني الذي يتم فيقول إن كثرة الخبيث قد تفتن المؤمنين وربما اهتز إيمانهم . . حينئذ تكون المشيئة محيطة بكل مؤمن لتثبته أمام هذا الخبيث الذي يبدو كثيرا في الأرض . . فيعطيه الله القول الثابت . . أي أنه يريهم من حلاوة الايمان وصدقه ما يجعل قلوبهم تثبت على الايمان ولا تهتز . . والله سبحانه وتعالى هو المعين للمؤمنين يخرجهم من الظلمات إلى النور . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

أُولِيَآؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٢٥٧)

هنا تمتد مشيئة الله لتقول للمؤمن لا تخش شيئا مما يحيط بك . . فهذا كله لن يستطيع أن يصل إليك لأن الله معك . . وما دام الله معك فأنت

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

القوى والدنيا كلها لا حول لها ولا قوة . . فاطمئن إلى أن الله يرعاك . .
ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿ وفي الآخرة ﴾

أى أن التثبيت من الله سبحانه وتعالى لا يكون فى الحياة الدنيا وحدها . . بل أيضا يوم الهول الأكبر فى الآخرة . . فيقفون أمام الله سبحانه وتعالى يقولون الحق . . ويلهمهم الله الصواب وينجيهم من العذاب .

ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢٧)

(سورة ابراهيم - ٢٧)

. . أى أن الله سبحانه وتعالى لا يثبت إلا المؤمنين . . أما الظالمون فإنه يتركهم ليزين لهم الشيطان الخبيث فى الأرض فيندفعوا مفتونين بكثرة الخبيث غير متنبهين إلى الحقيقة ؛ وإلى أن الطيب وحده هو الذى يمكث فى الأرض . . ثم ينهنا الله سبحانه وتعالى إلى أن ذلك لا يحدث خارج المشيئة . . بل ان الله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق الانسان مختارا صالحا لأن يفعل الخير والشر . . وان منهج الله ومشيئته اقتضت أن يأتى الانسان إلى الايمان مختارا . . ولذلك فان اتجاه الانسان إلى الظلم أو الضلال أو السبىء إنما هو خاضع للمشيئة الالهية التى أعطت الانسان حرية الاختيار . . وبالتالي ليكون الحساب عدلا فى الآخرة .

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

إلى هنا ونأتى إلى ختام المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى عن الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة . . وكيف أن كلا منها مثل الشجرة التى تنبت الثمار وتنتشر منها البذور فى الدنيا كلها . . ولكن الكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . . يأتينا منها الخير حتى يوم القيامة . . والكلمة الخبيثة ليس لها قرار فى الأرض ؛ فهى تقتلع بعد فترة قصيرة . . وذلك بأن يسלט الله رجلا صالحا على رجل ظالم . . أو يسלט ظلما على ظالم . . وان الله سبحانه وتعالى يثبت المؤمن ويعينه ويترك الظالمين للشيطان ليضلهم . على أن الله سبحانه وتعالى ضرب لنا مثلا آخر عن كلماته . . هو عيسى ابن مريم عليه ارسلام . . فقال تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ ۖ فَيَكُونُ ﴾

﴿ ٥٩ ﴾

(سورة آل عمران الآية ٥٩)

وهذا هو موضوع الفصل القادم . .

الفصل الرابع

مَنْ عَسَىٰ كَمَثَلِ دَاوُدَ

مثل عيسى كمثل آدم .

الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الحياة . . وخلق الموت وخلق الكون . . وقضية الخلق لا يستطيع أحد أن يدعيها .

فهي محسومة لله تبارك وتعالى . . لأنه هو الذى قال إنه خلق . . ولم يجروا أحد أن يدعى الخلق . ومن هنا فإن القضية ليست موضع مناقشة . . على أنه اذا كان الخلق ايجاداً من عدم . . بعض الناس يقول إننى صنعت كوبا أو ابريقاً أو آلة فكأننى أوجدت شيئاً من عدم . . أى أننى خلقتة . . نقول بادىء ذى بدء ان الشيء الذى يوجد من عدم لغويا قد يكون خلقاً . . ولكن الانسان الذى يصنع الكوب . . ويصنع الصاروخ ويصنع « ماكوك » الفضاء عاجز عن أن يصنع خلية حية . . فأى صناعة تستطيع أن تنتج لك ما تشاء .

ولكنها لا تستطيع ان تهب لهذا الشيء الحياة . . فلا يمكن مثلاً أن يتكاثر بالتوالد . . ولا أن ينمو نموا ذاتياً . . ولا أن تكون له خاصية العقل والفكر التى تمكنه من الحياة . . حتى ما يطلقون عليه الانسان الصناعى الذى يستخدم الآن فى الصناعات بالدول المتقدمة . . فهو لا يستطيع التمييز ولا التكاثر ولا الرقى . . ولا أى شىء من خصائص الانسان الحقيقى . . ولكنه عبارة عن آلة معقدة لديها أوامر محددة تقوم بها بحركات ميكانيكية محسوبة ولا شىء غير ذلك . . ولذلك لا يستطيع العلم أن يقول إنه خلق انساناً صناعياً . . ذلك ان ما صنعه العلم ليس فيه شىء من صفات الانسان التى تميزه عن غيره . . فلا هو يفهم ، ولا هو يفعل ، ولا هو يستطيع ان يتصرف اذا حصل خلل . . ولا يتناسل . . دائماً يبقى

مثل عيسى كمثل آدم .

على حاله منذ ساعة ايجاده حتى يبلى ويتحطم . . يقوم بنفس الحركات . .
بنفس الترتيب بنفس الطريقة . . ويكرر نفسه كل عدة ثوان أو عدة
دقائق . . ولا يغير حركته الا بتوجيه جديد يدخل فيه الانسان ،
أوما اخترعه الانسان . . وتكون النتيجة آيات صماء بلا حياة .
ولكن بعض الناس يتساءل عن معنى الآية الكريمة :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١٤)

(سورة المؤمنون الآية ١٤)

. . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال أحسن الخالقين . . فلا بد أن
هناك من هم أدنى درجة في الخلق والايجاد من عدم . . نقول : ان هؤلاء
الأدنى درجة هم الذين يصنعون الاشياء الصماء التي لاحياة فيها
ولاحركة . . الا أن تكون حركة ميكانيكية لاتتغير ولا تتبدل والا أن تكون
حياة صماء هي الجماد وبعد ذلك لا شيء . . أما الحياة نفسها بالمعنى الذى
تعرفه فى كل مخلوقات الله التى يوجد منها التكاثر وتنتقل من جيل إلى جيل ،
فذلك هو خلق الله . .

ولقد تحدى الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم فى خلق الحياة . .
فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجتمعوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبهمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ

مثل عيسى كمثل آدم .

مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

(سورة الحج ٧٣ - ٧٤)

. . وهذا التحدى الذى طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نستمع له
أو ننتبه اليه . . هو تحد للبشرية كلها منذ خلق آدم وحتى قيام الساعة . .
فلو اجتمع علماء الانس والجن على ان يخلقوا ذبابة واحدة على ضعفها
وتفاهتها . . لما استطاعوا أن يخلقوا حتى جناح ذبابة فيه الحياة التى يضعها
الله فى بلايين المخلوقات فى كونه كل ثانية . . ولقد استطاع الانسان أن
يصل الى القمر . . وربما استطاع ان يصل الى المريخ . . بما كشفه الله
سبحانه وتعالى من علم له . . ربما اطلعه الله على القوانين التى يسير عليها
الكون . . وجعله يستفيد منها فى أن يحقق تقدما وسيطرة . . هذا كله
ممكن . . ولكن الانسان لن يستطيع أن يخلق خلية حية ، وهذا هو
التحدى .

لماذا المثل ؟

على أن الله سبحانه وتعالى لم يضرب مثلا بنبي من أنبيائه كما ضرب مثلا
بعيسى عليه السلام فقال .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ (سورة آل عمران - الآية ٥٩)

مثل عيسى كمثل آدم .

. . وذلك بسبب الخلاف الذى نشأ حول معجزة ميلاد عيسى عليه السلام وكيف تم الاعجاز؟ . . ولقد كان هذا الاعجاز موضع جدل حتى يومنا هذا . . بالرغم مما حدثنا الله تعالى به .

على أننا لا بد أن نبدأ القصة من أولها . . قصة الخلق لنعرف أين المعجزة . . وكيف حدثت . . فذلك هو أهم ما يمكن تقديمه من تفسير . إن الخلق بدأ بآدم عليه السلام . وكان خلقا أو ايجادا من عدم . . أى لم يكن آدم موجودا ، ووجد بكلمة كن من الله سبحانه وتعالى . . لم يكن أحد من البشر قد خلق بعد . . ولذلك لم يكن لآدم أب ولا أم . . أى أنه خلق خلقا مباشرا من الله سبحانه وتعالى . . أوجده بدون ذكر أو أنثى . . وكانت هذه هى أولى معجزات الخلق بالنسبة للإنسان . . أن يتم خلق بشر بدون ذكر أو أنثى . . وكان لا بد لكى تمضى الحياة وتتكاثر أن يكون خلق كل شىء فيها من ذكر وأنثى ، حتى يمكن أن يتم الوجود والتكاثر . . فكان خلق حواء من ضلع من آدم . . أو من جزء منه . . وتمت المعجزة الثانية من الخلق وهى ايجاد خلق من ذكر دون أنثى . . وهكذا وجد الذكر والأنثى فى الحياة بعد أن تم إعجازان أو معجزتان من معجزات الله فى الخلق . . الأولى . . آدم بدون ذكر أو أنثى . . والثانية خلق من ذكر دون أنثى . . ثم اختار الله سبحانه وتعالى ان تتم طريقة الخلق أو التكاثر من ذكر وأنثى فى كل مخلوقات الله سبحانه وتعالى التى فيها حياة نعرفها . . فالحيوان يتم تكاثره من ذكر وأنثى . . والنبات يتم تكاثره بذكر وأنثى . . سواء كان التذكير والتأنيث فى نفس الثمرة أو الزهرة . . أو كانت تحمله

مثل عيسى كمثل آدم

الرياح من ثمرة الى أخرى أو من زهرة الى أخرى . . وفي كل يوم يكتشف العلم اضافة جديدة تؤكد أن كل شيء فيه حياة نعرفها في الكون يتكاثر ويتوالد من ذكر وأنثى . .

معجزة الخلق

بقيت بعد ذلك في معجزة الخلق . . أن يتم الخلق من أنثى بلا ذكر . . وبهذا يكون تمام اعجاز الخلق فيكون الخلق قد تم بدون ذكر أو انثى وبذكر دون أنثى . . وأنثى دون ذكر . . وذكر وأنثى . . وهذا تمام معجزات الخلق الأربع . . ولو أنه لم يتم ميلاد عيسى من أنثى بلا ذكر لكانت معجزات الخلق غير تامة . . ولبقيت منها هذه المعجزة الأخيرة . . على أنه كما قلنا فان الخلق هو من صفات الله سبحانه وتعالى التي لا يشاركه فيها أحد . . ومن هنا ورغم أن الخلق يتم من ذكر وأنثى فانه يخضع لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى في كونه . . ذلك أنه لا يجتمع رجل وامرأة على اطلاقهما ليتم خلق جديد . . بل انه قد يجتمع الرجل والمرأة ويتزوجان سنوات طويلة متخذين بذلك أسباب الخلق التي وضعها الله سبحانه وتعالى في كونه . . ومع ذلك لا يرزقان بطفل . . وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ^ج وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ^ج

إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ^ج الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا^ط وَيَجْعَلُ مَن

مثل عيسى كمثل آدم .

يَسَاءَ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

(سورة الشورى - الآية ٤٩ - ٥٠)

. . . أى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يبقى الخلق من طلاقة قدرته . . . فهو رغم أنه جل جلاله جعل أسباب الخلق الذكر والأنثى . . . الا أن المشيئة فى يده . . . فلم يجعل زواج الرجل والمرأة سبباً للانجاب على اطلاقه . . . ولم يجعل نوع المولود خاضعاً إلا للمشيئة . . . فمشيئة الله هى التى تهب الذكور . . . وهى التى تهب الاناث ، وهى التى تجعل انساناً قد يتزوج عشرات السنين ولا ينجب . . . ثم بعد ذلك ينجب فجأة . . . فلا يستطيع انسان أن يقول اننى سأنجب طفلاً ذكراً ولن أنجب الا ذكورا . . . ولا يستطيع انسان أن يقول اننى لن أنجب الا بنات . . . ولا يستطيع انسان أن يقول متى تزوجت فلاند أن انجب .

أنا هنا لا بد لنا من وقفة قصيرة . . . ذلك أن الله سبحانه قد ذكر الأنبياء فى القرآن الكريم دون تعريف . . . فقال موسى . وإبراهيم . وإسماعيل . وإسحق . ويعقوب والياس دون ان ينسبهم الى آباؤهم أو أزمانهم بالدقة . . . حتى انه حينما ذكر الله سبحانه وتعالى قصة موسى مع فرعون . . . لم يعرف لنا من هو فرعون الذى ارسل موسى فى عهده . . . وعندما ذكر لنا قصة يوسف مع عزيز مصر . . . لم يذكر لنا من هو العزيز الذى ارسل يوسف فى عهده . . . ذلك أن قصص الأنبياء بما جاءوا يعالجونه من داءات البشرية وما أصابها من فساد ليست قصصاً تتعلق بذاتية

مثل عيسى كمثل آدم .

الأشخاص أو بالوقت الذى حدثت فيه . . ولكنها داءات فى الحياة تتكرر فى كل عصر حتى يوم القيامة . . ففرعون مثلا . . هو كل حاكم يريد أن يعبد فى الأرض . . موسى هو كل انسان مصلح مؤمن يقف يواجه هذا الحاكم وظلمه . . وشعيب هو كل انسان ينصح قومه بالأى يأكلوا حقوق الناس وأن يعطوا كل ذى حق حقه بالكيل والميزان . . فإذا وجدت أمة تؤكل فيها حقوق الناس ويتخس فيها اشياؤهم ثم وجد رجل مصلح يدعو الى الحق والى اعطاء الناس حقوقهم كاملة ويحارب هذا الداء الوبيل فى أكل حقوق الناس . . فاننا نتذكر فى تلك اللحظة قصة شعيب عليه السلام وقومه . . ونعرف ما يدعونا الله سبحانه وتعالى اليه فى هذه الحالة . . وهكذا فى كل الداءات التى أرسل الانبياء لعلاجها . . هنا ليست خصوصية الداء بالذات . . ولا قصة حدثت ولكن تتكرر . . بل الداءات تتكرر والله يريدنا أن نعرف الدواء . . ويريد أن يعرف المؤمن المنهج الإيماني تجاه هذه الداءات . . حتى يقاوم الظلم والعدوان . . ليس فى صورة واحدة . . ولكن فى كل الصور التى جاء الأنبياء لمعالجتها ، وهذا كمال الدين وجماله .

العبرة هنا . . لا تتكرر

اذن فالعبرة من قصص الأنبياء متكررة . . والداءات التى جاء الانبياء لعلاجها فى الكون تتكرر . . واذا نظرنا الى صورة الكون اليوم على اختلافها واتساعها . . وجدنا فيها فرعون وآله . . وقوم لوط . . ومدنين وشمود . . وعبدة الاصنام والاوثنان . . وكل الداءات التى وردت وعالجها

مثل عيسى كمثل آدم .

الله سبحانه وتعالى في القرآن بقصص الأنبياء التي قصها علينا . . كلها موجودة وكلها متكررة الامعجزة ميلاد عيسى عليه السلام . . فهي لن تتكرر أبداً . . ولذلك عندما ذكر الله سبحانه وتعالى قصة مريم في القرآن الكريم لم يقل مريم فقط . . ولكنه قال مريم ابنة عمران بل انه حددها بالاسم بين نساء العالمين . . فقال ان ذلك لن يحدث الا لامرأة واحدة هي مريم ابنة عمران . . ولن تنجب امرأة في العالم دون أن يمسيها بشر . . الا مريم ابنة عمران . . وهنا أراد الله سبحانه وتعالى ان يلفتنا الى خصوصية هذه المعجزة .

. . وأنها لن تتكرر لأي امرأة اخرى . . فذكرها بالاسم منسوبة الى ابائها . . وعندما ذكر الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء لم ينسبهم الى آبائهم . . ولكنه عندما ذكر عيسى عليه السلام قال « عيسى ابن مريم » . . نسبة الى امه مريم عليها السلام لأنه ولد دون أب . . ومعنى ذلك أن المعجزة هنا لن تتكرر . . ولن يولد طفل من أنثى بدون ذكر الا عيسى عليه السلام . . ولذلك نسبة الله الى أمه حتى نتنبه لهذا الاختلاف في اسماء الأنبياء في القرآن الكريم الذين ذكرت أسماؤهم الاولي دون نسبهم . . ولأن عيسى عليه السلام ذكر منسوباً الى أمه ولقد قيل في عدم نسبة الانبياء وورثتهم هم ومن اتبعوهم من المؤمنين الى اهلهم لأن أهل عشيرتهم هم المؤمنون مصداقاً لقول الله تعالى عندما خاطبه نوح في ابنه :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ

مثل عيسى كمثل آدم .

أَحْكُمُ الْحَكِيمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ
فَلَا تَسْعَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴿

(سورة هود - الآية ٤٥ و ٤٦)

. . . ولذلك لم ينسبهم الله الى أهلهم الذين قد يكون فيهم المؤمن وغير
المؤمن . . . كما حدث بالنسبة لأبي ابراهيم . . . وامرأة لوط . . . وابن نوح .
نعود الى قصة مريم عليها السلام لنرى كيف أعد الله سبحانه وتعالى
المعجزة حتى تتم . . . فتلك المعجزة تكون قاسية على النفس جدا بالنسبة
لأى امرأة لاتستطيع أن تواجه بها المجتمع . . . فكيف بامرأة صالحة ذكرها
الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم . لقد بدأ التمهيد للاعداد للمعجزة
لتظهر على الأرض للناس قبل ان تولد مريم عليها السلام . . .

﴿ إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأْتُ عِمْرَانَ ﴿

(سورة آل عمران ٣٥)

أم مريم

﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴿

(سورة آل عمران ٣٥)

مثل عيسى كمثل آدم .

. . . أى أن أم مريم نذرت ما فى بطنها ساعة علمها بالحمل . . . ولم تكن تعرف هل ستلد ذكرا أو أنثى . . . نذرتة لله سبحانه وتعالى . . .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران ٣٦)

كانت أم مريم تعتقد ان الله سيرزقها بولد . . . وتعتقد أن الولد اقدر على خدمة دين الله فى الأرض من الانثى . . . ولكن الله شاء لكى يتم سبحانه وتعالى بقدراته معجزات الخلق بخلق من انثى دون ذكر . . . أراد الله سبحانه وتعالى لكى يتم هذا ان يكون المولود أنثى . . . وهنا اتجهت أم مريم عليها السلام وقالت « إني وضعتها انثى » . . . ثم تضرعت إليه سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران ٣٦)

طلاقة القدرة

هنا يبرز سؤال مهم . . . كيف عرفت أم مريم أن مريم سيكون لها ذرية . . . والجواب على ذلك سهل . . . فكل طفلة تولد يتوقع لها اهلها ان

مثل عيسى كمثل آدم .

تزوج وأن يكون لها ذرية . . . فلذلك فقد كان دعاء أم مريم دعاء بشريا عاديا تدعوه كل أم لطفلها . . . ولم يدر في خلدها أن هذه الطفلة الصغيرة التي أسمتها مريم سيجرى الله عليها بقدراته اتمام معجزات الخلق من أنثى بلاذكر .

وذهبت مريم تتعلم الدين ، وتتعبد ، وكفلها زكريا وهو نبي الله ومن الصالحين . . . وهو شقيق والدتها . . . كفلها لتتعبد لله سبحانه وتعالى في محراب بعيدا عن الناس . . .

ولكن زكريا لاحظ شيئا غريبا ، وكانت بداية اشارة من الله بمعجزة . . . حتى تستطيع مريم أن تقبلها . . . فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا . . . كان يجد عندها فاكهة الشتاء في موسم الصيف . . . وفاكهة الصيف في موسم الشتاء . . . وكان زكريا يتعجب من ذلك . . . ويسأل لماذا يحدث هذا . . . فلا يجد جوابا . . . ولم يطق زكريا صبورا فوجه سؤالا مباشرا الى مريم : « يا مريم أنى لك هذا ؟ » . . . أى يا مريم من اين تأتيك هذه الفاكهة في غير أوانها . . . وكان جواب مريم بسيطا صريحا كالحدث نفسه . . .

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧)

(سورة آل عمران ٣٧)

ولابد هنا أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد بدأ يجعل مريم تحس بطلاقة القدرة في لقاء مباشر مع هذه الطلاقة التي تعدها بعد ذلك بأن تحس

مثل عيسى كمثل آدم .

تماما وتعرف ان الله يفعل ما يشاء . . ولا يحدث عن ايمان غيبي فقط . .
ولكن عن حقيقة واقعة . . هي أن تأتيها الفاكهة في غير موسمها . .
فتألف هذه الطلاقة واقعا . . حتى اذا وضعت دون ان يمسه رجل لم تكن
الصدمة عنيفة عليها . . بل أحست باختيار الله لها لئتم عليها معجزات
خلق الانسان . .

وتوقف زكريا عند كلام مريم . . وأراد أن يطلب من الله سبحانه وتعالى
أن يعطيه بطلاقة قدرته الولد الذي يرث زكريا . . وزكريا . . في ذلك
الوقت شيخ كبير ، وامرأته عاقر . . ولقد أخذ بالاسباب أولا فتزوج . .
ولكن الله لم يرزقه الولد بالأسباب فاراد أن يطلب من الله سبحانه وتعالى
بطلاقة قدرته . . بعد أن انعدمت الأسباب . . وبعد أن أصبح هو شيخا
كبيراً وامرأته عجوزاً . . ومنطق الدنيا ومنطق الأحداث يقول انها لن
ينجبا . . أراد أن يعطيه الله بطلاقة القدرة الذي لم يحصل عليها
بالأسباب .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨﴾ فَادَّعَاهُ الْمَلَأِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴿

(سورة آل عمران ٣٨ و٣٩)

مثل عيسى كمثل آدم .

. . . ونفهم من سياق الايات ان الدعاء الى الله تم وزكريا يصلى لله
مبتهلا .

يفعل ما يشاء

حين حدث هذا وتجلت طلاقة قدرة الله لزكريا ليعرف ان مريم صادقة
تماما فيما قالت . . . وأن ما يأتيها من رزق في غير أوانه هو من طلاقة قدرة
الله سبحانه وتعالى . . . أخذته الأسباب مرة أخرى . . . ورفع يديه الى
السماء قائلا .

﴿ قَالَ رَبِّ اِنِّي يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَاَمْرًا تِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ

اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾

(سورة آل عمران - الآية ٤٠)

. . . زكريا رغم أنه نبي ومن الصالحين حين أتته طلاقة قدرة الله لتهبه
الغلام بعد أن انعدمت الأسباب ، سواء من ناحيته أو من ناحية زوجته . . .
ليتم له ذلك وقف مبهوتا . . . وقد كان اللقاء مع طلاقة قدرة الله سبحانه
وتعالى لقاء قويا . . . زلزل نفسه . . . فقال ياربى أنا شيخ كبير وامراتى عاقر
كيف ستهبنا الولد وقد فقدنا كل اسباب القدرة على ذلك . . . وهنا قال الله
سبحانه وتعالى لاتسأل يا زكريا كيف . . . فهذه الكلمة ليس لها مكان عند
الله . . . اذ إن الله هو خالق كل شىء . . . ومن هنا فانه يقول للشىء : كن
فيكون . . . ليست هناك كيفية . . . فالله سبحانه وتعالى قادر على كل شىء
ولا يحتاج لتبرير ما يحدث . . . ولا يحتاج لمعونة فيما يريد أن يخلق . . . ومن هنا

مثل عيسى كمثل آدم .

فكلمة كيف هذه لا يسأل عنها الله سبحانه وتعالى . . بل يسأل عنها من هم دون الله . . ان الله هو الذى يخلق ولا قيود على قدرته . . ولذلك كان الجواب من الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

(سورة آل عمران ٤٠)

. . وكان جوابا إيمانيا قويا لم يستطع بعده زكريا أن يسأل أو يقول شيئا . . لأن الجواب لا يفتح المجال لأى سؤال - فطلاقة قدرة الله فى كونه تفعل كل شىء .

أما مريم التى عرفت طلاقة القدرة فى محرابها فيما يأتيتها من رزق لا يخضع لأسباب الدنيا . . فقد كانت راضية بذلك تحس أنه من رضا الله سبحانه وتعالى عليها . . وظلت مريم تتعبد فى محرابها . . تعبد الله الذى اصطفأها وطهرها على نساء العالمين . . الى أن جاء اتمام معجزة خلق الانسان . . وهنا نزلت الملائكة لتبشر مريم بالمعجزة .

إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يُمَرِّمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى

أَبْنُ مَرْيَمَ

(سورة آل عمران ٤٥)

. . هنا نتوقف عند قوله تعالى ﴿ بكلمة منه ﴾ . . فنقول ان الله سبحانه وتعالى حين بشر زكريا بمولد ابنه يحيى قال :

مثل عيسى كمثل آدم .

﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

(سورة آل عمران ٣٩)

وقال الله لبنى إسرائيل :

﴿ وَوَعَدْتُكَ رَبِّكَ الْحُسَيْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

(سورة الأعراف الآية ١٣٧)

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾

(سورة يونس - الآية ٣٣)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة يونس الآية ٩٦)

وقال جل جلاله :

﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(سورة غافر الآية ٦)

مثل عيسى كمثل آدم

.. وقال :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾

(سورة فصلت الآية ٤٥)

.. وقال سبحانه :

﴿ فَتَلَوَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ ۗ كَلِمَاتٍ ﴾

(سورة البقرة الآية ٣٧)

وقال :

﴿ * وَإِذْ أُنزِلَتْ آيَاتُنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ رَبُّهُ يُكَلِّمُهُ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(سورة البقرة الآية ١٢٤)

.. وقال تبارك وتعالى :

﴿ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾

(سورة الانفال الآية ٧)

وقال :

﴿ قُلْ لَوْ كَانُ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ ﴾

مثل عيسى كمثل آدم .

كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا

(سورة الكهف - الآية ١٠٩)

وهكذا نرى ان الله سبحانه وتعالى قد استخدم لفظ كلمة بمعنى أنه أمر يتم ولا رجوع فيه وأنه قد استخدمها في عدة مواضع في القرآن الكريم كما بينا .

ويخلق ما يشاء

حين جاءت الاشارة الى مريم ، ورغم أنها رأت رؤيا اليقين طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى في أن يرزقها بما يشاء في أى وقت يشاء . . فانها اهتزت بعنف . . اتجهت الى الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَتْ رَبِّ اِنِّي كُن لِي وُلْدًا وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشْرٌ ﴾

(سورة آل عمران الآية ٤٧)

. . هنا رجعت مريم الى الاسباب مرة اخرى وهزتها المعجزة من داخلها . . وقالت ياربى كيف أرزق بولد ، وأنا عذراء لم يمسنى بشر ، ولم يقترب منى انسان وحينئذ جاء الرد من الله سبحانه وتعالى ﴿ كذلك ﴾ . . أى أن هذا السؤال لايسأل الله والله بقدرته يفعل ما يشاء . . وكلمة كيف قالها زكريا وكان رد الله سبحانه وتعالى عليه هو نفس الرد . . كذلك يفعل الله ما يشاء وكان رد الله على مريم كذلك يخلق الله ما يشاء . .

مثل عيسى كمثل آدم .

ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد فرق في لفظ واحد اختلف في الردين . . فعندما رد على زكريا قال يفعل ما يشاء لماذا ؟ . . لأن الأسباب موجودة ولكنها لا تفعل . . والله حينئذ يجعلها تفعل . . ولكن في رد الله سبحانه وتعالى على مريم . . لم تكن هناك أسباب فمريم لم يمسهها بشر . . ولذلك قال الله ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ . . لأنه في هذه الحالة لن يأمر الله الأسباب لتفعل . . فالأسباب غير موجودة ولكنه سيخلق خلقا مباشرا لاتمام معجزات خلق الانسان . . وهكذا الاختلاف في الردين بالتدليل بكلمة واحدة على أن المستفهم عنه شيء واحد . . ولكن الذي سيتم في الحالتين مختلف . . ففي الحالة الأولى عند زكريا سيجعل الله الأسباب تفعل . . وفي الحالة الثانية سيخلق الله بشراً بقدرته سبحانه وتعالى .

ومضت الملائكة في بشارتها من الله الى مريم . . تبين لها أن من سيخلقه الله سيكون له شأن كبير .

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِعَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ إِنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران الآية ٤٨ و٤٩)

مثل عيسى كمثل آدم .

وهكذا حملت الملائكة بشرى الله الى مريم ليثبتها على ما هي مقدمة عليه . . . وكيف ستواجه الناس . . . وماذا ستقول لهم . . . وهل سيصدقونها ؟ . . . فاذا بالملائكة تبشرها من الله بأن من سيتم خلقه سيكون رسولا من الله وسيؤيده بالمعجزات الدامغة التي تحمل الدليل على صدق ما ستخبر به مريم قومها . . . وان عيسى ابن مريم الذى سيأتى متمما لمعجزات الله فى خلق البشر بأن يخلق من انثى بلا رجل . . . ستكون معه الدلالة على صدق المعجزة التى تمت بانه سيخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيرا باذن الله . . . وأنه سيحيى الموتى باذن الله . . . وأن هذه المعجزات الخارقة التى أعدها الله سبحانه وتعالى قد اعدت لتكون تأييدا قويا على صدق رسالة عيسى عليه السلام ، وصدق تبليغه عن الله . . . وعلى صدق المعجزة التى تمت بطريقة ميلاده .

واهتزت مريم

ورغم كل هذا التثبيت فإن مريم قد اهتزت من المعجزة وعندما اراد الله سبحانه وتعالى ان تتم عملية الخلق وارسل اليها الملك ليتم النفخ من روح الله . . . تماما كما حدث فى خلق آدم عندما قال الله سبحانه وتعالى فى خلق آدم :

﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾

نفس عملية الخلق تمت مع عيسى عليه السلام . . . الفرق الوحيد أن آدم خلق من غير ذكر أو أنثى . . . وعيسى خلق من أنثى بغير ذكر . . .

مثل عيسى كمثل آدم .

عندما جاء الملك مفوضا من الله سبحانه وتعالى ليتم نفخ الروح .

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشْرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة مريم من الآية ١٨ إلى ٢١)

.. أى أن مريم رغم كل التثبيت الذى تم اهتزت وقت المعجزة وأعدت الأمر إلى الأسباب مرة أخرى .. فجاء الرد من الله سبحانه وتعالى وكان نفس الرد « كذلك » ثم جاء بعد ذل الشرح لما يحدث كيف تتعجبين من حدوث هذا الخلق من الله سبحانه وتعالى وهو شىء هين على الله .. لا يحتاج إلى جهد وليس أمراً صعباً .. فكل ما فى هذه الدنيا وكل ما يريد الله فيها هو هين عليه .

﴿ قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس
ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾

(سورة مريم ٢١)

وهكذا تم اخبار مريم بالحكمة من كل ما يحدث .. ان هذا الطفل الذى سيأتى هو آية من الله سبحانه وتعالى للناس لاتمام آيات خلق الله للبشر

مثل عيسى كمثل آدم .

وليُعلم الناس أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق بشرا بدون ذكر وأنثى وقادر على أن يخلق بشرا من ذكر دون أنثى وقادر على أن يخلق بشرا من أنثى دون ذكر وقادر على أن يخلق بشرا من ذكر وأنثى . . . تلك هي الآية التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يبينها للناس . . . ثم هو رحمة لبني إسرائيل يعلمهم الكتاب والحكمة . . . ويحل لهم بعض الذي حرم عليهم . . . وهو رحمة لهم في أن يصحح لهم الذي حرفوه ويخرجهم من ماديتهم وعبادة الذهب والمال إلى الروحانيات . . . ثم يختتم الله سبحانه وتعالى الآية حسما للأمر بأن ما يحدث من معجزة الخلق هو أمر مقضى من الله سبحانه وتعالى لارجوع فيه ولا توقف في تنفيذه .

حينئذ نكون قد وصلنا إلى الحكمة من المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم . . . « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » . . . والله سبحانه وتعالى يريد ان يقول لنا لماذا تعجبون من خلق عيسى من انثى بلا ذكر . . . ولاتعجبون من خلق آدم بدون ذكر وانثى والمعجزة في خلق آدم اكبر واشمل من معجزة خلق عيسى فكلاهما خلقتة من تراب . . . وكلاهما نفخت فيه الروح . . . وإذا كنتم تريدون ان تعرفوا لماذا تمت هذه المعجزة . . . فهي لم تتم دون حكمة . . . بل كانت لها حكمة هي إتمام معجزات خلق البشر . . . وقد سبق إتمام هذه المعجزة منى - إعداد لمريم عليها السلام ، وتثبيتها بطلاقة القدرة حتى اذا جاء أمر الله لم يزلها . . . ومع ذلك فانها اهتزت حين جاءها الملك لنفخ الروح وتساءلت كيف تضع غلاما ولم يمسهها بشر فجاء الرد من الله سبحانه

مثل عيسى كمثل آدم .

وتعالى ان الله يخلق ما يشاء بدون اسباب لأن ذلك من طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . على ان الله ضرب في القرآن الكريم امثلة للجنة وما سيلقاه فيها المؤمن من نعيم . . والنار وما سيجده فيها الكافر من عذاب . . وذلك هو موضوع الفصل القادم . .

حديث قديس

اعدت لعبادى الصالحين ما لاعين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرأوا إن شئتم : (وظل ممدود) ، وموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، واقرأوا إن شئتم : (فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا ابالي ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا ابالي ، يا ابن آدم لو اثنتيني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، لايتك بقرابها مغفرة .

إذا أحب الله عبدا نادى جبريل : انى احببت فلانا فاحبه ، قال : فينادى في السماء ، ثم تنزل له المحبة في اهل الأرض ، فذلك قول الله :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) .

وإذا ابغض الله عبدا نادى جبريل : انى قد ابغضت فلانا ، فينادى في السماء ثم تنزل له البغضاء في الأرض .

الفصل الخامس

مَثَلُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ

مثل الجنة والنار .

الله سبحانه وتعالى ضرب في القرآن الكريم أمثالا كثيرة للجنة والنار . .
وهي أمثال امتدت في معظم آيات القرآن الكريم . . وذلك حتى يقرب
للعقل البشري عظم ثواب المطيع ، وعظم عقاب الكافر أو غير المؤمن . .
وذلك لأن هذه هي نهاية الخلق أو هدفه . . فكما قلنا ان الله سبحانه وتعالى
قد خلق أجناسا مقهورة لطاعته وخلق الانس والجان مختارين في الطاعة . .
وطلب منهم أن يكونوا طائعين باختيارهم هم . . وذلك كما بينا في الفصل
الأول .

والايمان كما بينا هو اختبار لحب الله في القلب . . فالانسان المؤمن هو
من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما . . هنا يثور سؤال طالما وجه
الى . . لماذا يعذب الله سبحانه وتعالى خلقه ؟ . . ولماذا يوضعون في
النار ؟ . .

الله سبحانه وتعالى لا يريد العذاب لأحد . . بل يريد أن يدخلنا جميعا
جنات النعيم خالدين فيها . . وحب الله سبحانه وتعالى يجعله أرحم بنا من
رحمة الأب والأم بأولادهم . . الله خلق لنا هذا الكون كله بكل ما فيه من
نعم . . خلقه بتمام قدرته . . ووضع فيه قوى أكبر منا كثيرا كالشمس
والقمر والجبال والبحار وغيرها . . تلك القوى تستطيع أن تهلك ابن آدم
في لحظات . . فالبحر اذا انطلق على اليابسة جردها من الحياة . .
والشمس إذا اقتربت من الأرض أحرقتها . . والجبال لو ترحزحت من
مكانها لاختل توازن الأرض تماما ولهوت في الفضاء السحيق والنجوم لو
اختل نظامها واصطدمت بالأرض لدمرتها تماما . . اذن كل هذه القوى هي

مثل الجنة والنار .

أكبر وأقوى من الانسان . . ومع ذلك سخرها الله قهرا لخدمة الانسان . .
فقال للشمس أشرقي كل يوم لتضيئي له وتعطيه الدفء اللازم لحياته . .
وتعطيه النور اللازم لعمله . . وتتفاعلى مع الأرض والنبات لتعطيه الطعام
اللازم لحياته . . وقال للماء : كن أنهارا عذبة لتسقيه ماء عذبا يحفظ له
حياته فى الأرض . . وكن بحارا لتعطيه الطعام وتنقله من مكان الى
آخر . . ووضّع كل شىء فى مكانه لخدمة الانسان . . ثم أوجد له طعامه
فى الأرض . . ولم يوجد له طعاما واحدا ليحفظ حياته . . بل وضع له
الرفاهية فأوجد له طعاما مختلفاً ألوانه . . فهذا حلو . . وهذا مر . . وهذا
له طعم مختلف محبب الى النفس . . أى أن الله سبحانه وتعالى لم يوفر
الضروريات فقط للانسان فى حياته . . بل وفر له الكماليات وأعطاه
الرفاهية . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى . .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا
الْوَنَاءَ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾
وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة فاطر - الآية ٢٧ ، ٢٨)

هكذا أوجد الله للانسان كل النعم فى الكون . . ووضع له ما يحفظ
حياته فى جسده وفى عقله وفى قدراته . . وتم ذلك كله بقدره الله . .

مثل الجنة والنار .

ودون أن يكون للانسان أى دخل . . . ودون أن يبذل جهدا . . . ودون أن يحرك قدما اويدا .

وجاء الانسان الى الكون والنعمة كلها موجودة . . . ووجد الشجر الذى يستظل به من حرارة الشمس . . . ووجد الطعام الذى يأكله والماء الذى يشربه . . . واللبن الذى يسقيه لاطفاله . . . ثم كشف الله للانسان من علمه فى الأرض ما يجعله قادرا على عمارتها . . . وقال له انطلق الى عمارة الأرض تزدد خيرا . . . وتزدد رفاهية وتزدد سعادة . . . واننى مسخرت لك كل ما فى الكون وأعطيتك كل هذا الرزق فوجب عليك ان تشكر الله . . . ولم يطلب الله منا أن نسجد له ليلا ونهارا ولا حملنا ما لا طاقة لنا به . . . والله سبحانه وتعالى يقول لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . . . بينما أعطانا من العبادات ما يستغرق دقائق معدودة فى اليوم . . . نصلى له شكرا لهذه النعم التى لا تعد ولا تحصى . . . وزاد الله فى رحمته وفضله ، وقال من يشكرنى ويعبدنى طائعا مختارا أعددت له جنة فيها كل النعم بقدرات الله سبحانه وتعالى . . . وابقبته فيها يتمتع بهذه النعم خالدا فيها لا يموت ولا يمرض ولا يتعب جزاء له على هذا الشكر وهذه العبادة التى قدمها . . . هذا هو كرم الله . . . وهذا فضله . . . نعم بلا حدود . . . وكون بديع جميل يخدم الانسان بلا مقابل . . . ثم جنة جعل الله فيها مكانا لكل واحد من خلقه . . . فكل منا له مقعد فى الجنة . . . ومقعد فى النار .

ماذا فعل الانسان ؟ . . . هل قدم الشكر الذى أوجبته هذه النعم عليه ؟
لا . . . بل انه أخذ كل هذه النعم وتمتع بها دون ان يؤدي حتى حق

مثل الجنة والنار .

الشكر . . . مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى . . .

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

«سورة سبأ الآية ١٣»

. . . ولم يفعل ذلك فقط . . . ليته لم يقدر الشكر وسكت . ولكنه مضى الى الكون يفسد فيه . . . فقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق . . . واحتكر خيرات الله فوجد في الكون أناسا يملكون أكثر مما يستطيعون أن يأكلوه وشعوبنا أخرى تموت من الجوع . . . وماذا فعلت الشعوب التي تملك أكثر من حاجتها أخذت نعمة الله التي خلقها لاطعام الانسان وأفسدتها وألقت بها في البحر . . . قطعت الأشجار والغابات التي هي رثة الكون يتنفس بها وبنيت مكانها كل ما يلوث الجو ويفسده . . . خلق الله الانسان حرا . . . فإذا بالانسان يستعبد الانسان . . . يستعبده بالمال . . . ويستعبده بالحاجة . . . ويستعبده بما خلق الله في الكون للناس جميعا . . . خلق الله الانسان آمنا . . . فإذا بالانسان يستعبده بالخوف والايذاء وبكل ما هو كرية يفسد به صنعة الله وخلقه . . . طلب الله من كل منا ان يحترم حقوق الآخر . . . فإذا بالانسان يعتدى على حرمان أخيه وعلى ماله وعرضه .

منهج الله . . .

بل انطلق الانسان الى أكثر من ذلك . . . وضع الله سبحانه وتعالى له منهج الحياة في الأرض . . . وقال إذا طبقت هذا المنهج فانك ستعيش حياة سعيدة في الدنيا والاخرة . . . فجاء الانسان الى منهج الله فغيره وأفسده . . .

مثل الجنة والنار .

وحين تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ المنهج بقدرته هو ، بحيث لا يتم فيه
تبديل ولا تغيير . . انطلق الانسان تاركا منهج الله وبدأ يشرع لنفسه ،
فيحلل ما حرم الله . . ويحرم ما أحله . . ويضع عقله ظلما وزيفا وعدوانا
فوق قدرة الله . . فيشرع لنفسه مستخدما هوى النفس . . مضلا عن
الله . . ثم يمعن ويحاول ستر وجود الله . . ويعبد الاحجار والأصنام
والحيوانات والانسان . . فإذا سألته هل هؤلاء جميعا يستطيعون أن يخلقوا
مثل هذه الحياة . . يحاول ان يجادلك عبثا في الخلق . . ولو أنه شهد الخلق
لقلنا شاهد ومن حقه الكلام . . ولو أنه علم اسرار الخلق لقلنا عالم
يتحدث عن علمه ، ولكن لا هذا ولا ذاك . . فلا هو شهده ولا هو
يعلم . . ومع ذلك هو يكابر ويحاول أن يضل الناس . . فيقول
الله فيه . .

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ

مُتَّخِذًا الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ (سورة الكهف - الآية ٥١)

. . هذا هو الانسان وهذه هي نعم الله عليه . . وهذا هو كفره بهذه
النعم حتى أن الله سبحانه وتعالى قال . .

﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة عبس - الآية ١٧)

لكن الله عدل . . وهو رب العالمين . . ومن هنا فإنه يعطى لخلقه

مثل الجنة والنار .

حقوقا متساوية . . وهو قيوم قائم على كونه . . من هنا فإنه حريص على حقوق كل عبد من عباده . . ضعيفهم وقويهم . . صغيرهم وكبيرهم . . فإذا اعتدى القوى على الضعيف كان ذلك اعتداء على حق من حقوق الله في قيوميته على خلقه . . وإذا ظلم جبار الناس . . كان ذلك اعتداء على حقوق الله في كونه . . والله سبحانه وتعالى بعد أن كفل لكل منا حقا متساويا دون تمييز بين جنس أولون أو مركز . فكلنا أمام الله متساوون لا فرق بيننا إلا بالتقوى . . والله سبحانه وتعالى إما أن يكون قادرا على حماية خلقه وحماية الحقوق التي أعطاهها لهم بعدله . . وإما أن إن يكون - تنزه وتبارك وتعالى - عاجزا عن ذلك . . والله قادر . . وقاهر . . ومن هنا فإن عدله يقتضى القصاص . . لأنه لا موجب ولا مبرر للظلم إلا هوى النفس البشرية وحرص الانسان أن يتميز على غيره وأن يعلو عليه ويستعبده . . ولذلك فإن القصاص يكون عدلا . . ما دام الله قد أعطانا حقوقا متساوية فلا يعتدى واحد منا على خلق الله . . فيفسده أو يهدر حقا من الحقوق التي أعطاهها الله لخلقته .

رحمة الله

ومع هذا . . ومع كل هذه النعم التي أعطاهها الله للانسان بلا مقابل وبدون جهد بشرى . . بل بقدرة الله سبحانه وتعالى . . ومع أن الانسان أفسد وظلم . . وأكل حقوق غيره . . وعبث في كون هو من خلق الله . . ونقل الحياة من السعادة والازدهار إلى البؤس والشقاء . . وقد شاءت رحمة الله سبحانه وتعالى أن يمهلها المرة تلو المرة . . وان يبعث له الرسل رسولا

مثل الجنة والنار .

بعد رسول . . وأن يجعل عباده المؤمنين يذكرون البشرية كلها ببشاعة فعلهم ويذكرونهم بعذاب الله . . فإذا تاب انسان ورجع عن ظلمه وندم على ما فعل . . تاب الله عليه برغم كل الآثام التي ارتكبها . . وإذا رفع يديه الى السماء وطلب المغفرة من الله . . غفر الله له وعفا عنه . . ويذكره الله ويقول . .

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا

(سورة الزمر - الآية ٥٣)

. . ويقول توبوا الى الله توبة نصوحا . . علنا نرجع . . علنا نفيق - علنا نتذكر . . ولكننا لا نتذكر الله إلا ساعة الشدة . . أو ساعة الضيق . . أو ساعة الموت . . تلك هي الساعات التي يتذكر فيها الانسان قوة الله سبحانه وتعالى وقدرته . . فيرفع يديه الى السماء ويصيح يارب فإذا أعطى كفر . . تلك هي حقيقة الانسان الذي فتح الله له من أبواب رحمته ابوابا واسعة . . وفتح له من أبواب التوبة ما يسع الذنوب جميعا . . وفتح له من أبواب التذكرة ما جعله يفيق ويرجع . . ولكنه أبى كبرا وعنادا إلا ان يمضى في ضلاله متحديا كل منهج الله . . فكان حقا عليه العقاب . . الله سبحانه وتعالى لا يريد ان يعذب أحدا من خلقه . . لأنه هو الذي خلقهم وأوجدهم . . فيقول في كتابه العزيز . .

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾

(سورة النساء - الآية ١٤٧)

مثل الجنة والنار .

.. ولكن الانسان هو الذى يوجب على نفسه العذاب . . وهو الذى يوجب على نفسه اللعنة . . وهو الذى يوجب على نفسه سوء المصير . . الله يذكره برحمته . . يذكره بنعمه . . ويذكره بقدرته . . ويقول . .

﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النساء - الآية ٢٨)

.. أى أنت أيها الانسان لاحول لك ولاقوة إلا بقدره الله سبحانه وتعالى . . أفق . . تنبه . . قف لحظة واحدة لتتنبه الى أين تسير . . ولكن الانسان لا يتنبه ولا يتدبر ولا يعرف الى أين يسير . . ويذكره الله فى القرآن الكريم بالجنة والنار . . ويضرب له الأمثال ليقرب له المعنى إلى ذهنه . ولكن الانسان بدلا من أن يقبل على الله يزداد نفورا وبعدا عن الله سبحانه وتعالى . . ويزداد غرورا ، حتى تمحق عليه كلمة العذاب . . وحينئذ حين يرى العذاب . . يحس ببشاعة ما فعل وما اقترفت يده . . ولكن الجنة . . أو الآخرة . . فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . . ومادامت هذه هى الحقيقة . . فكيف يضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال لنا بما لم نسمع ولم نر ولم يخطر على عقولنا . . إذن فكل الامثال التى ضربها الله فى القرآن الكريم عن الجنة والنار لا يمكن ان تصل الى الحقيقة . . ولكن الله سبحانه وتعالى ضربها لنا لتؤدى معانى ولتضع فى عقولنا ما هى فلسفة النعيم الذى ينتظرنا فى الجنة . . وما هى بشاعة العذاب الذى ينتظره الكافرون فى النار . . على أننا قبل أن نبدأ هذا

مثل الجنة والنار .

لابد لنا من أن نتذكر مثلاً جاء في القرن الكريم ، وذلك في قول الله تعالى . .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الجمعة - الآية ٥)

. . أى أن الله شبه من يعلم منهجه ولا يعمل به كأنه في منزلة أقل من منزلة الحمار . . لماذا ؟ . . لأنه يحمل هذه الكتب التي فيها الحكمة والحق والبيان . . ثم بعد ذلك لا يستفيد منها سوى أنه يحمل ثقلها . . ولكن لماذا هذا الانسان في منزلة أقل من منزلة الحمار ؟ . . لأن الحمار خلق ليحمل الاثقال في الحياة وينقلها من مكان الى آخر . . ولم يعطه الله موهبة العلم . . أو يسره ليتعلم . . ولذلك هو حين يحمل هذه الكتب التي تحتوى الحكمة من مكان إلى آخر يؤدي مهمته في الحياة . . يفعل ما خلق من أجله . . ولكن الانسان أعطاه الله موهبة العلم . . وجعله صالحاً لأن يتعلم ويعى ، ويطبق منهج الله . . ولكنه لا يؤدي مهمته في الحياة . . فهو يحمل هذه الكتب ولا يعمل بها . وهو يقرأ ولا يعى . . فكأنه في منزلة أقل من منزلة الحمار . . لأن الحمار يؤدي مهمته في الحياة . . والانسان الكافر المبتعد عن منهج الله لا يؤدي مهمته في الحياة .

مثل الجنة والنار

مثل الجنة

الله حين يضرب لنا الأمثال يقول . .

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي أُوعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة محمد - الآية ١٥)

. . . عندما نقرأ هذه الآية ونتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجنة (فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) . . . يلاحظ في حديث رسول الله أنه بدأ بالعين ثم الأذن ثم قلب البشر . . . لأن العين في رؤياها لها حدود . . . ولكنها أهم من عدد من الحواس الأخرى كاللمس مثلا . . . فان العين ترى أبعد ما تلمس اليد . . . أو كالشم مثلا فان العين ترى أبعد وأوسع من الرائحة التي يشمها الأنف . . . وهكذا . . . ثم تأتي الأذن لأن الأذن أوسع فانك قد تسمع صوت انسان ولكن نظرك لا يدركه . . . والأذن تسمع تجربة غيرك وتعيها . . . أما العين فلا ترى الا ما يحدث أمامها . . . ثم يأتي ما لا خطر على قلب بشر - لأن ما يخطر على قلبك أوسع كثيرا مما تراه عينك . . . وكما قلنا : ان المعنى يسبق اللفظ . . . ووجود اللفظ دليل على ان المعنى موجود . . . وذلك ما بيناه بالتفصيل في فصل سابق .

مثل الجنة والنار .

فاذا كانت المعانى التى فى الآخرة ما لاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . فلا توجد لها ألفاظ فى اللغات تعبر عنها . . ولذلك فاننا نلاحظ دقة الله سبحانه وتعالى فى استخدامه مثل الجنة دون أن يطلق الألفاظ على اطلاقها . . ولذلك فان الحديث مختلف عما ستراه فى الجنة . . انه حديث على قدر عقولنا وفهمنا بما تراه فى الدنيا .

نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى حينما تحدث عن النعيم فى الجنة كان هناك خط مشترك يربط بين هذا كله . . ذلك أن الله سينزع من كل نعمة من النعم ما يضايق الانسان فى الدنيا ، أو ما يسبب له الضيق . . فالماء فى الدنيا حين تتركه فترة راكدا فانه يفسد ويصبح ماء آسنا . . يتغير طعمه فلا تستسيغه .

ولكن فى الآخرة لا شىء من هذا . . الماء دائما وأبدا سيكون حلو المذاق نقياً طاهراً . . كلما شربت منه ازدادت حلاوته فى فمك . . وكذلك العسل . . وكذلك باقى النعم كلها منقاة من الشوائب . . منقاة من كل شىء . . مخلوقة خلقاً جديداً صافياً . . ليس هو خلق الدنيا . . ولكنه خلق لا يلحقه أى نوع من العيوب التى تظهر فى نعم الدنيا حين تترك لفترة أو يساء استخدامها . . بأن تتحول من حلال الى حرام . . كالعنب الذى يصنعون منه الخمر من رزق حلال الى رزق حرام . . والخمر فى الدنيا إثم ، لأنها تذهب العقل . . والانسان حين صنعها ملاًها بالشوائب الضارة التى تجعلها ضارة بالصحة وضارة بالجسد . . وضارة بالعقل وفيها أذى كبير للانسان . . لذلك حرمها الله . . وهى حين تغيب العقل تدفع

مثل الجنة والنار .

الانسان الى طريق الشر ، والى طريق الشيطان . . لذلك فهي أم الكبائر . . من يشربها يستحل كل كبيرة . . ولكنها في الآخرة غير ذلك . . ان الله سبحانه وتعالى يتزعم منها كل هذه الشوائب . . ويوجدتها بتكوين طاهر غير هذا التكوين الذى نعرفه فى الدنيا .

كل شىء مطهر

أى أن كل نعم الله ستكون طاهرة مطهرة من كل شائبة . . الماء لا يأسن ولا يتلف . . واللبن لا يتغير طعمه . . وكل شىء هو مخلوق ليكون نعيما مطلقا دون أن يكون فيه ما يكدر ، أو ما يضر ، أو ما يؤذى آكله أو شاربه . . ذلك هو المعنى الذى يريد الله تعالى أن نفهمه من المثل الذى ضربه . . لأن عقولنا لا تستطيع ان تعى ما هو موجود فعلا فى الجنة . . لذلك يقول الله أن ما هو موجود سيكون نعيما ليس فيه شائبة واحدة . . ليس فيه ما يكدر الصفو أبدا . . ولا يصيب الانسان بأى نوع من الضيق ولو كان ضيقا خفيفا . . ولذلك فهو نعيم يحيط به نعيم . هذا بالنسبة لنعم الله سبحانه وتعالى . . أما بالنسبة لأهل الجنة فيزال من نفوسهم كل ما يضايق أو تضيق به النفس . . فيقول الله سبحانه وتعالى . .

﴿ وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ ﴾

(سورة الحجر الآية ٤٧)

والغل فى القلب والحقدهما آفة الدنيا . . أى أن الذى يفسد الدنيا

مثل الجنة والنار .

ويفسد العلاقات بين الناس . . ذلك الحقد الذى يصيب الانسان . .
فيجعل فى قلبه غلا نحو انسان آخر فيفسد الجو بينهما ويصبح كل منهما عدوا
للآخر . . وتبدأ مع العداوة البغضاء وشروور الدنيا . . والله سبحانه وتعالى
يريدنا أن نعرف ان الانسان فى الجنة سيكون مطهر القلب . . وأن المجتمع
فى الجنة سيكون مجتمعا متحابا . . مجتمعا ليس فيه غل ولا حقد ولا كل
ما يشوه الحياة الدنيا ويضع فيها أى نوع من أنواع الشقاء . . فالله يريد منا
بهذا المثل أن نعرف . . ان الانسان فى الجنة لن يكون كالإنسان فى
الدنيا . . بل سيكون مطهرا من كل الشوائب . . ومن كل الأشياء التى قد
تسبب أو تثير أى نوع من الشقاء . . وإلى ذلك يشير الله سبحانه
وتعالى . .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٢٥)

. . أى أن التطهر هنا سيكون شاملا وكاملا . . كيف سيكون ؟ . .
وكيف سيتم ؟ . . ذلك علم الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى كما سينزع
من النعم كل ما يضايق النفس البشرية . . كذلك سينزع من الانسان كل
ما يثير الشقاء فى المجتمع . . الى أى درجة ؟ . . تلك التى لا يعرفها أحد
لأنها من قدرات الله سبحانه وتعالى .

الجنة مجتمع مطهر من كل شىء يصيب من يعيش فيه بأى نوع من
الضيق أو الشقاء أو عدم الراحة . . وذلك يحدث بقدره الله سبحانه

مثل الجنة والنار .

وتعالى . . هذا ما يريدنا الله أن نفهمه من هذه الأسئلة انه سيأتى بنعم مطهرة وأزواج مطهرة . . ونفوس مطهرة . . ليصبح هذا المجتمع الطاهر نعيما لا تدخل فيه ذرة واحدة مما يثير الضيق فى النفوس . . فإذا وصلنا الى هذه الصورة . . لم نصل الى كيف يكون النعيم فى الجنة . . ولكننا نكون قد وصلنا الى ما تستطيع عقولنا أن تفهمه عن معنى النعيم فى الجنة . . دون أن نصل الى حقيقته . .

لماذا ترك المرأة ؟

على ان هناك قبل ان نترك هذه النقطة لتتحدث عن مثل العذاب فى النار . . تلك النقطة هى التى تثار دائما فى لقاءاتى . . خصوصا تلك التى تحدث مع المستشرقين . فى أن الله سبحانه وتعالى أعد حورا عينا فى الجنة للرجال . . ولم يعد مثل ذلك للنساء . . نقول لكل من يثير هذا الحديث إنك لاتفهم طبيعة الحياة . . ذلك ان كرامة المرأة فى ان يكون لها رجل واحد . . والمرأة المبتدلة هى التى يتعدد عليها الرجال . . أما المرأة الحرة فقد يموت زوجها فتفرض أن تتزوج حتى لا يدخل عليها رجل آخر . . وإذا كانت طبيعة خلق الله للمرأة هى أن كرامتها فى ألا يتعدد عليها الرجال . . فكيف يأتى الله سبحانه وتعالى فى الجنة وهى دار النعيم ويجعلها دار إهانة للمرأة .

عندما سئلت هذا السؤال فى أمريكا . . قلت لمن سألنى هل لديكم مكان يستريح فيه النساء ويجدن رجالا متعددين ؟ قال : لا . . قلت : لماذا

مثل الجنة والنار .

تقيمون مكانا يرتاح فيه الرجال جنسيا ويجدون فيه من النساء ما يريدون ،
ولا تقيمون نفس المكان للنساء فيه رجال يقومون بنفس المهمة . . فسكت
ولم يجب . . وسألته هل هذا المكان الذى يوجد فيه النساء ويذهب اليه
الرجال ليقضوا ساعة أو ساعتين فى متعة محرمة يخضع لاشراف طبي ؟ . .
فقال بحماس شديد . . نعم إشراف طبي كل يوم . . قلت وهل تفعلون
ذلك مع النساء المتزوجات . . قال : لا . . قلت : لماذا ؟ . .

فسكت فقلت له : لأن تعدد الرجال على المرأة الواحدة يخلق الأمراض
الخبیثة . . فهل تريد من الله سبحانه وتعالى فى الآخرة أن يبين كرامة
المرأة . . وقد ارتفع بكرامتها فى الدنيا وأحل لها زوجا واحدا . . وهل
تعدد الرجال على المرأة الواحدة الذى هو نوع من الالهانة . . ونوع من
الجلب للمرض . . نريد من الله أن يجعله فى جنة كلها نعیم . . ان المرأة
الحرّة ترفع رأسها الى السماء وهى تمشى . . وتموت جوعا ولا تتبع
جسدها . . هذه هى كرامة المرأة . . وهى كرامة يحافظ الله سبحانه وتعالى
عليها فى الآخرة . . ويجعلها مرفوعة الرأس محفوظة الكرامة فالحرّة لا تزنى
أبدا . . والمرأة الكريمة الشريفة تكره أن يتعدد عليها رجل آخر حتى بعد أن
يموت زوجها . . وتلك هى الحكمة .

عرض سريع للأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى للجنة . . فمجتمع
مطهر من كل شائبة . . وبشر مطهرون من كل ما يثير أى نوع من أنواع
الشقاء أو التكدير فى النفس . . تأق فيه الأشياء الى الانسان دون تعب
أو جهد . . وبمجرد ان ترد على خاطره يجدها أمامه فليس فيه تعب

مثل الجنة والنار .

ولا نصب ولا غل ولا حقد . . كل النعم مطهرة . . وكل ما فيه مطهر . . نعيم في نعيم . . ثم نضيف الى ذلك أن هذا النعيم هو على قدرة الله سبحانه وتعالى وليس على قدرة البشر . . وبذلك يكون نعيمنا في أعلى درجات العلو . . وتمتعا فوق كل تصور بشرى . .

العذاب في النار

نأتى بعد ذلك الى الأمثلة التي ضربها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للعذاب في النار والعياذ بالله . . هذه الامثلة لا تمثل حقيقة واقع العذاب . . ولكنها تعطينا كما أعطتنا الأمثلة عن الجنة صورة مقربة تجعلنا نفهم طبيعة هذا العذاب الرهيب . . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا إن العذاب في النار لا ينتهى أبدا . . أى أنه عذاب مستمر لا يتوقف دقيقة واحدة فيقول . .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ
بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء - الآية ٥٦)

. . ونحن نعلم بعلمنا البشرى أن الأعصاب التي تنقل الحس الى الانسان والتي تجعله يشعر بالالم موجودة تحت الجلد مباشرة . . ومن هنا نعرف ان المسألة ليست عذابا بحيث يحترق الجلد وتحترق معه الأعصاب . . ثم لا يشعر الانسان بشيء ولكن كلما احترقت الأعصاب

مثل الجنة والنار .

بدل الله جلود الذين يعذبون في النار بجلود أخرى تحتها أعصاب حية ليستمر الشعور بالألم والاحساس بالعذاب . . لأن الله يريد بهذا المثل ان يقول لنا لا تحسبوا ان عذاب النار مجرد عذاب وقتي . . أو أن الانسان يحترق ولا يحس بشيء . . بل كلما احترقت الجلود بدلناها بجلود غيرها . . ويعطينا الصورة البشرية التي نفهمها بأن العذاب مستمر لا يتوقف دقيقة واحدة . . فإذا كان هناك خلود في النار . . فالعذاب فيها لا يتوقف أبدا . .

ويمضى الله في بيان صورة العذاب في النار فيقول :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سَائِلَةٍ ذَرَعُهَا سَبْعُونَ

ذَرَأًا فَأَسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الحاقة - الآية ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢)

. . وهنا نجد صورة أخرى من العذاب هي ان الانسان سيكون وسط هذا الجحيم مقيدا بالسلاسل . . وأنت إذا أردت ان تعاقب انسانا في الدنيا فانك تقيد حركته وتربطه بالسلاسل . . هذا وحده عذاب للبشر دون أن يكون معه أو مضافا اليه عذاب آخر . . فإذا أضفت اليه عذاب النار كان ذلك عذابا مضاعفا . . لذلك فإن الله يريد أن يقول لنا مع هذا الألم المستمر من النار الذي يتجدد بتجديد الجلود . . فإن الانسان لا يستطيع أن يتحرك يمينا أو يسارا . . لأنه ربما خففت عنه الحركة العذاب قليلا . . ولكن حتى هذا التخفيف غير موجود . . فهو مقيد في مكانه . . لا يستطيع

مثل الجنة والنار .

ان يتزحزح عنه . . مما يجعل الشعور بالعذاب مضاعفا . . ثم يضاف الى ذلك الماء الذى يشربه . . والطعام الذى يأكله . .

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة محمد الآية ١٥)

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النبأ - الآية ٢٥)

والماء يغلى . .

فى ظل هذا العذاب المقيم . . والنار تأكل جلودهم التى تعاد اليها الحياة والسلاسل والأغلال تحيط بهم يطلبون الماء على يكون فيه برد يخفف هذا العذاب ولو للحظة واحدة . . فيؤتى لهم الماء . . ولكنه ماء يغلى . . ومن اللهفة على الماء يشربونه . . فبدلا من أن يخفف عليهم العذاب يزيده ويقطع أمعاءهم . . ويزيد من إحساسهم بالعذاب بالألم الرهيب . . ثم بعد ذلك يأتى لهم الطعام لعله يقيم أودهم . . يقول الله . .

﴿ أذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ

﴿٦٦﴾ إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٧﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾

فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَأَلْعُونُ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ هُمْ عَلَيْهَا لشَوْبَاءٌ مِّنْ

مثل الجنة والنار .

﴿ حِيمٍ ٦٧ ﴾

(سورة الصافات الآيات ٦٢ إلى ٦٧)

هنا يتحدث الله سبحانه وتعالى ليصور بشاعة ما سيأكله أهل النار فيقول . .

﴿ إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾

(٦٤ الصافات)

. . . ولك ان تتصور ما نوع الشجرة التي تخرج من نيران خالدة . . . وكيف يكون كل ما فيها من نار . . ثم يتحدث الله عن طلع هذه الشجرة وثمارها فيقول . .

﴿ طَلَعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾

(٦٥ الصافات)

كيف يأتي هذا التشبيه ولم ير أحد منا الشيطان . . ولا يستطيع أن يفهم معنى رعوس الشياطين . . لأنه لم ير رعوس الشياطين . عاقول ان ذلك تصوير بالغ في الدقة . . فلو أنك قلت للرسامين في العالم ارسموا لي صورة رأس شيطان . . لأمسك كل واحد منهم بريشته وألوانه ، ورسم شكلا بشعا مخيفا . . ولكنك إن أخذت هذه الأشكال وطابقتها على بعضها البعض لن تجد شكلا واحدا متفقا مع الشكل الآخر . . ذلك ان كل واحد منهم قد رسم صورة بشعة كما تخيلها . . وكل خيال مختلف عن الخيال الآخر . . فلو كان للبشاعة شكل واحد . . لخرجت كل الصور متطابقة . . ولكن هذا يمثل بشاعة . . وهذا يمثل بشاعة . . والبشاعة

مثل الجنة والنار .

عندى تختلف عن البشاعة عندك . . وقد يمسك احد الرسامين بصورة من الصور التى رسمها زميل له ويقول ان هذه ليست رءوس الشياطين . . ان الصورة ليس فيها أى نوع من البشاعة وهى لانخيف .

شئ لا يعرفه الناس

ولهذه الحكمة ضرب الله هذا المثل . . هو لم يأت بشئ يعرفه الناس . . فما يخيفنى قد لا يخيفك . . وما يفزعنى قد لا يفزعك . . والله يريد افزاعا عاما لكل واحد منا . . فهو يأتى بكلمة رءوس الشياطين ثم يطلق العنان لخيال كل فرد منا ليتصور صورة الشيطان الذى يفزعه . . فكأن الصورة فى هذه الحالة تكون مفزعة للناس جميعا . . والله يلحق مجهولا بمعلوم . . لأن المجهول فى هذه الحالة متخيل عند الناس بوجوه مختلفة . . هذا يتخيله . . وهذا يتخيله بوجه آخر . . ولكن العامل المشترك فى هذه الخيالات كلها هو الفزع والخوف . . ولو أن الله سبحانه وتعالى أعطانا تشبيها بمعلوم لدينا نعرفه يفزع منه الناس . . لوجدت بعض الناس لا يفزعون منه . . فالثعبان مثلا يخيفنى ويفزعنى . . ولكنه بالنسبة لصائد الثعابين شئ عادى جدا لا يثير الفزع فى نفسه . . بل ان صائد الثعابين ينبش جحور الثعابين بحثا عنها . . بينما أنا لورأيت جحر ثعبان لوليت هاربا من الفزع . . والنمر والأسد والحيوانات المفترسة تخيف الناس . . ولكن صائد هذه الحيوانات لا يخافها . . وربما لا تكون هى فى طريقه فيذهب لبحث عنها . . إذن قوله تعالى . .

مثل الجنة والنار .

﴿ طلعتها كأنه رءوس الشياطين ﴾ هو قمة البلاغة لاثارة الفزع في كل نفس بشرية . . فكأنما أهل النار حينما يطلبون طعاما لا يجدون إلا شجرة الزقوم . . وهم يفتنون بها فيخيل إليهم أنها طعام جيد . . فاذا أتى بها إليهم . . أثارت في نفوسهم الفزع والرعب من بشاعتها وكأنها رءوس شياطين تثير الخوف والفزع في نفس كل واحد منهم . . ولا تجد انسانا واحدا في النار لا يصاب بالفزع من هذا الطعام .

نكون بذلك قد وصلنا الى الحكمة من التشبيه الذى ورد في القرآن الكريم بالنسبة للجنة والنار . . وإن كان هذا التشبيه ليس هو الواقع باطلاقه . . ولكنه يعطينا الفكرة العامة من الواقع دون حقيقته . . فالجنة نعيم في نعيم في نعيم . . فالرزق يأتي بلا عمل . . والنعيم كلها مطهرة من كل شائبة . . وأهل الجنة مطهرون من كل غل أو حقد . . والصورة بالنسبة للنار عذاب دائم لا يذهب لحظة واحدة تجدد فيه الجلود لدوام الاحساس بالألم . . ويقيد فيه الناس بالسلاسل لدوام الاحساس بالضيق ويقطع امعاءهم الماء . . ويأتى الطعام اليهم فيملاً نفوسهم رعبا . . في كل مضغة ألم . . وفي معدتهم نار وألم . . وفي امعائهم ألم شديد على أنه ثار في الفترة الأخيرة سؤال حول المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى بالنسبة للملائكة الذين يقفون على أبواب النار . . والعدد الذى ذكر في القرآن . .

﴿ عليها تسعة عشر ﴾ (سورة المدثر الآية ٣٠)

. . وهذا هو موضوع الفصل القادم

الفصل السادس

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشْرًا

عليها تسعة عشر .

قبل أن نختم هذا الكتاب وهو الجزء الثاني من الأمثال في القرآن الكريم . . لا بد أن أرد على ما يثار حول الأعداد في القرآن الكريم ومعناها الى آخر ما يقال هذه الأيام . . ولقد أشرت الى ذلك إشارة بسيطة في الجزء الأول الذى نشر في رمضان الماضى . . ولكن لا بد لنا من العودة لايضاح عدد من الأشياء .

وقبل أن نبدأ الحديث لنا وقفة مع ما يقال على استخدام العقل الألكترونى أو « الكمبيوتر » بالنسبة لقرآن الكريم . . ذلك أن بعض الناس يتوهم أننا مادمننا قد استخدمنا العقول الالكترونية فإننا قد اتجهنا الى شاهد عدل لا يخضع لهوى النفس . . وإنما جميعا لا بد أن نحنى رءوسنا إجلالا واحتراما للنتائج التى يصل إليها الكمبيوتر أو العقل الالكترونى . . وأن نسلم بها تسليما قاطعا ، باعتبار أنها آلة صماء ، لا يدخل بها هوى النفس أو الهوى الشخصى .

نقول لهؤلاء جميعا إنكم قد دخلت فى قلوبكم الغفلة . . ذلك أن هذه العقول الالكترونية تعمل وفق برامج يعدها الانسان . . وأن الانسان الذى يعد هذه البرامج إذا كان لديه هوى النفس - فإنه يستطيع أن يعد للكمبيوتر برنامجا يوافق هوى النفس البشرية . . وأنه هناك معلومات توضع فى الكمبيوتر وتخزن فى ذاكرته . . فإذا كانت هذه المعلومات سليمة وصحيحة . . جاءت النتائج سليمة وصحيحة . . وإذا كانت المعلومات يدخلها هوى النفس . . جاءت النتائج طبقا لهوى النفس . . الكمبيوتر آلة صماء تنفذ ما يلقي لها من معلومات . . وهى لا تفكر ولا تستطيع أن

عليها تسعة عشر .

تفكر لتمنع هوى النفس من أن يصل الى النتائج التي يريدتها . . سواء
أكانت هذه النتائج صحيحة أم مفروضة . . ولذلك فإن علينا أن نأخذ هذه
المسائل بحذر شديد . . وأن نعرف أن المعلومات التي أعطيت الى
الكمبيوتر معلومات خاطئة . . ليصل الى نتائج خاطئة . .

فمثلا يقال له ما هو عدد الحروف الذي يقبل القسمة على ١٩ . . فيبدأ
في العد حتى يصل بجمع حروف سورة أو سورتين الى العدد الذي يقبل
القسمة على ١٩ . . فإذا لم يكن هذا العدد ، جمع حروف سورة
أخرى . . وهكذا حتى يصل ذلك الذي استخدم العقل الالكتروني الى
غرضه من تضليل البشر . . وكما نرى العقل الالكتروني لا يفعل شيئا
إلا تنفيذا لأوامر تعطى له . . وهو في هذه الحالة إنما هو عبد للبرنامج الذي
في داخله .

ولذلك فإن كل مؤمن لابد أن يستبعد من حياته تماما مسألة استخدام
الكمبيوتر في القرآن الكريم . . ويعرف أن وراء هذا الاستخدام شخصا
وضع البرنامج ومعلوماته ليصل الى غرضه . . وأن هذا الشخص هو الذي
يعطى العقل الالكتروني ليعمل ويوجهه كيف يشاء .

تلك مقدمة لابد منها قبل أن نبدأ الحديث . . لكي يعرف الناس
جميعا ، أن النتائج التي أذيعت عن طريق العقل الالكتروني يدخلها هوى
النفس . . وأنها أعدت بمهارة لتضل الناس ، ونعطي غير الحقيقة ،
مستخدما كلمة الكمبيوتر أو العقل الالكتروني . . لتضع الخداع في

عليها تسعة عشر .

عقولنا . . . وتوهمنا أن ما يحدث هو نتيجة لا يدخلها هوى النفس لأنها تتم
بآلات صماء . . . نقول ان هوى النفس يدخل في برنامج الآلة نفسها حسب
ذلك الذى يضع البرنامج .

ولقد قيل إنهم حددوا موعد يوم القيامة . . . وكم من مرة حدد الدجالون
يوم القيامة . . . فإني أذكر أن عرافة هندية قد حددت موعد يوم القيامة . . .
وصدقها عدد من سكان الهند . . . وفى اليوم المحدد أخذوا أمتعتهم
وأولادهم وصعدوا الى قمم الجبال عليها تنجيهم من يوم القيامة . . . ومر
اليوم ولم يحدث شىء . . . ولم تكن الجبال لتقيهم من هذا اليوم حين يأتى
موعده .

وأذكر مرة أخرى أن عرافة من المكسيك حددت موعد يوم القيامة . . .
ثم بعد ذلك حدث رعب وذعر فى بعض مناطق امريكا الجنوبية وامريكا
الشمالية واتجه عدد من الناس الى المخابىء أو قمم الجبال يهتمون بها . . .
وطبعا لم يحدث شىء . . . والمهم فى هذا كله أن هذه البدعة . . . وهى إدعاء
معرفة يوم القيامة سبق أن قام بها البشر . . . وأثبت الله سبحانه وتعالى
كذبهم .

وعلى أية حال فهذا كلام البهائين وغيرهم من اصحاب المذاهب
الهدامة . . . وهو علم لا ينفع وجهل لا يضر . . . فماذا سأستفيد لو أننى
علمت أن يوم القيامة غدا . . . ومن الذى سينجيني . . . وإذا لم أعلم أن يوم
القيامة غدا . . . فإنه سيأتى لا يمنعه علمى أو جهلى . . . وسيأتى فجأة دون

عليها تسعة عشر .

أن يعرف أحد منا . . ولا يمكن لأحد أن يحدد موعد القيامة . . ولا يمكن لأحد أن يكشف شيئا من الغيبات الخمسة . . هكذا قال الله في قوله تعالى . .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة لقمان - الآية ٣٤)

يعلم ما في الأرحام

وهذه قضية إيمانية في المقام الأول . . فلا يمكن لبشر أن يأتي ويقول إنه كشف ما ستره الله سبحانه وتعالى عن خلقه واختص به نفسه الى يوم القيامة . . ولا يدخل العقل - أى عقل سوى - أن هذا يمكن أن يحدث . . فإذا قال لك أحد ان العلم قد وصل الى أنه كشف ما في الأرحام . . أو كشف احد الغيبات الخمسة بأنه يعرف ما في الأرحام تقول له إنك كاذب .

والله يعلم من يشاء . . ويعطى العلم لمن يريد من عباده . . فمثلا هو علم زكريا ما في رحم امرأته قبل أن يخلق هذا المولود . . فقال له ان المولود ذكر . . وأن اسمه يحيى . . وأنه سيكون نبيا ومن الصالحين . .

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيٰى

عليها تسعة عشر .

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴿

(سورة آل عمران - الآية ٣٩)

وفي سورة الكهف (الآية ٦٥) يقول في العبد الصالح . .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

. . فمدلول العلم هنا إذا كان قد كشف عن شيء من الغيبات بأن الله هو الذى علمه لمن شاء من عباده الصالحين . . ولذلك لا يكون هذا العلم ذاتيا من الرسول أو العبد الصالح . . بل يكون علما علمه الله له .
وكل الأبحاث التى تمت والتى تتم . . تؤكد أن البشرية لم تصل الى أى معنى من معانى يعلم ما فى الأرحام . . ذلك أن العلم إما أن يكون ذاتيا بمعنى أنه يعلم حسب قواعد ثابتة محددة . . واما ان يكون خاضعا للتجربة ولاحتمالات الخطأ والصواب . . وفى هذه الحالة يكون مجرد تجارب . . فما الذى يحدث بالنسبة لما وصل اليه العلم . . أولا يتم أخذ عينة بعد عدة أسابيع من الحمل . . وهذا هو أول ما ينفى العلم . . لأنه لو كان هناك علم حقيقى لعرفوا ذلك بمجرد بدء الحمل . . ولكن العلم عاجز حتى الآن عن أن يحدد اليوم والساعة التى بدأ فيها الحمل . . وهو لا يستطيع أن يصل الى ذلك إلا بعد مرور عدة أسابيع على حدوث الحمل . . فهل ذلك العاجز عن تحديد موعد حدوث الحمل . . يعلم ما فى الأرحام ؟ . . إن كل التحاليل والاكتشافات وكل ما يملكه العلم لا يستطيع أن يحدد بالدقة موعد حدوث الحمل .

عليها تسعة عشر .

العلم . . بعد الخلق

هذه واحدة . . وثانيا أنهم بعد الحمل بعدة أسابيع يأخذون عينة ويحللونها ليقولوا هل المولود ذكر أو أنثى . . وهناك احتمالان لا ثالث لهما . . إما أن يكون المولود ذكرا . . وإما أن يكون المولود أنثى . . وهذا يجعل التخمين سهلا جدا . . فلو أنه هناك مائة نوع من الأجنة . . وأنت ستحدد أى نوع موجود فى الرحم . . لقلنا إن ذلك علم . . لأنه فى هذه الحالة يكون التخمين مستحيلا ، والوصول الى نوع من بين مائة نوع شىء محتاج الى علم فعلا . . ولكننا نرى بعض النساء عندنا عندما ترى امرأة حاملا تقول لها سترزقين بولد . . وترزق فعلا بولد . . فهل هذه المرأة التى قالت هذا الكلام تعلم ما فى الأرحام . . أم أن التخمين هنا سهل . . والوصول الى النتائج حتى الآن هو وصول ظنى وليس يقينا . . هم يقولون انه بنسبة ٩٠ ٪ . . ونحن نشك فى هذه النسبة . . إلا انه حتى لو كانت صحيحة نقول من الذى قال لك أن كلمة « ما » تعنى ذكرا أو أنثى . . ان كلمة « ما » تعنى كل أحداث الحياة . . من كلمة « كن » التى تم بها الخلق حتى الموت . . بل وحتى البعث . . « ما » تعنى ، أهوشقى أو سعيد . . طويل أو قصير . ما لون عينيه ولون شعره . . عمره وأجله . . والأحداث التى ستقع عليه . . من سيتزوج . . ومن سينجب . . وأى الأمراض سيصاب بها . . وأى الحوادث سينجو منها . . وأى الحوادث لا ينجو منها . . رزقه وعمله . . كل خلية من خلايا جسمه ومتى تبعث فيها الحياة . . ومتى تتوقف عن الحياة . . الى أى البلاد سيذهب . . وفى أى الأماكن سيعمل . . ومن سيصادق . . ومن سيعادى . . ونستطيع أن

عليها تسعة عشر .

نمضى الى مالا نهاية في أحداث الحياة التي تقع على البشر ليكون لها مدلول تحت كلمة « ما » التي قالها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز . . فمن الذى فسر كلمة « ما » بأنها ذكر أو أنثى . . وكيف يمكن أن تدعى أنك تعلم ما فى الأرحام مع إنك علمته بعد ان وجد فعلا . .

فهل هذا علم ما فى الأرحام . . لقد وجد الجنين وتم خلقه فى رحم الأم . . ومرت عدة أسابيع على بداية خلق هذا الجنين . . وبعد أن وجد جاء العلم ليقول ذكرا أو أنثى . . فهل هذا علم بكشف ما فى الأرحام فعلا ؟ . .

لو أن هناك علما حقيقيا لعرفت قبل أن يوجد . . ولكن ما دام قد وجد فقد خرج من عالم الغيب الى العالم المحسوس المكشوف . . وعندما خرج وكان قد علمت نوعه . . ولم تستطع أن تعرف ذلك ذاتيا . . ولكن كان لابد من اجراء عدة تحاليل . . فكأنك ترى المرض على وجه الانسان وتحلل دمه لتعرف نوع الميكروب . . فهل هذا علم بالغيب . . الجنين تخلق . . وصار فى عالم الواقع . . فأصبحت العملية هى اجراء تحاليل كتلك التى تجريها على الجسد البشرى لتعرف نوع المرض . . وكما تخضع هذه التحاليل البشرية للخطأ والصواب . . فكذلك تخضع التحاليل التى تجرى على الجنين للخطأ والصواب . . وكما لا تعرف من التحليل إلا الحالة التى أمامك . . كذلك لا يمكن ان تعرف من التحاليل التى تجرى إلا حالة الحمل التى أمامك . . ولا ينطبق هذا التحليل على أية حالة أخرى . . بل

عليها تسعة عشر .

لا بد من إجراء تحليل لكل حالة على حدة . . . وبعد ذلك كله . . . فالمعرفة
ظنية وليست يقينية . . .

حديث قدسي

من عادى لي وليا اذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء احب
إلى مما افترضت عليه ، وما زال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى
احبه ، فإذا احببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي
يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها .
وإن سألني لأعطينه ، وإن استعذني لأعيذنه ، وما ترددت عن
شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ،
وأنا أكره مساعته .

اسرف رجل على نفسه ، فلما حضره الموت اوصى بنيه ، فقال :
إذا أنا مت فاحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم ذروني في الريح في
البحر ، فوالله لئن قدر علي ربي ايعذبني عذابا ، ما عذبه احدا ،
قال : ففعلوا به ذلك ، فقال الله للأرض : اد ما أخذت فإذا به قائم ،
فقال له : ما حملك علي ما صنعت ؟ قال : خشيت - او مخافتك -
يارب ، فغفر له لذلك .

إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة
فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فمن هو هم بها فعملها ،
كتبها الله له عنده عشرة حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى
أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها ، كتبها الله له حسنة
كاملة ، فإن هو هم بها فعملها ، كتبها الله سيئة واحدة .

معنى العلم

ولذلك عندما يقول أى إنسان إنه يعلم ما فى الأرحام . . نقول له : أن العلم لذاته ، وأنت متى حللت دل ذلك على جهلك ، وأنت تريد أن تصل الى الحقيقة - فلماذا يرسلك الطبيب الى معمل التحليل . . لأنه يجهل مرضك . . أو على الأقل لأنه ليس لديه علم مؤكد لما تشكو منه . . ومن هنا فان كل الذين يقولون : إن أحد الغيبات الخمسة قد كشف إنما يحاولون الاضلال . . ذلك لأنهم يعرفون يقينا أن العلم يعلم ما فى الأرحام قبل أن يوجد . . ولا يعلم ما فى الأرحام ساعة أن يوجد . . ولا يعلم ما فى الأرحام بعد أن يوجد إلا بعد أن تمر ستة أسابيع أو أكثر ثم بعد ذلك تكون التجارب والتحليل لتحديد نوع الجنين فقط . . وحتى هذا ليس يقينا . . ولكن التكوين النفسى والتكوين الخلقى ومستقبل المولود والمواصفات الوراثية له ثم حياته كلها لا يعرف عنها العلم شيئا . . فاذا وصل العلم الى جزء من المليون من معنى كلمة « ما فى الأرحام » . . ووصل الى هذا الجزء من المليون بعد بدء خلق الجنين فى الرحم بأسابيع طويلة هلك المصللون وقالوا لقد انكشف احد الغيبات الخمسة .

نأتى بعد ذلك الى الغيث . . أو المطر . . فنجد نفس الشيء بنفس الخطة التى تمت بالنسبة لـ « ويعلم ما فى الأرحام » . . ثم أيضا بالنسبة الى ﴿ ينزل الغيث ﴾ . . وبعض الناس قال أن هناك نوعا من المواد الكيماوية تلقىه الطائرات فوق السحاب فينزل المطر والبعض الآخر ادعى أن التنبؤات الجوية التى تتم الآن ويقال فيها مثلا ان أمطارا غزيرة ستنزل غدا . . ثم

عليها تسعة عشر

ينزل المطر فعلاً . . . اعتبروا أن هذا كشف لقول الله ﴿ ينزل الغيث ﴾ . . . والله يقول ﴿ ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ﴾ أى أن الله هو الذى ينزل الغيث . . . ونلاحظ هنا قول الله سبحانه وتعالى ﴿ ينزل الغيث ﴾

. . . ولم يقل يعلم وحده موعد نزول الغيث . . . أى أن المسألة فى العملية نفسها التى تتم وليس فى موعد نزول الغيث ، لأن ذلك شىء تافه بالنسبة لعملية نزول الغيث نفسها . . . فان الذى يقول : ان المطر سينزل اليوم أو غدا أو بعد غد . . . فإن هذا التنبؤ مازال ظنيا حتى الآن . . . ورغم أنها جزئية صغيرة ألا أن العالم يستخدم لها الأقمار الصناعية والمعدات التى يطلقها فى طبقات الجو العليا ومحطات أرضية تستقبل ومعلومات تحلل . . . ومع ذلك فمازال هذا العلم حتى الآن علما ظنيا . أى أنه يصدق ويكذب حتى فى أكبر دول العالم تقدما . . . فكل ما يقال عن تطورات الجو أو عن نزول المطر بالذات هو احتمالات فقط قد تحدث أو لا تحدث .

الله جعل عملية نزول الغيث من غيبياته سبحانه وتعالى وقدرته . . . انه يعرف مسيرة الغيث منذ أن يتصاعد كبخار ماء من البحر ، ولا اريد ان أذهب الى أبعد من ذلك حتى لا ندخل فى تفاصيل طويلة . . . فقطعة البخار هذه عندما تصعد الى السماء بإذن الله من اسفل الى أعلى ثم تتجمع لتصبح سحابة . . . هذه السحابة إلى أين تذهب؟ . . . وكيف تدفعها الريح؟ . . . وكم سرعتها؟ . . . ثم أين تسقط المطر؟ . . . وهل ينزل رذاذا أم سيلا؟ . . .

عليها تسعة عشر .

نـزول الغـيث

بعض الناس يقول ان مناطق المطر معروفة في العالم . . وهناك مناطق معينة تنزل فيها الأمطار . ومناطق لا ترى الأمطار إلا نادرا . . نقول لهم ان هذا غير صحيح . . إرادة الله قسمت العالم الى مناطق صحراوية ومناطق خصبة . . ولكن لأن الكون يسير بطلاقة القدرة وليس بالاسباب . . تأتي سنوات تصاب فيها هذه المناطق الكثيرة الأمطار بالجفاف ولا توجد فيها قطرة ماء . . ويهلك الزرع . . ويهلك الحيوان . . ويهلك الانسان . . لو أن هذه بطبيعة الخلق وحدها ما حدث هذا . . ولكن مع طبيعة الخلق هناك مشيئة الخالق . . تأتي الى الانسان المدعى والضال . . ونقول له إن الله قد شاء أن تصاب المناطق التي تنزل فيها الأمطار بغزارة . . أن تصاب هذه المناطق بالجفاف . . تعال أنت ومعك السحب وبقدراتك أنك تنزل الغيث . . أنزل لنا قليلا من الغيث أو من المطر في هذه المناطق الجافة . . وينظر اليك عاجزا ، ويقول إنه لا يستطيع . . نقول له هذا الماء الذى يشربه بلايين البشر ويسقون منه حيواناتهم وزرعهم وأنفسهم أنت تعرف عناصر تكوينه من الاكسوجين والهيدورجين . . تعال فاصنع لنا مائة برميل من الماء لهؤلاء الناس العطشى لنسقيهم فيقف عاجزا . . نقول له تعال لهذه التربة التى جفت من عدم هطول الأمطار وضع فيها قليلا من الماء فلا يستطيع . . فأين هو الانسان من عملية نزول الغيث ؟

بل إن هناك مناطق فى العالم تغرق من غزارة الأمطار وصحارى شاسعة لا تجد نقطة ماء . . والله سبحانه وتعالى جعل ذلك دالا على قدرته . .

عليها تسعة عشر .

نقول لمن يدعى أنه ينزل الغيث . . خذ السحابة التي تعطى ماء هنا يكاد يهلك الناس وانطلق بها الى الصحراوات لتملأها بالحياة . . فلا يستطيع .
إذن ماذا انكشف من معنى « ينزل الغيث » . . ما الذى ظهر وعملية تكوين السحب ودفعها الى الأماكن التي قدر الله لها أن تمطر فيها . . ثم نزول المطر . . كل ذلك يتم وأنت لا تدري عنه شيئاً ولا تحس به . . بل إن أكثر بلدان العالم فى العلم والتكنولوجيا لا تستطيع اذا أصابها الجفاف ان تأتى بسحابة تمطر . . أو إذا أصابها مطر غزير ان توقف نزول هذا المطر .

حديث قدسى

قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ،
ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، يقرأ العبد (الحمد لله رب
العالمين) ، فيقول الله حمدنى عبدى ، فيقول (الرحمن
الرحيم) ، فيقول الله اثنى على عبدى ، فيقول (مالك يوم
الدين) ، فيقول الله مجدنى عبدى وهذا لعبدى ، (إياك نعبد
وإياك نستعين) ، وآخر السورة لعبدى ما سأل ، يقول (اهدنا
الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب
عليهم) .

عليها تسعة عشر .

وأنت لا تشعر

ان الله سبحانه وتعالى . . يتم عملية البخر من هذا السطح الواسع من الماء الذى خلق ومن كل شىء مبتل حتى ذلك الغسيل الذى فوق سطح منزلك . . انه يساهم فى عملية تكوين السحب ونزول الأمطار . . كل مساحة مائية ، وكل شىء فيه ماء يتم استخدامه بقدرة الله فى عملية نزول المطر . . ثم يصعد هذا كله الى طبقات الجو العليا . . الى حيث يشاء الله . . ثم تتكون السحابة كما شاء الله لها أن تتكون . . ودون أى تدخل بشرى . . وبعد ذلك تمضى الى حيث هى مأمورة أن تنزل الماء . . وقدرة الله سبحانه وتعالى تتجسد واضحة فى العملية كلها . . من ساعة حدوث البخر الى ساعة نزول المطر . . وفى سيطرة الله على كل خطوة من هذه الخطوات . . ولا أحد يستطيع أن يدعى أن هناك مشاركة بشرية من أى نوع بحيث يكون هناك أى أساس للدعاء . . فلا يوجد أى عامل مشترك حتى يمكن أن يقال ان احد الغيبيات الخمسة قد انكشف . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يكشف أنه خلق كل شىء من ذكر وأنثى حتى السحاب . . وأن عملية تلقيح السحاب يمكن ان تتم . . فان هذا بعيد جدا عن معنى ينزل « الغيث » . . ذلك أن الله بقدرته تكونت هذه السحابة . . وبقدرته جاءت الى هذه المنطقة لتمطر . . وبعلمه أراد أن يرى الانسان جزئية تافهة من عملية المطر . . وعلمه أن تتم عملية رش المواد الكيماوية بالطائرات . . وهذه تصيب مرة وتخطىء مرات . . والذى يريد أن يقول ان أحد الغيبيات قد انكشف فليأت لنا بسحابة لتمطر حيث نشاء . . أو يجعلها تمتنع عن المطر حيث نشاء . . وفى ذلك يقول

عليها تسعة عشر .

الله سبحانه وتعالى . . .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة النور - الآية ٤٣)

يبقى بعد ذلك من الغيبات الخمسة . . .

﴿ أَرْضٌ تَمُوتُ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ ﴾

وهذه لم يدر حولها جدل حتى الآن . . فلم يدع أحد أنه يعرف ماذا يحمل له الغد من رزق . . ولم يدع أحد أنه يعرف أين يموت بل إن الله سبحانه وتعالى يخلف ظنون كل من يحاول ولو كذبا أن يعرف أين نهايته . . وما زلت أذكر قصة مليونير لبناني بنى مقبرة كلفها ما يقرب من ثمانين ألف جنيه ليدفن فيها . . فشاء الله أن يكون أجله في سقوط طائفة في البحر . . ونزل الغواصون للبحث عن جثث الضحايا . . فعثروا عليها جميعا ما عدا جثة المليونير اللبناني التي لم يعثروا عليها رغم كل الجهود المكثفة . . وبقيت المقبرة خالية حتى يومنا هذا . . وكأنها تنطق بالآية الكريمة

﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾

عليها تسعة عشر

الرقم ١٩ . . والحقيقة

نأتى بعد ذلك الى الرقم ١٩ الذى يروج له البهائيون وغيرهم من أصحاب المذاهب الهدامة ، ويريدون أن يجعلوا منه شيئا مقدسا . . الله ذكر فى القرآن الكريم أرقاما كثيرة ليس بينها ترابط . . أى أنها لا تقبل القسمة على عدد واحد مثلا . . ولا هى مثلا كلها أحاد . . ولا كلها أزواج . . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْمَلِكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الحاقة - الآية ١٧) . .

وقال جل جلاله . .

﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

﴿ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٥١)

. . . وقوله تبارك وتعالى . .

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعِشْرِفَتِّمْ مِيقَاتُ رَبِّهِ ﴾

﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ

سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (سورة الأعراف - الآية ١٤٢) .

عليها تسعة عشر .

وقوله سبحانه . .

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ هَاسِبَةً أَبْوَابٍ يُكَلِّمُ فِيهَا مَنَّهُمْ
جُزْءًا مَّقْسُومًا ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٤٣ و ٤٤)

. . وقوله تعالى . :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ نَحْمِيسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة المعارج - الآية ٤) . .

وقوله جل جلاله . .

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف - الآية ٢٥) . .

وقوله عز من قائل :

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ
كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

(سورة الحج - الآية ٤٧)

وهكذا نرى ان الله سبحانه وتعالى قد استخدم في القرآن الكريم أرقاما
كثيرة لا يربط بينها الا مشيئة الله . . فحملة العرش هم ثمانية . . لأن الله

عليها تسعة عشر

أراد لهم ان يكونوا ثمانية . . وأبواب جهنم سبعة لأن الله أراد لها أن تكون سبعة . . وميقات موسى كان أربعين ليلة لأن الله أراد ان يكون ميقاته أربعين ليلة .

وليس هناك معنى لاثارة الجدل في هذا كله . . ذلك ان الجدل ممكن ان يثور حول أى رقم من الارقام . . ولو أننا قلنا ما الحكمة في أن الله اختار أن يحمل عرشه ثمانية لثار السؤال ما هى الحكمة لو أن الله اختار عشرة أو اثني عشر ملاكا لحمل العرش . . اذن لا توجد العلة في الاختيار لتضع قيودا على مشيئة الله في اختياره . . وفي هذا حكمة ايمانية كبرى ، لأنه متى اختار الله . . فلا نقول لماذا ؟ . . ولا نحاول أن نفلسف الأمور . . ولكن نقول شاء الله وما شاء فعل . . وهذا هو نفس المنطق الايماني الذى كان يجب ان يقابل به العدد ١٩ . . من أن مشيئة الله أرادت أن يكون الملائكة حول النار تسعة عشر . . كما أرادت هذه المشيئة أن يكون حملة العرش ثمانية . . وكل ما يقال خلاف ذلك . . كلام من باب المجادلة دون الوصول إلى شىء . . والذى يدلنا على ذلك هو سياق القرآن نفسه . . ولنرجع إلى الآية الكريمة في قوله سبحانه وتعالى :

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

عليها تسعة عشر .

إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا
وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَّرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾
نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴿

(سورة المدثر الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١)

القرآن يتحدى

إذا قرأنا هذه الآيات بامعان فكأننا نرى ما يحدث اليوم مسطورا في
القرآن الكريم بدقة ووضوح . . يقول الله ﴿ وما جعلنا عدتهم الا فتنة
للذين كفروا ﴾ . . أى أن الذين سيفتنون بهذا العدد ويحاولون تفسيره
بأوجه شتى . . ويحاولون استخدام الكمبيوتر وغيره لفتنة الناس ينطبق
عليهم قول الله ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ . . ومن هنا
يصف الله كل من يفتن بهذا العدد ، أو يحاول ان يفتن به الناس من الذين
كفروا . . وتأكيذا لما يحدث اليوم . . يقول الله سبحانه وتعالى :
﴿ وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ . .
وليحذر الذين يحاولون الآن ان يضعوا تفسيراً لهذا الرقم من عند أنفسهم
أو باستخدام التمويه أو باستخدام الحيل بالعقول الالكترونية . . ليحذر
هؤلاء جميعا من أنهم إذا حاولوا أن يفسروا لنا ﴿ ماذا أراد الله بهذا

عليها تسعة عشر .

مثلا ﴿ . . هؤلاء ينطبق عليهم قول القرآن الكريم ﴿ والذين في قلوبهم مرض والكافرون ﴾ .

وهكذا نرى من اعجاز القرآن الكريم أنه أنبأنا بما سيحدث قبل وقوعه وقت طويل . . وقال إنني ضربت مثلا بالملائكة حول النار . . وقلت انهم تسعة عشر . . وهذا العدد جعلته فتنة للذين كفروا . . فسيأتى الكافرون يفتنون به ، ويحاولون أن يفتنوا الناس به . . ويقولون إنه يحتوى على سرار الكون . . وأنه يحتوى على موعد يوم القيامة . . وأنه يحتوى على سمر الدنيا . . وسيحاول هؤلاء الكافرون أن يتخذوا من هذا العدد فتنة يفتنوا الناس به . . بل أكثر من هذا . . إن الذين في قلوبهم مرض الكافرين سيحاولون تحليل هذا الرقم . . ليتقولوا على الله سبحانه تعالى . . وليحاولوا أن يفسروا لكم ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ . . وهذا ما يحدث الآن . . ولو أن هؤلاء الكافرين والمضلين لم يأتوا ولم يستخدموا هذا الرقم بالذات (تسعة عشر) في الفتنة والاضلال . . ولم يحاولوا بالكمبيوتر وغيره أن يقولوا لنا ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ . . لقلنا ان الله قد أخبرنا في القرآن عن كافرين ومضلين سيأتون ليضلونا ويحاولوا فتننا بالعدد تسعة عشر ولكنهم لم يأتوا . . فكونهم أتوا . . وكونهم استخدموا الكمبيوتر وغيره لينشروا عملياتهم هذه . . أكبر دليل يثبت الايمان ويدلنا على أن الآية الكريمة التي وصفتهم بالذين في قلوبهم مرض والكافرين قد حددتهم بالذات . . وهكذا يثبت الله الايمان وينشر الدين بالكافرين ويجعل من هؤلاء الكافرين الذين جاءوا ليضلوا بآيات الله وبالقرآن الكريم يجعلهم

عليها تسعة عشر

مُبتين للايمان ودليلا على صدق اليقين .

وبذلك نعرف ان كل العبث الذى يقال عن الغيبات الخمسة وعن رقم ١٩ . . انما هو نوع من الاضلال والضللال . . والعجيب ان الذين يروجون أن الغيبات الخمسة قد انكشفت هم أنفسهم الذين يروجون للرقم ١٩ . . وما يدعونهم مما يحمل من معجزات .

إلى هنا وأحمد الله سبحانه وتعالى على انه قدرنا على اتمام خواطرى حول الأمثال فى القرآن الكريم . . والتي تمت فى الجزء السادس من معجزة القرآن الكريم الذى صدر فى رمضان الماضى وهذا الجزء .
وبذلك أكون قد تحدثت عن الأمثال التى وردت فى القرآن الكريم مسبوقة بكلمة مثل . . وإلى لقاء فى رمضان القادم ان شاء الله .

حديث قديم

إذا قال العبد لا إله إلا الله ، والله أكبر ، قال : يقول الله - عز وجل - : صدق عبدي ، لا إله إلا أنا ، وأنا الله أكبر ، وإذا قال العبد لا إله إلا الله وحده ، قال : صدق عبدي ، لا إله إلا أنا وحدي ، وإذا قال العبد لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قل : صدق عبدي ، لا إله إلا أنا ، ولا شريك لى ، وإذا قال لا إله إلا الله ، له الملك وله الحمد ، قال : صدق عبدي ، لا إله إلا أنا لى الملك ، ولى الحمد ، وإذا قال لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال : صدق عبدي ، لا إله إلا الله أنا وحدي ، ولا حول ولا قوة إلا بى .

رقم الايداع ٩٣ / ٣٣٢٨
I. S. B. N
977 - 08 - 0181 - X

طبعتم بمطابع دار اخبار اليوم

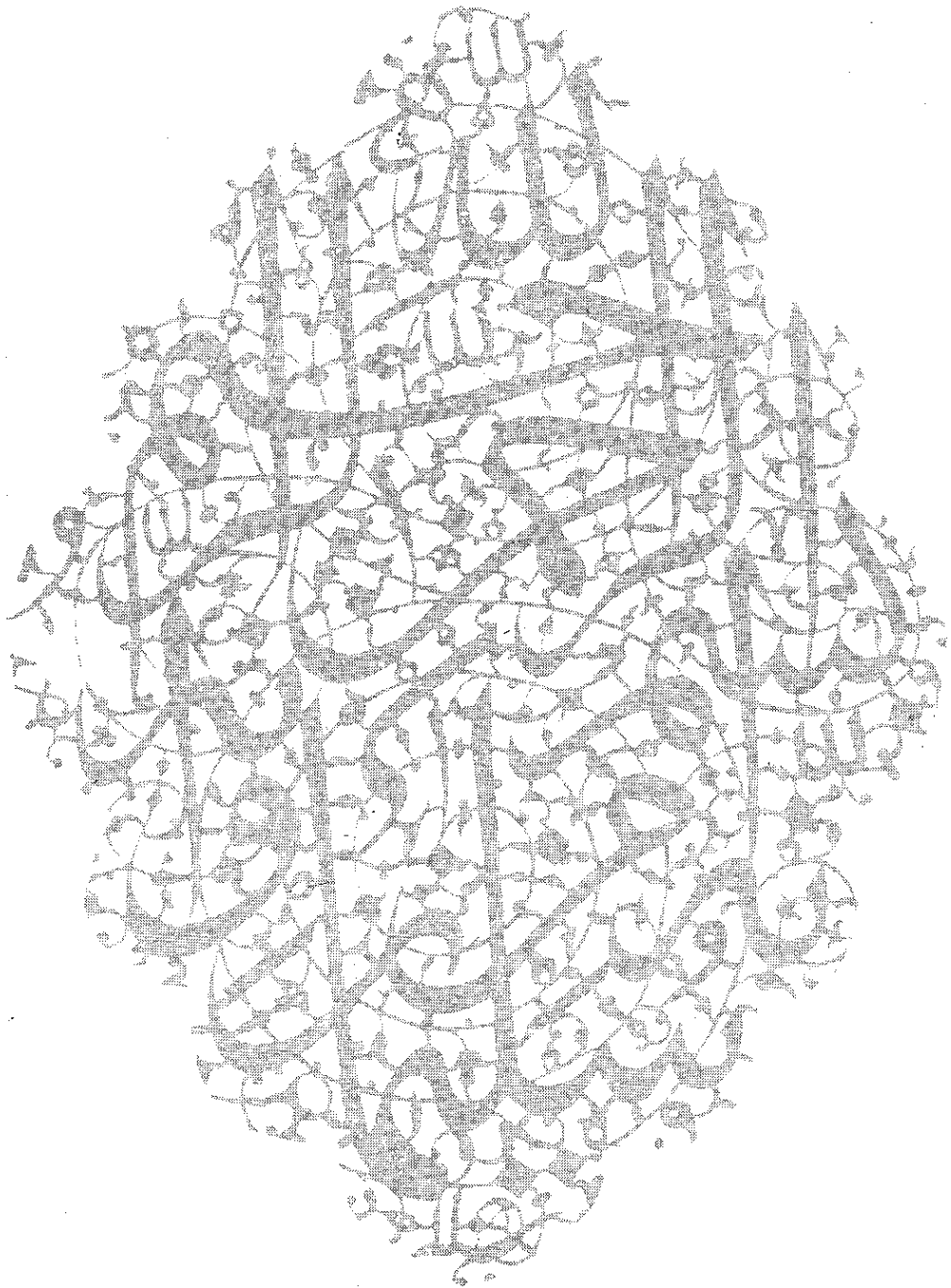
۸

معجزات الهی

محمد متولی الشعراوی



ادارة الكتب والمكتبات



الفصل الأول

لماذا اخذنا منك؟

لماذا اختل الميزان ؟

عندما نتحدث عن الإسلام فإننا نتحدث عن منهج الله الذى رسمه سبحانه وتعالى للحياة فى الأرض . وهو المنهج الذى لن يصلح الكون إلا إذا تم تطبيقه .. ذلك أنه لا يوجد من هو أعلم من الله .. وأحكم من الله .. ليرسم لنا طريق الحياة الآمنة المطمئنة على الأرض .

والله هو الذى خلق الإنسان .. وليس أدرى بالشئ من خالقه أو صانعه .. فهو الذى يضع له قانون تشغيله .. وقانون صيانته .. ليؤدى مهمته على أكمل وجه .. ولقد أراد الله سبحانه وتعالى برحمته أن يفهمنا ذلك فجعل ذلك قانوناً أرضياً لا تصلح الحياة إلا به .. فإذا أخذنا التليفزيون مثلاً .. فإن أول من يضع قانون تشغيله هو الذى اخترعه .. وهو يقول لك أفعّل كذا واضغط الزر رقم كذا ليعطيك الصورة ، ورقم كذا ليعطيك الصوت .. ثم يضع الصانع « كالتلوجا » مع الجهاز يدرسه المتخصصون ويرجع إليه الناس إذا فسد الجهاز وأرادوا إصلاحه .. فإذا ذهبت لتحضر نجاراً أو حداداً ليصلح جهاز التليفزيون فإنه يفسده .. وإذا قلت للناس ذلك فإنهم يسخرون منك .

والعجيب أن هؤلاء الناس الذين يسخرون منك إذا فعلت ذلك بالنسبة لأى اختراع أو آلة .. فإنهم هم أنفسهم الذين يحاولون مقاومة تطبيق نفس النظرية على الإنسان .. فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق هذا الكون .. وخلق الإنسان ووضع القوانين التى تمضى بها الحياة كلها .. ولكن الناس تأتى لتحاول أن تفسد الكون بأن تضع له القوانين التى ترونها .. تماماً كما تحضر الحداد أو النجار ليصلح جهاز التليفزيون .. وهى بذلك تدعى - بلا حياء - أنها أعلم من الله بخلقه ، وأعلم من الله

لماذا اختل الميزان ؟

بأسرار كونه .. فبدلاً من أن تأخذ قوانين الله الخالق والصانع .. تحاول أن تضع هي القوانين .. فنرى القانون الرومانى والقانون الفرنسى .. إلخ .

فساد قوانين البشر !

ويمضى الزمن ويظهر فساد قوانين البشر .. وأنها لم تجلب إلا الشقاء للبشرية .. فيأخذون فى تعديلها بحجة معالجة المشكلات التى ظهرت عند التطبيق .. وبعد عدة سنوات يتبين أن التعديل لم يصلح شيئاً ، فيتم تعديل التعديل .. وهكذا تمضى القوانين البشرية فى حلقة مفرغة .. تتزايد معها المشكلات وتتفاقم معها الداءات . ولكن أحدا لا يفكر أبداً فى أن يريح البشرية فيرجع إلى قوانين الله .. لأن هذه القوانين البشرية كلها لا تصلح حياة الإنسان فى الكون .. بل تفسده .

وإذا نظرنا للعالم اليوم نجد أنه يملؤه الشقاء .. ولو استمعت إلى أى نشرة أخبار فى الإذاعات أو فى الصحف .. لوجدت أنها تحمل من أخبار الدمار والخراب والقتل والحروب .. أكثر مما تحمل من أخبار الخير والبركة و الحياة الآمنة للناس .. والحل هو تطبيق قوانين الله .. وهذه ستأتى عن اختيار أو عن اضطرار .. لأنه لا طريق غيرها .. ولكنها ستكون اضطراراً بعد تجارب مريرة ، وشقاء بشرى يمر به العالم .

وقبل أن نبدأ فى الحديث عن حتمية الحل الإسلامى للبشرية كلها .. لابد أن نفرق بين قوانين الأرض وقوانين الله ذلك أن هناك فرقا جوهريا

لماذا اختل الميزان ؟

قد لا ينتبه إليه الكثيرون .. فقوانين الأرض عند التطبيق لا تقتضى أى نوع معين من السلوك .. ولكن قوانين الله تقتضى مع التطبيق سلوكا بالعمل ..ومأساة هذا العصر ليست فى أن نصل إلى النص الواضح فى قوانين الله .. ولكن القدوة السلوكية هى القليلة .. بل النادرة .. وقوانين الله محتاجة إلى سلوك .. وإلى قدوة وهذا ما يغيب عنا .

ونفسر ذلك قليلا .. ان الله سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يطبقوا قوانينه .. و أن يطبقوها أولا على أنفسهم .. فإذا لم يبدأ الإنسان بنفسه .. انتفت القدوة الإيمانية التى تجعل الناس يستمعون إليه ويصدقونه .. ونحن فى عصر جرب الإنسان فيه كل شىء ، وكل نظريات الدنيا التى تبدو براقعة .. ووجد فيها الشقاء والتعاسة .. ولذلك أصبح يحن للرجوع إلى الذين ليخلصه من هذا الشقاء ولكن الرجوع إلى الدين تلزمه القدوة فيمن يقدمون النصيحة .. أو كما قلت أن يطبق الإنسان ما يقوله على نفسه أولا .. ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ أنا لا آمركم أمرا أنا عنه بنجوى ﴾

ومن هنا فإن أهم ما يلزمنا ليس تعليم الدين فقط .. ولكن سلوكيات الدين .. فهذه هى التى تصنع .. وهذه هى التى تبنى .. وأنا عندما يأتينى رئيس عمل ولا أراه متميزاً عنى إلا بالشقاء فى عمله ، والدقة فى حضوره .. فإذا طلب منى أى شىء فإننى أقوم به عن طيب خاطر .. ذلك أننى أحس أنه غير متميز عنى إلا بكثرة مسئولياته .. وهو فى هذا يعطينى القدوة السلوكية التى رسمها الإسلام .. والإسلام دين الحق ..

لماذا اختل الميزان ؟

ولقد قال لى أحد المستشرقين الذين اعتنقوا الإسلام : إنه أمن بهذا الدين لأن الرسول كان يكره أن يتميز على أصحابه .. ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن رسولا .. وكان يأتى بهذا الدين من عنده .. لكان له هدف من ذلك .. فكل من يكذب يفعل ذلك لهدف .. والكذب فى مدعى النبوة أنهم يريدون أن يسيطروا أو يحكموا أو يحصلوا على نفع عاجل من الذين يدعونهم إلى الدين الجديد .

محمد .. القدوة

ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان قدوة سلوكية .. فلم يكن يبغى السيطرة .. بل كان يقول دائما : إنه بشر رسول .. ولقد عرضوا على رسول الله فى أول الأمر وبدون جهد أو تعب أن يعطوه من المال ما يريد .. فلما رفض عرضوا عليه الملك إن أراد .. فلما رفض عرضوا عليه الزعامة والثروة والجاه والسلطان وكل ما تستطيع الدنيا أن تهبه .. كل هذا وهو فى أول الطريق ولكنه رفض هذا كله .

إذن فالغاية التى من أجلها يدعى الناس النبوة .. أو يبتدعون النظريات .. الغاية ، وهى زينة الدنيا بما فيها ، قد رفضها رسول الله من أول الطريق .

وعندما وجد من يصافحه يرتعد من الانفعال لأنه يصافح رسول الله قال له : هون على نفسك فأنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ، أى الخبز الجاف .. وهكذا رفض أن يكون متميزاً فى علاقته مع أى ممن اتبعوا دين الإسلام .

لماذا اختل الميزان ؟

وعندما مات ابنه ابراهيم عليه السلام .. حدث خسوف فى الشمس .. وقال الناس : ان الشمس قد انخسفت حزنا على وفاة ابراهيم .. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

﴿ إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنخسفان لموت أحد ﴾ .

وهكذا أرادوا أن يضعوا له مجدا يعطيه السيطرة على القوى الهائلة فى الكون .. ولكنه رفض أن يقبل ذلك .. وكان دائما يباهى ببشريته ، وهذه ليست صفات من يدعى النبوة .

وأخيرا فإنه يحدث فى بعض الأحيان أن تكون المثل عند الإنسان أكبر من حجم الدنيا . لأنه لم يذق حلاوة المجد والحياة والسلطان والمال ونعيم الحياة .. ولكنه حين تقبل عليه الدنيا قد تتغير مثله وقيمه .. فكم من انسان بدأ مكافحا ، حتى إذا حقق لنفسه الثروة نسى المثل التى قامت عليها حياته .. وأباح لنفسه ما كان يحرمه عليها .. ولذلك نسمع من كثير من الذين قادوا ثورات الإصلاح فى العالم أنهم انحرفوا عن الطريق .. وأنه لابد من تصحيح مسار الثورة .. وابعاد المنحرفين عنها ..

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفض بعد أن انتصر الاسلام وانتشر فى الجزيرة العربية وثبت أقدامه .. رفض أن يحصل على ميزة شخصية .. فلا هو بنى لنفسه قصرا .. بل ظل يعيش فى بيته .. ولا هو أنشأ لنفسه حرسا مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

لماذا اختل الميزان ؟

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

« سورة المائدة - الآية ٦٧ »

ولا هو كان بيته ممتلئاً بالولائم وفاخر الطعام .. بل كان كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها تمر الأيام ولا توقد فى بيتنا نار .. فكان يعيش على التمر والماء .. ولا هو حقق لزوجاته ثروة من مال الدنيا .. بل منع عنهن الغنائم دون سائر نساء المسلمين .. ولا هو ترك ثروة لذريته ، بل قال : لا لنفسى .. ولا لذريتى .. نحن معشر الأنبياء لا نورث .. وما تركناه صدقة .

وينهى المستشرق حديثه .. بأن رجلا هذا خلقه لابد أن يكون صادق الرسالة .. ورسول الله الحق الأمين .

أمثلة من الحياة

وإذا كانت البشرية تعانى ما تعانى فإنها لابد أن تعود مضطرة ومقهورة إلى قوانين الله فى الأرض إذا أرادت إصلاحا .. وفى ذلك نستطيع أن نضرب الأمثلة التى بدأت تتحقق .

أول هذه الأمثلة هو الطلاق .. والله سبحانه وتعالى أباح الطلاق . لأن الحياة لا تستقيم إلا به .. وجاءت الكنيسة الكاثوليكية تحرم الطلاق ، وتدافع عن ذلك بأنه حفظ لكيان الأسرة إلى آخر ما قيل وما يقال .. ومضت السنوات وتفاقت المشكلات ، وبدلا من أن يحفظ عدم الطلاق الأسرة هدمها .. وانحرف الزوج .. وانحرفت الزوجة .. وضاع

لماذا اختل الميزان ؟

الأولاد .. واضطرت الكنيسة الكاثوليكية مرغمة أن تبيح الطلاق .. لم يحدث ذلك اقتناعاً بالدين الإسلامى .. ولا إيماناً بقوانين الله .. ولكنه حدث لأن الحياة لا تستقيم بدونه

والمثل الثانى مسألة أن ترضع الأم طفلها .. حكم من الله سبحانه وتعالى أن تكون الرضاعة مدة عامين ، مصداقا لقوله سبحانه :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾

« سورة البقرة - الآية ٢٣٣ »

وجاءت المجتمعات غير الإسلامية لتقدم نوعا من اللبن للأطفال يعطى لهم بعد أسابيع من الولادة .. وقالت : ان هذا اللبن يعطى الطفل من العناصر الغذائية ما لا يعطيه له لبن الأم .. وصدق الناس هذه النظريات ، واندفعوا بلا وعى وراء ألبان الأطفال التى تبيعها الصيدليات .. وضاع الزمن ، وهذا الوهم الكبير يسيطر على العالم .. إلى أن اكتشفوا أخيرا الأضرار الهائلة التى تحدث للطفل الذى لم يرضع من لبن أمه .. ومن نفس المكان الذى انطلقت منه نفس الصيحة عن الألبان من غير لبن الأم التى تعطى للأطفال .. انطلقت الصيحة هذه الأيام لتقول : ان الطفل الذى لا يرضع من لبن أمه ينشأ على الجسد على النفس .. وأن الأم لابد أن ترضع طفلها إذا كانت تريد أن ينشأ ابنها نشأة طبيعية .. وهكذا عادت المجتمعات الغربية التى تبهر بعض الناس بما يسمونه التطور العلمى .. عادت هذه المجتمعات إلى قانون من قوانين الله ، وأن الأم لابد أن ترضع طفلها .. عادت إلى قول الله سبحانه وتعالى :

لماذا اختل الميزان ؟

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾

هل عادت بالإيمان .. ؟ .. هل عادت لأنها أمنت بالإسلام ؟ .. لا ..
لكنها عادت لأن الكون لا يصلح إلا بقوانين الله .

والمثال الثالث هو عقوبة القتل .. والله سبحانه وتعالى قد شرع هذه العقوبة ، جزاء لقتل النفس البشرية والفساد فى الأرض .. فقال سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا
أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ ﴾

« سورة المائدة - الآية ٣٣ »

كما شرع الله سبحانه وتعالى عقوبة القتل بالنسبة للقاتل .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ ﴾

« سورة المائدة - الآية ٤٥ »

وجاءت بعض المجتمعات الأوروبية وألغت عقوبة الإعدام .. وصفق الناس وهللوا .. وقالوا هذه هى المدنية .. ومن هذه الدول : بريطانيا وإيطاليا .. ومرت السنوات ، وإذا بالجريمة تنتشر فى هذه المجتمعات انتشارا مروعا ، حتى ازداد معدلها بنسب كبيرة .. وإذا بنفس هذه الحكومات التى قالت بأن ذلك مدنية .. تطالب مرة أخرى بعودة عقوبة

لماذا اختل الميزان ؟

الإعدام كحل ضرورى لمواجهة زيادة الجرائم وبخاصة جرائم القتل والتخريب ..

الاقتصاد .. والإسلام

والمثال الرابع فى الربا .. ونظرة واحدة إلى الاقتصاد العالمى الآن ترينا ماذا فعل الربا .. فقد وقعت كل دول العالم فى الديون .. الدول الغنية والدول الفقيرة . وفى كل يوم يزداد الأغنياء غنى ، ويزداد الفقراء فقرا .. اختل الميزان الاقتصادى للعالم كله .. واجتمع خبراء الاقتصاد فى العالم وقالوا إنه لا حل للمشكلة الاقتصادية .. إلا أن يصبح سعر الفائدة فى العالم صفرا .. ولو أنهم كانوا منصفين لقالوا : انه لا حل للمشاكل الاقتصادية فى العالم والربا موجود .. ولكن كلمة الحق لم تكن تخرج من أفواههم فقالوا سعر الفائدة لا بد أن يساوى صفرا .

وعلى أية حال .. فلن يعتدل النظام الاقتصادى فى العالم مادام التعامل يتم بالربا .. فإذا انتهى التعامل بالربا انصلح اقتصاد العالم .. تلك القضية التى لا بد أن نفهمها .. أن العالم كله لا بد أن يعود إلى القوانين التى شرعها الله للحياة على الأرض حتى تستقيم الأمور .. فإن لم يعد باختيار وإيمان .. فسيعود مضطرا بعد تجربة مريرة تعانى منها البشرية الويل .. وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِأَهْدَىٰٓ دِينٍ وَالْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ۗ ﴾

« سورة الصف - الآية ٩ »

لماذا اختل الميزان ؟

أى أن منهاج الإسلام ومبادئه ستسود العالم كله ولن تستقيم الحياة بدونها .

الله سبحانه وتعالى أعطانا هذا المنهاج هدية من عنده .. وبين لنا الطريق فى رحمت تنزلت علينا .. وهو يريد بذلك أن يقينا سوء التجربة والخطأ التى سنمر بهما .. ثم بعد ذلك نعود إلى منهج الله .. ولكننا رفضنا هذه النعمة وبدأنا نبحث عن المدنية .. التى هى فى الحقيقة تحاول أن تهاجم الإسلام وتظهره بمظهر الرجعية والوحشية .. وفى ذلك يتحدثون عن عقوبة قطع يد السارق وكيف إنها وحشية .. وينسى هؤلاء أنه فى كل صباح فى العالم تقطع مئات الأيدي والأرجل فى الحروب الصغيرة التى أصبحت تدور فى كل مكان .. وفى حوادث الخطف والنهب والاعتداء على الأعراس التى زادت بنسب هائلة فى كل انحاء العالم .. أن الأيدي التى تقطع فى لبنان وحدها كل صباح .. أكثر من الأيدي التى قطعت كقصاص من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يومنا هذا .. فأين هى الوحشية .. ومن هم المتوحشون ؟ ومن هم المتمدينون ؟

على أن الله سبحانه وتعالى فى كونه آيات كثيرة تظهر إعجاز الله .. ونحن لا نفهمها .. فقوانين الكون .. وقوى الكون التى تحارب هذا الدين إنما تظهر الحق فيه .. وذلك أن الجمال فى الكون هو أن يوجد الشر بجانب الخير .. وأن نرى الحق ينتصر على الباطل .. فالله سبحانه وتعالى حين وضع قوانين كونه .. وضعها بحكمة ودقة .. ليسير الكون إلى غايته .. فالله سبحانه وتعالى جعل لكل مجد نصيبا ليكون هناك

لماذا اختل الميزان ؟

العمل .. فلو أن الطالب الذى يذاكر نجح .. والطالب الذى لم يذاكر نجح .. لاختلفى الجمال فى الكون .. لماذا ؟ .. لأنه فى هذه الحالة لن يذاكر أحد ، وسيصبح الناس أميين وتنتهى حضارة البشرية التى أرادها الله للإنسان .. ولكن الجمال فى الكون هو أن يرسب الذى لا يذاكر ، وينجح الذى يذاكر .. وأن يتم كشف أسرار الكون للعالم الذى يبحث عنها .. ولا يتم لمن لا يبحث .. وأن يعرف الذى يدرس أكثر من الذى لا يقرأ .. تلك أسباب وضعها الله سبحانه وتعالى ليرقى الكون المخلوق الله إلى الحضارة التى خلقها الله .. ولو أعطى الله سبحانه وتعالى الحضارة للإنسان بدون علم لحطم نفسه وانتهى الكون .. ولو أعطاه علما بدون حضارة لأحس الإنسان تفاهة قيمة العلم .. ولكن الاثنين يكمل بعضهما بعضا ..

والإسلام قبل كل شىء هو سلوك .. والإنسان المسلم يجب أن يسلك سلوك الإسلام .. ولكن القليل هم الذين يفعلون ذلك .. ولو أنهم فعلوه لأحسوا عظمة هذا الدين وما يقدمه من سلوك طيب ومنهج كريم .

شيئان فى الكون

ان فى هذا الكون شيئين : شيئا يفعل لك .. وشيئا ينفعل بك .. فالشىء الذى يفعل لك يستوى فيه الناس جميعا .. كافر ومسلم .. فالشمس مثلا تفعل لك .. فهى تشرق كل صباح ، ولا تخص بنورها كافرا أو مسلما .. أو شاكرًا الله وجاحداً لنعمته .. كلهم سواء .. عطاء الشمس للجميع بلا تفرقة .. والهواء مثلا تتنفسه كل الكائنات الحية

لماذا اختل الميزان ؟

بدون أى تفرقة بين جاحد لنعمة الله وشاكر لها .. والماء يشرب منه كل كائن حى وبصرف النظر عن دينه وعقيدته وإيمانه بالله وكفره .. هذه الأشياء تفعل كثيراً .. الشمس تعطينا النور والطاقة وأسباب الحياة إلى آخر ذلك .. والهواء يعطينا أسباب الاستمرار فى الحياة .. والماء يعطينا الحياة نفسها .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾

« سورة الأنبياء - الآية ٣٠ »

كل هذه الأشياء تفعل لك .. وهى تفعل بلا تمييز ، لأنها عطاء من رب العالمين .. فهى عطاء ربوبية .. ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يمنح عطاء ربوبيته للجميع .. لأنه رب الجميع .. رب العالمين .. ومادام هو الرب الذى استدعاك للوجود .. وجاء بك إلى هذه الحياة ، فهو يكفل لك بنعمة أسباب الاستمرار فى الحياة .

نأتى بعد ذلك إلى الأشياء التى تنفعل بك .. وارتقاء الإنسان فى الكون يتم فيما ينفعل به .. لا فيما ينفعل له .. وما ينفعل بك أن فعلت ينفعل .. فإذا حرثت الأرض حرثاً جيداً ، ثم وضعت فيها البذرة .. ثم واظبت على رعايتها تعطيك ثمراً جيداً ، ومحصولاً وفيراً .. وان بحثت فى باطن الأرض وجدت البترول والمعادن تعطيكها لك الأرض .. لأنك فعلت فهى تنفعل بك .. وفى هذا لابد أن تنتبه إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾

(سورة طه)

لماذا اختل الميزان ؟

.. ذلك أن هذه الآية قد نزلت منذ أربعة عشر قرناً .. ولم يكن أحد فى ذلك يعرف ما تحت الثرى سوى آبار المياه التى يحفرها الناس .. فأخذت على هذا المعنى .. ثم تقدم العلم ليكتشف لنا أن فى باطن الأرض كنوزاً تزيد على ما فوق سطح الأرض .. فتنبهنا إلى قوله تعالى :

﴿ وما تحت الثرى ﴾ .

وعرفنا أن الله سبحانه وتعالى قد أنبأنا فى قرآنه الكريم منذ أربعة عشر قرناً أن هناك كنوزاً فى باطن الأرض .. ولو تنبهنا إلى هذه الآية لبحثنا عن هذه الكنوز .. ولكن وقت أن نزل القرآن لم يكن قد جاء موعد ميلاد ما تحت الثرى ليخدم الإنسان فى حياته .. ويؤدى دوره للحضارة الإنسانية .. ومر الزمن ووجدنا تحت الثرى الكثير والكثير .. وربما بعد سنوات سنكتشف أكثر وأكثر .

هكذا نجد أن الارتقاء فى الحياة وفى الكون يأتى من الأشياء التى تنفعل بك .. والذين لا يقومون بأى جهد مع الأشياء التى تنفعل بالإنسان فى الأرض لا يتقدمون ، ويظلون متأخرين .. وهذا ما يحدث الخلف فى التقدم والارتقاء بين الأمم والناس .. فتخلف أى شعب إنما يتم لأنه لا يقوم بأى جهد مع الأشياء التى تنفعل به فى الكون .. وتقدم أى دولة إنما يتم بالتعامل مع الأشياء التى تنفعل بالإنسان .. والأشياء التى تنفعل بك يجب أن تقدم لها عملاً لتحصل على نتيجة .. فهذه الأشياء أيضاً لا تفرق بين مسلم وكافر .. ومؤمن وملحد .. فالكافر الذى يحسن حرث أرضه وخدمتها وريها يحصل على أجود أنواع البذور ، ويجنى محصولاً وفيراً .. والمؤمن الذى يهمل أرضه ولا يزرعها

لماذا اختل الميزان ؟

لا تعطيه شيئاً ، لأنه لا يطبق قوانين الله فى كونه .. والملحد أو الكافر الذى يستخدم أحدث الأساليب العلمية يجنى ثمار التقدم .. فهو يبحث عن المعادن فى باطن الأرض بأحدث الأساليب التى وصل إليها العلم فتظهر له هذه المعادن لأنها تنفعل به .. وبالمؤمن الذى يترك المعدن فى باطن الأرض ولا يبحث عنه ، لا يخرج المعدن له .

ولقد جعل الله ما على الأرض زينة لها .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾

« سورة الكهف - الآية ٧ »

ليجتذب الإنسان إلى العمل .. والزينة هى ما يخلع على ذاتيات الأشياء لجعلها أكثر جاذبية .. فالمرأة مثلا تتزين لتصبح أكثر جاذبية للرجل .. وزينة الأرض هى أن تصبح أكثر جاذبية للإنسان ليعمل .. فالإنسان حين يرى حديقة جميلة ، أو عمارة فخمة يتمنى أن يزرع أو يبني مثلها .. فتكون هذه الزينة حافزا للإنسان على أن يعمل .. فكأن الله جعل ما على الأرض زينة لها ليجذبني إليها .
ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

« سورة هود - الآية ٦١ »

معنى استعمركم ، أى طلب منكم عمارتها .. وذلك لا يأتى إلا بأمرين : أن تبقى الصالح على صلاحه لا تفسده .. وأن تصلح الفاسد وتزيد إصلاحه .. وزينة الله على الأرض من أثرين .. آثار خلق

لماذا اختل الميزان ؟

الله .. وهى الطبيعة التى وهبها الله لنا دون أن يكون لنا جهد فيها ..
وأثار ما فعله الإنسان بما علمه الله له ليزين به الأرض .

حتمية الحل الإسلامى

هنا نأتى إلى حتمية الحل الإسلامى .. وهذا يظهر فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّانَهُ
فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾
(سورة الكهف)

ومعنى ذلك أن الله أعطى لذى القرنين أسباب القوة والحكم فى الأرض .. ولكنه لم يقتصر على ما أوتى .. لم يقف على ما فعل له .. بل اتبع سببا .. أى أخذ بالأسباب فيما ينفعل به .. ولقد أورد الله هذه الآية الكريمة ليرينا الأسلوب الصحيح فى مواجهة الحياة .. ذلك أن الإنسان يجب ألا يكتفى فيما ينفعل له ولا يفعل شيئا .. بل يجب أن يأخذ هذا العطاء ويعمل من أجل أن يضيف إليه .. وأن يتفاعل مع العناصر التى خلقها الله لتنفعل بعمل الإنسان فى الأرض ، وذلك مصداقا للحديث الشريف :

(لاخير فيمن لا يضيف)

والإضافة بمعناها العام .. أنك أنت إن عملت للكون ، يكون فى خدمتك ليعطيك الخير الكثير .. فلا بد أن تعطى عطاء الكون ،

لماذا اختل الميزان ؟

وإلا أصبحت الحياة جامدة وغير متحركة ولا متطورة .. ويتوقف تطور البشرية ونموها .. أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من الإنسان أن يتفاعل مع بيئته ومع الكون .. وينهانا عن أن نقف أمام قطعة من الأرض ولا نفعل شيئا .. بل لابد للإنسان أن يعرف ويدرس كيف يحرك هذه الأرض ، وما هى النباتات الصالحة لها ليحصل على أحسن النتائج .

ومن هنا نصل إلى أن العالم لكى يتقدم ويعيش فى سلام وأمان .. لابد أن يتبع القوانين التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى هذا الكون .. وهذه القوانين متكاملة . بمعنى أنك لا تستطيع أن تأخذ من هذه القوانين ما يعجبك .. وتترك منها مالا يعجبك .. فأنت فى هذه الحياة لابد ان تتعامل مع أسباب الأرض التى تنفعل بك ، لأن فيها الرقى فى الحياة .. وهذه توفر لك المتقدم .. وتوفر لك خيرات الأرض .. وتوفر لك الاكتشافات العلمية التى تعطيك الرفاهية .. وأن تتعامل مع منهج الله فى الأرض ، وهذا يوفر لك الحياة الآمنة المطمئنة .. ويوفر لك الأمن والأمان .. ويعالج داءات المجتمع التى هى آفة البشرية كلها .. فلا تحسب أن الغنى والمال وحده يستطيع أن يعطيك الاتزان فى الحياة .. وإذا كنت فى شك من ذلك ، فابحث عن الشواهد .. ستجد أن أعلى نسبة للانتحار والجنون موجودة فى الدول المتقدمة ماديا ، تلك التى تحسب أنت أن شعوبها أكثر الشعوب سعادة فى الأرض .. فالسويد والولايات المتحدة مثلا فيهما أعلى نسبة من الدخل للفرد .. وفيهما أيضا أعلى نسبة من الجنون والانتحار .. ذلك لأن الحياة هناك فقدت أترانها .. أخذت عنصر التفاعل مع مواد الأرض فتقدمت .. وتركت عنصر الميزان الذى وضعه الله لتأمين الحياة فى الأرض ،

لماذا اختلف الميزان ؟

فاختلفت الحياة فيها .. ولم تعد هي القادرة على تكوين المجتمع الآمن المطمئن الذى وضع الله قوانينه للحياة الدنيا .

ثم بعد ذلك بعدت هذه الدول عن منهج العبادة الذى هو الأساس الذى يعطى للنفس البشرية مقوماتها الروحية .. فالإنسان إذا أمن بالآخرة وعمل لها ملأت نفسه السكينة .. وأحس أن هناك حسابا فحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله .. فلا يقدم على مال حرام ولا يخون الأمانة .. ويعمل فى سبيل الرزق وهو يعلم أن رزقه سيأتيه .. والعمل الذى يقدمه الإنسان فى سبيل رزقه هو نوع من العبادة ، لأننا نطيع قوانين الله فى الأرض .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجد رجلا معتكفا فى المسجد يصلى ليل نهار .. سأل من يكفله ؟ .. فقيل يا رسول الله يكفله إخوته .. فقال صلى الله عليه وسلم : كلهم أعبد منه .. ورسول الله يقول :

﴿ إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ﴾

.. ويقول :

﴿ من استحل الأجر حاسبه الله عن العمل ﴾

وهكذا نرى أن العمل نوع من العبادة .. أمر الله به عباده ليرتقوا فى الأرض .. وأنه طلب أن يأخذوا بالأسباب حتى يعطيهم العطاء فى الدنيا ، والعطاء فى الآخرة .

وبهذا نصل إلى ختام الفصل الأول .. هو أن الله سبحانه وتعالى قد رسم الحياة الطيبة الآمنة لعباده ، وحددها لهم .. وأن هؤلاء العباد بدلا

من أن يأخذوا هذه الأسس ويطبقوها تطبيقاً عملياً وسلوكياً .. ابتعدوا عنها إلى قوانين البشر التي أساسها عدم العدل ، وهو النفس .. فعم الشقاء في الكون .. ومهما طال الزمن فإن البشر سيعودون إلى قوانين الله .. ولكنهم سيعودون إليها مضطرين بعد أن تطحنهم المشكلات والآلام .. سيعودون إليها لأنها الطريق الوحيد لتخليص الإنسانية من الشقاء الذي صنعه البشر لأنفسهم .. وأن الله سبحانه وتعالى برحمته قد شاء أن يجنب عباده هذا الشقاء .. فنزل عليهم من السماء كتاباً يهديهم إلى الطريق السوي .. ولكنهم بغرورهم البشري أعرضوا عنه ، واختاروا الطريق الذي وسوس لهم به الشيطان .

على أن الله سبحانه وتعالى قبل أن ينزل آدم إلى الأرض ليباشر مهمته عليها قد أدخله التجربة .. عله يستفيد ويعرف أين الحق وأين الخطأ .. وبين له بتجربة عملية ما هو الطيب ، وما هو الخبيث حتى يتجنب الخطأ في الدنيا ، ويعرف أن الشيطان عدو له .. ولكن الإنسان بما أعطاه الله من اختيار .. ابتعد عن الطيب ، واختار الخبيث .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثاني

وخلق الله الانسان

وخلق الله الانسان

ولنبدا من البداية .. لنعرف ما هي مهمة الإنسان فى الأرض ..
ونعرف كيف حدد الله له هذه المهمة .. وماذا فعل الإنسان بتكليف
من الله .. وما هو الحل لمشاكل هذا العالم ؟

خلق الإنسان هو غيب عنا .. فلم يشهد أحد منا كيف خلق .. حتى
يستطيع أن يقول ان الإنسان خلق هكذا .. أو حدث له كذا .. وكذا ..
أو يفتى فى كيفية الخلق .. بل ان خلق السموات والأرض هو غيب
عنا .. فلم نشهد خلقها حتى نصل إلى حسم فى هذه النقطة بالذات ..
نقول ان كيفية الخلق فى كل شىء هى غيب عنا .. وإنما علم اختص
به الله سبحانه وتعالى ذاته الكريمة .. لا يعرف أحد عنه شيئاً .. وفى
هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعَدِّينَ ﴾
الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

(سورة الكهف)

ومن هنا فإن هذا الموضوع محسوم .. وما دام الخلق غيباً عنا
لم يشهده أحد .. فلا بد أن نأخذ العلم منه عن الخالق سبحانه وتعالى ..
فإذا روى الله لنا كيف خلق السموات والأرض وكيف خلق الإنسان ؟
فكلام الله هو المصدر الوحيد للعلم فى هذا الموضوع .. وكل كلام
بشرى يدور حول ذلك .. هو كلام مرفوض لا يستحق المناقشة .. لأنه
كلام ممن لم يخلق .. ولم يشهد الخلق .. ولم يشهد خلق نفسه .

وقبل أن نبدأ الحديث لابد أن ننتبه إلى عنصرين أساسيين .. هما

وخلق الله الانسان

من تمام عدل الله سبحانه وتعالى وقدراته .. العنصر الأول : إن الله أعد الأرض للإنسان ليستطيع الحياة عليها .. والعنصر الثاني أن الإنسان قبل أن ينزل إلى الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى تجربة عملية مربها .. وكانت هذه التجربة في وضوحها كافية لترى الإنسان ما هو منهج الحياة ، وماذا سيلاقى ، وكيف يواجه ما سيلاقيه .

هذان هما العنصران الأساسيات في إعداد الإنسان للحياة على الأرض .. عطاء الله سبحانه وتعالى يوفر للإنسان مقومات حياته .. وتجربة تعطيه مفهوم الحياة .. وتبين له الحق والباطل .. وتريه رؤية العين ماذا يفعل الزيف وماذا تفعل الحقيقة .

وكان العنصر الأساسى الأول هو أنه ما دام الله سبحانه وتعالى هو الذى استدعى الإنسان للوجود فلا بد أن يوفر له مقومات حياته الأساسية .. ومن هذا المنطلق .. خلق الله سبحانه وتعالى الكون بتمام قدراته وقبل أن يخلق الإنسان .. فخلق الشمس والقمر والنجوم .. وخلق الأرض والماء والهواء .. وخلق النبات والحيوان .. كل هذا خلقه الله ليكون مسخرا لخدمة الإنسان فى الأرض . فخلق الله أجناس الوجود بعضها تخدم بعضها .. وكلها تخدم الإنسان .

فالجماذ خلقه الله ليخدم أجناس الوجود كلها ، وهى النبات والحيوان والإنسان .. فالجماذ هو فى خدمة الكون كله .. ثم يأتى بعد ذلك النبات ، وهو يخدم الحيوان والإنسان .. فيعطيها مقومات الحياة من الطعام وغيره .. ثم خلق الحيوان الذى يتغذى على النبات ، فجعل الله

وخلق الله الانسان

الجماد والنبات فى خدمة الحيوان .. ثم خلق الإنسان الذى جعل كل ما فى هذا الكون من جماد ونبات وحيوان مسخر له .

وقد تم هذا الخلق بكمال قدرات الله سبحانه وتعالى .. وكل ما خلقه الله فى الكون .. لم يستعن فيه بأحد .. فملك الله هو من خلق الله بكمال قدراته .. ولذلك فلو آمن من فى الأرض جميعا ما زادوا فى ملك الله شيئا .. ولو كفروا جميعا ما نقصوا من ملك الله شيئا .

وهكذا شاء عدل الله أن يعطى للإنسان كل مقومات حياته قبل أن يخلقه ليمارس مهمته فى الأرض .. ولكن بعض الناس يقول : إن مقومات الحياة قد تغيرت .. وإن العلم والحضارة قد أعطيا للإنسان من مقومات الحياة ما لم يكن موجودا عند بدء الخلق وبدء الخليقة .. نقول : إن هذا غير صحيح .. فالحضارة لم تخلق مقومات الحياة .. ولكنها وضعت فى حياة البشر نوعا من الرفاهية .. وليس أكثر من ذلك .. وإنما مقومات الحياة هى من خلق الله سبحانه وتعالى . فلا يمكن أن يدعى العلم أنه خلق الماء .. ولكنه يمكن أن يقال إن العلم قد أضاف الرفاهية إلى استخدام الماء .. فبدلا من أن كنت تضطر لأن تذهب إلى البئر أو إلى النهر لتشرب .. جاء العلم لكى يصل الماء إلى مكانك بحيث تستطيع أن تحصل عليه فى الحجرة أو الشقة التى تعيش فيها بواسطة المواسير التى تحمل الماء إليك .. وأضاف العلم إلى ذلك أنه يستطيع أن يعطيك الماء مثلجا فى الصيف ، وساخنا فى الشتاء بعمليات ميكانيكية .. ولكن هل خلق العلم لك الماء ؟ .. الجواب طبعا لا .

ونمضى فى التساؤل .. هل خلق العلم الهواء ؟ .. الجواب طبعا لا ..

وخلق الله الانسان

ولكنه اخترع أجهزة لتنقى الهواء من شوائب المصانع .. وأجهزة تكييف تجعل الجو باردا أو حارا حسب رغبتك .

إذن هو أضاف الرفاهية ولكنه لم يخلق .. هل خلق العلم الأرض والنبات مما يأكله الناس ؟ .. الجواب طبعا لا .. فلا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الأرض ، أو خلق حبة واحدة من النبات .. ولكن الذى حدث أن العلم قام بنوع من التهجين لتصبح الثمرة أكثر حلاوة ، أو لتعطى البذرة محصولا أوفر بجهد أقل .. أى أنه أضاف الرفاهية ولكنه لم يخلق شيئا ..

وهكذا فى الكون كله .. إذا نظرنا للعلم فإنه مجرد إضافة للرفاهية أراد الله سبحانه وتعالى أن ييسرها لخلقه .. فبدلا من أن أذهب مثلا لمشاهدة مباراة فى كرة القدم .. أصبحت أشاهد هذه المباراة وأنا جالس فى منزلى عن طريق التليفزيون .. فالإنسان استخدم الغلاف أو خصائص الغلاف الجوى الذى خلقه الله فى أن يوفر الرفاهية لتنتقل الصورة من مكان إلى مكان فى ثوان معدودة .. ولكن العلم لم يخلق العينين اللتين أرى بهما .. أو الغلاف الجوى الذى ينقل الصورة وهما الأساس لما حدث .

وكان الإنسان يسافر ماشيا .. فهداه الله إلى استخدام الأنهار والسيارات والطائرات .. كل هذه لم تعط الإنسان الحركة .. ولكنها يسرته له .. فالإنسان مازال قادرا على أن يستغنى عن كل هذا . ويسافر على قدميه أو على دابة من مكان إلى آخر .. كل ما حدث هو أن المشقة رفعت .

وخلق الله الانسان

وأتى العلم بالرفاهية إلى حياة البشر .. ولكن ضروريات الحياة ..
خلقها الله ولم يخلقها العلم .

الله سبحانه وتعالى خلق الأرض وجعلها لحياة الإنسان .. فجعل فيها
مسطحات هائلة بالماء لتمد الإنسان بالمطر والماء العذب اللازم
للحياة .. وأودع في الأرض أرزاقها ، فجعل مخازن الطعام في الجبال
التي فيها الطمي الخصب . ينزل المطر ، ويجرفه إلى الأنهار ليغذى
الأرض فتصبح صالحة للإنبات .. فيخرج الزرع مختلفا ألوانه ليأكل
منه الناس .. وقدر الله في الأرض رزقها إلى يوم القيامة .

وهنا تقف لتتساءل .. ماذا عن المجاعات التي تحدث في العالم ..
مع أن الله كفل الرزق والكفاية للجميع بعباء ربوبيته .. نقول إن ذلك من
صنع الإنسان .. فهو الذي كفر بنعمة الله وبددها .. فالنبات الذي
تخرجه الأرض يكفى الناس جميعا ليأكلوا بحيث لا يوجد جائع واحد ..
ولكن ما الذى يحدث ؟ البشر بدأوا يحجبون رزق الأرض عن الإنسان ..
فنرى دولة كالبرازيل تلقى الملايين من البيض في البحر حتى
لا ينخفض سعره فتحرم ملايين البشر من رزق يسره الله لهم لتحقيق
جشعا إنسانيا .. ونرى دولا أخرى تحرق البن حتى تحتفظ بسعره
مرتفعا في العالم .. ونرى دولة كأمریکا مثلا تدفع للزراع مئات الملايين
من الدولارات حتى يتركوا الأرض بدون زراعة بالنسبة للقمح وعدد آخر
من المحصولات حتى يحتفظوا بسعره العالمى كما يقولون .

وهكذا نرى ان الأرض تنتج ما يكفى البشر أو يزيد .. ولكن جشع
الإنسان هو الذى يحجب هذا الطعام عن أخيه الإنسان فتحدث

وخلق الله الانسان

المجاعات .. بل وأكثر من ذلك أن عددا من الدول التي تملك أراضي صالحة للزراعة مشغولة بتوافه الدنيا والمنازعات والحروب عن أن تجعل الأرض تنفعل بها وتعطيها الثمار .

ومن معجزات الله في خلقه أنه كلما زاد تعداد العالم .. كشف الله من العلم للإنسان ما يمكنه من أن يزيد إنتاج الأرض .. فكل الاكتشافات العلمية الجديدة التي يسرها الله لخلقها بالنسبة للزراعة .. لو تتبعناها لوجدنا أنها تزيد من إنتاج الأرض كلما زاد عدد سكانها ..

وهكذا تمضى الحياة بدقة إلهية متناهية لتخلق في الأرض رزقا جديدا لكل فم جديد يولد .. ولو وزع إنتاج الأرض بالعدل على البشر كلهم لما وجد جائع .. إذن فالمجاعات هي من ظلم الإنسان وإفساده في الأرض .. بل إننى أزيد على ذلك هو أنه كلما قدر الله عدم نزول المطر على جزء من الأرض .. زاد الإنتاج في الأجزاء الأخرى بحيث لو نقلنا هذه الزيادة لعالجت الذى وجد .. وهذا من عدل الله .. فلا يمكن أن يحدث جفاف فى العالم كله أو فى أجزاء كثيرة فى وقت واحد .. بل الجفاف يحدث فى جزء صغير يكون باقى الإنتاج قادرا على أن يسده ويعالجه .

خلق الله الأرض ، وقدر فيها أقواتها إلى يوم القيامة .. وقدر فيها رزقها .. وخلق الشمس ولها مهامها فى الحياة .. سواء فى الضوء الذى تعطيه فى النهار ، أو فى البخر الذى تسقط به الأمطار .. أو فى إنماء الزرع ، أو فى غير ذلك وخلق الكون كله فى نظام بديع متكامل لخدمة

وخلق الله الانسان

الإنسان وإعطائه مقومات الحياة .. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ١ ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ ٢ ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ٣ ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ٤ ﴿

(سورة فصلت)

وهكذا تم إعداد الأرض ليعيش فيها الإنسان ووضعت له فيها كل مقومات حياته .. وضعت له بقدرة الله .. مسخرة له من الله سبحانه وتعالى .. فوجد الماء ووجد الطعام ووجد الحيوان .. وكان كل ذلك في خدمة الإنسان ومعدا له قبل أن يخلق الإنسان ويسكن الأرض . وهو معد إعداداً من لدن حكيم خبير .. وضع للأرض والسماوات نظاما دقيقا لا يختل لحظة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ الرَّحْمَنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَيْهِ الْبَيَانَ ٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٨ ﴾ ﴿

(سورة الرحمن)

وخلق الله الانسان

وهكذا نرى أن كل شيء فى الكون خلق بحساب دقيق .. الشمس لا تتأخر ثانية عن موعد شروقها .. والأرض لا تتوقف برهة عن الدوران .. والنجوم والجبال والأنهار كلها تمت بصنع دقيق لتلائم مهمتها .. وبقيت ملايين السنين وستبقى إلى قيام الساعة .. لا يحدث على عظم مهمتها خلل ولو جزءا من الثانية لأنها من صنع الله العليم القدير ، وليست من صنع الإنسان الذى تفسد صنعته بعد سنوات قليلة وتحتاج إلى إصلاح ، وإصلاح .

نأتى بعد ذلك إلى خلق الإنسان .. أعد الله الأرض ووضع فيها كل مقومات الحياة وخلق الإنسان ليؤدى مهمته فى الأرض .. ولنبدأ قصة الخلق :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ صَلٰٓصِلٍ مِّنْ حَمَٔ مَّسْنُوْنٍ ﴿٢٨﴾
فَاِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِىْ فَقَعُوْا لَهٗ سٰجِدِيْنَ ﴿٢٩﴾ ﴾
(سورة الحجر)

وقوله تعالى :

﴿ اِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ طِيْنٍ ﴿٧١﴾ فَاِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيْهِ
مِنْ رُّوْحِىْ فَقَعُوْا لَهٗ سٰجِدِيْنَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ اٰجْمَعُوْنَ ﴿٧٣﴾ ﴾
(سورة ص)

وقوله سبحانه وتعالى :

وخلق الله الانسان

﴿ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ﴾

(سورة ص)

الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الإنسان من طين .. ومن صلصال .. ومن حمأ مسنون .. ونحن نأخذ كيفية الخلق عما أنبأنا به الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى خلق .. وكما بينا لقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ

الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فإذا جاء بشر يجادل فى خلق السموات والأرض .. ويجادل فى خلق الإنسان .. ويقول إن السماء والأرض كان أصلهما سحابة أو ذرات خامدة .. أو أن الإنسان نشأ بنظرية التطور والارتقاء ، كما ادعى داروين أو غيره ممن جادلوا فى خلق السموات والأرض وخلق الإنسان .. نقول لهم نحن نعرفكم . أنتم المضلون الذين أنبأنا الله عنهم فى القرآن الكريم .. الذين يأتون ليجادلوا فى خلق السموات والأرض والإنسان .. لقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بمجيئكم قبل أن تأتوا .. وحذرنا من أنكم ستأتون للإضلال عن سبيل الله ومجيئكم هو تثبيت للإيمان فى قلوبنا .. لأنكم لو لم تأتوا .. ولولم تحاولوا الإضلال عن منهج الله بنظريات كاذبة .. لقلنا إن القرآن أنبأنا أن هناك مضلين سيأتون ليجادلوا فى خلق السموات والأرض ، وفى خلق الإنسان فأين

وخلق الله الانسان

هم ؟ .. ولكن كونكم أتيتم وجئتم بهذه النظريات الكاذبة التي تحاولون بها نشر الكفر والإلحاد .. فإنكم بذلك تثبتون قضية الإيمان .. فالله لم يشهدكم عملية الخلق .. ولم يطلب منكم العون فى خلق الكون والإنسان .. حتى تدعوا ما تدعونه .. والله قد اتخذ منكم - وأنتم تحاولون نشر الكفر والإلحاد - دليلا على صدق الإيمان ، وصدق القرآن .. والله فى كونه يسخر المؤمنين والكفار لخدمة قضية الإيمان .

نأتى بعد ذلك إلى الخلق كما أنبأنا به الله سبحانه وتعالى . لقد قال الله انه خلق الإنسان من طين ومن صلصال ومن حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه .. ونحن لم نشهد الخلق .. ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى أن يجعل لكل قضية غيبية عنا قضية مادية مشهودة تقرب المعنى من عقولنا .. ونحن لم نشهد الخلق ، وهو بداية الحياة .. ولكننا نشهد الموت وهو نقض للحياة .. ونقض الشيء يكون عكس بنائه .

إننا بدأت بناء عمارة فأنت تبدأ بالدور الأول .. فإذا أردت هدمها .. فإنك تبدأ بما انتهيت إليه .. فتبدأ بإزالة الدور الأخير .. ثم الذى تحته .. ثم الذى تحته .. وأنت إذا ذهبت من القاهرة إلى الاسكندرية فأول ما تبدأ به هو خطوة تبعدك عن القاهرة وتقربك من الاسكندرية .. فإذا أردت أن تعود فإنك تبدأ عند النقطة التى انتهيت إليها .. وهكذا طبيعة الأشياء .

آخر ما دخل فى الإنسان حسب قول الله سبحانه وتعالى هو الروح .. ولذلك عند نقض الحياة فإن أول ما يخرج منك هو آخر ما دخل فيك وهو

وخلق الله الانسان

الروح .. ثم بعد ذلك يتصلب الجسد فيصير كالحما المسنون ، أى الطين الذى فيه صلابة الفخار .. ثم يصير طريا كالصلصال .. ثم يصبح طينا يذهب الماء فيه إلى الأرض .. ثم تحلل عناصر الطين والتراب .. ويعود الإنسان إلى العناصر الأولى التى خلق منها .. وهكذا كان الموت دليلا على الخلق .. وهو دليل مشهود لنا - يعطينا بالحس المادى الذى نراه - طريقة هدم الحياة التى هى عكس بنائها .

نأتى بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾

وحيثما نأتى إلى أى صفة من صفات الله ، أو فعل من أفعاله .. فإننا لابد أن نرفع ذلك إلى قدرة الله سبحانه وتعالى لأن الفعل يتناسب دائما مع القدرة .. فله يد .. ولكل منا يد .. ولكن هل يد الله كأيدينا ؟ .. طبعا لا .. حين نصل إلى ذلك لابد أن نرفع الأمر إلى الله سبحانه ، ليس كمثله شىء .. ولذلك فإن هذا يقع فى يد القدرة التى لا يدركها العقل والتى لابد أن نقف أمامها دون أن نحاول أن نضيف أكثر فالله سبحانه ليس كمثله شىء .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾

(سورة الحجر - ٢٩)

والروح هى أمر من أمور الله .. وكل الأبحاث التى تجرى عن الروح هى مجرد عبث .. ذلك أن الروح لا يمكن أن تضعها فى معمل .. ولا أن تجرى عليها التجارب حتى تصل إلى الحقيقة .. والبحث عن الروح

وخلق الله الانسان

يشغل الإنسان منذ بداية الحياة .. ذلك أنها سر الحياة الذي عجز البشر عن الوصول إليه عبر السنين .. ورغم ان الروح لا تدخل فى طاقة البحث العلمى ، وكل ما يقال عنها ظن وتخمين يفتقر إلى الدليل .. فإن الإنسان مازال يحاول أن يعرف شيئاً .

لقد قام عالم سويسرى فى الفترة الأخيرة بتجربة وضع فيها الإنسان عندما يحتضر على ميزان .. وجد أنه فى لحظة الوفاة يفقد جزءا يسيرا من وزنه . فادعى أن هذا الوزن هو وزن الروح .. والبعض الآخر أنكر أن لها وزنا .. والكافرون ينكرون وجود الروح ويسمونها الزمن أو الطبيعة .

وحيرة البشر كلها .. سجلها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(سورة الإسراء)

وهناك الروح .. وهناك النفس .. فالنفس هى التقاء الروح بالمادة أو امتزاج الروح بالمادة .. هذه هى النفس .. ولذلك فإن التكليف من الله سبحانه وتعالى للنفس البشرية ، أو لفترة الحياة التى تلتقى فيها الروح والجسد .. فإله لا يكلف الروح وحدها شيئاً بعد أن تخرج من الجسد .. ولا قبل أن تدخل فيه ، والله لا يكلف الجسد شيئاً إذا خرجت منه الروح .. ولكن التكليف حين تلتقى الروح بالمادة .. فهنا

وخلق الله الانسان

تنشأ الحياة الأرضية .. أو تنشأ النفس التي هي تمر بمرحلة الاختبار في الالتزام بمنهج الله في الأرض .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ
مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾

(سورة الشمس)

إذن الله سبحانه وتعالى بين طريق الإيمان وطريق الخطأ والمعصية للنفس البشرية .. أي في الفترة التي تلتقي فيها الروح بالجسد ، أي أن الله بين منهجه للنفس فقال افعل .. ولا تفعل .. وقال هذا خطأ .. وهذا صواب .. وبين طريق الجنة للنفس البشرية .. والتكليف الالهي هو في فترة الحياة الدنيا وحدها .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴿١﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ لِيُنذِرَ
مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٣﴾﴾

(سورة يس)

وإذا أردنا أن نفهم كلمة الروح فإنها ذلك السر الالهي الذي يهب الحياة للمادة .. أو الذي تحيا به المادة .. أو بشكل آخر هو إرادة الله لها أن تحيا .. فإذا سلب الله هذه الإرادة ذهب الحياة بشكلها الدنيوي وانتهت واختفت .. ولذلك يصور رسول الله ﷺ الحياة الدنيا كأنها فترة من الوقت في رحلة الحياة الكبرى .. يقضيها المسافر تحت ظل شجرة ثم يرحل .. فيقول رسول الله ﷺ :

وخلق الله الانسان

« مالى وللدنيا؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل
تحت شجرة ، ثم راح وتركها »

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ
يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ هِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ولابد هنا من الإشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

فكأنما الحياة عند الله سبحانه وتعالى الحياة الحقيقية هى فى
الآخرة .. ذلك أنها حياة الخلود التى تساوى أن تسمى حياة بمقوماتها
التى يريدنا الله سبحانه وتعالى للإنسان .. ولذلك فإن الله يذكرنا أن
اتباع منهجه فى الدنيا هو الذى يعطينا الحياة المنعمة الطيبة التى
أعدنا الله للمؤمنين فى الآخرة .. حيث أعد لهم مالا عين رأت ..

وخلق الله الانسان

ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. وان الحياة الدنيا إنما هي فترة قصيرة لا تساوى شيئاً .. وإنما هي فترة اختبار للنفس البشرية لتقودها إلى الحياة الطيبة الخالدة .. ويؤكد هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾

أى أن الله يريد أن يلفتنا إلى أن الحياة التى يعمل الإنسان لها لو أوتى العلم والذكاء هى الحياة الآخرة .. ولذلك فهو يحذرنا من أن تفتننا الحياة الدنيا التى هى لعب ولهو ، والتى هى متاع الغرور .. عن الحياة الآخرة التى هى حياة الخلود والنعيم ، والتى لا بد لكل إنسان عاقل أن يعمل من أجلها .. وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ (لو كانت الحياة الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى فيها كافراً شربة ماء) .

إذن فالنفس البشرية هى التقاء الروح بالجسد لتتهب له الحياة .
ونعود للآية الكريمة :

﴿ ويسألونك عن الروح ﴾

.. وحينما سئل رسول الله ﷺ عن الروح .. كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هى الروح .. ومم تتكون ، وكيف تهب الحياة للجسد ، ثم تذهبها عنه ؟ .. وهنا رد الله سبحانه وتعالى :

﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم

إلا قليلاً ﴾

وخلق الله الانسان

أى أن الروح سر من أسرار الله سيظل غيبا عنا إلى يوم القيامة ..
الله سبحانه وتعالى يقول : ان علمكم الأرضى الذى تظنون أنه كثير ..
وهو فى الحقيقة أقل القليل .. علمكم هذا لن يصل لكم إلى سر الروح ..
أنتم تسألون ما هى الروح .. وأنا أقول لكم ان علم البشرية كلها
لن يصل إليها .. بل لن يصل إلى أسرارها .. وأقول هذا يقينا .. وهذا
تحد من إعجاز القرآن الكريم .. فمازالت البشرية بكل علمها وعلمائها
عاجزة عن أن تقترب من الروح .. أو تكتشف سرا واحدا من أسرارها

بل ان تحدى الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه الروح ، وهى تعيش
فى جسد بشرى .. يعجز صاحب هذا الجسد عن أن يعلم شيئا عنها ..
كيف جاءت وكيف خرجت ؟ .. بل انك تسأل أعلم علماء الأرض الذين
يجادلون فى الله بغير علم ولا استحياء ويأخذون الرؤية المادية على
أساس أنها يقين العلم كله .. أولئك الذين يحاولون ستر وجود الله
ويعلنون الكفر والإلحاد ويطالبون أن يروا الله .. نقول لهم : إن الله
برحمته قد أظهر لنا فى هذه الحياة الدنيا جهلكم وأنتم تدعون العلم ..
فالروح فى أجسادكم .. معكم فى رحلتكم من المهد إلى اللحد .. أو من
الميلاد إلى القبر .. وأنا أسألكم يا من تدعون العلم .. أين هى الروح
التي فى أجسادكم .. هل هى فى القلب الذى ينبض أو فى العقل الذى
يفكر .. أو فى القدم التى تمشى .. أو فى اليد التى تبطش .. أو فى
اللسان الذى يتكلم .. أو فى الرئة التى تتنفس .. أين هى ؟ .. وأين
مكانها ؟ ..

والجواب طبعا أن أحدا لا يستطيع أن يحدد مكانها .. فنقول لهم :

وخلق الله الانسان

ما هو شكلها فيقفون صامتين بلا جواب .. فنقول لهم هل هي موجودة ؟ فيقولون نعم موجودة لانها تعطينا الحياة .. فنقول لهم إذا كانت الروح وهي موجودة وجودا يقينا فى كل كائن حتى قد عجزتم عن تحديد مكانها أو شكلها . أو أن تروها رؤية العين .. ومع ذلك فهي موجودة وجودا يقينا .. إذا كان ذلك لمخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى .. لا تستطيعون الإحاطة به .. فكيف تريدون رؤية الله وتقولون لن نؤمن حتى نرى الله جهرة .. وأنتم عاجزون عن أن تروا الروح وهي مخلوق من مخلوقات الله فى أجسادكم .. الا يصيبكم الخزي وأنتم تجاهرون بأن عدم رؤية الله إنكار لوجود الله جل جلاله .. الا تكفى هذه التجربة لتبين لكم أنكم تفترون على الله .. وكان من الأجدر بكم أن تسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى الذى وضع فيكم هذا الإعجاز .. وتوقنوا بوجود الله .. وبعظيم علمه .. وتسجدوا له وتسبحوه .

ولكن لماذا أخفى الله سبحانه وتعالى علم الروح عن البشرية ؟ .. لأنه أولا دليل قدرة .. وثانيا دليل الوجود بلا رؤية .. وثالثا لأن حقيقة الروح سواء علمت بها أو لم تعلم لن تفيدك شيئا فى حياتك الدنيا .. فالانتفاع بالروح لا يقضى ولا يقتضى العلم بها .

ولكى نقرب هذا المعنى إلى القارئ نقول : ان الله سبحانه وتعالى قد خلق أشياء كثيرة لا يقتضى الاستفادة بها علما من الاستفادة .. فالكهرباء مثلا أستفيد بها ، سواء علمت أو لم أعلم .. فالأمى الذى لا يقرأ يضع يده على الجرس فيحدث رنيننا ، وعلى مفتاح النور فتضىء الحجرة .. هل يعرف هذا الرجل الذى لا يقرأ ولا يكتب حقيقة

وخلق الله الانسان

الكهرباء .. أبدا .. ولكنه ينتفع بها .

بل أنت فى حياتك ملايين الأشياء التى تنتفع بها ولا تعرف شيئا عن حقيقتها .. هل يعرف كل من يركب الطائرة نظريات الطيران .. وهل يدرى كل من يستخدم التليفون كيف تتم المكالمة .. وهل يعرف كل من يشاهد برنامجا تليفزيونيا ينقل بالقمر الصناعى .. كيف يتم الاتصال أو نقل الصوت والصورة عن طريق الأقمار الصناعية .. وهل لوجهل من يزرع الأرض أن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها .. هل لوجهل هذه الحقيقة ، فإنه لا يستطيع الاستفادة من الأرض فى أن تنتج له ما يريد من طعام .

وأستطيع أن أمضى بلا نهاية فى أشياء أقول عنها ينتفع بها ملايين الناس دون أن يعرفوا سرها .. لأقول ان الله سبحانه وتعالى برحمته عندما يحجب حقيقة الروح عنا فإن ذلك لا يؤثر فى انتفاعنا بهذه الروح فى رحلة الحياة .

إذن أنت تنتفع بالروح التى تعطيك الحياة والحركة وان كنت تجهل ما هى .. ولا يعنى ان الله قد حجب حقيقتها عنك أنك لا تستطيع أن تنتفع بها .. إنها فى داخلك . فى كل خلية من جسدك تهبها الحياة والحركة .

نعود إلى قول الله :

﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾

وخلق الله الانسان

.. وماذا تعنى كلمة أمر الله .. القرآن الكريم يبين لنا ذلك .. فالله يقول :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢)

(سورة يس)

إذن أمر الله بالنسبة لنا هو إرادة الله سبحانه وتعالى لهذا الجسد أن يحيا ، هو التفسير لمعنى الأمر من الله سبحانه وتعالى أى الإيجاد بكلمة كن .. والخروج من علم القادر وهو الله سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر وهو الإنسان بكلمة كن .. وهذا الخروج يحدث لياشر الشيء دوره ويؤدى مهمته فى الكون .. فأمر الله سبحانه وتعالى يكون إيذانا بأن يياشر الشيء مهمته فى الكون بكلمة كن .
نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة :

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾
وَأَلْتَفَتِ الْأَسَاقُ بِالْسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾

(سورة القيامة)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾
تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾

(سورة الواقعة)

وخلق الله الانسان

والله سبحانه وتعالى يتحدث فى هذه الآيات عن الروح وهى تغادر الجسد .. وهى تخرج منه .. انه يتحدث عن لحظة الموت .. لحظة الفراق بين الجسد والروح .. والله سبحانه وتعالى عندما يتحدث هنا عن الروح يتحدث عن شىء له دخول وله خروج .. أو عنصر تام .. فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يهب للجسد الحياة وحدث ذلك بكلمة كن .. دخلت الروح إلى الجسد لتعطيه الحياة .. وإذا أراد الله أن يسلب الحياة أخرج من الجسد تلك الروح التى تعطيه الحياة .. فإذا جاء بعض العلماء وقالوا إنهم وضعوا عددا من الذين يحتضرون فوق ميزان حساس ثم لاحظوا لحظة الوفاة أن الجسم يفقد جزءا فجائيا من وزنه .. وانهم يدللون بذلك على أن الروح لها وزن يسير .. نقول لهم ان ما تقولونه ليس علما ، ولكنه ظن فقط .. أى أنكم تظنون ذلك .. فقد يكون هذا الوزن الذى يفقد نتيجة كمية من الهواء من الجسد فجأة .. أو توقف سريان الدم .. أو نتيجة أى تفاعل مادي يحدث ساعة الوفاة .. وأن هذا لا يعنى يقينا ان الروح لها وزن .. ولذلك فإن البحث العلمى على أن الروح لها وزن أو ليس لها وزن مجرد عبث .

أن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم بيديه ونفخ فيه الروح .. ولقد بينا عناصر الخلق والذين يجادلون فيه بغير علم .. ثم تحدثنا عن النفس البشرية التى هى التقاء الروح بالجسد .. وعن الحياة الحقيقية التى هى فى الآخرة .

ونصل إلى أمر الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثالث

السُّجُودُ كَلَامُهُ

السجود لآدم

أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم آدم تكريماً عظيماً يليق بمهمته في الحياة . كخليفة الله في الأرض .. فبعد أن خلق له هذا الكون كله بشمس وأرضه ونجومه وقمره وبحاره ليستقبله ويكون في خدمته . أراد أن يكرمه عند بداية الخلق .. وكان أول إختبار من الله سبحانه وتعالى للملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة هي قبل خلق آدم مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهكذا يبين الله سبحانه وتعالى أنه أخبر الملائكة بخلق آدم قبل إتمام الخلق . فقال سبحانه وتعالى للملائكة انه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون .. ثم أصدر الله سبحانه وتعالى أمراً للملائكة أنه ساعة إتمام خلق آدم أن يسجدوا له .. هذا السجود قد يكون لعظم المهمة التي كلف الله بها آدم في الأرض .. وقد يكون لعظم التكريم الذي جعله الله لآدم في الآخرة .. وقد يكون تفضيلاً لآدم من الله سبحانه وتعالى مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

السجود لآدم

ما هو معنى عظم المهمة التي كلف الله بها آدم في الأرض .. هذه المهمة تتلخص في أنه حمله الأمانة .. وتلك مهمة كبيرة وحمل ثقيل حمله الإنسان في حياته على الأرض .. ولقد قال الله سبحانه وتعالى في ذلك :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

(سورة الأحزاب)

ما هي الأمانة في معناها الواسع ، وما هي الأمانة التي حملها الإنسان .. الأمانة في معناها الواسع أن نودع شيئاً لدى أى شخص من الأشخاص بشرط أن يكون هذا الإيداع ليس عليه دليل مادي أى أنه يكون بينك وبينه .. فإذا أعطيت إنساناً مبلغاً وكتب لك شيكاً بهذا المبلغ أو كمبيالة له فهذا ليس أمانة ولكنه دين .. فإذا لم يكن هناك دليل مادي على أنك أودعت عنده هذا المبلغ فهذا أمانة .. ولقد حدد الله سبحانه وتعالى معنى الأمانة في القرآن الكريم بمعناها الواسع .. فقال سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٢٨٢)

وهكذا حدد الله سبحانه وتعالى أن الدين هو الذى يقوم عليه صك

السجود لآدم

مكتوب أو ورقة مكتوبة - ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْكُمْ بَعْضٌ
بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا
الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ رِءُوسٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٢٨٢)

(سورة البقرة)

إذن فالأمانة هي دين لا يقوم عليه دليل مادي مكتوب وذلك كأن أتى إلى شخص وأودع لديه مبلغا من المال وأقول هذا أمانة عندك حتى العام القادم مثلا . قد يقبل هذا الشخص الأمانة ويقول لي اعطها لي وهي في الحفظ والصون إلى أن يأتي العام القادم فتأتي لتأخذها وتجدها كما هي .. وقد يخاف الشخص من نفسه ويقول اعفني من هذه المهمة إن يدي ستمتد إليها ، ولن أستطيع أن أحمل هذه الأمانة ، ولذلك فأنا أرفضها .. ونوع ثالث من الناس يبدى استعدادا وتحمسا ليتقبل الأمانة فإذا أصابه ضيق مادي أو احتاج إلى شيء امتدت يده إليها ليأخذ منها على أنه سيعيد ما أخذ قبل أن يأتي موعد رد الأمانة .. ثم يحتاج فيأخذ ويأخذ على أمل أنه سيرد .. ثم يفاجأ عند مجيء موعد الرد بأنه قد بدد الأمانة وعجز عن ردها . هذا هو معنى الأمانة عامة .. وهو معنى أوضحه الله في القرآن الكريم في سورة البقرة إيضاحا لا يحتمل أي نوع من التأويل ..

فإذا كان هذا هو المعنى العام لكلمة الأمانة فما هي الأمانة التي حملها الإنسان .. انها منهج الله في الأرض ، وحرية الاختيار في إفعال

السجود لآدم

ولا تفعل .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى حين خلق السموات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات عرض عليها الأمانة - أى أن يأتمنها الله سبحانه وتعالى على منهجه .. ويعطيها الحرية فى أن تفعل ولا تفعل .. فإن اتبعت المنهج وفعلت كان لها ثواب عظيم .. وإن خالفت المنهج وعصيت استحققت العذاب فى النار .

عرض الله هذا على السموات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات .. فقالوا يارب لا نستطيع أن نحمل الأمانة .. إنا نخاف ونشفق على أنفسنا منها .. ونخشى ألا نستطيع أن نؤدى أمانة المنهج الذى تريد أن تحمله لنا .. فإن هذه المهمة تحتاج إلى جهد عظيم .. فيارب اجعلنا مقهورين غير مختارين .. مقهورين على طاعتك .. غير مختارين فى أن نعصى .. ولكن الإنس والجان قبلوا أن يحملوا الأمانة .. وقالوا يارب نحن قادرون على ذلك حملنا الأمانة ، وسنكون أمناء على المنهج .. وسنطيع ولا نعصى .

ولعظم هذه المهمة التى حملها الإنسان .. فإن الله سبحانه وتعالى يصفه بصفتين فيقول إنه كان ظلوما جهولا .. وظلوم معناها أنه كثير الظلم .. وجهول أنه عظيم الجهل .. لماذا وصف الله الإنسان فى هذه الآية بالذات بأنه ظلوم جهول .. لأنه لم يقدر عاقبة ما اختاره .. فهو بهذا الاختيار قد ظلم نفسه .. فحملها مالا يقدر الضعف البشرى فى كثير من الأحيان أن يتحمله .. هذه واحدة ولأنه - أى الإنسان - يجب أن يتميز كل واحد منهم عن غيره .. فهذا يريد أن يأخذ حق هذا .. وهذا يريد أن يستبيح حرمة غيره وهكذا .. والله نهى عن ذلك .. ولكن هوى

السجود لآدم

النفس يدعو الإنسان إلى أن يأخذ ما ليس له حق فيه .. وهكذا كان الإنسان كثير الظلم .. كل واحد منا يظلم .. فهو ليس ظالما .. ولكنه ظلوم .. مضافا إلى ذلك أن الإنسان قد أخذ حق المعصية .. فمادام الله قد قال افعل .. فالإنسان قادر على ألا يفعل .. ومادام الله قال : لا تفعل .. فالإنسان قادر على أن يفعل .. وهذه المقدرة التي وهبها الله للإنسان أو أعطاهها له قد ملأت نفسه بالغرور .. والغرور هو الطريق السريع إلى المعصية ، وإلى الظلم والاستبداد فى الأرض .. وهكذا من كل ناحية كان الإنسان كلما حمل الأمانة ، ظلوما لنفسه ، وظلوما لبنى جنسه .

وكان الإنسان جهولا .. أى عظيم الجهل .. لماذا ؟ .. لأنه وقد أخفى عنه الجزاء للمعصية استهان به .. فلو أن الجزاء كان حاضرا - أى أننا نراه أمامنا .. ما جرؤ واحد منا أن يرتكب معصية .. ولكن لأن الجزاء غيب عنا .. فإننا بجهلنا نستهن بعذاب الله .. فلو أننا أحضرنا معاصي الدنيا كلها بكل ما فيها من مال وشهوات وزينة وأعطيناها لإنسان .. ثم قلنا له هذه كلها لك .. تمتع بها كما تريد وكما تشتهي .. ولكن قبل أن تتمتع وحتى نكون عادلين نريد أن نريك النتيجة .. ثم فتحنا له بابا فرأى نار جهنم .. وقلنا له بعد أن تمضى فترة عمرك فى هذه المعاصي كلها بكل ما تمنحه من زينة وجاه وسلطان وشهوة .. سنأخذك إلى هنا .. إلى جهنم لتبقى فيها خالدا .. لو أننا قلنا له هذه الكلمات وفتحنا له أبواب جهنم ما اقترب من معصية أبدا .. ولكن لأن هذا أخفى عنه ، ظن الإنسان أنه لا علم إلا علمه ، ونسى علم الله الواسع الذى لا يحده حدود .

السجود لآدم

وهو جهول لأنه سيعبد الدنيا بقصر نظره بعد علمه يقينا بأنه سيخرج منها .. فلا يوجد إنسان إلا ويعرف يقينا أنه سيموت .. وأن أجله سيأتي ولكن لا يوجد إنسان يحسب أو يؤمن أنه قد يموت غدا .. فمهما بلغ به العمر فالأمل داخل نفسه أنه سيعيش سنوات وسنوات .. وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ (ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الإنسان بالموت) ذلك أن الإنسان رغم علمه اليقيني أنه سيموت فإنه كان فى شك بأن هذا لن يحدث لسنوات طويلة ..

والإنسان جهول .. لأنه فى داخله فطرة الإيمان التى فطره الله عليها .. وحوله الكون الذى سخره له الله لخدمته .. يرى فيه كل يوم آيات الله عن قوى أكبر منه وتستطيع أن تدمره .. ولكنها مسخرة لخدمته وطاعته .. فالشمس تستطيع إن اقتربت من الكون أن تحرقه فى دقائق .. ولكنها لا تجرؤ إلا أن تشرق فى موعدها ، وتبقى فى مكانها تخدم الإنسان بالضوء وفى الطعام وفى تكوين السحب لإنزال المطر إلى آخره .

والبحر يستطيع أن يفرق الأرض فى لحظات محدودة .. ولكنه يبقى فى مكانه مسخرا ليحمل السفن والإنسان .. ويعطى الإنسان الطعام والحلى .. ويرى فيه الإنسان من عجائب خلق الله .. والأرض بزلزال هائل تستطيع أن تفتنى البشرية .. ولكنها تستمر خادمة الإنسان خاضعة له فى مقومات حياته .. تلك القوى لم يخلقها الإنسان حتى نقول إنه سيطر عليها لانه خالقها .. ولا يستطيع أحد من البشر أن يدعى أنه خالق هذا الكون .. ولكن الله الذى قال لنا انه هو الخالق ..

السجود لأدم

ورغم أن الإنسان يرى الإعجاز في تسخير هذا الكون له بكل القوى الهائلة الموجودة فيه .. ويعلم يقينا أن الله هو الذى خلق هذا كله .. لأن الله أخبرنا بأنه هو الذى خلق .. ولم تجرؤ أى قوة أخرى أن تدعى لنفسها الخلق .. رغم هذه الآيات الظاهرة .. فإن الإنسان بعظيم جهله يعبد حجرا .. أو يعبد حيوانا .. أو يعبد إنسانا مثله .

الله سبحانه وتعالى حين أعطانا الأمانة وحملناها .. كان لابد أن يميزنا بعقل حتى نستطيع أن نختار بين البدائل .. فالعقل مهمته الاختيار بين البدائل .. أما باقى المخلوقات التى اختارت طاعة الله جبرا فتحكمها قوانين غريزية .

ولذلك كان الحساب يقف حين يتعطل العقل عن أداء مهمته .. فالمجنون يسقط عنه التكليف ولا يحاسب .. والطفل الذى لم يبلغ الحلم أو مبلغ الرجولة والنضج العقلى الذى يجعله يستطيع أن يفرق وأن يميز .. لا يجرى عليه القلم .. وهكذا فإن مناط التكليف هو العقل .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد حرم كل ما يعطل العقل عن عمله أو يفسده .. أو يجعله ينحرف عن مهمته .. فحرم الخمر تحريما قاطعا لأنها تفسد العقل وتعطله عن أداء مهمته فى الحياة فقال :

﴿ فلا تقربوها ﴾

فهى ليست محرمة فقط .. ولكن القرب منها بالجلوس فى مجالسها ممنوع .. وما ينطبق على الخمر ينطبق على المخدرات .. لأن مقومات الشريعة الإسلامية جاءت للحفاظ على هذا الكنز الإلهى .. الذى ميز الله

السجود لآدم

به الإنسان وهو العقل .. فالعقل هو أساس الرقى فى حياة الإنسان .. وإذا أردت أن تعرف ذلك .. أقول لك رأيت جيلا من الحيوانات يعقد اجتماعا لبحث فيه كيف يرتقى بمعيشته .. وينشئ له حظائر على أحدث نظام .. ويغير طعامه بطعام أفضل .. ويخترع الدواء لأمراضه .. ويحاول حل مشاكله بنفسه .. رأيت جيلا من الحيوانات يفعل ذلك ؟ .. رأيت حيوانا حين يوضع أمامه الطعام .. يقول أنا أكل هذا ولا أكل ذلك هذا الصنف من الطعام أفضل .. أو يقول سأوفر جزءا من هذا الطعام إلى غد .. أو يقول سأدخر جزءا من الطعام الذى أمامى للأيام القادمة .. رأيت حيوانا حين يشبع يظل يأكل .. ولو أنك ضربته مهما ضربته ليأكل أكثر فهل يستجيب لك .

كل هذه التصرفات كفلها الله سبحانه وتعالى بالغريزة تحكما .. ولذلك فإن هذه الغريزة تحرس حياة الحيوان ، فلا يأكل عودا من البرسيم أكثر من حاجته فيصاب بالتخمة .. ولا يخلق المشاكل فى حياته فتتعقد .. ولا يبقى طعام اليوم إلى غد أو بعد غد فيصيبه القلق والأسى .. ولكنه يتصرف بغريزته ويأخذ حاجته فقط .. حياته من مولده إلى يوم القيامة هى نفس الحياة التى وضعها الله له .. فهو لا يرتقى بنفسه .. ولا يطلب شيئا غير موجود .

ولكن الإنسان الذى حمل الأمانة أعطاه الله العقل مناط التكليف .. فهو بعقله يستطيع أن يختار بين البدائل التى خلقها الله سبحانه وتعالى .. فهو قادر على فعل الخير .. وقادر على فعل الشر .. وحتى يكون الحساب عدلا .. فإن مغيبات العقل كلها محرمة تماما .. مهما

السجود لآدم

أخذت أى شكل من الأشكال .. والذى يقدم عليها يحاسب لأنه قد عطل أداة الاختيار فيه .. وانطلق بلا وعى إلى أشياء حرمها الله .

واختيارات العقل هي التي تشقى الإنسان وتسعده في الحياة .. وهي التي تقوده إلى الجنة أو النار .. فأنت بالغريزة لك انفعال واحد ورد واحد .. أما بالعقل فأمامك بدائل كثيرة تختار منها ما تريد .. فإذا ضرب الإنسان كلبا مثلا .. فإن الانفعال الغريزي لهذا الكلب هو أن يرد بأن يعض الإنسان ولا انفعال آخر .. كلما أذى الكلب كان رده على الأذى أن يعض من أذاه .. والحصار أو الحصان مثلا يرفض من يؤذيه .. أى أن انفعاله له شيء واحد لا يتغير .. بينما الإنسان له عشرات البدائل من الانفعالات .. فإذا ضربك شخص فإنك تستطيع أن ترد الضربة بمثلها .. أو تردها بأشد منها .. أو تردها بأقل منها .. أو تصفح عمن ضربك .. أو تحسن إليه .. أو تكتفى بتوبيخه .. هناك بدائل لا حدود لها .. موجودة عند الإنسان وحده .. وما دامت هذه البدائل موجودة .. فلا بد أن هناك فى الإنسان شيئا يجعله يختار .. أو يميز بين البدائل بحيث يتخذ القرار .. أما الذى ليس عنده سوى اختيار واحد فهو محتاج إلى فكر ليميز بين البدائل التي أمامه .. وهنا نأتى إلى معنى الآية الكريمة :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾

(سورة البلد)

ولابد أن نعرف أن كلمة الإنسان حين تطلق من الله سبحانه وتعالى .. يراد بها الإنسان على إطلاق خلقه بلا تمييز بين مؤمن

السجود لآدم

وكافر .. أى أن الإنسان على إطلاقه مخلوق فى كبد .. أى فى ضيق ومعاناة .. لماذا ؟ .. لأنك وأنت أمامك هذه البدائل كلها مطلوب منك أن تختار فى كل لحظة من لحظات حياتك .. ماذا تفعل ؟ .. وكيف تتصرف ؟ .. هل ترد الإساءة بالإساءة ؟ .. أو تواجهها بالإحسان فيطمع فىك عدوك ؟ .. وأنت فى ضيق مالى هل تستقيل من وظيفتك وتبدأ عملاً حراً ؟ .. وماذا يحدث لو أفلست إذا لوقمت بهذا العمل ؟ .. كيف تتصرف فى الصفقة التى أمامك .. ان بعثها فقد يرتفع سعرها فيضيع الربح الذى كنت تستطيع أن تكسبه .. وإذا لم تقرّر البيع قد ينخفض السعر فتخسر .. أين الخير وأين الشر فيما يحدث لك وفيما تختاره ؟ هل اخترت الصواب أم الخطأ ؟ .. لو اتخذت هذا القرار فما هو أثره على غدك ومستقبلك ؟ .. أيا ترى يوم تندم فيه على ما فعلت ؟ .. وإذا لم تتخذ القرار أتكون قد ضيعت فرصة عمرك كما يقولون ؟ .. وهل ستأتى فرصة غيرها ؟

إذن فالإنسان إذا امتنع عن اتخاذ قرار فهو فى ضيق .. لأنه يحس أنه ربما أخطأ وربما فاتته الفرصة .. وإذا اتخذ القرار واختار أحد البدائل فهو فى ضيق وكبد .. لأنه يحس أنه ربما أخطأ فى قراره .. وإذا قال نعم .. فهو فى ضيق وكبد .. لأنه يحس أنه كان يجب أن يقول لا .. وإذا قال لا فهو فى تعب وكبد .. وربما كان الخير فى كلمة نعم . وهكذا لا يخرج من الضيق والمعاناة أبداً إذا اتخذ قراراً أو لم يتخذ .. وإذا قام بعمل أو امتنع عنه .. إنه يعيش فى ضيق دائم ..

والمخرج من هذا كله أن تتحد مرادات الإنسان وما يريده فى الحياة

السجود لآدم

مع مرادات منهج الله .. ولذلك فإن الإنسان المؤمن هو الذى يعيش فى راحة .. فالإنسان المؤمن كل قدر الله بالنسبة له هو خير .. والإنسان غير المؤمن كل قدر الله بالنسبة له يعتبره شرا .

والإنسان المؤمن إذا جاءه المال فهو خير .. وإذا ذهب عنه المال فهو خير .. فإذا جاءه المال كفاه حاجته .. وإذا ذهب عنه فربما كان سيقوده إلى المعصية والهلاك فأبعده الله عنه .. والإنسان غير المؤمن إذا جاءه المال فهو شر .. يخاف من الحسد فينكره .. ومن السرقة فيظل قلقا عليه ليل نهار .. ومن أن يضيع هذا المال فيحاسب نفسه على قرش ينفقه .. وإذا جاءته وجوه إنفاقه فهو يخشى أن تزيل وجوه الإنفاق هذه نعمة المال عنه وتقنيه .. وهو يحس أن كل من حوله يطمع فى ماله فتضيع ثقته فى الناس .. ويشعر أنهم جميعا خونة وطماعون .. وهكذا فإن المال أتاه بالشقاء .. فإذا ذهب المال عنه فهو شر .. لأنه ينظر إلى النعم التى أنعم الله بها على غيره من خلقه وتمتلىء نفسه مرارة وحسرة . ويحس بالضيق فى كل دقيقة من حياته .. ويشعر بالحرمان ويملاً نفسه السخط لانه يريد ولا يستطيع أن يحصل على ما يريد .

والإنسان المؤمن إذا كان صحيحا معافى .. يعرف قيمة الصحة ويشكر الله عليها .. وإذا مرض يعلم أن هذا ابتلاه من الله واختبار للإيمان .. ويرضى ليحصل على الثواب وينجح فى الاختبار .. والإنسان غير المؤمن يعتبر الصحة أمرا مفروضا .. فإذا أعطاه الله الصحة انطلق إلى المعاصى التى تذهبها عنه .. ويرهق جسده بالسفر والخمر والشهوات وفاخر الطعام يحشره حشرا .. فإذا مرض نتيجة هذا

السجود لآدم

السلوك .. سخط وضاق ولعن الدنيا ومن فيها .. وظل متبرما بالحياة فهو
فى ضيق دائما .

هكذا نرى أن التكليف أو الأمانة التى حملها الإنسان ليست مهمة
سهلة ولا هينة .. بل هى مهمة صعبة واختبار دقيق بين مغريات الحياة
ومطلوبات الإيمان وهى امتحان لا ينتهى فى كل دقيقة .. كما سنبين
ذلك فى الفصول القادمة .. ولذلك لعظم هذه المهمة كان أمر الله
لملائكته للسجود لآدم .

والله سبحانه وتعالى قد أعد للإنسان المؤمن فى الآخرة جنات ونعيما
عظيما وتكريما على قدرات الله سبحانه وتعالى .. وتحقيق هذا التنعيم
والتكريم من الله سبحانه وتعالى لابد أن يكرم ساعة خلقه بأن يسجد
الملائكة له .. وقد يكون ذلك تفضيلا من الله سبحانه وتعالى وتكريما
للإنسان .. والله يكرم من يشاء ويرفع درجات من يشاء .. ولذلك أراد
تكريم الذرية المؤمنة التى خلقت فى ظهر آدم ساعة خلقه .. كل هذا
تفسير لأمر السجود وان كان التفسير الأكبر هو التفسير الإيمانى فى
أن الله سبحانه وتعالى يعبد لذاته .. وان الأشياء تأخذ تفضيلها ورفعة
شأنها وكمال وجودها من الله .. ولا شىء له فضل ولا قدسية فى
ذاته .. وهذه حقيقة لابد أن نفهمها لأنها هى الحقيقة الإيمانية
الكبرى .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد فضل الأماكن على بعض ..
وبعض الأزمنة على بعض .. وبعض خلقه على بعض .. ولكن هذا
التفضيل ليس فى ذاتية هذه الأشياء كلها .. ولكن : اختيار الله لها ..
فليس فى هذه الدنيا كلها شىء مفضل لذاته .. ولعل هذا الاختبار

السجود لآدم

الإيماني قد مر به المسلمون عند تغيير القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام .. وبعض الناس يتساءل عن حكمة تغيير القبلة .. وقد اختلف العلماء في تفسير هذه الحكمة .. فبعضهم قال ان ذلك تم حتى نخالف اليهود والنصارى .. وبعضهم قال إن ذلك تم لإرضاء العرب الذين نزل الإسلام عليهم أولاً حتى يكون بيت الله وبقبلة المسلمين في الجزيرة العربية .. وبعضهم قال غير ذلك .

ولكن الحكمة في هذا كله تأتي من أن الله يريدنا أن نفهم أن عبادته .. يجب ألا نشرك معه فيها شيئاً مهما كان هذا الشيء .. بل العبادة له وحده .. والطاعة له وحده .. وان اختياره سبحانه وتعالى للأشياء هو الذي يعطيها قدسيتها في نفوسنا .. فإذا قال الله اتجهوا إلى بيت المقدس للصلاة .. اتجهنا إلى بيت المقدس .. لا لأنه مكان رسالات سابقة .. ولا لأن هذا المكان شهد الأنبياء السابقين .. ولكن الله هو الذي أمرنا أن نتجه إليه .. فإذا جاء أمر الله في أن نتجه إلى الكعبة ، فإننا نتجه إلى الكعبة تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى أن نتجه إليها .. ولا نعترض أو نقول ان بيت المقدس الذي شهد الرسالات السابقة هو أفضل وأقدس .. ذلك أن بيت المقدس أخذ قدسيته من أمر الله لنا بالاتجاه إليه في أول الإسلام .. والكعبة المشرفة أخذت قدسيته من أمر الله لنا بتحويل القبلة والاتجاه إليها .. وهكذا نعرف أن الألوهية والطاعة والتقديس لله وحده .. ولا ندخل معه شيئاً إلا أمر الأمر وهو الله بأن نفعل ذلك .. لأن الله يعبد لذاته .

ولذلك فإن بعض الناس الذين يعتقدون أن هناك شيئاً مقدساً لذاته

السجود لآدم

بعيدا عن أمر الله .. إنما هم قد يقعون فى خطأ جسيم .. ذلك أن مصدر العبادة كلها .. بذاتيتها وكل أوامرها ونواهيها .. هو الله .. فإذا قال سبحانه وتعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .. اكتسب رسول الله ﷺ حق الطاعة بأمر الله .. فأصبحت واجبة .. وإذا طلب الله سبحانه وتعالى أن نحج البيت .. اكتسب البيت حق الحج بأمر الله .. ولو طلب الله سبحانه وتعالى أن نحج إلى أى مكان آخر لقمنا بذلك امتثالاً لأمر الله .. ولذلك نجد فى القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا هذه الحقيقة فى قوله سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ هَذَا عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعُ عِلْمُهُ ﴾

(سورة البقرة)

السجود لآدم

نجد أنه في الآيات الأولى يقول الله :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾

ومعنى ذلك أن الله أنبأنا بما سيقولونه قبل أن يقولوه .. وهذا واضح في استخدام حرف (السين) في قوله تعالى « سيقول » .. ولو أنهم قد قالوا فعلا ما استخدم الله سبحانه وتعالى حرف السين .. وهذا إعجاز من القرآن الكريم .. فلوتنبه الكفار وغير المسلمين إلى هذه الآية التي نزلت قبل أن يقولوا شيئا لامتنعوا عن القول .. وحينئذ كان الجدل يثور حول القرآن الكريم بأن يقول هؤلاء الكفار وغير المسلمين ان القرآن قد قال :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾

ولكن أحدا لم يقل شيئا .. ولكن الله بقدرته جعلهم لا ينتبهون لهذا .. ويتساءلون ما ولاهم عن قبلتهم .. وبذلك يكونون وهم الكفار مثبتين للإيمان ، مؤيدين لصدق القرآن لأن القرآن قال عنهم :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم ﴾

وقد جاءوا وقالوا فعلا تصديقا لقول الله .. بل إن الله وصفهم بالسفهاء وقالوا لينطبق عليهم هذا الوصف .. وهكذا يستخدم الله الكفار لتثبيت الإيمان دليلا على صدق القرآن .. وليرينا أنهم سفهاء .
ثم يقول الله :

﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط

مستقيم ﴾

السجود لآدم

ويقول فى آية أخرى :

﴿ والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى يرد على هؤلاء السفهاء .. ويقول انه سبحانه لا يحده زمان ولا مكان .. ففى أى مكان تتجه إليه فثم وجه الله .. وبذلك ينفى أن تكون حجة التغيير أن وجه الله موجود هنا ، وليس موجودا هناك .. أو أنه فى المشرق وليس فى المغرب أو العكس .. فالله فى كل مكان .. إذن فحكمة التغيير هنا لا تتعلق بذات الله ولا بوجهه .. ولا بمكان معين بالذات ولكنها كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلِ لِلَّهِ

الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهنا يعطينا الله السبب فى التغيير وهو اختبار نعمة الإيمان فى النفس البشرية فى أن الله يعبد لذاته .. فتغيير القبلة هو اختبار إيمانى لمن يتبعون الرسول الذى يوحى إليه من الله .. بحيث إذا أبلغهم الرسول بوحى الله اتبعوه إيمانا منهم بأن الله يعبد لذاته .. فأقوياء الإيمان سينفذون الأمر بهذا المنطلق الإيمانى .. وضعاف الإيمان سيحاولون المجادلة بقولهم ان المسجد الأقصى له قدسيته لذاته فهو مكان الرسالات والأنبياء .. فكيف نتركه ونولى وجوهنا إلى البيت الحرام .. وهكذا نرى أن تغيير القبلة هز نفوس ضعاف الإيمان ووضع

السجود لآدم

أسئلة حائرة فى عقولهم .. وكان شيئاً كبيراً بالنسبة لهم أن يتحولوا من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام .. بينما المؤمنون لم يضع ذلك أى تساؤل فى نفوسهم وقلوبهم ، لأنهم يعلمون يقيناً أنه لا شىء مقدس لذاته .. وفى هذا يقول الله :

﴿ وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾

بعد أن بينا هذا المنطلق الإيمانى .. نعود إلى أمر الله للملائكة بالسجود لآدم .. الملائكة يعبدون الله ويفعلون ما يؤمرون .. وفى سجودهم لآدم وإنما فعلوا ذلك لأمر الله بالسجود .. ليس لقدسية ذاتية فى آدم .. أى أنهم سجدوا لأن الله هو الذى أمر بالسجود .. والله كما قلت يعبد لذاته .. ولم يسجدوا لأن آدم له قدسية ذاتية من داخله تدفع الملائكة للسجود له لو أن الله لم يأمرهم بذلك .. وفى هذا رد على الذين يقولون كيف أن الملائكة سجدوا لآدم مع أن السجود لغير الله مرفوض .. نقول لهم انهم سجدوا لأمر الله فى السجود .. وليس لذاتية آدم نفسه .. وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٠)

أى أنه لم يخرج عن هذا الأمر الذى أمر به الله أى ملك من الملائكة .. وإنما الذى خرج عن هذا الأمر هو إبليس .

وما حدث بين الله وملائكته عندما أبلغهم الله سبحانه وتعالى أنه سيجعل آدم خليفته فى الأرض .. أنبأ به الله فى سورة البقرة ..

السجود لآدم

وتسائل الملائكة عن الإفساد الذي سيحدث في الأرض .. ووقف الشيطان . ورد الأمر على الأمر .. وأعلن رفضه لتنفيذ أمر الله بالسجود .

وعند هذه النقطة نكون قد وصلنا إلى كيف كرم الله آدم عند بداية الخلق .. وان آدم قد قبل حمل الأمانة ، وهي حرية الاختيار بين البدائل وهذا امتحان رهيب للإيمان ، وكيف ان الله سبحانه وتعالى قد ميز آدم وذريته بالعقل وهو أداة الاختيار .. ورفع التكليف والحساب لمن لم يكتمل عقله كالطفل .. أو من يفقد عقله كالمجنون .. وكيف أن إعطاء آدم حرية الاختيار قد أوجد نوعين من الحياة .. نوعا يكابد فيه ويقاسى الإنسان غير المؤمن .. ونوعا للحياة الطيبة للإنسان المؤمن .. أما تساؤل الملائكة عن إفساد آدم في الأرض .. وكيف علموا ذلك .. وكيف علم الله آدم الأسماء فهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الرابع

إِنِّي جَائِعٌ فِي أَرْضِ خَلِيفَتِي

إني جاعل في الأرض خليفة

خلق الله آدم وكرمه وأعد له مهمة في الحياة .. ثم أخبر الله
الملائكة بمهمة آدم في الأرض ، وقال سبحانه وتعالى للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي
أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أُوذِيَ اللَّهُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا لَعْنَةُ اللَّهِ الْفَاعِلِينَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هو لماذا أخبر الله الملائكة بأنه
سيجعل آدم خليفة في الأرض .. وما الذي يجعل الله سبحانه وتعالى
يخبر الملائكة بذلك .. وهل هذا الإخبار من الله يتنافى مع طلاقة
قدرة الله في كونه أنه يفعل ما يشاء عندما يريد وهو العزيز الحكيم :

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

(سورة الأنبياء الآية ٢٣)

إنى جاعل في الأرض خليفة

لقد توقف عدد كبير من العلماء عند هذا السؤال .. وظهرت تفاسير كثيرة لن نتعرض لها .. ولكن سبب الإخبار هو إعلام الملائكة بمهمتهم التي سيقومون بها بالنسبة لأدم وذريته .. ذلك ان من بين هؤلاء الملائكة من سيكونون ﴿ كراما كاتبين ﴾ .. أى يكتبون كل ما سيفعله آدم وذريته فى الأرض .. يكتبون الحسنات .. ويكتبون السيئات .. ويكتبون أداء الإنشآن للصلوات وطاعة الله .. كما يكتبون المعاصى التى يرتكبها الإنسان .. ومنهم الحفظة الذين يحفظون الرسل من كل سوء .. وهؤلاء سيكون لهم شأن مع الرسل من ذرية آدم الذين سيبعثهم ليذكروا ويبينوا منهجه للناس .. ومنهم الملائكة الموكلون بنفخ الأرواح فى الأرحام .. والملائكة الموكلون بقبض الأرواح وهم ملائكة الموت .. ومنهم الملائكة الموكلون بالأرزاق إلى آخر ما يوكل الله ملائكته لتنفيذه فى الكون .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (١١)

(سورة السجدة)

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٥﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١٦﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١٦)

(سورة الانفطار)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفِ

إني جاعل في الأرض خليفة

مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٦٣﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنَ
فَرِّهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٦٤﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف من آيات القرآن الكريم أن الله جعل للملائكة مهام كثيرة مع الإنسان في الأرض .. وأن إبلاغ الله سبحانه وتعالى للملائكة بمهمة آدم .. كان إعلاما لهم بالمهام التي سيقومون بها في حياة ورزق وتثبيت المؤمنين في القتال ، وكل الشئون التي سيكلفهم الله بها بالنسبة لرسالاته في الأرض .. إلخ ما سيكلفهم الله به ، ولذلك كان إعلامهم بأن الله قد اختار آدم ليكون خليفته في الأرض .

ما معنى اختيار الله لآدم كخليفة ؟ .. وما هي الخلافة التي أعطيت لآدم ؟ .. معناها أن الله سبحانه وتعالى قد خلق كل ما في الأرض والسماء ، وسخره لخدمة الإنسان .. وجعله يعمل من أجله .. ولنعرض عرضا سريعا لما سخره الله للإنسان في الأرض لخدمته .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿١٣١﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

إني جاعل في الأرض خليفة

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَنَا نَأْكُلُ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾

(سورة النحل - الآية ١٤)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۗ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

(سورة الحج)

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

(سورة لقمان - الآية ٢٠)

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(سورة الجاثية)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى سخر للإنسان ما في الأرض وما في السموات .. وجعل له الولاية عليها بأن تفعل له .. وأن تفعل به .. وهكذا فإن هذا التسخير هو خلافة الإنسان لله في كونه .. بل إن جسد الإنسان نفسه مسخر له بأمر الله .. ولكن يوم القيامة ينتهي هذا التسخير .. واستمع إلى قول الله سبحانه وتعالى :

إني جاعل في الأرض خليفة

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا
مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ
الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نرى أن السمع والبصر والجلود التي هي مسخرة في جسد الإنسان تفعل له في حياته ما يريد .. تأتي يوم القيامة لتكون شهيدا عليه فيما فعله من معاص .. لأنها في الحياة الدنيا مسخرة بأمر الله لكي تطيع الإنسان .. فاليد تمتد لتسرق وهي تلعن صاحبها .. ولكنها لا تستطيع أن تعصى أمره ، لأن الله سبحانه وتعالى جعلها مسخرة له تفعل له ما يريد .. والعين تزني وهي تلعن صاحبها .. ولكنها لا تستطيع أن تخالفه ، لأن الله سخرها له .. وكذلك الجلود والسمع وكل ما في الجسد .. الله خلقه خاضعا لأمره ثم استخلف الإنسان فيه ليعمل ما يأمره به الإنسان .. وكذلك الكون كله .. البحار تلعن الكافرين ، ولكنها تعطيم اللؤلؤ والأسماك والبخر الذي يكون السحاب وتحملهم إلى حيث يريدون دون أن تستطيع إلا أن تخدم الإنسان الذي جعلها الله مسخرة له ، وجعله خليفة في هذا التسخير .. وكذلك الأرض والجبال والشمس والقمر . كل ذلك يعمل بأمر الله ولكنه يخدم الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض ، ولا يستطيع أن يعصى أو أن يتوقف عن خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا .

إني جاعل في الأرض خليفة

والله خلق هذا الكون كله ، وجعل الإنسان خليفة له فيه .. كل شيء في هذا الكون في السموات يخدم الإنسان .. وكلما تقدم العلم اكتشفنا ما لا نعرفه عن كيف يخدم هذا الكون الإنسان الذي جعله الله سبحانه وتعالى سيدا للكون بطريق الخلافة ، بحيث عندما تنتهي هذه الخلافة يوم القيامة تنتهي سيادة الإنسان على الأرض وخلافته فيها ، ويصبح الأمر لله دون أن يستخلف أحدا فيه .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(سورة غافر- الآية ١٦)

وتمضى الآيات :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

(سورة البقرة- الآية ٣٠)

والسؤال الأول الذي يتبادر إلى أذهان الكثيرين كيف علم الملائكة أن الإنسان سيفسد في الأرض ويسفك الدماء .. لا بد أنه كانت هناك تجربة لخلق آخره أعطاهم الله سبحانه وتعالى حق الاختيار في أن يكونوا طائعين أو يكونوا عاصين .. فأفسدوا في الأرض وعصوا بعد أن تعهدوا بأنهم سيصلحون ويطبقون منهج الله في الأرض - من هم هؤلاء الخلق ؟ .. قد يكونون هم الجن لأن لهم الاختيار .. ولأن منهم الصالحين ومنهم العاصين .. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

إني جاعل في الأرض خليفة

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾
يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ
رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِينًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا
﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

.. ثم تقول نفس السورة :

﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الجن)

وقوله تعال :

﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا
﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ

إني جاعل في الأرض خليفة

كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ
أَحَدًا ﴿٢٠﴾

(سورة الجن)

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ ثَقَلَانَ ﴿٣١﴾﴾

(سورة الرحمن)

- أي الإنس والجن -

وهكذا نعرف يقينا من القرآن الكريم أن الجن سيحاسب يوم
القيامة .. وأن الرسائل السماوية قد نزلت إلى الإنس والجن مصداقا
لقوله تعالى :

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ
قَالُوا أَوْنَحْنُ قُلُوبًا فَغِيَّبْنَا قُلُوبَهُمْ وَوَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا
إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى
الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾

(سورة الأحقاف)

فالجن منهم الصالحون ومنهم الظالمون .. ولم يخبرنا الله سبحانه

إني جاعل في الأرض خليفة

وتعالى في القرآن الكريم أنه خلق شيئاً مختاراً في سلوكه .. مختاراً في الإيمان والمعصية إلا الجن والإنس .. وقد يكون هناك خلق آخر لم يخبرنا به الله .
إذن فقول الملائكة :

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ .

قد يكون منصبا على الجن الذين خلقهم الله مختارين . من قبل .. ولكن ما هو الدليل على أن خلق الجن قد سبق خلق الإنسان بحيث رأى الملائكة هذه التجربة فيمن خلقهم الله غير مسخرين ، وأعطاهم حرية الاختيار فقاوسا عليها تجربة الإنسان الذي أعطى نفس الحق وهو حق الاختيار .. الدليل على ذلك يأتي من القرآن الكريم إذ يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ (٢٧)

(سورة الحجر)

فالله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في القرآن أنه خلق الجن قبل خلق الإنسان .. ويقول المفسرون إن الجن قد أفسدوا في الأرض . وعلى أية حال فإن الثابت يقينا أن الله قد خلق الجن قبل أن يخلق الإنسان .. وأنه قد أعطى الجن حرية الاختيار ولم يجعله مسخراً .. وقد يكون الله سبحانه وتعالى خلق خلقاً آخر قبل الجن لم يخبرنا به .. وعلى ذلك فكون الإنسان ليس أول مخلوقات الله المخيرين يفتح الباب لاحتمال أن هناك خلقاً أفسدوا في الأرض .. وإن الملائكة شهدوا التجربة وقاوسا عليها .

إنى جاعل فى الأرض خليفة

ثم قال الملائكة :

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾

أى أن الملائكة يقولون يارب أنت قادر على أن تخلق خلقا مسخرين يسبحون بحمدك بدلا من خلق مخيرين يفسدون فى الأرض ويكفرون بالله .. وهذا القول قد قاله الملائكة فى أنفسهم .. ولم يجهروا به كما سيأتى بيان ذلك وهذا يدل على ان الملائكة لم تفهم مرادات الله من خلق الإنسان .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق ما يشاء مسخرا لعبادته وتسبيحه .. ولكن الله يريد خلقا يأتيه طواعية واختيارا .. يأتيه عن حب وورغبة .. لا عن قهر ورهبة .. مخلوق قادر على أن يفعل المعصية ولكن لا يفعلها حبا فى الله .. مخلوق قادر على ألا يقوم بالطاعات والعبادات .. ولكنه يقوم بالطاعات والعبادات حبا فى الله .. مخلوق قادر زينت له الدنيا .. وزينت له الشهوات فأصبحت محببة إلى نفسه ولكنه يتركها لأن حبه لله أكبر .

هذه هى مرادات الله سبحانه وتعالى من خلق الإنسان وتحميله الأمانة فى أنه يأتي لطاعة الله وحب الله ، وهو قادر على ألا يأتي .. ولذلك أعد له من النعيم فى الآخرة .. ما لم يعده لأحد من خلقه جزاء له على طاعته .. وأعد له من العذاب ما لم يعده لأحد من خلقه عقابا له على معصيته .

هذه هى فلسفة خلق الإنسان ، ولذلك فإن الله إذا شاء يستطيع أن يخلق كما يشاء عبادا مقهورين له .. ولكنه يريد عبادا يأتونه عن حب

إني جاعل في الأرض خليفة

وعن رغبة .. ولذلك أسقط الله الحساب عن كل إكراه في العبادة ..
وقال الله سبحانه وتعالى :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

(سورة البقرة - الآية ٢٥٦)

وقال سبحانه :

﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

(سورة النحل - الآية ١٠٦)

وقال سبحانه :

﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾

(سورة النور)

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى للملائكة :

﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى هو العليم بمراداته وأن الملائكة حينما
ظنوا أن الله سبحانه وتعالى يريد خلقا يسبح بحمده مقهورين لم يكونوا

إنى جاعل فى الأرض خليفة

يعلمون علم الله سبحانه وتعالى فى أنه يريد خلقا يأتونه طائعين مختارين .. وعدم علم الملائكة من مرادات الله .. هو من تمام علم الله .. لأن الله سبحانه وتعالى محيط بعلم الملائكة .. والملائكة لا يحيطون بعلم الله .

ثم تمضى السورة الكريمة إلى قول الحق :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

(سورة البقرة - الآية ٣١)

وهذا إعجاز آخر من إعجاز القرآن الكريم - ذلك أن الله قد جعل بداية العلم للبشرية كلها بالأسماء .. فكما علم الله آدم الأسماء فإن أى بشر لا يستطيع أن يصل إلى العلم الذى يؤهله ليبدأ التحصيل إلا إذا تعلم الأسماء .. خذ الطفل الصغير .. أى طفل فى أى مكان فى العالم - كيف يبدأ تعليمه ؟ .. إذا كان فى المدرسة أو كان أميا فى البيت يبدأ تعليمه الأسماء أولا .. فيقال له هذا كوب .. وهذا جبل .. وهذا رجل .. وهذا بيت .. وهذا بحر .. وهذا شارع .. وهذه قطة .. وهذه امرأة إلخ .. وبعد أن يتعلم الأسماء يبدأ فى تحصيل العلم ولكن بعد أن يكون قد استوعب الأسماء .. وحتى الطفل الأمي الذى لا يذهب إلى المدرسة تقوم أمه بمهمة تعليمه الأسماء حتى يستطيع أن يتعلم بعد ذلك كيف يمضى فى حياته العادية .. وبدون تعلم الأسماء فإن الطفل يتعثر ولا يستطيع أن يمضى ولا أن يحصل علما .

وهكذا أنبأنا القرآن بالطريقة التى حددها الله ليحصل الإنسان على

إني جاعل في الأرض خليفة

العلم بداية بالأسماء .. بل وأكثر من ذلك بالاستعانة بالصورة كما سيأتي بعد ذلك .. إذن كون البشرية كلها حتى يومنا هذا تبدأ بالتعليم دليل على إعجاز القرآن الكريم الذي حدد لنا طريقة البداية في التعليم .

علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها .. وعرف آدم الأسماء .. ثم ماذا حدث بعد ذلك ..

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(سورة البقرة)

أى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن علم آدم الأسماء عرضهم على الملائكة .. وطبعاً لم يعرض الله الأسماء على الملائكة ، وإنما عرض المخلوقات التي تطلق عليها هذه الأسماء على الملائكة بدليل أن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٣١)

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ﴾

دليل على أنه لم يعرض الأسماء على الملائكة ، لكنه عرض

إني جاعل في الأرض خليفة

المخلوقات التي تطلق عليها هذه الأسماء .. ثم طلب من الملائكة أن يقولوا له الأسماء .

وهنا لابد أن نتوقف عند قول الله :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يفهم الملائكة أنهم لم يكونوا صادقين في فهمهم لمرادات الله من خلق الإنسان .. ومن عدم فهمهم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخلق من يعبده عن اختيار وحب ورغبة .. لا عن قهر ورهبة .

وهنا اعترف الملائكة بعجزهم أمام علم الله سبحانه وتعالى .. واعترفوا بأنهم لم يفهموا مرادات الله ، حين قال لهم :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(سورة البقرة - الآية ٣٠)

فقالوا سبحانك .. أى تعاليت وتنزهت عن أن يحيط بعلمك ، وبمراداتك أحد .. وسبحان الله وليس كمثلته شيء .. هى ما نلجأ إليه عندما ننسب الفعل إلى الله سبحانه وتعالى .. حينئذ يكون الفعل خارجا عن كل قيود وتصورات البشر .. ويكون فى كل معجزاته وخرقه لنواميس الكون إنما هو مناسب بقدرة الله سبحانه وتعالى الذى خلقت هذه النواميس والقوانين ، والتي تستطيع أن تخرقها متى شاءت .. وأن تفعل من المعجزات ما تشاء .. وقال الملائكة معترفين بعجزهم أمام قدرة الله سبحانه وتعالى :

إني جاعل في الأرض خليفة

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾

(سورة البقرة - الآية ٣٢)

وكل مخلوقات الله لا علم لهم إلا ما أتاه الله لهم من العلم .. فالعلم كله يأتي من الله .. والله يكشف من علمه وقدراته في الكون ما يشاء لمن يشاء .. وكل كشف علمي في الكون قد جعل الله له ميلادا أو موعدا يكشفه فيه للبشر .. فإن صادف مولد هذا العلم باحثا يبحث فيه كشفه الله له .. وإن لم يصادف تم الكشف بما نسميه نحن الصدفة .

والمصادفة التي ندعيها في الكون .. هي الموعد أو الميلاد الذي حدده الله سبحانه وتعالى ليكشف عن قانون في الكون يجهله الناس .. عسى أن يدركوا بهذا القانون الذي كان يعمل في خدمة الإنسان ولم يكن أحد يدرى عنه شيئا .. عسى أن يكتشفوا بهذا القانون إعجاز من إعجازات الله في كونه .. فيزيدهم هذا الإعجاز فهما وإدراكا لعظمة وقدرة الله سبحانه وتعالى .

ولكن الذي يحدث للأسف الشديد أن الإنسان ينسب الفضل لنفسه .. وينسب الكشف لنفسه وينسى قدرات الله .. وكل شيء في هذا الكون ابتداء وانتهاء هو من الله .. فحبة القمح التي نأكلها الآن أتت من زرة القمح في الموسم الماضي .. وزرة القمح في الموسم الماضي أتت من زرة القمح من الموسم الذي قبله .. وهكذا تسلسل الأشياء حتى نصل إلى حبة القمح الأولى التي لم تأت من موسم سبق .. من أين أتت هذه الحبة ؟ .. من الله سبحانه وتعالى .. والشجرة

إنى جاعل فى الأرض خليفة

التى تراها أمامك جننا ببذرتها من شجرة سابقة .. والسابقة جننا ببذرتها من شجرة أسبق وهكذا تمضى حتى نصل إلى الشجرة الأولى .. من الذى أنبتها ما دامت لم تأت من شجرة سابقة .. فلا بد أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أوجدها .

ونفس الشىء ينطبق على الإنسان والحيوان .. فكل حيوان موجود .. هو مولود من حيوان سبق .. والحيوان الأول لابد أن يكون قد خلقه الله .. وإذا طبقنا نفس النظرية على الإنسان .. نسأل إناسا من أين جنئت ؟ فيقول من زواج أبى وأمى .. هذا إذا أخذنا بظاهر الأسباب .. والأب والأم جاءا من أبوين وأمين سابقين .. وهكذا نمضى حتى نصل فى النهاية إلى أنه لابد أن يكون هناك ذكر وأنثى جاءا من خلق مباشر .. وهذا الخلق المباشر هو الذى أوجده الله بخلق آدم وحواء .

والعجيب أن العلماء الذين يتناولون هذه المسألة دخلوا فى متاهات كثيرة .. ولعل من أكثر هذه المتاهات شيوعا ، وأقربها إلى العقول هذا الجدل العنيف الذى يدور حول : هل وجدت البيضة أولا أم الفرخة ؟ .. وفى هذه تتصارع النظريات وتختلف الآراء .. وكل يحاول أن يدل على صدق تخمينه . وكل هذه النظريات خاطئة تدل على جهل بشرى بحقيقة الخلق .. والله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه خلق كل شىء من ذكر وأنثى .. فإذا وجد الذكر وحده دون الأنثى فنى الخلق بعد فترة قصيرة .. وإذا وجدت الأنثى وحدها بدون الذكر فنى الخلق بعد فترة قصيرة .. وإذن لابد من ذكر وأنثى ليتم التكاثر وتتم استمرارية الخلق .

إنى جاعل فى الأرض خليفة

ولقد تنبته البشرية فى الفترة الأخيرة إلى هذا الإعجاز الذى ذكره القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا .. ولذلك فإن النظريات الحديثة للقضاء على الآفات الزراعية قد تنبته إلى حقيقة ان الاستمرارية جعلها الله سبحانه وتعالى فى الذكر والأنثى معا .. ووصلت إلى اختراعات بالأشعة وغيرها تقوم بها بتعقيم الذكور فتنتهى الآفة تماما .. أو تقوم على أساس القضاء على إناث الحشرات فتنتهى الآفة تماما ولا تعود .. ولكن البشرية كانت تعتمد منذ أعوام قليلة على إبادة الحشرات دون تمييز بين ذكر وأنثى .. ولذلك لو أفلتت من هذه الإبادة انثى واحدة وذكر واحد ، لعادت الحشرة إلى تكاثرها من جديد .. وبدأت تهدد بإتلاف الزرع والنبات مرة أخرى .. ومهما كانت المبيدات التى تستخدم فى هذا المجال قوية فإنه فى معظم الأحيان يفلت من الإبادة عدد ولو قليلا جدا من الذكور والإناث لتعود الآفة الحشرية مرة أخرى أقوى مما كانت .

ولذلك فإن السؤال عن الذى وجد أولا : البيضة أم الفرخة سؤال ساذج ، لأن البيضة لو لم توجد ملقحة لا يخرج منها الكتكوت ، لذلك لو أتينا بعدد كبير من الفراخ التى تبيض ولم يتم تلقيح هذا البيض بواسطة الذكور .. فإنه لا ينتج عنه شيء ولا يخرج منه كتكوت واحد مهما بلغ عدد هذا البيض .. ولكن إذا وجد الديك والفرخة معا .. أمكن أن تنشأ أجيال من الدجاج بعد ذلك ..

وهذا ينطبق على النبات أيضا .. فإذا لم توجد الذكورة والأنوثة فى النبات لا يتكاثر ولا يعطى ثماره .. ولذلك فإن الإنسان يكون حريصا

إنى جاعل فى الأرض خليفة

على تلقيح أنثى النبات بالذكر كما يحدث فى النخل مثلا .. وأحيانا تكون الذكورة والأنوثة موجودة فى زهرة واحدة أو فى شجرة واحدة فيتم التلقيح ذاتيا .. وأحيانا تحمل الرياح عوامل الذكورة من زهرة إلى زهرة أخرى .. بل انه ثبت أخيرا من الأبحاث العلمية أن هناك ذكورة وأنوثة فى السحاب .. ولقد استخدمت فى الحروب الأخيرة وخصوصا فى حرب فيتنام حيث كانت الطائرة تقوم برش ذرات تشبه ذرات ذكورة السحاب فينزل المطر من السحابة .. وقال بعض الجهلاء ان هذا انكشاف لأحد الغيبات الخمسة التى اختص الله بها نفسه فى قوله تعالى ﴿ وينزل الغيث ﴾ .. ونسوا أن عملية المطر تبدأ من البحر من سطح البحر بواسطة أشعة الشمس ومن كل المياه المعرضة للجو وأن هذه تتصاعد فى طبقات الجو العليا لتكون السحاب الذى يسوقه الله سبحانه وتعالى بواسطة الرياح إلى الأماكن التى قدر الله أن ينزل فيها المطر .. وان هذه العملية تتم دون أن يحس بها إنسان .. وانه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تقوم بعملية البحر هذه إلا الله سبحانه وتعالى .. وانه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تأخذ سحابا وتنقله من مكان إلى مكان آخر بواسطة وسائل صناعية .
وتمضى الآية الكريمة بعد أن قال الملائكة :

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٣٢)

أى أن الله سبحانه وتعالى هو العليم فوق كل عليم ، والحكيم الذى لا يدرك خلقه حكمته فى كثير من الأمور .. وهنا قال الله لآدم :

إني جاعل في الارض خليفة

﴿يَتَّخِذُ مِنْكُمْ نِسْماً﴾

(سورة البقرة - الآية ٣٣)

أى أن الله سبحانه وتعالى طلب من آدم أن ينبئ الملائكة بأسماء تلك المخلوقات التي لا يعرفون أسماءهم والتي عجزوا أن يذكرها أسماءهم أمام الله .

وهنا نتوقف قليلا لنقول كيف أنبأ آدم الملائكة بهذه الأسماء .. لا بد أنه أنبأهم بها بلغة يفهمونها .. فما دامت هذه الأسماء فهو تنطق أى تقال .. فمن أين عرف آدم اللغة التي يتحدثون بها : واللغة هي وليدة البيئة أى أنها لا تورث ولا تكون فى الإنسان بالطبيعة .. بل لا بد للإنسان أن يسمع حتى يتكلم .. ولذلك نجد أن الصم الذين لا يسمعون والذين ولدوا هكذا لا يستطيعون أن ينطقوا بحرف واحد ..

ولكى ندلك على ما نقول فإننا إذا أخذنا طفلا عربيا ساعة مولده وذهبنا به إلى بلاد تتكلم اللغة الانجليزية وتركناه هناك .. فإنه ينشأ يتكلم اللغة الانجليزية ولا يعرف حرفا واحدا من اللغة العربية رغم أن أصله أبا عن جد عربى .. وإذا فعلنا العكس وأخذنا طفلا انجليزيا لحظة مولده وتركناه فى بلد يتحدث العربية فإنه ينشأ يتحدث العربية ولا يعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية التي هي لغة آبائه وأجداده .. فاللغة وليدة البيئة وليست بالمولد ولا بلغة الأب أم الأم .

والذى يتكلم لا بد أن يسمع أولا قبل أن ينطق .. وأدم قد نطق بأسماء

إني جاعل في الأرض خليفة

هذه المخلوقات فلا بد أنه سمع حتى يستطيع أن ينطق .. فمن الذى علم آدم الكلام ؟ .. إنه الله .. وهكذا فإن إعجازاً آخر من إعجاز القرآن الكريم يدل على أن الله هو الذى علم الإنسان الكلام .. وأدم قد تعلم اللغة من خالقه سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ يَتَّادِمُ أَنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ
إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾
(سورة البقرة)

أى ان آدم عندما عجز الملائكة عن أن يقولوا أسماء المخلوقات التى عرضها الله عليهم طلب الله من آدم أن ينطق بهذه الأسماء فنطق بها وأنبأ بأسماء هذه المخلوقات .. وحينئذ وقف الملائكة وهم يرون هذا الإعجاز من الخالق فقال لهم الله سبحانه وتعالى :

ألم أنبئكم أنى أعلم الغيب وأعرف ما سيقع فى السموات والأرض ولا يغيب عنى شيء وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

وهنا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وما كنتم تكتمون ﴾ إذ أن هذا يبين لنا أن الملائكة لم يجهروا بالقول لله سبحانه وتعالى :

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ .

ولكنهم قالوا ذلك فى أنفسهم دون الجهر .. وعلمه الله سبحانه وتعالى لأنه يعلم ما نخفى وما نعلن .. وعلمه رغم كتمان الملائكة عن

إنى جاعل فى الأرض خليفة

الجهربه .. فرد عليهم بتجربة عملية بأن علم آدم الأسماء ووقف الملائكة عاجزين عن معرفة هذه الأسماء وهنا قال الله سبحانه وتعالى للملائكة أنه رد على ما قالوه فى أنفسهم ولم يجهروا به وأنه لا شىء يغيب عن علم الله .

هنا يريد الله أن يعلمنا عدة حقائق هامة .

أولا : انه لا أحد يستطيع أن يحيط بمرادات الله حتى ولا الملائكة المقربون .. ذلك ان الله سبحانه وتعالى هو وحده العليم .. ولا أحد من خلقه يستطيع أن يصل إلا إلى ما يريده الله أن يصل إليه .. وان لكل مخلوق مقامه الذى لا يتعداه .

ثانيا : ان الله سبحانه وتعالى حين جعل الإنسان خليفة له فى الأرض سخر له كل شىء تسخييرا دنيويا - أى ان كل شىء مسخر لخدمة الإنسان بأمر الله .. حتى جسد الإنسان وجوارحه تأتى يوم القيامة تشهد عليه لأنها مسخرة له فى الحياة الدنيا فقط .. فهى تنفذ له الخير والشر وتتبع إرادته بأمر الله .

ثالثا : ان الله حين خلق الإنسان يريد خلقا مختارا فى أن يفعل أو لا يفعل حتى يقبل هذا الخلق على العبادة عن اختيار ، وحب .

رابعا : ان كل شىء فى هذا الكون أصله من الله ونهايته إلى الله .. وان الثمرة الأولى والشجرة الأولى والإنسان الأول وكل خلق أول هو خلق مباشر من الله سبحانه وتعالى لا يخضع للأسباب التى يتم بها ما يحدث فى الدنيا .

إني جاعل في الأرض خليفة

خامسا : ان اللغة علمها الله لمخلوقاته ، لأن اللغة هي ابنة السماع ،
ولذلك فلا بد أن آدم وهو أول من خلق يكون قد علمه الله اللغة حتى
يستطيع أن يتحدث بها ، ثم أخذها أبناؤه وأحفادهم بالسمع وتعددت
اللغات حسب البيئات المختلفة .

ونأتى بعد ذلك إلى موقف الشيطان من خلق الإنسان .. وما هي
معصية ابليس وكيف حدثت ؟ .. وهذا موضوع الفصل القادم .

يا ابن آدم

« يا ابن آدم انك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك
ولا أبالى .

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك
ولا أبالى .

يا ابن آدم انك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني
لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة . »



إني جاعل في الأرض خليفة

أحاديث قدسية

يا عبادي

« يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته . فاستهدوني أهدكم .. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعته فاستطعموني أطعمكم .. يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسوني أكسكم .. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم .
يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني .. ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا .. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله .. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . »



الفصل الخامس

عصية إبليس

معصية إبليس

أثارت معصية إبليس جدلا كثيرا مازال يدور حتى الآن .. والجدل هنا يدور حول قشور وظروف وملابس لا تمس جوهر المعصية التي قام بها إبليس .. وإنما تمس جوانب العلم فيها لايفيد .. ولكن الجدل والتساؤلات تدور دائما حولها ، وكأنما لولم نعرف التفاصيل الدقيقة لما حدث لكان لذلك أثر على جوهر ما حدث فعلا .. وهو ما ليس بحقيقة . والحقيقة أن إبليس عصى ربه .. عصى أمر الله في السجود لآدم .. ثم زاد على ذلك بأن رد الأمر على الأمر .. فقال أنا خير منه خلقتني من نار ، وخلقته من طين .. وكأن الله سبحانه وتعالى - تجلى وتنزه - لأحد مخلوقاته ليقول له .. من هو الأحسن والأفضل .. هذا هو جوهر المعصية .

ولكن التساؤل يدور حول أشياء هامشية .. إن أمر السجود صدر للملائكة ولم يصدر لإبليس الذي كان من الجن .. فكيف يحاسبه الله على عدم السجود .. وهل كان إبليس يقف مع الملائكة وقت صدور الأمر ؟ .. بينما هو ليس منهم .. وهل كان إبليس في الجنة وكيف يدخلها ؟ .. وإذا كانت الغواية من الله لإبليس هي التي سببت المعصية مصداقا لقوله تعالى :

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأُقَدِّنَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمِ ﴾

(سورة الأعراف)

فكيف يكون الحساب مع أن الله هو الذي أغوى .. ولماذا غفر الله لآدم ولم يغفر لإبليس .. إلى آخر ما نسمعه من أسئلة تدور بين الناس حول هذا الموضوع .. محاولة أن تجد له جوابا .. أو محاولة من وراء

معصية إبليس

ستار طعن الدين بإيجاد أسئلة غيبية قد تتعذر الإجابة عنها .

ولذلك فإننى رغم إيمانى بأن هذه الأسئلة جانبية .. سأحاول أن أجيب عنها كلها .. لا بالنسبة لأهميتها ولكن حتى لا تستخدم فى محاولة التشكيك فى دين الله .. وسأستخدم الأدلة من القرآن قدر ما يهدينى الله إلى ذلك .

تبدأ القصة عند أمر الله للملائكة بالسجود .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهكذا عندما خلق الله آدم قال للملائكة أنى خالق بشراً . فإذا سويته . أى جعلته على الهيئة التى سيكون عليها . ثم بعد ذلك وهبته الحياة بالتقاء الروح بالجسد .. فنفخت فيه من روحى فاسجدوا له . فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس .

وهنا تأتى وقفتنا الأولى .. ان الخطاب هنا للملائكة .. وإبليس من الجن أى أن الله سبحانه وتعالى لم يوجه الخطاب إليه . فلماذا قال الله

معصية إبليس

سبحان وتعالى « إلا إبليس أبى » نقول أن الأمر يصدر إلى الأعلى ويكون الأدنى منه مطالبا بأن ينفذ هذا الأمر بالتبعية .. فإذا قلنا مثلا أن الوزير لابد أن يكون فى مكتبه فى الساعة التاسعة صباحا .. أنصب هذا الأمر على من هم أدنى منه دون أن نذكرهم .. فما دام الوزير سيأتى إلى مكتبه فى التاسعة صباحا .. فإنه من باب أولى أن يكون وكلاء الوزارة ومديرو العموم وغيرهم فى مكاتبهم قبل ذلك الموعد ، أو على الأقل فى مثل هذا الموعد .. فالأمر انصب عليهم دون ذكرهم بالاسم .. وإذا قلنا أن رئيس الدولة سيكون فى موقع ما الساعة الثامنة صباحا .. فمن باب أولى أن يكون كل المسئولين عن هذا الموقع فى أماكنهم قبل الثامنة صباحا .

إذن فالأمر إلى الأعلى يشمل الأدنى دون أن يذكر بالاسم .. فإذا كان الأمر قد صدر إلى الملائكة ، وهم أعلى فى المرتبة عند الله من الجن ، فمن باب أولى أن يشمل الأمر الجن وغيره من الخلوقات الذين هم أدنى من الملائكة ولولم يذكروا .. ولولم يحددوا بصفاتهم .. ومن هنا فإن الأمر حين صدر إلى الملائكة قد صدر إليهم وإلى من هم أدنى منهم فى الخلق ، ولولم يذكروا بالاسم .. وهكذا فإن القول بأن الأمر لم يصدر لإبليس بالسجود مردود عليه بأن أمر السجود يشمله ما دام قد صدر للملائكة الذين هم أعلى منه .. ويبين الله سبحانه وتعالى ذلك فى قوله :

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣١)

معصية إبليس

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ﴾

أى أن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين من الملائكة وغيرهم ..
أى أبى أن يكون مع كل من سجد لأمر الله .. ولقد حسم الله سبحانه
وتعالى هذه النقطة أنه كان فى علمه هناك من سيأتون ويجادلون
بالباطل .. ويقولون أن الأمر صدر للملائكة ولم يصدر للجن .. فقال
الله :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ
فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ ﴾

(سورة الكهف - آية ٥٠)

وقال سبحانه :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۗ ﴾

(سورة الأعراف - الآية ١٢)

ومعنى فسق أنه عصى وخرج عن المنهج .. وهنا يجب أن نتنبه

إلى قول الله تعالى :

﴿ فسق عن أمر ربه ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الأمر قد صدر منه

إلى الجن بالسجود فقوله تعالى :

﴿ فسق عن أمر ربه ﴾

معصية إبليس

دليل على أن أمر الله سبحانه وتعالى صدر إلى الملائكة ، ومن هم أدنى منهم .. وحتى يحسم الله الجدل البشرى الذى سيحدث حول ذلك .. أتى بها صريحة مباشرة بعد أن ذكرت مجملة فى أمر السجود للملائكة .. ففى الأمر الأول لم يفصل لنا الله من شملهم أمر السجود .. ولكنه فى هاتين الآيتين ذكر لنا أن أمر السجود لآدم قد شمل الجن وإبليس الذى كان من الجن .. وأن إبليس عصى أمر ربه بالسجود حتى لا يأتى قائل ويدعى كما يقال الآن أن الأمر بالسجود لم يشمل إبليس لأنه كان من الجن والله قال :

﴿ ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ﴾

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾

دليل على أنه لم يشذ ملك واحد عن أمر الله بالسجود .. لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .
لماذا لم يسجد إبليس .. يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحجر .

﴿ إلا إبليس أبى ﴾

.. ويقول فى سورة ص :

﴿ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾

ويقول فى سورة البقرة :

﴿ إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾

معصية إبليس

ويقول فى سورة الكهف :

﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾

الآية الأولى تبين لنا أن إبليس رفض السجود .. والآية الثانية تعطينا تفاصيل أكثر ، وتقول إن الكبر قد ملأ صدر إبليس ، واستكبر على أمر الله بالسجود .. والآية الثالثة تبين لنا أنه لم يرفض السجود فقط ، ولكنه رفض واستكبر على أمر الله .. أى أنها جمعت الصفتين معا .. والآية الرابعة تبين أنه عصى أمر ربه .

هذه الآيات تصور لنا أبعاد المعصية التى تمت .. فعندما أصدر الله سبحانه وتعالى أمره إلى إبليس بالسجود فإنه رفض تنفيذ الأمر ، وهذه هى المعصية الأولى .. أمر من الله يصدر وإبليس يرفض التنفيذ .

وما دام إبليس قد رفض التنفيذ فلا بد أن نعرف بدهيا أن الله سبحانه وتعالى خلقه مختاراً فى أن يفعل أو لا يفعل .. فلولا أن الله أعطاه حق الاختيار ، لما استطاع إبليس أن يرفض السجود حين أمره الله بذلك .. وهنا دخل إبليس فى المرتبة الأولى ، وهى المعصية .. والله سبحانه وتعالى فى منهجه أمر بأشياء ونهى عن أشياء .. وخلق الإنسان فى الدنيا مختاراً فى أن يطيع أو لا يطيع .. أى أن ذلك يحدث باختيار البشر حتى يكون الحساب عدلاً .. وبما أن الجن أعطاه الله حق الاختيار كالبشر ، فهو يملك أن ينفذ أو أن يأبى التنفيذ - وحسابه على ذلك يكون من الله فى الدنيا وفى الآخرة .

ولكن إبليس لم يرفض تنفيذ أمر السجود فقط .. ولكنه استكبر عن

معصية إبليس

تنفيذ أمر الله .. أى أنه دخل الكبر إلى نفسه .. فلا يمكن أن يقال أنه سها مثلا عن السجود .. أو أنه نسى أو أنه عصى فقط .. بل أنه استكبر على أمر الله سبحانه وتعالى .. أى كانت المعصية بعدم الطاعة استكبارا على أمر الخالق والعياذ بالله .. وهنا وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه من الكافرين .. لماذا ؟ لأن الاستكبار على أمر الله هو إهدار لمعنى الألوهية فى النفس .. فالإله هو القوى القادر الذى يعبد ويطاع .. ومادمت قد أمنت بالله ربا وخالقا ، فإنك قد أوجبت على نفسك الطاعة ، وأسلمت زمامك لله ، وأمنت بأنه هو العليم والحكيم والقادر .. والإيمان هو خشوع لله .. هو اعتراف من النفس البشرية بضعفها أمام قدرة الله سبحانه وتعالى .. ولذلك يقول الله فى سورة المؤمنون :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

أى أن الخشوع لله هو علامة الإيمان .. قد تنزل النفس البشرية وترتكب المعاصى .. ولكنها تعود فتتذكر قدرة الله فتستغفر .. وقد تكون النفس البشرية ضعيفة فلا تقوم بتطبيق المنهج كما أمر الله به .. ولكن هذا لا يعنى أنها استكبرت على الله .. بل هو ضعف فى أن تحمل النفس صاحبها على المنهج .. وقد تلهى الإنسان الدنيا .. ولكن إذا ذكر الله أحس بالرهبة تملأ قلبه .

وإذا ذكره أحد بالله قال سبحانه .. ولكن الذى يستكبر يريد أن يضع نفسه فوق مرتبة الألوهية .. انه لا ينفذ الأمر فقط .. ولكنه يحس أنه أكبر من أن ينفذه .. وأكبر من أن يؤمر .. وأنه أكبر من أن يطيع ..

معصية إبليس

وفى هذه الحالة يكون قد وصل إلى مرتبة الكفر ، والعياذ بالله ، وهى المرتبة التى وصل إليها إبليس حين استكبر أن ينفذ أمر الله بالسجود .. ولذلك وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه من الكافرين .

وهنا .. ولأن الكبر دخل فى نفس إبليس ولم ينطق به .. ولأن الكفر ملأ نفسه ولكنه لم يعلنه .. أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس شاهدا على نفسه بالكفر .. حتى لا يأتى يوم القيامة وينكر ذلك أو يحاول أن يلتمس الأعذار .. وبذلك ليكون إبليس شهيدا على نفسه .. كما سيكون الكافرون شهداء على أنفسهم يوم القيامة .

ولنوضح هذه النقطة قليلا .. الله سبحانه وتعالى يعلم ما تخفى الأنفس وما تكن الصدور .. وهو يعلم السر وما هو أخفى من السر .. والسر هو الذى تهمس به إلى أحد من أصدقائك أو إخوتك الذين تثق بهم .. على أن يكون هذا فى الخفاء أى بينك وبينه ، دون أن يعلمه أحد غيركما .. أى أن السر يشترك فيه أثنان . ولكن ما هو أخفى من السر هو ما تخفيه فى صدرك ولا تبوح به لأحد أبدا .. ولكنه يبقى فى صدرك وحدك ولا تبوح به لأحد أبدا .. والله سبحانه وتعالى حين أعطى للإنسان حق الاختيار جعله شهيدا على نفسه .. بمعنى أن الإيمان يمر بتجربة عملية مشهودة .. لأن القول غير العمل .. فأنت حينما يأتى إليك شخص يطلب منك شيئا قد تعده به .. ولكن عندما يأتى وقت التنفيذ تتكاسل ، أو تجد أن الأمر صعب ، أو تجد أن المسألة محتاجة منك إلى جهد .. فلا تترجم ما قلته إلى عمل .. فأنت حين يقال لك لا تكذب ، ولا تسرق ، ولا تشرب الخمر إلى آخره .

معصية إبليس

من السهل على النفس البشرية أن تقول نعم لن أفعل ذلك .. وهذا ليس اختبارا حقيقيا للإيمان .. ولكنك لو وجدت المال الحرام أمامك تستطيع أن تأخذه دون أن يراك أحد .. فإنك في هذه الحالة قد تضعف ، وتسول لك نفسك أن تمد يدك إلى المال الحرام .. رغم إنك قد عاهدت الله على ألا تمد يدك .. وأنت حين تجلس في مجالس الخمر قد تمتد يدك لتتناولها ضعفا منك أو إغراء ممن يتناولون الخمر حولك .

وهكذا جعل الله أحداث الدنيا اختبارا عمليا للإيمان وتمحيصا لما في الصدور .. وهو يبلوك بالخير والشر ليرى أطيعة في الخير وتنفق فيما يرضى الله .. أم تنفق في المعاصي .. وليرى إذا كنت ستصبر على الشر وتحمد الله .. أم ستضيق نفسك وترتكب ما يغضب الله .. وليس هذا عن عدم علم الله بما ستفعل .. ولكن لتكون شهيدا على نفسك يوم القيامة .. تماما كما تأتي للطالب في العام الدراسي وتسأله هل أديت واجبك ، واستذكرت دروسك فيقول نعم .. فتقول سأمتحنك .. الأستاذ عندما يمتحن تلميذه لا يمتحنه ليزداد منه علما . أو لأنه يجهل ما يعلمه التلميذ ، فهو الذي علمه .. ولكن ليكون التلميذ شهيدا على نفسه .. فإذا رسب في الامتحان وجاء يجادل أستاذه .. والإنسان أكثر شيء جدلا .. إذا حدث ذلك أخرجت له ورقة الامتحان أمامه ، وأريته إجابته فلا يستطيع أن ينطق .. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن الحساب يوم القيامة :

﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

(سورة الإسراء - الآية ١٤)

معصية إبليس

ولذلك شاء عدل الله سبحانه وتعالى أن يجعل إبليس شهيدا على نفسه فقال :

﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٢)

وقال سبحانه :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(سورة الأعراف - الآية ١٢)

ويجب ألا نأخذ هذا الاستفهام من الله سبحانه وتعالى .. أنه عدم علم بما فى صدر إبليس من الاستكبار .. فالله تبارك وتعالى يعلم لماذا لم ينفذ إبليس أمر السجود لآدم رغم أن إبليس لم ينطق بذلك .. ومن هنا فإن هذا السؤال ليس استفهاما . فعلم الله سبحانه وتعالى يحيط بكل شىء .. ولكن لكى يكون إبليس شهيدا على نفسه يوم القيامة .. وفعلا فإن إبليس الذى ركبه الكبر والغرور نطق ليشهد على نفسه شهادة الكفر فقال :

﴿ قَالَ لَرَأَى أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٣)

وقال سبحانه :

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

(سورة ص الآية ٧٦)

معصية إبليس

.. وقال سبحانه :

﴿ أَتَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(سورة الاسراء - الآية ٦١)

وهكذا شهد إبليس على نفسه بالكفر ورد الأمر على الأمر ..
وأخرج الكبر الذى كان يعلمه الله والذى أخفاه إبليس فى صدره
فقال :

﴿ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٣)

أى أنك يارب خلقت من هو أدنى منى ثم أمرتنى أن أسجد له ..
وهكذا أنكر على الله سبحانه وتعالى الأمر .. وقال أنا خير منه .. أى أنه
لم يتعال فقط على آدم .. بل تعالى على أمر الله له بالسجود لآدم .. فقال
أنا خير منه .. وكأن علمه والعيان بالله يفوق علم الله الذى خلقه ..
وأضاف فى حيثيات حكمه هذا :

﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾

.. وفى كلا الأمرين تظهر حماقة إبليس التى قادتة إلى الكفر .. وغباء
إبليس الذى أدى إلى طرده من رحمة الله .. فهو يقول فى الحيثية
الأولى :

﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من

حما مسنون ﴾

.. ثم يضيف فى الحيثية الثانية :

معصية إبليس

﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾

وهنا يعترف إبليس بأن الله هو خالقه وهو خالق آدم .. وهذه حقيقة لم يستطع إبليس أن ينكرها لأنه مهما بلغ من الكبر ، فإنه لا يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه .. وما دام إبليس يعترف بأن الله هو الخالق .. فإن الذى خلق هو أعلم بمن هو خير .. ولا يعلم هذه الحقيقة إلا الخالق فليس هناك من هو أدري بخلقه من خالقهم .. فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق .. وهو العليم بخلقه قد كرم آدم .. فهل يأتى المخلوق ويقول للخالق :

« أنا خير منه »

وهل المخلوق أعلم من الخالق بما هو خير وما هو شر .. ان الذى يصنع شيئاً هو أدري الناس بصنعبته .. فإذا صنع انسان آلة مثلاً فهو أدري الناس بها .. وكل من يستخدم هذه الآلة يأخذ علمه من صانعبها .. فإذا صنع آلة أخرى هى خير من الآلة الأولى .. ثم قال ذلك للعالم أجمع فلا أحد يستطيع أن يناقشه لأنه هو الصانع وهو الأدرى بصنعبته .

فإذا كان ذلك يصدق فى دنيا البشر فما بالك مع الله سبحانه وتعالى .. أيتى مخلوق والعيان بالله ليقول لخالقه أنا خير منه .

أيستطيع مخلوق مهما علا وبلغ أن يقول لخالقه أنا خير من فلان الذى خلقته .. أليس هذا غباء وعدم فطنة .. ولكنه الكبر يعمى الصدور .. ويوقف العقول .. ويجعل المخلوق يحسب بفروره أنه لا عليم غيره ولا حكيم سواء .. ولو كان هذا الكبر عن عمل أو عن علم .. لكان

معصية إبليس

هناك التماس لعذر ما .. ولكن إبليس لم يعمل شيئاً تميز به عن آدم .. ولم يعلم سر خلقه ولا سر خلق آدم .. ومع ذلك فقد دفعه الكبر إلى الكفر .. ودفعه الكفر إلى أن يرد الأمر على الله .. ويقول انه خير من آدم .. لأنه خلق من نار وأدم خلق من طين .. وهل مادة الخلق هي التي تميز مخلوقاً عن مخلوق .. أم أن الله سبحانه وتعالى الذى خلق ووضع الأسرار والصفات فى هذا وذاك .. وهو وحده جل جلاله الذى يقول من أفضل من من .. لأننا نعلم أنه هو الذى خلق .. وهو وحده الذى يعلم من هو خير من من .. ولا يستطيع أحد أن يدعى هذا العلم .

وهكذا نطق إبليس بالكفر ورد الأمر على الأمر .. وقال لا أسجد لأننى أنا خير منه .. وأوهمه الجهل أنه يعلم بينما هو لا يعلم شيئاً .. حينما فعل إبليس ذلك .. قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وقال سبحانه :

﴿ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة ص)

وقال سبحانه :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

معصية إبليس

فى هذه اللحظة التى نطق فيها إبليس بالكفر طرده الله سبحانه وتعالى من رحمته .. وطرده الله سبحانه وتعالى من جناته .. وطرده الله سبحانه وتعالى من عظيم نعمه .. وجعل عليه اللعنة إلى يوم القيامة .. وجعله من المرجومين .. وهنا خرس إبليس الذى كان يقول لله أنا خير منه .. فلم يستطع حين طرده الله أن يفعل شيئاً .. أو كما قال أنا خير منه ورد الأمر على الله .. وكما قال لن أسجد ورد الأمر على الله .. كان يستطيع أن يقول لو أن له حولا وقوة لن أخرج .. ولكنه فى السجود وعدم استخدام مشيئة الله فى أنه جعله مختاراً فى أن يسجد أولاً يسجد .. أما عندما قال له الله اخرج منها .. فقد كان ذلك أمراً من الله سبحانه وتعالى لا يستطيع إبليس أن يعارضه لأن الله جل جلاله لم يعطه الاختيار فى أن يخرج أولاً يخرج .. وقال الله سبحانه وتعالى لإبليس :

﴿ عليك اللعنة ﴾ ... ﴿ وعليك لعنتي ﴾

أى اللعنة على عمومها من كل طائع لى مسبح بحمدى سواء كان من الملائكة أو من البشر أو من كل ما خلق الله .. وفوق لعنات هؤلاء جميعاً فإن عليه لعنة الله التى هى أكبر وأقوى من كل هذه اللعنات والتى ستبعه إلى يوم القيامة حيث يخلد فى النار .

وهنا يثور سؤال .. لماذا لم يلق الله سبحانه وتعالى بإبليس فى النار فى اللحظة التى أعلن كفره فيها ورد الأمر على الأمر .. نقول ان الله سبحانه وتعالى قد أخذ على نفسه عهداً بأن يوم القيامة هو يوم الحساب ، ومن أصدق من الله حديثاً .. ولذلك لم يكن الله ليغير أمره

معصية إبليس

ويأخذ إبليس ويلقيه فى جهنم فى التو واللحظة .. بل كان لابد أن ينتظر إلى يوم الحساب ، لأن الله لا يخلف وعده .. تماما كما يمهل الله الكافرين فى الدنيا ولا يأخذهم ليلقى بهم فى النار لحظة كفرهم .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(سورة فاطر - ٤٥)

هنا تضاعل إبليس وأحس بالذنب الذى ارتكبه .. تضاعل بعد أن كان مستكبراً على الله يرفض السجود ويقول أنا خير منه .. تضاعل ليقول :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٦)

هنا تضاعل إبليس ولو كان يملك من الأمر شيئاً لتصرف بذاتية قوته .. ولكنه اتجه إلى الله يطلب منه أن يبقيه حتى يوم القيامة .. إلى أن تقوم الساعة .. ثم بعد ذلك يفعل به ما يشاء .. وفى هذا نرى أن القوة لله جميعاً .. وأن إبليس لا يستطيع أن يبقى نفسه يوماً واحداً على قيد الحياة .. أو ينجى نفسه يوماً واحداً من العذاب .. فبماذا توسل إبليس إلى الله .. هل توسل له بعبء الألوهية الذى أنكره .. لو أنه توسل له بهذا ما استجاب له الله لأنه كفر بعبء الألوهية وأنكره .. ولكنه توسل إليه بعبء الربوبية .. فالله رب العالمين وهو الذى استدعى هذا الخلق كله إلى الوجود .. وبما أنه سبحانه وتعالى رب لكل المخلوقات ..

معصية إبليس

المؤمن والكافر - فقد أعطى عطاء ربوبيته للجميع .. المؤمن والكافر أعطاهم مقومات حياتهم بلا تمييز .. وكفل لهم حقوقهم بلا تمييز .. فلا يجوز أن يعتدى إنسان على إنسان بغير حق كان ذلك الإنسان مؤمناً أو كافراً .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ ﴾

(سورة الإسراء - الآية ٣٣)

ولم يقل ولا تقتلوا المؤمنين إلا بالحق .. ولكنه قال النفس على إطلاقها .. وقال :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾

(سورة الأنعام - الآية ١٠٨)

وهكذا شاء عدل الله سبحانه وتعالى أن يكون عطاء ربوبيته لكل من استدعاهم للوجود متساوياً .. وإنما الذي يختلف فيه الناس هو عطاء الألوهية .. فمن آمن به سبحانه وتعالى إليها كرمه في الدنيا والآخرة .. ومن لم يؤمن عاقبه الله بذنبه .

تضاعل إبليس وتوسل إلى الله بعطاء الربوبية أن يبقيه إلى يوم يبعثون ، وقال : « فبعزتك » أي أنه توسل إلى الله سبحانه وتعالى بأن الله عزيز وغنى عن خلقه جميعاً .. ولا يضره .. ولا ينقص من ملكة شيئاً .. ولا يمس عزته .. أن يبقى إبليس إلى يوم القيامة أولاً يبقى ..
وحينئذ قال الله :

معصية إبليس

﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الحجر)

حينئذ وحين تيقن إبليس أنه سيبقى إلى يوم القيامة طفحت عوامل الشر المخفية في نفسه والكرهية الشديدة لبنى آدم الذي كان سببا في طرد إبليس من رحمة الله .. وأفصح إبليس عن نواياه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزِينََنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٩)

وهنا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى « بما أغويتني » .. إذا كانت الغواية من الله فكيف يحاسب إبليس .. نقول لمن يسأل هذا السؤال .. انه لا شيء يقع في كون الله دون ارادته .. والله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق الإنس والجان مختارين .. فهذه مشيئة الله .. ولا يمكن لأحد أن يدعى أنه خلق مختاراً بذاته .. أو أنه أعطى حق الاختيار لنفسه .. إذن كانت مشيئة الله في أن يخلق الإنس والجان مختارين .. ومن هذه المشيئة اختار إبليس الكفر .. فلو أن الله سبحانه وتعالى خلقه مسخراً لكان خاضعاً لا إرادة له - ولكنه أعطاه الإرادة .. فبدلاً من أن يختار الإيمان اختار الكفر .. وكان يستطيع أن يختار الإيمان .. إذن فالغواية أساساً تمت لأن إبليس خلق مختاراً .. خلق يستطيع الاختيار بين البدائل .. ولكن الكفر وقع لأن إبليس اختار المعصية بدلاً من أن يختار الطاعة .. وحيث إن الله سبحانه وتعالى لم يجبره على اختيار الكفر .. يكون إبليس قد اختار الكفر لنفسه وبإرادته

معصية إبليس

التي لم يتدخل فيها أحد .. اختار الكفر بذاته فاستحق العقاب .. ولكن هذا الاختيار أمكن أن يقع لأن الله سبحانه وتعالى أعطاه الإرادة الحرة فى أن يفعل أو لا يفعل .. ولكن الله لم يكرهه على الكفر .. ولكن الذى اختار الكفر بإرادته هو إبليس .. وهكذا نعرف معنى الآية الكريمة :

﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٩)

وقال سبحانه :

﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾

أى بعزتك وأنت عزيز مستغن عن خلقك .. لك كمال صفاتك من ذاتك .. لا تحتاج لخلق من خلقك .. بعزتك هذه أعلم أنك لن تجبر أحدا على الإيمان قهراً .. ولذلك فإننى سأنتقم من بنى آدم وأزين لهم الدنيا وأجملها فى أعينهم .. وأزين لهم الشر .. وأزين لهم المعصية .. وأزين لهم البعد عن صراطك المستقيم .. وأزين لهم الباطل .. ولكن هل قال إبليس أنه سيفعل هذا مع الناس على إطلاقهم .. لا .. فإن هناك عطاء الوهية يحمى المؤمن ويحرسه .. وينجيه من كل شر ومن كل أغواء .. وعطاء الألوهية يحرس المؤمنين .. لذلك قال إبليس :

﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾

هنا نقف وقفة .. هل قال إبليس هذا منة منه على عباد الله المخلصين ؟ .. أو رحمة بهم من أن يوسوس لهم بما يؤدى بهم إلى العذاب والتهلكة .. لا .. فهو يكن العداوة لبني آدم كلهم .. وهو يحاول

معصية إبليس

أن يغوى كل من هو على الصراط المستقيم .. ولكنه قال هذا لأنه يعرف أن عطاء الألوهية يحرس عباد الله المخلصين .. وهنا أراد الله أن يوضح هذه النقطة فقال :

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من
الغاوين ﴾

وهنا لابد أن نلاحظ استخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة عباد .. فهناك عبيد .. وهناك عباد .. كلنا عبيد الله .. المؤمن فينا والكافر .. والمطيع منا والعاصى .. ولكن عباد الله هم الذين أخلصوا دينهم لله .. ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المؤمنين فى القرآن الكريم إنما يستخدم لفظ عباد .

﴿ قُلْ لِعِبَادِى الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾
(سورة إبراهيم - الآية ٣١)

وقال سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ
قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيلِمًا ۝ ﴾

(سورة الفرقان)

ولذلك فإن قول الله :

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾

معصية إبليس

لا يسرى على كل خلق الله .. ولكنه ينطبق على كل مؤمن مخلص لله
فى عبادته .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إلامن اتبعك من الغاوين ﴾

أى من كان مخلصا لله سبحانه وتعالى من عياده المؤمنين ثم بعد
ذلك فسق وغوى وابتعد عن المنهج .. كفر بعد إيمان وعصى بعد
طاعة .. فؤلاء إن فعلوا ذلك لم يصبحوا عابدا لى .. بل أصبحوا عبيدا
وخرجوا عن حماية عطاء الألوهية لهم من غواية الشياطين .. ويقول
الله :

﴿ إن عبادى لى لك عليهم سلطان وكفى بربك وكىلا ﴾

أى أنه من توكل على الله فإن الشيطان لا يستطيع أن ىسل إليه .
ويبين الله سبحانه وتعالى طريق الغواية الذى سىتبعه الشيطان
فىقول :

﴿ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ

وَلَا يَجِدُوا أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

(سورة الأعراف)

أى أن الشيطان سىحيط بالإنسان من كل جهة .. ويحاول غوايته
والوسوسة له .. ولكن هناك جهتين لا يأتى منهما الشيطان أبدا .. فلم
يقل ومن تحتهم لأن ذلك مكان السجود ولم يقل ومن فوقهم لأن ذلك
مكان رفع الصلوات والدعاء إلى الله .. وهنا يبين الله سبحانه وتعالى أن
كيد الشيطان لا يؤثر على ملك الله فعندما يقول الشيطان أنه سىأتى

معصية إبليس

للإنسان من الأمام والخلف واليمين والشمال ويحيط به .. يقول الله تحقيراً لبشأن الشيطان ومن يتبعونه :

﴿ وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ
وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ
إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٦٤)

(سورة الإسراء - الآية ٦٤)

الشيطان يتوعد الإنسان ويقول إنه سيغربه في الدنيا عن طريق التزيين وأنه سيحيط به ليغويه في كل لحظة .. والله سبحانه وتعالى يقول له بل افعل أكثر من هذا .. أماً أذان من استطعت منهم بصوتك .. وارهبهم بالقوة سواء كانت من الخيل أو راجلة تمشي على أقدامها وشاركهم في الأموال وفي الأولاد .. كيف يحدث ذلك ؟ .. هل للشيطان صوت نسمعه .. هل للشيطان قوة حربية تحاربنا ؟ .. هل للشيطان أموال وأولاد ؟ .. نعم .. كل قوى الشر في العالم يستخدمها الشيطان .. فهناك من الذين كفروا من ينطقون باسمه وينشرون الكفر والإلحاد .. وهناك جنود الشيطان الذين يحاربون الحق ويعتدون على الأمنين ويبيدون الشعوب المؤمنة ويخنقونها سواء أكان اقتصادياً أم عسكرياً .. وهناك المال الحرام الذي يزينه الشيطان للناس فيرتكبون به المعاصي .. هذه مشاركة الشيطان في المال يحوله من حلال إلى حرام .. وهناك مشاركة الشيطان في الأولاد أن ينشأوا على غير طاعة الله وينشأوا وقد عرفوا المعاصي ولم يعرفوا الطاعة .. كل هذا متاع الغرور ، أى ليس حقيقة .. ولكنه مجرد غرور وكبر في الدنيا .. ثم تأتي

معصية إبليس

نهاية الحياة فلا يأخذ الإنسان معه شيئاً إلا المعاصي .. يترك المال .. ويترك القوة .. ويترك الجاه .. ويترك السلطان .. ولا يجد إلا الله ليوفيه حسابه .. كل ما فى الدنيا هو متاع الغرور إلا الطاعة مجداً لقوله تعالى :

﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾

.. والغرور هنا معناه الوعد الكاذب الذى لا يتحقق .. أى أن وعود الشيطان وما يزين به للناس المعصية ما هو إلا كذب لا يمت إلى الحقيقة بصلة .

بقيت بعد ذلك نقطتان .. النقطة الأولى .. هل كان إبليس يعيش مع الملائكة وقت أن أصدر الله سبحانه وتعالى الأمر بالسجود .. بعض الناس قالوا إن الجن والملائكة كانت تعيش ذلك الوقت فى مكان واحد .. ولكن هذا القول يضع قيوداً على قدرات الله سبحانه وتعالى .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يحده زمان ولا مكان .. ولذلك فإنه ليس من موجبات وصول أمر السجود إلى إبليس أن يعيش مع الملائكة فى مكان واحد وقت صدور الأمر بالسجود .. ولو كان إبليس يعيش فى آخر الدنيا .. والملائكة يعيشون فى السموات العليا فإن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوصل أمر السجود إلى الملائكة ، وإبليس فى نفس اللحظة رغم بعد المسافة .. والله لا زمان عنده ولا مكان .. لأن الزمان والمكان من خلق الله .. ولذلك فهذه ليست قضية تثار .. ولا جدلاً يستحق الرد .

والنقطة الثانية هل كان إبليس يعيش فى الجنة ثم طرد منها بعد

معصية إبليس

المعصية مصداقا لقول الله :

﴿ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَايْنَكَ رَجِيمٌ ﴾

وقوله تعالى :

﴿ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ
مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾

(سورة الأعراف - الآية ١٣)

.. وقول الله فأخرج منها لا يعنى مكانا على وجه التحديد فقد يكون الطرد من رحمة الله سبحانه وتعالى .. وقد يكون الطرد من نعم الدنيا والآخرة .. وقوله تعالى : ﴿ فَأَهْبِطْ مِنْهَا ﴾ ليس معناه هبوط المسافات التى نتحدث عنها .. وإنما معناه ذلة فى القدر وحطة فى القيمة وتنزيل من مقام على إلى أسفل سافلين .. والخروج منها يكون خروجا من نعم الله سبحانه وتعالى كلها .. وأنت تقول أن فلانا هبط فى نظرى .. ومعنى ذلك أنه وصل إلى درجة من الانحطاط بحيث أصبحت أنظر إليه نظرة احتقار .. ولا يوجد ما يجزم أن إبليس كان يعيش فى الجنة قبل المعصية .. ولا أنه كان يعيش مع الملائكة .. وسواء كان خروج إبليس معنويا أو حسيا .. فإن المعنى لا يختلف فى أن الله طرده من كل نعيم كان يعيش فيه .. وأنزله من كل مقام كان له إلى أسفل سافلين ، والمهم فى هذا كله أنه يرينا شدة غضب الله عليه .. وشدة تحقير الله له .. وهذا ما يجب أن نفهمه دون الدخول فى جدل حول هذا الموضوع ..
نأتى بعد ذلك إلى معصية آدم .. وكيف استطاع إبليس أن يوقعه فى المعصية .. وهذا هو موضوع الفصل القادم ..

الفصل السادس

خطيبنا الامير

خطيئة آدم

كثير من الناس يدعون أن خطيئة آدم هي سبب خروج الإنسان من الجنة .. وتجد منهم من يقول لك انه لولا أن آدم أخطأ وعصى ربه لكنا نعيش في جنات النعيم بدلا من ذلك الشقاء الذي يملأ الأرض .. بل ان بعض النظريات التي وضعها الإنسان ونسبها إلى الله زورا هو أننا نعذب في الأرض بسبب خطيئة .. وأن هذه الرحلة الأرضية بما فيها من عذاب إنما هي تكفير للخطيئة التي ارتكبها آدم في الجنة ، والتي أدت إلى طرده هو وذريته منها .. وأنه لا بد أن يكون هناك من يتحمل آلام البشرية وخطيئتها حتى نعود للجنة من جديد .. فإن هناك من يدعى أن هناك من نزل من السماء .. وأمضى أسبوعا من الآلام في الأرض ليحمل عن بني آدم خطاياهم ويطهرهم من خطيئة آدم .. ولذلك نسمع عن أسبوع الآلام والبكاء والدموع إلى آخر ما نسمعه .

وهذه النظرية البشرية مبنية على أن العقوبة تورث ، أي أن ذرية آدم قد ورثوا مع ما أخذوه من صفات جسدية قد ورثوا المعصية عن آدم .. وأن هذه المعصية تورث من جيل إلى جيل حتى قيام الساعة .. وأننا لا بد أن نبكى وأن ننتحب طالبين المغفرة من خطيئة آدم .. كل هذا يقال وتجد كثيراً من الناس يأتون بأشياء ونظريات واهية .

والذي أحب أن أبينه قبل أن نبدأ هذا الحديث أن آدم خلق ليعيش في الأرض حياة دنيوية .. وأنه في ساعة الخلق قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾

خطيئة آدم

إذن آدم خلق ليكون خليفة لله فى الأرض وليعمرها .. ولم يخلق أساسا ليعيش هو وذريته فى الجنة .. ولكنه خلق لينزل إلى الأرض ويعيش فيها .. ثم تأتى الآخرة ، ويكون هناك ثواب وعقاب .. فيدخل المؤمنون الجنة ويعذب الكافرون فى النار ، وهذا هو قدر الله الذى أراده لبنى آدم .. ولو أن آدم استمر فى الجنة .. فكيف يمكن أن يكون هناك حساب وثواب وعقاب .. وخطيئة وتوبة .. وإيمان وكفر .. إلى آخر ما فى الحياة الدنيا .. فكيف كان يمكن أن يكون لأدم ذرية ولا تناسل فى الجنة .

والحديث عن خطيئة آدم ، وأنا نتحمل هذه الخطيئة ونعذب بها فى الدنيا .. حديث يتنافى مع عدل الله سبحانه وتعالى .. لأن الله لا يعذب أحدا بذنب أحد ، ولا يعذب إنسانا بخطيئة انسان آخر .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ولا تزر وازرة وذرى أخرى ﴾

أى أن أحدا لا يتحمل ذنوب الآخر .. وإنما يحاسب كل شخص على ما ارتكبه من ذنوب وأثام .. كل انسان يحاسب على عمله من حسنات وسيئات وطاعات .. أما قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾

(سورة العنكبوت الآية ١٣)

فذلك ليس معنى أن الإنسان يتحمل خطأه وخطأ غيره .. بل ذلك قول الله سبحانه وتعالى عن المضلين الذين يضلون الناس فى الأرض ..

خطيئة آدم

ويزينون لهم طريق المعصية .. فهؤلاء يحملون أوزارهم أو معاصيهم التي ارتكبوها .. ويحملون أيضا أوزار أو معاصي الذين أضلوهم بغير علم ، لأنهم كانوا السبب وعملوا على أن يزينوا للآخرين طريق المعصية والضلال .. فهم في هذه الحالة يحملون وزرين أو معصيتين .. وكلا الوزرين أو المعصيتين هو من أعمالهم .. فالمعصية الأولى الاثم الذي ارتكبه .. والمعصية الثانية الاثم الذي دفعوا غيرهم إلى ارتكابه بتزيينه لهم بالباطل وترغيبهم فيه .. وهذا القول متمش مع عدل الله سبحانه وتعالى في أنه :

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾

وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من استن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن استن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) .

والسؤال الذي يثيره البعض هو أنه إذا كان الشيطان قد أغوى آدم ، وجعله يأكل من الشجرة المحرمة فطرد من الجنة .. فما ذنبي أنا لأطرد معه وأعيش في شقاء الدنيا وكبدها ..

السؤال بهذه الطريقة هو بعيد ومجاف للحقيقة .. فأدم لم يكن يعيش في جنة الآخرة كما يفهم بعض الناس .. ولم يطرد من جنة الآخرة حتى يقال أنه طرد من جنة الخلد .. بل إن الجنة التي كان يعيش فيها آدم لم يكن فيها خلود .. ولم يكن فيها من النعيم ما في الجنات التي وعد الله بها المتقين في الآخرة .. بل كانت تجربة عملية يريد الله بها أن يبين

خطيئة آدم

لآدم وذريته كيف يكون اغواء الشيطان وما هي نتيجته .. وكيف أن الغفلة تدخل اغواء الشيطان إلى النفس البشرية .. وكيف أن الشيطان عدو للإنسان .. وكيف أنه كاذب في كل وعوده التي يمني بها الإنسان ليقوده إلى معصية الله .

والله سبحانه وتعالى لم يطلق في القرآن الكريم لفظ الجنة على جنات الآخرة فقط .. ولكنه أطلقه على كل مكان ظليل تتوافر فيه الثمار والحياة الطيبة .. وبذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الكهف الآية ٣٢)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبأ الآية ١٥)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

خطيئة آدم

لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا
إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تُفَكِّرُونَ ﴿٢١٦﴾

(سورة البقرة)

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تعطينا الدليل القاطع على أن الله سبحانه وتعالى أطلق لفظ الجنة على جنات في الدنيا .. وأن قول الله سبحانه وتعالى لآدم :

﴿ فلا يخرجنكما من الجنة ﴾

ليس معناه الخروج من جنة الآخرة أو من الجنات التي أعدها الله للمؤمنين في الآخرة . لأن آدم وذريته المؤمنة سيدخلون الجنة في الآخرة .. ولكن الله سبحانه وتعالى لم يرد أن يلقي آدم وذريته إلى الحياة الدنيا ، حتى يبين لهم بطريقة عملية كيف أن الشيطان سيكون عدوا لهم وكيف سيوسوس لهم الشيطان ليقودهم إلى النار . ولنبدأ خطوة . خطوة .

الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم وقال للملائكة اسجدوا لآدم ، وسجدوا إلا إبليس . أراد الله أن يبين لآدم أن إبليس عدو له . وأنه سيحاول أن يجعله يفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل . ويعصى أمر الله ولا يحصد إلا الندامة والعذاب . فقال الله سبحانه وتعالى :

خطيئة آدم

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا
يَكَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ
فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾﴾

(سورة طه)

أول شيء حدث - حتى يكون عدل الله كاملا - أن الله نبه آدم إلى ما يريد أن يفعله إبليس . فقال له : أن هذا أى إبليس عدو لكما . هنا من القرآن الكريم نعرف أن آدم حينما عاش فى المكان الذى وصفه الله بأنه جنة كانت معه زوجته حواء . أى أن الله بعد أن خلق آدم خلق حواء وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿بَنَىٰهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿١﴾﴾

(سورة النساء الآية ١)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴿٢١﴾﴾

(سورة الروم الآية ٢١)

وهكذا نعرف أن الله خلق آدم .. ثم خلق حواء من آدم .. وهكذا تمت مرحلتان من مراحل الخلق الأربع .. وهى : خلق بدون ذكر أو أنثى وهو خلق آدم .. وخلق من ذكر بدون أنثى وهو خلق حواء .. ولقد خلق الله حواء من ضلع آدم .

خطيئة آدم

إن من فبداية حياة آدم كانت من ذكر وأنثى .. وهكذا وضع قانون التكاثر لآدم ولكل مخلوقات الله من ذكر وأنثى كما بينا من قبل .. بين الله سبحانه وتعالى لآدم وحواء إبليس ونواياه . وقال إن هذا عدو لكما .. وأنت إذا قلت لأى إنسان إن هذا الشىء عدو له .. فإنك تريد أن تحذره منه .. فإذا جاءه نبأ لا يصدقه .. وإذا اقترب منه ابتعد هو عنه .. أو اتخذ موقف الاستعداد ليواجهه وينازله .. وإذا طلب منه أن يفعل شيئا . فإنه لا يفعله لأنه يعلم أن فى هذا الشىء هلاكه مادام الذى جاء به عدوا له .. وإذا أعطاه الطعام والشراب وقال له كل من هذا فلا يأكل منه ، لأنه قد يكون قد دس السم له ليقتله .. وإذا حدث ونسى ذلك الإنسان ما قلته له محذرا بأن هذا عدو له .. تكون فى هذه الحالة أنت قد أبرأت ذمتك .. ويكون الوزر على ذلك الذى لم يستمع التحذير .

ومن هنا نرى أن الله سبحانه وتعالى شاء عدله قبل أن يدخل آدم ليبدأ مهمته أن يحذره من الشيطان .. وأن يقول له إن الشيطان عدو يريد له الأذى والهلاك .. فكانت هذه هى البداية بالتجربة التى سيمر بها آدم .. والتى تمثل تجربة عملية لما سيحدث له فى الحياة فى الأرض ، حتى لا يقول يارب أنت لم تحذرنى من الشيطان .. ولو أنك يارب حذرتنى منه وقلت لى أنه عدو لى وأنه يريد إيذائى .. يريد أن يهلكنى .. لو أنك قلت لى يارب ذلك لما أطعته يارب أبدا .. ولما استمعت إلى وسوسته .. ولكنك ياربى ألقيتنى فى الحياة الدنيا دون أن تبين لى عداوة الشيطان .. فحسبت أنه صديق وأنه ناصح أمين .. فاتبعته ياربى فكيف تحاسبنى الآن فى الآخرة على ما حدث منى بوحى من الشيطان ..

وحتى لا يقول الإنسان ذلك لله فى الآخرة وقت الحساب .. وما أكثر

خطيئة آدم

الأعدار التي سيقولها الإنسان في وقت الحساب .. حتى لا يحدث ذلك .. جاء الله بهذا وقال لآدم ان الشيطان عدوك فاحذره .. وأنا أقول لك ذلك حتى لا تأتي في الآخرة وتقول : ياربى لا تحاسبنى .. وهنا يجب أن نعرف أيضا أن التحذير لابد أن يسبق الفعل .. بمعنى أنه إذا وقع شيء يغضبك ولم تحذرنى منه من قبل فإن الحساب لا يكون عدلا .. ولكن إذا حذرتنى ثم وقع منى الفعل وعاقبتنى يكون العقاب عدلا .

وبعض الناس يتساءل كيف كلم الله آدم ؟ ونحن نقول انه إما أن يكون كلمه مثلما كلما موسى عليه السلام .. وإما أن يكون كلمه وحيا .. وكلا الأمرين ليس موضع جدل .. فالمهم أن الله قد أبلغ آدم أن ابليس عدو له وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورة طه)

قول الله سبحانه وتعالى يخرجكما من الجنة فتشقى ، هو الذى أثار الجدل حول الجنة التى كان يقيم فيها آدم وزوجته .. وقد بينا أن لفظ الجنة أطلقه الله سبحانه وتعالى على جنات السموات والأرض .. ولكن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ فتشقى ﴾ قد أثار جدلا .. ذلك أن معنى أنه يخرج آدم وزوجته من الجنة فيشقيان أنهما كانا فى نعيم فحرما منه ..

خطبة آدم

ويبنى بعض الناس على ذلك أن هذا النعيم الذى كان يعيش فيه آدم وحواء هو الموجود فى جنات الآخرة .. ولكن الآيات التى تلت هذه الآية تصف لنا الجنة التى كان يعيش فيها آدم ، والنعيم الذى كان فيه وهو نعيم محدود جدا بالنسبة لنعيم الجنة فى الآخرة .. فالله يقول لآدم :

﴿ إِنْ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾

أى أن فى هذه الجنة الثمار والطعام الذى يحتاجه آدم فى حياته متوافرا بلا جهد .. فهو لا يجوع فيها لأن الطعام أمامه متوافرا دائما .. ولا يعرى لأن الله قد أعطاه اللباس الذى يستره أو قد ستر عنه وعن حواء عورتيهما . واللباس هو ستر العورة .. أى أن آدم فى هذه الجنة لا يحتاج إلى جهد فى الحصول على طعامه هو وزوجته .. وفى الحصول على اللباس الذى يستره « وأنت لا تظما فيها ولا تضحى » أى أن آدم فى الجنة التى كان يعيش فيها الماء فيها متوافر .. وهو لا يتعب ولا يبذل جهدا للحصول على ماء أو طعام أو لباس .. بل يعيش فى الظل والنعيم التى منها مقومات حياته أمامه دون تعب أو جهد . هذا هو وصف الجنة التى عاش فيها آدم التجربة العملية المحسنة قبل نزوله ليباشر مهمته فى الأرض .. أين ذلك من جنات الآخرة .. التى فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وجنة الآخرة أولا هى جنة الخلد .. أى فيها الخلود .. والجنة التى كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلود كما سنبين بعد ذلك ... ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ

خطبة آدم

﴿ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ﴿٣٣﴾

(سورة فاطر)

ويقول سبحانه :

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهَمَتِ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٍ عِينٍ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ويقول الحق :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَنِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتومٍ ﴿٢٥﴾ نَخْتَمُهَا مِسْكٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ويقول تبارك و تعالى :

﴿ مُتَكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ ﴿١٣﴾ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴿١٤﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَطْرَافُهَا تَذَلِيلًا ﴿١٥﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِغَائِيَةِ مَن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّن

خطيئة آدم

فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا
زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ
رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

(سورة الانسان)

وإذا شئت تستطيع أن تعود إلى القرآن الكريم وتقرأ ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن الجنة في الآخرة .. لتجد أن الوصف مختلف تماما عن الوصف الذي أورده الله سبحانه وتعالى عن الجنة التي كان فيها آدم وزوجته .. فالجنة التي كان يعيش فيها آدم فيها نعيم محدود .. وجنة الآخرة فيها نعيم بلا حدود .

وهكذا فإن الجنة التي كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلد أو جنة الآخرة .. فكل الأعداء التي يحاول بعض المفسرين أن يسوقوها ليجيبوا عن السؤال الذي يقول : كيف دخل إبليس الجنة ليوقع آدم وزوجه في المعصية .. والتي يحاول البعض جاهدا أن يقول أنه دخل على هيئة كذا أو كذا .

نقول لهم أن الله لا يريد من أحد عوناً على كلامه .. إن هذه الجنة لم تكن جنة الخلد .. وإبليس محرم عليه دخول جنة الخلد ولم يدخلها ولن يدخلها .

كفل الله لآدم وزوجته مقومات حياتهما بلا تعب ولا نصب .. في مكان فيه ثمار وماء وكل مقومات الحياة .. ثم بعد ذلك علم الله سبحانه وتعالى آدم المنهج فقال له :

خطبة آدم

﴿ وَيَتَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٦)

(سورة الأعراف)

وكان هذا أول بيان لمنهج الله في افعال ولا تفعل .. والله سبحانه وتعالى أعطى لآدم وأباح له نعمًا كثيرة .. أباح له كل الثمر الذي في هذه الجنة .. وأن يأكل ما يشاء ، في أي وقت يشاء وحرّم عليه شجرة واحدة . وإذا نظرنا إلى منهج الله في الأرض نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أباح من الطيبات الكثير .. وحرّم القليل والقليل جدا .. فكل مقومات الحياة الطيبة مباح للإنسان من الطعام والشراب والأكل الحلال والمال والحلال .. ومن الثياب ومن العمل والكسب .. ولو أحصينا المحرمات لوجدناها قليلة جدا بالنسبة للمباحات .. وهذا رحمة من الله بخلقه .. فلو أن الله حرّم الكثير وأباح القليل .. لكان المنهج مشقة لا يستطيع ولا يقدر عليه الكثيرون .. ولأنه أباح الكثير وحرّم أقل القليل ، جعل الدين يسرا .. وخفف عن عباده وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾

(سورة البقرة - آية ١٨٥)

وهنا أيضا نأتى إلى أن الله سبحانه وتعالى قد وضع مبدأ العدالة في الأرض .. وأنه لا عقوبة بدون تجريم .. فلا بد أن يأتي التجريم أولا ثم بعد ذلك تأتي العقوبة .. فإذا تمت العقوبة بدون تجريم لم يكن العقاب

خطيئة آدم

عدلا .. فأول شيء هو أن تجرم الفعل .. فلا بد أن تقول أولا إنك إذا قتلت فستعاقب بكذا ، وإذا سرقت فستعاقب بكذا .. وإذا فعلت كذا فستعاقب بكذا .. وهذا لابد أن يأتي قبل أن يقع الفعل بحيث إذا وقع تمت العقوبة .. أما أن يصدر قانون بأثر رجعي .. أى يطبق قبل أن يعلن تجريم الفعل فهذا ليس عدلا .. ولا يتفق مع منهج الله الذى جرم الفعل أولا .. فقال :

﴿ ولا تقربا هذه الشجرة .. ﴾

وحدد العقوبة فقال : فتكونا من الظالمين .. وقال :

﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾

وهكذا بين الله منهجه لآدم فى افعال ولا تفعل .. وقال ان هناك أشياء قد جرمتها ومنعتها . و أنا أخبرك بها أولا قبل أن يقع الفعل منك حتى إذا وقع الفعل يكون العقاب عدلا .. وكان هذا الإعلام هو أول إبلاغ عن دين الله للإنسان .. وأول وحى علمهم ما يجب أن يكونوا عليه فى حركة حياتهم .. ولكن الله سبحانه وتعالى لم يكن ليخرج آدم إلى حركة الحياة فى الأرض بدون أن يدربه تدريبا عمليا يياشر فيه واقع التجربة .. ولا يرسله الله للأرض بكلام نظرى دون واقع عملى يثبتته ويبينه .. لأن الإنسان قد يأخذ كلاما نظريا يقتنع به .. ولكن حين يأتى التطبيق العملى يتعذر عليه أن يجعل التطبيق متمشيا مع المنهج النظرى . وهكذا شاءت رحمة الله بآدم ألا ينزله إلى الأرض بمنهج نظرى أن افعال كذا ولا تفعل كذا .. إلا بعد أن يربيه تربية دينية على المنهج .. ويبين له عمليا ما يصادف الإنسان المؤمن من إغواء الشيطان واغرائه .. فإذا تمت التجربة العملية وعاشها آدم كواقع ، نزل إلى

خطيئة آدم

الأرض لياشر مهمته ، وهو مدرب لا بالتوجيه فقط ولكن بالتجربة .. فلم يكن الله ليخبر آدم بمنهج نظري ثم يعاقبه على ما يقوم به .. ماذا قال الله لآدم : كُلاً من كل شيء ولا تقربا هذا الشجرة .. وهذا أمر بافعل ولا تفعل .. ثم حذره من اغواء الشيطان وعداوته له .. وحذره من أن الشيطان سيجعله يقع فى الخطيئة .. وهنا بدأ اغواء الشيطان .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾

(سورة طه)

الشيطان جاء لآدم فى المكان الذى يعيش فيه وهو ليس جنة الخلد كما بينا من قبل وقال له :

﴿ يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾

واستخدم الله سبحانه وتعالى لفظ « فوسوس » والوسوسة هى صوت الحلى ورنينها .. أى أن الشيطان جذب آدم بزينة الدنيا وهى المال والحلى والشهوات .. ماذا قال الشيطان لآدم ؟

﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ﴾

ومعنى هذا أن آدم لم يخلق ليخلد فى هذه الجنة .. ولو أنه خلق كما سيحدث فى جنة الآخرة ما استطاع أن يغويه الشيطان ويعدده بأنه سيحقق له الخلود .. إذ ماذا يهم آدم مادام قد خلق فى جنة الخلد وأنه

خطيئة آدم

خلق خالداً أن يعصى أمر الله ليحصل على الخلود . فى حين أنه هو فعلاً خالد بحكم خلقه .

إذن الجنة التى كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلد .. وإلا لما أغراه الشيطان بالخلود .. وهنا نرى كيف أن الشيطان يستغل غياب التفكير السليم عن الإنسان .. أو يستغل الغفلة كما نسميها .. فلو أن هذه الشجرة تهب الخلد فعلاً فلماذا تضرع الشيطان إلى الله أن يبقيه إلى يوم الدين .. إنه كان يستطيع أن يأكل من هذه الشجرة ، ويحصل على الخلود ، ويمضى فى الكبر الذى بدأه .. ولكن الشيطان يعرف أن هذه الشجرة لا تعطى خلداً .. ولا شيئاً إلا السوء ... ولكنه أراد بالكذب أن يغرى آدم حتى يعصى الله ويأكل من هذه الشجرة .. وكان على آدم أن يتنبه أن الشيطان إذا كان يستطيع أن يمنح الخلد لمنحه لنفسه أولاً .

وأضاف الشيطان فى اغوائه لآدم « **وملك لا يبلى** » أى مال ونعيم لا ينتهى .. وهاتان أفتا الإنسان فى الأرض .. فالإنسان يبحث عن خلود ولا يريد أن يموت أبداً .. والإنسان فى حياته يخشى أمرين .. أما أن يفارق النعمة وإما تفارقه .. يفارق النعمة بأن يموت ويترك كل ما يملك ويتنعم به فى الحياة الدنيا .. وتفارقه النعمة أى أن تزول عنه لآى سبب من الأسباب .. كأن يكون غنياً ويصبح فقيراً .. أو أن يكون ذا جاه ونفوذ فيذهب عنه الجاه والسلطان .. ذلك هو هم الإنسان فى الدنيا وخوفه منها أن يفارق النعمة .

ومن هنا تأتى وسوسة الشيطان فى المعصية .. إذا أردت ألا تفارقك النعمة فافعل كذا وكذا .. اسرق .. زور .. نافق .. اقتل من يعترض طريقك .. افعل كل ما نهى عنه الله ولا تبال .. فإنك إذا فعلت ذلك ولم

خطيئة آدم

تبال بمنهج الله بقيت معك النعمة . ويندفع الإنسان في المعاصي فيسرق ويقول الزور ويقتل ويرتكب كل ما حرمه الله لتبقى النعمة معه .. ولكنها رغم كل ذلك تزول .

وهب أن هذه المعاصي قد أبقت النعمة فلم تفارق الإنسان وبقيت له .. فإن الإنسان يفارقها بالموت .. وهنا تأتي وسوسة الشيطان فيجعل الإنسان ينسى حكمة الموت أو نهاية الحياة .. فيصور له أن أمامه أعواما طويلة سيعيشها .. وأن أمامه عمرا مديدا سيستمتع فيه بهذه النعمة - وقد يكون أجل الإنسان غدا .. ولكن الشيطان يوسوس له أنه سيعيش أعواما .. وأعواما .. وأعواما يبقيه في الإثم حتى ساعة الموت وحينئذ لا تنفع التوبة .. ويكون الشيطان قد انتقم من الإنسان وجعله يسلك طريق النار والهلاك .. وهذا هو هدف الشيطان في عداوته للإنسان .

ثم يمضى الله سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَقَالَ مَآنَهُكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا

مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذ أن الشيطان بعد أن قال لآدم وحواء انه سيدلها على شجرة الخلد وملك لا يبلى بعد أن زين لهما ذلك .. دلها على الشجرة ، فإذا هي نفس الشجرة التي نهاهما الله عن أن يقتربا منها .. وهنا تردد آدم وحواء .. فمضى الشيطان يزين لهما المعصية ويقول لهما : إن الله لم ينههما عن الاقتراب من هذه الشجرة إلا أنهما لو أكلا سيكونان من

الملائكة ويحصلان على الخلود .. وتلك أيضا كذبة استخدمها الشيطان في الاغراء .. فأدم وحواء لم يخلقا نفسيهما ، ولكن الله هو الذى خلقهما . فكيف يتحولان إلى ملكين ؟ والملائكة مخلوقة من نور .. والإنسان مخلوق من طين .. كيف يتحولان من الطين إلى النور بدون إرادة الخالق الذى طلب منهما ألا يأكلا من هذه الشجرة .. ولو أن هذا كان صحيحا من أن المخلوق يملك تغيير طبيعته ومادته بدون مشيئة الخالق .. لاختلطت الأجناس والمخلوقات .. وأصبحت السموات والأرض مجموعة من الفوضى .. ثم أن لكل مخلوق قوانين تتناسب مع مادته .. فالإنسان وقد خلق من طين له قوانينه التى تتناسب مع مادته .. والجان التى خلقت من نار لها قوانين تتناسب مع مادتها ، فهى ترانا ونحن لا نراها .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(سورة الأعراف الآية ٢٧)

فالجان لأنه من مادة شفافة وهى النار لا نستطيع نحن المخلوقين من طين أن نراها .. والملائكة المخلوقة من مادة أكثر شفافية وهى النور ترانا ولا نراهم .. ونحن فى حساب الزمن نتحرك ببطء ونقطع المسافات ببطء مهما كانت السرعة التى نسافر بها .. والجان له قدرة أسرع على الحركة .. ويرينا الله سبحانه وتعالى ذلك حين يقول فى قصة سليمان وبلقيس فى (سورة النمل الآية ٣٩)

﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين ﴾

أى أن عفريت الجن عرض على سليمان أن يحضر له عرش بلقيس من اليمن قبل أن تصل بلقيس ورجالها .. وكانت بلقيس وقومها قد غادروا بلدهم منذ فترة من الوقت .. على أن هذا العفريت سيقطع المسافة التي يقطعها الإنسان فى أسابيع أو شهور .. يقطعها فى ساعة أو أقل من ساعة ..

إذن فقوانين الجان مختلفة عن قوانين الإنسان .. وقوانين الملائكة تختلف أكثر وأكثر .. فكيف يمكن لأدم لمجرد أكله من الشجرة أن يتحول من مخلوق من طين إلى مخلوق من نور .. ومن الذى سيحوله .. ، أهو ثمرة الشجرة التى حرمها الله .. وهل لديها القدرة على ذلك ؟ وهل تستطيع وهى مخلوقة لله أن تقوم بمثل هذا التحويل لطبيعة الأشياء ... طبعاً مستحيل .

وهكذا يرينا الله سبحانه وتعالى أن الشيطان لا يدخل إلى النفس البشرية إلا مع الغفلة .. وإلا مع غياب التفكير الإيمانى السليم .. وأن كل ما يعد به الشيطان لو تمعنا فيه لوجدناه غرورا كاذبا .. ولكن مع هذا فإنه باندفاع الناس إلى حب الدنيا ينسون التفكير السليم .. وفى طمع بنى آدم فى أن يحصلوا على ما تمليه عليهم أهواؤهم يندفعون فى طريق يرفضه العقل وترفضه الفطرة السليمة .

﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾

أقسم الشيطان لهما أنه ناصح أمين لمصالحهما يريد لهما الخير .. أقسم الشيطان بمن ؟ فقد كفر بالله وهل يقبل قسم من كافر ؟ .. وهل الكافر له عهد يرجى .. أوله قسم يصاب ؟
رغم أن آدم وحواء قد حذرهما الله ونهاهما عن الاقتراب من هذه

الشجرة .. وأباح لهما كل ثمار الجنة .. يأكلان منها متى شاءا ، وحيثما شاءا .. ورغم أن الله قد حذرهما أن الشيطان لهما عدو مبين .. وأنه يريد أن يخرجهما من الجنة التي يعيشان فيها ، ورغم أن الشيطان قد استخدم حججا فى اغرائه لآدم لا تتمشى مع العقل ولا المنطق ولا قدرة الشيطان ، فقد صدقه آدم وتناول هو وزوجه ثمار الشجرة يأكلان منها ليتحولا إلى ملكين خالدين ويكون لهما ملك لا ينتهى أبدا . فماذا حدث بعد ذلك .. وأى نتيجة وصلا إليها .. ؟ هل تحولا إلى ملكين فعلا... هل وصلا إلى الخلود الذى يبحثان عنه .. وإلى الملك الذى لا ينتهى أبدا .. وإلى النعمة التى لا تزول .. أم أنهما أضاعا ما فى أيديهما ووصلا إلى حالة سيئة من الشقاء .. ؟
إن ذلك هو موضوع الفصل القادم ..



الفصل السابع

وَنَزَّلْنَا آتَمْرًا إِلَى الْأَرْضِ

ونزل آدم الى الأرض

أقدم آدم وزوجته على الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها .. ورغم كثرة المباح في الجنة التي كانا يعيشان فيها .. وأن المحرم هو شجرة واحدة من مئات أو ألوف الأشجار التي كانت في الجنة .. إلا أن الشيطان استطاع أن يخدعهما ويغري بهما ويقودهما إلى المعصية .. ولا بد هنا أن نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى عندما حرم على آدم وحواء أن يأكلا من هذه الشجرة لم يقل لهما .. لا تأكلا هذه الشجرة ، بل قال لهما لا تقربا هذه الشجرة .. ما هو الفرق في أن يقول الله لا تأكلا وبين أن يقول لا تقربا .. لو أن الله قال لا تأكلا من هذه الشجرة .. لكان المنهى عنه هو الأكل فقط .. ولكن المباح أن يذهبا ويجلسا بجوار الشجرة ، ويتأملا ظلالها وأوراقها ، وربما تنبعث رائحة جميلة منها فيتمتعان بها .. ولكن قوله تعالى :

﴿ لا تقربا ﴾ معناه لا تقتربا من هذه الشجرة حتى مجرد قرب .. ولا تجلسا لتتأملا فيها .. بل إذا رأيتماها فابتعدا عنها تماما .. لماذا ؟ لأن محارم الله يجب أن يبتعد عنها الإنسان حتى لا يقع فيها .. لأن القرب من الشجرة قد يبدأ بعده إعجاب بالثمار .. والإعجاب بالثمار قد يؤدي إلى قطف ثمرة منها لتتأملها دون أن نأكلها .. فإذا وصلت إلى هذه الدرجة فإنك في الغالب ستقع في المعصية وتأكل الثمرة .. وكذلك ما حرم الله .

إن كل معصية إذا اقتربت منها فإنك ستقع فيها .. الذي لا يشرب الخمر مثلا إذا جلس مع الذين يشربون كانت الخطوة الأولى أنهم سيدعونهم مرة ومرات إلى كأس ، أو إلى أن يتذوق قطرة منها .. فإذا رفض أخذوا يزينونها له ، ويحاولون اغراءه بأن فيها فوائد للناس ..

ونزل آدم الى الأرض

ويعيرونه بأنه لم يبلغ مبلغ الرجولة حتى يشرب ، وأخيراً سيقع فى المعصية ويشرب الخمر ..

إننا فى كل أحداث المعاصى التى نراها بالنسبة للخمر تبدأ بكأس واحدة ، وتحت الحاح شديد .. ثم بعد ذلك يبدأ تناول الخمر والإدمان عليها .. كذلك كل المعاصى اذا اقتربت منها فإنك تفتح باب الشيطان فى نفسك ، فتقع فى المعصية .

إذن فلا تقربا أبلغ وأشد فى الاحتياط من لا تأكلا .. ولذلك أراد الله بقوله ﴿ لا تقربا ﴾ أن يجنب البشر ذلك القرب الذى يغريهم على المعصية ويفتح فى نفوسهم الباب أمام هوى النفس وإغراء الشيطان .. ولذلك يلاحظ فى القرآن الكريم أن كل شىء محرم يقول الله سبحانه وتعالى بشأنه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾

(سورة البقرة - الآية ١٨٧)

أى لا تقربوا المعاصى أو مجالسها .. ابتعدوا عنها .
وإذا تتبعنا تسلسل معصية آدم وإغراء الشيطان له نجد أن الشيطان قد بدأ بقوله :

﴿ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾

واستطاع أن يجذب آدم ويقربه من مكان المعصية .. وعندما اقترب آدم من الشجرة وقع فى المعصية ، وأكل من ثمرها .. وبما أن التجربة العملية التى مربها آدم هى للبشرية كلها .. أراد الله سبحانه وتعالى أن

ونزل آدم الى الأرض

يفصلها تفصيلا ، حتى يعرف كل إنسان من ذرية آدم كيف تتم المعصية ، وما هو الطريق الذي يقود إليها .. فلا يأتي يوم القيامة مجادلا بأنه لم يعرف ولم يخبر بذلك مقدما حتى يحاسب في الآخرة .. أكل آدم وحواء من الشجرة .. وعصيا الله وحينئذ ماذا حدث ؟ هل تحولوا إلى ملكين ؟ .. هل حصلوا على ملك لا يبلى ؟ .. لم يحدث ذلك .. يقول الله تعالى :

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءُ نُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة طه)

.. ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَدَلَّلَهُمَا بِرُؤُوسِهِمْ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجْرَةَ بَدَتْ لهُمَا سَوْءُ نُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لما أكل آدم وحواء من الشجرة ظهرت عورتاهما وأسرعوا يأخذان من أوراق الشجر الموجود في الجنة ما يخفيان به هذه العورة .. فكأنما الشيطان يريد دائما أن يظهر عورة الإنسان فيغريه أولا بالشر .. ثم يوحى إليه من التصرفات ما يجعل الفضيحة تقع. وهو يغريه بالسرقه مثلا .. فمتى اتخذ الإنسان الشيطان وليا .. وسمع اغواءه وسرق ، فإنه

ونزل آدم الى الارض

يفويه بأحداث تكشف سرقة للناس وتريهم أنه لص .. فالشيطان عدو للإنسان وهو يزيد أن يظهر كل سيئة فيه حتى تلك التي سترها الله سبحانه وتعالى .

والإنسان إذا تبع الشيطان صار مفضوحا في كل أمره .. وهكذا عرف آدم وحواء الشيطان قد كذب عليهما ، وعدهما غرورا ، ليكشف عن عوراتهما التي كانت مستورة .. وهنا كان الجزاء .

قال الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجته ألم أنهما عن هذه الشجرة ؟ .. ألم أبح لكما من الطيبات ما يكفي حياتكما ويزيد ؟ .. ألم أقل لكما لا تقربا من هذه الشجرة ؟ .. لقد كنت أريد لكما الخير .. ألم أحذركما من الشيطان أنه لكما عدو مبين .. كنت أريد لكما الخير وخلقته ويسرته لكما .. وكان الشيطان يريد بكما الشر وأوقعكما في المعصية .. فلماذا اتبعتما الشيطان وعصيتما أمر الله .. ولم يجد آدم وحواء عذرا لما حدث .. لقد كان أمامهما الحلال الطيب واتجها إلى الحرام الخبيث .. وكان أمامهما الخير واتجها إلى الشر .. ولكن آدم وحواء قابلا المعصية بطريقة أخرى غير التي قابلها بها الشيطان .. فالشيطان قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

(سورة الأعراف - ١٢)

ويقول الحق أيضا :

﴿ قَالَ لِمَ أَكُنْ لَأَسْجِدَ لِبَرِّ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ

مَسْنُونٍ ﴾

فرد الأمر على الأمر .. ولكن آدم وحواء :

ونزل آدم الى الأرض

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(سورة الأعراف - ٢٣)

أى أنك يارب الإله الحق الذى يعلم كل شىء .. ويعلم أين الخير وأين الشر .. ونحن يارب مؤمنون بك إلها .. فأنت لم تظلمنا يارب .. وحاشا لله أن يوصف بالظلم .. ولكننا نحن الذين ظلمنا أنفسنا وأوردناها مورد التهلكة وإن لم تغفر لنا وترحمنا نكون من الخاسرين .. أى خسرتنا النعم التى سخرتها لنا فى الجنة التى كنا نعيش فيها وخسرنا الجزاء بالخلود فى الجنة فى الآخرة .

وفرق بين من يتهم نفسه بأنه ظلمها ويعترف أن أمر الله هو الحق .. وأنه لم يقدر على حمل نفسه على الطاعة .. وبين من ينكر على الله والعياذ بالله حكم ألوهيته .. وهكذا شرعت الخطيئة والتوبة فى الأرض .. وفتح الله باب التوبة للإنسان حتى إذا أخطأ يقول : يارب ظلمت نفسى وعدت إلى الحق فتقبل توبتى .. ولذلك فإنك إذا أنكرت حكما من أحكام الإسلام نقول لك أنت تنكر أحكام الله .. فإذا قلت نعم فأنت والعياذ بالله كافر .. إذا لم تصل مثلا .. وسألتك لماذا لا تصلى فقلت أنا لا أومن بالصلاة ولا أصدقها .. وهذه الصلاة ليست عبادة .. وليست لها أى حكمة .. فأنت فى هذه الحالة قد كفرت .

ولكنك إذا قلت ان الصلاة حق وأن الله سبحانه وتعالى قد فرضها وأنا مؤمن بها .. ولكنى لا أستطيع أن أحمل نفسى عليها .. ففى مرات أنسى .. وفى مرات أتكاسل .. فأنت عاص تجب عليك التوبة والرجوع إلى منهج الله .

ونزل آدم الى الأرض

وهكذا أراد الله أن يُرى البشرية كلها .. وقبل أن تبدأ حياة البشر على الأرض .. الفرق بين الكفر والعصيان ..
عندما نصل إلى هذه النقطة تكون التجربة العملية قد انتهت .. فالله سبحانه وتعالى خلق آدم وكرمه وفضله وأباح له من الطيبات ما يحفظ مقومات حياته .. ولكن الشيطان جاء ليفسد هذا كله ويقود الإنسان إلى المعصية .. وهنا تدخل الضعف البشرى والطمع البشرى .. ليجعل الإنسان يخرج عن منهج الله ، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتْنَىٰ وَّلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾

(سورة طه - الآية ١١٥)

وهكذا يكون آدم قد تم اعداده اعداد عمليا ليمارس مهمته على الأرض .. وأنه قد يبين له المنهج فى أن الله سبحانه وتعالى سيبيح له أشياء كثيرة .. ويحرم عليه أشياء قليلة .. ثم دخل فى تجربة عملية ظهر فيها ان الشيطان كاذب .. وأنه يريد أن يوقع آدم فى التهلكة .. ثم وجدت المعصية فعصى ربه .. ثم شرعت التوبة لأن آدم اعترف بأنه ظلم نفسه .. وبعد هذا الإعداد العملى الذى مر فيه آدم بتجربة الطاعة والمعصية نزل إلى الأرض ليمارس مهمته .

﴿ قَالَ أَهْبُتُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُحْرَجُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

ونزل آدم الى الأرض

نلاحظ قول الله سبحانه وتعالى اهبطوا مع أن آدم وحواء اثنان فقط .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾

فكيف يتم الخطاب لاثنين فى قوله « بعضكم لبعض »
والذين يقولون ذلك لا يتنبهون إلى أن آدم قد خلق وفى ظهره كل ذريته إلى يوم القيامة .. ذلك أن أولاد آدم كلهم من آدم .. وأجدادهم فيهم من آدم .. لأنهم أخذوا من أولاده وأحفاده أحفادهم فيهم من آدم لأنهم أخذوا عن أحفاده الذين أخذوا عنه .. ونوضح ذلك .. لو أتينا بإناء فيه لون أحمر ثم جئنا بإناء أوسع به ماء ووضعنا فيه هذا اللون يكون فى السائل الجديد جزئيات من اللون الأحمر وإن كانت أقل تركيزا .. وإذا جئنا بإناء ضخم هائل مملوء بالماء ووضعنا فيه السائل المختلط باللون الأحمر يكون فى الإناء الجديد اللون الأحمر فى جزئيات أقل وهكذا .. أنت أخذت من ابيك .. وأبوك أخذ عن جده .. وجده أخذ عن جد جده ، ونظلم نسلسل هذا حتى نصل إلى آدم .. فأنت فيك جزء من آدم .. وهكذا كان قول الله سبحانه وتعالى خطابا للبشرية كلها التى هى ذرية آدم .. وحين يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾

.. فإنه ينبهنا إلى أن آدم خلق يمثل أنواعا من البشر : نوع بنوه معصومون لا يعصون الله .. ونوع مؤمن .. يقع فى الخطأ والخطيئة ويتوب .. ونوع يكفر بخالقه .. ومادام آدم أبا لكل هذه الأنواع فلا بد أن يتمثل فى خلقه وتكوينه الأنواع كلها .. النوع المعصوم بالنبوة .. والنوع المؤمن الذى ينسى ويعصى ولا يملك أن يسيطر على نفسه أمام

ونزل آدم الى الأرض

نزواته وشهواته ولكنه يتوب إلى الله .. ونوع والعياذ بالله يكفر بخالقه ويعبد الشيطان .. وبما أنه سيكون من ذرية آدم النبي والمؤمن والكافر .. فهؤلاء جميعا سيقع بينهم صراع .. فالإيمان دائما يقابل بصراع من الكافرين الذين يريدون أن يحتفظوا بترف الدنيا ويظلموا الناس ويحاربوا كلمة الحق .. كما أن النزوات والشهوات المختلفة المتعارضة بين الناس .. تجعل بعضهم لبعض عدوا فى صراعات الدنيا ، فكأنما العداوة تأتى من نوعين : عداوة بين الكفر والإيمان .. أو الحق والباطل .. وعداوة بين الكفر والكفر وهو صراع النزوات والأهواء .. ولكن لا توجد عداوة بين الإيمان والإيمان .. لأن المؤمنين قد وحد الله هدفهم بمنهج واحد لا يشذون عنه وجمعهم على الهدى ، ولم يجعل فى أنفسهم صراعات الدنيا بنزواتها وأهوائها .. وهكذا كان خطاب الله لآدم على ما سيحدث لآدم وذريته بعد الهبوط إلى الأرض ..

﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۗ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

عندما نزل آدم إلى الأرض تلقى صيغة الاستغفار والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى من المعصية التى ارتكبها .. وظل آدم نادما على أنه عصى الله يردد كلمات التوبة ، وهى أول صلاة وتضرع لله من الإنسان على الأرض .. وهنا تاب الله على آدم .. أى غفر له خطيئته التى ارتكبها ، ولم تصبح هناك خطيئة تحملها البشرية على اكتافها إلى يوم القيامة .

لقد تمت التوبة وقبلها الله وبدأت صفحة جديدة من حياة آدم على

ونزل آدم الى الأرض

الأرض .. وهكذا لا يحمل كل منا على كتفيه خطيئة آدم كما يدعى البعض .. بل كل منا يحمل خطاياہ وأعماله وحده .

ولقد ضرب الله فى القرآن عدة أمثلة لذلك .. واختار سبحانه وتعالى الأنبياء حتى لا يقول أحد لماذا ضرب الله بى مثلا ، فيحمل على كتفيه وزرا .. بل نقول جميعا مادام أن الله ضرب هذه الأمثلة بالأنبياء الذين هم قمة الإيمان .. فهى بالأولى تطبق علينا جميعا .

ضرب الله مثلا بالعم الذى يمثل منزلة الأب فى ابراهيم .. وبالأبن فى نوح .. وبالزوجة فى لوط ونوح .. وبالزوج فى امرأة فرعون . والأب والأبن والزوج والزوجة هم أقرب الناس بعضهم إلى بعض .. ومع ذلك فكفر من هو فى منزلة الأب أو العم بالنسبة لإبراهيم لم يمس إيمان ابراهيم ومنزلته عند الله .. وكفر ابن نوح وامرأته لايمسان قدر نوح ومنزلته .. وكفر امرأة لوط لا يمس منزلة لوط .. وكفر فرعون لم يمس إيمان امرأة فرعون .. وفى هذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد لنا أن أحدا لا يحمل يوم القيامة على كتفيه إلا أوزاره .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا فاطمة بنت محمد . أنا لا أغنى عنك من الله شيئا ، لا يأتينى الناس بأعمالهم يوم القيامة ، وتأتون أنتم بأنسابكم) .. وفى هذا إيضاح وتأكيد بأن التوبة على آدم قد محت معصيته فى التجربة الإيمانية التى مر بها .. وان البداية على الأرض بداية جديدة تماما .

حينما أمر الله سبحانه وتعالى آدم أن يهبط على الأرض حدد له طريق الإيمان .. وقال سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا

ونزل آدم الى الأرض

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾

(سورة البقرة)

وهكذا حدد الله المنهج لآدم وذريته فقال : ان الهدى سيأتى منى على نفس الأسس التى حدثت لآدم فى الجنة بافعل ولا تفعل .. سأقول لكم هذا حلال فافعلوه ، وهذا حرام فاجتنبوه .. وقد خلقتكم صالحين للطاعة وصالحين للمعصية .. وجعلت لكل منكم مقعدا فى الجنة ومقعدا فى النار .. فالذى يتبع هدى الله ويعمل بمنهجه يأخذ مقعده فى الجنة ويرى مقعده فى النار حتى يحس بالفوز العظيم الذى حصل عليه بالإيمان .. وكيف نجاه الله من عذاب رهيب .. والذى يعصى الله ويكفر به يتبوأ مقعده من النار .. ويريه الله مقعده فى الجنة ليعرف كم خسر .. وكيف أنه خسر خسرانا مبينا .

وهكذا أنبأ الله البشرية كلها من أول بدايتها بأنه ستكون هناك رسالات من السماء تحمل هدى الله إلى الإنسان .. وان هذه الرسالات ستأتى لتذكر الإنسان بالمنهج .. وتبين له العذاب الذى ينتظره على جريمة المعصية والكفر .. والرسالات تأتى عندما تنسى البشرية منهج الله ، وتحيد عنه ، وتنطلق فى هواها ونزواتها ويضلها الشيطان ويبعدها عن المنهج ..

ولقد اختار الله أولئك الذين يحملون منهجه إلى بنى آدم من البشر .. من ذرية آدم .. لماذا ؟ .. لأن الرسول فى حياته يمثل تطبيقا عمليا لمنهج الله .. ولذلك فهو لا يأتى بالمنهج من الله ليقول : افعل كذا

ونزل آدم الى الأرض

ولا تفعل كذا ، ثم يختفى بعد ذلك .. ومادام قد جاء بالنظرية فقد أنهى مهمته .. ومن يطبقها يطبقها ومن لا يطبقها لا يطبقها .. ولكنه جاء بالمنهج وتطبيقه .. فهو يأتي بالمنهج ويطبقه على نفسه أولا ، ويكون قدوة لمن يتبعونه .. وهؤلاء ينقلون القدوة إلى من بعدهم وهكذا .. ولكي يكون الرسول مطبقا للمنهج ، فلا بد أن يكون بشرا .. ذلك لأنه لو كان ملكا أو فى مرتبة أعلى من البشر لقال الناس : لقد حملنا الله ما لا نطيق .. فهذا ملك له قدرات ليست لنا .. وهذا رسول له قدرات فوق قدراتنا .. ولكن كون الرسول بشرا .. وكونه جاء وطبق المنهج على نفسه فهذا دليل على أن هذا المنهج فى قدرة البشر ، ويستطيعون أن يطبقوه على أنفسهم ، لأن الرسول له نفسه قدراتهم .. فلا يقبل عذر لأحد بعد ذلك من أن يقول أن منهج الله فوق قدرات البشر . ثم يوجه الله سبحانه وتعالى قوله للبشرية كلها محذرا من الشيطان ووسوسته ، مذكرا بالتجربة التى مر بها آدم فيقول :

﴿ يَبْنِيْٓ اٰدَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُّوَارِيْ سَوْءَ تَكْوُرٍ رِّيشًا وَّلِبَاسًا اَلْتَّقْوٰى

ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِّنْ اٰيٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ﴿٢٠٦﴾

(سورة الأعراف)

أى أن الله سبحانه وتعالى يذكر خلقه بأن العورة التى كشفها إبليس عندما أغرى آدم على المعصية وأوقعه فيها قد علم الله الإنسان كيف يرتدى لباسا ليسترها ويداريها .. بل أن الله سبحانه وتعالى زاد على ذلك بأن أعطى الإنسان الرفاهية .. فلم يعطه الضرورى من الملابس ، بل أعطاه الريش أى الرفاهية .. وأعطاه فوق ذلك لباس

ونزل آدم الى الأرض

التقوى .. أى أن التقوى تستر عيوب الإنسان وتداريها .. وتظهر الطيب منه وتنميه .. فالإنسان الذى يلزم التقوى هو انسان مظهره طيب وخلقه طيب ، ولباسه طيب ، لأن الملابس الذى أمر به الله للرجل أو المرأة يغطى كل العورات ، ولا يظهر منها شيئاً .. ويجعل مظهر الإنسان طيباً ومقبولاً ..

والإنسان المؤمن إنما يحاول أن يجمع شهوات الإيذاء والإساءة والضرر للآخرين فى نفسه .. فكأن التقوى هى لباس يستر بها كل هذه العيوب التى تسيء إلى الناس ، وتجعلهم ينفرون منه .. والنفوس التى تنشأ فى تقوى الله هى نفس طيبة .. تسعى دائماً للخير وتصبر على المكاره .. وهى نفس محببة تساعد المحتاج وتنصر المظلوم وتحسن إلى الناس .. فالله سبحانه وتعالى صور التقوى على انها لباس لأنها تستر السيء وتمنعه من الظهور .. وتجعله مختفياً .. وتتعامل بالقيم ولا تقدم على ما يعيب .

ويقول الله ان ذلك خير .. أى أن الإنسان المؤمن أو الجماعة المؤمنة هى للخير للبشرية كلها .. تنشر الخير أينما وجدت .. وتمنع الشر كلما استطاعت .. وذلك من آيات الله سبحانه وتعالى أن جعل الإيمان بهذه الصورة الجميلة ليتذكر الناس كيف أن الإيمان ينشر الخير .. وينشئ المجتمع المستقر المنسجم مع نفسه ومع الكون كله .. فإذا تذكر الناس ذلك انضموا إلى مواكب الإيمان التى فيها صلاح البشرية كلها .. ويوجه الله سبحانه وتعالى تحذيره إلى البشرية كلها بقوله تعالى :

﴿ يٰٓبَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطٰنُ كَمَا أَخْرَجَ ابۡوَيۡكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَتَزَعُّ

عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سُوۡءَ تَمَيۡمِهِمَا ۚ اِنَّهُ يَرۡىٰ رُءۡسُكَ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّنۡ حَيۡثُ

ونزل آدم الى الأرض

لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾

(سورة الأعراف)

يوجه الله تحذيره للبشرية كلها ، لأن الشيطان الذي أمهله الله إلى يوم القيامة سيواصل عداوته للإنسان .. وسيحاول ان يخرج من الجنة كما أخرج أبويه آدم وحواء .. وسيتم ذلك بطريق الفتنة والإغواء . يريد الله أن يلفتنا إلى أن الشيطان سيحاول أن يفتننا بالزيف عن الحقيقة .. كيف ذلك ؟ ان منهج الله يوجهنا إلى النفع الحقيقي في الحياة الدنيا والآخرة .

ولنضرب مثلا يقرب ذلك للأذهان .. هب أننى أملك مزرعة للقمح جاءت بمحصول عشرة أراب .. أنا أولا أبقى من هذه الأراب العشرة أردبين لأزرعهما فى الموسم القادم .. ثم اتصرف فى الباقي .. ما أبقيته هذا أنقصته من انتفاعى العاجل به .. فقد كنت أستطيع أن أبيع وأستفيد بثمنه .. وكنت أستطيع أن أكله وأستفيد منه .. ولكن لو فعلت ذلك أكون قد فعلت الصواب أو الخطأ .. لو أننى بعث الأربدين أو أكلتهما أكون قد فعلت الخطأ رغم أننى حققت نفعاً عاجلاً .. ذلك أنه سيأتى الموسم القادم وليس لدى بذرة ، ويضيع كل شىء وبذلك لا أجد ما أكله ولا ما أبيع وأجد نفسى فى ضيق .

والإنسان يريد النفع لنفسه .. وكل انسان يريد النفع لنفسه .. ولكن هناك من يتعجل النفع .. مثل ذلك الذى باع بذرة الموسم الزراعى القادم أو أكلها .. وهناك من يعرف أين النفع مثل ذلك الذى أبقى هذه البذرة .. وكلنا يقينا نعرف أن هذه الحياة ستنتهى .. ولم يخلد انسان واحد حتى الأنبياء .. لم يفلت انسان واحد من الموت .. والله سبحانه

ونزل آدم الى الأرض

وتعالى قد وعدنا بأن يمتعنا فى الآخرة التى هى دار الخلود .. وسيكون التمتع فيها على قدرة الله سبحانه وتعالى .. أى فوق قدرة البشر مجتمعين .. ولقد كنت فى شيكاغو فى الولايات المتحدة الأمريكية .. وأراد بعض الناس أن يبهرونى .. فانزلونى فى أحدث الفنادق التى تتم فيها الخدمة بالعقول الالكترونية والتى تفنن المهندسون فى وضع لمسات الجمال والمتعة والرفاهية فيها .. وقالوا ما رأيك فى هذا التقدم ؟ ..

قلت : إذا كانت هذه الرفاهية والمتعة قد استطاع الإنسان أن يوفرها للإنسان بعلمه المحدود .. فكيف المتعة فى الآخرة التى يوفرها الله بعلمه وقدرته التى هى بلا حدود لعبده المؤمن .. ولذلك فإننا يجب أن نعتبر أن الحياة الدنيا وما يضع الإيمان فيها من قيود على هوى النفس هى مقدمات للجنة .. وما يعطى فيها من نعيم على حسب قدرات الله . والعجيب أننا نرى الأب يلاحق ابنه سنوات طويلة يسهر ويتعب ويشقى فى المذاكرة ، ويظل يلاحقه ليل نهار فإذا سألته لماذا يفعل ذلك قال لأضمن مستقبله .. ومع ذلك فإنه لا يطلب منه مرة واحدة بأن يصلى .. ولا يعاتبه على تركه الصلاة .. بينما التعب فى المذاكرة مبنى على ظن ، فقد يأتى للتلميذ أجله قبل أن يحصل على شهادته .. وقد يحصل على الشهادة ، ثم يخيب فى الحياة الدنيا ولا يحصل شيئاً ، فى حين أن الإيمان جزاؤه مضمون لأنه فى الآخرة .. ولا أحد لا يصل إلى الآخرة .. ولقد وضع الله سبحانه وتعالى فى كل قوانينه ان تقدم العمل أولاً ، ثم بعد ذلك تحصل على الثمرة .. فالتلميذ لابد أن يتعلم ليحصل على الشهادة .. والصانع يشقى ويتعب ليأخذ الأجر .. ولكننا نرفض أن نتعامل مع الله بنفس القوانين التى نتعامل بها فى الدنيا ، فلا نقدم

ونزل آدم الى الأرض

العمل الصالح حتى ندخل الجنة ..

ولذلك فإن مهمة الشيطان فى إفساد منهج الله أن يفتنك بالعاجل عن القادم .. فأنت تريد مالا لمتاع فى الدنيا ، وتنسى وأنت تسرق هذا المال أنك تضيع المتاع الأكبر فى الآخرة وأنت لك شهوات فى الدنيا ، وتنسى أنك إذ راعيت الله فيها أعطاه لك أكثر فى الآخرة ..

ومهمة الشيطان هى أن يجعلك تستغنى بالشىء العاجل الذى له نفع ظاهرى عن النعيم الحقيقى الذى أعده الله لك .. فأنت مهما ملكت فى الدنيا فأجلك محدود وقدرة تمتعك محدودة .. فإذا نهكتها أتتك بعكس النتيجة .. فالذى يسرف فى الطعام يمرض ويحرمه الأطباء من الأكل .. والذى يسرف فى الشهوات يضعف وينهار ويحرم منها .. والذى يسرف فى السهر فى معصية الله .. يأتى عليه الوقت الذى لا بد أن يختار بين أن ينام مبكراً أو ينام فى فراشه لا يقدر على الحركة .. ولكن قصر نظر الإنسان يجعله لا يقدر هذا كله .

ولذلك يحذرننا الله من هذه الفتنة .. فالشيطان من مهامه فى الحياة أن يدخل الخوف إلى النفس البشرية فيجعلها تعبده .. والإيمان مهمته أن يدخل الشجاعة والطمأنينة إلى النفس البشرية ، ويجعلها تعبد الله .. وإذا جاءت قضية حق ضد صاحب نفوذ حاول الشيطان أن يدخل الخوف إلى نفسك ، ويقول لك : إياك أن تقول كلمة الحق .. أكذب وناقض وأشهد الزور ، لأنك إذا قلت الحق فإن صاحب النفوذ هذا سيضرك ويقضى عليك ، فى حين أن الإيمان يقول لك : قل كلمة الحق ترضى الله والله يحفظك فهو أكبر وأقوى من كل صاحب نفوذ .. ولذلك إذا دخل الخوف من زوال الدنيا فى نفسك دخل معه الشيطان فأخذك بعيداً عن منهج الإيمان .. وبدلاً من أن يكون لك إله واحد وهو الله .. أصبح لك

ونزل آدم الى الأرض

آلهة متعددة فأنت تريد أن ترضى هذا .. وترضى هذا .. وترضى هذا كذبا وزورا .. وفى النهاية تجد أنك خسرت الدنيا والآخرة .. وذلك هو الخسران المبين .

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يحذرنا من فتنة الشيطان . إنه يريد أن يخرجنا من جنة الإيمان فى الدنيا .. وما هى جنة الإيمان فى الدنيا ؟ هى الانسجام مع الكون وعبادة الله وحده .. فالذى يعبد الله يعيش عيشة راضية داخل نفسه .

انظر إلى أى انسان يفعل امرأً حلالاً .. انه يقف أمام الدنيا كلها ويفعله .. ضميره مستريح تملأ الراحة نفسه .. وانظر إلى انسان يرتكب إثماً تجده يتلفت حوله ، ويحرص على ألا يراه أحد .. ويخاف إذا طرقت طارقت الباب .. إذا كنت أنت وزوجتك فى المنزل وجاءت الدنيا كلها فأنت تسقبلها بنفس مستريحة .. إذا كنت أنت وامرأة أخرى زوجة غيرك مثلاً وطرقت الباب .. ماذا سيحدث لك ؟ إذا كنت تمسك فى يدك بمال حلال وعرف الناس لا يهتمك شىء .. إذا كان ان المال حراماً تحاول أن تخفيه ، وتنفقه سرا ، وتشقى فى اخفائه حتى لا يسألك أحد من أين جئت بهذا المال ، فتضعه باسم ابنك ، أو باسم زوجتك ، أو باسم صديق لك .. وقد يأخذه ويبيده فلا تستطيع أن تفعل شيئاً .. إذن فالمؤمن يعيش فى جنة الإيمان ، لأن ما يفعله كله حلال ، وهو لا يتعرض لفضيحة أبدا مادام يتبع منهج الله.والذى يتبع الشيطان يعيش فى شقاء الخوف من أن ينكشف أمره ، أو تظهر سوءاته للناس فيعرف الناس الحقيقة ، وحينئذ تكون عوراته قد انكشفت.فليست العورة فى الجسد فقط ولكنها فى الخلق وفى التصرفات وفى كل عمل لا يرضى الله .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

ونزل آدم الى الأرض

﴿ إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ
أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة الأعراف آية ٢٧)

أى أن الشيطان فى عداوته الرهيبة للإنسان يتتبع كل خطواته وهو يرى الإنسان .. يراه حين يسرق بعد أن زين له السرقة .. ويراه حين يزنى بعد أن زين له المعصية .. وهو بذلك يعلم عن الإنسان أفعاله .. ويستطيع أن يستخدمها فى الإيقاع بين البشر بعضهم البعض وإثارة الفتن بينهم والعداوة والبغضاء .. ولذلك لا تجعلوا للشيطان سلطانا عليكم بارتكابكم المعاصى ، لأن الإنسان المؤمن ليس للشيطان سلطان عليه .. وكل ما يفعله لا يشين .. وكل ما يقوم به لا يحرص على إخفائه .. ولذلك لا يجد الشيطان وسيلة للإيقاع بينه وبين الناس إلا أن يسلط عليه شياطين الإنس فيؤذوه ويتهمونه بالباطل .. وفى تلك الحالة يأتى الاتهام بعكس النتيجة لأن الباطل لا يقف أمام الحق ..

والله سبحانه وتعالى قد جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .. أى أن كل من استغنى عن الإيمان استغنى الله عنه .. والله كما قلنا ليس محتاجا لأحد من عباده .. ومتى ابتعد الإنسان عن الله فإن الشيطان يصبح وليه الذى يوحى له بما يفعل ..

وهكذا يضيع هذا الإنسان لأنه ملك عدوه منه .. وأنت إذا ملكك عدوك هلكت .. وعداوة الشيطان للإنسان مريرة .. فهو يريد أن يكون مصير كل بنى آدم النار .. حتى لا يلقى هو وذريته وحده فى جهنم ويتميز بنو آدم بالنعيم ..

ونزل آدم الى الأرض

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية هذا الكتاب . الذي حاولت أن أبين فيه كيف أن الله سبحانه وتعالى حين أعد آدم لمهمته في الحياة كرمه غاية التكريم ، وفضله على كثير من خلقه . وسخر له مافى الأرض وما فى السموات .. وبين له عداوة الشيطان . وكيف أنه لا يأتى منه إلا السوء والشر .. وأمام هذا البيان الشامل المعجز من الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان حرية الاختيار فيما يفعل ولا يفعل .. وصدق الله العظيم إذ قال :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ
وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴾

(سورة البقرة)

رقم الايداع ٣٣٢٩ / ٩٣

I. S. B. N

977 - 08 - 0182 - 8

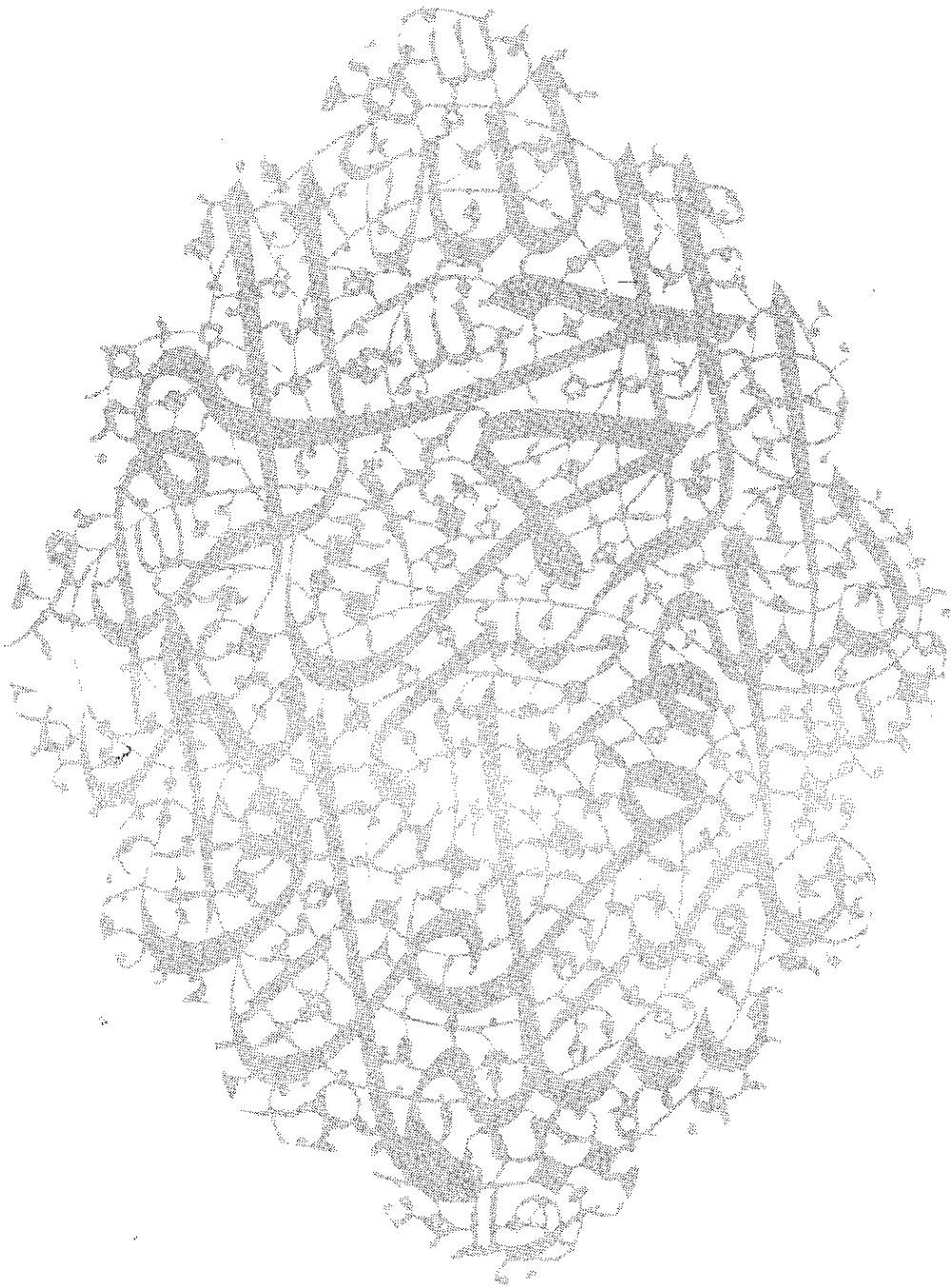
۹

معجزات الهی

محمد متولی الشعراوی



أخبار الكتب والمكتبات



الفصل الأول

معنى القِيَامَةِ

معنى القيامة

موضوع هذا الكتاب والكتب القادمة من (معجزة القرآن) سيكون عن يوم القيامة .. وقد يتساءل القارئ : لماذا اخترنا بالذات موضوع يوم القيامة ، مع انه يدخل في عالم الغيب .. نقول : إن الأساس في الايمان هو الايمان بالآخرة .. وبأن هناك حسابا .. وبأن الله سبحانه وتعالى سيستدعينا يوم القيامة ليحاسبنا عما فعلناه في الدنيا .. والدنيا هي دار الاختبار .. والآخرة هي موعد الجزاء .. والذين يوقنون إنهم سيلاقون الله يوم القيامة يحسبون لذلك اليوم ألف حساب .. ولو أن كل إنسان تذكر هذه الحقيقة لصلح أمر الدنيا .. ذلك لأن كلا منا سيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله سبحانه وتعالى .. ولكن الناس نسوا يوم الحساب ، وانطلقوا مع أهوائهم يفعلون ما تشتهى أنفسهم ، ويرتكبون المحرمات .. ويعتدون على الحرمات .. ويأخذون المال الحرام .. ناسين أو متناسين أن هناك يوما قادمًا رهيبًا يجعل الولدان شيبًا . ولعل هذا الكتاب ، والكتب القادمة ، تكون تذكرة لهؤلاء .. ولعلمهم إذا قرأوه استيقظت الضمائر ، وأحسن الناس جهول ما يفعلون .

هذه مقدمة قصيرة كان لا بد منها لايضاح الهدف الذي نسعى إليه .. ذلك أن أمور الغيب دائمًا هي الباب الذي يدخل منه الشيطان ، سواء كان من شياطين الانس ، أو من شياطين الجن .. يدخل منه إلى النفوس الضعيفة .. لماذا ؟ لأننا لا نرى الغيب . ومادنا لا نراه فهو محجوب عنا .. ذلك أن الايمان أساسا هو إيمان

معنى القيامة

بالغيب .. أو إيمان بما هو غيب .. ذلك أنك إذا رأيت شيئاً فلا تقول إنك تؤمن به .. لأنك تراه رأى العين .. رؤية يقين .. والايان ليس مطلوباً في الحسيات والمشاهدات .. ولكنه مطلوب في الغيب .. فيما هو غيب عنا .

ولقد أوضح الله سبحانه وتعالى مطلوبات الايمان في بداية كتابه الكريم وفي أول سورة البقرة .. إذ يقول تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾

إذن فالايان بالغيب واليقين واليوم الآخر هما من أهم علامات الايمان .. ذلك أن اليقين بالآخرة قضية هامة جدا ، تحكم السلوك الانساني في الدنيا ، وتردع كل من تسول له نفسه أن يغتر بسلطان أوبقوة أو بنفوذ .. فيطلق لنفسه شهواتها ، ويعتدى على حقوق الناس .. دون أن يكون هناك وازع .. ولكنه إذا عرف يقينا أنه سيقف بين يدي الله ، فإن ذلك سيكون رادعا قويا لشهوات نفسه ولظلم غيره .. فأنت تحشى الله سبحانه وتعالى إذا كنت تؤمن

معنى القيامة

بالآخرة .. فإذا مددت يدك لتسرق فتذكر أنك ملاق الله ، وأنه سيحاسبك فتمتنع عن السرقة ، وإذا أردت أن تأكل حقوق الناس بالباطل ، وتذكرت أنك ستلاقي الله ارتعدت نفسك وابتعدت عن ظلم الناس ، وأكل حقوقهم .

وهكذا كل شيء في الدنيا مادمت على يقين بأنك ستلاقي الله يوم القيامة . فإنك تتبع السلوك الايمانى . خوفا من عذاب الله .. وطمعا في رضاه وجنته .

عين اليقين

هناك علم يقين .. وعين يقين .. العلم الذى تأخذه عن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يكون علم يقين .. لأنه صادر عن الله .. ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال .. فالمؤمن يوقن أن ذلك سيحدث حتما . وكأنه يراه أمامه .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة التكاثر ..

الْهَكَرُ النَّكَارُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ
كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ
﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

معنى القيامة

فإذا كانت عين اليقين هي المشاهدة كما سيحدث في الآخرة عندما نرى جهنم .. فإنه لا بد أن يكون في قلوبنا علم اليقين .. لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قد قال فهي موجودة كأننا نراها .

وأساس السلوك البشرى في الدنيا هو الايمان باليوم الآخر .. فإذا لم يكن إيمانك بهذا اليوم إيمان يقين ، أى لا يدخل إليه الشك أبدا .. تكون قد اهتزت ، ويستطيع هنا أى شيطان أن يدخل إلى قلبك ليوهمك أن كل حديث عن الغيب هو غير صحيح ، أو غير واقع ، وحينئذ يتغير السلوك الايماني كله .

فمادام ليس هناك حساب فمن تخشى ؟ .. ومن تخاف ؟ .. ومن الذى يرفع يدك عن ضعيف تغتصب حقه إلا إيمانك بالآخرة والحساب .. ومن الذى يوقفك عن أن تأكل أموال الناس بالباطل ، وتبغى في الأرض ، وتغرك قوتك .. من الذى يقول لك : قف مكانك .. هو الايمان بالآخرة ، لأنك في هذه الحالة ستحس بأن كل عمل تعمله مكتوب عليك .. وانك إذا كنت قويا جبارا في الأرض فستكون ضعيفا ذليلا في الآخرة ، لا ناصر لك ، ولا معين أمام الله .

إذن لولا الايمان بالآخرة لتحولت الدنيا كلها إلى مجموعة من الوحوش .. الضعيف يفتك بالقوى .. ويعتدى القادر على غير القادر .. يضيع الحق .. والعجيب أن المؤمن والكافر يخشيان حساب الآخرة .. ولعل التساؤل يكون كيف لإنسان لا يؤمن

معنى القيامة

بالآخرة أن يخشاها ..

الكافر حقيقة لا يؤمن بالآخرة .. ولكن الموت الذى يراه كل يوم فى حياة غيره يملاً حياته هو بالرعب والفرع ، وينغص عليه عيشته ، وهو يرى الموت كل يوم فى حياة ألوف غيره .. بل فى حياة أقرب الناس إليه ، والسؤال يلح عليه دائماً : إلى أين ؟ .. إلى أين ؟ يحاول أن يأتى بالدليل تلو الدليل ولو زيفاً .. ولو تضليلاً .. يحاول أن يقنع نفسه أن لا شىء بعد الموت ، حتى يستطيع بهذه الفرية أن يهون على نفسه ارتكاب المعاصى .. وهو يبرر لنفسه دائماً ما يفعله .. السارق يقنع نفسه بأنه يأخذ حقه من المجتمع بيده .. والمعتدى على حقوق الآخرين يبرر ذلك بأن هذا هو حقه .. والمهم أن الايمان الفطرى فى كل نفس يؤرق صاحبها ، ويحاول أن يجد تبريراً لكل المعاصى التى يرتكبها .. ما من حاكم ظالم إلا أقنع نفسه بأنه مصلح اجتماعى .. وما من آخذ للمال الحرام إلا زين لنفسه أن هذا جهده وماله .

منهج الحياة

نبدأ بعد ذلك فى بيان منهج الحياة ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى أعد هذا المنهج لاسعاد البشر فى الأرض .. وكيف أن البشر أفسدوه بأهوائهم ومخاوفهم ممن هم دون الله .. الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال قدرته وحده .. فلا أحد يستطيع أن يقول أو يدعى مهما بلغ من القدرة والقوة انه شارك الله سبحانه وتنزه وتعالى فى

معنى القيامة

الخلق .. ففضية الخلق بالنسبة لله وحده هي قضية محسومة لا جدال فيها .. فالله خلق السموات والأرض والجبال والبحار والأنهار والزرع والنبات والحيوان والانسان والجن والملائكة .. والله أخبرنا أنه هو الذى خلق ولم يستطع ولن يستطيع أى ممن خلق الله أن يدعى أنه خلق هذا الكون .. ومن هنا فالقضية محسومة لله سبحانه وتعالى وحده .

وسخر الله سبحانه وتعالى كل ما فى الكون لخدمة الانسان .. فالشمس تشرق لتحفظ الحياة فى الكون .. وهى أقوى من الانسان ملايين المرات .. ولو اقتربت من الكون بضعة كيلو مترات لاحترق الكون كله .. ولو ابتعدت عن الكون بضعة كيلو مترات لتجمد الكون كله .. ولكنها مسخرة من الله سبحانه وتعالى لتخدم الانسان .. والرياح تعطى الانسان الهواء اللازم لحياته .. ولو ذهبت ما بقيت الحياة .. ولو استخدمت قوتها لدمرت الكون كله .. كذلك البحار تستطيع أن تغرق الأرض فى ثوان معدودة . ولكنها مسخرة لخدمة الانسان .

إذن كل قوى الكون ، بما فيها من جماد ونبات وحيوان ، مسخرة لخدمة الانسان .. وهذا التسخير ليس ذاتيا .. لأن الشمس لا تستطيع أن تقول أنا سأشرق اليوم واحتجب غدا .. لأنها مسخرة بأمر ربها لا تملك الاختيار .

ارتقاء الأجناس

كل جنس من أجناس الكون هو مخلوق من الله سبحانه وتعالى بذاتية معينة وقوانين محددة . وفيه إرتقاعات . . ولكن لا يستطيع أى جنس أن يرتقى إلى صفات الجنس الآخر . . وإنما يقف عند حدود هذه الصفات . . فالجماد آخر إرتقاعاته هو النمو . وهذه أولى خصائص النبات . . فنجد الشعب المرجانية لها خاصية النمو ، ولكنها تقف عند ذلك . . ولا تصل إلى خاصية التنفس مثلا الموجودة في النبات . . فالنبات له خاصية النمو والتنفس وإعطاء الثمار . . ويصل إلى أول مرتبة من مراتب الحيوان وهي الحس . . فتجد عددا من النباتات إذا لمستها انفعلت لك - كالست المستحية - كما يطلقون عليها إذا لمستها ضمت أوراقها . . وبعض النباتات النادرة في الغابات الاستوائية إذا لمسها الانسان أمسكت به ، ولكنها لا تستطيع أن ترقى إلى خاصية الحيوان . . وهي الحركة التي هي أولى مراتب الحيوان . . والحيوان يملك الحركة والحس ، وله خواصه .

وأعلى مراتب الحيوان هي القردة . أولئك أقرب الأجناس الحيوانية إلى الانسان ، ولكنها لا تستطيع أن تصل إلى مرتبة العقل . . فلم نسمع عن مجموعة من القردة عقدت اجتماعا لتبحث كيف ترتقى بحياتها . . ولم نسمع عن أى نوع من الحيوان يستطيع أن يرث الحضارة عن بنى جنسه ويرتقى بها ليضع التقدم في حياته . . قد يستطيع الانسان أن يدرب حيوانا على عدد من الأعمال ، ولكن هذا

معنى القيامة

تدريب فردى بموهبة الانسان .. فلا يستطيع قرد مدرب أن يدرب ابنه ، ولا يولد قرد مدرب يرث صفات أبيه التي اكتسبها بالتدريب .

والانسان هو خليفة الله في الأرض . أعطاه العقل ليميز بين الأشياء ويرث الحضارات .. ويبدأ كل جيل بما انتهى إليه الجيل الذي قبله ويضيف إليه ، والعقل البشرى يستطيع أن يرث الحضارة ويبدأ من حيث انتهى الذين سبقوه ، ويضيف إليها .. وهذه ميزة الانسان وحده .

والله سبحانه وتعالى خلق الانسان ، وسخر له هذا الكون كله ، وجعل في الكون آيات بينات يستطيع العقل البشرى أن يصل إليها بسهولة .. فكل ما في الكون من خلق واعجاز هو آية من آيات الله تلفتنا إلى عظمة الخالق وقدرته .. ونحن حين نتدبر هذا الكون بنظامه الدقيق الذي لا يختل ثانية واحدة .. وبعظمة الخلق فيه .. وبالنعمة التي تملؤه ، نجد اننا نصل إلى حقيقة هامة .. وهي انه لا بد أن يكون لهذا الكون خالق .. قوة هائلة خارقة معجزة هي التي صنعت لنا كل هذا .. فنحن لم نصنعه لأنفسنا .

الجسد .. والارادة

حين نتدبر في خلقنا .. وفي الجسد البشرى الذي تعمل معظم أعضائه بدون إرادتنا وبدون سيطرتنا عليها .. وبدون حتى إحساسنا

معنى القيامة

بعملها .. نحس أنه لا بد أنها تعمل بإرادة خالقنا .. فالقلب يدق ، ونحن لا ندرى به ، وهو غير خاضع لنا .. فالقلب ينبض بدون إرادتنا وبدون أن نحس به ، ولا نستطيع أن نقول له : توقف عن النبض فيتوقف .. ولا أن نعطيه ساعات لا ينبض فيها ليستريح .. والرئتان تقومان بعملهما في تنقية الدم ، وإخراج الهواء الفاسد ، واستقبال الهواء النقي ، ونحن لا ندرى عن هذا شيئا ، ولا نستطيع أن نصدر أمرا إلى الهواء بألا يدخل ، أو إلى الرئتين لتتوقفا عن العمل ، بل اننا حينما نصل إلى المعلومات الدقيقة عما يحدث في الرئتين نذهل مما يحدث في أجسادنا ، ونحن لا ندرى .. وكذلك المعدة والكبد والأمعاء .. كلها تؤدي وظائفها بدون تدخل منا ، أو خضوع لإرادتنا .

والحواس عندنا تقول لنا : هذا حلو المذاق ، وهذا مر .. وهذا بارد ، وهذا حار ، وتؤدي ملايين المهمات بدون أن نعرف عنها شيئا ، وان كنا نستفيد بها .

بل إن الأشياء الظاهرة التي تخضع لقدراتنا هي مسخرة لخدمتنا من الله سبحانه وتعالى .. فالقدم تمشي بأمر صاحبها ظاهريا .. ولكنها في الحقيقة تتحرك بأمر الله .. ولو كان تحركها من ذاتنا ما وجد من له قدمان ولا يستطيع أن يمشى ، لأنه مشلول ، والعين تبصر بأمر الله ، وان كانت تخضع لنا ظاهريا .. ولو كانت تبصر بقوة ذاتية منا ما وجد من له عينان ولا يبصر .. وكذلك كل الحواس الأخرى .

معنى القيامة

إذن فنحن نستخدم عقولنا لتوصلنا إلى أن لهذا الكون ولنا خالقا
أوجد كل هذه النعم وأوجدنا .. ولكن هذه العقول لا تقول لنا شيئا
عن الخالق .. ولا ماهو اسمه .. ولا ماذا نفعل لنشكره على نعمه
علينا .. ولا ما هي مراداته منا .. ومن هنا كان لابد ، لكي يكتمل
المنهج ، أن يرسل الله سبحانه وتعالى الرسل ليبينوا لنا ماذا يريد الله
منا .. وكيف نشكره على نعمه .. ولذلك جاءت الرسل مبلغة عن
الله لتقول لنا : إن خالق هذا الكون هو الله .. وانه قد أعد لنا جنة
عرضها السموات والأرض ، ينعم فيها من أطاعه .. ونارا يعذب
فيها من عصاه .. وان الله سبحانه وتعالى قد وضع منهجا للانسان في
الحياة .. وهذا هو المنهج .

ولم يكن الله سبحانه وتعالى ، رحمة بنا ، ليضع لنا المنهج ، ثم
يتركنا لنطبقه كل حسبما يرى .. ونفسره كل على قدر اجتهاداته .
ولذلك اختار رسله من البشر .. من جنسنا حتى لا نقول : يارب إن
هذا المنهج يعجز عنه البشر .. فلو أن الله أرسل ملكا رسولا ،
أو خلقنا من غير جنس الانسان ، لقلنا : يارب لا نستطيع لأن هذا
الرسول ليس من جنسنا .. إنه يملك قدرات أكبر .. ولكن كون
الرسول بشرا أعطانا التطبيق العملي لمنهج الله بقدره البشر .. تطبيق
الرسالة محروس بمنهج السماء .. يرينا كيف يريد الله سبحانه وتعالى
أن يطبق منهجه في الأرض ، وحتى يكون التطبيق أمامنا عمليا .
ولقد أوكل الله سبحانه وتعالى للانسان أن يحافظ على المنهج ..
ولكن الناس حرفوا منهج الله .. فأدخلوا فيه أشياء لم يطلبها ، ولكنها

معنى القيامة

تخدم أهواءهم البشرية ، وحرفوه وأضافوا إليه . . لذلك جاء القرآن الكريم ، منهج الله وخاتم الرسالات ، ليكون محفوظا بقدرة الله ، لا بقدرات البشر . . فلا يدخل إلى القرآن تغيير وتبديل بشرى . . ولا ينسى منه حرف ، ولا يضاف إليه حرف . . بل يبقى خالدا إلى يوم القيامة .

معنى منهج الله

ماذا أراد الله سبحانه وتعالى بالمنهج ؟ . . أراد أن يحكم به أهواء النفس . . فكل ما ليس فيه هوى بشرى تركه الله سبحانه وتعالى ليستنبطه الانسان من الكون بدون أن يتدخل فيه منهج الله بأفعل ولا تفعل . . فالعلوم الصماء التي مكانها المعمل لا يتدخل فيها منهج الله إلا أن يحيطها بقيم أخلاقية . . فهذه لا خلاف عليها بين البشر . . فعلوم الكيمياء مثلا أو الطبيعة أو الفلك أو غيرها . . نجد العالم كله فيها يتعاون مع بعضه البعض . . بل ان كل دولة تحاول أن تتجسس على الدولة المتقدمة في العلوم لتأخذ منها . . والجميع يتنافس في الوصول إلى أكبر درجات العلم المادى . . وهنا لا تتدخل الأهواء ، لأنه مادامت التجارب معملية ، فإن الأهواء لا يمكن أن تتدخل فيها .

ولكن هناك أمور الحياة ، والتي يتدخل فيها هوى النفس . . فبينما

معنى القيامة

مثلا نرى أمريكا والاتحاد السوفيتي يتسابقان إلى نقل العلوم عن بعضهما البعض .. نجد أننا إذا وصلنا إلى نظريات الحكم .. فكل دولة منها تحاول أن تمنع نظريات الدولة الأخرى من الوصول إليها .. فأمريكا إذا وجدت فكرا شيوعيا قاومته .. ووضعت من يعتنقونه في السجون ، وربما حكمت عليهم بالموت .. والاتحاد السوفيتي إذا وجد من يدعو إلى النظام الرأسمالي شنقه ! .. وهكذا نجد أن الصراع في الدنيا ليس على الحقائق العلمية .. فكل دولة تعطى علماءها الحرية كاملة مهما كانوا ليسعوا لكشف آيات الله في الكون .. ولكن عندما يدخل هوى النفس ، يبدأ الصراع البشرى حتى بين أبناء الوطن الواحد .. وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة وتقوم الحروب الأهلية ، ويقتل الناس بعضهم البعض ، ويحدث الفساد في الأرض من قتل وتخريب وتدمير .. وكم من صراعات تدور الآن في دول العالم كله بين أهواء الانسان .. وكم من حروب أهلية تشتعل بين اليسار واليمين . وبين الشيوعية والرأسمالية .. وبين الأهواء التي يريد كل انسان أن يحققها ليسود ويحكم .. كل هذه الصراعات التي تدمر ولا تعمر .. والتي تريد أن تحقق نفعا ذاتيا لعدد من الأشخاص على حساب غيرهم ، هي آفة الشقاء في الدنيا .

ولذلك جاء منهج الله .. يحمي الحق .. ويعطي كل انسان حقوقه بلا تمييز .. الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يضع منهجا عادلا بين خلقه جميعا .. فهو خالقهم ، وهم جميعا عبيد له .. وهو سبحانه وتعالى لا يجازي أحدا على أحد .. ولا يميز شخصا

معنى القيامة

على شخص .. لأنهم جميعا أمامه خلق متساوون .. وهو لا يطمع فيما فى أيدي أى منهم .. فهو لا يطمع فى مال أحد ، لأنه لا يحتاج إلى المال .. ولا يطمع فى قوة أحد ، لأنه هو القوى العزيز .. ولا يطمع فيما يملكه أحد ، لأنه هو خالق هذا الكون ، وموجد كل هذه النعم .. يعطيها لمن يشاء ، وينزعها ممن يشاء .. والانسان حين يضع منهجا إنما يضعه لخدمة مصالحه .. الرأسمالى يضع المنهج الذى يخدم حقوق أصحاب الأموال ، ويعطيهم وحدهم الميزات .. والشيوخى يضع ما يخدم اللجنة المركزية ، ويعطيها كل السلطات .. والدكتاتور يضع منهجا يعطيه وحده كل الحقوق ولا حق لغيره .. ولكن الله سبحانه وتعالى يضع المنهج الذى يحقق العدالة بين الناس جميعا ، لأنه غنى عن كل خلقه .

إذن فمنهج السماء هو الذى يحقق العدل على الأرض .. ولا شىء غيره .. وكل ما يقال عن فصل الدين عن الدولة .. أو فصل الدين عن نشاطات الحياة مرفوض .. لأن كل هذه النشاطات ، بما فيها الحكم ، تدخل فيها الأهواء .. ويظلم فيها الناس .. وتحدث منها الصراعات .. ولذلك فإنه لا بد أن يحكمها قانون إلهى هو فوق هذه الصراعات كلها .. يحمى حق الضعيف قبل القوى .. ويحفظ حق المظلوم قبل الظالم .. ويضع قواعد العدل بين الناس .

وحتى لا تقتل الصراعات البشر على مطامع الدنيا وأهوائها .. بين الله سبحانه وتعالى أن هذه الحياة الدنيا هى حياة مؤقتة . مهما طال

معنى القيامة

فيها العمر فإنه قصير . . ومهما امتدت فيها الأيام فإنه لا بد لها من نهاية . . وطلب منا الله ألا نجعل هوى النفس ، وشهوة النفوذ ، وسلطان المال . . وحب التملك يقضى علينا . . ويهلك الناس ، ويهلك الزرع ، ويهلك الخير . . يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنفال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(الأنفال (٢٤)

وهنا قد يتساءل بعض الناس عن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ والرسول يدعو للآخرة وللجنة ، فهل هذه الدنيا ليست هي الحياة . . نقول إن الله سبحانه وتعالى يريد للانسان الحياة الخالدة في جنة النعيم ولا يريد أن يتخذ من الدنيا هدفا . . لأن الحياة الدنيا تقوم على الأسباب ، ولذلك يعانى فيها الانسان . . في حين أن الحياة الآخرة نعيم مباشر من الله سبحانه وتعالى بلا أسباب . . والحياة الدنيا قصيرة وزائلة ، وهى امتحان للانسان واختبار لطاعته لله سبحانه وتعالى . . لذلك لا يريد الله سبحانه وتعالى من خلقه أن يكون هدفهم هو الحياة الدنيا . . وأن ينسوا الآخرة . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن كل ما فى الدنيا زائل . . وأن الانسان مهما علا فيها ومهما بلغ ، فهو إما أن تزول عنه النعمة . . تنزع منه . . وإما أن يزول هو عن النعمة بالموت . .

معنى القيامة

ولذلك فإن الحياة الحقيقية التي فيها الخلود .. والتي فيها النعيم الدائم هي الحياة الآخرة التي لا بد أن نلتفت إليها .. لأنها هي الحياة الحقيقية التي لا تزول .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

العنكبوت (٦٤)

ولذلك يريد الله أن يلفتنا إلى حياتنا الحقيقية ، وليس إلى الحياة المؤقتة التي نعيشها في الدنيا .. فإذا طبقنا منهج الله في الدنيا ، حصلنا على الحياة المليئة بنعم الله في الآخرة .

وليس معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نترك الحياة الدنيا للكافرين .. إن هذا خطأ كبير يقع فيه عدد من الناس .. والذي حدث في الفترة الأخيرة أن المسلمين تركوا الأخذ بأسباب الدنيا ، والعمل على اكتشاف آيات الله في الأرض ، وركنوا إلى عدم العمل ، وإلى خلافات ونزاعات لا تفيد ولا تجدى .. وأقصى أمنية للكافر أن يترك المؤمنون شئون الدنيا والعمل فيها ويقتصروا على العبادات فقط .. وتزول عنهم قوتهم ولا تعطيهـم الأسباب ، ويصبحوا فقراء اذلاء ضعفاء لا يقدرـون على حماية أنفسهم ، ولا يحققون من القوة والقدرة ما يجعلهم يسودون الأرض .

وإذا فعلنا ذلك .. فإننا تكون قد أخطأنا في فهم الاسلام .. ذلك أن الاسلام يسيطر على حركة الحياة كلها في البيت والمصنع

معنى القيامة

والطريق والعمل .. وتأملوا قول الله سبحانه وتعالى في سورة الجمعة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الجمعة (٩ - ١٠)

ويلاحظ في هذه الآية أن الأمر بالسعى في الأرض مساو تماما للأوامر بالعبادة .. فلا يترك المسلمون السعى ويدعون أن الله قد أمر بالعبادة فقط .. فمنهج الاسلام يطالبنا أن نأخذ بالأسباب ، وتجتهد في العمل ، ونسعى في الأرض بنفس القوة التي نأخذ بها العبادات .

ولقد جاء التشكيك في الدين الاسلامي في الفترة الأخيرة من أن المسلمين تركوا السعى في الأرض فتأخروا وتخلفوا .. ثم بدأوا بعد ذلك يتساءلون : ما هو السبب .. وهنا برز دور الكفار في محاولة لإقناع الشباب المسلم بأن سبب تخلفهم يكمن في الدين الاسلامي وبدأ بعض الشباب يستمعون إليهم .

ولقد ساد الاسلام الأرض ألف سنة كانت فيها الأمة الاسلامية هي منارة التقدم والعلم والحضارة .. حتى حينها أهدى هارون

معنى القيامة

الرشيد ساعة تعمل بالمياه إلى ملك فرنسا .. أعتقد علماء فرنسا أن هناك شيطاناً داخل الساعة يحركها .

ما هو العمل .. للأخرة ؟

إذا كان الدين الاسلامي يطالبنا بالعمل من أجل الآخرة ، فليست الصلاة وحدها هي العمل من أجل الآخرة .. ولكن السعى في الأرض هو عمل من أجل الآخرة .. وهو جهاد في سبيل الله .. والعمل في الاسلام عبادة .. وسعى الانسان على رزقه ورزق أولاده هو نوع من الجهاد حث عليه الاسلام .. بل إن الله أمرنا بأن نتحرك في الأرض ليس على قدر ما نحتاج فقط ، ولكن بما يزيد على حاجتنا .. وذلك حتى تتسع حركتنا للفقير والمحتاج والضعيف الذي لا يقدر على الكسب .. والصغير الذي يحتاج لمن يعوله ، ولذلك فرضت الزكاة .. ولذلك حث القرآن على الصدقة والانفاق حتى لا يوجد في المجتمع الاسلامي فقير ولا عاجز عن الكسب إلا ويأتيه من عمل غيره ما يكفيه . وبهذه الطريقة عالج الاسلام الفقر .

لذلك يجب ألا نأخذ الدين على أنه في المسجد فقط .. أو إنه صلاة فقط .. لأن الدين الاسلامي يشمل حركة الحياة كلها .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَأَنَّهُ رَئِيْفٌ يُخْشَرُونَ﴾

الأنفال (٢٤)

معنى القيامة

أى اعلّموا أن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يحول بينكم وبين ما تشتهي قلوبكم إذا اتخذتم طريق المعصية سبيلا . فلا تعتقدوا أنكم بمعصية الله تستطيعون أن تصلوا إلى ما تريدون . . بل إن الله سبحانه وتعالى قد يحول بينكم وبين ما تريدون ، فلا تحققوا شيئا مما تتمنون . . وتكون النتيجة أنكم خسرتم الدنيا والآخرة . . ولعل هذا ما نراه كل يوم حولنا . . فكم من إنسان أغضب الله ليرضى صاحب نفوذ ، أو صاحب سلطان ، أو ليصل إلى منصب أو جاه أو مال . . ثم انقلب عليه صاحب السلطان هذا فبطش به . . أو لم يستطع أن يصل إلى المنصب أو الجاه أو المال إلا بالمعصية . . بل ارتكبها ولم تحقق له شيئا . . وإذا نظرت حولك فستجد الكثيرين ممن حاولوا أن يحققوا هدفا دنيويا بمعصية الله . . وشاءت إرادة الله أن ينقلب عليهم ما فعلوه وبالا . . وكم من إنسان ارتكب المعصية ، وأصبح في قمة النفوذ والمال والسلطان . . وبعد يوم وليلة تغير كل شيء حتى لم يجد ما يكفيه أو يستره . .

إذن فمنهج الله جاء ليحكم حركة الحياة في الأرض ، ويقىم العدل بين الناس . . ومع المنهج جاء التحذير بأن من يريد الحياة الحقيقية فليرع الله في الدنيا ليصل إلى الحياة الخالدة في الآخرة منعا مكرما . . وإذا سيطر منهج الله على الحياة في الكون اعتدلت وامتألت الدنيا خيرا ، مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿

الاعراف (٩٦)

ولو تصادمت الأهواء وتصارعت وبعدت عن منهج الله .. لانتشر الشقاء والخراب في الأرض .. ومن العجيب أننا نجد كثيرا من الناس ، بل والدول تنفق ما أعطاه الله من خير على الأهواء والصراعات .. ليضيع الخير كله ، وينقلب شرا ووبالا على الجميع .

وحين يتعد الناس عن منهج الله ويتبعون أهواءهم ، وتفسد الحياة في الأرض ، وتنسى تعليم الله .. يستدعى الله خلقه سبحانه وتعالى إلى يوم الحساب ليريهم الحق والحقيقة . وليعلموا علم اليقين ما هو الزيف وما هو الحق .. حين تصطدم حركة الحياة وتضيع الحقائق ويحكم الزيف .. والله يريد خلافة مستقرة في الأرض ، حينئذ من الطبيعي أن نعود إلى الله سبحانه وتعالى .

وخلاصة الأمر أن الناس ينسلخون من دينهم ، ويتبعون أهواءهم ولم يعد الدين حاكما لتصرفات البشر ، ولا لحركة الحياة .. حينئذ تقوم الساعة .

هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى أن يستنفد العقل البشري فكره .. ويستنفد تجربته .. ويستنفد طموحاته في اكتشاف أسرار الحياة كلها .. وحين يفتر الانسان بالعلم الذي وصل إليه ، وبالامكانات التي حققها أو التكنولوجيا التي يقولون عنها .. حين

ر معنى القيامة

يصل غرور العقل البشرى بأنه هو الذى يتصرف فى الحياة وفق ما يريد . . وينسى الناس الله ، وقدرة الله ، ويعتقدون أن الدنيا قد خضعت لهم بعقولهم هم . . حينئذ يستدعيهم الله سبحانه وتعالى إليه . . ليعلموا أن القوة والقدرة لله وحده . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَّالِيًا أَوْ نَهَارًا ﴾

يونس (٢٤)

أسماء يوم القيامة

القرآن سمي يوم القيامة يوم الدين . . وسماه يوم الوعيد . . وسماه يوم الفصل . . وسماه الصاخة . . وسماه الوعد الحق . . وسماه الواقعة . . وسماه الساعة . . وسماه يوم الأزفة . . وأطلق عليه مسميات أخرى . . وكل هذه مسميات لمظاهر هذا اليوم ، وما سيحدث فيه . . ما هو اليوم الآخر ؟ . . هو انتهاء أمد الدنيا . . وابتداء أمد الآخرة . . وآخر يوم من أيام الدنيا ولذلك سماه الله اليوم الآخر . . وليس معنى ذلك أننا سنتنظر إلى آخر أيام الدنيا أو انقضاء عمرها لنرى لمحات مما سيحدث فى الآخرة . . بل إن كل إنسان فىنا إذا كانت آخر أيامه من الدنيا يرى مقدمات الغيب . . بل إنه يرى

معنى القيامة

هذه المقدمات وهو محتضر . . وهذا ما سنعرض إليه في الفصول القادمة . . ولكن الذى أريد أن أقوله : إن لكل مرحلة من مراحل الحياة قوانينها . . فحياة اليقظة فى الكون لها قوانينها . . وحياة النوم فى الكون لها قوانينها . . وحياة البرزخ ، وهى ما بعد الموت إلى يوم القيامة لها قوانينها . . وحياة الخلود فى الآخرة لها قوانينها . . وكل قانون مختلف تماما فى كل مرحلة . . كما ستحدث عن هذا تفصيلا .
ويوم القيامة هو اليوم الذى يفصل فيه بين الناس . . فلا يوجد عمل فى الآخرة . . ولكن يوجد فصل فيما فعله الناس فى دنياهم .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

الزلزلة (٧ - ٨)

ولا يحسب الانسان أنه مهما سيتقبل منه عمل فى يوم القيامة . . بل إن عمل الانسان ينقطع من ساعة الاحتضار . . فليس هناك عمل فى حياة البرزخ ، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَهِسُوا مِنْ

الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

المتحنة (١٣)

أى أن الذين ماتوا وهم كفار لا يقبل لهم عمل بعد الموت . ويوم الفصل معناه أنه لا بد أن يحشر الناس جميعا ليفصل بينهم . . ولقد

معنى القيامة

استخدم الله سبحانه وتعالى يوم الجمع ، ويوم الحشر في وصف يوم القيامة . . . وبعض الناس يعتقد أن هذه مترادفات لفظية . . . ولكن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى . . . الذى لكل لفظ فيه وحرف فيه معنى دقيق . . . ينبهنا إلى شىء جديد . . . فيوم الجمع أن يجمع الناس جميعا في صعيد واحد . . . ولكن يوم الحشر مختلف تماما . . . فكلمة الحشر يريد الله أن يعطينا بها إحساسا بضيق المكان . . . ذلك أنك عندما تحشر شيئا فإنك في العادة تحاول أن تدخل شيئا كبيرا في مكان ضيق .

وإذا أردنا أن نقرب هذه الصورة إلى الأذهان . . . فإننا نقول : تصور أى مكان من يوم أن خلق الله الأرض ومن عليها . . . وتصور أنك أحصيت الخلق الذين تواردوا على هذا المكان ستجد أنهم عدد كبير جدا . . . تصور بيتا كان فيه رجل وامرأة تزوجا وأنجبا أولادا . . . والأولاد كبروا وتزوجوا وأنجبوا أولادا . . . أى البيت الذى كان فيه اثنان واسع عليهما جدا . . . فإذا بلغوا مائة أصبح المكان يضيق بهم . . . فإذا بلغوا ألفا أصبحوا محشورين في هذا المكان . . . والله سبحانه وتعالى سيبعث الناس مرة واحدة ، وليس تباعا كما خلقهم . . . وإذا أحصيت عدد من سكنوا بلدا من البلاد من أول منشآت الحياة ، وأحصيت الذين ولدوا على أرض هذا البلد . . . ثم ماتوا ودفنوا فيه من أول الخلق إلى يوم القيامة . . . ثم بعثوا مرة واحدة . . . ما هو الموقف ؟ . . . إذن فالحيز سيصبح محشورا بالناس ، لأن الحياة التى نثرت في هذا المكان في أزمان مختلفة عادت لأصحابها

معنى القيامة

مرة واحدة .

كأن الناس سيحشرون حشرا مع بعضهم البعض يوم القيامة . .
رقعة الأرض التي ضاقت بالأحياء الذين عمروها في أزمان مختلفة
سيحشر الناس فيها حشرا يوم القيامة . . كان قول الله سبحانه
وتعالى . .

﴿ ذَلِكِ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾

هود (١٠٣)

يعطينا معنى الجمع . . ولكنه لا يعطينا صورة هذا الجمع ، فيأتي
يوم الحشر ليوضح الصورة الرهيبة التي سيكون عليها الناس يوم
القيامة

ومن مظاهر هذا اليوم ، كما وصفه الله سبحانه وتعالى ، انه يوم
الدين . . أى أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على منهجه ، وهل
اتبعوه أم خالفوه . . أم نسوه . . أى أن هذا يوم لا ينفع الانسان
إلا دينه .

وهو يوم التناد . . يوم نخرج جميعا كل واحد منا ينادى الله . .
وهو يوم الأزفة . . أى يأزف علينا فجأة . . وهو يوم القيامة الذى فيه
نقوم من قبورنا . . وهو يوم الجزاء ، أى يوم يعلن فيه نتيجة
الامتحان الذى مر به الانسان فى الحياة الدنيا . . ولا ينفع فيه
إلا اجتهاده فى طاعة الله فى الدنيا .

معنى القيامة

وهو يوم الصاخة .. التي تصخ الأسماع .. ويوم الطامة التي
تطم الجميع .. ويوم القارعة .. التي تفرع الأذان فتنبهها من نومها
العميق ويقوم الناس لرب العالمين .

وهكذا نرى أن كل اسم من أسماء يوم القيامة .. إنما يمثل ظاهرة
من أسماء هذا اليوم .

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى ختام الفصل الأول .. وقبل أن
نتحدث عن علامات الساعة ، الذي تحقق منها ، والذي لم
يتحقق .. لابد لنا من وقفة نتحدث فيها عن : لماذا وصف الله
سبحانه وتعالى يوم القيامة بأنه يوم ، مع أن الله لا زمن عنده ..
وما معنى هذا الوصف ؟ .. كما نتحدث عن انتقال الانسان من آخر
مراحل الدنيا إلى حياة البرزخ التي يبقى فيها حتى يوم البعث ..
أوحتى يأتي يومالحساب .

وسنبدا الحديث في الفصل القادم عن الانتقال بين الموت
والحياة ..

الفصل الثاني

نهاية الحياة

نهاية الحياة

الله سبحانه وتعالى خلق الانسان من عناصر الأرض .. والتحليل العلمى فى الفترة الأخيرة أثبت أن جسد الانسان يحتوى على ثمانية عشر عنصرا ، هى العناصر الموجودة فى الأرض .. وهكذا توصل العلم أخيرا إلى ما كشف عنه القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا ، ثم نفخ الله سبحانه وتعالى من روحه فدبت الحياة فى ذلك الجسد المخلوق من طين .. وتم خلق آدم ، ثم خلق الله حواء من آدم أو من ضلع منه ، وذلك تعرضنا له بالتفصيل فى الجزء الثامن من معجزة القرآن الذى صدر فى العام الماضى .
يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾

(ص - ٧٢)

ويقول تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(الاحزاب - ٧٢)

وهكذا فإن الانسان روحا ، وكانت مهمته أن حمله الله الأمانة فى الأرض .. فما الروح ؟ .. وما الأمانة ؟

الروح هى أمر من أمور الله .. وكل البحوث التى تجرى عن

نهاية الحياة

الروح هي مجرد عبث . . والبحث عن الروح يشغل الانسان منذ بداية الحياة . . ذلك أنه سر الحياة الذي عجز البشر عن الوصول إليه عبر السنين . . ورغم أن الروح لا تدخل في طاقة البحث العلمي فإن الانسان مازال يحاول أن يعرف عنها شيئاً .

وقد قام عالم سويسرى فى الفترة الأخيرة بتجربة وضع فيها الانسان عندما يحتضر على ميزان . . ووجد أنه فى لحظة الوفاة يفقد جزءا يسيرا من وزنه . . فادعى أن هذا الوزن هو وزن الروح . . والبعض الآخر أنكر أن لها وزنا . . والكافرون ينكرون وجود الروح . ويسموننا الزمن أو الطبيعة . . وحيرة البشرية كلها سجلها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الاسراء - ٨٥)

وهناك الروح ، وهناك النفس . . النفس هى التقاء الروح بالمادة أو امتزاج الروح بالمادة . . هذه هى النفس . . والتكيف من الله سبحانه وتعالى أو الأمانة التى حملها الانسان هى للنفس البشرية . . أى فترة الحياة الدنيا التى تلتقى فيها الروح بالجسد . . والله لا يكلف الروح وحدها شيئاً . . قبل أن تدخل إلى الجسد ، أو بعد أن تخرج منه . . والله لا يكلف الجسد شيئاً إذا خرجت منه الروح . . ولكن التكليف حين تلتقى الروح بالمادة فى الحياة الأرضية .

نهاية الحياة

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾

(الشمس - ٧ - ١٠)

أى أن الله سبحانه وتعالى بين طريق الايمان ، وطريق المعصية للنفس البشرية . . فيبين لها ما يجب أن تفعل وما لا تفعل . . وأوضح لها الخطأ والصواب . . والتكليف الالهي هو في فترة الحياة وحدها مصداقا لقول الله جل جلاله :

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(يس - ٦٩ - ٧٠)

أى أن القرآن نزل للأحياء ليعملوا به في فترة حياتهم الأرضية . .

ما هي الروح ؟

إذا أردنا أن نفهم كلمة الروح . . فإنها ذلك السر الالهي الذي يهب الحياة للمادة . . أو الذي تحيا به المادة . . أو هو إرادة الله لها أن تحيا . . فإذا سلب الله هذه الارادة انتهت الحياة بشكلها الدنيوى . . ولذلك يصور رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياة الدنيا

نهاية الحياة

كانها فترة قصيرة من الوقت في رحلة الحياة الكبرى . . يقضيها المسافر تحت ظل شجرة ، ثم يرحل . . فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (مالى والدنيا؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم رحل وتركها) .

وحينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هى الروح . . ومم تتكون؟ وكيف تهب الحياة للجسد؟ ثم تذهبها عنه . . وهنا قال الله سبحانه :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

(سورة الاسراء - الآية ٨٥)

أى أن الروح سر من أسرار الله سيظل غيبا عنا إلى يوم القيامة . . والله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى أن علمنا الأرضى الذى نظن أنه كثير لن يصل إلى سر الروح .

بل إن تحدى الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه الروح - وهى تعيش فى جسد بشرى - يعجز صاحب هذا الجسد عن أن يعلم عنها شيئا . . كيف جاءت وكيف خرجت؟ . . وفى أى مكان هى فى الجسم؟ . . هل هى فى القدم التى تمشى ، أم فى القلب الذى ينبض . . أم فى الرئتين اللتين نتنفس بهما . . أم فى العقل الذى يعطى الاشارات كلها للجسم .

نهاية الحياة

كل هذا عجز عن أن يحدده علماء الأرض الذين يجادلون في الله بغير علم .. ويأخذون الرؤية المادية على أساس أنها يقين العلم كله .. أولئك الذين يحاولون ستر وجود الله .. ويعلنون الكفر والالحاد .

الروح في أجسادهم ، وهي معهم في رحلتهم من المهد إلى اللحد .. أو من الميلاد إلى القبر .. ولكن أين هي الروح التي في أجسادهم وأين مكانها .

الجواب طبعا أن أحدا لا يستطيع أن يحدد مكانها .. وتقول لهم : ما هو شكلها ؟ .. فيقفون صامتين بلا جواب .. فتقول لهم : هل هي موجودة ؟ فيقولون : نعم . لأنها تعطينا الحياة .. فتقول لهم : إذا كانت الروح . وهي موجودة وجودا يقينا في أجسادكم ، وفي كل شيء حي . إذا كان هذا المخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى تستطيعون الاحاطة به .. ولكنكم ترون في اثاره أنه يمنح الحياة للجسد .. فكيف تريدون رؤية الله ، وتجاهرون بأن عدم رؤية الله انكار لوجود الله سبحانه وتعالى .

ألا تكفى هذه التجربة التي هي في أجسادكم ، والتي تعيش معكم ، لتبين لكم أنكم تفترون على الله ؟ وكان من الأجدد بكم ، وهذه الآية موجودة في أجسادكم .. أن تسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى الذي وضع فيكم هذا الاعجاز ، وتؤمنوا بوجود الله وبِعَظِيم علمه وقدرته ؟

نهاية الحياة

لماذا أخفى الله سر الروح ؟

لكن لماذا أخفى الله سبحانه وتعالى علم الروح عن البشرية ؟

أولا : لأنه دليل قدرة .. دليل قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يضع في الجسد البشرى ما يهبه الحياة دون أن يستطيع أحد من الناس معرفته .. وعندما نرى هذه القدرة نحس بعناية الله سبحانه وتعالى الذى وضع هذا السر فينا دون أن نستطيع اكتشافه .

وثانيا : أنه دليل وجود بلا رؤية .. فنحن نعرف يقينا أن الروح موجودة في الجسد ، لأنها تعطيه الحياة .. فمادامت الحياة موجودة فالروح موجودة .. فإذا خرجت الروح من الجسد توقفت الحياة ، وهذه بديهية وليست محتاجة إلى دليل .. وإنما هي توضح لنا بشكل يقينى دائم معنى الغيب .. وترد على الذين يقولون إن الغيب غير موجود ، لأنه محجوب عنا .

نقول لهؤلاء : إن الروح محجوبة عنا . فنحن لا نراها ، ولا نعرف شيئا عنها .. ولكنها موجودة ، بدليل أنها تعطينا الحياة .. إذن لا نقول ما هو عيب عنا ليس موجودا .

وهناك دلائل أخرى على أن الغيب موجود .. منها الاكتشافات العلمية التى تتم .. فإننا نرى ميكروبا من الميكروبات ، أو كوكبا من الكواكب ، ويدخل في علمنا البشرى .. فليس معنى ذلك أنه لم يكن

نهاية الحياة

موجودا قبل أن نكتشفه . . بل معناه أنه كان موجودا ثم أتاح لنا الله سبحانه وتعالى قدرات مكنتنا من رؤيته . . ولكنه كان يباشر مهمته في الحياة قبل أن نراه ، أو نعلم بوجوده .

وهكذا كل الاكتشافات العلمية الجديدة هي قوانين الله في الأرض كانت تباشر مهمتها قبل أن نكتشفها . . بل معناه أن الله أراد أن يعلمنا بها . . فالغلاف الجوي لم نضع فيه نحن خاصية حمل الطائرات ، ولا نقل الأصوات والصور للاذاعة والتلفزيون . . ولكن هذه الخصائص كانت موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها . . ولكنها كانت غيبا عنا ، ثم كشفها الله لنا .

ولكن إذا كانت هناك أشياء كثيرة في الكون نستطيع أن نستدل بها على أن ما هو غيب عنا موجود . . فلماذا غيب الله علم الروح عنا ؟ لأن هذه الاكتشافات العلمية محتاجة إلى أن يدرس الناس ويتعلموا حتى يصلوا إلى فهم لها . . ولكن ذلك الذي لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع أن يستوعب مثل هذا العلم . . والله سبحانه وتعالى لا يفرق بين عباده ، بل يساوي بينهم جميعا . . وبما أن وجود الروح في الجسد دليل لا يحتاج إلى تعلم . . بل هو شيء محس يُرى للناس ، كل الناس ويعرفه الجميع . . لذلك بقيت الروح لتكون دليلا للناس كلهم على أن ما هو فوق قدرة العقل . . أو مالا يحيط به العقل موجود . . حتى إذا دخل الشك أي نفس يكفي أن تضرب مثل الروح . . ليعلم الناس جميعا وبدون حاجة إلى تعلم وقراءة . . ان

نهاية الحياة

ما لا يحيط به العقل موجود في الكون .. بذلك يساوى الله بين خلقه في الدليل الايماني .. على أن ما هو غيب عنا ، وما هو فوق قدرة عقولنا ، موجود .

والسبب الثالث أن حقيقة الروح ، سواء علمت بها أو لم تعلم ، لا يفيدك ذلك شيئا في حياتك الدنيا .. فالانتفاع بالروح لا يقضى ولا يقتضى العلم بها .. فهي تعطيك الحياة والقدرة ، سواء علمت بها أو لم تعلم .. وفي ذلك يتساوى الإنسان الذي لم يقرأ سطورا في حياته ، والانسان الذي بلغ مبلغا كبيرا من العلم .. فكلاهما ينتفع بالروح انتفاعا كاملا طوال رحلة حياته .. سواء علم سرها أو جهل ذلك السر .

إذن فأنت تنتفع بالروح التي تعطيك الحياة والحركة ، ولست محتاجا إلى أن تعرف سرها .. فهو بالنسبة لك جهل لا يضر . على أننا يجب أن نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾

(سورة الاسراء - الآية ٨٥)

ماذا تعنى كلمة أمر بي .. القرآن الكريم يبين لنا ذلك فيقول :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

(سورة يس - الآية ٨٢)

إذن أمر الله هو إرادة الله سبحانه وتعالى للشيء أن ينتقل إلى حياة

نهاية الحياة

البشر بكلمة « كن » . . وأن يخرج الشيء من علم القادر . وهو الله سبحانه وتعالى ، إلى علم غير القادر ليباشر مهمته في الحياة .

ما هي مهمة الانسان

نأتى بعد ذلك إلى مهمة الانسان في الكون . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد كرم آدم تكريماً عظيماً . . وجعل الملائكة يسجدون له ، ثم حمله الأمانة .

ما الأمانة ؟ الأمانة هي شيء لا يقوم عليه دليل مادي مكتوب . . فإذا أتيت إلى شخص ، وأعطيته مبلغاً من المال . . وأخذت منه إيصالاً أو شيكاً بالمبلغ لا يكون هذا أمانة ، ولكنه يكون ديناً ، فإذا أعطيته هذا المبلغ وأشهدت عليه الناس ، فلا يكون هذا أمانة ، وإنما يكون ديناً . . ولكن إذا أعطيته مالا أو شيئاً آخر . . وتم ذلك بدون ورقة مكتوبة . . وبدون أن أشهد عليه الناس أكون قد أعطيته أمانة يستطيع أن ينكرها ، وأن يردها في أى وقت شاء دون أن يكون لدى دليل مادي إذا أنكره .

والسلوك بالنسبة للأمانة ينقسم إلى ثلاثة ردود فعل :
رد الفعل الأول : أن يقبل الانسان الأمانة ، ويقول أعطها لى ،
وهى في الحفظ والصون إلى أن تأتى لتطلبها .
ورد الفعل الثانى : هو أن يخاف الانسان من نفسه ويقول : اعفنى

نهاية الحياة

من هذه المهمة فأنا لا أستطيع أن أضمن نفسي ويدي ستمتد إليها لتبدها . . . وحينئذ يكون قد رفض حمل الأمانة .

ورد الفعل الثالث : أن يبدى الانسان استعدادا وتقبلا لتحمل الأمانة . . . فإذا أصيب بضيق مادي ، أو احتاج لشيء ، امتدت يده إليها ليأخذ منها . . . على أساس أنه سيعيد ما أخذ . . . ثم يفاجأ عند مجيء موعد الرد بأنه لا يستطيع أن يرد الأمانة فينكرها . . .

هذا هو المعنى العام للأمانة التي حملها الانسان . . . وهي منهج الله في الأرض وحرية الاختيار في افعال ولا تفعل . . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

(سورة الاحزاب - الآية ٧٢)

وقد أوضح الله سبحانه وتعالى الأمانة بمعناها الواسع في القرآن الكريم . . . فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٢٨٢)

نهاية الحياة

ومعنى ذلك أن الدين هو الذى يقوم عليه صك مكتوب ، أو ورقة مكتوبة .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٢٨٣)

عرض الله على السموات والأرض والجبال وغيرها أن تحمل منهج الله .. وأن يأتمنها الله على هذا المنهج ، ويعطيها الحرية فى أن تفعل ولا تفعل .. وأن تأتى إليه عن اختيار ، وعن حب ، وليس عن قهر .. فإن اتبعت المنهج وفعلت كان لها ثواب عظيم .. وإن خالفت المنهج ولم تفعل بقيت خالدة فى النار .. ولكن كل هذه المخلوقات رفضت أن تحمل الأمانة وقالت : يارب إننا نخاف . ونشفق على أنفسنا . ونخشى ألا نستطيع أن نؤدى أمانة المنهج الذى تريدنا أن نحمله .. ولذلك يارب اجعلنا مقهورين على طاعتك ، غير مختارين أن نعصى .

ولكن الانس والجان قبلوا أن يحملوا هذه الأمانة .. وقالوا : يارب نحن قادرون وسنكون أمناء على المنهج ونطيع ولا نعصى . وعندما بدأت المهمة لم يقدر كثير من الناس على حمل أنفسهم على الطاعة ، وخانوا الأمانة .

ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الإنسان حين حمل الأمانة

نهاية الحياة

بوصفين : بأنه ظلوم ، أى كثير الظلم .. وجهول ، أى أنه عظيم الجهل .. لأن الانسان ظلم نفسه ، فحملها ما لا يقدر الضعف البشرى فى كثير من الأحيان أن يتحملة .. ولأن بنى الانسان يريد أن يتميز كل واحد منهم على غيره .. وأن يغتر بنفسه .. بينما يجب أن تتحدد أهدافهم فى طاعة الله .. لذلك كان الانسان كثير الظلم .. وهو ليس ظالما ، ولكنه ظلوم لأنه يظلم نفسه فيمنعها من نعيم مقيم من أجل متعة مؤقتة تعطيها له معصية .. وظلمها ثانية بأن منعها من الجنة .. ولأنه - وهو يعلم يقينا أنه تارك كل شىء فى الدنيا - يريد أن يملك ويملك .. ويرتكب فى سبيل ذلك معاصى كثيرة .. ولوتنبه فإنه يدرك أنه لا يخرج من الدنيا بشىء إلا ذنوبه .

وكان الانسان جهولا

ولماذا كان الانسان جهولا ، أى عظيم الجهل .. لأنه استهان بعذاب الله .. ذلك العذاب الذى هو محجوب عنا .. ولورأيناه ما نطق لسان بمعصية .. ولا امتدت يد إلى مال حرام ، ولكن لأن هذا العذاب أخفى عنه .. ظن الانسان انه لا علم إلا علمه .. ونسى علم الله الواسع الذى لا تحدّه حدود .. وقدرة الله التى لا تفوقها قدرة .. وهو جهول لأنه بقدر ما أعطاه الله من علم ومن ذكاء .. عبد أشياء لا تنفع ولا تضر .. فعبد الحجر ، وعبد الشمس ، وعبد النار ، وعبد الحيوانات ، وعبد الدنيا .. ولو أنه

نهاية الحياة

.. كان يعقل ولا يجهل .. لعلم أن هذه المخلوقات كلها أدنى منه ..
وأن الله سخرها كلها لخدمته .. فكيف يعبد الأعلى الأدنى؟!
ولأنه جهول عبد الدنيا ، وهو مفارقها .. والخالق لا يفارق
مخلوقه .

مع أن الله سبحانه وتعالى حين حملة الأمانة أعطاه العقل الذي يميز
به .. وجعل هذا العقل أساس الحساب بحيث يتوقف الحساب حين
يتوقف العقل عن أداء العمل .. فالمجنون يسقط عنه التكليف ،
ولا يحاسب .. والطفل الذي لم يبلغ الحلم والنضج العقلي الذي
يجعله يستطيع أن يفرق أو يميز لا يجرى عليه القلم .. فلقد حرم الله
كل ما يعطل العقل ويفسده .

حرم الخمر تحريماً قاطعاً ، لأنها تفسد العقل وتعطله عن أداء
مهمته في الحياة .. وما ينطبق على الخمر ينطبق على المخدرات ، لأن
مقومات الشريعة الإسلامية جاءت للحفاظ على هذا الكنز الإلهي إلى
ميز الله به الإنسان ، وهو العقل .. واختيارات العقل هي التي
تشقى الإنسان وتسعده في الحياة .. وتقوده إلى الجنة أو النار ..
فالغريزة لها انفعال واحد . أما الفعل فأمامه بدائل كثيرة .

فالإنسان مثلاً إذا أذى كلباً فإنه يعضه بلا انفعال آخر .. وكلما
أذى الكلب كان رده على الأذى أن يعض من آذاه .. والحصان مثلاً
يرفس من يؤذيه .. انفعاله له شيء واحد لا يتغير .. ولكن الإنسان
إذا ضربه إنسان آخر فإن أمامه عدة بدائل .. إنه يستطيع أن يرد

نهاية الحياة

الضربة بمثلها أو بأشد منها أو بأقل منها .. أو أن يصفح عمن ضربه ، أو يكتفى بتوبيخه .. هناك بدائل لا حدود لها موجودة عند الانسان وحده .. هذه البدائل يضعها العقل ، وليست الغريزة .

والانسان في كل لحظة من لحظات حياته مطالب بالاختيار .. إذا قمت بهذا العمل فهل أوفق فيه؟ .. وأنا في ضيق مالى أترك وظيفتي وأبدأ عملا حرا؟ .. وإذا أفلست فماذا يحدث؟ هل أبيع السلعة أم أبقياها؟ ربما يرتفع سعرها فأكسب أكثر .. وربما انخفض سعرها فتكون الخسارة كبيرة .

وهكذا يظل الانسان يعانى في كل أحداث الحياة .. وهنا يصطدم المنهج مع ما تريده النفس مع الخوف من الدنيا .. هل أرضى صاحب النفوذ ، وأغضب الله ، لأربح مالا؟ .. هل أشهد الزور وأكذب لأحصل على ترقيه؟ وهنا يكون الصراع بين هوى النفس وبين منهج الله .

والانسان المؤمن تتحد مراداته في الحياة الدنيا مع مرادات منهج الله سبحانه وتعالى منه .. فهو يتبع ما أمره الله به .. فيكون قد أدى الأمانة التى حملها .. وحصل على السعادة فى الدنيا والآخرة .. يخلص نفسه من هذه الصراعات كلها .. ويعلم أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يحميه ، وعلى أن يحقق له ما يريد . فيتبع الحق . ويقول الصدق ، ولا يخشى إلا الله .

أما الانسان الذى يخون الأمانة ، ويعصى الله ، ويجرى وراء

نهاية الحياة

كسب دنيوى دون ما إيمان حقيقى فى نفسه . . فىكون قد خسر الدنيا والآخرة . . فلا يمكنه الله مما يتمناه فى الدنيا ، وىكون من أهل النار فى الآخرة . ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى سلوك هذا الانسان بقوله :

﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾

(سورة الحج - الآية ١١)

وبعد أن تحدثنا عن الخلق والحياة ، ومهمة الانسان فى الحياة ، لابد أن نكمل الحديث بمغادرة الانسان للحياة . . فكما أن هناك حياة . . وأن هناك مهمة فى الحياة حملها الانسان ، واثمنه الله عليها ليؤديها . . فلا بد أن تكون هناك مغادرة لهذه الحياة . . ثم حساب على ما فعلناه .

ولكن قبل أن نتقل إلى الحديث عن الانسان ، وهو يغادر الدنيا ، لابد أن نتوقف لحظة لنقول : أن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان ليأتيه عن حب واختيار . . ولم يخلقه ليأتيه بالقهر والجبر . . ذلك أن القهر يسقط الحساب حتى فى قمة العقيدة ، مصداقا لقول الله تعالى :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

(سورة البقرة - الآية ٢٥٦)

نهاية الحياة

وقوله تبارك وتعالى :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(سورة النحل - الآية ١٠٦)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(سورة النور - الآية ٣٣)

ولذلك فإنه لكي يكون الحساب عدلا .. فإنه لا بد أن يتم الفعل بإرادة الانسان ورغبته وبلا إكراه .. وعندما تأتي ساعة مغادرة الدنيا تكون كل أفعال الانسان التي يأخذها معه برغبته وبإرادته الحرة . والخلق والموت والبعث كل هذا موجود في علم الله وواقع .. ولذلك فإنني أقول دائما إننا يجب أن نتنبه إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (الآية ٤٠ سورة يس)

ولا بد أن نتنبه هنا إلى قول الله « أن نقول له » .. أى أن الشئ كائن وموجود في علم الله سبحانه وتعالى .. فإذا قال له : أى قال

نهاية الحياة

لهذا الشيء الذى له وجود فعلى فى علم الله « كن » .. ظهر لنا
فعلمناه .. أورايناها .. أو اكتشفناه .

إذن فكل ما فى الكون من موت و حياة وبعث و أحداث تقع ..
كلها موجودة فعلا فى علم الله سبحانه و تعالى ولكننا لا نعلم عنها
شيئا .. إلا عندما تأتى مشيئة الله بكلمة « كن » .

هذه هى الحقيقة التى لا بد أن نتنبه لها أولا : حتى نعرف أن علم
الله شامل لكل شىء ولا حدود له .

نلاحظ ، ونحن نتكلم عن الموت و الحياة ، أن الله سبحانه و تعالى
جعل الموت سابقا للحياة فى قوله تعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾

(سورة الملك - الآية ٢)

فلماذا سبق الموت الحياة فى هذه الآية ؟ .. الله سبحانه و تعالى
يريد أن يلفتنا فى هذه الآية لكيلا يأخذنا غرور الدنيا وما تعطيه ..
فإذا اغتر الانسان بما يعطيه الله له من مال .. أو ملك ، أو ما أعطاه
الله له فى الدنيا من نعم .. فتأتى هذه الآية فتوضح أنه كان ميتا
فأحياه الله ، فلا يغتر بهذه الحياة .. ولا يميل الأراض بالمعاصى ..
لأنه وإن كان له كيان اليوم .. فلم يكن له كيان فيما مضى أو حياة ،
ومصيره مرة أخرى إلى ترك هذه الحياة ، مهما طال به الأجل ، وترك
كل ما فيها من نعم .

نهاية الحياة

فالغرور الانساني هو بداية المعصية . . ودائها عندما يغتر الانسان بنفسه ويملؤه الفخر بذاته وقدراته . . فإنه يبدأ الابتعاد عن الله تعالى ، والابتعاد عن المنهج . . فمادام قادرا على أن يحقق لذاته ما يريد . . فقد أصبح يتصور أنه ليس محتاجا إلى الله . . ومن هنا تبدأ المعصية . . فالانسان الذي يحس أنه في حاجة دائما إلى الله تعالى . . يبقى دائما متعالقا بالله متبعا لمنهجه . . فإذا أحس أنه في منعة وعزة بدأ يبتعد ، وذلك مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾

(سورة الاسراء - الآية ٨٣)

وقوله تبارك وتعالى :

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَاءَهُ اسْتَعْتَضَىٰ

(سورة العلق - الآية ٦ و ٧)

وقوله جل جلاله :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ

زُيِّنَ لِلْمُؤْسِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يونس الآية ٩٢)

إذن مادام الانسان في ضر فإنه لا يتجه إلا إلى الله . . حتى ذلك

نهاية الحياة

الذى ينسى الله .. ويتعد عن المنهج ، بمجرد أن تصيبه محنة أو ضرر أو أزمة ، يرفع يديه إلى السماء ويقول : يارب .. وفى هذه الحالة يكون الانسان صادقاً مع نفسه .. لأنه يعلم يقيناً أن الأمر كله بيد الله ، ويعرف أن كل ما اتجه إليه من نعم الدنيا وأسبابها لم يستطع أن يعطيه الحماية التى كان يريد لها .. أما إذا اغتر الانسان وأحاطت به النعم فإنه ينسى الله .. ويأخذ بالأسباب .. ويفعل كما فعل قارون ، ويقول : إنما أوتيته على علم عندى .

لماذا أخفى الله

موعد الموت ؟

لقد وضع الله سبحانه وتعالى من خصائص الموت ما يجعل الانسان يفيق من غرور وجاه الدنيا ، ويذكره بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فأخفى الله موعد الموت .. لماذا ؟ .. حتى يتوقعه الانسان فى آية لحظة .. فكلما اغتر تذكر انه قد يفارق الدنيا بعد ساعة أو ساعات ، فرجع عن غروره ، ورجع إلى الله سبحانه وتعالى .

ولو كان الله قد أعلم كلاً منا بأجله وعصينا الله .. ووظفينا فى الحياة .. وظلمنا الناس .. ثم نتوب ونستغفر قبل موعد الأجل بأشهر .. فى هذه الحالة تنتفى الحكمة من الحياة .

واخفاء الله سبحانه وتعالى موعد الموت هو اعلام به .. ذلك أن

نهاية الحياة

إخفاء الموعد يعنى أن الانسان يتوقع الموت فى أى لحظة .. ولذلك فإنه إذا كان عاقلاً تكون عينه على الدنيا ، وعينه الأخرى على الآخرة .. فإذا ارتكب معصية فهو لا يعرف هل سيمد الله أجله إلى أن يرتكب المعصية ويتوب .. أم أن أجله قد يأتى وقت ارتكاب المعصية ، فلا يجد الوقت للتوبة .

وما يقال عن المعصية يقال عن العمل الصالح .. فلو أن موعد الموت معلوم .. لأجل الانسان العمل الصالح إلى آخر حياته .. ولكن الله يريد أن يكون الصلاح ممتدا طوال الزمن ولذلك أخفى موعد الموت .. ليعجل الناس بالأعمال الصالحة قبل أن يأتى الأجل .. فكان إخفاء الموعد فيه رحمة من الله للبشر .. رحمة بأن يخافوا المعصية أن تأتى مع الأجل .. ورحمة بأن يسارعوا فى الخيرات حتى لا يفاجئهم الأجل .

نأتى بعد ذلك إلى ساعة الاحتضار .. وهى الساعة التى تغادر فيها الروح الجسد .. أو سكرة الموت ، كما يسميها الله سبحانه وتعالى .. فى هذه اللحظة تكون قد انتهت حياة الاستعلاء ، وحياة الكبر ، وكل مظاهر الحياة الدنيا .. وكل ما تستطيع الحياة أن تعطيه للانسان .. تقف الدنيا كلها بكل من فيها وما فيها من علم وقوة ونفوذ وسلطان عاجزة أمام قدرة الله سبحانه وتعالى .. ففى هذه اللحظة يأخذ الانسان مقدمات الغيب .. أى أن الانسان ، وهو محتضر ، يرى أشياء ما كان يقدر أن يراها فى أثناء الحياة الدنيا .. لماذا ؟ .. لأن بشريته الآن قد خمدت .. ومادامت البشرية قد

نهاية الحياة

خمدت ، تهب نفحات الغيب .. وهذا هو معنى الآية الكريمة :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة ق - الآية ١٩)

أى ما كنت تريد ألا تتذكره أو تعترف به .
فى هذه الحالة لا تنفع فيها التوبة ، ولا يجدى فيها الاستغفار ..
فمادامت سكرة الموت قد جاءت ، فقد انقطع عمل الانسان
الديوى .

والله سبحانه وتعالى قد ذكر لنا أشياء تحدث للانسان وهو يحتضر .
فقال تعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ

إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة - الآية ٨٣ - ٨٥)

أى أن الانسان وهو يحتضر ، يكون أقرب إلى ملكوت الله من
أولئك الذين يقفون حوله .. وهم إذا كانوا يقفون حوله فإنهم
لا يبعدون عنه إلا مسافات قصيرة .. فإنه يرى أشياء لا يرونها ..
ويرى مقدمات الغيب لا يبصرها من حوله ، ويرى الملائكة .

واقراً قول الله سبحانه وتعالى :

نهاية الحياة

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ
أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِنَا تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ
كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ
مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُذِّبُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ
وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام - الآية ٩٣ - ٩٤)

ماذا يرى الانسان ساعة الاحتضار ؟

هكذا نرى أن الانسان ساعة الاحتضار يرى الملائكة ويكلمونه
فإن كان من الذين عصوا الله ، والعياذ بالله ، بشره الملائكة
بالعذاب .. وبشروه بجهنم ، وهو في هذه اللحظة لا يراهم فقط ،
بل يسمع كلامهم على أننا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى

أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ

(سورة الأنعام - الآية ٩٣)

نهاية الحياة

والنفس - كما قلنا - هي التقاء الروح بالجسد .. فكيف يطلب
الملائكة من الظالم المحتضر أن يخرج نفسه .

لكي نفهم هذه الآية لابد أن نضع في أذهاننا أن هذا المحتضر كان
كافرا بالله ، ومكذبا بالبعث .. وحينئذ وهو يحتضر يقول له
الملائكة : هائتذا الآن ترى ما كنت تكذب به .. وترى العقاب
الذي ينتظرك ، فإن كان لك قوة أو قدرة كما كنت تدعى في الحياة
الدنيا ، فاخرج نفسك من هذا .. أهرب إذا كنت تستطيع ..
خلص نفسك إذا كانت لك قوة أو تفوق .. إنك لا تستطيع في هذه
اللحظة أن تخرج نفسك مما أنت فيه .. ألم تعد لك قدرة على أن
تسيطر على ذلك .. لقد كانت هذه القدرة من الله سبحانه وتعالى ..
وهبها لك في الحياة الدنيا .. ولكنك الآن لا تملك في نفسك شيئا ،
ولا ينتظرك إلا العذاب .. لما كنت تقول على الله غير الحق ،
وتستكبر في الأرض .

وفي هذه اللحظة أيضا تذكر الملائكة هذا الانسان الكافر المنكر
لآيات الله بأنه قد جاء إلى الموت وحده ، وليس معه عصيته ،
ولا عزوته في الدنيا .. وحيدا كما تم خلقه .. حتى الآلهة التي أشرك
بها قد تخلت عنه .. وحتى الذين كان يعصى الله من أجلهم لم يأتوا
معه ، ولا يستطيعون أن يدافعوا عنه .. ثم تكتمل الصورة بقول الله
سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ

نهاية الحياة

وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلِيمٍ
لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

(سورة الأنفال - الآية ٥٠ - ٥١)

أى أنه ساعة الاحتضار يكون هناك ضرب وإيذاء من الملائكة للكافرين .

والمعروف أن أى نوع من العذاب لا يتم إلا مع وجود الحياة . فانت لا تستطيع أن تعذب جسدا ميتا . . ولكن لكى يحس الجسد بالعذاب لابد أن تكون فيه حياة أرواح . . أى أن ما يحدث من الملائكة معه ضرب وإيذاء إنما يحدث ساعة الاحتضار وفى الجسد حياة .

وانظر بعد ذلك إلى الصورة المقابلة فى الصالحين الذين تتوفاهم الملائكة . . يقول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(سورة النحل - الآية ٣٢)

أى أن الانسان الصالح حين يصل إلى ساعة الاحتضار يرى الملائكة أيضا . . فكل إنسان ، وهو يحتضر ، يرى ملائكة الموت . ولكن اللقاء يكون مختلفا . . فبينما الكافر يضرب الملائكة وجهه

نهاية الحياة

ودبره .. ويقولون لهؤلاء الكافرين « ذوقوا عذاب الحريق » .. فإن
الانسان المؤمن تدخل عليه الملائكة بالبشرى . ويقولون له سلام
عليكم .. أى أنت وصلت إلى دار السلام بأمان .. ويبشرونه
بالجنة .

هنا فى ساعة الاحتضار يفرق المؤمن والكافر ، وذلك بخلاف
الحياة الدنيا كلها ، فى الحياة الدنيا قد يكون الكافر له من الحياة
والسلطان مالىس للمؤمن .. وقد يكون له فى العلو والترف مالىس
للمؤمن .. ولكن تبدأ التفرقة بينهما ساعة الاحتضار ، فىرى الكافر
الملائكة ، وقد جاءوا بمقدمات الجزاء ، وانها لوا ضربا عليه .. ويرى
المؤمن الملائكة ، وقد جاءوا بمقدمات النعيم وبشرى بالجنة . ويرى
الكافر النار .. ويرى المؤمن الجنة .

حينئذ لا تنفع التوبة ، وذلك مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ
فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ
التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي
تُوبْتُ الْعُزْنَ وَلَا أَلِدِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

(سورة النساء - الأيتان ١٧ - ١٨)

نهاية الحياة

أى أن لحظة الاحتضار - كما قلنا - لا تقبل فيها التوبة ..
ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (٢٢)
(سورة الفرقان - الآية ٢٢)

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن نجربنا بأن الانسان يرى الملائكة ومقدمات الغيب فى ساعة الاحتضار .. وفى هذه الساعة لا تنفع التوبة .. والانسان وهو يحتضر ، يعلم موقعه ، هل هو من أهل النار ، أم من أهل الجنة .. تلك هى لحظات نهاية الحياة . حينئذ ينتقل الانسان من حياة إلى حياة ، أو من قانون إلى قانون .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثالث

قانون ما بعد الحياة

قانون ما بعد الحياة

عندما ينتقل الانسان من الدنيا ، وينتهي فيها عمره ، يكون قد بدأ أول أيامه من رحلة الآخرة . . ذلك أن كل من يخرج من الدنيا تنتهى صلته بأحداثها تماما . . ولا يصبح أمر الدنيا هو شغله . . وينقطع عمله إلا من علم ينتفع به ، أو صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له . كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، أو صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له » .

هذه الأشياء الثلاثة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي امتداد لعمل الانسان في الدنيا . . والعلم الذي ينتفع به هو امتداد لعلم اجتهد فيه الانسان في حياته الدنيوية ، ثم علمه للناس وتركه ليستخدمه الناس به . . فهذا النفع هو اتصال لعمل الانسان ، ويكون له جزاء عليه .

ولكن هناك شرطا لهذا العلم ، هو أن يكون لوجه الله سبحانه وتعالى . . أو يقصد به الله . . فكل عمل يقوم به الانسان ، ولا يقصد به وجه الله ، ليس له أجر عند الله . . وهذا كما قلت مبدأ لا بد أن نفهمه ، لأنك تأخذ أجرك في الدنيا وفي الآخرة ممن عملت من أجله . . فلا يعقل أن تعمل عملا لإنسان ، ثم تذهب لتطالب شخصا آخر بأجرك . . هذا لا يتفق مع منطق الوجود . . وكذلك تعمل عملا لغير الله . . ثم تطلب من الله أجرك في الآخرة .

قانون ما بعد الحياة

وكثير من الناس الذين قدموا خدمات للانسانية .. ولم يكن في بالهم الله ، وهم يقومون بهذا العمل ، أعطاهم الله أجرهم في الدنيا .. فأطلقت أسماؤهم على الميادين والمدن ، واقامت لهم التماثيل ، واحتفل الناس بذكراهم .. وكان من عدل الله أن يوفيهم أجرهم في الدنيا التي عملوا لها .. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ

مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

(سورة هود - الآيتان ١٤ - ١٥)

وليس معنى ذلك أن يكون العلم من علوم الدين وحدها .. أى أن أى إنسان مؤمن يصل إلى علم وفي باله الله ، وأنه يعمل ليرضى الله واستفادت الدنيا كلها بعلمه ، فإن الله يؤتبه أجره ، لأنه لم يعمل من أجل مال أو جاه أو شهرة .. رغم أن هذه قد تأتي ، ولكنه يعمل من أجل الله .. أما ذلك الذى لا يحمل فى قلبه أى نوع من الايمان ، ويعمل من أجل الدنيا وحدها ، وهو غير مؤمن بالآخرة . فإن الله يؤتبه أجره فى الدنيا .

أما الصدقة الجارية فهي مال الانسان الناتج من عمله وورقه .. وبدلاً من أن ينفقه فى أن يبني له قصراً . أو فى الترف ، أو فى الافساد

قانون ما بعد الحياة

في الأرض . . ينفقه في عمل يبتغي به وجه الله وحده . . كأن يبني مسجدا ، أو يقوم ببناء دار يسكن فيها الفقراء مجاناً ، أو ملجأ للأيتام ، أو يرصد إيراد ما يملكه لينفق في سبيل الله . . ومادام هذا العمل قائماً في الدنيا فإنه يصل إليه أجره في الآخرة .

وولد صالح يدعو له ، هو جزاء من الله على حسن تربية الأبناء على منهج الله ، بحيث ينشأون صالحين . . ومن علم ابنه القرآن ، وحرص على أن يؤدي هذا الابن الصلاة ، وحثه على الصدقة ، وكل عمل طيب . . فإن هذا الابن الذي هو امتداد للأب يكون دعاؤه مقبولاً رحمة لأبيه ، وزيادة في حسناته ، وذلك حتى نحرص على أن يشب أولادنا على الفطرة السليمة والدين القويم .

كل حياة لها قوانين

هنا قد يتساءل بعض الناس : ما نوع الحياة التي ينتقل إليها الانسان في قبره وقبل البعث ؟ نقول لهؤلاء جميعاً : إن كل حياة خلقها الله لها قوانينها . . فإذا انتقلنا إليها نعرف هذه القوانين . . ولكي يقرب الله سبحانه وتعالى هذه الصورة إلى الأذهان ، ويجعل العقول تستوعبها . . جعل الحياة قانونين مختلفين تماماً . . قانون اليقظة وقانون النوم .

قانون ما بعد الحياة

فأنت حين تكون مستيقظا تخضع حياتك لحواسك .. فترى بعينيك وتسمع بأذنيك ، وتمشى بقدميك إلى آخر ما يحدث بالنسبة لكل فرد فينا .. فإذا دخلنا إلى النوم انتقلت من هذه القوانين كلها إلى قوانين مختلفة تماما .

أولا حين تنام فإنك تفقد تماما عنصر الزمن .. لأن الزمن لا بد له من أحداث تحدده .. فإذا لم تكن هناك أحداث فقدت إحساسك بالزمن .. ولذلك فإن الانسان إذا نام .. لا يعرف حين يستيقظ كم ساعة قضاها في النوم إلا إذا نظر إلى الساعة .. ولا نجد إنسانا يستطيع أن يقول لك إنه نام ساعة أو ساعتين أو ثلاثا أو سبعا إلا إذا أخبرته أنت ، أو إذا نظر إلى الساعة ، أو إذا تغير الزمن .. بأن يكون قد نام ، والشمس مشرقة .. وقام والليل قد جاء .. إذن ففى قوانين حياة النوم يلغى الزمن .

وأنت نائم ترى في المنام أشياء عجيبة لا تراها في الدنيا .. وتجد نفسك في أماكن غريبة لم تشهدها من قبل .. وتلتقى بعدد من الناس انتقلوا إلى رحمة الله منذ سنوات طويلة تتكلم وتتحدث معهم .. وربما رأيت نفسك تقفز من جبل عال ، وتستقط في واد عميق ، ولا تصيبك كسور ، ولا تحس بالآلام .. وتقع لك أحداث لا تتفق مع منطق الحياة ولا قوانينها . فتجد نفسك مثلا في الهواء بدون طائرة . أو تهبط إلى باطن الأرض .. أشياء لا تتقيد بمنطق ، ولا بقوانين حياة اليقظة في الدنيا .

قانون ما بعد الحياة

والعجيب أن ذلك يحدث لك وكل حواسك معطلة .. فأنت ترى وعينك مغمضتان .. والعين حين تغمض في اليقظة لا ترى .. وأنت تجرى ورجلاك ساكنتان فوق السرير .. وسكون حركة القدمين يتنافى مع الحركة في حياة اليقظة .. فإذا كنت متيقظا ، وقدماك ساكنتان ، فأنت لا تتحرك .. وترى نفسك وأنت خارج هذه النفس .. فالإنسان في حياته الظاهرة لا يرى نفسه وهو خارجها .. وتتكلم ولسانك لا يتحرك .. وفي الحياة الظاهرة إذا سكن لسانك امتنعت عن الكلام .

كل هذا يطرح أكثر من تساؤل .. كيف ترى وعينك مغمضتان إذا كان الإنسان لا يرى إلا بعينه .. إذن فهناك رؤية بغير العين .. أى أن وسيلة الرؤية التي وضع الله أسرارها في جسدك تعتمد على العين في الحياة الظاهرة فقط .. أما وأنت نائم فإن هناك ملكات أخرى ترى .. وهناك ملكات أخرى غير قدميك تتحرك .. وهناك ملكات أخرى غير لسانك تتكلم .. والقوانين التي تحكمك ، وأنت نائم ، تختلف تماما والقوانين التي تحكمك وأنت في حياة اليقظة .. ومع ذلك فأنت أنت نفس الإنسان الذي ينتقل من قانون إلى قانون بمجرد أن يضع جسده على السرير وينام .

وتحاول أن تجد تفسيراً لذلك كله فلا تستطيع .. بعض الناس يقول : إنه العقل الباطن .. والبعض الآخر يقول إنها رغبات مكبوتة .. كل إنسان يفسرها كما يريد .. ولكن أين هي

قانون ما بعد الحياة

الحقيقة ؟ .. لا أحد يعرف ذلك يقينا إلا أننا حين ننام لا نتبع قوانين حياة اليقظة .. فإذا كان الانسان ينتقل من قانون إلى قانون بمجرد النوم .. فكيف لا ينتقل من قانون إلى قانون عندما تنتهى حياته في الدنيا ، ويبدأ الحياة في البرزخ .. ولا أحد يعرف ما هى القوانين التى تحكم الانسان عندما يغادر الحياة الدنيا .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاطب القتلى من كفار قريش بعد موقعة بدر .. وعندما سأله الصحابة : أتكلم الموتى يا رسول الله ؟ .. قال إنهم يسمعوننى . ولكنهم لا يستطيعون الرد .. وكلم الموتى وهم فى قبورهم ، وكان يسمعهم .. ولكن هذه خاصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. كما قيل إن على بن أبى طالب رضى الله عنه كلم أصحاب القبور فى البقيع .

ولكن كل هذه الخصوصيات لمن أراد الله سبحانه وتعالى أن يفتح له بابا من أبواب الغيب ، ولا يمكن أخذها على أساس أنها عمومية يستطيعها كل إنسان ، أو يقدر عليها كل منا . فهى تختص بصاحبها فقط : ولذلك يجب ألا تعمم .. وإنما تنقل عن قائلها .. ونصدقها مادام قد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها مروية عنه .

أما نحن فيقف علمنا عند حد أن هناك حياة خاصة فى البرزخ لها قوانينها الخاصة ، ولها طبيعتها الخاصة .. كما أعطانا الله سبحانه وتعالى قانون النوم ، وقانون اليقظة ليعرفه كل منا .. فنخرج من ذلك بأن هناك أشكالا متعددة ، أو أطوارا للحياة يمر الانسان بها فى

قانون ما بعد الحياة

مراحل مختلفة .. كل له قانون يحكمه ، كما أن لكل خلق من خلق الله قوانين تحكمه .

بين الموت والبعث

على اننا إذا أردنا أن نأخذ مثلاً من القرآن الكريم على أن هناك حياة بين الموت والبعث .. فإننا نأخذ ما رواه الله لنا عن آل فرعون كتشبيه لنا عن حياة البرزخ .. يقول الله سبحانه وتعالى في آل فرعون :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤٦)

(سورة غافر ٤٦)

عندما يقول الله سبحانه وتعالى :
« يعرضون عليها غدوًّا وعشيا » .

فإن في ذلك إشارة إلى أن هناك زمناً .. فالغدو والعشى أوقات ، وهذا من صفات الزمن ، ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

(سورة غافر ٤٦)

قانون ما بعد الحياة

إذن عرض آل فرعون على النار لا يكون يوم القيامة . . فإن هناك زمنا يعرض فيه آل فرعون على النار . . ثم هناك زمن آخر عندما يأتي موعد يوم القيام يدخلون أشد العذاب . . إذن العرض غير قيام الساعة . . الطرفان مختلفان . . وبذلك نرى أن هناك حالتين . . حالة عرض على النار . . وحالة إدخال آل فرعون أشد العذاب يوم القيامة .

وإذا كنا نريد أن نمضى فى معرفة الآية الكريمة فإننا نقول : إن الأزمان يمكن أن نحددها نحن بثلاثة : هى : حياة الانسان . . وما بين الموت والبعث . . ويوم تقوم الساعة . من خلال هذه الأزمنة الثلاثة نحاول أن نحدد متى يتم العرض على النار . . غدوا وعشيا متى ؟

هل كان آل فرعون يعرضون على النار ، وهم فى الحياة الدنيا ؟ ثابت أنه لا . . فقد كان فرعون عاليا فى الأرض ، ونصب نفسه إلهًا يعبد . . واستخف قومه فأطاعوه . . وكل الأحداث التى رواها القرآن الكريم عن قصة فرعون وموسى تنفى تماما أن العرض كان فى الحياة الدنيا . . ولو أن آل فرعون عرضوا ولو مرة واحدة على النار فى الحياة الدنيا ما عبدوا فرعون ولو دقيقة واحدة . . بل لكانوا قتلوه . . ولو أنهم عرضوا على النار مرة واحدة فى الحياة الدنيا لآمنوا وسجدوا لله تعالى .

إذن لم يبق من الأزمنة إلا زمانان : حياة البرزخ ويوم القيامة . .

قانون ما بعد الحياة

يوم القيامة يدخلون أشد العذاب .. ومن هنا انتقلت حالة أنهم يعرضون على النار يوم القيامة .. إذن فلا بد أنهم يعرضون على النار في حياة البرزخ .. وقد اختص الله آل فرعون بهذا العرض لتجبرهم وعبادتهم لفرعون .. وإدعاء فرعون الألوهية .. لأنها ليست معصية أوامر .. ولكنها معصية أمر .. فباقي الأمم عصوا الأوامر .. ولكن آل فرعون عارضوا الأمر على الألوهية وأنكروها .. فلذلك كان لهم أشد العذاب .. وكانت حياتهم في البرزخ يعرضون فيها على النار .

هذه صورة من حياة البرزخ يروها لنا القرآن الكريم .. وهناك صور أخرى حجبها الله عنا في علم الغيب .. وكون الله سبحانه وتعالى قد أعد لآل فرعون أشد العذاب ولم يدخلهم النار إلا يوم القيامة دليل على أن العذاب الحقيقي يبدأ يوم القيامة .. وأن الانسان في قبره يعرف مصيره .. يعرف حسناته وسيئاته .. يعرف مقامه من الجنة أو من النار .. ويرى مقعده ومنزلته فيها .. فإذا عرف أن مقامه في النار . فذلك عذاب ما بعده عذاب .. لأنه عرف يقينا إلى أين يذهب .. ولذلك فإن هذا العذاب يجعله في قبره ، وكأنه يتقلب في النار حين يرى مصيره الأكيد .. يعيش في ظلمة .. ويعيش في كرب ما بعده كرب .. وحين يرى المؤمن مقامه أو مصيره في الجنة . فإن ذلك نعيم ما بعده نعيم ، لأنه يحس وكأنه يعيش في الجنة ونعيمها ..

إذن فالعذاب الحقيقي لا يأتي إلا بعد الحساب .. ولكن في القبر

قانون ما بعد الحياة

يكفى أن الانسان يعرف أن مصيره إلى النار ، ليعيش في عذاب مقيم .. ويكفى أن الانسان يعرف أن مصيره إلى الجنة ، فيعيش في نعيم مقيم .

من هو القرين ؟

نأتى بعد ذلك إلى ما يقال عن القرين .. ولقد سمعنا أشياء كثيرة تقال عن القرين .. وكيف أنه يلزم الانسان في حياته ، وانه يعيش مدة أطول منه .. وانه عندما يمارس الناس مسألة تحضير الأرواح ، فإن هذا القرين هو الذى يأتى ، وهو الذى يتكلم .

والحقيقة أن الناس قد أخطأوا فى فهم معنى القرين .. والله سبحانه وتعالى شرح لنا ما المقصود بالقرين .. ومن هو القرين فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾
أَوْ ذَا مِثْنًا وَكُنَّا تَرَآءِبًا وَعِظْمًا إِتْنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قانون ما بعد الحياة

وقوله جل جلاله :

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فُؤُولَهُ، قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ

لَيُصَدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا

قَالَ يَلَيْتَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾

(سورة الزخرف - الآيات ٣٦ - ٣٨)

وقوله عز وجل :

وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيعَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ

الْآخِرِ ^ق وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا

(سورة النساء - الآية ٣٨)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ، وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣٦﴾

(سورة ق - الآية ٣٦)

وقوله تعالى :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّهِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ^ط

قانون ما بعد الحياة

إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾

(سورة فصلت - الآية ٢٥)

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد بين لنا بما لا يقبل أى شك أو تأويل ، معنى القرين .. فالقرين هو من شياطين الانس والجن .. ومهمته أن يبعد الناس عن الصراط المستقيم .. وان يزين لهم معصية الله .. وأن يوسوس لهم بالسوء .. وأن يغويهم إلى طريق المعصية .. هذه هى مهمة القرين كما أوضحها الله سبحانه وتعالى لنا فى القرآن الكريم .. فكل من يصد عن سبيل الله ، ويحاول أن يبعد الناس عن منهجه فهو قرين .

ولكل إنسان منا قرين يحاول أن يدفعه إلى طريق النار .. ويدخل إلى قلبه الشك فى الايمان ، ويزين له عبادة الدنيا .. حتى إذا جاء يوم القيامة تبرأ هذا القرين من الانسان ، وقال : يارب انا لم أجعله يطغى ، ولم أزين له طريق المعصية .. ولكن هوى نفسه هو الذى دفعه إلى هذا الطريق .. فبعده عن المنهج هو الذى جعله ينحرف .. وهكذا يحاول كل من الانسان العاصى ، وقرينه أن يلقي اللوم على الآخر .. أما القول بأن هذا القرين هو شبيهه بالانسان ، وانه يلزمه طوال حياته ويعيش أكثر منه .. فذلك لم يثبت إلا إذا كان المقصود أن القرين يظل يوسوس للانسان بالسوء طول حياته .. ويحاول أن يمنعه من العمل الصالح ومن العبادة .. ويظل يطارده ويلاحقه فى كل مكان ويدفعه إلى المعصية .

قانون ما بعد الحياة

وعلى أية حال ، الثابت من القرآن الكريم أن القرين هو من شياطين الإنس والجن الذين يدفعون الناس إلى معصية الله ، وإلى طريق النار . . وان لكل إنسان قرينا يدفعه إلى هذا الطريق ، وان بعض الناس يستمعون إلى هذا القرين ، ويمضون في طريق البعد عن منهج الله . . وبعض الناس لا يستمعون إلى القرين ولا يبالون به . وبذلك يكونون من أهل الجنة .

لقد ضرب القرآن مثلا عندما سأل واحد من أهل الجنة من القرين الذى كان يوسوس له بالسوء ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، أى فى وسط النار . . ومعنى ذلك أن هذا القرين قد أخفق فى أن يقود المؤمن إلى طريق الهلاك . . وهذا واضح من الآيات التى أوردناها .

كل شىء .. له كيان

كل شىء فى هذه الدنيا له كيان ، ولا بد أن نعرف أن الموت له كيان . وإذا كنا لا نراه أو لانشهدده ، فذلك لأنه محجوب عنا . . وكل شىء فى الدنيا هناك ملك موكل به . . والملائكة تتولى الانسان منذ خلقه حتى موته ، حتى بعثه .

وهناك خلق كثير ، وأشياء كثيرة لا نراها . ذلك أننا محدودون ببشريتنا . . ولذلك فإننا لا نرى إلا ظاهرا من الحياة الدنيا . ذلك الظاهر الذى يمكننا من أن نؤدى فترة الاختبار التى تمثلها الحياة الدنيا

قانون ما بعد الحياة

في مراحل الحياة .. والناس في أطوار الحياة المختلفة ، سواء في الحياة الدنيا ، أو في البرزخ ، لهم الحياة التي تتناسب مع قوانين تلك المرحلة .. ولا يموت كل من في الدنيا من مخلوقات إلا عندما ينفخ في الصور .. وينبها الله سبحانه وتعالى إلى هذا المعنى فيقول :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ

اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾

(سورة الزمر - الآية ٦٨)

ولا أحد يعرف إلا الله سبحانه وتعالى ما هو الفارق بين النفخة الأولى والنفخة الثانية .. والله وحده هو الذى يعلم ذلك .

فترة الموت تستمر ما بقيت الحياة حتى يوم القيامة .. أى أن ملك الموت أو ملائكة الموت يظلون يؤدون أعمالهم فى قبض الأرواح حتى قيام الساعة .. وكل انسان موكل به ملك موت معين ليقبض روحه فى لحظة محددة معينة .. ويقال إنه عندما يطلق سهم الحياة يطلق معه سهم الموت .. ويظل ملك الموت يبحث عن ذلك الموكل بأن يقبض روحه .. إلى أن يأتى الأجل فيهديه الله إلى مكانه .

الموت .. بلا أسباب

ولقد جعل الله لكل شىء سببا ، ما عدا الموت .. فالموت يأتى

قانون ما بعد الحياة

بلا أسباب قد يكون أجل الانسان ، وهو في بطن أمه لم ير الدنيا بعد . . وقد يكون عمره في الدنيا ساعة أو ساعتين . . أو يوما أو أياما أو شهورا أو سنوات . فلكل إنسان أجله .

ولذلك فإن بعض الناس قد يقول إنه تشاجر مع إنسان فانفعل ذلك الانسان ومات . . وذلك قول خطأ . . لأن هناك الموت ، وهناك القتل . . والله سبحانه وتعالى قال عن رسوله :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَيَّ أَعْقَابِكُمْ ﴾

(سورة آل عمران - الآية ١٤٤)

إذن فالموت يختلف عن القتل . . ولكي نفهم هذه الحقيقة نقول أن القتل هو هدم البنية الأساسية للانسان ، فالروح لا تبقى إلا في بنية سليمة تناسب بقاءها . . فإذا هدمت هذه البنية خرجت الروح . . أما الموت فإن له أجلا محددًا لا يتأخر عنه لحظة ولا يتقدم .

والانسان لا يملك جسده . . ولو كان يملك هذا الجسد لكان يسيطر عليه . . ولكن معظم نشاطات الجسد الانساني تتم بدون إرادة منا وبأمر الله . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى عاقب المنتحر بالخلود في النار . لأن هذا المنتحر قد قام بهدم بنية هي ليست ملكه . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقها ، وهو الذي يملكها . . ولنفس

قانون ما بعد الحياة

السبب حرم الله القتل إلا بالحق . . وقال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(سورة المائدة - الآية ٣٢)

وأوعد القاتل بالخلود في النار إذا تعمد القتل بغير ما شرع الله .
فإذا مات الانسان خلال مشجرة مثلا أو مشادة لم يصب فيها
بإصابة قاتلة تهدم بنيته ، فإنه في هذه الحالة يكون قد تصادف أجله
مع هذه المشجرة ، أو هذا الانفعال . . أما إذا هدمت بنيته الأساسية
يكون ذلك قتلا يستحق القصاص في الدنيا والآخرة .

ولا يستطيع إنسان أن يعرف ما سيحدث مقدما إلا الأنبياء . .
وهم من شاء الله سبحانه وتعالى أن يفتح لهم بابا من أبواب
الغيب . . لا يعرف إنسان إن كان مصيره إلى الجنة أو النار . . وفي
ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليعمل
الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ،
وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ، ثم يختم له مله
بعمل أهل الجنة » .

ومما يروى في هذا الصدد انه في إحدى الغزوات كان أحد المقاتلين
يقاتل مع المسلمين بشجاعة فائقة . . وذهب أصحاب رسول الله

قانون ما بعد الحياة

صلى الله عليه وسلم إليه ممتدحين شجاعة هذا الفارس وإقدامه في سبيل الله . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو من أهل النار . . فتعجب الصحابة من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومضت المعركة ، وجرح هذا المقاتل ، ولم يتحمل الجرح . فوضع سيفه تحت رقبته وضغطه لينفذ السيف من رأسه فمات . . وبذلك مات منتحرا . . واستحق أن يكون من أهل النار . . وعاد الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نشهد إنك لرسول الله .

ولكن كيف عرقت انه من أهل النار؟ - قال كان يقتل ليقال عنه إنه شجاع . . وقد قيل .

والمعنى أن هذا المقاتل لم يكن ، وهو في المعركة ، يحارب في سبيل الله . . بل كان يحارب وفي قلبه غرور الدنيا ، حتى يقول الناس إنه شجاع مقدام . . ولذلك لم تكن حربه هذه في سبيل الله ، ولكن لارضاء الغرور الدنيوى .

ومعنى الحديث ان يعمل أحدكم عمل أهل الجنة . . ان الانسان قد يعمل الصالحات في حياته ، حتى يصبح قريبا من الجنة ، ثم يغويه الشيطان . . ويغلبه بريق الدنيا فيترك العبادة ، ويطلق العنان لشهوته ، ويضيع عمله الصالح بالانغماس في المعاصى . . وقد يعصى إنسان الله حتى يكاد يصبح من أهل النار ، ثم يتوب إلى الله فيهدى الله قلبه ، ويتوب عليه ، ويغفر له .

كل العذاب مؤجل إلا ظلم الناس

وكل العذاب في الدنيا مؤجل إلا ظلم الناس . . ذلك ان الله سبحانه وتعالى مؤجل العاصين حسابهم إلى يوم القيامة ما عدا ظلم الناس ، فإن الله سبحانه وتعالى يقتص من الظالم في الدنيا . . ذلك ان الله إذا ترك الظالم يستشري بظلمه انتشر الظلم في الأرض ، وعم الفساد بشكل كبير . . فالفساد الأكبر يأتي من ظلم الناس للناس . . والله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل . . ويعطى الظالم الفرصة بعد الفرصة ليتوب . . ويأخذه بالعذاب الأصغر عله يرتدع . . عله يفيق . . فإذا استشري في ظلمه رغم العذاب الأصغر الذي أراه الله له ثم رفعه عنه . . فإنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر . . فلقد أخذ الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه بالعذاب الأصغر أولاً . . وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

(سورة الاعراف - الآية ١٣٠)

ويقول تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ء آيَاتٍ

مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ

قانون ما بعد الحياة

قَالُوا يَمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ
لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرَّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ
هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ
بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾

(سورة الاعراف - الآيات ١٣٣ - ١٣٦)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ آل فرعون بالعذاب .
الأصغر قبل أن يهلكهم بالغرق . . ولكنهم رفضوا أن يرتدعوا بهذه
الآيات . . وكلما رفعت عنهم آية من آيات العذاب الأصغر ، عادوا
إلى كفرهم وطغيانهم . . ولو أنهم بعد أى آية من هذه الآيات تضرعوا
إلى الله ، وعادوا إليه ، فرجما تقبل الله توبتهم إن شاء .

وهكذا نجد أن الله يأخذ الظالم بالعذاب الأصغر قبل أن يهلكه
ويمهله . . فإذا تجبر في الأرض ، وزاد في ظلمه ، فإنه في هذه الحالة
يهلكه . . والسماء تتدخل دائما لتزيل الظلم من الأرض عندما يستكين
الناس للظالم ، ولا يتحركوا لدفع الظلم عن أنفسهم . . ذلك أن
الذين لا يؤمنون بالآخرة يستشرون عادة في ظلمهم . . ولذلك لا بد
أن تتدخل قدرة الله في الحياة الدنيا لتزيح الظالم أو تهلكه ، حتى
لا يستشري الظلم في الأرض . . وحتى لا يشقى خلق الله بالظالم
حين يزداد في ظلمه وطغيانه . . لذلك فالله سبحانه وتعالى حريص
على أن يرى المظلوم يوما في ظلمه ، وأن يرى المظلوم هذا الظالم الجبار

قانون ما بعد الحياة

مجردا من قوته ذليلا .. تلفظه الأرض كلها .
ولعلنا شهدنا في الفترة الأخيرة حكاما دانت لهم الأرض ..
واستشرى ظلمهم بشعوبهم ، وتدخلت إرادة السماء لتنزع عن هؤلاء
قوتهم وجبروتهم .. وانطلقوا مذعورين خائفين .. لا يجدون مكانا
في الأرض يأوون إليه ، رغم عظم ثرائهم ، ووفرة المال عندهم ..
ترفضهم حتى تلك الدول التي كانت تعينهم على الظلم .

ولعل قصة ماركوس الذي كان حاكما طاغيا في الفيلبين .. يقتل
ويدمر ويقيم المذابح .. وبين يوم وليلة وجد نفسه مجردا من
السلطان .. ترفضه دول الدنيا كلها رغم ما يملك من مال .
إذن فالقصاص من الظالم يتم في الدنيا .

الانسان يرى الغيب

بقيت بعد ذلك نقطتان .. الأولى : هي أن الانسان يرى بعد
الموت ما لم يكن يراه في الحياة الدنيا .. وفي تلك يقول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ فَبَصُرْتُمُ الْيَوْمَ
حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة ق - الآية ٢٢)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« الناس نيام . فإذا ماتوا انتبهوا » .

قانون ما بعد الحياة

والبصر الحديد هو البصر الحاد الذى يدرك إدراكا أفاقه أوسع لم يكن يدركه .. فكل بصر له مدى أفق معين .. وعندما يبتعد الشيء عن البصر يصغر ويصغر إلى أن يتوارى ويزول .. فلا يعود البصر يدركه .. ولكن هل حقيقة أن الشيء يزول ؟ .. لا .. الشيء موجود فى مكانه .. ولكن مدى البصر هو الذى لا يدركه فنعتقد أنه توارى .

والناس فى الدنيا لكل منهم مدى بصر معين .. حدود لقوة البصر .. فإذا أتيت بشيء واحد ، وجئت برجلين : أحدهما ضعيف البصر ، والآخر قوى البصر ، فإن أحدهما ، وهو صاحب البصر الأقوى ، يرى الشيء .. ولكن ضعيف البصر لا يراه .

ولذلك يريد الله سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أن هناك أشياء لا نراها فى الدنيا . لأن بصرنا الدنيوى محدود .. ولكن هذه الأشياء موجودة رغم اننا لا نراها .. ورغم أنها غيب عنا .. ولا يخفى هذه الأشياء إلا أن بصرنا البشرى محدود .. فإذا جاء الموت فإنك ترى الأشياء التى كنت تكذبها فى الدنيا .. فكأن الغشاوة قد رفعت عن بصرك .. فأصبحت هذه الأشياء واقعا فى حدود بصرك بعد أن كان على البصر غطاء دنيوى يمنعك من رؤيتها .

وهكذا فإن ما كنت تكذب به تراه الآن ويراه بصرك الذى أصبح اليوم قويا حادا .. ولو أنك أمنت بالغيب لرأيت الآن ما أمنت به واقعا .. ولرأيت كل ما استراه من الغيب الذى حجب عنك رؤية

قانون ما بعد الحياة

إيمانية ، ولكان لك اليوم رصيد إيمانى ينجيك من النار .. وهذا لوم
وتقريع لغير المؤمنين ..

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » ..

معناه : أن الناس فى الدنيا كالنائم الغافل عن الحقيقة ،
وعما ينتظرهم فى الآخرة ، فإذا جاءت لحظة الموت رأى الناس مالم
يكونوا رأوا فانتبهوا من غفلتهم الدنيوية التى كانوا فيها نياما ..
والنائم لا يدرى ما حوله ، ولا يعرف ماذا يحدث .. فلما أفاقوا من
غفلة حياتهم الدنيوية تنبهوا إلى المصير الذى هم ذاهبون إليه ، ورأوا
مالم يكونوا يرون ، ولكن بعد فوات الأوان .

والنقطة الثانية : هى انه لا موت بعد يوم القيامة .. ذلك انه يؤق
بالموت فيذبح .. فينتهى الموت تماما ، ولا تبقى إلا حياة الخلود .
إلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية هذا الفصل لنبدأ بعد ذلك فى
الحديث عن يوم الدين .. ولماذا وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه
يوم .. وما مقدار هذا اليوم ؟ .. ومع معنى الزمن ؟

الفصل الرابع

الله.. والزمن

الله والزمن

لا توجد حيرة تملأ حياة الناس كحيرتهم بالنسبة للزمن .. ذلك لأنهم عاشوا حياتهم كلها مع الزمن فألفوه .. وحددوا أوقاتهم في الدنيا بالزمن فلم يعرفوا غيره .. وكان الزمن تأثير مباشر على حياتهم .. فهم يقيسون به أعمارهم ، وهم يقيسون به أحداثهم .. وهم يتخذونه مقياسا للحياة كلها .. فمواعيدهم ولقاءاتهم وانجازاتهم وكل حياتهم مربوطة بالزمن .. يقولون : سنفعل كذا في يوم كذا .. ويقولون : سنتقابل في الساعة الثالثة أو الرابعة أو السادسة .. أوفى الشهر القادم .. ويحددون عمر ما يفعلونه بالزمن .. فهذا سيستغرق ثلاثة أشهر .. وهذا يستغرق ثلاث سنوات إلى آخر ما نعرفه جميعا .

بل إن العبادات مرتبطة بالزمن .. فصلاة الفجر مثلا لها وقت .. وصلاة الظهر لها وقت .. وكذلك العصر والمغرب والعشاء .. والحج له زمن أو ميقات معين .. والصوم له زمن أو ميقات معين .. بل إن الزمن يسيطر على حركة الحياة .. والله سبحانه وتعالى قد خلق النهار للسعى إلى الرزق والعمل .. والليل للسكون والهدوء ليسترىح الجسد البشري ، ويجدد طاقته لعمل اليوم التالي .. وهذا قانون من قوانين الحياة .. فالإنسان لا يستطيع أن يعمل ليلا ونهارا .. ولو حاول ذلك خلال أيام قليلة لضاعت قواه ، ولم يستطع العمل .

والله سبحانه وتعالى هو خالق الليل والنهار .. وجعل الليل سكنا .. وجعل آية النهار مشرقة بالشمس .. وفي ذلك يقول الله

الله والزمن

سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَحَوْنَاءَ آيَةِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

(سورة الاسراء - الآية ١٢)

وهذا ليلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى أن العين لا تبصر بذاتها .. ولكن لا بد أن تدخل إليها أشعة النور لتبصر .. فأنت في الظلام الدامس لا تستطيع أن تبصر شيئا مهما تكن قوة بصرك .. ولكنك في ضوء النهار ، أوفى ضوء المصباح ، تستطيع أن ترى .. ولو كان للعين قوة ابصار ذاتية لأبصرت ليلا ونهارا .

والليل والنهار مقياس من مقياس الزمن .. ولقد ثار جدل كبير حول خلق الليل والنهار ، وأيهما خلق أولا : هل هو الليل أو النهار .. ولقد كان الاعتقاد في الماضي أن الليل قد جاء أولا ، ثم بعده النهار .. ولكن الله سبحانه وتعالى رد على ذلك ، وصحح هذا المفهوم في القرآن الكريم ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ
وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(سورة يس - الآية ٤٠)

وهنا رد الله سبحانه وتعالى وصحح مفهوما خاطئا كان يقول إن

الليل يسبق النهار .. ورد الله سبحانه وتعالى بأنه لا النهار يسبق الليل ، ولا الليل يسبق النهار .. وهكذا بين الله تبارك وتعالى ان الليل والنهار خلقا في وقت واحد .. وفي هذا الليل دليل على كروية الأرض ، وعلى دورانها حول نفسها .. فلو أن الأرض كانت مسطحة ، أو مربعة ، أو على أى شكل آخر ، لخلق النهار أولا ساعة خلق الشمس .. ثم بعد ذلك جاء الليل .. أو لخلق الليل أولا ، ثم بعد ذلك جاء النهار .. ولكن كون الأرض كروية . فإن النهار والليل يوجدان معا على سطح الأرض .. ودوران الأرض حول نفسها هو سر تعاقب الليل والنهار .

واليوم فى حياة البشر هو فترة من الزمن تبدأ من شروق الشمس إلى شروق الشمس .. أو من شروق الشمس إلى غروب الشمس .. بعض الناس يطلق على النهار كلمة يوم .. والبعض الآخر يطلق على الليل والنهار كلمة يوم .. وفى كلتا الحالتين هو وصف لفترة من الزمن تحدها علامة معينة من شروق الشمس إلى غروبها .. أو من شروق الشمس إلى شروقها فى اليوم التالى .

الزمن له وجود نسبي

الزمن لا يوجد في حياة البشر وجودا مطلقا .. بل هو وجود نسبي .. فكل حدث بالنسبة لنا له زمن محدود ، أو ظرف زمان .. وله مكان محدود يقع فيه ، أو ظرف مكان .. وذلك حتى يستطيع العقل البشرى أن يستوعبه .. ولا يوجد فعل في العرف البشرى يمكن أن يقع إلا في زمن معين ، ومكان محدد .. ولا نستطيع نحن أن نستوعب هذا الفعل إلا بالزمان والمكان .. فكل إنسان منا له تاريخ ميلاد ومكان ميلاد .. وله تاريخ وفاة ومكان وفاة .. وبغير ذلك لا تفهم الأمور .. فنحن عاجزون عن فهم الأمور على إطلاقها .

والانسان لا يملك الزمن ، ولكن الزمن هو الذى يملكه .. فأنت لا تستطيع أن تأتى بالماضى لتغير شيئا قد حدث فيه .. فما حدث قد انتهى وخرج من قدرتك تماما .. ولذلك فإنك إذا كنت قد ارتكبت أى عمل ، كجريمة قتل أو سرقة ، أو أنفقت مالا ، أو تزوجت ، أو أنجبت امرأتك طفلا .. فإنك لا تستطيع أن تعيد الزمن ، وتمحو هذه الأحداث .. حتى تعود الحياة إلى الشخص الذى قتلته ، أو لا يوجد الابن الذى أنجبته .. أو تستعيد المال الذى أنفقته .. وكذلك كل الأحداث .

الله والزمن

وكما أنك لا تملك القدرة على الماضي ، فإنك لا تملك القدرة على المستقبل .. فأنت لا تستطيع أن تعرف ما هو قادم من شر حتى تتقيه .. ولا ما سيحدث لك من خير ، حتى تستطيع أن تستزيد منه .. ولا الأخطار التي ستقابلها ، حتى تستطيع أن تستعد لها .. ولكنك لا تملك إلا اللحظة التي تعيشها .

والزمن حجاب من أحجية الغيب .. خلقه الله سبحانه وتعالى ليحجب عنا الغيب .. كما أن المكان حجاب أيضا من أحجية الغيب .. وهناك حجاب الزمن الماضي يحجب ما حدث عنك .. حقيقة تستطيع أن تقرأ عنه في الكتب .. وأن تسمع عنه من الرواة .. ولكن كتب التاريخ مليئة بالمتناقضات .. كل يحاول أن يروى من وجهة نظره وعلى هواه .. ورواة التاريخ مختلفون .. فإذا اختلفت الروايات .. فهل تستطيع أن ترى رؤية العين ما حدث في الماضي حتى تصل إلى اليقين .. إنك لا تستطيع . لأن الزمن الماضي حجاب للغيب .. فهو غيب لم تره ولن تراه .

وأمن المستقبل أيضا من حجب الغيب .. فأنت لا تستطيع أن تعرف ماذا يحدث غدا .. ولا تستطيع أن تعلم ماذا يحدث في العالم القادم .. والمكان أيضا من حجب الغيب .. فأنت لا تستطيع أن تعرف وأنت في مكان محدد ماذا يحدث في الأماكن الأخرى من الدنيا .. وهكذا كان الزمن من حجب الغيب .

وأنت لا تستطيع أن توقف الزمن ، لأنه - كما قلت - هو الذى

الله والزمن

يملكك وأنت لا تملكه ، وأنت لا تستطيع أن تبقى طفلا ، ولا أن تبقى شابا لا يؤثر فيك الزمن .. ولكنك تنطلق من الطفولة ، إلى الشباب ، إلى الكهولة رغما عنك .

كل ما نملكه .. لحظة

وهكذا لا يملك الانسان إلا اللحظة التي يعيش فيها .. واللحظة التي مضت هي ماض لا يملكه إلا الله .. واللحظة القادمة هي مستقبل لا يملكه إلا الله .. وإرادتك لا تستطيع أن تجعلك طفلا لا ينمو ، أو شابا لا يصيبه الهرم .. أو إنسانا لا يدركه الموت .. فالزمن يمضي ، وأنت تأتي إلى الدنيا فترة محدودة ، وترحل ، وما تفعله لا تستطيع أن تعيد الزمن لتصحيحه .

ولذلك إذا قلنا « يوم » فهذا قانون دنيوى .. لا تسيطر عليه أنت .. فترة من الوقت لا تستطيع أن تعيدها .. وإذا نحن استطعنا أن نعرف الزمن بالقوانين البشرية .. فإن الزمن بمعناه المطلق غير موجود ، أى أنه نسبى .. مرتبط بالأحداث ، فهو فترة قياس أحداث معينة تقع .. وبدون هذه الأحداث لا يصبح للزمن معنى ولا وجود .

فمعنى زمن طويل أن الحركة التي حدثت فيه واسعة .. ومعنى

الله والزمن

زمن قصير أن الحركة التي حدثت فيه ضيقة وسريعة .. فإذا استعرضت عمرك مثلا .. وقلت إن فترته ستون سنة أو سبعون سنة .. فأنت في الحقيقة تستعرض أحداثا كثيرة ، وحركة حياة واسعة حدثت .. وإذا قلت : إن هذا الشيء لم يستغرق إلا ثواني معدودة .. فأنت تستعرض حركة ضيقة وسريعة .. وبدون الحركة لا يكون هناك معنى للزمن .. ولكن ذلك الذي يغفل عن الزمن بنوم أو بموت لا يشعر بالزمن .. وليس الزمن موجودا في حياته .. فنادرا عندما ينام الانسان أن يستطيع وحده ، دون أن يلجأ إلى ظواهر الزمن كالساعة أو الليل والنهار ، أن يحدد عدد الساعات حين يستيقظ إلا إذا نظر في الساعة .. ولا يستطيع فاقد الوعي لفترة من الزمن أن يحدد الفترة التي قضاها فاقد الوعي .. وكذلك لا يستطيع الانسان عندما يموت أن يحدد مدة الزمن التي قضاها في البرزخ .. ولذلك نجد القرآن الكريم يلفتنا إلى ذلك في يوم البعث في قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ۖ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(سورة الاسراء - الآية ٥٢)

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدِ سِنِينَ ﴿١١١﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ

الْعَادِينَ ﴿١١٢﴾ قُلْ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَوْ أَنكُرْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة المؤمنون - الآيات ١١١ - ١١٤)

الله والزمن

وقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَخْلَفُونَ
بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة طه - الآيات ١٠٢ - ١٠٤)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا في القرآن الكريم أن حياتنا في البرزخ لا تخضع للزمن .. ذلك أننا حين البعث يوم القيامة يسألنا الله سبحانه وتعالى عن المدة التي قضيناها في البرزخ .. فيقول بعضنا : لبثنا يوماً أو بعض يوم .. ويقول المجرمون وهم لا يستطيعون تحديد الزمن ، فبعضهم يقول : إنها عشرة أيام ، وبعضهم يقول : إنها يوم ، وبعضهم يقول إنها ساعة .. ولو كان هناك زمن في حياة البرزخ لعرف الذين عاشوا فيه كم قضوا .. ولكن عدم علمهم وتخبطهم يبين أن من يموت .. لا يستطيع أن يحدد الزمن الذي يقضيه في حياة البرزخ .. لأن الزمن لا يقاس إلا بالأحداث .

صورة الزمن .. في القرآن

على أن هناك صورة أخرى أعطاهما الله لنا في القرآن الكريم هي
سورة الكهف الذين لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين . وازدادوا تسعا ..
يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾

(سورة الكهف الآية ١٢)

ويقول الله :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا

يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ

هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ

وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

(سورة الكهف - الآية ١٩)

في هذه الآيات يريد الله سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى قوله الكريم :

﴿ ثم بعثناهم ﴾

وقوله تعالى :

﴿ وكذلك بعثناهم ﴾

الله والزمن

أى أن الايقاظ هنا كان إيقاظ بعث كما سيحدث يوم القيامة ..
وكان الهدف منه أن يلفتنا الله إلى أننا لن نعلم كم من الزمن قد مر
علينا قبل أن نبعث .. ولذلك قال تعالى :

﴿ بعثناهم لیتساءلوا بينهم ﴾

أى أن البعث تم حتى يعرفوا أن تأثير الزمن يمكن أن يوقفه الله ..
ولذلك حين تساءلوا ، وسألوا بعضهم البعض ، لم يكن عندهم
ما يحدد لهم الزمن الذى قضوه خلال فترة النوم .. فحدوده على
أساس العادة .. فالإنسان عادة لا ينام إلا جزءا من اليوم ، أو على
أقصى تقدير يوما بأكمله إذا كان فى غاية الارهاق .. والدليل على أن
قولهم صادق بالنسبة لهم ، أنهم لم يروا تأثير الزمن على أجسادهم ،
ولا على وجوههم .. بل بعثوا على نفس الهيئة التى ناموا عليها .

لو أن بعضهم مثلا نام ، وشعره أسود ، واستيقظ وقد شاب
شعره .. لساعده ذلك على أن يقيس الحدث على مدة نومه .. لو أن
أحدهم نام ، وهو شاب ، ثم استيقظ ليجد نفسه كهلا .. فى هذه
الحالة كان من الممكن أن يقيس مدة النوم على مدة الحدث .. حينئذ
تكون هناك أحداث قد حدثت ، وهى انتقال من الشباب إلى
الشيخوخة ، والحدث هو قياس الزمن .. فكانوا حينئذ ولو بالتقريب
يستطيعون أن يحددوا مدة نومهم .. ولكن ماداموا قد استيقظوا على
نفس الهيئة التى ناموا عليها .. إذن ففى هذه الحالة يقيسون الحدث
بالزمن .. كيف حددوا الحدث .. إنهم استخدموا عادة النوم عند

الانسان . . أو مدة النوم ، أقلها بعض اليوم ، وأكثرها يوم كامل ، لأنه ليس عندهم مقياس للزمن فلا يوجد مقياس للزمن يعيش به الانسان مادام غائبا عن الأحداث .

طلاقة القدرة توقف الزمن

إذا انتقلنا إلى قصة أخرى أنبأنا القرآن عنها في قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ۗ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿۲۵۹﴾

(سورة البقرة - الآية ٢٥٩)

في هذه الآية يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى طلاقة قدرته في الكون . . وأن الكون الذي يعمل بالأسباب التي خلقها الله فيه طلاقة القدرة التي هي فوق الأسباب ، فلا يمكن ان تكون الأسباب

الله والزمن

وهي من خلق الله ، قيذا على الخالق سبحانه وتعالى .
مر هذا الرجل على قرية خربت بعذاب من الله أو بذنوب
أصحابها وفسادهم .. فتعجب ! كيف والأرض قد ماتت وذهبت
منها كل آثار الحياة من إنسان وحيوان ونبات .. كيف سبحانه الله
هذه الأرض التي ليس فيها أى مقومات للحياة ؟

وحيث أن أرادت مشيئة الله أن تريحه هذا بالتجربة ، وأن يلفتنا إلى
قدرة الله سبحانه وتعالى ، فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه .. ولما
استيقظ وعادت الحياة إليه ، لم يكن فيه شىء قد تغير .. بل استيقظ
على نفس الهيئة التي مات عليها .. استيقظ شابا قويا لا شىء حوله
يستطيع أن يقيس عليه الزمن .. وحيث سأل الله : كم لبثت ؟ فقال
قياسا على عادة النوم عن الانسان . وربما أكون قد نمت يوما ، وربما
نمت بعض اليوم .. ولذلك كان صادقا مع نفسه حين قال : لبثت
يوما أو بعض يوم .. حيث أنبأه الله سبحانه وتعالى أنه قد لبث مائة
عام .. ولكى يعطيه الدليل المادى على ذلك قال :

﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك ﴾

فوجد الطعام لم يتغير .. ثم طلب الله منه أن ينظر إلى حمارة ..
فوجد أن الحمار قد مات ، ولم يبق منه إلا عظاما نخرة .. أى أنه
مات .. ثم تعفن ، ثم تحلل ، حتى أصبح عظاما نخرة ، فقال : إن
ذلك لا يمكن أن يحدث فى يوم واحد .. بل لا بد له من فترة
طويلة .. فلما تبين له ذلك أعطاه الله آية بأن جعله يشهد عودة

العظام النخرة ، وعودة الحياة إلى حمارة .. فقال الرجل :

﴿ أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾

ولقد كان مرور الزمن على الحمار وتوقف الزمن عن الطعام .. آية بأن الله سبحانه وتعالى يستطيع بطلاقة قدرته أن يجعل الزمن يمضى أو يقف . بذلك قد وصلنا إلى أن مقياس الزمن هو الأحداث التي تقع فيه .. وأن الانسان إذا كان فاقد الوعي ، أو في حياة البرزخ ، لا يستطيع أن يحدد الزمن .. وهنا يقف الزمن .. أى لا يكون هناك زمن ..

إذن فالزمن شيء نسبي في الحياة .. وهو كما لا نحس به عندما ننام ، ولا نستطيع أن نحدده .. كذلك في حياتنا في البرزخ لا نستطيع أن نحدد الزمن ، لأنه لا زمن في هذه الحياة .

ما معنى يوم القيامة

نتقل بعد ذلك إلى أن الله سبحانه وتعالى أطلق على البعث ووصفه بأنه يوم ، فقال سبحانه وتعالى : يوم القيامة .. ويوم الدين .. وكلمة يوم يمكن أن تؤخذ بأنها موعد . غير أن بعض الناس يتساءلون : كيف يمكن أن يطلق الله لفظ يوم وهو لا يحدد زمان ولا مكان .. وليس هناك زمن .

الله والزمن

إن هذا الاطلاق له أكثر من معنى .. فيمكن أن نقول إن هذا تنبيه بأن الحساب سيمضى بلا توقف .. بمعنى أنه لن يتوقف الحساب ليستريح الناس ويناموا .. ثم يستأنف في اليوم التالي كما يحدث في عالمنا البشرى .. ويقرب الله هذا إلى أذهاننا فيطلق اسم يوم .. على أساس أن العمل يستمر طوال النهار ثم يتوقف ليلا . ولكن الذى يجب أن نفهمه أن كلمة يوم عند الله لا يجدها زمان .. أو لا يجدها وقت .. الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم :

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٤٧)

(سورة الحج - الآية ٤٧)

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (٤)

(سورة المعارج - الآية ٤)

وأمام هاتين الآيتين لابد أن نتوقف قليلا .. كيف يكون اليوم عند الله سبحانه وتعالى مدته مرة ألف سنة ؟ ومرة خمسون ألف سنة ؟ .. أى مقياس لليوم عند الله .. هل يوم القيامة يساوى يوما من أيام الدنيا .. أو يساوى ألف سنة - أو يساوى خمسين ألف سنة - إن ذلك يلفتنا إلى حقيقة هامة .. تفهمنا معنى اليوم فى استخدامه مع يوم القيامة .

إذا أردنا أن نعرف المعنى المطلق للزمن ، فإنه كما قلنا لا يوجد معنى مطلق .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الزمن .. ولذلك فإنه يستطيع أن يخلق يوماً مقداره ساعة .. ويوماً كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة .. ويوم مقداره ألف سنة .. ويوماً مقداره خمسون ألف سنة .. ويوماً مقداره مليون سنة .. فذلك خاضع لمشيئة الله .

ويوم الدين موجود في علم الله سبحانه وتعالى .. بأحداثه كلها .. بجنته وناره .. وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه .. وعندما يريد الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون ويخرج من علمه إلى علم مخلوقاته .. سواء كانوا من الملائكة أو البشر أو الجن .. يقول الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم :

﴿ كن ﴾

فيخرج من علمه إلى علم خلقه .. أو يخرج من علم الله الأزلى ، إلى علم غير الله المحدود .. والله سبحانه وتعالى لا يحده يوم ولا زمان ، ولا مكان .. ولكنه إذا قال هذا يوم الدين .. كان ذلك يوم الدين .. فإذا أراد الله أن يحدث في هذه الدقيقة ، حدث في هذه الدقيقة .. وإن أراد يحدته بعد ألف عام ، يحدث بعد ألف عام .. وإن أراد أن يظهره بعد مليون سنة ، حدث بعد مليون سنة .. فيوم الدين موجود في علم الله بكل مواصفاته من زمان

ومكان ، وطريقة بعث وحشر ، وطريقة حساب وجنة ونار . . كل هذا في علم الله . . والله وحده هو خالق هذا اليوم . . وهو وحده الذى يحدد كل أبعاده .

اليوم فى حياة البشر

ونحن إذا قلنا « يوم » بمنطق البشر فهذا قانون دنيوى . . يحكمنا ولا نحكمه . . يسيطر علينا ولا نسيطر عليه . . حقبة من الزمن تمر ، سواء أردنا أو لم نرد بأحداثها ووقائعها ، وكل ما يتم فيها . . هذا هو المنطق البشرى . . ولكن الله سبحانه وتعالى فوق هذه القوانين كلها . . انه هو خالقها يأمرها فتطيع .

إذن فيوم الدين يتم بمقاييس الله سبحانه وتعالى يضعها هو بزمن يخلقه فى مواعده . . والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا باختلاف المقاييس فى الآخرة عن مقاييس الدنيا . . فكما أننا قد بينا أن القوانين تختلف بين النائم والمستيقظ . . فإن القوانين أيضا تختلف يوم القيامة . . والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى ألا نأخذ شيئا فى يوم القيامة بمقاييس الدنيا . . فنحن سنرى ما كان محجوبا عنا . . وسنشهد ما لم نشهده فى حياتنا الدنيوية . . وستكون هناك أحداث تقع لم نكن نتخيل أنها موجودة . . ولذلك إذا أراد الله أن يخلق يوما كيوم القيامة مقداره ألف عام لاستطاع . . ولو أراد أن يفرق بين هذا

الله والزمن

اليوم وغيره .. بأن يجعله مليون سنة ، فإن ذلك يحدث .. إذن فلا نأخذ نحن ، ولا نحاول أن نحدد مقاييس يوم القيامة بمقاييسنا الأرضية .. بل علينا أن نبتعد عن ذلك تماما .. ولنأخذ تحديد الله لليوم بأنه الفترة التي يقتضيها حساب الناس جميعا .. أى أنها فترة أحداثها تبدأ بالبعث .. وتنتهى بانتهاء محاسبة الخلق . وبقدر ما شاء الله لهذه الأحداث أن تمتد ، فذلك هو يوم القيامة .. الذى يحده بداية ونهاية هو البعث من القبور ونهاية الحساب .. هل يتم ذلك فى ساعة أو فى مليون سنة .. لا أحد يستطيع أن يحدد لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى هى التى تحدد ذلك اليوم .

وكما اننا قد عرفنا اننا نغيب عن الزمن بحيث يبعث الذين ماتوا منذ بداية عمر حياة الانسان .. فلا يعرفون كم قضوا فى البرزخ .. ويقولون انه يوم أو بعض يوم .. مع انه قد يمتد بحسابنا البشرى إلى مئات الألوف من السنين .. وربما ملايين السنين .. فكذلك يوم القيامة لا تحده المقاييس التى نعيش بها .. ولا قدرات الدنيا ..

بعض العلماء يقول : ان الناس فى الآخرة سيتعرضون لأهوال ، ويرون أشياء لم يكونوا يرونها كالملائكة والشياطين .. بل إن الناس سيرون من كان قبلهم فى الدنيا ، ومن أتى إليها بعدهم .. وهؤلاء وهؤلاء لم يكونوا قد رأوهم من قبل .. نقول : إننا لا نريد أن نتجاوز ، لأن يوم القيامة ينتهى فيه إلف الحياة الدنيا .. أى ما ألفنا فى الدنيا كالليل والنهار والبحار والجبال والنجوم والشمس والقمر

الله والزمن

كل هذا سيختفى وسينتهى . ونحن سنخرج من هذه الأرض ، ثم بعد ذلك نحشر في أرض المعاد .. ولكن ما قضينا معه عمرنا .. كل هذا سينتهي تماما .. وذلك إذا تنبها لعلامات القيامة في قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسًا مَا
قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الانفطار - الآيات ١ - ٤)

وقوله تعالى :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ
سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾
وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة التكوير - الآيات ١ - ٦)

إذن فكل الحياة التي ألفناها من شمس وبحار وجبال ونجوم ستختفى وتنتهى تماما .. وكل المقاييس الدنيوية ستزول .. ولا يمكن لنا أن نستخدم مقياسا دنيويا مما ألفناه في مقاييس الآخرة . نكون هنا قد وصلنا إلى توضيح معنى اليوم .. وقد شاءت رحمة

الله سبحانه وتعالى أن يعطينا في القرآن الكريم من المعاني التي تقرب
إلى أذهاننا ما هو غيب عنا ، وذلك رحمة بعقولنا . . وحتى لا تتيه
وتضيع .

وانتهت الأسباب فلا تعمل

والله سبحانه وتعالى وصف نفسه في القرآن الكريم بأنه مالك يوم
الدين . . ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده . . ليس هناك دخل
لأى فرد آخر فيه . . أنا أملك عباقتي : وأملك متاعى ، وأملك
منزلى . . وأنا المتصرف في هذا كله وحدى . . والذي أحكم فيه
جميعه . . فمالك يوم الدين معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف
أمور العباد في ذلك اليوم بدون أسباب أى أن كل شيء سيأتى من الله
مباشرة . . بدون أن يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهرا . . ففى
الدنيا يعطى الله الملك ظاهرا لبعض الناس . . ويولى بعض الناس
ظاهرا أمر بعض . . ولكن فى يوم القيامة ليس هناك ظاهر . . الأمر
مباشر من الله سبحانه وتعالى . . ولذلك يقول الله فى وصف يوم
الدين :

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (١٩)

(سورة الانفطار - الآية ١٩)

الله والزمن

لقد خلق الله الأسباب في الدنيا لتمضى بها الحياة .. ولكن في الآخرة لا توجد أسباب ، والأمر مباشر من الله .

والملك في ظاهر الدنيا يهبه الله لمن يشاء ، مصداقا لقوله تعالى :

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكِ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ

﴿ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ ﴾

(سورة آل عمران - الآية ٢٦)

ولعل كلمة « تنزع » التي استخدمها الله سبحانه وتعالى تلفتنا إلى أن أحدا في الدنيا لا يرحب ولا يريد أن يترك الملك .. ولكن الملك يجب أن ينتزع منه انتزاعا .. أى رغما عنه ، ورغما عن إرادته .. والله هو الذى ينزع الملك ممن يشاء .

ولعل بعض الناس يتساءل : هل الملك في الدنيا والآخرة ليس لله ؟ .. نقول .. الأمر في كل وقت لله .. ولكن الله قد استخلف بعض خلقه .. أو مكنهم من ملك في الأرض .. فجعل لهم ملكا ظاهريا .. ومعنى ذلك أنه ملك ظاهر للناس فقط على انه للبشر .. ولكنه في حقيقته ليس نابعا من ذات من يملك .. ولكنه نابع من أمر الله .. ولو انه كان نابعا من ذاته من يملك وقدراته لبقى له .. ولم ينتزع منه .. ولكن انتزاع الملك ممن يملك دليل على انه لا يملكه بذاته وقدراته ، ولكنه مستخلف فيه بأمر الله .. ولهذا حكمة .. فالملك الظاهر يمتحن فيه العباد .. يمتحن فيه من يملك ، لأن الله سبحانه

وتعالى يحاسبه يوم القيامة على كيف تصرف في ملكه واداره .. وهل طبق في ذلك منهج الله أم انطلق يفسد في الأرض .. ويمتحن فيه الناس .. هل سكتوا على الحاكم الظالم؟ .. وهل استكانوا للظلم؟ .. وهل استحبوا المعصية؟ أم أنهم وقفوا مع الحق وضد الظلم؟ .. وهو لا يمتحن هؤلاء لأنه لا يعلم المصلح منهم من المفسد .. ولكنه يمتحنهم ليكون كل منهم شهيدا على نفسه ، حتى لا يأتي واحد منهم يوم القيامة .. ويقول يارب : أنك أعطيتني الملك لا تبعث الطريق السوى ولطبقت منهجك .. ولكن حتى لا يجادل إنسان ، ويكون كل شخص شهيدا على نفسه يوم القيامة . خلق الله الأسباب في الدنيا ، وخلق الملك الظاهري .

علم الله ..

وأحداث الدنيا

وبعض الناس يتساءل عما إذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء ، فهل هو محتاج لأن يمتحننا في الدنيا؟ .. والجواب طبعا لا .. ولكننا إذا أردنا أن نضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان ، والله المثل الأعلى ، نقول إن الجامعات في كل أنحاء الدنيا تقيم الامتحانات لطلابها .. فهل أساتذة الجامعة يجهلون ما يعرفه الطالب ، ويريدون أن يحصلوا منه على العلم؟ .. طبعا لا .. ولكن ذلك يحدث . حتى إذا رسب الطالب في الامتحان ، وجاء

الله والزمن

يجادل ، واجهوه بإجاباته فيسكت .. ولوانه لم يعقد مثل هذا الامتحان .. لا دعى كل طالب انه يستحق مرتبة الشرف .. ولولم يجعل الله الملك ظاهريا في الأرض .. ويجعل في ظاهر الأشياء أن هذا يعطى وهذا يمنع .. وهذا يستطيع أن يعطيك المال والخير .. وهذا يستطيع أن يأخذه منك .. لما اندفع ضعاف النفوس من الناس لارضاء البشر على حساب الله .. ولما وجد الاغراء بالمعصية ، واستحق الناس الذين يلتزمون منهج الله دخول الجنة .

إذن فظاهر الأشياء في الدنيا تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا من أنها امتحان يمر به الانسان .. ليوصله إلى الجنة ، أو إلى النار .. أما في الآخرة فظاهر الملك يختفى ، والأسباب تختفى ، ولا يملك إنسان لانسان أمرا ولو كان ذلك ظاهرا .

إلى هنا نكون قد تحدثنا عن معنى الزمن ، ومعنى يوم الدين .. والاختلاف بين قوانين الدنيا ، وقوانين البرزخ ، وقوانين الآخرة .. ونبدأ في الحديث عن علامات الآخرة .. أوعلامات الساعة التي حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي تحققت .

الفصل الخامس

علاماتنا

علامات الساعة

رسول الله صلى الله عليه وسلم له نبوءات كثيرة عن اقتراب الآخرة .. وهذه النبوءات .. تحقق معظمها ، وأصبح واقعا نعيش فيه بعد أن كان غيبا عن عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاشوا معه .. ونحن نصدق هذه النبوءات جميعا ، ما تتحقق منها مل ومالم يتحقق ، لأنه مادام رسول الله قد قال ، وهو الصادق الأمين ، فى فلا بد أنها هى الحق .

ولقد كشف الله من غيبه لرسوله الكثير .. وأطلعه على ما هو قادم ، ولكن ليس معنى هذا أن يدعى أحد أنه يعرف الغيب .. ذلك أن تلك خصوصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده .. فهو موحى إليه من السماء .. وقد أسرى به إلى سدرة المنتهى ، وأطلع ورأى وعرف أشياء لم يطلع عليها غيره .

وإذا كنا نتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فإنه رسول آخر الزمان .. ومعنى ذلك أنه الرسول الخاتم الذى لن يأتى رسول بعده حتى يوم القيامة .. ومعنى ذلك أيضا أن رسالته تستمر فى الأرض إلى آخر يوم من أيام الزمن .. والزمن - كما قلنا - مقياس أرض ينتهى بانتهاء الدنيا .

وهناك نبوءات لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحداث قريبة وقعت بعد وفاته .. فقد تنبأ بانتشار الدولة الاسلامية شرقا وغربا .. وقامت الدولة الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها .. ولم تمتد شمالا إلى أوربا ولا جنوبا .. وتنبأ بواقعه الجمل ، كما تنبأ بمقتل

علامات الساعة

الحسين وغير ذلك .. ولكننا لن نتعرض للنبوءات القريبة التي تحققت .. وإنما ستعرض للنبوءات التي تحققت في هذا الزمان .. أوعلى وجه الدقة لبعض هذه النبوءات ، لأن المجال لا يتسع لها كلها .

عندما ترى هوى متبعا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا رأيت هوى متبعا ، وشحا مطاعا ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فانتظر الساعة) .

هنا في هذا الحديث ثلاثة أشياء : أولها الهوى المتبع .. ما معنى الهوى المتبع ؟ .. لقد أنزل الله سبحانه وتعالى للناس منهجا يحكم حركة حياتهم .. ومنهج الله هو الذى ينبغى أن يسود إذا أرادت البشرية أن تحصل على الحياة الآمنة المنسجمة فى الأرض .

ولقد طبق المسلمون الأوائل منهج الله .. فسادت الحضارة الاسلامية العالم أكثر من ألف سنة .. وقادت الحضارة والعلم ، وكان الرقى والتقدم والازدهار للمسلمين وحدهم المتبعين لمنهج الله .

ثم بدأ المسلمون يتعدون عن المنهج وعن تطبيقه .. لأن الدنيا اجتذبتهم .. وأصبح لكل واحد منهم هوى فى الدنيا .. رغبة

علامات الساعة

تناقض منهج الله وتنقضه ، ولكنه يفعلها ليرضى أهواء نفسه ..
ويحقق منافع ذاتية لذاته .. فكل واحد في الدنيا يريد المال .. والله سبحانه وتعالى قد وضع منهجا للمال .. بأن ما يأتي منه عن طريق حركة الحياة يكون هو الحلال .. أى ما يتأتى منه بالعمل ، سواء أكان ذلك عملا مباشرا ، أم عن طريق المشاركة ، ولكن الناس تريد المال بلا عمل .. وهذا مناقض لمنهج الله .

ولكى يحقق الناس هذا النفع الذاتى نقضوا منهج الله .. وأصبح الواحد منهم يتفنن فى الحصول على المال الحرام .. إما بالسرقة ، أو بالنصب ، أو بالتحايل ، أو بفعل ما يغضب الله .. هذا نوع من الهوى المتبع .

نوع آخر .. الانسان يريد أن يعتدى على حرمان غيره ليحقق لذاته متعة وقتية .. والله يحرم ذلك .. ومنهج الله لا يقره .. وهنا يدخل الهوى المتبع .. فبدلا من أن يطبق الناس منهج الله ، ويغضوا أبصارهم انطلقوا وراء شهواتهم ، ونقضوا منهج الله لحركة الحياة .

إذن لم يصبح منهج الله هو الذى يحكم .. ويرجع الناس إليه فى افعال ولا تفعل .. بل أصبح ما يريد أن يحققه كل إنسان لذاته هو الذى يحكم .. وفى هذه الحالة ينسى الناس التكليف ، ويتعدون عنه ، ويجعلونه وراء ظهورهم ، ولم يعد يسيطر على حركة الحياة فى الدنيا إلا هوى النفس .. وأصبح أى إنسان يستبيح أى شىء ، وأى عمل فى حركة الحياة ليحقق لنفسه مالا أو نفعا .. ومادام هوى

علامات الساعة

إذن يكون الخلاف هو السائد .. ونكون قد نقضنا منهج الإيمان .. لأنه كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .. وإذا اصطدمت أهواء الناس في الحياة .. تفسد الحياة الدنيا .. لأننا في هذه الحالة نخضع الحق للهوى .. أى يكون الحق فى يدنا لعبة نشكلها كما نشاء ، بحيث تحقق لنا ما نريد .. وينطبق علينا قول الله سبحانه وتعالى :

النفس هو الذى يحكم الحياة ، وليس منهج الله .. تصبح حركة الحياة متعاندة .. وصراع الحياة مريرا .. هذا يريد ، وهذا يريد ، ولا تتفق النفوس أبدا .. ويشقى الانسان فى الأرض . لأن حركة الحياة لا تستقيم إلا إذا كان هناك أمر تصونه ويصونك .. ونجتمع عليه جميعا .

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

(سورة المؤمنون - الآية ٧١)

لماذا ؟ لأن هوى كل واحد منا مخالف لهوى الآخر .. ولكن الحق واحد لا يتغير .. ومن هنا فهذا يريد .. وهذا يغير .. وهذا يغير .. وما جاء الدين إلا لعصمة حركة الحياة من أهواء الناس حتى يكون هناك حق واحد ، فنتجه جميعا إلى عمل لا يتعارض .. ولكن يتعاصد .. أى يكمل بعضه بعضا .. ويتساند ، أى يقف بعضه مع بعض حتى تستقيم الدنيا .

فإذا رأيت هوى متبعا .. فاعلم أن منهج الله لا يحكم حياة
الانسان في الكون ، وعندئذ انتظر الساعة .

ما هو ..

الشح المطاع ؟

الأمر الثاني حين ترى شحا مطاعا .. والشح هو البخل .. ومعنى
ذلك بخل النفس عن أن تعطى .. وفي هذه الحالة تحدث النفس
صاحبها أنه لو انفق لذهب ماله .. واغواء الشيطان في هذه الحالة
يكون هو الغالب والحاكم على سلوك الانسان ، مصداقا لقوله
سبحانه وتعالى :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ
وَفَضْلًا ۗ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٢٦٨)

يبخل الناس بما لهم فلا ينفقونه في سبيل الله ، ولا يعطونه للفقير
والمحتاج .. ولا ينفقونه فيما ينفع الناس .. وحينئذ يختل المقياس
الاقتصادي .. ويصبح هناك غنى فاحش ، وفقير مدقع .

ولا بد أن نتنبه إلى أن شح الحياة ليس معناه الشح المالى فقط ..

علامات الساعة

ولكن معناه العام .. شح أو بخل كل ذى قدرة بقدرته وجهده .. فتجد العامل يستطيع أن يعمل ، ولكنه لا يعمل .. والموظف يستطيع أن ينتج ، ولكنه لا ينتج .. وكل عمل فيه جهد يبخل العاملون فيه بجهدهم .. فهناك بخل من ذى القدرة بجهده .. وبخل من ذى العلم بعلمه .. أى أن العامل أو المعلم أو الأستاذ قد يملك العلم الكثير والغزير .. ولكنه يبخل أن ينقل هذا العلم إلى طلبته .. أو إلى من يدرسون العلم على يديه .. بل لا يعطيهم من علمه إلا قدرا بسيطا جدا .. وشح ذى الجاه بجاهه .. أى أن الانسان يكون في مجتمعه مسموع الكلمة ، مطاع الأمر .. ولكنه يرفض أن يستخدم ما وهبه الله له من هذا الجاه في مساعدة المحتاجين .. أو في انصاف المظلومين .. أو في تمكين الضعفاء من حقوقهم .. فيأتى إليه المحتاج ، وهو يستطيع أن يقضى له حاجته بكلمة واحدة .. ولكنه لا يفعل .. بل يتركه بدون أن يقضى له حاجته .. ويأتى إليه المظلوم .. ويعرف ذو الجاه أن هذا المظلوم قد وقع عليه ظلم .. وهو يستطيع بكلمة واحدة أن يزيل هذا الظلم ، ولكنه لا يفعل .. ويظل المظلوم يرجو ، وذو الجاه أو السلطان لا يفعل شيئا .. ويأتى الضعيف إلى صاحب الجاه يطلب منه أن يمكنه من حقه ، ويستطيع صاحب الجاه أن يفعل .. ربما بتوقيع صغير منه يستطيع أن يعيد لهذا الضعيف حقه ، ولكنه لا يفعل .

وهكذا في كل أوجه الحياة تجد شحا مطاعا .. فكل إنسان يبخل بجهده على غيره ، حتى ولو كان هذا الجهد لا يكلفه شيئا .. وأقل

الشح هو شح المال .. وأكثر الشح ضررا هو شح النفس في أن كل إنسان لا يعطى المجتمع الذى يعيش فيه ما عنده .

وبذلك يتدهور المجتمع ، وتزداد مشاكل الناس تعقيدا .. ولا توجد لها الحلول .. فمادام الشح المطاع هو الذى يحكم .. فالمجتمع كله ينحدر بسرعة إلى هاوية عميقة .. حتى لو وجدت أقلية تعطى ما عندها من مال وعلم وجاه إلى آخره .. فإن الأكثرية التى لا تعطى تفسد جهود الأقلية التى تعطى ، وتجعلها جهودا غير مؤثرة .

حديث القرآن عن الشح

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد ذكر لنا في القرآن الكريم مسألة الشح في ثلاث آيات .. في قوله تعالى :

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١٢٨)

(سورة النساء - الآية ١٢٨)

علامات الساعة

وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
(سورة الحشر - الآية ٩)

وقال تعالى :

﴿ فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾
(سورة التغابن - ١٦)

وهكذا نرى في الآيات الثلاث أن الشح لا ينطبق على المال فقط .. ولكنه ينطبق على كل نشاطات الحياة .. ففي الآية الأولى ينطبق على المعاملة مع الزوجة ، وعلاقة الزوج بها .. والله سبحانه وتعالى يطالبنا في علاقتنا بالسماح وليس بالتشدد .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا اقتضى » .

والآية الثانية في سورة الحشر يبين الله سبحانه وتعالى فيها السماحة التي لا بد أن تقوم في المجتمع الاسلامي .. تلك السماحة التي تقيم

علامات الساعة

المجتمع على أساس المحبة .. وقد نزلت هذه الآية في الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة .. وتركوا أزواجهم وأولادهم ، وكل ما يملكونه في مكة .

انظر إلى السماحة في هذا الظرف غير العادى ، أو هذا الظرف القهرى .. مجموعة تملك كل شيء .. ومجموعة ليس لديها شيء ، حتى الزوجات أو النساء .. والرجل قد يفرط في شيء . وقد يعطى من كل شيء : من ماله وعلمه وجهده .. ولكن لو وصلت المسألة إلى الزوجة ، أو الزوجات ، فإنها في هذه الحالة تكون شديدة جدا على النفس .. ولكن الأنصار كان الواحد يذهب إلى أحد المهاجرين ، ويقول له : هذا مالى فخذ نصفه . وهذه دارى نقتسمها معا .. وهؤلاء زوجاتى انظر إليهن .. أحبهن إلى نفسك أطلقها وتزوجها .

وهكذا وصل العطاء في هذا الظرف غير العادى إلى حدود غير عادية .. ولكن ذلك تم حتى لا يكون المجتمع الاسلامى بادئا بمجتمع فيه فقر مدقع ، وغنى فاحش .. فيه متزوجون ورجال بلا زوجات ، فقد تشيع الفاحشة .. وألا يقوم هذا المجتمع على الحقد ، لأن من لا يملك سيحقد على من يملك .

والآية الثالثة في الايمان والتقوى .. وذلك حتى يعطى الانسان الطاقة التى يستطيعها للايمان والعبادة ، ولا يكون شحيحا في صلاته .. يقول : سأصلى الفرض وحده ، ولن أصلى السنة ..

علامات الساعة

أوشحها في زكاته وصدقته .. فيقول ، وهو يملك الكثير ، لن أخرج من زكاة المال إلا ما هو مفروض بدون أن أزيد عليه قرشا واحدا .. وكذلك في كل متطلبات الايمان من الله سبحانه وتعالى .. يعد الله بالأجر العظيم من يزيدون فيها ولا يبخلون .. بشرط أن تكون الزيادة من جنس ما فرض من العبادة ..

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ أن الله سيسأل الناس يوم القيامة عما فعلوه بالمال الذي وهبهم إياه .. وبالعلم الذي أعطاه لهم .. وبالجاه والسلطان الذي جعلهم مستخلفين فيه .. وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه) .

على أننا لا بد أن نتساءل : لماذا يكون الشح المطاع نقضا لمنهج الله في الأرض ؟ .. لأن الله سبحانه وتعالى قد جعل للبشرية حضارة وتقدما .. وهذه الحضارة والتقدم لا يتمان إلا إذا أعطى كل جيل كل ما عنده للجيل الذي بعده .. وحينئذ يبدأ الجيل الجديد من النقطة التي انتهى إليها الجيل الذي قبله .. ثم يضيف إليه .

وعدم عطاء أى جيل كل تقدم في الحياة للجيل الذى بعده سيوقف تقدم الحضارة والعلم .. ويؤثر على تقدم البشرية كلها .. والله قد وضع منهاجاً يحقق تقدم الانسان في الحياة ورفيها .. وشح النفس يمنع

تطبيق هذا المنهج وينقضه .

إعجاب صاحب الرأي برأيه ..

والأمر الثالث إعجاب كل ذى رأى برأيه .. ما هو الرأى ؟ ..
الرأى هو الذى يمثل هوى النفس الداخلى .. أى ما تخفيه فى نفسك
من أهواء وأطماع ولا تعلنه للناس .. ولكنك تصل على تحقيقه بأراء
تبدىها .. تحاول أن تضع فى ظاهرها المصلحة العامة .. بينما هى فى
الحقيقة محاولة لتحقيق ما تخفيه من أغراض .. حينئذ تختلف الآراء
فى الشئ الواحد .. فيصبح لهذا رأى ولهذا رأى .. ولهذا رأى ..
وكل الآراء التى تسمعها هى آراء بعيدة عن الحق والحقيقة .. وكل
إنسان متمسك برأيه يحاول أن يدافع عنه دفاعا مستميتا .. وفى هذه
الحالة عندما تختلف الآراء لا تعرف أين الحق .

ولا يلتفت كل هؤلاء الذين يدلون بأرائهم إلى رأى المشرع ،
ولا رأى منهج الله .. بل يصبح كل تشريع يطبق على أساس المطامع
التي يخفيها كل إنسان فى صدره .. والتشريع الواحد يطبق مئات
التطبيقات المتعارضة المتناقضة .. وكل من يطبق متمسك برأيه ..
معتز به .

حينئذ تتعاند حركة الحياة وتصطدم .. ويصبح الناس فى فوضى

علامات الساعة

لا يعرفون ماذا يفعلون .. الشيء محدد .. ولكن الأغراض التي يخفيها الناس في صدورهم ، ويحاولون تحقيقها عن طريقه ، متناقضة ومتباعدة .. بحيث تجعل حركة الحياة نفسها لا تستقيم ولا تعادل .

وإذا نظرنا إلى ما يحدث الآن .. نجد أننا في بعض الأحيان نرى أناسا يعرفون أن الرأي الذي يقال هو الحق .. ومع ذلك فانهم مع اعجابهم برأيهم ينقضون هذا الحق برأى باطل .. ومع أنهم يعرفون أن هذا الرأي الذي يقولونه باطل ، إلا أنهم يتمسكون به ، ويدافعون عنه زهوا واعجابا .. بأن الرأي الذي سيؤخذ به هو رأيهم هم ، مهما يكن رأيهم مخالفا للحقيقة ، ومتصادما مع الحق .

بل انهم يفاخرون بعد أن تنتهى الجلسة وتنفض .. بأنهم قد استطاعوا أن يرفضوا رأيهم على غيرهم .. ويقولون زهوا : لقد أخذ الجميع برأينا .. وقد يقضى موظف كبير برأى ما . فإذا جاء من هو أقل منه في المنصب ، وأبدى رأيا مخالفا يتفق مع الحق .. فإن هذا الموظف الكبير يرفض الرجوع عن رأيه مع أنه باطل ، ويصر عليه وعلى تنفيذه ..

وهكذا يضيع الحق في الدنيا بين إعجاب كل ذى رأى برأيه .. ويصبح ما يتخذ من قرارات أو قوانين لا يمثل الحق .. ولكنه متخذ من آراء تتمسك بالباطل ، وتعز بالإثم .. فلا يحكم الحق الدنيا .. والله سبحانه وتعالى .. يريد أن يكون الحق هو الحاكم .

علامات الساعة

عندما تلد

الأمة ربثها

ومن علامات الساعة التي أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها هي (أن تلد الأمة ربثها) . . ولقد فسر هذا الحديث تفسيرات كثيرة ، فقالوا : إن معناه أن يتعلم أولاد الفقراء ، ويصبحوا من ذوى المناصب الهامة ، فتتنكر الابنة لأمها . . وتجد أنه من العار أن تعترف أنها ابنة هذه الأم فتجعلها خادمة عندها . . وقيل إن المقصود به أن الابنة إذا تزوجت رجلا غنيا أصبحت أمها خادمة عندها .
ولكننى أعتقد أن هناك تفسيراً آخر لهذا الحديث . . فمعنى أن تلد الأمة ربثها هي أن تصبح الابنة هي الأميرة الحاكمة فى البيت . . تفرض رأيها على أمها وأبيها ، ولا يجروان إلا أن يطيعاها . . والمفروض فى الابنة بالذات أن تكون طيبة لوالديها ، وأن تفعل ما يأمرانها . . ولكن الأمر انقلب . فبدلاً من أن تكون الأم هي سيدة البيت . . ورأيها هو الذى ينفذ ويطاق . . تصبح الابنة هي سيدة البيت . . وأمرها هو النافذ . . والأم والأب عاجزان عن أن يفعلوا شيئاً .

بل إن الأمر قد يصل إلى نوع من التحدى . . تفرض فيه الابنة إرادتها حتى فيما يغضب الله ، وتتحدى بذلك أمها وأباها . . ونحن نرى أن هذا قد أصبح سمة من سمات الحياة الآن . . فالابنة هي

ربة الأم .. والأم لا تملك إلا أن تطيع ولو مكرهة .. وهذا في رأى
معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من علامات الساعة
(ان تلد الأمة ربتها) .. أى أن الابنة أصبحت لها ولاية والأم من
رعيها .

تطاول

الحفاة العراة

ومن علامات الساعة ، كما أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
أن يتطاول الحفاة العراة في البنيان .. أى أنه يأتى زمن يكون المال فى
يد بعض الناس الذين تراهم فتعتقد أن أحدهم فقير لا يملك شيئاً من
صورته وهندامه .. ولكنك تفاجأ بأنه يملك المال الكثير .. وعادة
مثل هؤلاء الناس عندما يأتهم المال من كل مكان .. فإن عقلهم
لا ينصرف إلا لبناء العمارات وتملكها .. هم يقومون أنفسهم بما
يملكون من عقارات ، لأنهم عادة لا تكون لهم ثقافة ولا علم يصنع
لهم مكانة فى المجتمع .. فلا يستطيعون بعلمهم أو ثقافتهم أن
يحصلوا على احترام الناس .. ولا بنسبهم وعائلاتهم .. ولا يكون
أمامهم أن يحصلوا على منزلة فى المجتمع إلا بالبنيان أو العمارات التى
يملكونها ويفخرون بها .. وتكون هى سندهم الوحيد فى محاولة أن
يصلوا إلى طموحاتهم فى الدنيا .

علامات الساعة

على أن هناك معنى آخر لا بد أن نلتفت إليه .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خلق البدو والحضر .. أو المدينة والريف .. لحكمة في الحياة .. والله يريد حضرا فيه كل المقومات الحضرية ، أو مقومات المدنية من بنیان عال ، وحركة حياة مزدهمة ، إلى آخر صفات الحضارة أو المدنية التي نعرفها .. وفي نفس الوقت يريد بادية أوريفا له كل مقومات البادية أو الريف .. والحضارة البدوية أو الريفية لها دور هام في الراحة النفسية .. فنجد أن أى إنسان يعيش في المدينة لا يستريح إلا إذا ذهب بعض الوقت إلى مكان خلوى أو مزارع ليقضى بها جزءا من وقته بعيدا عن حضارة المدينة وزحامها وضجيجها .. فالنفس البشرية لا ترتاح إلا في المكان الذي فيه فطرة الحياة بدون حضارة البشر .

والله سبحانه وتعالى يريد حياة متكاملة متساوية .. ذلك أن ملكات الانسان متساوية ، لا تطغى فيها ملكة على ملكة .. وهو لا يستطيع أن يستغنى في حياته عن تلك الأماكن التي فيها فطرة الله وحدها .

يأتى زمن يتحول فيه الاجراء في البادية أو الريف إلى ملاك للمال .. ويصبح المال في أيديهم كثيرا .. وكانوا من قبل معدمين .. حينئذ لا تكون طموحاتهم في أن يزيدوا الريف أو البادية جمالا فطريا .. بل إنهم يفسدونه بكثرة البنیان حتى أصبح الريف كالحضر من كثرة البنیان فيه .. ويتم هذا عشوائيا وبدون تخطيط

علامات الساعة

يساعد على إبقاء جمال الريف أو البادية ، الذي وهبه الله لها .. بل يتم كل ذلك بصورة دميمة .. تجعل هذه الأماكن بعد أن كانت لراحة النفس البشرية مصدر تعب لها .. ولا يجد الانسان مكانا يذهب إليه ليسترىح فيه .

حينئذ نجد أن الذين كانوا من فقراء أهل الريف أو البادية ويعملون فيها ، يتركون عملهم .. لأنهم تعالوا في البنين .. وتصبح الأرض لا تجد من يزرعها .. ويزيد هذا من قبح الريف أو البادية ، لأنها تصبح مهجورة .. وبذلك تختل ملكات الانسان ، لأنه لا يجد مكانا يسترىح فيه ، وهذه العملية تتم بالتدرج وعلى مر الزمن .

ومن علامات القيامة أيضا التي أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم (النساء الكاسيات العاريات) .. وهذا ما نراه حولنا الآن .. فعدد من النساء يظهرن من أجسادهن أكثر مما يسترن منها .. والله سبحانه وتعالى أمرهن بأن يسترن أجسادهن وحدد ما يكشف بالوجه والكفين .. وهذا يرجع إلى أن الناس يتعدون عن دينهم .. ولم يعد الدين حاكما لحركة الحياة ، ولا تصرفات البشر ، كما كان يجب أن يكون .

إعطاء الشيء لغير أهله

ومن علامات الساعة (أن يعطى الشيء لغير أهله) .. وهذا الحديث له معنيان :

المعنى الأول : أن العقل البشرى يستنفد تجربته ، ويستنفد فكره ، ويستنفد طموحاته كلها في اكتشاف أسرار الله في كونه .. حتى يظن الانسان انه بالعلم الذى وصل إليه ، وبالإمكانات ، أو التكنولوجيا التى يقولون عنها قادر على أن يتصرف فى الحياة وفق ما يريد .. وأن يخضع أحداثها لإرادته .

ومادام الانسان قد ظن أنه قادر على الحياة فى الأرض .. وعلى أن يفعل ما يشاء بذاته .. فإنه ينسى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى وضع له هذه الامكانيات فى الأرض ، واستخلفه فيها .. وجعلها خاضعة لإرادته ، ينسى الانسان قدرة الله .. ولا يعقد إلا فى قدراته .. وإذا نسى الانسان قدرة الله فقد ترك منهجه .. وبدأ يتصرف فى الكون وفقا لإرادته ، أو ما تشتهيئه نفسه ، فتختل الموازين .. ويستعبد القوى الضعيف ، ويصبح المال الحرام حلالا .. ومادام الحق قد ضاع من الأرض ، والانسان اعتقد أنه قد سيطر عليها ، بحيث يستطيع أن يفعل ما يريد .. فإن الله سبحانه وتعالى ، وهو يرى البشرية قد وصلت إلى هذه الحالة ، يأتي

علامات الساعة

يوم القيامة ليعيد الميزان الحق يحكم بين البشر .
وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :
﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَالِيًا
أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

(سورة يونس - الآية ٢٤)

إذن إذا أخذنا هذا الحديث بالمعنى الواسع .. فإنه من علامات
القيامة أن يعطى الشيء لغير أهله .. أى أننا بدلا من أن نعطى فى
الدنيا الأمر لله سبحانه وتعالى .. لأنه هو الأمر والخالق والناهى ..
تأتى لغير أهل هذا الأمر .. والذين لا يستطيعون فننسبه إليهم دون
ما حقيقة .. وهكذا ينسب الانسان بغروره التقدم العلمى الذى
يحققه لنفسه ، وهو غير أهل لهذا .. فهو لا يستطيع حقيقة .. أن
يخضع قانونا واحدا من قوانين هذا الكون لارادته .. ولكن هذه
القوانين كلها تخضع لارادة الله وحده .. ومع ذلك فهو يظن ..
ولنلتفت إلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ .. أى
اعتقدوا باطلا على غير الحقيقة انهم قادرون عليها .. والظن نوع من

التخمين الذى لا يستند إلى أى حقيقة علمية ولا يعتد به ..
ولكن أهل الأرض قد أخذوا هذا الظن وحولوه إلى يقين ..
وقالوا : لقد استطعنا بالعلم والتكنولوجيا أن نخضع الأرض ونجعلها
خاضعة لمشيئتنا .. حينئذ يأتى أمر الله ليذمر كل الشئ .. فيعرف
الناس يقينا أن الأرض لا تخضع لمشيئتهم .. لأنها لو كانت تخضع
لهذه المشيئة ، لاستطاعوا حمايتها من التدمير بالقوانين التى ظنوا أنهم
اكتشفوها .

نأتى بعد ذلك إلى الشق الثانى من نبوءة رسول الله صلى الله عليه
وسلم .. ومعناه أنه سيكون هناك حكام وولاة يحاولون بالابقاء على
حكمهم وولايتهم ألا يختاروا الناس حسب كفاءتهم أو علمهم
أو خبرتهم .. ولكنهم يختارونهم من الذين يطيعونهم فى الحق
والباطل ، وتلك قضية يعبر عنها فى العصر الحديث بأهل الثقة وأهل
الخبرة .

يأتى هؤلاء الحكام أو الولاة ، وهم يعرفون من يصلح لهذا
العمل ، فيبعدونه عنه ، ويضعون انسانا لا يفقه شيئا فى هذا
المجال ، لأنه يطيعهم حتى ولو كانوا على باطل .

وبهذا تنتفى الخبرة السليمة فى إدارة العمل .. ويصبح الذين
يعلمون لا يفعلون شيئا .. والذين لا يعلمون هم الذين يديرون
حركة الحياة فى الكون كله .. ومادامت المسألة أهل ثقة وأهل
خبرة .. تكون كل الأمور قد خضعت للهوى .. لأن أهل الثقة هم

علامات الساعة

الذين ينفذون هوى النفس بالنسبة للوالى أو الحاكم بدون أى اعتبار آخر .. وهنا تكون حركة إشراف الناس على الحياة قد اختلفت .. ومادامت حركة إشراف الناس على حركة الحياة مختلفة .. تصبح حركة الحياة كلها مختلفة ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى ذلك فى الحديث الشريف حين يقول : (من ولى أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلاً ، وهو يجد من هو أصلح منه ، فقد خان الله ، وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين) .. وذلك لأن مثل هذا العمل سيفسد نظام الكون كله .

على أن هناك نبوءات أخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامات الساعة تبين لنا بوضوح أكثر .. كيف ستختل حركة الحياة عندما تقترب الساعة .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل السادس

انقلاب في التلوين

انقلاب فى الموازين

إذا أردنا أن نكمل الحديث عن علامات يوم القيامة التى أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فإننا نحتاج إلى مجلدات ومجلدات ، ذلك أن العلامات التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم علامات كثيرة . . منها علامات تحققت . . وعلامات كبرى لم تتحقق بعد كظهور المسيح الدجال ، والمهدى المنتظر ، وغير ذلك مما لم يتحقق بعد . . ولكننا لن نتعرض إلى ما لم يتحقق . . مكتفين ببعض ما تحقق فعلا . . وإذا كان بعض الناس يشكون ، أو لا يصدقون فى أن العلامات الكبرى للقيامة ستتحقق ، فإننا نقول لهم : إن صدق ما تحقق الآن دليل على صدق ما هو قادم . . ونحن نصدقه لأنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين .

على أننا قبل أن نتحدث عن بعض علامات الساعة التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإننا نقول إن هذه العلامات كلها هى تفسير للآيات الكريمة :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ

الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

(سورة الروم - الآية ٤١)

وقوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾

(سورة الفرقان - الآية ٣٠)

انقلاب فى الموازين

أى أن ظهور الفساد فى الدنيا هو بما كسبت أيدي الناس . . أى أن منهج الله لا يتضمن الافساد فى الأرض . . بل إن منهج الحياة يضع أسس الاصلاح فى الأرض ، والصلاح فى الكون . . ولكن الناس بعدوا عن منهج الله ، فظهر الفساد . . ومع ظهور الفساد سيعانى الناس ، لتصبح حياتهم أكثر تعقيدا ، وأكثر عناء ، وأكثر معاناة . . وذلك جزاء من الله ليذيقهم بعض ما عملوا .

ونلاحظ هنا أن رحمة الله قد سبقت عدله . . فلم يقل سبحانه وتعالى يذيقهم ما عملوا . . ولكنه قال :

﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾

(سورة الروم - الآية ٤١)

أى أن الله سيذيق الناس فى الدنيا نتائج جزء يسير جدا من أعمالهم ، ويؤجل الجزاء الأوفى للأخرة ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾

(سورة فاطر - الآية ٤٥)

أى ما ترك على ظهر الأرض أى حى يدب بقدميه عليها . وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾

(سورة الفرقان - الآية ٣٠)

انقلاب فى الموازين

معناه انهم هجروا منهج الله .. لأن القرآن هو منهج السماء إلى الأرض وهجروا هذا القرآن .. أى تركوا العمل بأحكامه .. وكما بينا هو أن يوم القيامة يأتى عندما يهجر الناس المنهج ، ويظنون انهم بقدراتهم يحكمون الأرض ، ويسيطرون عليها .

على أننا قبل أن نغضى لابد أن نقول إن علامات الساعة متى تحققت لا تختفى .. وأنها تزيد ولا تنقص .. ذلك فإن ما تحقق منها حتى الآن سيزداد مع مرور الزمن .

أماتوا الصلاة .. وأضاعوا الأمانة

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة ، وأضاعوا الأمانة وأكلوا الربا ، واستحلوا الكذب ، واستعلوا بالبناء ، وباعوا الدين بالدنيا « .
هذه بعض علامات الساعة التى رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

ما معنى أماتوا الصلاة .. الميت هو الغائب عن الدنيا .. ذلك أن أساس الدين كله هو منهج للحياة الدنيا .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم :

انقلاب فى الموازين

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾
لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة يس - الايتان ٦٩ و ٧٠)

إذن فالقرآن الكريم نزل للأحياء .. وهو منهج السماء للحياة الدنيا .. ونحن حين نموت نرى كل شىء رؤية يقين .. ولا تعود هناك فائدة من إنذار بالغيب ، أو ما سيقع لنا .. لأنه أصبح واقعا فعلا ورأيناه .

وإذا كان القرآن كمنهج السماء إلى الأرض .. فإننا يجب أن نعمل به ونطبق تعاليمه فى حياتنا الدنيا .. وأهم تعاليم المنهج وأساس العبادة هى الصلاة .. لأنها الصلة بين العبد وربّه .. وكل أحكام الدين ترفع ما عدا الصلاة .. فالحج لمن استطاع إليه سبيلا .. فمن لم يستطع ، لأنه كان فقيرا ، لا يملك ما يحج به لا يكلف بالحج .. والزكاة لمن عنده فائض من المال .. فإذا كان رزق الانسان يكاد يكفيه بالكاد ، فلا يكلف بالزكاة .. وإذا كان فقيرا لا يجد قوته ، فهو مستحق للزكاة ، وليس مكلفا بها .. والصوم لمن كان فى تمام صحته ، ولم يكن مسافرا .. فمن كان مريضا أو على سفر ، فيستطيع أن يفطر فى رمضان .. ويقضى الأيام التى أفطرها فى غير رمضان .. إلا الصلاة فهى لا تسقط بالمرض ، ولا تسقط بالسفر .. ولا تسقط بالفقر .. والانسان لا بد أن يصلى واقفا .. فإن كان مريضا يصلى قاعدا .. وأن كان لا يستطيع أن يغادر الفراش بسبب

انقلاب فى الموازين

المرض ، يستطيع أن يصلى راقدا .. والصلاة تظل قائمة عند المؤمن من سن التكليف حتى الوفاة ..

والصلاة إذن هى أساس حياة المؤمن لا يتركها أبدا . فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمتوا الصلاة) .. أى غابت عن حياتهم الدنيا ، فلم تصبح موجودة .. والميت لا يسمع ولا يعى حركة الدنيا .. وكأنه من علامات الآخرة ، أن يؤذن للصلاة ، فلا يقول أحد إلى المساجد ، ليؤدى الصلاة ..
أى أنه عندما يؤذن المؤذن للصلاة ، كأنه ينادى على ميت ، فلا يجيبه أحد .

وقوله صلى الله عليه وسلم (وأضاعوا الصلاة) يؤخذ بمعناه الواسع ، ومعناه المحدود .. فالأمانة هى منهج الله التى حملها للانسان فى الأرض وحمله الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل .. وكان إضاعة الأمانة معناها أضاعوا منهج الله فى الأرض .. هذا هو المعنى الواسع .

أما المعنى المحدود فهو أن الأمانة بين الناس ضاعت .. أو كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « عندما تصبح الأمانة مغنما » .. أى أنه يأتى الانسان إلى أخيه الانسان يحمله أمانة بأن يحافظ على ماله ، أو على عرضه ، أو على أولاده ، فيعتبر هذا الشخص هذه الأمانة غنيمة له ولا يردّها ، يأخذها وهو يعد يردّها ، ولكنه بمجرد أخذها يعتبرها غنيمة لا ترد .. فإذا كانت الأمانة

انقلاب فى الموازين

مالا ينكره ولا يرده .. وإذا كانت الأمانة على العرض أو الزوجة يحاول هو أن يغرى هذه الزوجة بالفاحشة ، ويدفعها إلى خيانة زوجها ويعتبرها غنيمة له ، ليستحل ما حرمه الله .. وإذا كانت هذه الأمانة فى الأولاد .. أخذ هؤلاء الأولاد ، وكلفهم بخدمته فى منزله .. وربما منع عنهم الطعام والشراب .. وربما ضربهم إذا لم يخدموا ويفعلوا ما يريد .. وهكذا نرى أن إضاعة الأمانة بمعناها الواسع ، ومعناها المحدود ، تزداد فى المجتمعات .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأكلوا الربا) ونحن نرى أن العالم كله يأكل الربا .. وأن كل إنسان يستحل ويحب أن ينمو ماله بلا حركة فى الحياة ولا عمل ، وهذا ما حرمه الاسلام .. والربا هو أساس الكوارث الاقتصادية .. واضطراب اقتصاد العالم بالآن .. حتى إن دولا أعلنت إفلاسها بسبب عجزها عن سداد فوائد الديون ، أو بسبب تعاملها بالربا ، وهو ما حرمه الله .. ولن ينصلح اقتصاد العالم إلا إذا عاد إلى منهج الله .. وانتهى نظام الربا كنظام عالمى ، ليحل محله نظام المشاركة الاسلامية ، والنظم الاسلامية التى وضعها الاسلام ..

واستحلوا الكذب

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « واستحلوا الكذب »
فمعنى ذلك أن الكذب أصبح حلالا يتعامل به كل الناس ، بدلا من
الصدق .. ومن كثرة الكذب يصبح هو السمة الغالبة فى المجتمع ..
ويصبح الانسان يسمع الكلام فلا يصدقه ، ولو كان صدقا .. لأن
الثقة قد انتهت ..

والكذب هو انفصال الكلام عن الفعل .. وما دام الكلام منفصل
عن الفعل فى حياة الانسان ، ويراه فى كل شىء حوله ، فإنك ذلك
بهدم ، الثقة فى المجتمع .. ويعطى الناس الشعور بأن كل ما يقال
هو زيف ، وليس حقيقة .

وفى هذه الحالة يفصل واقع الحياة عن أولئك الذين يعيشون
فيها .. فيصبح واقع الحياة شيئا .. وما يتكلم به الناس شيئا آخر .
والانسان لا يكذب إلا إذا كان يريد أن يخفى خطيئة أو عملا
شائنا .. ذلك أن العمل الذى أحله الله يتباهى به الناس جميعا ..
فإذا كنت مثلا مع زوجتك فى البيت وسألك أحد أين كنت ؟ ..
قلت بلا تردد ، وبدون أن تحاول أن تكذب : كنت مع زوجتى فى
البيت .. أما إذا كنت فى البيت مع زوجة رجل آخر .. وسألك أحد
أصدقائك : أين كنت ؟ .. فإنك فى هذه الحالة تلجأ إلى الكذب ،
لتخفى مخالفة لمنهج الله لا تنسجم مع حياة النفس البشرية وملكاتهما .

انقلاب فى الموازين

وأنت حين تملك مالا حلالا ، فانك تجلس فى أى مكان وتحصيه إن أردت إحصاءه .. ولكن إذا كان هذا المال حراما .. فانك تبحث عن مكان مهجور ، أو طريق مظلم ، أو بيت لا يراك فيه أحد ، لتحصى هذا المال .. فإذا سألك أحد : ماذا كنت تفعل ؟ .. كذبت ولم تستطع أن تقول له : كنت أعد مالا مسروقا .

إذن فإنه عندما يستحل الكذب ، فمعنى ذلك أن المعصية قد تفتشت فى المجتمع .. وأن أفعال الناس لا تتفق مع منهج الله .. وما دامت الأعمال لا تتفق مع منهج الله .. فإن الناس يستحلون الكذب ليخفوا معاصيهم .. وهذا دليل على انحراف خطير فى المجتمع .

واستخفوا بالدماء

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « واستخفوا بالدماء » .. أى انتشر القتل بدون قصاص . وهذا ما نراه الآن فى العالم كله فى الحروب الأهلية وحوادث النسف والتدمير التى لا تكاد تخلو نشرة أخبار واحدة منها .. هؤلاء الناس الذين دبروا حواث النسف هذه ، واستخدموا السيارات الملقومة ، وأطلقوا الرصاص عشوائيا ، واستخفوا بدماء الناس .. لأن هؤلاء الضحايا هم ضحايا أبرياء .. لم يفعلوا شيئا حتى استحقوا القتل .. وهم ليسوا طرفا فى النزاعات

انقلاب فى الموازين

التي تحدث .. ولذلك لا تستحل دماؤهم .. ولكن أولئك الذين يقومون بهذه العمليات التي تتم فى معظم دول العالم ، ويدبرون حوادث النسف والاغتيال ، إنما يستخفون بدماء البشر .

وباعوا الدين .. بالدنيا

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « واستعلوا بالبناء وباعوا الدين بالدنيا » .. معناه أن الناس قد استحلوا جمع المال عن أى طريق وبأى طريق .. وليس لديهم أى وازع من الدين .. بل انهم فى عملهم وكل تحركاتهم .. ليس فى باهم الله .. ولكن فى باهم أن يعلو بنيانهم ، وتزداد ثرواتهم .. ومادام هناك بيع فمعناه أن هناك سلعة وثمان .. وكون الذى بيع هو الدين .. فمعناه أنهم أخذوا مغنم الدنيا ، بدلا من منهج الله .. وأصبح الصراع بين الناس صراعا بين دنيا ودنيا ، وليس صراعا بين دنيا وآخرة .. ولم يعد أحد يحرص على الدين حرصه على المال أو متاع الدنيا . مع أن كل ما فى الدنيا زائل مهما طال العمر .

الزكاة .. مفرما

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا كانت الأمانة مغنما ، والزكاة مفرما ، والتعلم لغير الدين ، وأطاع الرجل امرأته ،

انقلاب فى الموازين

وعق أمه وود صديقه ، وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات فى المساجد ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات وكثرت المعازف ، وشرب الخمر ، ولعن آخر هذه الأمة أولها .

ومعنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من علامات القيامة أن تكون الأمانة غنيمة لمن أؤتمن عليها لا يردّها وقد سبق أن بينا ذلك .. أما أن تكون الزكاة مغرما . فهى أن يعتبر الناس دفع الزكاة غرامة يحاولون أن يتهربوا منها .. بينا الزكاة هى ركن من أركان الاسلام .. ووسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى .. ولكن الناس لأنهم ابتعدوا عن منهج الله يعتبرون الزكاة غرامة .. لا يؤدونها إلا وهم كارهون .. هذا إذا أدوها .. ويحاولون التهرب من أدائها بمبررات كاذبة .

والتعلم لغير الدين

والتعلم لغير دين نراه الآن فى مجتمعاتنا .. فالأب حريص على أن يعلم ابنه اللغات .. وحريص على أن يعلمه العلوم الدنيوية .. والناس يتقاتلون ليلحقوا أولادهم بما يسمى الآن بمدارس اللغات .. والأب يضرب ابنه ويراقبه مراقبة دقيقة إذا لم يذاكر .. مع انه لا يأمره بالصلاة مثلا ، ولا يحاسبه عليها ، ولا يحثه عليها .. ولا يحاول أن يجعله يدرس علوم الدين مع علوم الدنيا .. أو يعرف

انقلاب فى الموازين

شيئا عن دينه .. بل كل همه هو العلوم الدنيوية .. مع أن الأب فى هذا قصر النظر .. ذلك أنه يعمل لشيء قد لا يقع ، ويترك شيئا لا محالة واقع .. فقد يموت الابن قبل أن يتخرج فى الجامعة ، فلا يحقق هدفا .. وقد يصاب بمرض يقعده عن العمل فيضيع كل ما تعلمه .. ولكن هذا الابن لا محالة سيقابل الله .. أى أن تعلمه للدين ، واتباع المنهج ، أمر له جزاء مضمون .. فلا أحد سيفلت من الآخرة .. أما علوم الدنيا فلا ضمان فى الدنيا .. ومع ذلك فاننا نجد الناس يتكالبون ليعلموا أولادهم لغير دين .. ولا يهتم إلا القليل منهم بتعليم أولاده الدين ، ومحافظتهم على الصلاة ، وحثهم على صالح الأعمال .

وأطاع الرجل امرأته وعق أمه

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أو أطاع الرجل امرأته . وعق أمه ، وود صديقه ، وأقصى أباه) .. فمعناه أن الرجل حينما يتزوج يطيع امرأته فى كل شيء ، وهو يغرقها بالمال وما تحتاج إليه .. فإذا كانت أمه فقيرة ، عقها ولم يعطها شيئا .. وإذا كانت مريضة ، وطلبت منه امرأته أن تذهب لزيارة إحدى صديقاتها ، ترك أمه المريضة ولم يزرها ، وصحب زوجته فى هذه الزيارة .. وإذا كانت

انقلاب فى الموازين

الأم تعيش وحيدة فى شقة أغرتة امرأته باخراج أمه من الشقة ،
لتحصل هى على الشقة .. وبيوت المسنين فيها أمثلة كثيرة من
الأمهات اللاتي طردهم أولاهن من منازلهن .. وأحيانا يؤذى الرجل
أمه إرضاء لزوجته .. مع أن الرجل أمامه آلاف النساء ليختار منهن
زوجة .. ولكن ليس له إلا أم واحدة .. وعقوق الأم جريمة كبرى فى
الاسلام .. فالله قد حث على رعاية الأم والأب فى شيخوختها ..
وقال تعالى :

﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا

رَبَّيَّانِي صَغِيرًا ﴾

(سورة الاسراء - الآية ٢٤)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الجنة تحت أقدام
الأمهات » .. وعندما سأله صحابى .. من أحق الناس بصحبتى
يارسول الله ؟ .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمك ..
وكررها ثلاث مرات .

وما يقال عن الأم ، يقال عن الأب .. فالابن قد يترك أباه
المريض الذى لا يجد أحدا يعطيه كوب ماء ، ويذهب ليقضى السهرة
مع أصدقائه .. وقد يأخذ مال أبيه الذى هو فى أمس الحاجة اليه
لينفقه على أصدقائه .. وقد يزور صديقه المريض .. ولا يزور أباه
المريض .

انقلاب فى الموازين

وظهرت الأصوات فى المساجد

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وظهرت الأصوات فى المساجد) .. أن الناس يذهبون إلى المسجد ليس للعبادة ، ولكن للتحديث فى شئون الدنيا .. والمسجد هو بيت الله .. وإذا ذهبت إلى المسجد ، فأنت تذهب لذكر الله والعبادة وإياك وأنت فى المسجد أن تتحدث فى شأن من شئون الدنيا .. ولكننا نرى الناس يذهبون إلى المساجد لتمام صفقة ، أو للاتفاق على تجارة ، أو أى شىء من هذا القبيل .. ويقول أحدهم للآخر : سأقابلك فى المسجد لنتفق على هذا وذاك وبذلك تخرج المساجد عن أنها دور للعبادة ، وتصبح مكانا دنيويا للتحديث فى شئون الدنيا .. ومن يتفق على تجارة أو أى شأن من شئون الدنيا فى المسجد ... فلا يبارك الله له فيما اتفق عليه .. وذلك أن المسجد لا يقصد إلا للعبادة .. ولا يتحدث فيه إلا بذكر الله والتسبيح له .

تكريم الرجل مخافة شره

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأكرم الرجل مخافة شره » .. أى أن الناس من خوف الدنيا تكرم الرجل الشرير اتقاء

انقلاب فى الموازين

شره ، ولا تكرم الرجل الكريم .. فالانسان عادة يكرم لدينه ، ويكرم لخلقه ، ويكرم لعلمه .. ولكنه لا يكرم أبدا لشره .. بل إن الانسان الشرير لابد أن يقف المجتمع كله أمامه حتى يقوموه .. ولكن لأن الخوف يملأ قلوب الناس . فإنهم لا يجروون على مواجهة الانسان الشرير .. بل يكرمونه لبيتعد عنهم .. وفى هذا تشجيع للشر والرذيلة فى المجتمع .. بحيث يصبح الشر هو القوى .. وهو السائد .. وهو الذى يحكم المجتمع ..

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكثرت القينات والمعازف وشرب الخمر » .. والقينات معناها أماكن اللهو التى تعزف فيها الموسيقى ، وتلهى الناس عن دينهم وعن ذكر الله .. ولعلنا نشهد الآن هذه الظاهرة بعد أن كثرت أماكن اللهو والغناء والخمور .. وأصبحت فى كل حى ، وهى تزداد ولا تنقص .. بمعنى أنه يفتح الجديد منها ، والقديم قائم .

ظهور هذه الأماكن معناه أن الناس قد نقضوا نظام الله فى الكون .. ذلك لأن الله تعالى قد جعل الليل لباسا والنهار معاشا .. أى أن الانسان المؤمن حين يأتى الليل يأوى إلى بيته بعد صلاة العشاء لينام .. ولكن وجود هذه الأماكن يجعل الناس يسهرون الليل ، بدلا من أن يناموه .. ويضيع منهم اعتدال حركة حياتهم .. ويقوم الانسان من نومه بعد شروق الشمس بساعات .. ويكون قد أضع صلاة الفجر التى هى خير من الدنيا وما فيها .. فرسول الله صلى الله

انقلاب فى الموازين

عليه وسلم يقول : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » .. وينزل الانسان لعمله متعبا ، لأنه لم يمثل لأمر الله سبحانه وتعالى أن ينام الليل .. بل ظل ساهرا حتى ساعة متأخرة .. وتكون النتيجة أنه أضاع صلاة الفجر ، وأضاع إنتاج اليوم .

وبعض الناس يشكون من أنهم لا يستطيعون الاستيقاظ عند الفجر للصلاة .. نقول لهؤلاء جميعا : لو أنكم اتبعتم منهج الله وأويتم إلى فراشكم بعد صلاة العشاء ، فانكم تستيقظون فى الفجر ، بل قبل الفجر ربما بساعة أو أكثر .. فالليل للسكون ، وليس للحركة .. وذلك مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۗ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾

(سورة النبا - الآيتان ١٠ - ١١)

ولكن المعازف والسهر فى الليل .. يتنافى مع كون الليل سكنا لينام الانسان ويجدد نشاطه .

إذن فظهور القينات والمعازف وشرب الخمر .. هو إفساد لمنهج الله ، وإضاعة لصلاة التهجد ، وصلاة الفجر ، وقرآن الفجر .. وكل هذا يشير إلى أن الناس يتعدون عن تطبيق المنهج .

انقلاب فى الموازين

يلعن آخر الأمة أولها

ثم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويلعن آخر هذه الأمة أولها) . . أى أن الذين يعيشون خلال هذه الفترة يهاجمون الصحابة ويصفون هذا الدين بالتخلف . . ويتحدثون عن السلفية أحاديث مقصود بها تشويه السلف الصالح . . أولئك الذين حملوا هذا الدين ونقلوه إلى الدنيا كلها . . والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز فى وصف المؤمن . .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

(سورة الحشر - الآية ١٠)

وهكذا طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نطلب المغفرة لأولئك الذين سبقونا بالايان . . على أساس الوحدة الايمانية للمؤمنين أولا . . وعلى أساس أنهم تركوا لنا من العلم ما ننتفع به فى ديننا . . فكل ما كتب حول القرآن الكريم قام به أولئك الذين سبقونا بالايان . . وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وتفسير هذه الأحاديث وصلتنا عن الذين سبقونا بالايان . . وكتبهم ودراستهم لا تزال موجودة بيننا حتى اليوم . . تعطينا نور الايمان . . وتبين لنا كيف أن السلف الصالح قد أفنوا أعمارهم فى دراسة دين الله ،

انقلاب فى الموازين

والتفقه فيه ليقدموا لنا ذخيرة لا تنفد .. وكان المنتظر منا ، بعد أن قدموا لنا هذه الخدمة الجليلة فى ديننا ، أن نطلب لهم الرحمة والمغفرة . وأن يتقبل الله منهم صالح أعمالهم .. بهذا وصف الله المؤمنين فى القرآن الكريم ..

ولكننا الآن نجد تجنبنا واضحا. وعلينا على السلف الصالح .. وهجوما وتشويها لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وإلصاق التهم الباطلة بهم .. وصب اللعنات عليهم .. واتهامهم بأنهم سبب تخلف هذه الأمة .. وهذا يتم جهارا نهارا فى الصحف والمجلات والكتب .. ويتخذ بعض الناس من الهجوم على السلف الصالح وتشويههم صناعة يتكسبون منها فى الحياة الدنيا .

الورع تصنع

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من علامات القيامة أن يكون الزهد رواية ، والورع تصنعا ، وأن يكون الولد غيظ أبيه وأمه ، وأن يصدق الكاذب ، ويكذب الصادق ، ويؤمن الخائن ويخون الأمين ، ويسود كل قبيلة منافقوها ، وكل سوق فجارها ، وأن يعمر خراب الدنيا ، ويخرب عمرانها .

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يكون الزهد رواية والورع تصنعا » هو أن يخفى أولئك الزهاد والوراع الحقيقيون ..

انقلاب فى الموازين

وأن يظهر الانسان غير ما يبطن ، فيصبح الزهد ليس حقيقة ، ولكنه مجرد روايات كاذبة يتناقلها الناس عن بعض الناس .. فى محاولة لخداع عامة المسلمين ، وايهامهم بأن هذا الرجل زاهد فى الدنيا .. ليحصل بهذه الطريقة على مزيد من المال .. ويقال : أن هذا الانسان زاهد .. فى حين أنه يملك مالا كثيرا .. يكتزّه ولا يتصدق به .. أو تصبح تجارة الناس هى الدنيا .. ومن تكالبهم عليها لا يكون الزهد حقيقة .. ولكنه يكون ماضيا قد اندثر يحكيه الرواة عن آبائهم ، أو عن أجدادهم .. ويقولون فى عام كذا كان هناك رجل زاهد يعيش فى مكان كذا .. ويفعل كذا وكذا .. وتصبح حكايات الزهد كلها هى روايات عن الماضى ، ليس لها واقع ، وليس لها حاضر .. فيبحث الناس عن الزهاد فلا يجدونهم ..

(والورع تصنعا) .. أى أن الناس تتظاهر بالورع .. ولكنه فى الحقيقة ليس موجودا فى قلوبهم .. وينتشر الرياء فى الدين .. فيذهب الانسان إلى المسجد لا يقصد الصلاة ، ولكن ليقول الناس عنه : انه مصل .. ويذهب الانسان إلى الحج لا يقصد الحج ، ولكن لقال عنه انه حاج .. ويتحدث الناس عن الدين ويتخذونه صناعة ، يعلمونه للناس ولا يعملون به .. وقيم الناس المساجد لا يقصدون منها وجه الله .. وانما يقصدون منها أن تخلد أسماؤهم فى الدنيا ، أو أن يحصلوا على إعفاءات من رسوم عقارات ، أو أرض مجانا ، أو أى ميزات دنيوية كالذى ينحصر مكانا صغيرا فى عمارة كزاوية للصلاة ، وهو فى الحقيقة يريد إعفاءه من الضرائب

انقلاب فى الموازين

العقارية . . أو كالذى يتحايل لبناء عمارة بأن يحصل على رخصة بناء مسجد حتى يتخطى أوامر منع البناء فى منطقة معينة ، ثم بعد ذلك يقيم العمارة التى يريد . . أو ذلك الذى يأتى إلى أرض ليسورها على أساس أنها مسجد ليأخذها مجانا ، أو بثمان زهيد ، ثم بعد ذلك يبنى عليها ما يريد .

كل هذه الأشياء لا تنفع ، ولا يجزى الله سبحانه وتعالى عنها أحدا من الذين قاموا بها . . فلا يعتقد أحد أنه يستطيع أن يخدع الله . . قد يستطيع الانسان أن يخدع الناس . . ولكن أحدا لن يستطيع أن يخدع الله . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (١٨)

(سورة الجن - الآية ١٨)

فإذا لم يكن بناء المسجد يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى خالصا . . يشيد أولا كمسجد ، وليس كوسيلة للحصول على إعفاء ضريبى أو رخصة بناء ، أو أى نوع آخر من الفوائد الدنيوية . . والا يكون تخليدا لذكرى إنسان . . إذا لم يكن المسجد كذلك فلا يتقبل بناؤه . . أما ما يمكن أن يقال عن المساجد التى سميت بأسماء أولياء الله الصالحين . . فإن هؤلاء الصالحين اسمهم خالد فى الدنيا بعلمهم الصالح . . وهم لم يبنوا هذه المساجد ، وإنما بناها من بعدهم . . كما أنها مبنية فى أحياء من المدن مسماة بنفس الأسماء . . والمهم هنا ألا تكون نية صاحب المسجد ، وهو يبنيه ، انه يفعل شيئا

انقلاب فى الموازين

ليخلد اسمه فى الدنيا ..

وهكذا نرى أن من علامات الساعة أن يصبح الزهد رواية ،
ويختفى الزهد من الدنيا ، ويلعن السلف الصالح . وأن يصبح
الورع تصنعا .. أى يختفى الورع من القلوب ، ويصبح مجرد صناعة
يلجأ إليها بعض الناس من أجل أغراض دنيوية ..

يكون الولد غيظ أبيه

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن يكون الولد غيظ أبيه
وأمه) .. معناه أن موازين الحياة ستختل ، بحيث يصبح الولد
أو الابنة هما مثار التعب والغيظ للأم والأب .. والولد أساسا يكون
قرة عين أبيه وأمه .. وامرأة فرعون قالت عن موسى عليه السلام :

﴿ قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ ﴾

(سورة القصص - الآية ٩)

أى أن الولد أساسا موجود فى الدنيا كقرة عين لأبيه وأمه ، يعينها
على الحياة ويطيعها ويرعاها فى الكبر .. ولكن بدلا من أن يحدث
ذلك يكون الولد غيضا لأبيه وأمه .. يعمل ما يغيظها .. فيتلف
المال ، وربما كان الأب والأم لا يملكان من المال ما يكفى .. ويوجد
لها المشاكل بسوء عمله مع الناس ، أو اعتدائه عليهم .. ولا يعينها
على قضاء حوائج الحياة ، فإذا طلبا منه أن يفعل لهما شيئا رفض ..

انقلاب فى الموازين

وإذا طلباه بأن يؤدى عملا قال : لا .. وهكذا لا تأتى منه راحة لأبيه وأمه .. بل يأتى منه ما يغيظهما وينغص عليهما حياتهما .. ويصبح الأب يتمنى لو انه لم يرزق بهذا الغلام الذى حول حياته إلى شقاء لا يعينه على الحياة .. ولكنه يزيد لها ظلمات وتعقيدا ..

كما أن بعض الأبناء لا يحمل احتراما لأبيه ، فإذا تكلم الأب عارضه الابن ، وربما هاجم رأيه إلى آخر ما نراه الآن .. وكل هذه العلامات إنما هى دليل على نقض منهج الله ، وعدم العمل به .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يصدق الكاذب ، ويكذب الصادق ، ويؤمن الخائن ، ويخون الأمين » .. معناه اختلاط القيم فى المجتمع ، بحيث يختلط الأمر على الناس .. فمن كثرة الكذب الذى يسمعون لا يعرفون من يصدقون ومن يكذبون .. كل كلمة تحتل الكذب .. وكل ما يقال بعيد عن الحقيقة .. ولذلك فإن الناس يصدقون الكاذب ، لأنهم لا يسمعون إلا كذبا .. فإذا جاء انسان مخلص يريد أن يقول لهم الحقيقة كذبوه .. كذبه أولا أصحاب المنافع الدنيوية .. الذين يريدون للكذب أن يسود حتى يصلوا إلى أهدافهم بالنفاق والخداع .. وكذبه الناس من كثرة ما يروى من الكذب على أنه صدق .

ويؤمن الخائن ويخون الأمين تحمل نفس معنى اختلاط القيم .. فلا يعرف الناس من هو الأمين من كثرة انتشار الخيانة فعندما يأتى رجل أمين لا يصدق الناس ويخونوه .. لأن الخيانة هى السمة فى

انقلاب فى الموازين

المجتمع كله . أما أن يؤتمن الخائن فهي أن يكون أناس خونة ..
يدعون الأمانة ، ليحصلوا على أموال الناس بالباطل .. وبعض
الناس يصدقونهم .

ويسود القبيلة مناققوها

وقوله صلى الله عليه وسلم (يسود كل قبيلة مناققوها) .. علامة
على أن النفاق سيكون هو الوسيلة للارتقاء فى المجتمع والتقدم إلى
أعلى المناصب .. وهذا أيضا دليل على اختلاط القيم فى المجتمع ..
فلا يعتمد تقدم الانسان فى الحياة على علمه ، أو عمله ، أو ثقافته ،
أو مهارته .. بل يعتمد على إتقانه للنفاق .. فكلما اتقن الانسان
النفاق كانت فرصته أكبر للوصول إلى أعلى المناصب .

وهكذا تصبح القمة من المنافقين ، وينزوى المخلصون بعيدا ..
وهذا معناه أن الأمور لا تصرف بالحق ، ولا بالصدق ..
ولا بالأمانة .. ولكن تصرف بهوى النفس . وتصبح الأغراض
الشخصية هي التي تحكم .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يسود كل سوق
فجارها » .. والفاجر هو الذى يجاهر بالمعصية .. أى أن يكون
أولئك العاصون هم الذين يعجب بهم الناس ، ويجاهرون

انقلاب فى الموازين

بالمعصية .. وأن يكون التاجر الذى يغش ويبخس فى الميزان ، ويحقق أرباحا فاحشة هو سيد السوق .. أى أكثر التجار غنى .. وأكثرهم احتكارا لأقوات الناس .

وأن يكون المؤمن فى القبيلة أذل من النقد .. والنقد هو صغار الغنم .. أى لا يؤبه به ، ولا يكون له أى وزن فى قبيلته ، لأنه محافظ على إيمانه .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يخرّب عمران الدنيا ، ويعمر خرابها » .. أى أن تحدث الفتن فى المدن التى يسكنها الناس ويقاتل الناس بعضهم بعضا .. حتى تخرّب الأماكن العامرة ، ويهرب منها الناس ، وتصبح خرابا .. وهذا حادث الآن فى كثير من دول العالم .. حيث تخرّب الحروب الصغيرة ، والحروب الأهلية المدن العامرة ، وتحولها من أماكن مليئة بالخير إلى أماكن خربة .

ولعلنا إذا أردنا أن نأخذ مثلا قريبا .. فأمامنا لبنان .. أما أن يعمر خراب الدنيا .. فمعناها أن تضيق الأرض بالناس .. حتى إنهم لا يجدون حلا لاستمرار حياتهم إلا أن يعبروا الأماكن الخربة .. فيحاولوا زراعة الصحراء والأماكن النائية عن العمران لتستطيع الحياة أن تستمر .

شهادة الزور

ومن علامات الساعة التى رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم (ظهور شهادة الزور وكتمان شهادة الحق .. ونشر الظلم أى (كثرة النكته) . وقلة العلماء . وانتشار البيع بالربا والسحت بالهدية ، وأن تزخرف المحاريب : وتخرب القلوب) .. ومعنى ذلك أن الحق يخفى من الأرض فتظھر شهادة الزور ، وتكتم شهادة الحق ، ويجد الرجل أن هناك قول زور يقال أمامه ليؤمن عليه ، ولا يستطيع لسانه أن ينطق بشهادة حق .. ونشر الظلم أى كثرة النكته ، معناه استهتار الناس بالقيم ، وأخذهم الجد بالهزل .. فيهزلون طوال يومهم ، ولا يقوم واحد منهم بأى عمل جاد .. وقلة العلماء .. أى أن العلماء يصبح عددهم أقل من القليل .. فلا يوجد العلماء الذين ينشرون كلمة الحق ، وذلك معناه أن يذهب الصالحون الأول فالأول .. ولا يبقى إلا أولئك الذين لا يعرفون من العلم إلا القليل النادر .

واستحلال البيع بالربا ، معناه أن ينتشر الربا .. ويقول الناس عنه انه بيع .. أى يحصل الناس على الربا ، ويستحلونه باسم البيع ، والسحت بالهدية .. أى يستحل الناس الرشوة على أساس أنها هدية .. أى أن الناس يتحايلون على اظهار الربا انه بيع .. والحصول على الرشوة والمال الحرام ، ويسمونها هدية ..

تزخرف المحاريب وتخريب القلوب

وقوله صلى الله عليه وسلم (أن تزخرف المحاريب ، وتخرب القلوب) .. معناه أن حقيقة الايمان تختفى ، ولا يبقى إلا مظهره .. فالناس تكون قلوبها خربة ليس فيها ذرة من إيمان .. ومع ذلك فهي تتسابق لزخرفة المنابر والمساجد تظاهرا وليس عن إيمان .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأن يقرأ القرآن فلا يتجاوز الحلقوم) .. معناه أن القرآن سيقراً باللسان فقط ، ولا يعمل به .. أى أن الانسان يقرأ القرآن بلسانه ، فلا يدخل إلى قلبه .. ويقوم من قراءة القرآن ليفعل ما حرمه الله .

هذه بعض أشراط الساعة ، أوعلامات القيامة التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهناك علامات أخرى كثيرة قد تحققت .. سنتعرض لها فى الأجزاء القادمة من هذا الكتاب إن شاء الله .

ومادمننا قد تحدثنا عن مقدمات الساعة .. فلا بد أن نكمل الحديث عن بداية أحداث الساعة .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل السابع -

وجاء يوم القيامة

وجاء يوم القيامة

قبل أن نتحدث عن يوم القيامة ، وما سيحدث فيه .. لابد أن نتناول أولاً معنى الآية الكريمة :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾

(سورة القمر - الآية ١)

ذلك أن بعض الناس يجادل في هذه الآية ، ويقول إنها حدثت وانتهت والبعض الآخر يقول إنها ستحدث في آخر الزمان .
ومسألة انشقاق القمر هي معجزة حسية ، أو معجزة مشاهدة ..
والمعجزات الحسية تأتي مرة واحدة ولا تتكرر .. والمقصود بها هم الذين شهدوها .. أما نحن الذين لم نشهدها فإننا نصدقها ، لأنها جاءت في القرآن الكريم .. ومن هنا فإن موسى عندما ضرب بعصاه فانشق البحر .. نحن لسنا المقصودين بهذه المعجزة .. ولكن المقصود بها هم أولئك الذين شهدوها .. أى تثبت المؤمنين الذين كانوا مع موسى عليه السلام ، وجنود فرعون يتبعونه .

فالذين يقولون أن انشقاق القمر قد حدث .. هم الذين شهدوا هذه المعجزة .. ومعنى اقتربت الساعة أن رسول آخر الزمان قد بعث .. هذا هو معنى الاقتراب .. فإن كل رسول ، قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد جاء وبعده رسل .. أما الرسول الخاتم ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام .. فهو الرسول الذي ستقوم على رسالته الساعة .. ولن تأتي بعده رسالة أخرى من السماء .. هذا هو معنى « اقتربت الساعة » .

وجاء يوم القيامة

أما معنى « وانشق القمر » .. وهل سينشق أم انشق فعلا .. إذا أخذناها بمعنى أنه قد انشق فعلا ، فهذه ظاهرة كونية ، وهي ليست مطلوبة ممن لم يرها ، بل هي مطلوبة ممن شهدها ، لأنها تحيى لمن يشهدها .. وهي تكون آية على صدق هذا الرسول ، ولا تأق للبشر كافة .. وإنما لمن شهدوها .

فالذى جاء للناس كلها .. للبشر جميعهم ، لم يكن آيات كونية .. ولكنه كان معجزة خالدة مستمرة لا تنتهى أبدا .. فمثلا عندما نقول ان عيسى أبرأ الأكمه والأبرص .. فهذا لم يحدث إلا مرة واحدة ، ثم انتهى .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بمثل هذه الآيات .. ولكننا نحن لسنا مطالبين بها .. إنما المطالب بها من شهدها .. فنبع الماء من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتظليل غمامة له ، وتسبيح الحصى فى يديه .. كل هذه آيات كونية لتثبيت المؤمنين الأولين الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ومن شهدها فهو مطالب بها .

وانشقاق القمر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه بعض الناس .. وبعض الناس لم يروه .. نقول : ان هذا شىء طبيعى .. لأننا ، ونحن الآن فى عصر تقدم ، يحدث كسوف للشمس ، أو خسوف للقمر .. كم من الناس يشاهد هذه العملية .. عدد قليل جدا .. مع أن الموعد يكون معلنا مسبقا ..

وجاء يوم القيامة

والناس قد قرأوا الخبر وسمعوه من أكثر من مصدر .. فإذا حصل خسوف للقمر ، وهذا يحدث ليلا ، فمعظم الناس يكونون نياما ، ولا يراه إلا قلة من العلماء الذين يعملون في الفلك ، وبعض من يبقى مستيقظا خصيصا لمتابعة هذا الحدث .

إذن فلا معنى لأي ظاهرة كونية إلا لمن يراها .. ونحن نقول دائما أنه ليس مع العين علم .
بقي الذين لم يروا .. من أراد أن يصدق فقد آمن بأن هذا حدث . لأنه في هذه الحالة يكون ما تم غير مشهود بالنسبة له .. أي غيبا بالنسبة له .. والايمان لا يكون إلا بالغيب .. ولا يكون شيء حسي مادي مشاهد .

ففي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انشق القمر ، ورآه من رآه .. فمن أراد أن يصدق رواية الذين رأوه فقد آمن .. ولكن المسألة عندما تذكر في القرآن الكريم ، أويجيء بها القرآن مؤكدا رواية الرواة تصحح يقينا . *

أما من يريد تفسير الآية الكريمة ، بمعنى أن اقتربت الساعة .. أي أن الساعة تقترب .. وينشق القمر آية لها .. فنحن لا نستطيع أن ننفي أن ذلك يمكن أن يحدث .. ومادام الله سبحانه وتعالى يقول : « اقتربت » فإننا لا بد أن نعرف يقينا أنها اقتربت .. ذلك لأن الله حين يخبرنا بشيء مستقبلي فهو يقين إيماني .

أتى أمر الله فلا تستعجلوه

وهنا ننبه إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(سورة النحل - الآية ١)

.. كيف يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ أتى ﴾ .. ثم يقول
« لا تستعجلوه » .. مادام قد أتى .. أى قد حدث وتم .. فكيف
لا نستعجله ؟

نقول لمن يحاول أن يستخدم مثل هذا الاختلاف الظاهري بين
الألفاظ أن الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن أمر مستقبلي ، فإنه
يتحدث عنه بأنه قد وقع وتم فعلا .. ولا يستطيع أحد من خلق
الله ، ولا قوة غير الله ، أن يتحدث عن المستقبل في صيغة
الماضي .. لماذا ؟

إذا تحدث عن شيء سيقع في المستقبل ، فلا بد أن يتحدث عنه
كشيء مستقبلي .. فالإنسان لا يملك القدرة ولا القوة ليضمن
حدوث الشيء .. فهو لا يملك البقاء على قيد الحياة ، حتى يأتي
موعد وقوع الشيء .. وهو لا يضمن أن قوته ستمكنه من عمل هذا
الشيء ، حتى إذا بقى على قيد الحياة .. وهو لا يضمن الظروف التي
قد تكون سائدة في هذا الوقت ، حتى يقع هذا الشيء أو لا يقع ..

وجاء يوم القيامة

فقد يأتي شى ما خارج عن إرادة الانسان يمنع حدوث ما وعد
الانسان بأنه سيحققه .. ونحن لا نملك المستقبل .

ولكن الله سبحانه وتعالى حى لا يموت .. قاهر فوق عباده ..
لا أحد يستطيع أن يمنع حدوث أمر الله .. فإذا حدث الله سبحانه
وتعالى عن المستقبل بصيغة الماضى ، فإنه لا محالة حادث .

إذن فإن المستقبل بالنسبة للبشر يصح أن يكون أو لا يكون ..
ولكن الأخبار من الله القادر على قوله .. يكون قد وقع بمجرد اخبارنا
به .. وإن لم يكن نراه أو نشهده .

والذين يقولون انشق القمر فى عهد رسول الله صلى الله عليه
وسلم .. والذين يقولون سينشق القمر عندما تقترب الساعة ..
نقول : إن كلا القولين غير متعارض ، فالقمر قد انشق .. والقمر
سينشق مرة أخرى .

أحداث يوم القيامة

ونأتى إلى ما جاء فى القرآن عن أحداث يوم القيامة .. فيقول الله
سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ

وجاء يوم القيامة

اللَّهُ ثُمَّ نَفِّخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾

(سورة الزمر - الآية ٦٨)

وقوله تعالى :

يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾

(سورة القمر - الآية ٧)

هاتان الآيتان وآيات غيرهما تجربنا كيف سيخرج الناس من قبورهم .. فنحن نأتى إلى الدنيا تباعا .. أى فردا فردا .. ولكننا حين نبعث فى الآخرة .. فإننا نبعث مرة واحدة ، أى نقوم جميعا فى لحظة واحدة .. حينئذ يصبح هناك ازدحام شديد .. لأن أهل الأرض كلهم منذ بداية الخلق قد خرجوا من قبورهم دفعة واحدة .. والله يريد أن يقرب لنا هذه الصورة بشيء يحدث أملنا فى الدنيا .. فيشبه هذا الازدحام بالجراد .. عندما يأتى يكون هناك ازدحام رهيب .. بحيث لا تستطيع أن تميز بينه كأفراد .. بل يكون كأنه غمامة لا تستطيع أن تميز بين فرد وآخر .. ويحجب الازدحام الشمس ، ويصبح الأفق مظلمًا .. ولا أحد يستطيع أن يميز فى وسط الزحام .. بل أفواج تلو أفواج .. هذه إحدى صور يوم الحشر .

والناس سيخرجون من نفس الأرض التى دفنوا فيها .. وبعد خروجهم .. يساقون إلى أرض الميعاد .. فتتبدل السموات غير السموات .. والأرض غير الأرض .. مصداقا لقوله تعالى :

وجاء يوم القيامة

﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(سورة ابراهيم - الآية ٤٨)

.. وهذا القول لا يعارض قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

(سورة الاعراف - الآية ٢٥)

لأن الناس سيخرجون من هذه الأرض .. سيعثون منها .. ثم بعد ذلك يساقون إلى أرض الميعاد التي سيتم فيها الحساب .. والأرض التي نعيش عليها هي معدة للحياة الدنيا حتى لحظة البعث .. ومدخر فيها أقوات البشر وأرزاقهم .. ولأنه في الحياة الآخرة تنتفى الأسباب .. لا تصبح هذه الأرض التي نعيش عليها صالحة .. فقد أدت مهمتها في استيعابها الحياة الدنيا .. ثم انتهت هذه المهمة بيوم البعث .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى بعد أن يخرج الانسان إلى أرض الميعاد .. فإن تلك الأرض التي كان مطمورا فيها أسباب الحياة .. ومطمورا فيها أقوات البشر انتهت مهمتها .. فالرزق في الآخرة سيأتى من الرزاق مباشرة . وليس بالأسباب ..

وجاء يوم القيامة

هل سنخرج ونمضى؟!

ولكن هل سنخرج ونمضى هكذا بدون أن نكون غايتنا محددة .. وهل كل واحد فينا يستطيع أن يذهب إلى أى مكان يريد على هواه .. هذا يتأخر وهذا يتقدم .. وهذا يذهب يمينا ، وهذا يذهب يسارا .. وهذا إلى الخلف .. وهذا يزاحم من الخلف ليتقدم الصفوف .

لن يحدث هذا أبدا .. فلقد انتهت أهواء النفوس ورغباتها .. وأصبح كل واحد منا خاضعا لأمر الله مباشرة .. لقد انتهى الاختيار فى افعل ولا تفعل .. انتهت فترة الامتحان .. ولم يعد أحد قادرا على ألا يفعل إذا قال الله افعل .. أو أن يفعل إذا قال الله لا تفعل .. فهذا الاختيار كان ممنوحا للبشر فى الحياة الدنيا لحكمة .. وهو أن يكون كل انسان شهيدا على نفسه .. وان يختار الانسان طريقه بإرادته ليكون الحساب عدلا .. ولكن هذا انتهى اليوم . فلم يعد لأحد حرية ليختار ما يريد .. بل أصبح الأمر كله لله .

انظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ

(سورة ق - الآية ٢١)

.. ما هو السائق؟ .. السائق هو الذى يسوق الغنم إلى

وجاء يوم القيامة

المرعى .. ومكانه دائما خلف الغنم حتى يصحح مسارها .. فإذا انحرفت يمينا أسرع هو ليعدل مسارها .. وإذا انحرفت يسارا أسرع ليعدل مسارها .. إذن لكل انسان من يسوقه إلى مكانه يوم القيامة .. يسوقه إلى أرض الميعاد ، إلى الحساب .

المؤمن الذى عرف أن مصيره النعيم سيمضى وهو مسرور مبتسم .. ولكن الكافر الذى عرف أن مصيره إلى النار .. كلما توقف فإن هذا السائق الذى ورائه يدفعه إلى الأمام إذا حاول أن يتجه إلى أى اتجاه آخر .. فإن هذا السائق سيدفعه إلى مساره .. لأنه لا يقوده ، أى لا يمشى أمامه .. ولكنه يسوقه ، أى يمشى خلفه ، حتى لا يفلت منه ، ويكون أمام نظره دائما .. حتى إذا حاول أن يقف أو يتوقف يدعه دعا إلى أن يوقفه فى مكانه .

أما معنى قول الله سبحانه وتعالى « وشهيد » .. فإن الانسان يكون معه شهيد من نفسه ، وشهيد من صحيفة عمله .. بل ان جوارحه تشهد عليه يوم القيامة .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٤)

(سورة النور - الآيات ٢٤)

.. إذن فكل انسان سيكون معه كتابه ، ومعها الشاهد عليه .. ويقف الناس لرب العالمين ..

وجاء يوم القيامة

وعرضوا على ربك صفا

وحينئذ يبين الله سبحانه وتعالى لنا :

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۗ ﴾
(سورة الكهف - الآية ٤٨)

وهنا يلفت انتباهنا قوله تعالى (صفا) .. هل سيقف الخلق جميعا من عهد آدم إلى يوم القيامة صفا واحدا ؟ .. وكم سيبلغ طول هذا الصف ؟ .. وأى مكان يتسع لكل هؤلاء الخلق من بدء الخليقة حتى نهايتها ؟

نقول إن المعنى أن يكون ذلك .. وأن قدرة الله تستطيع أن تخلق المكان .. وأن كل هؤلاء جميعا يقفون صفا واحدا .. والله قدرته لا تفوقها قدرة ، وكونه بلا حدود .

وقد يكون المقصود من الآية هو أن لن يفلت واحد من الله سبحانه وتعالى .. ذلك أنك إذا أوقفت الناس أمامك صفوفا .. فإن الذى تراه وتلاحظه جيدا ، وتراقب كل حركاته ، هم الموجودون فى الصف الأول .. أما أولئك الموجودون فى الصفوف : الثانى والثالث والرابع والأخير ستكون ملاحظتك لهم أقل ، بحيث يستطيع أى واحد منهم أن يتوارى فيمن هم أمامه .. ويفعل شيئا لا تراه أنت .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن أحدا من خلقه لن يستطيع أن يفلت ، ولو ثانية ، من مراقبة الله له .. وكأنهم جميعا واقفون صفا

وجاء يوم القيامة

واحدا .. لا يمكن لواحد منهم أن يتواري في شيء .. لأن كلا منهم لن يستطيع لا الافلات ، ولا حتى مجرد الاتيان بحركة ولن يتجاوز أحد منزلته .. بل سيلزم مكانه في الصف .. مكانه الذي حدد له بعمله في الدنيا .. بالطاعة واتباع منهج الله .

كما خلقناكم

ومعنى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۗ ﴾

(سورة الكهف - الآية ٤٨)

ان الحياة التي نثرت في أزمان مختلفة عادت لأصحابها في هذا المكان ..

﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ۗ ﴾

(سورة هود - الآية ١٠٣)

ومعناها أيضا أنكم تركتم كل ما كان لكم في الحياة الدنيا من مال وجاه وعزة وعزوة .

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۗ ﴾

(سورة الكهف - الآية ٤٨)

وجاء يوم القيامة

.. بدون أى قوة تمنعكم منا .. أو عصابة تدافع عنكم .. أو مال يشفع لكم .. وليس معكم شفعاؤكم الذين كنتم تعتقدون فى الحياة الدنيا أنهم سينفعونكم فى هذا اليوم .. ولا آهتكم الذين عبدتموهم من دون الله .

والمعروف أن كل إنسان فى الحياة الدنيا قد يكذب على نفسه .. فقد يعتقد زيفا فى أن هناك من سينفعه ، أو سينقذه من العذاب يوم القيامة .. وقد يعتقد زيفا أنه قد يستطيع أن يفلت ، أو أن عذاب الله سيكون يسيرا عليه ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة .. أو قد يقول نؤجل التوبة حتى أكبر ، ولكن بعد ذلك لا يمهل الأجل .. أى أن كل انسان قد يكذب على نفسه فى امتدادات الأمل .. وهذا حادث فى الحياة الدنيا .. فكل انسان لديه آمال كثيرة قد لا تتحقق أبدا .. ولكنه يعيش على أساس أنها ستتحقق .. ولكن هذا معناه الأمل الكاذب .. أى الأمل الذى لن يتحقق .. ولكن إذا أصبحت المسألة واقعا .. حينئذ لا يكون هناك أمل .. بل يصبح هناك واقع فقط ، كما سيحدث فى الآخرة .

وإذا أردنا أن نضرب لهذا مثلا ، والله المثل الأعلى . نقول : هب أن طالبا أخذ يبنى نفسه بالأمل الكاذب .. ويقول لنفسه أنه ليس من الضرورى أن أحضر محاضرة ؟ فأنا فاهم .. وليس من الضرورى أن أسمع الأستاذ . فأنا سأقرأ الكتاب .. ويظل هكذا إلى أن يأتى يوم الامتحان فيجد نفسه راسبا .

وجاء يوم القيامة

هكذا الانسان في الحياة الدنيا .. يقصر في تطبيق منهج الله فيقول : أنا لن أصلى اليوم ، ولكنى سأصلى غدا .. لن أؤدى الزكاة هذا العام ، ولكنى سأؤديها في العام القادم .. ويظل هكذا يهمل في تطبيق المنهج إلى أن يأتيه الأجل .. حينئذ يجد نفسه أمام الحساب ، وأمام الجزاء ، بدون أن يكون قد استعد لهذه اللحظة .. بل غرته الأمانى في حياته الدنيا .

الشیطان الذى استغل الانسان ، وقعد له فى كل طريق مستقيم . ووسوس له فى الدنيا .. وزين له أن يترك الصلاة اليوم على أساس أنه سيصلى غدا .. وأن يترك الزكاة إلى العام القادم .. إلخ .. يأتي يوم القيامة فيحاول أن يهرب من المسئولية .. فيقول انه لم يكن له سلطان على عباد الله ليقهرهم على المعصية .

والسلطان إما أن يكون قوة مادية تقهر .. ذلك بأن أقيد إنسانا ثم أقوده إلى حيث أريد .. أو أقيده ، ويحمله أعوانى إلى المكان الذى أريده .. أو يكون السلطان هو سلطان الحجة .. بحيث يقنع الانسان ليفعل ما يريده الشيطان .. إذن فالسلطان إما قوة قهر افعل بها أنا ما أريده بك .. أو سلطان حجة وإقناع يجعلك أنت تفعل ما أريده ، ولكن باختيارك .. والشيطان لم يعط سلطان القوة ، ولا سلطان القهر .. أى أن الشيطان ليس عنده حجة ليقنع . وليس لديه سلطان قوة ليقهر .. ولكنه وجد فى داخل الانسان هو ورغبة للمعصية فزينها له .. فلا يقول أحدكم اليوم : انه مقهور لأن الشيطان لا يستطيع أن يقهركم على المعصية ، أو حتى يقنعكم بها ..

وجاء يوم القيامة

وكل إغواء الشيطان للنفس البشرية ، هو شهوات هذه النفس التي تريدها ، يزينها لها .

ودعوى الشيطان كاذبة .. ونحن نعرف أنها كاذبة .. وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك في إغواء الشيطان لأدم .. وقد قال الشيطان لأدم :

﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَلَىٰ ﴾

(سورة طه - الآية ١٢٠)

.. أى أنه وعده بالخلود والمال الذى لا يفنى .. ولم يأخذ آدم إلا المعصية والطرده من الجنة .. ولكن رغم اننا نعرف كذب الشيطان .. فإن إغواءه يصادف هوى فى نفوسنا فنصدقه .. ويقول الشيطان فى هذا الموقف الذى تخلت فيه الدينا عن الانسان العاصى ..

﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(سورة ابراهيم - الآية ٢٢)

.. أى أن الشيطان يقول : أنا لا أستطيع أن أنجيكم من العذاب اليوم .. ولا أنتم تستطيعون أن تنجونى منه .. لأن الصراخ معناه طلب النجدة من مصيبة لا يقوى الانسان على مواجهتها بمفرده . فإذا شب فى بيت إنسان حريق .. فإما أن يستطيع أن يطفئه بنفسه ،

وجاء يوم القيامة

فلا يصرخ طالبا النجدة ، وإنما يقوم بإطفاء الحريق .. وأما إن كانت النار أقوى منه ومن قدراته ، فإنه في هذه الحالة يصرخ طالبا النجدة .. لأنه يواجه حدثا أقوى من قدراته .

وإذا هاجم الانسان لص ، فإنه إذا كان يقدر عليه واجهه .. أما إذا لم يكن يقدر عليه .. كان يكون اللص أقوى منه .. فإنه في هذه الحالة يصرخ طالبا النجدة .

حين يسمع الناس الصراخ ، فهم نوعان : نوع لا يجد في نفسه المقدرة ، فلا يذهب إلى الصارخ لينجده .. ونوع آخر يجد في نفسه المقدرة فيذهب وينقذه ، وحينئذ يقال : أصرخه فلان ، أى أزال سبب صراخه .

ولكن الشيطان يوم القيامة لا يستطيع أن يصرخ أحدا .. لا يستطيع أن ينقذ أحدا من العذاب .. ولا يستطيع أحد أن يصرخه ، أى ينجيه من العذاب .. يقول الشيطان للعاصين .

﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(سورة ابراهيم - الآية ٢٢)

وخشعت الأصوات للرحمن

ولهذا يعطينا الله سبحانه وتعالى صورة دقيقة يوم الحساب فيقول :

﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

(سورة طه - الآية ١٠٨)

ولقد ألفنا في الدنيا انه ساعة أن يكون هناك حساب أو محاسبة .. فإن الأصوات تعلو .. وكل واحد يجادل بقوته وصياحه .. كذلك ألفنا أن الانسان ذا القوة والنفوذ على الصوت دائما .. ومعنى علو الصوت هنا أنه يستطيع أن يحقق ما يريد .. ذلك هما المعنيان المادى والمعنوى لأن تقول : فلان صوته عال .. وفي أحيان كثيرة تقول سنرى أيا منا أعلى صوتا ، أى أكثر قدرة على تحقيق ما يريد .

وعلو الصوت المادى يبين أن صاحبه قوى ، أو كما يقولون (مسنود) .. فالانسان يعلو صوته عندما يحس بالقدرة .. ولكنه إذا كان مسكينا مغلوبا على أمره ، فإنك تراه يقف ذليلا لا يستطيع صوته أن يتجاوز أمثارا قليلة .

فلو أخذنا علو الصوت على أساس مادى .. أى أنه يمثل قوة ساعة المجادلة أو المحاسبة .. أو أخذناه على أساسه المعنوى .. أى أنه يمثل القدرة على قضاء ما يريد .. فكلا الأمرين سيختفى فى الآخرة .. فلا يستطيع انسان أن يعلو بصوته على غيره مهما يكن هذا الانسان قويا فى الدنيا ، والآخر ضعيفا فيها .. لأن ارتفاع الصوت إعلام

وجاء يوم القيامة

بمدى ظهور ذلك المستعلى بصوته على الآخر .. إذن فستكون هناك مساواة كاملة .. فلا يوجد قوى دنيوى يستطيع أن يعلو بصوته على ضعيف دنيوى .. ولا سيد يستطيع أن يعلو بصوته على من كان يستعيدهم أو يسيطر عليهم ..

وهكذا تخشع الأصوات كلها ، فلا يوجد تمييز دنيوى بين الناس . بل تخفى كل الميزات فى الآخرة ، ونصبح جميعا مستاوين .. أمام الله سبحانه وتعالى .

ويقال : خشعت الأصوات من هول الموقف أمام الله .. ذلك أننا حين نقف أمام الله منتظرين الحساب .. فإن هول الموقف يجعل الأصوات تخشع .. ونحن فى الدنيا حين نقف أمام رئيس دولة ، أو حاكم .. فإن كنا نريد أن نتحدث مع بعضنا البعض ، نتحدث همسا ، أو بصوت خافت مناسب للموقف الذى نحن فيه .. فكيف إذا كان الوقوف بين يدي الله .. حينئذ فى هذه الحالة لا يجرؤ ملوك الأرض ، وأعتى العتاة فيها وجابرة على النطق إلا همسا .

هل سيحدث كلام ؟

ولكن هل سيكون هناك كلام وحديث بين الناس يوم القيامة ؟ .. الجواب عن ذلك : نعم .. ولذلك سمي يوم القيامة . يوم التناد حيث ينادى بعض الناس أولئك الذين أضلوه فى الحياة

وجاء يوم القيامة

الدنيا .. طالبين منهم أن يدفعوا عنهم العذاب ، أوشيثا من العذاب ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنْكَ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

(سورة البقرة - الايتان ١٦٦ و ١٦٧)

.. وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؕ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ ﴾

(سورة ابراهيم - الآية ٢١)

ومن هنا نعلم أنه سيكون هناك جدل بين الكفار وبين الذين اتبعوهم .. وأن الكفار سيتبرأون من الذين اتبعوهم .. بل انه سيكون هناك حوار بين المؤمنين وغير المؤمنين ، وهم يساقون إلى أرض الميعاد .. ينبئنا به القرآن الكريم في قوله تعالى :

وجاء يوم القيامة

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغررتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغررتم بالله الغرور ﴿١٤﴾﴾

(سورة الحديد - الأيتان ١٣ - ١٤)

بل انه سيكون هناك حوار أو كلام بين أهل الجنة وأهل النار
مصداقا لقوله تعالى :

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

(سورة الأعراف - الآية ٥٠)

وكل هذا ستعرض له بالتفصيل في الأجزاء القادمة من هذا الكتاب إن شاء الله ، ذلك أننا في هذا الفصل نحاول أن نعطي صورة لوقوف الناس بين يدي الله قبل الحساب .

ولتكتمل الصورة لا بد أن نلقى الضوء على بعض الجوانب بالنسبة لما سيحدث في هذا اليوم العظيم .. يقول الله سبحانه وتعالى :

وجاء يوم القيامة

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

(سورة آل عمران - الآية ١٠٦)

أى أن وجوه المؤمنين ستكون متلألئة بالنور، بيضاء مليئة بالسرور.. بينما تكون وجوه غير المؤمنين مليئة بالانقباض، سوداء مما ينتظرها من الهم والعذاب.. ويوضح الصورة أكثر قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ خَشِيعِينَ مِنَ الْذَّلِ ﴾

(سورة الشورى - الآية ٤٥)

وذلك يرينا كيف أن الكفار والعاصين في يوم القيامة سيشعرون بذل رهيب بعد أن كانوا في الدنيا يملؤهم الكبر والكبرياء بما كانوا فيه من نعمة وجاه.. ولكنهم في يوم القيامة ذهبت عنهم وسائل كبرياتهم الدنيوى، وانتهت تماما وسائل صلفهم، ووسائل غرورهم، وأصبحوا أمام الله لا تحيط بهم إلا ذنوبهم.. وهكذا يغشى وجوههم الذل.

يوم تولون مدبرين

ولتصوير ما سيحدث بصورة تقربه إلى الأذهان حتى لا يأتى أحد مجادلا يوم القيامة.. ويقول: يارب لو أنك أخبرتنا بصورة

وجاء يوم القيامة

ما سيحدث لكنا آمنة .. ولكنك يارب لم تجربنا .. يعطينا الله سبحانه وتعالى صوراً كثيرة لهذا اليوم في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدْبِرِينَ مَأَلِكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ ﴾

(سورة غافر - الآية ٣٣)

.. ويقول الحق جل جلاله ..

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾

(سورة التكوير - الآية ٦٦)

.. ومعنى ذلك أن غير المؤمنين حين يرون هذا الهول الكبير يتمنون أن يهربوا من الله سبحانه وتعالى .. ولكن هل يستطيع إنسان مهماً هرب . أن يهرب من الله ؟ .. وإلى أين يذهب ؟ والمملك كله ملك الله .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾

وتكتمل الصورة أكثر بقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيَّتَنِي أَخَذَتْ مَعَ الرُّسُولِ ﴾

﴿ سَبِيلًا ﴾

(سورة الفرقان - الآية ٢٧)

وجاء يوم القيامة

.. أى أن الله سبحانه وتعالى يكون قد بين لنا الفرق بين صورة الظالم وصورة الكافر .. فالظالم هو الذى آمن . ولكنه ظلم نفسه بالمعصية .. ولذلك يعرض على يديه من ندم ، لأنه يعرف أن عذابا شديدا ينتظره .. أما الكافر فيعرف أنه خالد مخلد فى النار ويرى النار وهوها .. وحينئذ يتمنى لو أنه لم يكن مخلوقا من البشر .. بل كان جمادا لا يملك فكرا ولا إرادة ، لأن فكره أضله .. وإرادته قادتة إلى النار ليخلد فيها .. وهو يعرف أنه لن يخرج من النار .. وحينئذ يتمنى لو أن لديه ملء الأرض ذهبا ، ومثله معه ، فهو مستعد لأن يضحى بهذا المال كله لينجيه من العذاب .

وهذه الصورة تعطينا مدى استعداد الانسان لأن يفدى نفسه من العذاب بأى شيء .. ذلك أن المال هو العزوة فى الدنيا .. والانسان يحرص على ماله فى الدنيا ، ويحرسه ، ويدافع عنه أحيانا بحياته .. ولكن هذا المال الذى له هذه القيمة الكبيرة فى الدنيا يكون فى الآخرة عديم القيمة . والله سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا هول العذاب وتأثيره على نفوس البشر ، حتى إن الانسان يكون مستعدا أن يضحى بأى شيء .. بماله وبأولاده وبكل ما كان يعتز به فى الحياة الدنيا ، لينجو فى الآخرة .

ومع أن هذه الصورة قد أعطيت لنا فى القرآن الكريم ، وقرآناها ونحن فى الحياة الدنيا .. وكان من الواجب أن تجعلنا نفرح ونفر إلى الله ونتبع منهجه .. ونلتصق بهذا المنهج حتى ينجينا الله من

وجاء يوم القيامة

العذاب ، فإن كثيرا من الناس يسمع وصفا لهذه الصورة في القرآن الكريم .. فلا يهتز قلبه ، لأن العذاب محبوب عنا في الدنيا .. ولو أن واحدا منا رأى عذاب الآخرة لامتنع عن كل المعاصى الدنيوية ..

يبقى بعد ذلك استكمال الصورة التي رسمها القرآن الكريم بالنسبة ليوم القيامة .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾

(سورة طه - الايتان ١٢٥ - ١٢٦)

وقوله تعالى :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَسِّهِمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾

(سورة الاعراف - الآية ٥١)

وقول الله سبحانه وتعالى « أعمى » يمكن أن يكون معناه العمى الدنيوى ، لأن الكافر يوم القيامة ستحيط به ظلمات ذنوبه ، فلا يرى شيئا ويمشى يتخبط .. ويمكن أن يكون معناه أيضا العمى المعنوى ، وذلك من سوء ما ينتظره يوم الحساب .. يتخبط كالأعمى تماما .. فأحيانا يأتيك خبر في الدنيا ، ويكون هذا الخبر سيئا ، فتقول أنا لم

وجاء يوم القيامة

أعد أرى شيئا وتمشى وأنت تتخط . . ومعناه أيضا أن المسائل تختلط على الكافر بسبب هوى النفس الذى كان يتبعه ، فلا يستطيع نظره أن يميز شيئا ، فيمشى وهو يتخطب .

واستخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة « نساهم » ليس معناه أن الله سينسى الظالم فى الآخرة . فلا يحاسبه . . ولكن الله ينساه من موجبات رحمته فلا يرحمه . . ويظل الكافر والظالم يستغيثان . . ولكن الله لا يستمع إليهما . . كذلك ينسى الله سبحانه وتعالى الكافر من موجبات عفوه يوم القيامة ، فلا يعفو عنه أبدا ، ويظل خالدًا فى النار . . ذلك أن هؤلاء الناس تابوا على منهج الله فى الدنيا ونقضوه ولم يعملوا به . . فكيف يريدون عفو صاحب المنهج فى الآخرة ؟
وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾

(سورة الزمر - الآية ٦٩)

بأنه لن تكون هناك شمس ولا نجوم ولا أقمار ، ولكن نور الله سيأتى مباشرة إلى خلقه ينير كل شيء .

إلى هنا ونصل إلى نهاية هذا الجزء من الكتاب . على أن يكون الجزء الثانى ، إن شاء الله ، عن ساعة الحساب . . وكيف سيتم ، والله يوفقنا لما فيه الخير والسداد .

۱۰

معجزات الهی

محمد متولی الشعراوی



المقدمة

معنى يوم القيامة

لماذا الحديث عن يوم القيامة ؟ ذلك سؤال لا بد ان نجيب عليه قبل ان نبدا هذا الكتاب .. والجواب ان القيامة هي اساس الايمان .. وهي اساس العمل في الدنيا .. وهي اساس منهج الله .. فلو انه لا توجد قيامة لكان المؤمن هو الخاسر في هذه الحياة الدنيا .. ذلك ان المؤمن يحرم نفسه من شهواتها ويمتنع عما حرم الله .. ويتحمل المشاق في الدنيا .. لا يمد يده إلى حرام .. ولا يحاول ان يحصل على مال بغير حق .. وإذا اشتهى شيئا حرمه الله نهى النفس عنه .. بينما غير المؤمن يطلق لشهواته العنان فيفعل ما يريد ويتمتع كما يشاء .. عاصيا لمنهج الله .. فإذا لم يكن هناك يوم حساب كان الخاسر هو المؤمن والرابع هو غير المؤمن الذي اعطى نفسه كل ما تشتهيته .

ولأن يوم القيامة هو الرادع لكل ظالم مفسد في الأرض .. فالإنسان قد يرتكب الجرائم في الدنيا ويحكم خططه بحيث يفلت من العقاب الدنيوى .. او بحيث لا يقوم على ما فعل دليل .. وأحيانا يستبد الظالم بالناس فيخضعون له جميعا ولا يقف واحد منهم ليقاوم ظلمه .. لذلك كان لا بد لكى يكتمل العدل فى الكون .. ان يكون هناك

يوم يؤتى فيه بأولئك المؤمنين الذين هربوا من العقوبة في الدنيا لينالوا أشد العذاب في الآخرة .. ولو لا ساعة الحساب هذه ما ارتدع ظالم عن ظلمه .. ولا تردد قاتل في أن ينفذ جريمته .. ولا خاف مستبد وهو يفتك بالضعفاء .

ولذلك فإن وقفة الحساب ضرورية .. لو لم تكن موجودة لطالب بها كل إنسان لأنها ميزان العدل في هذا الكون .. لكل من ارتكب ظلما في الأرض وافلت من العقاب .. وكل من نسي الله وانطلق بأسباب الدنيا يفسد في الأرض .

ويوم القيامة هو اليوم الذي تزول فيه الأسباب .. ولا يصبح لأى واحد منا قوة ولا قدرة .. بل تذهب عنا كل أسباب الدنيا .. الذي تغره الأسباب في الدنيا .. لابد أن يتذكر هذا اليوم الذي سيذهب فيه كل هذا النفوذ .. والذي سيصبح فيه الإنسان وحيدا أمام الله .. لا أحد ينصره .. ولا شيء ينفعه إلا عمله .

وإذا ظهر الفساد في الدنيا وازداد .. فاعلم أن عدد الذين لا يؤمنون بالآخرة أو ينسونها قد ازداد .. فإذا لم تؤمن بالآخرة فافعل ما شئت .. وكلما زاد العمل الصالح في الدنيا .. كان ذلك لزيادة الايمان باليوم الآخر .

وإننى أقدم هذا الكتاب .. علّ الذين عبدوا الدنيا ونسوا الآخرة يتذكرونها فيدخل الايمان إلى قلوبهم .. ويحسون بهول ما سيحدث فيكون ذلك رادعا لهم عن الظلم والفساد .. دافعا لهم إلى العمل الصالح والايمان .. لعل القلوب تهتدى .. ولعلنا نعرف جميعا ماذا ينتظرنا .. وما هي المواقف التي سنواجهها .. وما هي المشاهد التي سنراها .

والله أسأل ان يهدينا جميعا إلى الطريق المستقيم .

الفصل الأول

حريّة الإنسان

حورية الانسان

إن الحديث عن يوم القيامة وأهوالها جدير بنا أن نتناوله في أكثر من كتاب .. ورغم أن أحداث القيامة غيب عنا .. فإن الله سبحانه وتعالى شاءت رحمته أن يعطينا من الأحداث الحسية ما يقرب لنا معاني الغيب .. وذلك رحمة بالعقول البشرية من أن تضل أو تفتن .. وإذا كان هذا هو أحد المعاني التي نريد أن نبينها عن مشاهد يوم القيامة .. فإن هناك معنى آخر هو أننا جميعا محتاجون إلى التذكرة .. لابد أن نعرف يقينا .. أن هذه الحياة التي نحياها .. لا تحمل مفهوم الحياة التي يريدنا الله سبحانه للانسان .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

« من الآية ٢٤ من سورة الأنفال »

وإذا قرأنا هذه الآية الكريمة .. فإننا نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ .. ويبرز السؤال هنا إلى الذهن .. ألسنا أحياء فعلا ؟ .. أليس القرآن يخاطب الأحياء مصادقا لقوله تعالى في سورة يس :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾

لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

« الآيتان ٦٩ و ٧٠ من سورة يس »

حرية الانسان

كيف يكون القرآن قد نزل للأحياء .. بينما هو منهج يدعو إلى حياة قادمة .. نقول إن الله سبحانه وتعالى جعل الحياة الدنيا مجرد اختبار للأخرة .. لأن الله الذي كرم الانسان ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله خليفة في الأرض ، يريد له حياة تليق بهذا المخلوق ، ويفضل الله له ، ويتسخير الله سبحانه وتعالى لكل ما في السموات والأرض للانسان .

الانسان سيد الكون

فالكون كله بقواه الهائلة التي تفوق قدرة الانسان ملايين المرات ، والتي تستطيع أن تهلكه في لحظة واحدة .. الكون كله بتلك القوى الهائلة الموجودة فيه مسخر لخدمة الانسان .. الشمس تعطي أشعتها له ولا تستطيع أن تعصى .. والهواء يعطيه التنفس ، ولا يستطيع أن يرفض .. والبحار تعطيه الأمطار ولا تستطيع أن تقول لا .. والأرض تعطيه كل خيراتها .. فلا هي تقدر أن تمنع الزرع ، ولا أن توقف الثمار عن الوجود .. وهكذا نرى أن كل ما في الكون مسخر لخدمة الانسان .. الانسان على إطلاقه .. مؤمنه وكافره .. العاصي والمطيع .

ولكن كل هذا في دار الاختبار .. فالدنيا كلها ليست حياة الانسان الحقيقية ، ولكنها فترة زمنية محدودة ، كاختبار أو امتحان للحياة الحقيقية التي أعدها الله للانسان العابد له ، الشاكر له المنفذ

حرية الانسان

لمنجه بحب واختيار .. ولذلك نجد في القرآن الكريم أكثر من آية تلفتنا إلى ذلك في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ هِيََ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

« الآية ٦٤ سورة العنكبوت »

اي أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية .. وفي قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

« الآية ٢٥ من سورة بونس »

الحياة الحقيقية هي الآخرة

لماذا أعد الله سبحانه وتعالى الحياة الحقيقية للانسان في الآخرة؟ .. أولا .. لأن الدنيا دنيا أغيار يعاني فيها الانسان ويكابد .. وليست فيها أحوال ثابتة مستقرة .. فأنت اليوم قوى ، وغدا ضعيف .. وأنت اليوم غنى ، وغدا فقير . وأنت اليوم سليم ، وغدا مريض .. وأنت اليوم حى ، وغدا ميت .. لا شىء يستقر على حال .. فكل شىء في الدنيا يتغير ويتبدل .. لماذا؟ .. لماذا جعل الله سبحانه وتعالى الدنيا عالم أغيار؟ .. حتى يلفتنا إلى أن كل شىء منه .. ونحن لا نملك شيئا بذاتنا .. حتى نعرف أن الصحة من الله .. ولو كانت الصحة من أنفسنا ما مرضنا أبدا ..

حرية الانسان

ونعرف أن الغنى من الله .. ولو كان الغنى تضعه عقولنا ما أصابنا الفقر أبدا .. ولكي نعرف أن القوة من الله .. ولو كانت من أنفسنا لما أصابنا الضعف .. وذلك حتى نتذكر دائما نعم الله وقدرته فلا نعصاه .. ولكن نعرف أن الله سبحانه وتعالى هو الواهب وهو الفعال .. فلا تغرنا قدرتنا ونقول فعلنا .. ولا يغرنا ما نحن فيه من النعم ، فنقول كما قال قارون : « أوتيته على علم عندي »
إنما يريد الله أن يجعلنا ملتصقين به .. ولا يحدث هذا إلا إذا عرفنا ضعفنا وقوة الله .. وعجزنا وقدره الله .. فنتبع المنهج ونتجه إلى الله .. وكلما غرنا مظاهر الدنيا تغير الحال من قوة إلى مرض .. ومن قدرة إلى عجز .. علنا نفيق ونتذكر .

عالم أغيار .. لماذا ؟

وهكذا جعل الله سبحانه وتعالى هذا الكون عالم أغيار رحمة بنا .. فلو أنه ليس عالم أغيار لبعد الناس عن منهج الله .. لورأوا في أنفسهم قوة لا تضعف .. وقدرة لا تعجز .. ومالا لا يفنى ولا يذهب .. لابتعد الكثير عن ذكر الله ، ولغرتهم قوتهم ، فأفسدوا في الأرض .. وانطلقوا مع أهوائهم وشهواتهم .. وأحس كل واحد منهم أنه بقوته وقدرته قد استغنى عن الله سبحانه وتعالى .. فمادامت القوة لا تتغير ولا تتبدل .. فكثير من الشفاه تنسى كلمة يارب .. وطغيان البشر يزداد في الكون كله .. مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

صورة الإنسان

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ أَنْ رَأَاهُ أُسْتَفْعَى ﴿٢﴾ ﴾

الآية رقم ٦ - ٧ من سورة العلق ،

ولقد شاءت رحمة الحق سبحانه وتعالى .. أن يوجد في الكون ما يذكرنا دائما بأننا لا نفعل شيئا إلا بقدره الله سبحانه وتعالى .. فنحن نرى بأعيننا ، ولكن الله شاء أن يخلق من له عيان ولا يبصر .. لنعلم أن العين لا تبصر بذاتها .. ولكنها تبصر بقدره الله .. ونمشى بأقدامنا .. ولكن الله شاء أن يوجد من له قدمان ولا يستطيع المشى .. ونسمع بأذاننا .. ولكن مشيئة الله خلقت من له أذان ولا يسمع .

تلك أمثلة قليلة مما وضعه الله في الكون وعوضه عما فقد بميزات أخرى ، ليكون ميزان العدل موجودا .. فوجد من هو أعمى ومن أعلم الناس .. ووجد من هو أصم ومن أنبغ الموسيقيين .. ووجد من لا تحمله قدماء وحكم أقوى دولة في العالم من فوق كرسي متحرك .

إذن فعالم الأغيار ، رحمة بالإنسان ، حتى لا يطغى ويتعد عن منهج الله .. وتسخير الله لقوى هائلة في الكون لخدمة الإنسان رحمة من الله بنا ، حتى نتذكر كل يوم ، ونحن نرى الشمس والأرض والبحار ، ونتنفس الهواء ، أن هذه القوى كلها مسخرة لنا بقدره الله .

مصير العلماء غير المؤمنين

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الثانية . . وهى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخص بنعمه عباده الطائعين الشاكرين . . ولكى يكون ذلك عدلا ، فلا بد أن تكون هناك فترة اختبار يمر بها كل منا . . يكون فيها قادرا على المعصية ولكنه يطيع . . ويكون قادرا على الكفر - والعياذ بالله - ولكنه يؤمن . . ويكون قادرا على الافساد فى الأرض ، ولكنه يصلح . . كل هذا حبا لله وليس لأى هدف آخر . . فالانسان يصلى طاعة لله . . ويتصدق حبا فى الله ويعمل الصالحات إرضاء لله . . فمن فعل ذلك بإيمان حقيقى تقبل الله منه . . ومن فعل كل هذا ، وليس فى قلبه إيمان لم يتقبل منه .

وهذه النقطة لا بد أن نلتفت إليها جيدا ، لأنها أخذت جدلا كثيرا بين العلماء .

فالناس تتساءل : أولئك الذين قدموا للبشرية اكتشافات أفادت الدنيا كلها . . ذلك الذى اكتشف البنسلين . . ذلك الذى كشف الله على يديه دواء لداء كان بلا شفاء . . أولئك الذين قدموا للانسانية خدمات هائلة انتفع بها البشر جميعا . . ولكنهم لم يكونوا مؤمنين . . هل يخلدون فى النار؟

بعض العلماء قال : لا . . وقال إنهم سيدخلون الجنة . لما قدموا من خير البشر . . ولكنى أقول لهم : مادام لم يكن الله فى باهم فلن يدخلوا الجنة . . لماذا؟ . . لأنك إذا عملت عملا ، فإنك تأخذ

حرية الانسان

أجرك ممن عملت من أجله .. ذلك قانون أزلى .. فلا يمكن مثلا أن
تبنى عمارة لانسان وتطلب أجرك من إنسان آخر .. أو تكون عاملا
في مصنع ثم تطالب صاحب مصنع آخر بأن يدفع لك أجرك .
والله أغنى الشركاء عن الشرك .. لماذا ؟ .. لأنه لا يحتاج إلى
أحد من مخلوقاته .. فالله قد خلق الكون كله ، بما فيه من نعم
وأرزاق ومخلوقات ، بكمال قدرته سبحانه وتعالى .. ولم يستعن في
ذلك بأحد .. ولا احتاج في يوم من الأيام إلى أى مخلوق ، أو مجموعة
من المخلوقات ، ليستكمل بها كمال قدراته تبارك وتعالى وتنزهه .
ومن هنا فهو غنى عن خلقه جميعا .. غنى عن أى شريك .. فإذا
قصدت بالعمل وجه الله وحده .. تقبله منك وجزاك عليه .. وإذا
أشركت مع الله أحدا ترك كل ما عملت لمن أشركت به ، لأن الحق
سبحانه وتعالى غنى عن هذا كله .

حدود حرية الانسان

ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد على هذا المعنى في آيات كثيرة
فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

(من الآية ٩٤ من سورة الأنبياء)

حرية الانسان

... ومعنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وهو مؤمن ﴾ . أن هناك من يعمل عملا صالحا وهو لا يؤمن .. وإنما يقصد بهذا العمل إرضاء بشر .. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَابَيْتَ رَبَّهُمْ وَلِقَائِهِ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾

(الآيات ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٥ من سورة الكهف)

وحتى تكون الدنيا دار اختبار لعمل الانسان .. فكان لابد أن يخلق الانسان مختارا .. مختارا في ماذا ؟ .. في أن يتبع منهج الله أو يعصى .. وبعض الناس يحسب - وهما - أن اختيار الانسان في الحياة اختيار مطلق .. وتسمع كثيرا من الناس يقول لك : أنا حر على إطلاقها .

نقول له لست حرا إلا فيما يؤولك للحياة الآخرة .. فيما يؤولك للجنة أو النار .. إذن فالاختيار هنا للانسان اختبار .. وليس اختيارا على إطلاقه .. وإلا لو كان اختيار الانسان على إطلاقه لوقى نفسه المرض .. فعندما يأتي إليه المرض يختار الصحة .. أو عندما تأتي إليه حوادث الدهر يختار ألا تقع عليه .. بل يكون له اختيار في جسده مثلا ، فيختار متى ينبض قلبه .. ومتى يتوقف .. ومتى تتنفس الرئتان ومتى لا تتنفسان .. ومتى تعمل المعدة والأمعاء ومتى لا تعمل .. وما هي العضلات التي تتحرك عندما يقف ، وعندما

حرية الانسان

يمشى ، وعندما يجرى .. وألوف من الأشياء الأخرى .
ولكن الانسان يقوم ويجلس .. ويمشى ويقف ويجرى ويبطئ
الخطى .. وهو لا يعرف أى العضلات تتحرك ، وأيها لا تتحرك ..
كل أحداث الدنيا التى تقع على الانسان لا اختيار له فيها .. فنجد
إنسانا حريصا على أن يركب الطائرة أو القطار .. مع أن هذه الطائرة
أو القطار يحمل له الموت بعد ساعة فى حادث سيقع .. ولا أحد يختار
الموت .. ولكنك تجد أولئك الذين كتب عليهم الموت فى حادث
طائرة مثلا هم أحرص الناس على ركوب هذه الطائرة .. بل إن
بعضهم قد يسعى ويتحدث مع هذا ومع ذاك ، ليحصل على مقعد فى
الطائرة التى تحمل له الموت .

الاختيار محدود بالمنهج

إذن فاختيار الانسان فى الحياة محدود بالمنهج .. وهذه رحمة أخرى
من رحمة الله على خلقه . حتى نتذكر أننا لسنا أحرارا بإرادتنا ..
ولكننا أحرار بمشيئة الله .. وفيما أراد الله سبحانه وتعالى لنا أن نملك
حق الاختيار فيه .. فلا يجعلنا حق الاختيار هذا نبتعد عن الله ..
بل نعرف مهمتنا فى الحياة ، وهى فى منهج الله وعبادته .. فلا يغرنا
ذلك بأن نصدق أننا أخذنا هذا الاختيار بقوتنا نحن .. فإذا عرفنا
ذلك اتجهنا إلى الله سبحانه وتعالى فى اختيارنا .. فإذا قال أفعل
نفعل .. وإذا قال لا تفعل لا نفعل ..
إذن فمنهج الحياة الدنيا بما فيه من عالم الأغيار ، وبما فيه من حرية

حرية الانسان

الاختيار .. كل هذا كان يجب أن يذكرنا بالله دائما .. لنعرف أن هذا كله هو من قدرة الله سبحانه وتعالى ، وليس بقدراتنا .. فلا نعصى ولا نتجبر .. ولكن نخشع ونخضع لنفوز بالحياة الحقيقية التي أعدها لنا الله ، ونفوز برضاه ونعمه .. ولنعلم يقينا أننا مهما علونا في الأرض .. ومهما بلغنا من أسباب القوة فنحن في قدرة الله لا نخرج عنها أبدا ، ونحن في قبضة الله لا نستطيع أن نفلت منها .. وأن وعد الله حق .. بأن كل ما في الدنيا يذكرنا بالآخرة من أحوال تتغير ، ومن اختيار محدود في المنهج .. ومن قوى أكبر منا تخدمنا وتعمل من أجلنا .

الحقيقة المنسية

ولكن رغم كل هذا هل اتعظ الانسان ؟ .. هل أحس يقينا أنه سيلقى الله في الآخرة .. وهل أحس بالنعم التي أعدها الله له في الجنة ؟ .. الجواب عن ذلك لا .. رغم أن كل لحظة في حياتنا الدنيوية تذكرنا بالآخرة والذين يوقنون بالآخرة يحسبون لذلك اليوم ألف حساب .. ولو أن كل إنسان منا تذكر هذه الحقيقة لصلح أمر الدنيا .. ولحاسب كل منا نفسه قبل أن يحاسبه الله سبحانه وتعالى .. ولكن الناس نسوا يوم الحساب .. وانطلقوا مع أهوائهم يفعلون ما تشتهي أنفسهم .. يرتكبون المعاصي ويعتدون على الحرمات ، ويأخذون المال الحرام ، ناسين أو متناسين أن كل هذا محسوب عليهم ، ومكتوب عليهم .. فهناك الحفظة الكرام الذين

حرية الانسان

يكتبون كل شيء .

هذه مقدمة كان لا بد منها لإيضاح الهدف الذي نسعى إليه من هذا الكتاب . . وهو أن يتذكر الناس أن هناك حسابا قادمًا . . بعد أن عم الفساد معظم أقطار الأرض . . وانطلق الناس بعدم إيمانهم بالآخرة يفعلون كل شيء ، وأى شيء . . حاسبين أن الله غافل عما يعملون . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ

فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ ، الآية ٣٤ من سورة إبراهيم

اليقين بالآخرة

والإيمان بيوم القيامة هو الأساس في العمل الصالح . . ففي أول سورة في القرآن الكريم سورة البقرة . . في أولى آياتها يوضح الله سبحانه وتعالى مطلوبات الإيمان فيقول :

﴿ الْمَ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَارِيبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ

يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

« الآيات ١ و٢ و٣ و٤ و٥ من سورة البقرة »

حرية الانسان

وهكذا نرى أن من مطلوبات الايمان أن يكون هناك يقين
بالآخرة .. لماذا ؟ .. لأنك إذا لم تؤمن بالآخرة فافعل ما شئت مادام
ليس هناك حساب .. ومادمت لا تلاقى الله .. فمم تخشى ؟ وماذا
تخاف ..

إن أساس اليقين في الدنيا هو يقين بالآخرة .. ذلك الذي يقف
حائطا صلبا بينك وبين كل المعاصي .. وبينك وبين كل المظالم ..
فالناس ترتكب المعصية .. لأن الجزاء مستور عنا .. لورأينا العذاب
لما اقترب واحد منا من المعاصي .. لورأى السارق ما سيفعل به يوم
القيامة لما اقترب من المال الحرام .. ولورأى الزانى جهنم ، ولو لحظة
واحدة ، لما استطاعت نساء الدنيا كلها أن يغيرينه .. ولورأى أى
إنسان جزاء ما ينتظره على المعصية لما ارتكبها .. ولكن لأن الجزاء
مخفى عنا .. ولأننا لا ندقق ولا نتفهم بعمق مارواه الله سبحانه
وتعالى لنا عن الآخرة ، فإننا ننطلق إلى المعاصي .. تغرينا الشهوة
العاجلة التي نحققها ، وننسى ما هو خالد قادم .

وأساس السلوك البشرى في الدنيا هو اليقين باليوم الآخر .. ذلك
اليقين الذي يرفع يد القوى عن أن يغتصب حق ضعيف .. لأنه
يعلم أنه ملاقى الله يوم القيامة .. ويوقف كل قادر عن أن يأخذ
أموال الناس بالباطل ويبغى في الأرض .. فإذا تذكرت الآخرة وأنت
تهم بأى معصية ، فإنك سترفع يدك عنها على الفور خوفا من عقاب
الله .

حرية الانسان

منطق عدم الايمان

ولو أننا تتبعنا منطق إنكار الايمان لوجدناه كله قائماً على عدم الايمان بالأخرة .. وفي هذا آيات كثيرة في كل سورة من القرآن .. ماذا قال الكفار؟ .. ماهو منطق عدم الايمان؟ .. قولهم :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الجاثية - الآية ٢٤)

.. كان هذا هو منطق الكفار .. وعدم إيمانهم هو إنكار للبعث وإنكار ليوم القيامة .. فلما جادلهم الرسل قالوا :

﴿ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ جُحْتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بآبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الجاثية - الآية ٢٥)

وفي سورة « المؤمنون »

﴿ أَيْعِدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرِجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

* هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ

وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

حرية الانسان

واقرا في سورة المؤمنون « في الآيتين ٨٢ و ٨٣ » أيضا :

﴿ قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أُنَّا الْمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ
وَأَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

وفي سورة الصافات - في الآيتين ١٦ و ١٧ :

﴿ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أُنَّا الْمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْءَابَاؤُنَا
الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وفي سورة النحل - الآية ٣٨ :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ
حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

قضية البعث

هذه الآيات هي قليل من كثير موجود في القرآن الكريم عن
البعث .. يروى لنا أن قضية البعث هي أساس في الايمان - وأنه
ما من كافر إلا وينكر البعث ويتمنى ألا يكون .. ذلك أن إنكار
البعث كما بينا يطلق للنفس البشرية شهواتها بلا حساب .. وإذا

حرية الانسان

كانت قضية البعث هي القضية اليقينية الأولى .. فإننا نجد كل المذاهب التي انحرفت عن الاسلام تحاول إنكار العذاب في الآخرة بطرق شتى .. فمنها من يجلل بعض الذنوب والمعاصي .. ليشعر العاصي بشيء من الاطمئنان يجلل به معصيته .. وأما إنكار التعذيب بالنار .. والقول بأن رحمة الله تحيط بجحيم .. كل هذا خروج عن المنهج .. وهو في الحقيقة محاولة للهروب من حقيقة الحساب والعذاب في الآخرة .

والكافر حقيقة لا يؤمن من بالآخرة .. ولكن الموت الذي يراه أمامه كل يوم يملأ حياته بالرعب والفرع ، وينغص عليه عيشته .. وخصوصا أنه يرى الموت فيمن لا يعرف .. وفيمن يعرف ، وفي أقرب الناس إليه .. وإيمان الفطرة يلح عليه دائما .. وملكات الايمان التي خلقها الله في نفسه تتصادم مع الكفر الذي ملأ حياته زيفا .. ولذلك فهو يحاول أن يخدع نفسه دائما بأنه لا شيء بعد الموت .. فهل يكون الانسان سعيدا حتى إذا وصل إلى ذلك ؟ .

وما معنى الحياة إن كانت تذهب وتنتهي بلا هدف ولا غرض .. وإذا كنا نولد ونموت في عالم كله امتحانات إيمانية للنفس .. فلو أنه ليس هناك بعث .. لكان الكافر بالله هو الفائز في هذه الحياة .. لأنه أعطى نفسه كل شهواتها وارتكب كل المعاصي .. ثم بعد ذلك مضى ولا شيء ..

ولكن هل يمكن أن يحدث هذا ؟ .. هل الله سبحانه وتعالى يخلق كل هذا الكون ليتمتع به من يكفر بالله ؟ .. ولا ينال ذلك الطائع الذي يحمل نفسه على منهج الله ، ويحرم عليها الشهوات

حسرية الانسان

والمعاصى .. ثم بعد ذلك لا شيء . إن هذا المنطق يهدم فكرة الخلق نفسه .. ويهدم أساس وجود الحياة الدنيا .. وأمنية كل كافر مسرف على نفسه هي ألا يكون هناك يوم حساب .. وألا تكون هناك آخرة .. لكنه لو جلس قليلا وتأمل بالمنطق وحده .. لوجد أن هذا الكلام لا يتفق مع العقل .. وإنه مادام هناك خالق ومادام هناك كون .. فلا بد أن تكون هناك غاية .. ولا توجد غاية لهذا الكون إلا إذا وجد يوم القيامة .. ووجد الحساب والعقاب والجنة والنار .. تلك هي الغاية من الكون كله .

المنهج يقيد هوى النفس

ولكى تكمل الصورة .. فإننا لابد أن نعرف .. أن الله سبحانه وتعالى أراد لهذا الكون منهج العدل .. ولذلك فقد قيد في منهج السماء هوى النفس الذى هو أساس الفساد .. فكل ما يستنبطه الانسان ، وليس فيه هوى النفس .. تركه الله سبحانه وتعالى فى الكون بلا منهج .. فالعلوم الصم التى مكانها المعمل لا يتدخل فيها منهج الله إلا أن يحيطها بقيم أخلاقية تحميها من الهوى .. فالكيمياء مثلا علم أصم يتسابق عليه العالم أجمع .. فتسرق أسرار الدول من بعضها البعض .. وأنه ليس فيه هوى نفس .. ولذلك فهو موحد فى العالم كله .. لا توجد كيمياء إنجليزية .. وأخرى فرنسية ..

حرية الانسان

وأخرى سوفيتية .. بل كلها علم كيمياء .. يحيطه المنهج بقيم أخلاقية ليكون علما خالصا قائما على حقيقة .. ليس فيه غش ولا تدليس .. فإذا انتقلنا إلى المناهج السياسية التي يدخل فيها هوى النفس .. وجدنا الصراع .. فأمريكا تحرم وتجرم المبادئ السياسية للاتحاد السوفيتي .. والسوفييت يوقعون عقوبات تصل إلى الاعدام على كل من يعتنق المبدأ الرأسمالي الأمريكي .. وهنا ينزل المنهج ليقضى بين الناس في الأهواء التي هي أساس الصراعات في الدنيا .. فيقول لا رأسمالية ولا شيوعية ، وإنما منهج السماء يحكم بين الجميع .. لماذا ؟

لأن الله سبحانه وتعالى لا يميز أحدا عن أحد .. ولا يفضل خلقا على خلق بحيث يبيح لبعض الناس ما يحرمه على البعض الآخر .. فعدل الله مطلق .. وإذا تأملنا في تشريعات الله نجد فيها حماية للضعيف من القوى ، وحماية للقوى أيضا .. قد يكون هذا كلاما متناقضا .. ولكنه في الحقيقة كلام متكامل .. وهذا التكامل لا يكون إلا في منهج الله .

إذا أخذنا مثلا حد السرقة .. هذا الحد يحمي الضعيف من أن يعتدى عليه القوى فيسرق من ماله .. وهو عاجز عن أن يدافع عن نفسه ، وهذا ما نراه في كل مجتمع .. وقد يكون للقوى منطق آخر ، وهو أنه يستطيع أن يغتصب مال الضعيف دون أن يمنعه أحد أو يصيبه أذى .. فلماذا حرم الله عليه ذلك ؟ .. نقول : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرم السرقة .. فإنه منع القوى من أن يأخذ مال الضعيف .. ولكنه في نفس الوقت منع المجتمع كله من أن يأخذ مال

حسرية الانسان

القوى ، والانسان مهما كان قويا فإنه أمام المجتمع ضعيف .. وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى ثورات المجتمعات ، وهي ضد الأقوياء والطغاة .. فلا تحدث ثورة ضد ضعيف لأنه لا حول له ولا قوة .

ماذا يحدث في حالة الثورات ؟ .. يصبح ذلك القوى الذي كان يفاخر بقوته ضعيفا أمام المجتمع ، لا حول له ولا قوة .. وينطلق الناس ينهبون ثرواته ويعتدون على أمواله وهو لا حول له ولا قوة .. يبحث عن مكان يختبئ فيه . ويتمنى لو أنهم أخذوا أمواله كلها وتركوه حيا .

إذن ففي هذه الأحداث تتلاشى قوة أقوى الأقوياء أمام المجتمع .. والله سبحانه وتعالى يرىنا قوة المجتمع المدمرة أمام أقوى الجبابرة .. لنعرف من أمثلة قد تحدث على فترات .. يرىنا قوة المجتمع الذي يحميننا منه بمنهجه .. ولو استحضرت أحدا هذه الصورة وما يمكن أن يحدث له لسجد شكرا لله سبحانه وتعالى ، لأنه حماه من المجتمع بمنهجه الذي حرم على الجميع أن يمدوا أيديهم إلى أمواله .. لأن منهج الله إن كان قد حرم على القوى مالا محدودا يملكه الضعيف .. فإنه حرم على المجتمع أن يفتك بالقوى ، وأن يأخذ أمواله ، وربما حياته .. إذن فالمنهج ليس قيادا على أي فرد .. ولكنه حماية لكل الناس .. ولو نظر أي إنسان مهما كانت قوته إلى أبعد من قدميه لادرك أن القيد الذي وضعه الله هو قيد له ولمصلحته ، وليس قيادا عليه .

كيف يعالج الرسول الأمور ؟

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى جريمة الزنا .. نجد أن بعض الناس يريد أن يجعلها على أساس أنها حرية شخصية .. ولقد جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقال له يارسول الله : أنا أريد أن أوّمن ولكنى أحب النساء ، فهل تبيح لى الزنا .. ولم يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يأمر بجلده أو رجمه .. وإنما قال له ، وهو المعلم والحكيم : أترضى هذا لأملك ؟ .. قال الرجل لا .. قال أترضاه لأختك ؟ .. قال الرجل لا .. قال أترضاه لزوجتك ؟ .. قال لا .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكلنا كذلك يا أبا العرب .. وهكذا عرفنا من هذا الحديث حكمة بالغة من حكم تحريم الزنا .. وهى أن الله سبحانه وتعالى حينما حرم الزنا علينا كان يحمى بذلك أعراضنا .. يحمى أمك وأختك وزوجتك من أن يزنى بها أحد .. وهكذا كان القيد لصالحك وليس قيда عليك .. لأنه حرم على المجتمع كله أن يقترب من أمك أو أختك أو زوجتك .. ولك أن تتصور الحال لو أن الله أباح الاعتداء على أعراضك للناس .. كل الناس .. ماذا كان يمكن أن يحدث ؟ وهكذا إذا استعرضنا منهج الله فى أفعال ولا تفعل تجد أنه حماية للناس كل الناس .. ولو فكر أى واحد منا تفكيرا سليما لطالب بهذا المنهج وسعى إليه .. ودعا الله أن ينزله ، وأن يشرعه .. لأن فيه الضمان والأمان لكل الناس .. ولكن الذى ينكر منهج الله ويحارب منهج الله .. إنما يريد أن يبيح لنفسه ما يجرمه على غيره .. فهو يريد

حرية الانسان

أن يعتدى على أموال الناس .. ولا أحد يعتدى على ماله .. وهو يريد أن يعتدى على أعراض الناس .. ولا أحد يعتدى على عرضه .. ولذلك فهو لا يريد الحق .. لأن الحق والعدل هما مساواة بين الجميع .. وليس تمييزا لأحد على أحد بالباطل .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

« من الآية ٧١ من سورة المؤمنون »

العمل عبادة

على أن البعض يحاول أن يلصق بهذا المنهج أنه ترك للدنيا .. فمادامت الحياة هي الآخرة .. ومادامت هذه دنيا أغيار لها نهاية ، طالت أم قصرت ، فلماذا العمل ، ولماذا إجهاد النفس في شيء سيفنى ؟ .. وفي شيء سيزول وينتهى ؟
نقول لهؤلاء جميعا الذين يرددون هذا الكلام ، وما أكثر من يرددونه ؛ إن العمل عبادة .. ولو أن الله سبحانه وتعالى كان يريد من المؤمنين به ألا يعملوا لما فرض الزكاة .. ولما أوجد الصدقة .. ولما وضع في منهجه تشريعات التورث فيما يتركه الانسان بعد وفاته .. ولكن وجوب الزكاة وفضلها .. معناه أنه لا بد أن يتحرك كل مؤمن في الحياة .. حركة تزيد عن حاجته ، وإلا فمن أين سيدفع الزكاة .. وكلما زادت حركته زاد مقدار الزكاة الذي سيدفعه ..

هوية الإنسان

وكلما ازدادت حركة حياته أكثر استطاع أن يتصدق بجزء من ماله .. فزاد ثوابه عند الله ، وزادت حسناته .. وكلما ترك لأولاده شيئا يعينهم على حياتهم المستقبلية كان ذلك أفضل بشرط أن يكون مالا حلالا زكيت عنه .. ولو أن منهج الله حقيقة لا يبحث على العمل والتحرك في الحياة بأقصى طاقة ممكنة ، بحيث تزيد حركة حياتك عما تحتاج إليه أنت وأسرتك . أنت وزوجك وأولادك ما فرضت الزكاة ، وما وجبت الصدقة .

إذن فكل من يقول إن منهج الله ترك للعمل لأن الدنيا فانية .. نقول إنه ترك للعمل غير الصالح وحث على العمل الصالح .. لأن مهمة الإنسان هي عمارة الأرض . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما أكل أحدكم طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده) .. ويقول صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بيد أحد الصحابة وقد أحس بأنها خشنة الملمس من العمل .. (هذه يد لا تمسها النار) .. ولو أن منهج الله فعلا كان يدعو إلى عدم العمل وترك الدنيا للكافرين .. لكان أول من طبقه هم المسلمون الأوائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولكن هؤلاء رضى الله عنهم جميعا فهموا المنهج الفهم الصحيح .. ولذلك عملوا وجاهدوا وأنشأوا حضارة من عرق الحضارات .. التي أخذت الدنيا كلها عنها أساس الحضارة الحديثة .

ولذلك فإن الذين يمتنعون عن العمل هم مخالفون لمنهج الله .. والذين يريدون أن يعيشوا على فتات المجتمع في حقيقتهم يسيئون

حرية الانسان

للمنهج ولا يطبقونه .. فمنهج الله يريد أمة قوية قادرة تسود الأرض .. ولا يريد أمة من الضعاف الجياع الذين يسألون الصدقة ويعيشون مستضعفين في الأرض .. تلك هي الحقيقة التي لا بد أن يعيها الجميع .. وأجر الانسان العامل هو أجر المجاهد .. مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فقد كان جالسامع أصحابه ذات يوم ، فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا هذا . فإن كان يسعى على نفسه ، ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس ، فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين ، أو ذرية ضعاف ، ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله .

إلى هنا نأتى إلى ختام الفصل الأول .. وقد بيننا فيه كيف أن الله سبحانه وتعالى برحمته قد وضع منهجا في الحياة الدنيا .. يذكرنا دائما بقوته وعجزنا .. ويذكرنا بفضله علينا فيما خلق لنا من النعم .. حتى لا تغرنا قوتنا ، ونحسب أننا في غنى عن الله سبحانه وتعالى .. وكيف أن الانسان الذى خلقه الله مختارا .. لم يعط له الاختيار المطلق .. وإنما أعطاه الاختيار فى المنهج الذى بينه ووضحه له .. حتى يكون الحساب عدلا فى الآخرة .. وكيف أن الدنيا هى دار اختبار .. وأن الحياة الحقيقية التى أعدها الله للانسان هى الحياة فى الجنة .. حيث ينعم بلا حدود .. وحيث يعيش حياة خالدة لا تنتهى أبدا .. ويعيش فى نعمة الله فلا تزول عنه بأن تذهب وتنتهى .. ولا يزول عنها بأن يموت ..

حرية الانسان

وبينا أن اليقين بالآخرة هو أساس الايمان .. وأن كل كافر بمنهج الله يحاول أن ينكر يوم الحساب ... ويحاول أن ينكر أن هناك جزاء في الآخرة .. لأنه يريد أن يعيش تبعا لأهوائه وشهواته .. وهذا يتنافى مع الحق الذي قامت عليه السموات والأرض .. والذي هو صفة من صفات الله سبحانه وتعالى .

وبينا كيف أن منهج الله قد وضع لحماية الناس كل الناس .. فهو يحمي الضعيف من القوى .. ويحمي القوى من المجتمع .. ولو أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل منهاج للحياة في الأرض لطلبنا نحن هذا المنهج .. لأنه هو الوسيلة الوحيدة ليعيش الانسان آمنة مطمئنا في الأرض .. وهو الطريق إلى الحياة الطيبة .

معنى الحياة

على أننا قبل أن نبدأ في مشاهد الآخرة .. وكيف سيشهد على الانسان جلده وسمعه وبصره مصداقا لقوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ ۖ وَأَبْصَرُهُمْ ۖ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ۚ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ خَلَقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۗ ﴿٢١﴾

، سورة فصلت - الايتان ٢٠ و ٢١ ،

وقبل أن نتحدث عن كيف أن الحجارة ستحرق من عبدها .. لا بد أن نتحدث عن معنى الحياة .. وهل الحياة في الانسان فقط ..

حرية الانسان

أم في الانسان والحيوان .. أم أنها في كل ما خلقه الله في الدنيا حتى لو كنا لا نرى فيه أية حياة بمفهومنا نحن .. ولكن كل شيء في هذا الكون فيه حياة .. وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .

أحاديث قدسية

- يقول رب العزة في حديثه القدسي :
- « مِنْ عِبَادِي مَنْ صَلَّاهُ فِي الْغِنَى . فَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَفَسَدَ حَالُهُ .
 - وَمِنْ عِبَادِي مَنْ صَلَّاهُ فِي الْمَرَضِ ، فَلَوْ عَافَيْتُهُ لَفَسَدَ حَالُهُ .
 - وَمِنْ عِبَادِي مَنْ صَلَّاهُ فِي الْعَافِيَةِ فَلَوْ أَمْرَضْتُهُ لَفَسَدَ حَالُهُ » .

الفصل الثاني

معنى الحياة

معنى الحياة

الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون .. هو خالق الحياة فيه .. ولكي نفهم معنى الآيتين الكريميتين :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ عَلَيْهِم سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة فصلت)

.. لابد أن نعرف معنى الحياة والمقصود بها .. وهل هى الحياة بمفهومنا أم أن الحياة فى الكون بمفهوم آخر يختلف تماما عن مفهومنا .. نحن نفهم الحياة على أساس أنها حس وحركة .. الانسان فيه حياة لأنه يحس ، ويعقل ويتحرك .. والحيوان فيه حياة أيضا ، لأنه يحس ويتحرك .. أما النبات فهناك من يقول : إن فيه حياة لأنه ينمو ويكبر ويثمر ويذبل .. فيه نوع من التغيير والحركة .. حركة النمو .. إذن ففيه نوع من الحياة .. أما الجماد فى مفهومنا فليس فيه حياة ، لأنه لا يحس ولا يتحرك ولا ينمو . وأجناس الكون أربعة .. أدناها الجماد ، وتنتهى حياته المنظورة لنا بخاصية النمو ، وهى أولى خواص النبات .. لذلك نجد عددا من الشعب المرجانية وهى جماد تنمو فى البحر .. أما النبات فيبدأ بخاصية النمو التى انتهى عندها الجماد ، وينتهى بخاصية الحس التى يتميز بها الحيوان .. فنجد بعض النباتات إذا لمستها أحاطت بك ،

معنى الحياة

أو أغلقت أوراقها ، مثل ما يطلق عليه الناس - الست المستحية - ..
وهكذا تنتهى الحياة فى النبات عند الحس .. وتبدأ الحياة فى الحيوان
بالحس والحركة .. وتنتهى بشىء من التمييز ، وهو من صفات
العقل .. فنجد أن أرقى الحيوانات ، وهى القرده ، تستطيع - إلى
حد ما - أن تقوم ببعض الحركات التى فيها نوع من التمييز .. وهو
ما تبدأ به حياة الانسان .. فلا يوجد إنسان ليس له عقل مميز ..
وتنطلق مظاهر الحياة فى الانسان مع العقل إلى آفاق بلا حدود ..
وتظل ترتقى وترتقى مع ارتقاءات العقل إلى ما شاء الله .
هذه هى مظاهر الحياة كما نفهمها نحن .. فكل جنس من أجناس
الكون - جمادا كان أو نباتا أو حيوانا أو إنسانا - يبدأ عند النهاية التى
يصل إليها الجنس الذى قبله .. ولكن هل مفهومنا فى الحياة
صحيح ؟ وهل الحياة هى الحس والحركة فقط ؟ وهل خلق الله
الأشياء فى الدنيا جامدة . ثم يجعلها يوم القيامة تنطق وتتكلم ؟
فالحياة فى الدنيا ، وهى التى يشارك فيها المؤمن والكافر ، قصارى
ما تعطينا الحس والحركة . فهل هذه حقيقة هى مظاهر الحياة ؟ أم أن
هناك مظاهر أخرى وأسراراً أخرى فى الكون لا ندرى عنها شيئا ..
فى معنى الحياة يحكمنا القرآن الكريم .. ماذا قال الله سبحانه
وتعالى .. اقرأ قول الحق :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(الآية ٤٢ - سورة الانفال)

معنى الحياة

إذا تدبرنا في هذه الآية نكون قد عرفنا من القرآن أن الهلاك مقابل للحياة .. أو ضد الحياة .. هناك حى وهناك من هلك .. أى لا حياة له .. يأتي الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى ليقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(الآية ٨٨ - سورة القصص)

.. مادام الله سبحانه وتعالى قال كل شيء سيصبح هالكا .. إذن فكل شيء فيه حياة .. أو ما يقال عنه شيء فيه حياة .. لأن الحق سبحانه وتعالى يقول عندما تأتي القيامة سيهلك كل شيء إلا وجه الله .. إذن فقبل ساعة القيامة يكون كل شيء فيه حياة .. وطبعا قبل ساعة القيامة يكون هناك جماد ونبات وحيوان وإنسان .. فإذا أضفنا إلى ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الاسراء)

.. يكون كل ما في الكون مسبحا لله .. يقول بعض العلماء أن كل شيء يسبح تسبيح دلالة على الخالق .. نقول لهم لو أنه كان تسبيح دلالة نكون قد فهمناه .. ولكن الله يقول :

﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

.. إذن فنحن لا نفهم هذا التسبيح ، إذا وصلنا إلى هذه النتيجة نكون قد عرفنا أن كل شيء في الكون له حياة .. وهذه الحياة تناسب

معنى الحياة

مهمته .. إذن فالأشياء التي نراها أمامنا ساكنة لا تنطق ولا نتكلم .. هي في الحقيقة تنطق وتكلم ولكننا لا نسمعها .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢٠ من سورة فصلت)

مفهوم الحياة

هنا لابد لنا من وقفة طويلة عند مفهوم الحياة .. فنحن نفهم الحياة على أنها حس وحركة مرئية لنا .. ولكن الحقيقة أن هناك حسا وحركة في الكون مرئية لنا .. وهناك حس وحركة غير مرئية لنا .. ولناخذ الجمامد أولا باعتبارها أكثر الأشياء التي يعتقد العلماء أنه ليس فيها حياة في منطق الانسان .. وسأضرب هنا أمثلة بسيطة جدا حتى نكون جميعا عارفين بما يحدث .

نحن حين نريد أن نمغنط قضيبا من الحديد .. ماذا نفعل .. نأتي بمغناطيس ونمر على قطعة الحديد في اتجاه واحد عدة مرات ونظل نقوم بهذه العملية لفترة حتى تتم مغنطة قطعة الحديد .. ماذا حدث ؟ أولا دخلت المغناطيسية إلى قطعة الحديد غير المغنطة .. كيف حدث ذلك ؟ نحن لم نر شيئا ، ولكننا شهدنا أثر المغناطيسية على قطعة الحديد التي أتينا بها فأصبحت تجذب الأشياء .. هذه واحدة .. قوة معنوية ظهرت - لم نر شيئا يتغير أمام أعيننا .. ولكن مع ذلك فقد تغير شيء ما في قطعة الحديد التي أجرينا عليها التجربة .. بحيث

معنى الحياة

أصبحت ممغنطة بعد أن كانت غير ممغنطة . . فإذا ارتقينا بالتجربة ،
وجئنا ببرادة الحديد في أنبوبة اختبار . . ومررنا عليها عدة مرات
بالمغناطيس في اتجاه واحد . . نجد البرادة تتحرك وتتبدل حتى تصير
في اتجاه واحد . . ذرات القضيب الحديدى قامت بنفس الحركة . .
ولكن في داخل الجسم الصلب . . ونحن ننظر إلى هذا الجسم
لم نلاحظ فيه أى حركة . . ولكننا حين جعلناه جزئيات صغيرة بحيث
أصبح برادة حديد . . رأينا الحركة والتبدل الذى حدث . . ولكن
السؤال ظل مستمرا . . وهو كيف دخلت المغناطيسية ، واخترقت
هذا الجسد الصلب القوي وهو الحديد . . وأحدثت فيه حركة حتى
تحولت ذراته وتجمعت في اتجاه واحد . . هذا لم يصل إليه العالم حتى
الآن .

ولكن إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لنا من علمه ما جعلنا
نرى برادة الحديد وهى تتحرك في أنبوبة اختبار . . وتشكل
وتتبدل . . إنما ليرينا أن الشئ الساكن والجامد وهو الجماد . . يمكن
أن تكون فيه حركة مستمرة . . ولكننا لا نراها لأنها فوق طاقة
أبصارنا . . إذن فالجماد فيه حركة ولكننا لا نراها .
وقبل أن نغضى في هذا الحديث . . لا بد أن نبين أن وجود الشئ
مختلف تماما عن إدراك وجوده . . فقد يوجد الشئ ولا ندركه مثل
ملايين المخلوقات في الكون التى تتحرك وتتكلم وتعيش ، ولا ندركها
بأبصارنا ، ولا نسمع أصواتها . . فالجن مثلا تعيش وتتناسل
وتتحدث مع بعضها البعض ولها حياة ولكننا لا نراها . . والملائكة
مثلا موجودة تؤدى مهمتها في الكون ، ولكننا لا نراها .

معنى الحياة

هذه قضية هامة لا بد أن نتحدث عنها لنفهم معنى الحياة في الجماد .. وهي قضية غيبية .. فوجود الملائكة والجن أخبرنا به الله .. وأخبرنا بأننا لانراهم في قوله تعالى عن الشيطان :

﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾

(من الآية ٢٧ من سورة الاعراف)

إذن فهناك من يرانا ولا نراه .. وهذه كما قلت قضية غيبية .. وقد يأتي أى إنسان ويقول لك أنا لا أومن بالغيب .. ولا أصدق أن هناك مخلوقات لا نراها .
نقول له : إن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده جعلته يضع في الكون قضايا حسية .. تقرب إلى أذهاننا صور الغيب رحمة بعقولنا .. فلنأخذ من العالم المادى ما يقرب لأذهاننا الصورة .. كيف ؟ إن الجراثيم مثلا كانت موجودة في الكون تؤدي مهمتها .. وكنا نرى آثار هذه المهمة في أعراض كثيرة .. ولكننا لم نكن نرى الجراثيم التى تسبب هذه الأعراض .. ثم تقدم العلم الذى كشفه الله للبشر .. واخترعت الميكروسكوبات التى تكبر مئات المرات .. ووصلت إلى أنها تكبر الصورة ملايين المرات .. فماذا حدث ؟ رأينا هذه الميكروبات .. ورأيناها بصورتها البشعة .. مخلوقا عجيبا غاية فى الدقة .. وفيه حياة ويتوالد ويتكاثر ويأخذ أشكالا مختلفة .. بل إن الميكروب فيه حياة متكيفة .. بمعنى أنه بعد أن تستخدم ضده دواء معين .. يتكون من جسده ما يقاوم هذا

معنى الحياة

الدواء ، ولا يجعل له فاعلية .. ولذلك فلا بد من فترة إلى فترة .. أن يغير الأطباء الدواء ، لأنه لم يعد مؤثرا على الميكروب فقد تحصن ضده .. ويلفتنا هذا إلى دقة خلق الله سبحانه وتعالى .. فالله خلق في هذه المساحة الصغيرة التي لا ترى بالعين المجردة .. وربما لا ترى .. بمجهر صغير .. خلق في هذه المساحة الدقيقة غاية في الدقة مخلوقا له حياة كاملة .. فيها غذاء ، وفيها تناسل ، ولها دورة حياة متكاملة .

والسؤال هنا : هل وجد هذا الميكروب أولا ، ثم أدركنا وجوده .. أم أنه لم يوجد إلا ومعه إدراكنا لهذا الوجود ؟ والجواب طبعا أنه وجد أولا وكان يقوم بمهمته في الحياة قبل أن ندرك وجوده .. ولولا أننا أدركنا آثار هذه المهمة .. وبدأ العلماء يبحثون عن سبب هذه الآثار .. ما أدركنا هذا الوجود . ولكن عدم إدراكنا لوجود هذا الميكروب لم يكن يعني أنه غير موجود .

الوجود .. وإدراك الوجود

إذن فالوجود شيء وإدراك الوجود شيء آخر يختلف تماما .. وهذا ينطبق على أشياء كثيرة في الكون لا تعد ولا تحصى .. فكأنه قضية عامة وليس قضية خاصة .. إذا وضعت نقطة الماء أو نقطة الدم تحت الميكروسكوب فستجد فيها أشياء عجيبة .. كائنات حية تتحرك وتعيش وتتناسل .. وتؤدي مهمة في الحياة دون أن نعرف عنها شيئا أو ندرك وجودها .. فإذا اتجهت بالتليسكوب إلى السماء رأيت نجوما لم تكن تراها بعينك المجردة .. هل هذه النجوم التي رأيتها

معنى الحياة

بالتليسكوب كانت موجودة .. أم أنها خلقت ساعة أدركت وجودها ؟

الجواب الذى يوافق عليه كل علماء الأرض أنها كانت موجودة تؤدي مهمتها فى الحياة دون أن تدرك أنت وجودها . ولما تقدم العلم الذى كشفه الله للإنسان فى الأرض .. و اخترعت آلة التليسكوب التى تقرب الأشياء .. أصبح من الممكن رؤية هذه النجوم لأن الآلة الجديدة أعانت العين وجعلت رؤية هذه النجوم فى مقدورها . إذن فهذه النجوم أدت دورها ربما لملايين السنين دون أن تحس بها ، أو تعرف شيئاً عن وجودها أو حياتها . . وإذا كان وجود الشيء كما ثبت علمياً مما قلناه - على سبيل المثال - وليس على سبيل الحصر .. إذا كان وجود الشيء مختلفاً عن إدراك وجوده .. فإذا حدثت عن شيء لا تراه فلا تنكر وجوده .. وإذا كان المتحدث هو الله سبحانه وتعالى .. فالشيء ثابت الوجود كأنك تراه .

حياة الجماد

نعود بعد ذلك إلى حياة الجماد .. وقد أثبتنا بتجربة علمية بسيطة وسهلة أن هناك حركة فى الجماد لا تستطيع أن تدركها بعينك .. ولكنك قد تقول : إن هذه الحركة مجرد تغير ذرات .. نقول لك إن المسألة أعمق من ذلك بكثير .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَاَبَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ (٢٩)

(الآية ٢٩ من سورة الدخان)

معنى الحياة

.. إذن فالسما والارض ، وهما كما ترى بعينك المجردة ليس فيها حياة ، تبكيان .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول .. (إذا مات العبد الصالح بكى عليه موضعان : موضع سجوده ، وموضع صعود صلاته ودعوته) .

إذن فالأرض بنص القرآن تبكى ، ولكننا لا نسمع بكاءها .. ومادام هناك بكاء فلا بد أن يسبقه حس وعاطفة .. إذن فهذا الجماد الذى تعتقد أنه لا حياة فيه .. فيه حس وفيه عاطفة .. ولكنك لا تعرف عنها شيئاً ولا تدرك وجودهما .. فإذا سمعت هذا فلا ننكره .. ولكن قل إن الوجود شيء ، وإدراك هذا الوجود شيء آخر .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم سمع تسبيح الحصى فى يديه .. ولكن هل معنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع هذا التسبيح والحصى فى يده .. هل معنى هذا أن الحصى لا يسبح فى غير يد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحصى يسبح ، سواء كان فى يد نبي أو فى يد غيره من البشر .. أو لو لم تمسه يد .. مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(الآية ٤٤ من سورة الاسراء)

.. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ من سورة الانبياء)

معنى الحياة

إذن فالجبال تسبح .. والحصى يسبح .. وكل شيء في الكون دائم التسبيح لله سبحانه وتعالى .. ولكننا لا نفهم هذا التسبيح ولا نفقهه .. والسماء تبكى والأرض تبكى وقد يضحكان ، ولكننا لا ندرك هذا .. بل إن الأرض وهي أماننا جماد ليس فيه حياة .. لها حياة ذكر لنا القرآن الكريم لمحة عنها في قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الآية ٥ من سورة الحج)

إذن فالأرض لها حياة مع النبات .. فهي تهتز وتصبح هشة حتى تخرج ساق النبات الصغير من داخل الصخرة الصلبة في الجبل .. كيف اخترقت هذا الساق اللينة هذا الصخر الصلب .. هناك حياة وتفاعلات تمت دون أن نراها بقوانين خلقها الله .. فجعلت هذه الساق الضعيفة الصغيرة تحترق هذا الحجر الصلب وتخرج منه .. بينما لو جئت أنت بفأس من الصلب أو آلة حادة .. ربما تفشل في تحطيم هذا الصخر أو إحداث ثقب فيه .. ولكنه كون كل شيء فيه حي ويؤدي مهمته .. ومهمة الصخرة أن تلين وتصبح هشة تخرج منها ساق النبات دون تدخل يد إنسان ليتم ذلك .. إذن فهناك حياة في الجماد .

الحجارة .. والحياة

فإذا أردنا أن نزيد ، وهذا الموضوع يمكن أن نغضى فيه بلا نهاية .. نتأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

معنى الحياة

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنْ
الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ
وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

(الآية ٧٤ من سورة البقرة)

إذن فالحجارة التي تحسبها لا حياة لها .. يتفجر منها الأنهار ..
ويخرج منها الماء .. وتهبط من خشية الله .. أليست هذه ألوانا من
الحياة نحن غافلون عنها .. وهكذا بين الله سبحانه وتعالى لنا في
القرآن الكريم ألوانا من الحياة في الجماد .. ولكنه لم يحطنا بكل
تفاصيل حياة الجماد .. وإنما أعطانا آيات ترينا أن الجماد له حس وله
حركة .. وله مهمة في الحياة .. وله حياة ليؤدي هذه المهمة ..
وعرفنا أن الجماد يبكي مصداقا لقوله تعالى :

﴿ فَبَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(الايلا ٢٩ من سورة الدخان)

.. وعرفنا ألوانا أخرى من حياة الجماد ، منها اهتزاز الأرض إذا
نزل عليها الماء ليخرج منها الزرع .. وهكذا نجد أن حياة الجماد
حياة كاملة .. فيها لغة وهي التي يسبح بها الجبال والحصى .. وفيها
انفعال إذا نزل الماء على الأرض الساكنة .. وفيها تفاعل مثل ذرات
الحديد والمغناطيس .. وفيها دورة حياة عرفنا لمحات منها والباقي
لم يكشفه الله لنا .

معنى الحياة

نأتى بعد ذلك إلى النبات .. نقول إن النبات فيه نوع من الحياة هو
خاصية النمو .. ولكننا نقول إن الحياة فى النبات فيها كل صفات
الحياة .. فالنبات يسبح ، إذن فهناك لغة .. والنبات له خاصية
النمو .. ولكن هذا ليس كل شىء .. فالنبات له خاصية
الاختيار .. أى أنه يختار بين البدائل .. قد يبدو ذلك غريبا لأن
الذى يختار هو الانسان .. ولكن الانسان اختياره بعقله .. وهو قادر
على أن يفعل أو لا يفعل .. ولكن النبات اختياره اختيار غريزى ..
كيف ؟

.. عندما نروى الأرض نرويها بالماء لينبت الزرع .. وينزل الماء
ليختلط بمواد الأرض .. وتمتص الغذاء جذور فى التربة لتعطيها
للنبات .. هذه هى طريقة تغذية النبات .. ولكن كيف يتم ذلك ؟
.. قالوا إنه يتم بواسطة نظرية الضغط الأسموزى .. أى أن
الضغط خارج شعيرات الجذور يكون أعلى من داخلها .. فيدخل
الماء مختلطا بالمواد المغذية للنبات داخل الشعيرات ليغذى النبات ..
وجاءوا لنا بعدد من هذه الأنابيب الشعرية ، ووضعوها فى إناء فدخل
السائل فيها وارتفع .. وقالوا هذه النظرية هى التى يتم على أساسها
غذاء النبات ، ولا يوجد أى نوع من الحياة .. نقول لهم .. هذه
النظرية صحيحة ، ولكن ينقصها شىء واحد .. هو الاختيار الذى
يتم .. لو أن كل النباتات كانت تنبت ثمرا واحدا لكانت هذه
النظرية وحدها هى سر حياة النبات .. ولكننا نزرع الأنواع المختلفة
من النبات .. هذا حلو ، وهذا مر ، وهذا حريف .. نزرعها كلها
فى أرض واحدة .. ونسقيها بماء واحد .. ومع ذلك تنبت هذه الثمار

معنى الحياة

المختلفة في الشكل واللون والطعم .

من الذى جعل كل جذر من جذور نبات معين يمتص من الأرض تلك العناصر التى تعطى نوع الثمرة تنبتها هذه الشجرة بالذات ؟ ..
كلها جذوع متساوية فى التكوين تقريبا .. ولكن لكل واحد منها عناصر معينة .. يأخذها من الأرض لتعطى تكوين الثمرة .. هذه حلوة فتأخذ من الأرض العناصر التى تعطى الحلاوة للثمرة .. وهذه مرة فتأخذ من الأرض العناصر التى تعطى المرارة .. وهذه لونها أصفر فتأخذ من الأرض العناصر التى تكون صفراء اللون .. وهذه لونها أحمر فتأخذ من الأرض العناصر التى تكون اصفرار اللون ..
ألوف من الثمر المختلف الألوان .. وكل جذر يأخذ من الأرض هذه العناصر بالذات التى تكون الثمرة التى يثمرها .. بل وأكثر توجد أنواع مختلفة من الثمار .. من ذلك النوع الواحد من التفاح مثلا يوجد التفاح الأحمر ، والتفاح الأصفر ، والتفاح الأخضر ، والتفاح الذى يختلط فيه أكثر من لون .. وكل جذر يأخذ من الأرض المواد اللازمة لتكوين هذه الثمرة بالذات دون تغيير أو تبديل .. ولا يضل جذر أبدا عن المواد اللازمة للثمرة التى تنبتها الشجرة .. بل وأكثر من ذلك فإن امتصاص الجذر للمواد اللازمة للثمرة يختلف فى المراحل المختلفة .. ففى أول الأمر يمتص المواد التى تعطى للثمرة النمو ، ولكن تبقىها جامدة .. لونها أخضر لا طعم لها ولا رائحة .
فإذا تمت المرحلة الأولى أعطاها المواد التى ترقق محتويات الثمرة .. حتى تصبح صالحة للأكل .. ثم بعد ذلك يعطيها المواد اللازمة للون الثمرة .. والمواد اللازمة تكون لها رائحة تجذب الانسان إليها وتحببه

معنى الحياة

فيها .. فيلتفت الانسان إلى الرائحة فيرى لونا وشكلا جذابا للثمرة فيشتهيها ويقطفها .. كل هذا يتم بنظام غاية في الدقة تتبدل فيه اختيارات أنواع الغذاء .. حسب كل مرحلة من مراحل النبات .. إذن هناك اختيار في النبات .. ولكنه اختيار غريزي .. يخضع للغريزة ولا يخضع للعقل .. اختيار تحكمه المهمة التي خلقه الله سبحانه وتعالى من أجلها .. فالحياة في أى شيء هو أن يكون مناسباً لمهمته .

وهناك في النبات الذكورة والأنوثة والتناسل .. وهناك نوع من النبات الذي يوجد في الغابات يتكاثر بأن يقذف البذرة الملقحة بعيداً عن الشجرة .. لتنبث شجيرات جديدة من نفس النبات حتى لا ينقرض .. علم واسع جداً يتقدم مع الزمن لنكتشف كل يوم أشياء مذهلة وأسراراً جديدة في حياة النبات .

للنبات حياة

وهكذا نرى أن للنبات حياة أوسع كثيراً من مجرد النمو ، وأنها حياة هائلة فيها أسرار كثيرة .. وصلنا إلى بعضها وربما نصل إلى البعض الآخر خلال السنوات القادمة .. ولكنها على كل حال أشياء كثيرة ، وحياة واسعة على أن نظرنا السطحية للنبات لا تتناسب مع مهمة النبات في الحياة .. ولعل أبرزها أن النبات هو الرئة التي تتنفس بها الأرض .. والتي تخلص الأرض من التلوث .. ولذلك كلما زادت المساحات الخضراء في المدن كان الجو صحياً ، والهواء أقرب إلى النقاء .. وكلما قلت هذه المساحات كان الهواء غير صحى ،

معنى الحياة

والجو أقرب إلى التلوث .. ما معنى هذا كله ؟ .. معناه أن هناك مهمة لكل خلق لله .. وأن حياة كل خلق تناسب مهمته .
فإذا جئنا إلى الحيوان .. أقرب الأشياء لتعريف الحياة بالنسبة للإنسان .. وجدنا أننا نصف الحيوان بأنه أبكم .. أى أنه لا يتكلم .. ولكن الحقيقة غير ذلك تماما .. فالقرآن الكريم يحدثنا عن أنبياء الله الذين علمهم الله سبحانه وتعالى منطق المخلوقات ولغتها .. فكانت الجبال تسبح مع داود مصادقا لقوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٩ من سورة الأنبياء)

وحديث سليمان مع الهدهد .. الذى يقول فيه الحق سبحانه
هو تعالى عن سليمان :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفٰئِئِينَ ﴿٢٠﴾
لَأَعِدَّنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحُنَّهُ ۖ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾
فَكَثَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحِطُ بِهِ ۗ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ
يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الآيات ٢٠ و ٢١ و ٢٢ من سورة النمل)

إلى آخر الحوار الذى دار بين سليمان عليه السلام والهدهد ..
وكيف أن سليمان كلف الهدهد بأن يأخذ كتابا منه ويلقيه إلى بلقيس

معنى الحياة

وقومها .. كل هذا كان حوارا كلاميا بين سليمان والهدهد .. ذلك الطير الذى نقول عنه إنه لا ينطق .. وحديث النملة الذى ذكر فى القرآن الكريم :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتِ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ

لَا يَحِطُّ بِكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

(الآية ١٨ من سورة النمل)

.. وهكذا نجد أنه فى حياة الحشرات والطيور والحيوان .. هناك لغات تتحدث بها مع بعضها البعض .. ولكننا لا نسمعها ولا نفهمها .. وأن هناك حياة منظمة بحيث إن النملة قد سمعت وهى تنذر قومها خشية أن يهلكهم سليمان وجنوده .. وأن يعقل الهدد أن هناك من يسجدون للشمس من دون الله . كل هذه لمحات من حياة الحشرات والطيور والحيوان .. لم نكن نعرف وجودها .. ولا أظننا أن هناك حياة لهم يمكن أن تبلغ هذا الرقى وهذا النظام .. ومع ذلك فهناك مثل هذه الحياة .

حياة.. لكل شىء

نكون بذلك قد وصلنا إلى أن هناك حياة لكل ما خلق الله فى هذا الكون .. حياة قد نجهلها .. وحياة قد نعرف منها أشياء ، ونجهل أشياء .. وحياة قد نعرفها كلها .. ولكن كل ما خلق الله فى هذا الكون حياة تناسب مهمته على الأرض .

معنى الحياة

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة .. فلا نستغرب قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لَمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ۗ قَالَُوا نُنطقنا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الايتين ٢٠ ، ٢١ من سورة فصلت)

.. لأن الجلود هي من خلق الله سبحانه وتعالى .. ولها لغة تسبح بها ولكن لا نفهمها ولا نسمعها .. وكذلك العين والأذن والأنف .. وكل خلية من خلايا الجسم هي مسبحة لله طائعة له .. ولكنها مسخرة لنا .. فاليد مسخرة في أن تطيعني أن أساعد بها مسكينا ، أورجلا أعمى .. وأن أبطش بها بالضعيف .. واللسان في الحياة الدنيا مسخر لي .. أستطيع أن أقول به الحق ، وأن قول به الكذب .. وأنطق بكلمة الايمان وكلمة الكفر .. وهو في هذا يطيعني وفي هذا يطيعني .

وكذلك كل أعضاء الجسد .. فإذا جاءت الآخرة انتهى هذا التسخير وزال .. وأصبح اللسان الذي كان مسخرا لخدمتي في الحياة الدنيا بأمر الله .. خارجا عن أن يكون مسخرا لي ويشهد على .. وكذلك العين .. وكذلك الجلد .. إلى آخره .. وحينئذ تقف كل هذه الأعضاء لتشهد على بالحق .. بما فعلت في الدنيا من معاص .. وحينئذ يجعلنا الله نفهم لغتها وهي تنطق وتقول الله أنطق كل

معنى الحياة

شئ .. وهو أعلم بلغة الأجناس كلها .. ويستطيع أن يعطى وأن يهب ما يشاء لمن يشاء .

ولقد خص أنبياءه في الدنيا بنفحات من هذا العلم .. فأعطى سليمان ملكا لن يعطيه لأحد بعده .. وعلمه منطق الطير ، وآتاه من كل شئ . وكذلك داود .. وكذلك كل من ارتضى الله من عباده .. يعلمه من لدنه علما فيفقه ويفهم ويرى ويسمع .. ما ولا نراه ، ولا نسمعه ، ولا نفهمه .. تلك عظمة الله وتلك حكمة الله .

هذا هو معنى الحياة على الأرض .. كل شئ فيه حياة .. وساعة الخلق كل شئ وجد بكلمة « كن » .. وعلى الهيئة التي أرادها الله سبحانه وتعالى .. وكل قضايا الكون لمسها القرآن ليعطينا من العلم ما سيكشفه لنا الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة .. حين نظن أننا قد وصلنا إلى العلم الذى مكنتنا من السيطرة على الأرض .. مصادقا لقوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾

(من الآية ٢٤ من سورة يونس)

.. أى بالليل أو بالنهار .. لأننا كما نعرف فإن نصف الكرة مضىء ونصفها مظلم .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً (من الآية ٦٢ من سورة الفرقان)

معنى الحياة

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى : « خَلْفَةً » .. أى يخلف أحدهما الآخر .. ومعنى الخلفة أن هذا يخلف هذا .. وردية حراسة - مثلاً - تخلفها وردية حراسة .. وردية عمل تخلفها وردية عمل خلال الأربع والعشرين ساعة .

لكن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾

تحمل معنى أعمق من هذا بكثير .. لأنه فى كل عمل لا بد من بداية .. وإذا قلنا أن دورية الحراسة هذه تخلف ما قبلها فلا بد عند البداية أن تكون هناك وردية قد جاءت .. هى الوردية الأولى .. لم تخلف وردية كانت قبلها .. وإنما جاءت دون أن تكون خلفه لشيء .

وكذلك عندما بدأ المصنع العمل .. فإن الوردية الأولى التى بدأت العمل لم تخلف وردية كانت قبلها .. ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾

.. ومعنى ذلك أنه لم تكن هناك بداية لليل وحده ثم جاء النهار .. ولم تكن هناك بداية للنهار وحده ، ثم جاء الليل .. بل منذ الوجود الأول كانا معا ليخلف كل منهما الآخر .. وهذا دليل على كروية الأرض .. لأنه ساعة خلق الأرض وجد الليل والنهار معا فى لحظة الخلق .. فهما خلفه منذ وجدا .. وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

معنى الحياة الموت .. والحياة

بقيت بعد ذلك نقطتان : النقطة الأولى .. كيف سيعذب الله
الجلود والأعين والألسنة ، وهي عابدة لله مسبحة له .. وذلك
مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ كَمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾

(من الآية ٥٦ من سورة النساء)

.. نقول إن هذه الأعضاء كلها ستكون سعيدة ، وهي تحرق
العاصي لله الكافر به .. كما ستكون الحجارة سعيدة ، وهي مشتعلة
بالنار لتحرق أولئك الذين عبدوها وكفروا بالله .. كل هذه الأشياء
المطبعة لله والتي تستخدم في إذاقة العذاب للنفس البشرية ستكون
سعيدة ، لأنها تذيق العذاب لعاصي كفر بنعمة الله .
والنقطة الثانية هي قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾

(من الآية ٩٥ من سورة الانعام)

.. ولقد حاول العلماء أن يصلوا إلى معنى الحي ، ومعنى
الميت .. ومادام كل شيء حيا .. فكيف يخلق الله الحي من
الميت .. نقول : إن الحياة في خلق الله .. هي أن يؤدي الموجود
مهمته .. أى أن كل شيء حي له مهمة في الحياة .. فإذا انتهت هذه
المهمة .. خرج من مفهوم الحياة الدنيوية وأصبح ميتا .. ولذلك فإن

معنى الحياة

الشجرة - مثلاً - إذا أعطت كل ما فيها من ثمار تموت بعد ذلك ،
وتخرج من الحياة ، لأنها أدت مهمتها .

وكذلك الانسان عندما تنتهى مهمته فى الحياة ويمر بفترة الاختبار
التي قدرها الله له . ويمتحن ويختبر مرة ومرات تنتهى حياته . . بعد
أن انتهت المهمة التي جاء من أجلها للحياة ، وهى فترة الاختبار التي
مر بها .

وكذلك الحيوان والنبات والجماد . . فالله أعطى الانسان حياة
حس وحركة فى الدنيا . . ثم أعطاه حياة أخرى فى الآخرة يسعد بها
حياته فى الدنيا ، ويجعل لها قيمة . . فالنعم فى الدنيا للمؤمن
والكافر . . ولكنها فى الآخر للمؤمن وحده .
هنا نتوقف عند قوله تعالى :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾

فمادام كل شىء فى الدنيا فيه حياة . . فأين هو الميت الذى
ستخرج منه الحياة ؟ . . والحياة عرفنا أنها فى الانسان والحيوان
والنبات والجماد . . فإذا كان كل ما فى الكون حيا فأين هو الميت ؟
وقبل أن نبدأ الاجابة على هذا السؤال ونحن نعرف أن من أسماء الله
الحسنى المحيى والميت . . لا بد أن نوضح أن أسماء الله سبحانه
وتعالى تدل على الثبوت ، وعلى الحدوث معا . . فالحق تبارك وتعالى
له صفة فى ذاته . . وصفة فى متعلقات هذه الذات . . فإذا قلنا أن
الله هو الرزاق . . فهذه صفة للحق تبارك وتعالى قبل أن يكون هناك
مخلوق يرزقه الله . . والله سبحانه وتعالى رزاق قبل أن يخلق من يحتاج

معنى الحياة

إلى الرزق . . ولو أنه سبحانه وتعالى لم يكن رزاقا قبل أن يوجد من يرزقه فكيف يستطيع أن يرزق خلقه لحظة وجودهم . . وإذا لم يكن سبحانه وتعالى هو الخالق قبل أن يبدأ الخلق فبأى صفة يتم هذا الخلق ويبدئه ؟ لا بد أن توجد الصفة أولا قبل أن يوجد الفعل .
فالله سبحانه وتعالى خالق قبل أن يخلق أحدا . . والخلق بدأ أولا بوجود صفة الخالق في الله تبارك وتعالى حتى قبل أن يوجد مخلوق واحد . . إذن فالخلق صفة لذات الله موجودة قبل أن توجد أفعال هذه الصفة . . والله محيي قبل أن توجد الحياة . . وميت قبل أن يوجد الموت . . إذن فالصفة موجودة في الذات . . فالله قبل أن يخلق كان خالقا . . وقبل أن يقدر كان قادرا . . وقبل أن يحيى وميت كان محيا وميتا .

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾

قبل أن تكون هناك حياة ووجود . . وإذا أخذنا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾

بمعناها السطحي . . فنحن لا نرى في أشياء كثيرة حياة الحس والحركة كما نفهمها . . وعدد كبير من الحيوانات التي تبيض ولا تلد لا نرى في بيضها حياة . . ومع ذلك يخرج الصغار من هذا البيض . . والمرأة قد تلد طفلا ميتا . . والبيض قد لا يخرج منه حياة .

معنى الحياة

ولكن إذا أردنا أن نتعمق .. فإننا يجب أن نأخذ المعنى على أنه كما
أن الحياة خلق .. فالموت أيضا خلق مصداقا لقوله تعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴾

(من الآية ٢ سورة الملك)

إذن فالحياة خلق والموت خلق .. ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى
قد ذكر الموت قبل الحياة فقال :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴾

.. فإذا كنا نعيش في هذه الدنيا خلق الحياة .. فإننا نعيش خلق
الموت عندما نغادر هذه الحياة .. وكل خلق له قوانينه وله عالمه ..
وله وجوده الذى لا نحس به .. ومادامت الحياة والموت خلقا ..
والله سبحانه وتعالى وحده هو الخالق فكل شيء يأتي إلى الحياة هو من
الله .. وكل شيء يذهب عن هذه الحياة فهو إلى الله .. وانتقال
الشيء من عالم الحياة إلى عالم الموت هو ما يطلق عليه الله سبحانه
وتعالى الموت والحياة .

فنحن قبل أن نأتي إلى هذه الدنيا كنا مخلوقين ولكن كنا أمواتا
لم تكن لنا حياة في هذا العالم .. ثم جئنا إلى هذا العالم فأصبحت لنا
حياة .. ثم نغادر هذا العالم فنصبح أمواتا ثم نعود مرة أخرى إلى عالم
الحياة الأبدية .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

معنى الحياة

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُرْسِلُكُمْ إِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

(الآية ٢٨ من سورة البقرة)

.. أى أننا كنا أمواتا قبل أن نأتى إلى هذه الحياة الدنيا ، ثم انتقلنا من عالم الموت إلى عالم الحياة فى الدنيا ثم ننتقل مرة أخرى إلى عالم الحياة لنحاسب يوم القيامة ، ثم نعود إلى الله .. إما أن يعذبنا وإما أن ينعمنا .

فكأننا ونحن أحياء فى عالم الدر كنا أمواتا فى عالم الدنيا . وعندما انتقلنا من عالم الدر إلى عالم الحياة الدنيا أصبحنا أحياء .. ثم نغادر الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ لنعود مرة أخرى أمواتا فى عالم الدنيا .. ثم نبعث ونخرج أحياء من نفس الأرض .. ثم هناك الحساب والخلود .

وعندما يأتى الخلود لا يكون هناك موت .. أى أن عالم الموت ينتهى يوم القيامة بالنسبة للمؤمن والكافر .. ولكن يكون هناك خلود .. خلود فى النعيم .. أو خلود فى العذاب .. ولكن عالم الموت ينتهى .

إذن فعالم الموت موجود حتى يوم القيامة .. ثم ينتهى .. أما عالم الحياة فموجود كخلود بعد يوم القيامة .. بهذا نكون قد عرفنا أن الحياة هى خروج من عالم خلقه الله له قوانينه إلى عالم الحياة الدنيا الذى له قوانين مختلفة تماما .. والموت هو خروج من عالم الدنيا إلى عالم آخر من خلق الله .. فكأن الله سبحانه وتعالى هو القادر وحده

معنى الحياة

أن يخرج مخلوقاته من عالم الموت إلى عالم الحياة الدنيا . . ويخرجها من عالم الحياة الدنيا إلى عالم الموت . . ولا قدرة لأحد . . ولذلك تأمل دقة القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾

يخرج الحي من الميت . . أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يأتي بكل شيء إلى عالم الحياة دون أن يكتب على نفسه شيئا . . فهو يخرج من يشاء من عالم الموت إلى عالم الحياة . . ولكن متى جاء الانسان إلى عالم الحياة ، ثم مات . . فإن الله لا بد أن يخرج يوم القيامة من عالم الموت إلى عالم الحياة . . أى لا بد أن يبعثه . . فقبل المجيء إلى الدنيا لم يكتب الله على نفسه شيئا . . ولكن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه أن كل من يأتي إلى الدنيا لا بد أن يبعث يوم القيامة : وعدا عليه حقا . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ

مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٧﴾

(الآية ٢٧ من سورة الكهف)

. . فكل من جاء من عالم الذر إلى عالم الحياة الدنيا وانتقل إلى عالم الموت لا بد مبعوث يوم القيامة . . ولذلك اختلف التعبير فقال الحق :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾

إلى هنا نكون قد تحدثنا عن الحياة بمفهومها العميق . . وتحدثنا عن

معنى الحياة

خلق الحياة وخلق الموت .. بقى أن نتحدث عن مشاهد يوم
القيامة .. وقبل أن نبدأ فيها فإن هناك علامات للساعة .. لا بد أن
نمر عليها مرورا سريعا وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .



الفصل الثالث

نهاية الدنيا

نهاية الدنيا

قبل ان نبدا الحديث عن أحداث يوم القيامة ، فإنه لابد من حديث عن معنى الساعة .. ذلك ان بعض الناس يشغلون انفسهم بأشياء كثيرة عن موعد قيام الساعة ، ومتى تقع .. إلى آخر ما نسمعه من أسئلة بين عدد من الناس .. ومن تنبؤات بين عدد من العلماء .. بعضهم يقول : إن الأرض ستبتعد عن الشمس فيتجمد كل شيء .. والبعض الآخر يقول : إن الأرض ستقترب من الشمس ، فيحترق فيها كل شيء .. والبعض الثالث يقول : إن الأكسجين سيقل من الأرض لتصبح غير صالحة للحياة .

كل هذه وغيرها تنبؤات تقوم على الظن ، وليس على اليقين .. فحتى الآن لا أحد يعرف يقينا ماذا سيحدث .. ولا متى سيحدث .. نقول لهؤلاء جميعا .. لقد شغلتم أنفسكم بعلم لا ينفع وجهل لا يضر .. ذلك أنه مهما كان عمر الأرض ملايين السنين فانا لا يعينى منها إلا فترة بسيطة جدا هي فترة عمرى .. فقبل أن أولد لا علاقة لى بالحياة على الأرض .. وبعد أن أموت لا علاقة لى بالحياة على الأرض .. إذن فموعد القيامة بالنسبة لى هو موعد انتهاء حياتى على الأرض .. فمن مات قامت قيامته .. لماذا ؟ .. لأنه يرى كل شيء .. يرى ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب .. ويرى أشياء كثيرة لم يكن يراها فى الدنيا .. وبالنسبة له تنتهى فترة الاختبار التى هى المدخل إلى يوم القيامة .. لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤْنَ مِنَ الْآخِرَةِ

كَمَا يَسُؤُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

(الآية ١٣ من سورة المتحنة)

نهاية الدنيا

لماذا قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (١٤)

لأن الذى يموت كافرا .. يعلم يقينا أن لا أمل له إلا العذاب فى الآخرة .. ولأنه رأى فهو يعرف أن لا أمل له فى دخول الجنة .. وأن لا أمل له فى النجاة من النار .. وهذا اليأس يصبح ياسا يقينيا .. فالانسان يعرف مصيره ساعة يحتضر .. تلك اللحظات التى هى بين الموت والحياة .. يشاهد فيها الانسان كل ما أخفى عنه .. تلك الساعة التى تغادر فيها الروح الجسد .. أى سكرة الموت كما يسميها الله سبحانه وتعالى .. تلك اللحظات التى تحمد فيها بشرية الانسان .. وتنتهى فيها حياة الاستعلاء وحياة الكبر ، وكل مظاهر الحياة الدنيوية بكل ما فيها ومن فيها .

وإذا أردت أن تشهد ذلك فانظر إلى إنسان قد تجبرّ وعلا وأعطاه الله أسباب الملك فى الدنيا .. تجده ساعة الاحتضار ضعيفا ذليلا عاجزا .. كل مظاهر الاستعلاء ذهبت .. ينظر إليك فى مسكنة غريبة ، ويحاول أن يستنجد بكل من حوله .. ولكن الكل عاجزون .. فى هذه اللحظة يأخذ الانسان مقدمات الغيب .. ويرى ما أخبره الله سبحانه وتعالى عنه ، ولم يكن يصدقه .. ذلك لأن بشريته الآن قد خمدت .. ومادامت البشرية خمدت ، تهب نفحات الغيب .. وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (١٩)

(الآية ١٩ من سورة ق)

نهاية الدنيا

أى ما كنت نظن أنه لن يقع . . أو تحاول ألا تتذكره ، وألا تعترف به ، وكنت تظن أن هذه اللحظة لن تأتى . . فإذا أتت فأنت تتوهم بأن شيئاً لن يحدث فيها . . فى هذه اللحظات بالذات لا تنفع التوبة . . ولا يجدى الاستغفار . . فمع سكرة الموت ينقطع عمل الانسان الدنيوى . . وتأتى الساعة التى ينتقل فيها كل منا إلى عالم البرزخ لينتظر الحساب . . وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ

إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(الآيات ٨٣ و ٨٤ و ٨٥ من سورة الواقعة)

. . أى أن الانسان وهو محتضر يكون أقرب إلى ملكوت الله من أولئك الذين يقفون حوله ساعة الاحتضار . . ومع أن أهل المحتضر يحيطون به إحاطة لصيقة عن قرب فى هذه الساعة العصبية . . فإن ملكوت الله يكون أقرب منهم إليه . . وتحيط بالانسان فى هذه الحالة إما ملائكة الرحمة إذا كان صالحاً . . أو زبانية جهنم - والعياذ بالله - إذا كان فاسقاً .

أخرجوا أنفسكم

على أننا لابد أن نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾

نهاية الدنيا

﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ بِمُجْرِمِينَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾

(من الآية ٩٣ من سورة الانعام)

نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ﴾

والنفس كما قلنا هي التقاء الروح بالجسد .. فكيف يطلب الملائكة من الظالم المحتضر أن يخرج نفسه .
لكي نفهم هذه الآية لابد أن نضع في أذهاننا أن هذا المحتضر كان كافرا بالله وكذوبيا بالبعث .. وحينئذ إذا جاءت ساعة الاحتضار يكون حوله ملائكة العذاب أوزبانية جهنم .. يقولون له هأنذا ترى الآن ما كنت تكذب به .. وترى العذاب الذى ينتظرك .. فإن كان لك قوة أو قدرة كما كنت تدعى فى الحياة الدنيا فأخرج نفسك مما ينتظرك .. اهرب من العذاب الشديد الذى سوف تلاقيه .. أرنا أين ستذهب .. لقد كانت لك قدرة فى الحياة الدنيا .. قدرة من الله ولكنك بدلا من أن تستخدمها فى شكر الله .. انطلقت تقول على الله غير الحق .. وتستكبر فى الأرض ، وتبارز الله بالمعاصى ، ولكنك الآن خامد خافت .. لا تملك شيئا لنفسك ، ولا صوتا تستجير به بأنصارك .. فأنت ترى العذاب وهو واقع بك ، ولن تفلت منه .

ملائكة الرحمة

والمؤمن يرى الملائكة أيضا ، ولكنه يرى ملائكة الرحمة الذين

نهاية الدنيا

يشرونه بالجنة ، ويستقبلونه بالسلام ، ويكون فرحا مستبشرا . .
فالانسان حين يحتضر تكون قيامته قد قامت ، ولا علاقة له بالأيام
والأحداث القادمة إلى الدنيا . . فهو قد انتهى دوره عند هذه
اللحظة ، وانتهت مهمته في الحياة ، وانتقل إلى عالم القيامة : عالم
الحساب لينتظر يوم تقوم الساعة .

ولذلك فإننا نقول لكل من يجهدون أنفسهم في أشياء هي من علم
الغيب ، ولم يصلوا إليها يقينا . . نقول لهم : لا تجهدوا أنفسهم في
أشياء هي من علم الغيب ، ولم يصلوا إليها يقينا . . فمادام الله قد
أخفى وجعل علم الساعة عنده . . فلا أحد يعلمها سواه . . وحتى
لو علمتها فماذا ستستفيد منها . . لنفرض أنني علمت أن الساعة
ستقوم بعد ألف سنة . . ماذا سيفيدني ذلك ؟ . . هل سأعيش ألف
عام أتأثر بأحداث الأرض والحياة وتتأثر بي . . أم أن المسألة ستنتهي
بعد سنوات ، طالت أم قصرت . . وحتى لو أنني قلت للناس إن
القيامة ستقوم بعد ألف سنة . . فماذا يستفيدون ؟ . . معظمهم
سيقابل هذا الكلام بالسخرية ، وعدم التقدير . . وآخرون
سيقولون : مالنا نحن وما سيحدث بعد هذه الفترة الطويلة ؟ !

إذن لو عرفنا موعد الساعة ما كان ذلك ليفيدنا على المدى
الطويل . . فإذا نظرنا إليها على المدى القصير . . أو تصديقا لقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من مات قامت قيامته) . . إذا
نظرنا إليها من هذه الزاوية . . وهي أن القيامة الصغرى عندما يموت
الانسان ، والقيامة الكبرى في آخر الزمان . . نجد أيضا أن الأجل
قد أخفى عنا . . لماذا ؟ . . لتتوقع الموت في كل لحظة ودقيقة فيسارع

نهاية الدنيا

كل منا إلى الخير قدر امكانه .. وابتعد عن الشر قدر استطاعته ..
ولو أن الأجل محدد معلوم لأثر ذلك على استمرارية الخير في
الكون .. ولزاد من استمرارية الشر .

فإذا علمت أن أجلى مثلا خمس وستون سنة ، فإننى أظل اتبع
أهوائى وشهواتى إلى سن الستين ثم أتوب بعد ذلك .. وبذلك نكون
قد أعطينا استمرارية للشر فى الكون .. وبخاصة أن ذلك سينطبق
على معظم الناس .. وفى نفس الوقت فإن كلا منا إذا عرف أجله
أجل الخير إلى السنوات الأخيرة من عمره .. فنكون بذلك قد قطعنا
استمرار الخير .. ولكن حتى يستمر الخير فى الكون ، ويسارع كل منا
إليه .. فإن الأجل المخفى هو السبيل .

على أنه حتى لو قلت لانسان : إن عمرك سينتهى بعد عام أو
عامين ، أو شهر أو شهرين ، فإنه لا يصدقك .. وسيظل يراوده
الأمل فى أنه سيعيش أكثر .. ولا يحس الانسان بيقين الموت إلا ساعة
الاحتضار .. ففى هذه الساعة يعرف الانسان يقينا أنه سيموت ..
ولكن حتى قبلها بساعات ، ومهما اشتد المرض عليه فإن الأمل يظل
يراوده فى أنه سيشفى ويعيش .

إذن فالبحث عن موعد الساعة سواء كان نهاية للأجل أو نهاية
للكون .. لا بد أن نتركه لأننا لن نصل فيه إلى شىء .. وعندما
ينتقل الانسان من حياة الدنيا إلى حياة البرزخ .. فإنه ينتقل من حياة
ها قوانينها إلى حياة أخرى لها قوانينها المختلفة .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يقرب ذلك إلى أذهاننا فأعطانا قانونين
مختلفين فى حياتنا .. هما قانون اليقظة .. وقانون النوم .. فالانسان

نهاية الدنيا

وهو مستيقظ يحس بالأحداث .. يؤثر فيها ويتأثر بها .. ويحس بالزمن .. ويرى بعينه ويمشى بقدميه .. إلى آخر ما نعرفه عن حياة اليقظة .. فإذا نام رأى نفسه يمشى وهو نائم .. قدماه لم تتحركا من فوق السرير .. ويرى وعيناه مغلقتان .. ويتحدث مع من انتقلوا إلى الحياة الآخرة .. ويرى أشياء عجيبة تحدث له وأماكن غريبة يذهب إليها .. كيف يتم ذلك وهو ملقى على السرير بلا حراك .. عيناه مغمضتان لا يدري بما يحدث حوله .. غائب عن الزمن .. نقول لأن هناك قانونا للنوم يختلف تماما عن قانون اليقظة .. فهناك بصر يرى بخلاف العينين .. وحركة تتم دون تحرك الجسد .. وأشياء تحدث لا تخضع لقوانين الجسد البشرى ولا يعرف العلم عنها شيئا .. فإذا حدثنا عن أن هناك قوانين بعد الموت مختلفة تماما عن قوانين الحياة فى الدنيا .. فلنأخذ من الاختلاف بين قانوني اليقظة والنوم ما يقرب هذه الصورة لأذهاننا .. وحينئذ تستطيع عقولنا أن تفهم .

العلامات الصغرى

على أننا لابد أن نتوقف لنعرف أن للساعة علامات أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تحققت العلامات الصغرى التى أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها .. أما العلامات الكبرى فهى لم تتحقق بعد .. بعض الناس هنا يتساءل : إذا كان علم موعد الساعة لا يفيدنا ، فلماذا تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامات اقتراب الساعة :

نهاية الدنيا

نقول : إن هذه الأحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعطينا موعد الساعة . . فإنها لا تقول لنا : إنه إذا تحقق كذا وكذا وكذا فانتظر الساعة بعد مائة عام أو ألف عام . . ولكنها تذكرة لأولئك الذين سيعم الفساد بينهم كلما اقترب موعد الساعة . . تذكرة لهم تطالبهم بأن يتنبهوا جيدا إلى أن ما يحدث في الكون هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وامتداد لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . حتى إذا قرأناها ورأيناها قد تحققت نقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وتتذكر المنهج الذى بعث به الله رسوله صلى الله عليه وسلم . . فنسارع باتباع المنهج ، وتكون علامات الساعة هذه تذكرة لنا بصدق الرسالة التى بعث بها الرسول الكريم . . وتكون من المعجزات المستمرة لرسول الله عليه الصلاة والسلام . . كلما تحققت نبوءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . كانت بمثابة معجزة جديدة لنا تثبتنا على الايمان . . كما ثبتت المعجزات التى حدثت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابة رسول الله على الايمان . . فكان رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم متجددة وليست متجمدة . . بأشياء رواها تحدث الآن . . وأشياء رواها ستحدث فى المستقبل . . كلما حدث شىء قلنا : هذا حق . . ورسول الله حق . . وكانت لفظة إيمانية تعيد الناس إلى المنهج الذى نسوه وتركوه بمرور الزمن .

إذن فالعلامات الصغرى للقيامة فيها تثبيت للايمان . . وفيها إعجاز يفوق الناس الذين غفلوا عن منهج الله . . ولكن ليس فيها ولكن ليس فيها ما يمكن منه أن نحدد موعد يوم القيامة . . ربما يكون

نهاية الدنيا

الموعد قريبا .. ولكن القريب عند الله بعيد عندنا مصداقا لقوله تعالى :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ نَحْمِيسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (الآيه ٤ من سورة المعارج)

.. وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾

(الأيتان ٦ و ٧ من سورة المعارج)

إذن فالقرب والبعد عند الله مختلف عن مفهومنا .. الساعة قريبة نعم .. بعد أن أردنا أن نضعها في إطار عام .. هي اختلال الموازين وانقلاب المبادئ .. فهذا الكون موازين أخلاقية كان من المفروض أن تحكم الحياة بين الناس .. وكانت هي الطريق السوي الذي لا بد أن يمضي بها هذا الكون ليصلح .. هذه الموازين والقيم الأخلاقية التي كانت سائدة تختل وتهتز وتنقلب .. فيصبح ما هو مستنكر واقعا .. وما هو واقع وحقيقة مستنكرا .

ترى الشح المطاع بأن كل إنسان لا يعطى ما عنده ، بل يبخل به .. وليس الشح هنا شح المال .. ولكنه شح في كل شيء .. الصانع لا يعطى صنعته .. كل علمه وإتقانه .. والأستاذ لا يعطى تلاميذه كل ما يعلم ، بل يعطيهم إياه على قدر الأجر .. فجزء في المدرسة ، وجزء في الدرس الخصوصي ، وجزء في الدرس الخاص جدا ، يبخل الناس بما لهم فلا ينفقونه في سبيل الله ، ولا يعطونه للفقير والمحتاج .. ويبخل العامل بعمله فتجده يستطيع أن يعمل

نهاية الدنيا

ولكنه لا يعمل .. ويبخل الموظف بجهدته .. فنجد أنه يستطيع أن ينتج ، ولكنه لا ينتج .. وكل عمل يبخل العاملون فيه بجهدهم .

فهناك بخل من كل ذى قدرة بقدرته .. وبخل من كل ذى علم بعلمه .. وبخل من كل ذى جاه بجاهه .. أى أن الانسان يكون في مجتمعه مسموع الكلمة مطاع الأمر .. ولكنه يرفض أن يستخدم ما وهبه الله له في مساعدة المحتاجين .. أو إنصاف المظلومين ، أو قضاء الحاجات .. وهو يستطيع أن يفعل ذلك بكلمة واحدة .. ولكنه لا يفعل ..

يجد الانسان أنه يستطيع أن يرفع ظلما يقع فلا يتحرك ليمحو هذا الظلم .. ويجد أنه يستطيع أن يقر الحق بشهادة يقولها ، ولكنه لا يذهب لأداء هذه الشهادة .. كل إنسان يبخل بما عنده .. لتنحدر الانسانية بعد ذلك إلى أسفل السافلين .. لأن كل جيل سيأخذ من علم الجيل الذى قبله القشور .. وبهذا تضحل الحضارات جيلا بعد جيل .. هذا هو معنى الشمع المطاع .. ولعلنا نشهده الآن في الدنيا كلها .. ولعلنا نرى جميعا أن كل جيل هو أقل عطاء من الجيل الذى قبله .. ويقل العطاء كلما مضت الأيام .. وهكذا نجد فى كل أوجه الحياة شحا مطاعا ينبثنا عن بداية انحدار الانسانية إلى الهاوية .. بينما المجتمعات التى سبقت كانت قائمة على العطاء بلا حدود ، حتى إن الأنصار عرضوا على المهاجرين أن يتنازلوا لهم عن نصف أموالهم وزوجاتهم بلا مقابل .

اختلال الميزان

العلامة الثانية لاختلال الميزان هي ضياع الحق .. أو كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إعجاب كل ذى رأى برأيه .. وإعجاب الناس بأرائهم هو بداية الخروج من الحق إلى هوى النفس .. وكل واحد يقول : هذا رأى ولا بد أن يتبع .. ويحاول بشتى الطرق أن يزين هذا الرأى ، ولو بالباطل .. وأن يجمع الأدلة عليه ، ولو كذبا .. فإذا رأى الحق فإنه ينسى أن الرجوع إلى الحق فضيلة .. ويرفض أن يهزم ، وأن يؤخذ بغير رأيه .. فكأن الناس قد وضعوا أنفسهم فوق الحق .. بينما الحق هو الذى كان يجب أن يسود ولكن الدنيا كلها تتفنن فى الخداع ، ويصبح كل صاحب رأى يحاول أن يحقق غايته بأى طريق .. بالضلال والاخلال .. وهكذا يختل ميزان الدنيا لأنه مقام على الحق .. ويصبح الحق ضائعا لا صاحب له .. لأن كل صاحب رأى معتز برأيه ، بصرف النظر عن الحق .. وهذا ما نجده الآن فى الدنيا .. فالناس تحاول أن تفعل أشياء وتخلد أساءها .

نأتى بعد ذلك إلى علامة أخرى من علامات اختلال الميزان .. وهى إعطاء الشيء لغير أهله .. والدنيا كلها قائمة .. والحياة كلها تقدمت بأن يعطى الشيء لأهله .. فتعطى قضايا العلم للعلماء .. وتعطى قضايا الاختراعات للباحثين والمخترعين .. ويعطى القضاء مثلا لمن هم قد درسوا قوانين الله وشرعه .. ولكن العقل البشرى عند اقتراب الساعة لا يعطى الشيء لأهله .

نهاية الدنيا

فإذا بدأنا بالقضية الكبرى ، وهي قضية خلق الحياة والكون ..
فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق .. وهو الذى أخبرنا بأنه خلق ..
ولم يخبرنا أحد ، ولا يجرؤ أحد أن يدعى أنه خلق الكون .. ومع
ذلك يأتي بعض الناس ليقولوا : إن الكون خلق بالصدفة .. وأن
هناك تفاعلات كذا وكذا هي التي فعلت كذا .. ونجد نظرية التطور
تقول : إن الانسان أصله قرد .. مع أن الله سبحانه وتعالى هو الذى
خلق الانسان ، وأخبرنا كيف خلقه .

ولكن في هذه القضية الكونية الكبرى ينسب الشيء لغير أهله ..
ويفتري الناس على الله ويغرمهم ما كشف الله لهم من قوانين وأسرار في
الكون .. فيظنون أنهم قد أوجدوا هذه القوانين ، وأنهم قد صنعوها
بقدرتهم ، وإنما تتصرف وفقا لارادتهم ، فتختل الموازين ، ويعبد
الانسان نفسه .. فتأتى إرادة الله سبحانه وتعالى لتزيل هذا الزيف
كله ويدعى الناس للحساب أمام الله .. فيرون أنهم كانوا عجزة
لا يقدرون على شيء ، وكانوا خاضعين لا يملكون شيئا ، ولكن الله
هو الذى أعطاهم من قدرته ، ومنحهم من ملكه ، فإذا بهم يقابلون
ذلك بالكفر بدلا من شكره .

هذا هو المعنى الواسع لأن يعطى الشيء لغير أهله .. أى أن
يحسب الانسان أنه الأصيل في الكون ، وأن كل شيء خاضع له
وينسى خالقه .

وكلما مر الزمن شهدنا ذلك يبرز على الساحة في العالم .. فنجد
من يقول : انتهى عصر الدين وبدأ عصر العلم .. كأنما الدين
والعلم متعاندا .. بينما الدين هو دين الله ، والعلم هو علم الله ..

نهاية الدنيا

وكلاهما مثبت للايمان .. ونرى العالم كلما تقدمنا في الزمن يحسب أنه قد استطاع أن يسيطر على الأرض بالعلم ، ويخضعها لارادته ، ويتحكم فيها .. بينما العلم لم يخلق شيئا .. وإنما استخدم المادة التي خلقها الله والعقل المسخر له من الله .. في استخدام ماشاء الله من أسرار هذا الكون .

فالذى اخترع الصاروخ مثلا جاء بالمواد التي خلقها الله ، وأوجدها في الأرض ليصنع منها جسد الصاروخ ووقوده .. فهو لم يخلق المادة التي صنع منها جسم الصاروخ .. وإنما جاء بها من المناجم التي أوجدها الله في الأرض .. قد يكون قد طورها وقواها بمواد أخرى .. ولكنها كلها جاءت من خلق الله .. مما أودع الله سبحانه وتعالى في كونه من نعم وكنوز .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَمْ

بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفِصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴿

(الآية ٢٤ سورة يونس)

الشيء لغير أهله

فإذا أخذنا هذا الحديث بالمعنى الواسع ، وهو أن يعطى الشيء لغير أهله .. نجد أننا بدلا من أن نعطي ما في الدنيا لله سبحانه

نهاية الدنيا

وتعالى الخالق والموجد . . نأتى لغير أهل هذا الأمر ، وهو الانسان ،
فنسبه إليه لغرور التقدم العلمى . . والانسان غير أهل لذلك . .
فهو لا يستطيع أن يخضع قانونا واحدا من قوانين هذا الكون
لارادته . . ومع ذلك فهو يظن باطلا على غير حقيقة أنه قادر على هذا
الكون . . وأنه هو الذى أخضع القوانين بالعلم والتكنولوجيا . .
حينئذ يأتى أمر الله ليعلم الناس الحقيقة .
وإذا أخذنا هذا الحديث . . « يعطى الشىء لغير أهله » . . بأنه
سيكون هناك حكام وولاة يحاولون الابقاء على حكمهم بالألا يختاروا
الناس لكفاءتهم أو عملهم أو خبرتهم . . ولكنهم يختارونهم من
المخلصين لهم بغير علم . . ومن الذين يطيعونهم بالحق والباطل ،
ويعطونهم ما هم ليسوا بأهل له . . وهو ما يعبر عنه فى العصر
الحديث بأهل الثقة ، وأهل الخبرة . . هؤلاء الحكام وهم يعرفون من
يصلح للعمل ، ولكنه متمسك بالحق فيبعدونه عنه . . ويضعون فيه
أولئك الذين لا يفقهون شيئا . . وبهذا تنتفى الخبرة السليمة فى إدارة
العمل ، ويصبح الذين يعلمون لا يفعلون شيئا ، والذين لا يعلمون
هم الذين يديرون حركة الحياة فى الكون كله .
ومادامت المسألة أهل ثقة وأهل خبرة . . تكون حركة أشراف
الناس على الحياة مختلفة فيختل الكون كله . . ورسول الله صلى الله
عليه وسلم ينبهنا إلى ذلك فى الحديث الشريف حين يقول : « من ولى
من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا ، وهو يجد من هو أصلح منه ،
فقد خان الله ، وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين » .
ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . (إذا رأيت الناس أماتوا

نهاية الدنيا

الصلاة ، وأضاعوا الأمانة ، وأكلوا الربا ، واستحلوا الكذب ،
وباعوا الدين بالدنيا فهذه من علامات الساعة .
والصلاة هي الصلة بين العبد وربّه . . وكل أحكام الدين ترفع
ماعدا الصلاة ، لأنها الصلة بين العبد وربّه . . فالحج لمن استطاع
إليه سبيلا . . فمن لم يستطع ، لأنه كان فقيرا ، يسقط عنه الحج . .
ومن لم يستطع لأنه مريض بمرض مزمن لا يشفى منه ، سقط
الحج . . والزكاة تسقط عن من لا يملك إلا قوته وقوت عياله . .
والصوم لمن كان في تمام صحته ولم يكن مسافرا . .
ولكن الصلاة لا تسقط بالمرض ، ولا تسقط بالفقر ، ولا تسقط
بالسفر ، فالإنسان يصلي واقفا ، ويصلي قاعدا إذا كان لا يستطيع أن
يقف ، ويصلي في فراشه إذا كان لا يستطيع أن يغادر الفراش . .
ويصلي حتى ولو لم يكن قادرا على أن يحرك يديه وقدميه . . فالصلاة
هي أساس حياة المؤمن لا يتركها أبدا . . وقول رسول الله صلى الله
عليه وسلم (أماتوا الصلاة) . . أي لم تعد موجودة في حياتهم . .
فالميت يخرج من الحياة الدنيا . . وكذلك الصلاة تخرج من حياة
الناس في آخر الزمان . . والميت يصبح نسيا منسيا . . مصداقا لقوله
تعالى :

﴿ يَلَيِّنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنَسِيًا ﴾

(من الآية ٢٣ من سورة مريم)

وهكذا ننسى الصلاة في آخر الزمان . . ويؤذن الله أكبر ، والناس
لاهون في أمور الدنيا . . فلا يقوم أحد إلى المسجد ليصلي . . أو يقوم

نهاية الدنيا

ليتوضأ ويصلى .. بل عندما يؤذن المؤذن للصلاة يكون كأنه ينادى على موتى فلا يجيبه أحد .

وأضاعوا الأمانة

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأضاعوا الأمانة) .. معناها أنهم أضاعوا منهج الله ، لأن الأمانة هي المنهج الذى حمله الانسان ليؤديه فى الدنيا ، مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا .

وَاشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

(الآية ٧٢ من سورة الاحزاب)

فكأن الناس فى آخر الزمان يضيعون منهج الله .. وكيف يضيعونه ؟ .. إنه يكون فى أيديهم ولكنهم لا يعملون به .. وهكذا ضيعوا على أنفسهم ثواب المنهج الذى لو علموا به لحصلوا على خير الدنيا والآخرة .. فكأن الله سبحانه وتعالى قد أعطاهم شيئا ثمينا ، وهو منهج السوء ، وهو القرآن الكريم فأضاعوه .. أى وضعوه فى مكان بعيد عن حياتهم ولم يلتفتوا إليه .. ولم يحاولوا أن يبحثوا عما فيه من كنوز ومن علم .. هذه واحدة .

والثانية أنهم أهملوا الأخذ به .. فبدلا من أن يتبعوا التشريعات التى جاء بها الله ذهبوا ليقننوا لأنفسهم ، وكأنما قوانين البشر هى أعلى من قوانين الله .. ولذلك ترك الانسان المنهج الذى أعطاه الله إياه

نهاية الدنيا

وانطلق يشرع لنفسه . . وسمعنا عن القانون الرومانى ، والقانون الفرنسى ، والقانون الانجليزى إلى آخر هذه القوانين . . كل قانون منها يتبع هوى النفس . . وكل قانون منها وضع ليميز طبقة عن طبقة ، ويميز أفرادا عن أفراد .

ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى لخلق القانون الذى فيه العدل بلا هوى . . والحق بلا غرض ، فأضاعوه وأخذوا يبحثون عن قوانين البشر . . يضعونها . . فإذا العيوب تظهر فيعدلون ويبدلون فيها . . حتى يصبح القانون غارقا فى التعديلات كالثوب المهلهل المرقع لا يصلح لشيء ، وأضاعوا الأمانة جعلوا الدين فى خدمة الدنيا . . بينما الدين هو السيد ، وكل ما فى الدنيا يجب أن يخدمه . . ففسروا دين الله بغير ما قاله . . وأصدروا الفتاوى ليحلوا ما حرم الله ، ويجرموا ما أحله خدمة لأموال دنياهم ، وتقربا منهم لذوى النفوذ . . فأضاعوا عدل الدين ، وأضاعوا حكمته ، وأضاعوا كل شيء يمكن أن يعطى الانسان الحياة الآمنة المستقرة . . إذا حدث هذا كله فاعلم أنه من علامات الساعة .

واستحلوا الكذب

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . (واستحلوا الكذب) . . فمعنى ذلك أن الكذب قد أصبح حلالا يتعامل به كل الناس . . وأصبح مقبولا فى المجتمع لا ينفرد منه ولا يستنكره أحد . . والكذب هو انفصال الكلام عن الواقع . . فأنت إذا قلت : محمد

نهاية الدنيا

عندى ولم يكن عندك فقد انفصل كلامك عن الواقع الحقيقى ..
ولذلك يقال كذب .. واستحلال الكذب معناه أن القول قد انفصل
عن الفعل فى حياة المجتمع .. فيصبح المجتمع كلامه شىء ، وفعله
شىء آخر .. ويصبح الناس كلامهم غير أفعالهم .. فما يقوله الناس
شىء وما يفعلونه شىء آخر تماما .

نجد إنسانا يحدثك عن الأمانة . فإذا ائتمنته خانك .. وإنسان
يحدثك عن الذمة والشرف .. فإذا اعاملته كان لا ذمة له ولا شرف
عنده .. وإنسان يحدثك عن المال الحرام حديثا مستفيضا فإذا أتحت
له الفرصة مد يده إلى المال الحرام .. وفى هذه الحالة ينفصل واقع
الحياة عن أولئك الذين يعيشون فيها .

والانسان لا يكذب إلا إذا كان يريد أن يخفى خطيئة .. فإذا رأى
إنسان امرأة معك وسألك عمن معك .. فإن كانت زوجتك فإنك
تقول زوجتى .. أما إذا كانت زوجة غيرك .. فإنك تحاول أن تخفى
هذه الخطيئة بالكذب .. وإذا كنت تحصى مالا حلالا ، ودخل
عليك إنسان ، وسألك عن هذا والمال تقول : هو مالى بلا تردد
ولا خوف .. فإذا كان مالا حراما حاولت أن تكذب لتخفى هذه
الخطيئة .

وهكذا نرى أن معنى أن يستحل الناس الكذب أن يكون المجتمع
مليئا بالخطايا .. ولذلك يحاول الناس أن يكذبوا لتغطية
خطاياهم .. فإذا رأيت مجتمعا يملؤه الكذب ، فاعلم أنه تملؤه
الخطيئة .. وإذا رأيت مجتمعا يعيش بالصدق فاعلم أنه مجتمع خطايا
قليلة .. ومعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .. (واستحلوا

نهاية الدنيا

(الكذب) .. أى أن مجتمعات آخر الزمان ستكون مليئة بالخطايا التي
يخجل منها الناس فيكذبون .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .. (واستخفوا
بالدماء) .. أى أن الناس أصبحوا يهدرون دم بعضهم البعض
باستخفاف غريب .. ودم الانسان لا يهدر إلا بحقه .. ولكن فى
آخر الزمان يستخف بالدماء ، فيقتل الأبرياء دون أن يفعلوا شيئا ،
وتهدم الأماكن فوق رؤوس النساء والأطفال دون ذنب فعلوه .. وهذا
ما يحدث الآن .. فقد استخف الناس بالدماء .. فترى رجلا مثلا
يدبر حادث نسف بسيارة ملغومة يقتل فيه العشرات من الأبرياء
باستخفاف غريب ، دون أن يشعر بأى ذنب .. وكذلك خطف
الرهائن وقتلهم .. ووضع المتفجرات فى الأماكن المزدحمة ، ونسف
القطارات والسيارات .. وما يحدث فى الحروب من استخفاف
بأرواح الأبرياء ، وقصف المدن بالقنابل والصواريخ .. كل هذا
يحدث الآن باستخفاف غريب ، ولا ضمير يستيقظ ، ولا إنسان يثور
على قتل الأبرياء بلا حساب .. وهذا هو الاستخفاف بالدماء .
ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .. (أن يكون فاسق القوم
كبيرهم) والمفروض أن الكبير - سنا كان أو مقاما - هو الذى يحافظ
على الخلق الكريم ، وهو الذى ينهى وينهر كل من يخرج على السلوك
القيوم ، أو يرتكب عملا سيئا .. فإذا كان الفسق والفجور فى الكبير
فمعناها أن الفاحشة تعم الجميع ، لأن الكبير هو القدوة .. وهو
المثل ..

عقوق الوالدين

ومن علامات الساعة التي أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم نقص الكيل والميزان .. ومعناها أن يسود المجتمع أكل حقوق الناس .. فالكيل والميزان هنا معناهما حقوق الناس . أى أن حقوق الناس تضيع .. وأن يعق الولد أباه حتى أنه يصبح خيرا للأب أن يربى كلبا صغيرا من أن يربى ولده ، لأن الكلب يخلص لصاحبه .. أما الأبن فيكون غيظ أبيه وأمه .

وهكذا معناه انتشار عقوق الوالدين ، وألا يوقر الناس الكبير .. ولا يرحموا الصغير وأن يلبسوا جلود الضأن ، وقلوبهم كالذئاب .. أى أنهم يتظاهرون بالمسألة ، بينما هم فى داخلهم متوحشون .. لا شفقة عندهم ولا رحمة ، وأن يتعالى الحفاة العراة ، رعاة الشاة فى البنيان .. أى يصبح المال فى يد من لا علم لهم .. يملكون مال الدنيا ، وليس عندهم علم لكى يحسنوا استثماره .. وأن يقتل الرجل أباه .. أى تنقطع صلة الأرحام بين الناس .. وأن يركن العلماء إلى الولاة .. أى يخضع العلماء أحكام الدين للدنيا ، يريدون بها مالا أو وظيفة ، فيحلون الحرام ويمرمون الحلال .. وأن يؤخذ المال بغير حقه .. فينتشر المال الحرام حتى تصبح الصفة الغالبة فى المجتمع هى أن يحصل الناس على المال حراما بدون عمل .. فتكثر السرقة والرشوة والنصب والاختلاس ، ويتحايل الناس بالمشروعات الوهمية ، ليحصلوا على الأموال بالباطل .

ومن علامات الساعة التي رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم

نهاية الدنيا

أن تقطع الأرحام .. وأن يشتكى ذو القرابة لقرابته ، فلا يعود عليه ذلك بشيء رغم أنهم يستطيعون أن يفعلوا ، وأن يعبد المال فيعصى الناس الله في سبيل الحصول على المال الحرام ، وأن تختلط الأمور بين الناس ، فلا يعرف ما هو الحرام وما هو الحلال .. وأن يظهر البغى والحسد والشح ، وأن يجهر الناس بالفحشاء كأن يرتكب رجل أو امرأة فاحشة ، ثم يأتي وسط أصدقائه ، ويجاهر بها وكأنه يتفاخر بمعصية الله .. وأن يأكل القوم بألسنتهم كما تأكل البقر .. أى يعيشون على النفاق والرياء والكذب ومديح الناس بالباطل ولا يعملون شيئا .. وأن يعز الله ثلاثا : درهما من حلال وعلما مستفادا وأخافى الله .. أى يكون من العزيز والنادر أن يكسب الناس مالا حلالا .. أو يستفيدوا من علم يقال لهم فيتبعوه .. أو يحب الرجل رجلا فى الله والله .

ومن علامات الساعة التى أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنتشر الخرافات .. فيصدق الناس التنجيم وقراءة الطالع بالنجوم ، وأن يمر الرجل على المسجد فلا يدخل فى قلبه خشوع ولا يركع ركعتين .. وأن يكون السلطان والقوة للنساء فيحكمن الرجال .. ويطيع الرجال النساء فى كل الأمور ، وأن تكون قلوب المسلمين قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب .. أى أنهم يتكلمون باللغة العربية .. ولكن قلوبهم تهوى وتعشق كل ما هو أجنبى .. فحياة الأجانب الأعاجم هى التى تستهويهم .. وهى التى تعجبهم .. وأن تزخرف المساجد وتحلى المصاحف .. أى أن يكون الايمان ظاهريا فقط دون قلوب تخشع ، أو أفئدة تخضع .. فبدلا من

نهاية الدنيا

أن يعمر المسلمون المساجد بالصلاة يصنعون فيها الزخرفة ويحلونها بالنقوش . . وبدلاً من أن يقرأ المسلمون القرآن . . يحلون المصاحف بجاء الذهب . . أى أن القلوب تكون خاوية خالية من الايمان . هذه هي بعض العلامات الصغرى التي تنبأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة لقيام الساعة . . وقد تحققت جميعاً ومادامت قد تحققت فهي لا تختفى ، وتزيد ولا تنقص حتى تقوم الساعة . نكون بذلك قد بينا بعض العلامات الصغرى لقيام الساعة ، ووصلنا بذلك إلى المشاهد في يوم القيامة التي رواها لنا القرآن الكريم ، والتي ستحدث في هذا اليوم العظيم ، وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .



أحاديث قدسية

يقول الله في حديثه القدسي :
« لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافلِ حتى أحبه . فإذا أحببته كنتُ سمعهُ الذي يسمعُ به ، وبصرهُ الذي يبصرُ به ، ويدهُ التي يبطشُ بها .
ومن ذكرني في سرِّه ، ذكرته في سرِّي ، ومن ذكرني في مَلَأَ ذكرته في مَلَأَ خيرٍ منه . ومن اتانى يمشي أتيته هَرولةً » .

الفصل الرابع

يوم البعث

يوم البعث

عندما نبدأ الحديث عن مشاهد يوم القيامة ، فلا بد أن نتعرض إلى ثلاث نقاط : أولاها معنى الموت .. وثانيها نفخة الصور .. وثالثها طريقة البعث .. فمع البعث تبدأ أحداث يوم القيامة .. ولكن يسبق هذا الموت .. والحديث عن الموت ، أو انتهاء الحياة حديث يمكن أن يلخص في سطور قليلة .. فالموت كما قلنا خلق من خلق الله مصداقا لقوله تعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(من الآية ٢ من سورة تبارك)

ولعلنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد قدم في هذه الآية الموت على الحياة .. فقال سبحانه :

﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾

ولنا أن نتساءل : لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الموت على الحياة .. فنجد أنه لسببين :

السبب الأول أنه يسبق الحياة .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّنْكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(الآية ٢٨ من سورة البقرة)

أى أن الموت يكون قبل الحياة .. ومن هنا فهو سابق للحياة .. والثاني أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الموت حتى إذا تذكرونا سارعنا إلى الخير والايمان والعمل الصالح .. ولكنه ليس في حاجة

يوم البعث

لأن يلفتنا إلى الحياة .. فدوافع الحياة متمكنة متأصلة في النفس البشرية .. من منا إذا جاء أول الشهر ينسى أن يقبض مرتبه .. من منا إذا أحس بالجوع ينسى أن يأكل لعدة أيام .. من منا لا يحاول أن يحصل على أكبر حظ من الدنيا .. دوافع الحياة كثيرة وموضوعة في النفس البشرية لتستطيع هذه النفس أن تؤدي مهمتها في الكون ، وهي عمارة الأرض ، وبناء الحضارة .. ولكننا ، ونحن نتذكر الحياة في ثانية ، ننسى دائما الموت .. وقد تمر سنوات دون أن نتذكر أننا سنموت ونلاقي الله .. بل إننا إذا ذكرنا إنسانا بذلك .. فإننا نحاول أن نبعد هذه الصورة .. صورة نهاية الحياة ، ونستعيد منها . إذن فنحن محتاجون دائما لأن يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى الحقيقة .. فيأتي ذكر الموت أولا ليلفتنا الله سبحانه وتعالى إليه حتى لا نحسب أننا أخذنا الحياة الدنيا اغتصابا واقتدارا ولن نخرج منها . والموت هو انتهاء الارادة البشرية .. فمادمت حيا .. تستطيع أن تفعل كذا ولا تفعل كذا .. ويكون لك اختيار وبدائل .. ولكن متى جاء الموت انتهى هذا الاختيار تماما ولم يعد لك اختيار فيما سيفعل بك ، أو سيقع عليك من أحداث .. من لحظة الموت إلى يوم القيامة .. فالارادة البشرية انتهت مهمتها في اختيارات الدنيا .. ومادامت انتهت مهمتها فهي الأخرى لم يعد لها وجود . وهكذا تنتهي إرادتك البشرية .. وتنتقل إلى حياة البرزخ التي لا تملك فيها إرادة .. ثم يوم القيامة الذي لا تملك أيضا إرادة .. على أننا لابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

يوم البعث

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ١٨٥ من سورة ال عمران)

هل للموت مذاق وطعم يتذوقه الانسان ؟ .. هل له طعم مثل الطعام مثلاً ؟ .

نقول إن الله سبحانه وتعالى يستخدم لفظ الذوق ، دون الاحساس الصارخ في الأشياء الذي يحس بها كيانك كله ، فأنت مثلاً ترى بعينيك ، وتسمع بأذنيك ، وتلمس بيديك وتشم بأنفك .. ولكن الذوق باللسان هو الشيء الذي يعود بالنفع على هيكل الجسم كله .. فيعطيك إحساساً باللذة وجمال الطعم .. ويعطى جسديك الطاقة التي يعيش بها .. يعطى الدم الغذاء الذي يحتاج إليه .. ويعطى المعدة ما تمتصه للجسم ويعطيك القدرة على الحركة . فأنت إذا تناولت الطعام فإنك تعطى لجسديك كل شيء يحتاج إليه .. ولا يصل تأثير ذلك إلى جزء معين من الجسد ، بل يصل إلى أعضاء الجسد كله .. فإذا كان الانسان بدون طعام فإنه لا يقوى على الحركة ، ولا على التفكير ، ولا على الكلام .. ولا على الرؤية السليمة بالعينين .

° وهكذا نرى أن أثر الذوق يصل إلى الجسد كله .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

(من الآية ٥٠ من سورة الانفال)

يوم البعث

أى أن الكفار حين يعذبون فى النار يصل الحريق إلى كل خلية من أجسادهم ، كما يصل الطعام إلى كل خلية من خلايا الجسد فى الحياة .. والله سبحانه وتعالى حين يقول :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٢)

(من الآية ١١٢ من سورة الفحل)

أى أن الجوع تمكن منهم حتى ذاقته كل خلية فى الجسم .. أو أن الخوف ملكهم حتى مس كل خلية من أجسادهم .. فارتعدت أيديهم ولم تكن أقدامهم قادرة على حملهم .. ولم تقو ألسنتهم على النطق ولا عقولهم على التفكير من شدة الخوف .

حياة .. ولا زمن

إذن فمعنى الذوق هو أن يحيط الشئ إحاطة كاملة بالانسان حتى تتأثر به كل خلية فى جسده .. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾

أراد الله أن يعطينا بها معنى الاحاطة .. فكأن كل خلية من الجسد سيسمها الموت .. شمولية الأثر يريد الله سبحانه وتعالى منها أن نلتفت إليها .. فلا يؤثر الموت على الحواس فقط .. وعلى العقل والقلب فقط .. ولكنه يشمل كل خلية فى جسد الانسان له تأثير عليها ، وهى تحس به ، وتتأثر به .. وهذا هو المعنى الذى قصده الحق سبحانه وتعالى فى قوله :

يوم البعث

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾

وبعد الموت تأتى حياة البرزخ بقوانينها التى تحدثنا عنها فى الجزء التاسع من معجزة القرآن الكريم .. فهى حياة لا زمن فيها .. وضرربنا مثلا لذلك بأصحاب الكهف الذين أماتهم الله ثلاثمائة عام .. وعندما بعثوا لم يحسوا بالزمن :

﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(الآية ١٩ من سورة الكهف)

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَكَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(الأيتان ١١٢ و ١١٣ من سورة المؤمنون)

وقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١١٢﴾ يَخْلَفْتُونَ

بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١١٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

(الآيات ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ من سورة طه)

وهكذا نرى أنه لا زمن فى حياة البرزخ ، وأن الذين يعيشون

يوم البعث

في البرزخ لا يحسون بالزمن . . وهذا ما شرحناه بالتفصيل في الجزء التاسع من كتاب معجزة القرآن الكريم .

وجاءت الصاعقة

ثم ينفخ في الصور ، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :
﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾

(الآية ٦٨ من سورة الزمر)

في هذه الآية هناك ملاحظتان : الملاحظة الأولى أن الله سبحانه وتعالى استثنى من الصاعقة التي ستحدث في الآخرة . فكأن هناك من لن تصيبهم الصاعقة . . وقدم النظر في هذه الآية على السمع ، وهذه هي المرة الوحيدة في القرآن الكريم التي قدم فيها النظر على السمع . . فالله سبحانه وتعالى في كل آيات القرآن كان يأتي بالسمع قبل البصر :

﴿ وَجَعَلَ لِكُلِّ سَمْعٍ وَأَبْصَرٍ وَأَلْفَيْدَةٍ ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة النحل)

ولكن في هذه الآية وحدها قدم النظر على السمع . . نقول : إنه بالنسبة للصاعقة التي ستصيب الانسان يوم القيامة ، فإن الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه أن المخلوقات كلها تصيبها صعقة واحدة . ولذلك فكل من أصيبوا بالصاعقة من قبل لن يصابوا بالصاعقة

يوم البعث

مرة أخرى .. لأن المخلوقات لا تجمع بين صعقتين .. موسى عليه السلام صعق في الدنيا .. عندما طلب أن يرى الله جها .. مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ من سورة الاعراف)

.. ولذلك فإن موسى لن يصاب بالصاعقة مرة ثانية .. وكذلك الجبل الذي تجلى له الله سبحانه وتعالى فأصيب بالصاعقة فكان دكا ، وكذلك أولئك النفر من قوم موسى الذين صعقوا قبل ذلك .. وقال عنهم القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ

وَإِنَّكُمْ لَسُنُظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(الأيتان ٥٥ و ٥٦ من سورة البقرة)

.. وهناك من أخذتهم الصاعقة من قوم عاد وثمود .. فهؤلاء أصابتهم الصاعقة .. ولذلك فإن كل من صعقوا لن تصيبهم الصاعقة مرة أخرى .. وهذا معنى قول الحق :

﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ (من الآية ٦٨ من سورة الزمر)

على أن ذلك لا يعنى أنه ليس لله سبحانه وتعالى طلاقة القدرة .. فالله له طلاقة قدرة يفعل ما يشاء ، متى شاء .. وطلاقة القدرة في الكون هي التي صنعت المعجزات للأنبياء .. فمعجزات

يوم البعث

الرسول خرقت نواميس الكون .. وأبطلت الأسباب .. ذلك أن أسباب الدنيا ليست قيذا على خالقها ، وهو الله سبحانه وتعالى .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى جعل للنار خاصية الأحراق .. جعلها بردا وسلاما على إبراهيم .. "وجعل البحر ينشق لموسى .. وطلاقة القدرة موجودة في الكون منذ خلق إلى يوم القيامة .. فهي التي تعين المظلوم على الظالم .. وتنصر الضعيف على القوى .

لذلك عندما ترى إنسانا يصيح ربنا كبير .. أو ربنا موجود .. فاعلم أنه رأى طلاقة قدرة الله .. لأنه لو رأى الأسباب تعطى ، ما تعجب وما صاح .. ولكن لأن الأسباب تعطلت بعدل المسبب .. فإنه صاح ربنا كبير .. ربنا موجود .

إذن فقول الحق قيمن ستصيبهم الصاعقة إلا من شاء الله .. يعنى من إصابته الصاعقة من قبل .. ومن يشاء الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته ألا تصيبه الصاعقة .

أما استخدام ينظرون في قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (من الآية ٦٨ من سورة الزمر)

لأنها الحالة الوحيدة التي سنرى فيها قبل أن نسمع عند البعث من القبور .. يخرج الناس فيرون أولا الأرض وهي تتشقق والناس تخرج منها .. ولكن العكس يحدث في كل الأحداث الأخرى .. فعندما يخرج الطفل من بطن أمه فإنه يظل عدة أيام لا يرى .. حتى إنك إذا قربت إصبعك من عينه لا تهتز جفناه .. ولكنك إذا أحدثت صوتا عاليا بجانب أذنه في لحظة الولادة الأولى فإنه ينزعج .. ولذلك كانت

يوم البعث

الأذن أولا في آيات القرآن .. لكننا في الآخرة نخرج من القبر فنرى
أولا .

ما هو البعث !؟

على أن مشاهد يوم القيامة التي ذكرها القرآن الكريم ترينا أننا سنقوم دفعة واحدة من الأرض .. سنبعث مرة واحدة .. سنقوم جميعا في لحظة واحدة .. ولذلك قد سماها الله سبحانه وتعالى الحشر .. ما معنى الحشر؟ معناه محاولة إدخال أشياء متعددة في مكان ضيق لا يتسع لها .. بهذا يريد الله أن يقرب لنا صورة ما سيحدث ساعة البعث ليسميه الحشر .. لأن الناس الذين دفنوا في الأرض من عهد آدم حتى يوم القيامة سيخرجون منها دفعة واحدة .. وبما أننا سنبعث من نفس الأرض التي دفنا فيها .. وسنبعث في لحظة واحدة فسيكون الازدحام رهيبا ، والأرض تحمل كل المخلوقات من عهد آدم حتى يوم القيامة .

يخرج الناس من الأرض يوم البعث .. ويخرجون همهمهم بكل صفاتهم وأوصافهم التي كانوا عليها في الدنيا .. بعض الناس يتساءل : كيف يمكن ذلك ؟ .. كيف يمكن أن تخرجنا الأرض بذواتنا مرة أخرى بعد أن اختلطت المكونات .

ويقول هؤلاء الناس : لنفرض أن إنسانا مات ودفن في مكان ما .. ثم زرعت شجرة تفاح في هذا المكان فإنها ستتغذى على العناصر المكونة لجسد الميت المدفون تحتها .. فإذا طرحت هذه الشجرة ثمارا وجاء إنسان وأكل من هذه الثمار التي فيها عناصر من

يوم البعث

إنسان آخر مدفون تحت هذه الشجرة ، واختلطت العناصر بعضها البعض . . فالعناصر التي في جسد الانسان الذي أكل التفاحة هي من إنسان آخر . . ثم بعد ذلك أولاد هذا الرجل سيأخذون من عناصر الجسد الآخر . . وكذلك أولادهم وأحفادهم وتصبح العناصر مختلطة وفي أجساد متفرقة . . كيف يجمعها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة في جسد صاحبها مرة أخرى .

نقول لهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام . . إن تفكيركم ينقصه الحكمة والعلم . . ذلك أن كل إنسان مخلوق من طين ، وقد انتهى العلم التجريبي أو العلم المعمل ، إلى أن جسد الانسان مكون من ستة عشر عنصرا هي عناصر الطين . . وأن أولها الكربون والأكسجين . . فهي أعلاها نسبة وآخرها المنجنيز . . ذلك هو الجسد البشرى . . والجسد البشرى قوته من عناصر الأرض نفسها . . أو مما تنتجه الأرض، ولذلك فإن الانسان إذا أكل كثيرا ترهل جسده وزاد وزنه . . من نفس جنس المواد المصنوع منها الجسد . . أى أن الانسان إذا أكل بشراهة وزاد وزنه عشرين كيلو مثلا . . فإن هذه الزيادة لا تكون من مادة غريبة على الجسم . . ولكن من نفس مادة الجسم . . لأنها من الطين ، والانسان مخلوق من طين . . وإذا لم يأكل الانسان انخفض وزنه من نفس عناصر الجسم أيضا . . هذه الزيادة والوزن لا تتعلق بالتكوين الدقيق للانسان . . ولكنها مواد تفقد وتعود حسب الطعام الذى يتناوله كل منا . إذا جئنا بعد ذلك إلى الانسان . . صحيح أننا جميعا مخلوقون من عناصر الأرض . . ولكن لكل منا خلقا مميزا . . أى أن نسب عناصر

يوم البعث

تكوين كل منا يختلف عن الآخر .. فبعضنا يزيد في جسمه الحديد ذرة أو ذرتان .. وبعضنا ينقص .. والبعض الآخر يزد فيه ذرة منجنيز والبعض الآخر ينقص .. ولذلك فإنك تجد في كثير من الأحيان أنك حين تذهب للطبيب يقول لك : إن عندك نقصا في الحديد أو في البوتاسيوم .. ويعطيك الدواء الذي يكمل لك هذا النقص .

إذن فعناصر الأجسام كلها واحدة .. كل واحد فيه الستة عشر عنصرا الموجودة في الأرض .. ولكن النسب تختلف بين كل واحد منا والآخر .. تكوين هذه النسبة هو الذي يكون كل شخص فينا .. وهذا التكوين هو من خلق الله سبحانه وتعالى .

ولذلك إذا أعدت النسب بنفس تكوينها عاد الشخص هو هو إلى الحياة .. وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله .. واختلاف النسب يعطينا عددا لا نهائيا من الأشخاص الذين يتميز كل منهم عن الآخر .. إذن فاختلاف الشخصيات مبني على اختلاف النسب ، وليس على عناصر التكوين التي نشترك فيها جميعا .

اختيارات .. بلا حدود

ولكى نقرب ذلك إلى الأذهان - والله المثل الأعلى - نقول : لنفرض أننا أردنا طلاء منزل ، وأتينا بستة عشر لونا أساسيا .. ولا يوجد في الكون ستة عشر لونا أساسيا حسب علمنا .. ثم بدأنا نعد الطلاء الذي نريده .. وأتينا باللون الأبيض مثلا .. لو وضعنا فيه ذرة من اللون الأصفر لا يختلف .. ولو زدنا ذرة أخرى لا يختلف .. وإذا جئنا باللون الأحمر ووضعنا منه ذرة على الخليط لا يختلف .. وإذا

يوم البعث

وضعنا ذرتين لا يختلف .. فإذا جئنا باللون الأبيض المخلوط بذرتين من اللون الأحمر .. ثم وضعنا فيه ذرة صفراء أو سوداء أو خضراء .. كل ذرة تعطى لونا مختلفا .. ولذلك فإن الذى يريد طلاء المنزل .. فإنه لا بد أن يقوم بعمل خلطة البويات كلها معا .. ذلك لأنه لو قام بعمل خلطة كل حجرة على حدة لما استطاع أن يضبط الألوان أبدا ، لأنها عملية غاية فى الدقة .. توجد بدائل لا نهائية .. بل إن اللون إذا تركته يوما فى وعاء ، فإنك تأتى فى اليوم التالى لتجده قد تغير .. بل إنك حين تضع ساعة أو صورة أو نتيجة على الحائط وترفعها بعد عدة أيام .. تجد أن اللون فى مكانها قد اختلف عن بقية لون الحائط .. لأن إشعاعات الضوء تتفاعل مع اللون .

إذا كان ذلك يحدث بالنسبة لقدرات البشر المحدودة .. فماذا يمكن أن تفعل طلاقة قدرة الله مع خلقه .. إنها تؤلف نسبا لا نهائية .. لا يقف أمامها غدد مهما بلغ .. ذلك لأنه إذا كانت امكانياتنا الدنيوية نحن لها حدود .. وإذا كانت وسائل إدراكنا لها حدود .. فهذا نظره قوى ، وهذا ضعيف ، وهذا أضعف .. وهذا يسمع دبيب النملة ، وذلك لا يسمع دوى القنابل .. ولك أن تضع ما تشاء من درجات السمع بين دبيب النملة ودوى القنبلة .. إذن فالادراكات عند البشر تختلف .. واختلاف المدرك حجما ولونا وتكويننا .. هو الذى يعطى هذه الادراكات درجاتها من ضعف وقوة .. فتعطينا فى الدنيا اختيارات بلا حدود .. فكيف بإدراكات الخالق سبحانه وتعالى ؟

إذن فالذين يثيرون هذا الكلام يعتقدون أنه مادامت أجسادنا

يوم البعث

مخلوقة من الأرض .. ومادامت الأرض من ستة عشر عنصرا فإن
الأجساد ستختلط .

نقول لهم : لا .. إن اختلاف النسب يحفظ لهذه الأجساد
خصوصيتها فإذا قال الله سبحانه وتعالى « كن » .. عادت هذه
النسب بنفس الطريقة التي تكونت بها .. أو بنفس الخلق الذي تم
أول مرة .. فيبعث الانسان يوم القيامة بجسده هو هو ..
وبشخصيته هي هي ليحاسب .. ولا تأق الأجساد ولا الشخصيات
يوم القيامة وقد اختلطت ببعضها البعض .. بل كل منا مميز بتميز
لا يختلط مع أحد غيره .. وكل منا سيأت بجسده هو ، وشخصيته
هي يوم القيامة .. ويبعث هو هو ليحاسب .. فإما أن ينعم .. وإما
أن يعذب .

تأت ساعة البعث ويخرج الناس جميعا مرة واحدة ، ويبعثون من
نفس الأرض التي دفنوا فيها ، مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُحْرَجُونَ ﴾ (٢٥)

(الآية ٢٥ من سورة الاعراف)

وبعد أن نخرج من هذه الأرض التي كنا نعيش عليها نساق
إلى أرض الميعاد .

ذلك لأن هذه الأرض معدة للحياة الدنيا حتى لحظة البعث ..
مدخر فيها أقوات البشر وأرزاقهم .. والحياة فيها تمضى بالأسباب
ولكن المسبب والخالق قيوم على هذه الأسباب .. لا يترك كونه
لحظة .. ولا يغفل عنه ، ولو برهة صغيرة .. وهو إذا شاء ، ومتى

يوم البعث

شاء ، عطل الأسباب لتدخل قدرة المسبب لتنصر مظلوما على ظالم .. أو تقتصر لضعيف بغى عليه من قوى طغى بالأسباب ، وأفسد في الكون .

أرض الأسباب هذه انتهت مهمتها .. ولذلك فهي تدمر .. والبشر يساقون إلى أرض الميعاد التي يتم عليها الحساب .. لأنه في الحياة الآخرة تنتفى الأسباب ، ولا تصيح الأرض التي نعيش عليها صالحة ليوم الحساب ، وما بعد يوم الحساب .

إلى أرض الميعاد

إذا فالناس تخرج من أرض الأسباب إلى أرض الميعاد .. ولكن هل يخرجون هكذا ؟ .. كل منهم يذهب حيث يريد ، ويتجه إلى أي مكان يريده .. أم أن المسألة لها نظام محكم دقيق معد بحيث يكون كل شيء في موضعه تماما .. إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ

الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

(الآية ٤٨ من سورة الحج)

فإذا كانت هذه الأرض ستبدل بأرض جديدة وكذلك السموات .. فهل سنمضي كل يذهب باختياره إلى المكان الذي يريده وعلى هواه .. هذا يتأخر وهذا يتقدم .. وهذا يمينا ، وذلك يذهب يسارا .. وبعضنا يجرى إلى الخلف هروبا من هذا الموقف الرهيب .. وآخرون يزاحمون من الصفوف الخلفية ليصلوا إلى

يوم البعث

الصفوف الأمامية .. هل سيحدث هذا؟ .. لا .
لقد قلنا إن الموت معناه انتهاء إرادة الانسان .. انتهاء
الاختيار .. فلا أحد يملك أن يختار لنفسه شيئاً ، ولا أحد يملك أن
يفعل أو لا يفعل حسب هواه .. فهذا الاختيار كان ممنوحاً للبشر في
الحياة الدنيا كإمتحان لهذا اليوم .. والآن انتهى الإمتحان ..
وأصبح كل إنسان يحمل أعماله التي أطاع فيها منهج الله ، والتي
عصى فيها هذا المنهج .. وبدأت أولى خطوات الطريق إلى
الحساب .. لم يعد أحد يملك من أمره شيئاً .. تأمل دقة القرآن
الكريم ، وهو يصف لنا كيف سننتقل من هذه الأرض التي نعيش
عليها إلى أرض الميعاد .

من هو السائق؟!

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾

(الآية ٢١ من سورة ق)

.. تأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

« كل نفس »

.. أى لن يفلت أحد .. كل قادم .. من عهد آدم إلى يوم
القيامة .. ولكن ليس كل قادم باختياره ومشيتته .. بل كل نفس
معها سائق .

ما هو السائق؟ .. السائق في اللغة هو الذى يسوق الغنم إلى
المرعى ، وهو الحريص على أن تسير الغنم في الطريق المرسوم إلى

يوم البعث

مكان الماء أو العشب . . فلا تتجه يمينا أو يسارا . . بل هي ذاهبة إلى مكان محدد لها ، حيث يوجد العشب أو الماء . . والسائق يسوقها أمامه حتى يوصلها إلى هذا المكان . . ولماذا يسوقها أمامه ؟ . . لماذا لا يجرها خلفه ؟ . . أو لماذا لا يأتي بواحدة أو اثنتين من هذا القطيع فيسوقها والكل يتبعه . . لأنه لو فعل ذلك ، وجعلها خلفه . . يمكن لواحدة منها أن تنحرف يمينا أو يسارا ، أو تبتعد عن الطريق ، دون أن يدرك هو ذلك . . ولكنها حين تكون أمامه . . إذا انحرفت أى واحدة منها يمينا أو يسارا . . فإنه يجرى ويعيدها إلى الطريق المرسوم . وهذا التشبيه الذى أعطاه لنا القرآن الكريم جملة . . هو الذى سيحدث يوم القيامة تفصيلا . . فعندما ينفخ فى الصور ، ونخرج من القبور . . سيكون لكل واحد منا سائق ينتظره . . ذلك السائق من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . . وهذا الملك مكلف بأن يسوق الانسان من مكان الحشر على هذه الأرض التى نعيش فيها . . إلى مكانه المحدد له فى أرض الميعاد . . حيث سيتم الحساب . . وهذا الملك يكون خلف الانسان . . تماما كما يكون سائق الأغنام خلفها . . والانسان لا يغيب عن الملك المكلف به ولو لحظة . . ولو برهة . . بل يسوقه الملك وهو أمامه حتى مكانه فى أرض الميعاد . . ويكون حريصا عليه لا يستطيع الانسان أن ينحرف يمينا أو يسارا . فإذا انحرف قام الملك بتصحيح مساره . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول :

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد »

أى ليس معها فقط سائق يوصلها إلى المكان المحدد لها فى أرض

يوم البعث

الميعاد. بل معها أيضا الشهيد ، وهو أعمالها .. شريط حياتها ..
ما فعلته في الدنيا لحظة لحظة .. حتى إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا
لمحة عن دقة الحساب .

يقول :

﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾

(من الآية ٦ من سورة المجادلة)

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا

مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا

مَاعْمَلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

(الآية ٤٩ من سورة الكهف)

أى أن هذا الكتاب الشاهد على الانسان .. الشهيد عليه ..
لا يترك عملا صغيرا بسيطا إلا أحصاه .. فإذا كان لا يترك صغيرة ،
فإنه من باب أولى ألا يترك كبيرة .. على أننا سنتحدث بالتفصيل في
الفصول القادمة إن شاء الله عن الحساب وعن الميزان .. وعماسيدور
لحظة الحساب .

أحوال كثيرة

كيف سيكون الناس .. أحوال كثيرة .. ومشاهد كثيرة مختلفة
أعطاهما لنا القرآن الكريم .. ولا نستطيع أن نتعرض لها كلها في هذا

يوم البعث

الجزء من الكتاب . . ولكن موعدنا إن شاء الله في أكثر من كتاب
قادم .

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى

النَّاسَ سُكَّرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَّرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾

(الأيقان ١ و ٢ من سورة الحج)

هذا تصوير دقيق للحالة التي سيكون عليها الناس كل الناس يوم
البعث وقبل الحساب . . وهم يساقون من الأرض التي نعيش عليها
وبعثنا منها إلى أرض الميعاد . . عقولهم من هول الموقف ستكون
ضائعة . . فالأم التي هي في الحياة الدنيا أحرص الناس على ابنها ،
تتابعه أينما كان . . وتلاحظه أينما وجد ، وبخاصة إذا كان رضيعا
صغيرا . . هذه الأم ستذهل عن ابنها . . يكون أمامها فلا تراه . .
ويناديا فلا تجيبه . . ويقرب منها فلا تحس به . . ذهول تام من هول
الموقف .

فالناس في يوم الحساب . . كل واحد منهم مشغول بنفسه . .
يفكر في ذاته . . ولا يدور في فكره أى شيء آخر . . إنه يريد أن
ينجو من هذا الهول العظيم . . يريد أن يطمئن إلى مصيره . وقد
أصبحت القيامة حقيقة واقعة أمامه . . يراها بعينه . . ويتابع
أحداثها بنفسه بعد أن كانت غيبا عنه . . اللحظة التي يفوق فيها

يوم البعث

الانسان .. ويعرف أن يوم القيامة قد جاء .. وأن ساعة الحشر قد بدأت .. يذهب عن عقله كل ما كان فيه .. ولا يفكر إلا في نفسه .. إنه يوم كما وصفه الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ ﴾

(من الآية ١٧ من سورة المزمل)

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا ﴾

.. أى أن المرأة التى تعترز فى الحياة الدنيا بجنينها .. تتخلص منه .. فهى لا يشغلها إلا نفسها .. وعندما يساق الناس إلى أرض الميعاد لا يمشون بخطى ثابتة .. لا يكونون ثابتين فى مشيهم وفى مقدمهم .. بل من الرعب الذى يجتاح القلوب يترنحون يمينا ويسارا كالسكرارى .. حتى إنك إذا نظرت إليهم تعتقد أنهم قد فقدوا اتزانهم من الخمر .. ولكنهم حقيقة لم يتناولوا قطرة واحدة من الخمر .. ولكن هول الموقف الذى هم فيه ، وشدة عذاب الله الذى يخشون أن يصيبهم .. يجعلهم كالسكرارى .. لا يستطيعون أن يحفظوا توازنهم ، ويترنحون فى مشيتهم .

الفرار .. إلى أين ؟

ويزيد الصورة وضوحا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣١ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ ﴾

يوم البعث

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾

(الآيات ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ من سورة عبس)

إذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى هذا .. فإنك تعرف أنه سيكون هناك تناد بين الناس في هذا الموقف العظيم هذا ينادى هذا يحكم . قرابة الدنيا وبحكم الصلات التي كانت بينهم في حياتهم قبل الموت .. ولكن الأنساب هنا تختفى .. فلا يصبح كل واحد ملتفتا إلى تحية أو سلام أو لقاء .. رغم أنهم قد افترقوا لفترة طويلة .. كل واحد منهم يقول نفسى نفسى .. فإذا ناداه أو حاول أن يحتمى به مثلا أحد من أقاربه فإنه يتركه ولا يرد عليه .. بل يفر منه .. فإذا ظن الابن مثلا أنه يمكن أن يستنجد بأبيه الصالح في هذا اليوم .. فإن هذا الأب لن يلتفت إليه ولن يستمع إلى كلامه .. ولن تشفع القرابة بين الاثنين .. لأن القرابة والألفة والأنساب تنفع في الحياة الدنيا .. فيتجه الإنسان إلى أبيه أو أبنائه لينصروه في ساعة الشدة ، ويقفوا معه في ساعات العسرة .. وهم في دنيا الأسباب يفعلون ذلك .

.. ولكن في هذا اليوم .. كل واحد منهم مشغول بنفسه عن الآخرين .. يريد أن يهرب من أولئك الذين قد يصيبهم العذاب من الله .. لا يريد أن يتعلق به أحد .. ولا أن يحمل من أوزار أحد .. بل يبتعد قدر الامكان عن الناس كل الناس .. متمنيا أن ينجيه الله من العذاب .

وانتهى التوازن

وهكذا يساق الناس إلى أرض الميعاد ، وهم يترنحون من هول الموقف .. مشيتهم غير متزنة .. وخطواتهم غير ثابتة .. وكل من له عمل صالح يريد أن يهرب ممن لهم أعمال سوء .. ينادونه فلا يرد عليهم .. ويستنجدون به فلا ينجدهم .. ويظنون أن قرابته لهم أو صداقته لهم ستشفع لهم في ذلك اليوم .. ولكنه لا يلتفت إليهم .. لقد كانت هناك مظنة أنه سيعاونهم .. وترى أولئك الذين تجمعوا على حب الدنيا .. وتجمعوا على معصية الله .. يفرون من بعضهم البعض وهم أعداء ألداء .. صداقتهم في الدنيا قد تلاشت تماما .. وكيف لا وكل منهم قد ساعد الآخر على أن يكون من أهل النار .. كل الناس في هذا الموقف أعداء إلا المتقين .. لماذا لا يكون المتقون أعداء لبعضهم البعض في ذلك اليوم .. لأن المتقين كانوا يتعاونون على الخير .. إذا رأى واحد منهم زميله يمشى في الخير ، وطاعة الله .. يقول له عليك أن تكثر .. وإذا رأى أحدهم صديقه يمشى في طريق الشر والمعصية يقف أمامه وينصحه حتى يعود إلى طريق الخير .

لقد كان المتقون يتعاونون على الخير فوقوا أنفسهم عذاب النار .. كل واحد منهم نصح الآخر .. والنصيحة كانت نافعة لينجو من العذاب في هذا اليوم العظيم .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

يوم البعث

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٧)

(الآية ٦٧ من سورة الزخرف)

وهكذا تظهر الصورة الأولى ليوم البعث .. المؤمنون في هذا اليوم لهم نور يمشون به في وسط ظلمات هذا اليوم العظيم .. والكافرون يحاولون أن يتقربوا من المؤمنين بأن ينادوا عليهم .. أو يطلبوا منهم أن يشفعوا لهم ، أو يكونوا لهم عوناً .. ولكن هذا كله لا يفيد .. لقد تقطعت الأسباب ، وأصبح كل إنسان مشغولاً بنفسه . وتكتمل الصورة في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ

مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ

بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (١٣)

(الآية ١٣ من سورة الحديد)

.. وفي هذه الآية الكريمة يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى .. ففي يوم الحشر والناس في طريقهم إلى أرض الميعاد .. من كثرة عدد الناس وشدة الزحام تسوء الظلمة .. فلا يرى الناس ما أمامهم .. الله سبحانه وتعالى يضيء للمؤمنين نورا يمشون على هداه .

وحين يرى المنافقون ذلك النور .. يحاولون أن يقتربوا من المؤمنين ليستعينوا بهذا النور على السير ، دون التخبط الذي يفرضه الظلام .. حينئذ يقال لهم ارجعوا فيرجعون بعيداً عن المؤمنين .. ثم

يوم البعث

يكون بينهم سور أو ما يشبه السور أو حاجز .. هذا الحاجز من ناحية المؤمنين فيه رحمة الله سبحانه وتعالى بما عملوا من صالح الأعمال .. فيحسون بالرحمة تحيط بهم من كل مكان .. بينما من الناحية الأخرى .. ناحية المنافقين والمنافقات .. يكون هذا السور محاطا بعذاب الله ، حيث يحسون بالعذاب يحيط بهم .. وهكذا يمشی الاثنان .. المؤمن تحيط به رحمة الله ونوره .. والكافر والمنافق يحيط به عذاب الله .. وحينئذ يعرف الكفار والمنافقون الفرق ، ويحسون بأن العذاب يحيطهم .. بينما الرحمة تحيط بالمؤمنين .

﴿ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم

وآرتبتم وقررتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وقررتم بالله العرور ﴿١٤﴾

(الآية ١٤ من سورة الحديد)

حينئذ عندما يحس الكفار والمنافقون بالفارق الكبير بين العذاب الذى يحيط بهم .. والرحمة التى تحيط بالمؤمنين .. ينادى الكفار والمنافقون المؤمنين : ألم نكن معكم فى الحياة الدنيا .. ألم نعش معا فى وقت واحد .

فيرد عليهم المؤمنون .. نعم لقد عشنا فى وقت واحد .. ولكنكم أيها الكافرون والمنافقون فتنتم أنفسكم بما تقدمه الدنيا من نعم زائفة .. وكنتم تتربصون بعباد الله المؤمنين .. لتؤذوهم وتدبروا لهم الشر .. ودخلت فى أنفسكم الريبة من أنكم ملاقوا الله .. فظننتم أنكم لن تلاقوه .. وأنكم ستفوتون من هذا اليوم .. وجاءت شياطين الانس والجن لتقدم لكم الأمانى الزائفة .. عما ستحققونه فى

يوم البعث

الدنيا ، فأصابكم الغرور بهذه الأمانى .. وتكبرتم وتجبترتم حتى جاء
أجلكم ، وجاء أمر الله ، وجاء يوم الحساب .. فوجدتم أن
ما وعدكم الله حق .. وأن غرور الشيطان باطل .. فاليوم لا ينفعكم
شئ ، ولا ينجيكم من عذاب الله أحد .

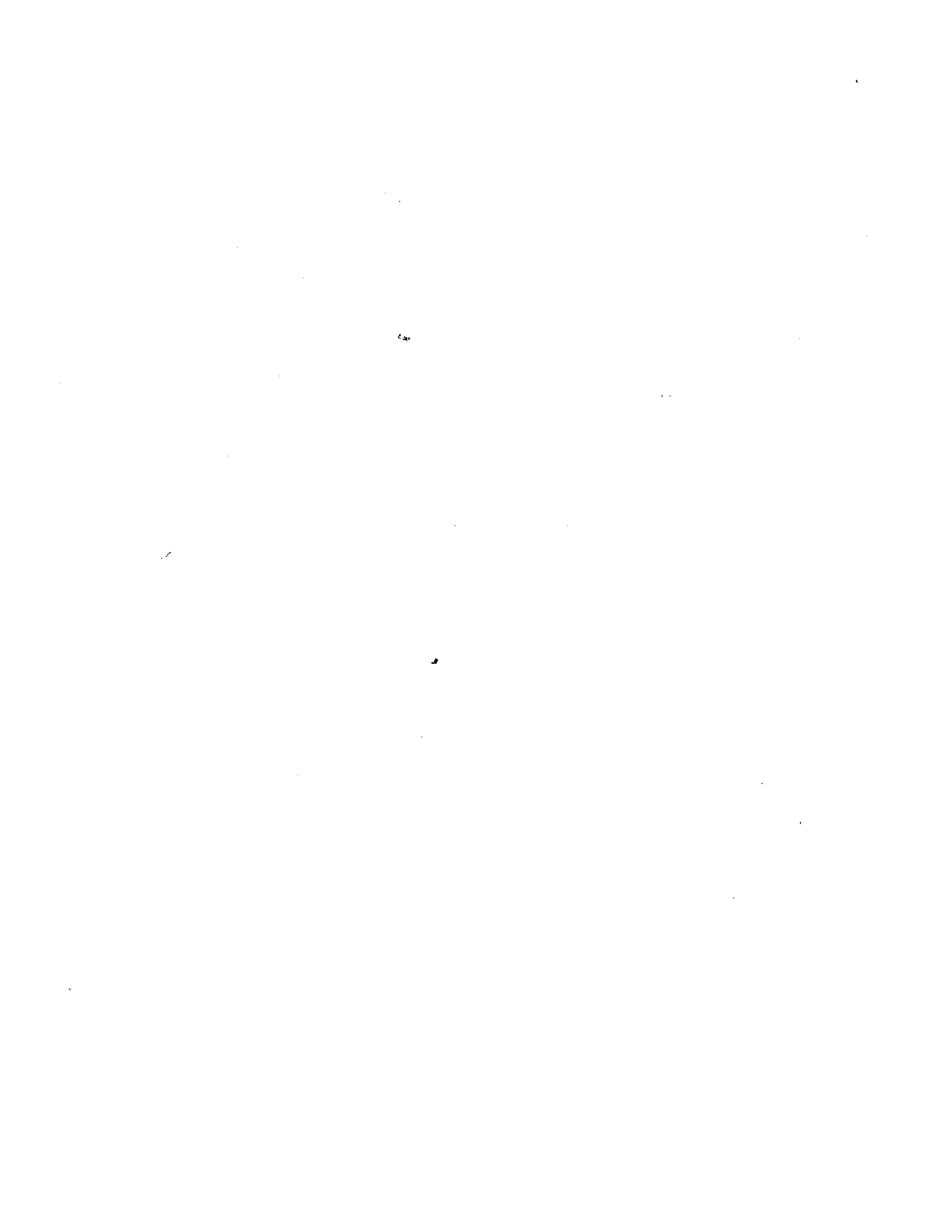
تلك هى بعض المشاهد التى ستحدث يوم القيامة .. والناس
يساقون إلى الحساب .. على أن هناك مشاهد أكثر ساعة يوضع الميزان
ويحاسب الناس .. يومها يفضح الله الكافرين أمام كل خلقه ..
ويحدث حوار كبير يشهده الخلق جميعا .

ولكن قبل أن نتعرض لهذه المشاهد .. لا بد أن نتحدث عن معنى
الميزان الذى سيحاسب الناس على أساسه فى الآخرة .. كيف تزيد
الحسنات على السيئات .. أو كيف تزيد السيئات على الحسنات ..
وكيف يحمل الناس أوزارهم ، أو ذنوبهم ، يوم القيامة .
وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .



الفصل الخامس

الميزان



الميزان

يوم الحشر يكون للناس أحوال مختلفة .. فلكل واحد منهم درجة من الدرجات .. الله سبحانه وتعالى يعرض لنا عددا من هذه المواقف في القرآن الكريم .. ليرينا كيف ستكون أحوال العباد المختلفة .. فلا المؤمنون على درجة واحدة ، ولا الكافرون على درجة واحدة .. ولكن لكل منا درجة .. ولكل منا حال من الأحوال .. هناك الذين كذبوا على الله .. وهناك الذين أشركوا بالله .. وهناك الذين عبدوا غير الله .. وهناك الذين أضلوا الناس .. وهناك صور عديدة ومتعددة .. كل في صورة .. كل في شأن .

هذا يريد أن يفر .. وهذا يتمنى أن يكون ترابا .. وهذا يريد أن يعود ليعمل صالحا ولو عاد لأفسد .. والناس حين تساق إلى أرض الميعاد .. يعطينا الله لأحوالها صوراً مختلفة في القرآن الكريم .. لأن الناس في هذا اليوم العظيم لا يمكن أن يكونوا في حالة واحدة .. ولكنهم في أحوال متعددة .. وفي أول يوم الحشر هم في حال .. وفي آخره هم في حال .. لقطات كثيرة .. وكل واحد من الناس له حالة تناسب عمله .. له حال مع الله سبحانه وتعالى يناسب ما قدمه في الدنيا .. فكل نفس بشرية لها عمل .. خيرا كان أو شرا .. فهو متفاوت .. الخير متفاوت والشر متفاوت .

ولنستعرض معا بعض هذه الصور التي ستحدث يوم القيامة .. هناك وجوه ستكون سوداء .. ووجوه ستكون بيضاء ، مصداقا لقوله :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (الآية ١٠٦ من آل عمران)

الميزان

.. هل البياض أو السواد يتعلق باللون .. أم يتعلق بالحالة ؟
إنك في كثير من الأحيان ترى إنسانا إذا أصابه هم ، وبلغ
حالة اليأس يقول لك : لقد اسودت الدنيا في وجهي .. هل الدنيا
اسودت حقا وأصبح لونها أسود .. أم أن الدنيا كما هي ؟ ولكن
ما ينتظر هذا الانسان من الهم والغم قد جعل الدنيا تبدو سوداء في
نظره ، بحيث لا يرى فيها أملا ، ولا يرى شعاع النور .
وهناك إنسان آخر ترى وجهه فتقول : إن وجهه أسود كأن غضب
الله نزل عليه .. مع أن لونه في الحقيقة .. لون وجهه يكون أبيض ،
وليس أسود .. ولكنك تحس من الهم الذي يركبه والآثام التي يحملها
أن وجهه أسود حالك السواد .
وكم من إنسان يكون وجهه أسود اللون فعلا وتراه مشرقا بالايمان
متلألئا بالنور .. تستبشر به وتقول إن وجهه مشرق .
إذن فاللون هنا ليس هو المحل .. ولا يستطيع إنسان أن يقول :
إن الله سبحانه وتعالى قد مدج الوجوه البيضاء في الدنيا ، وذم الوجوه
السوداء ، وشبه بهم الكافرين بأن وجوههم سوداء .
نقول لك لا .. إن عدل الله يأبي هذا .. ولا فرق بين عباد الله
جميعا .. بل إن أهل جهنم في الآخرة قد يكون معظمهم ممن يحملون
وجوها بيضاء في الدنيا وأعمالهم يملؤها السوء .
إذن فالسواد هنا معناه .. أنك إذا نظرت لهذه الوجوه بغض النظر
عن لونها ، فإنك ترى سحب السواد يحيط بها .. تراها وقد غاب
عنها الاشرار .. تبدو ذميمة كالحلة تحس أن كل ما حولها أسود ..
فعملها أسود .. وحسابها أسود .. ومصيرها أسود .. ولا أمل لها

الميزان

ولا فيها .

موكب الحشر يمضى ، وهم يومئذ على صور مختلفة .. إنهم
يمشون جماعات .. المؤمنون جماعات ، والكافرون جماعات .. وكل
جماعة في شأن .. جماعة من أصحاب الوجوه السوداء يقولون :

﴿ يَقُولُ يَلْبِغُنِي قَدَمْتُ لِحْيَاتِي ۖ ﴾ (٢٤)

(من الآية ٢٤ من سورة الفجر)

قد ملأهم الندم وأحسوا بعظم ما اقترفوا .. وجماعة أخرى
من أصحاب الوجوه السوداء هم الذين كذبوا على الله :

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَّسْوُودَةٌ ﴾

(من الآية ٦٠ من سورة الزمر)

﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾

(من الآية ٢٧ من سورة يونس)

وجماعة يتمنون أن تسوى بهم الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٤٢ من سورة النساء)

وهناك صور عديدة في القرآن الكريم سنعرض لها في الفصول
القادمة بالتفصيل .. تبين أحوال الخلق جميعا يوم القيامة .. خلق
يحملون أوزارهم .. والوزر هو المعصية والفسق وكل ما يغضب
الله .. وخلق يحملون أوزارهم وأوزارا مع أوزارهم .. أى أنهم
لا يحملون فقط خطاياهم ... بل هم يحملون أيضا خطايا

الميزان

أخرى .. كيف يمكن أن يحدث ذلك مع أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز :

﴿ وَلَا تَوْرُ وَاِزْرَةً وِزْرًا أُخْرَىٰ ﴾

(الآية ١٨ من سورة فاطر)

.. أى أن كل واحد يحمل ذنبه فقط وما اقترفه .. ولا يحمل إنسان ذنب إنسان آخر .. وضرب الله لنا سبحانه وتعالى أمثلة في القرآن الكريم توضح لنا ذلك .. وهذه الأمثلة في قمة الايمان .. فرعون مثلا كان من أشد العصاة لله .. نصب نفسه إلهًا في الأرض ليعبده الناس .. وجاءه موسى بآيات كثيرة ، فرفض أن يؤمن .. بل استمر في ضلاله وفي ادعائه الألوهية .. حتى أن الله سبحانه وتعالى من كثرة ذنوب فرعون وعصيانه لله وعده بأشد العذاب .. فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(من الآية ٤٦ من سورة غافر)

من يحمل الوزر

فرعون هذا الذى هو من أكفر أهل الأرض .. كانت له امرأة صالحة مؤمنة .. ومن شدة صلاحها وإيمانها ذكرت في القرآن الكريم :

الميزان

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَاتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ اٰنِ لِىْ
عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِىْ مِىْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهٖۙ وَنَجِّنِىْ مِى الْقَوْمِ
الظَّالِمِيْنَ ﴿١١﴾ ﴾

(الآية ١١ من سورة التحريم)

وهكذا نرى أن امرأة فرعون وقد عاشت فى قمة الاثم فى عصرها
فى قصر فرعون .. إلا أنها أخلصت لله سبحانه وتعالى ، وطلبت منه
النجاة من فرعون وعمله .. ومن القوم الظالمين المحيطين به ..
فجاءت فى الآخرة ، ومصيرها الجنة ، ولم يحملها الله من أوزار فرعون
شيئا .

وتنتقل من قمة الايمان إلى قمة المعصية .. امرأة نوح وهو نبي
وامرأة لوط وهو نبي .. تأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَاتِ نُوحٍ وَأَمْرَأَاتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
عِبْدِيْنَ مِنْ عِبَادِنَا صٰلِحِيْنَ نَخٰنَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ
اَدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِيْنَ ﴿١٠﴾ ﴾

(الآية ١٠ من سورة التحريم)

.. هذه قصة امرأتين كانتا فى بيتى نبوة .. ولكنها كفرتا بالله ،
وارتكبتا الآثام ، فكان مصيرهما إلى النار .. ولم يشفع لهما أنها كانتا
زوجتى نبيين .. لأن أهل الأنبياء هم المؤمنون الذين آمنوا بهم

الميزان

وصدقوا بالرسالة وعملوا بها .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى ابن نوح ، وقد رفض أن يؤمن ، وأصر على الكفر ، فلم يغن عنه أنه ابن رسول ونبي . . . وعندما أراد نوح أن يستغفر الله لابنه وقال :

﴿ رَبِّ إِنِّي مِّنْ أَهْلِى ﴾ (من الآية ٤٥ من سورة هود)

. . . رد الله سبحانه وتعالى عليه :

﴿ إِنَّهُ لَبِئْسَ مِّنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾

(الآية ٤٦ من سورة هود)

وإبراهيم حين أراد أن يشفع لعمه آزر :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ۖ

أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

(الآية ١١٤ من سورة التوبة)

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا أمثلة في القرآن الكريم تؤكد لنا أن الانسان لا يحمل يوم القيامة إلا ما ارتكب من أوزار أو من معاص . . . وأن كل إنسان يجاسب عن عمله . . . وأن أى نفس لا تحمل إثم أو ذنب أو عقوبة ذنب اقترفته نفس أخرى . . . فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضَلُّونَهُمْ بِغَيْرِ

(من الآية ٢٥ من سورة النحل)

عَلِيمٍ ﴾

الميزان

نقول إن الوزر الذى يحمله هو من عمله . . والوزر الذى يحمله مع أوزاره هو من عمله أيضا . . فالإنسان حين يكون ضالا كافرا أو عاصيا ، فإنه يحمل وزره يوم القيامة . . فإذا كان مضلا . . أى لا يكتفى هو بالمعصية بل يزينها لغيره . . فيدفع الناس إلى شرب الخمر مثلا . . ويغريهم بالزنا . . ويزين لهم شهادة الزور . . فإنه فى هذه الحالة يحمل من أوزار هؤلاء الناس فوق وزره .

فكل إنسان أغراه ذلك المضل بشرب الخمر . . كلما تناول كأسا من الخمر عليه إثم . . وعلى الذى زين له ذلك إثم . . وكل إنسان شجع امرأة أو رجلا على الزنا . . كلما زنا هذا الرجل أو هذه المرأة عليها إثم . . وعلى الذى زينها لها إثم .

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن استن سنة سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة » . . ويأتى القرآن الكريم ليوضح لنا الصورة تماما فى قوله تعالى :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ

(من الآية ٢٥ من سورة النحل)

عِلْمٍ ﴿

. . وهكذا نعرف كيف سيحمل بعض الناس أوزارهم . . وكيف سيحمل آخرون أوزارا مع أوزارهم .

الميزان

كيف يحملون أوزارهم ..؟

على أن السؤال هنا .. هو الصورة التي سيتم عليها ذلك .. هل سيحمل الانسان فوق ظهره عمارة أو عدة عمارات بناها بجال حرام؟ .. وهل من الممكن أن تكون الصورة هكذا؟ .. أم أن الناس سيحملون كتابا فيه أعمالهم .. وكلما كانت هذه الأعمال سيئة كان الحمل على ظهورهم ثقيلًا ينتشرون به .. لا يستطيعون المشي ، وأحيانا يضطرون أن يزحفوا على بطونهم ، أو على ركبهم من ثقل ما يحملون .

الصورة هنا في غيب الله سبحانه وتعالى .. ولكن من المؤكد أنهم سيشعرون بثقل عظيم على ظهورهم .. ثقل يجعل هذه الظهور تنن مما تحمل .. تجعل صاحبها ينقل قدميه بصعوبة بالغة .. ويبدل جهدا كبيرا في أن يخطو خطوة واحدة ..

وهنا يتلفت يمينا ويسارا .. يبحث عن من يساعده في هذا الحمل الرهيب فلا يجد أحدا .. الكل يهرب منه .. والله سبحانه وتعالى يكمل لنا الصورة فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءًا

وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ ﴾ (من الآية ١٨ من سورة فاطر)

النفس العاصية والكافرة التي تحمل هذه الأثقال الرهيبية ستبحث يمينا ويسارا .. تحاول أن تستنجد بأحد .. وأول من يلجأ إليه الانسان هم أقاربه .. فتحاول هذه النفس أن تستنجد بأولادها وإخوتها .. ولكنهم جميعا يهربون .. ولا يحمل أحد من هذا الحمل

الميزان

شيئا .. فيظل الحمل الرهيب يثن منه ظهر هذه النفس .. وهي
تحمله وتمضى به حتى مكانها في يوم القيامة .

كل هذا قبل الحساب

كل هذا وغيره يتم قبل الحساب .. بل إن هناك حوارا يجري بين
الله سبحانه وتعالى وأولئك الذين لم يستجيبوا لمنهج الله ولا لدعوته ..
فيجمع الله المتخذين له - تبارك وتعالى - أندادا ، وذلك المتخذ
ندا .. ويواجههم حتى تكون الفضيحة تامة وعامة بين عابد عبد
باطلا .. وبين معبود مرة لم يطلب من عابده أن يعبد ، ومرة طلب
منه .. فالذين يعبدون من دون الله شركاء .. منهم من عبد
الملائكة .. ومنهم من عبد رسولا وجعله إله .. ومنهم من عبد
صنما .. ومنهم من عبد شمساً أو قمراً أو جناً .. إذن فالمعبدون
متعددون ، والعابدون متعددون .. وكل معبود وكل عابد له حكم
في ذلك الحشر .. والمواجهة ستكون علنية يراها الناس جميعا من عهد
آدم إلى يوم القيامة .

هذا الحوار الذى سيتم ، وهذه المواجهة ستكون أمام الأَشهاد
جميعا .

قد يتساءل بعض الناس كيف يمكن لهذا الخلق كله أن يشهد
ويسمع ويرى هذا الحوار مع وجود هذا العدد الهائل من البشر؟
نقول لهؤلاء جميعا .. لو فكرتم قليلا لما أصابتكم الدهشة .. ماذا
يحدث الآن عندما يكون هناك حدث مهم في العالم تنقله الأقمار
الصناعية .. ألا تستطيع الدنيا كلها أن تراه في جميع الأماكن بالأرض

الميزان

في وقت واحد؟

إذا كانت هناك مثلا بطولة العالم لكرة القدم .. ألا نستطيع أن نشهدا هنا في مصر في عشرات الألوف من المنازل في وقت واحد .. ونسمع كل ما يدور هناك .. فإذا أحصينا ذلك في العالم أجمع نجد أن هناك ملايين المشاهدين في ملايين الأماكن المتفرقة من أقصى الدنيا إلى أقصاها .. يستطيعون أن يشهدوا هذا الحدث في نفس لحظة حدوثه بالصوت والصورة .. إذا كانت هذه قدرة البشر للبشر .. فكيف بقدرة الله سبحانه وتعالى .. ألا تستطيع قدرة الله أن تجعل خلق الله كلهم يرون هذا الحوار ويشهدونه هم في أماكنهم؟ إن ذلك على الله يسير .

المهم أن هذا الحوار سيكون علنيا يشهده أهل الأرض كلهم .. يرون ويسمعون ما يدور .. سيرون ما يحدث .. وكيف سيكون الحساب .. وذلك مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(من الآية ١٠٣ من سورة هود)

المعبودون الذين عبدتهم هؤلاء المشركون إما أن لهم علما بهذه العبادة .. أو لا علم لهم بها .. الذين لا علم لهم بأنهم معبودون ولا دعوة لهم إلى الناس أن يعبدوهم ، كالأصنام والشمس والقمر والأشجار والأحجار والرسل الذين اتخذوهم آلهة .. ولكن المعبود الذي له علم وله دعوة للناس لأن يعبدون غير الله إنما يتركز في شياطين الجن ، وشياطين الانس .. ذلك أن إبليس وذريته وشياطين

الميزان

الانس هم الذين يسعون في الأرض ليفسدوا منهج الله .. هم الذين يحاولون أن يغروا الناس بالشرك ويزينون لهم سوء .. وهؤلاء على علم بما يعملون .. أما باقى مخلوقات الله كلها فلا علم بأنها تعبد .. ولا مطلب لها فى ذلك .. بل هى مسبحة لله خاشعة لله .
وهنا ، ويوم القيامة ، تحدث مواجهة بين الذين عبدوا غير الله وبين ما عبدوا .. وهذه المواجهة تتم بين كل مخلوقات الله ما عدا الملائكة .. ذلك لأن الملائكة لا يواجههم الله سبحانه وتعالى بمن عبدوهم .. ولكن يسألهم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَذَا لَأَيُّكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ

بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

(الايتان ٤١ ، ٤١ من سورة سبأ)

وهكذا يتبرأ الملائكة من أنهم كانوا معبدون من دون الله .. والله يعلم ذلك لأن الملائكة :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

(من الآية ٦ من سورة التحريم)

المواجهة .. مع المعبود

تأتى بعد ذلك المواجهة مع الشمس والقمر والنجوم والأصنام .
فتبرأ جميعا ممن عبدها من البشر وتقول :

الميزان

« سبحانك أنت ولينا »

.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾

(من الآية ١٦٦ من سورة البقرة)

وهكذا تقف كل هذه المخلوقات لتعلن أمام الله سبحانه وتعالى .. أنهم لا علم لهم بمن اتخذوهم آلهة .. وأنهم لم يدعوا أحدا لا يتخذهم آلهة .. ولذلك فعندما يخاطب الله سبحانه وتعالى الأحجار التي اتخذوا منها أصناما .. تقول الأحجار عدبونا ونحن أعبد الله من القائمين في الأسفار .. ذلك أن هذه الأحجار تسبح بحمد الله .. مصادقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الاسراء)

بعض الناس يتساءل .. هل ستحدث الأحجار يوم القيامة ؟ .. وهل ستنطق ؟ .. نقول لهم إن كل شيء سينطق يوم القيامة .. تسألونا كيف سينطق ؟ .. وبأى لغة سيتكلم ؟ .. ولكنها ستكون بلغة تفهمونها جميعا .. فإذا كان الانسان سيفهم لغة العين والسمع والجلود .. ويعاتب أعضاء جسمه فيقول لهم :

﴿ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ (من الآية ٢١ من سورة فصلت)

ومعنى ذلك أنهم فهموا كلامهم .. وإلا لما قالوا :

الميزان

﴿ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ^ط ﴾

(الآية ٢١ من سورة فصلت)

فترد الجلود والأسماع والأبصار :

﴿ أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

إذن هناك حوار سيدور بين الانسان وسمعه وبصره وجلده في لغة يفهمها الانسان .. وتفهمها هذه الأعضاء كلها .. وإلا فإنه لا يمكن أن يدور حوار إلا بين اثنين يتكلمان لغة مشتركة .
فلو أننا أتينا برجل إنجليزي لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية . ورجل عربي لا يفهم كلمة واحدة من اللغة الانجليزية .. هل يمكن أن يدور بينهما حوار ؟ .. طبعا لا .. ولكن لابد أن تكون هناك لغة مشتركة ، وسيعلمنا الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لغة كل أجناس الأرض .. ولغة كل مخلوقاتها التي نراها والتي لا نراها حتى يدور بيننا الحوار على أوسع مدى .. فنحن سنكلم الملائكة ونراهم ويروننا .. ونحن سنرى إبليس وذريته .. ويدور بينه وبين الكافرين حوار .. وكل شيء سيتكلم وينطق .. كل شيء كان صامتا في هذه الدنيا سيتكلم .. وسينطق وسيشهد .. حتى الأشياء التي سخرها الله لارادة الانسان وجعلها خاضعة لهذه الارادة في الدنيا كاللسان مثلا الذي جعله الله صالحا لأن يقول كلمة الايمان .. وأن يقول كلمة الكفر والعياذ بالله .. فإذا أمر الانسان لسانه أن ينطق كلمة الكفر أطاعه ونطقها .. ولكن هذا اللسان عابد وطائع ومسبح .. ولذلك يأتي يوم القيامة ويشهد على صاحبه .. بأنه أجبره على نطق كلمة

الميزان

الكفر بما جعله الله مسخرا لارادة الانسان .
ولكن عندما تحمد الارادة البشرية بالموت . . يشهد كل شيء على
الانسان . . ولا يملك الانسان أن يقهر عضوا من أعضائه . . على أن
يفعل ما يغضب الله . . بل كل هذه الأعضاء تشهد على الكافر
وتلعنه . . ولذلك فإن الحجارة التي هي أعبد لله من كثير من
البشر . . ستشهد على من عبدوها يوم القيامة وتبترأ منهم . . وكذلك
الشمس والقمر والنجوم . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾

الذين عبدوا البشر

فإذا ما انتقلنا إلى البشر ، وعلى قمتهم الرسل . . يأتي الله سبحانه
وتعالى بعيسى ابن مريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ الْنَهَيْنِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ ۗ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۗ إِنْ
كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۗ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾

(من الآية ١١٦ من سورة المائدة)

. . وهكذا يتبرأ الرسل من الذين عبدوهم من دون الله .
ويجد أولئك الذين أشركوا بالله أنفسهم في موقف حقير جدا . .
فهؤلاء الذين عبدوهم في الدنيا وقدموا لهم القرابين . . وتعبوا
أنفسهم في إقامة التماثيل لهم من الذهب والفضة والمعادن النفيسة . .

الميزان

هؤلاء الذين أمضى المشركون حياتهم يتقربون إليهم يتعدون عنهم .. لأنهم رجس .. ولأنهم عمل غير صالح لا بد أن يتعد عنه الناس جميعا في هذا اليوم العظيم .. وبحس أولئك المشركون بتفاهتهم وعظم ذنبهم .. ويتمنون لو أنهم سويت بهم الأرض ، أو كانوا ترابا .. بدلا من أن يقفوا هذا الموقف المخزى أمام الله سبحانه وتعالى .

الإنس والجن

ثم يأتي الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى شياطين الجن والانس .. إلى إبليس الذى قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِينَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢)

(من الآية ٨٢ من سورة ص)

إبليس الذى أعلن من يوم الخلق الأول أنه سيكون عدوا لأدم وذريته .. واستطاع أن يصل إلى ذلك بالقسم الذى يمكنه أن يفعل ما يقول .. فقال :

« فبعزتك لأغوينهم أجمعين »

.. أى ياربى نشهد أن لك العزة .. وعزة الله عن خلقه جعلته غنيا عنهم :

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢ من سورة الكهف)

الميزان

فبهذه العزة التي استغنى بها الله سبحانه وتعالى عن خلقه ..
تدخل إبليس ليأخذ حق الغواية .. ولذلك فقد قال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٨٣)

(الآية ٨٣ من سورة ص)

إذن فكل من عبد الله مخلصا وقاه الله غواية إبليس .. ولم يستطع
أن يقدر عليه .. وكل من عبد الله وفي قلبه شك أو رياء أو نفاق فإن
غواية الشيطان تدخل إلى نفسه .. فيزين له المعصية .. وإبليس
يعرف ناحية الضعف في الانسان فيغويه منها .

فإن كان الانسان ضعيفا أمام المال أغواه إبليس بالمال .. وإن كان
الانسان ضعيفا أمام النساء أغواه إبليس بالنساء .. وإن كان الانسان
ضعيفا أمام الحياة والسلطة والسلطان أغواه إبليس بالجاه والسلطان .
إذن فقد بقى الحوار والمخاصمة بين إبليس وذريته .. وبين ذرية
آدم .. معزولا عنها هؤلاء الذين أخلصوا العبودية لله .. فهؤلاء
ليسوا طرفا في الخصومة .. لأن الله وقاهم ما يمكن إبليس وذريته من
أن يغوؤهم .. فلم يعصوا ولم يشركوا ولم يكفروا .. وإنما عبدوا الله
وأخلصوا له الدين .

يجمع الله إبليس وذريته ، وهم الفاسقون من الجن .. لأن هناك
الجن الصالحين المؤمنين .. وهناك الجن الظالمون الفاسقون .. فالجن
الذين يتبعون إبليس في إغواء الانسان وفي إفساد منهج الله في
الأرض .. هؤلاء هم الذين يسمون الشياطين .. ولا بد أن نعرف
أن الجن هم مقابل الانس ولهم اختيار .. وإنه كما يوجد في الانس

الميزان

طائع وعاص .. كذلك يوجد في الجن .. العاصون هم الشياطين الذين يخدمون فكرة إبليس في إغواء الانسان بالكفر .. ويوجد من الانس من أغواهم الشياطين ، فأصبحوا في خدمتهم يفسدون منهج الله .. وهؤلاء هم شياطين الانس .

إذن فالحوار بين من ومن ؟ .. أيكون الحوار بين الذين عبدوا ولم يعرفوا شيئا عن ذلك .. أم يكون بين شياطين الانس وشياطين الجن الذين خالفوا المنهج .. قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٢٢ من سورة الانعام)

.. يشمل كل مخلوقاته .. الملائكة والأحجار والكواكب والرسل والشياطين الجن والانس .. والخطاب في القرآن موجه للأحياء .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا اذكروا جيدا وأنتم في الدنيا أنكم ستحشرون حشرا إلى موقف تفضحون فيه أمام كل مخلوقات الله :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾

(من الآية ٢٢ من سورة الانعام)

إذن فالكلام هنا : ونقول للذين ، أشركوا من الانس والجن مكانكم .. وحين تسمع إنسانا يقول لك مكانك .. يعنى لا تتحرك حتى ينتهى هذا الموقف ويحسم .. وهى كلمة وعيد .. كلمة تهديد من الله سبحانه وتعالى .. ومعناها لا تتحركوا فإن لى معكم موقفا .. وهذا الموقف ليس فى صالحكم .. الذين أشركوا يحسبون أنهم قد ضاعوا فى زحام الآخرة .. وأنهم أفلتوا من المواجهة .. ومن

الميزان

الفضيحة أمام خلق الله .. والله سبحانه وتعالى يقول لهم :
﴿ مكانكم أنتم وشركاؤهم ﴾ .. أى كل الذين اجتمعوا على باطل
يجمعون معا .. ولكن الله سبحانه وتعالى لا يريهم فى معسكر
واحد .. إنه يريد الذين أغووهم فى معسكر .. الذين قاموا بالغواية
والاضلال فى معسكر .. والذين خضعوا لهذه الغواية فى معسكر
آخر .. ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَرَزَيْنَا بَيْنَهُم ۖ ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة يونس)

.. أى فرقنا بينهم .. حتى يصبح هناك فريق يواجه فريقا :

﴿ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة يونس)

ما هو الميزان

هنا لا بد لنا من وقفة .. إذا كان هذا هو الحوار أو جزءا من الحوار
الذى يدور فى الآخرة .. فهل هذا هو الميزان ؟ .. وهل هذا هو
الحساب ؟ .. أم أن الحساب هو شىء مختلف تماما عن كل هذه
المشاهد .. بحيث هناك هذه المشاهد وحدها ، ثم بعد ذلك يكون
الحساب .

قبل أن نبدأ الاجابة عن هذا السؤال .. لا بد أن نرد على الفكرة
التي تقول : إن هناك ميزانا منصوبا فى الآخرة .. نوضع فيه السيئات
فى كفة ، والحسنات فى كفة .. فمن ثقلت حسناته وأعماله الصالحة

الميزان

يذهب إلى الجنة .. ومن زادت سيئاته على حسناته يذهب إلى النار .
فكرة ماديّات الدنيا هذه لا يمكن أن تكون في الآخرة .. ليست
المسألة أوراقا مكتوبة بشكل مادي .. وإنما فكرة الميزان هي فكرة
العدل في أساسه .. بل هي دقة متناهية في العدل الذي لا يقوم شيء
بدونه .. لقد سئل على بن أبي طالب كيف سيحاسب الله الناس في
وقت واحد يوم القيامة ؟ .. قال على رضى الله عنه كما يرزقهم في
وقت واحد في الحياة الدنيا .. الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾

(الآية ٧ من سورة الرحمن)

.. أى ميزان العدل .

وأنت تدخل إلى دار القضاء مثلا ترى رسما للميزان موضوعا في
المكان الذى يجلس فيه القاضى .. هل القاضى يأق بميزان مادي
ليحكم في القضايا .. أم أن هناك ميزانا في كل نفس وضعه الله
لتفرق أنت بين الحق والباطل .

حينما تجد إنسانا في تفكير عميق .. فإذا سألته لماذا هو صامت ..
قال لك إنه يزن الأمور قبل أن يتكلم .. هل جاء بميزان مادي أم أن
الميزان داخل نفسه .. يضع هذه الحقيقة هنا .. ويضع هذه الحقيقة
هنا ، ويزن كل شيء بعقله .. وهل إذا جار عليك إنسان ، وأخذ
منك حقوقك ، وقلت له : إن كفة الميزان مالت ناحيتك .. أياكون
هناك ميزان مادي .. إن الميزان في الدنيا معناه الحق .. معناه
التفريق بين الحق والباطل .. معناه العدل في كل شيء .. العقل

الميزان

يستطيع أن يعرف جيدا في كل أمر من أمور الدنيا .. إذا كانت كفة الميزان معتدلة أو مائلة .. الله وضع فينا فطرة الايمان .. ومع فطرة الايمان فهمنا فكرة الميزان لنفرق بين الحق والباطل .. ولا يستطيع إنسان أن يمضى فى الحياة ، دون أن يكون هناك ميزان فى نفسه .. يزن الأمور حتى بعيدا عن الدين .. وهذا الميزان فى عقل كل منا وفى تكوينه .

الانسان عندما يبعث يوم القيامة يكون معه سائق وشهيد .. السائق عرفناه .. هو الملك الملّكف به لكى يوصله إلى المكان المحدد له ، فلا يذهب يمينا أو يسارا .. وإنما يسوقه أمامه .. والناس يوم القيامة تذهب جماعات .. جماعات من المؤمنين .. وجماعات من غير المؤمنين .. أما الشهيد الذى مع الانسان فهو عمله يشهد عليه .. إقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾

(الآية ١٤ من سورة الاسراء)

والنفس هى التقاء الروح بالجسد .. وهذا يحدث مرتين : مرة فى الحياة الدنيا دار الاختيار .. ومرة فى الحياة الآخرة لينعم الانسان أو يعذب .. ومادام التنعيم والتعذيب لم يأت وقتها بعد .. فإن الحديث هنا عن الحياة الدنيا .. فى قوله تعالى :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾

كيف تكون النفس شهيدة على صاحبها .. تكون بأنها تحمل

الميزان

كتابا فيه كل ما حدث في الحياة الدنيا مسجلا بالصوت والصورة .

ما ترى وما لا ترى

بعض الناس قد يتعجبون من هذا الكلام .. ولكننا كما قلنا الله سبحانه وتعالى رحمة بعقولنا .. قد أعطانا من الماديات في الدنيا ما يسهل لهذه العقول أن تعي شيئا عن الغيبات .. فكما تحدثنا كيف أن الوجود شيء وإدراك الوجود شيء آخر .. وأثبتنا ذلك بالدليل العلمى .. حتى إذا حدثنا الله سبحانه وتعالى أن هناك شيئا موجودا ، ونحن لا نراه .. لا نقول : إن هذه قضية مستحيلة .. ولكننا نقول : إنها قضية ممكنة وقائمة وعليها دليل .. وإذا كانت قدرة الانسان قد أثبتت أن ما هو غيب موجود .. فما بالك بقدرة الله سبحانه وتعالى .

فلنستجمع قليلا ما نراه اليوم .. ألاتدير الراديو فستمع إلى صوت الشيخ محمد رفعت يؤذن للصلاة .. أين هو الشيخ محمد رفعت .. غير موجود الآن .. لقد مات منذ سنوات طويلة .. ولكن صوته مازال موجودا .. استطاع الانسان بالعلم الذى كشفه الله له أن يبقى الصوت فى الكون .. بينما صاحبه انتقل إلى رحمة الله .. بل إن الأبحاث العلمية الحديثة قد أثبتت أن الأصوات لا تفتنى .. بل سابحة فى الفضاء .. وهناك جهود علمية لم تكمل بنجاح تحاول أن تسجل أصوات الأنبياء والعظماء الذين مازال التاريخ يذكرهم من بين بلايين الأصوات السابحة فى الفضاء .. ولكن للدقة

الميزان

المتناهية التي يحتاجها مثل هذا العمل .. وللعلم الواسع الذي لا بد أن يستند إليه .. لم يكشف الله سبحانه وتعالى من علمه للبشر ما يمكنه من ذلك .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى التليفزيون .. فإننا نجد برامج تذايع حدثت في عام ١٩٣٠ وقبل عام ١٩٣٠ .. ونرى فيها الأشخاص الذين قاموا بهذه الأحداث ، وهم يتكلمون ويتحركون وكأنهم أحياء .. مع أنهم انتقلوا من عالمنا منذ حوالي ستين سنة .. ولو احتفظنا بهذه الأفلام لاستطعنا أن نعرض هذه الأحداث بعد مئات السنين .. بل إن المعارك التي دارت في الحرب العالمية نستطيع أن نراها وكأنها تحدث الآن .

إذا أردنا أن نجرى تجربة وقلنا : أننا سنسجل حياة فلان بالصوت والصورة منذ ساعة مولده حتى ساعة مماته .. ألا نستطيع ؟ .. طبعا نستطيع .. ثم بعد ذلك أخذنا هذا التسجيل ، واحتفظنا به مائة سنة ، ثم عرضناه .. ألا نرى تاريخا كاملا لحياة هذا الانسان .. إذا كانت هناك الآن آلات بالغة في الدقة تخطئها العين ، ولا تحس بها .. تسجل لنا بالصوت والصورة وتستخدمها المخابرات في العالم .. ألا يستطيع الله سبحانه وتعالى أن يضع في ذرات هذا الكون ما يتم به ذلك ؟ .. وهل الملائكة التي تكتب الحسنات والسيئات وتحصيها .. وتكتب على الانسان كل أعماله .. تحصى هذه الأعمال وتسجلها على الانسان بشكل يجعل الكافر وغير المؤمن .. يستطيع أن ينكرها دون أن يكون هناك دليل قوى يدحضه ويفحمه إذا حاول أن يكذب على الله .

الميزان

إن من دقة الكتاب الذى سيحمله الانسان معه يوم الحساب ..
أن المجرمين سيقولون :

﴿ يَوَيْلٌ لَّنَا مَالٌ هَذَا الَّذِي كُنَّا نَكْتُمُ لَكُمْ وَالَّذِينَ كُنَّا نَعْتَدُ بِهِمْ سَبِيحًا ۗ
(من الآية ٤٩ من سورة الكهف)

.. أى أنه أحصاه غاية فى الدقة .. حتى الأشياء التافهة التى
نسيها الانسان .. والأشياء الصغيرة سيجدها فى كتابه .. مصداقا
لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۗ

(من الآية ٦ من سورة المجادلة)

ما عملوا حاضرا

ما معنى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ

(الآية ٤٩ من سورة الكهف)

.. وما هو الدليل الدامغ يوم القيامة .. لأن يكون الانسان
شهيدا على نفسه إلا أنه يرى كل حياته أمامه .. كفيلم سينمائي
سجل كل شىء . فإذا أنكر أى شىء فإنه يواجه بما كان يفعل بالدليل
الدامغ .. إذا كانت قدرة الانسان فى تسجيل الأحداث قد وصلت
إلى هذا الحد المذهل ، فما هى قدرة الله سبحانه وتعالى .. وقول
الحق :

الميزان

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الاسراء)

معناه أن كل إنسان ستشهد عليه نفسه بكل ما حدث ولن يستطيع أن ينكر شيئاً . . لأنه سيرى كل شيء . . لعل الله سبحانه وتعالى غير قادر على أن يرىنا حياتنا كلها لحظة بلحظة في ساعة الحساب . . أليس هذا ممكناً ؟ .

إذن فقيم المجادلة ؟ . . وهل قدرة الملائكة أقل من قدرة الانسان بحيث تستطيع أية قوة من قوى التجسس في الدول المتقدمة ، أو حتى المتخلفة . . أن تسجل على الانسان الأحداث التي تقع وتواجهه بها . . ولا تستطيع الملائكة الحفظة الأبرار أن يقوم بأكثر من هذا . . إن مجرد النقاش في أن هذا ممكن أن يحدث يرفضه العقل . ونحن حين نمثل ما سيحدث يوم القيامة بالامكانيات المادية الموجودة في الدنيا . . فإنما نحاول أن نقرب ذلك من الأذهان . . ولكن الله الذي ليس كمثله شيء . . لن يجعلنا نرى كتابنا بهذه الطريقة البدائية . . بل في علمه أشياء وأشياء . . والمهم أن الانسان سيرى كل ما فعله . . وسيشهد ويسمع كل كلمة قالها . . حتى يكون هو الشهيد على نفسه . . ويكون عدل الله وأفعاله فلا يستطيع أن ينطق .

حينما يواجه الانسان بكتابه لا يستطيع أن ينكر . . ولا أن يقول لم أفعل ولا أن يجادل في أنه ظلم . . بل كلنا يوم القيامة سنشهد بعدل الله . . حتى الذين سيخلدون في نار جهنم سيشهدون أن عقابهم

الميزان

حق .. وأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم .. وأن الله لم يظلمهم ..
قد يطلبون الرحمة .. قد يطلبون فرصة أخرى .. ولكنهم لا يمكن أن
يدعوا مهما كان الكبر في صدورهم أنهم ظلموا في يوم الحساب ..
وهذا ما سنبيته في الفصول القادمة .. ونحن نتحدث عن مشاهد يوم
القيامة .



الفصل السادس

يوم الحشر

يوم الحشر

مشاهد يوم القيامة كما قلنا متعددة .. ولا يمكن حصرها في كتاب واحد .. ولكننا هنا نأتى ببعض اللقطات التي تقرب الصورة لأذهاننا فيما سيحدث يوم القيامة .. ولقد تحدثنا في الفصل السابق عن المشركين الذين اتخذوا آلهة من الشمس والقمر والنجوم والأحجار والبشر .. وقلنا .. إنه في يوم القيامة سيحشر الله هؤلاء جميعا .. فهناك منهم من عبده الناس ، وهو لا يدري عن عبادتهم شيئا .. فالشمس والقمر والنجوم والأحجار والأشجار وغيرها لم يطلبوا من أحد أن يعبدهم .. بل هم أعبد الله من القائمين في الأسفار .. وهم لم يرسلوا رسلا إلى البشر ليقولوا لهم اعبدونا .. أو ليبلغوهم بمنهج عبادة .

فالشمس لم ترسل رسولا مثلا إلى من عبدها لتدعى أنها إله .. وتطلب منهم أن يسجدوا لها وتقول لهم : إن منهنجى كذا وكذا .. وكذلك النجوم والأحجار التي اتخذوا منها أصناما .

لذلك فإن هؤلاء جميعا يتبرأون يوم القيامة من أولئك الذين اتبعوهم .. ويتجهون لله سبحانه وتعالى يسبحونه .. بل إن الأحجار التي عبدها الناس .. يجعلها الله سبحانه وتعالى وقود النار يوم القيامة .. وتكون الأحجار سعيدة بذلك ، وهي تحرق من عبدها من دون الله وتذيقه العذاب .

كما أن هناك من الرسل من اتخذهم الناس آلهة .. يؤق بهم يوم القيامة ليتبرأوا أمام الأشهاد .. أمام خلق الله كلهم .. من الذين ابتعوا واتخذوهم آلهة وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى لعيسى بن

يوم الحشر

مريم عليه السلام :

﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

(من الآية ١١٦ من سورة المائدة)

بماذا يرد عيسى ابن مريم يقول :

﴿سُبْحَانَكَ﴾

(من الآية ١١٦ من سورة المائدة)

أى تعاليت يا رب وتنزهت عن هذا .. فنحن جميعا عبيدك نسبح
بحمدك .. ثم يكمل عيسى بن مريم كلامه :

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ

أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ

رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾

(من الآيتين ١١٦ ، ١١٧ من سورة المائدة)

وهكذا يتبرأ عيسى عليه السلام من أولئك الذين اتخذوه إلهًا
ويقول إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما نعلن وما نخفي .. فإن كان
عيسى عليه السلام قد قال هذا علنا ، فقد علمه الله سبحانه
وتعالى .. وإن كان قد قاله سرا وفي نفسه فقد علمه الله سبحانه
وتعالى .. لأنه يعلم ما تخفي الصدور .. ويكون هذا على مشهد من
جميع خلق الله منذ عهد آدم إلى يوم القيامة .. وهم يشاهدون كل

يوم الحشر

ما يحدث ويتابعونه لتكون الفضيحة علنا وأمام كل خلق الله .

نرى جميعا

الله قادر على أن يجعل خلقه جميعا يرون كل ما يحدث دون عناء أو تعب . . كما ترى الدنيا كلها الشمس دون عناء أو تعب . . وكما يرى الناس يوم باستخدام قوانين الله التي وضعها الله سبحانه وتعالى في الكون ليروا جميعا في وقت واحد . . وفي ملايين الأماكن المتفرقة حدثا يقع في العالم في نفس لحظة وقوعه عن طريق الأقمار الصناعية . . وإذا كانت هذه قدرة البشر الآن . . فما هي قدرة البشر بعد آلاف السنين في نقل الأحداث بالصوت والصورة إلى كل أجزاء الدنيا . . ثم بعد ذلك ما هي قدرة الله سبحانه وتعالى في الآخرة ؟
بقى المشهد الذي يتم بين الذين عبدوا غير الله عن علم وعن قصد . . وهم شياطين الجن والانس . . أولئك الذين أفسدوا في الأرض . . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الانعام)

والله سبحانه وتعالى يخاطب الجن . . أو يخاطب شياطين الجن فيقول لهم لقد أخذتم نصيبا كبيرا من الانس إلى جهنم . . فأضللتوهم وقدتموهم إلى طريق الفساد . . والله سبحانه وتعالى يخاطب الجن ويقول لهم استكبرتم من الانس والجن لا يردون . . ولكن من الذي يتكلم ؟ . . الذي يتكلم هم الانس الذين اتبعوا

يوم الحشر

شياطين الجن .. يقولون :

« وقال أولياؤهم »

أى المتابعون لهم من شياطين الانس :

﴿ رَبَّنَا أَسْتَمِعُ بَعْضَنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الانعام)

إذن فالكلام هنا من الانس عن انفسهم ، وأيضا عن أوليائهم من الجن - إنهم يدافعون عن شياطين الجن الذين أخذوا كثيرا من الانس إلى جانبهم .. كيف ذلك ؟ .. لأن الله سبحانه وتعالى أعطى الجن في تكوينهم ما لم يعطه للانسان من ناحية التكوين .. فجعل الجن يرون الانس ، بينما الانس لا يرونهم .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ من سورة الاعراف)

وأعطى الله الجن أيضا قوة أكثر من الانس .. ولذلك عندما طلب سليمان من يحضر له عرش بلقيس ملكة سبأ قبل أن تصل إليه .. ومعنى هذا أن سليمان قال هذا الطلب بعد أن غادرت بلقيس ومن معها اليمن في طريقهم إلى بيت المقدس .. وكان في مجلس سليمان الانس والجن وغيرهم .. لم يتكلم إنسى واحد ليقول : إنه يستطيع أن يحضر عرش بلقيس .. لماذا ؟ .. لأن الانس مخلوق من طين .. امكانياته محدودة ، فهو لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة .. بينما الجن مخلوق من نار .. يستطيع أن ينفذ من الجدران والسواتر الحديدية ..

يوم الحشر

وأن يسافر وينتقل من مكان إلى آخر بسرعة هائلة .
ولذلك فإن المخلوق من نار ، قانونه نافذ بطبيعة تكوين النار التي
تشتع فيخترق إشعاعها الجدران .. بحيث تصل حرارتها إلى من
يجلس وراء الجدار .. هذه بعض قوانين الجن التي تختلف عن قوانين
الانسان .. لذلك عندما قال سليمان عليه السلام :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣٨)

(من الآية ٣٨ من سورة النمل)

سكت الانس الذين كانوا في مجلس سليمان ، لأن نقل العرش
من اليمن إلى مكان سليمان .. يحتاج إلى زمن وإلى قوة وإلى سرعة ،
وهذه لا تتوافر في الانس بحكم خلقهم .. ولذلك كان أول من
تكلم هو عفريت من الجن .. أما الانسان فلم يدخل نفسه في تجربة
يعلم أنه لا يستطيعها .. فسليمان قد علم أن ملكة سبأ في طريقها
إليه لتعلن إسلامها .. وهو يريد من الذي يذهب ليأتى بالعرش من
قصر ملكة سبأ .. أن يتميز أولاً بالسرعة التي تتفوق على الانسان
بمراحل كثيرة .. لأن هذا الذي سيذهب جالس مع سليمان .. بينها
ملكة سبأ في طريقها إلى سليمان .. ولذلك فلا بد أن يقطع المسافة
من مكان سليمان إلى قصر ملكة سبأ .. ثم يحل العرش .. ثم
يحملة ويكون حريصاً عليه .. ثم يأتي به إلى سليمان .. كل هذا في
وقت أقل من الذي ستقطع فيه بلقيس ملكة سبأ المسافة بينها وبين
سليمان ، وكانت قد قطعت فعلاً جزءاً من الطريق .

يوم الحشر

من الذى تكلم

إذن فلم يتكلم الانسان ولا الجن العادى .. وإنما تكلم عفريت من الجن .. مما يدلنا على أن الجن غير متساوين فى القدرة بل إنهم متفاوتون فيها .. والذى تكلم هو عفريت من الجن .. أى أقوى الجن .. وقال :

﴿ أَنَاءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ من سورة النمل)

ومقام سليمان أو مجلسه لا نعرف زمنه ساعة أو ساعتين أو أكثر .. ولكن العفريت الذى يتكلم يعرف الزمن .. وهنا :

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَاءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ من سورة النمل)

أى قبل أن تطرف عينك .. وقبل أن يقول لسليمان نعم .. وجد عرش بلقيس أمامه :

﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ من سورة النمل)

أى أن المسألة لم تتحمل حتى مجرد الكلام .. وهكذا إذا كان الله قد خص الجن بقوانين متفوقة .. فقد أعطى بشرا من خلقه قدرة أكبر تخضع الجن لها .. ذلك أن التميز ليس بالتكوين فقط ، ولكن بإرادة المكون والخالق .

من العدو ؟

وهكذا يريد الحق سبحانه وتعالى ، وهو يعرض علينا مشاهد القيامة ، أن يقول لنا .. أنه أعطى الجن ميزات كثيرة .. وأنهم استخدموا هذه الميزات في التكوين في الشر والاضلال .. حينئذ يرد أولئك الذين اتبعوا شياطين الجن :

﴿ رَبَّنَا أَسْمِعْ بَعْضَنَا بَعْضًا ﴾ (من الآية ١٢٨ من سورة الانعام)

ما معنى هذا ؟ .. هل استمتع الجن بالانس .. أم استمتع الانس بالجن .. كلاهما استمتع بالآخر .. استمتع الجن بالانس في إعانتة على المعاصي .. ومادامت شياطين الجن تعين الانسان على المعصية فهذا استمتاع لها .. لأن العداوة بين شياطين الجن والانس منذ لحظة خلق آدم .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرَّ عَدُوٍّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾

(من الآية ٦ من سورة فاطر)

فكان إبليس ومن تبعه من الجن متعتهم في الحياة أن يقودوا الانسان للمعصية والهلاك .. تماما كما يكون لك عدو وتدبر له مصيبة .. فإنك تستمتع وأنت تدبر له هذه المصيبة .. ثم تستمتع أكثر عندما تنفذها .. ثم تستمتع أكثر وأكثر وأنت تراه يعذب .. فهذا هو استمتاع الجن بالانس .. استمتاع ذلك الذى يوقع عدوه في مصيبة ، ويقوده إلى النار .. وهو يفعل ذلك يكون في قمة السعادة والاستمتاع .. وهذه هى مهمة الشيطان .. وبذلك يتحقق قول

يوم الحشر

إبليس : لأغوينهم ولاقعدن لهم صراطك المستقيم .
ولكن ماذا عن استمتاع الانس بالجن .. لأن الجن قد زين
للانسان شهواته .. وجعل النفس البشرية التي تتبعه تستمتع بكل
شهواتها وأهوائها في الحياة الدنيا .. وذلك أن شياطين الانس
لا يعيشون بمنهج ... ولكنهم يجرون وراء شهواتهم .. فيأخذون المال
الحرام .. ويعتدون على حرمت الناس .. ويفعلون كل ما تريده
أنفسهم من ظلم وفساد .. وفي هذا يكون الانس الذي اتبع وحى
شياطين الجن قد استمتع بحياته كلها .. ففعل ما يريد دون وازع من
ضمير ، أو خلق أو دين .

وهكذا يكون استمتاع الانس بالجن .. استمتاعا عاجلا لشهوات
النفس يعقبه حسرة وندم .. ولذلك فإن أولئك الذين يشتغلون
بالسحر والجن يريدون أن يحققوا شهوات لأنفسهم فوق قدراتهم ..
ولكنها تنقلب وبالا عليهم .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾

(الآية ٦ من سورة الجن)

أى أتعبوهم لأن العداوة بين شياطين الجن والانس تجعله يقدم له
العون أولا حتى يتبعه ، ثم ينقلب عليه .
والعجيب أنك تجد أن أولئك الذين يسخرون الجن رزقهم من
أولئك الذين لا يعلمون عن السحر شيئا .. لو كان فعلا خيرا
لاستطاعوا هم أن يرزقوا أنفسهم .. ولا تجد من يشتغل بهذه المسائل
إلا وفي ذريته شذوذ .. الأعور والأعرج والأكتع .. لماذا ؟ .. ليلزم

يوم الحشر

كل إنسان أدبه وقدر ربه فيه ولا يتكبر .. تماما كالذى يستعين
بافتوات ليسيطر على الناس .. ثم إذا ضعف ينقلب عليه الحى
الذى كان يسيطر عليه فيذيقه الهون والعذاب .
إذن فالانس يردون :

﴿ رَبَّنَا أَسْتَمِعْ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الأنعام)

يعنى مادما نحن على قيد الحياة .. فنحن مضينا فى منهج
الاستمتاع .. فاستمتع الجن بأنه قاد الانسان إلى المعصية ..
واستمع الانسان بمتعة المعصية حتى جاء الأجل .. فماذا
وجدوا؟ .. قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الأنعام)

أى أن المستمتع الأول والمستمتع الثانى فى النار .

وقال الشيطان

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة تكمل هذه الصورة فى قوله
جل جلاله :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ ﴾

يوم الحشر

﴿ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي لِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا الصورة كاملة في يوم الحساب .. شياطين الجن وشياطين الانس قالوا إنهم استمتعوا ببعضهم البعض في الحياة الدنيا ، ، ففضى الله بينهم بأن النار هي مصيرهم ومثواهم .. عندما قضى الأمر التفت شياطين الانس إلى إبليس الذى قادهم إلى هذه الهاوية .. التفتوا إليه يستنجدون به من النار التى سيقذفون فيها .. ماذا قال إبليس ؟ .. قال الحقيقة لأن حياة الخداع قد انتهت وقد أصبحنا فى مرحلة اليقين .. لم يعد هناك ظن ولا غيب .. فقد كشف الله حجب الغيب للناس ، وانتهت مهمة إبليس .. فإبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يمهله إلى يوم البعث .

وفى ذلك يقول الحق :

﴿ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة ص)

أى يا ربى أعطني مهلة إلى يوم البعث قبل أن أخلد فى العذاب .. ذلك أن إبليس رد الأمر على الأمر .. رد الحكم على الله .. قال :

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(من الآية ٧٦ من سورة ص)

يوم الحشر

وقال :

﴿ اَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(الآية ٦١ من سورة الاسراء)

ففى كلا الأمرين رد الأمر على الله .

وفى ذلك يجب أن نأخذ مبدأ إيماننا هاما بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله . . من الخير لهم أن يقولوا إن منهج الله حق ولكننا لا نستطيع أن نحمل أنفسنا على المنهج . . أما أن نرد الحكم على الله ونقول : إن الربا حلال وأن قطع يد السارق حرام . نقول لكل من يتخذ هذا السلوك . . لا ترد الحكم على الله فتكون فى صف إبليس مطرودا من رحمة الله . . ولكن قل إن كل ما فى منهج الله حق . . ولكننى لا أستطيع أن أحمل نفسى على الايمان . . فبدلا من أن تكون كافرا إن رددت الحكم على الله . . تكون عاصيا إن أقررت بذنبك . . بخطئك . . معصية يمكن أن تستغفر منها فيغفر لك الله . . وأن تتوب منها فيتوب الله عليك . . أما أن ترد الحكم على الله فهذا كفر .

وانتهت المهلة

إذن فقد انتهت المهلة التى أعطها الله سبحانه وتعالى لابليس . . وجاء اليوم الذى يحاسب فيه . . ولم تعد تفيده عداوته لأدم شيئا . . فلم يعد هو قادرا على غواية الانسان . . ولم يعد الانسان مستجيبا له . . انتهى كل هذا لأن الحياة أصبحت غير الحياة . . ولم يعد

يوم الحشر

الشیطان يستطيع أن يغوى أحدا في يوم البعث .. ونحن نرى النار والجنة والجزاء والحساب .. فلم يعد أمام الشيطان إلا أن يقول الحق .. لأنه لو كذب فإن كل ما هو حادث يكذبه .. ولم يعد الموقف يسمح بالكذب والشیطان يرى جهنم التي سيلقى فيها ، ويخلد إلى الأبد .. في هذا الموقف الرهيب لا يستطيع الإنسان أن يقول إلا الصدق .. تماما كساعة تنفيذ حكم الإعدام على القاتل ، وهو يقاد إلى المشنقة .. هل في هذه الحالة هو صالح للكذب .. إن هول الموقف يجعل لسانه لا يستطيع أن ينطق إلا الحق .. فما بالك وإبليس يواجه نار جهنم وعذاب الله .

ماذا قال الشيطان عندما قضى الأمر ، وقال الله :

﴿ النَّارُ مَثْوًى لَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى أن الله سبحانه وتعالى كان وعده حقا ، ووعد الشيطان كان كذبا .. يبنى الإنسان ويغريه بالكاذب ليرتكب المعاصي .. ويزين له العمل السيء .. فوعده كذب ، ووعدته لا يتحقق . والشیطان في هذا يظل يغرى الإنسان حتى يكذب الإنسان على نفسه .. ويعتقد زيفا أنه سيفلت من عقاب الله .. أو أن العذاب سيكون يسيرا ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة .. وعندما يأتي الإنسان ليتوب يأتي الشيطان فيقول له .. أجل التوبة حتى تكبر في السن ، ثم

يوم الحشر

بعد ذلك لا يمهل الأجل الانسان ليكبر في السن . . وكل إنسان لديه امتدادات الأمل . . بمعنى أنه لو لم يحقق ذلك اليوم فإنه سيحققه غدا . . وهناك آمال كثيرة في حياة الناس قد لا تتحقق أبدا . . ولكننا نعيش على أمل أنها ستتحقق . . ومهمة الشيطان أن يعطى للانسان الأمل الكاذب . . الأمل الذى لن يتحقق . . فيغريه بالمعصية تلو المعصية ويهمس إليه أن الأجل لا يزال طويلا . . ويمنيه بأنه سيفعل كذا وسيحقق كذا بالمال الحرام . . وقد يكون هذا المال الحرام نكبة عليه وعلى أولاده فيصيبه بالكوارث والأمراض ، مما يجعلهم يتمنون لو أن هذا المال لم يأت . . هذه هى بعض وعود الشيطان التى تكون دائما مخالفة للحقيقة .

معنى السلطان

ثم يقول الشيطان :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

والسلطان هو قوة القهر . . أى أن الشيطان ليس له قوة القهر ليقهر الانسان على المعصية . . والسلطان إما أن يكون قوة مادية تقهر بأن أطلب من إنسان أن يذهب إلى مكان فيرفض ، فأقيدته بالسلاسل ، وأحمله إلى هناك . . أو أن أطلب منه أن يقوم بعمل فلا يطيعنى ، فأحضر بعض أعوانى بالعصى والسياط ويلهبون ظهره حتى يفعل ما أريد . . أو يكون السلطان هو سلطان الحجة . . حيث تأتى

يوم الحشر

للانسان وتظل تتحدث معه حتى تقنعه بأن يقوم بالعمل الذى تريده ، فيقتنع اقتناعا يجعله يفعل ما تريده منه ، ولكن باختياره .. كلاهما سلطان ، سواء اتبعت القهر أو اتبعت الحجة والاقناع .. والشيطان لم يعط سلطان القهر .. فهو لا يستطيع أن يقهر إنسانا على معصية بالقوة والقهر .. وليس للشيطان حجة ليقتنع بها الانسان ، فيجعله يرتكب المعصية ، بحجة الاقناع .. ولكن لا بد أن يوجد فى داخل النفس أولا هوى ورغبة للمعصية ، فيأتى الشيطان ويزينها له .. كأن يكون الانسان يريد أن يعيش عيشة مرفهة ولكنه لا يملك المال .. وجدت الرغبة أو الشهوة فى داخل النفس البشرية .. حينئذ يأتى الشيطان ليزين لك المال الحرام .. ويقول : إذا سرقت هذا المال فستحصل على عيشة الرفاهية التى تتمناها .. ويظل يوسوس لك بذلك حتى تسرق .. أو يزين لك جمال امرأة مستهتره حتى تزنى معها .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى وهو ينقل لنا الحوار الذى سيدور بين إبليس وشياطين الانس :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أنه لم يكن يملك سلطان القهر ولا سلطان الحجة ليجبرهم على المعصية .. ولكن شهواتهم التى فى داخلهم هى التى قادتهم لهذا .. عندما يتجه شياطين الانس إلى إبليس باللوم يقول :

يوم الحشر

﴿ فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أنكم لو لم يكن عندكم استجابة في داخل أنفسكم لما استطعت أن أغويكم .. فلا توجهوا لى اللوم .. بل وجهوه إلى أنفسكم .

﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

والصراخ معناه طلب النجدة من مصيبة لا يقوى الانسان على مواجهتها بمفرده .. بل يريد أن يعينه الآخرون على أن يواجهها .. فإذا شب حريق في البيت مثلا وكان الحريق صغيرا يمكنني أن أسيطر عليه .. فأنا لا أصرخ طالبا النجدة .. وإنما أقوم بإطفاء الحريق بامكانياتي مادمت واثقا أنني أستطيع .. ولكن إذا كان الحريق كبيرا فإنني لا أستطيع بقدراتي أن أتغلب عليه .. فإنني في هذه الحالة أصرخ طالبا النجدة .. لأنني أواجه حدثا أقوى من قدراتي .. فأنا محتاج إلى عون الآخرين .. وإذا هاجمني لص مثلا في الطريق .. فإذا كنت قويا فأنا أقدر عليه وأمسك به وأقيده .. ولكن إذا كان اللص أقوى مني .. فأنا في هذه الحالة أصرخ طالبا النجدة حتى يعينني الناس عليه .

معنى الصراخ

حين يسمع الناس الصراخ فهم نوعان .. نوع لا يجد في نفسه القدرة على أن يعين على هذا العمل ، فلا يذهب إلى الصراخ

يوم الحشر

لينجده .. كأن يهاجمني لص قوى وأصرخ طالبا النجدة .. ويكون
الذى يمر شيخ لا يكاد يقوى على السير .. حينئذ فإنه لا يجيب على
صرختي ، لأنه لا يستطيع أن يقدم لى العون ، وهو ضعيف كبير
السن .. ونوع آخر يجد في نفسه القدرة على التدخل ، فيأتى إلى
ويساعدنى في أن أتغلب على ما لا أقدر عليه .. حينئذ يقال أصرخه
فلان .. أى أزال سبب صراخه .. والشيطان في يوم القيامة
لا يستطيع أن يصرخ أحدا .. أى لا يستطيع أن ينقذ أحدا من
النار .. ولا يستطيع أحد أن يصرخه ، أى ينجيه من العذاب الذى
ينتظره .. لذلك يقول الشيطان للعاصين : لا أنا أستطيع أن أنجيكم
من العذاب ، ولا أنتم تستطيعون أن تنجوني من الخلود فى النار ..
فكلانا عاجز أمام قدرة الله سبحانه وتعالى :

ويمضى الحق سبحانه وتعالى ليكمل لنا أحد مشاهد يوم القيامة :

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣١)

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أن ما أغويتكم على أن تشركوا أنا كافر به .. لأنى أول من
يعلم أنه زيف وكذب ، ولكنكم ظلمتم أنفسكم ، واتبعتم الزيف
الذى قدمته لكم ، فجزاء الظالمين النار .
مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يوضحه الحق سبحانه وتعالى
وهو الحوار الذى سيدور بين الكافرين فى النار :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ (من الآية ٣٣ من سورة سبأ)

يوم الحشر

الحوار هنا بين الكافرين .. جزء منهم هم المستضعفون الذين كانوا تابعين .. وجزء منهم هم المستكبرون أو السادة الذين أغروا هؤلاء المستضعفين بالمعصية وفعل السيئات .. ماذا يحدث في الحوار الذى يدور :

﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ
عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

(الآية ٢١ من سورة إبراهيم)

أى نحن كنا نتبعكم وكنا نفعل ما تأمرونا به وننفذ كل ما تطلبونه .. فهل تستطيعون أن تنجوننا من عذاب النار أو تخففوه عنا .. هذا مظهر من مظاهر العجز البشرى يوم القيامة .. يرويه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .. لنعرف أن هؤلاء الذين يغووننا على المعصية أعجز من أن ينفعوننا يوم القيامة أو يخففوا عنا يوما من عذاب الله .

فمهما كان لهم من سلطان وقهر فى الدنيا فإن ذلك لن يغنى عنهم شيئا فى الآخرة .. ولن يعطيهم قدرة ولا قوة .. وفى ذلك نجد أن بعض الناس فى دفعهم الآخرين للمعصية يقولون لهم : أفعل هذا وأنا سأحمل وزرك يوم القيامة .. أنا سأحمل عنك الوزر .. ويكون هذا الكلام دفعا للنفس المترددة فى ارتكاب المعصية أن ترتكبها .. أياكم أن تصدقوا هذا الكلام .

صحيح أن هؤلاء الذين يغرونك بالمعصية سيحملون وزرا فوق أوزارهم أو معاصيهم .. ولكنك أنت مرتكب المعصية عليك

يوم الحشر

إثم ، وعليك عقاب ، وستحمل وزرك يوم القيامة .. ولذلك فإياك أن تصدق من يقول لك افعل هذا والاثم على .. أو افعل هذا وسأحمل وزرك .. بل على مشهد من أهل المحشر جميعا .. لن يستطيع هؤلاء الذين زينوا المعصية للآخرين أن يحملوا أوزار الذين ارتكبوا المعصية .. ويكون أولئك الذين ارتكبوها بلا معصية .. بل هذا يحملها وهذا يحملها .. وعندما يقفون أمام الله للحساب يرينا الحق ماذا سيحدث :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾
(الآية ١ من سورة سبا)

أى هذا يلقي اللوم على هذا وهذا يلقي اللوم على هذا حتى تصبح الفضيحة علنية .. وترى المحبة التي كانت بينهم على الشهوات وعلى الكفر وعلى المعصية قد ذهبت وانتهت .. فهناك نوعان من المحبة في الدنيا .. أناس أخذوا الحب في الله يذهبون للمسجد معا ويتدارسون العلم معا ، ويسمعون القرآن معا .. وإذا ارتكب أحدهم معصية نصحه الآخرون ومنعوه .. ومحبة أخرى بين الناس الذين يتفقون على قضاء السهرة الليلة في الخمر والميسر عند فلان .. أو قضاء ليلة في الاثم عند فلان .. يشجع بعضهم البعض على المعصية في مجالسهم .. هؤلاء أخلاء وهؤلاء أخلاء .. ولكن الذين اجتمعوا على الاثم والمعصية .. إذا وقفوا أمام الله هذا يلقي اللوم على ذاك .. وذاك يلقي اللوم على الآخر .. المحبة التي كانت بينهم على الشهوات انتهت .. والله سبحانه وتعالى يقول لنا لو ترون ماذا

يوم الحشر

سيتحقق في الآخرة .. أولئك الذين كانوا في الدنيا متففين على الشر .. تجمعهم المعصية .. يتلاومون اليوم ويحاول كل منهم أن يلقي اللوم على الآخر .. ماذا يقولون ؟

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣١)

(الآية ٣١ من سورة سبأ)

أى إن المستضعفين يحاولون إلقاء اللوم على ساداتهم وكبرائهم .. فيقولون لولا أنتم وغوايتكم لنا وتزيينكم للمعصية لكنا قد اتبعنا طريق الهدى وجئنا اليوم آمنين ..

ماذا يقول الذين استكبروا ؟ .. أيوافقون على هذا الرأي ؟ .. طبعاً لا .. في هذا الموقف العظيم يحاول كل واحد أن يبريء نفسه :

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنْحُنُّ صِدْدَنْكُرُ عَنِ الْهُدَى

بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ (٣٢)

(الآية ٣٢ من سورة سبأ)

هنا يحاول كبراء القوم وساداتهم أن ينفوا عن أنفسهم تهمة أنهم أضلوا المستضعفين فيقولون لهم .. لو أن في قلوبكم هداية لاهتديتم .

معنى الهداية

ما معنى الهداية ؟ .. الهداية هي أقصر طريق يؤدي إلى الغاية .. والله سبحانه وتعالى قد أوجد في الدنيا نوعين من الهداية .. هداية

يوم الحشر

دلالة وهذه للناس جميعا ، للمؤمن والكافر . . أى أن الله سبحانه وتعالى يبين للناس ، كل الناس ، طريق الهداية فى منهجه ، ويدلهم عليه بالرسول والأنبياء والصالحين وغيرهم . . يدل الناس جميعا على طريق الهداية ويبين لهم طريق الضلال . . حتى يعرفوا طريق الله ومنهجه . . ولا يأتوا يوم القيامة مجادلين . . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

(الآية ٥٢ من سورة الشورى)

أى تبين للناس طريق الحق وتدلهم عليه . . فإذا اتبع الناس طريق الحق جاءت الهداية الثانية ، وهى الزيادة فى الهداية فيحببهم فى طريق الايمان . . فيزيدهم الله هدى ويعينهم عليه . . مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(الآية ١٧ من سورة محمد)

هنا الحديث بين الذين استكبروا والذين استضعفوا عن هداية الدلالة . . فهم يقولون لهم :

﴿ أَنْحَنُ صَدَدَنَّاكَ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَ كُمْ ﴾

(الآية ٣٢ من سورة سبأ)

أى أن الله سبحانه وتعالى قد بين لكم طريق الهداية وذلكم عليه . . ولو أنكم أردتم أن تسيروا فيه ما كان فى استطاعتنا أن

يوم الحشر

نخرجكم عنه أو نمنعكم .. ذلك لأننا مهما فعلنا فإن قوة الايمان فى قلوبكم .. كانت ستجعلكم تصرون على أن تسيروا فى طريق الهدى .. وكان الله سيعينكم على ذلك .

﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الآية ٣٢ من سورة سبأ)

أى أنتم بطبيعتكم وحبكم للشهوات كنتم تريدون الضلالة .. وكنتم تريدون المعصية .. فما إن أشرنا إليكم حتى انطلقتم إلى طريق الشهوات والمعاصى بطبعكم واتباعكم للشهوات .. وإلا لو كان فى قلوبكم هداية ما سمعتم كلامنا واتبعتمونا .. ويرد الذين استضعفوا مرة أخرى :

﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾

(الآية ٣٣ من سورة سبأ)

أى أنكم كنتم تقعدون لنا ليلا ونهارا .. لتزينوا لنا المعصية ، وتزينوا لنا الكفر ، وتزينوا لنا عبادة غير الله .. أنتم الذين كنتم ليلا ونهارا تأتون إلينا تعدوننا بالمال لنكفر .. وتعدوننا بالمكافآت لتركب المعاصى .. وتبينون لنا ليلا ونهارا طرق الاغراء على المعصية .. ولا تملون أبدا حتى استجبنا لاغرائكم وعصينا .. وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضِ الْقَوْلِ ﴾

(الآية ٣١ من سورة سبأ)

يعنى هذا يقول وهذا يرد عليه .. ويعود الأول إلى الكلام ويعود

الثاني إلى الرد .

وأزواجهم ..

على أننا إذا انتقلنا إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة .. نأتى إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾

(الآية ٢٣ من سورة الصافات)

أى أن بعض الذين ظلموا لن يحشروا وحدهم ، بل سنحشر معهم زوجاتهم .. لماذا جعل الله الزوجات يحشرون مع أزواجهن الذين ظلموا .. بل قدم الزوجات على الشرك فقال :

﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة الصافات)

إن الزوجات متقدمات عن أولئك الذين كانوا يعبدون .. ومعنى هذا التقديم أن الزوجات متقدمات في الاغراء وفي التوجيه إلى الشر قبل الشيطان ، وما كان يزينه من عبادة غير الله .

الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا في هذا إلى أن هناك في بعض الأحيان شيطاننا ملازما للرجل في حياته ، ذلك الشيطان متشمل في عدد من الزوجات اللاتي ينتهزن فرصة حاجة الرجل إليهن ، ويزين له طريق الاثم والانحراف ليفعل ما يردن .. فإن كن في حاجة إلى المال أغرينه ليسرق أو يرتشى أو يختلس .. وإن كن في حاجة إلى المجون والاستهتار أغرينه ليحضر الحفلات التي تملؤها المعصية ..

يوم الحشر

وإن كن يردن الحياة الناعمة الرتبية أغرينه لارتكاب المعاصى كلها .. حتى يهوىء لمن هذه الحياة .. وإن كن يردن الانتقام من شخص ما أغرينه بالشر والكذب والتزوير وربما الجريمة ليصلن إلى هدفهن من شهوة الانتقام ولو بالزور والزيف .. ويطيع الزوج وينحرف ويفعل كل معصية .. يأتى الله سبحانه وتعالى ليفضح هؤلاء الزوجات يوم القيامة .. وعلى مشهد من خلقه جميعا وهم واقفون فى المحشر ينظرون .. فيصدر الأمر إلى ملائكته :

﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾
(الآيات ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ من سورة الصافات)

أى أوقفوهم فى مكان محدد حيث يكونون معروفين ومميزين من وسط الخلق جميعا .. لنسأهم عما فعلوا .. فكأنه فى هذه الحالة يكون الزوج والزوجة مسئولين معا عن الاثم الذى حدث .. الزوجة .. لها إثم وارتكبت معصية بالتحريض الذى قامت به والاعراء على الاثم الذى ظلت تطارد به زوجها وكأنها شيطان ملازم .. تأمره بالمعصية .. فإذا رفض جعلت حياته سوادا وجعلت معيشته جحيميا حتى يذعن ويفعل ما تريد .. والزوج هو الآخر مسئول وإنه كان لابد أن يقاوم وأن يتخلص من هذه الزوجة التى تريد أن تعيش مع المعصية .. والتى تريد الثياب الفاخرة والزينة بصرف النظر عن الطريق الذى ستأتى منه هذه الأشياء .. وهذا أحد

يوم الحشر

الأسباب في أن الله شرع الطلاق .. ولا عذر لأحد في أن يطيع مخلوقا في معصية الخالق .

وهنا في هذا الموقف تظهر العداوة بين الزوج وزوجته .. ويحاول كل منهما أن يتهم الآخر .. وحينئذ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَالِكٌ لَا تَنَاصِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(الآية ٢٥ من سورة الصافات)

أى أنكم كنتم حزبا واحدا .. كنتم يدا واحدة .. كان كل منكم يسرع إلى نجدة الآخر ، والوقوف معه على الباطل .. فمالكم اليوم لا ينصر كل منكم الآخر .. بل تقفون أمام الله لا يستطيع أحد منكم أن ينصر الآخر .. ثم يقول الحق :

﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مَسْئُورُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(الآية ٢٦ من سورة الصافات)

لماذا استسلموا ؟ .. مع أنهم كانوا في الدنيا يتعاونون على الاثم والعدوان .. وكانوا لا يستسلمون لشيء فإذا تعذر عليهم الحصول عليه عن طريق الرشوة أسرعوا إلى طريق الاختلاس أو إلى أى طريق آخر على أن هناك تساؤلات لا بد أن نجيب عنها .. ومن هذه التساؤلات حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن تدركه رحمة الله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا ألا أن يتغمدني الله برحمته) .
فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا بأننا لن ندخل الجنة

يوم الحشر

إلا برحمة الله وفضله .. فلماذا إذن الحساب مادامت أعمالنا
لا تدخلنا الجنة .. وما معنى الحديث الشريف .. وهل هناك حساب
للأنبياء في يوم القيامة .. وما معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَاءَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾

(الآية ٦٩ من سورة الزمر)

وكيف سيقيد الكفار بالسلاسل يوم القيامة .. والحوار الذي
سيدور بين أهل الجنة وأهل النار .. وهذا هو ما سنتناوله في الفصل
القادم إن شاء الله .



رقم الايداع ٢٣٣١ / ٩٣

I. S. B. N

977 - 08 - 0184 - 4